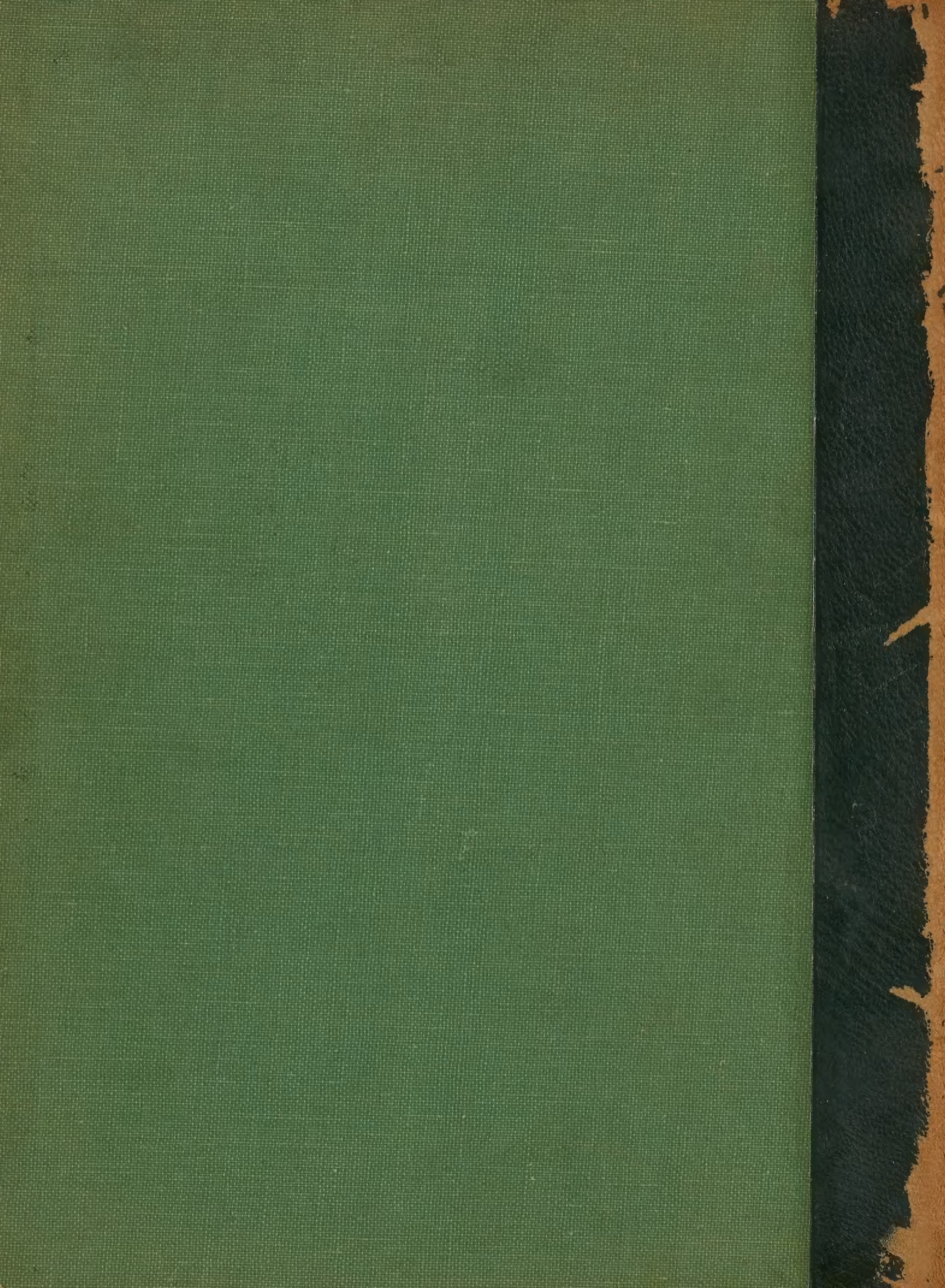
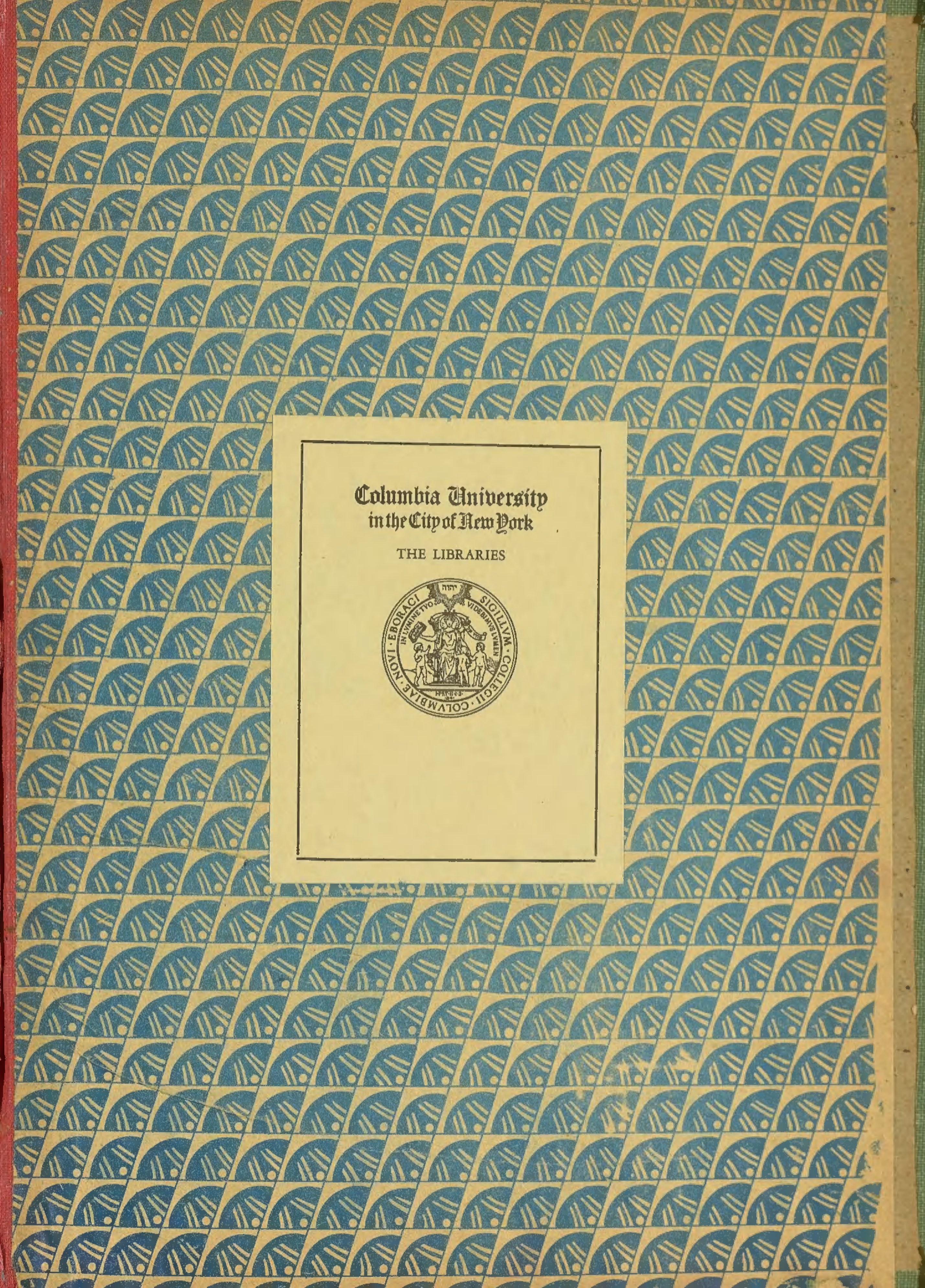




Columbia University
in the City of New York
THE LIBRARIES
SIGILLVM · COLLEGII · COLVMBIAE · NOVI · EBORACI
IN LVMINE TVO VIDEBIMVS LVMEN



البداية والنهاية

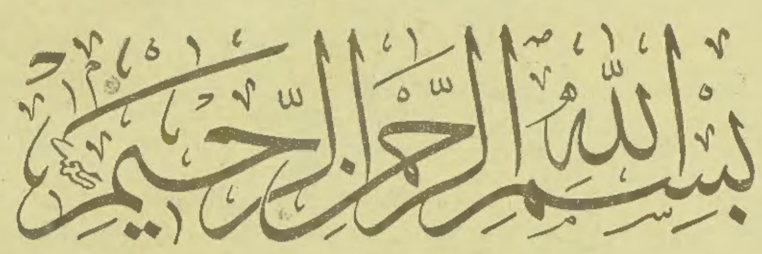
في التاريخ

للامام الحافظ المفسر المؤرخ عماد الدين أبي الفداء اسماعيل

ابن عمر بن كثير القرشي الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤ هـ

الجزء الثالث عشر

مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر



﴿ ثم دخلت سنة تسع وثمانين وخمسمائة ﴾

فيها كانت وفاة السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله تعالى .

استهلت هـذه السنة وهو فى غاية الصحة والسلامة ، وخرج هو وأخوه العادل إلى الصيد شرقى دمشق ، وقد اتفق الحال بينه و بين أخيه أنه بعد ما يفرغ من أمر الفرنج يسير هو إلى بلاد الروم ، ويبعث أخاه إلى بغـداد ، فاذا فرغا من شأنهما سارا جميعاً إلى بلاد آذربيجان ، بلاد العجم ، فانه ليس دونها أحـد يمانع عنها ، فلما قـدم الحجيج فى يوم الاثنين حادى عشر صفر خرج السلطان لتلقيهم ، وكان معه ابن أخيه سيف الاسلام ، صاحب اليمن ، فأكرمه والتزمه ، وعاد إلى القلعة فدخلها من باب الجديد ، فكان ذلك آخر ما ركب فى هذه الدنيا ، ثم إنه اعتراه حمى صفراوية ليلة السبت سادس عشر صفر ، فلما أصبح دخل عليه القاضى الفاضل وابن شداد وابنه الأفضل ، فأخذ يشكو إليهم كثرة قلقه البارحة وطاب له الحديث وطال مجلسهم عنـده ، ثم تزايد به المرض واستمر ، وقصده الأطباء فى اليوم الرابع ، ثم اعتراه يبس وحصل له عرق شديد بحيث نفذ إلى الأرض ، ثم قوى اليبس فأحضر الأمراء الأكابر فبويع لولده الأفضل نور الدين على ، وكان نائباً على دمشق ، وذلك عنـد ما ظهرت مخايل الضعف الشديد ، وغيبوبة الذهن فى بعض الأوقات ، وكان الذين يدخلون عليه فى هـذه الحال الفاضل وابن شـداد وقاضى البلد ابن الزكى ، ثم اشتد به الحال ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر ، واستدعى الشيخ أبا جعفر إمام الكلاسة ليبيت عنده يقرأ

القرآن ويلقنه الشهادة إذا جد به الأمر ، فذكر أنه كان يقرأ عنده وهو فى الغمرات فقرأ (هو الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة) فقال : وهو كذلك صحيح . فلما أذن الصبح جاء القاضى الفاضل فدخل عليه وهو فى آخر رمق ، فلما قرأ القارئ (لا إله إلا هو عليه توكلت) تبسم وتهلل وجهه وأسلم روحه إلى ربه سبحانه ، ومات رحمه الله ، وأكرم مثواه ، وجعل جنات الفردوس مأواه ، وكان له من العمر سبع وخمسون سنة ، لأنه ولد بتكريت فى شهور سنة ثنتين وثلاثين وخمسمائة ، رحمه الله ، فقد كان ردءاً للاسلام وحرزا وكهفا من كيد الكفرة اللئام ، وذلك بتوفيق الله له ، وكان أهل دمشق لم يصابوا بمثل مصابه ، وود كل منهم لوفداه بأولاده وأحبابه وأصحابه ، وقد غلقت الأسواق واحتفظ على الحواصل ، ثم أخذوا فى تجهيزه ، وحضر جميع أولاده وأهله ، وكان الذى تولى غسله خطيب البلد الفقيه الدولعى ، وكان الذى أحضر الكفن ومؤنة التجهيز القاضى الفاضل من صلب ماله الحلال ، هذا وأولاده الكبار والصغار يتباكون وينادون ، وأخذ الناس فى العويل والانتحاب والدعاء له والابتهال ، ثم أبرز جسمه فى نعشه فى تابوت بعد صلاة الظهر ، وأم الناس عليه القاضى ابن الزكى ثم دفن فى داره بالقلعة المنصورة ، ثم شرع ابنه فى بناء تربة له ومدرسة للشافعية بالقرب من مسجد القدم ، لوصيته بذلك قديماً ، فلم يكمل بناؤها ، وذلك حين قدم ولده العزيز وكان محاصراً لأخيه الافضل كما سيأتى بيانه ، فى سنة تسعين وخمسمائة ، ثم اشترى له الأفضل داراً شمالى الكلاسة فى وزان مازاده القاضى الفاضل فى الكلاسة ، فجعلها تربة ، هطلت سحائب الرحمة عليها ، ووصلت ألطاف الرأفة إليها . وكان نقله إليها فى يوم عاشوراء سنة اثنتين وتسعين ، وصلى عليه تحت النسر قاضى القضاة محمد بن على القرايبى ابن الزكى ، عن إذن الأفضل ، ودخل فى لحده ولده الأفضل فدفنه بنفسه ، وهو يومئذ سلطان الشام ، ويقال إنه دفن معه سيفه الذى كان يحضر به الجهاد ، وذلك عن أمر القاضى الفاضل ، وتفاءلوا بأنه يكون معه يوم القيامة يتوكأ عليه ، حتى يدخل الجنة إن شاء الله . ثم عمل عزاؤه بالجامع الأموى ثلاثة أيام ، يحضره الخاص والعام ، والرعية والحكام ، وقد عمل الشعراء فيه مراثى كثيرة من أحسنها ما عمله العماد الكاتب فى آخر كتابه البرق السامى ، وهى مائتا بيت واثنان ، وقد سردها الشيخ شهاب الدين أبو شامة فى الروضتين ، منها قوله :

شمل الهدى والملك عم شتاته * والدهر ساء وأقلعت حسناته
أين الذى مذ لم يزل مخشية * مرجوة رهباته وهباته ؟
أين الذى كانت له طاعاتنا * مبذولة ولربه طاعاته ؟
بالله أين الناصر الملك الذى * لله خالصة صفت نياته ؟
أين الذى ما زال سلطانا لنا * يرجى نداه وتتقى سطواته ؟

أين الذى شرف الزمان بفضله * وسمت على الفضلاء تشريفاته ؟
أين الذى عنت الفرنج لبأسه * ذلا ، ومنها أدركت ثاراته ؟
أغلال أعناق العدا أسيافه * أطواق أجياد الورى مناته

وله :
من للعلى من للذرى من للهدى * يحميه ؟ من للبأس من للنائل ؟
طلب البقاء لملكه فى آجل * إذ لم يثق ببقاء ملك عاجل
بحر أعاد البر بحراً بره * و بسيفه فتحت بلاد الساحل
من كان أهل الحق فى أيامه * و بعزه يردون أهل الباطل
وفتوحه والقدس من أبكارها * أبقت له فضلا بغير مساجل
ما كنت أستسقى لقبرك وابلا * ورأيت جودك مخجلا للوابل
فسقاك رضوان الاله لأننى * لا أرتضى سقيا الغمام الهاطل

﴿ ذكر تركته وشىء من ترجمته ﴾

قال العماد وغيره : لم يترك فى خزانته من الذهب سوى جرم واحد - أى دينار واحد - صوريا وستة وثلاثين درهماً . وقال غيره : سبعة وأربعين درهماً ، ولم يترك داراً ولا عقارا ولا مزرعة ولا بستانا ، ولا شيئا من أنواع الأملاك . هذا وله من الأولاد سبعة عشر ذكرا وابنة واحدة ، وتوفى له فى حياته غيرهم ، والذين تأخروا بعده ستة عشر ذكرا أكبرهم الملك الأفضل نور الدين على ، ولد بمصر سنة خمس وستين ليلة عيد الفطر ، ثم العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان ولد بمصر أيضاً فى جمادى الأولى سنة سبع وستين ، ثم الظافر مظفر الدين أبو العباس الخضر ، ولد بمصر فى شعبان سنة ثمان وستين ، وهو شقيق الأفضل ، ثم الظاهر غياث الدين أبو منصور غازى ، ولد بمصر فى نصف رمضان سنة ثمان وستين ، ثم العزيز فتح الدين أبو يعقوب إسحاق ، ولد بدمشق فى ربيع الأول سنة سبعين . ثم نجم الدين أبو الفتح مسعود ، ولد بدمشق سنة إحدى وسبعين وهو شقيق العزيز ، ثم الأغرشرف الدين أبو يوسف يعقوب ، ولد بمصر سنة ثنتين وسبعين ، وهو شقيق العزيز أيضاً ، ثم الزاهر مجير الدين أبو سليمان داود ، ولد بمصر سنة ثلاث وسبعين وهو شقيق الظاهر ، ثم أبو الفضل قطب الدين موسى ، وهو شقيق الأفضل ، ولد بمصر سنة ثلاث وسبعين أيضا ، ثم لقب بالمظفر أيضاً ، ثم الأشرف معز الدين أبو عبد الله محمد ، ولد بالشام سنة خمس وسبعين ، ثم المحسن ظهير الدين أبو العباس أحمد ولد بمصر سنة سبع وسبعين ، وهو شقيق الذى قبله ، ثم المعظم فخر الدين أبو منصور توران شاه ولد بمصر فى ربيع الأول سنة سبع وسبعين ، وتأخرت وفاته إلى سنة ثمان وخمسين وستمائة ، ثم الجوال ركن الدين أبو سعيد أيوب ولد سنة ثمان وسبعين ، وهو شقيق للمعز ، ثم الغالب نصير

الدين أبوالفتح ملك شاه ،ولد فى رجب سنة ثمان وسبعين وهو شقيق المعظم ، ثم المنصور أبو بكر أخو المعظم لأبويه ، ولد بحران بعد وفاة السلطان ، ثم عماد الدين شادى لأم ولد ، ونصير الدين مروان لأم ولد أيضاً . وأما البنت فهى مؤنسة خاتون تزوجها ابن عمها الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر ابن أيوب رحمهم الله تعالى .

و إنما لم يخلف أموالا ولا أملاكا لجوده وكرمه و إحسانه إلى أمرائه وغيرهم ، حتى إلى أعدائه ؛ وقد تقدم من ذلك ما يكفى ، وقد كان متقللا فى ملبسه ، ومأكله ومركبه ، وكان لا يلبس إلا القطن والكتان والصوف ، ولا يعرف أنه تخطى إلى مكروه ، ولا سيما بعد أن أنعم الله عليه بالملك ، بل كان همه الأكبر ومقصده الأعظم نصرة الاسلام ، وكسر أعدائه اللئام ، وكان يعمل رأيه فى ذلك وحده ، ومع من يثق به ليلا ونهاراً ، وهذا مع ما لديه من الفضائل والفواضل ، والفوائد الفرائد ، فى اللغة والأدب وأيام الناس ، حتى قيل إنه كان يحفظ الحماسة بتمامها ، وكان مواظباً على الصلوات فى أوقاتها فى الجماعة ، يقال إنه لم تفته الجماعة فى صلاة قبل وفاته بدهر طويل ، حتى ولا فى مرض موته ، كان يدخل الامام فيصلى به ، فكان يتجشم القيام مع ضعفه ، وكان يفهم ما يقال بين يديه من البحث والمناظرة ، و يشارك فى ذلك مشاركة قريبة حسنة ، و إن لم يكن بالعبارة المصطلح عليها ، وكان قد جمع له القطب النيسابورى عقيدة فكان يحفظها و يحفظها من عقل من أولاده ، وكان يحب سماع القرآن والحديث والعلم ، و يواظب على سماع الحديث ، حتى أنه يسمع فى بعض مصافه جزء وهو بين الصفين فكان يتبجح بذلك و يقول : هذا موقف لم يسمع أحد فى مثله حديثا ، وكان ذلك باشارة العماد الكاتب. وكان رقيق القلب سريع الدمعة عند سماع الحديث ، وكان كثير التعظيم لشرائع الدين . كان قد صحب ولده الظاهر وهو بحلب شاب يقال له الشهاب السهروردى ، وكان يعرف الكيميا وشيئاً من الشعبذة والأبواب النيرنجيات ، فافتتن به ولد السلطان الظاهر ، وقربه وأحبه ، وخالف فيه حملة الشرع ، فكتب إليه أن يقتله لا محالة ، فصلبه عن أمر والده وشهره ، و يقال بل حبسه بين حيطين حتى مات كمدا ، وذلك فى سنة ست وثمانين وخمسمائة ، وكان من أشجع الناس وأقواهم بدنا وقلباً ، مع ما كان يعترى جسمه من الأمراض والأسقام ، ولاسيما فى حصار عكا ، فانه كان مع كثرة جموعهم وأمدادهم لا يزيده ذلك إلا قوة وشجاعة ، وقد بلغت جموعهم خمسمائة ألف مقاتل ، و يقال ستمائة ألف ، فقتل منهم مائة ألف مقاتل .

ولما انفصل الحرب وتسلموا عكا وقتلوا من كان بها من المسلمين وساروا برمتهم إلى القدس جعل يسايرهم منزلة منزلة ، وجيوشهم أضعاف أضعاف من معه ، ومع هذا نصره الله وخذلهم ، وسبقهم إلى القدس فصانه وحماه منهم ، ولم يزل بجيشه مقيما به يرهبهم و يرعبهم و يغلبهم و يسلبهم حتى تضرعوا إليه

وخضعوا لديه ، ودخلوا عليه فى الصلح ، وأن تضع الحرب أو زارها بينهم و بينه ، فأجابهم إلى ماسألوا على الوجه الذى أراده ، لا على ما يريدونه ، وكان ذلك من جملة الرحمة التى رحم الله بها المؤمنين ، فانه ما انقضت تلك السنون حتى ملك البلاد أخوه العادل فعز به المسلمون وذل به الكافرون ، وكان سخيا جبيا ضحوك الوجه كثير البشر ، لا يتضجر من خير يفعله ، شديد المصابرة على الخيرات والطاعات ، فرحمه الله [وقد ذكر الشيخ شهاب الدين أبو شامة طرفا صالحاً من سيرته وأيامه ، وعدله فى سريرته وعلانيته ، وأحكامه .

فصل[(١)]]

وكان قد قسم البلاد بين أولاده ، فالديار المصرية لولده العزيز عماد الدين أبى الفتح ، ودمشق وما حولها لولده الأفضل نور الدين على ، وهو أكبر أولاده ، والمملكة الحلبية لولده الظاهر غازى غياث الدين ، ولأخيه العادل الكرك والشوبك و بلاد جعبر و بلدان كثيرة قاطع الفرات ، وحماه ومعاملة أخرى معها للملك المنصور محمد بن تقى الدين عمر بن أخى السلطان ، وحمص والرحبة وغيرها لأسد الدين بن شيركوه بن ناصر الدين بن محمد بن أسد الدين شيركوه الكبير ، نجم الدين أخى أبيه نجم الدين أيوب. واليمن بمعاقله ومخاليفه جميعه فى قبضة السلطان ظهير الدين سيف الاسلام طغتكين ابن أيوب ، أخى السلطان صلاح الدين ، و بعلبك وأعمالها للامجد بهرام شاه بن فروخ شاه ، و بصرى وأعمالها للظافر بن الناصر . ثم شرعت الأمور بعد موت صلاح الدين تضطرب وتختلف فى جميع هذه الممالك ، حتى آل الأمر واستقرت الممالك واجتمعت الكلمة على الملك العادل أبى بكر صلاح الدين ، وصارت المملكة فى أولاده كما سيأتى قريباً إن شاء الله تعالى .

وفيها جدد الخليفة الناصر لدين الله خزانة كتب المدرسة النظامية ببغداد ، ونقل إليها ألوفا من الكتب الحسنة المثمنة وفى المحرم منها جرت ببغداد كائنة غريبة وهى أن ابنة لرجل من التجار فى الطحين عشقت غلام أبيها فلما علم أبوها بأمرها طرد الغلام من داره فواعدته البنت ذات ليلة أن يأتيها فجاء إليها مختفيا فتركته فى بعض الدار ، فلما جاء أبوها فى أثناء الليل أمرته فنزل فقتله ، وأمرته بقتل أمها وهى حبلى ، وأعطته الجارية حليا بقيمة ألفى دينار ، فأصبح أمره عند الشرطة فمسك وقتل قبحه الله ، وقد كان سيده من خيار الناس وأكثرهم صدقة و براً ، وكان شابا وضىء الوجه رحمه الله .

وفيها درس بالمدرسة الجديدة عند قبر معروف الكرخى الشيخ أبو على التوبابى وحضر عنده القضاة والأعيان ، وعمل بها دعوة حافلة .

---

(١) بدل ما بين القوسين بياض بالنسخة المصرية .

ومن توفى فيها من الأعيان .

﴿ السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ﴾

ابن شاذى . وقد تقدمت وفاته مبسوطة ،

﴿ والأمير بكتمر صاحب خلاط ﴾

قتل فى هذه السنة . وكان من خيار الملوك وأشجعهم وأحسنهم سيرة رحمه الله .

﴿ والأتابك عز الدين مسعود ﴾

ابن مودود بن زنكى . صاحب الموصل نحواً من ثلاث عشرة سنة، من خيار الملوك . كان يشبه نور الدين الشهيد عمه ، ودفن بتربته عند مدرسة أنشأها بالموصل أثابه الله .

﴿ وجعفر بن محمد بن فطيرا ﴾

أبو الحسن أحد الكتاب بالعراق . كان ينسب إلى التشيع ، وهذا كثير فى أهـل تلك البلاد لا أكثر الله منهم . جاءه رجل ذات يوم فقال له رأيت البارحـة أمير المؤمنين عليا فى المنام ، فقال لى : اذهب إلى ابن فطيرا فقـل له يعطيك عشرة دنانير ، فقال له ابن فطيرا . متى رأيته ؟ قال : أول الليـل . فقال ابن فطيرا وأنا رأيته آخر الليل فقال لى : إذا جاءك رجل من صفته كذا وكذا فطلب منك شيئا فلا تعطه . فأدبر الرجل موليا فاستدعاه و وهبه شيئا، ومن شعره فيما أورده ابن الساعى وقد تقدم ذلك لغيره :

ولما سبرت الناس أطلب منهم * أخاثقة عند اعتراض الشدائد
وفكرت فى يومى سرورى وشدتى * وناديت فى الأحياء هل من مساعد؟
فلم أر فيما ساءنى غير شامت * ولم أر فيما سرنى غير حاسد

﴿ يحيى بن سعيد بن غازى ﴾

أبو العباس البصرى النجرانى صاحب المقامات . كان شاعراً أديباً فاضلا بليغا ، له اليد الطولى فى اللغة والنظم ، ومن شعره قوله :

غناء خود ينساب لطفا * بلا عناء فى كل أذن
ما رده قط باب سمع * ولا أتى زائراً باذن

﴿ السيدة زبيدة ﴾

بنت الامام المقتفى لأمر الله ، أخت المستنجد وعمـة المستضىء ، كانت قد عمرت طويلا ولها صدقات كثيرة دارة . وقد تزوجها فى وقت السلطان مسعود على صداق مائة ألف دينار ، فتوفى قبل أن يدخل بها ، وقد كانت كارهة لذلك ، فحصل مقصودها وطلبتها .

﴿ الشيخة الصالحة فاطمة خاتون ﴾

بنت محمد بن الحسن العميد ، كانت عابدة زاهدة ، عمرت مائة سنة وست سنين . كان قد تزوجها في وقت أمير الجيوش مطر وهي بكر ، فبقيت عنده إلى أن توفي ولم تتزوج بعده . بل اشتغلت بذكر الله عز وجل والعبادة ، رحمها الله .

وفيها أنفذ الخليفة الناصر العباسي إلى الشيخ أبي الفرج بن الجوزي يطلب منه أن يزيد على أبيات عدي بن زيد المشهورة ماينا سبها من الشعر ، ولو بلغ ذلك عشر مجلدات ، وهي هذه الأبيات:

أيها الشامت المعير بالدهـ * ـر أأنت المبرأ الموفور؟
أم لديك العهد الوثيق من الـ * أيام . بل أنت جاهل مغرور
من رأيت المنون خلدت أم من * ذا عليه من أن يضام خفير
أين كسرى كسر الملوك أبو * ساسان أم أين قبله سابور؟
و بنوا الأصفر الملوك ملوك الر * وم لم يبق منهم مذكور
وأخو الحضر إذ بناه و إذ * دجلة تجبى إليه والخابور
شاده مرمرا وجلله كلساً * فللطير في ذراه وكور
لم تهبه ريب المنون فزا * ل الملك عنه فبابه مهجور
وتذكر رب الخورنق إذ * أشرف يوماً وللهندى تكفير
سره حاله وكثرة ما * يملك والبحر معرضاً والسدير
فارعوى قلبه وقال وما * غبطة حي إلى الممات يصير
ثم بعد النعيم والملك والنهى والـ * أمر وارتهم هناك قبور
ثم أضحوا كأنهم أورق جفـ * ـت فألوت بها الصبا والدبور
غير أن الأيام تختص بالمرء * وفيها لعمرى العظات والتفكير

﴿ ثم دخلت سنة تسعين وخمسمائة ﴾

لما استقر الملك الأفضل بن صلاح الدين مكان أبيه بدمشق ، بعث بهدايا سنية إلى باب الخليفة الناصر ، من ذلك سلاح أبيه وحصانه الذي كان يحضر عليه الغزوات ، ومنها صليب الصلبوت الذي استلبه أبوه من الفرنج يوم حطين ، وفيه من الذهب ماينيف على عشرين رطلا مرصعاً بالجواهر النفيسة . وأربع جواري من بنات ملوك الفرنج . وأنشأ له العماد الكاتب كتابا حافلا يذكر فيه التعزية بأبيه ، والسؤال من الخليفة أن يكون في الملك من بعده . فأجيب إلى ذلك .

ولما كان شهر جمادى الأولى قدم العزيز صاحب مصر إلى دمشق ليأخذها من أخيه الأفضل

نخيم على الكسوة يوم السبت سادس جمادى ،وحاصر البلد ، فمانعه أخوه ودافعه عنها ،فقطع الأنهار ونهبت الثمار ، واشتد الحال ، ولم يزل الأمر كذلك حتى قدم العادل عمهما فأصلح بينهما ، ورد الأمر للألفة بعد اليمين على أن يكون للعزيز القدس وما جاور فلسطين من ناحيته أيضا ، وعلى أن يكون جبلة واللاذقية للظاهر صاحب حلب ، وأن يكون لعمهما العادل أقطاعه الأول ببلاد مصر مضافا إلى مابيده من الشام والجزيرة كحران والرها وجعبر وماجاور ذلك ، فاتفقوا على ذلك ، وتزوج العزيز بابنة عمه العادل ، ومرض ثم عوفى وهو مخيم بمرج الصفر ، وخرجت الملوك لتهنئته بالعافية والتزويج والصلح ، ثم كر راجعاً إلى مصر لطول شوقه إلى أهله وأولاده ، وكان الأفضل بعد موت أبيه قد أساء التدبير فأبعد أمراء أبيه وخواصه ، وقرب الأجانب وأقبل على شرب المسكر واللهو واللعب ، واستحوذ عليه وزيره ضياء الدين ابن الأثير الجزرى ، وهو الذى كان يحدوه الى ذلك، فتلف وأتلفه ، وأضل وأضله ، وزالت النعمة عنهما كما سيأتى .

وفيها كانت وقعة عظيمة بين شهاب الدين ملك غزنة و بين كفار الهند ، أقبلوا إليه فى ألف ألف مقاتل ، ومعهم سبعمائة فيل منها فيل أبيض لم ير مثله ، فالتقوا فاقتتلوا قتالا شديداً لم ير مثله ، فهزمهم شهاب الدين عند نهر عظيم يقال له الملاحون ، وقتل ملكهم واستحوذ على حواصله وحواصل بلاده وغنم فيلتهم ودخل بلد الملك الكبرى ، فحمل من خزانته ذهبا وغيره على ألف وأربعمائة جمل ، ثم عاد إلى بلاده سالما منصورا .

وفيها ملك السلطان خوارزم شاه تكش - ويقال له ابن الأصباعى - بلاد الرى وغيرها ، واصطلح مع السلطان طغرلبك السلجوقى وكان قد تسلم بلاد الرى وسائر مملكة أخيه سلطان شاه وخزائنه ، وعظم شأنه ، ثم التقى هو والسلطان طغرلبك فى ربيع الأول من هذه السنة . فقتل السلطان طغرلبك ، وأرسل رأسه إلى الخليفة ، فعلق على باب النوبة عدة أيام ، وأرسل الخليفة الخلع والتقاليد إلى السلطان خوارزم شاه ، وملك همدان وغيرها من البلاد المتسعة .

وفيها نقم الخليفة على الشيخ أبى الفرج بن الجوزى وغضب عليه ، ونفاه إلى واسط ، فمكث بها خمسة أيام لم يأكل طعاما ، وأقام بها خمسة أعوام يخدم نفسه ويستقى لنفسه الماء ، وكان شيخا كبيرا قد بلغ ثمانين سنة ، وكان يتلو فى كل يوم وليلة ختمة . قال : ولم أقرأ يوسف لوجدى على ولدى يوسف ، إلى أن فرج الله كما سيأتى إن شاء الله .

وفيها توفى من الأعيان ﴿ أحمد بن إسماعيل بن يوسف ﴾

أبو الخير القزوينى الشافعى المفسر ، قدم بغداد ووعظ بالنظامية ، وكان يذهب إلى قول الأشعرى فى الأصول ، وجلس فى يوم عاشوراء فقيل له : العن يزيد بن معاوية ، فقال ، ذاك إمام

مجتهد . فرماه الناس بالآجر فاختفى ثم هرب إلى قزوين .

﴿ ابن الشاطبى ناظم الشاطبية ﴾

أبوالقاسم بن قسيرة بن أبى القاسم خلف بن أحمد الرعينى الشاطبى الضرير ، مصنف الشاطبية فى القراءات السبع ، فلم يسبق إليها ولا يلحق فيها ، وفيها من الرموز كنوز لا يهتدى إليها إلا كل ناقد بصير ، هذا مع أنه ضرير ولد سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة ، و بلده شاطبة - قرية شرقى الأندلس - كان فقيرا ، وقد أريد أن يلى خطابة بلده فامتنع من ذلك لأجل مبالغة الخطباء على المنابر فى وصف الملوك . خرج الشاطبى إلى الحج فقدم الأسكندرية سنة ثنتين وسبعين وخمسمائة ، وسمع على السلفى وولاه القاضى الفاضل مشيخة الاقراء بمدرسته ، وزار القدس وصام به شهر رمضان ، ثم رجع إلى القاهرة ، فكانت وفاته بها فى جمادى الآخرة من هذه السنة . ودفن بالقرافة بالقرب من التربة الفاضلية . وكان ديناً خاشعا ناسكا كثير الوقار ، لا يتكلم فيما لا يعنيه ، وكان يتمثل كثيراً بهذه الأبيات . وهى لغز فى النعش ، وهى لغيره :

أتعرف شيئا فى السماء يطير . إذا سار هاج الناس حيث يسير

فتلقاه مركوبا وتلقاه راكباً * وكل أمير يعتليه أسير

يحث على التقوى ويكره قربه . وتنفر منه النفس وهو نذير

ولم يستزر عن رغبة فى زيارة . ولكن على رغم المزور يزور

﴿ ثم دخلت سنة إحدى وتسعين وخمسمائة ﴾

فيها كانت وقعة الزلاقة ببلاد الأندلس شمالى قرطبة ، بمرج الحديد ، كانت وقعة عظيمة نصر الله فيها الاسلام وخذل فيها عبدة الصلبان ، وذلك أن القيش ملك الفرنج ببلاد الأندلس . ومقر ملكه بمدينة طليطلة ، كتب إلى الأمير يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ملك الغرب يستنخيه و يستدعيه و يستحثه إليه، ليكون من بعض من يخضع له فى مثالبه و فى قتاله . فى كلام طويل فيه تأنيب وتهديد و وعيد شديد ،فكتب السلطان يعقوب بن يوسف فى رأس كتابه فوق خطه (ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون) ثم نهض من فوره فى جنوده وعساكره ، حتى قطع الزقاق إلى الأندلس ، فالتقوا فى المحل المذكور ، فكانت الدائرة أولا على المسلمين ، فقتل منهم عشرون ألفا ، ثم كانت أخيراً على الكافرين فهزمهم الله وكسرهم وخذلهم أقبح كسرة ، وشر هزيمة وأشنعها . فقتل منهم مائة ألف وثلاثة وأربعون ألفا ، وأسر منهم ثلاثة عشر ألفا ، وغنم المسلمون منهم شيئا كثيرا . من ذلك مائة ألف خيمة وثلاثة وأربعون خيمة . ومن الخيل ستة وأربعون ألف فرس ، ومن البغال مائة ألف بغل ، ومن الحمر مثلها ،ومن السلاح التام سبعون ألفا ،

ومن العـدد شئ كثير ، وملك عليهم من حصونهم شيئا كثيرا ، وحاصر مدينتهم طليطلة مـدة ، ثم لم يفتحها فانفصل عنها راجعا إلى بلاده . ولما حصل للفيش ما حصل حلق لحيته ورأسه ونكس صليبه وركب حماراً وحلف لايركب فرساً ولا يتلذذ بطعام ولاينام مع امرأة حتى تنصره النصرانية ، ثم طاف على ملوك الفرنج فجمع من الجنود ما لا يعلمه إلا الله عز وجل ، فاستعد له السلطان يعقوب فالتقيا فاقتتلا قتالا عظيما لم يسمع بمثله ، فانهزم الفرنج أقبح من هزيمتهم الأولى، وغنموا منهم نظير ما تقدم أو أكثر ، واستحوذ السلطان على كثير من معاملهم وقلاعهم ، ولله الحمد والمنة ، حتى قيل إنه بيع الأسير بدرهم،والحصان بخمسة دراهم،والخيمة بدرهم ، والسيف بدون ذلك ثم قسم السلطان هذه الغنائم على الوجه الشرعى،فاستغنى المجاهدون إلى الأبد ، ثم طلبت الفرنج من السلطان الأمان فهادنهم عـلى وضع الحرب خمس سنين ، وإنما حمله عـلى ذلك أن رجلا يقال له عـلى بن إسحاق التوزى الذى يقال له المـكاثم ، ظهر ببلاد إفريقية فأحدث أمورا فظيعة فى غيبة السلطان واشتغاله بقتال الفرنج مـدة ثلاث سنين ، فأحدث هذا المارق التوزى بالبادية حوادث ، وعاث فى الأرض فسادا ، وقتل خلقا كثيراً ، وتملك بلادا .

وفى هذه السنة والتى قبلها استحوذ جيش الخليفة على بلاد الرى وأصبهان وهمدان وخوزستان وغيرها من البلاد ، وقوى جانب الخلافة على الملوك والممالك . وفيها خرج العزيز من مصر قاصدا دمشق ليأخذها من يد أخيه الأفضل ، وكان الأفضل قد تاب وأناب وأقلع عما كان فيه من الشراب واللهو واللعب ، وأقبل على الصيام والصلاة، وشرع بكتابة مصحف بيده ، وحسنت طريقته ، غيرأن وزيره الضيا الجزرى يفسد عليه دولته ، ويكدر عليـه صفوته ، فلما بلغ الأفضل إقبال أخيه نحوه سار سريعاً إلى عمـه العادل وهو بجعبر فاستنجده فسار معه وسبقه إلى دمشق ، وراح الأفضل أيضاً إلى أخيه الظاهر بحلب، فسارا جميعاً نحو دمشق ، فلما سمع العزيز بذلك وقد اقترب من دمشق ، كر راجعاسريعاً إلى مصر ، وركب وراءه العادل والأفضل ليأخـذا منه مصر ، وقد اتفقا على أن يكون ثلث مصر للعادل وثلثاها للأفضل، ثم بدا للعادل فى ذلك فأرسل للعزيز يثبته ، وأقبل على الأفضل يثبطه ، وأقاما على بلبيس أياما حتى خرج إليهما القاضى الفاضل من جهة العزيز ، فوقع الصلح على أن يرجع القدس ومعاملتها للأفضل ، ويستقر العادل مقيما بمصر على إقطاعه القديم ، فأقام العادل بها طمعاًفيهاو رجع العادل إلى دمشق بعدماخرج العزيزلتوديعه، وهى هدنة على قذاء وصلح على دخن .

وفيها توفى من الأعيان . ﴿ على بن حسان بن سافر ﴾

أبو الحسن الكاتب البغدادى ، كان أديبا شاعرا . من شعره قوله :

نفى رقادى ومضى * برق بسلع ومضا * لاح كما سلت يدالـ * أسود عضبا أبيضا

كأنه الأشهب فى ■ النقع إذا ما ركضا * يبدو كما تختال الر ■ يح على جمر الغضا
فتحسب الريح أبـ * ـدا نظرا وغمضا[1] ■ أو شعلة النار علا ■ لهيبها وانخفضا
آه له من بارق * ضاء على ذات الأضا * أذكرنى عهدا مضى * على الغوير وانقضى
فقال لى قلبى أتو * صى حاجة وأعرضا ■ يطلب من أمرضه * فديت ذاك الممرضا
يا غرض القلب لقد * غادرت قلبى غرضا ■ لأسهم كأنما * يرسلها صرف القضا
فبت لا أرتاب فى ■ أن رقادى قد قضى * حتى قفا الليل وكاد * الليل أن ينقرضا
وأقبل الصبح لاط ■ راف الدجا مبيضا * وسل فى الشرق على الغ * رب ضياء وانقضى

﴿ ثم دخلت سنة ثنتين وتسعين وخمسمائة ﴾

فى رجب منها أقبل العزيز من مصر ومعه عمه العادل فى عساكر ، ودخلا دمشق قهرا ، وأخرجا منها الأفضل ووزيره الذى أساء تدبيره ، وصلى العزيز عند تربة والده صلاح ، وخطب له بدمشق ، ودخل القلعة المنصورة فى يوم وجلس فى دار العدل للحكم والفصل ، وكل هذا وأخوه الأفضل حاضر عنده فى الخدمة ، وأمر القاضى محيى الدين بن الزكى بتأسيس المدرسة العزيزية إلى جانب تربة أبيه وكانت داراً للأمير عز الدين شامة ، ثم استناب على دمشق عمه الملك العادل ورجع إلى مصر يوم الاثنين تاسع شوال ، والسكة والخطبة بدمشق له ، وصولح الأفضل على صرخد ، وهرب وزيره ابن الأثير الجزرى إلى جزيرته ، وقد أتلف نفسه وملكه ، وملكه بجريرته ، وانتقل الأفضل إلى صرخد بأهله وأولاده ، وأخيه قطب الدين .

وفى هذه السنة هبت ريح شديدة سوداء مدلهمة بأرض العراق ومعها رمل أحمر ، حتى احتاج الناس إلى السرج بالنهار . وفيها ولى قوام الدين أبو طالب يحيى بن سعد بن زيادة كتاب الانشاء ببغداد ، وكان بليغا ، وليس هو كالفاضل . وفيها درس مجير الدين أبو القاسم محمود بن المبارك بالنظامية ، وكان فاضلا مناظرا .

وفيها قتل رئيس الشافعية بأصبهان محمود بن عبد اللطيف بن محمد بن ثابت الخجندى قتله ملك الدين سنقر الطويل ، وكان ذلك سبب زوال ملك أصبهان عن الديوان .

وفيها مات الوزير وزير الخلافة .

﴿ مؤيد الدين أبو الفضل ﴾

محمد بن على بن القصاب ، وكان أبوه يبيع اللحم فى بعض أسواق بغداد . فتقدم ابنه وساد أهل زمانه . توفى بهمدان وقد أعاد رساتيق كثيرة من بلاد العراق وخراسان وغيرها ، إلى ديوان الخلافة ، وكان ناهضاً ذا همة وله صرامة وشعر جيد . وفيها توفى .

(١) كذا بالأصل ، والبيت مضطرب .

﴿ الفخر محمود بن على ﴾

التوقانى الشافعى ، عائدا من الحج .والشاعر :

﴿ أبو الغنائم محمد بن على ﴾

ابن المعلم الهرثى من قرى واسط ، عن إحدى وتسعين سنة ، وكان شاعراً فصيحاً ، وكان ابن الجوزى فى مجالسه يستشهد بشئ من لطائف أشعاره ، وقد أورد ابن الساعى قطعة جيدة من شعره الحسن المليح . وفيها توفى .

﴿ الفقيه أبو الحسن على بن سعيد ﴾

ابن الحسن البغدادى المعروف بابن العريف ، ويلقب بالبيع الفاسد ، كان حنبليا ثم اشتغل شافعيا على أبى القاسم بن فضلان ، وهو الذى لقبه بذلك لكثرة تكراره على هذه المسألة بين الشافعية والحنفية ، ويقال إنه صار بعد هذا كله إلى مذهب الامامية فالله أعلم . وفيها توفى

﴿ الشيخ أبو شجاع ﴾

محمد بن على بن مغيث بن الدهان الفرضى الحاسب المؤرخ البغدادى ، قدم دمشق وامتدح الكندى أبو اليمن زيد بن الحسن فقال :

يا زيد زادك ربى من مواهبه * نعماً يقصر عن إدراكها الأمل
لا بدل الله حالا قد حباك بها * ما دار بين النحاة الحال والبدل
النحو أنت أحق العالمين به * أليس باسمك فيه يضرب المثل

﴿ ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة ﴾

فيها ورد كتاب من القاضى الفاضل إلى ابن الزكى يخبره فيه « أن فى ليلة الجمعة التاسع من جمادى الآخرة أتى عارض فيه ظلمات متكاثفة ، وبروق خاطفة ، ورياح عاصفة ، فقوى الجو بها واشتد هبوبها قد أثبت لها أعنة مطلقات ، وارتفعت لها صفقات ، فرجفت لها الجدران واصطفقت ، وتلاقت على بعدها واعتنقت ، وثار السماء والأرض عجاجاً ، حتى قيل إن هذه على هذه قد انطبقت ، ولا يحسب إلا أن جهنم قد سال منها واد ، وعدا منها عاد ، وزاد عصف الريح إلى أن أطفأ سرج النجوم ، ومزقت أديم السماء ، ومحت ما فوقه من الرقوم ، فكنا كما قال تعالى (يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق) ويردون أيديهم على أعينهم من البوارق ، لا عاصم لخطف الأبصار ، ولا ملجأ من الخطب إلا معاقل الاستغفار . وفر الناس نساء ورجالا وأطفالا ، ونفروا من دورهم خفافا وثقالا ، لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، فاعتصموا بالمساجد الجامعة ، وأذعنوا للنازلة بأعناق خاضعة ، بوجوه عانية ، ونفوس عن الأهل والمال سالية ، ينظرون من طرف خفى ، ويتوقعون أى خطب جلى ،

قد انقطعت من الحياة علقهـم ، وعميت عن النجاة طرقهـم ، ووقعت الفكرة فيما هم عليه قادمون ، وقاموا على صلاتهم وودوا لو كانوا من الذين عليها دائمون ، إلى أن أذن بالركود ، وأسعف الهاجدون بالمجود ، فأصبح كل مسلم على رفيقه، ويهنيه بسلامة طريقه ، ويرى أنه قد بعث بعد النفخة ، وأفاق بعـد الصيحة والصرخة ، وأن الله قد رد له الـكرة ، وأحياه بعـد أن كاد يأخذه على غرة ، ووردت الأخبار بأنها قد كسرت المراكب فى البحار ، والأشجار فى القفار ، وأتلفت خلقا كثيرا من السفار ، ومنهم من فر فلا ينفعه الفرار . إلى أن قال « ولا يحسب المجلس أنى أرسلت القلم محرفا والعلم مجوفا ، فالأمر أعظم ، ولكن الله سلم ، ونرجو أن الله قد أيقظنا عتابه وعظنا ، ونبهنا بما فيه ولهنا ، فما من عباده إلا من رأى القيامة عيانا ، ولم يلتمس عليها من بعـد ذلك برهانا ، إلا أهل بلدنا فما قص الأولون مثلها فى المثلات ، ولا سبقت لها سابقة فى المعضلات ، والحمد لله الذى من فضله قد جعلنا نخبر عنها ، ولا يخبر عنا ، ونسأل الله أن يصرف عنا عارض الحرص والغرور ، ولا يجعلنا من أهل الهلاك والثبور » .

وفيها كتب القـاضى الفاضل من مصر إلى الملك العادل بدمشق يحثه على قتال الفرنج ، ويشكره عـلى ما هو بصدده من محاربتهم ، وحفظ حوزة الاسلام ، فمن ذلك قوله فى بعض تلك الـكتب « هذه الأوقات التى أنتم فيها عرائس الأعمار ، وهذه النفقات التى تجرى على أيديكم مهور الحور فى دار القرار ، وما أسعد من أودع يد الله ما فى يديه ، فتلك نعم الله عليه ، وتوفيقه الذى ما كل من طلبه وصل إليه ، وسواد العجاج فى هذه المواقف بباطن ما سودته الذنوب من الصحائف ، فما أسعد تلك الوقفات وما أعود بالطمأنينة تلك الرجعات » . وكتب أيضاً «أدام الله ذلك الاسم تاجاً عـلى مفارق المنابر والطروس ، وحياه للدنيا وما فيها من الأجساد والنفوس ، وعرف المملوك من الأمر الذى اقتضته المشاهدة ، وجرت به العافية فى سرور ، ولا يزيد على سيبه الحال بقوله :

ألم تر أن المرء تدوى يمينه * فيقطعها عمداً ليسلم سائره

ولو كان فيها تدبير لـكان مولانا سبق إليـه ، ومن قلم من الاصبع ظفراً فقد جلب إلى الجسد بفعله نفعاً ، ودفع عنـه ضرراً ، وتجشم المـكروه ليس بضائر إذا كان ما جلبه سـببا إلى المحمود ، وآخر سنوه أول كل غزوه ، فلا يسأم مولانا نيـة الرباط وفعلها ، وتجشم الكلف وحملهـا ، فهو إذا صرف وجهه إلى وجه واحد وهو وجه الله ، صرف الوجوه إليـه كلها (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين الله) .

وفى هـذه السنة انقضت مدة الهدنة التى كان عقدها الملك صلاح الدين للفرنج فأقبلوا بحـدهم وحديدهم ، فتلقاهم الملك العادل بمرج عكا فكسرهم وغنمهم ، وفتح يافا عنوة ولله الحمد والمنة . وقد كانوا كتبوا إلى ملك الألمان يستنهضونه لفتح بيت المقدس فقدر الله هلاكه سريعاً ، وأخذت الفرنج

فى هذه السنة بيروت من نائبها عز الدين شامة من غير قتال ولا نزال ، ولهذا قال بعض الشعراء فى الأمير شامة

سلم الحصن ما عليك ملامه ■ ما يلام الذى يروم السلامة

فتعطى الحصون من غير حرب * سنة سنها ببيروت شامة

ومات فيها ملك الفرنج كندهرى ، سقط من شاهق فمات ، فبقيت الفرنج كالغنم بلا راعى ، حتى ملكوا عليهم صاحب قبرس وزوجوه بالملكة امرأة كندهرى ، وجرت خطوب كثيرة بينهم وبين العادل ، ففى كلها يستظهر عليهم ويكسرهم ، ويقتل خلقا من مقاتلتهم ، ولم يزالوا كذلك معه حتى طلبوا الصلح والمهادنة ، فعاقدهم على ذلك فى السنة الآتية .

وفيها توفى ملك اليمن . ﴿ سيف الاسلام طغتكين ﴾

أخو السلطان صلاح الدين ، وكان قد جمع أموالا جزيلة جداً ، وكان يسبك الذهب مثل الطواحين ويدخره كذلك ، وقام فى الملك بعده ولده إسماعيل ، وكان أهوج قليل التدبير ، فحمله جهله على أن ادعى أنه قرشى أموى ، وتلقب بالهادى ، فكتب إليه عمه العادل ينهاه عن ذلك ويتهدده بسبب ذلك ، فلم يقبل منه ولا التفت إليه ، بل تمادى وأساء التدبير إلى الأمراء والرعية ، فقتل وتولى بعده مملوك من مماليك أبيه . وفيها توفى :

﴿ الأمير الكبير أبو الهيجاء السمين الكردى ﴾

كان من أكابر أمراء صلاح الدين ، وهو الذى كان نائبا على عكا ، وخرج منها قبل أخذ الافرنج ، ثم دخلها بعد المشطوب ، فأخذت منه ، واستنابه صلاح الدين على القدس ، ثم لما أخذها العزيز عزل عنها فطلب إلى بغداد فأكرم إكراما زائدا ، وأرسله الخليفة مقدماً على العساكر إلى همدان ، فمات هناك . وفيها توفى .

﴿ قاضى بغداد أبو طالب على بن على بن هبة الله بن محمد ﴾

البخارى ، سمع الحديث على أبى الوقت وغيره ، وتفقه على أبى القاسم بن فضلان ، وتولى نيابة الحكم ببغداد ، ثم استقل بالمنصب وأضيف إليه فى وقت نيابة الوزارة ، ثم عزل عن القضاء ثم أعيد ومات وهو حاكم ، نسأل الله العافية ، وكان فاضلا بارعا من بيت فقه وعدالة وله شعر :

تنح عن القبيح ولا ترده ■ ومن أوليته حسنا فزده

كفا بك من عدوك كل كيد ■ إذا كاد العدو ولم تكده

وفيها توفى ﴿ السيد الشريف نقيب الطالبيين ببغداد ﴾

أبو محمد الحسن بن على بن حمزة بن محمد بن الحسن بن محمد بن الحسن بن محمد بن على بن يحيى بن الحسين بن زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب العلوى الحسينى المعروف بابن الاقساسى ،

الكوفى مولدا ومنشأ ، كان شاعرا مطبقا ، امتدح الخلفاء والوزراء ،وهو من بيت مشهور بالأدب والرياسة والمروءة ، قدم بغداد فامتدح المقتفى والمستنجد وابنه المستضئ وابنه الناصر ، فولاه النقابة كان شيخاً مهيبا ، جاوز الثمانين ، وقد أورد له ابن الساعى قصائد كثيرة منها :

اصبر عـلى كيد الزما ٭ ن فما يدوم على طريقة
سبق القضاء فكن به ٭ راض ولا تطلب حقيقة
كم قد تغلب مرة ٭ وأراك من سعة وضيقه
ما زال فى أولاده ٭ يجرى على هذى الطريقة

وفيها توفيت ﴿ الست عذراء بنت شاهنشاه ﴾ ابن أيوب ، ودفنت بمدرستها داخل باب النصر ، والست خاتون والدة الملك العادل ، ودفنت بدارها بدمشق المجاورة لدار أسد الدين شيركوه .

﴿ ثم دخلت سنة أربع وتسعين وخمسمائة ﴾

فيها جمعت الفرنج جموعها وأقبلوا فحاصروا تينين ، فاستدعى العادل بنى أخيه لقتالهم ، فجاءه العزيز من مصر ، والأفضل من صرخند ، فأقلعت الفرنج عن الحصن وبلغهم موت ملك الألمان فطلبوا من العادل الهدنة والأمان ، فهادنهم ورجعت الملوك إلى أماكنها ،وقد عظم المعظم عيسى بن العادل فى هذه المرة ، واستنابه أبوه على دمشق ، وسار إلى ملكه بالجزيرة ، فأحسن فيهم السيرة ، وكان قد توفى فى هذه السنة السلطان صاحب سنجار وغيرها من المدائن الكبار ، وهو عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى الأتابكى ، كان من خيار الملوك وأحسنهم شكلا وسيرة ، وأجودهم طوية وسريرة ، غير أنه كان يبخل ، وكان شديد المحبة للعلماء ، ولا سيما الحنفية ، وقد ابتنى لهم مدرسة بسنجار ، وشرط لهم طعاما يطبخ لكل واحد منهم فى كل يوم ، وهذا نظر حسن ، والفقيه أولى بهذه الحسنة من الفقير، لاشتغال الفقيه بتكراره ومطالعته عن الفكر فيما يقيته ، فعدى على أولاده ابن عمه صاحب الموصل ، فأخذ الملك منهم، فاستغاث بنوه بالملك العادل ، فرد فيهم الملك ودرأ عنهم الضيم ، واستقرت المملكة لولده قطب الدين محمد ، ثم سار الملك إلى ماردين فحاصرها فى شهر رمضان ، فاستولى على ريفها ومعاملاتها ، وأعجزته قلعتها ، نطاف عليها ومشى ، وما ظن أحد أنه تملكها ، لأن ذلك لم يكن مثبوتا ولا مقداراً .

وفيها ملكت الخزر مدينة بلخ وكسروا الخطا وقهروهم ، وأرسل الخليفة إليهم أن يمنعوا خوارزم شاه من دخول العراق ، فانه كان يروم أن يخطب له ببغداد . وفيها حاصر خوارزم شاه مدينة بخارى ففتحها بعد مدة ، وقد كانت امتنعت عليه دهرا ونصرهم الخطا ، فقهرهم جميعاً وأخذها عنوة ، وعفا

عن أهلها وصفح ، وقد كانوا ألبسوا كلباً أعور قباء وسموه خوارزم شاه ، ورموه فى المنجيق إلى الخوارزمية ، وقالوا هذامالكم ، وكان خوارزم شاه أعور، فلما قدر عليهم عفاعنهم ، جزاه الله خيرا. وفيها توفى من الأعيان.

﴿ العوام بن زيادة ﴾

كاتب الانشاء بباب الخلافة ، وهو أبو طالب يحيى بن سعيد بن هبة الله بن على بن زيادة ، انتهت إليه رياسة الرسائل والانشاء والبلاغة والفصاحة فى زمانه بالعراق ، وله علوم كثيرة غير ذلك من الفقه على مذهب الشافعى ، أخذه عن ابن فضلان ، وله معرفة جيدة بالأصلين الحساب واللغة ، وله شعر جيد وقد ولى عدة مناصب كان مشكوراً فى جميعها ، ومن مستجاد شعره قوله :

لا تحقرن عدوا تزدريه فكم * قدأتعس الدهر جد الجدباللعب
فهذه الشمس يعروها الكسوف لها * على جلالتها بالرأس والذنب

وله :

باضطراب الزمان ترتفع الا * نذال فيه حتى يعم البلاء
وكذا الماء راكد فاذا * حرك ثارت من قعره الاقذاء

وله أيضاً :

قد سلوت الدنيا ولم يسلها * من علقت فى آماله والأراجى
فاذا ما صرفت وجهى عنها * قذفتنى فى بحرها العجاج
يستضيئون بى وأهلك وحدى * فكأنى ذبالة فى سراج

توفى فى ذى الحجة وله ثنتان وسبعون سنة ، وحضر جنازته خلق كثير ، ودفن عند موسى بن جعفر .

﴿ القاضى أبو الحسن على بن رجاء بن زهير ﴾

ابن على البطائحى ، قدم بغداد فتفقه بها وسمع الحديث وأقام برحبة مالك بن طوق مدة يشتغل على أبى عبد الله بن النبيه الفرضى ، ثم ولى قضاء العراق مدة ، وكان أديباً ، وقد سمع من شيخه أبى عبد الله بن النبيه ينشد لنفسه معارضاً للحريرى فى بيتيه اللذين زعم أنهما لا يعزوان ثالثهما، وهما قوله

سم سمة يحمد آثارها * واشكر لمن أعطا ولوسمسمة
والمكرمهما استطعت لاتأته * لتقتنى السؤدد والمكرمة

فقال ابن النبيه :

ما الأمة الوكساء بين الورى * أحسن من حر أتى ملامه
فه إذا استجديت عن قول لا * فالحر لا يملأ منها فمه

﴿ الأمير عز الدين حرديل ﴾

كان من أكابر الأمراء فى أيام نور الدين ، وكان ممن شرك فى قتل شاور ، وحظى عند صلاح الدين ، وقد استنابه على القدس حين افتتحها ، وكان يستندبه للمهمات الكبار فيسدها بنفسه

وشجاعته ، ولما ولى الأفضل عزله عن القدس فترك بلاد الشام وانتقل إلى الموصل ، فمات بها فى هذه السنة .

﴿ ثم دخلت سنة خمس وتسعين وخمسمائة ﴾

« فيها كانت وفاة العزيز صاحب مصر »

وذلك أنه خرج إلى الصيد فكانت ليلة الأحد العشرين من المحرم ، ساق خلف ذئب فكبا به فرسه فسقط عنه فمات بعد أيام ، ودفن بداره ، ثم حول إلى عند تربة الشافعى ، وله سبع أو ثمان وعشرون سنة ، ويقال : إنه كان قد عزم فى هذه السنة على إخراج الحنابلة من بلده ، ويكتب إلى بقية إخوته باخراجهم من البلاد ، وشاع ذلك عنه وذاع ، وسمع ذلك منه وصرح به ، وكل ذلك من معلميه وخلطائه وعشرائه من الجهمية ، وقلة علمه بالحديث ، فلما وقع منه هذا ونوى هذه النية القبيحة الفاسدة أهلكه الله ودمره سريعاً ، وعظم قدر الحنابلة بين الخلق بمصر والشام ، عند الخاص والعام . وقيل : إن بعض صالحيهم دعا عليه ، فما هو إلا أن خرج إلى الصيد فكان هلاكه سريعاً ، وكتب الفاضل كتاب التعزية بالعزيز لعمه العادل ، وهو محاصر ماردين ومعه العساكر ، وولده محمد الكامل ، وهو نائبه على بلاد الجزيرة المقاربة لبلاد الحيرة ، وصورة الكتاب « أدام الله سلطان مولانا الملك العادل ، وبارك فى عمره وأعلا أمره بأمره ، وأعز نصر الاسلام بنصره ، وفدت الأنفس نفسه الكريمة وأصغر الله العظائم بنعمه فيه العظيمة ، وأحياه الله حياة طيبة هو والاسلام فى مواقيت الفتوح الجسيمة وينقلب عنها بالأمور المسلمة والعواقب السليمة ، ولا نقص له رجالا ولا أعدمه نفسا ولا ولدا ، ولا قصر له ذيلا ولا يدا ، ولا أسخن له عينا ولا كبدا ، ولا كدر له خاطراً ولا موردا ، ولما قدر الله ما قدر من موت الملك العزيز كانت حياته مكدرة عليه منغصة مهملة ، فلما حضر أجله كانت بديهة المصاب عظيمة ، وطالعة المكروه أليمة ، وإذا محاسن الوجه بليت تعفى الثرى عن وجهه الحسن ، وكانت مدة مرضه بعد عوده من الفيوم أسبوعين ، وكانت فى الساعة السابعة من ليلة الأحد والعشرين من المحرم ، والمملوك فى حال تسطيرها مجموع بين مرض القلب والجسد ، ووجع أطراف وعلة كبد ، وقد فجع بهذا المولى والعهد بوالده غير بعيد ، والأسى عليه فى كل يوم جديد » . ولما توفى العزيز خلف من الولد عشرة ذكور ، فعمد أمراؤه فملكوا عليهم ولده محمدا ، ولقبوه بالمنصور ، وجمهور الأمراء فى الباطن مائلون إلى تمليك العادل ، ولكنهم يستبعدون مكانه ، فأرسلوا إلى الأفضل وهو بصرخد فأحضروه على البريد سريعاً ، فلما حضر عندهم منع رفدهم ووجدوا الكلمة مختلفة عليه ، ولم يتم له ما صار إليه ، وخامر عليه أكابر الأمراء الناصرية ، وخرجوا من مصر فأقاموا ببيت المقدس وأرسلوا يستحثون الجيوش العادلية ، فأقر ابن أخيه على السلطنة ونوه باسمه على السكة والخطبة فى سائر بلاد مصر ، لكن استفاد الأفضل فى سفرته هذه أن أخذ جيشاً كثيفا من المصريين ، وأقبل بهم ليسترد

دمشق فى غيبة عمه . وذلك باشارة أخيه صاحب حلب ، وملك حمص أسد الدين ، فلما انتهى إليها ونزل حواليها قطع أنهارها وعقر أشجارها ،وأكل ثمارها ، ونزل بمخيمه على مسجد القدم ، وجاء إليه أخوه الظاهر وابن عمه الأسد الكاسر وجيش حماه ، فكثر جيشه وقوى بأسه ، وقد دخل جيشه إلى البلد ،ونادوا بشماره فلم يتابعهم من العامة أحد ، وأقبل العادل من ماردين بعساكره وقد التف عليه أمراء أخيه وطائفة بنى أخيه ، وأمده كل مصر بأكابره ، وسبق الأفضل إلى دمشق بيومين فحصنها وحفظها ، وقد استناب على ماردين ولده محمداً الكامل . ولما دخل دمشق خامر إليه أكثر الأمراء من المصريين وغيرهم ، وضعف أمر الأفضل ويئس من برهم وخيرهم ، فأقام محاصر البلد بمن معه حتى انسلخ الحول ثم انفصل الحال فى أول السنة الآتية على ما سيأتى .

وفيها شرع فى بناء سور بغداد بالآجر والكلس ، وفرق على الأمراء وكملت عمارته بعد هذه السنة ، فأمنت بغداد من الغرق والحصار ، ولم يكن لها سور قبل ذلك .

وفيها توفى ﴿ السلطان أبو محمد يعقوب بن يوسف ﴾

ابن عبد المؤمن ، صاحب المغرب والأندلس بمدينته ، وكان قد بنى عندها مدينة مليحة سماها المهدية ، وقد كان دينا حسن السيرة صحيح السريرة ، وكان مالكى المذهب ، ثم صار ظاهريا حزمياً ثم مال إلى مذهب الشافعى، واستقضى فى بعض بلاده منهم قضاة ، وكانت مدة ملكه خمس عشرة سنة ، وكان كثير الجهاد رحمه الله ، وكان يؤم الناس فى الصلوات الخمس ، وكان قريباً إلى المرأة والضعيف رحمه الله . وهو الذى كتب إليه صلاح الدين يستنجده على الفرنج فلما لم يخاطبه بأمير المؤمنين غضب من ذلك ولم يجبه إلى ما طلب منه ، وقام بالملك بعده ولده محمد فسار كسيرة والده ، ورجع إليه كثير من البلدان اللاتى كانت قد عصت على أبيه ، ثم من بعد ذلك تفرقت بهم الأهواء وباد هذا البيت بعد الملك يعقوب .

وفيها ادعى رجل أعجمى بدمشق أنه عيسى بن مريم ، فأمر الأمير صارم الدين برغش نائب القلعة ، بصلبه عند حمام العماد الكاتب ، خارج باب الفرج مقابل الطاحون التى بين البابين ، وقد باد هذا الحمام قديماً ، وبعد صلبه بيومين ثارت العامة على الروافض وعمدوا إلى قبر رجل منهم بباب الصغير يقال له وثاب فنبشوه وصلبوه مع كلبين ، وذلك فى ربيع الآخر منها .

وفيها وقعت فتنة كبيرة ببلاد خراسان ، وكان سببها أن فخر الدين محمد بن عمر الرازى وفد إلى الملك غياث الدين الغورى صاحب غزنة ،فأكرمه وبنى له مدرسة بهراه ، وكان أكثر الغورية كرامية فأبغضوا الرازى وأحبوا إبعاده عن الملك ، فجمعوا له جماعة من الفقهاء الحنفية والكرامية ، وخلقا من الشافعية ، وحضر ابن القدوة وكان شيخا معظما فى الناس ، وهو على مذهب ابن كرام وابن الهيصم

فتناظر هو والرازى . وخرجا من المناظرة إلى السب والشتم . فلما كان من الغد اجتمع الناس فى المسجد الجامع . وقام واعظ فتكلم فقال فى خطبته : أيها الناس ، إنا لا نقول إلا ما صح عندنا عن رسول الله ﷺ ، وأما علم ارسطاطا ليس وكفريات ابن سينا وفلسفة الفارابى وما تلبس به الرازى فانا لا نعلمها ولا نقول بها ، و إنما هو كتاب الله وسنة رسوله ، ولأى شىء يشتم بالأمس شيخ من شيوخ الاسلام يذب عن دين الله وسنة رسوله ، على لسان متكلم ليس معه على ما يقول دليل . قال فبكى الناس وضجوا و بكت الكرامية واستغاثوا ، وأعانهم على ذلك قوم من خواص الناس ، وأنهوا إلى الملك صورة ما وقع ، فأمر باخراج الرازى من بلاده ، وعاد إلى هراه . فلهذا أشرب قلب الرازى بغض الكرامية . وصار يلهج بهم فى كلامه فى كل موطن ومكان .

وفيها رضى الخليفة عن أبى الفرج ابن الجوزى شيخ الوعاظ . وقد كان أخرج من بغداد إلى واسط فأقام بها خمس سنين ، فانتفع به أهلها واشتغلوا عليه واستفادوا منه ، فلما عاد إلى بغداد خلع عليه الخليفة وأذن له فى الوعظ على عادته عند التربة الشريفة المجاورة لقبر معروف ، فكثر الجمع جدا وحضر الخليفة وأنشد يومئذ فيما يخاطب به الخليفة :

لا تعطش الروض الذى بنيته * بصوب إنعامك قد روضا
لا تبر عودا أنت قد رشته * حاشى لبانى المجد أن ينقضا
إن كان لى ذنب قد جنيته * فأستأنف العفو وهب لى الرضا
قد كنت أرجوك لنيل المنى * فاليوم لا أطلب إلا الرضا

ومما أنشده يومئذ :

شقينا بالنوى زمنا فلما * تلاقينا كأنا ما شقينا
سخطنا عند ماجنت الليالى * وما زالت بنا حتى رضينا
ومن لم يحى بعد الموت يوماً * فانا بعد ما متنا حيينا

و فى هذه السنة استدعى الخليفة الناصر قاضى الموصل ضياء الدين ابن الشهرزورى فولاه قضاء قضاة بغداد . وفيها وقعت فتنة بدمشق بسبب الحافظ عبد الغنى المقدسى ، وذلك أنه كان يتكلم فى مقصورة الحنابلة بالجامع الأموى ، فذكر يوما شيئا من العقائد ، فاجتمع القاضى ابن الزكى وضياء الدين الخطيب الدولعى بالسلطان المعظم ، والأمير صارم الدين برغش . فعقد له مجلسا فيما يتعلق بمسألة الاستواء على العرش والنزول والحرف والصوت ، فوافق النجم الحنبلى بقية الفقهاء واستمر الحافظ على ما يقوله لم يرجع عنه . واجتمع بقية الفقهاء عليه ، وألزموه بالزامات شنيعة لم يلتزمها ، حتى قال له الأمير برغش كل هؤلاء على الضلالة وأنت وحدك على الحق ؟ قال : نعم .

فغضب الأمير وأمر بنفيه من البلد ، فاستنظره ثلاثة أيام فأنظره ، وأرسل برغش الأسارى من القلعة فكسروا منبر الحنابلة وتعطلت يومئذ صلاة الظهر فى محراب الحنابلة ، وأخرجت الخزائن والصناديق التى كانت هناك ، وجرت خبطة شديدة ، نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن ، وكان عقد المجلس يوم الاثنين الرابع والعشرين من ذى الحجة ، فارتحل الحافظ عبد الغنى إلى بعلبك ثم سار إلى مصر فآواه المحدثون ، فحنوا عليه وأكرموه .

ومن توفى فيها من الأعيان ﴿ الأمير مجاهد الدين قايماز الرومى ﴾

نائب الموصل المستولى على مملكتها أيام ابن استاذه نور الدين أرسلان ، وكان عاقلا ذكيا فقيها حنفيا ، وقيل شافعيا ، يحفظ شيئا كثيراً من التواريخ والحكايات ، وقد ابتنى عدة جوامع ومدارس وربط وخانات ، وله صدقات كثيرة دارة ، قال ابن الأثير : وقد كان من محاسن الدنيا .

﴿ أبو الحسن محمد بن جعفر ﴾

ابن أحمد بن محمد بن عبد العزيز العباس الهاشمى ، قاضى القضاة ببغداد ، بعد ابن النجارى ، كان شافعياً تفقه على أبى الحسن بن الخل وغيره ، وقد ولى القضاء والخطابة بمكة ، وأصله منها ، ولكن ارتحل إلى بغداد فنال منها ما نال من الدنيا ، وآل به الأمر إلى ما آل ، ثم إنه عزل عن القضاء بسبب محضر رقم خطه عليه ، وكان فيما قيل مزورا عليه . فالله أعلم ، فجلس فى منزله حتى مات .

﴿ الشيخ جمال الدين أبو القاسم ﴾

يحيى بن على بن الفضل بن بركة بن فضلان ، شيخ الشافعية ببغداد ، تفقه أولا على سعيد بن محمد الزار مدرس النظامية ، ثم ارتحل إلى خراسان فأخذ عن الشيخ محمد الزبيدى تلميذ الغزالى وعاد إلى بغداد وقد اقتبس علم المناظرة والأصلين ، وساد أهل بغداد وانتفع به الطلبة والفقهاء ، وبنيت له مدرسة فدرس بها وبعد صيته ، وكثرت تلاميذه ، وكان كثير التلاوة وسماع الحديث ، وكان شيخا حسنا لطيفا ظريفا ، ومن شعره :

وإذا أردت منازل الأشراف ◼ فعليك بالاسعاف والانصاف
وإذا بغا باغ عليك تخله * والدهر فهو له مكاف كاف

﴿ ثم دخلت سنة ست وتسعين وخمسمائة ﴾

استهلت هذه السنة والملك الأفضل بالجيش المصرى محاصر دمشق لعمه العادل ، وقد قطع عنها الأنهار والميرة ، فلا خبز ولا ماء إلا قليلا ، وقد تطاول الحال ، وقد خندقوا من أرض اللوان إلى اللد خندقا لئلا يصل إليهم جيش دمشق ، وجاء فصل الشتاء وكثرت الأمطار والأوحال ، فلما دخل شهر صفر قدم الملك الكامل محمد بن العادل على أبيه بخلق من التركمان ، وعساكر من بلاد

الجزيرة والرها وحران ، فعند ذلك انصرف العساكر المصرية ، وتفرقوا أيادى سبا ، فرجع الظاهر إلى حلب والأسد إلى حمص ، والأفضل إلى مصر ، وسلم العادل من كيد الأعادى ، بعد ما كان قد عزم على تسليم البلد . وسارت الأمراء الناصرية خلف الأفضل ليمنعوه من الدخول إلى القاهرة ، وكاتبوا العادل أن يسرع السير إليهم ، فنهض إليهم سريعاً فدخل الأفضل مصر وتحصن بقلعة الجبل ، وقد اعتراه الضعف والفشل ، ونزل العادل على البركة وأخذ ملك مصر ونزل إليه ابن أخيه الأفضل خاضعاً ذليلا ، فأقطعه بلادا من الجزيرة ، ونفاه من الشام لسوء السيرة ، ودخل العادل القلعة وأعاد القضاء إلى صدر الدين عبد الملك بن درباس المارداني الكردى ، وأبقى الخطبة والسكة باسم ابن أخيه المنصور ، والعادل مستقل بالأمور ، واستوزر الصاحب صفى الدين بن شكر لصرامته وشهامته ، وسيادته وديانته ، وكتب العادل إلى ولده الكامل يستدعيه من بلاد الجزيرة ليملكه على مصر ، فقدم عليه فأكرمه واحترمه وعانقه والتزمه ، وأحضر الملك الفقهاء واستفتاهم فى صحة مملكة ابن أخيه المنصور بن العزيز ، وكان ابن عشر سنين ، فأفتوا بأن ولايته لا تصح لأنه متولى عليه ، فعند ذلك طلب الأمراء ودعاهم إلى مبايعته فامتنعوا فأرغبهم وأرهبهم ، وقال فيما قال : قد سمعتم ما أفتى به العلماء ، وقد علمتم أن ثغور المسلمين لا يحفظها الأطفال الصغار ، وإنما يحفظها الملوك الكبار ، فأذعنوا عند ذلك وبايعوه ، ثم من بعده لولده الكامل ، فخطب الخطباء بذلك بعد الخليفة لهما ، وضربت السكة باسمهما ، واستقرت دمشق باسم المعظم عيسى بن العادل ، ومصر باسم الكامل .

وفى شوال رجع إلى دمشق الأمير ملك الدين أبو منصور سليمان بن مسرور بن جلدك ، وهو أخو الملك العادل لأمه ، وهو واقف الفلكية داخل باب الفراديس ، وبها قبره ، فأقام بها محترماً معظما إلى أن توفى فى هذه السنة . وفيها وفى التى بعدها كان بديار مصر غلاء شديد ، فهلك بسببه الغنى والفقير ، وهرب الناس منها نحو الشام فلم يصل إليها إلا القليل ، وتخطفهم الفرنج من الطرقات وغروهم من أنفسهم واغتالوهم بالقليل من الأقوات ، وأما بلاد العراق فانه كان مرخصا . قال ابن الساعى : وفى هذه السنة باض ديك ببغداد فسألت جماعة عن ذلك فأخبرونى به .

وممن توفى فيها من الأعيان .

﴿ السلطان علاء الدين خوارزم شاه ﴾

ابن تكش بن ألب رسلان من ولد طاهر بن الحسين ، وهو صاحب خوارزم وبعض بلاد خراسان والرى وغيرها من الأقاليم المتسعة ، وهو الذى قطع دولة السلاجقة ، كان عادلا حسن السيرة له معرفة جيدة بالموسيقى ، حسن المعاشرة ، فقيها على مذهب أبى حنيفة ، ويعرف الأصول ، وبنى

للحنفية مدرسة عظيمة ، ودفن بتربة بناها بخوارزم ، وقام فى الملك من بعده ولده علاء الدين محمد ، وكان قبل ذلك يلقب بقطب الدين . وفيها قتل وزير السلطان خوارزم شاه المذكور .

﴿ نظام الدين مسعود بن على ﴾

وكان حسن السيرة ، شافعى المذهب ، له مدرسة عظيمة بخوارزم ، وجامع هائل ، وبنى بمرو جامعاً عظيما للشافعية ، فحسدتهم الحنابلة[1] وشيخهم بها يقال له شيخ الاسلام ، فيقال إنهم أحرقوه وهذا إنما يحمل عليه قلة الدين والعقل ، فأغرمهم السلطان خوارزم شاه ما غرم الوزير على بنائه . وفيها توفى الشيخ المسند المعمر رحلة الوقت .

﴿ أبو الفرج عبد المنعم بن عبد الوهاب ﴾

ابن صدقة بن الخضر بن كايب الحرانى الأصل البغدادى المولد والدار والوفاة ، عن ست وتسعين سنة ، سمع الكثير وأسمع ، وتفرد بالرواية عن جماعة من المشايخ ، وكان من أعيان التجار وذوى الثروة

﴿ الفقيه مجد الدين ﴾

أبو محمد بن طاهر بن نصر بن جميل ، مدرس القدس أول من درس بالصلاحية ، وهو والد الفقهاء بنى جميل الدين ، كانوا بالمدرسة الجاروخية ، ثم صاروا إلى العمادية والدماغية فى أيامنا هذه ، ثم ماتوا ولم يبق إلا شرحهم .

﴿ الأمير صارم الدين قايماز ﴾

ابن عبد الله النجمى ، كان من أكابر الدولة الصلاحية ، كان عند صلاح الدين بمنزلة الاستاذ ، وهو الذى تسلم القصر حين مات العاضد ، فحصل له أموال جزيلة جداً ، وكان كثير الصدقات والأوقاف ، تصدق فى يوم بسبعة آلاف دينار عينا ، وهو واقف المدرسة القيمازية ، شرقى القلعة ، وقد كانت دار الحديث الأشرفية داراً لهذا الأمير ، وله بها حمام ، فاشترى ذلك الملك الأشرف فيما بعد و بناها دار حديث ، وأخرب الحمام و بناه مسكنا للشيخ المدرس بها . ولما توفى قيماز ودفن فى قبره نبشت دوره وحواصله ، وكان متهما بمال جزيل ، فتحصل ماجمع من ذلك مائة ألف دينار وكان يظن أن عنده أكثر من ذلك ، وكان يدفن أمواله فى الخراب من أراضى ضياعه وقراياه ، سامحه الله .

﴿ الأمير لؤلؤ ﴾

أحد الحجاب بالديار المصرية ، كان من أكابر الأمراء فى أيام صلاح الدين ، وهو الذى كان متسلم الأسطول فى البحر ، فكم من شجاع قد أسر ، وكم من مركب قد كسر ، وقد كان مع كثرة جهاده دار

---

(١) لعله الحنفية فانه ليس بمرو حنابلة والله سبحانه أعلم . ولكن ابن الأثير قد وافق المؤلف .

الصدقات ، كثير النفقات فى كل يوم ، وقع غلاء بمصر فتصدق باثنى عشر ألف رغيف ، لاثنى عشر ألف نفس .

﴿ الشيخ شهاب الدين الطوسى ﴾

أحد مشايخ الشافعية بديار مصر ، شيخ المدرسة المنسوبة إلى تقى الدين شاهنشاه بن أيوب ، التى يقال لهـا منازل العز ، وهو من أصحاب محمـد بن يحيى تلميذ الغزالى ، كان له قدر ومنزلة عند ملوك مصر ، يأمرهم بالمعروف و ينهـاهم عن المنكر ، توفى فى هـذه السنة ، فازدحم الناس عـلى جنازته ، وتأسفوا عليه .

﴿ الشيخ ظهير الدين عبد السلام الفارسى ﴾

شيخ الشافعية بحلب ، أخذ الفقه عن محمد بن يحيى تلميذ الغزالى ، وتتلمذ للرازى ، و رحل إلى مصر وعرض عليه أن يدرس بتربة الشافعى فلم يقبل ، فرجع إلى حلب فأقام بها إلى أن مات .

﴿ الشيخ العلامة بدر الدين ابن عسكر ﴾

رئيس الحنفية بدمشق ، قال أبو شامة : و يعرف بابن العقادة .

﴿ الشاعر أبو الحسن ﴾ على بن نصر بن عقيل بن أحمد بغدادى ، قدم دمشق فى سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، ومعه ديوان شعر له فيه درر حسان ، وقد تصدى لمدح الملك الأمجد صاحب بعلبك وله :

وما الناس إلا كامل الحظ ناقص * وآخر منهم ناقص الحظ كامل
و إنى لمثر من خيار أعفـة * و إن لم يكن عندى من المال كامل

وفيها توفى القاضى الفاضل ، الامام العلامة شيخ الفصحاء والبلغاء .

﴿ أبو على عبد الرحيم بن القاضى الأشرف ﴾

أبى المجد على بن الحسن بن البيسانى المولى الأجل القاضى الفاضل ، كان أبوه قاضيا بعسقلان فأرسل ولده فى الدولة الفاطمية إلى الديار المصرية ، فاشتغل بها بكتابة الانشاء على أبى الفتح قادوس وغيره ، فساد أهل البلاد حتى بغداد ، ولم يكن له فى زمانه نظير ، ولا فيما بعده إلى وقتنا هذا مثيل ، ولما استقر الملك صلاح الدين بمصر جعله كاتبه وصاحبه ووزيره وجليسه وأنيسـه ، وكان أعز عليه من أهله وأولاده ، وتساعدا حتى فتح الأقاليم والبلاد ، هذا بحسامه وسنانه ، وهذا بقلمه ولسانه و بيانه وقد كان الفاضل من كثرة أمواله كثير الصدقات والصلات والصيام والصلاة ، وكان يواظب كل يوم وليلة على ختمة كاملة ، مع ما يزيد عليها من نافلة ، رحيم القلب حسن السيرة ، طاهر القلب والسريرة له مدرسة بديار مصر على الشافعية والمالكية ، وأوقاف على تخليص الأسارى من يدى النصارى ، وقد اقتنى من الكتب نحواً من مائة ألف كتاب ، وهذا شئ لم يفرح به أحد من الوزراء ولا العلماء ولا الملوك ، ولد فى سنة ثنتين وخمسمائة ، توفى يوم دخل العادل إلى قصر مصر بمدرسته فجأة يوم

الثلاثاء سادس ربيع الآخر ، واحتفل الناس بجنازته ، وزار قبره فى اليوم الثانى الملك العادل ، وتأسف عليه ، ثم استوزر العادل صفى الدين بن شكر ، فلما سمع الفاضل بذلك دعا الله أن لا يحييه إلى هذه الدولة لما بينهما من المنافسة ، فمات ولم ينله أحد بضيم ولا أذى ، ولا رأى فى الدولة من هو أكبر منه ، وقد رثاه الشعراء بأشعار حسنة ، منها قول القاضى هبة الله بن سناء الملك :

عبد الرحيم على البرية رحمة ＊ أمنت بصحبتها حلول عقابها
يا سائلى عنه وعن أسبابه ＊ نال السماء فسله عن أسبابها
وأتته خاطبة إليه وزارة ＊ ولطال ما أعيت على خطابها
وأتت سعادته إلى أبوابه ＊ لا كالذى يسعى إلى أبوابها
تعنو الملوك لوجهه بوجوهها ＊ لا بل تساق لبابه برقابها
شغل الملوك بما يزول ونفسه ＊ مشغولة بالذكر فى محرابها
فى الصوم والصلوات أتعب نفسه ＊ وضمان راحته على إتعابها
وتعجل الاقلاع عن لذاته ＊ ثقة بحسن مآلها ومآبها
فلتفخر الدنيا بسائس ملكها ＊ منه ودارس علمها وكتابها
صوامها قوامها علامها ＊ عمالها بذالها وهابها

والعجب أن الفاضل مع براعته ليس له قصيدة طويلة ، وإنما له ما بين البيت والبيتين فى أثناء رسائله وغيرها شئ كثير جدا ، فمن ذلك قوله :

سبقتم باسداء الجميل تكرماً ＊ وما مثلكم فيمن يحدث أو يحكى
وكان ظنى أن أسابقكم به ＊ ولكن بلت قبلى فهيج لى البكا

وله : ولى صاحب ماخفت من جور حادث ＊ من الدهر إلاكان لى من ورائه
إذا عضنى صرف الزمان فاننى ＊ براياته أسطو عليه ورائه

وله فى بدو أمره :

أرى الكتاب كلهم جميعا ＊ بأرزاق تعمهم سنينا
ومالى بينهم رزق كأنى ＊ خلقت من الكرام الكاتبينا

وله فى النحلة والزلقطة :

ومغردين تجاوبا فى مجلس ＊ منعاهما لأذاهما الأقوام
هذا يجود بعكس ما يأتى به ＊ هذا فيحمد ذا وذاك يلام

وله : بتنا على حال تسر الهوى ＊ لكنه لا يمكن الشرح

بوابنا الليل وقلنا له * إن غبت عنا هجم الصبح

وأرسلت جارية من جوارى الملك العزيز إلى الملك العزيز زراً من ذهب مغلف بعنبر أسود، فسأل الملك الفاضل عن معنى ما أرادت بارساله فأنشأ يقول:

أهدت لك العنبر فى وسطه * زر من التبر رقيق اللحام

فالزر فى العنبر معناهما * زرهكذا مختفيا فى الظلام

قال ابن خلكان : وقد اختلف فى لقبه فقيـل محى الدين وقيل مجير الدين، وحكى عن عمارة اليمنى أنه كان يذكر جميـل وأن العادل بل الصـالح هو الذى استقدمه من الاسكندرية، وقـد كان معدودا فى حسناته . وقد بسط ابن خلكان ترجمته بنحو ما ذكرنا، وفى هذه زيادة كثيرة والله أعلم

﴿ ثم دخلت سنة سبع وتسعين وخمسمائة ﴾

فيها اشتد الغلاء بأرض مصر جدا، فهلك خلق كثير جـدا من الفقراء والأغنياء، ثم أعقبه فناء عظيم، حتى حكى الشيخ أبو شامة فى الذيل أن العادل كفن من ماله فى مدة شهر من هذه السنة نحواً من مائتى ألف، وعشرين ألف ميت، وأكلت الـكلاب والميتـات فيها بمصر، وأكل من الصغار والأطفال خلق كثير، يشوى الصغير والداه ويأكلانه، وكثر هذا فى الناس جداً حتى صار لا ينكر بينهـم، فلما فرغت الأطفال والميتات غلب القوى الضعيف فذبحـه وأكله، وكان الرجل يحتال على الفقير فيأتى به ليطعمه أوليعطيه شيئا، ثم يذبحه ويأكله، وكان أحدهم يذبح امرأته ويأكلها وشاع هذا بينهم بلا إنكار ولا شكوى، بل يعذر بعضهم بعضاً، ووجد عند بعضهم أربعمائة رأس وهلك كثير من الأطباء الذين يستدعون إلى المرضى، فـكانوا يذبحون ويؤكلون، كان الرجـل يستدعى الطبيب ثم يذبحـه ويأكله، وقد استدعى رجل طبيبا حاذقا وكان الرجل موسراً من أهـل المال، فذهب الطبيب معه على وجل وخوف، فجعل الرجل يتصدق على من لقيه فى الطريق ويذكر الله ويسبحه، ويكثر من ذلك، فارتاب به الطبيب وتخيل منه، ومع هذا حمله الطمع على الاستمرار معه حتى دخل داره، فاذا هى خربة فارتاب الطبيب أيضا فخرج صاحبـه فقال له : ومع هذا البطء جئت لنا بصيد، فلما سمعها الطبيب هرب فخرجا خلفه سراعا فما خلص إلا بعد جهد وشر.

وفيها وقع وباء شـديد ببلاد عنزة بين الحجاز واليمن، وكانوا عشرين قرية، فبادت منها ثمانى عشرة لم يبق فيها ديار ولا نافخ نار، وبقيت أنعـامهم وأموالهم لاقانى لها، ولا يستطيع أحـد أن يسكن تلك القرى ولا يدخلهـا، بل كان من اقترب إلى شىء من هـذه القرى هلك من ساعته، نعوذ بالله من بأس الله وعـذابه، وغضبه وعقابه، أما القريتان الباقيتان فانهما لم يمت منهما أحد ولا عندهم شعور بما جرى على من حولهم، بل هم على حالهم لم يفقد منهم أحد فسبحان الحكيم العليم.

واتفق باليمن فى هذه السنة كائنة غريبة جدا ، وهى أن رجلا يقال له عبـد الله بن حمزة العلوى كان قد تغلب عـلى كثير من بلاد اليمن ، وجمع نحواً من اثنى عشر ألف فارس ، ومن الرجالة جمعا كثيراً ، وخافه ملك اليمن إسماعيل بن طغتكين بن أيوب ، وغلب على ظنه زوال ملكه على يدى هذا الرجـل ، وأيقن بالهلكة لضعفه عن مقاومته ، واختلاف أمرائه معه فى المشورة ، فأرسل الله صاعقة فنزلت عليهم فلم يبق منهم أحـد سوى طائفة من الخيالة والرجالة ، فاختلف جيشه فيما بينهم فغشيهم المعز فقتل منهم ستة آلاف ، واستقر فى ملكه آمنا .

وفيها تكاتب الاخوان الأفضل من صرخد والظاهر من حلب على أن يجتمعا على حصار دمشق وينزعاها من المعظم بن العادل، وتكون للأفضل ، ثم يسيرا إلى مصر فيأخذاها من العادل وابنه الكامل الذين نقضا العهد وأبطلا خطبة المنصور ، ونكثا المواثيق ، فاذا أخذا مصر كانت للأفضل وتصير دمشق مضافـة إلى الظاهر مع حلب ، فلما بلغ العادل ما تمالآ عليه أرسل جيشا مددا لابنه المعظم عيسى إلى دمشق ، فوصلوا إليها قبل وصول الظاهر وأخيه إليها ، وكان وصولهما إليها فى ذى القعدة من ناحية بعلبك ، فنزلا على مسجد القدم واشتد الحصار للبلد ، وتسلق كثير من الجيش من ناحية خان القدم ، ولم يبق إلا فتح البلد ، لولا هجوم الليل ، ثم إن الظاهر بداله فى كون دمشق للأفضل فرأى أن تكون له أولا ، ثم إذا فتحت مصر تسلمها الأفضل ، فأرسل إليه فى ذلك فلم يقبل الأفضل ، فاختلفا وتفرقت كلمتهما ، وتنازعا الملك بدمشق ، فتفرقت الأمراء عنهما ، وكوتب العادل فى الصلح فأرسل يجيب إلى ما سألا وزاد فى إقطاعهما شيئاً من بلاد الجزيرة ، وبعض معاملة المعرة . وتفرقت العساكر عن دمشق فى محرم سنة ثمان وتسعين ، وسار كل منهما إلى ما تسلم من البلاد التى أقطعها ، وجرت خطوب يطول شرحها ، وقـد كان الظاهر وأخوه كتبا إلى صاحب الموصـل نور الدين أرسـلان الأتابكى أن يحاصر مـدن الجزيرة التى مع عمهما العادل ، فركب فى جيشه وأرسل إلى ابن عمه قطب الدين صاحب سنجار ، واجتمع معهما صاحب ماردين الذى كان العادل قـد حاصره وضيق عليه مدة طويلة ، فقصدت العساكر حران ، وبها الفائز بن العـادل ، فحاصروه مدة ، ثم لما بلغهم وقوع الصلح عدلوا إلى المصالحة ، وذلك بعـد طلب الفائز ذلك منهم ، وتمهدت الأمور واستقرت على ما كانت عليه .

وفيها ملك غياث الدين وأخوه شهاب الدين الغوريان جميع ما كان يملك خوارزم شاه من البلدان والحواصل والأموال ، وجرت لهم خطوب طويلة جدا . وفيها كانت زلزلة عظيمة ابتدأت من بلاد الشام إلى الجزيرة وبلاد الروم والعراق ، وكان جمهورها وعظمها بالشام تهدمت منها دور كثيرة ، وتخربت محال كثيرة ، وخسف بقرية من أرض بصرى ، وأما سواحل الشام وغيرها فهلك فيها شئ

كثير، وأخربت محال كثيرة من طرابلس وصور وعكاونابلس ، ولم يبق بنابلس سوى حارة السامرة ومات بها و بقراها ثلاثون ألفا تحت الردم ۔ وسقط طائفة كثيرة من المنارة الشرقية بدمشق بجامعها، وأربع عشرة شرافة منه، وغالب الكلاسة والمارستان النورى ۔ وخرج الناس إلى الميادين يستغيثون وسقط غالب قلعة بعلبك مع وثاقة بنيانها ، وانفرق البحر إلى قبرص وقد حذف بالمراكب منه إلى ساحله، وتعدى إلى ناحية الشرق فسقط بسبب ذلك دور كثيرة ، ومات أمم لايحصون ولا يعدون حتى قال صاحب مرآة الزمان : إنه مات فى هذه السنة بسبب الزلزلة نحو من ألف ألف ومائة ألف إنسان قتلا تحتها ۔ وقيل إن أحداً لم يحص من مات فيها والله سبحانه أعلم .

وفيها توفى من الأعيان .

﴿ عبد الرحمن بن على ﴾

ابن محمد بن على بن عبد الله بن حمادى بن أحمد بن محمد بن جعفر الجوزى — نسبة إلى فرضة نهر البصرة ـ ابن عبد الله بن القاسم بن النضر بن القاسم بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق ، الشيخ الحافظ الواعظ جمال الدين أبو الفرج المشهور بابن الجوزى ، القرشى التيمى البغدادى الحنبلى ۔ أحد أفراد العلماء ، برز فى علوم كثيرة ، وانفرد بها عن غيره ۔ وجمع المصنفات الكبار والصغار نحواً من ثلاثمائة مصنف ، وكتب بيده نحواً من مائتى مجلدة ، وتفرد بفن الوعظ الذى لم يسبق إليه ولا يلحق شأوه فيه وفى طريقته وشكله ، وفى فصاحته و بلاغته وعذوبته وحلاوة ترصيعه ونفوذ وعظه وغوصه على المعانى البديعة ۔ وتقريبه الأشياء الغريبة فيما يشاهد من الأمور الحسية ۔ بعبارة وجيزة سريعة الفهم والادراك ، بحيث يجمع المعانى الكثيرة فى الكلمة اليسيرة ۔ هذا وله فى العلوم كلها اليد الطولى ، والمشاركات فى سائر أنواعها من التفسير والحديث والتاريخ والحساب والنظر فى النجوم والطب والفقه وغير ذلك من اللغة والنحو ۔ وله من المصنفات فى ذلك ما يضيق هذا المكان عن تعدادها ۔ وحصر أفرادها ۔ منها كتابه فى التفسير المشهور بزاد المسير ، وله تفسير أبسط منه ولكنه ليس بمشهور ، وله جامع المسانيد استوعب به غالب مسند أحمد وصحيحى البخارى ومسلم وجامع الترمذى ۔ وله كتاب المنتظم فى تواريخ الأمم من العرب والعجم فى عشرين مجلداً ، قد أوردنا فى كتابنا هذا كثيرا منه من حوادثه وتراجمه ۔ ولم يزل يؤرخ أخبار العالم حتى صار تاريخاً ، وما أحقه بقول الشاعر :

مازلت تدأب فى التاريخ مجتهداً ۔ حتى رأيتك فى التاريخ مكتوبا

وله مقامات وخطب ، وله الأحاديث الموضوعة ۔ وله العلل المتناهية فى الأحاديث الواهية ۔ وغير ذلك . ولد سنة عشر وخمسمائة ، ومات أبوه وعمره ثلاث سنين ، وكان أهله تجاراً فى النحاس، فلما ترعرع جاءت به عمته إلى مسجد محمد بن ناصر الحافظ ۔ فلزم الشيخ وقرأ عليه وسمع عليه

الحديث وتفقه بابن الزاغونى ، وحفظ الوعظ و وعظ وهو ابن عشرين سنة أو دونها ، وأخـذ اللغة عن أبى منصور الجواليقى ، وكان وهو صبى دينا مجموعا عـلى نفسه لا يخالط أحـداً ولا يأ كل ما فيه شبهة ، ولا يخرج من بيته إلا للجمعة ، وكان لا يلعب مع الصبيان ، وقد حضر مجلس وعظه الخلفاء والوزراء والملوك والأمراء والعلماء والفقراء ، ومن سائر صنوف بنى آدم ، وأقل ما كان يجتمع فى مجلس وعظه عشرة آلاف ، وربما اجتمع فيه مائة ألف أو يزيدون ، وربما تكلم من خاطره على البديهة نظماً ونثراً ، وبالجملة كان أستاذاً فرداً فى الوعظ وغيره ، وقد كان فيه بهاء وترفع فى نفسه وإعجاب وسمو بنفسه أكثر من مقامه ، وذلك ظاهر فى كلامه فى نثره ونظمه ، فمن ذلك قوله :

ما زلت أدرك ما غلا بل ما علا * وأكابد النهج العسير الأطولا
تجرى بى الآمال فى حلباته * جرى السعيد مدى ما أملا
أفضى بى التوفيق فيه إلى الذى * أعيا سواىَ توصلا وتغلغلا
لو كان هذا العلم شخصاً ناطقاً * وسألته هل زار مثلى ؟ قال : لا

ومن شعره وقيل هو لغيره :

إذا قنعت بميسور من القوت * بقيت فى الناس حرا غير ممقوت
ياقوت يومى إذا ما در حلقك لى * فلست آسى على در وياقوت

وله من النظم والنثر شىء كثيراً جداً ، وله كتاب سماه لقط الجمان فى كان وكان ، ومن لطائف كلامه قوله فى الحديث « أعمار أمتى ما بين الستين إلى السبعين » إنما طالت أعمار من قبلنا لطول البادية ، فلما شارف الركب بلد الاقامة قيل لهم حثوا المطى ، وقال له رجل أيما أفضل ؟ أجلس أسبح أو أستغفر ؟ فقال الثوب الوسخ أحوج إلى البخور . وسئل عمن أوصى وهو فى السياق فقال : هذا طين سطحه فى كانون . والتفت إلى ناحيـة الخليفة المستضىء وهو فى الوعظ فقال : يا أمير المؤمنين إن تكلمت خفت منك ، وإن سـكت خفت عليك ، وإن قول القائل لك اتق الله خير لك من قوله لـكم إنكم أهل بيت مغفور لكم ، كان عمر بن الخطاب يقول : إذا بلغنى عن عامل لى أنه ظلم فلم أغـيره فأنا الظالم ، يا أمير المؤمنين . وكان يوسف لا يشبع فى زمن القحط حتى لا ينسى الجائع ، وكان عمر يضرب بطنـه عام الرمادة ويقول قرقرا ولا تقرقرا ، والله لا ذاق عمر سمناً ولا سميناً حتى يخصب الناس . قال فبكى المستضىء وتصدق بمال كثير ، وأطلق المحابيس وكسى خلقا من الفقراء . ولد ابن الجوزى فى حدود سنة عشر وخمسمائة كما تقدم ، وكانت وفاته ليـلة الجمعـة بين العشاءين الثانى عشر من رمضان من هذه السنة ، وله من العمر سبع وثمانون سنة ، وحملت جنازته على رؤس الناس ، وكان الجمع كثيراً جداً ، ودفن بباب حرب عند أبيه بالقرب من الامام أحـمـد ، وكان يوماً

مشهوداً ، حتى قيل : إنه أفطر جماعة من الناس من كثرة الزحام وشدة الحر ، وقد أوصى أن يكتب على قبره هذه الأبيات :

يا كثير العفو لمن * كثرت الذنوب لديه ■ جاءك المذنب يرجو الصـ ■ ـفح عن جرم يديه

أنا ضيف وجزاء الـ ■ ضيف إحسان إليه

وقد كان له من الأولاد الذكور ثلاثة: عبد العزيز ـ وهو أكبرهم ـ مات شابا فى حياة والده فى سنة أربع وخمسين ، ثم أبو القاسم على ، وقد كان عاقا لوالده إلبا عليه فى زمن المحنة وغيرها ، وقد تسلط على كتبه فى غيبته بواسط فباعها بأبخس الثمن ، ثم محيي الدين يوسف ، وكان أنجب أولاده وأصغرهم ولد سنة ثمانين ووعظ بعد أبيه ، واشتغل وحرر وأتقن وساد أقرانه ، ثم باشر حسبة بغداد ، ثم صار رسول الخلفاء إلى الملوك بأطراف البلاد ، ولا سيما بنى أيوب بالشام ، وقد حصل منهم من الأموال والكرامات ما ابتنى به المدرسة الجوزية بالنشابين بدمشق ، وما أوقف عليها ، ثم حصل له من سائر الملوك أموالا جزيلة ، ثم صار أستاذ دار الخليفة المستعصم فى سنة أربعين وستمائة ، واستمر مباشرها إلى أن قتل مع الخليفة عام هارون تركى بن جنكيزخان ، وكان لأبى الفرج عدة بنات منهن رابعة أم سبطه أبى المظفر بن مزعلى صاحب مرآة الزمان ، وهى من أجمع التواريخ وأكثرها فائدة ، وقد ذكره ابن خلكان فى الوفيات فأثنى عليه وشكر تصانيفه وعلومه .

﴿ العماد الكاتب الأصبهانى ﴾

محمد بن محمد بن حامد بن محمد بن عبد الله بن على بن محمود بن هبة الله بن أله ـ بتشديد اللام وضمها ـ ، المعروف بالعماد الكاتب الأصبهانى ، صاحب المصنفات والرسائل ، وهو قرين القاضى الفاضل ، واشتهر فى زمنه ، ومن اشتهر فى زمن الفاضل فهو فاضل ، ولد بأصبهان فى سنة تسع عشرة وخمسمائة ، وقدم بغداد فاشتغل بها على الشيخ أبى منصور سعيد بن الرزاز مدرس النظامية ، وسمع الحديث ثم رحل إلى الشام فحظى عند الملك نور الدين محمود بن زنكى ، وكتب بين يديه وولاه المدرسة التى أنشأها داخل باب الفرج التى يقال لها العمادية ، نسبة إلى سكناه بها وإقامته فيها ، وتدريسه بها ، لا أنه أنشأها وإنما أنشأها نور الدين محمود ، ولم يكن هو أول من درس بها ، بل قد سبقه إلى تدريسها غير واحد ، كما تقدم فى ترجمة نور الدين ، ثم صار العماد كاتباً فى الدولة الصلاحية وكان الفاضل يثنى عليه ويشكره ، قالوا : وكان منطوقه يعتريه جمود وفترة ، وقريحته فى غاية الجودة والحدة ، وقد قال القاضى الفاضل لأصحابه يوماً : قولوا فتكلموا وشبهوه فى هذه الصفة بصفات فلم يقبلها القاضى ، وقال : هو كالزناد ظاهره بارد وداخله نار ، وله من المصنفات الجريدة جريدة النصر فى شعراء العصر ، والفتح القدسى ، والبرق السامى وغير ذلك من المصنفات المسجعة ، والعبارات المتنوعة

والقصائد المطولة . توفى فى مستهل رمضان من هـذه السنة عن ثمان وسبعين سـنة ، ودفن بمقابر الصوفية .

﴿ الأمير بهاء الدين قراقوش ﴾

الفحل الخصى ، أحد كبار كتاب أمراء الدولة الصلاحية ، كان شهما شجاعا فاتكا ، تسلم القصر لما مات العاضد وعمر سور القاهرة محيطا على مصر أيضاً ، وانتهى إلى المقسم وهو المكان الذى اقتسمت فيه الصحابة ما غنموا من الديار المصرية ، و بنى قلعة الجبـل ، وكان صلاح الدين سلمه عكا ليعمر فيها أماكن كثيرة فوقع الحصار وهو بها ، فلما خرج البدل منها كان هو من جملة من خرج ، ثم دخلها ابن المشطوب. وقد ذكر أنه أسر فافتدى نفسه بعشرة آلاف دينار ، وعاد إلى صلاح الدين ففرح به فرحا شـديدا ، ولما توفى فى هذه السنة احتاط العادل عـلى تركته وصارت أقطاعـه وأملاكه للملك الكامل محمد بن العادل . قال ابن خلكان : وقد نسب إليه أحكام عجيبة ، حتى صنف بعضهم جزءاً لطيفا سماه كتاب الفاشوش فى أحكام قراقوش ، فذكر أشياء كثيرة جدا ، وأظنها موضوعة عليه ، فان الملك صلاح الدين كان يعتمد عليه ، فكيف يعتمد على من بهذه المثابة والله أعلم .

﴿ مكلبة بن عبد الله المستنجدى ﴾

كان تركياً عابدا زاهدا ، سمع المؤذن وقت السحر وهو ينشد على المنارة :

يا رجال الليل جدوا * رب صوت لا يرد
ما يقوم الليل إلا * من له عزم وجد

فبكى مكلبة وقال للمؤذن يا مؤذن زدنى ، فقال :

قد مضى الليل وولى * وحبيبى قد تخلا

فصرخ مكلبة صرخـة كان فيها حتفه ، فأصبح أهل البلد قد اجتمعوا عـلى بابه فالسعيد منهم من وصل إلى نعشه رحمه الله تعالى .

﴿ أبو منصور بن أبى بكر بن شجاع ﴾

المركاسى ببغداد ، و يعرف بابن نقطة ، كان يدور فى أسواق بغداد بالنهار ينشد كان وكان والمواليا ، و يسحر الناس فى ليالى رمضان ، وكان مطبوعا ظريفا خليعا ، وكان أخوه الشيخ عبد الغنى الزاهد من أكابر الصالحين ، له زاوية ببغداد يزار فيها ، وكان له أتباع ومريدون ، ولا يدخر شيئا يحصل له من الفتوح ، تصدق فى ليلة بألف دينار وأصحابه صيام لم يدخر منها شيئا لعشائهم ، و زوجته أم الخليفة بجارية من خواصها وجهزتها بعشرة آلاف دينار إليه فما حال الحول وعندهم من ذلك شئ سوى هاون ، فوقف سائل ببابه فالح فى الطلب فأخرج إليه الهاون فقال : خذ هـذا وكل به ثلاثين يوماً ، ولا تسأل الناس ولا تشنع على الله عز وجل . هذا الرجـل من خيار الصالحين ، والمقصود أنه قال لأخيه أبى

منصور : ويحك أنت تدور فى الأسواق وتنشد الأشعار وأخوك من قد عرفت ؟ فأنشأ يقول فى جواب ذلك بيتين مواليا من شعره على البديهة :

قد خاب من شبهالجزعة إلى درة ■ وقاس قحبة إلى مستحيية حره

أنا مغنى وأخى زاهد إلى مرة ■ فى الدر بيرى ذىحلوةوذى مره

وقد جرى عنده مرة ذكر قتل عثمان وعلى حاضر، فأنشأ يقول كان وكان ■ ومن قتل فى جواره مثل ابن عفان فاعتذر ■ يجب عليه أن يقبل فى الشام عذر يزيد ■ فأرادت الروافض قتله فاتفق أنه بعض الليالى يسحر الناس فى رمضان إذ مر بدار الخليفة فعطس الخليفة فى الطارقة فشمته أبو منصور هذا من الطريق ، فأرسل إليه مائة دينار ، ورسم بحمايته من الروافض ، إلى أن مات فى هذه السنة رحمه الله . وفيها توفى مسند الشام .

﴿ أبو طاهر بركات بن إبراهيم بن طاهر ﴾

الخشوعى ■ شارك ابن عساكر فى كثير من مشيخته ■ وطالت حياته بعد وفاته بسبع وعشرين سنة فألحق فيها الاحفاد بالأجداد .

﴿ ثم دخلت سنة ثمان وتسعين وخمسمائة ﴾

فيها شرع الشيخ أبو عمر محمد بن قدامة بانى المدرسة بسفح قايسون ■ فى بناء المسجد الجامع بالسفح ■ فاتفق عليه رجل يقال له الشيخ أبو داود محاسن الغامى ■ حتى بلغ البناء مقدار قامة فنفد ما عنده ، وما كان معه من المال ، فأرسل الملك المظفر كوكرى بن زين الدين صاحب إربل مالا جزيلا ليتمه به ■ فكمل وأرسل ألف دينار ليساق بها إليه الماء من بردى ■ فلم يمكن من ذلك الملك المعظم صاحب دمشق ، واعتذر بأن هذا فرش قبور كثيرة المسلمين ، فصنع له بئر وبغل يدور ، ووقف عليه وقفا لذلك . وفيها كانت حروب كثيرة وخطوب طويلة بين الخوارزمية والغورية ببلاد المشرق بسطها ابن الأثير واختصرها ابن كثير . وفيها درس بالنظامية مجد الدين يحيى بن الربيع وخلع عليه خلعة سنية سوداء وطرحة كحلى ، وحضر عنده العلماء والأعيان . وفيها تولى القضاء ببغداد أبو الحسن على بن سليمان الجيلى وخلع عليه أيضاً .

وفيها توفى من الأعيان ﴿ القاضى ابن الزكى ﴾

محمد بن على بن محمد بن يحيى بن عبد العزيز أبو المعالى القرشى ■ محيى الدين قاضى قضاة دمشق وكل منهما كان قاضيا أبوه وجده وأبوجده يحيى بن على ، وهوأول من ولى الحكم بدمشق منهم ، وكان هو جد الحافظ أبى القاسم بن عساكر لأمه ، وقد ترجمه ابن عساكر فى التاريخ ولم يزد على القرشى . قال الشيخ أبو شامة : ولو كان أمويا عثمانيا كما يزعمون لذكر ذلك ابن عساكر ■ إذ كان فيه شرف لجده

وخاليه محمد وسلطان . فلو كان ذلك صحيحا لما خفي على ابن عساكر ، اشتغل ابن الزكي على القاضي شرف الدين أبي سعد عبد الله بن محمد بن أبي عصرون . وناب عنه في الحكم ، وهو أول من ترك النيابة . وهو أول من خطب بالقدس لما فتح كما تقدم ، ثم تولى قضاء دمشق وأضيف إليه قضاء حلب أيضاً . وكان ناظر أوقاف الجامع ، وعزل عنها قبل وفاته بشهور ، ووليها شمس الدين بن الليثي ضمانا ، وقد كان ابن الزكي ينهى الطلبة عن الاشتغال بالمنطق وعلم الكلام ، ويمزق كتب من كان عنده شيء من ذلك بالمدرسة النورية ، وكان يحفظ العقيدة المسماة بالمصباح للغزالي ، ويحفظها أولاده أيضاً . وكان له درس في التفسير يذكره بالكلاسة ، تجاه تربة صلاح الدين ، ووقع بينه وبين الاسماعيلية فأرادوا قتله فاتخذ له بابا من داره إلى الجامع ليخرج منه إلى الصلاة ، ثم إنه خولط في عقله ، فكان يعتريه شبه الصرع إلى أن توفي في شعبان من هذه السنة ، ودفن بتربته بسفح قاسيون ويقال إن الحافظ عبد الغني دعا عليه فحصل له هذا الداء العضال ، ومات ، وكذلك الخطيب الدولعي توفي فيها وهما اللذان قاما على الحافظ عبد الغني فماتا في هذه السنة . فكانا عبرة لغيرهما .

﴿ الخطيب الدولعي ﴾

ضياء الدين أبو القاسم عبد الملك بن زيد بن ياسين الثعلبي الدولعي ، نسبة إلى قرية بالموصل ، يقال لها الدولعية . ولد بها في سنة ثمان عشرة وخمسمائة ، وتفقه ببغداد على مذهب الشافعي وسمع الحديث فسمع الترمذي على أبي الفتح الكروجي ، والنسائي على أبي الحسن علي بن أحمد البردي ثم قدم دمشق فولي بها الخطابة وتدريس الغزالية ، وكان زاهداً متورعا حسن الطريقة مهيباً في الحق ، توفي يوم الثلاثاء تاسع عشر ربيع الأول ، ودفن بمقبرة باب الصغير عند قبور الشهداء ، وكان يوم جنازته يوماً مشهوداً ، وتولى بعده الخطابة ولد أخيه محمد بن أبي الفضل بن زيد سبعا وثلاثين سنة . وقيل ولده جمال الدين محمد . وقد كان ابن الزكي ولى ولده الزكي فصلى صلاة واحدة فتشفع جمال الدين بالأمير علم الدين أخي العادل ، فولاه إياها فبقي فيها إلى أن توفي سنة خمس وثلاثين وستمائة .

﴿ الشيخ علي بن علي بن عليش ﴾

اليمني العابد الزاهد ، كان مقيما شرقي الكلاسة ، وكانت له أحوال وكرامات . نقلها الشيخ علم الدين السخاوي عنه ، ساقها أبو شامة عنه .

﴿ الصدر أبو الثناء حماد بن هبة الله ﴾

ابن حماد الحراني ، التاجر ، ولد سنة إحدى عشرة عام نور الدين الشهيد ، وسمع الحديث ببغداد ومصر وغيرها من البلاد . وتوفي في ذي الحجة ، ومن شعره قوله :

تنقل المرء في الآفاق يكسبه * محاسنا لم يكن منها ببلدته

أما ترى البيدق الشطرنج أكسبه * حسن التنقل حسنا فوق زينته

الست الجليلة ﴿ بنفشا بنت عبد الله ﴾

عتيقة المستضيء ، كانت من أكبر حظاياه ، ثم صارت بعده من أكثر الناس صدقة وبراً وإحسانا إلى العلماء والفقراء ، لها عند تربتها ببغداد عند تربة معروف الكرخى صدقات وبر .

﴿ ابن المحتسب الشاعر أبو السكر ﴾

محمود بن سليمان بن سعيد الموصلى يعرف بابن المحتسب ، تفقه ببغداد ثم سافر إلى البلاد وصحب ابن الشهرزورى وقدم معه ، فلما ولى قضاء بغداد ولاه نظر أوقاف النظامية ، وكان يقول الشعر ، وله أشعار فى الخمر لا خير فيها تركتها تنزها عن ذلك ، وتقذرا لها .

﴿ ثم دخلت سنة تسع وتسعين وخمسمائة ﴾

قال سبط ابن الجوزى فى مرآته : فى ليلة السبت سلخ المحرم هاجت النجوم فى السماء وماجت شرقا وغربا ، وتطايرت كالجراد المنتشر يمينا وشمالا ، قال : ولم ير مثل هذا الا فى عام المبعث ، وفى سنة إحدى وأربعين ومائتين . وفيها شرع بعمارة سور قلعة دمشق وابتدئ ببرج الزاوية الغربية القبلية المجاور لباب النصر . وفيها أرسل الخليفة الناصر الخلع وسراويلات الفتوة إلى الملك العادل وبنيه . وفيها بعث العادل ولده موسى الأشرف لمحاصرة ماردين ، وساعده جيش سنجار والموصل ثم وقع الصلح على يدى الظاهر ، على أن يحمل صاحب ماردين فى كل سنة مائة ألف وخمسين ألف دينار ، وأن تكون السكة والخطبة للعادل ، وأنه متى طلبه بجيشه يحضر إليه . وفيها كمل بناء رباط المورريانية ، ووليه الشيخ شهاب الدين عمر بن محمد الشهرزورى ، ومعه جماعة من الصوفية ، ورتب لهم من المعلوم والجراية ما ينبغى لمثلهم . وفيها احتجر الملك العادل على محمد بن الملك العزيز وإخوته وسيرهم إلى الرها خوفا من آفاتهم بمصر . وفيها استحوذت الكرج على مدينة دوين فقتلوا أهلها ونهبوها ، وهى من بلاد آذربيجان ، لاشتغال ملكها بالفسق وشرب الخمر قبحه الله ، فتحكمت الكفرة فى رقاب المسلمين بسببه ، وذلك كله غل فى عنقه يوم القيامة .

وفيها توفى ﴿ الملك غياث الدين الغورى أخو شهاب الدين ﴾

فقام بالملك بعده ولده محمود ، وتلقب بلقب أبيه ، وكان غياث الدين عاقلا حازماً شجاعاً ، لم تكسر له راية مع كثرة حروبه ، وكان شافعى المذهب ، ابتنى مدرسة هائلة للشافعية ، وكانت سيرته حسنة فى غاية الجودة . وفيها توفى من الأعيان .

﴿ الأمير علم الدين أبو منصور (١) ﴾

سليمان بن شيروة بن جندر أخو الملك العادل لأبيه ، فى تاسع عشر من المحرم ، ودفن بداره التى

(١) فى النجوم الزاهرة : سليمان بن جندر .

خطها مدرسة فى داخل باب الفراديس فى محلة الافتراس ، ووقف عليها الحمام بكمالها تقبل الله منه

﴿ القاضى الضياء الشهرزورى ﴾

أبو الفضائل القاسم بن يحيى بن عبـد الله بن القاسم الشهرزورى الموصلى ،قاضى قضاة بغداد، وهو ابن أخى قاضى قضـاة دمشق كمال الدين الشهرزورى ، أيام نور الدين . ولما توفى سـنة ست وسبعين فى أيام صلاح الدين أوصى لولد أخيه هذا بالقضاء فوليه ، ثم عزل عنه بابن أبى عصرون ، وعوض بالسفارة إلى الملوك ، ثم تولى قضاء بلدة الموصل ، ثم استدعى إلى بغداد فوليها سنتين وأربعة أشهر ، ثم استقال الخليفة فلم يقله لحظوته عنده ، فاستشفع فى زوجته ست الملوك عـلى أم الخليفة ، وكان لها مكانة عندها ، فأجيب إلى ذلك فصار إلى قضاء حماه لمحبته إياها ، وكان يعاب عليه ذلك، وكانت لديه فضائل وله أشعار رائقة ، توفى فى حماه فى نصف رجب منها .

﴿ عبد الله بن على بن نصر بن حمزة ﴾

أبو بكر البغدادى المعروف بابن المرستانية ، أحد الفضلاء المشهورين . سمع الحديث وجمعه ، وكان طبيباً منجماً يعرف علوم الأوائل وأيام الناس ، وصنف ديوان الاسلام فى تاريخ دار السلام ، ورتبه على ثلاثمائة وستين كتابا إلا أنه لم يشتهر ، وجمع سيرة ابن هبيرة ، وقد كان يزعم أنه من سلالة الصديق فتكلموا فيه بسبب ذلك . وأنشد بعضهم :

دع الأنساب لا تعرض لتيم * فان الهجن من ولد الصميم
لقد أصبحت من تيم دعيا * كدعوى حيص بيص إلى تميم

﴿ ابن النجا الواعظ ﴾

على بن إبراهيم بن نجا زين الدين أبو الحسن الدمشقى ، الواعظ الحنبلى ، قدم بغداد فتفقه بها وسمع الحديث ثم رجع إلى بلده دمشق ، ثم عاد إليها رسولا من جهة نور الدين فى سنة أربع وستين ، وحدث بها ، ثم كانت له حظوة عند صلاح الدين ، وهو الذى نم على عمارة اليمنى وذويه فصلبوا ، وكانت له مكانة بمصر ، وقد تكلم يوم الجمعة التى خطب فيها بالقدس بعد الفراغ من الجمعة ، وكان وقتاً مشهوداً ، وكان يعيش عيشا أطيب من عيش الملوك فى الأطعمة والملابس ، وكان عنده أكثر من عشرين سرية من أحسن النساء ، كل واحدة بألف دينار ، فكان يطوف عليهن ويغشاهن وبعد هذا كله مات فقيراً لم يخلف كفنا ، وقد أنشد وهو على منبره للوزير طلائع بن رزيك :

مشيبك قد قضى شرخ الشباب * وحل الباز فى وكر الغراب
تنام ومقلة الحدثان يقظى * وما ناب النوائب عنك ناب
فكيف بقاء عمرك وهو كنز * وقد أنفقت منه بلا حساب ؟

الشيخ أبو البركات (محمد بن أحمد بن سعيد التكريتى) يعرف بالمؤيد ، كان أديباً شاعراً . ومما نظمه فى الوجيه النحوى حين كان حنبليا فانتقل حنفيا ، ثم صار شافعيا ، نظم ذلك فى حلقة النحو بالنظامية فقال :

ألا مبلغا عنى الوجيه رسالة * وإن كان لا تجدى لديه الرسائل
تمذهبت للنعمان بعد ابن حنبل * وذلك لما أعوزتك المآكل
وما اخترت قول الشافعى ديانة * ولكنما تهوى الذى هو حاصل
وعما قليل أنت لا شك صائر * إلى مالك فانظر إلى ما أنت قائل ؟

﴿ الست الجليلة زمرد خاتون ﴾

أم الخليفة الناصر لدين الله زوجة المستضىء . كانت صالحة عابدة كثيرة البر والاحسان والصلات والأوقاف . وقد بنت لها تربة إلى جانب قبر معروف . وكانت جنازتها مشهورة جداً ، واستمر العزاء بسببها شهراً . عاشت فى خلافة ولدها أربعا وعشرين سنة نافذة الكلمة مطاعة الأوامر .

وفيها كان مولد الشيخ شهاب الدين أبى شامة ، وقد ترجم نفسه عند ذكر مولده فى هذه السنة فى الذيل ترجمة مطولة ، فينقل إلى سنة وفاته . وذكر بدو أمره ، واشتغاله ومصنفاته وشيئا كثيراً من شعاره ، وما رؤى له من المنامات المبشرة . وفيها كان ابتداء ملك جنكيز خان ملك التتار ، عليه من الله ما يستحقه ، وهو صاحب الباسق وضعها ليتحاكموا إليها - يعنى التتار ومن معهم من أمراء الترك — ممن يبتغى حكم الجاهلية — وهو والد تولى ، وجد هولاكو بن تولى - الذى قتل الخليفة المستعصم وأهل بغداد فى سنة ست وخمسين وستمائة كما سيأتى بيانه إن شاء الله تعالى فى موضعه . والله سبحانه وتعالى أعلم .

﴿ سنة ستمائة من الهجرة النبوية ﴾

فى هذه السنة كانت الفرنج قد جمعوا خلقا منهم ليستعيدوا بيت المقدس من أيدى المسلمين . فأشغلهم الله عن ذلك بقتال الروم ، وذلك أنهم اجتازوا فى طريقهم بالقسطنطينية فوجدوا ملوكها قد اختلفوا فيما بينهم . فحاصروها حتى فتحوها قسرا . وأباحوها ثلاثة أيام قتلا وأسرا ، وأحرقوا أكثر من ربعها . وما أصبح أحد من الروم فى هذه الأيام الثلاثة إلا قتيلا أو فقيراً أو مكبولا أو أسيراً ، ولجأ عامة من بقى منها إلى كنيستها العظمى المسماة بإياصوفيا ، فقصدهم الفرنج فخرج إليهم القسيسون بالأناجيل ليتوسلوا إليهم ويتلوا ما فيها عليهم ، فما التفتوا إلى شىء من ذلك ، بل قتلوهم أجمعين أكتعين أبصعين . وأخذوا ما كان فى الكنيسة من الحلى والأذهاب والأموال التى لا تحصى ولا

تعد ، وأخـذوا ما كان على الصلبان والحيطان ، والحمد لله الرحيم الرحمن، الذى ما شاء كان ، ثم اقترع ملوك الفرنج وكانوا ثلاثة وهم دوق البنادقة ، وكان شيخا أعمى يقاد فرسه ، ومركيس الافرنسيس وكندا بلند ، وكان أكثرهم عدداً وعدداً . فخرجت القرعة له ثلاث مرات ، فولوه ملك القسطنطينية وأخذ الملكان الآخران بعض البلاد ، وتحول الملك من الروم إلى الفرنج بالقسطنطينية فى هذه السنة ولم يبق بأيدى الروم هنالك إلا ما وراء الخليج ، استحوذ عليه رجل من الروم يقال له تسكرى ، ولم يزل مالـكا لتلك الناحية حتى توفى . ثم إن الفرنج قصدوا بلاد الشام وقد تقووا بملكهم القسطنطينية فنزلوا عكا وأغاروا على كثير من بلاد الاسلام من ناحية الغور وتلك الأراضى، فقتلوا وسبوا ، فنهض إليهم العادل وكان بدمشق ، واستدعى الجيوش المصرية والشرقية ونازلهم بالقرب من عكا ، فكان بينهم قتال شديد وحصـار عظيم ، ثم وقع الصلح بينهـم والهدنة وأطلق لهم شيئا من البلاد فانا لله و إنا إليه راجعون .

وفيها جرت حروب كثيرة بين الخوارزمية والغورية بالمشرق يطول ذكرها . وفيها تحارب صاحب الموصل نور الدين وصاحب سنجار قطب الدين وساعد الأشرف بن العـادل القطب ، ثم اصطلحوا وتزوج الأشرف أخت نور الدين ، وهى الأتابكية بنت عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى ، واقفة الأتابكية التى بالسفح ، وبها تربتها . وفيها كانت زلزلة عظيمة بمصر والشام والجزيرة وقبرص وغيرها من البلاد . قاله ابن الأثير فى كامله . وفيها تغلب رجل من التجار يقال له محمود بن محمـد الحميرى عـلى بعض بلاد حضرموت ظفار وغيرها ، واسـتمرت أيامه إلى سـنة تسع عشرة وستمائة وما بعدها .

وفى جمادى الأولى منها عقد مجلس لقاضى القضاة ببغداد وهو أبو الحسن على بن عبد الله بن سلمان الجيلى بدار الوزير ، وثبت عليه محضر بأنه يتناول الرشا فعزل فى ذلك المجلس وفسق ونزعت الطرحة عن رأسه ، وكانت مدة ولايته سنتين وثلاثة أشهر .

وفيها كانت وفاة الملك ركن الدين بن قلج أرسـلان ، كان ينسب إلى اعتقاد الفلاسفة ، وكان كهفاً لمن ينسب إلى ذلك ، وملجأ لهم ، وظهر منه قبـل موته تجهرم عظيم ، وذلك أنه حاصر أخاه شقيقه ـ وكان صاحب أنكورية ، وتسمى أيضاً أنقرة ـ مدة سنين حتى ضيق عليه الأقوات بها فسلمها إليه قسراً ، على أن يعطيه بعض البلاد . فلما تمكن منه ومن أولاده أرسل إليهم من قتلهم غدراً وخديعة ومكرا فلم ينظر بعد ذلك إلا خمسة أيام فضر به الله تعالى بالقولنج سبعة أيام ومات (فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين) وقام بالملك من بعده ولده أقلج أرسلان ، وكان صغيراً فبقى سنة واحدة ، ثم نزع منـه الملك وصار إلى عمه كنخسرو . وفيها قتل خلق كثير من الباطنية بواسـط . قال ابن

الأثير : فى رجب منها اجتمع جماعة من الصوفية برباط ببغداد فى سماع فأنشدهم، وهو الجمال الحلى :

أعاذلتى أقصرى * كفى بمشيبى عذل
شباب كأن لم يكن * ومشيب كأن لم يزل
وبثى ليالى الوصا * ل أواخرها والأول
وصفرة لون المحب * ب عند استماع الغزل
لئن عاد عتبى لكم * حلالى العيش واتصل
فلست أبالى بما نالنى * ولست أبالى بأهل ومل

قال فتحرك الصوفية على العادة فتواجد من بينهم رجل يقال له أحمد الرازى فخر مغشياً عليه ، فحركوه فاذا هو ميت . قال : وكان رجلا صالحا ، وقال ابن الساعى كان شيخا صالحا صحب الصدر عبد الرحيم شيخ الشيوخ فشهد الناس جنازته ، ودفن بباب إبرز .

وفيها توفى من الأعيان .

﴿ أبو القاسم بهاء الدين ﴾

الحافظ ابن الحافظ أبو القاسم على بن هبة الله بن عساكر ، كان مولده فى سنة سبع وعشرين وخمسمائة ، أسمعه أبوه الكثير ، وشارك أباه فى أكثر مشايخه ، وكتب تاريخ أبيه مرتين بخطه ، وكتب الكثير وأسمع وصنف كتبا عدة ، وخلف أباه فى إسماع الحديث بالجامع الأموى ، ودار الحديث النورية . مات يوم الخميس ثامن صفر ودفن بعد العصر على أبيه بمقابر باب الصغير شرقى قبور الصحابة خارج الحظيرة .

﴿ الحافظ عبد الغنى المقدسى ﴾

ابن عبد الواحد بن على بن سرور الحافظ أبو محمد المقدسى ، صاحب التصانيف المشهورة ، من ذلك الكمال فى أسماء الرجال ، والأحكام الكبرى والصغرى وغير ذلك ، ولد بجماعيل فى ربيع الآخر سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ، وهو أسن من عميه الامام موفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسى ، والشيخ أبى عمر ، بأربعة أشهر ، وكان قدومهما مع أهلهما من بيت المقدس إلى مسجد أبى صالح ، خارج باب شرقى أولا ، ثم انتقلوا إلى السفح فعرفت محلة الصالحية بهم ، فقيل لها الصالحية ، فسكنوا الدير ، وقرأ الحافظ عبد الغنى القرآن وسمع الحديث وارتحل هو والموفق إلى بغداد سنة ستين وخمسمائة ، فأنزلهما الشيخ عبد القادر عنده فى المدرسة ، وكان لايترك أحداً ينزل عنده ، ولكن توسم فيهما الخير والنجابة والصلاح فأكرمهما وأسمعهما ، ثم توفى بعد مقدمهما بخمسين ليلة رحمه الله ، وكان ميل عبد الغنى إلى الحديث وأسماء الرجال ، وميل الموفق إلى الفقه واشتغلا على الشيخ أبى الفرج ابن الجوزى ، وعلى الشيخ أبى الفتح ابن المنى ، ثم قدما دمشق بعد أربع سنين

فدخل عبد الغنى إلى مصر واسكندرية ، ثم عاد إلى دمشق ، ثم ارتحل إلى الجزيرة و بغداد ، ثم رحل إلى أصبهان فسمع بها الكثير ، و وقف على مصنف للحافظ أبى نعيم فى أسماء الصحابة ، قلت : وهو عندى بخط أبى نعيم . فأخذ فى مناقشته فى أماكن من الكتاب فى مائة وتسعين موضعاً ، فغضب بنو الخجندى من ذلك ، فبغضوه وأخرجوه منها مختفياً فى إزار . ولما دخل فى طريقه إلى الموصل سمع كتاب العقيلى فى الجرح والتعديل ، فثار عليه الحنفية بسبب أبى حنيفة ، فخرج منها أيضاً خائفا يترقب ، فلما ورد دمشق كان يقرأ الحديث بعد صلاة الجمعة برواق الحنابلة من جامع دمشق ، فاجتمع الناس عليه و إليه ، وكان رقيق القلب سريع الدمعة ، فحصل له قبول من الناس جدا ، فحسده بنو الزكى والدولعى وكبار الدماشقة من الشافعية و بعض الحنابلة ، وجهزوا الناصح الحنبلى ، فتكلم تحت قبة النسر ، وأمروه أن يجهر بصوته مهما أمكنه ، حتى يشوش عليه ، فحول عبد الغنى ميعاده إلى بعد العصر فذكر يوماً عقيدته على الكرسى فثار عليه القاضى ابن الزكى ، وضياء الدين الدولعى ، وعقدوا له مجلساً فى القلعة يوم الاثنين الرابع والعشرين من ذى القعدة سنة خمس وتسعين . وتكلموا معه فى مسألة العلو ومسألة النزول ، ومسألة الحرف والصوت ، وطال الكلام وظهر عليهم بالحجة ، فقال له برغش نائب القلعة : كل هؤلاء على الضلالة وأنت على الحق ؟ [قال نعم] فغضب برغش من ذلك وأمره بالخروج من البلد ، فارتحل بعد ثلاث إلى بعلبك ، ثم إلى القاهرة ، فآواه الطحانيون فكان يقرأ الحديث بها فثار عليه الفقهاء بمصر أيضاً وكتبوا إلى الوزير صفى الدين بن شكر فأقر بنفيه إلى المغرب فمات قبل وصول الكتاب يوم الاثنين الثالث والعشرين من ربيع الأول من هذه السنة ، وله سبع وخمسون سنة ، ودفن بالقرافة عند الشيخ أبى عمرو بن مرزوق رحمهما الله . قال السبط : كان عبد الغنى ورعا زاهدا عابداً ، يصلى كل يوم ثلاثمائة ركعة كورد الامام أحمد ، ويقوم الليل و يصوم عامة السنة ، وكان كريما جواداً لا يدخر شيئا ، و يتصدق على الأرامل والأيتام حيث لا يراه أحد ، وكان يرقع ثوبه و يؤثر بثمن الجديد ، وكان قد ضعف بصره من كثرة المطالعة والبكاء وكان أوحد زمانه فى علم الحديث والحفظ . قلت : وقد هذب شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزى كتابه الكمال فى أسماء الرجال ـ رجال الكتب الستة ـ بتهذيبه الذى استدرك عليه فيه أماكن كثيرة ، نحواً من ألف موضع ، وذلك الامام المزى الذى لا يمارى ولا يجارى ، وكتابه التهذيب لم يسبق إلى مثله ، ولا يلحق فى شكاله فرحمهما الله ، فلقد كانا نادرين فى زمانهما فى أسماء الرجال حفظا و إتقانا وسماعا و إسماعا وسردا للمتون وأسماء الرجال ، والحاسد لا يفلح ولا ينال منالا طائلا .

قال ابن الأثير : وفيها توفى . ﴿ أبو الفتوح أسعد بن محمود العجلى ﴾

صاحب تتمة التتمة أسعد بن أبى الفضل بن محمود بن خلف العجلى الفقيه الشافعى الأصبهانى

الواعظ منتخب الدين ، سمع الحديث وتفقه و برع وصنف تتمة التتمة لأبى سعد الهروى ، كان زاهدا عابدا ، وله شرح مشكلات الوسيط والوجيز ، توفى فى صفر سنة ستمائة .

﴿ البنانى الشاعر ﴾

أبو عبد الله محمد بن المهنا الشاعر المعروف بالبنانى ، مدح الخلفاء والوزراء وغيرهم ، ومدح وكبر وعلت سنه ، وكان رقيق الشعر ظريفه قال :

ظلما ترى مغرما فى الحب تزجره ■ وغيره بالهوى أمسيت تنكره
يا عاذل الصب لو عاينت قاتله ■ لو جنة وعذار كنت تعذره
أفدى الذى بسحر عينيه يعلمنى * إذا تصدى لقتلى كيف أسحره
يستمتع الليل فى نوم وأسهره ■ إلى الصباح وينسانى وأذكره

﴿ أبو سعيد الحسن بن خلد ﴾

ابن المبارك النصرانى المازدانى الملقب بالوحيد ، اشتغل فى حداثته بعلم الأوائل وأتقنه وكانت له يد طولى فى الشعر الرائق ، فمن ذلك قوله قاتله الله .

أتانى كتاب أنشأته أنامل * حوت أبحرا من فيضها يغرق البحر
فوا عجبا أنى التوت فوق طرسه * وما عودت بالقبض أنمله العشر

وله أيضاً

لقد أثرت صدغاه فى لون خده * ولاحا كفىء من وراء زجاج
ترى عسكر الروم فى الزيج مذبدت ■ كطائفة تسعى ليوم هياج
أم الصبح بالليل البهيم موشح * حكى آبنوساً فى صحيفة عاج
لقد غار صدغاه على ورد خده ■ فسيجه من شعره بسياج

الطاووسى صاحب الطريقة .

﴿ العراقى محمد بن العراقى ﴾

ركن الدين أبو الفضل القزوينى ، ثم الهمدانى ، المعروف بالطاووسى ، كان بارعا فى علم الخلاف والجدل والمناظرة ، أخذ علم ذلك عن رضى الدين النيسابورى الحنفى ، وصنف فى ذلك ثلاث تعاليق قال ابن خلكان : أحسنهن الوسطى ، وكانت إليه الرحلة بهمدان ، وقد بنى له بعض الحجبة بها مدرسة تعرف بالحاجبية ، ويقال إنه منسوب إلى طاووس بن كيسان التابعى فالله أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة إحدى وستمائة ﴾

فيها عزل الخليفة ولده محمد الملقب بالظاهر عن ولاية العهد بعد ما خطب له سبعة عشرة سنة ، وولى العهد ولده الآخر عليا ، فمات على عن قريب فعاد الأمر إلى الظاهر ، فبويع له بالخلافة

بعد أبيه الناصر كما سيأتى فى سنة ثلاث وعشرين وستمائة .

وفيها وقع حريق عظيم بدار الخلافة فى خزائن السلاح ، فاحترق من ذلك شىء كثير من السلاح والأمتعة والمساكن ما يقارب قيمته أربعة آلاف ألف دينار ، وشاع خبر هذا الحريق فى الناس ، فأرسلت الملوك من سائر الأقطار هدايا أسلحة إلى الخليفة عوضاً عن ذلك وفوقه من ذلك شيئا كثيراً .

وفيها عاثت الكرج ببلاد المسلمين فقتلوا خلقا ، وأسروا آخرين . وفيها وقعت الحرب بين أمير مكة قتادة الحسينى ، وبين أمير المدينة سالم بن قاسم الحسينى ، وكان قتادة قد قصد المدينة فحصر سالما فيها ، فركب إليه سالم بعد ما صلى عند الحجرة فاستنصر الله عليه ، ثم برز إليه فكسره وساق وراءه إلى مكة فحصره بها ، ثم إن قتادة أرسل إلى أمراء سالم فأفسدهم عليه فكر سالم راجعاً إلى المدينة سالماً .

وفيها ملك غياث الدين كنجشرى بن قلج أرسلان بن مسعود بن قلج بلاد الروم واستلبها من ابن أخيه ، واستقر هو بها وعظم شأنه وقويت شوكته ، وكثرت عساكره وأطاعه الأمراء وأصحاب الأطراف، وخطب له الأفضل بن صلاح الدين بسميساط ،وسار إلى خدمته . واتفق فى هذه السنة أن رجلا ببغداد نزل إلى دجلة يسبح فيها وأعطى ثيابه لغلامه فغرق فى الماء فوجد فى ورقة بعمامته هذه الأبيات :

يا أيها الناس كان لى أمل * قصر بى عن بلوغه الأجل

فليتق الله ربه رجل * أمكنه فى حياته العمل

ما أنا وحدى بفناء بيت * يرى كل إلى مثله سينتقل

وفيها توفى من الأعيان . ﴿ أبو الحسن على بن عنتر بن ثابت الحلى ﴾

المعروف بشميم ، كان شيخا أديباً لغويا شاعراً جمع من شعره حماسة كان يفضلها على حماسة أبى تمام ، وله خمريات يزعم أنها أخل من التى لأبى نواس . قال أبو شامة فى الذيل : كان قليل الدين ذا حماقة ورقاعة وخلاعة ، وله حماسة ورسائل . قال ابن الساعى : قدم بغداد فأخذ النحو عن ابن الخشاب ، حصل منه طرفا صالحا ، ومن اللغة وأشعار العرب ، ثم أقام بالموصل حتى توفى بها . ومن شعره:

لا تسرحن الطرف فى مقل المها * فمصارع الآجال فى الآمال

كم نظرة أردت وما أخرت * بد كم قبلت أوان قتال

سنحت وما سمحت بتسليمة * وأغلال التحية فعلة المختال

وله فى التجنيس :

ليت من طول بالشأم ثواه وثوا به * جعل العود إلى الزوراء من بعض ثوابه

أترى يوطئنى الده * ر ثرى مسك ترابه ■ وأرانى نور عينى * موطئالى وثرى به

وله أيضاً فى الخمر وغيره :

﴿ أبو نصر محمد بن سعد الله (١) ﴾

ابن نصر بن سعيد الأرتاحى ، كان سخياً بهيا واعظا حنبلياً فاضلا شاعرا مجيداً وله :

نفس الفتى إن أصلحت أحوالها * كان إلى نيل المنى أحوى لها
وإن تراها سددت أقوالها * كان على حمل العلى أقوى لها
فان تبدت حال من لها لها ■ فى قبره عند البلى لها لها

﴿ أبو العباس أحمد بن مسعود ﴾

ابن محمد القرطبى الخزرجى ، كان إماما فى التفسير والفقه والحساب والفرائض والنحو واللغة والعروض والطب ، وله تصانيف حسان ، وشعر رائق منه قوله :

وفى الوجنات ما فى الروض لكن * لرونق زهرها معنى عجيب
وأعجب ما التعجب منه ■ أنى لتيار تحمله عصيب (٢)

﴿ أبو الفداء إسماعيل بن برتعس السنجارى ﴾

مولى صاحبها عماد الدين زنكى بن مودود ، وكان جنديا حسن الصورة مليح النظم كثير الأدب ومن شعره ما كتب به إلى الأشرف موسى بن العادل يعزيه فى أخ له اسمه يوسف :

دموع المعالى والمكارم أذرفت ■ وربع العلى قاع لفقدك صفصف
غدا الجود والمعروف فى اللحد ثاويا ■ غداة ثوى فى ذلك اللحد يوسف
متى خطفت يد المنية روحه ■ وقد كان للأرواح بالبيض يخطف
سقته ليالى الدهر كأس حمامها * وكان بسقى الموت فى الحرب يعرف
فوا حسرتا لو ينفع الموت حسرة ■ ووا أسفا لو كان يجدى التأسف
وكان على الارزاء نفسى قوية * ولكنها عن حمل ذا الرزء تضعف

﴿ أبو الفضل بن الياس بن جامع الأربلى ﴾

تفقه بالنظامية وسمع الحديث ، وصنف التاريخ وغيره ، وتفرد بحسن كتابة الشروط ، وله فضل ونظم ، فمن شعره :

أممرض قلبى ، ما لهجرك آخر؟ * ومسهر طرفى ، هل خيالك زائر؟
ومستعذب التعذيب جورا بصده ■ أمالك فى شرع المحبة زاجر؟
هنيئا لك القلب الذى قد وقفته ■ على ذكر أيامى وأنت مسافر

(١) فى النجوم الزاهرة : محمد بن أحمد بن حامد أبو عبد الله (٢) كذا فى الأصل والبيت مضطرب فليحرر

فلا فارق الحزن المبرح خاطرى ▪ لبعدك حتى يجمع الشمل قادر
فان مت فالتسليم منى عليكم ▪ يعاودكم ما كبر الله ذاكر

﴿ أبو السعادات الحلى ﴾

التاجر البغـدادى الرافضى ، كان فى كل جمعة يلبس لأمة الحرب ويقف خلف باب داره ، والباب مجاف عليه ، والناس فى صـلاة الجمعة ، وهو ينتظر أن يخرج صاحب الزمان من سرداب سامرا ـ يعنى محمد بن الحسن العسكرى ـ ليميل بسيفه فى الناس نصرة للمهدى .

﴿ أبو غالب بن كنونة اليهودى ﴾

الكاتب ، كان يزور على خط ابن مقلة من قوة خطه ، توفى لعنـه الله بمطمورة واسط ، ذكره ابن الساعى : فى تاريخه .

﴿ ثم دخلت سنة ثنتين وستمائة ﴾

فيها وقعت حرب عظيمة بين شهاب الدين محمد بن سام الغورى ، صاحب غزنة ، و بين بنى بوكر أصحاب الجبل الجودى ، وكانوا قد ارتدوا عن الاسـلام فقاتلهم وكسرهم وغنم منهم شيئا كثيرا لا يعد ولا يوصف ، فاتبعه بعضهم حتى قتله غيلة فى ليلة مستهل شعبان منها بعد العشاء ، وكان رحمه الله من أجود الملوك سيرة وأعقلهم وأثبتهم فى الحرب ، ولما قتل كان فى صحبته فخر الدين الرازى ، وكان يجلس للوعظ بحضرة الملك و يعظه ، وكان السلطان يبكى حين يقول فى آخر مجلسه ياسلطان سلطانك لا يبقى ، ولا يبقى الرازى أيضاً و إن مردنا جميعا إلى الله ، وحين قتل السلطان اتهم الرازى بعض الخاصكية بقتله ، فخاف من ذلك والتجأ إلى الوزير مؤيد الملك بن خواجا ، فسيره إلى حيث يأمن وتملك غزنة بعده أحـد مماليكه تاج الدر ، وجرت بعد ذلك خطوب يطول ذكرها ، قد استقصاها ابن الأثير وابن الساعى .

وفيها أغارت الكرج على بلاد المسلمين فوصلوا إلى أخلاط فقتلوا وسبوا وقاتلهم المقاتلة والعامة. وفيها سار صاحب إربل مظفر الدين كوكرى وصحبته صاحب مراغة لقتال ملك أذربيجان ، وهو أبو بكر بن البهلول ، وذلك لنكوله عن قتال الكرج و إقباله على السكر ليلا ونهاراً ، فلم يقدروا عليه ، ثم إنه تزوج فى هـذه السنة بنت ملك الكرج ، فانكف شرهم عنـه . قال ابن الأثير : وكان كما يقال أغمد سيفه وسل أيره . وفيها استوزر الخليفة نصير الدين ناصر بن مهدى ناصر العلوى الحسنى وخلع عليه بالوزارة وضربت الطبول بين يديه وعـلى بابه فى أوقات الصـلوات . وفيها أغار صاحب بلاد الأرمن وهو ابن لاون على بلاد حلب فقتل وسبى ونهب ، فخرج إليه الملك الظاهر غازى بن الناصر فهرب ابن لاون بين يديه ، فهدم الظاهر قلعة كان قد بناها ودكها إلى الأرض . وفى شعبان منها

هدمت القنطرة الرومانية عند الباب الشرقى ، ونشرت حجارتها ليبلط بها الجامع الأموى بسفارة الوزير صفى الدين بن شكر ، وزير العادل ، وكمل تبليطه فى سنة أربع وستمائة .

وفيها توفى من الأعيان. ﴿ شرف الدين أبو الحسن ﴾

على بن محمد بن على جمال الاسلام الشهرزورى ، بمدينة حمص ، وقد كان أخرج إليها من دمشق ، وكان قبل ذلك مدرساً بالأمينية والحلقة بالجامع تجاه البرادة ، وكان لديه علم جيد بالمذهب والخلاف .

﴿ التقى عيسى بن يوسف ﴾

ابن أحمد العراقى الضرير ، مدرس الأمينية أيضاً ، كان يسكن المنارة الغربية ، وكان عنده شاب يخدمه ويقود به فعدم للشيخ دراهم فاتهم هذا الشاب بها فلم يثبت له عنده شيئا ، واتهم الشيخ عيسى هذا بأنه يلوط به ، ولم يكن يظن الناس أن عنده من المال شىء ، فضاع المال واتهم عرضه ، فأصبح يوم الجمعة السابع من ذى القعدة مشنوقا ببيته بالمأذنة الغربية ، فامتنع الناس من الصلاة عليه لكونه قتل نفسه ، فتقدم الشيخ فخر الدين عبد الرحمن بن عساكر فصلى عليه ، فائتم به بعض الناس قال أبو شامة : وإنما حمله على ما فعله ذهاب ماله والوقوع فى عرضه ، قال وقد جرى لى أخت هذه القضية فعصمنى الله سبحانه بفضله ، قال وقد درس بعده فى الأمينية الجمال المصرى وكيل بيت المال

﴿ أبو الغنائم المركيسهلار البغدادى ﴾

كان يخدم مع عز الدين نجاح السراى ، وحصل أموالا جزيلة ، كان كلما تهيأ له مال اشترى به ملكا وكتبه باسم صاحب له يعتمد عليه ، فلما حضرته الوفاة أوصى ذلك الرجل أن يتولى أولاده وينفق عليهم من ميراثه مما تركه لهم ، فمرض الموصى إليه بعد قليل فاستدعى الشهود ليشهدهم على نفسه أن ما فى يده لورثة أبى الغنائم ، فتمادى ورثته باحضار الشهود وطولوا عليه وأخذته سكتة فمات فاستولى ورثته على تلك الأموال والأملاك ، ولم يقضوا أولاد أبى الغنائم منها شيئا مما ترك لهم .

﴿ أبو الحسن على بن سعاد الفارسى ﴾

تفقه ببغداد وأعاد بالنظامية وناب فى تدريسها واستقل بتدريس المدرسة التى أنشأتها أم الخليفة وأزيد على نيابة القضاء عن أبى طالب البخارى فامتنع فألزم به فباشره قليلا ، ثم دخل يوماً إلى مسجد فلبس على رأسه مئزر صوف ، وأمر الوكلاء والجلاوذة أن ينصرفوا عنه ، وأشهد على نفسه بعزلها عن نيابة القضاء ، واستمر على الاعادة والتدريس رحمه الله . وفى يوم الجمعة العشرين من ربيع الأول توفيت

﴿ الخاتون ﴾

أم السلطان الملك المعظم عيسى بن العادل ، فدفنت بالقبة بالمدرسة المعظمية بسفح قايسون .

﴿ الأمير مجير الدين طاشتكين المستنجدى ﴾

أمير الحاج وزعيم بلاد خوزستان ، كان شيخاً خيراً حسن السيرة كثير العبادة ، غاليا فى التشيع ، توفى بتستر ثانى جمادى الآخرة وحمل تابوته إلى الكوفة فدفن بمشهد على لو صيته بذلك . هكذا ترجمه ابن الساعى فى تاريخه ، وذكر أبوشامة فى الذيل أنه طاشتكين بن عبدالله المقتفوى أمير الحاج ، حج بالناس ستا وعشرين سنة ، كان يكون فى الحجاز كأنه ملك ، وقد رماه الوزير ابن يونس بأنه يكاتب صلاح الدين فحبسه الخليفة . ثم تبين له بطلان ما ذكر عنه فأطلقه وأعطاه خوزستان ثم أعاده إلى إمرة الحج ، وكانت الحلة الشيعية إقطاعه . وكان شجاعا جوادا سمحا قليل الكلام يمضى عليه الأسبوع لا يتكلم فيه بكلمة ، وكان فيه حلم واحتمال ، استغاث به رجل على بعض نوابه فلم يرد عليه ، فقال له الرجل المستغيث : أحمار أنت ؟ فقال : لا . وفيه يقول ابن التعاويذى .

وأمير على البلاد مولى * لا يجيب الشاكى بغير السكوت

كلما زاد رفعة حطنا الله * ه بتفيله إلى البهموت

وقد سرق فراشه حياجبة له فأرادوا أن يستقروه عليها ، وكان قد رآه الأمير طاشتكين حين أخذها فقال : لا تعاقبوا أحدا ، قد أخذها من لا يردها ، ورآه حين أخذها من لا ينم عليه ، وقد كان بلغ من العمر تسعين سنة ، واتفق أنه استأجر أرضا مدة ثلاثمائة سنة للوقف ، فقال فيه بعض المضحكين : هذا لا يوقن بالموت ، عمره تسعون سنة واستأجر أرضا ثلاثمائة سنة ، فاستضحك القوم والله سبحانه وتعالى أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة ثلاث وستمائة ﴾

فيها جرت أمور طويلة بالمشرق بين الغورية والخوارزمية ، وملكهم خوارزم شاه بن تكش بلاد الطالقان . وفيها ولى الخليفة القضاء ببغداد لعبد الله بن الدامغانى . وفيها قبض الخليفة على عبد السلام بن عبد الوهاب ابن الشيخ عبد القادر الجيلانى ، بسبب فسقه وفجوره ، وأحرقت كتبه وأمواله قبل ذلك لما فيها من كتب الفلاسفة ، وعلوم الأوائل ، وأصبح يستعطى بين الناس ، وهذا بخطيئة قيامه على أبى الفرج ابن الجوزى ، فانه هو الذى كان وشى به إلى الوزير ابن القصاب حتى أحرقت بعض كتب ابن الجوزى ، وختم على بقيتها ، ونفى إلى واسط خمس سنين ، والناس يقولون : فى الله كفاية وفى القرآن ، وجزاء سيئة سيئة مثلها ، والصوفية يقولون : الطريق يأخذ . والأطباء يقولون الطبيعة مكافئة . وفيها نازلت الفرنج حمص فقاتلهم ملكها أسد الدين شيركوه ، وأعانه بالمدد الملك الظاهر صاحب حلب فكف الله شرهم . وفيها اجتمع شابان (١) ببغداد على الخمر

(١) أحدهما أبو القاسم أحمد بن المقرىء صاحب ديوان الخليفة ، داعب ابن الأمير أصبه . وكان شابا جميلا فرماه بسكين فقتله . فسلمه الخليفة إلى أولاد ابن أصبه فقتلوه . (النجوم ج ٦ ص ١٩٢)

فضرب أحدهما الآخر بسكين فقتله وهرب ، فأخذ فقتل فوجد معه رقعة فيها بيتان من نظمه أمر أن تجعل بين أكفانه :

قدمت على الكريم بغير زاد ■ من الأعمال بالقلب السليم
وسوء الظن أن تعتد زاداً * إذا كان القدوم على كريم

وفيها توفى من الأعيان .

﴿ الفقيه أبو منصور ﴾

عبد الرحمن بن الحسين بن النعمان النبلى ، الملقب بالقاضى شريح لذكائه وفضله و براعته وعقله وكمال أخلاقه ، ولى قضاء بلده ثم قدم بغداد فندب إلى المناصب الكبار فأباها ، فحلف عليه الأمير طاشتكين أن يعمل عنده فى الكتابة فخدمه عشرين سنة ، ثم وشى به الوزير ابن مهدى إلى المهدى فحبسه فى دار طاشتكين إلى أن مات فى هذه السنة، ثم إن الوزير الواشى عما قريب حبس بها أيضاً ، وهذا مما نحن فيه من قوله : كما تدين تدان .

﴿ عبد الرزاق بن الشيخ عبد القادر ﴾

كان ثقة عابداً زاهداً ورعا ، لم يكن فى أولاد الشيخ عبد القادر الجيلانى خير منه ، لم يدخل فيما دخلوا فيه من المناصب والولايات ، بل كان متقللا من الدنيا مقبلا على أمر الآخرة ، وقد سمع الكثير وسمع عليه أيضاً .

﴿ أبو الحزم مكى بن زيان ﴾

ابن شبة بن صالح الماكسينى ، من أعمال سنجار ، ثم الموصلى النحوى ، قدم بغداد وأخذ على ابن الخشاب وابن القصار ، والكمال الأنبارى ، وقدم الشام فانتفع به خلق كثير منهم الشيخ علم الدين السخاوى وغيره وكان ضريراً ، وكان يتعصب لأبى العلاء المعرى لما بينهما من القدر المشترك فى الأدب والعمى ، ومن شعره :

إذا احتاج النوال إلى شفيع ■ فلا تقبله تصبح قرير عين
إذا عيف النوال لفرد من * فأولى أن يعاف لمنتين

ومن شعره أيضاً :

نفسى فداء لا غيد غنج ■ قال لنا الحق حين ودّعنا
من ود شيئا من حبه طمعاً ■ فى قتله للوداع ودّعنا

﴿ إقبال الخادم ﴾

جمال الدين أحد خدام صلاح الدين ، واقف الاقباليتين الشافعية والحنفية ، وكانتا دارين فجعلهما مدرستين ، ووقف عليهما وقفاً الكبيرة للشافعية والصغيرة للحنفية، وعليها ثلث الوقف. توفى بالقدس

رحمه الله .

﴿ ثم دخلت سنة أربع وستمائة ﴾

فيها رجع الحجاج إلى العراق وهم يدعون الله ويشكون إليه ما لقوا من صدر جهان البخارى الحنفى ، الذى كان قدم بغداد فى رسالة فاحتفل به الخليفة ، وخرج إلى الحج فى هذه السنة ، فضيق على الناس فى المياه والميرة ، فمات بسبب ذلك ستة آلاف من حجيج العراق ، وكان فيما ذكروا يأمر غلمانه فتسبق إلى المناهل فيحجزون على المياه ويأخذون الماء فيرشونه حول خيمته فى قيظ الحجاز ويسقونه للبقولات التى كانت تحمل معه فى ترابها ، ويمنعون منه الناس وابن السبيل ، الآمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا ، فلما رجع مع الناس لعنته العامة ولم تحتفل به الخاصة ولا أكرمه الخليفة ولا أرسل إليه أحداً ، وخرج من بغداد والعامة من ورائه يرجمونه ويلعنونه ، وسماه الناس صدر جهنم ، نعوذ بالله من الخذلان ، ونسأله أن يزيدنا شفقة ورحمة لعباده ، فانه إنما يرحم من عباده الرحماء . وفيها قبض الخليفة على وزيره ابن مهدى العلوى ، وذلك أنه نسب إليه أنه يروم الخلافة ، وقيل غير ذلك من الأسباب ، والمقصود أنه حبس بدار طاشتكين حتى مات بها ، وكان جباراً عنيداً ، حتى قال بعضهم فيه :

خليلى قولا للخليفة وانصحا ٭ توق وقيت السوء ما أنت صانع

وزيرك هذا بين أمرين فيهما ٭ صنيعك ياخير البرية ضائع

فان كان حقاً من سلالة حيدر ٭ فهذا وزير فى الخلافة طامع

وإن كان فيما يدعى غير صادق ٭ فاضيع ما كانت لديه الصنائع

وقيل : إنه كان عفيفاً عن الأموال حسن السيرة جيد المباشرة فالله أعلم بحاله . وفى رمضان منها رتب الخليفة عشرين داراً للضيافة يفطر فيها الصائمون من الفقراء ، يطبخ لهم فى كل يوم فيها طعام كثير ويحمل إليها أيضاً من الخبز النقى والحلواء شىء كثير ، وهذا الصنيع يشبه ما كانت قريش تفعله من الرفادة فى زمن الحج ، وكان يتولى ذلك عمه أبو طالب ، كما كان العباس يتولى السقاية ، وقد كانت فيهم السفارة واللواء والندوة له ، كما تقدم بيان ذلك فى مواضعه ، وقد صارت هذه المناصب كلها على أتم الأحوال فى الخلفاء العباسيين . وفيها أرسل الخليفة الشيخ شهاب الدين الشهرزورى وفى صحبته سنقر السلحدار إلى الملك العادل بالخلعة السنية ، وفيها الطوق والسواران ، وإلى جميع أولاده بالخلع أيضاً . وفيها ملك الأوحد بن العادل صاحب ميافارقين مدينة خلاط بعد قتل صاحبها شرف الدين بكتمر ، وكان شابا جميل الصورة جداً ، قتله بعض مماليكهم [1] ثم قتل القاتل أيضاً ، فخلا البلد عن ملك فأخذها الأوحد بن العادل .

وفيها ملك خوارزم شاه محمد بن تكش بلاد ما وراء النهر بعد حروب طويلة . اتفق له فى بعض

---

(١) اسمه : الهزار دينارى (انظر النجوم ج ٦ ص ١٨٨) .

المواقف أمر عجيب ، وهو أن المسلمين انهزموا عن خوارزم شاه و بقى معه عصابة قليلة من أصحابه ؛ فقتل منهم كفار الخطا من قتلوا ؛ وأسروا خلقامنهم ؛ وكان السلطان خوارزم شاه فى جملة من أسروا ؛ أسره رجل وهو لا يشعر به ولا يدرى أنه الملك ؛ وأسر معـه أميراً يقال له مسعود ؛ فلما وقع ذلك وتراجعت العساكر الاسـلامية إلى مقرها فقدوا السلطان فاختبطوا فيما بينهم واختلفوا اختلافا كثيرا وانزعجت خراسان بكمالها ، ومن الناس من حلف أن السلطان قد قتل ، وأما ما كان من أمر السلطان وذاك الأمير فقال الأمير للسلطان : من المصلحة أن تترك اسم الملك عنك فى هذه الحالة ؛ وتظهر أنك غلام لى ، فقبل منـه ما قال وأشار به ، ثم جعل الملك يخدم ذلك الأمير يلبسـه ثيابه و يسقيه الماء و يصنع له الطعام و يضعه بين يديه ، ولا يألو جهداً فى خدمته ؛ فقال الذى أسرهما : إنى أرى هذا يخدمك فمن أنت ؟ فقال : أنا مسعود الأمير ؛ وهـذا غلامى ؛ فقال : والله لو علم الأمراء أنى قد أسرت أميراً وأطلقته لأطلقتك ، فقال له : إنى إنما أخشى على أهلى ، فانهـم يظنون أنى قد قتلت و يقيمون المأتم ، فان رأيت أن تفادينى عـلى مال وترسل من يقبضه منهـم فعلت خيراً ، فقال : نعم ؛ فعين رجلا من أصحابه فقال له الأمير مسعود : إن أهلى لا يعرفون هـذا ولكن إن رأيت أن أرسل معه غلامى هذا فعلت ليبشرهم بحياتى فانهـم يعرفونه ؛ ثم يسعى فى تحصيل المال ، فقال : نعم ، فجهز معهما من يحفظهما إلى مدينة خوارزم شاه . فلما دنوا من مدينة خوارزم سـبق الملك إليها . فلما رآه الناس فرحوا به فرحاً شـديداً ، ودقت البشائر فى سائر بلاده ، وعاد الملك إلى نصابه ؛ واستقر السرور بإبابه ، وأصلح ما كان وهى من مملكته بسبب ما اشتهر من قتله ، وحاصر هراه وأخذها عنوة . وأما الذى كان قد أسره فانه قال يوماً للأمير مسعود الذى يتوجه لى و ينوهون به أن خوارزم شاه قد قتل ؛ فقال : لا ، هوالذى كان فى أسرك ؛ فقال له : فهلاأعلمتنى به حتى كنت أرده موقراً معظما ؟ فقال : خفتك عليه ، فقال : سر بنا إليه ، فسارا إليه فأكرمهما إكراما زائداً ، وأحسن إليهما . وأما غدر صاحب سمرقند فانه قتل كل من كان فى أسره من الخوارزمية ؛ حتى كان الرجل يقطع قطعتين و يعلق فى السوق كما تعلق الأغنام ، وعزم على قتل زوجته بنت خوارزم شاه ثم رجع عن قتلها وحبسها فى قلعة وضيق عليها ، فلما بلغ الخبر إلى خوارزم شاه سار إليه فى الجنود فنازله وحاصر سمرقند فأخـذها قهراً وقتل من أهلها نحواً من مائتى ألف ، وأنزل الملك من القلعة وقتله صبراً بين يديه ، ولم يترك له نسـلا ولا عقبا ، واستحوذ خوارزم شاه على تلك الممالك التى هنالك ، وتحارب الخطا وملك التتار كشلى خان المتاخم لمملكة الصين ، فكتب ملك الخطا لخوارزم شاه يستنجده على التتار ويقول : متى غلبونا خلصو إلى بلادك ؛ وكذا وكذا . وكتب التتار إليه أيضا يستنصرونه على الخطا ويقولون : هؤلاء أعداؤنا وأعداؤك ؛ فكن معنا عليهم ؛ فكتب إلى

كل من الفريقين يطيب قلبه ، وحضر الوقعة بينهم وهو متحيز عن الفريقين ، وكانت الدائرة على الخطا ،فهلكوا إلا القليل منهم ، وغدر التتار ما كانوا عاهدوا عليه خوارزم شاه ، فوقعت بينهم الوحشة الأكيدة ، وتواعدوا للقتال ، وخاف منهم خوارزم شاه وخرب بلاداً كثيرة متاخمة لبلاد كشلى خان خوفا عليها أن يملكها ، ثم إن جنكيزخان خرج على كشلى خان ، فاشتغل بمحاربته عن محاربة خوارزم شاه ، ثم إنه وقع من الأمور الغريبة ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

وفيها كثرت غارات الفرنج من طرابلس على نواحى حمص ، فضعف صاحبها أسد الدين شيركوه عن مقاومتهم ، فبعث إليه الظاهر صاحب حلب عسكرا قواه بهم على الفرنج ، وخرج العادل من مصر فى العساكر الاسلامية ، وأرسل إلى جيوش الجزيرة فوافوه على عكا لحاصرها ، لأن القبارصة أخذوا من أسطول المسلمين قطعا فيها جماعة من المسلمين ، فطلب صاحب عكا الأمان والصلح على أن يرد الأسارى ، فأجابه إلى ذلك ، وسار العادل فنزل على بحيرة قدس قريباً من حمص ، ثم سار إلى بلاد طرابلس ، فأقام اثنى عشر يوما يقتل ويأسر ويغنم ، حتى جنح الفرنج إلى المهادنة ، ثم عاد إلى دمشق .

وفيها ملك صاحب آذربيجان الأمير نصير الدين أبو بكر بن البهلول مدينة مراغة لخلوها عن ملك قاهر ، لأن ملكها مات وقام بالملك بعده ولد له صغير ، فدبر أمره خادم له . وفى غرة ذى القعدة شهد محيى الدين أبو محمد يوسف بن عبد الرحمن بن الجوزى عند قاضى القضاة أبى القاسم بن الدامغانى ، فقبله وولاه حسبة جانبى بغداد ، وخلع عليه خلعة سنية سوداء بطرحة كحلية ، وبعد عشرة أيام جلس للوعظ مكان أبيه أبى الفرج بباب درب الشريف ، وحضر عنده خلق كثير . وبعد أربعة أيام من يومئذ درس بمشهد أبى حنيفة ضياء الدين أحمد بن مسعود الركسانى الحنفى ، وحضر عنده الأعيان والأكابر وفى رمضان منها وصلت الرسل من الخليفة إلى العادل بالخلع ، فلبس هو وولداه المعظم والأشرف ووزيره صفى الدين بن شكر ، وغير واحد من الأمراء ، ودخلوا القلعة وقت صلاة الظهر من باب الحديد ، وقرأ التقليد الوزير وهو قائم ، وكان يوما مشهوداً . وفيها درس شرف الدين عبد الله ابن زين القضاة عبد الرحمن بالمدرسة الرواحية بدمشق . وفيها انتقل الشيخ الخير بن البغدادى من الحنبلية إلى مذهب الشافعية ، ودرس بمدرسة أم الخليفة ، وحضر عنده الأكابر من سائر المذاهب .

وفيها توفى من الأعيان

﴿ الأمير بنيامين بن عبد الله ﴾

أحد أمراء الخليفة الناصر ، كان من سادات الأمراء عقلا وعفة ونزاهة ، سقاه بعض الكتاب من النصارى سما فمات . وكان اسم الذى سقاه ابن ساوا ، فسلمه الخليفة إلى غلمان بنيامين فشفع فيه ابن مهدى الوزير وقال : إن النصارى قد بذلوا فيه خمسين ألف دينار ، فكتب الخليفة على رأس الورقة

إن الأسود أسود الغاب همتها ▪ يوم الكريهة فى المسلوب لا السلب

فتسلمه غلمان بنيامين فقتلوه وحرقوه ، وقبض الخليفة بعد ذلك على الوزير ابن مهدى كما تقدم

﴿ حنبل بن عبد الله ﴾

ابن الفرج بن سعادة الرصافى الحنبلى ، المكبر بجامع المهدى ، راوى مسند أحمد عن ابن الحصين عن ابن المذهب عن ابى مالك عن عبد الله عن أبيه ، عمر تسعين سنة وخرج من بغداد فأسمعه باربل ، واستقدمه ملوك دمشق إليها فسمع الناس بها عليه المسند ، وكان المعظم يكرمه ويأكل عنده على السماط من الطيبات ، فتصيبه التخمة كثيراً ، لأنه كان فقيرا ضيق الامعاء من قلة الأكل ، خشن العيش ببغداد ، وكان الكندى إذا دخل على المعظم يسأل عن حنبل فيقول المعظم هو متخوم ، فيقول أطعمه العدس فيضحك المعظم ، ثم أعطاه المعظم مالاجزيلا ورده إلى بغدادفتوفى بها ، وكان مولده سنة عشر وخمسمائة ، وكان معه ابن طبرزد ، فتأخرت وفاته عنه إلى سنة سبع وستمائة .

﴿ عبد الرحمن بن عيسى ﴾

ابن أبى الحسن المروزى الواعظ البغدادى ، سمع من ابن أبى الوقت وغيره ، واشتغل على ابن الجوزى بالوعظ ، ثم حدثته نفسه بمضاهاته وشمخت نفسه ، واجتمع عليه طائفة من أهل باب النصيرة ثم تزوج فى آخر عمره وقد قارب السبعين ، فاغتسل فى يوم بارد فانتفخ ذكره فمات فى هذه السنة .

﴿ الأمير زين الدين قراجا الصلاحى ﴾

صاحب صرخد ، كانت له دار عند باب الصغير عند قناة الزلاقة ، وتربته بالسفح فى قبة على جادة الطريق عند تربة ابن تميرك ، وأقر العادل ولده يعقوب على صرخد .

﴿ عبد العزيز الطبيب ﴾

توفى فجأة ، وهو والد سعد الدين الطبيب الأشرفى ، وفيه يقول ابن عنين :

فرارى ولا خلف الخطيب جماعة ▪ وموت ولا عبد العزيز طبيب

وفيها توفى

﴿ العفيف بن الدرجى ﴾

إمام مقصورة الحنفية الغربية بجامع بنى أمية .

﴿ أبو محمد جعفر بن محمد ﴾

ابن محمود بن هبة الله بن أحمد بن يوسف الاربلى ، كان فاضلا فى علوم كثيرة فى الفقه على مذهب الشافعى ، والحساب والفرائض والهندسة والأدب والنحو ، وما يتعلق بعلوم القرآن العزيز وغير ذلك . ومن شعره :

لا يدفع المرء ما يأتى به القدر ✻ وفى الخطوب إذا فكرت معتبر

فليس ينجى من الأقدار إن نزلت ■ رأى وحزم ولا خوف ولا حذر
فاستعمل الصبر فى كل الأمور ولا ■ تجزع لشىء فعقبى صبرك الظفر
كم مسنا عسر فصرّفه الـ * الآه عنا وولى بعده يسر
لا ييئس المرء من روح الآله فما ■ ييأس منه إلا عصبة كفروا
إنى لأعلم أن الدهر ذو دول ■ وأن يوميه ذا أمن وذا خطر

﴿ثم دخلت سنة خمس وستمائة﴾

فى محرمها كمل بناء دار الضيافة ببغداد التى أنشأها الناصر لدين الله بالجانب الغربى منها للحجاج والمارة لهم الضيافـة ما داموا نازلين بها ، فاذا أراد أحـدهم السفر منها زود وكسى وأعطى بعد ذلك ديناراً ، جزاه الله خيراً . وفيها عاد أبو الخطاب ابن دحية الكلبي من رحلته العراقية فاجتاز بالشام فاجتمع فى مجلس الوزير الصفى هو والشيخ تاج الدين أبو اليمن الكنـدى شيخ اللغة والحـديث ، فأورد ابن دحية فى كلامه حديث الشفاعة حتى انتهى إلى [قول] إبراهيم عليه السلام « إنما كنت خليـلا من وراءَ وراءَ » بفتح اللفظتين ، فقال الكندى من وراء وراء بضمهما ، فقال ابن دحية للوزير ابن شكر : من هذا ؟ فقال: هذا أبو اليمن الكندى ، فنال منه ابن دحية ، وكان جريئا ، فقال الكندى : هو من كلب ينبح كما ينبح الكلب . قال أبو شامة : وكلتا اللفظتين محكية ، وحكى فيهما الجر أيضاً . وفيها عاد فخر الدين ابن تيمية خطيب من حران من الحج إلى بغداد وجلس بباب بدر للوعظ ، مكان محيي الدين يوسف بن الجوزى ، فقال فى كلامه ذلك :

وابن اللبون إذا ما لزَّ فى قرن ■ لم يستطع صولة البزل القناعيس

كأنه يعرض بابن الجوزى يوسف ، لكونه شابا ابن خمس وعشرين سنة والله أعلم .

وفى يوم الجمعة تاسع محرم دخل مملوك افرنجى من باب مقصورة جامع دمشق وهو سكران وفى يده سيف مسلول ، والناس جلوس ينتظرون صـلاة الفجر ، فمال على الناس يضربهم بسيفه فقتل اثنين أو ثلاثة ، وضرب المنبر بسيفه فانكسر سيفه فأخذو وأودع المارستان ، وشنق فى يومه ذلك على جسر اللبادين .

وفيها عاد الشيخ شهاب الدين السهروردى من دمشق بهدايا الملك العادل فتلقاه الجيش ومعه أموال كثيرة أيضاً لنفسه ، وكان قبل ذلك فقيراً زاهدا ، فلما عاد منع من الوعظ وأخذت منه الربط التى يباشرها ، ووكل إلى ما بيده من الأموال ، فشرع فى تفريقها على الفقراء والمساكين ، فاستغنى منه خلق كثير، فقال المحيي ابن الجوزى فى مجلس وعظه : لا حاجة بالرجل يأخذ أموالا من غير حقها ويصرفها إلى من يستحقها ، ولو ترك على ما كان كان تركها أولى به من تناولها ، وإنما أراد أن ترتفع

منزلته ببذلها . و يعود على حاله كما كان مباشره لمابذلها ، فليحذر العبد الدنيا فانها خداعة غرارة تسترق فحول العلماء والعباد ، وقد وقع ابن الجوزى فيما بعد فيما وقع فيه السهر وردى وأعظم . وفيها قصدت الفرنج حمص وعبروا على العاصى بجسر عدوة ، فلما عرف بهم العساكر ركبوا فى آثارهم فهربوا منهم فقتلوا خلقا كثيرا منهم وغنم المسلمون منهم غنيمة جيدة ولله الحمد .

وفيها قتل صاحب الجزيرة ، وكان من أسوأ الناس سيرة وأخبثهم سريرة ، وهو الملك سنجر شاه بن غازى بن مودود بن زنكى بن آقسنقر الاتابكى ، ابن عم نور الدين صاحب الموصل ، وكان الذى تولى قتله ولده غازى ، توصل إليه حتى دخل عليه وهو فى الخلاء سكران ، فضربه بسكين أربع عشرة ضربة ، ثم ذبحه ، وذلك كله ليأخذ الملك من بعده فحرمه الله إياه ، فبويع بالملك لأخيه محمود وأخذ غازى القاتل فقتله من يومه ، فسلبه الله الملك والحياة ، ولكن أراح الله المسلمين من ظلم أبيه وغشمه وفسقه .

وفيها توفى من الأعيان . ﴿ أبو الفتح محمد بن أحمد بن بختيار ﴾

ابن على الواسطى المعروف بابن السنداى ، آخر من روى المسند عن أحمد بن الحصين ، وكان من بيت فقه وقضاء وديانة ، وكان ثقة عدلا متورعا فى النقل ، ومما أنشده من حفظه :

ولو أن ليلى مطلع الشمس دونها * وكانت من وراء الشمس حين تغيب
لحدثت نفسى بانتظار نوالها * وقال المنى لى : إنها لقريب

﴿ قاضى القضاة بمصر ﴾

صدر الدين عبد الملك بن درباس المارداني الكردى والله أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة ست وستمائة ﴾

فى المحرم وصل نجم الدين خليل شيخ الحنفية من دمشق إلى بغداد فى الرسلية عن العادل ، ومعه هدايا كثيرة ، وتناظر هو وشيخ النظامية مجد الدين يحيى بن الربيع فى مسألة وجوب الزكاة فى مال اليتيم والمجنون ، وأخذ الحنفى يستدل على عدم وجوبها ، فاعترض عليه الشافعى فأجاد كل منهما فى الذى أورده ، ثم خلع على الحنفى وأصحابه بسبب الرسالة ، وكانت المناظرة بحضرة نائب الوزير ابن شكر . وفى يوم السبت خامس جمادى الآخرة وصل الجمال يونس بن بدران المصرى رئيس الشافعية بدمشق إلى بغداد فى الرسلية عن العادل ، فتلقاه الجيش مع حاجب الحجاب ، ودخل معه ابن أخى صاحب إربل مظفر الدين كوكرى ، والرسالة تتضمن الاعتذار عن صاحب إربل والسؤال فى الرضا عنه ، فأجيب إلى ذلك . وفيها ملك العادل الخابور ونصيبين وحاصر مدينة سنجار مدة فلم يظفر بها ثم صالح صاحبها ورجع عنها .

وفيها توفى من الأعيان ﴿ القاضى الأسعد ابن مماتى ﴾

أبو المكارم أسعد بن الخطير أبى سعيد مهذب بن مينا بن زكريا الأسعد بن مماتى بن أبى قدامة ابن أبى مليح المصرى الكاتب الشاعر ، أسلم فى الدولة الصلاحية وتولى نظر الدواوين بمصر مدة قال ابن خلكان : وله فضائل عديدة ، ومصنفات كثيرة ، ونظم سيرة صلاح الدين وكليلة ودمنة ، وله ديوان شعر . ولما تولى الوزير ابن شكر هرب منه إلى حلب فمات بها وله ثنتان وستون سنة . فمن شعره فى ثقيل زاره بدمشق :

حكى نهرين وما فى الأر * ض من يحكيهما أبدا
حكى فى خلقه ثوراً * أراد وفى أخلاقه بردا

﴿ أبو يعقوب يوسف بن إسماعيل ﴾

ابن عبد الرحمن بن عبد السلام اللمغانى ، أحد الأعيان من الحنفية ببغداد ، سمع الحديث ودرس بجامع السلطان ، وكان معتزليا فى الاصول ، بارعا فى الفروع ، اشتغل على أبيه وعمه ، وأتقن الخلاف وعلم المناظرة ، وقارب التسعين .

﴿ أبو عبد الله محمد بن الحسن ﴾

المعروف بابن الخراسانى ، المحدث الناسخ ، كتب كثيرا من الحديث وجمع خطباً له ولغيره وخطه جيد مشهور ﴿ أبو المواهب معتوق بن منيع ﴾

ابن مواهب الخطيب البغدادى ، قرأ النحو واللغة على ابن الخشاب ، وجمع خطبا كان يخطب منها ، وكان شيخا فاضلا له ديوان شعر ، فمنه قوله :

ولا ترجو الصداقة من عدو * يمادى نفسه سراً وجهرا
فلو أجدت مودته انتفاعا * لكان النفع منه إليه أجرا

﴿ ابن خروف ﴾

شارح سيبويه ، على بن محمد بن يوسف أبو الحسن ابن خروف الأندلسى النحوى شرح سيبويه ، وقدمه إلى صاحب المغرب فأعطاه ألف دينار ، وشرح جمل الزجاجى ، وكان يتنقل فى البلاد ولا يسكن إلا فى الخانات ، ولم يتزوج ولا تسرى ، ولذلك علة تغلب على طباع الأراذل ، وقد تغير عقله فى آخر عمره ، فكان يمشى فى الأسواق مكشوف الرأس ، توفى عن خمس وثمانين سنة .

﴿ أبو على يحيى بن الربيع ﴾

ابن سليمان بن حرار الواسطى البغدادى ، اشتغل بالنظامية على فضلان وأعاد عنه ، وسافر إلى محمد بن يحيى فأخذ عنه طريقته فى الخلاف ، ثم عاد إلى بغداد ثم صار مدرساً بالنظامية وناظراً

على أوقافها ، وقد سمع الحديث وكان لديه علوم كثيرة ، ومعرفة حسنة بالمذهب ، وله تفسير فى أربع مجلدات كان يدرس منه ، واختصر تاريخ الخطيب والذيل عليه لابن السمعانى وقارب الثمانين .

﴿ ابن الأثير صاحب جامع الأصول والنهاية ﴾

المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد مجد الدين أبو السعادات الشيبانى الجزرى الشافعى ، المعروف بابن الأثير ، وهو أخو الوزير وزير الأفضل ضياء الدين نصر الله ، وأخو الحافظ عزالدين أبى الحسن على صاحب الكامل فى التاريخ ، ولد أبو السعادات هذا فى إحدى الربيعين سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، وسمع الحديث الكثير وقرأ القرآن وأتقن علومه وحررها ، وكان مقامه بالموصل ، وقد جمع فى سائر العلوم كتبا مفيدة ، منها جامع الأصول الستة الموطأ والصحيحين وسنن أبى داود والنسائى والترمذى ، ولم يذكر ابن ماجه فيه ، وله كتاب النهاية فى غريب الحديث وله شرح مسند الشافعى والتفسير فى أربع مجلدات ، وغير ذلك فى فنون شتى ، وكان معظماً عند ملوك الموصل ، فلما آل الملك إلى نور الدين أرسلان شاه ، أرسل إليه مملوكه لؤلؤ أن يستوزره فأبى فركب السلطان إليه فامتنع أيضاً وقال له : قد كبرت سنى واشتهرت بنشر العلم ، ولا يصلح هذا الأمر إلا بشىء من العسف والظلم ، ولا يليق بى ذلك ، فأعفاه . قال أبو السعادات : كنت أقرأ علم العربية على سعيد بن الدهان ، وكان يأمرنى بصنعة الشعر فكنت لا أقدر عليه ، فلما توفى الشيخ رأيته فى بعض الليالى ، فأمرنى بذلك ، فقلت له : ضع لى مثالا أعمل عليه فقال :

حب العلا مدمنا إن فاتك الظفر * فقلت أنا : وخدّ خد الثرى والليل معتكر

فالعز فى صهوات الليل مركزه * والمجد ينتجه الاسراء والسهر

فقال : أحسنت ، ثم استيقظت فأتممت عليها نحواً من عشرين بيتا . كانت وفاته فى سلخ ذى الحجة عن ثنتين وستين سنة ، وقد ترجمه أخوه فى الذيل فقال : كان عالماً فى عدة علوم منها الفقه وعلم الأصول والنحو والحديث واللغة ، وتصانيفه مشهورة فى التفسير والحديث والفقه والحساب وغريب الحديث ، وله رسائل مدونة ، وكان مغلقا يضرب به المثل ذا دين متين ، ولزم طريقة مستقيمة رحمه الله ، فلقد كان من محاسن الزمان . قال ابن الأثير وفيها توفى .

﴿ المجد المطرزى النحوى الخوارزمى ﴾

كان إماماً فى النحو له فيه تصانيف حسنة ،

قال أبو شامة . وفيها توفى :

﴿ الملك المغيث ﴾

فتح الدين عمر بن الملك العادل ، ودفن فى تربة أخيه المعظم بسفح قايسون . والملك المؤيد .

﴿ مسعود بن صلاح الدين ﴾

بمدرسة رأس العين فحمل إلى حلب فدفن بها . وفيها توفى .

﴿ الفخر الرازى ﴾

المتكلم صاحب التيسير والتصانيف ، يعرف بابن خطيب الرى ، واسمه محمد بن عمر بن الحسين ابن على القرشى التيمى البكرى ، أبو المعالى وأبو عبدالله المعروف بالفخر الرازى ، ويقال له ابن خطيب الرى ، أحد الفقهاء الشافعية المشاهير بالتصانيف الكبار والصغار نحو من مائتى مصنف ، منها التفسير الحافل والمطالب العالية ، والمباحث الشرقية ، والأربعين ، وله أصول الفقه والمحصول وغيره ، وصنف ترجمة الشافعى فى مجلد مفيد ، وفيه غرائب لا يوافق عليها ، وينسب إليه أشياء عجيبة ، وقد ترجمته فى طبقات الشافعية ، وقد كان معظماً عند ملوك خوارزم وغيرهم ، وبنيت له مدارس كثيرة فى بلدان شتى ، وملك من الذهب العين ثمانين ألف دينار ، وغير ذلك من الأمتعة والمراكب والأثاث والملابس ، وكان له خمسون مملوكا من الترك ، وكان يحضر فى مجلس وعظه الملوك والوزراء والعلماء والأمراء والفقراء والعامة ، وكانت له عبادات وأوراد ، وقد وقع بينه وبين الكرامية فى أوقات وكان يبغضهم ويبغضونه ويبالغون فى الحط عليه ، ويبالغ هو أيضا فى ذمهم . وقد ذكرنا طرفا من ذلك فيما تقدم ، وكان مع غزارة علمه فى فن الكلام يقول : من لزم مذهب العجائز كان هو الفائز ، وقد ذكرت وصيته عند موته وأنه رجع عن مذهب الكلام فيها إلى طريقة السلف وتسليم ما ورد على وجه المراد اللائق بجلال الله سبحانه . وقال الشيخ شهاب الدين أبو شامة فى الذيل فى ترجمته : كان يعظ وينال من الكرامية وينالون منه سباً وتكفيرا بالكبائر ، وقيل إنهم وضعوا عليه من سقاه سما فمات ففرحوا بموته ، وكانوا يرمونه بالمعاصى مع المماليك وغيرهم ، قال : وكانت وفاته فى ذى الحجة ، ولا كلام فى فضله ولا فيما كان يتعاطاه ، وقد كان يصحب السلطان ويحب الدنيا ويتسع فيها اتساعا زائدا ، وليس ذلك من صفة العلماء ، ولهذا وأمثاله كثرت الشناعات عليه ، وقامت عليه شناعات عظيمة بسبب كلمات كان يقولها مثل قوله : قال محمد البادى ، يعنى العربى يريد به النبى ﷺ ، نسبة إلى البادية . وقال محمد الرازى يعنى نفسه ، ومنها أنه كان يقرر الشبهة من جهة الخصوم بعبارات كثيرة ويجيب عن ذلك بأدنى إشارة وغير ذلك ، قال وبلغنى أنه خلف من الذهب العين مائتى ألف دينار غير ما كان يملكه من الدواب والثياب والعقار والآلات ، وخلف ولدين أخذ كل واحد منهما أربعين ألف دينار ، وكان ابنه الأكبر قد تجند وخدم السلطان محمد بن تكش . وقال ابن الأثير فى الكامل : وفيها توفى فخر الدين الرازى محمد بن عمر بن خطيب الرى الفقيه الشافعى صاحب التصانيف المشهورة والفقه والأصول ، كان إمام الدنيا فى عصره ،

بلغنى أن مولده سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ومن شعره قوله :

إليك إله الخلق وجهى ووجهتى * وأنت الذى أدعوه فى السر والجهر
وأنت غياثى عند كل ملمة * وأنت ملاذى فى حياتى وفى قبرى

ذكره ابن الساعى عن ياقوت الحموى عن ابن لفخر الدين عنه وبه قال :

تتمة أبواب السعادة للخلق * بذكر جلال الواحد الأحد الحق
مدبر كل الممكنات بأسرها * ومبدعها بالعدل والقصد والصدق
أجل جلال الله عن شبه خلقه * وأنصر هذا الدين فى الغرب والشرق
إله عظيم الفضل والعدل والعلى * هو المرشد المغوى هو المسعد المشقى

ومما كان ينشده :

وأرواحنا فى وحشة من جسومنا * وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا * سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

ثم يقول : لقد اختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفسلفية فلم أجدها تروى غليلا ولا تشفى عليلا ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ، أقرأ فى الاثبات (الرحمن على العرش استوى) (إليه يصعد الكلم الطيب) وفى النفى (ليس كمثله شىء) (هل تعلم له سميا) .

﴿ ثم دخلت سنة سبع وستمائة ﴾

ذكر الشيخ أبو شامة أن فى هذه السنة تمالأت ملوك الجزيرة : صاحب الموصل وصاحب سنجار وصاحب إربل والظاهر صاحب حلب وملك الروم ، على مخالفة العادل ومنابذته ومقاتلته واصطلام الملك من يده ، وأن تكون الخطبة للملك كنجر بن قلج أرسلان صاحب الروم ، وأرسلوا إلى الكرج ليقدموا لحصار خلاط ، وفيها الملك الأوحد بن العادل ، ووعدهم النصر والمعاونة عليه . قلت : وهذا بغى وعدوان ينهى الله عنه ، فأقبلت الكرج بملكهم إيوانى فحاصروا خلاط فضاق بهم الأوحد ذرعا وقال : هذا يوم عصيب ، فقدر الله تعالى أن فى يوم الاثنين تاسع عشر ربيع الآخر اشتد حصارهم للبلد وأقبل ملكهم إيوانى وهو راكب على جواده وهو سكران فسقط به جواده فى بعض الحفر التى قد أعدت مكيدة حول البلد ، فبادر إليه رجال البلد فأخذوه أسيرا حقيرا ، فأسقط فى أيدى الكرج ، فلما أوقف بين يدى الأوحد أطلقه ومنّ عليه وأحسن إليه ، وفاداه على مائتى ألف دينار وألفى أسير من المسلمين ، وتسليم إحدى وعشرين قلعة متاخمة لبلاد الأوحد ، وأن يزوج ابنته من أخيه الأشرف موسى ، وأن يكون عونا له على من يحاربه ، فأجابه إلى ذلك كله فأخذت منه الايمان بذلك وبعث الأوحد إلى أبيه يستأذنه فى ذلك كله وأبوه نازل بظاهر حراب فى أشد حدة

مما قد داهمه من هذا الأمر الفظيع ، فبينما هو كذلك إذ أتاه هذا الخبر والأمر الهائل من الله العزيز الحكيم ، لا من حولهم ولا من قوتهم ، ولا كان فى بالهم ، فكاد يذهل من شدة الفرح والسرور ، ثم أجاز جميع ما شرطه ولده ، وطارت الأخبار بما وقع بين الملوك فخضعوا وذلوا عند ذلك ، وأرسل كل منهم يعتذر مما نسب إليه ويحيل على غيره ، فقبل منهم اعتذاراتهم وصالحهم صلحا أكيدا واستقبل الملك عصراً جديدا ، ووفى ملك الكرج الأوحد بجميع ما شرطه عليه ، وتزوج الأشرف ابنته . ومن غريب ما ذكره أبو شامة فى هذه الكائنة أن قسيس الملك كان ينظر فى النجوم فقال الملك قبل ذلك بيوم : اعلم أنك تدخل غدا إلى قلعة خلاط ولكن بزى غير ذلك أذان العصر ، فوافق دخوله إليها أسيراً أذان العصر .

﴿ ذكر وفاة صاحب الموصل نور الدين ﴾

أرسل الملك نور الدين شاه بن عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود بن زنكى صاحب الموصل يخطب ابنة السلطان الملك العادل ، وأرسل وكيله لقبول العقد على ثلاثين ألف دينار ، فاتفق موت نور الدين ووكيله سائر فى أثناء الطريق ، فعقد العقد بعد وفاته ، وقد أثنى عليه ابن الأثير فى كامله كثيرا وشكر منه ومن عدله وشهامته وهو أعلم به من غيره ، وذكر أن مدة ملكه سبع عشرة سنة وإحدى عشر شهرا ، وأما أبو المظفر السبط فانه قال كان جبارا ظالما بخيلا سفاكا للدماء فالله أعلم به . وقام بالملك ولده القاهر عز الدين مسعود ، وجعل تدبير مملكته إلى غلامه بدر الدين لؤلؤ الذى صار الملك إليه فيما بعد .

قال أبو شامة : وفى سابع شوال شرع فى عمارة المصلى ، وبنى له أربع جدر مشرفة ، وجعل له أبوابا صونا لمكانه من المبار ونزول القوافل ، وجعل فى قبلته محرابا من حجارة ومنبرا من حجارة وعقدت فوق ذلك قبة . ثم فى سنة ثلاث عشرة عمل فى قبلته رواقان وعمل له منبر من خشب ورتب له خطيب وإمام راتبان ، ومات العادل ولم يتم الرواق الثانى منه ، وذلك كله على يد الوزير الصفى ابن شكر . قال وفى ثانى شوال منها جددت أبواب الجامع الأموى من ناحية باب البريد بالنحاس الأصفر ، وركبت فى أماكنها . وفى شوال أيضاً شرع فى إصلاح الفوارة والشاذروان والبركة وعمل عندها مسجد ، وجعل له إمام راتب ، وأول من تولاه رجل يقال له النفيس المصرى ، وكان يقال له بوق الجامع لطيب صوته إذا قرأ على الشيخ أبى منصور الضرير المصدر فيجتمع عليه الناس الكثيرون . وفى ذى الحجة منها توجهت مراكب من عكا إلى البحر إلى ثغر دمياط وفيها ملك قبرص المسمى إليان فدخل الثغر ليلا فأغار على بعض البلاد فقتل وسبى وكر راجعاً فركب مراكبه ولم يدركه الطلب ، وقد تقدمت له مثلها قبل هذه ، وهذا شئ لم يتفق لغيره لعنه الله .

وفيها عاثت الفرنج بنواحى القدس فبرز إليهم الملك المعظم ، وجلس الشيخ شمس الدين أبو

المظفر ابن قزعلى الحنفى وهو سبط ابن الجوزى ابن ابنته رابعة ، وهو صاحب مرآة الزمان ، وكان فاضلا فى علوم كثيرة ، حسن الشكل طيب الصوت ، وكان يتكلم فى الوعظ جيدا وتحبه العامة على صيت جده ، وقد رحل من بغداد فنزل دمشق وأكرمه ملوكها ، وولى التدريس بها ، وكان يجلس كل يوم سبت عند باب مشهد على بن الحسين زين العابدين إلى السارية التى يجلس عندها الوعاظ فى زماننا هذا ، فكان يكثر الجمع عنده حتى يكونوا من باب الناطفانيين إلى باب المشهد إلى باب الساعات ، الجلوس غير الوقوف ، فحزر جمعه فى بعض الأيام ثلاثين ألفا من الرجال والنساء ، وكان الناس يبيتون ليلة السبت فى الجامع ويدعون البساتين ، يبيتون فى قراءة ختمات وأذكار ليحصل لهم أماكن من شدة الزحام ، فاذا فرغ من وعظه خرجوا إلى أماكنهم وليس لهم كلام إلا فيما قال يومهم ذلك أجمع ، يقولون قال الشيخ وسمعنا من الشيخ فيحثهم ذلك على العمل الصالح والكف عن المساوى ، وكان يحضر عنده الأكابر ، حتى الشيخ تاج الدين أبو اليمن الكندى ، كان يجلس فى القبة التى عند باب المشهد هو ووالى البلد المعتمد ووالى البر ابن تميرك وغيرهم . والمقصود أنه لما جلس يوم السبت خامس ربيع الأول كما ذكرنا حث الناس على الجهاد وأمر باحضار ما كان تحصل عنده من شعور التائبين ، وقد عمل منه شكالات تحمل الرجال ، فلما رآها الناس ضجوا ضجة واحدة وبكوا بكاء كثيرا وقطعوا من شعورهم نحوها ، فلما انقضى المجلس ونزل عن المنبر فتلقاه الوالى مبادر الدين المعتمد بن إبراهيم ، وكان من خيار الناس ، فمشى بين يديه إلى باب الناطفيين يعضده حتى ركب فرسه والناس من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ، فخرج من باب الفرج وبات بالمصلى ثم ركب من الغد فى الناس إلى الكسوة ومعه خلائق كثيرون خرجوا بنية الجهاد إلى بلاد القدس ، وكان من جملة من معه ثلاثمائة من جهة زملكا بالعدد الكثيرة التامة ، قال : فجئنا عقبة أفيق والطير لا يتجاسر أن يطير من خوف الفرنج ، فلما وصلنا نابلس تلقانا المعظم ، قال ولم أكن اجتمعت به قبل ذلك ، فلما رأى الشكالات من شعور التائبين جعل يقبلها ويمرغها على عينيه ووجهه ويبكى ، وعمل أبو المظفر ميعادا بنابلس وحث على الجهاد وكان يوماً مشهودا ، ثم سار هو ومن معه وصحبته المعظم نحو الفرنج فقتلوا خلقا وخربوا أماكن كثيرة ، وغنموا وعادوا سالمين ، وشرع المعظم فى تحصين جبل الطور وبنى قلعة فيه ليكون إلبا على الفرنج ، فغرم أموالا كثيرة فى ذلك ، فبعث الفرنج إلى العادل يطلبون منه الأمان والمصالحة ، فهادنهم وبطلت تلك العمارة وضاع ما كان المعظم غرم عليها والله أعلم .

وفيها توفى من الأعيان

﴿ الشيخ أبو عمر ﴾

بانى المدرسة بسفح قاسيون للفقراء المشتغلين فى القرآن رحمه الله ، محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة

الشيخ الصالح أبو عمر المقدسى ، بانى المدرسة التى بالسفح يقرأ بها القرآن العزيز ، وهو أخو الشيخ موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة ، وكان أبو عمر أسن منه ، لأنه ولد سنة ثمان وعشرين وخمسمائة بقرية الساويا ، وقيل بجماعيل . والشيخ أبو عمر ربى الشيخ موفق الدين وأحسن إليه وزوجه ، وكان يقوم بمصالحه ، فلما قدموا من الأرض المقدسة نزلوا بمسجد أبى صالح خارج باب شرقى ثم انتقلوا منه إلى السفح . وليس به من العمارة شىء سوى دير الحورانى ، قال فقيل لنا الصالحيين نسبة إلى مسجد أبى صالح لا أنا صالحون . وسميت هذه البقعة من ذلك الحين بالصالحية نسبة إلينا ، وقرأ الشيخ أبو عمر القرآن على رواية أبى عمرو ، وحفظ مختصر الخرقى فى الفقه ، ثم إن أخاه الموفق شرحه فيما بعد فكتب شرحه بيده ، وكتب تفسير البغوى والحلية لأبى نعيم والابانة لابن بطة، وكتب مصاحف كثيرة بيده للناس ولأهله بلا أجرة . وكان كثير العبادة والزهادة والتهجد ، و يصوم الدهر وكان لا يزال متبسما ، وكان يقرأ كل يوم سبعا بين الظهر والعصر و يصلى الضحى ثمانى ركعات يقرأ فيهن ألف مرة قل هو الله أحد . وكان يزور مغارة الدم فى كل يوم اثنين وخميس . و يجمع فى طريقه الشيح فيعطيه الأرامل والمساكين . ومهما تهيأ له من فتوح وغيره يؤثر به أهله والمساكين ، وكان متقللا فى الملبس وربما مضت عليه مدة لا يلبس فيها سراويل ولا قميصاً ، وكان يقطع من عمامته قطعا يتصدق بها أو فى تكميل كفن ميت ، وكان هو وأخوه وابن خالهم الحافظ عبد الغنى وأخوه الشيخ العماد لا ينقطعون عن غزاة يخرج فيها الملك صلاح الدين إلى بلاد الفرنج ، وقد حضروا معه فتح القدس والسواحل وغيرها . وجاء الملك العادل يوماً إلى ختمهم أى خصهم لزيارة أبى عمر وهو قائم يصلى ، فما قطع صلاته ولا أوجز فيها ، فجلس السلطان واستمر أبو عمر فى صلاته ولم يلتفت إليه حتى قضى صلاته رحمه الله . والشيخ أبو عمر هو الذى شرع فى بناء المسجد الجامع أولا بمال رجل فامى ، فنفد ما عنده وقد ارتفع البناء قامة فبعث صاحب إربل الملك المظفر كوكرى مالا فكمل به . وولى خطابته الشيخ أبو عمر ، فكان يخطب به وعليه لباسه الضعيف وعليه أنوار الخشية والتقوى والخوف من الله عز وجل ، والمسك كيف خبأته ظهر عليك وبان ، وكان المنبر الذى فيه يومئذ ثلاث مراقى والرابعة للجلوس ، كما كان المنبر النبوى ، وقد حكى أبو المظفر أنه حضر يوماً عنده الجمعة وكان الشيخ عبد الله اليونانى حاضراً الجمعة أيضاً عنده ، فلما انتهى فى خطبته إلى الدعاء للسلطان قال : اللهم أصلح عبدك الملك العادل سيف الدين أبا بكر بن أيوب . فلما قال ذلك نهض الشيخ عبد الله اليونانى وأخذ نعليه وخرج من الجامع وترك صلاة الجمعة ، فلما فرغنا ذهبت إلى اليونانى فقلت له : ماذا نقمت عليه فى قوله ؟ فقال يقول لهذا الظالم العادل ؟ لا صليت معه ، قال فبينما نحن فى الحديث إذ أقبل الشيخ أبو عمر ومعه رغيف وخيارتان فكسر ذلك الرغيف وقال الصلاة ، ثم قال قال النبى ﷺ

« بعثت فى زمن الملك العادل كسرى » فتبسم الشيخ عبدالله البوتانى ومد يده فأكل فلما فرغوا قام الشيخ أبو عمر فذهب فلما ذهب قال لى البوتانى يا سيدنا ماذا إلا رجل صالح .

قال أبو شامة كان البوتانى من الصالحين الكبار ، وقد رأيته وكانت وفاته بعد أبى عمر بعشر سنين فلم يسامح الشيخ أبا عمر فى تساهله مع ورعه ، ولعله كان مسافرا والمسافر لا جمعة عليه ، وعذر الشيخ أبى عمر أن هذا قد جرى مجرى الأعلام العادل الكامل الأشرف ونحوه ، كما يقال سالم وغانم ومسعود ومحمود ، وقد يكون ذلك على الضد والعكس فى هذه الأسماء ، فلا يكون سالما ولا غانما ولا مسعودا ولا محمودا ، وكذلك اسم العادل ونحوه من أسماء الملوك وألقابهم ، والتجار وغيرهم ، كما يقال شمس الدين و بدر الدين وعز الدين وتاج الدين ونحو ذلك قد يكون معكوساً على الضد والانقلاب ومثله الشافعى والحنبلى وغيرهم ، وقد تكون أعماله ضد ما كان عليه إمامه الأول من الزهد والعبادة ونحو ذلك ، وكذلك العادل يدخل إطلاقه على المشترك والله أعلم . قلت : هذا الحديث الذى احتج به الشيخ أبو عمر لا أصل له ، وليس هو فى شئ من الكتب المشهورة ، وعجباً له ولأبى المظفر ثم لأبى شامة فى قبول مثل هذا وأخذه منه مسلما إليه فيه والله أعلم .

ثم شرع أبو المظفر فى ذكر فضائل أبى عمر ومناقبه وكراماته وما رآه هو وغيره من أحواله الصالحة . قال : وكان على مذهب السلف الصالح سمتا وهديا ، وكان حسن العقيدة متمسكا بالكتاب والسنة والآثار المروية يمرها كما جاءت من غير طعن على أئمة الدين وعلماء المسلمين ، وكان ينهى عن صحبة المتبدعين و يأمر بصحبة الصالحين الذين هم على سنة سيد المرسلين وخاتم النبيين ، و ربما أنشدنى لنفسه فى ذلك :

أوصيكم بالقول فى القرآن ■ بقول أهل الحق والاتقان
ليس بمخلوق ولا بفان ■ لكن كلام الملك الديان
آياته مشرقة المعانى ■ متلوة لله باللسان
محفوظة فى الصدر والجنان ■ مكتوبة فى الصحف بالبنان
والقول فى الصفات يا إخوانى ■ كالذات والعلم مع البيان
إمرارها من غير ما كفران ■ من غير تشبيه ولا عطلان

قال وأنشدنى لنفسه :

ألم يك ملهاة عن اللهو أننى * بدالى شيب الرأس والضعف والألم
ألم بى الخطب الذى لو بكيته * حياتى حتى يذهب الدمع لم ألم

قال ومرض أياماً فلم يترك شيئا مما كان يعمله من الأوراد ، حتى كانت وفاته وقت السحر فى ليلة

الثلاثاء التاسع والعشرين من ربيع الأول فغسل فى الدير وحمل إلى مقبرته فى خلق كثير لا يعلمهم إلا الله عز وجل . ولم يبق أحد من الدولة والأمراء والعلماء والقضاة وغيرهم إلا حضر جنازته ، وكان يوماً مشهودا . وكان الحر شديدا فأظلت الناس سحابة من الحر ، كان يسمع منها كدوى النحل . وكان الناس ينتهبون أكفانه و بيعت ثيابه بالغالى الغالى . ورثاه الشعراء بمراثى حسنة . ورؤيت له منامات صالحة رحمه الله . وترك من الأولاد ثلاثة ذكور : عمر . وبه كان يكنى . والشرف عبد الله وهو الذى ولى الخطابة بعد أبيه ، وهو والد العز أحمد . وعبد الرحمن . ولما توفى الشرف عبد الله صارت الخطابة لأخيه شمس الدين عبد الرحمن بن أبى عمر . وكان من أولاد أبيه الذكور ، فهؤلاء أولاده الذكور ، وترك من الأناث بنات كما قال الله تعالى (مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا) قال وقبره فى طريق مغارة الجوع فى الزقاق المقابل لدير الحورانى رحمه الله و إيانا .

﴿ ابن طبرزد شيخ الحديث ﴾

عمر بن محمد بن معمر بن يحيى المعروف بأبى حفص بن طبرزد البغدادى الدارَقزّى . ولد سنة خمس عشرة وخمسمائة ، سمع الكثير وأسمع ، وكان خليعا ظريفا ماجنا ، وكان يؤدب الصبيان بدارالقز قدم مع حنبل بن عبد الله المكبر إلى دمشق فسمع أهلها عليهما ، وحصل لهما أموال وعادا إلى بغداد فمات حنبل سنة ثلاث وتأخرهو إلى هذه السنة [فى تاسع شهر رجب] فمات وله سبع وتسعون سنة . وترك مالا جيدا ولم يكن له وارث إلا بيت المال . ودفن بباب حرب .

﴿ السلطان الملك العادل أرسلان شاه ﴾

نور الدين صاحب الموصل ، وهو ابن أخى نور الدين الشهيد . وقد ذكرنا بعض سيرته فى الحوادث . كان شافعى المذهب ، ولم يكن بينهم شافعى سواه ، و بنى للشافعية مدرسة كبيرة بالموصل وبها تربته ، توفى فى صفر ليلة الأحد من هذه السنة .

﴿ ابن سكينة عبد الوهاب بن على ﴾

ضياء الدين المعروف بابن سكينة الصوفى . كان يعد من الأبدال ، سمع الحديث الكثير وأسمعه ببلاد شتى . ولد فى سنة تسع عشرة وخمسمائة . وكان صاحبا لأبى الفرج ابن الجوزى ملازماً لمجلسه وكان يوم جنازته يوماً مشهودا لكثرة الخلق ولكثرة ما كان فيه من الخاصة والعامة رحمه الله .

﴿ مظفر بن ساسير ﴾

الواعظ الصوفى البغدادى ، ولد سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة . وسمع الحديث ، وكان يعظ فى الأعزية والمساجد والقرى . وكان ظريفا مطبوعا قام إليه إنسان فقال له فيما بينه و بينه : أنا مريض جائع . فقال : احمد ربك فقد عوفيت . واجتاز مرة على قصاب يبيع لحما ضعيفا وهو يقول أين من

حلف لا يغبن ، فقال له حتى تحنثه . قال : وعملت مرة مجلساً بيعقوبا فجعل هذا يقول عندى للشيخ نصفية وهذا يقول عندى للشيخ نصفية وهذا يقول مثله حتى عدوا نحواً من خمسين نصفية ، فقلت فى نفسى : استغنيت الليلة فأرجع إلى البلد تاجرا ، فلما أصبحت إذا صبرة من شعير فى المسجد فقيل لى هذه النصافى التى ذكر الجماعة ، و إذا هى بكيلة يسمونها نصفية مثل الزبدية ، وعملت مرة مجلسا بباصرا فجمعوا لى شيئا لا أدرى ما هو ، فلما أصبحنا إذا شىء من صوف الجواميس وقرونها ، فقام رجل ينادى عليكم عندكم فى قرون الشيخ وصوفه ،فقلت لا حاجة لى بهذا وأنتم فى حل منه . ذكره أبو شامة

﴿ ثم دخلت سنة ثمان وستمائة ﴾

استهلت والعادل مقيم على الطور لعمارة حصنه ، وجاءت الأخبار من بلاد المغرب بأن عبد المؤمن قد كسر الفرنج بطليطلة كسرة عظيمة ، وربما فتح البلد عنوة وقتل منهم خلقا كثيراً . وفيها كانت زلزلة عظيمة شديدة بمصر والقاهرة ، هدمت منها دوراً كثيرة ، وكذلك بالكرك والشوبك هدمت من قلعتها أبراجا ، ومات خلق كثير من الصبيان والنسوان تحت الهدم ، ورؤى دخان نازل من السماء فيما بين المغرب والعشاء عند قبر عاتكة غربى دمشق . وفيها أظهرت الباطنية الاسلام وأقامت الحدود على من تعاطى الحرام ، وبنوا الجوامع والمساجد ، وكتبوا إلى إخوانهم بالشام بمصات وأمثالها بذلك ، وكتب زعيمهم جلال الدين إلى الخليفة يعلمه بذلك . وقدمت أمة منهم إلى بغداد لأجل الحج فأكرموا وعظموا بسبب ذلك ، ولكن لما كانوا بعرفات ظفر واحد منهم على قريب لأمير مكة قتادة الحسينى فقتله ظانا أنه قتادة فثارت فتنة بين سودان مكة وركب العراق ، ونهب الركب وقتل منهم خلق كثير . وفيها اشترى الملك الأشرف جوسق الريس من النيرب من ابن عم الظاهر حضر بن صلاح الدين وبناه بناء حسنا ، وهو المسمى بزماننا بالدهشة .

وفيها توفى من الأعيان .

﴿ الشيخ عماد الدين ﴾

محمد بن يونس الفقيه الشافعى الموصلى صاحب التصانيف والفنون الكثيرة . كان رئيس الشافعية بالموصل ، وبعث رسولا إلى بغداد بعد موت نور الدين أرسلان . وكان عنده وسوسة كثيرة فى الطهارة ، وكان يعامل فى الأموال بمسألة العينة كما قيل تصفون البعوض من شرابكم وتستر بطون الجمال بأحمالها ، ولو عكس الأمر لكان خيراً له ، فلقيه يوماً قضيب البان الموكه فقال له : يا شيخ بلغنى عنك أنك تغسل العضو من أعضائك بابريق من الماء فلم لا تغسل اللقمة التى تأكلها لتستنظف قلبك وباطنك ؟ ففهم الشيخ ما أراد فترك ذلك . توفى بالموصل فى رجب عن ثلاث وسبعين سنة .

﴿ ابن حمدون تاج الدين ﴾

أبو سعد الحسن بن محمد بن حمدون . صاحب التذكرة الحمدونية ، كان فاضلا بارعا . اعتنى بجمع

الكتب المنسوبة وغيرها ، وولاه الخليفة المـارستان العضدى ، توفى بالمدائن وحمل إلى مقابر قريش فدفن بها

﴿ صاحب الروم خسروشاه ﴾

ابن قلج أرسلان ، مات فيها وقام بالملك بعـده ولده كيكاوس ، فلما توفى فى سنة خمس عشرة ملك أخوه كيقباذ صارم الدين برغش العادلى نائب القلعة بدمشق ، مات فى صفر ودفن بتربته غربى الجامع المظفرى ، وهذا الرجل هو الذى نفى الحافظ عبد الغنى المقدسى إلى مصر وبين يديه كان عقد المجلس ، وكان فى جملة من قام عليه ابن الزكى والخطيب الدولعى ، وقد توفوا أربعتهم وغيرهم ممن قام عليه واجتمعوا عند ربهم الحكم العدل سبحانه .

﴿ الأمير فخر الدين سركس ﴾

ويقال له جهاركس أحد أمراء الدولة الصلاحية وإليـه تنسب قباب سركس بالسفح تجاه تربة خاتون وبها قبره . قال ابن خلكان : هذا هو الذى بنى القيسارية الكبرى بالقاهرة المنسوبة إليـه وبنى فى أعلاها مسجدا معلقا وربعاً ، وقد ذكر جماعة من التجار أنهم لم يروا لها نظيراً فى البلدان فى حسنها وعظمها وإحـكام بنائها . قال : وجها ركس بمعنى أربعة أنفس . قلت : وقـد كان نائبا للعادل على بانياس وتبنين وهو بين ، فلما توفى ترك ولدا صغيراً فأقره العادل على ما كان يليه أبوه وجعل له مدبرا وهو الأمير صارم الدين قطلبا التنيسى ، ثم استقل بها بعد موت الصبى إلى سنة خمس عشرة

﴿ الشيخ الكبير المعمر الرحلة أبو القاسم أبو بكر أبو الفتح ﴾

منصور بن عبد المنعم بن عبد الله بن محمد بن الفضل الفراوى النيسابورى ، سمع أباه وجد أبيه وغيرهما ، وعنه ابن الصلاح وغيره ، توفى بنيسابور فى شعبان فى هذه السنة عن خمس وثمانين سنة

﴿ قاسم الدين التركمانى ﴾

العقيبى والد والى البلد ، كانت وفاته فى شوال منها والله أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة تسع وستمائة ﴾

فيها اجتمع العـادل وأولاده الـكامل والمعظم والفائز بدمياط من بلاد مصر فى مقاتـلة الفرنج فاغتنم غيبتهم سامة الجبلى أحد أكابر الأمراء ، وكانت بيـده قلعة عجلون وكوكب فسار مسرعا إلى دمشق ليستلم البلدين ، فأرسـل العادل فى إثره ولده المعظم فسبقه إلى القدس وحمل عليه فرسم عليه فى كنيسة صهيون ، وكان شيخاً كبيرا قد أصابه النقرس ، فشرع يرده إلى الطاعة بالملاطفة فلم ينفع فيه فاستولى على حواصـله وأملاكه وأمواله وأرسله إلى قلعة الكرك فاعتقله بها ، وكان قيمة ما أخـذه منه قريباً من ألف ألف دينـار ، من ذلك داره وحمامه داخـل باب السلامـة ، وداره هى التى جعلها البادرائى مدرسة للشافعية ، وخرب حصن كوكب ونقلت حواصـله إلى حصن الطور الذى استجده

العادل و ولده المعظم . وفيها عزل الوزير ابن شكر واحتيط على أمواله ونفى إلى الشرق ، وهو الذى كان قد كتب إلى الديار المصرية بنفى الحافظ عبد الغنى منها بعد نفيه من الشام ، فكتب أن ينفى إلى المغرب ، فتوفى الحافظ عبد الغنى رحمه الله قبل أن يصل الكتاب ، وكتب الله عز وجل بنفى الوزير إلى الشرق محل الزلازل والفتن والشر ، ونفاه عن الأرض المقدسة جزاء وفاقا . ولما استولى صاحب قبرص على مدينة أنطاكية حصل بسببه شر عظيم وتمكن من الغارات على بلاد المسلمين ، لا سيما على التراكمين الذين حول أنطاكية ، قتل منهم خلقا كثيرا وغنم من أغنامهم شيئا كثيرا ، فقدر الله عز وجل أن أمكنهم منه فى بعض الأودية فقتلوه وطافوا برأسه فى تلك البلاد ، ثم أرسلوا رأسه إلى الملك العادل إلى مصر فطيف به هنالك ، وهو الذى أغار على بلاد مصر من ثغر دمياط مرتين فقتل وسبى وعجز عنه الملوك .

وفى ربيع الأول منها توفى الملك الأوحد .

﴿ نجم الدين أيوب ﴾

ابن العادل صاحب خلاط ، يقال إنه كان قد سفك الدماء وأساء السيرة فقصف الله عمره ، ووليها بعده أخوه الملك الأشرف موسى ، وكان محمود السيرة جيد السريرة فأحسن إلى أهلها فأحبوه كثيرا . وفيها توفى من الأعيان .

﴿ فقيه الحرم الشريف بمكة ﴾

محمد بن إسماعيل بن أبى الصيف اليمنى ، وأبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن أبى بكر القفصى المقرى المحدث ، كتب كثيرا وسمع الكثير ودفن بمقابر الصوفية .

﴿ أبو الفتح محمد بن سعد بن محمد الديباجى ﴾

من أهل مرو ، له كتاب المحصل فى شرح المفصل للزمخشرى فى النحو . كان ثقة عالما سمع الحديث توفى فيها عن ثنتين وتسعين سنة .

﴿ الشيخ الصالح الزاهد العابد ﴾

أبو البقاء محمود بن عثمان بن مكارم النعالى الحنبلى ، كان له عبادات ومجاهدات وسياحات ، وبنى رباطاً بباب الأزج يأوى إليه أهل العلم من المقادسة وغيرهم ، وكان يؤثرهم ويحسن إليهم ، وقد سمع الحديث وقرأ القرآن ، وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . توفى وقد جاوز الثمانين .

﴿ ثم دخلت سنة عشر وستمائة ﴾

فيها أمر العادل أيام الجمع بوضع سلاسل على أفواه الطرق إلى الجامع لئلا تصل الخيول إلى قريب الجامع صيانة للمسلمين عن الأذى بهم ، ولئلا يضيقوا على المارين إلى الصلاة . وفيها ولد الملك

العزيز للظاهر غازى صاحب حلب ، وهو والد الملك الناصر صاحب دمشق واقف الناصريتين داخل دمشق ، إحداهما داخل باب الفراديس ، والأخرى بالسفح ذات الحائط الهائل والعمارة المتينة ، التى قيل إنه لا يوجد مثلها إلا قليلا ، وهو الذى أسره التتار الذين مع هـلاكو ملك التتار . وفيها قدم بالفيل من مصر فحمل هدية إلى صاحب الكرج فتعجب الناس منـه جدا ، ومن بديع خلقه . وفيها قدم الملك الظافر خضر بن السلطان صلاح الدين من حلب قاصدا الحج ، فتلقاه الناس وأكرمه ابن عمه المعظم ، فلما لم يبق بينـه و بين مكة إلا مراحـل يسيرة تلقته حاشية الـكامـل صاحب مصر وصدوه عن دخول مكة ، وقالوا إنما جئت لأخذ اليمن ، فقال لهم قيدونى وذرونى أقضى المناسك ، فقالوا : ليس معنا مرسوم و إنما أمرنا بردك وصـدك ، فهمّ طائفة من الناس بقتالهم فخاف من وقوع فتنة فتحالل من حجه و رجع إلى الشام ، وتأسف الناس على مافعل به وتباكوا لما ودعهم ، تقبل الله منه . وفيها وصل كتاب من بعض فقهاء الحنفيـة بخراسان إلى الشيخ تاج الدين أبو اليمن الكندى يخبر به أن السلطان خوارزم شاه محمد بن تكش تنكر فى ثلاثة نفر من أصحابه ، ودخـل بلاد التتر ليكشف أخبارهم بنفسه ، فأنكروهم فقبضوا عليهم فضربوا منهم اثنين حتى ماتا ولم يقرا بما جاؤا فيه واستوثقوا من الملك وصاحبه الآخر أسرا ، فلما كان فى بعض الليالى هربا ورجع السلطان إلى ملكه وهذه المرة غير نوبة أسره فى المعركة مع ابن مسعود الأمير .

وفيها ظهرت بلاطة وهم يحفرون فى خندق حلب فوجد تحتها من الذهب خمسة وسبعون رطلا ، ومن الفضة خمسة وعشرون بالرطل الحلبى .

وفيها توفى من الأعيان .

﴿ شيخ الحنفية ﴾

مدرس مشهد أبى حنيفة ببغداد ، الشيخ أبو الفضـل أحمد بن مسعود بن على الرسانى ، وكان إليه المظالم ، ودفن بالمشهد المذكور .

﴿ والشيخ أبو محمد بن إسماعيل ﴾

ابن على بن الحسين فخر الدين الحنبلى ، يعرف بابن الماشطة ، و يقال له الفخر غلام ابن المنى ، له تعليقة فى الخلاف وله حلقة بجامع الخليفة ، وكان يلى النظر فى قرايا الخليفة ، ثم عزله فلزم بيته فقيرا لا شىء له إلى أن مات رحمه الله ، وكان ولده محمد مـدبرا شيطانا مريدا كثير الهجاء والسعاية بالناس إلى أولياء الأمر بالباطل ، فقطع لسانه وحبس إلى أن مات .

﴿ والوزير معز الدين أبو المعالى ﴾

سعيد بن على بن أحمد بن حديدة ، من سلالة الصحابى قطبة بن عامر بن حديدة الأنصارى ، ولى الوزارة للناصر فى سنة أربع وثمانين ، ثم عزله عن سفارة ابن مهدى فهرب إلى مراغة ، ثم عاد

بعد موت ابن مهدى فأقام ببغداد معظماً محترماً . وكان كثير الصدقات والاحسان إلى الناس إلى أن مات رحمه الله

﴿ وسنجر بن عبد الله الناصرى ﴾

الخليفتى . كانت له أموال كثيرة وأملاك و إقطاعات متسعة ، وكان مع ذلك بخيلا ذليلا ساقط النفس ، اتفق أنه خرج أمير الحاج فى سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، فاعترضه بعض الأعراب فى نفر يسير . ومع سنجر خمسمائة فارس ، فدخله الذل من الأعرابى ، فطلب منه الأعرابى خمسين ألف دينار فجباها سنجر من الحجيج ودفعها إليه ، فلما عاد إلى بغداد أخذ الخليفة منه خمسين ألف دينار ودفعها إلى أصحابها وعزله وولى طاشتكين مكانه .

﴿ قاضى السلامية ﴾

ظهير الدين أبو إسحاق إبراهيم بن نصر بن عسكر ، الفقيه الشافعى الأديب ، ذكره العماد فى الجريدة وابن خلكان فى الوفيات ، وأثنى عليه وأنشد من شعره ، فى شيخ له زاوية . وفى أصحابه يقال له مكى :

ألا قل لمكى قول النصوح * وحق النصيحة أن تستمع
متى سمع الناس فى دينهم * بأن الغنا سنة تتبع
وأن يأكل المرء أكل البعير * ويرقص فى الجمع حتى يقع
ولو كان طاوى الحشا جائعاً * لما دار من طرب واستمع
وقالوا : سكرنا بحب الاله * وما أسكر القوم إلا القصع
كذاك الحمير إذا أخصبت * يهيجها ريها والشبع
تراهم يهزوا لحاهم إذا * ترنم حاديهم بالبدع
فيصرخ هذا وهذا يئن * ويبس لو تليِّن ما انصدع

﴿ وتاج الأمناء ﴾

أبو الفضل أحمد بن محمد بن الحسن بن هبة الله بن عساكر من بيت الحديث والرواية ، وهو أكبر من إخوته زين الفخر والأمناء ، سمع عميه الحافظ أبى القاسم والصائن ، وكان صديقا للكندى توفى يوم الأحد ثانى رجب ودفن قبلى محراب مسجد القدم .

﴿ والنسابة الكلبى ﴾

كان يقال له تاج العلى الحسينى ، اجتمع بآمد بابن دحية ، وكان ينسب إلى دحية الكلبى ، ودحية الكلبى لم يعقب . فرماه ابن دحية بالكذب فى مسائله الموصلية . قال ابن الأثير : وفى المحرم منها توفى

﴿ المهذب الطبيب المشهور ﴾

وهو على بن أحمد بن مقبل الموصلى ، سمع الحديث وكان أعلم أهل زمانه بالطب ، وله فيه تصنيف حسن ، وكان كثير الصدقة حسن الأخلاق .

﴿ الجزولى صاحب المقدمة المسماة بالقانون ﴾

وهو أبو موسى عيسى بن عبد العزيز الجزولى - بطن من البربر - ثم البردكينى النحوى المصرى ، مصنف المقدمة المشهورة البديعة ، شرحها هو وتلامذته ، وكلهم يعترفون بتقصيرهم عن فهم مراده فى أماكن كثيرة منها ، قدم مصر وأخذ عن ابن برى ، ثم عاد إلى بلاده وولى خطابة مراكش ، توفى فى هذه السنة وقيل قبلها فالله أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة إحدى عشرة وستمائة ﴾

فيها أرسل الملك خوارزم شاه أميراً من أخصاء أمرائه عنده ، وكان قبل ذلك سيروانياً فصار أميرا خاصاً ، فبعثه فى جيش ففتح له كرمان وتكران وإلى حدود بلاد السند ، وخطب له بتلك البلاد ، وكان خوارزم شاه لا يصيف إلا بنواحى سمرقند خوفا من التتار وكشلى خان أن يثبوا على أطراف تلك البلاد التى تتاخمهم . قال أبو شامة : وفيها شرع فى تبليط داخل الجامع الأموى وبدأوا من ناحية السبع الكبير ، وكانت أرض الجامع قبل ذلك حفرا وجورا ، فاستراح الناس فى تبليطه . وفيها وسع الخندق مما يلى القيمازية فأخربت دور كثيرة وحمام قايماز وفرن كان هناك وقفا على دار الحديث النورية . وفيها بنى المعظم الفندق المنسوب إليه بناحية قبر عاتكة ظاهر باب الجابية . وفيها أخذ المعظم قلعة صرخد من ابن قراجا وعوضه عنها وسلمها إلى مملوكه عز الدين أيبك المعظمى ، فثبتت فى يده إلى أن انتزعها منه نجم الدين أيوب سنة أربع وأربعين . وفيها حج الملك المعظم ابن العادل ركب من الكرك على الهجن فى حادى عشر ذى القعدة ومعه ابن موسك ومملوك أبيه وعز الدين أستاذ داره وخلق ، فسار على طريق تبوك والعلا . وبنى البركة المنسوبة إليه ، ومصانع أخر . فلما قدم المدينة النبوية تلقاه صاحبها سالم وسلم إليه مفاتيحها وخدمه خدمة تامة ، وأما صاحب مكة قتادة فلم يرفع به رأساً ، ولهذا لما قضى نسكه ، وكان قارنا ، وأنفق فى المجاورين ما حمله إليهم من الصدقات وكرّ راجعاً استصحب معه سالما صاحب المدينة وتشكى إلى أبيه عند رأس الماء ما لقيه من صاحب مكة ، فأرسل العادل ، مع سالم جيشاً يطردون صاحب مكة ، فلما انتهوا إليها هرب منهم فى الأودية والجبال والبرارى ، وقد أثر المعظم فى حجته هذه آثاراً حسنة بطريق الحجاز أثابه الله ،

وفيها تعامل أهل دمشق فى القراطيس السود العادلية ثم بطلت بعد ذلك ودفنت . وفيها مات

صاحب اليمن وتولاها سليمان بن شاهنشاه بن تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب باتفاق الأمراء عليه ، فأرسل العادل إلى ولده الكامل أن يرسل إليها ولده أضسيس ، فأرسله فتملكها فظلم بها وفتك وغشم ، وقتل من الأشراف نحواً من ثمانمائة ، وأما من عداهم فكثير . وكان من أفجر الملوك وأكثرهم فسقا وأقلهم حياء ودينا ، وقد ذكروا عنه ما تقشعر منه الأبدان وتنكره القلوب ، نسأل الله العافية

وفيها توفى من الأعيان ﴿ إبراهيم بن على ﴾

ابن محمد بن بكروس الفقيه الحنبلى ، أفتى وناظر وعدل عند الحكام ، ثم انسلخ من هذا كله وصار شرطيا بباب النوى يضرب الناس ويؤذيهم غاية الأذى ، ثم بعد ذلك ضرب إلى أن مات وألقى فى دجلة وفرح الناس بموته ، وقد كان أبوه رجلا صالحا .

﴿ الركن عبد السلام بن عبدالوهاب ﴾

ابن الشيخ عبد القادر ، كان أبوه صالحا وكان هو متهما بالفسلفة ومخاطبة النجوم ، ووجد عنده كتب فى ذلك . وقد ولى عدة ولايات ، وفيه وفى أمثاله يقال : نعم الجدود ولكن بئس ما نسلوا . رأى عليه أبوه يوماً ثوبا بخاريا فقال : سمعنا بالبخارى ومسلم ، وأما بخارى وكافر فهذا شئ عجيب ، وقد كان مصاحباً لأبى القاسم ابن الشيخ أبى الفرج بن الجوزى ، وكان الآخر مدبراً فاسقا ، وكانا يجتمعان على الشراب والمردان قبحهما الله .

﴿ أبو محمد عبد العزيز بن محمود بن المبارك ﴾

البزار المعروف بابن الأخضر البغدادى المحدث المكثر الحافظ المصنف المحرر ، له كتب مفيدة متقنة ، وكان من الصالحين . وكان يوم جنازته يوماً مشهودا رحمه الله .

﴿ الحافظ أبو الحسن على بن الأنجب ﴾

أبى المكارم المفضل [بن أبى الحسن على بن أبى الغيث مفرج بن حاتم بن الحسن بن جعفر بن إبراهيم بن الحسن] اللخمى المقدسى ، ثم الاسكندرانى المالكى ، سمع السلفى وعبد الرحيم المنذرى وكان مدرسا للمالكية بالأسكندرية ، ونائب الحكم بها . ومن شعره قوله :

أيا نفس بالمأثور عن خير مرسل ... وأصحابه والتابعين تمسكى
عساك إذا بالغت فى نشر دينه ... بما طاب من عرف له أن تمسكى
وخافى غدا يوم الحساب جهنما ... إذا لفحت نيرانها أن تمسكى

توفى بالقاهرة فى هذه السنة قاله ابن خلكان .

﴿ ثم دخلت سنة اثنتى عشرة وستمائة ﴾

فيها شرع فى بناء المدرسة العادلية الكبيرة بدمشق ، وفيها عزل القاضى ابن الزكى وفوض الحكم

إلى القاضى جمال الدين بن الحرستانى ، وهو ابن ثمانين أو تسعين سنة ، فحكم بالعدل وقضى بالحق ، ويقال إنه كان يحكم بالمدرسة المجاهدية قريبا من النورية عند باب القواسين . وفيها أبطل العادل ضمان الخمر والقيان جزاه الله خيراً ، فزال بزوال ذلك عن الناس ومنهم شر كثير . وفيها حاصر الأمير قتادة أمير مكة المدينة ومن بها وقطع نخلا كثيراً ، فقاتله أهلها فكر خائبا خاسراً حسيراً ، وكان صاحب المدينة بالشام فطلب من العادل نجدة على أمير مكة ،فأرسل معه جيشا فأسرع فى الأوبة فمات فى أثناء الطريق ، فاجتمع الجيش على ابن أخيه جماز فقصد مكة فالتقاه أميرها بالصفراء فاقتتلوا قتالا شديدا ، فهرب المكيون وغنم منهم جماز شيئا كثيرا ، وهرب قتادة إلى الينبع فساروا إليه فحاصروه بها وضيقوا عليه . وفيها أغارت الفرنج على بلاد الاسماعيلية فقتلوا ونهبوا . وفيها أخذ ملك الروم كيكارس مدينة أنطاكية من أيدى الفرنج ثم أخذها منه ابن لاون ملك الأرمن ، ثم منه إبريس طرابلس . وفيها ملك خوارزم شاه محمد بن تكش مدينة غزنة بغير قتال .

وفيها كانت وفاة ولى العهد أبى الحسن على بن أمير المؤمنين الناصر لدين الله ، ولما توفى حزن الخليفة عليه حزنا عظيما ، وكذلك الخاصة والعامة لكثرة صدقاته وإحسانه إلى الناس ، حتى قيل إنه لم يبق بيت ببغداد إلا حزنوا عليه ، وكان يوم جنازته يوما مشهودا وناح أهل البلد عليه ليلا ونهارا ، ودفن عند جدته بالقرب من قبر معروف ، توفى يوم الجمعة العشرين من ذى القعدة وصلى عليه بعد صلاة العصر ، وفى هذا اليوم قدم بغداد برأس منكلى الذى كان قد عصى على الخليفة وعلى أستاذه ، فطيف به ولم يتم فرحه ذلك اليوم لموت ولده وولى عهده ، والدنيا لاتسر بقدر ماتضر ، وترك ولدين أحدهما المؤيد أبو عبد الله الحسين ، والموفق أبو الفضل يحيى .

وفيها توفى من الأعيان

﴿ الحافظ عبدالقاهر الرهاوى ﴾

ابن عبد القادر بن عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد الحافظ المحدث المخرج المفيد المحرر المتقن البارع المصنف ، كان مولى لبعض المواصلة ، وقيل لبعض الجوابين ، اشتغل بدار الحديث بالموصل ، ثم انتقل إلى حران ، وقد رحل إلى بلدان شتى ، وسمع الكثير من المشايخ ، وأقام بحران إلى أن توفى بها ، وكان مولده فى سنة ست وثلاثين وخمسمائة ، كان دينا صالحا رحمه الله .

﴿ الوجيه الأعمى ﴾

أبو بكر المبارك بن سعيد بن الدهان النحوى الواسطى الملقب بالوجيه ، ولد بواسط وقدم بغداد فاشتغل بعلم العربية ، فأتقن ذلك وحفظ شيئا كثيرا من أشعار العرب ، وسمع الحديث وكان حنبليا ثم انتقل إلى مذهب أبى حنيفة ، ثم صار شافعيا ، وولى تدريس النحو بالنظامية ، وفيه يقول الشاعر :

فمن مبلغ عنى الوجيه رسالة ، وإن كان لا تجدى إليه الرسائل

تمذهبت للنعمان بعد ابن حنبل * وذلك لما أعوزتك المـآكل
وما أخذت برأى الشافعى ديانة * ولكنما تهوى الذى هو حاصل
وعما قليل أنت لا شك صائر * إلى مالك فانظر إلى ما أنت قائل

وكان يحفظ شيئا كثيرا من الحكايات والأمثال والملح ، و يعرف العربية والتركيـة والعجمية والرومية والحبشية والزنجية ، وكانت له يد طولى فى نظم الشعر . فمن ذلك قوله :

ولو وقفت فى لجة البحر قطرة * من المزن يوماً ثم شاء لمازها
ولو ملك الدنيا فأضحى ملوكها * عبيداً له فى الشرق والغرب مازها

وله فى التجنيس :

أطلت ملامى فى اجتنابى لمعشر * طغام لئام جودهم غير مرتجى
حموا مالهم والدين والعرض منهم * مباح ، فما يخشون من عاب أو هجا
إذا شرع الأجواد فى الجود منهجاً * لهم شرعوا فى البخل سبعين منهجا

وله مدائح حسنة وأشعار رائقة ومعانى فائقـة ، وربما عارض شعر البحترى بما يقاربه و يدانيه ، قالوا وكان الوجيه لا يغضب قط ، فتراهن جماعة مع واحد أنه إن أغضبه كان له كذا وكذا ، فجاء إليه فسأله عن مسألة فى العربية فأجابه فيها بالجواب ، فقال له السائل : أخطأت أيها الشيخ ، فأعاد عليه الجواب بعبارة أخرى ، فقال : كذبت وما أراك إلا قد نسيت النحو ، فقال الوجيه : أيها الرجل فلعلك لم تفهم ما أقول لك ، فقال بلى ولكنك تخطئ فى الجواب ، فقال له فقل أنت ما عندك لنستفيد منك ، فأغلظ له السائل فى القول فتبسم ضاحكا وقال له : إن كنت راهنت فقـد غلبت ، و إنمـا مثلك مثل البعوضة ـ يعنى الناموسـة ـ سقطت على ظهر الفيل ، فلما أرادت أن تطـير قالت له استمسك فانى أحب أن أطير ، فقال لها الفيل : ما أحسست بك حين سقطت ، فما أحتاج أن أستمسك إذا طرت ، كانت وفاته رحمه الله فى شعبان منها ودفن بالوردية .

﴿ أبو محمد عبد العزيز بن أبى المعالى ﴾

ابن غنيمة المعروف بابن منينا ، ولد سنة خمس عشرة وخمسمائة وسمع الكثير وأسمعه ، توفى فى ذى الحجة منها عن سبع وتسعين سنة .

﴿ الشيخ الفقيه كمال الدين مودود ﴾

ابن الشاغورى الشافعى كان يقرىء بالجامع الأموى الفقه وشرح التنبيه للطلبة ، و يتأنى عليهم حتى يفهموا احتسابا تجاه المقصورة . ودفن بمقابر باب الصغير شمالى قبور الشهداء وعلى قبره شعر ذكره أبو شامة والله سبحانه أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة ثلاث عشرة وستمائة ﴾

قال أبو شامة : فيها أحضرت الأوتاد الخشب الأربعة لأجل قبة النسر ، طول كل واحد اثنان وثلاثون ذراعا بالنجار. وفيها شرع فى تجديد خندق باب السر المقابل لدار الطعم العتيقة إلى جانب بانياس . قلت : هى التى يقال لها اليوم اصطبل السلطان ، وقد نقل السلطان بنفسه التراب ومماليكه تحمل بين يديه على قربوس السروج القفاف من التراب فيفرغونها فى الميدان الأخضر ، وكذلك أخوه الصالح ومماليكه يعمل هذا يوما وهذا يوماً . وفيها وقعت فتنة بين أهل الشاغور وأهل العقيبة فاقتتلوا بالرحبة والصيارف ، فركب الجيش إليهم ملبسين وجاء المعظم بنفسه فمسك رؤسهم وحبسهم . وفيها رتب بالمصلى خطيب مستقل ، وأول من باشره الصدر معيد الفلكية ، ثم خطب به بعد بهاء الدين بن أبى اليسر، ثم بنو حسان و إلى الآن .

وفيها توفى من الأعيان . ﴿ الملك الظاهر أبو منصور ﴾

غازى بن صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وكان من خيار الملوك وأسدهم سيرة ، ولكن كان فيه عسف و يعاقب على الذنب اليسير كثيرا ، وكان يكرم العلماء والشعراء والفقراء ، أقام فى الملك ثلاثين سنة وحضر كثيرا من الغزوات مع أبيه ، وكان ذكياً له رأى جيد وعبارة سديدة وفطنة حسنة ، بلغ أربعاً وأربعين سنة ، وجعل الملك من بعده لولده العزيز غياث الدين محمد ، وكان حينئذ ابن ثلاث سنين ، وكان له أولاد كبار ولكن ابنه هذا الصغير الذى عهد إليه كان من بنت عمه العادل وأخواله الأشرف والمعظم والكامل ، وجده وأخواله لاينازعونه ، ولو عهد لغيره من أولاده لأخذوا الملك منه ، وهكذا وقع سواء ، بايع له جده العادل وأخواله ، وهم المعظم بنقض ذلك و بأخذ الملك منه فلم يتفق له ذلك ، وقام بتدبير ملكه الطواشى شهاب الدين طغربك الرومى الأبيض ، وكان دينا عاقلا .

وفيها توفى من الأعيان ﴿ زيد بن الحسن ﴾

ابن زيد بن الحسن بن سعيد بن عصمة الشيخ الامام وحيد عصره تاج الدين أبو اليمن الكندى ، ولد ببغداد ونشأ بها واشتغل وحصل ، ثم قدم دمشق فأقام بها وفاق أهل زمانه شرقا وغربا فى اللغة والنحو وغير ذلك من فنون العلم ، وعلو الاسناد وحسن الطريقة والسيرة وحسن العقيدة ، وانتفع به علماء زمانه وأثنوا عليه وخضعوا له. وكان حنبلياً ثم صار حنفيا . ولد فى الخامس والعشرين من شعبان سنة عشرين وخمسمائة ، فقرأ القرآن بالروايات وعمره عشر سنين ، وسمع الكثير من الحديث العالى على الشيوخ الثقات ، وعنى به وتعلم العربية واللغة واشتهر بذلك ، ثم دخل الشام فى سنة ثلاث وستين وخمسمائة ، ثم سكن مصر واجتمع بالقاضى الفاضل ، ثم انتقل إلى دمشق فسكن بدار

العجم منها وحظى عند الملوك والوزراء والأمراء ، وتردد إليه العلماء والملوك وأبناؤهم ، كان الأفضل ابن صلاح الدين وهو صاحب دمشق يتردد إليه إلى منزله ، وكذلك أخوه المحسن والمعظم ملك دمشق ، كان ينزل إليه إلى درب العجم يقرأ عليه فى المفصل للزمخشرى ، وكان المعظم يعطى لمن حفظ المفصل ثلاثين دينارا جائزة ، وكان يحضر مجلسه بدرب العجم جميع المصدرين بالجامع ، كالشيخ علم الدين السخاوى ويحيى بن معطى الوجيه اللغوى ، والفخر التركى وغيرهم ، وكان القاضى الفاضل يثنى عليه . قال السخاوى : كان عنده من العلوم مالا يوجد عند غيره . ومن العجب أن سيبويه قد شرح عليه كتابه وكان اسمه عمرو ، واسمه زيد . فقلت فى ذلك :

لم يكن فى عهد عمرو مثله ■ وكذا الكندى فى آخر عصر
فهما زيد وعمرو إنما ■ بنى النحو على زيد وعمرو

قال أبو شامة : وهذا كما قال فيه ابن الدهان المذكور فى سنة ثنتين وتسعين وخمسمائة :

يا زيد زادك ربى من مواهبه ■ نعما يقصر عن إدراكها الأمل
النحو أنت أحق العالمين به ■ أليس باسمك فيه يضرب المثل

وقد مدحه السخاوى بقصيدة حسنة ، وأثنى عليه أبو المظفر سبط ابن الجوزى ، فقال قرأت عليه وكان حسن العقيدة ظريف الخلق لا يسأم الانسان من مجالسته ، وله النوادر العجيبة والخط المليح والشعر الرائق ، وله ديوان شعر كبير ، وكانت وفاته يوم الاثنين سادس شوال منها وله ثلاث وتسعون سنة وشهر وسبعة عشر يوماً ، وصلى عليه بجامع دمشق ثم حمل إلى الصالحية فدفن بها ، وكان قد وقف كتبه ـ وكانت نفيسة ـ وهى سبعمائة وإحدى وستون مجلدا ، على معتقه نجيب الدين ياقوت ، ثم على العلماء فى الحديث والفقه واللغة وغير ذلك ، وجعلت فى خزانة كبيرة فى مقصورة ابن سنان الحلبية المجاورة لمشهد على بن زين العابدين ، ثم إن هذه الكتب تفرقت وبيع كثير منها ولم يبق بالخزانة المشار إليها إلا القليل الرث ، وهى بمقصورة الحلبية ، وكانت قديما يقال لها مقصورة ابن سنان ، وقد ترك نعمة وافرة وأموالا جزيلة ، ومماليك متعددة من الترك الحسان ، وقد كان رقيق الحاشية حسن الأخلاق يعامل الطلبة معاملة حسنة من القيام والتعظيم ، فلما كبر ترك القيام لهم وأنشأ يقول :

تركت قيامى للصديق يزورنى ■ ولا ذنب لى إلا الاطالة فى عمرى
فان بلغوا من عشر تسعين نصفها ■ تبين فى ترك القيام لهم عذرى

ومما مدح فيه الملك المظفر شاهنشاه ما ذكره ابن الساعى فى تاريخه :

وصال الغوانى كان أورى وأرجا ■ وعصر التدانى كان أبهى وأبهجا

ليالى كان العمر أحسن شافع * تولى وكان اللهو أوضح منهجا
بدا الشيب فانجابت طماعية الصبا * وقبح لى ما كان يستحسن الحجا
بلهنية ولت كأن لم أكن بها * أجلى بها وجه النعيم مسرجا
ولا اختلت فى برد الشباب مجرراً * ذيولى إعجابا به وتبرجا
أعارك غيداء المعاطف طفلة * وأغيد معسول المراشف أدعجا
نقضت لياليها بطيب كأنه * لتقصيره منها مختطف الدجا
فان أمس مكروب الفؤاد حزينه * أعاقر من در الصبابة منهجا
وحيدا على أنى بفضلى متيم * مروعا بأعداء الفضائل مزعجا
فيارب دينى قد سررت وسرنى * وأبهجته بالصالحات وأبهجا
ويارب ناد قد شهدت وماجد * شهدت دعوته فتلجلجا [1]
صدعت بفضلى نقصه فتركته * وفى قلبه شجو وفى حلقه شجا
كأن ثنائى فى مسامع حسدى * وقد ضم أبكار المعانى وأدرجا
حسام تقى الدين فى كل مارق * يقد إلى الأرض الكمى المدججا

وقال يمدح أخاه معز الدين فروخشاه بن شاهنشاه بن أيوب :

هل أنت راحم عبرة ومدله * ومجير صب عند ما منه وهى
هيهات يرحم قاتل مقتوله * وسنانه فى القلب غير منهنه
مذ بلّ من ذاك الغرام فاننى * مذ حل بى مرض الهوى لم أنقه
إنى بليت بحب أغيد ساحر * بلحاظه رخص البنان بزهوه
أبغى شفاء تدلهى من واله * ومتى يرق مدلل لمدله
كم آهة لى فى هواه وأنة * لو كان ينفعنى عليه تأوهى
ومآرب فى وصله لو أنها * تقضى لكانت عند مبسمه الشهى
يا مفردا بالحسن إنك منته * فيه كما أنا فى الصبابة منتهى
قد لام فيك معاشر كى أنتهى * باللوم عن حب الحياة وأنت هى
أبكى لديه فان أحس بلوعة * وتشهق أرمى بطرف مقهقه
يا من محاسنه وحالى عنده * حيران بين تفكر وتكفه
ضدان قد جمعا بلفظ واحد * لى فى هواه بمعنيين موجه

(١) كذا بالأصل والبيت غير مستقيم .

أو لست رب فضائل لوحاز أد * ناها وما أزهى بها غيرى زهى

والذى أنشده تاج الدين الكندى فى قتل عمارة اليمنى حين كان مالأ الكفرة والملحدين على قتل الملك صلاح الدين ، وأرادوا عودة دولة الفاطميين فظهر عـلى أمره فصلب مع من صلب فى سنة تسع وتسعين وخمسمائة .

عمارة فى الاسلام أبدى خيانة * وحالف فيها بيعة وصليبا
فأمسى شريك الشرك فى بغض أحمد * وأصبح فى حب الصليب صليبا
وكان طبيب الملتقى إن عجمته * تجد منه عوداً فى النفاق صليبا (١)

وله

صحبنا الدهر أياماً حسانا * نعوم بهن فى اللذات عوماً
وكانت بعد ما ولت كأنى * لدى نقصانها حلما ونوماً
أناخ بى المشيب فلا براح * وإن أوسعته عتباً ولوما
نزيل لا يزال على التأنى * يسوق إلى الردى يوما فيوما
وكنت أعد لى عاما فعاما * فصرت أعد لى يوما فيوما

﴿ العز محمد بن الحافظ عبد الغنى المقدسى ﴾

ولد سنة ست وستين وخمسمائة وأسمعه والده الكثير و رحل بنفسه إلى بغداد وقرأ بها مسند أحمد وكانت له حلقـة بجامع دمشق ، وكان من أصحاب المعظم ، وكان صالحا دينا ورعا حافظا رحمـه الله ورحم أباه

﴿ أبو الفتوح محمد بن على بن المبارك ﴾

الخلاخلى البغدادى ، سمع الكثير ، وكان يتردد فى الرسلية بين الخليفة والملك الأشرف ابن العادل وكان عاقلا دينا ثقة صدوقا .

﴿ الشريف أبو جعفر ﴾

يحيى بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن عـلى العلوى الحسينى ، نقيب الطالبيين بالبصرة بعد أبيه ، كان شيخا أديبا فاضلا عالما بفنون كثيرة لا سيما علم الأنساب وأيام العرب وأشعارها ، يحفظ كثيرا منها ، وكان من جلساء الخليفة الناصر ، ومن لطيف شعره قوله :

لبهنك سمع لا يلائمه العذل * وقلب قريح لا يمل ولا يسلو
كأن علىّ الحب أضحى فريضة * فليس لقلبى غيره أبداً شغل
و إنى لأهوى الهجر ما كان أصله * دلالا ولولا الهجر ما عذب الوصل
وأما إذا كان الصدود ملالة * فأيسر ما هم الحبيب به القتل

﴿ أبو على مزيد بن على ﴾

ابن مزيد المعروف بابن الخشكرى الشاعر المشهور ، من أهل النعمانية جمع لنفسه ديوانا أورد له ابن الساعى قطعة من شعره فمن ذلك قوله :

---

(١) تقدمت هذه الأبيات فى (ج ١٢ ص ٢٧٦)

سألتك يوم النوى نظرة * فلم تسمحى فعز الا سلم
فأعجب كيف تقولين لا * ووجهك قد خط فيه نعم
أما النون يا هذه حاجب * أما العين عين أما الميم فم

﴿ أبو الفضل رشوان بن منصور ﴾

ابن رشوان الكردى المعروف بالنقف ولد باربل وخدم جنديا وكان أديباً شاعرا خدم مع الملك العادل ، ومن شعره قوله :

سلى عنى الصوارم والرماحا * وخيلا تسبق الهوج الرياحا
وأسداً حبيسها سمر العوالى * إذا ما الأسد حاولت الكفاحا
فانى ثابت عقلا ولباً * إذا ما صائح فى الحرب صاحا
وأورد مهجتى لجج المنايا * إذا ماجت ولم أخف الجراحا
وكم ليل سهرت وبت فيه * أراعى النجم أرتقب الصباحا
وكم فى فدفد فرسى ونضوى * بقائلة الهجير غدا وراحا
لعينك فى العجاجة ما ألاقى * وأثبت فى الكريهة لا براحا

﴿ محمد بن يحى ﴾

ابن هبة الله أبو نصر النحاس الواسطى كتب إلى السبط من شعره :

وقائلة لما عمرت وصار لى * ثمانون عاما عش كذا وابق واسلم
ودم وانتشق روح الحياة فانه * لا طيب من بيت بصعدة مظلم
فقلت لها عذرى لديك ممهد * ببيت زهير فاعلمى وتعلمى
سئمت تكاليف الحياة ومن يعش * ثمانين حولا لا محالة يسأم

﴿ ثم دخلت سنة أربع عشرة وستمائة ﴾

فى ثالث المحرم منها كمل تبليط داخل الجامع الأموى وجاء المعتمد مبارز الدين إبراهيم المتولى بدمشق ، فوضع آخر بلاطة منه بيده عند باب الزيارة فرحاً بذلك . وفيها زادت دجلة ببغداد زيادة عظيمة وارتفع الماء حتى ساوى القبور إلا مقدار أصبعين ، ثم طفح الماء من فوقه وأيقن الناس بالهلكة واستمر ذلك سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، ثم من الله فتناقص الماء وذهبت الزيادة ، وقد بقيت بغداد تلولا وتهدمت أكثر البنايات . وفيها درس بالنظامية محمد بن يحيى بن فضلان وحضر عنده القضاة والأعيان . وفيها صدر الصدر بن حمويه رسولا من العادل إلى الخليفة . وفيها قدم ولده الفخر ابن الكامل إلى المعظم يخطب منه ابنته على ابنه أقسيس صاحب اليمن ، فعقد العقد بدمشق على

صداق هائل . وفيها قدم السلطان علاء الدين خوارزم شاه محمد بن تكش من همدان قاصدا إلى بغداد فى أربعمائة ألف مقاتل . وقيل فى ستمائة ألف ، فاستعد له الخليفة واستخدم الجيوش وأرسل إلى الخليفة يطلب منه أن يكون بين يديه على قاعدة من تقدمه من الملوك السلاجقة . وأن يخطب له ببغداد، فلم يجبه الخليفة إلى ذلك ،وأرسل إليه الشيخ شهاب الدين السهر وردى . فلما وصل شاهد عنده من العظمة وكثرة الملوك بين يديه وهو جالس فى حركاة من ذهب على سرير ساج ، وعليه قباء بخارى ما يساوى خمسة دراهم ، وعلى رأسه جلدة ما تساوى درهما ، فسلم عليه فلم يرد عليه من الكبر ولم يأذن له فى الجلوس . فقام إلى جانب السرير وأخذ فى خطبة هائلة فذكر فيها فضل بنى العباس وشرفهم . وأورد حديثا فى النهى عن أذاهم والترجمان يعيد على الملك . فقال الملك أما ما ذكرت من فضل الخليفة فانه ليس كذلك ، ولكنى إذا قدمت بغداد أقمت من يكون بهذه الصفة ، وأما ما ذكرت من النهى عن أذاهم فانى لم أوذ منهم أحدا ولكن الخليفة فى سجونه منهم طائفة كثيرة يتناسلون فى السجون ، فهو الذى آذى بنى العباس ، ثم تركه ولم يرد عليه جوابا بعد ذلك . وانصرف السهر وردى راجعا ، وأرسل الله تعالى على الملك وجنده ثلجا عظيما ثلاثة أيام حتى طم الخركاى والخيام . ووصل إلى قريب رؤس الأعلام ، وتقطعت أيدى رجال وأرجلهم . وعمهم من البلاء مالا يحد ولا يوصف ، فردهم الله خائبين والحمد لله رب العالمين .

وفيها انقضت الهدنة التى كانت بين العادل والفرنج واتفق قدوم العادل من مصر فاجتمع هو وابنه المعظم ببيسان . فركبت الفرنج من عكا وصحبتهم ملوك السواحل كلهم وساقوا كلهم قاصدين مناقصة العادل . فلما أحس بهم فرمنهم لكثرة جيوشهم وقلة من معه . فقال ابنه المعظم إلى أين يا أبة ؟ فشتمه بالعجمية وقال له أقطعت الشام مماليكك وتركت أبناء الناس . ثم توجه العادل إلى دمشق وكتب إلى واليها المعتمد ليحصنها من الفرنج وينقل إليها من الغلات من داريا إلى القلعة ، ويرسل الماء على أراضى داريا وقصر حجاج والشاغور ، ففزع الناس من ذلك وابتهلوا إلى الله بالدعاء وكثر الضجيج بالجامع . وأقبل السلطان فنزل مرج الصفر وأرسل إلى ملوك الشرق ليقدموا لقتال الفرنج ، فكان أول من قدم صاحب حمص أسد الدين ، فتلقاه الناس فدخل من باب الفرج وجاء فسلم على ست الشام بدارها عند المارستان ، ثم عاد إلى داره . ولما قدم أسد الدين سرى عن الناس فلما أصبح توجه نحو العادل إلى مرج الصفر . وأما الفرنج فانهم قدموا بيسان فنهبوا ما كان بها من الغلات والدواب . وقتلوا وسبوا شيئا كثيرا ، ثم عاثوا فى الأرض فسادا يقتلون وينهبون ويأسرون ما بين بيسان إلى بانياس . وخرجوا إلى أراضى الجولان إلى نوى وغيرها . وسار الملك المعظم فنزل على عقبة اللبن بين القدس ونابلس خوفا على القدس منهم ، فانه هو الأهم الأكبر . ثم حاصر الفرنج

حصن الطور حصاراً هائلا ومانع عنــه الذين به من الأبطال ممـانعة هائلة ، ثم كر الفرنج راجعين إلى عكا ومعهم الأسـارى من المسلمين ، وجاء الملك المعظم إلى الطور فخلع عـلى الأمراء الذين به وطيب نفوسهم ، ثم اتفق هو وأبوه على هدمه كما سيأتى .

وفيها توفى من الأعيان . ﴿ الشيخ الامام العلامة الشيخ العماد ﴾

أخو الحافظ عبدالغنى ، أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الواحد بن على بن سرور المقدسى ، الشيخ العمادى أصغر من أخيه الحافظ عبد الغنى بسنتين ، وقدم مع الجماعة إلى دمشق سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ، ودخل بغداد مرتين وسمع الحديث وكان عابدا زاهداً ورعا كثير الصيام ، يصوم يوما ويفطر يوما ، وكان فقيها مفتيا ، وله كتاب الفروع وصنف أحكاماً ولم يتمه ، وكان يؤم بمحراب الحنابلة مع الشيخ الموفق ، و إنما كانوا يصلون بغير محراب ، ثم وضع المحراب فى سنة سبع عشرة وستمائة ، وكان أيضاً يؤم بالناس لقضاء الفوائت ، وهو أول من فعـل ذلك . صلى المغرب ذات ليلة وكان صائما ثم رجع إلى منزله بدمشق فأفطر ثم مات فجأة ، فصلى عليه بالجامع الأموى ، صلى عليه الشيخ الموفق عند مصلاهم ، ثم صعدوا به إلى السفح ، وكان يوم موته يوماً مشهودا من كثرة الناس . قال سبط ابن الجوزى كان الخلق من الكهف إلى مغارة الدم إلى المنطور لو بذر السمسم ما وقع إلا على رؤس الناس ، قال فلما رجعت تلك الليلة فكرت فيه و فى جنازته وكثرة من شهدها وقلت : هذا كان رجلا صالحا ولعله أن يكون نظر إلى ربه حين وضع فى قبره ، ومر بذهنى أبيات الثورى التى أنشدها بعد موته فى المنام :

نظرت إلى ربى كفاحا فقال لى * هنيئا رضائى عنك يا ابن سعيد
لقد كنت قواما إذا أظلم الدجى * بعبرة مشتاق وقلب عميد
فدونك فاختر أى قصر أردته * وزرنى فانى عنك غير بعيد

ثم قلت أرجو أن يكون العماد رأى ربه كما رآه الثورى ، فنمت فرأيت الشيخ العماد فى المنام وعليه حلة خضراء وعمامـة خضراء ، وهو فى مكان متسع كأنه روضـة ، وهو يرقى فى درج متسعة ، فقلت ياعماد الدين كيف بت فانى والله مفكر فيك ؟ فنظر إلى وتبسم على عادته التى كنت أعرفه فيها فى الدنيا ثم قال :

رأيت إلهى حين أنزلت حفرتى * وفارقت أصحابى وأهلى وجيرتى
وقال جزيت الخير عنى فاننى * رضيت فهاعفوى لديك ورحمتى
دأبت زمانا تأمل العفو والرضا * فوقيت نيرانى ولقيت جنتى

قال فانتبهت وأنا مذعور وكتبت الأبيات والله أعلم .

﴿ القاضى جمال الدين ابن الحرستانى ﴾

عبدالصمد بن محمد بن أبى الفضل أبوالقاسم الأنصارى ابن الحرستانى قاضى القضاة بدمشق

ولد سنة عشرين وخمسمائة ، وكان أبوه من أهل حرستان ، فنزل داخل باب توما وأم بمسجد الزينبى ونشأ ولده هذا نشأة حسنة سمع الحديث الكثير وشارك الحافظ ابن عساكر فى كثير من شيوخه ، وكان يجلس للاسماع بمقصورة الخضر ، وعندها كان يصلى دائما لا تفوته الجماعة بالجامع ، وكان منزله بالحورية ودرس بالمجاهدية وعمر دهراً طويلا على هذا القدم الصالح والله أعلم . وناب فى الحكم عن ابن أبى عصرون ، ثم ترك ذلك ولزم بيته وصلاته بالجامع ، ثم عزل العادل القاضى ابن الزكى وألزم هذا بالقضاء وله ثنتان وتسعون سنة وأعطاه تدريس العزيزية . وأخذ التقوية أيضاً من ابن الزكى وولاها فخر الدين ابن عساكر . قال ابن عبد السلام ما رأيت أحداً أفقه من ابن الحرستانى ، كان يحفظ الوسيط للغزالى . وذكر غير واحد أنه كان من أعدل القضاة وأقومهم بالحق ، لا تأخذه فى الله لومة لائم ، وكان ابنه عماد الدين يخطب بجامع دمشق ، وولى مشيخة الاشرفية ينوب عنه ، وكان القاضى جمال الدين يجلس للحكم بمدرسته المجاهدية ، وأرسل إليه السلطان طراحة ومسندة لأجل أنه شيخ كبير ، وكان ابنه يجلس بين يديه ، فاذا قام أبوه جلس فى مكانه ، ثم إنه عزل ابنه عن نيابته لشىء بلغه عنه ، واستناب شمس الدين بن الشيرازى ، وكان يجلس تجاهه فى شرق الايوان ، واستناب معه شمس الدين ابن سنا الدولة ، واستناب شرف الدين ابن الموصلى الحنفى ، فكان يجلس فى محراب المدرسة ، واستمر حاكما سنتين وأربعة أشهر ، ثم مات يوم السبت رابع الحجة وله من العمر خمس وتسعون سنة ، وصلى عليه بجامع دمشق ثم دفن بسفح قايسون

﴿ الامير بدر الدين محمد بن أبى القاسم ﴾

الهكارى بانى المدرسة التى بالقدس ، كان من خيار الامراء ، وكان يتمنى الشهادة دائما فقتله الفرنج بحصن الطور ، ودفن بالقدس بتربة عاملها وهو يزار إلى الآن رحمه الله

﴿ الشجاع محمود المعروف بابن الدماغ ﴾

كان من أصدقاء العادل يضحكه ، فحصل أموالا جزيلة منهم ، كانت داره داخل باب الفرنج فجعلتها زوجته عائشة مدرسة للشافعية والحنفية ، ووقفت عليها أوقافا دارة

﴿ الشيخة الصالحة العابدة الزاهدة ﴾

شيخة العالمات بدمشق ، تلقب بدهن اللوز ، بنت نورنجان ، وهى آخر بناته وفاة وجعلت أموالها وقفا على تربة أختها بنت العصبة المشهورة

﴿ ثم دخلت سنة خمس عشرة وستمائة ﴾

استهلت والعادل بمرج الصفر لمناجزة الفرنج وأمر ولده المعظم بتخريب حصن الطور فأخربه ونقل مافيه من آلات الحرب وغيرها إلى البلدان خوفا من الفرنج . وفى ربيع الاول نزلت الفرنج على

دمياط وأخـذوا برج السلسلة فى جمادى الاولى ، وكان حصناً منيعاً ، وهو قفل بلاد مصر . وفيها التقى المعظم والفرنج على القيمون فـكسرهم وقتل منهم خلقا وأسر من الداوية مائة فأدخلهم إلى القدس منـكسة أعلامهم . وفيها جرت خطوب كثيرة ببلد الموصل بسبب موت ملوكها أولاد قرا أرسلان واحداً بعد واحد ، وتغلب مملوك أبيهم بدر الدين لؤلؤ على الأمور والله أعلم . وفيها أقبل ملك الروم كيكاريس سنجر يريد أخذ مملـكة حلب ، وساعده عـلى ذلك الأفضل بن صلاح الدين صاحب سميساط ، فصده عن ذلك الملك الأشرف موسى بن العـادل وقهر ملك الروم وكسر جيشه ورده خائباً . وفيها تملك الأشرف مدينة سنجار مضافا إلى ما بيده من الممالك .

وفيها توفى السلطان الملك العادل أبو بكر بن أيوب ، فأخذت الفرنج دميـاط ثم ركبوا وقصدوا بلاد مصر من ثغر دمياط فحاصروه مدة أربعة شهور ، والملك الـكامل يقاتلهم ويمانعهم ، فتملكوا برج السلسلة وهو كالقفل على ديار مصر ، وصفته فى وسط جزيرة فى النيل عنـد انتهائه إلى البحر ، ومنه إلى دمياط ، وهو على شاطىء البحر وحافة سلسلة منه إلى الجانب الآخر ،وعليه الجسر وسلسلة أخرى لتمنع دخول المراكب من البحر إلى النيل ، فلايمكن الدخول ، فلما ملكت الفرنج هذا البرج شق ذلك على المسلمين ، وحين وصل الخبر إلى الملك العادل وهو بمرج الصفر تأوه لذلك تأوهاً شديداً ودق بيده على صدره أسفا وحزنا على المسلمين و بلادها ، ومرض من ساعته مرض الموت لأمر يريده الله عز وجل ، فلما كان يوم الجمعة سابع جمادى الآخرة توفى بقرية غالقين ، فجاءه ولده المعظم مسرعا فجمع حواصله وأرسله فى محفة ومعه خادم بصفة أن السلطان مريض ، وكلمـا جاء أحـد من الأمراء ليسلم عليه بلغهم الطواشى عنه ، أى أنه ضعيف ، عن الرد عليهم ، فلما انتهى به إلى القلعة دفن بها مدة ثم حول إلى تربته بالعادلية الـكبيرة ، وقد كان الملك سيف الدين أبو بكر بن أيوب بن شادى من خيار الملوك وأجودهم سيرة ، دينا عاقلا صبورا وقورا ، أبطـل المحرمات والخمور والمعارف من مملكته كلها وقد كانت ممتـدة من أقصى بلاد مصر واليمن والشام والجزيرة إلى همدان كلها ، أخذها بعد أخيه صلاح الدين سوى حلب فانه أقرها بيد ابن أخيه الظاهر غازى لأنه زوج ابنتـه صفية الست خاتون . وكان العادل حليما صفوحاًصبوراً على الأذى كثير الجهاد بنفسه ومع أخيه حضر معه مواقفه كلها أو أكثرها فى مقاتلة الفرنج ، وكانت له فى ذلك اليد البيضاء ، وكان ماسك اليد وقد أنفق فى عام الغلاء بمصر أموالا كثيرة على الفقراء وتصدق على أهل الحاجة من أبناء الناس وغيرهم شيئاً كثيراً جدا ، ثم إنه كفن فى العام الثانى من بعد عام الغـلاء فى الفناء مائة ألف إنسـان من الغرباء والفقراء ، وكان كثير الصدقة فى أيام مرضه حتى كان يخلع جميع ما عليه ويتصدق به وبمركوبه، وكان كثير الاكل ممتعا بصحة وعافية مع كثرة صيامه ، كان يأكل فى اليوم الواحد أكلات جيدة ، ثم بعد

هذا يأكل عند النوم رطلا بالدمشقى من الحلوى السكرية اليابسة ، وكان يعتريه مرض فى أنفه فى زمن الورد وكان لا يقدر على الاقامة بدمشق حتى يفرغ زمن الورد ، فكان يضرب له الوطاق بمرج الصفر ثم يدخل البلد بعد ذلك . توفى عن خمس وسبعين سنة ، وكان له من الأولاد جماعة : محمد الكامل صاحب مصر ، وعيسى المعظم صاحب دمشق ، وموسى الأشرف صاحب الجزيرة ، وخلاط وحران وغير ذلك ، والأوحد أيوب مات قبله ، والفائز إبراهيم ، والمظفر غازى صاحب الرها ، والعزيز عثمان والأمجد حسن وهما شقيقا المعظم ، والمقيت محمود ، والحافظ أرسلان صاحب جعبر ، والصالح إسماعيل ، والقاهر إسحاق ، ومجير الدين يعقوب ، وقطب الدين أحمد ، وخليل وكان أصغرهم ، وتقى الدين عباس وكان آخرهم وفاة ، بقى إلى سنة ستين وستمائة ، وكان له بنات أشهرهن الست صفية خاتون زوجة الظاهر غازى صاحب حلب وأم الملك العزيز والد الناصر يوسف الذى ملك دمشق ، وإليه تنسب الناصريتان إحداهما بدمشق والأخرى بالسفح وهو الذى قتله هلاكو كما سيأتى .

﴿ صفة أخذ الفرنج دمياط ﴾

لما اشتهر الخبر بموت العادل ووصل إلى ابنه الكامل وهو بثغر دمياط مرابط الفرنج ، أضعف ذلك أعضاء المسلمين وفشلوا ، ثم بلغ الكامل خبر آخر أن الأمير ابن المشطوب وكان أكبر أمير بمصر ، قد أراد أن يبايع للفائز عوضا عن الكامل ، فساق وحده جريدة فدخل مصر ليستدرك هذا الخطب الجسيم ، فلما فقده الجيش من بينهم انحل نظامهم واعتقدوا أنه قد حدث أمر أكبر من موت العادل ، فركبوا وراءه فدخلت الفرنج بأمان إلى الديار المصرية ، واستحوذوا على معسكر الكامل وأثقاله ، فوقع خبط عظيم جدا ، وذلك تقدير العزيز العليم ، فلما دخل الكامل مصر لم يقع مما ظنه شىء ، وإنما هى خديعة من الفرنج ، وهرب منه ابن المشطوب إلى الشام ، ثم ركب من فوره فى الجيش إلى الفرنج فاذا الأمر قد تزايد ، وتمكنوا من البلدان وقتلوا خلقا وغنموا كثيرا ، وعاثت الأعراب التى هنالك على أموال الناس ، فكانوا أضر عليهم من الفرنج ، فنزل الكامل تجاه الفرنج يمانعهم عن دخولهم إلى القاهرة بعد أن كان يمانعهم عن دخول الثغر ، وكتب إلى إخوانه يستحثهم ويستنجدهم ويقول الوحا الوحا العجل العجل ، أدركوا المسلمين قبل تملك الفرنج جميع أرض مصر . فأقبلت العساكر الاسلامية إليه من كل مكان ، وكان أول من قدم عليه أخوه الأشرف بيض الله وجهه ، ثم المعظم وكان من أمرهم مع الفرنج ما سنذكره بعد هذه السنة .

وفيها ولى حسبة بغداد الصاحب محيى الدين يوسف بن أبى الفرج ابن الجوزى ، وهو مع ذلك يعمل ميعاد الوعظ على قاعدة أبيه ، وشكر فى مباشرته للحسبة . وفيها فوض إلى المعظم النظر فى التربة البدرية تجاه الشبلية عند الجسر الذى على ثور ، ويقال له جسر كحيل ، وهى منسوبة إلى

حسن بن الداية ، كان هو و إخوته من أكابر أمراء نور الدين محمود بن زنكى ، وقد جعلت فى حدود الأربعين وستمائة جامعا يخطب فيه يوم الجمعة . وفيها أرسل السلطان علاء الدين محمد بن تكش إلى الملك العادل وهو مخيم بمرج الصفر رسولا ، فرد إليه مع الرسول خطيب دمشق جمال الدين محمد بن عبد الملك الدولعى ، واستنيب عنه فى الخطابة الشيخ الموفق عمر بن يوسف خطيب بيت الأبار ، فأقام بالعزيزية يباشر عنه ، حتى قدم وقد مات العادل .

وفيها توفى الملك القاهر صاحب الموصل . فأقيم ابنه الصغير مكانه . ثم قتل وتشتت شمل البيت الأتابكى ، وتغلب على الأمور بدر الدين لؤلؤ غلام أبيه . وفيها كان عود الوزير صفى الدين عبدالله ابن على بن شكر من بلاد الشرق بعد موت العادل ، فعمل فيه علم الدين مقامة بالغ فى مدحه فيها ، وقد ذكروا أنه كان متواضعاً يحب الفقراء والفقهاء ، ويسلم على الناس إذا اجتاز بهم وهو راكب فى أبهة وزارته ، ثم إنه نكب فى هذه السنة ، وذلك أن الكامل هو الذى كان سبب طرده وإبعاده كتب إلى أخيه المعظم فيه ، فاحتاط على أمواله وحواصله ، وعزل ابنه عن النظر من الدواوين ، وقد كان ينوب عن أبيه فى مدة غيبته . وفى رجب منها أعاد المعظم ضمان القيان والخمور والمغنيات وغير ذلك من الفواحش والمنكرات التى كان أبوه قد أبطلها ، بحيث إنه لم يكن أحد يتجاسر أن ينقل ملء كف خمر إلى دمشق إلا بالحيلة الخفية ، فجزى الله العادل خيرا ، ولا جزى المعظم خيرا على ما فعل ، واعتذر المعظم فى ذلك بأنه إنما صنع هذا المنكر لقلة الأموال على الجند ، واحتياجهم إلى النفقات فى قتال الفرنج . وهذا من جهله وقلة دينه وعدم معرفته بالأمور ، فان هذا الصنيع يديل عليهم الأعداء وينصرهم عليهم ، ويتمكن منهم الداء ويثبط الجند عن القتال ، فيولون بسببه الأدبار ، وهذا مما يدمر ويخرب الديار ويديل الدول ، كما فى الأثر « إذا عصانى من يعرفنى سلطت عليه من لا يعرفنى » . وهذا ظاهر لا يخفى على فطن .

ومن توفى فيها من الأعيان . ﴿ القاضى شرف الدين ﴾

أبو طالب عبد الله بن زين القضاة عبد الرحمن بن سلطان بن يحيى اللخمى الضرير البغدادى ، كان ينسب إلى علم الأوائل ، ولكنه كان يتستر بمذهب الظاهرية ، قال فيه ابن الساعى : الداودى المذهب ، المعرى أدبا واعتقادا ، ومن شعره :

إلى الله أشكو ما ألاقى ☆ غداة عدوا على هوج النياق

سألتكم بمن زم المطايا ☆ أمر بكم أمر من الفراق ؟

وهل ذل أشد من التنائى ☆ وهل عيش ألذ من التلاق ؟

قاضى قضاة بغداد .

﴿ عماد الدين أبو القاسم ﴾

عبد الله بن الحسين بن الدامغانى الحنفى ، سمع الحديث وتفقه على مذهب أبى حنيفة ، وولى القضاء ببغداد مرتين نحوا من أربع [1] عشرة سنة ، وكان مشكور السيرة عارفا بالحساب والفرائض وقسمة التركات

﴿ أبو اليمن نجاح بن عبد الله الحبشى ﴾

السودانى نجم الدين مولى الخليفة الناصر ، كان يسمى سلمان دار الخلافة ، وكان لا يفارق الخليفة ، فلما مات وجد عليه الخليفة وجدا كثيرا ، وكان يوم جنازته يوماً مشهودا ، كان بين يدى نعشه مائة بقرة وألف شاة وأحمال من التمر والخبز والماورد ، وقد صلى عليه الخليفة بنفسه تحت التاج ، وتصدق عنه بعشرة آلاف دينار على المشاهد ، ومثلها على المجاورين بالحرمين ، وأعتق مماليكه ووقف عنه خمسمائة مجلد .

﴿ أبو المظفر محمد بن علوان ﴾

ابن مهاجر بن على بن مهاجر الموصلى ، تفقه بالنظامية وسمع الحديث ، ثم عاد إلى الموصل فساد أهل زمانه بها ، وتقدم فى الفتوى والتدريس بمدرسة بدر الدين لؤلؤ وغيرها ، وكان صالحا دينا .

﴿ أبو الطيب رزق الله بن يحيى ﴾

ابن رزق الله بن يحيى بن خليفة بن سليمان بن رزق الله بن غانم بن غنام التأخدرى المحدث الجوال الرحال الثقة الحافظ الأديب الشاعر ، أبو العباس أحمد بن برتكش بن عبدالله العمادى ، كان من أمراء سنجار ، وكان أبوه من موالى الملك عماد الدين زنكى صاحبها ، وكان أحمد هذا دينا شاعرا ذا مال جزيل ، وأملاك كثيرة ، وقد احتاط على أمواله قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكى وأودعه سجنا فنسى فيه ومات كمدا ، ومن شعره :

تقول وقد ودعتها ودموعها * على خدها من خشية البين تلتق
مضى أكثر العمر الذى كان نافعاً * رويدك فاعمل صالحا فى الذى بقى

﴿ ثم دخلت سنة ست عشرة وستمائة ﴾

فيها أمر الشيخ محيى الدين بن الجوزى محتسب بغداد بازالة المنكر وكسر الملاهى عكس ما أمر به المعظم ، وكان أمره فى ذلك فى أول هذه السنة ولله الحمد والمنة .

﴿ ظهور جنكزخان وعبور التتار نهر جيحون ﴾

وفيها عبرت التتار نهر جيحون صحبة ملكهم جنكزخان من بلادهم ، وكانوا يسكنون جبال طمغاج من أرض الصين ولغتهم مخالفة للغة سائر التتار ، وهم من أشجعهم وأصبرهم على القتال ، وسبب دخولهم نهر جيحون أن جنكزخان بعث تجارا له ومعهم أموال كثيرة إلى بلاد خوارزم شاه يبتضعون له

(١) فى المصرية : نحوا من سبع عشرة سنة .

ثيابا للكسوة ، فكتب نائبها إلى خوارزم شاه يذكر له ما معهم من كثرة الأموال ، فأرسل إليه بأن يقتلهم ويأخذ ما معهم ، ففعل ذلك ، فلما بلغ جنكزخان خبرهم أرسل يتهدد خوارزم شاه ، ولم يكن ما فعله خوارزم شاه فعلا جيدا ، فلما تهدده أشار من أشار على خوارزم شاه بالمسير إليهم ، فسار إليهم وهم فى شغل شاغل بقتال كشلى خان ، فنهب خوارزم شاه أموالهم وسبى ذراريهم وأطفالهم ، فأقبلوا إليه محروبين فاقتتلوا معه أربعة أيام قتالا لم يسمع بمثله ، أولئك يقاتلون عن حريمهم والمسلمون عن أنفسهم ، يعلمون أنهم متى ولوا استأصلوهم ، فقتل من الفريقين خلق كثير ، حتى أن الخيول كانت تزلق فى الدماء ، وكان جملة من قتل من المسلمين نحوا من عشرين ألفا ، ومن التتار أضعاف ذلك ، ثم تحاجز الفريقان وولى كل منهم إلى بلاده ولجأ خوارزم شاه وأصحابه إلى بخارى وسمرقند فحصنها وبالغ فى كثرة من ترك فيها من المقاتلة ، ورجع إلى بلاده ليجهز الجيوش الكثيرة ، فقصدت التتار بخارى وبها عشرون ألف مقاتل فحاصرها جنكزخان ثلاثة أيام ، فطلب منه أهلها الأمان فأمنهم ودخلها فأحسن السيرة فيهم مكرا وخديعة ، وامتنعت عليه القلعة فحاصرها واستعمل أهل البلد فى طم خندقها وكانت التتار يأتون بالمنابر والربعات فيطرحونها فى الخندق يطمونه بها ففتحوها قسرا فى عشرة أيام ، فقتل من كان بها . ثم عاد إلى البلد فاصطفى أموال تجارها وأحلها لجنده فقتلوا من أهلها خلقا لا يعلمهم إلا الله عز وجل ، وأسروا الذرية والنساء ، وفعلوا معهن الفواحش بحضرة أهليهن ، فمن الناس من قاتل دون حريمه حتى قتل ، ومنهم من أسر فعذب بأنواع العذاب ، وكثر البكاء والضجيج بالبلد من النساء والأطفال والرجال ، ثم ألقت التتار النار فى دور بخارى ومدارسها ومساجدها فاحترقت حتى صارت بلاقع خاوية على عروشها ، ثم كروا راجعين عنها قاصدين سمرقند ، وكان من أمرهم ما سنذكره فى السنة الآتية .

وفى مستهل هذه السنة خرب سور بيت المقدس عمره الله بذكره ، أمر بذلك المعظم خوفا من استيلاء الفرنج عليه بعد مشورة من أشار بذلك ، فان الفرنج إذا تمكنوا من ذلك جعلوه وسيلة إلى أخذ الشام جميعه ، فشرع فى تخريب السور فى أول يوم المحرم فهرب منه أهله خوفا من الفرنج أن يهجموا عليهم ليلا أو نهاراً ، وتركوا أموالهم وأثاثهم وتمزقوا فى البلاد كل ممزق ، حتى قيل إنه بيع القنطار الزيت بعشرة دراهم والرطل النحاس بنصف درهم . وضج الناس وابتهلوا إلى الله عند الصخرة وفى الأقصى ، وهى أيضاً فعلة شنعاء من المعظم ، مع ما أظهر من الفواحش فى العام الماضى ، فقال بعضهم يهجو المعظم بذلك .

فى رجب حلل الحميّا ، وأخرب القدس فى المحرم

وفيها استحوذت الفرنج على مدينة دمياط ودخلوها بالأمان فغدروا بأهلها وقتلوا رجالها وسبوا

نساءها وأطفالهـا ، وفجروا بالنساء و بعثوا بمنبر الجامع والربعات ورؤس القتلى إلى الجزائر ، وجعلوا الجامع كنيسة . وفيها غضب المعظم على القاضى زكى الدين بن الزكى ، وسببه أن عمته ست الشام بنت أيوب مرضت فى دارهـا التى جعلتها بعـدها مدرسة فأرسلت إلى القاضى لتوصى إليه ، فذهب إليها بشهود معه فكتب الوصية كما قالت ، فقـال المعظم يذهب إلى عمتى بدون إذنى ، ويسمع هو والشهود كلامها ؟ واتفق أن القاضى طلب من جابى العزيزية حسابها وضربه بين يديه بالمقارع ، وكان المعظم يبغض هذا القاضى من أيام أبيه ، فعند ذلك أرسل المعظم إلى القاضى ببقجة فيها قباء وكلوتة ، القباء أبيض والكلوتة صفراء . وقيل بل كانا حمراوين مدرنين ، وحلف الرسول عن السلطان ليلبسنهما ويحكم بين الخصوم فيهما ، وكان من لطف الله أن جاءته الرسالة بهذا وهو فى دهليز داره التى بباب البريد ، وهو منتصب للحكم ، فلم يستطع إلا أن يلبسهما وحكم فيهما ، ثم دخل داره واستقبل مرض موته ، وكانت وفاته فى صفر من السنة الآتية بعـدها ، وكان الشرف بن عنين الزرعى الشاعر قد أظهر النسك والتعبد ، ويقال : إنه اعتكف بالجـامع أيضاً فأرسل إليـه المعظم بخمر ونرد ليشتغل بهما . فكتب إليه ابن عنين :

يا أيها الملك المعظم سنة ■ أحدثتها تبقى على الآباد

تجرى الملوك على طريقك بعدها ■ خلع القضاة وتحفة الزهاد

وهذا من أقبح ما يكون أيضاً ، وقد كان نواب ابن الزكى أربعة : شمس الدين بن الشيرازى إمام مشهد على ، كان يحكم بالمشهد بالشباك ، وربما برز إلى طرف الرواق تجاه البلاطة السوداء . وشمس الدين ابن سنى الدولة ، كان يحكم فى الشباك الذى فى الكلاسة تجاه تربة صلاح الدين عند الغزالية ، وكمال الدين المصرى وكيل بيت المـال كان يحـكم فى الشباك الـكمالى بمشهد عثمان ، وشرف الدين الموصلى الحنفى كان يحكم بالمدرسة الطرخانية بجبرون والله تعالى أعلم .

وفيها توفى من الأعيان

﴿ ست الشام ﴾

واقفة المدرستين البرانية والجوانيـة الست الجليلة المصونة خاتون ست الشام بنت أيوب بن شادى ، أخـت الملوك وعمة أولادهم ، وأم الملوك ، كان لها من الملوك المحارم خمسة وثلاثون ملكا ، منهم شقيقها المعظم توران شاه بن أيوب صاحب اليمن ، وهو مدفون عندها فى القبر القبلى من الثلاثة ، وفى الأوسـط منها زوجها وابن عمها ناصر الدين محمـد بن أسد الدين شيركوه بن شـادى صاحب حمص ، وكانت قد تزوجته بعد أبى ابنها حسام الدين عمر بن لاجين ، وهى وابنها حسام الدين عمر فى القبر الثالث ، وهو الذى يلى مكان الدرس ، ويقال للتربة والمدرسة الحسامية نسبة إلى ابنها هـذا حسام الدين عمر بن لاجـين ، وكان من أكابر العلماء عنـد خاله صلاح الدين ، وكانت ست الشام

من أكثر النساء صدقة وإحسانا إلى الفقراء والمحاويج ، وكانت تعمل فى كل سنة فى دارها بألوف من الذهب أشربة وأدوية وعقاقير وغير ذلك وتفرقه على الناس ، وكانت وفاتها يوم الجمعة آخر النهار السادس عشر من ذى القعدة من هذه السنة فى دارها التى جعلتها مدرسة ، وهى عند المارستان وهى الشامية الجوانية ، ونقلت منها إلى تربتها بالشامية البرانية ، وكانت جنازتها حافلة رحمها الله .

﴿ أبو البقاء صاحب الاعراب واللباب ﴾

عبد الله بن الحسين بن عبد الله ، الشيخ أبو البقاء العكبرى الضرير النحوى الحنبلى صاحب إعراب القرآن العزيز وكتاب اللباب فى النحو ، وله حواش على المقامات ومفصل الزمخشرى وديوان المتنبى وغير ذلك ، وله فى الحساب وغيره ، وكان صالحا دينا ، مات وقد قارب الثمانين رحمه الله ، وكان إماما فى اللغة فقيها مناظرا عارفا بالأصلين والفقه ، وحكى القاضى ابن خلكان عنه أنه ذكر فى شرح المقامات أن عنقاء مغرب كانت تأتى إلى جبل شاهق عند أصحاب الرس ، فربما اختطفت بعض أولادهم فشكوها إلى نبيهم حنظلة بن صفوان فدعا عليها فهلكت . قال : وكان وجهها كوجه الانسان وفيها شبه من كل طائر ، وذكر الزمخشرى فى كتابه ربيع الأبرار أنها كانت فى زمن موسى لها أربعة أجنحة من كل جانب ، ووجه كوجه الانسان ، وفيها شبه كثير من سائر الحيوان ، وأنها تأخرت إلى زمن خالد بن سنان العبسى الذى كان فى الفترة فدعا عليها فهلكت والله أعلم . وذكر ابن خلكان أن المعز الفاطمى جىء إليه بطائر غريب الشكل من الصعيد يقال له عنقاء مغرب . قلت : وكل واحد من خالد بن سنان وحنظلة بن صفوان كان فى زمن الفترة ، وكان صالحا ولم يكن نبيا لقول رسول الله ﷺ « أنا أولى الناس بعيسى بن مريم لأنه ليس بينى و بينه نبى » وقد تقدم ذلك .

﴿ الحافظ عماد الدين أبو القاسم ﴾

على ابن الحافظ بهاء الدين أبى محمد القاسم بن الحافظ الكبير أبى القاسم على بن الحسن بن هبة الله ابن عساكر الدمشقى ، سمع الكثير ورحل فمات ببغداد فى هذه السنة ، ومن لطيف شعره قوله فى المروحة

ومروحة تروح كل هم ❊ ثلاثة أشهر لابد منها
حزيران وتموز وآب ❊ وفى أيلول يغنى الله عنها

﴿ ابن الدواى ﴾ الشاعر وقد أورد له ابن الساعى جملة صالحة من شعره ﴿ وأبو سعيد بن الوزان الداوى ﴾ وكان أحد المعدلين ببغداد وسمع البخارى من أبى الوقت ﴿ وأبو سعيد محمد بن محمود ﴾ بن عبد الرحمن المروزى الأصل الهمدانى المولد البغدادى المنشأ والوفاة ، كان حسن الشكل كامل الأوصاف له خط حسن و يعرف فنونا كثيرة من العلوم ، شافعى المذهب ، يتكلم فى مسائل الخلاف حسن الأخلاق ومن شعره قوله :

اری قسم الأرزاق أعجب قسمة ■ لذی دعـة ومكدية لذی كد
وأحمق ذو مال وأحمق معدم ■ وعقل بلا حظ وعقل له حد
يعم الغنى والفقر ذا الجهل والحجا * ولله من قبل الأمور ومن بعد

﴿ أبو زكريا يحيى بن القاسم ﴾

ابن الفرج بن درع بن الخضر الشافعي شيخ تاج الدين التكريتي قاضيها ، ثم درس بنظامية بغداد ، وكان متقنا لعلوم كثيرة منها التفسير والفقه والأدب والنحو واللغة ■ وله المصنفات في ذلك كله وجمع لنفسه تاريخاً حسناً . ومن شعره قوله :

لابد للمرء من ضيق ومن سعة ■ ومن سرور يوافيه ومن حزن
والله يطلب منه شكر نعمته * مادام فيها ويبغى الصبر في المحن
فكن مع الله في الحالين معتنقا * فرضيك هذين في سر وفي علن
فما على شدة يبقى الزمان يكن * ولا على نعمة تبقى على الزمن

وله أيضا : إن كان قاضي الهوى عليّ ولي ■ ماجار في الحكم من علي ولي
يا يوسفي الجمال عندك لم ■ تبق لي حيلة من الحيل
إن كان قدّ القميص من دبر ■ ففيك قـدّ الفؤاد من قبـل

﴿ صاحب الجواهر ﴾

الشيخ الامام جمال الدين أبو محمد عبد الله بن نجم بن ساس بن نزار بن عشائر بن عبد الله بن محمد بن سلس الجذامي المالكي الفقيه ، مصنف كتاب الجواهر الثمينة في مذهب عـالم المدينـة ■ وهو من أكثر الـكتب فوائد في الفروع ■ رتبه عـلى طريقة الوجيز للغزالي . قال ابن خلـكان : وفيـه دلالة على غزارة علمه وفضله والطائفة المالـكية بمصر عاكفة عليه لحسنه وكثرة فوائده ■ وكان مدرساً بمصر ومات بدمياط رحمه الله ، والله سبحانه أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة سبع عشرة وستمائة ﴾

في هـذه السنة عم البلاء وعظم العزاء بجنكز خان المسمى بتموجين لعنه الله تعالى ■ ومن معه من التتار قبحهم الله أجمعين ■ واستفحل أمرهم واشتد إفسادهم من أقصى بلاد الصين إلى أن وصلوا بلاد العراق وما حولها حتى انتهوا إلى إربل وأعمالها ، فملـكوا في سنة واحـدة وهي هذه السنة سائر الممالك إلا العـراق والجزيرة والشام ومصر ، وقهروا جميع الطوائف التي بتلك النواحي الخوارزميـة والقفجاق والـكرج واللان والخزر وغيرهم ، وقتلوا في هذه السنة من طوائف المسلمين وغـيرهم في بلدان متعددة كبار مالا يحد ولا يوصف ، وبالجملة فلم يدخلوا بلداً إلا قتلوا جميع من فيـه من المقاتلة

والرجال ، وكثيراً من النساء والأطفال ، وأتلفوا ما فيه بالنهب إن احتاجوا إليه ، وبالحريق إن لم يحتاجوا إليه ، حتى أنهم كانوا يجمعون الحرير الكثير الذى يعجزون عن حمله فيطلقون فيه النار وهم ينظرون إليه ، ويخربون المنازل وماعجزوا عن تخريبه يحرقوه ، وأكثر مايحرقون المساجد والجوامع ، وكانوا يأخذون الأسارى من المسلمين فيقاتلون بهم ويحاصرون بهم ، وإن لم ينصحوا فى القتال قتلوهم . وقد بسط ابن الأثير فى كامله خبرهم فى هذه السنة بسطا حسنا مفصلا ، وقدم على ذلك كلاماً هائلا فى تعظيم هذا الخطب العجيب ، قال فنقول : هذا فصل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التى عقمت الليالى والأيام عن مثلها ، عمت الخلائق وخصت المسلمين ، فلوقال قائل إن العالم منذ خلق الله آدم و إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا ، فان التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا يدانيها ، ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعل بخت نصر ببنى إسرائيل من القتل وتخريب بيت المقدس ، وما البيت المقدس بالنسبة إلى ما خرب هؤلاء الملاعين من البلاد التى كل مدينة منها أضعاف البيت المقدس ، وما بنو إسرائيل بالنسبة لما قتلوا ، فان أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بنى إسرائيل ، ولعل الخلائق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا إلا يأجوج ومأجوج ، وأما الدجال فانه يبقى على من اتبعه و يهلك من خالفه ، وهؤلاء لم يبقوا على أحد ، بل قتلوا الرجال والنساء والأطفال ، وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة . فانا لله و إنا إليه راجعون ، ولا حول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم ، لهذه الحادثة التى استطار شررها وعم ضررها ، وسارت فى البلاد كالسحاب استدبرته الريح ، فان قوما خرجوا من أطراف الصين فقصدوا بلاد تركستان مثل كاشغر و بلاساغون ، ثم منها إلى بلاد ما وراء النهر مثل سمرقند وبخارا وغيرهما ، فيملكونها و يفعلون بأهلها ما نذكره ، ثم تعبر طائفة منهم إلى خراسان فيفرغون منها ملكا وتخريبا وقتلا ونهبا ، ثم يجاوزونها إلى الرى وهمذان و بلد الجبل وما فيه من البلاد إلى حد العراق ، ثم يقصدون بلاد أذربيجان وأرانية ويخربونه ويقتلون أكثر أهلها ولم ينج منهم إلا الشريد النادر فى أقل من سنة ، هذا ما لم يسمع بمثله ، ثم ساروا إلى دربند شروان فملكوا مدنه ولم يسلم غير قلعته التى بها ملكهم ، وعبروا عندها إلى بلد اللان اللكز ومن فى ذلك الصقع من الأمم المختلفة ، فأوسعوهم قتلا ونهبا وتخريباً ، ثم قصدوا بلاد قفجاق وهم من أكثر الترك عددا فقتلوا كل من وقف لهم وهرب الباقون إلى الغياض وملكوا عليهم بلادهم ، وسارت طائفة أخرى إلى غزنة وأعمالها وما يجاورها من بلاد الهند وسجستان وكرمان ففعلوا فيها مثل أفعال هؤلاء وأشد ، هذا مالم يطرق الأسماع مثله ، فان الاسكندر الذى اتفق المؤرخون على أنه ملك الدنيا لم يملكها فى سنة واحدة ، إنما ملكها فى نحو عشر سنين ، ولم يقتل أحدا بل رضى من الناس بالطاعة وهؤلاء قد

ملكوا أكثر المعمور من الأرض وأطيبه وأحسنه عمارة وأكثره أهلا وأعدلهم أخلاقا وسيرة فى نحو سنة ، ولم يتفق لأحد من أهل البلاد التى لم يطرقوها بقاء إلاوهو خائف مترقب وصولهم ، وهم مع ذلك يسجدون للشمس إذا طلعت ، ولا يحرمون شيئا ، ويأكلون ما وجدوه من الحيوانات والميتات لعنهم الله تعالى . قال : وإنما استقام لهم هذا الأمر لعدم المانع لأن السلطان خوارزم شاه محمداً كان قد قتل الملوك من سائر الممالك واستقر فى الأمور ، فلما انهزم منهم فى العام الماضى وضعف عنهم وساقوا وراءه فهرب فلا يدرى أين ذهب ، وهلك فى بعض جزائر البحر ، خلت البلاد ولم يبق لها من يحميها ليقضى الله أمرا كان مفعولا ، وإلى الله ترجع الأمور . ثم شرع فى تفصيل ما ذكره مجملا ، فذكر أولا ما قدمنا ذكره فى العام الماضى من بعث جنكزخان أولئك التجار بمال له ليأتونه بثمنه كسوة ولباساً ، وأخذ خوارزم شاه تلك الأموال فحنق عليه جنكزخان وأرسل يهدده فسار إليه خوارزم شاه بنفسه وجنوده فوجد التتار مشغولين بقتال كشلى خان ، فنهب أثقالهم ونساءهم وأطفالهم فرجعوا وقد انتصروا على عدوهم ، وازدادوا حنقا وغيظا ، فتواقعوا هم وإياه وابن جنكزخان ثلاثة أيام فقتل من الفريقين خلق كثير ، ثم تحاجزوا ورجع خوارزم شاه إلى أطراف بلاده فحصنها ثم كر راجعا إلى مقره ومملكته بمدينة خوارزم شاه ، فأقبل جنكزخان فحصر بخارا كما ذكرنا فافتتحها صلحا وغدر بأهلها حتى افتتح قلعتها قهرا وقتل الجميع ، وأخذ الأموال وسبى النساء والأطفال وخرب الدور والمحال ، وقد كان بها عشرون ألف مقاتل ، فلم يغن عنهم شيئا ، ثم سار إلى سمرقند فحاصرها فى أول المحرم من هذه السنة وبها خمسون ألف مقاتل من الجند فنكلوا وبرز إليهم سبعون ألفاً من العامة فقتل الجميع فى ساعة واحدة وألقى إليه الخمسون ألف السلم فسلبهم سلاحهم وما يمتنعون به ، وقتلهم فى ذلك اليوم واستباح البلد فقتل الجميع وأخذ الأموال وسبى الذرية وحرقه وتركه بلاقع ، فانا لله وإنا إليه راجعون ، وأقام لعنه الله هنالك وأرسل السرايا إلى البلدان فأرسل سرية إلى بلاد خراسان وتسميها التتار المغربة ، وأرسل أخرى وراء خوارزم شاه ، وكانوا عشرين ألفا قال اطلبوه فأدركوه ولو تعلق بالسماء فساروا وراءه فأدركوه وبينهم وبينه نهر جيحون وهو آمن بسببه ، فلم يجدوا سفنا فعملوا لهم أحواضا يحملون عليها الأسلحة ويرسل أحدهم فرسه ويأخذ بذنبها فتجره الفرس بالماء وهو يجر الحوض الذى فيه سلاحه ، حتى صاروا كلهم فى الجانب الآخر ، فلم يشعر بهم خوارزم شاه إلا وقد خالطوه ، فهرب منهم إلى نيسابور ثم منها إلى غيرها وهم فى أثره لا يمهلونه يجمع لهم فصار كلما أتى بلداً ليجتمع فيه عساكره له يدركونه فيهرب منهم ، حتى ركب فى بحر طبرستان وسار إلى قلعة فى جزيرة فيه فكانت فيها وفاته ، وقيل إنه لا يعرف بعد ركوبه فى البحر ما كان من أمره بل ذهب فلا يدرى أين ذهب ، ولا إلى أى مفر هرب ، وملكت التتار حواصله فوجدوا فى خزانته عشرة آلاف

ألف دينار، وألف حمل من الأطلس وغيره وعشرون ألف فرس وبغل، ومن الغلمان والجوارى والخيام شيئا كثيرا، وكان له عشرة آلاف مملوك كل واحد مثل ملك، فتمزق ذلك كله، وقد كان خوارزم شاه فقيها حنفيا فاضلا له مشاركات فى فنون من العلم، يفهم جيدا، وملك بلادا متسعة وممالك متعددة إحدى وعشرين سنة وشهورا، ولم يكن بعد ملوك بنى سلجوق أكثر حرمة منه ولا أعظم ملكا منه، لأنه إنما كانت همته فى الملك لا فى اللذات والشهوات، ولذلك قهر الملوك بتلك الأراضى وأحل بالخطا بأساً شديدا. حتى لم يبق ببلاد خراسان وما وراء النهر وعراق العجم وغيرها من الممالك سلطان سواه، وجميع البلاد تحت أيدى نوابه. ثم ساروا إلى مازندران وقلاعها من أمنع القلاع، بحيث إن المسلمين لم يفتحوها إلا فى سنة تسعين من أيام سليمان بن عبد الملك. ففتحها هؤلاء فى أيسر مدة ونهبوا ما فيها وقتلوا أهاليها كلهم وسبوا وأحرقوا. ثم ترحلوا عنها نحو الرى فوجدوا فى الطريق أم خوارزم شاه ومعها أموال عظيمة جدا، فأخذوها وفيها كل غريب ونفيس مما لم يشاهد مثله من الجواهر وغيرها، ثم قصدوا الرى فدخلوها على حين غفلة من أهلها فقتلوهم وسبوا وأسروا، ثم ساروا إلى همذان فملكوها ثم إلى زنجان فقتلوا وسبوا. ثم قصدوا قزوين فنهبوها وقتلوا من أهلها نحواً من أربعين ألفا، ثم تيمموا بلاد أذربيجان فصالحهم ملكها أزبك بن البهلوان على مال حمله إليهم لشغله بما هو فيه من السكر وارتكاب السيئات والانهماك على الشهوات. فتركوه وساروا إلى موقان فقاتلهم الكرج فى عشرة آلاف مقاتل فلم يقفوا بين أيديهم طرفة عين حتى انهزمت الكرج فأقبلوا إليهم بحدهم وحديدهم، فكسرتهم التتار وقعة ثانية أقبح هزيمة وأشنعها. وههنا قال ابن الأثير: ولقد جرى لهؤلاء التتر ما لم يسمع بمثله من قديم الزمان وحديثه: طائفة تخرج من حدود الصين لا تنقضى عليهم سنة حتى يصل بعضهم إلى حدود بلاد أرمينية من هذه الناحية ويجاوزون العراق من ناحية همذان وتالله لا أشك أن من يجىء بعدنا إذا بعد العهد ويرى هذه الحادثة مسطورة ينكرها ويستبعدها، والحق بيده، فمتى استبعد ذلك فلينظر أننا سطرنا نحن وكل من جمع التاريخ فى أزماننا هذه فى وقت كل من فيه يعلم هذه الحادثة. قد استوى فى معرفتها العالم والجاهل لشهرتها، يسر الله للمسلمين والاسلام من يحفظهم ويحوطهم. فلقد دفعوا من العدو إلى أمر عظيم، ومن الملوك المسلمين إلى من لا تتعدى همته بطنه وفرجه. وقد عدم سلطان المسلمين خوارزم شاه. قال: وانقضت هذه السنة وهم فى بلاد الكرج. فلما رأوا منهم ممانعة ومقاتلة يطول عليهم بها المطال عدلوا إلى غيرهم، وكذلك كانت عادتهم فساروا إلى تبريز فصالحهم أهلها بمال. ثم ساروا إلى مراغة فحصروها ونصبوا عليها المجانيق وتترسوا بالأسارى من المسلمين، وعلى البلد امرأة - ولن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة - ففتحوا البلد بعد أيام وقتلوا من أهله خلقا لا يعلم عدتهم إلا الله عز وجل، وغنموا منه شيئا كثيرا. وسبوا وأسروا على

عادتهم لعنهم الله لعنة تدخلهم نار جهنم ، وقد كان الناس يخافون منهم خوفا عظيما جداً حتى إنه دخل رجل منهم إلى درب من هذه البلد وبه مائة رجل لم يستطع واحد منهم أن يتقدم إليه ، ومازال يقتلهم واحداً بعد واحد حتى قتل الجميع ولم يرفع منهم أحد يده إليه ، ونهب ذلك الدرب وحده . ودخلت امرأة منهم فى زى رجل [بيتا] فقتلت كل من فى ذلك البيت وحدها ثم استشعر أسير معها أنها امرأة فقتلها لعنها الله ، ثم قصدوا مدينة إربل فضاق المسلمون لذلك ذرعا وقال أهل تلك النواحى هذا أمر عصيب ، وكتب الخليفة إلى أهل الموصل والملك الأشرف صاحب الجزيرة يقول إنى قد جهزت عسكرا فكونوا معه لقتال هؤلاء التتار ، فأرسل الأشرف يعتذر إلى الخليفة بأنه متوجه نحو أخيه الكامل إلى الديار المصرية بسبب ما قدهم المسلمين هناك من الفرنج ، وأخذهم دمياط الذى قد أشرفوا بأخذهم لها على أخذ الديارالمصرية قاطبة ، وكان أخوه المعظم قد قدم على والى حران يستنجده لأخيهما الكامل ليتحاجزوا الفرنج بدمياط وهو على أهبة المسير إلى الديار المصرية ، فكتب الخليفة إلى مظفر الدين صاحب إربل ليكون هو المقدم على العساكر التى يبعثها الخليفة وهى عشرة آلاف مقاتل ، فلم يقدم عليه منهم ثمانمائة فارس ثم تفرقوا قبل أن يجتمعوا ، فانا لله وإنا إليه راجعون ، ولكن الله سلم بأن صرف همة التتار إلى ناحية همذان فصالحهم أهلها وترك عندهم التتار شحنة ، ثم اتفقوا على قتل شحنتهم فرجعوا إليهم فحاصروهم حتى فتحوها قسراً وقتلوا أهلها عن آخرهم ، ثم ساروا إلى أذربيجان ففتحوا أردبيل ثم تبريز ثم إلى بيلقان فقتلوا من أهلها خلقا كثيرا وجما غفيرا ، وحرقوها وكانوا يفجرون بالنساء ثم يقتلونهن ويشقون بطونهن عن الأجنة ثم عادوا إلى بلاد الكرج وقد استعدت لهم الكرج فاقتتلوا معهم فكسروهم أيضاً كسرة فظيعة ، ثم فتحوا بلدانا كثيرة يقتلون أهلها ويسبون نساءها ويأسرون من الرجال ما يقاتلون بهم الحصون ، يجعلونهم بين أيديهم ترساً يتقون بهم الرمى وغيره ، ومن سلم منهم قتلوه بعد انقضاء الحرب ، ثم ساروا إلى بلاد اللان والقبجاق فاقتتلوا معهم قتالا عظيما فكسروهم وقصدوا أكبر مدائن القبجاق وهى مدينة سوداق وفيها من الأمتعة والثياب والتجائر من البرطاسى والقندر والسنجاب شىء كثير جدا ، ولجأت القبجاق إلى بلاد الروس وكانوا نصارى فاتفقوا معهم على قتال التتار فالتقوا معهم فكسرتهم التتار كسرة فظيعة جدا ، ثم ساروا نحو بلقار فى حدود العشرين وستمائة ففرغوا من ذلك كله ورجعوا نحو ملكهم جنكزخان لعنه الله وإياهم . هذا ما فعلته هذه السرية المغرّبة ، وكان جنكزخان قد أرسل سرية فى هذه السنة إلى كلانة وأخرى إلى فرغانة فملكوها ، وجهز جيشاً آخر نحو خراسان فحاصروا بلخ فصالحهم أهلها ، وكذلك صالحوا مدنا كثيرة أخرى ، حتى انتهوا إلى الطالقان فأعجزتهم قلعتها وكانت حصينة فحاصروها ستة أشهر حتى عجزوا فكتبوا إلى جنكزخان فقدم بنفسه فحاصرها أربعة أشهر

أخرى حتى فتحها قهرا ، ثم قتل كل من فيها وكل من فى البلد بكماله خاصة وعامة . ثم قصدوا مدينة مرو مع جنكزخان فقد عسكر بظاهرها نحو من مائتى ألف مقاتل من العرب وغيرهم فاقتتلوا معه قتالا عظيما حتى انكسر المسلمون فانا لله و إنا إليه راجعون ، ثم حصروا البلد خمسة أيام واستنزلوا نائبها خديعة ثم غدروا به و بأهل البلد فقتلوهم وغنموهم وسلبوهم وعاقبوهم بأنواع العذاب . حتى إنهم قتلوا فى يوم واحد سبعمائة ألف إنسان ، ثم ساروا إلى نيسابور ففعلوا فيها ما فعلوا بأهل مرو ، ثم إلى طوس فقتلوا وخربوا مشهد على بن موسى الرضى سلام الله عليه وعلى آبائه ، وخربوا تربة الرشيد الخليفة فتركوه خرابا ، ثم ساروا إلى غزنة فقاتلهم جلال الدين بن خوارزم شاه فكسرهم ثم عادوا إلى ملكهم جنكزخان لعنه الله و إياهم ، وأرسل جنكزخان طائفة أخرى إلى مدينة خوارزم فحاصروها حتى فتحوا البلد قهرا فقتلوا من فيها قتلا ذريعاً ، ونهبوها وسبوا أهلها وأرسلوا الجسر الذى يمنع ماء جيحون منها فغرقت دورها وهلك جميع أهلها ثم عادوا إلى جنكزخان وهو مخيم على الطالقان فجهز منهم طائفة إلى غزنة فاقتتل معهم جلال الدين بن خوارزم شاه فكسرهم جلال الدين كسرة عظيمة ، واستنقذ منهم خلقا من أسارى المسلمين ، ثم كتب إلى جنكزخان يطلب منه أن يبرز بنفسه لقتاله . فقصده جنكزخان فتواجها وقد تفرق على جلال الدين بعض جيشه ولم يبق بد من القتال ، فاقتتلوا ثلاثة أيام لم يعهد قبلها مثلها من قتالهم ، ثم ضعفت أصحاب جلال الدين فذهبوا فركبوا بحر الهند فسارت التتار إلى غزنة فأخذوها بلا كلفة ولا ممانعة ، كل هذا أو أكثره وقع فى هذه السنة .

وفيها أيضا ترك الأشرف موسى بن العادل لأخيه شهاب الدين غازى ملك خلاط وميا فارقين و بلاد أرمينية واعتاض عن ذلك بالرها وسروج . وذلك لاشتغاله عن حفظ تلك النواحى بمساعدة أخيه الكامل ونصرته على الفرنج لعنهم الله تعالى . و فى المحرم منها هبت رياح ببغداد وجاءت بروق وسمعت رعود شديدة وسقطت صاعقة بالجانب الغربى على المنارة المجاورة لعون ومعين فثلمتها ، ثم أصلحت ، وغارت الصاعقة فى الأرض . وفى هذه السنة نصب محراب الحنابلة فى الرواق الثالث الغربى من جامع دمشق بعد ممانعة من بعض الناس لهم ، ولكن ساعدهم بعض الأمراء فى نصبه لهم ، وهو الأمير ركن الدين المعظمى ، وصلى فيه الشيخ موفق الدين بن قدامة . قلت : ثم رفع فى حدود سنة ثلاثين وسبعمائة وعوضوا عنه بالمحراب الغربى عند باب الزيارة ، كما عوض الحنفية عن محرابهم الذى كان فى الجانب الغربى من الجامع بالمحراب المجدد لهم شرقى باب الزيارة . حين جدد الحائط الذى هو فيه فى الأيام التنكزية . على يدى ناظر الجامع تقى الدين ابن مراجل أثابه الله تعالى كما سيأتى بيانه فى موضعه إن شاء الله تعالى . وفيها قتل صاحب سنجار أخاه فملكها مستقلا بها

الملك الأشرف بن العادل . وفيها نافق الأمير عماد الدين بن المشطوب على الملك الأشرف وكان قد آواه وحفظه من أذى أخيه الكامل حين أراد أن يبايع للفائز ، ثم إنه سعى فى الأرض فساداً فى بلاد الجزيرة فسجنه الأشرف حتى مات كمدا وذلا وعذابا . وفيها أوقع الكامل بالفرنج الذين على دمياط بأساً شديدا فقتل منهم عشرة آلاف ، وأخذ منهم خيولهم وأموالهم ولله الحمد .

وفيها عزل المعظم المعتمد مفاخر الدين إبراهيم عن ولاية دمشق وولاها للعزيز خليل ، ولما خرج الحاج إلى مكة شرفها الله تعالى كان أميرهم المعتمد فحصل به خير كثير ، وذلك أنه كف عبيد مكة عن نهب الحجاج بعد قتلهم أمير حاج العراقيين أقباش الناصرى ، وكان من أكبر الأمراء عند الخليفة الناصر وأخصهم عنده ، وذلك لأنه قدم معه بخلع للأمير حسين بن أبى عزيز قتادة بن إدريس ابن مطاعن بن عبد الكريم العلوى الحسنى الزيدى بولايته لامرة مكة بعد أبيه ، وكانت وفاته فى جمادى الأولى من هذه السنة ، فنازع فى ذلك راجح وهو أكبر أولاد قتادة ، وقال لا يتأمر عليها غيرى ، فوقعت فتنة أفضى الحال إلى قتل أقباش غلطاً ، وقد كان قتادة من أكابر الاشراف الحسنيين الزيديين وكان عادلا منصفا منعما ، نقمة على عبيد مكة والمفسدين بها ، ثم عكس هذا السير فظلم وجدد المكوس ونهب الحاج غير مرة فسلط الله عليه ولده حسنا فقتله وقتل عمه وأخاه أيضاً ، فلهذا لم يمهل الله حسناً أيضاً ، بل سلبه الملك وشرده فى البلاد ، وقيل بل قتل كما ذكرنا ، وكان قتادة شيخاً طويلا مهيبا لا يخاف من أحد من الخلفاء والملوك ، ويرى أنه أحق بالأمر من كل أحد ، وكان الخليفة يود لو حضر عنده فيكرمه ، وكان يأبى من ذلك ويمتنع عنه أشد الامتناع ، ولم يفد إلى أحد قط ولا ذل لخليفة ولا ملك ، وكتب إليه الخليفة مرة يستدعيه فكتب إليه .

ولى كف ضرغام أذل ببطشها * وأشرى بها بين الورى وأبيع
تظل ملوك الأرض تلثم ظهرها * وفى بطنها للمجد بين ربيع
أأجعلها تحت الرحى ثم أبتغى * خلاصاً لها إنى إذاً لرقيع
وما أنا إلا المسك فى كل بقعة * يضوع وأما عندكم فيضيع

وقد بلغ من السنين سبعين سنة ، وقد ذكر ابن الأثير وفاته فى سنة ثمانى عشرة فالله أعلم .

وفيها توفى من الأعيان :

﴿ الملك الفائز ﴾

غياث الدين إبراهيم بن العادل ، كان قد انتظم له الأمر فى الملك بعد أبيه على الديار المصرية على يدى الأمير عماد الدين بن المشطوب ، لولا أن الكامل تدارك ذلك سريعا ، ثم أرسله أخوه فى هذه السنة إلى أخيهما الأشرف موسى يستحثه فى سرعة المسير إليهم بسبب الفرنج ، فمات بين سنجاب والموصل ، وقد ذكر أنه سم فرد إلى سنجاب فدفن بها رحمه الله تعالى .

﴿ شيخ الشيوخ صدر الدين ﴾

أبو الحسن محمد بن شيخ الشيوخ عماد الدين محمود بن حمويه الجويني ، من بيت رياسة وإمرة عند بني أيوب ، وقد كان صدر الدين هذا فقيها فاضلا ، درس بتربة الشافعي بمصر ، وبمشهد الحسين وولي مشيخة سعيد السعداء والنظر فيها ، وكانت له حرمة وافرة عند الملوك ، أرسله الكامل إلى الخليفة يستنصره على الفرنج فمات بالموصل بالاسهال ، ودفن بها عند قضيب البان عن ثلاث وسبعين سنة .

﴿ صاحب حماه ﴾

الملك المنصور محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، وكان فاضلا له تاريخ في عشر مجلدات سماه المضمار ، وكان شجاعاً فارسا ، فقام بالملك بعده ولده الناصر قلج أرسلان ، ثم عزله عنها الكامل وحبسه حتى مات رحمه الله تعالى وولى أخاه المظفر بن المنصور

﴿ صاحب آمد ﴾

الملك الصالح ناصر الدين محمود بن محمد بن قرا أرسلان بن أرتق ، وكان شجاعا محبا للعلماء ، وكان مصاحبا للاشرف موسى بن العادل يجيء إلى خدمته مراراً ، وملك بعده ولده المسعود ، وكان بخيلا فاسقا ، فأخذه معه الكامل وحبسه بمصر ثم أطلقه فأخذ أمواله وسار إلى التتار ، فأخذته منه .

﴿ الشيخ عبد الله اليونيني ﴾

الملقب أسد الشام رحمه الله ورضي عنه من قرية ببعلبك يقال لها يونين ، وكانت له زاوية يقصد فيها للزيارة ، وكان من الصالحين الكبار المشهورين بالعبادة والرياضة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، له همة عالية في الزهد والورع ، بحيث إنه كان لا يقتني شيئا ولا يملك مالا ولا ثيابا ، بل يلبس عارية ولا يتجاوز قميصا في الصيف وفروة فوقه في الشتاء ، وعلى رأسه قبعا من جلود المعز ، شعره إلى ظاهر ، وكان لا ينقطع عن غزاة من الغزوات ، ويرمي عن قوس زنته ثمانون رطلا ، وكان يجاور في بعض الأحيان بجبل لبنان ، ويأتي في الشتاء إلى عيون العاسريا في سفح الجبل المطل على قرية دومة شرقي دمشق ، لاجل سخونة الماء ، فيقصده الناس للزيارة هناك ، ويجيء تارة إلى دمشق فينزل بسفح قاسيون عند القادسية وكانت له أحوال ومكاشفات صالحة ، وكان يقال له أسد الشام ، حكى الشيخ أبو المظفر سبط ابن الجوزي عن القاضي جمال الدين يعقوب الحاكم بكرك البقاع أنه شاهد مرة الشيخ عبد الله وهو يتوضأ من ثور عند الجسر الابيض إذ مر نصراني ومعه حمل بغل خمراً فعثرت الدابة عند الجسر فسقط الحمل فرأى الشيخ وقد فرغ من وضوئه ولا يعرفه ، واستعان به على رفع الحمل فاستدعاني الشيخ فقال : تعال يا فقيه ، فتساعدنا على تحميل ذلك الحمل على الدابة وذهب النصراني فتعجبت من ذلك وتبعت الحمل وأنا ذاهب إلى المدينة ، فانتهى به إلى العقبة فأورده إلى

الحمار بها فاذا خل فقال له الحمار : ويحك هذا خل ، فقال النصرانى أنا أعرف من أين أتيت ، ثم ربط الدابة فى خان ورجع إلى الصالحية فسأل عن الشيخ فعرفه فجاء إليه فأسلم على يديه ، وله أحوال وكرامات كثيرة جدا ، وكان لايقوم لاحد دخل عليه ويقول : إنما يقوم الناس لرب العالمين ، وكان الأمجد إذا دخل عليه جلس بين يديه فيقول له : ياأمجد فعلت كذا وكذا ويأمره بما يأمره ، وينهاه عما ينهاه عنه ، وهو يمتثل جميع مايقوله له ، وما ذاك إلا لصدقه فى زهده وورعه وطريقه ، وكان يقبل الفتوح ، وكان لا يدخر منه شيئا لغد ، وإذا اشتد جوعه أخذ من ورق اللوز ففركه واستفه ويشرب فوقه الماء البارد رحمه الله تعالى وأكرم مثواه ، وذكروا أنه كان يحج فى بعض السنين فى الهواء ، وقد وقع هذا لطائفة كبيرة من الزهاد وصالحى العباد ، ولم يبلغنا هذا عن أحد من أكابر العلماء ، وأول من يذكر عنه هذا حبيب العجمى ، وكان من أصحاب الحسن البصرى ، ثم من بعده من الصالحين رحمهم الله أجمعين . فلما كان يوم جمعة من عشر ذى الحجة من هذه السنة صلى الصبح عبد الله اليونينى وصلاة الجمعة بجامع بعلبك ، وكان قد دخل الحمام يومئذ قبل الصلاة وهو صحيح ، فلما انصرف من الصلاة قال للشيخ داود المؤذن ، وكان يغسل الموتى ، انظر كيف تكون غدا ، ثم صعد الشيخ إلى زاويته فبات يذكر الله تعالى تلك الليلة ويتذكر أصحابه ، ومن أحسن إليه ولو بأدنى شىء ويدعو لهم ، فلما دخل وقت الصبح صلى بأصحابه ثم استند يذكر الله وفى يده سبحة ، فمات وهو كذلك جالس لم يسقط ، ولم تسقط السبحة من يده ، فلما انتهى الخبر إلى الملك الأمجد صاحب بعلبك فجاء إليه فعاينه كذلك فقال لو بنينا عليه بنيانا هكذا يشاهد الناس منه آية ، فقيل له : ليس هذا من السنة ، فنحى وكفن وصلى عليه ودفن تحت اللوزة التى كان يجلس تحتها يذكر الله تعالى ، رحمه الله ونور ضريحه . وكانت وفاته يوم السبت وقد جاوز ثمانين عاماً أكرمه الله تعالى ، وكان الشيخ محمد الفقيه اليونينى من جملة تلاميذه ، وممن يلوذ به وهو نجد هؤلاء المشايخ بمدينة بعلبك .

﴿ أبو عبد الله الحسين بن محمد بن أبى بكر ﴾

المجلى الموصلى ، ويعرف بابن الجهنى ، شاب فاضل ولى كتابة الانشاء لبدر الدين لؤلؤ زعيم الموصل ، ومن شعره :

نفسى فداء الذى فكرت فيه وقد * غدوت أغرق فى بحر من العجب
يبدو بليل على صبح على قمر * على قضيب على وهم على كثب

﴿ ثم دخلت سنة ثمان عشرة وستمائة ﴾

فيها استولت التتر على كثير من البلدان بكلادة وهمذان وأردبيل وتبريز وكنجة ، وقتلوا أهاليها ونهبوا ما فيها ، واستأسروا ذراريها ، واقتربوا من بغداد فانزعج الخليفة لذلك وحصن

بغداد واستخدم الأجناد ، وقنت الناس فى الصلوات والأوراد . وفيها قهروا الكرج واللان ، ثم قاتلوا القبجاق فكسروهم ، وكذلك الروس ، وينهبون ما قدروا عليه ، ثم قاتلوهم وسبوا نساءهم وذراريهم ، وفيها سار المعظم إلى أخيه الأشرف فاستعطفه على أخيه الكامل ، وكان فى نفسه موجدة عليه فأزالها وسارا جميعاً نحو الديار المصرية لمعاونة الكامل على الفرنج الذين قد أخذوا ثغر دمياط واستحكم أمرهم هنالك من سنة أربع عشرة ، وعرض عليهم فى بعض الأوقات أن يرد إليهم بيت المقدس وجميع ما كان صلاح الدين فتحه من بلاد الساحل ويتركوا دمياط ، فامتنعوا من ذلك ولم يفعلوا ، فقدر الله تعالى أنهم ضاقت عليهم الأقوات فقدم عليهم مراكب فيها ميرة لهم فأخذها الأسطول البحرى وأرسلت المياه على أراضى دمياط من كل ناحية فلم يمكنهم بعد ذلك أن يتصرفوا فى نفسهم ، وحصرهم المسلمون من الجهة الأخرى حتى اضطروهم إلى أضيق الأماكن ، فعند ذلك أنابوا إلى المصالحة بلا معاوضة ، فجاء مقدموهم إليه وعنده أخواه المعظم عيسى وموسى الأشرف ، وكانا قائمين بين يديه ، وكان يوما مشهودا ، فوقع الصلح على ما أراد الكامل محمد بيض الله وجهه ، وملوك الفرنج والعساكر كلها واقفة بين يديه ، ومد سماطا عظيما ، فاجتمع عليه المؤمن والكافر والبر والفاجر ، وقام راجح الحلى الشاعر فأنشد :

هنيئا فان السعد راح مخلدا ■ وقد أنجز الرحمن بالنصر موعدا
حبانا إله الخلق فتحاً بدا لنا ■ مبينا وإنعاما وعزاً مؤبدا
تهلل وجه الدهر بعد قطوبه * وأصبح وجه الشرك بالظلم أسودا
ولما طغى البحر الخضم بأهله الط ■ غاة وأضحى بالمراكب مزبدا
أقام لهذا الدين من سل عزمه ■ صقيلا كما سل الحسام مجردا
فلم ينج إلا كل شلو مجدل * ثوى منهم أو من تراه مقيدا
ونادى لسان الكون فى الأرض رافعاً ■ عقيرته فى الخافقين ومنشدا
أعباد عيسى إن عيسى وحزبه ■ وموسى جميعاً يخدمون محمداً

قال أبو شامة : وبلغنى أنه أشار عند ذلك إلى المعظم عيسى والأشرف موسى والكامل محمد ، قال : وهذا من أحسن شىء اتفق ، وكان ذلك يوم الأربعاء التاسع عشر رجب من هذه السنة ، وتراجعت الفرنج إلى عكا وغيرها ، ورجع المعظم إلى الشام واصطلح الأشرف والكامل على أخيهما المعظم . وفيها ولى الملك المعظم قضاء دمشق كمال الدين المصرى الذى كان وكيل بيت المال بها ، وكان فاضلا بارعا يجلس فى كل يوم جمعة قبل الصلاة بالعادلية بعد فراغها لاثبات المحاضر ، ويحضر عنده فى المدرسة جميع الشهود من كل المراكز حتى يتيسر على الناس إثبات كتبهم فى الساعة الواحدة ، جزاه الله خيراً .

ومن توفى فيها من الأعيان ﴿ ياقوت الكاتب الموصلي رحمه الله ﴾

أمين الدين المشهور بطريقة ابن البواب . قال ابن الأثير : لم يكن فى زمانه من يقاربه ، وكانت لديه فضائل جمة والناس متفقون على الثناء عليه ،وكان نعم الرجل . وقد قال فيه نجيب الدين الواسطى قصيدة يمدحه بها :

جامع شارد العلوم ولولا * ه لكانت أم الفضائل ثكلى
ذو يراع تخاف ريقته الأسـ * ـد ، وتعنو له الكتائب ذلا
وإذا افتر ثغره عن بياض * فى سواد فالسمر والبيض خجلا
أنت بدر والكاتب ابن هلال * كأبيه لا فخر فيمن تولى
إن يكن أولى فاتك بالتفضـ * ـيل أولى فقد سبقت وصلى

﴿ جلال الدين الحسن ﴾

من أولاد الحسن بن الصباح مقدم الاسماعيلية ، وكان قد أظهر فى قومه شعائر الاسلام ، وحفظ الحدود والمحرمات والقيام فيها بالزواجر الشرعية .

﴿ الشيخ الصالح ﴾

شهاب الدين محمد بن خلف بن راجح المقدسى الحنبلى الزاهد العابد الناسك ،كان يقرأ على الناس يوم الجمعة الحديث النبوى وهو جالس على أسفل منبر الخطابة بالجامع المظفرى ، وقد سمع الحديث الكثير ، ورحل وحفظ مقامات الحريرى فى خمسين ليلة ، وكانت له فنون كثيرة ، وكان ظريفا مطبوعا رحمه الله

﴿ والخطيب موفق الدين ﴾

أبو عبد الله عمر بن يوسف بن يحيى بن عمر بن كامل المقدسى ، خطيب بيت الأبار ، وقد ناب فى دمشق عن الخطيب جمال الدين الدولعى حين سار فى الرسلية إلى خوارزم شاه ، حتى عاد .

﴿ المحدث البارع تقى الدين أبوطاهر ﴾

إسماعيل بن عبد الله بن عبد المحسن بن الأنماطى ، قرأ الحديث ورحل وكتبه ، وكان حسن الخط متقنا فى علوم الحديث ، حافظا له ، وكان الشيخ تقى الدين ابن الصلاح يثنى عليه ويمدحه ، وكانت له كتب بالبيت الغربى من الكلاسة الذى كان الملك المحسن بن صلاح الدين ، ثم أخذ من ابن الأنماطى وسلم إلى الشيخ عبد الصمد الدكالى ، واستمر بيد أصحابه بعد ذلك ، وكانت وفاته بدمشق ودفن بمقابر الصوفية وصلى عليه بالجامع الشيخ موفق الدين ، وبباب النصر الشيخ فخر الدين بن عساكر ، وبالمقبرة قاضى القضاة جمال الدين المصرى رحمه الله تعالى .

﴿ أبو الغيث شعيب بن أبى طاهر بن كليب ﴾

ابن مقبل الضرير الفقيه الشافعى ، أقام ببغداد إلى أن توفى ، وكانت لديه فضائل وله رسائل ، ومن شعره قوله :

إذا كنتم للناس أهل سياسة * فسوسوا كرام الناس بالجود والبذل
وسوسوا لئام الناس بالذل يصلحوا * عليه ، فان الذل أصلح للنذل

﴿ أبو العز شرف بن على ﴾

ابن أبى جعفر بن كامل الخالصى المقرى الضرير الفقيه الشافعى ، تفقه بالنظامية وسمع الحديث ورواه ، وأنشد عن الحسن بن عمرو الحلبى :

تمثلتم لى والديار بعيدة * نخيل لى أن الفؤاد لكم مغنى
وناجاكم قلبى على البعد بيننا * فأوحشتم لفظا وآنستم معنى

﴿ أبو سليمان داود بن إبراهيم ﴾

ابن مندار الجيلى ، أحد المعيدين بالمدرسة النظامية ، ومما أنشده .

أيا جامعا أمسك عنانك مقصراً * فان مطايا الدهر تكبو وتقصر
ستقرع سنا أو تعض ندامة * إذا خان الزمان واقصر(١)
ويلقاك رشد بعد غيك واعظ * ولكنه يلقاك والأمر مدبر

﴿ أبو المظفر عبد الودود بن محمود بن المبارك ﴾

ابن على بن المبارك بن الحسن الواسطى الأصل ، البغدادى الدار والمولد ، كمال الدين المعروف والده بالمجيد ، تفقه على أبيه وقرأ عليه علم الكلام ، ودرس بمدرسته عند باب الأزج ، ووكله الخليفة الناصر واشتهر بالديانة والأمانة ، وباشر مناصب كباراً ، وحج مراراً عديدة ، وكان متواضعاً حسن الأخلاق وكان يقول :

وما تركت ست وستون حجة * لنا حجة أن نركب اللهو مركبا

وكان ينشد العلم يأتى كل ذى خفـ * ـض ويأبى على كل آبى
كالماء ينزل فى الوها * د وليس يصعد فى الروابى

﴿ ثم دخلت سنة تسع عشرة وستمائة ﴾

فيها نقل تابوت العادل من القلعة إلى تربته العادلية الكبيرة ، فصلى عليه أولا تحت النسر بالجامع الأموى ، ثم جاؤا به إلى التربة المذكورة فدفن فيها ، ولم تكن المدرسة كملت بعد ، وقد تكامل بناؤها فى هذه السنة أيضاً ، وذكر الدرس بها القاضى جمال الدين المصرى ، وحضر عنده السلطان

(١) كذا فى الاصل والبيت مكسور .

المعظم فجلس فى الصدر وعن شماله القاضى وعن يمينه صدر الدين الحصيرى شيخ الحنفية ، وكان فى المجلس الشيخ تقى الدين بن الصلاح إمام السلطان ، والشيخ سيف الدين الآمدى إلى جانب المدرس ، وإلى جانبه شمس الدين بن سناء الدولة ، و يليه النجم خليل قاضى العسكر ، وتحت الحصيرى شمس الدين بن الشيرازى ، وتحته محى الدين التركى ، وفيه خلق من الأعيان والأكابر ، وفيهم فخر الدين بن عساكر . وفيها أرسل الملك المعظم الصدر الكشهنى[1] محتسب دمشق إلى جلال الدين بن خوارزم شاه يستعينه على أخويه الكامل والأشرف الذين قد تمالآ عليه ، فأجابه إلى ذلك بالسمع والطاعة ، ولما عاد الصدر المذكور أضاف إليه مشيخة الشيوخ . وحج فى هذه السنة الملك مسعود بن أقسيس بن الكامل صاحب اليمن فبدت منه أفعال ناقصة بالحرم من سكر و رشق حمام المسجد بالبندق من أعلا قبة زمزم ، وكان إذا نام فى دار الامارة يضرب الطائفون بالمسعى بأطراف السيوف لئلا يشوشوا عليه وهو نوم سكر قبحه الله ، ولكن كان مع هذا كله مهيباً محترماً والبلاد به آمنة مطمئنة ، وقد كاد يرفع سنجق أبيه يوم عرفة على سنجق الخليفة فيجرى بسبب ذلك فتنة عظيمة ، وما مكن من طلوعه وصعوده إلى الجبل إلا فى آخر النهار بعد جهد جهيد . وفيها كان بالشام جراد كثير أكل الزرع والثمار والأشجار . وفيها وقعت حروب كثيرة بين القبجاق والكرج ، وقتال كثير بسبب ضيق بلاد القبجاق عليهم . وفيها ولى قضاء القضاة ببغداد أبو عبد الله محمد بن فلان . ولبس الخلعة فى باب دار الوزارة مؤيد الدين محمد بن محمد القيمق بحضرة الأعيان والكبراء ، وقرىء تقليده بحضرتهم وساقه ابن الساعى بحروفه .

وممن توفى فيها من الأعيان ﴿ عبد القادر بن داود ﴾

أبو محمد الواسطى الفقيه الشافعى الملقب بالمحب ، استقل بالنظامية دهراً ، واشتغل بها ، وكان فاضلا دينا صالحاً ، ومما أنشده من الشعر :

الفرقدان كلاهما شهدا له ❊ والبدر ليلة تمه بسهاده
دنف إذا اعتبق الظلام تضرمت ❊ نار الجوى فى صدره وفؤاده
فجرت مدامع جفنه فى خده ❊ مثل المسيل بسيل من أطواره
شوقا إلى مضنيه لم أر هكذا ❊ مشتاق مضنى جسمه ببعاده
ليت الذى أضناه سحر جفونه ❊ قبل الممات يكون من عواده

﴿ أبو طالب يحيى بن على ﴾

اليعقوبى الفقيه الشافعى أحد المعيدين ببغداد ، كان شيخا مليح الشيبة جميل الوجه ، كان يلى بعض الاوقاف ، ومما أنشده لبعض الفضلاء :

---

(١) هو صدر الدين أبو الحسن محمد بن أبى الفتح .

لحمل تهامة وجبال أحد * وماء البحر ينقل بالزبيل
ونقل الصخرفوق الظهرعريا * لأهون من مجالسة الثقيل

ولبعضهم أيضاً ، وهو مما أنشده المذكور:

وإذا مضى للمرء من أعوامه * خمسون وهو إلى التقى لا يجنح
عكفت عليه المخزيات فقولها * حالفتنا ، فأقم كذا لاتبرح
وإذا رأى الشيطان غرة وجهه * حيا ، وقال فديت من لايفلح

اتفق أنه طولب بشيء من المال فلم يقدر عليه فاستعمل شيئاً من الأفيون المصرى فمات من يومه ودفن بالوردية . وفيها توفى .

﴿ قطب الدين العادل ﴾

بالفيوم ونقل إلى القاهرة . وفيها توفى إمام الحنابلة بمكة .

﴿ الشيخ نصر بن أبى الفرج ﴾

المعروف بابن الحصرى ، جاور بمكة مدة لم يسافر ، ثم ساقته المنية إلى اليمن، فمات بها فى هذه السنة . وقد سمع الحديث من جماعة من المشايخ .

وفيها فى ربيع الأول توفى بدمشق الشهاب ﴿ عبد الكريم بن نجم النيلى ﴾ أخو البهاء والناصح ، وكان فقيها مناظراً بصيراً بالمحاكات. وهوالذى أخرج مسجدالوزيرمن يد الشيخ علم الدين السخاوى رحمه الله تعالى بمنه وكرمه. ﴿ ثم دخلت سنة عشرين وستمائة ﴾

فيها عاد الأشرف موسى بن العادل من عند أخيه الكامل صاحب مصر . فتلقاه أخوه المعظم وقد فهم أنهما تمالآ عليه ، فبات ليلة بدمشق وسار من آخر الليل ولم يشعر أخوه بذلك ، فسار إلى بلاده فوجد أخاه الشهاب غازى الذى استنابه على خلاط وميافارقين وقد قووا رأسه وكاتبه المعظم صاحب إربل وحسنوا له مخالفة الأشرف ، فكتب إليه الأشرف ينهاه عن ذلك فلم يقبل ، فجمع له العساكر ليقاتله . وفيها سار أقسيس الملك مسعود صاحب اليمن ابن الكامل من اليمن إلى مكة شرفها الله تعالى فقاتله ابن قتادة ببطن مكة بين الصفا والمروة ، فهزمه أقسيس وشرده ، واستقل بملك مكة مع اليمن ، وجرت أمور فظيعة وتشرد حسن بن قتادة قاتل أبيه وعمه وأخيه فى تلك الشعاب والأودية .

وممن توفى فيها من الأعيان الشيخ الامام .

﴿ موفق الدين عبد الله بن أحمد ﴾

ابن محمد بن قدامة بن مقدام بن نصر . شيخ الاسلام ، مصنف المغنى فى المذهب ، أبو محمد المقدسى

إمام عالم بارع . لم يكن فى عصره ، بل ولاقبل دهره بمدة أفقه منه ، ولد بجماعيل فى شعبان سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ، وقدم مع أهله إلى دمشق فى سنة إحدى وخمسين ، وقرأ القرآن وسمع الحديث الكثير ، ورحل مرتين إلى العراق إحداهما فى سنة إحدى وستين مع ابن عمه الحافظ عبد الغنى ، والأخرى سنة سبع وستين ، وحج فى سنة ثلاث وسبعين ، وتفقه ببغداد على مذهب الامام أحمد ، وبرع وأفتى وناظر وتبحر فى فنون كثيرة ، مع زهد وعبادة وورع وتواضع وحسن أخلاق وجود وحياء وحسن سمت ونور وبهاء وكثرة تلاوة وصلاة وصيام وقيام وطريقة حسنة واتباع للسلف الصالح ، وكانت له أحوال ومكاشفات ، وقد قال الشافعى رحمه الله تعالى : إن لم تكن العلماء العاقلون أولياء الله فلا أعلم لله وليا ، وكان يؤم الناس للصلاة فى محراب الحنابلة هو والشيخ العماد ، فلما توفى العماد استقل هو بالوظيفة ، فان غاب صلى عنه أبوسليمان ابن الحافظ عبد الرحمن بن الحافظ عبدالغنى ، وكان يتنفل بين العشاءين بالقرب من محرابه ، فاذا صلى العشاء انصرف إلى منزله بدرب الدولعى بالرصيف وأخذ معه من الفقراء من تيسر يأكلون معه من طعامه ، وكان منزله الأصلى بقاسيون فينصرف بعض الليالى بعد العشاء إلى الجبل ، فاتفق فى بعض الليالى أن خطف رجل عمامته وكان فيها كاغد فيه رمل ، فقال له الشيخ : خذ الكاغد وألق العمامة ، فظن الرجل أن ذلك نفقة فأخذه وألقى العمامة . وهذا يدل على ذكاء مفرط واستحضار حسن فى الساعة الراهنة ، حتى خلص عمامته من يده بتلطف . وله مصنفات عديدة مشهورة ، منها المغنى فى شرح مختصر الخرقى فى عشرة مجلدات ، والشافى فى مجلدين والمقنع للحفظ ، والروضة فى أصول الفقه ، وغير ذلك من التصانيف المفيدة ، وكانت وفاته فى يوم عيد الفطر فى هذه السنة ، وقد بلغ الثمانين ، وكان يوم سبت وحضر جنازته خلق كثير ، ودفن بتربته المشهورة ، ورؤيت له منامات صالحة رحمه الله تعالى ، وكان له أولاد ذكور وإناث ، فلما كان حياً ماتوا فى حياته . ولم يعقب منهم سوى ابنه عيسى ولدين ثم ماتا وانقطع نسله ، قال أبوالمظفر سبط ابن الجوزى : نقلت من خط الشيخ موفق رحمه الله تعالى :

لاتجلسن بباب من ※ يأبى عليك وصول داره
وتقول حاجاتى إليه ※ يعوقها إن لم أداره
واتركه واقصد ربها ※ تقضى ورب الدار كاره

ومما أنشده الشيخ موفق الدين لنفسه رحمه الله تعالى ورضى عنه قوله :

أبعد بياض الشعر أعمر مسكنا ※ سوى القبر ، إنى إن فعلت لأحمق
يخبرنى شيبى بأنى ميت ※ وشيكا ، فينعانى إلى ويصدق
يخرق عمرى كل يوم وليلة ※ فهل مستطاع رقع ما يتخرق

كأنى بجسمى فوق نعشى ممدداً * فمن ساكت أو معول يتحرق
إذا سئلوا عنى أجابوا وعولوا * وأدمعهم تنهل هذا الموفق
وغيبت فى صدع من الارض ضيق * وأودعت لحداً فوقه الصخر مطبق
ويحثو على الترب أوثق صاحب * ويسلمنى للقبر من هو مشفق
فيارب كن لى مؤنساً يوم وحشتى * فانى بما أنزلتـه لمصدق
وما ضرنى أنى إلى الله صائر * ومن هو من أهلى أبر وأرفق

فخر الدين ابن عساكر ﴿ عبد الرحمن بن الحسن بن هبة الله بن عساكر ﴾

أبو منصور الدمشقى شيخ الشافعية بها ، وأمه اسمها أسماء بنت محمد بن الحسن بن طاهر القدسية المعروف والدها بأبى البركات ابن المران ، وهو الذى جدد مسجد القدم فى سنة سبع عشرة وخمسمائة و به قبره وقبرها ، ودفن هناك طائفة كبيرة من العلماء ، وهى أخت آمنـة والدة القاضى محيي الدين محمد بن على بن الزكى ، اشتغل الشيخ فخر الدين من صغره بالعلم الشريف على شيخه قطب الدين مسعود النيسابورى ، فتزوج بابنته ودرس مكانه بالجاروجية ، و بها كان يسكن فى إحدى القاعتين اللتين أنشأهما و بها توفى غربى الايوان ، ثم تولى تدريس الصلاحية الناصرية بالقدس الشريف ، ثم ولاه العادل تدريس التقوية ، وكان عنده أعيان الفضلاء ، ثم تفرغ فلزم المجاورة فى الجامع فى البيت الصغير إلى جانب محراب الصحابة يخلو فيه للعبادة والمطالعة والفتاوى ، وكانت تفد إليه من الأقطار، وكان كثير الذكر حسن السمت ، وكان يجلس تحت النسر فى كل اثنين وخميس مكان عمـه لا سماع الحديث بعد العصر، فيقرأ عليه دلائل النبوة وغيره ، وكان يحضر مشيخة دار الحديث النورية ، ومشهد ابن عروة أول ما فتح ، وقد استدعاه الملك العادل بعد ماعزل قاضيه ابن الزكى فأجلسه إلى جانبه وقت السماط ، وسأل منه أن يلى القضاء بدمشق ، فقال حتى أستخير الله تعالى ، ثم امتنع من ذلك فشق على السلطان امتناعه ، وهم أن يؤذيه فقيل له احمد الله الذى فيه مثل هذا . ولما توفى العادل وأعاد ابنه المعظم الخمور أنكر عليه الشيخ فخر الدين ، فبقى فى نفسه منه ، فانتزع منه تدريس التقوية ، ولم يبق معه سوى الجاروجية ودار الحـديث النورية ومشهد ابن عروة ، وكانت وفاته يوم الأربعاء بعد العصر عاشر رجب من هذه السنة وله خمس وستون سنة ، وصـلى عليه بالجامع وكان يوماً مشهودا ، وحملت جنازته إلى مقابر الصوفية فدفن فى أولها قريباً من قبر شيخه قطب الدين مسعود بن عروة .

﴿ سيف الدين محمد بن عروة الموصلى ﴾

المنسوب إليـه مشهد ابن عروة بالجامع الأمـوى ، لأنه أول من فتحه ، وقـد كان مشحونا بالحواصل الجامعية و بنى فيه البركة ووقف فيه على الحديث درساً ، ووقف خزائن كتب فيه ، وكان

مقيما بالقدس الشريف ولكنه كان من خواص أصحاب الملك المعظم ، فانتقل إلى دمشق حين خرب سور بيت المقدس إلى أن توفى بها ، وقبره عند قباب أتابك طغتكين قبلى المصلى رحمه الله .

﴿ الشيخ أبو الحسن الروزبهارى ﴾

دفن بالمكان المنسوب إليه عند باب الفراديس .

﴿ الشيخ عبد الرحمن اليمنى ﴾

كان مقيما بالمنارة الشرقية، كان صالحا زاهدا ورعا وفيه مكارم أخلاق ، ودفن بمقابر الصوفية .

﴿ الرئيس عزالدين المظفر بن أسعد ﴾

ابن حمزة التميمى ابن القلانسى ، أحد رؤساء دمشق وكبرائها ، وجده أبو يعلى حمزة له تاريخ ذيل به على ابن عساكر ، وقد سمع عز الدين هذا الحديث من الحافظ أبى القاسم ابن عساكر وغيره ، ولزم مجالسة الكندى وانتفع به .

﴿ الأمير الكبير أحد حجاب الخليفة ﴾

محمد بن سليمان بن قتلمش بن تركانشاه بن منصور السمرقندى ،وكان من أولاد الأمراء ، وولى حاجب الحجاب بالديوان العزيز الخليفتى ، وكان يكتب جيدا وله معرفة حسنة بعلوم كثيرة ، منها الأدب وعلوم الرياضة ، وعمر دهرا ، وله حظ من نظم الشعر الحسن ومن شعره قوله :

سئمت تكاليف هذى الحياة ■ وكذا الصباح بها والمساء
وقد كنت كالطفل فى عقله ■ قليل الصواب كثير الهراء
أنام إذا كنت فى مجلس ■ وأسهر عند دخول الغناء
وقصر خطوى قيد المشيب ■ وطال على ما عنانى عناء
وغودرت كالفرخ فى عشه * وخلفت حلمى وراء وراء
وما جر ذلك غير البقاء ■ فكيف بدا سوء فعل البقاء

وله أيضاً، وهو من شعره الحسن رحمه الله:

إلهى يا كثير العفو عفوا ■ لما أسلفت فى زمن الشباب
فقد سودت فى الآنام وجهاً ■ ذليلا خاضعاً لك فى التراب
فبيضه بحسن العفو عنى * وسامحنى وخفف من عذابى

ولما توفى صلى عليه بالنظامية ودفن بالشونيزية ورآه بعضهم فى المنام فقال ما فعل بك ربك ؟فقال

تحاشيت اللقاء لسوء فعلى ■ وخوفا فى المعاد من الندامة
فلما أن قدمت على إلهى ■ وحاقق فى الحساب على قلامه

وكان العدل أن أصلى جحيما ▪ تعطف بالمكارم والكرامه
ونادانى لسان العفو منه ▪ ألا يا عبد يهنيك السلامه

﴿ أبو على الحسن بن أبى المحاسن ﴾

زهرة بن على بن زهرة العلوى الحسينى الحلبى ، نقيب الأشراف بها ، كان لديه فضل وأدب وعلم بأخبار الناس والتواريخ والسير والحديث ، ضابطا حافظا للقرآن المجيد ، وله شعر جيد فمنه قوله :

لقد رأيت المعشوق وهو من الـ ▪ ـهجر تنبو النواظر عنه
أثر الدهر فيه آثار سوء * وأدالت يد الحوادث منه
عاد مستذلا ومستبدلا * عزا بذل كأن لم يصنه

﴿ أبو على يحيى بن المبارك ﴾

ابن الجلاجلى من أبناء التجار ، سمع الحديث وكان جميل الهيئة يسكن بدار الخلافة وكان عنده علم وله شعر حسن ، فمنه قوله :

خير إخوانك المشارك فى المر ▪ وأين الشريك فى المر أينا
الذى إن شهدت سرك فى القو ▪ م وإن غبت كان أذنا وعينا
مثل العقيق إن مسه النا ▪ ر جلاه الجلاء فازداد زينا
وأخو السوء إن يغب عنك يش ▪ نك وإن يحتضر يكن ذاك شينا
جيبه غير ناصح ومناه أن ▪ يصب الخليل إفكا ومينا
فاخش منه ولا تلهف عليه ▪ إن غرماً له كنقدك دينا

﴿ ثم دخلت سنة إحدى وعشرين وستمائة ﴾

فيها وصلت سرية من جهة جنكزخان غير الأولتين إلى الرى . وكانت قد عمرت قليلا فقتلوا أهلها أيضاً ، ثم ساروا إلى ساوة ، ثم إلى قم وقاسان ، ولم تكونا طرقتا إلا هذه المرة . ففعلوا بها مثل ما تقدم من القتل والسبى ، ثم ساروا إلى همذان فقتلوا أيضاً وسبوا . ثم ساروا إلى خلف الخوارزمية إلى أذربيجان فكسروهم وقتلوا منهم خلقا كثيرا ، فهربوا منهم إلى تبريز فلحقوهم وكتبوا إلى ابن البهلوان : إن كنت مصالحا لنا فابعث لنا بالخوارزمية و إلا فأنت مثلهم . فقتل منهم خلقا وأرسل برؤسهم إليهم ، مع تحف وهدايا كثيرة ، هذا كله و إنما كانت هذه السرية ثلاثة آلاف والخوارزمية وأصحاب البهلوان أضعاف أضعافهم ، ولكن الله تعالى ألقى عليهم الخذلان والفشل ، فانا لله و إنا إليه راجعون .

وفيها ملك غياث الدين بن خوارزم شاه بلاد فارس مع ما فى يده من مملكة أصفهان وهمذان

وفيها استعاد الملك الأشرف مدينة خلاط من أخيه شهاب الدين غازى ، وكان قد جعلها إليه مع جميع بلاد أرمينية وميافارقين وجاى وجبل جور ، وجعله ولى عهده من بعده ، فلما عصى عليه وتشغب دماغه بما كتب إليه المعظم من تحسينه له مخالفته ، فركب إليه وحاصره بخلاط فسلمت إليه وامتنع أخوه فى القلعة . فلما كان الليل نزل إلى أخيه معتذراً فقبل عذره ولم يعاقبه بل أقره على ميافارقين وحدها ، وكان صاحب إربل والمعظم متفقين مع الشهاب غازى على الأشرف ، فكتب الكامل إلى المعظم يتهدده لئن ساعد على الأشرف ليأخذنه و بلاده . وكان بدرالدين لؤلؤ صاحب الموصل مع الأشرف ، فركب إليه صاحب إربل فحاصره بسبب قلة جنده لأنه أرسلهم إلى الأشرف حين نازل خلاط ، فلما انفصلت الأمور على ما ذكرنا ندم صاحب إربل . والمعظم بدمشق أيضا .

وفيها أرسل المعظم ولده الناصر داود إلى صاحب إربل يقويه على مخالفة الأشرف ، وأرسل صوفيا من الشميساطية يقال له الملق إلى جلال الدين بن خوارزم شاه - وكان قد أخذ أذربيجان فى هذه السنة وقوى جأشه - يتفق معه على أخيه الأشرف . فوعده النصر والرفادة . وفيها قدم الملك مسعود أقسيس ملك اليمن على أبيه الكامل بالديار المصرية ومعه شىء كثير من الهدايا والتحف ، من ذلك مائتا خادم وثلاثة أفيلة هائلة ، وأحمال عود وند ومسك وعنبر ، وخرج أبوه الكامل لتلقيه ومن نية أقسيس أن ينزع الشام من يد عمه المعظم . وفيها كمل عمارة دار الحديث الكاملية بمصر ، وولى مشيختها الحافظ أبو الخطاب ابن دحية الكلبى ، وكان مكثاراً كثير الفنون ، وعنده فوائد وعجائب رحمه الله .

ومن توفى فيها من الأعيان

﴿ أحمد بن محمد ﴾

ابن على القادسى الضرير الحنبلى . والد صاحب الذيل على تاريخ ابن الجوزى ، وكان القادسى هذا يلازم حضور مجلس الشيخ أبى الفرج ابن الجوزى ، و يزهره لما يسمعه من الغرائب ، ويقول والله إن ذا مليح ، فاستقرض منه الشيخ مرة عشرة دنانير فلم يعطه . وصار يحضر ولا يتكلم . فقال الشيخ مرة : هذا القادسى لا يقرضنا شيئا ولا يقول والله إن ذا مليح ؟ رحمهم الله تعالى ، وقد طلب القادسى مرة إلى دار المستضئ ليصلى بالخليفة التراويح فقيل له والخليفة يسمع : ما مذهبك ؟ فقال حنبلى . فقال له لا تصل بدار الخلافة وأنت حنبلى ، فقال أنا حنبلى ولا أصلى بكم . فقال الخليفة اتركوه لا يصلى بنا إلا هو

﴿ أبو الكرم المظفر بن المبارك ﴾

ابن أحمد بن محمد البغدادى الحنفى شيخ مشهد أبى حنيفة وغيره . ولى الحسبة بالجانب الغربى من بغداد ، وكان فاضلا دينا شاعرا ومن شعره :

فصن بجميل الصبر نفسك واغتنم ■ شريف المزايا لا يفتك ثوابها
وعش سالما والقول فيك مهذب ■ كريماً وقد هانت عليك صعابها
وتندرج الأيام والكل ذاهب ■ قليل ويفنى عذبها وعذابها
وما الدهر إلا مرُّ يوم وليلة ■ وما العمر إلا طيها وذهابها
وما الحزم إلا فى إخاء عزيمة ■ وفيك المعالى صفوها ولباؤها
ودع عنك أحلام الأمانى فانه ■ سيسفر يوما غيها وصوابها

﴿ محمد بن أبى الفرج بن بركة ﴾

الشيخ فخر الدين أبو المعالى الموصلى ، قدم بغداد واشتغل بالنظامية وأعاد بها ، وكانت له معرفة بالقراءات ، وصنف كتابا فى مخارج الحروف ، وأسند الحديث وله شعر لطيف .

﴿ أبو بكر بن حلبة الموازينى البغدادى ﴾

كان فردا فى علم الهندسة وصناعة الموازين يخترع أشياء عجيبة ، من ذلك أنه ثقب حبة خشخاش سبعة ثقوب وجعل فى كل ثقب شعرة ، وكان له حظوة عند الدولة .

﴿ أحمد بن جعفر بن أحمد ﴾

ابن محمد أبو العباس الدبيثى البيع الواسطى ، شيخ أديب فاضل له نظم ونثر ، عارف بالأخبار والسير ، وعنده كتب جيدة كثيرة ، وله شرح قصيدة لأبى العلاء المعرى فى ثلاث مجلدات ، وقد أورد له ابن الساعى شعرا حسنا فصيحا حلوا لذيذا فى السمع لطيفا فى القلب .

﴿ ثم دخلت سنة اثنتين وعشرين وستمائة ﴾

فيها عاثت الخوارزمية حين قدموا مع جلال الدين بن خوارزم شاه من بلاد غزنة مقهورين من التتار إلى بلاد خوزستان ونواحى العراق ، فأفسدوا فيه وحاصروا مدنه ونهبوا قراه . وفيها استحوذ جلال الدين بن خوارزم شاه على بلاد أذربيجان وكثيرا من بلاد الكرج ، وكسر الكرج وهم فى سبعين ألف مقاتل ، فقتل منهم عشرين ألفا من المقاتلة ، واستفحل أمره جدا وعظم شأنه ، وفتح تفليس فقتل منها ثلاثين ألفا . وزعم أبو شامة أنه قتل من الكرج سبعين ألفا فى المعركة ، وقتل من تفليس تمام المائة ألف ، وقد اشتغل بهذه الغزوة عن قصد بغداد ، وذلك أنه لما حاصر دقوقا سبه أهلها ففتحها قسراً وقتل من أهلها خلقا كثيرا ، وخرب سورها وعزم على قصد الخليفة ببغداد لأنه فيما زعم عمل على أبيه حتى هلك ، واستولت التتر على البلاد ، وكتب إلى المعظم بن العادل يستدعيه لقتال الخليفة ويحرضه على ذلك ، فامتنع المعظم من ذلك ، ولما علم الخليفة بقصد جلال الدين بن خوارزم شاه بغداد انزعج لذلك وحصن بغداد واستخدم الجيوش والأجناد ، وأنفق

فى الناس ألف ألف دينار . وكان جلال الدين قد بعث جيشاً إلى الكرج فكتبوا إليه أن أدركنا قبل أن نهلك عن آخرنا ، و بغداد ما تفوت . فسار إليهم وكان من أمره ما ذكرنا .

وفيها كان غلاء شديد بالعراق والشام بسبب قلة الأمطار وانتشار الجراد . ثم أعقب ذلك فناء كثير بالعراق والشام أيضاً ، فمات بسببه خلق كثير فى البلدان . فانا لله و إنا إليه راجعون .

﴿ وفاة الخليفة الناصر لدين الله وخلافة ابنه الظاهر ﴾

لما كان يوم الأحد آخر يوم من شهر رمضان المعظم من هذه السنة توفى الخليفة الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن المستضىء بأمر الله ، أبى المظفر يوسف بن المقتفى لأمر الله ،أبى عبد الله محمدبن المستظهر بالله . أبى عبد الله أحمد بن المقتدى بأمر الله، أبى القاسم عبد الله بن الذخيرة محمد بن القائم بأمر الله ، أبى جعفر عبد الله بن القادر بالله،أبى العباس أحمد بن الموفق أبى أحمد بن محمد المتوكل أبى جعفر عبد الله بن القادر بالله أبى العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر بالله أبى الفضل جعفر بن المعتضد بالله أبى العباس أحمد بن الموفق ، أبى أحمد بن محمد المتوكل على الله جعفر بن المعتصم بالله أبى إسحاق محمد بن هارون الرشيد بن المهدى محمد بن عبد الله أبى جعفر المنصور بن محمد بن على ابن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب الهاشمى العباسى . أمير المؤمنين ، ولد ببغداد سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة . و بويع له بالخلافة بعد موت أبيه سنة خمس وسبعين [وخمسمائة] . وتوفى فى هذه السنة وله من العمر تسع وستون سنة وشهران وعشرون يوماً . وكانت مدة خلافته سبعا وأربعين سنة إلا شهرا . ولم يقم أحد من الخلفاء العباسيين قبله فى الخلافة هذه المدة الطويلة ، ولم تطل مدة أحد من الخلفاء مطلقا أكثر من المستنصر العبيدى ، أقام بمصر حا كما ستين سنة . وقد انتظم فى نسبه أربعة عشر خليفة . وولى عهد على ما رأيت ، و بقية الخلفاء العباسيين كلهم من أعمامه و بنى عمه . وكان مرضه قد طال به وجمهوره من عسار البول . مع أنه كان يجاب له الماء من مراحل عن بغداد ليكون أصفى . وشق ذكره مرات بسبب ذلك ، ولم يغن عنه هذا الحذر شيئا ، وكان الذى ولى غسله محيى الدين ابن الشيخ أبى الفرج ابن الجوزى ، وصلى عليه ودفن فى دار الخلافة ، ثم نقل إلى الترب من الرصافة فى ثانى ذى الحجة من هذه السنة . وكان يوماً مشهودا . قال ابن الساعى : أما سيرته فقد تقدمت فى الحوادث ، وأما ابن الأثير فى كامله فانه قال : و بقى الناصر لدين الله ثلاث سنين عاطلا من الحركة بالكلية . وقد ذهبت إحدى عينيه والأخرى يبصر بها إبصارا ضعيفا ،وآخر الأمر أصابه دوسنطارية عشرين يوماً ومات ، ووزر له عدة وزراء ، وقد تقدم ذكرهم ، ولم يطلق فى أيام مرضه ما كان أحدثه من الرسوم الجائرة . وكان قبيح السيرة فى رعيته ظالما لهم ، فخرب فى أيامه العراق وتفرق أهله فى البلاد ، وأخذ أموالهم وأملاكهم ، وكان يفعل الشىء وضده ، فمن ذلك أنه عمل دوراً

للافطار فى رمضان ودورا لضيافة الحجاج ، ثم أبطل ذلك ، وكان قد أسقط مكوساً ثم أعادها وجعل جل همه فى رمى البندق والطيور المناسيب وسراويلات الفتوة . قال ابن الأثير : وإن كان ما ينسبه العجم إليه صحيحا من أنه هو الذى أطمع التتار فى البلاد وراسلهم فهو الطامة الكبرى التى يصغر عندها كل ذنب عظيم . قلت : وقد ذكر عنه أشياء غريبة ، من ذلك أنه كان يقول للرسل الوافدين عليه فعلتم فى مكان كذا كذا ، وفعلتم فى الموضع الفلانى كذا ، حتى ظن بعض الناس أو أكثرهم أنه كان يكاشف أو أن جنياً يأتيه بذلك ، والله أعلم .

﴿ خلافة الظاهر بن الناصر ﴾

لما توفى الخليفة الناصر لدين الله كان قد عهد إلى ابنه أبى نصر محمد هذا ولقبه بالظاهر ، وخطب له على المنابر ، ثم عزله عن ذلك بأخيه على ، فتوفى فى حياة أبيه سنة ثنتى عشرة ، فاحتاج إلى إعادة هذا لولاية العهد فخطب له ثانيا ، فحين توفى بويع بالخلافة ، وعمره يومئذ ثنتان وخمسون سنة ، فلم يل الخلافة من بنى العباس أسن منه ، وكان عاقلا وقورا دينا عادلا محسنا ، رد مظالم كثيرة وأسقط مكوساً كان قد أحدثها أبوه ، وسار فى الناس سيرة حسنة ، حتى قيل : إنه لم يكن بعد عمر بن عبد العزيز أعدل منه لو طالت مدته ، لكنه لم يحل إلى الحول ، بل كانت مدته تسعة أشهر أسقط الخراج الماضى عن الاراضى التى قد تعطلت ، ووضع عن أهل بلدة واحدة وهى يعقوبا سبعين ألف دينار كان أبوه قد زادها عليهم فى الخراج ، وكانت صنجة المخزن تزيد على صنجة البلد نصف دينار فى كل مائة إذا قبضوا وإذا أقبضوا دفعوا بصنجة البلد ، فكتب إلى الديوان (ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين) فكتب إليه بعض الكتاب يقول : يا أمير المؤمنين إن تفاوت هذا عن العام الماضى خمسة وثلاثون ألفا ، فأرسل ينكر عليه ويقول : هذا يترك وإن كان تفاوته ثلثمائة ألف وخمسين ألفا ، رحمه الله . وأمر القاضى أن كل من ثبت له حق بطريق شرعى يوصل إليه بلا مراجعة ، وأقام فى النظر على الأموال الجردة رجلا صالحا واستخلص على القضاء الشيخ العلامة عماد الدين أبا صالح نصر بن عبد الرزاق بن الشيخ عبد القادر الجيلى فى يوم الأربعاء ثامن ذى الحجة ، فكان من خيار المسلمين ومن القضاة العادلين ، رحمهم الله أجمعين . ولما عرض عليه القضاء لم يقبله إلا بشرط أن يورث ذوى الأرحام ، فقال : اعط كل ذى حق حقه واتق الله ولا تتق سواه ، وكان من عادة أبيه أن يرفع إليه حراس الدروب فى كل صباح بما كان عندهم فى المحال من الاجتماعات الصالحة والطالحة ، فلما ولى الظاهر أمر بتبطيل ذلك كله وقال : أى فائدة فى كشف أحوال الناس وهتك أستارهم ؟ فقيل له : إن ترك ذلك يفسد الرعية ، فقال نحن ندعو الله لهم أن يصلحهم ، وأطلق من كان

فى السجون معتقلا عـلى الأموال الديوانية . ورد عليهم ما كان استخرج منهم قبل ذلك من المظالم وأرسل إلى القاضى بعشرة آلاف دينار يوفى بها ديون من فى سجونه من المدينين الذين لايجدون وفاء ، وفرق فى العلماء بقية المائة ألف . وقد لامه بعض الناس فى هذه التصرفات فقال : إنما فتحت الدكان بعدالعصر ، فذرونى أعمل صالحاوأفعل الخير ، فـكم مقدار مابقيت أعيش ؟! ولم تزل هذه سيرته حتى توفى فى العام الآتى كما سيأتى . ورخصت الأسعار فى أيامه وقد كانت قبل ذلك فى غاية الغلاء حتى أنه فيما حكى ابن الأثير أكلت الـكلاب والسنانير ببلادالجزيرة والموصل ، فزال ذلك والحمدلله. وكان هذا الخليفة الظاهر حسن الشكل مليح الوجه أبيض مشربا حلو الشمائل شديد القوى .

ومن توفى فيها من الأعيان ﴿ أبو الحسن على الملقب بالملك الأفضل ﴾

نور الدين ابن السلطان صلاح الدين بن يوسف بن أيوب ، كان ولىعهد أبيه ، وقد ملك دمشق بعده مدة سنتين ثم أخذها منه عمه العادل . ثم كاد أن يملك الديار المصرية بعد أخيه العزيز فأخـذها منه عمه العادل أبو بكر ، ثم اقتصر على ملك صرخد فأخذها منه أيضا عمه العادل . ثم آل به الحال أن ملك سميساط وبها توفى فى هذه السنة . وكان فاضلا شاعراً جيد الكتابة ، ونقل إلى مدينة حلب فدفن بها بظاهرها . وقـد ذكر ابن خلـكان أنه كتب إلى الخليفة الناصر لدين الله يشكو إليه عمه أبا بكر وأخاه عثمان وكان الناصر شيعيا مثله :

مولاى إن أبا بكر وصاحبه * عثمان قد غصبا بالسيف حق على
وهو الذى كان قدولاه والده * عليهما فاستقام الأمر حين ولى
فخالفاه وحـلا عقد بيعته * والأمر بينهما والنص فيه جلى
فانظر إلىحظ هذا الاسم كيف لقى * من الأواخر مالاقى من الأول

﴿ الأمير سيف الدين على ﴾

ابن الأمير علم الدين بن سليمان بن جندر ،كان من أكابر الأمراء بحلب ، وله الصدقات الـكثيرة ووقف بها مدرستين إحداهما على الشافعية والأخرى على الحنفية . وبنى الخانات والقناطر وغيرذلك من سبل الخيرات والغزوات رحمه الله .

﴿ الشيخ على الكردى ﴾

الموله المقيم بظاهر باب الجابية . قال أبو شامة : وقد اختلفوا فيه فبعض الدما شقة يزعم أنه كان صاحب كرامات ، وأنـكرذلك آخرون ، وقالوا ما رآه أحد يصلى ولا يصوم ولالبس مداسا ، بل كان يدوس النجاسات ويدخل المسجد على حاله ، وقال آخرون كان له تابع من الجن يتحدث على لسانه حكى السـبط عن امرأة قالت جاء خبر بموت أمى باللاذقية أنها ماتت وقال لى بعضهم إنها لم تمت ،

قالت فمررت به وهو قاعد عند المقابر فوقفت عنده فرفع رأسه وقال لى ماتت ماتت إيش تعملين ؟ فكان كما قال . وحكى لى عبد الله صاحبي قال صبحت يوماً وما كان معى شيء فاجتزت به فدفع إلى نصف درهم وقال : يكفى هذا للخبز والفت بدبس ، وقال مر يوماً على الخطيب جمال الدين الدولعى فقال له ياشيخ على أكلت اليوم كسيرات يابسة وشربت عليها الماء فكفتنى ، فقال له الشيخ على الكردى وماتطلب نفسك شيئاً آخر غير هذا ؟ قال لا ، فقال يا مسلمين من يقنع بكسرة يابسة يحبس نفسه فى هذه المقصورة ولا يقضى ما فرضه الله عليه من الحج

﴿ الفخر ابن تيمية ﴾

محمد بن أبى القاسم بن محمد الشيخ فخر الدين أبو عبد الله بن تيمية الحرانى ، عالمها وخطيبها وواعظها ، اشتغل على مذهب الامام أحمد وبرع فيه وبرز وحصل وجمع تفسيراً حافلا فى مجلدات كثيرة وله الخطب المشهورة المنسوبة إليه ، وهم عم الشيخ مجد الدين صاحب المنتقى فى الأحكام ، قال أبو المظفر سبط ابن الجوزى : سمعته يوم جمعة بعد الصلاة وهو يعظ الناس ينشد :

أحبابنا قد ندرت مقلتى ٭ ما تلتقى بالنوم أو نلتقى
رفقاً بقلب مغرم واعطفوا ٭ على سقام الجسد المحرق
كم تمطلونى بليالى اللقا ٭ قد ذهب العمر ولم نلتقى

وقد ذكرنا أنه قدم بغداد حاجاً بعد وفاة شيخه أبى الفرج ابن الجوزى ووعظ بها فى مكان وعظه .

﴿ الوزير بن شكر ﴾

صفى الدين أبو محمد عبد الله بن على بن عبد الخالق بن شكر ، ولد بالديار المصرية بدميرة بين مصر واسكندرية سنة أربعين وخمسمائة ، ودفن بتربته عند مدرسته بمصر ، وقد وزر للملك العادل وعمل أشياء فى أيامه منها تبليط جامع دمشق وأحاط سور المصلى عليه . وعمل الفوارة ومسجدها وعمارة جامع المزة ، وقد نكب وعزل سنة خمس عشرة وستمائة و بقى معزولا إلى هذه السنة فكانت فيها وفاته . وقد كان مشكور السيرة ومنهم من يقول كان ظالماً فالله أعلم

﴿ أبو إسحاق إبراهيم بن المظفر ﴾

ابن إبراهيم بن على المعروف بابن البذى الواعظ البغدادى . أخذ الفن عن شيخه أبى الفرج ابن الجوزى وسمع الحديث الكثير ، ومن شعره قوله فى الزهد :

ما هذه الدنيا بدار مسرة ٭ فتخوفى مكراً لها وخداعا
بينا الفتى فيها يسر بنفسه ٭ وبماله يستمتع استمتاعا
حتى سقته من المنية شربة ٭ وحمته فيه بعد ذاك رضاعا

فغدا بما كسبت يداه رهينة * لا يستطيع لما عرته دفاعا
لو كان ينطق قال من تحت الثرى * فليحسن العمل الفتى ما استطاعا

﴿ أبو الحسن على بن الحسن ﴾

الرازى ثم البغدادى الواعظ ، عنده فضائل وله شعر حسن ، فمنه قوله فى الزهد :

استعدى يانفس للموت واسعى * لنجاة فالحازم المستعد
قد تبينت أنه ليس للحى * خلود ولا من الموت بد
إنما أنت مستعيرة ماسو * ف تردين والعوارى ترد
أنت تسهين والحوادث لا * تسهو وتلهين والمنايا تجد
لاترجى البقاء فى معدن المو * ت ولا أرضا بها لكِ وِرْدُ
أى ملك فى الارض أم أى حظ * لامرىء حظه من الارض لحد ؟
كيف يهوى امرؤ لذاذة أيا * م عليه الانفاس فيها تعد

﴿ البها السنجارى ﴾

أبو السعادات أسعد بن محمد بن موسى الفقيه الشافعى الشاعر ، قال ابن خلكان : كان فقيها وتكلم فى الخلاف إلا أنه غلب عليه الشعر، فأجاد فيه واشتهر بنظمه وخدم به الملوك ، وأخذ منهم الجوائز وطاف البلاد ، وله ديوان بالتربة الأشرفية بدمشق ، ومن رقيق شعره و رائقه قوله :

وهواك ما خطر السلو ببـاله * ولأنت أعلم فى الغرام بحاله
ومتى وشى واش إليك بأنه * سال هواك فذاك من عذاله
أوليس للكلف المعنى شاهد * من حاله يغنيك عن تسآله
جددت ثوب سقامه وهتكت ستـ * ـر غرامه وصرمت حبل وصاله

وهى قصيدة طويلة امتدح فيها القاضى كمال الدين الشهرزورى وله :

لله أيامى على رامة * وطيب أوقاتى على حاجر
تكاد للسرعة فى مرها * أولها يعثر بالآخر

وكانت وفاته فى هذه السنة عن تسعين سنة رحمه الله بمنه وفضله .

﴿ عثمان بن عيسى ﴾

ابن درباس بن قسر بن جهم بن عبدوس الهدبانى المارانى ضياء الدين أخو القاضى صدر الدين عبد الملك حاكم الديار المصرية فى الدولة الصلاحية ، وضياء الدين هذا هو شارح المهذب إلى كتاب الشهادات فى نحو من عشرين مجلدا ، وشرح اللمع فى أصول الفقه والتنبيه للشيرازى ، وكان بارعا عالماً بالمذهب رحمه الله .

﴿ أبو محمد عبد الله بن أحمد بن الرسوى ﴾

البواريجى ثم البغدادى . شيخ فاضل له رواية ، ومما أنشده :

ضيق العذر فى الضراعة أنا ■ لو قنعنا بقسمنا لكفانا
مالنا نعبد العباد إذا كان ■ إلى الله فقرنا وغنانا

﴿ أبو الفضل عبد الرحيم بن نصر الله ﴾

ابن على بن منصور بن الكيال الواسطى من بيت الفقه والقضاء . وكان أحد المعدلين ببغداد ومن شعره :

فتبا لدنيا لا يدوم نعيمها * تسر يسيراً ثم تبدى المساويا
تريك رواء فى النقاب و زخرفا ■ وتسفرعن شوهاء طحياء عاميا

ومن ذلك قوله :

إن كنت بعدالطاعتين تسامحت ■ بالفحص أجفانى فما أجفانى
أو كنت من بعد الأحبة ناظرا * حسنا بانسانى فما أنسانى
الدهر مغفور له زلاته ■ إن عاد أوطانى على أوطانى

﴿ أبو على الحسن بن على ﴾

ابن الحسن بن على بن الحسن بن على بن عمار بن فهر بن وقاح الياسرى نسبة إلى عمار بن ياسر ، شيخ بغدادى فاضل . له مصنفات فى التفسير والفرائض ، وله خطب و رسائل وأشعار حسنة وكان مقبول الشهادة عند الحكام .

﴿ أبو بكر محمد بن يوسف بن الطباخ ﴾

الواسطى البغدادى الصوفى ، باشر بعض الولايات ببغداد . ومما أنشده :

ما وهب الله لامرىء هبة ■ أحسن من عقله ومن أدبه
هما جمال الفتى فان فقدا ■ ففقده للحياة أجمل به

﴿ ابن يونس شارح التنبيه ﴾

أبو الفضل أحمد بن الشيخ كمال الدين أبى الفتح موسى بن يونس بن محمد بن منعة بن مالك بن محمد بن سعد بن سعيد بن عاصم بن عابد بن كعب بن قيس بن إبراهيم الأربلى الأصل ثم الموصلى من بيت العلم والرياسة ، اشتغل على أبيه فى فنونه وعلومه فبرع وتقدم . وقد درس وشرح التنبيه واختصر إحياء علوم الدين للغزالى مرتين صغيرا وكبيرا ، وكان يدرس منه . قال ابن خلكان : وقد ولى بأربل مدرسة الملك المظفر بعد موت والدى فى سنة عشر وستمائة ، وكنت أحضر عنده

وأنا صغير ولم أر أحدا يدرس مثله ، ثم صار إلى بلده سنة سبع عشرة ، ومات فى يوم الاثنين الرابع والعشرين من ربيع الآخر من هذه السنة عن سبع وأربعين سنة رحمه الله تعالى .

﴿ ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين وستمائة ﴾

فيها التقى الملك جلال الدين بن خوارزم شاه الخوارزمى مع الكرج فكسرهم كسرة عظيمة ، وصمد إلى أكبر معاقلهم تفليس ففتحها عنوة وقتل من فيها من الكفرة وسبى ذراريهم ولم يتعرض لأحد من المسلمين الذين كانوا بها ، واستقر ملكه عليها ، وقد كان الكرج أخذوها من المسلمين فى سنة خمس عشرة وخمسمائة ، وهى بأيديهم إلى الآن حتى استنقذها منهم جلال الدين هذا ، فكان فتحاً عظيما ولله المنة . وفيها سار إلى خلاط ليأخذها من نائب الملك الأشرف فلم يتمكن من أخذها وقاتله أهلها قتالا عظيما فرجع عنهم بسبب اشتغاله بعصيان نائبه بمدينة كرمان وخلافه له ، فسار إليهم وتركهم . وفيها اصطلح الملك الأشرف مع أخيه المعظم وسار إليه إلى دمشق ، وكان المعظم ممالئا عليه مع جلال الدين وصاحب إربل وصاحب ماردين وصاحب الروم ، وكان مع الأشرف أخوه الكامل وصاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ ، ثم استمال أخاه المعظم إلى ناحيته يقوى جانبه . وفيها كان قتال كبير بين إبرنش إنطاكية وبين الأرمن ، وجرت خطوب كثيرة بينهم . وفيها أوقع الملك جلال الدين بالتركمان الايوانية بأساً شديداً ، وكانوا يقطعون الطرق على المسلمين .

وفيها قدم محيي الدين يوسف بن الشيخ جمال الدين بن الجوزى من بغداد فى الرسلية إلى الملك المعظم بدمشق ، ومعه الخلع والتشاريف لأولاد العادل من الخليفة الظاهر بأمر الله ، ومضمون الرسالة نهيه عن موالاة جلال الدين بن خوارزم شاه ، فانه خارجى من عزمه قتال الخليفة وأخذ بغداد منهم ، فأجابه إلى ذلك وركب القاضى محيي الدين بن الجوزى إلى الملك الكامل بالديار المصرية ، وكان ذلك أول قدومه إلى الشام ومصر ، وحصل له جوائز كثيرة من الملوك ، منها كان بناء مدرسته الجوزية بالنشابين بدمشق . وفيها ولى تدريس الشبلية بالسفح شمس الدين محمد بن قزغلى سبط ابن الجوزى بمرسوم الملك المعظم ، وحضر عنده أول يوم القضاة والأعيان .

﴿ وفاة الخليفة الظاهر وخلافة ابنه المستنصر ﴾

كانت وفاة الخليفة رحمه الله يوم الجمعة ضحى الثالث عشر من رجب من هذه السنة ، أعنى سنة ثلاث وعشرين وستمائة ، ولم يعلم الناس بموته إلا بعد الصلاة ، فدعا له الخطباء يومئذ على المنابر على عادتهم فكانت خلافته تسعة أشهر وأربعة عشر يوما ، وعمره اثنتان وخمسون سنة ، وكان من أجود بنى العباس وأحسنهم سيرة وسريرة ، وأكثرهم عطاء وأحسنهم منظرا ورواء ، ولو طالت مدته لصلحت الأمة صلاحاً كثيرا على يديه ، ولكن أحب الله تقريبه وإزلافه لديه ، فاختار له ما عنده وأجزل له إحسانا

ورفده ، وقد ذكرنا ما اعتمده فى أول ولايته من إطلاق الأموال الديوانية ورد المظالم وإسقاط المكوس ، وتخفيف الخراج عن الناس ، وأداء الديون عمن عجز عن أدائها ، والاحسان إلى العلماء والفقراء وتولية ذوى الديانة والأمانة ، وقد كان كتب كتابا لولاة الرعية فيه « بسم الله الرحمن الرحيم ، اعلموا أنه ليس إمهالنا إهمالا ، ولا إغضاؤنا احتمالا ، ولكن لنبلوكم أيكم أحسن عملا ، وقد غفرنا لكم ما سلف من إخراب البلاد وتشريد الرعايا وتقبيح الشريعة ، و إظهار الباطل الجلى فى صورة الحق الخفى ، حيلة ومكيدة ، وتسمية الاستئصال والاجتياح استيفاء واستدراكا لاغراض انتهزتم فرصها مختلسة من براثن ليث باسل ، وأنياب أسد مهيب ، تتفقون بألفاظ مختلفة على معنى واحد ، وأنتم أمناؤه وثقاته فتميلون رأيه إلى هواكم ، وتمزجون باطلكم بحقه ، فيطيعكم وأنتم له عاصون ، ويوافقكم وأنتم له مخالفون والآن قد بدل الله سبحانه بخوفكم أمنا ، و بفقركم غنى ، و بباطلكم حقا ، و رزقكم سلطانا يقيل العثرة ، ولا يؤاخذ إلا من أصر ، ولا ينتقم إلا ممن استمر ، يأمركم بالعدل وهو يريده منكم ، وينهاكم عن الجور وهو يكرهه لكم ، يخاف الله تعالى فيخوفكم مكره ، ويرجو الله تعالى و يرغبكم فى طاعته فان سلكتم مسالك خلفاء الله فى أرضه وأمنائه على خلقه ، و إلا هلكتم والسلام » . ووجد فى داره رقاع مختومة لم يفتحها ستراً للناس ودرءاً عن أعراضهم رحمه الله ، وقد خلف من الأولاد عشرة ذكوراً و إناثا ، منهم ابنه الأكبر الذى بويع له بالخلافة من بعده أبو جعفر المنصور ، ولقب بالمستنصر بالله ، وغسله الشيخ محمد الخياط الواعظ ، ودفن فى دار الخلافة ، ثم نقل إلى الترب من الرصافة .

﴿ خلافة المستنصر بالله العباسى ﴾

أمير المؤمنين أبى جعفر منصور بن الظاهر محمد بن الناصر أحمد ، بويع بالخلافة يوم مات أبوه يوم جمعة ثالث عشر رجب من هذه السنة ، سنة ثلاث وعشرين وستمائة ، استدعوا به من التاج فبايعه الخاصة والعامة من أهل العقد والحل ، وكان يوما مشهودا ، وكان عمره يومئذ خمسا وثلاثين سنة وخمسة أشهر وأحد عشر يوما ، وكان من أحسن الناس شكلا وأبهاهم منظرا ، وهو كما قال القائل:

كأن الثريا علقت فى جبينه * وفى خده الشعرى وفى وجهه القمر

وفى نسبه الشريف خمسة عشر خليفة ، منهم خمسة من آبائه ولوا نسقا ، وتلقى هو الخلافة عنهم وراثة كابرا عن كابر ، وهذا شىء لم يتفق لأحد من الخلفاء قبله ، وسار فى الناس كسيرة أبيه الظاهر فى الجود وحسن السيرة والاحسان إلى الرعية ، و بنى المدرسة الكبيرة المستنصرية التى لم تبن مدرسة فى الدنيا مثلها ، وسيأتى بيان ذلك فى موضعه إن شاء الله، واستمر أرباب الولايات الذين كانوا فى عهد أبيه على ما كانوا عليه ، ولما كان يوم الجمعة المقبلة خطب للامام المستنصر بالله على المنابر ونثر الذهب والفضة عند ذكر اسمه ، وكان يوما مشهودا ، وأنشد الشعراء المدائح والمراثى ، وأطلقت لهم

الخلع والجوائز ، وقدم رسول من صاحب الموصل يوم غرة شعبان من الوزير ضياء الدين أبى الفتح نصر الله بن الأثير ، فيها التهنئة والتعزية بعبارة فصيحة بليغة .

ثم إن المستنصر بالله كان يواظب على حضور الجمعة راكبا ظاهراً للناس ، وإنما معه خادمان وراكب دار ، وخرج مرة وهو راكب فسمع ضجة عظيمة فقال : ما هذا ؟ فقيل له التأذين ، فترجل عن مركوبه وسعى ماشياً ، ثم صار يدمن المشى إلى الجمعة رغبة فى التواضع والخشوع ، ويجلس قريباً من الامام ويستمع الخطبة ، ثم أصلح له المطبق فكان يمشى فيه إلى الجمعة ، وركب فى الثانى والعشرين من شعبان ركوبا ظاهراً للناس عامة ، ولما كانت أول ليلة من رمضان تصدق بصدقات كثيرة من الدقيق والغنم والنفقات على العلماء والفقراء والمحاويج ، إعانة لهم على الصيام ، وتقوية لهم على القيام . وفى يوم السابع والعشرين من رمضان نقل تابوت الظاهر من دار الخلافة إلى التربة من الرصافة ، وكان يوماً مشهودا ، وبعث الخليفة المستنصر يوم العيد صدقات كثيرة وإنعاما جزيلا إلى الفقهاء والصوفية وأئمة المساجد ، على يدى محى الدين ابن الجوزى . وذكر ابن الاثير أنه كانت زلزلة عظيمة فى هذه السنة ، هدمت شيئا كثيراً من القرى والقلاع ببلادهم ، وذكر أنه ذبح شاة ببلدهم فوجد لحمها مرا حتى رأسها وأكارعها [ومعاليقها وجميع أجزائها] .

وممن توفى فيها من الأعيان بعد الخليفة الظاهر كما تقدم :

﴿ الجمال المصرى ﴾

يونس بن بدران بن فيروز جمال الدين المصرى ، قاضى القضاة فى هذا الحين ، اشتغل وحصل وبرع واختصر كتاب الأم للامام الشافعى ، وله كتاب مطول فى الفرائض ، وولى تدريس الأمينية بعد التقى صالح الضرير ، الذى قتل نفسه ، ولاه إياه الوزير صفى الدين بن شكر ، وكان معتنياً بأمره ثم ولى وكالة بيت المال بدمشق ، وترسل إلى الملوك والخلفاء عن صاحب دمشق ، ثم ولاه المعظم قضاء القضاة بدمشق بعد عزله الزكى ابن الزكى ، وولاه تدريس العادلية الكبيرة ، حين كمل بناؤها فكان أول من درس بها وحضره الأعيان كما ذكرنا . وكان يقول أولا درسا فى التفسير حتى أكمل التفسير إلى آخره ، ويقول درس الفقه بعد التفسير ، وكان يعتمد فى أمر إثبات السجلات اعتماداً حسنا ، وهو أنه كان يجلس فى كل يوم جمعة بكرة ويوم الثلاثاء ويستحضر عنده فى إيوان العادلية جميع شهود البلد ، ومن كان له كتاب يثبته حضر واستدعى شهوده فأدوا على الحاكم وثبت ذلك سريعا ، وكان يجلس كل يوم جمعة بعد العصر إلى الشباك الكمالى بمشهد عثمان فيحكم حتى يصلى المغرب ، وربما مكث حتى يصلى العشاء أيضا ، وكان كثير المذاكرة للعلم كثير الاشتغال حسن الطريقة ، لم ينقم عليه أنه أخذ شيئا لأحد . قال أبوشامة : وإنما كان ينقم عليه أنه كان يشير على

بعض الورثة بمصالحة بيت المال ، وأنه استناب ولده التاج محمـدا ولم يكن مرضى الطريقة ، وأما هو فكان عفيفا فى نفسه نزهاً مهيباً . قال أبو شامـة : وكان يدعى أنه قرشى شـيبى فتكلم الناس فيه بسبب ذلك ، وتولى القضاء بعـده شمس الدين أحمد بن الخليـلى الجوينى . قلت : وكانت وفاته فى ربيع الأول من هـذه السنة ، ودفن بداره التى فى رأس درب الريحان من ناحية الجامع ، ولتربته شباك شرق المدرسة الصدرية اليوم ، وقد قال فيه ابن عنين وكان هجاء .

ما أقصر المصرى فى فعله ■ إذ جعل التربة فى داره
أراح الاحياء من رجمه ■ وأبعد الأموات من ناره

﴿ المعتمد والى دمشق ﴾

المبارز إبراهيم المعروف بالمعتمد والى دمشق ، من خيار الولاة وأعفهم وأحسنهم سيرة وأجودهم سريرة ، أصله من الموصـل ، وقدم الشام فخدم فروخشاه بن شاهنشاه بن أيوب ، ثم استنابه البدر مودود أخو فروخشاه ، وكان شحنة دمشق ، فحمدت سيرته فى ذلك ، ثم صارهو شحنة دمشق أربعين سنة ، فجرت فى أيامه عجائب وغرائب ، وكان كثير السـتر على ذوى الهيئات ، ولا سيما من كان من أبناء الناس وأهل البيوتات ، واتفق فى أيامه أن رجلا حائكا كان له ولد صغير فى آذانه حلق فعدا عليه رجل من جيرانهـم فقتله غيلة وأخذ ما عليـه من الحلى ودفنه فى بعض المقابر ، فاشتكوا عليه فلم يقر ، فبكت والدته من ذلك وسألت زوجها أن يطلقها ، فطلقها فذهبت إلى ذلك الرجل وسألته أن يتزوجها وأظهرت له أنها أحبته فتزوجها ، ومكثت عنده حينا ، ثم سألته فى بعض الأوقات عن ولدها الذى اشتكوا عليـه بسببه فقال : نعم أنا قتلته . فقالت أشتهى أن ترينى قبره حتى أنظر إليـه ، فذهب بها إلى قبر خشنكاشة ففتحه فنظرت إلى ولدها فاستعبرت وقد أخـذت معها سكينا أعدتها لهذا اليوم ، فضربته حتى قتلته ودفنته مع ولدها فى ذلك القبر ، فجاء أهل المقبرة فحملوها إلى الوالى المعتمد هذا فسألها فذكرت له خبرها ، فاستحسن ذلك منها وأطلقها وأحسن إليها ، وحكى عنه السبط قال بينما أنا يوما خارج من باب الفرج وإذا برجـل يحمل طبلاوهو سكران فأمرت به فضرب الحد ، وأمرتهم فكسروا الطبل ، وإذا ذكرة كبيرة جـدا فشقوها [فاذا فيها خمر] وكان العادل قد منع أن يعصر خمر ويحمل إلى دمشق شئ منه بالكلية ، فكان الناس يتحيلون بأنواع الحيل ولطائف المكر ، قال السبط فسألته من أين علمت أن فى الطبل شيئا . قال رأيته يمشى ترجف سيقانه فعرفت أنه يحمل شيئا ثقيلا فى الطبل . وله من هذا الجنس غرائب ، وقد عزله المعظم وكان فى نفسه منـه وسجنه فى القلعة نحوا من خمس سنين ، ونادى عليه فى البلد فلم يجئ أحد ذكر أنه أخـذ منه حبة خردل ، ولما مات رحمه الله دفن بتربته المجاورة لمدرسة أبى عمر من شامها قبلى السوق ، وله عند تربته مسجد

يعرف به رحمه الله . ﴿ واقف الشبلية التى بطريق الصالحية ﴾

شبل الدولة كافور الحسامى نسبة إلى حسام الدين محمد بن لاجين ، ولد ست الشام ، وهو الذى كان مستحثا على عمارة الشامية البرانية لمولاته ست الشام ، وهو الذى بنى الشبلية للحنفية والخانقاه على الصوفية إلى جانبها ، وكانت منزله ، و وقف القناة والمصنع والساباط ، وفتح للناس طريقا من عند المقبرة غربى الشامية البرانية إلى طريق عين الكرش ، ولم يكن الناس لهم طريق إلى الجبل من هناك ، إنما كانوا يسلكون من عند مسجد الصفى بالعقيبة ، وكانت وفاته فى رجب ودفن إلى جانب مدرسته ، وقد سمع الحديث على الكندى وغيره رحمه الله تعالى

﴿ واقف الرواحية بدمشق وحلب ﴾

أبوالقاسم هبة الله المعروف بابن رواحة ، كان أحد التجار ، وفى الثروة والمقدار ومن المعدلين بدمشق ، وكان فى غاية الطول والعرض ولا لحية له ، وقد ابتنى المدرسة الرواحية داخل باب الفراديس ووقفها على الشافعية ، وفوض نظرها وتدريسها إلى الشيخ تقى الدين بن الصلاح الشهرزورى ، وله بحلب مدرسة أخرى مثلها ، وقد انقطع فى آخر عمره فى المدرسة التى بدمشق وكان يسكن البيت الذى فى إيوانها من الشرق ، ورغب فيما بعد أن يدفن فيه إذا مات فلم يمكن من ذلك ، بل دفن بمقابر الصوفية ، و بعد وفاته شهد محى الدين ابن عربى الطائى الصوفى ، وتقى الدين خزعل النحوى المصرى ثم المقدسى إمام مشهد ، على شهدا على ابن رواحة بأنه عزل الشيخ تقى الدين عن هذه المدرسة ، فجرت خطوب طويلة ولم ينتظم ما راماه من الأمر ، ومات خزعل فى هذه السنة أيضاً فبطل ما سلكوه ﴿ أبو محمد محمود بن مودود بن محمود ﴾

البلدجى الحنفى الموصلى ، وله بها مدرسة تعرف به ، وكان من أبناء الترك ، وصار من مشايخ العلماء وله دين متين وشعر حسن جيد ، فمنه قوله :

من ادعى أن له حاله * تخرجه عن منهج الشرع
فلا تكونن له صاحباً * فانه خرء بلا نفع

كانت وفاته بالموصل فى السادس والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة ، وله نحو من ثمانين سنة . ﴿ ياقوت ويقال له يعقوب بن عبد الله ﴾

نجيب الدين متولى الشيخ تاج الدين الكندى ، وقد وقف إليه الكتب التى بالخزانة بالزاوية الشرقية الشمالية من جامع دمشق ، وكانت سبعمائة و إحدى وستين مجلداً ، ثم على ولده من بعده ثم على العلماء فتمحقت هذه الكتب و بيع أكثرها ، وقد كان ياقوت هذا لديه فضيلة وأدب وشعر جيد ، وكانت وفاته ببغداد فى مستهل رجب ، ودفن بمقبرة الخيزران بالقرب من مشهد أبى حنيفة :

﴿ ثم دخلت سنة أربع وعشرين وستمائة ﴾

فيها كانت عامة أهل تفليس الكرج فجاؤا إليهم فدخلوها فقتلوا العامة والخاصة ، ونهبوا وسبوا وخربوا وأحرقوا ، وخرجوا على حمية ، وبلغ ذلك جـلال الدين فسار سريعاً ليدركهم فلم يدركهم . وفيها قتلت الاسماعيلية أميرا كبيرا من نواب جلال الدين بن خوارزم شاه ، فسار إلى بلادهم فقتل منهم خلقا كثيرا ، وخرب مدينتهم وسبي ذراريهم ونهب أموالهم ، وقد كانوا قبحهم الله من أكبر العون على المسلمين ، لما قدم التتار إلى الناس ، وكانوا أضر على الناس منهم .

وفيها تواقع جلال الدين وطائفة كبيرة من التتار فهزمهم وأوسعهم قتلا وأسراً ، وساق وراءهم أياماً فقتلهم حتى وصل إلى الرى فبلغه أن طائفة قد جاؤا لقصده فأقام يقبطهم ، وكان من أمره وأمرهم ما سيأتى فى سنة خمس وعشرين. وفيها دخلت عساكر الملك الأشرف بن العادل إلى أذربيجان فملكوا منها مدنا كثيرة وغنموا أموالا جزيلة ، وخرجوا معهم بزوجة جلال الدين بنت طغرل ، وكانت تبغضه وتماديه ، فأنزلوها مدينة خلاط وسيأتى ما كان من خبرهم فى السنة الآتية . وفيها قدم رسول الانبور ملك الفرنج فى البحر إلى المعظم يطلب منه ما كان فتحه عمه السلطان الملك الناصر صلاح الدين من بلاد السواحل ، فأغلظ لهم المعظم فى الجواب وقال له : قل لصاحبك ماعندى إلا السيف والله أعلم. وفيها جهز الأشرف أخاه شهاب الدين غازى إلى الحج فى محمـل عظيم يحمل ثقله ستمائة جمل ، ومعه خمسون هجينا ، عـلى كل هجين مملوك ، فسار من ناحيـة العراق وجاءته هدايا من الخليفـة إلى أثناء الطريق ، وعاد عـلى طريقه التى حج منها . وفيها ولى قضاء القضاة ببغـداد نجم الدين أبو المعالى عبد الرحمن بن مقبل الواسطى ، وخلع عليه كما هى عادة الحكام ، وكان يوماً مشهودا . وفيها كان غلاء شديد ببلاد الجزيرة وقـل اللحم حتى حكى ابن الأثير أنه لم يذبح بمدينة الموصـل فى بعض الأيام سوى خروف واحد فى زمن الربيع ، قال : وسقط فيها عاشر أذار ثلج كثير بالجزيرة والعراق مرتين فأهلك الأزهار وغيرها ، قال : وهذا شيء لم يعهـد مثله ، والعجب كل العجب من العراق مع كثرة حره كيف وقع فيه مثل هذا .

ومن توفى فيها من الأعيان ﴿ جنكيزخان ﴾

السلطان الأعظم عند التتار والد ملوكهم اليوم ، ينتسبون إليه و من عظم القان إنما يريد هذا الملك وهو الذى وضع لهم السياسا [1] التى يتحاكمون إليها ، ويحكمون بها ، وأكثرها مخالف لشرائع الله تعالى وكتبه ، وهو شيء اقترحه من عند نفسـه ، وتبعوه فى ذلك ، وكانت تزعم أمه أنها حملته من شعاع الشمس ، فلهذا لايعرف له أب ، والظاهر أنه مجهول النسب ،وقد رأيت مجلداً جمعه الوزير

(١) السياسا : مركبة من « سى » بمعنى ثلاثة . و « يسا » بمعنى الترتيب ، ثم حرفها العرب فقالوا : سياسة .

ببغداد علاء الدين الجويني في ترجمته فذكر فيه سيرته ، وما كان يشتمل عليه من العقل السياسي والكرم والشجاعة والتدبير الجيد للملك والرعايا ، والحروب ، فذكر أنه كان في ابتداء أمره خصيصاً عند الملك أزبك خان ، وكان إذ ذاك شابا حسنا وكان اسمه أولا تمرجي ، ثم لما عظم سمى نفسه جنكيزخان ، وكان هذا الملك قد قربه وأدناه ، فحسده عظماء الملك ووشوا به إليه حتى أخرجوه عليه ، ولم يقتله ولم يجد له طريقا في ذنب يتسلط عليه به ، فهو في ذلك إذ تغضب الملك على مملوكين صغيرين فهربا منه ولجأ إلى جنكيزخان فأكرمهما وأحسن إليهما فأخبراه بما يضمره الملك أزبك خان من قتله ، فأخذ حذره وتحيز بدولة واتبعه طوائف من التتار وصار كثير من أصحاب أزبك خان ينفرون إليه ويفدون عليه فيكرمهم ويعطيهم حتى قويت شوكته وكثرت جنوده ، ثم حارب بعد ذلك أزبك خان فظفر به وقتله واستحوز على مملكته وملكه ، وانضاف إليه عدده وعدده ، وعظم أمره وبعد صيته وخضعت له قبائل الترك ببلاد طمغاج كلها حتى صار يركب في نحو ثمانمائة ألف مقاتل ، وأكثر القبائل قبيلته التي هو منها يقال لهم قيان ، ثم أقرب القبائل إليه بعدهم قبيلتان كبيرتا العدد وهما أزان وقنقوران وكان يصطاد من السنة ثلاثة أشهر والباقي للحرب والحكم . قال الجويني : وكان يضرب الحلقة يكون ما بين طرفيها ثلاثة أشهر ثم تتضايق فيجتمع فيها من أنواع الحيوانات شيء كثير لا يحد كثرة ، ثم نشبت الحرب بينه وبين الملك علاء الدين خوارزم شاه صاحب بلاد خراسان والعراق وأذربيجان وغير ذلك والأقاليم والملك ، فقهره جنكيزخان وكسره وغلبه وسلبه ، واستحوذ على سائر بلاده بنفسه وبأولاده في أيسر مدة كما ذكرنا ذلك في الحوادث ، وكان ابتداء ملك جنكزخان سنة تسع وتسعين وخمسمائة ، وكان قتاله لخوارزم شاه في حدود سنة ست عشرة وستمائة ، ومات خوارزم شاه في سنة سبع عشرة كما ذكرنا ، فاستحوذ حينئذ على الممالك بلا منازع ولا ممانع ، وكانت وفاته في سنة أربع وعشرين وستمائة فجعلوه في تابوت من حديد وربطوه بسلاسل وعلقوه بين جبلين هنالك وأما كتابه الياسا فانه يكتب في مجلدين بخط غليظ ، ويحمل على بعير عندهم ، وقد ذكر بعضهم أنه كان يصعد جبلا ثم ينزل ثم يصعد ثم ينزل مرارا حتى يعيي ويقع مغشياً عليه ، ويأمر من عنده أن يكتب ما يلقى على لسانه حينئذ ، فان كان هذا هكذا فالظاهر أن الشيطان كان ينطق على لسانه بما فيها . وذكر الجويني أن بعض عبادهم كان يصعد الجبال في البرد الشديد للعبادة فسمع قائلا يقول له إنا قد ملكنا جنكيزخان وذريته وجه الأرض قال الجويني فمشايخ المغول يصدقون بهذا ويأخذونه مسلماً .

ثم ذكر الجويني نتفا من الياسا من ذلك : أنه من زنا قتل ، محصنا كان أو غير محصن ، وكذلك من لاط قتل ، ومن تعمد الكذب قتل ، ومن سحر قتل ، ومن تجسس قتل ، ومن دخل بين اثنين يختصمان فأعان أحدهما قتل ، ومن بال في الماء الواقف قتل ، ومن انغمس فيه قتل ، ومن أطعم أسيراً

أو سقاه أو كساه بغير إذن أهله قتل ، ومن وجد هارباً ولم يرده قتل ، ومن أطعم أسيراً أو رمى إلى أحد شيئا من المأكول قتل ، بل يناوله من يده إلى يده ، ومن أطعم أحداً شيئاً فليأكل منه أولا ولو كان المطعوم أميراً لا أسيرا ، ومن أكل ولم يطعم من عنده قتل ، ومن ذبح حيوانا ذبح مثله بل يشق جوفه و يتناول قلبه بيده يستخرجه من جوفه أولا . وفى ذلك كله مخالفة لشرائع الله المنزلة على عباده الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فمن ترك الشرع المحكم المنزل على محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة كفر ، فكيف بمن تحاكم إلى الياسا وقدمها عليه ؟ من فعل ذلك كفر بإجماع المسلمين . قال الله تعالى (أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون) وقال تعالى (فلا و ربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت و يسلموا تسليما) صدق الله العظيم

ومن آدابهم : الطاعة للسلطان غاية الاستطاعة ، وأن يعرضوا عليه أبكارهم الحسان ليختار لنفسه ومن شاء من حاشيته ما شاء منهن ، ومن شأنهم أن يخاطبوا الملك باسمه ، ومن مر بقوم يأكلون فله أن يأكل معهم من غير استئذان ولا يتخطى موقد النار ولا طبق الطعام ، ولا يقف على أسكفة الخركاه ولا يغسلون ثيابهم حتى يبدو وسخها ، ولا يكلفون العلماء من كل ما ذكر شيئا من الجنايات ، ولا يتعرضون لمال ميت ، وقد ذكر علاء الدين الجوينى طرفا كبيرا من أخبار جنكيزخان ومكارم كان يفعلها لسجيته وما أداه إليه عقله و إن كان مشركا بالله كان يعبد معه غيره ، وقد قتل من الخلائق مالا يعلم عددهم إلا الذى خلقهم ، ولكن كان البداءة من خوارزم شاه ، فانه لما أرسل جنكيزخان تجارا من جهته معهم بضائع كثيرة من بلاده فانتهوا إلى إيران فقتلهم نائبها من جهة خوارزم شاه ، وهو والد زوجة كشلى خان ، وأخذ جميع ما كان معهم ، فأرسل جنكيزخان إلى خوارزم شاه يستعلمه هل وقع هذا الأمر عن رضى منه أو أنه لايعلم به ، فأنكره وقال له فيما أرسل إليه : من المعهود من الملوك أن التجار لا يقتلون لأنهم عمارة الأقاليم ، وهم الذين يحملون إلى الملوك ما فيه التحف والأشياء النفيسة ، ثم إن هؤلاء التجار كانوا على دينك فقتلهم نائبك ، فان كان أمرا أمرت به طلبنا بدمائهم ، و إلا فأنت تنكره وتقتص من نائبك . فلما سمع خوارزم شاه ذلك من رسول جنكيزخان لم يكن له جواب سوى أنه أمر بضرب عنقه فأساء التدبير ، وقد كان خرق وكبرت سنه ، وقد ورد الحديث « اتركوا الترك ما تركوكم » فلما بلغ ذلك جنكيزخان تجهز لقتاله وأخذ بلاده ، فكان بقدر الله تعالى ما كان من الأمور التى لم يسمع بأغرب منها ولا أبشع ، فمما ذكره الجوينى أنه قدم له بعض الفلاحين بالصيد ثلاث بطيخات فلم يتفق أن عند جنكيزخان أحد من الخزندارية ، فقال لزوجته خاتون أعطيه هذين القرطين اللذين فى أذنيك ، وكان فيهما جوهرتان نفيستان جداً ، فشحت المرأة بهما

وقالت : أنظره إلى غد ، فقال إنه يبيت هذه الليلة مقلقل الخاطر ، وربما لا يحصل له شئ بعد هذا ، وإن هذين لا يمكن أحد إذا اشتراها إلا جاء بهما إليك . فانتزعتهما فدفعتهما إلى الفلاح فطار عقله بهما وذهب بهما فباعهما لأحد التجار بألف دينار ، ولم يعرف قيمتهما ، فحملهما التاجر إلى الملك فردهما على زوجته ، ثم أنشد الجوينى عند ذلك :

ومن قال إن البحر والقطر أشبها ٭ نداه فقد أثنى على البحر والقطر

قالوا : واجتاز يوماً فى سوق فرأى عند بقال عنّابا فأعجبه لونه ومالت نفسه إليه فأمر الحاجب أن يشترى منه ببالس ، فاشترى الحاجب بربع بالس ، فلما وضعه بين يديه أعجبه وقال: هذا كله ببالس؟ قال و بقى منه هذا ـ وأشار إلى مابقى معه من المال ـ فغضب وقال : من يجد من يشترى منه مثلى تمموا له عشرة بوالس . قالوا : وأهدى له رجل جام زجاج من معمول حلب فاستحسنه جنكيزخان فوهن أمره عنده بعض خواصه وقال : خوند هذا زجاج لاقيمة له ، فقال : أليس قد حمله من بلاد بعيدة حتى وصل إلينا سالما ، أعطوه مائتى بالس . قال : وقيل له إن فى هذا المكان كنزا عظيما إن فتحته أخذت منه مالا جزيلا، فقال الذى فى أيدينا يكفينا ، ودع هذا يفتحه الناس و يأكلونه فهم أحق به منا ، ولم يتعرض له [1] قال واشتهر عن رجل فى بلاده يقول أنا أعرف موضع كنز ولا أقول إلا للقان ، وألح عليه الأمراء أن يعلمهم فلم يفعل ، فذكروا ذلك للقان فأحضره على خيل الأولاق ـ يعنى البريد ـ سريعاً فلما حضر إلى بين يديه سأله عن الكنز فقال : إنما كنت أقول ذلك حيلة لأرى وجهك . فلما رأى تغير كلامه غضب وقال له : قد حصل لك ما قلت ، ورده إلى موضعه سالما ولم يعطه شيئا . قال : وأهدى له إنسان رمانة فكسرها وفرق حبها على الحاضرين وأمر له بعدد حبها بوالس ثم أنشد :

فلذاك تزدحم الوفود ببابه ٭ مثل ازدحام الحب فى الرمان

قال : وقدم عليه رجل كافر يقول رأيت فى النوم جنكيزخان يقول قل لابنى يقتل المسلمين ، فقال له هذا كذب ، وأمر بقتله [2] . قال وأمر بقتل ثلاثة قد قضت الياسا بقتلهم ، فاذا امرأة تبكى

(١) وجد بهامش التركية مانصه : « هذا منقول عن ابنه قان الذى قام مقامه ، ولعله هو الصحيح لأن قان هذا المنسوب إلى الكرم الجبلى العظيم والسخاء المفرط ، ويحكى عنه حكايات عظيمة فى هذا الشأن . وأما أبوه جنكيزخان فأنه متوسط فى الجود بل وفى سائر سجاياه وأخلاقه وأفعاله إلا فى أمر سفك الدماء قبحه الله تعالى . (٢) فيه تخليط والصحيح أن أعرابيا جاء إلى قان وقال له ، رأيت فى النوم أباك جنكيزخان فقال لى : قل لابنى قان يقتل المسلمين ، وكان قان يميل إلى المسلمين ، مخالفا لأهل بيته ، فسأل الرجل : هل تعرف اللغة المغولية ؟ فقال : لا . فقال الملك له : أنت كاذب لأن أبى ما كان يعرف من اللغات ودرس غير المغولية ، فأمر بضرب عنقه وأراح المسلمين من كيده .

وتلطم ،فقال : ماهذه ؟أحضروها . فقالت:هذا ابنى ،وهذا أخى،وهذا زوجى ، فقال اختارى واحداً منهم حتى أطلقه لك . فقالت : الزوج يجيء مثله ، والابن كذلك . والأخ لاعوض له . فاستحسن ذلك منها وأطلق الثلاثة لها . قال : وكان يحب المصارعين وأهل الشطارة ، وقد اجتمع عنده منهم جماعة ، فذكر له إنسان بخراسان فأحضره فصرع جميع من عنده ، فأكرمه وأعطاه وأطلق له بنتا من بنات الملوك حسناء . فمكثت عنده مدة لا يتعرض لها ، فاتفق مجيئها إلى الاردوا فجعل السلطان يمازجها ويقول : كيف رأيت المستعرب ؟ فذكرت له أنه لم يقربها ، فتعجب من ذلك وأحضره فسأله عن ذلك فقال : ياخوند أنا إنما حظيت عندك بالشطارة ومتى قربتها نقصت منزلتى عندك . فقال لابأس عليك وأحضر ابن عم له وكان مثله ، فأراد أن يصارع الأول فقال السلطان : أنتما قرابة ولا يليق هذا بينكما وأمر له بمال جزيل .

قال : ولما احتضر أوصى أولاده بالاتفاق وعدم الافتراق . وضرب لهم فى ذلك الأمثال، وأحضر بين يديه نشاباً وأخذ سهما أعطاه لواحد منهم فكسره ، ثم أحضر حزمة ودفعها إليهم مجموعة فلم يطيقوا كسرها ، فقال : هذا مثلكم إذا اجتمعتم واتفقتم ، وذلك مثلكم إذا انفرد تم واختلفتم . قال : وكان له عدة أولاد ذكور وإناث منهم أربعة هم عظماء أولاده أكبرهم يوسى وهريول وباتو وبركة وتركجار ، وكان كل منهم له وظيفة عنده . ثم تكلم الجوينى على ملك ذريته إلى زمان هولاكوخان ، وهو يقول فى اسمه پاذشاه زاره هولاكو ، وذكر ما وقع فى زمانه من الأوابد والأمور المعروفة المزعجة كما بسطناه فى الحوادث والله أعلم .

(السلطان الملك المعظم)

عيسى بن العادل أبى بكر بن أيوب ، ملك دمشق والشام ، كانت وفاته يوم الجمعة سلخ ذى القعدة من هذه السنة . وكان استقلاله بملك دمشق لما توفى أبوه سنة خمس عشرة . وكان شجاعاً باسلا عالما فاضلا . اشتغل فى الفقه على مذهب أبى حنيفة على الحصيرى مدرس النورية [1]، وفى اللغة والنحو على التاج الكندى . وكان محفوظه مفصل الزمخشرى ، وكان يجيز من حفظه بثلاثين دينارا وكان قد أمر أن يجمع له كتاب فى اللغة يشمل صحاح الجوهرى والجمهرة لابن دريد والتهذيب للازهرى وغير ذلك ، وأمر أن يرتب له مسند الامام أحمد ، وكان يحب العلماء ويكرمهم ، ويجتهد فى متابعة الخير ويقول أنا على عقيدة الطحاوى ، وأوصى عند وفاته أن لا يكفن إلا فى البياض . وأن يلحد له ويدفن فى الصحراء ولا يبنى عليه ، وكان يقول : واقعة دمياط أدخرها عند الله تعالى وأرجو أن يرحمنى بها ـ يعنى أنه أبلى بها بلاء حسنا ـ رحمه الله تعالى ، وقد جمع له بين الشجاعة والبراعة والعلم ومحبة أهله، وكان يجيء فى كل جمعة إلى تربة والده فيجلس قليلا ثم إذا ذكر المؤذنون ينطلق إلى تربة عمه صلاح الدين

---

(١) وهو مؤلف كتاب « السهم المصيب فى الرد على الخطيب » فيما ذكره فى تاريخ بغداد فى ترجمة الامام أبى حنيفة رحمه الله .

فيصلى فيها الجمعة ، وكان قليل التعاظم ، يركب فى بعض الأحيان وحده ثم يلحقه بعض غلمانه سوقا . وقال فيه بعض أصحابه وهو محب الدين بن أبى السعود البغدادى .

لئن غودرت تلك المحاسن فى الثرى * بوال فما وجدى عليك ببال
ومذغبت عنى ما ظفرت بصاحب * أخى ثقة إلا خطرت ببالى

وملك بعده دمشق ولده الناصر داود بن المعظم ، و بايعه الأمراء .

[﴿ أبو المعالى أسعد بن يحيى ﴾

ابن موسى بن منصور بن عبد العزيز بن وهب الفقيه الشافعى البخارى ، شيخ أديب فاضل خير ، له نظم ونثر ظريف ، وله نوادر حسنة وجاوز التسعين . قد استوزره صاحب حماة فى وقت وله شعر رائق أورد منه ابن الساعى قطعة جيدة . فمن ذلك قوله :

وهواك ما خطر السلو بباله * ولأنت أعلم فى الغرام بحاله
فمتى وشى واش إليك بشأنه * سائل هواك فذاك من أعداله
أو ليس للدنف المعنى شاهد * من حاله يغنيك عن تسآله
جددت ثوب سقامه ، وهتكت ستـ * ـر غرامه ، وصرمت حبل وصاله
ياللعجائب من أسير دأبه * يفدى الطليق بنفسه وبماله

وله أيضاً : لام العواذل فى هواك فأكثروا * هيهات ميعاد السلو المحشر
جهلوا مكانك فى القلوب وحاولوا * لو أنهم وجدوا كوجدى أقصروا
صبراً على عذب الهوى وعذابه * وأخو الهوى أبدا يلام و يعذر][1]

﴿ أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد ﴾

ابن أحمد بن حمدان الطيبى المعروف بالصائن ، أحد المعيدين بالنظامية ، ودرس بالثقفية ، وكان عارفا بالمذهب والفرائض والحساب ، صنف شرحا للتنبيه . ذكره ابن الساعى .

﴿ أبو النجم محمد بن القاسم بن هبة الله التكريتى ﴾

الفقيه الشافعى ، تفقه على أبى القاسم بن فضلان ثم أعاد بالنظامية ودرس بغيرها ، وكان يشتغل كل يوم عشرين درساً ، ليس له دأب إلا الاشتغال وتلاوة القرآن ليلا ونهاراً ، وكان بارعا كثير العلوم ، قد أتقن المذهب والخلاف ، وكان يفتى فى مسألة الطلاق الثلاث بواحدة فتغيظ عليه قاضى القضاة أبو القاسم عبد الله بن الحسين الدامغانى ، فلم يسمع منه ، ثم أخرج إلى تكريت فأقام بها ، ثم استدعى إلى بغداد ، فعاد إلى الاشتغال وأعاده قاضى القضاة نصر بن عبد الرزاق إلى إعادته بالنظامية ، وعاد إلى ما كان عليه من الاشتغال والفتوى والوجاهة إلى أن توفى فى هذه السنة رحمه الله تعالى . وهذا

(١) زيادة من المصرية .

ذكره ابن الساعى . ﴿ ثم دخلت سنة خمس وعشرين وستمائة ﴾

فيها كانت حروب كثيرة بين جلال الدين والتتر ، كسروه غير مرة ، ثم بعد ذلك كله كسرهم كسرة عظيمة ، وقتل منهم خلقا وأمما لايحصون ، وكان هؤلاء التتر قد انفردوا وعصوا على جنكيزخان فكتب جنكيزخان إلى جلال الدين يقول له : إن هؤلاء ليسوا منا ونحن أبعدناهم ، ولكن سترى مناما لا قبل لك به . وفيها قدمت طائفة كبيرة من الفرنج من ناحية صقلية فنزلوا عكا وصور وحملوا على مدينة صيدا فانتزعوها من أيدى المؤمنين ، وعبروها وقويت شوكتهم ، وجاء الانبرور ملك الجزيرة القبرصية ثم سار فنزل عكا فخاف المسلمون من شره وبالله المستعان . وركب الملك الكامل محمد بن العادل صاحب مصر إلى بيت المقدس الشريف فدخله ، ثم سار إلى نابلس فخاف الناصر داود بن المعظم من عمه الكامل ، فكتب إلى عمه الأشرف فقدم عليه جريدة ، وكتب إلى أخيه الكامل يستعطفه ويكفه عن ابن أخيه ، فأجابه الكامل بأنى إنما جئت لحفظ بيت المقدس وصونه عن الفرنج الذين يريدون أخذه ، وحاشى لله أن أحاصر أخى أو ابن أخى ، وبعد أن جئت أنت إلى الشام فأنت تحفظها وأنا راجع إلى الديار المصرية ، فخشى الأشرف وأهل دمشق إن رجع الكامل أن تمتد أطماع الفرنج إلى بيت المقدس ، فركب الأشرف إلى أخيه الكامل فثبطه عن الرجوع ، وأقاما جميعا هنالك جزاهما الله خيرا ، يحوطان جناب القدس عن الفرنج لعنهم الله . واجتمع إلى الملك جماعة من ملوكهم ، كأخيه الأشرف وأخيهما الشهاب غازى بن العادل وأخيهم الصالح إسماعيل بن العادل ، وصاحب حمص أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين ، وغيرهم ، واتفقوا كلهم على نزع الناصر داود عن ملك دمشق وتسليمها إلى الأشرف موسى . وفيها عزل الصدر التكريتى عن حسبة دمشق ومشيخة الشيوخ وولى فيها اثنان غيره .

قال أبو شامة : وفى أوائل رجب توفى الشيخ الصالح الفقيه أبو الحسن على بن المراكشى المقيم بالمدرسة المالكية ، ودفن بالمقبرة التى وقفها الزين خليل بن زويزان قبلى مقابر الصوفية ، وكان أول من دفن بها رحمه الله تعالى .

﴿ ثم دخلت سنة ست وعشرين وستمائة ﴾

استهلت هذه السنة وملوك بنى أيوب مفترقون مختلفون ، قد صاروا أحزابا وفرقا ، وقد اجتمع ملوكهم إلى الكامل محمد صاحب مصر ، وهو مقيم بنواحى القدس الشريف ، فقويت نفوس الفرنج لعنهم الله بكثرتهم بمن وفد إليهم من البحر ، وبموت المعظم واختلاف من بعده من الملوك ، فطلبوا من المسلمين أن يردوا إليهم ما كان الناصر صلاح الدين أخذ منهم ، فوقعت المصالحة بينهم وبين الملوك أن يردوا لهم بيت المقدس وحده ، وتبقى بأيديهم بقية البلاد ، فتسلموا القدس الشريف ، وكان

المعظم قد هدم أسواره ، فعظم ذلك على المسلمين جدا وحصل وهن شديد و إرجاف عظيم ، فانا لله و إنا إليه راجعون . ثم قدم الملك الكامل فحاصر دمشق وضيق على أهلها فقطع الانهار ونهبت الحواصل وغلت الأسعار ، ولم يزل الجنود حولها حتى أخرج منها ابن أخيه صلاح الدين الملك الناصر داود بن المعظم ، على أن يقيم ملكا بمدينة الكرك والشوبك ونابلس و برا ما بين الغور والبلقاء و يكون الأمير عز الدين أيبك أستاذ دار المعظم صاحب صرخد ، ثم تقايض الأشرف وأخاه الكامل فأخذ الأشرف دمشق وأعطى أخاه حران والرها والرقة و رأس العين وسروج ، ثم سار الكامل فحاصر حماة وكان صاحبها الملك المنصور بن تقى الدين عمر قد توفى وعهد بالأمر من بعده الى أكبر ولده المظفر محمد، وهو زوج بنت الكامل ، فاستحوذ على حماة أخوه صلاح الدين قلج أرسلان فحاصره الكامل حتى أنزله من قلعتها وسلمها إلى أخيه المظفر محمد ، ثم سار فتسلم البلاد التى قايض بها عن دمشق من أخيه الملك الأشرف كما ذكرنا ، وكان الناس بدمشق قد اشتغلوا بعلم الأوائل فى أيام الملك الناصر داود ، وكان يعانى ذلك وقديما نسبه بعضهم إلى نوع من الانحلال فالله أعلم ، فنادى الملك الأشرف بالبلدان أن لا يشتغل الناس بذلك وأن يشتغلوا بعلم التفسير والحديث والفقه ، وكان سيف الدين الآمدى مدرساً بالعزيزية فعزله عنها و بقى ملازماً منزله حتى مات فى سنة إحدى وثلاثين كما سيأتى .

وفيها كان الناصر داود قد أضاف إلى قاضى القضاة شمس الدين بن الخولى القاضى محيى الدين يحيى بن محمد بن على بن الزكى ، فحكم أياما بالشباك ، شرقى باب الكلاسة ، ثم صار الحكم بداره ، مشاركا لابن الخولى .

ومن توفى فيها من الأعيان ﴿ الملك المسعود أقسيس بن الكامل ﴾

صاحب اليمن ، وقد ملك مكة سنة تسع عشرة فأحسن بها المعدلة ، ونفى الزيدية منها ، وأمنت الطرقات والحجاج ، ولكنه كان مسرفا على نفسه ، فيه عسف وظلم أيضا . وكانت وفاته بمكة ودفن بباب المعلى

﴿ محمد السبتى النجار ﴾

كان يعده بعضهم من الأبدال ، قال أبو شامة: وهو الذى بنى المسجد غربى دار الزكاة عن يسار المار فى الشارع من ماله ، ودفن بالجبل . وكانت جنازته مشهودة رحمه الله تعالى

﴿ أبو الحسن على بن سالم ﴾

ابن يزبك بن محمد بن مقلد العبادى الشاعر من الحديثة ، قدم بغداد مراراً وامتدح المستظهر وغيره ، وكان فاضلا شاعراً يكثر التغزل

﴿ أبو يوسف يعقوب بن صابر الحرانى ﴾

ثم البغدادى المنجنيقى ، كان فاضلا فى فنه ، وشاعرا مطبقاً لطيف الشعر حسن المعانى ، قدأورد له ابن الساعى قطعة صالحة ، ومن أحسن ماأورد له قصيدة فيها تعزية عظيمة لجميع الناس وهى :

هل لمن يرتجى البقاء خلود * وسوى الله كل شىء يبيد
والذى كان من تراب وإن * عاش طويلا للتراب يعود
فمصير الأنام طرا إلى ما * صار فيه آباؤهم والجدود
أين حواء أين آدم إذفا * تهم الخلد والثوى والخلود ؟
أين هابيل أين قابيل إذهـ * ـذا لهذا معاند وحسود ؟
أين نوح ومن نجا معه بالفلـ * ـك والعالمون طرا فقيد
أسلمته الأيام كالطفل للمو * ت ولم يغن عمره الممدود
أين عاد ؟ بل أين جنة عاد * أم ترى أين صالح وثمود ؟
أين إبراهيم الذى شاد بيـ * ـت الله فهو المعظم المقصود
حسدوا يوسفا أخاهم فـكادو * ه ومات الحـاسد والمحسود
وسـليمان فى النبوة والملك * قضى مثـل ما قضى داود
فغدوابعد ما أطيع لذا الخلـ * ـق وهذا له ألين الحديد
وابن عمران بعد آياته التسـ * ـع وشق الخضم فهو صعيد
والمسيح ابن مريم وهوروح الا * ه كادت تقضى عليه اليهود
وقضى سيد النبيين والها * دى إلى الحق أحمد المحمود
وبنوه وآله الطاهرو * ن الزهر صلى عليهم المعبود
ونجوم السماء منتثرات * بعد حين وللهواء ركود
ولنار الدنيا التى توقد الصخـ * ـر خمود وللماء جمود
وكذا للثرى غداة يوم النـ * ـاس منهـا تزلزل وهمود
هذه الامهات نار وترب * وهواء رطب وماء برود
سوف يفنى كما فنينا فلا * يبقى من الخلق والد ووليد
لاالشقى الغوى من نوب الايا * م ينجو ولا السعيد الرشيد
ومتى سلت المنايا سيوفا * فالموالى حصيدها والعبيد

ومن توفى فيها ﴿ أبو الفتوح نصر بن على البغدادى ﴾

الفقيه الشافعى و يلقب بثعلب ، اشتغل فى المذهب والخلاف ومن شعره قوله :

جسمى معى غير أن الروح عندكم ■ فالجسم فى غربة والروح فى وطن

فليعجب النـاس منى أن لى بـدنا ■ لا روح فيـه ولى روح بـلا بدن

﴿ أبو الفضل جبرائيل بن منصور ﴾

ابن هبة الله بن جبريل بن الحسن بن غالب بن يحيى بن موسى بن يحيى بن الحسن بن غالب بن الحسن بن عمرو بن الحسن بن النعمان بن المنذر المعروف بابن زطينا البغدادى كاتب الديوان بهـا ، أسلم ـ وكان نصرانيا ـ فحسن إسلامه ، وكان من أفصح الناس وأبلغهم موعظة ، ومن ذلك قوله « خير أوقاتك ساعة صفت لله ، وخلصت من الفكرة لغيره والرجاء لسواه ، وما دمت فى خدمة السلطان فلا تغتر بالزمان ، ا كفف كفك واصرف طرفك وأ كثر صومك وأقلل نومك يؤمنك ، واشكر ربك يحمد أمرك. وقال: زاد المسافر يقدم على رحيله ، فأعـد الزاد تبلغ بالمعاد المراد . وقال : إلى متى تمادى فى الغفلة كأنك قد أمنت عواقب المهلة ، عمر اللهو مضى وعمر الشبيبة انقضى ، وما حصلت من ربك على ثقة بالرضا ، وقد انتهى بك الأمر إلى سن التخاذل وزمن التـكاسـل ، وما حظيت بطائل . وقال : روحك تخضع وعينك لاتدمع ، وقلبك يخشع ونفسك تجشع ، وتظلم نفسك وأنت لهاتتوجع ،وتظهر الزهد فى الدنيا وفى الحال تطمع ، وتطلب ماليس لك بحق وما وجب عليك من الحق لاتدفع ،وتروم فضل ربك وللماعون تمنع ، وتعيب نفسك الامارة وهى عن اللهو لاترجع ، وتوقظ الغافلين بانذارك وتتناوم عن سهمك وتهجع ، وتخص غيرك بخيرك ونفسك الفقيرة لا تنفع ، وتحوم على الحق وأنت بالبـاطل مولع ، وتتعثر فى المضايق وطرق النجاة مهيع ، وتتهجم عـلى الذنوب وفى المجرمين تشفع وتظهر القناعة بالقليل وبالـكثير لا تشبع ، وتعمر الدار الفانية ودارك الباقية خراب بلقع ، وتستوطن فى منزل رحيل كأنك إلى ربك لا ترجع ، وتظن أنك بلا رقيب وأعمالك إلى المراقب ترفع ، تقدم عـلى الـكبائر وعن الصغائر تتورع ، وتؤمل الغفران وأنت عن الذنوب لا تقلع ، وترى الأهـوال محيطة بك وأنت فى ميدان اللهو ترتع ، وتستقبـح أفعال الجهال وباب الجهل تقرع ، وقد آن لك أن تأنف من التعنيف وعن الدنايا تترفع ، وقد سار المخفون وتخلفت فماذا تتوقع » .

وقد أورد ابن الساعى له شعراً حسناً فمنه :

إن سهرت عيناك فى طاعة ■ فذاك خير لك من نوم

أمسك قد فات بعلاته ■ فاستدرك الفائت فى اليوم

وله

إن ربا هـداك بعـد ضلال ■ سبل الرشد مستحق للعباده

فتعبد له تجد منه عتقا ■ واستدم فضله بطول الزهاده

وله : إذا تعففت عن حرام ■ عوضت بالطيب الحلال

فاقنع تجد فى الحرام حلا ■ فضلا من الله ذى الجلال

﴿ ثم دخلت سنة سبع وعشرين وستمائة ﴾

فيها كانت وقعة عظيمة بين الأشرف موسى بن العادل و بين جلال الدين بن خوارزم شاه ، وكان سببها أن جلال الدين كان قد أخذ مدينة خلاط فى الماضى وخربها وشرد أهلها ، وحار به علاء الدين كيقباد ملك الروم وأرسل إلى الاشرف يستحثه على القدوم عليه ولو جريدة وحده ، فقدم الأشرف فى طائفة كبيرة من عسكر دمشق ، وانضاف إليهم عسكر بلاد الجزيرة ومن تبقى من عسكر خلاط ، فكانوا خمسة آلاف مقاتل ، معهم العدة الكاملة ، والخيول الهائلة ، فالتقوا مع جلال الدين بأذر بيجان وهو فى عشرين ألف مقاتل ، فلم يقم لهم ساعة واحدة ، ولا صبر فتقهقر وانهزم واتبعوه على الأثر ، ولم يزالوا فى طلبهم إلى مدينة خوى وعاد الأشرف إلى مدينة خلاط فوجدها خاوية على عروشها ، فمهدها [وأطدها ، ثم تصالح وجلال الدين وعاد إلى مستقر ملكه حرسها الله] [1] وفيها تسلم الأشرف قلعة بعلبك من الملك الامجد بهرام شاه بعد حصار طويل ، ثم استخلف على دمشق أخاه الصالح إسماعيل ، ثم سار إلى الأشرف بسبب أن جلال الدين الخوارزمى استحوذ على بلاد خلاط وقتل من أهلها خلقا كثيراً ونهب أموالا كثيرة ، فالتقى معه الأشرف واقتتلوا قتالا عظيما فهزمه الاشرف هزيمة منكرة ، وهلك من الخوارزمية خلق كثير ، ودقت البشائر فى البلاد فرحاً بنصرة الاشرف على الخوارزمية ، فانهم كانوا لايفتحون بلدا إلا قتلوا من فيه ونهبوا أموالهم ، فكسرهم الله تعالى . وقد كان الاشرف رأى النبى ﷺ فى المنام قبل الوقعة وهو يقول له : يا موسى أنت منصور عليهم ولما فرغ من كسرتهم عاد إلى بلاد خلاط فرمم شعثها وأصلح ما كان فسدمنها . ولم يحج أحد من أهل الشام فى هذه السنة ولا فى التى قبلها ، وكذا فيما قبلها أيضاً ، فهذه ثلاث سنين لم يسر من الشام أحد إلى الحج . وفيها أخذت الفرنج جزيرة سورقة وقتلوا بها خلقا وأسروا آخرين ، فقدموا بهم إلى الساحل فاستقبلهم المسلمون فأخبروا بما جرى عليهم من الفرنج .

ومن توفى فيها من الأعيان ﴿ زين الأمناء الشيخ الصالح ﴾

أبو البركات ابن الحسن بن محمد بن الحسن بن هبة الله بن زين الأمناء بن عساكر الدمشقى الشافعى ، سمع على عميه الحافظ أبى القاسم والصائن وغير واحد ، وعمر وتفرد بالرواية وجاوز الثمانين

(١) زيادة من المصرية ، وفى التركية بياض .

بنحو من ثلاث سنين ، وأقعد فى آخر عمره فكان يحمل فى محفة إلى الجامع و إلى دار الحديث النورية لاسماع الحديث ، وانتفع به الناس مدة طويلة ، ولما توفى حضر الناس جنازته ودفن عند أخيه الشيخ فخر الدين بن عساكر بمقابر الصوفية رحمه الله تعالى .

﴿ الشيخ بيرم المارديني ﴾

كان صالحا منقطعاً محبـاً للعزلة عن الناس ، وكان مقيما بالزاوية الغربيـة من الجامع ، وهى التى يقال لها الغزالية ، وتعرف بزاوية الدولعى و بزاوية القطب النيسابورى ، و بزاوية الشيخ أبى نصر المقدسى ، قاله الشيخ شهاب الدين أبو شامـة ، وكان يوم جنازته مشـهودا ، ودفن بسفح قاسيون رحمه الله تعالى وعفا عنه بمنه وكرمه .

﴿ ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وستمائة ﴾

استهلت هذه السنة والملك الأشرف موسى بن العادل مقيم بالجزيرة مشغول فيها باصلاح ما كان جلال الدين الخوارزمى قد أفسده من بلاده ، وقـد قدمت التتار فى هـذه السنة إلى الجزيرة وديار بكر فعاثوا بالفساد يمينا وشمالا ، فقتلوا ونهبوا وسبوا على عادتهم خـذلهم الله تعالى . وفيها رتب إمام بمشهد أبى بكر من جامع دمشق وصليت فيه الصـلوات الخمس . وفيها درس الشيخ تقى الدين بن الصلاح الشهرزورى الشافعى فى المدرسـة الجوانية فى جانب المارسـتان فى جمادى الأولى منها . وفيها درس الناصر ابن الحنبـلى بالصالحية بسفح قاسيون التى أنشأتها الخاتون ربيعـة خاتون بنت أيوب أخت ست الشام .

وفيها حبس الملك الأشرف الشيخ على الحريرى بقلعة عزتا . وفيها كان غـلاء شديد بديار مصر و بلاد الشام وحلب والجزيرة بسبب قلة المياه السماوية والأرضية ، فكانت هذه السنة كما قال الله تعالى (ولنبـلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأمـوال والأنفس والثمرات و بشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله و إنا إليـه راجعون) وذكر ابن الأثير كلاما طويلا مضمونه خروج طائفة من التتـار مرة أخرى من بلاد ما وراء النهر ، وكان سبب قدومهم هذه السنة أن الاسماعيلية كتبوا إليهـم يخبرونهم بضعف أمر جلال الدين بن خوارزم شاه ، وأنه قـد عادى جميع الملوك حوله حتى الخليفة ، وأنه قـد كسره الأشرف بن العادل مرتين ، وكان جـلال الدين قد ظهرت منه أفعال ناقصة تدل على قلة عقله ، وذلك أنه توفى له غـلام خصى يقال له قلج ، وكان يحبه ، فوجـد عليه وجدا عظيما بحيث إنه أمر الأمراء أن يمشوا بجنازته فمشوا فراسخ ، وأمر أهـل البلد أن يخرجوا بحزن وتعداد عليه فتوانى بعضهم فى ذلك فهم بقتلهم حتى تشفع فيهم بعض الأمراء ثم لم يسمح بدفن قلج فكان يحمل معه بمحفة ، وكلما أحضر بين يديه طعام يقول احملوا هذا إلى قلج

فقال له بعضهم : أيها الملك إن قلج قدمات ، فأمر بقتله فقتل، فكانوا بعدذلك يقولون : قبلهوهو يقبل الأرض ، ويقول هوالآن أصلح مما كان - يعنى أنه مريض وليس بميت - فيجد الملك بذلك راحة من قلة عقله ودينه قبحه الله . فلما جاءت التتار اشتغل بهم وأمر بدفن قلج وهرب من بين أيديهم وامتلأ قلبه خوفا منهم ، وكان كلما سار من قطر لحقوه إليه وخربوا ما اجتازوا به من الأقاليم والبلدان حتى انتهوا إلى الجزيرة وجاوزوها إلى سنجار وماردين وآمد ، يفسدون ما قدروا عليه قتلا ونهبا وأسرا ، وتمزق شمل جلال الدين وتفرق عنه جيشه ، فصاروا شذر مذر ، وبدلوا بالأمن خوفا ، وبالعز ذلا ، وبالاجتماع تفريقا ، فسبحان من بيده الملك لا إله إلا هو . وانقطع خبر جلال الدين فلا يدرى أين سلك ، ولا أين ذهب ، وتمكنت التتار من الناس فى سائر البلاد لا يجدون من يمنعهم ولا من يردعهم ، وألقى الله تعالى الوهن والضعف فى قلوب الناس منهم ، كانوا كثيرا يقتلون الناس فيقول المسلم : لا بالله ، لا بالله ، فكانوا يلعبون على الخيل ويغنون ويحاكون الناس لا بالله لا بالله ، وهذه طامة عظمى وداهية كبرى ، فانا لله وإنا إليه راجعون .

وحج الناس فى هذه السنة من الشام وكان ممن حج فيها الشيخ تقى الدين أبو عمر بن الصلاح ، ثم لم يحج الناس بعد هذه السنة أيضاً لكثرة الحروب والخوف من التتار والفرنج ، فانا لله وإنا إليه راجعون . وفيها تكامل بناء المدرسة التى بسوق العجم ببغداد المنسوبة إلى إقبال الشرابى ، وحضر الدرس بها ، وكان يوما مشهودا ، اجتمع فيه جميع المدرسين والمفتيين ببغداد ، وعمل بصحنها قباب الحلوى فحمل منها إلى جميع المدارس والربط ، ورتب فيها خمسة وعشرين فقيها لهم الجوامك الدارة فى كل يوم ، والحلوى فى أوقات المواسم ، والفواكه فى زمانها ، وخلع على المدرس والمعيدين والفقهاء فى ذلك اليوم ، وكان وقتا حسنا تقبل الله تعالى منه . وفيها سار الأشرف أبو العباس أحمد بن القاضى الفاضل فى الرسلية عن الكامل محمد صاحب مصر إلى الخليفة المستنصر بالله ، فأكرم وأعيد معظما . وفيها دخل الملك المظفر أبو سعيد كوكبرى بن زين الدين صاحب إربل إلى بغداد ولم يكن دخلها قط ، فتلقاه الموكب وشافهه الخليفة بالسلام مرتين فى وقتين ، وكان ذلك شرفا له غبطه به سائر ملوك الآفاق وسألوا أن يهاجروا ليحصل لهم مثل ذلك ، فلم يمكنوا لحفظ الثغور ، ورجع إلى مملكته معظما مكرما . وممن توفى فيها من الأعيان

﴿ يحيى بن معطى بن عبدالنور ﴾

النحوى صاحب الألفية وغيرها من المصنفات النحوية المفيدة ، ويلقب زين الدين ، أخذ عن الكندى وغيره ، ثم سافر إلى مصر فكانت وفاته بالقاهرة فى مستهل ذى الحجة من هذه السنة ، وشهد جنازته الشيخ شهاب الدين أبو شامة ، وكان قد رحل إلى مصر فى هذه السنة ، وحكى أن الملك الكامل شهد جنازته أيضاً ، وأنه دفن قريباً من قبر المزنى بالقرافة فى طريق الشافعى عن يسرة المار رحمه الله .

﴿ الدخوار الطبيب ﴾

مذهب الدين عبد الرحيم بن على بن حامد ، المعروف بالدخوار شيخ الأطباء بدمشق ، وقد وقف داره بدرب العميد بالقرب من الصاغة العتيقة على الأطباء بدمشق مدرسة لهم ، وكانت وفاته بصفر من هذه السنة ، ودفن بسفح قاسيون ، وعلى قبره قبة على أعمدة فى أصل الجبل شرقى الركنية ، وقد ابتلى بستة أمراض متعاكسة ، منها ريح اللقوة ، وكان مولده سنة خمس وستين وخمسمائة وكان عمره ثلاثا وستين سنة . قال ابن الأثير : وفيها توفى .

﴿ القاضى أبوغانم بن العديم ﴾

الشيخ الصالح ، وكان من المجتهدين فى العبادة والرياضة ، من العاملين بعلمهم ، ولو قال قائل إنه لم يكن فى زمانه أعبد منه لكان صادقا ، فرضى الله تعالى عنه وأرضاه ، فانه من جماعة شيوخنا ، سمعنا عليه الحديث وانتفعنا برؤيته وكلامه ، قال : وفيها أيضاً فى الثانى عشر من ربيع الأول توفى صديقنا .

﴿ أبو القاسم عبد المجيد بن العجمى الحلبى ﴾

وهو وأهل بيته مقدموا السنة بحلب ، وكان رجلا ذا مروءة غزيرة ، وخلق حسن ، وحلم وافر ورياسة كثيرة ، يحب إطعام الطعام ، وأحب الناس إليه من أكل من طعامه ويقبل يده ، وكان يلقى أضيافه بوجه منبسط ، ولا يقعد عن إيصال راحة وقضاء حاجة ، فرحمه الله تعالى رحمة واسعة . قلت وهذا آخر ماوجد من الكامل فى التاريخ للحافظ عز الدين أبى الحسن على بن محمد بن الأثير رحمه الله تعالى .

﴿ أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الكريم ﴾

ابن أبى السعادات بن كريم الموصلى ، أحد الفقهاء الحنفيين ، شرح قطعة كبيرة من القدورى ، وكتب الانشاء لصاحبها بدر الدين لؤلؤ ، ثم استقال من ذلك ، وكان فاضلا شاعرا ، من شعره :

دعوه كما شاء الغرام يكون * فلست وإن خان العهود أخون
ولينوا له فى قولكم ما استطعتم * عسى قلبه القاسى على يلين
وبثوا صباباتى إليه وكرروا * حديثى عليه فالحديث شجون
بنفسى الألى بانوا عن العين حصة * وحبهم فى القلب ليس يبين
وسلوا على العشاق يوم تحملوا * سيوفا لها وطف الجفون جفون

﴿ المجد البهنسى ﴾

وزير الملك الأشرف ثم عزله وصادره ، ولما توفى دفن بتربته التى أنشأها بسفح قاسيون وجعل كتبه بها وقفا ، وأجرى عليها أوقافا جيدة دارة رحمه الله تعالى .

﴿ جمال الدولة ﴾

خليل بن زويزان رئيس قصر حجاج ، كان كيسا ذا مروءة ، له صدقات كثيرة ، وله زيارة فى مقابر الصوفية من ناحية القبلة ، ودفن بتربته عند مسجد قلوس رحمه الله تعالى .

﴿ الملك الأمجد ﴾

واقف المدرسة الأمجدية . وفيها كانت وفاة .

﴿ بهرامشاه بن فروخشاه بن شاهنشاه ﴾

ابن أيوب صاحب بعلبك ، لم يزل بها حتى قدم الأشرف موسى بن العادل إلى دمشق فملكها فى سنة ست وعشرين ، فانتزع من يده بعلبك فى سنة سبع وعشرين ، وأسكنه عنده بدمشق بدار أبيه ، فلما كان شهر شوال من هذه السنة عدا عليه مملوك من مماليكه تركى فقتله ليلا ، وكان قد اتهمه فى صاحبة له وحبسه ، فتغلب عليه فى بعض الليالى فقتله وقتل المملوك بعده ، ودفن الأمجد فى تربته التى إلى جانب تربة أبيه فى الشرق الشمالى رحمه الله تعالى ، وقد كان شاعرا فاضلا له ديوان شعر ، وقد أورد له ابن الساعى قطعة جيدة من شعره الرائق الفائق ، وترجمته فى طبقات الشافعية ، ولم يذكره أبو شامة فى الذيل ، وهذا عجيب منه ، ومما أورد له ابن الساعى فى شاب رآه يقطع قضبان بان فأنشأ على البديهة :

من لى بأهيف قال حين عتبته * فى قطع كل قضيب بان رائق
تحكى شمائله الرشاء إذا انثنى * ريان بين جداول وحدائق
سرقت غصون البان لين شمائلى * فقطعتها والقطع حد السارق

ومن شعره أيضا رحمه الله تعالى .

يؤرقنى حنين وادكار * وقد خلت المرابع والديار
تناءى الظاعنون ولى فؤاد * يسير مع الهوادج حيث ساروا
حنين مثلما شاء التنائى * وشوق كلما بعد المزار
وليل بعد بينهم طويل * فأين مضت ليالىّ القصار ؟
وقد حكم السهاد على جفونى * تساوى الليل عندى والنهار
سهادى بعد نأيهم كثير * ونومى بعد ما رحلوا غرار
فمن ذا يستعير لنا عيونا * تنام وهل ترى عينا تعار
فلا ليلى له صبح منير * ولا وجدى يقال له عثار
وكم من قائل والحى غاد * يحجب ظعنه النقع المثار

وقوفك فى الديار وأنت حى ▪ وقد رحل الخليط عليك عار

وله دو بيت :

كم يذهب هذا العمر فى الخسران ▪ ما أغفلنى فيه وما أنسانى

ضيعت زمانى كله فى لعب ▪ يا عمر هل بعدك عمر ثانى

وقد رآه بعضهم فى المنام فقال له : ما فعل الله تعالى بك ؟ فقال :

كنت من دينى على وجل ▪ زال عنى ذلك الوجل

أمنت نفسى بوائقها ▪ عشت لمامت لما رجل

رحمه الله وعفا عنه .

﴿ جلال الدين تكش ﴾

وقيل محمود بن علاء الدين خوارزم شاه محمد بن تكش الخوارزمى ، وهم من سلالة طاهر بن الحسين ، وتكش جدهم هوالذى أزال دولة السلجوقية . كانت التتار قهروا أباه حتى شردوه فى البلاد فمات فى بعض جزائر البحر ، ثم ساقوا وراء جلال الدين هذا حتى مزقوا عساكره شذر مذر وتفرقوا عنه أيدى سبا ، وانفرد هو وحده فلقيه فلاح من قرية بأرض ميا فارقين فأنكره لما عليه من الجواهر الذهب ، وعلى فرسه ، فقال له : من أنت ؟ فقال: أنا ملك الخوارزمية ـ وكانوا قد قتلوا للفلاح أخا ـ فأنزله وأظهر إكرامه ، فلما نام قتله بفأس كانت عنده ، وأخذ ما عليه ، فبلغ الخبر إلى شهاب الدين غازى ابن العادل صاحب ميافارقين فاستدعى بالفلاح فأخذ ما كان عليه من الجواهر ، وأخذ الفرس أيضاً ، وكان الأشرف يقول هو سد ما بيننا و بين التتار ، كما أن السد بيننا و بين يأجوج ومأجوج .

﴿ ثم دخلت سنة تسع وعشرين وستمائة ﴾

فيها عزل القاضيان بدمشق : شمس الخوى وشمس الدين بن سنى الدولة ، وولى قضاء القضاة عماد الدين ابن الحرستانى ، ثم عزل فى سنة إحدى وثلاثين وأعيد شمس الدين بن سنى الدولة كما سيأتى .وفيها سابع عشر شوالها عزل الخليفة المستنصر وزيره مؤيد الدين محمد بن محمد بن عبد الكريم القمى ، وقبض عليه وعلى أخيه حسن وابنه فخر الدين أحمد بن محمد القمى وأصحابهم وحبسوا ، واستوزر الخليفة مكانه أستاذ الدار شمس الدين أبا الأزهر ، أحمد بن محمد بن الناقد ، وخلع عليه خلعة سنية وفرح الناس بذلك . وفيه أقبلت طائفة من التتار فوصلوا إلى شهزور فندب الخليفة صاحب إربل مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين ، وأضاف إليه عساكر من عنده ، فساروا نحوهم فهربت منهم التتار وأقاموا فى مقابلتهم مدة شهور ، ثم تمرض مظفر الدين وعاد إلى بلده إربل ، وتراجعت التتار إلى بلادها .

ومن توفى فيها من الأعيان ﴿ الحافظ محمد بن عبد الغنى ﴾

ابن أبى بكر البغدادى ، أبو بكر بن نقطة الحافظ المحدث الفاضل ، صاحب الكتاب النافع المسمى بالتقييد فى تراجم رواة الكتب والمشاهير من المحدثين ، وكان أبوه فقيها فقيراً منقطعاً فى بعض مساجد بغداد ، يؤثر أصحابه بما يحصل له ، ونشأ ولده هذا معنى بعلم الحديث وسماعه والرحلة فيه إلى الآفاق شرقا وغربا ، حتى برز فيه على الأقران ، وفاق أهل ذلك الزمان ، ولد سنة تسع وسبعين وخمسمائة ، وتوفى يوم الجمعة الثانى والعشرين من صفر من هذه السنة ، رحمهم الله تعالى .

﴿ الجمال عبد الله بن الحافظ عبد الغنى المقدسى ﴾

كان فاضلا كريما حييا ، سمع الكثير ، ثم خالط الملوك وأبناء الدنيا ، فتغيرت أحواله ومات ببستان ابن شكر عند الصالح إسماعيل بن العادل ، وهو الذى كفنه ودفن بسفح قاسيون

﴿ أبو على الحسين بن أبى بكر المبارك ﴾

ابن أبى عبد الله محمد بن يحيى بن مسلم الزبيدى ثم البغدادى ، كان شيخا صالحا حنفياً فاضلا ذا فنون كثيرة ، ومن ذلك علم الفرائض والعروض ، وله فيه أرجوزة حسنة ، انتخب منها ابن الساعى من كل بحر بيتين ، وسرد ذلك فى تاريخه .

﴿ أبو الفتح مسعود بن إسماعيل ﴾

ابن على بن موسى السلماسى ، فقيه أديب شاعر ، له تصانيف ، وقد شرح المقامات والجمل فى النحو ، وله خطب وأشعار حسنة رحمه الله تعالى .

﴿ أبو بكر محمد بن عبد الوهاب ﴾

ابن عبد الله الأنصارى فخر الدين ابن الشيرجى الدمشقى ، أحد المعدلين بها ، ولد سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، وسمع الحديث وكان يلى ديوان الخاتون ست الشام بنت أيوب ، وفوضت إليه أمر أوقافها . قال السبط : وكان ثقة أمينا كيساً متواضعاً . قال وقد وزر ولده شرف الدين للناصر داود مدة يسيرة ، وكانت وفاة فخر الدين فى يوم عيد الاضحى ودفن بمقابر باب الصغير رحمه الله تعالى وعفا عنه .

﴿ حسام بن غزى ﴾

ابن يونس عماد الدين أبو المناقب المحلى المصرى ، ثم الدمشقى ، كان شيخا صالحا فاضلا فقيها شافعيا حسن المحاضرة وله أشعار حسنة . قال أبو شامة : وله فى معجم القوصى ترجمة حسنة ، وذكر أنه توفى عاشر ربيع الآخر ودفن بمقابر الصوفية . قال السبط : وكان مقيما بالمدرسة الأمينية ، وكان لا يأكل لأحد شيئا ولا للسلطان ، بل إذا حضر طعاماً كان معه فى كمه شىء يأكله ، وكان لا يزال معه ألف دينار على وسطه ، وحكى عنه قال : خلع علىّ الملك العادل ليلة طيلسانا فلما خرجت مشى بين يدى تعاط

يحسبنى القاضى ، فلما وصلت باب البريد عند دار سيف خلعت الطيلسان وجعلته فى كمى وتباطأت فى المشى ، فالتفت فلم يرو راءه أحـدا ، فقال لى : أين القاضى ؟ فأشرت إلى ناحية النورية وقلت ؛ ذهب إلى داره ، فلما أسرع إلى ناحية النورية هرولت إلى المدرسة الأمينية واسترحت منه . قال ابن الساعى كان مولده سنة ستين وخمسمائة ، وخلف أموالا كثيرة ورثها عصبته ، قال : وكانت له معرفة حسنة بالأخبار والتواريخ وأيام الناس ، مع دين وصلاح وورع ، وأورد له ابن الساعى قطعاً من شعره فمن ذلك قوله :

قيل لى من هويت قد عبث الشـ * ـعر فى خديه . قلت ما ذاك عاره
حمرة الخد أحرقت عنبر الخا * ل فمن ذاك الدخان عذاره

وله

شوقى إليكم دون أشواقكم * لـكن لا بد أن يشرح
لأننى عن قلبكم غائب * وأنتم فى القلب لن تبرحوا

﴿ أبو عبد الله محمد بن على ﴾

ابن محمد بن الجارود المارانى ، الفقيه الشافعى ، أحد الفضلاء ، ولى القضاء باربل وكان ظريفا خليعا ، وكان من محاسن الأيام ، وله أشعار رائقة ومعان فائقة منها قوله :

مشيب أتى وشباب رحل * أحل العناية حيث حل
وذنبك جم ، ألا فارجعى * وعودى فقد حان وقت الأجل
ودينى الاآه ولا تقصرى * ولا يخد عنك طول الأمل

﴿ أبو الثناء محمود بن رالى ﴾

ابن عـلى بن يحيى الطائى الرقى نزيل إربل ، وولى النظر بها للملك مظفر الدين ، وكان شيخا أديباً فاضلا ، ومن شعره قوله ؛

وأهيف ما الخطىّ إلا قوامه * وما الغصن إلا ما يثنيه لينه
وما الدعص إلا ما تحمل خصره * وما النبل الا ما تريش جفونه
وما الخمر إلا ما يروق ثغره * وما السحر إلا ما تكن عيونه
وما الحسن إلا كله فمن الذى * إذا ما رآه لا يزيد جنونه

﴿ ابن معطى النحوى يحيى ﴾

ترجمه أبو شامة فى السنة الماضـية ، وهو أضبط لأنه شـهد جنازته بمصر ، وأما ابن الساعى فانه ذكره فى هـذه السنة ، وقال إنه كان حظياً عند الكامل محمـد صاحب مصر ، وإنه كان قـد نظم أرجوزة فى القراءات السبع ، ونظم ألفاظ الجمهرة ، وكان قد عزم على نظم صحاح الجوهرى .

﴿ ثم دخلت سنة ثلاثين وستمائة ﴾

فيها باشر خطابة بغداد ونقابة العباسيين العدل مجد الدين أبو القاسم هبة الله بن المنصورى، وخلع عليه خلعة سنية، وكان فاضلا قد صحب الفقراء والصوفية وتزهد برهة من الزمان، فلما دعى إلى هذا الأمر أجاب سريعاً وأقبلت عليه الدنيا بزهرتها، وخدمه الغلمان الأتراك، ولبس لباس المترفين وقد عاتبه بعض تلامـذته بقصيدة طويلة، وعنفه على ما صار إليه، وسردها ابن الساعى بطولها فى تاريخه. وفيها سار القاضى محى الدين يوسف بن الشيخ جمال الدين أبى الفرج فى الرسلية من الخليفة إلى الكامل صاحب مصر، ومعه كتاب هائل فيه تقليده الملك، وفيه أوامر كثيرة مليحة من إنشاء الوزير نصر الدين أحمد بن الناقد، سرده ابن السـاعى أيضا بكماله. وقد كان الكامل مخيما بظاهر آمد من أعمال الجزيرة، قد افتتحها بعد حصار طويل وهو مسرور بما نال من ملكها. وفيها فتحت دار الضيافة ببغداد للحجيج حين قدموا من حجهم، وأجريت عليهم النفقات والكساوى والصلات وفيها سارت العساكر المستنصرية صحبة الأمير سيف الدين أبى الفضائل إقبال الخاص المستنصرى إلى مدينة إربل وأعمالها، وذلك لمرض مالكها مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين، وأنه ليس له من بعده من يملك البلاد، فحين وصلها الجيش منعه أهل البلد فحاصروه حتى افتتحوه عنوة فى السابع عشر من شوال فى هذه السنة، وجاءت البشائر بذلك فضربت الطبول ببغداد بسبب ذلك، وفرح أهلها، وكتب التقليد عليها لاقبال المذكور، فرتب فيها المناصب وسار فيها سيرة جيدة، وامتدح الشعراء هذا الفتح من حيث هو، وكذلك مدحوا فاتحها إقبال، ومن أحسن ما قال بعضهم فى ذلك

يا يوم سابع عشر شوال الذى * رزق السعادة أولا وأخيرا
هنيت فيه بفتح إربل مثلما * هنيت فيه وقد جلست وزيرا

يعنى أن الوزير نصير الدين بن العلقمى، قد كان وزر فى مثل هذا اليوم من العام الماضى، وفى مستهل رمضان من هذه السنة شرع فى عمارة دار الحديث الأشرفية بدمشق، وكانت قبل ذلك دارا للأمير قايماز وبها حمام فهدمت وبنيت عوضها. وقد ذكر السبط فى هذه السنة أن فى ليلة النصف من شعبان فتحت دار الحـديث الأشرفية المجاورة لقلعـة دمشق، وأملى بها الشيخ تقى الدين بن الصلاح الحديث، ووقف عليها الأشرف الأوقاف، وجعل بها نعل النبى ﷺ. قال وسمع الأشرف صحيح البخارى فى هذه السنة على الزبيدى، قلت: وكذا سمعوا عليه بالدار وبالصالحية. قال: وفيها فتح الكامل آمد وحصن كيفا ووجد عند صاحبها خمسمائة حرة للفراش فعذبه الأشرف عذابا أليما. وفيها قصد صاحب ماردين وجيش بلاد الروم الجزيرة فقتلوا وسبوا وفعلوا مالم يفعله التتار بالمسلمين.

وممن توفى فيها من الأعيان فى هذه السنة من المشاهير.

﴿ أبو القاسم على بن الشيخ أبى الفرج بن الجوزى ﴾

كان شيخا لطيفا ظريفا ، سمع الكثير وعمل صناعة الوعظ مدة ، ثم ترك ذلك ، وكان يحفظ شيئا كثيرا من الأخبار والنوادر والأشعار ، ولد سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ، وكانت وفاته فى هذه السنة وله تسع وسبعون سنة . وقد ذكر السبط وفاة .

﴿ الوزير صفى الدين بن شكر ﴾

فى هذه السنة ، وأثنى عليه وعلى محبته للعلم وأهله ، وأن له مصنفا سماه البصائر ، وأنه تغضب عليه العادل ثم ترضاه الكامل وأعاده إلى وزارته وحرمته ، ودفن بمدرسته المشهورة بمصر ، وذكر أن أصله من قرية يقال لها دميرة بمصر .

﴿ الملك ناصر الدين محمود ﴾

ابن عز الدين مسعود بن نور الدين أرسلان شاه بن قطب الدين مودود بن عماد الدين بن زنكى بن آقسنقر صاحب الموصل ، كان مولده فى سنة ثلاث عشرة وستمائة ، وقد أقامه بدر الدين لؤلؤ صورة حتى تمكن أمره وقويت شوكته ، ثم حجر عليه فكان لا يصل إلى أحد من الجوارى ولا شئ من السرارى ، حتى لا يعقب ، وضيق عليه فى الطعام والشراب ، فلما توفى جده لأمه مظفر الدين كوكبرى صاحب إربل منعه حينئذ من الطعام والشراب ثلاث عشرة يوما حتى مات كمدا وجوعا وعطشاً رحمه الله ، وكان من أحسن الناس صورة ، وهو آخر ملوك الموصل من بيت الأتابكى .

﴿ القاضى شرف الدين إسماعيل بن إبراهيم ﴾

أحد مشايخ الحنفية ، وله مصنفات فى الفرائض وغيرها ، وهو ابن خالة القاضى شمس الدين ابن الشيرازى الشافعى ، وكلاهما كان ينوب عن ابن الزكى وابن الحرستانى ، وكان يدرس بالطرخانية . وفيها سكنه ، فلما أرسل إليه المعظم أن يفتى بإباحة نبيذ التمر وماء الرمان امتنع من ذلك وقال أنا على مذهب محمد بن الحسن فى ذلك ، والرواية عن أبى حنيفة شاذة ، ولا يصح حديث ابن مسعود فى ذلك ، ولا الأثر عن عمر أيضا . فغضب عليه المعظم وعزله عن التدريس وولاه لتلميذه الزين ابن العتال ، وأقام الشيخ بمنزله حتى مات .

قال أبو شامة : ومات فى هذه السنة جماعة من السلاطين منهم المغيث بن المغيث بن العادل ، والعزيز عثمان بن العادل ، ومظفر الدين صاحب إربل . قلت أما صاحب إربل فهو ،

﴿ الملك المظفر أبو سعيد كوكبرى ﴾

ابن زين الدين على بن تبكتكين أحد الاجواد والسادات الكبراء والملوك الامجاد ، له آثار حسنة وقد عمر الجامع المظفرى بسفح قاسيون ، وكان قدهم بسياقة الماء إليه من ماء بذيرة فمنعه المعظم من ذلك ، واعتل بأنه قد يمر على مقابر المسلمين بالسفوح ، وكان يعمل المولد الشريف فى ربيع الأول

ويحتفل به احتفالا هائلا ، وكان مع ذلك شهما شجاعا فاتكا بطلا عاقلا عالما عادلا رحمه الله وأكرم مثواه . وقد صنف الشيخ أبو الخطاب ابن دحية له مجلدا فى المولد النبوى سماه التنوير فى مولد البشير النذير ، فأجازه على ذلك بألف دينار ، وقد طالت مدته فى الملك فى زمان الدولة الصلاحية ، وقد كان محاصر عكا و إلى هذه السنة محمود السيرة والسريرة ، قال السبط : حكى بعض من حضر سماط المظفر فى بعض الموالد كان يمد فى ذلك السماط خمسة آلاف رأس مشوى ، وعشرة آلاف دجاجة ، ومائة ألف زبدية ، وثلاثين ألف صحن حلوى ، قال : وكان يحضر عنده فى المولد أعيان العلماء والصوفية فيخلع عليهم ويطلق لهم ويعمل للصوفية سماعا من الظهر إلى الفجر ، ويرقص بنفسه معهم ، وكانت له دار ضيافة للوافدين من أى جهة على أى صفة ، وكانت صدقاته فى جميع القرب والطاعات على الحرمين وغيرهما ، ويتفك من الفرنج فى كل سنة خلقا من الأسارى ، حتى قيل إن جملة من استفكه من أيديهم ستون ألف أسير ، قالت زوجته ربيعة خاتون بنت أيوب - وكان قد زوجه إياها أخوها صلاح الدين ، لما كان معه على عكا - قالت : كان قميصه لا يساوى خمسة دراهم فعاتبته بذلك فقال : لبسى ثوبا بخمسة وأتصدق بالباقى خير من أن ألبس ثوبا مثمنا وأدع الفقير المسكين ، وكان يصرف على المولد فى كل سنة ثلاثمائة ألف دينار ، وعلى دار الضيافة فى كل سنة مائة ألف دينار . وعلى الحرمين والمياه بدرب الحجاز ثلاثين ألف دينار سوى صدقات السر ، رحمه الله تعالى، وكانت وفاته بقلعة إربل ، وأوصى أن يحمل إلى مكة فلم يتفق فدفن بمشهد على .

﴿ والملك العزيز بن عثمان بن العادل ﴾

وهو شقيق المعظم ، كان صاحب بانياس وتملك الحصون التى هنالك ، وهو الذى بنى المعظمية ، وكان عاقلا قليل الكلام مطيعاً لأخيه المعظم ، ودفن عنده . وكانت وفاته يوم الاثنين عاشر رمضان ببستانه الناعمة من لهيا رحمه الله وعفا عنه .

﴿ أبو المحاسن محمد بن نصر الدين بن نصر ﴾

ابن الحسين بن على بن محمد بن غالب الأنصارى ، المعروف بابن عنين الشاعر. قال ابن الساعى أصله من الكوفة وولد بدمشق ونشأ بها ، وسافر عنها سنين ، فجاب الأقطار والبلاد شرقا وغربا ودخل الجزيرة و بلاد الروم والعراق وخراسان وما وراء النهر والهند واليمن والحجاز و بغداد ، ومدح أكثر أهل هذه البلاد ، وحصل أموالا جزيلة ، وكان ظريفا شاعرا مطيقا مشهورا ، حسن الاخلاق جميل المعاشرة ، وقد رجع إلى بلده دمشق فكان بها حتى مات هذه السنة فى قول ابن الساعى ، وأما السبط وغيره فأرخوا وفاته فى سنة ثلاث وثلاثين ، وقد قيل إنه مات فى سنة إحدى وثلاثين والله أعلم . والمشهور أن أصله من حوران مدينة زرع ، وكانت إقامته بدمشق فى الجزيرة قبلى الجامع ،

وكان هجاء له قدرة على ذلك . وصنف كتابا سماه مقراض الأعراض ، مشتمل على نحو من خمسمائة بيت ، قل من سلم من الدماشقة من شره . ولا الملك صلاح الدين ولا أخوه العادل ، وقد كان يُزَنّ بترك الصلاة المكتوبة فالله أعلم . وقد نفاه الملك الناصر صلاح الدين إلى الهند فامتدح ملوكها وحصل أموالا جزيلة ، وصار إلى اليمن فيقال إنه وزر لبعض ملوكها ، ثم عاد فى أيام العادل إلى دمشق ولما ملك المعظم استوزره فأساء السيرة واستقال هو من تلقاء نفسه فعزله ، وكان قد كتب إلى الدماشقة من بلاد الهند :

فعلام أبعدتم أخا ثقة . لم يقترف ذنبا ولا سرقا
انفوا المؤذن من بلادكم . إن كان ينفى كل من صدقا

ومما هجا به الملك الناصر صلاح الدين رحمه الله تعالى :

سلطاننا أعرج وكاتبه . ذو عمش ووزيره أحدب
والدولعى الخطيب معتكف . وهو على قشر بيضة يثب
ولابن باقا وعظ يغش به النـ . ـاس وعبد اللطيف محتسب
وصاحب الامر خلقه شرس . وعارض الجيش داؤه عجب

وقال فى السلطان الملك العادل سيف الدين رحمه الله تعالى وعفا عنه .

إن سلطاننا الذى نرتجيه . واسع المال ضيق الانفاق
هو سيف كما يقال ولكن . قاطع للرسوم والأرزاق

وقد حضر مرة مجلس الفخر الرازى بخراسان وهو على المنبر يعظ الناس ، فجاءت حمامة خلفها جارح فألقت نفسها على الفخر الرازى كالمستجيرة به ، فأنشأ ابن عنين يقول :

جاءت سليمان الزمان حمامة * والموت يلمع من جناحى خاطف
قرم لواه الجوع حتى ظله . بازائه بقلب واجف
من أعلم الورقاء أن محلكم * حرم وأنك ملجأ للخائف

﴿ الشيخ شهاب الدين السهروردى ﴾

صاحب عوارف المعارف، عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد بن حمويه ، واسمه عبد الله البكرى البغدادى . شهاب الدين أبو حفص السهروردى ، شيخ الصوفية ببغداد . كان من كبار الصالحين وسادات المسلمين . وتردد فى الرسلية بين الخلفاء والملوك مرارا . وحصلت له أموال جزيلة ففرقها بين الفقراء والمحتاجين . وقد حج مرة وفى صحبته خلق من الفقراء لا يعلمهم إلا الله عز وجل ، وكانت فيه مروءة وإغاثة للملهوفين . وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، وكان يعظ الناس

وعليه ثياب البذلة ، قال مرة فى ميعاده هذا البيت وكرره :

ما فى الصحاب أخو وجد تطارحه ■ إلا محب له فى الركب محبوب

فقام شاب وكان فى المجلس فأنشده :

كأنما يوسف فى كل راحلة ■ وفى كل بيت منه يعقوب

فصاح الشيخ ونزل عن المنبر وقصد الشاب ليعتذر إليه فلم يجده ووجد مكانه حفرة فيها دم كثير من كثرة ما كان يفحص برجليه عند إنشاد الشيخ البيت . وذكر له ابن خلكان أشياء كثيرة من أناشيده وأثنى عليه خيرا ، وأنه توفى فى هذه السنة وله ثلاث وتسعون سنة رحمه الله تعالى .

﴿ ابن الأثير مصنف أسد الغابة والكامل ﴾

هو الامام العلامة عز الدين أبو الحسن على بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى الجزرى الموصلى المعروف بابن الأثير مصنف كتاب أسد الغابة فى أسماء الصحابة ، وكتاب الكامل فى التاريخ وهو من أحسنها حوادث ، ابتدأه من المبتدأ إلى سنة ثمان وعشرين وستمائة ، وقد كان يتردد إلى بغداد خصيصاً عند ملوك الموصل ، ووزر لبعضهم كما تقدم بيانه ، وأقام بها فى آخر عمره موقرا معظما إلى أن توفى بها فى شعبان فى هذه السنة ، عن خمس وسبعين سنة رحمه الله . وأما أخوه أبو السعادات المبارك فهو مصنف كتاب جامع الأصول وغيره ، وأخوهما الوزير ضياء الدين أبو الفتح نصر الله كان وزيراً للملك الأفضل على بن الناصر فاتح بيت المقدس ، صاحب دمشق كما تقدم ، وجزيرة ابن عمر ، قيل إنها منسوبة إلى رجل يقال له عبد العزيز بن عمر ، من أهل برقعيد ، وقيل بل هى منسوبة إلى ابنى عمر ، وهما أوس وكامل ابنا عمر بن أوس .

﴿ ابن المستوفى الأربلى ﴾

مبارك بن أحمد بن مبارك ابن موهوب بن غنيمة بن غالب العلامة شرف الدين أبو البركات اللخمى الأربلى ، كان إماما فى علوم كثيرة كالحديث وأسماء الرجال والأدب والحساب ، وله مصنفات كثيرة وفضائل غزيرة ، وقد بسط ترجمته القاضى شمس الدين بن خلكان فى الوفيات ، فأجاد وأفاد رحمهم الله .

﴿ ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين وستمائة ﴾

فيها كمل بناء المدرسة المستنصرية ببغداد ولم يُبن مدرسة قبلها مثلها ، ووقفت على المذاهب الأربعة من كل طائفة اثنان وستون فقيها ، وأربعة معيدين ، ومدرس لكل مذهب ، وشيخ حديث وقارئان وعشرة مستمعين ، وشيخ طب ، وعشرة من المسلمين يشتغلون بعلم الطب ، ومكتب للأيتام وقدر للجميع من الخبز واللحم والحلوى والنفقة ما فيه كفاية وافرة لكل واحد . ولما كان يوم الخميس خامس رجب حضرت الدروس بها وحضر الخليفة المستنصر بالله بنفسه الكريمة وأهل دولته من

الأمراء والوزراء والقضاة والفقهاء والصوفية والشعراء ، ولم يتخلف أحد من هؤلاء ، وعمل سماط عظيم بها أكل منه الحاضرون ، وحمل منه إلى سائر دروب بغداد من بيوتات الخواص والعوام ، وخلع على جميع المدرسين بها والحاضرين فيها ، وعلى جميع الدولة والفقهاء والمعيدين ، وكان يوماً مشهودا ، وأنشدت الشعراء الخليفة المدائح الرائقة والقصائد الفائقة ، وقد ذكر ذلك ابن الساعى فى تاريخه مطولا مبسوطا شافيا كافياً ، وقدر لتدريس الشافعية بها الامام محى الدين أبو عبد الله بن فضلان ، وللحنفية الامام العلامة رشيد الدين أبو حفص عمر بن محمد الفرغانى ، وللحنابلة الامام العالم محى الدين يوسف بن الشيخ أبى الفرج ابن الجوزى ، ودرس عنه يومئذ ابنه عبد الرحمن نيابة لغيبته فى بعض الرسالات إلى الملوك ، ودرس للمالكية يومئذ الشيخ الصالح العالم أبو الحسن المغربى المالكى نيابة أيضاً ، حتى يعين شيخ غيره ، ووقفت خزائن كتب لم يسمع بمثلها فى كثرتها وحسن نسخها وجودة الكتب الموقوفة بها . وكان المتولى لعمارة هذه المدرسة مؤيد الدين أبو طالب محمد بن العلقمى الذى وزر بعد ذلك ، وقد كان إذ ذاك أستاذ دار الخلافة ، وخلع عليه يومئذ وعلى الوزير نصير الدين . ثم عزل مدرس الشافعية فى رابع عشر ذى القعدة بقاضى القضاة أبى المعالى عبد الرحمن بن مقبل ، مضافاً إلى ما بيده من القضاء ، وذلك بعد وفاة محيي الدين بن فضلان ، وقد ولى القضاء مدة ودرس بالنظامية وغيرها ، ثم عزل ثم رضى عنه ثم درس آخر وقت بالمستنصرية كما ذكرنا ، فلما توفى وليها بعده ابن مقبل رحمهم الله تعالى .

وفيها عمر الأشرف مسجد جراح ظاهر باب الصغير . وفيها قدم رسول الأنبرور ملك الفرنج إلى الأشرف ومعه هدايا منها دب أبيض شعره مثل شعر الأسد ، وذكروا أنه ينزل إلى البحر فيخرج السمك فيأكله . وفيها طاووس أبيض أيضاً . وفيها كملت عمارة القيسارية التى هى قبل النحاسين ، وحول إليها سوق الصاغة وشغر سوق اللؤلؤ الذى كان فيه الصاغة العتيقة عند الحدادين . وفيها جددت الدكاكين التى بالزيادة . قلت وقد جددت شرقى هذه الصاغة الجديدة قيساريتان فى زماننا ، وسكنها الصياغ وتجار الذهب ، وهما حسنتان وجميعهما وقف الجامع المعمور .

وممن توفى فى هذه السنة من الأعيان .

﴿ أبو الحسن على بن أبى على ﴾

ابن محمد بن سالم الثعلبى ، الشيخ سيف الدين الآمدى ، ثم الحموى ثم الدمشقى ، صاحب المصنفات فى الأصلين وغير ذلك ، من ذلك أبكار الأفكار فى الكلام ، ودقائق الحقائق فى الحكمة ، وأحكام الأحكام فى أصول الفقه ، وكان حنبلى المذهب فصار شافعيا أصوليا منطقيا جدليا خلافيا ، وكان حسن الأخلاق سليم الصدر كثير البكاء رقيق القلب ، وقد تكلموا فيه بأشياء الله أعلم

بصحتها ، والذى يغلب على الظن أنه ليس لغالبها صحة ، وقد كانت ملوك بنى أيوب كالمعظم والكامل يكرمونه وإن كانوا لا يحبونه كثيرا ، وقد فوض إليه المعظم تدريس العزيزية ، فلما ولى الأشرف دمشق عزله عنها ونادى بالمدارس أن لا يشتغل أحد بغير التفسير والحديث والفقه ، ومن اشتغل بعلوم الأوائل نفيته ، فأقام الشيخ سيف الدين بمنزله إلى أن توفى بدمشق فى هذه السنة فى صفر ، ودفن بتربته بسفح قاسيون . وذكر القاضى ابن خلكان أنه اشتغل ببغداد على أبى الفتح نصر بن فتيان بن المنى الحنبلى ، ثم انتقل إلى مذهب الشافعى فأخذ عن ابن فضلان وغيره ، وحفظ طريقة الخلاف للشريف وزوائد طريقة أسعد الميهنى ، ثم انتقل إلى الشام واشتغل بعلوم المعقول ، ثم إلى الديار المصرية فأعاد بمدرسة الشافعية بالقرافة الصغرى ، وتصدر بالجامع الظافرى ، واشتهر فضله وانتشرت فضائله ، فحسده أقوام فسعوا فيه وكتبوا خطوطهم باتهامه بمذهب الأوائل والتعطيل والانحلال ، فطلبوا من بعضهم أن يوافقهم فكتب :

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه ■ فالقوم أعداء له وخصوم

فانتقل سيف الدين إلى حماه ثم تحول إلى دمشق فدرس بالعزيزية ، ثم عزل عنها ولزم بيته إلى أن مات فى هذه السنة ، وله ثمانون عاماً رحمه الله تعالى وعفا عنه .

﴿ واقف الركنية الأمير الكبير ركن الدين منكورس الفلكى ﴾

غلام فلك الدين أخى الملك العادل ، لأنه وقف الفلكية كما تقدم ، وكان هذا الرجل من خيار الأمراء ، ينزل فى كل ليلة وقت السحر إلى الجامع وحده بطوافه ويواظب على حضور الصلوات فيه مع الجماعة ، وكان قليل الكلام كثير الصدقات ، وقد بنى المدرسة الركنية بسفح قاسيون ، ووقف عليها أوقافا كثيرة وعمل عندها تربة ، وحين توفى بقرية حدود حمل إليها رحمه الله تعالى .

﴿ الشيخ الامام العالم رضى الدين ﴾

أبو سليمان بن المظفر بن غنائم الجيلى الشافعى ، أحد فقهاء بغداد والمفتيين بها والمشغلين للطلبة مدة طويلة ، له كتاب فى المذهب نحو من خمسة عشر مجلدا ، يحكى فيه الوجوه الغريبة والاقوال المستغرب به وكان لطيفا ظريفا ، توفى رحمه الله يوم الأربعاء ثالث ربيع الأول من هذه السنة ببغداد .

﴿ الشيخ طى المصرى ﴾

أقام مدة بالشام فى زاوية له بدمشق ، وكان لطيفا كيسا زاهداً ، يتردد إليه الأكابر ودفن بزاويته المذكورة رحمه الله تعالى .

﴿ الشيخ عبد الله الأرمنى ﴾

أحد العباد الزهاد الذين جابوا البلاد وسكنوا البرارى والجبال والوهاد ، واجتمعوا بالأقطاب

والأبدال والأوتاد ، وممن كانت له الأحوال والمكاشفات والمجاهدات والسياحات فى سائر النواحى والجهات ، وقد قرأ القرآن فى بدايته وحفظ كتاب القدورى على مذهب أبى حنيفة ، ثم اشتغل بالمعاملات والرياضات ، ثم أقام آخر عمره بدمشق حتى مات بها ودفن بسفح قاسيون ، وقد حكى عنه أشياء حسنة منها أنه قال اجتزت مرة فى السياحة ببلدة فطالبتنى نفسى بدخولها فآليت أن لا أستطعم منها بطعام ، ودخلتها فمررت برجل غسال فنظر إلى شزرا فخفت منه وخرجت من البلد هاربا ، فلحقنى ومعه طعام فقال : كل فقد خرجت من البلد ، فقلت له وأنت فى هذا المقام وتغسل الثياب فى الأسواق ؟ فقال : لا ترفع رأسك ولا تنظر إلى شىء من عملك ، وكن عبداً لله فان استعملك فى الحش فارض به ، ثم قال رحمه الله .

ولو قيل لى مت قلت سمعا وطاعة ■ وقلت لداعى الموت أهلا ومرحبا

وقال اجتزت مرة فى سياحتى براهب فى صومعة فقال لى : يا مسلم ما أقرب الطرق عندكم إلى الله عز وجل ؟ قلت : مخالفة النفس ، قال فرد رأسه إلى صومعته ، فلما كنت بمكة زمن الحج إذا رجل يسلم على عند الكعبة فقلت من أنت ؟ فقال أنا الراهب ، قلت : بم وصلت إلى هاهنا ؟ قال بالذى قلت . وفى رواية عرضت الاسلام على نفسى فأبت ، فعلمت أنه حق فأسلمت وخالفتها ، فأفلح وأنجح . وقال بينا أنا ذات يوم بجبل لبنان إذا حرامية الفرنج فأخذونى فقيدونى وشدوا وثاقى فكنت عندهم فى أضيق حال ، فلما كان النهار شربوا وناموا ، فبينا أنا موثوق إذا حرامية المسلمين قد أقبلوا نحوهم فأنبهتهم فلجأوا إلى مغارة هنالك فسلموا من أولئك المسلمين ، فقالوا : كيف فعلت هذا وقد كان خلاصك على أيديهم ؟ فقلت إنكم أطعمتمونى فكان من حق الصحبة أن لا أغشكم ، فعرضوا على شيئا من متاع الدنيا فأبيت وأطلقونى . وحكى السبط قال : زرته مرة ببيت المقدس وكنت قد أكلت سمكا مالحاً ، فلما جلست عنده أخذنى عطش جدا وإلى جانبه إبريق فيه ماء بارد فجعلت أستحيى منه ، فمد يده إلى الابريق وقد احمر وجهه وناولنى وقال خذ ، كم تتكاسر ، فشربت . وذكر أنه لما ارتحل من بيت المقدس كان سورها بعد قائما جديدا على عمارة الملك صلاح الدين قبل أن يخربه المعظم ، فوقف لأصحابه يودعهم ونظر إلى السور ، وقال : كأنى بالمعاول وهى تعمل فى هذا السور عما قريب ، فقيل له معاول المسلمين أو الفرنج ؟ فقال بل معاول المسلمين ، فكان كما قال . وقد ذكرت له أحوال كثيرة حسنة ، ويقال إن أصله أرمنى وإنه أسلم على يدى الشيخ عبد الله اليونينى ، وقيل بل أصله رومى من قونية ، وأنه قدم على الشيخ عبد الله اليونينى وعليه برنس كبرانس الرهبان ، فقال له أسلم فقال أسلمت لرب العالمين . وقد كانت أمه داية امرأة الخليفة ، وقد جرت له كائنة غريبة فسلمه الله بسبب ذلك ، وعرفه الخليفة فأطلقه .

﴿ ثم دخلت سنة اثنتين وثلاثين وستمائة ﴾

فيها خرب الملك الأشرف بن العادل خان الزنجارى الذى كان بالعقيبة فيه خواطئ وخمور ومنكرات متعددة ، فهدمه وأمر بعمارة جامع مكانه سمى جامع التوبة ، تقبل الله تعالى منه .

وفيها توفى القاضى بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم بن شداد الحلبى ، أحد رؤسائها من بيت العلم والسيادة ، له علم بالتواريخ وأيام الناس وغير ذلك ، وقد سمع الكثير وحدث ، والشيخ شهاب الدين عبد السلام بن المطهر بن عبد الله بن محمد بن عصرون الحلبى أيضاً ، كان فقيها زاهدا عابداً كانت له نحو من عشرين سرية ، وكان شيخا يكثر من الجماع ، فاعترته أمراض مختلفة فأتلفته ومات بدمشق ودفن بقاسيون ، وهو والد قطب الدين وتاج الدين ، والشيخ الامام العالم صائن الدين أبو محمد عبد العزيز الجبلى الشافعى أحد الفقهاء المفتيين المشتغلين بالمدرسة النظامية ببغداد ، وله شرح على التنبيه للشيخ أبى إسحاق ، توفى فى ربيع الأول رحمه الله تعالى . والشيخ الامام العالم الخطيب الأديب أبو محمد حمد بن حميد بن محمود بن حميد بن أبى الحسن بن أبى الفرج بن مفتاح التميمى الدينورى ، الخطيب بها والمفتى لأهلها ، الفقيه الشافعى ، تفقه ببغداد بالنظامية ، ثم عاد إلى بلده المشار إليها ، وقد صنف كتبا . وأنشد عنه ابن الساعى سماعا منه :

روت لى أحاديث الغرام صبابتى ❊ باسنادها عن بانة العلم الفرد
وحدثنى مر النسيم عن الحمى ❊ عن الدوح عن وادى الغضا عن ربا نجد
بان غرامى والأسى قد تلازما ❊ فلن يبرحا حتى أوسد فى لحدى

وقد أرخ أبو شامة فى الذيل وفاة الشهاب السهروردى صاحب عوارف المعارف فى هذه السنة ، وذكر أن مولده فى سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، وأنه جاوز التسعين . وأما السبط فانما أرخ وفاته فى سنة ثلاثين كما تقدم .

﴿ قاضى القضاة بحلب ﴾

أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة بن محمد الأسدى الموصلى الشافعى ، كان رجلا فاضلا أديباً مقرئا ذا وجاهة عند الملوك ، أقام بحلب وولى القضاء بها ، وله تصانيف وشعر ، توفى فى هذه السنة رحمه الله تعالى .

﴿ ابن الفارض ﴾

ناظم التائية فى السلوك على طريقة المتصوفة المنسوبين إلى الاتحاد ، هو أبو حفص عمر بن أبى الحسن على بن المرشد بن على ، الحموى الأصل ، المصرى المولد والدار والوفاة ، وكان أبوه يكتب فروض النساء والرجال ، وقد تكلم فيه غير واحد من مشايخنا بسبب قصيدته المشار إليها ، وقد ذكره شيخنا أبو عبد الله الذهبى فى ميزانه وحط عليه . مات فى هذه السنة وقد قارب السبعين .

﴿ ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ﴾

فيها قطع الكامل وأخوه الأشرف الفرات وأصلحا ما كان أفسده جيش الروم من بلادهما ، وخرب الكامل قلعة الرها وأحل بدنيسر بأساً شديدا ، وجاء كتاب بدر الدين صاحب الموصل بأن الروم أقبلوا بمائة طلب كل طلب بخمسمائة فارس، فرجع الملكان إلى دمشق سريعاً وعاد جيش الروم إلى بلادهما بالجزيرة وأعادوا الحصار كما كان ، ورجعت التتارعامهم ذلك إلى بلادهم والله تعالى أعلم .

وممن توفى فيها من الأعيان والمشاهير ابن عنين الشاعر وقد تقدمت ترجمته فى سنة ثلاثين .

﴿ الحاجرى الشاعر ﴾

صاحب الديوان المشهور ، وهو عيسى بن سنجر بن بهرام بن جبريل بن خمارتكين بن طاشتكين الأربلى شاعر مطبق ، ترجمه ابن خلكان وذكر أشياء من شعره كثيرة ، وذكر أنه كان صاحبهم وأنه كتب إلى أخيه ضياء الدين عيسى يستوحش منه :

الله يعلم ما أبقى سوى رمق ■ منى فراقك يا من قربه الأمل
فابعث كتابك واستودعه تعزية * فربما مت شوقا قبل ما يصل

وذكر له فى الخال رحمه الله تعالى .

ومهفهف من شعره وجبينه ■ أمسى الورى فى ظلمة وضياء
لا تنكروا الخال الذى فى خده ■ كل الشقيق بنقطة سوداء

﴿ ابن دحية ﴾

أبو الخطاب عمر بن الحسن بن على بن محمد بن فرج بن خلف بن قومس بن مزلال بن بلال بن بدر بن أحمد بن دحية بن خليفة الكلبى الحافظ ، شيخ الديار المصرية فى الحديث ، وهو أول من باشر مشيخة دار الحديث الكاملية بها ، قال السبط : وقد كان كابن عنين فى ثلب المسلمين والوقيعة فيهم ، ويتزيد فى كلامه فترك الناس الرواية عنه وكذبوه ، وقد كان الكامل مقبلا عليه ، فلما انكشف له حاله أخذ منه دار الحديث وأهانه ، توفى فى ربيع الأول بالقاهرة ودفن بقرافة مصر ، وقد قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة : وللشيخ السخاوى فيه أبيات حسنة . وقال القاضى ابن خلكان بعد سياق نسبه كما تقدم ، وذكر أنه كتبه من خطه ، قال وذكر أن أمه أمة الرحمن بنت أبى عبد الله بن البسام موسى بن عبد الله بن الحسين بن جعفر بن على بن محمد بن على بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، فلهذا كان يكتب بخطه ذو النسبين ابن دحية ابن الحسن والحسين قال ابن خلكان : وكان من أعيان العلماء ومشاهير الفضلاء متقنا لعلم الحديث وما يتعلق به ، عارفا بالنحو واللغة وأيام العرب وأشعارها ، اشتغل ببلاد المغرب ثم رحل إلى الشام ثم

إلى العراق واجتاز باربل سنة أربع وستمائة ، فوجد ملـكها المعظم مظفر الدين بن زين الدين يعتنى بالمولد النبوى ، فعمل له كتاب التنوير فى مولد السراج المنير وقرأه عليـه بنفسه ، فأجازه بألف دينار ، قال وقـد سمعناه على الملك المعظم فى ستة مجالس فى سنة ست وعشرين وستمائة . قلت وقد وقفت على هذا الكتاب وكتبت منـه أشياء حسنة مفيدة . قال ابن خلكان : وكان مولده فى سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، وقيل ست أو تسع وأربعين وخمسمائة ، وتوفى فى هذه السنة ، وكان أخوه أبو عمرو عثمان قد باشر بعـده دار الحديث الـكاملية بمصر ، وتوفى بعده بسنة . قلت : وقد تـكلم الناس فيه بأنواع من الكلام ، ونسبه بعضهم إلى وضع حديث فى قصر صلاة المغرب ، وكنت أود أن أقف على إسناده لنعلم كيف رجاله ، وقد أجمع العلماء كما ذكره ابن المنذر وغيره على أن المغرب لا يقصر ، والله سبحانه وتعالى يتجاوز عنا وعنه بمنه وكرمه .

﴿ ثم دخلت سنة أربع وثلاثين وستمائة ﴾

فيها حاصرت التتـار إربل بالمجانيق ونقبوا الأسـوار حتى فتحوها عنوة فقتلوا أهلها وسـبوا ذراريهم ، وامتنعت عليهم القلعة مدة ، وفيها النائب من جهة الخليفة ، فدخل فصل الشتاء فأقلعوا عنها وانشمروا إلى بلادهم ، وقيل إن الخليفة جهز لهـم جيشاً فانهزم التتار . وفيها اسـتخدم الصالح أيوب بن الكامل صاحب حصن كيفا الخوارزميـة الذين تبقوا من جيش جلال الدين وانفصلوا عن الرومى ، فقوى جأش الصالح أيوب . وفيها طلب الأشرف موسى بن العادل من أخيه الكامل الرقة لتكون قوة له وعلفا لدوابه إذا جاز الفرات مع أخيه فى البواكير ، فقال الكامل : أما يكفيه أن معه دمشق مملكة بنى أمية ؟ فأرسـل الأشرف الأمير فلك الدين بن المسيرى إلى الكامـل فى ذلك ، فأغلظ له الجـواب ، وقال : إيش يعمل بالملك ؟ يكفيه عشرته للمغانى وتعلمه لصناعتهم . فغضب الأشرف لذلك وبدت الوحشة بينهما ، وأرسـل الأشرف إلى حماه وحلب وبـلاد الشرق فحالف أولئك الملوك عـلى أخيه الكامل ، فلو طال عمر الأشرف لأفسد الملك عـلى أخيه ، وذلك لكثرة ميل الملوك إليه لكرمه وشجاعته وشح أخيه الـكامل ، ولـكنه أدركته منيته فى أول السنة الداخلة رحمه الله تعالى .

وممن توفى فيها من الأعيان ﴿ الملك العزيز الظاهر ﴾

صاحب حلب محمد بن السلطان الملك الظاهر غياث الدين غازى بن الملك الناصر صلاح الدين فاتح القـدس الشريف ، وهو وأبوه وابنه الناصر أصحاب ملك حلب من أيام النـاصر ، وكانت أم العزيز الخاتون بنت الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، وكان حسن الصورة كريماً عفيفا ، توفى وله من العمر أربع وعشرون سنة ، وكان مدبر دولته الطواشى شهاب الدين ، وكان من الأمراء رحمه الله

تعالى . وقام فى الملك بعده ولده الناصر صلاح الدين يوسف ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

﴿ صاحب الروم ﴾

كيقباد الملك علاء الدين صاحب بلاد الروم ، كان من أكابر الملوك وأحسنهم سيرة ،وقد زوجه العادل ابنته وأولدها ، وقد استولى على بلاد الجزيرة فى وقت وأخذ أكثرها من يد الكامل محمد ، وكسر الخوارزمية مع الأشرف موسى رحمهما الله .

﴿ الناصح الحنبلى ﴾

فى ثالث المحرم توفى الشيخ ناصح الدين عبد الرحمن بن نجم بن عبد الوهاب بن الشيخ أبى الفرج الشيرازى ، وهم ينتسبون إلى سعد بن عبادة رضى الله عنه ، ولد الناصح سنة أربع وخمسين وخمسمائة ، وقرأ القرآن وسمع الحديث ، وكان يعظ فى بعض الأحيان . وقد ذكرنا قبل أنه وعظ فى حياة الشيخ الحافظ عبد الغنى ، وهو أول من درس بالصالحية التى بالجبل ، وله بنيت ، وله مصنفات . وقد اشتغل على ابن المنى البغدادى ، وكان فاضلا صالحا ، وكانت وفاته بالصالحية ودفن هناك رحمه الله.

﴿ الكمال بن المهاجر ﴾

التاجر كان كثير الصدقات والاحسان إلى الناس ، مات فجأة فى جمادى الأولى بدمشق فدفن بقاسيون ، واستحوذ الأشرف على أمواله ، فبلغت التركة قريبا من ثلثمائة ألف دينار، من ذلك سبحة فيها مائة حبة لؤلؤ ، كل واحدة مثل بيضة الحمامة .

﴿ الشيخ الحافظ أبو عمرو عثمان بن دحية ﴾

أخو الحافظ أبى الخطاب بن دحية ، كان قد ولى دار الحديث الكاملية حين عزل أخوه عنها ، حتى توفى فى عامه هذا ، وكان ندر فى صناعة الحديث أيضاً رحمه الله تعالى .

﴿ القاضى عبد الرحمن التكريتى ﴾

الحاكم بالكرك ، ومدرس مدرسة الزبدانى ، فلما أخذت أوقافها سار إلى القدس ثم إلى دمشق ، فكان ينوب بها عن القضاة ، وكان فاضلا نزهاً عفيفا دينا رحمه الله تعالى ورضى عنه .

﴿ ثم دخلت سنة خمس وثلاثين وخمسمائة ﴾

فيها كانت وفاة الأشرف ثم أخوه الكامل ، أما الأشرف موسى بن العادل بانى دار الحديث الأشرفية وجامع التوبة وجامع جراح ، فانه توفى فى يوم الخميس رابع المحرم من هذه السنة ، بالقلعة المنصورة ، ودفن بها حتى نجزت تربته التى بنيت له شمالى الكلاسة ، ثم حول إليها رحمه الله تعالى ، فى جمادى الأولى ، وقد كان ابتداء مرضه فى رجب من السنة الماضية ، واختلفت عليه الأدواء حتى كان الجرائحى يخرج العظام من رأسه وهو يسبح الله عز وجل ، فلما كان آخر السنة تزايد به المرض

واعتراه إسهال مفرط فخارت قوته فشرع فى التهيء للقاء الله عز وجل ، فأعتق مائتى غلام وجارية ، ووقف دار فروخشاه التى يقال لها دار السعادة ، و بستانه بالنيرب على ابنيه، وتصدق بأموال جزيلة ، وأحضر له كفنا كان قد أعده من ملابس الفقراء والمشايخ الذين لقيهم من الصالحين . وقد كان رحمه الله تعالى شهما شجاعا كريما جوادا لأهل العلم ، لا سيما أهل الحديث ، ومقار بيته الصالحة ، وقد بنى لهم دار حديث بالسفح وبالمدينة للشافعية أخرى ، وجعل فيها نعل النبى ﷺ الذى ما زال حريصاً على طلبه من النظام ابن أبى الحديد التاجر ، وقد كان النظام ضنينا به فعزم الأشرف أن يأخذ منه قطعة ، ثم ترك ذلك خوفا من أن يذهب بالكلية ، فقدر الله موت ابن أبى الحديد بدمشق فأوصى للملك الأشرف به ، فجعله الأشرف بدار الحديث ، ونقل إليها كتبا سنية نفيسة ، و بنى جامع التوبة بالعقيبة ، وقد كان خانا للزنجارى فيه من المنكرات شىء كثير ، و بنى مسجد القصب وجامع جراح ومسجد دار السعادة ، وقد كان مولده فى سنة ست وسبعين وخمسمائة ، ونشأ بالقدس الشريف بكفالة الأمير فخر الدين عثمان الزنجارى ، وكان أبوه يحبه ، وكذلك أخوه المعظم ثم استنابه أبوه على مدن كثيرة بالجزيرة منها الرها وحران ، ثم اتسعت مملكته حين ملك خلاط ، وكان من أعف الناس وأحسنهم سيرة وسريرة ، لا يعرف غير نسائه وسراريه، مع أنه قد كان يعانى الشراب ، وهذا من أعجب الأمور . حكى السبط عنه قال : كنت يوما بهذه المنظرة من خلاط إذ دخل الخادم فقال : بالباب امرأة تستأذن ، فدخلت فاذا صورة لم أر أحسن منها ، و إذا هى ابنة الملك الذى كان بخلاط قبلى ، فذكرت أن الحاجب علىّ قد استحوذ على قرية لها ، وأنها قد احتاجت إلى بيوت الكرى ، وأنها إنما تتقوت من عمل النقوش للنساء ، فأمرت بردضيعتها إليها وأمرت لها بدار تسكنها ، وقد كنت قمت لها حين دخلت وأجلستها بين يدى وأمرتها بستر وجهها حين أسفرت عنه ، ومعها عجوز ، فحين قضت شغلها قلت لها انهضى على اسم الله تعالى ، فقالت العجوز : ياخوند إنما جاءت لتحظى بخدمتك هذه الليلة ، فقلت : معاذ الله لا يكون هذا، واستحضرت فى ذهنى ابنتى ربما يصيبها نظير ما أصاب هذه ، فقامت وهى تقول بالأرمنى : سترك الله مثل ماسترتنى ، وقلت لها : مهما كان من حاجة فانهيها إلى أقضها لك ، فدعت لى وانصرفت ، فقالت لى نفسى : فى الحلال مندوحة عن الحرام ، فتزوجها ، فقلت : لا والله لاكان هذا أبدا، أين الحياء والكرم والمروءة ؟ قال : ومات مملوك من مماليكى وترك ولداً ليس يكون فى الناس بتلك البلاد أحسن شبابا ، ولا أحلى شكلا منه ، فأحببته وقربته ، وكان من لا يفهم أمرى يتهمنى به ، فاتفق أنه عدا على إنسان فضربه حتى قتله ، فاشتكى عليه إلى أولياء المقتول ، فقلت اثبتوا أنه قتله ، فأثبتوا ذلك فحاججت عنه مماليكى وأرادوا إرضاءهم بعشر ديات فلم يقبلوا ، ووقفوا لى فى الطريق وقالوا قد أثبتنا أنه قتله ، فقلت

خذوه فتسلموه فقتلوه ، ولو طلبوا منى ملكى فداء له لدفعته إليهم ، ولكن استحيت من الله أن أعارض شرعه بحظ نفسى رحمه الله تعالى وعفا عنه .

ولما ملك دمشق فى سنة ست وعشرين وستمائة نادى مناديه فيها أن لا يشتغل أحد من الفقهاء بشىء من العلوم سوى التفسير والحديث والفقه ، ومن اشتغل بالمنطق وعلوم الأوائل نفى من البلد. وكان البلد به فى غاية الامن والعدل ، وكثرة الصدقات والخيرات ، كانت القلعة لا تغلق فى ليالى رمضان كلها ، وصحون الحلاوات خارجة منها إلى الجامع والخوانق والربط ، والصالحية و إلى الصالحين والفقراء والرؤساء وغيرهم ، وكان أكثر جلوسه بمسجد أبى الدرداء الذى جدده و زخرفه بالقلعة، وكان ميمون النقيبة ما كسرت له راية قط ، وقد استدعى الزبيدى من بغداد حتى سمع هو والناس عليه صحيح البخارى وغيره ، وكان له ميل إلى الحديث وأهله ، ولما توفى رحمه الله رآه بعض الناس وعليه ثياب خضر وهو يطير مع جماعة من الصالحين ، فقال : ما هذا وقد كنت تعانى الشراب فى الدنيا ؟ فقال ذاك البدن الذى كنا نفعل به ذاك عندكم ، وهذه الروح التى كنا نحب بها هؤلاء فهى معهم ، ولقد صدق رحمه الله ،قال رسول الله ﷺ « المرء مع من أحب » وقد كان أوصى بالملك من بعده لأخيه الصالح إسماعيل ، فلما توفى أخوه ركب فى أبهة الملك ومشى الناس بين يديه ، و ركب إلى جانبه صاحب حمص وعز الدين أيبك المعظمى حامل الغاشية على رأسه ، ثم إنه صادر جماعة من الدماشقة الذين قيل عنهم إنهم مع الكامل ،منهم العالم تعاسيف وأولاد ابن مزهر وحبسهم ببصرى ، وأطلق الحريرى من قلعة عزاز ، وشرط عليه أن لا يدخل دمشق ، ثم قدم الكامل من مصر وانضاف اليه الناصر داود صاحب الكرك ونابلس والقدس ، فحاصروا دمشق حصاراً شديداً ، وقد حصنها الصالح إسماعيل ، وقطع المياه ورد الكامل ماء بردى إلى ثورا ، وأحرقت العقيبة وقصر حجاج ، فافتقر خلق كثير واحترق آخرون ، وجرت خطوب طويلة ، ثم آل الحال فى آخر جمادى الأولى إلى أن سلم الصالح إسماعيل دمشق إلى أخيه الكامل ، على أن له بعلبك و بصرى ، وسكن الامر، وكان الصلح بينهما على يدى القاضى محيى الدين يوسف بن الشيخ أبى الفرج بن الجوزى ، اتفق أنه كان بدمشق قد قدم فى رسلية من جهة الخليفة إلى دمشق فجزاه الله تعالى خيراً . ودخل الكامل دمشق وأطلق الفلك بن المسيرى من سجن الحيات بالقلعة الذى كان أودعه فيه الأشرف ، ونقل الأشرف إلى تربته ، وأمر الكامل فى يوم الاثنين سادس جمادى الآخرة أئمة الجامع أن لا يصلى أحد منهم المغرب سوى الامام الكبير ، لما كان يقع من التشويش والاختلاف بسبب اجتماعهم فى وقت واحد ، ولنعم ما فعل رحمه الله . وقد فعل هذا فى زماننا فى صلاة التراويح ، اجتمع الناس على قارىء واحد وهو الامام الكبير فى المحراب المقدم عند المنبر ، ولم يبق به إمام يومئذ سوى الذى بالحلبية عند مشهد على

ولو ترك لكان حسناً والله أعلم . ﴿ ذكر وفاة الملك الكامل ﴾

محمد بن العادل رحمه الله تعالى . تملك الكامل مدة شهرين ثم أخذه أمراض مختلفة ، من ذلك سعال وإسهال ونزلة فى حلقه ، ونقرس فى رجليه ، فاتفق موته فى بيت صغير من دار القصبة ، وهو البيت الذى توفى فيه عمه الملك الناصر صلاح الدين ، ولم يكن عند الكامل أحد عند موته من شدة هيبته ، بل دخلوا فوجدوه ميتاً رحمه الله تعالى .وقد كان مولده فى سنة ست وسبعين وخمسمائة ، وكان أكبر أولاد العادل بعد مودود ، وإليه أوصى العادل لعلمه بشأنه وكمال عقله ، وتوفر معرفته ، وقدكان جيد الفهم يحب العلماء ، ويسألهم أسئلة مشكلة ، وله كلام جيد على صحيح مسلم ، وكان ذكياً مهيباً ذا بأس شديد ، عادل منصف له حرمة وافرة ، وسطوة قوية ، ملك مصر ثلاثين سنة ، وكانت الطرقات فى زمانه آمنة ، والرعايا متناصفة ، لا يتجاسر أحد أن يظلم أحدا ، شنق جماعة من الأجناد أخذوا شعيراً لبعض الفلاحين بأرض آمد ، واشتكى إليه بعض الركبدارية أن أستاذه استعمله ستة أشهر بلا أجرة ، فأحضر الجندى وألبسه قباب الركبدارية ، وألبس الركبدارى ثياب الجندى ، وأمر الجندى أن يخدم الركبدار ستة أشهر على هذه الهيئة ، ويحضر الركبدار الموكب والخدمة حتى ينقضى الأجل فتأدب الناس بذلك غاية الأدب . وكانت له اليد البيضاء فى رد ثغر دمياط إلى المسلمين بعد أن استحوذ عليه الفرنج لعنهم الله ، فرابطهم أربع سنين حتى استنقذه منهم ، وكان يوم أخذه له واسترجاعه إياه يوماً مشهوداً ، كما ذكرنا مفصلا رحمه الله تعالى . وكانت وفاته فى ليلة الخميس الثانى والعشرين من رجب من هذه السنة ، ودفن بالقلعة حتى كملت تربته التى بالحائط الشمالى من الجامع ذات الشباك الذى هناك قريباً من مقصورة ابن سنان ، وهى الكندية التى عند الحلبية ، نقل إليها ليلة الجمعة الحادى والعشرين من رمضان من هذه السنة ، ومن شعره يستحث أخاه الأشرف من بلاد الجزيرة حين كان محاصراً بدمياط :

يا مسعفى إن كنت حقا مسعفى ۞ فارحل بغير تقيد وتوقف
واطو المنازل والديار ولاتنخ ۞ إلا على باب المليك الأشرف
قبل يديه لاعدمت وقل له ۞ عنى بحسن تعطف وتلطف
إن مات صنوك عن قريب تلقه ۞ ما بين حد مهند ومثقف
أو تبط عن إنجاده فلقاؤه ۞ يوم القيامة فى عراص الموقف

﴿ ذكر ما جرى بعده ﴾

كان قد عهد لولده العادل وكان صغيراً بالديار المصرية ، وبالبلاد الدمشقية ، ولولده الصالح أيوب ببلاد الجزيرة ، فأمضى الأمراء ذلك ، فأما دمشق فاختلف الأمراء بها فى الملك الناصر داود بن

المعظم،والملك الجواد مظفر الدين يونس بن مودود بن الملك العادل، فكان ميل عماد الدين ابن الشيخ إلى الجواد ، وآخرون إلى الناصر ،وكان نازلا بدار أسامة ،فانتظم أمر الجواد وجاءت الرسالة إلى الناصر أن اخرج من البلد ، فركب من دار أسـامة والعامة وراءه إلى القلعة لايشكون فى ولايته الملك ، فسلك نحو القلعة فلما جاوز العمادية عطف برأس فرسه نحو باب الفرج ، فصرخت العامة :لالالا ، فسار حتى نزل القـابون عنـد وطأة برزة . فعزم بعض الأمراء الأشرفية على مسكه ، فساق فبات بقصر أم حكيم ، وساقوا وراءه فتقدم إلى عجلون فتحصن بها وأمن .

﴿ وأما الجواد ﴾

فانه ركب فى أبهة الملك وأنفق الأموال والخلع على الأمراء قال السبط : فرق ستة آلاف ألف دينار وخمسة آلاف خلعة ، وأبطل المكوس والخمور ، ونفى الخواطئ،واستقر ملكه بدمشق ، واجتمع عليه الأمراءالشاميون والمصريون ، و رحل الناصر داود من عجلون نحو غزة و بلاد الساحل فاستحوذ عليها ، فركب الجواد فى طلبه ومعه العساكر الشاميـة والمصرية ، وقال للأشرفية كاتبوه وأطمعوه ، فلما وصلت إليه كتبهم طمع فى موافقتهم ، فرجع فى سبعمائة راكب إلى نابلس ، فقصده الجواد وهو نازل على جيتين ،والناصر عـلى سبسطية ، فهرب منـه الناصر فاستحوذوا على حواصـله وأثقاله ، فاستغنوا بها وافتقر بسببها فقراً مدقعاً ، و رجع الناصر إلى الـكرك جريدة قد سلب أمواله وأثقاله ، وعاد الجواد إلى دمشق مؤيدا منصوراً .

وفيها اختلفت الخوارزمية على الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل صاحب كيفا ، وتلك النواحى ، وعزموا على القبض عليه ، فهرب منهم ونهبوا أمواله وأثقاله ، ولجأ إلى سنجار فقصده بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ليحاصره و يأخذه فى قفص إلى الخليفة ، وكان أهل تلك الناحية يكرهون مجاورته لتكبره وقوة سـطوته ، فلم يبق إلى أخذه إلا القليل ، فكاتب الخوارزميـة واستنجد بهم ووعدهم بأشياء كثيرة ، فقدموا إليه جرائد ليمنعوه من البدر لؤلؤ ، فلما أحس بهم لؤلؤ هرب منهم فاستحوذوا على أمواله وأثقاله ، فوجدوا فيها شيئا كثيرا لا يحد ولا يوصف ، ورجع إلى بلده الموصل جريدة خائبا ،وسلم الصالح أيوب مما كان فيه من الشدة.

ومن توفى فيهامن الأعيان : ﴿ محمد بن زيد ﴾

ابن ياسين الخطيب جمال الدين الدولعى ، نسبة إلى قرية بأصل الموصل ، وقد ذكرنا ذلك عند ترجمة عمه عبد الملك بن ياسين الخطيب بدمشق أيضاً ، وكان مدرساً بالغزالية مع الخطابة ، وقد منعه المعظم فى وقت عن الأفتاء ، فعاتبه السبط فى ذلك ، فاعتذر بأن شيوخ بلده هم الذين أشاروا عليه بذلك ، لكثرة خطئه فى فتاويه ، وقد كان شديد المواظبة عـلى الوظيفة حتى كاد أن لا يفارق بيت

الخطابة، ولم يحج قط مع أنه كانت له أموال جزيلة، وقف مدرسة بجيرون وسبعا فى الجامع . ولما توفى ودفن بمدرسته التى بجيرون ولى الخطابة بعده أخ له وكان جاهلا ، ولم يستقر فيها وتولاها الكمال بن عمر بن أحمد بن هبة الله بن طلحة النصيبى ، وولى تدريس الغزالية الشيخ عبدالعزيز بن عبد السلام

﴿ محمد بن هبة الله بن جميل ﴾

الشيخ أبو نصر بن الشيرازى ، ولد سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، وسمع الكثير على الحافظ ابن عساكر وغيره ، واشتغل فى الفقه وأفتى ودرس بالشامية البرانية ، وناب فى الحكم عدة سنين ، وكان فقيها عالما فاضلا ذكيا حسن الأخلاق عارفا بالأخبار وأيام العرب والأشعار ، كريم الطباع حميد الآثار ، وكانت وفاته يوم الخميس الثالث من جمادى الآخرة ، ودفن بقاسيون رحمه الله تعالى .

﴿ القاضى شمس الدين يحيى بن بركات ﴾

ابن هبة الله بن الحسن الدمشقى قاضيها بن سنا الدولة ، كان عالما عفيفا فاضلا عادلا منصفا نزها كان الملك الأشرف يقول : ما ولى دمشق مثله ، وقد ولى الحكم ببلده المقدس وناب بدمشق عن القضاة ، ثم استقل بالحكم ، وكانت وفاته يوم الأحد السادس ذى القعدة ، وصلى عليه بالجامع ودفن بقاسيون ، وتأسف الناس عليه رحمه الله تعالى . وتوفى بعده .

﴿ الشيخ شمس الدين بن الحوبى ﴾

القاضى زين الدين عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن علوان الأسدى ، عرف بابن الاستاذ الحلبى قاضيها بعد بهاء الدين بن شداد ، وكان رئيسا عالما عارفا فاضلا ، حسن الخلق والسمت ، وكان أبوه من الصالحين الكبار رحمهم الله تعالى .

﴿ الشيخ الصالح المعمر ﴾

أبو بكر محمد بن مسعود بن بهروز البغدادى ، ظهر سماعه من أبى الوقت فى سنة خمس عشرة وستمائة فانثال الناس عليه يسمعون منه ، وتفرد بالرواية عنه فى الدنيا بعد الزبيدى وغيره ، توفى ليلة السبت التاسع والعشرين من شعبان رحمه الله تعالى .

الأمير الكبير المجاهد المرابط ﴿ صارم الدين ﴾

خطلبا بن عبد الله مملوك شركس ونائبه بعده مع ولده على تنين وتلك الحصون ، وكان كثير الصدقات ، ودفن مع استاذه بقباب شركس ، وهو الذى بناها بعد أستاذه ، وكان خيراً قليل الكلام كثير الغزو مرابطا مدة سنين رحمه الله تعالى وعفا عنه بمنه وكرمه

﴿ ثم دخلت سنة ست وثلاثين وستمائة ﴾

فيها قضى الملك الجواد على الصفى بن مرزوق وصادره بأربعمائة ألف دينار ، وحبسه بقلعة

حمص ، فمكث ثلاث سنين لا يرى الضوء . وكان ابن مرزوق محسنا إلى الجواد قبل ذلك إحساناً كثيراً . وسلط الجواد خادماً لزوجته يقال له الناصح فصادر الدماشقة وأخذ منهم نحواً من ستمائة ألف دينار ، وملك الأمير عماد الدين بن الشيخ الذى كان سبب تمليكه دمشق ، ثم خاف من أخيه فخر الدين بن الشيخ الذى بديار مصر ، وقلق من ملك دمشق ، وقال إيش أعمل بالملك ؟ باز وكلب أحب إلى من هذا . ثم خرج إلى الصيد وكاتب الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل ، فتقايضا من حصن كيفا وسنجار وما تبع ذلك إلى دمشق ، فملك الصالح دمشق ودخلها فى مستهل جمادى الأولى من هذه السنة ، والجواد بين يديه بالغاشية ، وندم على ما كان منه ، فأراد أن يستدرك الفائت فلم يتفق له ، وخرج من دمشق والناس يلعنونه بوجهه ، بسبب ما أسداه إليهم من المصادرات ، وأرسل إليه الصالح أيوب ليرد إلى الناس أموالهم فلم يلتفت إليه ، وسار وبقيت فى ذمته. ولما استقر الصالح أيوب فى ملك مصر كما سيأتى حبس الناصح الخادم ، فمات فى أسوإ حالة ، من القلة والقمل، جزاء وفاقا (وما ربك بظلام للعبيد)

وفيها ركب الصالح أيوب من دمشق فى رمضان قاصدا الديار المصرية ليأخذها من أخيه العادل لصغره ، فنزل بنابلس واستولى عليها وأخرجها من يد الناصر داود ، وأرسل إلى عمه الصالح إسماعيل صاحب بعلبك ليقدم عليه ليكون فى صحبته إلى الديار المصرية ، وكان قد جاء إليه إلى دمشق ليبايعه فجعل يسوف به ويعمل عليه ويحالف الأمراء بدمشق ليكون ملكهم ، ولا يتجاسر أحد من الصالح أيوب لجبروته أن يخبره بذلك ، وانقضت السنة وهو مقيم بنابلس يستدعى إليه وهو يماطله .

ومن توفى فيها من الأعيان ﴿ جمال الدين الحصيرى الحنفى ﴾

محمود بن أحمد العلامة شيخ الحنفية بدمشق ، ومدرس النورية ، أصله من قرية يقال لها حصير من معاملة بخارى ، تفقه بها وسمع الحديث الكثير ، وصار إلى دمشق فانتهت إليه رياسة الحنفية بها ، لا سيما فى أيام المعظم ، كان يقرأ عليه الجامع الكبير ، وله عليه شرح ، وكان يحترمه ويعظمه ويكرمه، وكان رحمه الله غزير الدمعة كثير الصدقات ، عاقلا نزهاً عفيفا ، توفى يوم الأحد ثامن صفر ودفن بمقابر الصوفية تغمده الله برحمته . توفى وله تسعون سنة ، وأول درسه بالنورية فى سنة إحدى عشر وستمائة ، بعد الشرف داود الذى تولاها بعد البرهان مسعود ، وأول مدرسيها رحمهم الله تعالى الأمير عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ صدر الدين على بن حمويه ، كان سببا فى ولاية الجواد دمشق ثم سار إلى مصر فلامه صاحبها العادل بن الكامل بن العادل ، فقال الآن أرجع إلى دمشق وآمر الجواد بالمسير إليك ، على أن تكون له اسكندرية عوض دمشق ، فان امتنع عزلته عنها وكنت أنا نائبك فيها ، فنهاه أخوه فخر الدين بن الشيخ عن تعاطى ذلك فلم يقبل ، ورجع إلى دمشق فتلقاه

الجواد إلى المصلى وأنزله عنده بالقلعة بدار المسرة، وخادعه عن نفسه ثم دس إليه من قتله جهرة في صورة مستغيث به، واستحوذ على أمواله وحواصله، وكانت له جنازة حافلة، ودفن بقاسيون

﴿ الوزير جمال الدين على بن حديد ﴾

وزر للأشرف واستوزره الصالح أيوب أياماً، ثم مات عقب ذلك، كان أصله من الرقة، وكان له أملاك يسيرة يعيش منها، ثم آل أمره أن وزر للأشرف بدمشق، وقد هجاه بعضهم، وكانت وفاته بالجواليق في جمادى الآخرة، ودفن بمقابر الصوفية.

﴿ جعفر بن على ﴾

ابن أبي البركات بن جعفر بن يحيى الهمداني، راوية السلفي، قدم إلى دمشق صحبة الناصر داود، وسمع عليه أهلها، وكانت وفاته بها ودفن بمقابر الصوفية رحمه الله تعالى، وله تسعون سنة.

﴿ الحافظ الكبير زكي الدين ﴾

أبو عبد الله بن محمد بن يوسف بن محمد البرزالي الاشبيلي، أحد من اعتنى بصناعة الحديث وبرّز فيه، وأفاد الطلبة، وكان شيخ الحديث بمشهد ابن عروة، ثم سافر إلى حلب، فتوفي بحماه في رابع عشر رمضان من هذه السنة، وهو جد شيخنا الحافظ علم الدين بن القاسم بن محمد البرزالي، مؤرخ دمشق الذي ذيّل على الشيخ شهاب الدين أبي شامة، وقد ذيلت أنا على تاريخه بعون الله تعالى.

﴿ ثم دخلت سنة سبع وثلاثين وستمائة ﴾

استهلت هذه السنة وسلطان دمشق نجم الدين الصالح أيوب بن الكامل مخيم عند نابلس، يستدعي عمه الصالح إسماعيل ليسير إلى الديار المصرية، بسبب أخذها من صاحبها العادل بن الكامل، وقد أرسل الصالح إسماعيل ولده وابن يغمور إلى صحبة الصالح أيوب، فهما ينفقان الأموال في الأمراء ويحلفانهم على الصالح أيوب للصالح إسماعيل، فلما تم الأمر وتمكن الصالح إسماعيل من مراده أرسل إلى الصالح أيوب يطلب منه ولده ليكون عوضه ببعلبك، ويسير هو إلى خدمته، فأرسله إليه وهو لا يشعر بشيء مما وقع، وكل ذلك عن ترتيب أبي الحسن غزال المتطبب وزير الصالح ـ وهو الأمين واقف أمينية بعلبك ـ فلما كان يوم الثلاثاء السابع والعشرين من صفر هجم الملك الصالح إسماعيل وفي صحبته أسد الدين شيركوه صاحب حمص إلى دمشق، فدخلاها بغتة من باب الفراديس، فنزل الصالح إسماعيل بداره من درب الشعارين، ونزل صاحب حمص بداره، وجاء نجم الدين بن سلامة فهنأ الصالح إسماعيل ورقص بين يديه وهو يقول: إلى بيتك جئت. وأصبحوا فحاصروا القلعة وبها المغيث عمر بن الصالح نجم الدين، ونقبوا القلعة من ناحية باب الفرج، وهتكوا حرمتها ودخلوها وتسلموها واعتقلوا المغيث في برج هنالك. قال أبو شامة: واحترقت دار الحديث وما هنالك من الحوانيت

والدور حول القلعة . ولما وصل الخبر بما وقع إلى الصالح أيوب تفرق عنه أصحابه والأمراء خوفا على أهاليهم من الصالح إسماعيل ، و بقى الصالح أيوب وحده بمماليكه وجاريته أم ولده خليل ، وطمع فيه الفلاحون والفوارنة ، وأرسل الناصر داود صاحب الكرك إليه من أخذه من نابلس مهانا على بغلة بلا مهماز ولا مقدمة ، فاعتقله عنده سبعة أشهر ، وأرسل العادل من مصر إلى الناصر يطلب منه أخاه الصالح أيوب و يعطيه مائة ألف دينار ، فما أجابه إلى ذلك ، بل عكس ماطلب منه باخراج الصالح من سجنه والافراج عنه و إطلاقه من الحبس يركب و ينزل ، فعند ذلك حاربت الملوك من دمشق ومصر وغيرهما الناصر داود ، و برز العادل من الديار المصرية إلى بلبيس قاصداً قتال الناصر داود ، فاضطرب الجيش عليه واختلفت الأمراء ، وقيدوا العادل واعتقلوه فى خركاه ، وأرسلوا إلى الصالح أيوب يستدعونه إليهم ، فامتنع الناصر داود من إرساله حتى اشترط عليه أن يأخذ له دمشق وحمص وحلب بلاد الجزيرة و بلاد ديار بكر ونصف مملكة مصر ، ونصف مافى الخزائن من الحواصل والأموال والجواهر . قال الصالح أيوب : فأجبت إلى ذلك مكرهاً ، ولا تقدر على ماشترط جميع ملوك الأرض ، وسرنا فأخذته معى خائفا أن تكون هذه الكائنة من المصريين مكيدة ، ولم يكن لى به حاجة ، وذكر أنه كان يسكر ويخبط فى الأمور ويخالف فى الآراء السديدة . فلما وصل الصالح إلى المصريين ملكوه عليهم ودخل الديار المصرية سالما مؤيدا منصورا مظفرا محبورا مسرورا ، فأرسل إلى الناصر داود عشرين ألف دينار فردها عليه ولم يقبلها منه . واستقر ملكه بمصر . وأما الملك الجواد فانه أساء السيرة فى سنجار وصادر أهلها وعسفهم ، فكاتبوا بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل فقصدهم — وقد خرج الجواد للصيد — فأخذ البلد بغير شئ وصار الجواد إلى غانة ، ثم باعها من الخليفة بعد ذلك .

وفى ربيع الأول درس القاضى الرفيع عبد العزيز بن عبد الواحد الجيلى بالشامية البرانية . وفى يوم الأربعاء ثالث ربيع الآخر ولى الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبى القاسم السلمى خطابة جامع دمشق ، وخطب الصالح إسماعيل لصاحب الروم ببلد دمشق وغيرها ، لأنه حالفه على الصالح أيوب . قال أبو شامة : وفى حزيران أيام المشمش جاء مطر عظيم هدم كثيرا من الحيطان وغيرها ، وكنت يومئذ بالمزة .

ومن توفى فيها من الأعيان .

﴿ صاحب حمص ﴾

الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه بن شادى ، ولاه إياها الملك الناصر صلاح الدين بعد موت أبيه سنة إحدى وثمانين وخمسمائة ، فمكث فيها سبعاً وخمسين سنة ، وكان من أحسن الملوك سيرة ، طهر بلاده من الخمور والمكوس والمنكرات ، وهى فى غاية الأمن والعدل ، لا يتجاسر أحد من الفرنج ولا العرب يدخل بلاده إلا أهانه غاية الاهانة ،

وكانت ملوك بنى أيوب يتقونه لأنه يرى أنه أحق بالأمر منهم ، لأن جده هو الذى فتح مصر ، وأول من ملك منهم ، وكانت وفاته رحمه الله بحمص ، وعمل عزاءه بجامع دمشق عفا الله عنه بمنه .

﴿ القاضى الخوبى شمس الدين أحمد بن خليل ﴾

ابن سعادة بن جعفر الخوبى قاضى القضاة بدمشق يومئذ ، وكان عالما بفنون كثيرة من الأصول والفروع وغير ذلك ، وكانت وفاته يوم السبت بعد الظهر السابع من شعبان ، وله خمس وخمسون سنة بالمدرسة العادلية ، وكان حسن الأخلاق جميل المعاشرة ، وكان يقول لا أقدر على إيصال المناصب إلى مستحقيها ، له مصنفات منها عروض قال فيه أبو شامة :

أحمد بن الخليل أرشده الـ ■ ـله لما أرشد الخليل بن أحمد
ذاك مستخرج العروض وهـ ■ ـذا مظهر السر منه والعود أحمد

وقد ولى القضاء بعد رفيع الدين عبد العزيز بن عبد الواحد بن إسماعيل بن عبد الهادى الحنبلى مع تدريس العادلية ، وكان قاضياً ببعلبك . فأحضره إلى دمشق الوزير أمين الدين الذى كان سامريا فأسلم ، وزر للصالح إسماعيل ، واتفق هو وهذا القاضى على أكل أموال الناس بالباطل . قال أبو شامة : ظهر منه سوء سيرة وعسف وفسق وجور ومصادرة فى الأموال . قلت : وقد ذكر غيره عنه أنه ربما حضر يوم الجمعة فى المشهد الكمالى بالشباك وهو سكران ، وأن قنانى الخمر كانت تكون على بركة العادلية يوم السبت ، وكان يعتمد فى التركات اعتماداً سيئاً جداً ، وقد عامله الله تعالى بنقيض مقصوده ، وأهلكه الله على يدى من كان سبب سعادته ، كما سيأتى بيانه قريباً إن شاء الله تعالى .

﴿ ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين وستمائة ﴾

فيها سلم الصالح إسماعيل صاحب دمشق حصن سعيف أربون لصاحب صيدا الفرنجى ، فاشتد الانكار عليه بسبب ذلك من الشيخ عز الدين بن عبد السلام خطيب البلد ، والشيخ أبى عمرو بن الحاجب شيخ المالكية ، فاعتقلهما مدة ثم أطلقهما وألزمهما منازلهما ، وولى الخطابة وتدريس الغزالية لعماد الدين داود بن عمر بن يوسف المقدسى خطيب بيت الأبار ، ثم خرج الشيخان من دمشق فقصد أبو عمرو الناصر داود بالكرك ، ودخل الشيخ عز الدين الديار المصرية ، فتلقاه صاحبها أيوب بالاحترام والاكرام ، وولاه خطابة القاهرة وقضاء مصر ، واشتغل عليه أهلها فكان ممن أخذ عنه الشيخ تقى الدين ابن دقيق العيد رحمهما الله تعالى .

وفيها قدم رسول من ملك التتار تولى بن جنكيزخان إلى ملوك الاسلام يدعوهم إلى طاعته

و يأمرهم بتخريب أسوار بلدانهم . وعنوان الكتاب : من نائب رب السماء ماسح وجه الأرض ملك الشرق والغرب قانقان . وكان الكتاب مع رجل مسلم من أهل أصبهان لطيف الأخلاق ، فأول ما ورد على شهاب الدين غازى بن العادل بميا فارقين ، وقد أخبر بعجائب فى أرضهم غريبة ، منها أن فى البلاد المتاخمة للسد أناساً أعينهم فى منا كبهم ، وأفواههم فى صدورهم ، يأكلون السمك وإذا رأوا أحدا من الناس هربوا . وذكر أن عندهم بزرا ينبت الغنم يعيش الخروف منها شهرين وثلاثة ، ولا يتناسل . ومن ذلك أن بما زندران عينا يطلع فيها كل ثلاثين سنة خشبة عظيمة مثل المنارة ، فتقيم طول النهار فاذا غابت الشمس غابت فى العين فلا ترى إلى مثل ذلك الوقت ، وأن بعض الملوك احتال ليمسكوها بسلاسل ربطت فيها فغارت وقطعت تلك السلاسل ، ثم كانت إذا طلعت ترى فيها تلك السلاسل وهى إلى الآن كذلك . قال أبو شامة : وفيها قلت المياه من السماء والأرض ، وفسد كثير من الزرع والثمار والله أعلم .

وممن توفى فيها من الأعيان والمشاهير .

﴿ محى الدين بن عربى ﴾

صاحب الفصوص وغيره ، محمد بن على بن محمد ابن عربى أبوعبد الله الطائى الأندلسى ، طاف البلاد وأقام بمكة مدة ، وصنف فيها كتابه المسمى بالفتوحات المكية فى نحو عشرين مجلدا ، فيها ما يعقل وما لا يعقل ، وما ينكر وما لا ينكر ، وما يعرف وما لا يعرف ، وله كتابه المسمى بفصوص الحكم فيه أشياء كثيرة ظاهرها كفر صريح ، وله كتاب العبادلة وديوان شعر رائق ، وله مصنفات أخر كثيرة جدا ، وأقام بدمشق مدة طويلة قبل وفاته ، وكان بنو الزكى لهم عليه اشتمال و به احتفال وتجميع ما يقوله احتمال . قال أبو شامة : وله تصانيف كثيرة وعليه التصنيف سهل ، وله شعر حسن وكلام طويل على طريق التصوف ، وكانت له جنازة حسنة ، ودفن بمقبرة القاضى محى الدين بن الزكى بقاسيون ، وكانت جنازته فى الثانى والعشرين من ربيع الآخر من هذه السنة . وقال ابن السبط كان يقول إنه يحفظ الأسم الأعظم ويقول إنه يعرف الكيمياء بطريق المنازلة لا بطريق الكسب ، وكان فاضلا فى علم التصوف ، وله تصانيف كثيرة .

﴿ القاضى نجم الدين أبو العباس ﴾

أحمد بن محمد بن خلف بن راجح المقدسى الحنبلى الشافعى ، المعروف بابن الحنبلى ، كان شيخا فاضلا دينا بارعا فى علم الخلاف ، ويحفظ الجمع بين الصحيحين للحميدى ، وكان متواضعاً حسن الأخلاق ، قد طاف البلدان يطلب العلم ثم استقر بدمشق ودرس بالعذراوية والصارمية والشامية الجوانية وأم الصالح ، وناب فى الحكم عن جماعة من القضاة إلى أن توفى بها ، وهو نائب الرفيع الجيلى ، وكانت

وفاته يوم الجمعة سادس شوال ودفن بقاسيون .

﴿ ياقوت بن عبد الله أمين الدين الرومى ﴾

منسوب إلى بيت أتابك ، قدم بغداد مع رسول صاحب الموصل لؤلؤ . قال ابن الساعى ، اجتمعت به وهو شاب أديب فاضل ، يكتب خطا حسنا فى غاية الجودة ، و ينظم شعرا جيـدا ، ثم روى عنه شيئا من شعره . قال وتوفى فى جمادى الآخرة محبوساً .

﴿ ثم دخلت سنة تسع وثلاثين وستمائة ﴾

فيها قصد الملك الجواد أن يدخل مصر ليكون فى خدمة الصالح أيوب ، فلما وصل إلى الرمل توهم منه الصالح أيوب وأرسل إليه كمال الدين ابن الشيخ ليقبض عليه ، فرجع الجواد فاستجار بالناصر داود ، وكان إذ ذاك بالقدس الشريف ، و بعث منه جيشاً فالتقوا مع ابن الشيخ فكسرو ، وأسروه فو بخه الناصر داود ثم أطلقه ، وأقام الجواد فى خدمة الناصر حتى توهم منه فقيده وأرسله تحت الحوطة إلى بغداد ، فأطلقه بطن من العرب عن قوة فلجأ إلى صاحب دمشق مدة ، ثم انتقل إلى الفرنج ، ثم عاد إلى دمشق فحبسه الصالح إسماعيل بعزتا إلى أن مات فى سنة إحدى وأربعين كما سيأتى .

وفيها شرع الصالح أيوب فى بناء المدارس بمصر ، و بنى قلعة بالجزيرة غرم عليها شيئا كثيرا من بيت المال ، وأخـذ أملاك الناس وخرب نيفا وثلاثين مسجدا ، وقطع ألف نخـلة . ثم أخربها الترك فى سنة إحـدى وخمسين كما سيأتى بيانه . وفيها ركب الملك المنصور بن إبراهـيم بن الملك المجاهد صاحب حمص ومعه الحلبيون ، فاقتتلوا مع الخوارزمية بأرض حران ، فكسروهم ومزقوهم كل ممزق ، وعادوا منصورين إلى بلادهم ، فاصطلح شهاب الدين غازى صاحب ميا فارقين مع الخوارزمية وآواهم إلى بلده ليكونوا من حزبه . قال أبو شامة : وفيها كان دخول الشيخ عزالدين إلى الديار المصرية فأكرمه صاحبها وولاه الخطابة بالقاهرة وقضاء القضاة بمصر ، بعد وفاة القاضى شرف الدين المرقع ثم عزل نفسه مرتين وانقطع فى بيته رحمه الله تعالى .

قال : وفيها توفى الشمس بن الخباز النحوى الضرير فى سابع رجب . والكمال بن يونس الفقيه فى النصف من شعبان ، وكانا فاضلى بلدهما فى فنهما . قلت . أما :

﴿ الشمس ابن الخباز ﴾

فهو أبو عبد الله أحمـد بن الحسين بن أحمد بن معالى بن منصور بن على ، الضرير النحوى الموصلى المعروف بابن الخباز ، اشتغل بعلم العربيـة وحفظ المفصـل والايضاح والتكملة والعروض والحساب ، وكان يحفظ المجمل فى اللغة وغـير ذلك ، وكان شافعى المذهب كثير النوادر والملح ، وله أشعار جيدة ، وكانت وفاته عاشر رجب وله من العمر خمسون سنة رحمه الله تعالى . وأما :

﴿ الكمال بن يونس ﴾

فهو موسى بن يونس بن محمد بن منعة بن مالك العقيلى ، أبو الفتح الموصلى شيخ الشافعية بها ، ومدرس بعدة مدارس فيها ، وكانت له معرفة تامة بالاصول والفروع والمعقولات والمنطق والحكمة ، ورحل إليه الطلبة من البلدان ، وبلغ ثمانياً وثمانين عاما ، وله شعر حسن . فمن ذلك ماامتدح به البدر لؤلؤ صاحب الموصل وهو قوله :

لئن زينت الدنيا بمالك أمرها * فمملكة الدنيا بكم تتشرف
بقيت بقاء الدهر أمرك نافذ * وسعيك مشكور وحكمك ينصف

كان مولده سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ، وتوفى للنصف من شعبان هذه السنة ، رحمه الله تعالى قال أبو شامة : وفيها توفى بدمشق :

﴿ عبد الواحد الصوفى ﴾

الذى كان قسا راهباً فى كنيسة مريم سبعين سنة ، أسلم قبل موته بأيام ، ثم توفى شيخاً كبيراً بعد أن أقام بخانقاه السميساطية أياماً ، ودفن بمقابر الصوفية ، وكانت له جنازة حافلة ، حضرت دفنه والصلاة عليه رحمه الله تعالى .

﴿ أبو الفضل أحمد بن اسفنديار ﴾

ابن الموفق بن أبى على البوسنجى الواعظ ، شيخ رباط الأرجوانية . قال ابن الساعى : كان جميل الصورة حسن الأخلاق كثير التودد والتواضع ، متكلما متفوها منطقيا حسن العبارة جيد الوعظ طيب الانشاد عذب الايراد ، له نظم حسن ، ثم ساق عنه قصيدة يمدح بها الخليفة المستنصر.

﴿ أبو بكر محمد بن يحيى ﴾

ابن المظفر بن علم بن نعيم المعروف بابن الحسر السلامى ، شيخ عالم فاضل ، كان حنبلياً ثم صار شافعياً ، ودرس بعدة مدارس ببغداد للشافعية ، وكان أحد المعدلين بها ، تولى مباشرات كثيرة ، وكان فقيها أصوليا عالما بالخلاف ، وتقدم ببلده وعظم كثيرا ، ثم استنابه ابن فضلان بدار الحريم ، ثم صار من أمره أن درس بالنظامية وخلع عليه ببغلة ، وحضر عنده الأعيان ، وما زال بها حتى توفى عن ثمانين سنة ، ودفن بباب حرب .

﴿ قاضى القضاة ببغداد ﴾

أبو المعالى عبد الرحمن بن مقبل بن على الواسطى الشافعى ، اشتغل ببغداد وحصل وأعاد فى بعض المدارس ، ثم استنابه قاضى القضاة عماد الدين أبو صالح نصر بن عبد الرزاق بن عبد القادر فى أيام الخليفة الظاهر بن الناصر ، ثم ولى قضاء القضاة مستقلا ، ثم ولى تدريس المستنصرية بعد

موت أول من درس بها محيي الدين محمد بن فضلان ، ثم عزل عن ذلك كله وعن مشيخة بعض الربط. ثم كانت وفاته في هذا العام ، وكان فاضلا دينا متواضعاً رحمه الله تعالى وعفا عنه .

﴿ ثم دخلت سنة أربعين وستمائة ﴾

فيها توفي الخليفة المستنصر بالله وخلافة ولده المستعصم بالله ، فكانت وفاة الخليفة أمير المؤمنين بكرة يوم الجمعة عاشر جمادى الآخرة ، وله من العمر إحدى وخمسون سنة ، وأربعة أشهر وسبعة أيام، وكتم موته حتى كان الدعاء له على المنابر ذلك اليوم ، وكانت مدة ولايته ست عشرة سنة وعشرة أشهر وسبعة وعشرين يوما ، ودفن بدار الخلافة ، ثم نقل إلى الترب من الرصافة . وكان جميل الصورة حسن السريرة جيد السيرة ، كثير الصدقات والبر والصلات ، محسنا إلى الرعية بكل ما يقدر عليه ، كان جده الناصر قد جمع ما يتحصل من الذهب في بركة في دار الخلافة ، فكان يقف على حافتها ويقول ، أترى أعيش حتى أملأها ، وكان المستنصر يقف على حافتها ويقول أترى أعيش حتى أنفقها كلها . فكان يبني الربط والخانات والقناطر في الطرقات من سائر الجهات ، وقد عمل بكل محلة من محال بغداد دار ضيافة للفقراء ، لا سيما في شهر رمضان ، وكان يتقصد الجواري اللاتي قد بلغن الأربعين فيشترين له فيعتقهن ويجهزهن ويزوجهن ، وفي كل وقت يبرز صلاته ألوف متعددة من الذهب ، تفرق في المحال ببغداد على ذوي الحاجات والأرامل والأيتام وغيرهم ، تقبل الله تعالى منه وجزاه خيرا ، وقد وضع ببغداد المدرسة المستنصرية للمذاهب الأربعة ، وجعل فيها دار حديث وحماما ودار طب ، وجعل لمستحقيها من الجوامك والأطعمة والحلاوات والفاكهة ما يحتاجون إليه في أوقاته ، ووقف عليها أوقافاً عظيمة حتى قيل إن ثمن التبن من غلات ريعها يكفي المدرسة وأهلها . ووقف فيها كتبا نفيسة ليس في الدنيا لها نظير ، فكانت هذه المدرسة جمالا لبغداد وسائر البلاد ، وقد احترق في أول هذه السنة المشهد الذي بسامرا المنسوب إلى علي الهادي والحسن العسكري ، وقد كان بناه أرسلان البساسيري في أيام تغلبه على تلك النواحي ، في حدود سنة خمسين وأربعمائة ، فأمر الخليفة المستنصر بإعادته إلى ما كان عليه ، وقد تكلمت الروافض في الاعتذار عن حريق هذا المشهد بكلام طويل باردلا حاصل له ، وصنفوا فيه أخبارا وأنشدوا أشعارا كثيرة لا معنى لها ، وهو المشهد الذي يزعمون أنه يخرج منه المنتظر الذي لاحقيقة له ، فلاعين ولاأثر، ولولم يبن لكان أجدر ، وهو الحسن بن علي بن محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن علي ابن محمد بن الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين الشهيد بكربلاء بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين ، وقبح من يغلو فيهم ويبغض بسببهم من هو أفضل منهم .

وكان المستنصر رحمه الله كريما حليما رئيسا متودداً إلى الناس ، وكان جميل الصورة حسن الأخلاق

بهى المنظر ، عليه نور بيت النبوة رضى الله عنه وأرضاه . وحكى أنه اجتاز راكبا فى بعض أزقة بغداد قبل غروب الشمس من رمضان ، فرأى شيخا كبيرا ومعه إناء فيه طعام قد حمله من محلة إلى محلة أخرى ، فقال : أيها الشيخ لم لاأخذت الطعام من محلتك ؟ أوأنت محتاج تأخذ من المحلتين ؟ فقال لا والله يا سيدى - ولم يعرف أنه الخليفة - ولكنى شيخ كبير ، وقد نزل بى الوقت وأنا أستحى من أهل محلتى أن أزاحمهم وقت الطعام ، فيشمت بى من كان يبغضنى ، فأنا أذهب إلى غير محلتى فآخذ الطعام وأتحين وقت كون الناس فى صلاة المغرب فأدخل بالطعام إلى منزلى بحيث لا يرانى أحد . فبكى الخليفة رحمه الله وأمر له بألف دينار ، فلما دفعت إليه فرح الشيخ فرحا شديدا حتى قيل إنه انشق قلبه من شدة الفرح ، ولم يعش بعد ذلك إلا عشرين يوما ، ثم مات فخلف الألف دينار إلى الخليفة ، لأنه لم يترك وارثا . وقد أنفق منها دينارا واحدا ، فتعجب الخليفة من ذلك وقال : شئ قد خرجنا عنه لا يعود إلينا ، تصدقوا بها على فقراء محلته ، فرحمه الله تعالى .

وقد خلف من الاولاد ثلاثة ، اثنان شقيقان وهما أمير المؤمنين المستعصم بالله الذى ولى الخلافة بعده وأبو أحمد عبدالله ، والأمير أبوالقاسم عبد العزيز وأختهما من أم أخرى كريمة صان الله حجابها. وقد رثاه الناس بأشعار كثير ، أورد منها ابن الساعى قطعة صالحة ، ولم يستوزر أحدا بل أقر أبا الحسن محمد بن محمد القمى على نيابة الوزارة ، ثم كان بعده نصر الدين أبو الأزهر أحمد بن محمد الناقد الذى كان أستاذ دار الخلافة ، والله تعالى أعلم بالصواب .

﴿ خلافة المستعصم بالله ﴾

أمير المؤمنين وهو آخر خلفاء بنى العباس ببغداد ، وهو الخليفة الشهيد الذى قتله التتار بأمر هلاكو ابن تولى ملك التتار بن جنكيزخان لعنهم الله ، فى سنة ست وخمسين وستمائة كما سيأتى بيانه إن شاء الله تعالى ، وهو أمير المؤمنين المستعصم بالله أبو أحمد عبد الله بن أمير المؤمنين المستنصر بالله أبى جعفر المنصور بن أمير المؤمنين الظاهر بالله أبى نصر محمد بن أمير المؤمنين الناصر لدين الله أبى العباس أحمد بن أمير المؤمنين المستضئ بالله أبى محمد الحسن بن أمير المؤمنين المستنجد بالله أبى المظفر يوسف بن أمير المؤمنين المقتفى لأمر الله أبى عبد الله محمد بن أمير المؤمنين المستظهر بالله أبى العباس أحمد بن الخليفة المقتدى بأمر الله أبى القاسم عبد الله وبقية نسبه إلى العباس فى ترجمة جده الناصر ، وهؤلاء الذين ذكرناهم كلهم ولى الخلافة يتلو بعضهم بعضاً ، ولم يتفق هذا لأحد قبل المستعصم ، أن فى نسبه ثمانية تسقاولوا الخلافة لم يتخللهم أحد ، وهو التاسع رحمه الله تعالى عنه .

لما توفى أبوه بكرة الجمعة عاشر جمادى الآخرة من سنة أربعين وستمائة استدعى هو من التاج يومئذ بعد الصلاة فبويع بالخلافة ، ولقب بالمستعصم ، وله من العمر يومئذ ثلاثون سنة وشهور ، وقد

أتقن فى شبيبته تلاوة القرآن حفظا وتجويدا ، وأتقن العربية والخط الحسن وغير ذلك من الفضائل على الشيخ شمس الدين أبى المظفر على بن محمد بن النيار أحد أئمة الشافعية فى زمانه . وقد أكرمه وأحسن إليه فى خلافته ، وكان المستعصم على ما ذكر كثير التلاوة حسن الأداء طيب الصوت ، يظهر عليه خشوع و إنابة ، وقد نظر فى شىء من التفسير وحل المشكلات . وكان مشهورا بالخير مشكوراً مقتديا بأبيه المستنصر جهده وطاقته ، وقد مشت الأمور فى أيامه على السداد والاستقامة بحمد الله ، وكان القائم بهذه البيعة المستعصمية شرف الدين أبو الفضائل إقبال المستنصرى . فبايعه أولا بنو عمه وأهله من بنى العباس . ثم أعيان الدولة من الأمراء والوزراء والقضاة والعلماء والفقهاء ومن بعدهم من أولى الحل والعقد والعامة وغيرهم . وكان يوما مشهوداً ومجمعاً محمودا ورأيا سعيداً . وأمراً حميداً ، وجاءت البيعة من سائر الجهات والأقطار والبلدان والأمصار ، وخطب له فى سائر البلدان ، والأقاليم والرساتيق ، وعلى سائر المنابر شرقا وغربا ، بعداً وقربا ، كما كان أبوه وأجداده رحمهم الله أجمعين .

وفيها وقع من الحوادث أنه كان بالعراق وباء شديد فى آخر أيام المستنصر وغلا السكر والأدوية فتصدق الخليفة المستنصر بالله رحمه الله بسكر كثير على المرضى ، تقبل الله منه . وفى يوم الجمعة رابع عشر شعبان أذن الخليفة المستعصم بالله لأبى الفرج عبد الرحمن بن محيى الدين يوسف ابن الشيخ أبى الفرج بن الجوزى - وكان شابا ظريفا فاضلا - فى الوعظ بباب البدرية ، فتكلم وأجاد وأفاد وامتدح الخليفة المستعصم بقصيدة طويلة فصيحة . سردها ابن الساعى بكمالها ، ومن يشابه أباه فما ظلم ، والشبل فى المخبر مثل الأسد . وفيها كانت وقعة عظيمة بين الحلبيين وبين الخوارزمية ، ومع الخوارزمية شهاب الدين غازى صاحب ميا فارقين ، فكسرهم الحلبيون كسرة عظيمة منكرة، وغنموا من أموالهم شيئا كثيراً جدا ، ونهبت نصيبين مرة أخرى . وهذه سابع عشر مرة نهبت فى هذه السنين ، فانا لله و إنا إليه راجعون . وعاد الغازى إلى ميا فارقين وتفرقت الخوارزمية يفسدون فى الأرض صحبة مقدمهم بركات خان ، لا بارك الله فيه ، وقدم على الشهاب غازى منشور بمدينة خلاط فتسلمها وما فيها من الحواصل . وفيها عزم الصالح أيوب صاحب مصر على دخول الشام فقيل له إن العساكر مختلفة فجهز عسكرا إليها وأقام هو بمصر يدبر مملكتها .

ومن توفى فيها من الأعيان .

﴿ المستنصر بالله ﴾

أمير المؤمنين كما تقدم . والحرمة المصونة الجليلة .

﴿ خاتون بنت عز الدين مسعود ﴾

ابن مودود بن زنكى بن آقسنقر الاتابكية واقفة المدرسة الأتابكية بالصالحية . وكانت زوجة

السلطان الملك الأشرف رحمه الله وفى ليلة وفاتها كانت وقفت مدرستها وتربتها بالجبل قاله أبوشامة : ودفنت بها رحمها الله تعالى وتقبل منها .

﴿ ثم دخلت سنة إحدى وأربعين وستمائة ﴾

فيها ترددت الرسل بين الصالح أيوب صاحب مصر وبين عمه الصالح إسماعيل صاحب دمشق ، على أن يرد إليه ولده المغيث عمر بن الصالح أيوب المعتقل فى قلعة دمشق ، وتستقر دمشق فى يد الصالح إسماعيل ، فوقع الصلح على ذلك ، وخطب للصالح أيوب بدمشق ، فخاف الوزير أمين الدولة أبو الحسن غزال المسلماني ، وزير الصالح إسماعيل من غائلة هذا الأمر ، فقال لمخدومه : لا ترد هذا الغلام لأبيه تخرج البلاد من يدك ، هذا خاتم سليمان بيدك للبلاد ، فعند ذلك أبطل ما كان وقع من الصلح ورد الغلام إلى القلعة ، وقطعت الخطبة للصالح أيوب ، ووقعت الوحشة بين الملكين ، وأرسل الصالح أيوب إلى الخوارزمية يستحضرهم لحصار دمشق فانا لله وإنا إليه راجعون. وكانت الخوارزمية قد فتحوا فى هذه السنة بلاد الروم وأخذوها من أيدى ملكها ابن علاء الدين ، وكان قليل العقل يلعب بالكلاب والسباع ، ويسلطها على الناس ، فاتفق أنه عضه سبع فمات فتغلبوا على البلاد حينئذ. وفيها احتيط على أعوان القاضى الرفيع الجيلى ، وضرب بعضهم بالمقارع ، وصودروا ورسم على القاضى الرفيع بالمدرسة المقدمية داخل باب الفراديس ، ثم أخرج ليلا وذهب به فسجن بمغارة أفقه من نواحى البقاع ، ثم انقطع خبره . وذكر أبو شامة أنه توفى ، ومنهم من قال إنه ألقى من شاهق ، ومنهم من قال خنق ، وذلك كله بذى الحجة من هذه السنة . وفى يوم الجمعة الخامس والعشرين منه قرئ منشور ولاية القضاء بدمشق لمحى الدين بن محمد بن على بن محمد بن يحيى القرشى ، بالشباك الكمالى من الجامع ، كذا قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة . وزعم السبط أن عزله إنما كان فى السنة الآتية ، وذكر أن سبب هلاكه أنه كتب إلى الملك الصالح يقول له : إنه قد أورد إلى خزانته من الأموال ألف ألف دينار من أموال الناس . فأنكر الصالح ذلك ، ورد عليه الجواب أنه لم يرد سوى ألف ألف درهم ، فأرسل القاضى يقول فأنا أحاقق الوزير ، وكان الصالح لا يخالف الوزير ، فأشار حينئذ على الصالح فعزله لتبرأ ساحة السلطان من شناعات الناس ، فعزله وكان من أمره ما كان . وفوض أمر مدارسه إلى الشيخ تقى الدين ابن الصلاح فعين العادلية للكمال التفليسى ، والعذراوية لمحى الدين بن الزكى الذى ولى القضاء بعده ، والأمينية لابن عبد الكافى ، والشامية البرانية للتقى الحموى ، وغيب القاضى الرفيع وأسقط عدالة شهوده ، قال السبط :أرسله الأمين مع جماعة على بغل باكاف لبعض النصارى إلى مغارة أفقه فى جبل لبنان من ناحية الساحل ، فأقام بها أياما ثم أرسل إليه عدلين من بعلبك ليشهدا عليه ببيع أملاكه من أمين الدولة ، فذكرا أنهما شاهداه وعليه

بخفيفة وقندورة ، وأنه استطعمهما شيئا من الزاد وذكر أن له ثلاثة أيام لم يأكل شيئا ، فأطعماه من زوادتهما وشهدا عليه وانصرفا ، ثم جاءه داود النصرانى فقال له قم فقد أمرنا بحملك إلى بعلبك ، فأيقن بالهلاك حينئذ ، فقال دعونى أصلى ركعتين، فقال له قم ، فقام يصلى فأطال الصلاة فرفسه النصرانى فألقاه من رأس الجبل إلى أسفل الوادى الذى هناك ، فما وصل حتى تقطع ، وحكى أنه تعلق ذيله بسن الجبل فما زال داود يرميه بالحجارة حتى ألقاه إلى أسفل الوادى ، وذلك عند السقيف المطل على نهر إبراهيم . قال السبط : وقد كان فاسد العقيدة دهريا مستهزئا بأمور الشرع ، يخرج إلى المجالس سكرانا ويحضر إلى الجمعة كذلك، وكانت داره كالحانات . فلاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم قال : وأخذ الموفق الواسطى أحد أمنائه ـ وكان من أكبر البلايا ـ أخذ لنفسه من أموال الناس ستمائة ألف درهم ، فعوقب عقوبة عظيمة حتى أخذت منه ، وقد كسرت ساقاه ومات تحت الضرب ، فألقى فى مقابر اليهود والنصارى ، وأكلته الكلاب .

ومن توفى فيها من الأعيان ﴿ الشيخ شمس الدين أبو الفتوح ﴾

أسعد بن المنجى التنوخى المعرى الحنبلى ، قاضى حران قديما ، ثم قدم دمشق ودرس بالمسمارية وتولى خدما فى الدولة المعظمية ، وكانت له رواية عن ابن صابر والقاضيين الشهزورى وابن أبى عصرون ، وكانت وفاته فى سابع ربيع الأول من هذه السنة رحمه الله تعالى .

﴿ الشيخ الحافظ الصالح ﴾

تقى الدين أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن الأزهر الصريفينى ، كان يدرى الحديث وله به معرفة جيدة ، أثنى عليه أبو شامة وصلى عليه بجامع دمشق ودفن بقاسيون رحمه الله .

﴿ واقف الكروسية ﴾

محمد بن عقيل بن كروس ، جمال الدين محتسب دمشق ، كان كيساً متواضعا ، توفى بدمشق فى شوال ودفن بداره التى جعلها مدرسة ، وله دار حديث رحمه الله تعالى وعفا عنه .

﴿ الملك الجواد يونس بن ممدود ﴾

ابن العادل أبى بكر بن أيوب الملك الجواد ، وكان أبوه أكبر أولاد العادل ، تقلبت به الأحوال وملك دمشق بعد عمه الكامل محمد بن العادل ، وكان فى نفسه جيداً محباً للصالحين ، ولكن كان فى بابه من يظلم الناس وينسب ذلك إليه ، فأبغضته العامة وسبوه وألجؤوه إلى أن قايض بدمشق الملك الصالح أيوب بن الكامل إلى سنجار وحصن كيفا ، ثم لم يحفظهما بل خرجتا عن يده ، ثم آل به الحال إلى أن سجنه الصالح إسماعيل بحصن عزتا ، حتى كانت وفاته فى هذه السنة ، ونقل فى شوال إلى تربة المعظم بسفح قاسيون ، وكان عنده ابن يغمور معتقلا لخوله الصالح إسماعيل إلى قلعة دمشق ، فلما

ملكها الصالح أيوب نقله إلى الديار المصرية وشنقه مع الأمين غزال وزير الصالح إسماعيل ، على قلعة القاهرة ، جزاء على صنعهما فى حق الصالح أيوب رحمه الله تعالى . أما ابن يغمور فانه عمل عليه حتى حول ملك دمشق إلى الصالح إسماعيل ، وأما أمين الدولة فانه منع الصالح من تسليم ولده عمر إلى أبيه فانتقم منهما بهذا ، وهو معذور بذلك

﴿ مسعود بن أحمد بن مسعود ﴾

ابن مازه المحاربى أحد الفقهاء الحنفية الفضلاء ، وله علم بالتفسير وعلم الحديث ،ولديه فضل غزير قدم بغداد صحبة رسول التتارللحج ، فحبس مدة سنين ثم أفرج عنه ، فحج ثم عاد ، فمات ببغداد فى هذه السنة ، رحمه الله تعالى ﴿ أبو الحسن على بن يحيى بن الحسن ﴾

ابن الحسين بن على بن محمد البطريق بن نصر بن حمدون بن ثابت الأسدى الحلى ، ثم الواسطى ، ثم البغدادى ، الكاتب الشاعر الشيعى ، فقيه الشيعة ، أقام بدمشق مدة وامتدح كثيراً من الأمراء والملوك ، منهم الكامل صاحب مصر وغيره ، ثم عاد إلى بغداد فكان يشغل الشيعة فى مذهبهم ، وكان فاضلا ذكيا جيد النظم والنثر ، لكنه مخذول محجوب عن الحق. وقد أورد ابن الساعى قطعة جيدة من أشعاره الدالة على غزارة مادته فى العلم والذكاء رحمه الله وعفا عنه

﴿ ثم دخلت سنة اثنتين وأربعين وستمائة ﴾

فيها استوزر الخليفة المستعصم بالله مؤيد الدين أبا طالب محمد بن أحمد بن على بن محمد العلقمى المشؤم على نفسه ، وعلى أهل بغداد ، الذى لم يعصم المستعصم فى وزارته ، فانه لم يكن وزير صدق ولا مرضى الطريقة ، فانه هو الذى أعان على المسلمين فى قضية هولاكو وجنوده قبحه الله وإياهم ، وقد كان ابن العلقمى قبل هذه الوزارة أستاذ دار الخلافة ، فلما مات نصر الدين محمد بن الناقد استوزر ابن العلقمى وجعل مكانه فى الاستادارية الشيخ محى الدين يوسف بن أبى الفرج ابن الجوزى ، وكان من خيار الناس ، وهو واقف الجوزية التى بالنشابين بدمشق تقبل الله منه . وفيها جعل الشيخ شمس الدين على بن محمد بن الحسين بن النيار مؤدب الخليفة شيخ الشيوخ ببغداد ، وخلع عليه ، ووكل الخليفة عبد الوهاب ابن المطهر وكالة مطلقة ، وخلع عليه . وفيها كانت وقعة عظيمة بين الخوارزمية الذين كان الصالح أيوب صاحب مصر استقدمهم ليستنجد بهم على الصالح إسماعيل أبى الحسن صاحب دمشق،فنزلوا على غزة وأرسل إليهم الصالح أيوب الخلع والأموال والأقمشة والعساكر، فاتفق الصالح إسماعيل والناصر داود صاحب الكرك ، والمنصور صاحب حمص ، مع الفرنج واقتتلوا مع الخوارزمية قتالا شديدا ، فهزمتهم الخوارزمية كسرة منكرة فظيعة ، هزمت الفرنج بصلبانها وراياتها العالية ، على رؤس أطلاب المسلمين ، وكانت كؤس الخمر دائرة بين الجيوش فنابت كؤس

المنون عن كؤس الزرجون ، فقتل من الفرنج فى يوم واحد زيادة عن ثلاثين ألف ، وأسروا جماعة من ملوكهم وقسوسهم وأساقفتهم . وخلقا من أمراء المسلمين ، و بعثوا بالأسارى إلى الصالح أيوب بمصر ، وكان يومئذ يوما مشهودا وأمراً محموداً ، ولله الحمد . وقد قال بعض أمراء المسلمين قد علمت أنا لما وقفنا تحت صلبان الفرنج أنا لا نفلح . وغنمت الخوارزمية من الفرنج ومن كان معهم شيئا كثيرا ، وأرسل الصالح أيوب إلى دمشق ليحاصرها ، فحصنها الصالح إسماعيل وخرب من حولها رباعا كثيرة . وكسر جسر باب توما فسار النهر فتراجع الماء حتى صار بحيرة من باب توما و باب السلامة . فغرق جميع ما كان بينهما من العمران ، وافتقر كثير من الناس ، فانا لله و إنا إليه راجعون .

وممن توفى فيها من الأعيان ﴿ الملك المغيث عمر بن الصالح أيوب ﴾

كان الصالح إسماعيل قد أسره وسجنه فى برج قلعة دمشق ، حين أخذها فى غيبة الصالح أيوب . فاجتهد أبوه بكل ممكن فى خلاصه فلم يقدر . وعارضه فيه أمين الدولة غزال المسلمانى . واقف المدرسة الأمينية التى ببعلبك ، فلم يزل الشاب محبوساً فى القلعة من سنة ثمان وثلاثين إلى ليلة الجمعة ثانى عشر ربيع الآخر من هذه السنة ، فأصبح ميتا فى محبسه غما وحزنا ، ويقال إنه قتل فالله أعلم . وكان من خيار أبناء الملوك ، وأحسنهم شكلا ، وأكملهم عقلا . ودفن عند جده الكامل فى تربته شمالى الجامع . فاشتد حنق أبيه الصالح أيوب على صاحب دمشق . وممن توفى فيها شيخ الشيوخ بدمشق : ﴿ تاج الدين أبو عبد الله بن عمر بن حمويه ﴾

أحد الفضلاء المؤرخين المصنفين ، له كتاب فى ثمانى مجلدات ، ذكر فيه أصول ، وله السياسة الملوكية صنفها للكامل محمد وغير ذلك . وسمع الحديث وحفظ القرآن ، وكان قد بلغ الثمانين . وقيل إنه لم يبلغها . وقد سافر إلى بلاد المغرب فى سنة ثلاث وتسعين ، واتصل بمراكش عند ملكها المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ، فأقام هناك إلى سنة ستمائة ، فقدم إلى ديار مصر وولى مشيخة الشيوخ بعد أخيه صدر الدين بن حمويه رحمه الله تعالى .

﴿ الوزير نصر الدين أبو الأزهر ﴾

أحمد بن محمد بن على بن أحمد الناقد البغدادى وزير المستنصر ثم ابنه المستعصم ، كان من أبناء التجار ، ثم توصل إلى أن وزر لهذين الخليفتين . وكان فاضلا بارعا حافظا للقرآن كثير التلاوة . نشأ فى حشمة باذخة . ثم كان فى وجاهة هائلة ، وقد أقعد فى آخر أمره ، وهو مع هذا فى غاية الاحترام والاكرام . وله أشعار حسنة أورد منها ابن الساعى قطعة صالحة ، توفى فى هذه السنة وقد جاوز الخمسين رحمه الله تعالى. ﴿ نقيب النقباء خطيب الخطباء ﴾

وكيل الخلفاء أبو طالب الحسين بن أحمد بن على بن أحمد بن معين بن هبة الله بن محمد بن على

ابن الخليفة المهتـدى بالله العباسى ، كان من سادات العباسـيين وأئمة المسلمين ، وخطباء المؤمنين ، استمرت أحواله على السداد والصلاح ، لم ينقطع قط عن الخطابة ولم يمرض قط حتى كانت ليلة السبت الثامن والعشرين من هذه السنة ، قام فى أثناء الليل لبعض حاجاته فسقط على أم رأسه ، فسقط من فمه دم كثير وسكت فلم ينطق كلمة واحدة يومه ذلك إلى الليـل ، فمات وكانت له جنازة حافلة رحمه الله تعالى وعفا عنه بمنه وكرمه .

﴿ ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين وستمائة ﴾

وهى سنـة الخوارزمية ، وذلك أن الصالح أيوب بن الكامل صاحب مصر بعث الخوارزميـة ومعهم ملكهم بركات خان فى صحبة معين الدين ابن الشيخ ، فأحاطوا بدمشق يحاصرون عمه الصالح أبا الجيش صاحب دمشق ، وحرق قصر حجاج ، وحكر السماق ، وجامع جراح خارج باب الصغير ، ومساجد كثيرة ، ونصب المنجنيق عنـد باب الصغير وعند باب الجابية ، ونصب من داخل البلد منجنيقان أيضاً ، وتراأى الفريقان وأرسل الصالح إسماعيل إلى الأمير معين الدين بن الشيخ بسجادة وعكاز وإبريق وأرسل يقول: اشتغالك بهذا أولى من اشتغالك بمحاصرة الملوك ، فأرسل إليه المعين بزمر وجنك وغلالة حرير أحمر وأصفر ، وأرسل يقول له : أما السجادة فانها تصلح لى ، وأما أنت فهذا أولى بك . ثم أصبح ابن الشيخ فاشتد الحصار بدمشق ، وأرسل الصالح إسماعيل فأحرق جوسق قصر والده العادل ، وامتد الحريق فى زقاق الرمان إلى العقبيـة فأحرقت بأسرها ، وقطعت الأنهار وغلت الأسعار ، وأخيفت الطرق وجرى بدمشق أمور بشعة جدا ، لم يتم عليها قط ، وامتد الحصار شهورا من هذه السنة إلى جمادى الأولى ، فأرسـل أمين الدولة يطلب من ابن الشيخ شيئا من ملابسه ، فأرسل إليه بفرجية وعمامة وقميص ومنديل ، فلبس ذلك الأمين وخرج إلى معين الدين ، فاجتمع به بعد العشاء طويلا ، ثم عاد ثم خرج مرة أخرى فاتفق الحال على أن يخرج الصالح إسماعيل إلى بعلبك ويسلم دمشق إلى الصالح أيوب ، فاستبشر الناس بذلك وأصبح الصالح إسماعيل خارجا إلى بعلبك ودخل معين الدين ابن الشيخ فنزل فى دار أسامة ، فولى وعزل وقطع ووصل ، وفوض قضاء القضاة إلى صدر الدين بن سنى الدولة ، وعزل القـاضى محى الدين بن الزكى ، واسـتناب ابن سنى الدولة التفليسى الذى ناب لابن الزكى والفرز السنجـارى ، وأرسـل معين الدين ابن الشيخ أمين الدولة غزال ابن المسلمانى وزير الصالح إسماعيل تحت الحوطة إلى الديار المصرية .

وأما الخوارزمية فانهم لم يكونوا حاضرين وقت الصلح ، فلما علموا بوقوع الصلح غضبوا وساروا نحو داريا فنهبوها وسـاقوا نحو بلاد الشرق ، وكاتبوا الصالح إسماعيل فخالفوه عـلى الصالح أيوب ، ففرح بذلك ونقض الصلح الذى كان وقع منه ، وعادت الخوارزمية فحاصروا دمشق ، وجاء إليهم الصالح

إسماعيل من بعلبك فضاق الحال على الدماشقة ، فعدمت الأموال وغلت الأسعار جدا، حتى إنه بلغ ثمن الغرارة ألف وستمائة، وقنطار الدقيق تسعمائة ، والخبز كل وقيتين إلا ربع بدرهم ، و رطل اللحم بسبعة و بيعت الأملاك بالدقيق ، وأكلت القطاط والكلاب والميتات والجيفات ، وتماوت الناس فى الطرقات وعجزوا عن التغسيل والتكفين والاقبار، فكانوا يلقون موتاهم فى الآبار ، حتى أنتنت المدينة وضجر الناس ، فانا لله و إنا إليه راجعون .

و فى هذه الأيام توفى الشيخ تقى الدين ابن الصلاح ، شيخ دار الحديث وغيرها من المدارس ، فما أخرج من باب الفرج إلا بعد جهد جهيد ، ودفن بالصوفية رحمه الله

قال ابن السبط ، ومع هذا كانت الخمور دائرة والفسق ظاهراً ، والمكوس بحالها وذكر الشيخ شهاب الدين أن الأسعار غلت فى هذه السنة جداً ، وهلك الصعاليك بالطرقات ، كانوا يسألون لقمة ثم صاروا يسألون لبابة ثم تنازلوا إلى فاس يشترون به نخالة يبلونها و يأكلونها ، كالدجاج . قال : وأنا شاهدت ذلك . وذكر تفاصيل الأسعار وغلاءها فى الأطعمة وغيرها ، ثم زال هذا كله فى آخر السنة بعد عيد الأضحى ولله الحمد .

ولما بلغ الصالح أيوب أن الخوارزمية قد مالؤا عليه وصالحوا عمه الصالح إسماعيل ، كاتب الملك المنصور إبراهيم بن أسد الدين شيركوه صاحب حمص ، فاستماله إليه وقوى جانب نائب دمشق معين الدين حسين ابن الشيخ ، ولكنه توفى فى رمضان من هذه السنة كما سيأتى فى الوفيات . ولما رجع المنصور صاحب حمص عن موالاة الصالح إسماعيل شرع فى جمع الجيوش من الحلبيين والتركمان والأعراب لاستنقاذ دمشق من الخوارزمية ، وحصارهم إياها ، فبلغ ذلك الخوارزمية فخافوا من غائلة ذلك ، وقالوا دمشق ماتفوت ، والمصلحة قتاله عند بلده ، فساروا إلى بحيرة حمص ، وأرسل الناصر دواد جيشه إلى الصالح إسماعيل مع الخوارزمية ، وساق جيش دمشق فانضافوا إلى صاحب حمص ، والتقوا مع الخوارزمية عند بحيرة حمص ، وكان يوما مشهوداً ، قتل فيه عامة الخوارزمية، وقتل ملكهم بركات خان ، وجئ برأسه على رمح ، فتفرق شملهم وتمزقوا شذر مذر ، وساق المنصور صاحب حمص إلى بعلبك فتسلمها الصالح أيوب ، وجاء إلى دمشق فنزل ببستان سامة خدمة للصالح أيوب ، ثم حدثته نفسه بأخذها فاتفق مرضه ، فمات رحمه الله فى السنة الآتية، ونقل إلى حمص، فكانت مدة ملكه بعد أبيه عشر سنين ، وقام من بعده فيها ابنه الملك الأشرف مدة سنتين ، ثم أخذت منه على ماسيأتى وتسلم نواب الصالح أيوب بعلبك و بصرى ، ولم يبق بيد الصالح إسماعيل بلد يأوى إليه ولا أهل ولا ولد ولا مال ، بل أخذت جميع أمواله ونقلت عياله تحت الحوطة إلى الديار المصرية ، وسار هو فاستجار بالملك الناصر بن العزيز بن الظاهر غازى صاحب حلب ، فآواه وأكرمه واحترمه ، وقال

الاتابك لؤلؤ الحلبي لابن أستاذه الناصر ، وكان شابا صغيراً : انظر إلى عاقبة الظلم . وأما الخوارزمية فانهم ساروا إلى ناحية الكرك فأكرمهم الناصر داود صاحبها ، وأحسن إليهم وصاهرهم وأنزلهم بالصلت فأخذوا معها نابلس ، فأرسل إليهم الصالح أيوب جيشا مع فخر الدين ابن الشيخ فكسرهم على الصلت وأجلاهم عن تلك البلاد ، وحاصر الناصر بالكرك وأهانه غاية الاهانة ، وقدم الملك الصالح نجم الدين أيوب من الديار المصرية فدخل دمشق فى أبهة عظيمة ، وأحسن إلى أهلها ، وتصدق على الفقراء والمساكين ، وسار إلى بعلبك و إلى بصرى و إلى صرخد ، فتسلمها من صاحبها عزالدين أيبك المعظمى ، وعوضه عنها ثم عاد إلى مصر مؤيداً منصوراً . وهذا كله فى السنة الآتية .

وفى هذه السنة كانت وقعة عظيمة بين جيش الخليفة و بين التتار لعنهم الله ، فكسرهم المسلمون كسرة عظيمة وفرقوا شملهم ، وهزموا من بين أيديهم ، فلم يلحقوهم ولم يتبعوهم ، خوفا من غائلة مكرهم وعملا بقوله ﷺ « اتركوا الترك ما تركوكم » . وفى هذه السنة ظهر ببلاد خوزستان على شق جبل داخله من الابنية الغريبة العجيبة ما يحار فيه الناظر ، وقد قيل إن ذلك من بناء الجن ، وأورد صفته ابن الساعى فى تاريخه

ومن توفى فى هذه السنة من الأعيان

﴿ الشيخ تقى الدين ابن الصلاح ﴾

عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان الامام العلامة ، مفتى الشام ومحدثها ، الشهرزورى ثم الدمشقى ، سمع الحديث ببلاد الشرق وتفقه هنالك بالموصل وحلب وغيرها ، وكان أبوه مدرساً بالأسدية التى بحلب ، و واقفها أسد الدين شيركوه ابن شاذى ، وقدم هو الشام وهو فى عداد الفضلاء الكبار . وأقام بالقدس مدة ودرس بالصلاحية ، ثم تحول منه إلى دمشق ، ودرس بالرواحية ثم بدار الحديث الأشرفية ، وهو أول من وليها من شيوخ الحديث ، وهو الذى صنف كتاب وقفها ، ثم بالشامية الجوانية ، وقد صنف كتبا كثيرة مفيدة فى علوم الحديث والفقه [وله] تعاليق حسنة على الوسيط وغيره من الفوائد التى يرحل إليها . وكان ديناً زاهدا و رعا ناسكا ، على طريق السلف الصالح ، كما هو طريقة متأخرى أكثر المحدثين ، مع الفضيلة التامة فى فنون كثيرة ، ولم يزل على طريقة جيدة حتى كانت وفاته بمنزله فى دار الحديث الأشرفية ليلة الأربعاء الخامس والعشرين من ربيع الآخر من سنة ثلاث وأربعين وستمائة ، وصلى عليه بجامع دمشق وشيعه الناس إلى داخل باب الفرج ، ولم يمكنهم البروز لظاهره لحصار الخوارزمية ، وما صحبه إلى جبانة الصوفية إلا نحو العشرة رحمه الله وتغمده برضوانه . وقد أثنى عليه القاضى شمس الدين بن خلكان ، وكان من شيوخه . قال السبط أنشدنى الشيخ تقى الدين من لفظه رحمه الله :

احذر من الواوات أربعة ■ فهن من الحتوف
واو الوصية والوديعة * والوكالة والوقوف

وحكى ابن خلكان عنه أنه قال : ألهمت فى المنام هؤلاء الكلمات : ادفع المسألة ما وجدت التحمل يمكنك فان لكل يوم رزقا جديدا ، والالحاح فى الطلب يذهب البهاء ، وما أقرب الصنيع من الملهوف ، وربما كان العسر نوعا من آداب الله ، والحظوظ مراتب فلا تعجل على ثمرة قبل أن تدرك فانك ستنالها فى أوانها ، ولا تعجل فى حوائجك فتضيق بها ذرعا ، ويغشاك القنوط .

﴿ ابن النجار الحافظ صاحب التاريخ ﴾

محمد بن محمود بن الحسن بن هبة الله بن محاسن ابن النجار ، أبو عبد الله البغدادى الحافظ الكبير ، سمع الكثير ورحل شرقا وغربا ، ولد سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة ، وشرع فى كتابة التاريخ وعمره خمسة عشر سنة ، والقراءات وقرأ بنفسه على المشايخ كثيرا حتى حصل نحوا من ثلاثة آلاف شيخ ، من ذلك نحو من أربعمائة امرأة ، وتغرب ثمانيا وعشرين سنة ، ثم جاء إلى بغداد وقد جمع أشياء كثيرة ، من ذلك القمر المنير فى المسند الكبير ، يذكر لكل صحابى ما روى . وكنز الأيام فى معرفة السنن والأحكام ، والمختلف والمؤتلف ، والسابق واللاحق ، والمتفق والمفترق ، وكتاب الألقاب ، ونهج الاصابة فى معرفة الصحابة ، والكافى فى أسماء الرجال ، وغير ذلك مما لم يتم أكثره وله كتاب الذيل على تاريخ مدينة السلام ، فى ستة عشر مجلدا كاملا ، وله أخبار مكة والمدينة وبيت المقدس ، وغرر الفوائد فى خمس مجلدات ، وأشياء كثيرة جدا سردها ابن الساعى فى ترجمته ، وذكر أنه لما عاد إلى بغداد عرض عليه الاقامة فى المدارس فأبى وقال : معى ما أستغنى به عن ذلك فاشترى جارية وأولدها وأقام برهة ينفق مدة على نفسه من كيسه ، ثم احتاج إلى أن نزل محدثا فى جماعة المحدثين بالمدرسة المستنصرية حين وضعت ، ثم مرض شهرين وأوصى إلى ابن الساعى فى أمر تركته وكانت وفاته يوم الثلاثاء الخامس من شعبان من هذه السنة ، وله من العمر خمس وسبعون سنة وصلى عليه بالمدرسة النظامية ، وشهد جنازته خلق كثير ، وكان ينادى حول جنازته هذا حافظ حديث رسول الله ﷺ ، الذى كان ينفى الكذب عنه . ولم يترك وارثا ، وكانت تركته عشرين دينارا وثياب بدنه ، وأوصى أن يتصدق بها ، ووقف خزانتين من الكتب بالنظامية تساوى ألف دينار ، فأمضى ذلك الخليفة المستعصم ، وقد أثنى عليه الناس ورثوه بمراث كثيرة ، سردها ابن الساعى فى آخر ترجمته

﴿ الحافظ ضياء الدين المقدسى ﴾

ابن الحافظ محمد بن عبد الواحد [1] سمع الحديث الكثير وكتب كثيراً وطوف وجمع وصنف

(١) بياض بجميع الأصول .

وألف كتبا مفيدة حسنة كثيرة الفوائد ، من ذلك كتاب الأحكام ولم يتمه ، وكتاب المختارة وفيه علوم حسنة حديثية ، وهى أجود من مستدرك الحاكم لو كمل ، وله فضائل الأعمال وغير ذلك من الكتب الحسنة الدالة على حفظه واطلاعه وتضلعه من علوم الحديث متنا و إسناداً . وكان رحمه الله فى غاية العبادة والزهادة والورع والخير ، وقد وقف كتبا كثيرة عظيمة لخزانة المدرسة الضيائية التى وقفها على أصحابهم من المحدثين والفقهاء ، وقد وقفت عليها أوقاف أخر كثيرة بعد ذلك .

﴿ الشيخ علم الدين أبو الحسن السخاوى ﴾

على بن محمد بن عبد الصمد بن عبد الأحد بن عبد الغالب الهمذانى المصرى ، ثم الدمشقى شيخ القراء بدمشق، ختم عليه ألوف من الناس ، وكان قد قرأ على الشاطبى وشرح قصيدته ، وله شرح المفصل وله تفاسير وتصانيف كثيرة ، ومدائح فى رسول الله ﷺ ، وكانت له حلقة بجامع دمشق، وولى مشيخة الاقراء بتربة أم الصالح ، وبها كان مسكنه وبه توفى ليلة الأحد ثانى عشر جمادى الآخرة ، ودفن بقاسيون . وذكر القاضى ابن خلكان أن مولده فى سنة ثمان وخمسين وخمسمائة وذكر من شعره قوله :

قالوا غدا نأتى ديار الحمى * وينزل الركب بمغناهم
وكل من كان مطيعا لهم * أصبح مسروراً بلقياهم
قلت فلى ذنب فما حيلتى * بأى وجه أتلقاهم
قالوا أليس العفو من شأنهم * لا سيما عمن ترجاهم

﴿ ربيعة خاتون بنت أيوب ﴾

أخت السلطان صلاح الدين ، زوجها أخوها أولا بالأمير سعد الدين مسعود بن معين الدين وتزوج هو بأخته عصمة الدين خاتون ، التى كانت زوجة الملك نور الدين واقفة الخاتونية الجوانية ، والخانقاه البرانية ، ثم لما مات الأمير سعد الدين زوجها من الملك مظفر الدين صاحب إربل ، فأقامت عنده باربل أزيد من أربعين سنة حتى مات ، ثم قدمت دمشق فسكنت بدار العقيقى حتى كانت وفاتها فى هذه السنة وقد جاوزت الثمانين، ودفنت بقاسيون، وكانت فى خدمتها الشيخة الصالحة العالمة أمة اللطيف بنت الناصح الحنبلى ، وكانت فاضلة ، ولها تصانيف ، وهى التى أرشدتها إلى وقف المدرسة بسفح قاسيون على الحنابلة ، ووقفت أمة اللطيف على الحنابلة مدرسة أخرى وهى الآن شرقى الرباط الناصرى ، ثم لما ماتت الخاتون وقعت العالمة بالمصادرات وحبست مدة ثم أفرج عنها وتزوجها الأشرف صاحب حمص ، وسافرت معه إلى الرحبة وتل راشد ، ثم توفيت فى سنة ثلاث وخمسين ، ووجد لها بدمشق ذخائر كثيرة وجواهر ثمينة ، تقارب ستمائة ألف درهم ، غير

الأملاك والأوقاف رحمها الله تعالى .

﴿ معين الدين الحسن بن شيخ الشيوخ ﴾

وزير الصالح نجم الدين أيوب ، أرسله إلى دمشق فحاصرها مع الخوارزمية أول مرة حتى أخذها من يد الصالح إسماعيل ، وأقام بها نائبا من جهة الصالح أيوب ، ثم مالأ الخوارزمية مع الصالح إسماعيل عليه فحصروه بدمشق ، ثم كانت وفاته فى العشر الأخر من رمضان هذه السنة ، عن ست وخمسين سنة ، فكانت مدة ولايته بدمشق أربعة أشهر ونصف . وصلى عليه بجامع دمشق ، ودفن بقاسيون إلى جانب أخيه عماد الدين . وفيها كانت وفاة واقف القليجية للحنفية . وهو الأمير ،

﴿ سيف الدين بن قلج ﴾

ودفن بتربته التى بمدرسته المذكورة ، التى كانت سكنه بدار فلوس تقبل الله تعالى منه . وخطيب الجبل شرف الدين عبد الله بن الشيخ أبى عمر رحمه الله . والسيف أحمد بن عيسى بن الامام موفق الدين بن قدامة . وفيها توفى إمام الكلاسة الشيخ تاج الدين أبو الحسن محمد بن أبى جعفر مسند وقته ، وشيخ الحديث فى زمانه رواية وصلاحا رحمه الله تعالى . والمحدثان الكبيران الحافظان المفيدان شرف الدين أحمد بن الجوهرى وتاج الدين عبد الجليل الأبهرى .

﴿ ثم دخلت سنة أربع وأربعين وستمائة ﴾

فيها كسر المنصور الخوارزمية عند بحيرة حمص واستقرت يد نواب الصالح أيوب على دمشق وبعلبك وبصرى ، ثم فى جمادى الآخرة كسر فخر الدين بن الشيخ الخوارزمية على الصلت كسرة فرق بقية شملهم ، ثم حاصر الناصر بالكرك ورجع عنه إلى دمشق. وقدم الصالح أيوب إلى دمشق فى ذى القعدة فأحسن إلى أهلها وتسلم هذه المدن المذكورة ، وانتزع صرخد من يد عز الدين أيبك ، وعوضه عنها ، وأخذ الصلت من الناصر داود بن المعظم وأخذ حصن الصبية من السعيد بن العزيز بن العادل ، وعظم شأنه جدا ، وزار فى رجوعه بيت المقدس وتفقد أحواله وأمر باعادة أسواره أن تعمر كما كانت فى الدولة الناصرية ، فاتح القدس ، وأن يصرف الخراج ومايتحصل من غلات بيت المقدس فى ذلك ، وإن عاز شيئا صرفه من عنده . وفيها قدمت الرسل من عند البابا الذى للنصارى تخبر بأنه قد أباح دم الابدور ملك الفرنج لتهاونه فى قتال المسلمين ، وأرسل طائفة من عنده ليقتلوه ، فلما انتهوا إليه كان استعدلهم وأجلس مملوكا له على السرير فاعتقدوه الملك فقتلوه ، فعند ذلك أخذهم الأبدور فصلبهم على باب قصره بعد ماذبحهم وسلخهم وحشى جلودهم تبناً ، فلما بلغ ذلك البابا أرسل إليه جيشاً كثيفاً لقتاله فأوقع الله الخلف بينهم بسبب ذلك ، وله الحمد والمنة .

وفيها هبت رياح عاصفة شديدة بمكة فى يوم الثلاثاء من عشر ربيع الآخر ، فألقت ستارة

الكعبة المشرفة ، وكانت قد عتقت ، فانها من سنة أربعين لم تجدد لعدم الحج فى تلك السنين من ناحية الخليفة ، فما سكنت الريح إلا والكعبة عريانة قد زال عنها شعار السواد ، وكان هذا فألا على زوال دولة بنى العباس ، ومنذراً بما سيقع بعد هذا من كائنة التتار لعنهم الله تعالى . فاستأذن نائب اليمن عمر بن سول شيخ الحرم العفيف بن منعة فى أن يكسو الكعبة ، فقال لايكون هذا إلا من مال الخليفة ، ولم يكن عنده مال فاقترض ثلثمائة دينار واشترى ثياب قطن وصبغها سواداً وركب عليها طرازاتها العتيقة وكسى بها الكعبة ومكثت الكعبة ليس عليها كسوة إحدى وعشرين ليلة . وفيها افتتحت دار الكتب التى أنشأها الوزير مؤيد الدين محمد بن أحمد العلقمى بدار الوزارة ، وكانت فى نهاية الحسن ، ووضع فيها من الكتب النفيسة والنافعة شىء كثير، وامتدحها الشعراء بأبيات وقصائد حسانا وفى أواخر ذى الحجة طهر الخليفة المستعصم بالله ولديه الأميرين أبا العباس أحمد ، وأبا الفضائل عبد الرحمن ، وعملت ولائم فيها كل أفراح ومسرة ، لا يسمع بمثلها من أزمان متطاولة ، وكان ذلك وداعا لمسرات بغداد وأهلها فى ذلك الزمان .

وفيها احتاط الناصر داود صاحب الكرك على الأمير عماد الدين داود بن موسك بن حسكو ، وكان من خيار الأمراء الأجواد ، واصطفى أمواله كلها وسجنه عنده فى الكرك ، فشفع فيه فخر الدين ابن الشيخ لما كان محاصره فى الكرك فأطلقه ، فخرجت فى حلقه جراحة فبطها فمات ودفن عند قبر جعفر والشهداء بحوته رحمه الله تعالى .

وفيها توفى ملك الخوارزمية قبلا بركات خان لما كسرت أصحابه عند بحيرة حمص كما تقدم ذكره وفيها توفى ﴿ الملك المنصور ﴾

ناصر الدين إبراهيم بن الملك المجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص بدمشق ، بعد أن سلم بعلبك للصالح أيوب ، ونقل إلى حمص ، وكان نزوله أولا ببستان سامة ، فلما مرض حمل إلى الدهشة بستان الأشرف بالنيرب فمات فيه . وفيها توفى .

﴿ الصائن محمد بن حسان ﴾

ابن رافع العامرى الخطيب ، وكان كثير السماع مسندا ، وكانت وفاته بقصر حجاج رحمه الله تعالى. وفيها توفى ﴿ الفقيه العلامة محمد بن محمود بن عبد المنعم ﴾

المرامى الحنبلى وكان فاضلا ذا فنون ، أثنى عليه أبو شامة . قال : صحبته قديما ولم يترك بعده بدمشق مثله فى الحنابلة ، وصلى عليه بجامع دمشق ودفن بسفح قاسيون رحمه الله .

﴿ والضياء عبد الرحمن الغمارى ﴾

المالكى الذى ولى وظائف الشيخ أبى عمرو ابن الحاجب حين خرج من دمشق سنة ثمان

وثلاثين وجلس فى حلقته ودرس مكانه بزاوية المالكية والفقيه تاج الدين إسماعيل بن جميل بحلب ، وكان فاضلا دينا سليم الصدر رحمه الله .

﴿ ثم دخلت سنة خمس وأربعين وستمائة ﴾

فيها كان عود السلطان الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل من الشام إلى الديار المصرية ، وزار فى طريقه بيت المقدس وفرق فى أهله أموالا كثيرة ، وأمر باعادة سوره كما كان فى أيام عم أبيه الملك الناصر فاتح القدس . ونزل الجيوش لحصار الفرنج ففتحت طبرية فى عاشر صفر وفتحت عسقلان فى أواخر جمادى الآخرة ، وفى رجب عزل الخطيب عماد الدين داود بن خطيب بيت الأبار عن الخطابة بجامع الأموى ، وتدريس الغزالية ، وولى ذلك للقاضى عماد الدين بن عبد الكريم بن الحرستانى شيخ دار الحديث بعد ابن الصلاح . وفيها أرسل الصالح أيوب يطلب جماعة من أعيان الدماشقة اتهموا بممالأة الصالح إسماعيل ، منهم القاضى محيى الدين بن الزكى ، وبنو صصرى وابن العماد الكاتب ، والحليمى مملوك الصالح إسماعيل ، والشهاب غازى والى بصرى ، فلما وصلوا إلى مصر لم يكن إليهم شئ من العقوبات والاهانة ، بل خلع على بعضهم وتركوا باختيارهم مكرمين .

ومن توفى فيها من الأعيان . ﴿ الحسين بن الحسين بن على ﴾

ابن حمزة العلوى الحسينى ، أبو عبد الله الافساسى النقيب قطب الدين ، أصله من الكوفة وأقام ببغداد ، وولى النقابة ، ثم اعتقل بالكوفة ، وكان فاضلا أديباً شاعرا مطبقا ، أورد له ابن الساعى أشعاراً كثيرة رحمه الله .

﴿ الشلوبين النحوى ﴾

هو عمر بن محمد بن عبد الله الأزدى ، أبو على الأندلسى الأشبيلى ، المعروف بالشلوبين . وهو بلغة الأندلسيين الأبيض الأشقر . قال ابن خلكان : ختم به أئمة النحو ، وكان فيه تغفل ، وذكر له شعرا ومصنفات ، منها شرح الجزولية وكتاب التوطئة . وأرخ وفاته بهذه السنة . وقد جاوز الثمانين رحمه الله تعالى وعفا عنه .

﴿ الشيخ على المعروف بالحريرى ﴾

أصله من قرية بسر شرقى ذرع ، وأقام بدمشق مدة يعمل صنعة الحرير ، ثم ترك ذلك وأقبل يعمل الفقيرى على يد الشيخ على المغربل ، وابتنى له زاوية على الشرف القبلى ، وبدرت منه أفعال أنكرها عليه الفقهاء ، كالشيخ عز الدين بن عبد السلام ، والشيخ تقى الدين ابن الصلاح ، والشيخ أبى عمرو بن الحاجب شيخ المالكية وغيرهم ، فلما كانت الدولة الأشرفية حبس فى قلعة عزتا مدة سنين ثم أطلقه الصالح إسماعيل واشترط عليه أن لا يقيم بدمشق ، فلزم بلده بسر مدة حتى كانت وفاته فى

هـذه السنة ، قال الشيخ شهاب الدين أبو شامـة فى الذيل : وفى رمضان أيضاً توفى الشيخ عـلى المعروف بالحريرى المقيم بقرية بسر فى زاويتـه ، وكان يتردد إلى دمشق ، وتبعه طائفة من الفقراء وهم المعروفون بأصحاب الحريرى أصحاب المنافى للشريعة ، وباطنهم شر من ظاهرهم ، إلا من رجع إلى الله منهم ، وكان عند هذا الحريرى من الاستهزاء بأمور الشريعة والتهاون فيها من إظهار شعائر أهل الفسوق والعصيان شىء كثير ، وانفسد بسببه جماعة كبيرة من أولاد كبراء دمشق وصاروا على زى أصحابه ، وتبعوه بسبب أنه كان خليع العذار ، يجمع بمجلسه الغنا الدائم والرقص والمردان ، وترك الانكار على أحد فيما يفعله ، وترك الصلوات وكثرت النفقات ، فأضل خلقا كثيرا وأفسد جما غفيرا ، ولقد أفتى فى قتله مرارا جماعة من علماء الشريعة ، ثم أراح الله تعالى منه . هذا لفظه بحروفه .

﴿ واقف العزية الأمير عز الدين أيبك ﴾

أستاذ دار المعظم ، كان من العقلاء الأجواد الأمجاد ، استنابه المعظم على صرخد وظهرت منه نهضة وكفاية وسداد ، ووقف العزيتين الجوانية والبرانية ، ولما أخذ منه الصالح أيوب صرخد عوضه عنها وأقام بدمشق ثم وشى عليه بأنه يكاتب الصالح إسماعيل فاحتيط عليه وعلى أمواله وحواصله فمرض وسقط إلى الأرض ، وقال : هذا آخر عهدى . ولم يتكلم حتى مات ودفن بباب النصر بمصر رحمه الله تعالى ، ثم نقل إلى تربته التى فوق الوراقة . وإنما أرخ السبط وفاته فى سنة سبع وأربعين فالله أعلم .

﴿ الشهاب غازى بن العادل ﴾

صاحب ميا فارقين وخلاط وغيرهما من البلدان ، كان من عقلاء بنى أيوب وفضلائهم ، وأهل الديانة منهم ، ومما أنشد قوله :

ومن عجب الأيام أنك جالس * على الأرض فى الدنيا وأنت تسير
فسيرك يا هذا كسير سفينة * بقوم جلوس والقلوع تطير

﴿ ثم دخلت سنة ست وأربعين وستمائة ﴾

فيها قدم السلطان الصالح نجم الدين من الديار المصرية إلى دمشق وجهز الجيوش والمجانيق إلى حمص ، لأنه كان صاحبها الملك الأشرف بن موسى بن المنصور بن أسد الدين قد قايض بها إلى تل باشر لصاحب حلب الناصر يوسف بن العزيز ، ولما علمت الحلبيون بخروج الدماشقة برزوا أيضاً فى جحفل عظيم ليمنعوا حمص منهم ، واتفق الشيخ نجم الدين البادزاى مدرس النظامية ببغداد فى رسالة فأصلح بين الفريقين ، ورد كلا من الفئتين إلى مستقرها ولله الحمد . وفيها قتل مملوك تركى شاب صبى لسيده على دفعه عنه لما أراد به من الفاحشة ، فصلب الغلام مسمرا ، وكان شابا حسنا جدا فتأسف الناس له لكونه صغيرا ومظلوما وحسنا ، ونظموا فيه قصائد ، وممن نظم فيه الشيخ شهاب

الدين أبو شامة فى الذيل ، وقد أطال قصته جدا . وفيها سقطت قنطرة رومية قديمة البناء بسوق الدقيق من دمشق ، عند قصر أم حكيم ، فتهدم بسببها شئ كثير من الدور والدكاكين ، وكان سقوطها نهارا . وفى ليلة الأحد الخامس والعشرين من رجب وقع حريق بالمنارة الشرقية فأحرق جميع حشوها ، وكانت سلالمها سقالات من خشب ، وهلك للناس ودائع كثيرة كانت فيها ، وسلم الله الجامع وله الحمد . وقدم السلطان بعد أيام إلى دمشق فأمر باعادتها كما كانت ، قلت : ثم احترقت وسقطت بالكلية بعد سنة أربعين وسبعمائة وأعيدت عمارتها أحسن مما كانت ولله الحمد . وبقيت حينئذ المنارة البيضاء الشرقية بدمشق كما نطق به الحديث فى نزول عيسى عليه السلام عليها ، كما سيأتى بيانه وتقريره فى موضعه إن شاء الله تعالى . ثم عاد السلطان الصالح أيوب مريضاً فى محفة إلى الديار المصرية وهو ثقيل مدنف ، شغله ماهو فيه عن أمره بقتل أخيه العادل أبى بكر بن الكامل الذى كان صاحب الديار المصرية بعد أبيه ، وقد كان سجنه سنة استحوذ على مصر ، فلما كان فى هذه السنة فى شوالها أمر بخنقه نخنق بتربة شمس الدولة ، فما عمر بعده إلا إلى النصف من شعبان فى العام القابل فى أسوأ حال ، وأشد مرض ، فسبحان من له الخلق والأمر .

وفيها كانت وفاة قاضى القضاة بالديار المصرية .

﴿ فضل الدين الخونجى ﴾

الحكيم المنطقى البارع فى ذلك ، وكان مع ذلك جيد السيرة فى أحكامه قال أبوشامة : أثنى عليه غير واحد.

﴿ على بن يحيى جمال الدين أبو الحسن المحرمى ﴾

كان شابا فاضلا أديباً شاعرا ماهرا ، صنف كتابا مختصرا وجيزا جامعاً لفنون كثيرة فى الرياضة والعقل وذم الهوى ، وسماه نتائج الأفكار . قال فيه من الكلام المستفادة الحكمية : السلطان إمام متبوع ، ودين مشروع ، فان ظلم جارت الحكام لظلمه ، وإن عدل لم يجر أحد فى حكمه ، من مكنه الله فى أرضه وبلاده وائتمنه على خلقه وعباده ، وبسط يده وسلطانه ، ورفع محله ومكانه ، فحقيق عليه أن يؤدى الأمانة ، ويخلص الديانة ، ويجمل السريرة ، ويحسن السيرة ، ويجعل العدل دأبه المعهود ، والأجر غرضه المقصود ، فالظلم يزل القدم ، ويزيل النعم ، ويجلب الفقر ، ويهلك الأمم . وقال أيضا : معارضة الطبيب توجب التعذيب ، رب حيلة أنفع من قبيلة ، سمين الغضب مهزول ، ووالى الغدر معزول ، قلوب الحكماء تستشف الأسرار من لمحات الأبصار ، ارض من أخيك فى ولايته بعشر ما كنت تعهده فى مودته ، التواضع من مصائد الشرف ، ما أحسن حسن الظن لولا أن فيه العجز . ما أقبح سوء الظن لولا أن فيه الحزم . وذكر فى غضون كلامه أن خادماً لعبدالله بن عمر أذنب فأراد ابن عمر أن يعاقبه على ذنبه فقال : يا سيدى أما لك ذنب تخاف من الله فيه ؟ قال بلى ،

قال بالذى أمهلك لما أمهلتنى ، ثم أذنب العبد ثانياً فأراد عقوبته فقال له مثل ذلك فعفا عنـه ، ثم أذنب الثالثة فعاقبه وهو لا يتكلم فقال له ابن عمر : مالك لم تقل مثل ما قلت فى الأولتين ؟ فقال : يا سيدى حياء من حلمك مع تكرار جرمى . فبكى ابن عمر و قال : أنا أحق بالحياء من ربى ، أنت حر لوجه الله تعالى .ومن شعره يمدح الخليفة .

يا من إذا بخل السحاب بمائه * هطلت يداه على البرية عسجدا

جورت كسرى يا مبخل حاتم * فغدت بنو الآمال نحوك سجدا

وقد أورد له ابن الساعى أشعارا كثيرة حسنة رحمه الله تعالى .

﴿ الشيخ أبو عمرو بن الحاجب ﴾

المالكى عثمان بن عمر بن أبى بكر بن يونس الرويني ثم المصرى ، العلامة أبو عمرو شيخ المالكية كان أبوه صاحبا للأمير عز الدين موسك الصلاحى ، واشـتغل هو بالعلم فقرأ القراءات وحرر النحو تحريرا بليغا ، وتفقه وساد أهـل عصره ، ثم كان رأساً فى عـلوم كثيرة ، منها الأصـول والفروع والعربية والتصريف والعروض والتفسير وغير ذلك . وقد كان استوطن دمشق فى سنة سبع عشرة وستمائة ، ودرس بها للمالكية بالجامع حتى كان خروجـه بصحبة الشيخ عز الدين بن عبد السلام فى سـنة ثمان وثلاثين ، فصـارا إلى الديار المصرية حـتى كانت وفاة الشيخ أبى عمرو فى هـذه السنة بالاسكندرية ، ودفن بالمقبرة التى بين المنارة والبلد . قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة : وكان من أذكى الأئمة قريحـة ، وكان ثقة حجة متواضعاً عفيفا كثير الحياء منصفا محبا للعلم وأهـله ، ناشراً له محتملا للأذى صبورا عـلى البلوى ، قدم دمشق مرارا آخرها سنة سبع عشرة ، فأقام بها مـدرساً للمالكية وشيخا للمستفيدين عليه فى علمى القراءات والعربية ، وكان ركنا من أركان الدين فى العلم والعمل ، بارعا فى العلوم متقنا لمذهب مالك بن أنس رحمـه الله تعالى . وقد أثنى عليه ابن خلكان ثناء كثيرا ، وذكر أنه جاء إليه فى أداء شهادة حين كان نائبا فى الحكم بمصر وسأله عن مسألة اعتراض الشرط على الشرط ، إذا قال إن أكلت إن شربت فأنت طالق ، لم كان يقع الطلاق حين شربت أولا ؟ وذكر أنه أجاب عن ذلك فى تؤدة وسكون . قلت ومختصره فى الفقه من أحسن المختصرات ، انتظم فيه فوائد ابن شاش ، ومختصره فى أصول الفقه ، استوعب فيه عامة فوائد الأحكام لسيف الدين الآمـدى ، وقد من الله تعالى على بحفظه وجمعت كراريس فى الـكلام على ما أودعـه فيه من الأحاديث النبوية ، ولله الحمد . وله شرح المفصـل والأمالى فى العربية والمقدمة المشهورة فى النحو ، اختصر فيها مفصل الزمخشرى وشرحها ، وقد شرحها غيره أيضاً ،وله التصريف وشرحه ، وله عروض على وزن الشاطبية رحمه الله ورضى عنه .

﴿ ثم دخلت سنة سبع وأربعين وستمائة ﴾

فيها كانت وفاة الملك الصالح أيوب ، وقتل ابنه توران شاه وتولية المعز عز الدين أيبك التركماني . وفي رابع المحرم يوم الاثنين توجه الملك الصالح من دمشق إلى الديار المصرية في محفة . قاله ابن السبط. وكان قد نادى في دمشق : من له عندنا شيء فليأت ، فاجتمع خلق كثير بالقلعة ، فدفعت إليهم أموالهم وفي عاشر صفر دخل إلى دمشق نائبها الأمير جمال الدين بن يغمور من جهة الصالح أيوب فنزل بدرب الشمارين داخل باب الجابية ، وفي جمادى الآخرة أمر النائب بتخريب الدكاكين المحدثة وسط باب البريد ، وأمر أن لا يبقى فيها دكان سوى ما في جانبيه إلى جانب الخياطين القبلي والشامي ، وما في الوسط يهدم . قال أبو شامة : وقد كان العادل هدم ذلك ثم أعيد ثم هدمه ابن يغمور ، والمرجو استمراره على هذه الصفة . وفيها توجه الناصر داود من الكرك إلى حلب فأرسل الصالح أيوب إلى نائبه بدمشق جمال الدين بن يغمور بخراب دار أسامة المنسوبة إلى الناصر بدمشق ، وبستانه الذي بالقابون ، وهو بستان القصر ، وأن تقلع أشجاره ويخرب القصر ، وتسلم الصالح أيوب الكرك من الأمجد حسن بن الناصر ، وأخرج من كان بها من بيت المعظم ، واستحوذ على حواصلها وأموالها ، فكان فيها من الذهب ألف ألف دينار ، وأقطع الصالح الأمجد هذا إقطاعا جيداً . وفيها طغى الماء ببغداد حتى أتلف شيئا كثيراً من المحال والدور الشهيرة ، وتعذرت الجمع في أكثر الجوامع بسبب ذلك سوى ثلاث جوامع ، ونقلت توابيت جماعة من الخلفاء إلى الترب من الرصافة خوفا عليهم من أن تغرق محالهم ، منهم المقتصد بن الأمير أبي أحمد المتوكل ، وذلك بعد دفنه بنيف وخمسين سنة وثلثمائة سنة ، وكذا نقل ولده المكتفي وكذا المقتفي بن المقتدر بالله رحمهم الله تعالى . وفيها هجمت الفرنج على دمياط فهرب من كان فيها من الجند والعامة واستحوذ الفرنج على الثغر وقتلوا خلقا كثيرا من المسلمين ، وذلك في ربيع الأول منها ، فنصب السلطان الخيم تجاه العدو بجميع الجيش ، وشنق خلقا ممن هرب من الفرنج ، ولامهم على ترك المصابرة قليلا ليرهبوا عدو الله وعدوهم ، وقوي المرض وتزايد بالسلطان جدا ، فلما كانت ليلة النصف من شعبان توفي إلى رحمة الله تعالى بالمنصورة ، فأخفت جاريته أم خليل المدعوة شجرة الدر موته ، وأظهرت أنه مريض مدنف لا يوصل إليه ، وبقيت تعلم عنه بعلامته سواء . وأعلمت إلى أعيان الأمراء فأرسلوا إلى ابنه الملك المعظم تورانشاه وهو بحصن كيفا ، فأقدموه إليهم سريعاً ، وذلك بإشارة أكابر الأمراء منهم فخر الدين ابن الشيخ ، فلما قدم عليهم ملكوه عليهم وبايعوه أجمعين ، فركب في عصائب الملك وقاتل الفرنج فكسرهم وقتل منهم ثلاثين ألفا ولله الحمد . وذلك في أول السنة الداخلة . ثم قتلوه بعد شهرين من ملكه ، ضربه بعض الأمراء وهو عز الدين أيبك التركماني ، فضربه في يده فقطع بعض أصابعه فهرب إلى

قصر من خشب فى المخيم فحاصروه فيه وأحرقوه عليه ، فخرج من بابه مستجيراً برسول الخليفة فلم يقبلوا منه ، فهرب إلى النيل فانغمر فيه ثم خرج فقتل سريعاً شر قتلة وداسوه بأرجلهم ودفن كالجيفة، فانا لله وإنا إليه راجعون . وكان فيمن ضربه البندقدارى علـى كتفه فخرج السيف من تحت إبطه الآخر وهو يستغيث فلا يغاث .

ومن قتل فى هذه السنة ﴿ فخر الدين يوسف بن الشيخ بن حمويه ﴾

وكان فاضلاً دينا مهيباً وقورا خليقا بالملك ، كانت الأمراء تعظمه جدا ، ولو دعاهم إلى مبايعته بعد الصالح لما اختلف عليه اثنان ، ولكنه كان لايرى ذلك حماية لجانب بنى أيوب ، قتلته الداوية من الفرنج شهيدا قبل قـدوم المعظم توران شاه إلى مصر ، فى ذى القعـدة ، ونهبت أمواله وحواصله وخيوله ، وخربت داره ولم يتركوا شـيئا من الأفعال الشنيعة البشعـة إلا صنعوه به ، مع أن الذين تعاطوا ذلك من الأمراء كانوا معظمين له غاية التعظيم . ومن شعره :

عصيت هوى نفسى صغيرا فعندما ٭ رمتنى الليالى بالمشيب وبالكبر
أطعت الهوى عكس القضية ليتنى ٭ خلقت كبيراً ثم عدت إلى الصغر

﴿ ثم دخلت سنة ثمان وأربعين وستمائة ﴾

فى ثالث المحرم يوم الأربعـاء كان كسر المعظم توران شاه للفرنج عـلى ثغر دمياط ، فقتـل منهم ثلاثين ألفا وقيل مائة ألف ، وغنموا شيئا كثيرا ولله الحمد . ثم قتل جماعة من الأمراء الذين أسروا ، وكان فيمن أسر ملك الفرنسيس وأخوه ، وأرسلت غفارة ملك الأفرنسيس إلى دمشق فلبسها نائبها فى يوم الموكب ، وكانت من سقرلاط تحتها فروسنجاب، فأنشد فى ذلك جماعة من الشعراء فرحا بما وقع ، ودخل الفقراء كنيسة مريم فأقاموا بها فرحا لما نصر الله تعالى على النصارى ، وكادوا أن يخربوها وكانت النصارى ببعلبك فرحوا حين أخذت النصارى دمياط ، فلما كانت هذه الكسرة عليهم سخموا وجوه الصور ، فأرسل نائب البلد فجناهم وأمر اليهود فصفعوهم ، ثم لم يخرج شهر المحرم حتى قتل الأمراء ابن أستاذهم توران شاه ، ودفنوه إلى جانب النيـل من الناحية الأخرى رحمه الله تعالى ورحم أسلافه بمنه وكرمه .

﴿ تمليك الملك المعز عز الدين أيبك التركمانى بمصر بعد بنى أيوب ، وهذا أول دولة الأتراك ﴾

لما قتل الأمراء البحرية وغيرهم من الصالحية ابن أسـتاذهم المعظم غياث الدين توران شاه بن الصالح أيوب بن الـكامل بن العادل أبى بكر بن نجم الدين أيوب ، وكان ملكه بعد أبيه بشهرين كما تقدم بيانه ، ولما انفصل أمره بالقتل نادوا فيما بينهم لابأس لابأس، واستدعوا من بينهم الأمير عز الدين أيبك التركمانى، فملكوه عليهم وبايعوه ولقبوه بالملك المعز، وركبوا إلى القاهرة ، ثم بعد خمسة أيام أقاموا

لهـم صبياً من بنى أيوب ابن عشر سنين وهو الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن الناصر يوسف ابن المسعود إقسيس بن الـكامل ، وجعـلوا المعز أتابكه فكانت السكة والخطبة بينهما ، وكاتبوا أمراء الشام بذلك ، فما تم لهم الأمر بالشام ، بل خرج عن أيديهم ولم تستقر لهم المملكة إلا عـلى الديار المصرية ، وكل ذلك عن أمر الخاتون شجرة الدر أم خليل حظيـة الصالح أيوب ، فتزوجت بالمعز ، وكانت الخطبة والسكة لها ، يدعى لها عـلى المنابر أيام الجمع بمصر وأعمالهـا . وكذا تضرب السكة باسمها أم خليل ، والعلامة على المناشير والتواقيع بخطها واسمها . مدة ثلاثة أشهر قبـل المعز ، ثم آل أمرها إلى ماسنذكره من الهوان والقتل .

﴿ ذكر ملك الناصر بن العزيز بن الظاهر صاحب حلب لدمشق رحمهما الله تعالى ﴾

لما وقع بالديار المصرية من قتل الأمراء للمعظم توران شاه بن الصالح أيوب ركب الحلبيون معهم ابن أستاذهم الناصر يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازى بن الناصر يوسف فاتح بيت المقـدس ، ومن كان عندهم من ملوك بنى أيوب منهم الصالح إسماعيل بن العادل ، وكان أحق الموجودين بالملك . من حيث السن والتعدد والحرمة والرياسـة . ومنهـم الناصر داود بن المعظم بن العادل ، والأشرف موسى بن المنصور إبراهيم بن أسـد الدين شيركوه ، الذى كان صاحب حمص وغـيرهم ، فجاؤا إلى دمشق فحاصروها فملكوها سريعاً ، ونهبت دار ابن يغمور وحبس فى القلعة وتسلموا ما حولها كبعلبك و بصرى والصلت وصرخد . وامتنعت عليهـم الكرك والشوبك بالملك المغيث عمر بن العـادل بن الـكامل ، كان قد تغلب عليهما فى هذه الفتنة حين قتل المعظم توران شاه . فطلبه المصريون ليملكوه عليهـم فخاف مما حل بابنى عمه ، فلم يذهب إليهم . ولما استقرت يد الحلبيين على دمشق وما حولها جلس الناصر فى القلعة وطيب قلوب الناس ، ثم ركبوا إلى غزة ليتسلموا الديار المصرية ، فبرز إليهم الجيش المصرى فاقتتلوا معهم أشد القتال ، فكسر المصريون أولا بحيث إنه خطب للناصر فى ذلك بها ، ثم كانت الدائرة على الشاميين فانهزموا وأسروا من أعيانهـم خلقا كثيراً ، وعدم من الجيش الصالح إسماعيل رحمه الله تعالى ، وقد أنشد هنا الشيخ أبو شامة لبعضهم :

ضيع إسماعيل أموالنا ▪ وخرب المغنى بلا معنى
وراح من جلق هذا جزاء ▪ من أفقر الناس وما استغنى

﴿ ذكر شىء من ترجمة الصالح إسماعيل . أبى الحسن واقف تربة الصالح » ﴾

وقـد كان الصالح رحمه الله ملكا عاقـلا حازماً تتقلب به الأحوال أطوارا كثيرة ، وقـد كان الأشرف أوصى له بدمشق من بعده ، فملكها شهوراً ثم انتزعها منـه أخوه الـكامل . ثم ملكها من يد الصالح أيوب خديعة ومكرا ، فاستمر فيها أزيد من أربع سنين ، ثم استعادها منه الصالح أيوب

عام الخوارزمية سنة ثلاث وأربعين ، واستقرت بيده بلداه بعلبك وبصرى ، ثم أخذتا منه كما ذكرنا ، ولم يبق له بلد يأوى إليه ، فلجأ إلى المملكة الحلبية فى جوار الناصر يوسف صاحبها ، فلما كان فى هذه السنة ما ذكرنا عدم بالديار المصرية فى المعركة فلا يدرى ما فعل به والله تعالى أعلم . وهو واقف التربة والمدرسة ودار الحديث والاقراء بدمشق رحمه الله بكرمه .

وممن توفى فى هذه السنة من الأعيان .

﴿ الملك المعظم توران شاه بن الصالح أيوب ﴾

ابن الكامل ابن العادل ، كان أولا صاحب حصن كيفا فى حياة أبيه ، وكان أبوه يستدعيه فى أيامه فلا يجيبه ، فلما توفى أبوه كما ذكرنا استدعاه الأمراء فأجابهم وجاء إليهم فملكوه عليهم ، ثم قتلوه كما ذكرنا ، وذلك يوم الاثنين السابع والعشرين من المحرم ، وقد قيل إنه كان متخلفا لا يصلح للملك ، وقد رؤى أبوه فى المنام بعد قتل ابنه وهو يقول :

قتلوه شر قتله ** صار للعالم مثله
لم يراعوا فيه إلا ** لا ولا من كان قبله
ستراهم عن قريب ** لأقل الناس أكله

فكان كما ذكرنا من اقتتال المصريين والشاميين . وممن عدم فيما بين الصفين من أعيان الأمراء والمسلمين فمنهم الشمس لؤلؤ مدبر ممالك الحلبيين ، وكان من خيار عباد الله الصالحين الآمرين بالمعروف وعن المنكر ناهين . وفيها كانت وفاة .

﴿ الخاتون ارغوانية ﴾

الحافظية سميت الحافظية لخدمتها وتربيتها الحافظ ، صاحب قلعة جعبر ، وكانت امرأة عاقلة مدبرة عمرت دهرا ولها أموال جزيلة عظيمة ، وهى التى كانت تصلح الأطعمة للمغيث عمر بن الصالح أيوب ، فصادرها الصالح إسماعيل فأخذ منها أربعمائة صندوق من المال ، وقد وقفت دارها بدمشق على خدامها ، واشترت بستان النجيب ياقوت الذى كان خادم الشيخ تاج الدين الكندى ، وجعلت فيه تربة ومسجدا ، ووقفت فيه عليها أوقافا كثيرة جيدة رحمها الله .

واقف الأمينية التى ببعلبك . ﴿ أمين الدولة أبو الحسن غزال المتطبب ﴾

وزير الصالح إسماعيل أبى الجيش الذى كان مشؤما على نفسه ، وعلى سلطانه ، وسببا فى زوال النعمة عنه وعن مخدومه ، وهذا هو وزير السوء ، وقد اتهمه السبط بأنه كان مستهترا بالدين ، وأنه لم يكن له فى الحقيقة دين ، فأراح الله تعالى منه عامة المسلمين ، وكان قتله فى هذه السنة لما عدم الصالح إسماعيل بديار مصر ، عمد من عمد من الأمراء إليه وإلى ابن يغمور فشنقوهما وصلبوهما على القلعة

بمصر متناوحين . وقد وجد لأمين الدولة غزال هذا من الأموال والتحف والجواهر والأثاث مايساوى ثلاثة آلاف ألف دينار ، وعشرة آلاف مجلد بخط منسوب وغير ذلك من الخطوط النفيسة الفائقة .

﴿ ثم دخلت سنة تسع وأربعين وستمائة ﴾

فيها عاد الملك الناصر صاحب حلب إلى دمشق وقدمت عساكر المصريين فحكموا على بلاد السواحل إلى حد الشريعة ، فجهز لهم الملك الناصر جيشاً فطردوهم حتى ردوهم إلى الديار المصرية ، وقصروهم عليها ، وتزوجت فى هذه السنة أم خليل شجرة الدر بالملك المعز الدين أيبك التركمانى ، مملوك زوجها الصالح أيوب . وفيها نقل تابوت الصالح أيوب إلى تربته بمدرسته ، ولبست الأتراك ثياب العزاء ، وتصدقت أم خليل عنه بأموال جزيلة . وفيها خربت الترك دمياط ونقلوا الأهالى إلى مصر وأخلوا الجزيرة أيضاً خوفا من عود الفرنج . وفيها كمل شرح الكتاب المسمى بنهج البلاغة فى عشرين مجلدا مما ألفه عبد الحميد بن داود بن هبة الله بن أبى الحديد المدائنى ، الكاتب للوزير مؤيد الدين بن العلقمى ، فأطلق له الوزير مائة دينار وخلعة وفرسا ، وامتدحه عبد الحميد بقصيدة ، لانه كان شيعياً معتزليا . وفى رمضان استدعى الشيخ سراج الدين عمر بن بركة النهر قلى مدرس النظامية ببغداد فولى قضاء القضاة ببغداد مع التدريس المذكور ، وخلع عليه . وفى شعبان ولى تاج الدين عبد الكريم بن الشيخ محيى الدين يوسف بن الشيخ أبى الفرج بن الجوزى حسبة بغداد بعد أخيه عبد الله الذى تركها تزهدا عنها ، وخلع عليه بطرحة ، ووضع على رأسه غاشية ، وركب الحجاب فى خدمته . وفى هذه السنة صليت صلاة العيد يوم الفطر بعد العصر ، وهذا اتفاق غريب. وفيها وصل إلى الخليفة كتاب من صاحب اليمن صلاح الدين بن يوسف بن عمر بن رسول يذكر فيه أن رجلا باليمن خرج فادعى الخلافة ، وأنه أنفذ إليه جيشاً فكسروه وقتلوا خلقا من أصحابه وأخذ منهم صنعاء وهرب هو بنفسه فى شرذمة ممن بقى من أصحابه . وفيها أرسل الخليفة إليه بالخلع والتقليد وفيها كانت وفاة .

﴿ بهاء الدين على بن هبة الله بن سلامة الحميرى ﴾

خطيب القاهرة ، رحل فى صغره إلى العراق فسمع بها وغيرها ، وكان فاضلا قد أتقن معرفة مذهب الشافعى رحمه الله تعالى ، وكان دينا حسن الأخلاق واسع الصدر كثير البر ، قل أن يقدم عليه أحد إلا أطعمه شيئا ، وقد سمع الكثير على السلفى وغيره ، وأسمع الناس شيئا كثيرا من مروياته ، وكانت وفاته فى ذى الحجة من هذه السنة ، وله تسعون سنة ، ودفن بالقرافة رحمه الله تعالى .

وممن توفى فيها

﴿ أقضى القضاة أبو الفضل عبد الرحمن بن عبد السلام ﴾

ابن إسماعيل بن عبد الرحمن بن إبراهيم اللمعانى الحنفى من بيت العلم والقضاء ، درس بمشهد أبى حنيفة وناب عن قاضى القضاة ابن فضلان الشافعى ، ثم عن قاضى القضاة أبى صالح نصر بن

عبدالرزاق الحنبلى ، ثم عن قاضى القضاء عبد الرحمن بن مقبل الواسطى ، ثم بعد وفاته فى سنة ثلاث وثلاثين استقل القاضى عبد الرحمن اللمعانى بولاية الحكم ببغداد ، ولقب أقضى القضاة ، ولم يخاطب بقاضى القضاة ، ودرس للحنفية بالمستنصرية فى سنة خمس وثلاثين ، وكان مشكور السيرة فى أحكامه ونقضه وإبرامه . ولما توفى تولى بعده قضاء القضاة ببغداد شيخ النظامية سراج الدين النهر قلى رحمهما الله تعالى وتجاوز عنهما بمنه وكرمه آمين .

﴿ ثم دخلت سنة خمسين وستمائة هجرية ﴾

فيها وصلت التتار إلى الجزيرة وسروج ورأس العين وما والى هذه البلاد ، فقتلوا وسبوا ونهبوا وخربوا فانا لله وإنا إليه راجعون . ووقعوا بسنجار يسيرون بين حران ورأس العين ، فأخذوا منهم ستمائة حمل سكر ومعمول من الديار المصرية ، وستمائة ألف دينار ، وكان عدة من قتلوا فى هذه السنة من أهل الجزيرة نحواً من عشرة آلاف قتيل ، وأسروا من الولدان والنساء ما يقارب ذلك ، فانا لله وإنا إليه راجعون . قال السبط : وفيها حج الناس من بغداد ، وكان لهم عشر سنين لم يحجوا من زمن المستنصر . وفيها وقع حريق بحلب احترق بسببه ستمائة دار ، ويقال إن الفرنج لعنهم الله ألقوه فيه قصدا . وفيها أعاد قاضى القضاة عمر بن على النهر قلى أمر المدرسة التاجية التى كان قد استحوذ عليها طائفة من العوام ، وجعلوها كالقيسارية يبتاعون فيها مدة طويلة ، وهى مدرسة جيدة حسنة قريبة الشبه من النظامية ، وقد كان بانيها يقال له تاج الملك ، وزير ملك شاه السلجوقى ، وأول من درس بها الشيخ أبو بكر الشاشى .

وفيها كانت وفاة ﴿ جمال الدين بن مطروح ﴾

وقد كان فاضلا رئيسا كيسا شاعرا من كبار المتعممين ، ثم استنابه الملك الصالح أيوب فى وقت على دمشق فلبس لبس الجند . قال السبط : وكان لا يليق فى ذلك . ومن شعره فى الناصر داود صاحب الكرك لما استعاد القدس من الفرنج حين سلمت إليهم فى سنة ست وثلاثين فى الدولة الكاملية فقال هذا الشاعر ، وهو ابن مطروح رحمه الله :

المسجد الأقصى له عادة ❊ سارت فصارت مثلا سائرا
إذا غدا للكفر مستوطنا ❊ أن يبعث الله له ناصرا
فناصر طهره أولا ❊ وناصر طهره آخرا

ولما عزله الصالح من النيابة أقام خاملا وكان كثير البر بالفقراء والمساكين ، وكانت وفاته بمصر

وفيها توفى . ﴿ شمس الدين محمد بن سعد المقدسى ﴾

الكاتب الحسن الخط ، كان كثير الأدب ، وسمع الحديث كثيرا ، وخدم السلطان الصالح

إسماعيل والناصر داود . وكان دينا فاضلا شاعرا له قصيدة ينصح فيها السلطان الصالح إسماعيل و ما يلقاه الناس من و زيره وقاضيه وغيرهما ، من حواشيه .

وممن توفى فيها من الأعيان . ﴿ عبد العزيز بن على ﴾

ابن عبد الجبار المغربى ، أبوه ولد ببغداد . وسمع بها الحديث . وعنى بطلب العلم وصنف كتابا فى مجلدات على حروف المعجم فى الحديث ، وحرر فيه حكاية مذهب الامام مالك رحمه الله تعالى .

﴿ الشيخ أبو عبد الله محمد بن غانم بن كريم ﴾

الأصبهانى . قدم بغداد وكان شابا فاضلا ، فتتلمذ للشيخ شهاب الدين السهروردى . وكان حسن الطريقة ، له يد فى التفسير . وله تفسير على طريقة التصوف . وفيه لطافة ، ومن كلامه فى الوعظ : العالم كالذرة فى فضاء عظمته ، والذرة كالعالم فى كتاب حكمته ، الأصول فروع إذا تجلى جمال أوليته ، والفروع أصول إذا طلعت من مغرب نفى الوسائط شمس أخريته . أستار الليل مسدولة ، وشموع الكواكب مشعولة ، وأعين الرقباء عن المشتاقين مشغولة ، وحجاب الحجب عن أبواب الوصل معزولة ما هذه الوقفة والحبيب قد فتح الباب ؟ ما هذه الفترة والمولى قد خرق حاجب الحجاب ؟

وقوفى بأكناف العقيق عقوق ... إذا لم أرد والدمع فيه عقيق
و إذ لم أمت شوقا إلى ساكن الحمى ... فما أنا فيما أدعيه صدوق
أيا ربع ليلى ما المحبون فى الهوى ... سواء ، ولا كل الشراب رحيق
ولا كل من تلقاه يلقاك قلبه ... ولا كل من يحنو إليك مشوق
تكاثرت الدعوى على الحب فاستوى ... أسير صبابات الهوى وطليق

أيها الآمنون ، هل فيكم من يصعد إلى السماء ؟ أيها المحبوسون فى مطامير مسمياتهم ، هل فيكم سليم فى الفهم يفهم رموز الوحوش والأطيار ؟ هل فيكم موسوى الشوق يقول بلسان شوقه أرنى أنظر إليك . فقد طال الانتظار ؟ ولما استسقى الناس قال بعد الاستسقاء : لما صعدت إلى الله عز وجل نفس المشتاق بكت آماق الآفاق ، وجادت بالدر مرضعة السحاب ، وامتص لبن الرحمة رضيع التراب وخرج من أخلاف الغمام نطاف الماء النمير . فاهتزت به الهامدة . وقرت عيون المدر ، وتزينت الرياض بالسندس الأخضر ، فبر الصبغ حبرها أحسن تحبير . وانفلق بأنملة الصبا أكمام الأنوار ، وانشقت بنفحات أنفاسه جيوب الأزهار . ونطقت أجزاء الكائنات بلغات صفاتها ، وعادات عبرها : أيها النائمون تيقظوا ، أيها المبعدون تعرضوا (فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى إنه على كل شئ قدير) .

﴿ أبو الفتح نصر الله بن هبة الله ﴾

ابن عبد الباقى بن هبة الله بن الحسين بن يحيى بن صاقعة الغفارى الكنانى المصرى ثم الدمشقى كان من أخصاء الملك المعظم ، وولده الناصر داود . وقد سافر معه إلى بغداد فى سنة ثلاث وثلاثين وستمائة . وكان أديبا مليح المحاضرة رحمه الله تعالى . ومن شعره قوله :

ولما أبيتم سادتى عن زيارتى * وعوضتمونى بالبعاد من القرب

ولم تسمحوا بالوصل فى حال يقظتى * ولم يصطبر عنكم لرقته قلبى

نصبت لصيد الطيف جفنى حبالة * فأدركت خفض العيش بالنوم والنصب

﴿ ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وستمائة ﴾

فيها دخل الشيخ نجم الدين البادرائى رسول الخليفة بين صاحب مصر وصاحب الشام ، وأصلح بين الجيشين ، وكانوا قد اشتد الحرب بينهم ونشبت ، وقد مالأ الجيش المصرى الفرنج ووعدهم أن يسلموا إليهم بيت المقدس إن نصروهم على الشاميين ، وجرت خطوب كثيرة ، فأصلح بينهم وخلص جماعة من بيوت الملوك من الديار المصرية . منهم أولاد الصالح إسماعيل ، وبنت الأشرف وغيرهم من أولاد صاحب حمص وغيرهم . جزاه الله خيرا . وفيها فيما ذكر ابن الساعى كان رجل ببغداد على رأسه زبادى قابسى فزلق فتكسرت ووقف يبكى ، فتألم الناس له لفقره وحاجته ، وأنه لم يكن يملك غيرها . فأعطاه رجل من الحاضرين ديناراً . فلما أخذه نظر فيه طويلا ثم قال : والله هذا الدينار أعرفه ، وقد ذهب منى فى جملة دنانير عام أول . فشتمه بعض الحاضرين فقال له ذلك الرجل : فما علامة ما قلت . قال زنة هذا كذا وكذا . وكان معه ثلاثة وعشرون دينارا . فوزنوه فوجدوه كما ذكر ، فأخرج له الرجل ثلاثة وعشرين دينارا ، وكان قد وجدها كما قال حين سقطت منه ، فتعجب الناس لذلك . قال : ويقرب من هذا أن رجلا بمكة نزع ثيابه ليغتسل من ماء زمزم وأخرج من عضده دملجاً زنته خمسون مثقالا فوضعه مع ثيابه . فلما فرغ من اغتساله لبس ثيابه ونسى الدملج ومضى . وصار إلى بغداد وبقى مدة سنتين بعد ذلك وأيس منه ، ولم يبق معه شىء إلا يسير فاشترى به زجاجا وقوارير ليبيعها ويتكسب بها ، فبينما هو يطوف بها إذ زلق فسقطت القوارير فتكسرت فوقف يبكى واجتمع الناس عليه يتألمون له ، فقال فى جملة كلامه والله يا جماعة لقد ذهب منى من مدة سنتين دملج من ذهب زنته خمسون دينارا ، ما باليت لفقده كما باليت لتكسير هذه القوارير ، وما ذاك إلا لأن هذه كانت جميع ما أملك ، فقال له رجل من الجماعة : فأنا والله لقيت ذلك الدملج . وأخرجه من عضده فتعجب الناس والحاضرون . والله أعلم بالصواب .

وممن توفى فيها من الأعيان (١) .

﴿ ثم دخلت سنة ثنتين وخمسين وستمائة ﴾

قال سبط ابن الجوزى فى كتابه مرآة الزمان : فيها وردت الأخبار من مكة شرفها الله تعالى بأن نارا ظهرت فى أرض عدن فى بعض جبالها بحيث إنه يطير شررها إلى البحر فى الليل ، و يصعد منها دخان عظيم فى أثناء النهار ، فما شكوا أنها النار التى ذكر النبى ﷺ أنها تظهر فى آخر الزمان ، فتاب الناس وأقلعوا عما كانوا عليه من المظالم والفساد ، وشرعوا فى أفعال الخير والصدقات . وفيها قدم الفارس أقطاى من الصعيد ونهب أموال المسلمين وأسر بعضهم ، ومعه جماعة من البحرية المفسدين فى الأرض ، وقد بغوا وطغوا وتجبروا ، ولا يلتفتون إلى الملك المعز أيبك التركمانى ، ولا إلى زوجته شجرة الدر . فشاور المعز زوجته شجرة الدر فى قتل أقطاى ، فأذنت له ، فعمل عليه حتى قتله فى هذه السنة بالقلعة المنصورة بمصر ، فاستراح المسلمون من شره . وفيها درس الشيخ عز الدين بن عبد السلام بمدرسة الصالح أيوب بين القصرين . وفيها قدمت بنت ملك الروم فى تجمل عظيم و إقامات هائلة إلى دمشق زوجة لصاحبها الناصر بن العزيز بن الظاهر بن الناصر ، وجرت أوقات حافلة بدمشق بسببها .

وممن توفى فيها من المشاهير ﴿ عبد الحميد بن عيسى ﴾

الشيخ شمس الدين بن الخسروشاهى ، أحد مشاهير المتكلمين ، وممن اشتغل على الفخر الرازى فى الأصول وغيرها ، ثم قدم الشام فلزم الملك الناصر داود بن المعظم وحظى عنده . قال أبو شامة : وكان شيخا مهيباً فاضلا متواضعاً حسن الظاهر رحمه الله تعالى . قال السبط : وكان متواضعاً كيسا محضر خير ، لم ينقل عنه أنه آذى أحدا فان قدر على نفع و إلا سكت ، توفى بدمشق ودفن بقاسيون على باب تربة الملك المعظم رحمه الله تعالى .

﴿ الشيخ مجد الدين بن تيمية صاحب الاحكام ﴾ [عبد السلام بن عبد الله بن أبى القاسم الخضر ابن محمد بن على بن تيمية الحرانى الحنبلى ، جد الشيخ تقى الدين ابن تيمية ، ولد فى حدود سنة تسعين وخمسمائة وتفقه فى صغره على عمه الخطيب فخر الدين ، وسمع الكثير ورحل إلى البلاد و برع فى الحديث والفقه وغيره ، ودرس وأفتى وانتفع به الطلبة ومات يوم الفطر بحران][2] .

(١) بياض بجميع الأصول وقال الذهبى . وفيها توفى أبو البقاء صالح بن شجاع بن محمد بن سيدهم المدلجى الخياط فى المحرم . وسبط السلفى أبو القاسم عبد الرحمن بن أبى الحرم المكى بن عبد الرحمن الطرابلسى الاسكندرانى فى شوال عن إحدى وثمانين سنة . وأبو محمد بن جميل البندنيجى البواب : آخر من روى عن عبد الحق اليوسفى .

(٢) بياض بأصل التركية والمصرية . وكملت الترجمة من النجوم الزاهرة .

﴿ الشيخ كمال الدين بن طلحة ﴾

الذى ولى الخطابة بدمشق بعد الدولعى ، ثم عزل وصار إلى الجزيرة فولى قضاء نصيبين ، ثم صار إلى حلب فتوفى بها فى هذه السنة . قال أبو شامة : وكان فاضلا عالما طلب أن يلى الوزارة فامتنع من ذلك ، وكان هذا من التأييد رحمه الله تعالى .

﴿ السيد بن علان ﴾

آخر من روى عن الحافظ ابن عساكر سماعا بدمشق .

﴿ الناصح فرج بن عبد الله الحبشى ﴾

كان كثير السماع مسندا خيراً صالحا مواظباً على سماع الحديث وإسماعه إلى أن مات بدار الحديث النورية بدمشق رحمه الله .

﴿ النصرة بن صلاح الدين يوسف بن أيوب ﴾

توفى بحلب فى هذه السنة . وآخرون رحمهم الله أجمعين .

﴿ ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وستمائة ﴾

قال السبط فيها عاد الناصر داود من الأنبار إلى دمشق ، ثم عاد وحج من العراق وأصلح بين العراقيين ، وأهل مكة ، ثم عاد معهم إلى الحلة . قال أبو شامة : وفيها فى ليلة الاثنين ثامن عشر صفر توفى بحلب الشيخ الفقيه .

﴿ ضياء الدين صقر بن يحيى بن سالم ﴾

وكان فاضلا دينا ، ومن شعره قوله رحمه الله تعالى .

من ادعى أن له حالة * تخرجه عن منهج الشرع
فلا تكونن له صاحبا * فانه ضر بلا نفع

وهو واقف القوصية .

﴿ أبو العز [1] إسماعيل بن حامد ﴾

ابن عبد الرحمن الأنصارى القوصى ، واقف داره بالقرب من الرحبة على أهل الحديث وبها قبره ، وكان مدرسا بحلقة جمال الاسلام تجاه البدارة [2] ، فعرفت به ، وكان ظريفا مطبوعا حسن المحاضرة ، وقد جمع له معجما حكى فيه عن مشايخه أشياء كثيرة مفيدة . قال أبو شامة : وقد طالعته بخطه فرأيت فيه أغاليط وأوهاما فى أسماء الرجال وغيرها ، فمن ذلك أنه انتسب إلى سعد بن عبادة ابن دلم فقال سعد بن عبادة بن الصامت وهذا غلط ، وقال فى شدة خرقة التصوف فغلط وصحف حبيباً أبا محمد حسينا . قال أبو شامة : رأيت ذلك بخطه ، توفى يوم الاثنين سابع عشر ربيع الأول من

(١) فى « نسخة أبو المعز » (٢) فى « نسخة البرادة »

هذه السنة رحمه الله . وقد توفى الشريف المرتضى نقيب الأشراف بحلب ، وكانت وفاته بها ، رحمه الله تعالى .

﴿ ثم دخلت سنة أربع وخمسين وستمائة ﴾

فيها كان ظهور النار من أرض الحجاز التى أضاءت لها أعناق الابل ببصرى ، كما نطق بذلك الحديث المتفق عليه ، وقد بسط القول فى ذلك الشيخ الامام العلامة الحافظ شهاب الدين أبو شامة المقدسى فى كتابه الذيل وشرحه ، واستحضره من كتب كثيرة وردت متواترة إلى دمشق من الحجاز بصفة أمر هذه النار التى شوهدت معاينة ، وكيفية خروجها وأمرها ، وهذا محرر فى كتاب : دلائل النبوة من السيرة النبوية ، فى أوائل هذا الكتاب ولله الحمد والمنة . وملخص ما أورده أبو شامة أنه قال : وجاء إلى دمشق كتب من المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، بخروج نار عندهم فى خامس جمادى الآخرة من هذه السنة ، وكتبت الكتب فى خامس رجب ، والنار بحالها ، ووصلت الكتب إلينا فى عاشر شعبان ثم قال :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، ورد إلى مدينة دمشق فى أوائل شعبان من سنة أربع وخمسين وستمائة كتب من مدينة رسول الله ﷺ ، فيها شرح أمر عظيم حدث بها فيه تصديق لما فى الصحيحين من حديث أبى هريرة . قال قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضىء لها أعناق الابل ببصرى » فأخبرنى من أثق به ممن شاهدها أنه بلغه أنه كتب بتيماء على ضوئها الكتب . قال وكنا فى بيوتنا تلك الليالى ، وكان فى دار كل واحد منا سراج ، ولم يكن لها حر ولفح على عظمها ، إنما كانت آية من آيات الله عز وجل » . قال أبو شامة : وهذه صورة ما وقفت عليه من الكتب الواردة فيها .

« لما كانت ليلة الأربعاء ثالث جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة ظهر بالمدينة النبوية دوى عظيم ، ثم زلزلة عظيمة رجفت منها الأرض والحيطان والسقوف والأخشاب والأبواب ، ساعة بعد ساعة إلى يوم الجمعة الخامس من الشهر المذكور ، ثم ظهرت نار عظيمة فى الحرة قريبة من قريظة نبصرها من دورنا من داخل المدينة كأنها عندنا ، وهى نار عظيمة إشعالها أكثر من ثلاث منارات ، وقد سالت أودية بالنار إلى وادى شظا مسيل الماء ، وقد مدت مسيل شظا وما عاد يسيل ، والله لقد طلعنا جماعة نبصرها فاذا الجبال تسيل نيرانا ، وقد سدت الحرة طريق الحاج العراقى ، فسارت إلى أن وصلت إلى الحرة فوقفت بعد ما أشفقنا أن تجىء إلينا ، ورجعت تسيل فى الشرق تخرج من وسطها سهود وجبال نيران تأكل الحجارة ، فيها أنموذج عما أخبر الله تعالى فى كتابه (إنها ترمى بشرر كالقصر كأنه جمالة صفر) وقد أكلت الأرض ، وقد كتبت هذا الكتاب يوم خامس رجب سنة أربع وخمسين وستمائة والنار فى زيادة ما تغيرت ، وقد عادت إلى الحرار فى قريظة طريق

عير الحاج العراقى إلى الحرة كلها نيران تشتعل نبصرها فى الليل من المدينة كأنها مشاعل الحاج . وأما أم النار الكبيرة فهى جبال نيران حمر ، والأم الكبيرة التى سالت النيران منها من عند قريظة ، وقد زادت وما عاد الناس يدرون أى شىء يتم بعد ذلك ، والله يجعل العاقبة إلى خير ، فما أقدر أصف هذه النار » .

قال أبو شامة : « وفى كتاب آخر : ظهر فى أول جمعة من جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة ووقع فى شرق المدينة المشرفة نار عظيمة بينها وبين المدينة نصف يوم : انفجرت من الأرض وسال منها واد من نار حتى حاذى جبل أحد ، ثم وقفت وعادت إلى الساعة ، ولا ندرى ماذا نفعل ، ووقت ما ظهرت دخل أهل المدينة إلى نبيهم عليه الصلاة والسلام مستغفرين تائبين إلى ربهم تعالى ، وهذه دلائل القيامة » .

قال « وفى كتاب آخر : لما كان يوم الاثنين مستهل جمادى الآخرة ، سنة أربع وخمسين وستمائة وقع بالمدينة صوت يشبه صوت الرعد البعيد تارة وتارة ، أقام على هذه الحالة يومين ، فلما كانت ليلة الأربعاء ثالث الشهر المذكور تعقب الصوت الذى كنا نسمعه زلازل ، فلما كان يوم الجمعة خامس الشهر المذكور انبجست الحرة بنار عظيمة يكون قدرها مثل مسجد رسول الله ﷺ ، وهى برأى العين من المدينة ، نشاهدها وهى ترمى بشرر كالقصر ، كما قال الله تعالى ، وهى بموضع يقال له أجيلين[1] وقد سال من هذه النار واد يكون مقداره أربع فراسخ ، وعرضه أربعة أميال ، وعمقه قامة ونصف ، وهى تجرى على وجه الأرض ويخرج منها أمها دوجبال صغار ، وتسير على وجه الأرض وهو صخر يذوب حتى يبقى مثل الآنك . فاذا جمد صار أسود ، وقبل الجمود لونه أحمر ، وقد حصل بسبب هذه النار إقلاع عن المعاصى ، والتقرب إلى الله تعالى بالطاعات ، وخرج أمير المدينة عن مظالم كثيرة إلى أهلها » .

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة ، « ومن كتاب شمس الدين بن سنان بن عبد الوهاب بن نميلة الحسينى قاضى المدينة إلى بعض أصحابه : لما كانت ليلة الأربعاء ثالث جمادى الآخرة حدث بالمدينة بالثلث الأخير من الليل زلزلة عظيمة أشفقنا منها ، وباتت باقى تلك الليلة تزلزل كل يوم وليلة قدر عشر نوبات ، والله لقد زلزلت مرة ونحن حول حجرة رسول الله ﷺ اضطرب لها المنبر إلى أن أوجسنا منه [إذ سمعنا] صوتا للحديد الذى فيه ، واضطربت قناديل الحرم الشريف ، وتمت الزلزلة إلى يوم الجمعة ضحى ، ولها دوى مثل دوى الرعد القاصف ، ثم طلع يوم الجمعة فى طريق الحرة

(١) « فى النسخة المصرية الراجلين » وفى النجوم الزهرة « أحيلين » وبها مشه : فى تاريخ مكة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة « أخيلين » .

فى رأس أجيلين نار عظيمة مثل المدينة العظيمة ، ومابانت لنا إلا ليلة السبت وأشفقنا منها وخفناخوفا عظيما ، وطلعت إلى الأمير كلمته وقلت له : قد أحاط بنا العذاب ، ارجع إلى الله تعالى ، فأعتق كل مماليكه ورد على جماعة أموالهم ، فلما فعل ذلك قلت اهبط الساعة معنا إلى النبى ﷺ ، فهبط و بتنا ليلة السبت والناس جميعهم والنسوان وأولادهم ، وما بقى أحدلافى النخيل ولا فى المدينة إلاعندالنبى ﷺ ، ثم سال منها نهر من نار، وأخذ فى وادى أجيلين وسدالطريق ثم طلع إلى بحرة الحاج وهو بحر نار يجرى ، وفوقه جمر يسير إلى أن قطعت الوادى وادى الشظا ، وما عاد يجئ فى الوادى سيل قط لأنها حضرته نحو قامتين وثلث علوها ، والله يا أخى إن عيشتنا اليوم مكدرة والمدينة قد تاب جميع أهلها ، ولا بقى يسمع فيها رباب ولا دف ولا شرب ، وتمت النار تسيل إلى أن سدت بعض طريق الحاج و بعض بحرة الحاج ، وجاء فى الوادى إلينا منها يسير[1] وخفنا أنه يجيئنا فاجتمع الناس ودخلوا على النبى ﷺ وتابوا عنده جميعهم ليلة الجمعة ، وأما قتيرها الذى مما يلينا فقد طفئ بقدرة الله وأنها إلى الساعة وما نقصت إلا ترى مثل الجمال حجارة ولها دوى ما يدعنا نرقد ولا نأكل ولا نشرب ، وما أقدر أصف لك عظمها ولا ما فيها من الأهوال ، وأبصرها أهل ينبع وندبوا قاضيهم ابن أسعد وجاء وعدا إليها ، وما صبح يقدر يصفها من عظمها ، وكتب الكتاب يوم خامس رجب ، وهى على حالها ، والناس منها خائفون ، والشمس والقمر من يوم ما طلعت ما يطلعان إلا كاسفين ، فنسأل الله العافية » .

قال أبو شامه : وبان عندنا بدمشق أثر الكسوف من ضعف نورها على الحيطان ، وكنا حيارى من ذلك إيش هو ؟ الى أن جاءنا هذا الخبر عن هذه النار .

قلت : وكان أبو شامة قد أرخ قبل مجىء الكتب بأمر هذه النار ، فقال : وفيها فى ليلة الاثنين السادس عشر من جمادى الآخرة خسف القمر أول الليل ، وكان شديدالحمرة ثم انجلى ، وكسفت الشمس، وفى غده احمرت وقت طلوعها وغروبها وبقيت كذلك أياماً متغيرة اللون ضعيفة النور ، والله على كل شئ قدير ، ثم قال : واتضح بذلك ما صوره الشافعى من اجتماع الكسوف والعيد ، واستبعده أهل النجامة .

ثم قال أبو شامة : «ومن كتاب آخر من بعض بنى الفاشانى بالمدينة يقول فيه : وصل إلينا فى جمادى الآخرة نجابة من العراق وأخبروا عن بغداد أنه أصابها غرق عظيم حتى طفح الماء من أعلى أسوار بغداد إليها ، وغرق كثير منها ، ودخل الماء دار الخلافة وسط البلد ، وانهدمت دار الوزير وثلثمائة وثمانون داراً ، وانهدم مخزن الخليفة ، وهلك من خزانة السلاح شئ كثير ، وأشرف الناس

(١) فى النسخة المصرية قتير » .

على الهلاك وعادت السفن تدخل إلى وسط البلدة ، وتخترق أزقة بغداد . قال وأما نحن فانه جرى عندنا أمر عظيم : لما كان بتاريخ ليلة الأربعاء الثالث من جمادى الآخرة ومن قبلها بيومين ، عاد الناس يسمعون صوتا مثل صوت الرعد ، فانزعج لها الناس كلهم ، وانتبهوا من مراقدهم وضج الناس بالاستغفار إلى الله تعالى ، وفزعوا إلى المسجد وصلوا فيه ، وتمت ترجف بالناس ساعة بعد ساعة إلى الصبح ، وذلك اليوم كله يوم الأربعاء وليلة الخميس كلها وليلة الجمعة ، وصبح يوم الجمعة ارتجت الأرض رجة قوية إلى أن اضطرب منار المسجد بعضه ببعض ، وسمع لسقف المسجد صرير عظيم ، وأشفق الناس من ذنوبهم ، وسكنت الزلزلة بعد صبح يوم الجمعة إلى قبل الظهر ، ثم ظهرت عندنا بالحرة وراء قريظة على طريق السوارقية بالمقاعد مسيرة من الصبح إلى الظهر نار عظيمة تنفجر من الأرض ، فارتاع لها الناس روعة عظيمة ، ثم ظهر لهادخان عظيم فى السماء ينعقد حتى يبقى كالسحاب الأبيض ، فيصل إلى قبل مغيب الشمس من يوم الجمعة ، ثم ظهرت النار لها ألسن تصعد فى الهواء إلى السماء حمراء كأنها القلعة ، وعظمت وفزع الناس إلى المسجد النبوى وإلى الحجرة الشريفة ، واستجار الناس بها وأحاطوا بالحجرة وكشفوا رؤسهم وأقروا بذنوبهم وابتهلوا إلى الله تعالى واستجاروا بنبيه عليه الصلاة والسلام ، وأتى الناس إلى المسجد من كل فج ومن النخل ، وخرج النساء من البيوت والصبيان ، واجتمعوا كلهم وأخلصوا إلى الله ، وغطت حمرة النار السماء كلها حتى بقى الناس فى مثل ضوء القمر ، وبقيت السماء كالعلقة ، وأيقن الناس بالهلاك أو العذاب ، وبات الناس تلك الليلة بين مصل وتال للقرآن وراكع وساجد ، وداع إلى الله عز وجل ، ومتنصل من ذنوبه ومستغفر وتائب ، ولزمت النار مكانها وتناقص تضاعفها ذلك ولهيبها ، وصعد الفقيه والقاضى إلى الأمير يعظونه ، فطرح المكس وأعتق مماليكه كلهم وعبيده ، ورد علينا كل مالنا تحت يده ، وعلى غيرنا ، وبقيت تلك النار على حالها تلتهب التهابا ، وهى كالجبل العظيم [ارتفاعا و] كالمدينة عرضا ، يخرج منها حصى يصعد فى السماء ويهوى فيها ويخرج منها كالجبل العظيم نار ترمى كالرعد . وبقيت كذلك أياما ثم سالت سيلاناً إلى وادى أجلين تنحدر مع الوادى إلى الشظا ، حتى لحق سيلانها بالبحرة بحرة الحاج ، والحجارة معها تتحرك وتسير حتى كادت تقارب حرة العريض ، ثم سكنت ووقفت أياماً ، ثم عادت ترمى بحجارة خلفها وأمامها ، حتى بنت لها جبلين وما بقى يخرج منها من بين الجبلين لسان لها أياما ، ثم إنها عظمت وسناءها إلى الآن ، وهى تتقد كأعظم ما يكون ، ولها كل يوم صوت عظيم فى آخر الليل إلى ضحوة ، ولها عجائب ما أقدر أن أشرحها لك على الكمال ، وإنما هذا طرف يكفى . والشمس والقمر كأنهما منكسفان إلى الآن . وكتب هذا الكتاب ولها شهر وهى فى مكانها ما تتقدم ولا تتأخر » .

وقد قال فيها بعضهم أبياتاً :

يا كاشف الضر صفحاً عن جرائمنا * لقد أحاطت بنا يارب بأساء
نشكو إليك خطوبا لا نطيق لها * حملا ونحن بها حقا أحقاء
زلازل تخشع الصم الصلاب لها * وكيف يقوى على الزلزال شماء
أقام سبعاً يرج الأرض فانصدعت * عن منظر منه عين الشمس عشواء
بحر من النار تجرى فوقه سفن * من الهضاب لها فى الأرض أرساء
كأنما فوقه الأجبال طافية * موج عليه لفرط البهج وعثاء
ترمى لها شرراً كالقصر طائشة * كأنها ديمة تنصب هطلاء
تنشق منها قلوب الصخر إن زفرت * رعبا وترعد مثل السعف أضواء
منها تكاثف فى الجو الدخان إلى * أن عادت الشمس منه وهى دهماء
قد أثرت سفعة فى البدر لفحتها * فليلة التم بعد النور ليلاء
تحدث النيرات السبع ألسنها * بما يلاقى بها تحت الثرى الماء
وقد أحاط لظاها بالبروج إلى * أن كاد يلحقها بالأرض إهواء
فيالها آية من معجزات رسو * ل الله يعقلها القوم الألباء
فباسمك الأعظم المكنون إن عظمت * منا الذنوب وساء القلب أسواء
فاسمح وهب وتفضل وامح واعف وجد * واصفح فكل لفرط الجهل خطاء
فقوم يونس لما آمنوا كشف الـ * ـعذاب عنهم وعم القوم نعماء
ونحن أمة هـذا المصطفى ولنا * منـه إلى عفوك المرجو دعاء
هذا الرسول الذى لولاه ماسلكت * محجـة فى سبيل الله بيضاء
فارحم وصل على المختار ماخطبت * على علا منبر الأوراق ورقاء

قلت : والحديث الوارد فى أمر هذه النار مخرج فى الصحيحين من طريق الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضىء أعناق الابل ببصرى » وهـذا لفظ البخارى .

وقد وقع هذا فى هذه السنة ـ أعنى سنة أربع وخمسين وستمائة ـ كما ذكرنا ، وقد أخبرنى قاضى القضاة صدر الدين على بن أبى القاسم التميمى الحنفى الحاكم بدمشق فى بعض الأيام فى المذاكرة ، وجرى ذكر هذا الحديث وما كان من أمر هذه النار فى هذه السنة فقال : سمعت رجلا من الأعراب يخـبر والدى ببصرى فى تلك الليالى أنهم رأوا أعناق الابل فى ضوء هذه النار التى ظهرت فى أرض الحجاز .

قلت : وكان مولده فى سنة ثنتين وأربعين وستمائة ، وكان والده مدرساً للحنفية ببصرى وكذلك

كان جده ، وهو قد درس بها أيضاً ثم انتقل إلى دمشق فدرس بالصادرية وبالمعدمية ، ثم ولى قضاء القضاة الحنفية ، وكان مشكور السيرة فى الأحكام ، وقد كان عمره حين وقعت هذه النار بالحجاز ثنتا عشرة سنة ، ومثله ممن يضبط مايسمع من الخبر أن الأعرابى أخبر والده فى تلك الليالى ، وصلوات الله وسلامه على نبيه سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .

ومما نظمه بعض الشعراء فى هذه النار الحجازية وغرق بغداد قوله :

سبحان من أصبحت مشيئته ■ جارية فى الورى بمقدار
أغرق بغداد بالمياه كما ■ أحرق أرض الحجاز بالنار

قال أبو شامة : والصواب أن يقال :

فى سنة أغرق العراق وقد ■ أحرق أرض الحجاز بالنار

وقال ابن الساعى فى تاريخ سنة أربع وخمسين وستمائة : فى يوم الجمعة ثامن عشر رجب - يعنى من هذه السنة - كنت جالساً بين يدى الوزير فورد عليه كتاب من مدينة الرسول ﷺ صحبة قاصد يعرف بقيماز العلوى الحسنى المدنى ، فناوله الكتاب فقرأه وهو يتضمن أن مدينة الرسول ﷺ زلزلت يوم الثلاثاء ثانى جمادى الآخرة حتى ارتج القبر الشريف النبوى ، وسمع صرير الحديد ، وتحركت السلاسل ، وظهرت نار على مسيرة أربع فراسخ من المدينة ، وكانت ترمى بزبد كأنه رؤس الجبال ، ودامت خمسة عشر يوما . قال القاصد : وجئت ولم تنقطع بعد ، بل كانت على حالها ، وسأله إلى أى الجهات ترمى ؟ فقال : إلى جهة الشرق ، واجتزت عليها أنا ونجابة اليمن ورمينا فيها سعفة فلم تحرقها ، بل كانت تحرق الحجارة وتذيبها . وأخرج قيماز المذكور شيئا من الصخر المحترق وهو كالفحم لونا وخفة . قال وذكر فى الكتاب وكان بخط قاضى المدينة أنهم لما زلزلوا دخلوا الحرم وكشفوا رؤسهم واستغفروا وأن نائب المدينة أعتق جميع مماليكه ، وخرج من جميع المظالم ، ولم يزالوا مستغفرين حتى سكنت الزلزلة ، إلا أن النار التى ظهرت لم تنقطع . وجاء القاصد المذكور ولها خمسة عشر يوما وإلى الآن . قال ابن الساعى : وقرأت بخط العدل محمود بن يوسف بن الامعانى شيخ حرم المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، يقول : إن هذه النار التى ظهرت بالحجاز آية عظيمة ، وإشارة صحيحة دالة على اقتراب الساعة ، فالسعيد من انتهز الفرصة قبل الموت ، وتدارك أمره باصلاح حاله مع الله عز وجل قبل الموت . وهذه النار فى أرض ذات حجر لاشجر فيها ولانبت ، وهى تأكل بعضها بعضاً إن لم تجد ما تأكله ، وهى تحرق الحجارة وتذيبها ، حتى تعود كالطين المبلول ، ثم يضرب به الهواء حتى يعود كخبث الحديد الذى يخرج من الكير ، فالله يجعلها عبرة المسلمين ورحمة للعالمين ، بمحمد وآله الطاهرين .

قال أبو شامة : وفى ليلة الجمعة مستهل رمضان من هذه السنة احترق مسجد المدينة على ساكنه أفضل الصلاة والسلام ، ابتدأ حريقه من زاويته الغربية من الشمال ، وكان دخل أحد القومة إلى خزانة ثم ومعه نار فعلقت فى الأبواب ثم ، واتصلت بالسقف بسرعة ، ثم دبت فى السقوف ، وأخذت قبلة فأعجلت الناس عن قطعها ، فما كان إلا ساعة حتى احترقت سقوف المسجد أجمع ، ووقعت بعض أساطينه وذاب رصاصها ، وكل ذلك قبل أن ينام الناس ، واحترق سقف الحجرة النبوية ووقع ما وقع منه فى الحجرة ، وبقى على حاله حتى شرع فى عمارة سقفه وسقف المسجد النبوى على صاحبه أفضل الصلاة والسلام ، وأصبح الناس فعزلوا موضعاً للصلاة ، وعد ما وقع من تلك النار الخارجة وحريق المسجد من جملة الآيات ، وكأنها كانت منذرة بما يعقبها فى السنة الآتية من الكائنات على ما سنذكره . هذا كلام الشيخ شهاب الدين أبى شامة . وقد قال أبو شامة : فى الذى وقع فى هذه السنة وما بعدها شعرا وهو قوله :

بعد ست من المئين والخمس ٭ ين لدى أربع جرى فى العام
نار أرض الحجاز مع حرق المس ٭ جد معه تغريق دار السلام
ثم أخذ التتار بغداد فى أو ٭ ل عام ، من بعد ذاك وعام
لم يعن أهلها وللكفر أعوا ٭ ن عليهم ، ياضيعة الاسلام
وانقضت دولة الخلافة منها ٭ صار مستعصم بغير اعتصام
فحنانا على الحجاز ومصر ٭ وسلاما على بلاد الشآم
رب سلم وصن وعاف بقايا ٭ المدن ، ياذا الجلال والاكرام

وفى هذه السنة كملت المدرسة الناصرية الجوانية داخل باب الفراديس ، وحضر فيها الدرس واقفها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غياث الدين غازى ابن الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادى فاتح بيت المقدس ، ودرس فيها قاضى البلد صدر الدين ابن سناء الدولة ، وحضر عنده الأمراء والدولة والعلماء وجمهور أهل الحل والعقد بدمشق . وفيها أمر بعمارة الرباط الناصرى بسفح قاسيون .

وممن توفى فى هذه السنة من الأعيان :

﴿ الشيخ عماد الدين عبد الله بن الحسن بن النحاس ﴾

ترك الخلائق وأقبل على الزهادة والتلاوة والعبادة والصيام المتتابع والانقطاع بمسجده بسفح قاسيون نحوا من ثلاثين سنة ، وكان من خيار الناس . ولما توفى دفن عند مسجده بتربة مشهورة به ، وحمام ينسب إليه فى مساريق الصالحية ، وقد أثنى عليه السبط ، وأرخوا وفاته كما ذكرت .

﴿ يوسف بن الأمير حسام الدين ﴾

قزأوغلى بن عبد الله عتيق الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة الحنبلى رحمه الله تعالى . الشيخ شمس الدين .

أبو المظفر الحنفى البغدادى ثم الدمشقى ، سبط ابن الجوزى ، أمه رابعة بنت الشيخ جمال الدين أبى الفرج بن الجوزى الواعظ ، وقد كان حسن الصورة طيب الصوت حسن الوعظ كثير الفضائل والمصنفات ، وله مرآة الزمان فى عشرين مجلداً من أحسن التواريخ ، نظم فيه المنتظم لجده وزاد عليه وذيل إلى زمانه ، وهو من أبهج التواريخ ، قدم دمشق فى حدود الستمائة وحظى عند ملوك بنى أيوب ، وقدموه وأحسنوا إليه ، وكان له مجلس وعظ كل يوم سبت بكرة النهار عندالسارية التى تقوم عندها الوعاظ اليوم عند باب مشهد على بن الحسين زين العابدين ، وقد كان الناس يبيتون ليلة السبت بالجامع ويتركون البساتين فى الصيف حتى يسمعوا ميعاده ، ثم يسرعون إلى بساتينهم فيتذاكرون ما قاله من الفوائد والكلام الحسن ، على طريقة جده . وقد كان الشيخ تاج الدين الكندى ، وغيره من المشايخ ، يحضرون عنده تحت قبة يزيد ، التى عند باب المشهد، ويستحسنون ما يقول . ودرس بالعزية البرانية التى بناها الأمير عز الدين أيبك المعظمى ، أستاذ دار المعظم ، وهو واقف العزية الجوانية التى بالكشك أيضاً ، وكانت قديما تعرف بدور ابن منقذ . ودرس السبط أيضاً بالشبلية التى بالجبل عند جسر كحيل ، وفوض إليه البدرية التي قبالتها ، فكانت سكنه ، وبها توفى ليلة الثلاثاء الحادى والعشرين من ذى الحجة من هذه السنة ، وحضر جنازته سلطان البلد الناصر ابن العزيز فمن دونه . وقد أثنى عليه الشيخ شهاب الدين أبوشامة فى علومه وفضائله ورياسته وحسن وعظه وطيب صوته ونضارة وجهه ، وتواضعه وزهده وتودده ، لكنه قال: وقد كنت مريضاً ليلة وفاته فرأيت وفاته فى المنام قبل اليقظة ، ورأيته فى حالة منكرة ، ورآه غيرى أيضاً، فنسأل الله العافية . ولم أقدر على حضور جنازته ، وكانت جنازته حافلة حضره السلطان والناس ، ودفن هناك . وقد كان فاضلا عالما ظريفا منقطعاً منكرا على أرباب الدول ما هم عليه من المنكرات ، وقد كان مقتصدا فى لباسه مواظباً على المطالعة والاشتغال والجمع والتصنيف ، منصفا لأهل العلم والفضل ، مباينا لأولى الجهل ، وتأتى الملوك وأرباب المناصب إليه زائرين وقاصدين ، وربى فى طول زمانه فى حياة طيبة وجاه عريض عند الملوك والعوام نحو خمسين سنة ، وكان مجلس وعظه مطربا ، وصوته فيما يورده حسنا طيبا ، رحمه الله تعالى ورضى عنه . وقد سئل فى يوم عاشوراء زمن الملك الناصر صاحب حلب أن يذكر للناس شيئا من مقتل الحسين فصعد المنبر وجلس طويلا لا يتكلم ، ثم وضع المنديل على وجهه وبكى شديداً ثم أنشأ يقول وهو يبكى :

ويل لمن شفعاؤه خصماؤه ■ والصور فى نشر الخلائق ينفخ
لا بد أن ترد القيامة فاطم ■ وقميصها بدم الحسين ملطخ

ثم نزل عن المنبر وهو يبكى وصعد إلى الصالحية وهو كذلك رحمه الله .

﴿ واقف مرستان الصالحية ﴾

الأمير الكبير سيف الدين أبو الحسن يوسف ابن أبى الفوارس بن موسك القيمرى الكردى ، أكبر أمراء القيمرية ، كانوا يقفون بين يديه كما تعامل الملوك ، ومن أكبر حسناته وقفه المارستان الذى بسفح قاسيون ، وكانت وفاته ودفنه بالسفح فى القبة التى تجاه المارستان المذكور ، وكان ذا مال كثير وثروة رحمه الله .

﴿ مجير الدين يعقوب بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب ﴾

دفن عند والده بتربة العادلية .

﴿ الأمير مظفر الدين إبراهيم ﴾

ابن صاحب صرخد عزالدين أيبك أستاذ دارالمعظم واقف المعزيتين [البرانية والجوانية] على الحنفية ، ودفن عند والده بالتربة تحت القبة عند الوراقة رحمهما الله تعالى .

﴿ الشيخ شمس الدين عبد الرحمن بن نوح ﴾

المقدسى الفقيه الشافعى مدرس الرواحية بعد شيخه تقى الدين ابن الصلاح ، ودفن بالصوفية أيضا ، وكانت له جنازة حافلة رحمه الله .

قال أبو شامة : وكثر فى هذه السنة موت الفجأة . فمات خلق كثير بسبب ذلك ، وممن توفى فيها زكى الدين أبو الغورية [1] أحد المعدلين بدمشق . و بدر الدين بن السنى أحد رؤسائها . وعز الدين عبد العزيز بن أبى طالب بن عبد الغفار الثعلبى أبى الحسين ، وهو سبط القاضى جمال الدين بن الحرستانى ، رحمهم الله تعالى وعفا عنهم أجمعين .

﴿ ثم دخلت سنة خمس وخمسين وستمائة ﴾

فيها أصبح الملك المعظم صاحب مصر عز الدين أيبك بداره ميتا وقد ولى الملك بعد أستاذه الصالح نجم الدين أيوب بشهور . كان فيها ملك توران شاه المعظم بن الصالح ، ثم خلفته شجرة الدر أم خليل مدة ثلاثة أشهر ثم أقيم هو فى الملك ، ومعه الملك الأشرف موسى بن الناصر يوسف بن أقسيس ابن الكامل مدة ، ثم استقل بالملك بلا منازعة ، وكسر الناصر لما أراد أخذ الديار المصرية وقتل الفارس إقطاى فى سنة ثنتين وخمسين ، وخلع بعده الأشرف واستقل بالملك وحده ، ثم تزوج بشجرة

---

(١) نسخة « ابن القويرة » .

الدر أم خليل. وكان كريما شجاعا حييا دينا ، ثم كان موته فى يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من ربيع الأول ، وهو واقف المدرسة المعزية بمصر ومجازها من أحسن الأشياء ، وهى من داخل ليست بتلك الفائقة . وقد قال بعضهم : هذه مجاز لا حقيقة له . ولما قتل رحمه الله فاتهم مماليكه زوجته أم خليل شجرة الدر به ، وقد كان عزم على تزوج ابنة صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ ،فأمرت جواريها أن يمسكنه لها فما زالت تضربه بقباقيبها والجوارى يعركن فى معاربه حتى مات وهو كذلك ، ولما سمعوا مماليكه أقبلوا بصحبة مملوكه الأكبر سيف الدين قطز ، فقتلوها وألقوها على مزبلة غير مستورة العورة، بعد الحجاب المنيع والمقام الرفيع ، وقد علمت على المناشير والتواقيع ، وخطب الخطباء باسمها ، وضربت السكة برسمها ، فذهبت فلا تعرف بعد ذلك بعينها ولا رسمها (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير) وأقامت الأتراك بعد أستاذهم عز الدين أيبك التركمانى ، باشارة أكبر مماليكه الأمير سيف الدين قطز ، ولده نور الدين علياً ولقبوه الملك المنصور ، وخطب له على المنابر وضربت السكة باسمه وجرت الأمور على ما يختاره برأيه ورسمه .

وفيها كانت فتنة عظيمة ببغداد بين الرافضة وأهل السنة ، فنهب الكرخ ودور الرافضة حتى دور قرابات الوزير ابن العلقمى ، وكان ذلك من أقوى الأسباب فى ممالأته للتتار . وفيها دخلت الفقراء الحيدرية الشام ، ومن شعارهم لبس الراحى والطراطير ويقصون لحاهم ويتركون شواربهم ، وهو خلاف السنة ، تركوها لمتابعة شيخهم حيدر حين أسره الملاحدة فقصوا لحيته وتركوا شواربه ، فاقتدوا به فى ذلك ، وهو معذور مأجور . وقد نهى رسول الله ﷺ عن ذلك ، وليس لهم فى شيخهم قدوة . وقد بنيت لهم زاوية بظاهر دمشق قريبا من العونية . وفى يوم الأربعاء ثامن عشر ذى الحجة من هذه السنة المباركة عمل عزاء واقف البادرائية بها الشيخ نجم الدين عبد الله بن محمد البادرائى البغدادى مدرس النظامية ، ورسول الخلافة إلى ملوك الآفاق فى الأمور المهمة ، وإصلاح الأحوال المدلهمة ، وقد كان فاضلا بارعا رئيساً وقورا متواضعاً ، وقد ابتنى بدمشق مدرسة حسنة مكان دار الأمير أسامة ، وشرط على المقيم بها العزوبة وأن لا يكون الفقيه فى غيرها من المدارس ، وإنما أراد بذلك توفر خاطر الفقيه وجمعه على طلب العلم ، ولكن حصل بذلك خلل كثير وشر لبعضهم كبير وقد كان شيخنا الامام العلامة شيخ الشافعية بالشام وغيرها برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم بن الشيخ تاج الدين الفزارى مدرس هذه المدرسة وابن مدرسها ، يذكر أنه لما حضر الواقف فى أول يوم درس بها وحضر عنده السلطان الناصرى ،قرأ كتاب الوقف وفيه ولا تدخلها امرأة . فقال السلطان ولا صبى ؟ فقال الواقف : يا مولانا السلطان ربنا ما يضرب بعصاتين . فاذا ذكر هذه الحكاية تبسم

عندها رحمه الله تعالى . وكان هو أول من درس بها ثم ولده كمال الدين من بعده ، وجعل نظرها إلى وجيه الدين بن سويد، ثم صار فى ذريته إلى الآن . وقد نظر فيه بعض الأوقات القاضى شمس الدين ابن الصائغ ثم انتزع منه حيث أثبتوا لهم النظر ، وقد أوقف البادرائى على هذه المدرسة أوقافاً حسنة دارة ، وجعل فيها خزانة كتب حسنة نافعة ، وقد عاد إلى بغداد فى هذه السنة فولى بها قضاء القضاة كرها منه ، فأقام فيه سبعة عشر يوما ثم توفى إلى رحمة الله تعالى فى مستهل ذى الحجة من هذه السنة . ودفن بالشونيزية رحمه الله تعالى .

وفى ذى الحجة من هذه السنة بعد موت البادرائى بأيام قلائل نزلت التتار على بغداد مقدمة لملكهم هولاكو بن تولى بن جنكيزخان عليهم لعائن الرحمن ، وكان افتتاحهم لها وجنايتهم عليها فى أول السنة الآتية على ماسيأتى بيانه وتفصيله ـ وبالله المستعان .

وممن توفى فى هذه السنة من الأعيان البادرائى واقف البادرائية التى بدمشق كما تقدم بيانه رحمه الله تعالى .

﴿ والشيخ تقى الدين عبد الرحمن بن أبى الفهم ﴾

اليلدانى بها فى ثامن ربيع الأول ودفن فيها ، وكان شيخا صالحا مشتغلا بالحديث سماعا وكتابة وإسماعا ، إلى أن توفى وله نحو مائة سنة . قلت : وأكثر كتبه ومجاميعه التى بخطه موقوفة بخزانة الفاضلية من الكلاسة ، وقد رأى فى المنام رسول الله ﷺ فقال له : يا رسول الله ما أنا رجل جيد ؟ قال : بلى أنت رجل جيد ، رحمه الله وأكرم مثواه .

﴿ الشيخ شرف الدين ﴾

محمد بن أبى الفضل المرسى ، وكان شيخاً فاضلا متقنا محققا للبحث كثير الحج ، له مكانة عند الأكابر ، وقد اقتنى كتبا كثيرة ، وكان أكثر مقامه بالحجاز ، وحيث حل عظمه رؤساء تلك البلدة وكان مقتصدا فى أموره ، وكانت وفاته رحمه الله بالذعقة بين العريش والداروم فى منتصف ربيع الأول من هذه السنة رحمه الله .

﴿ المشد الشاعر الأمير سيف الدين ﴾

على بن عمر بن قزل مشد الديوان بدمشق ، وكان شاعرا مطبقا له ديوان مشهور ، وقد رآه بعضهم بعد موته فسأله عن حاله فأنشده :

نقلت إلى رمس القبور وضيقها ◼ وخوفى ذنوبى أنها بى تعثر
فصادفت رحمانا رءوفا وأنعما ◼ حبانى بها سقيا لما كنت أحذر
ومن كان حسن الظن فى حال موته ◼ جميلا بعفو الله فالعفو أجدر

﴿ بشارة بن عبد الله ﴾

الأرمنى الأصل بدر الدين الكاتب مولى شبل الدولة المعظمى ، سمع الكندى وغيره ، وكان يكتب خطا جيدا ، وأسند إليه مولاه النظر فى أوقافه وجعله فى ذريته ، فهم إلى الآن ينظرون فى الشبليتين ، وكانت وفاته فى النصف من رمضان من هذه السنة .

﴿ القاضى تاج الدين ﴾

أبو عبد الله محمد بن قاضى القضاة جمال الدين المصرى ناب عن أبيه ودرس بالشامية ، وله شعر فمنه قوله :

صيرت فمى لفيه باللثم لثام ■ عمدا ورشفت من ثناياه مدام
فازور وقال أنت فى الفقه إمام ■ ريقى خمر وعندك الخمر حرام

﴿ الملك الناصر ﴾

داود بن المعظم عيسى بن العادل ، ملك دمشق بعد أبيه ، ثم انتزعت من يده وأخذها عمه الأشرف واقتصر على الكرك ونابلس ، ثم تنقلت به الأحوال وجرت له خطوب طوال حتى لم يبق معه شىء من الحال ، وأودع وديعة تقارب مائة ألف دينار عند الخليفة المستنصر فأنكره إياها ولم يردها عليه ، وقد كان له فصاحة وشعر جيد ، ولديه فضائل جمة ، واشتغل فى علم الكلام على الشمس الخسر وشاهى تلميذ الفخر الرازى ، وكان يعرف علوم الأوائل جدا ، وحكوا عنه أشياء تدل إن صحت على سوء عقيدته فالله أعلم . وذكر أنه حضر أول درس ذكر بالمستنصرية فى سنة ثنتين وثلاثين وستمائة ، وأن الشعراء أنشدوا المستنصر مدائح كثيرة ، فقال بعضهم فى جملة قصيدة له :

لو كنت فى يوم السقيفة شاهدا ■ كنت المقدم والامام الأعظما

فقال الناصر داود للشاعر : اسكت فقد أخطأت ، قد كان جد أمير المؤمنين العباس شاهدا يومئذ ، ولم يكن المقدم ، وما الامام الأعظم إلا أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، فقال الخليفة : صدقت فكان هذا من أحسن ما نقل عنه رحمه الله تعالى ، وقد تقاصر أمره إلى أن رسم عليه الناصر بن العزيز بقرية البويضا لعمه مجد الدين يعقوب حتى توفى بها فى هذه السنة ، فاجتمع الناس بجنازته ، وحمل منها فصلى عليه ودفن عند والده بسفح قاسيون .

﴿ الملك المعز ﴾

عز الدين أيبك التركمانى ، أول ملوك الأتراك ، كان من أكبر مماليك الصالح نجم الدين أيوب ابن الكامل ، وكان دينا صينا عفيفا كريما ، مكث فى الملك نحوا من سبع سنين ثم قتلته زوجته شجرة الدر أم خليل ، وقام فى الملك من بعده ولده نور الدين على ، ولقب بالملك المنصور ، وكان مدبر

مملكته مملوك أبيه سيف الدين قطز ، ثم عزله واستقل بالملك بعده نحوا من سنة وتلقب بالمظفر ، فقدر الله كسرة التتار على يديه بعين جالوت . وقد بسطنا هذا كله فى الحوادث فيما تقدم وما سيأتى .

﴿ شجرة الدر بنت عبد الله ﴾

أم خليل التركية ، كانت من حظايا الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وكان ولدها منه خليل من أحسن الصور ، فمات صغيراً ، وكانت تكون فى خدمته لا تفارقه حضرا ولا سفرا من شدة محبته لها وقد ملكت الديار المصرية بعد مقتل ابن زوجها المعظم توران شاه، فكان يخطب لها وتضرب السكة باسمها وعلمت على المناشير مدة ثلاثة أشهر ، ثم تملك المعز كما ذكرنا ، ثم تزوجها بعد تملكه الديار المصرية بسنوات ، ثم غارت عليه لما بلغها أنه يريد أن يتزوج بنت صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ فعملت عليه حتى قتلته كما تقدم ذكره ، فتمالأ عليها مماليكه المعزية فقتلوها وألقوها على مزبلة ثلاثة أيام ، ثم نقلت إلى تربة لها بالقرب من قبر السيدة نفيسة رحمها الله تعالى ، وكانت قوية النفس ، لما علمت أنه قد أحيط بها أتلفت شيئا كثيرا من الجواهر النفيسة واللآلىء المثمنة ، كسرته فى الهاون لا لها ولا لغيرها ، وكان وزيرها فى دولتها الصاحب بهاء الدين على بن محمد بن سليمان المعروف بابن حنا وهو أول مناصبه .

﴿ الشيخ الأسعد هبة الله بن صاعد ﴾

شرف الدين الفائزى لخدمته قديما الملك الفائز سابق الدين إبراهيم بن الملك العادل ، وكان نصرانياً فأسلم ، وكان كثير الصدقات والبر والصلات ، استوزره المعز وكان حظياً عنده جدا ، لا يفعل شيئا إلا بعد مراجعته ومشاورته ، وكان قبله فى الوزارة القاضى[1] تاج الدين ابن بنت الأعز ، وقبله القاضى بدر الدين السنجارى ، ثم صارت بعد ذلك كله إلى هذا الشيخ الأسعد المسلمانى ، وقد كان الفائزى يكاتبه المعز بالمملوك ، ثم لما قتل المعز أهين الأسعد حتى صار شقيا ، وأخذ الأمير سيف الدين قطز خطه بمائة ألف دينار ، وقد هجاه بهاء الدين زهير بن على ، فقال :

لعن الله صاعدا ، وأباه ، فصاعدا
وبنيه فنازلا ، واحداً ثم واحدا

ثم قتل بعد ذلك كله ودفن بالقرافة ، وقد رثاه القاضى ناصر الدين ابن المنير ، وله فيه مدائح وأشعار حسنة فصيحة رائقة .

﴿ ابن أبى الحديد الشاعر العراقى ﴾

عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن محمد بن الحسين أبو حامد بن أبى الحديد عز الدين المدائنى ، الكاتب الشاعر المطبق الشيعى الغالى ، له شرح نهج البلاغة فى عشرين مجلدا ، ولد بالمدائن سنة ست وثمانين وخمسمائة ، ثم صار إلى بغداد فكان أحد الكتاب والشعراء بالديوان الخليفتى ، وكان

---

(١) نسخة « جمال » .

حظياً عند الوزير ابن العلقمى ، لما بينهما من المناسبة والمقاربة والمشابهة فى التشيع والأدب والفضيلة ، وقد أورد له ابن الساعى أشياء كثيرة من مدائحه وأشعاره الفائقة الرائقة ، وكان أكثر فضيلة وأدبا من أخيه أبى المعالى موفق الدين بن هبة الله ، وإن كان الآخر فاضلا بارعا أيضا ، وقد ماتا فى هذه السنة رحمهما الله تعالى .

﴿ ثم دخلت سنة ست وخمسين وستمائة ﴾

[فيها أخذت التتار بغداد وقتلوا أكثر أهلها حتى الخليفة ، وانقضت دولة بنى العباس منها] (١)

استهلت هذه السنة وجنود التتار قد نازلت بغداد صحبة الأميرين اللذين على مقدمة عساكر سلطان التتار ، هولاكوخان ، وجاءت إليهم أمداد صاحب الموصل يساعدونهم على البغاددة وميرته وهداياه وتحفه ، وكل ذلك خوفا على نفسه من التتار ، ومصانعة لهم قبحهم الله تعالى ، وقد سترت بغداد ونصبت فيها المجانيق والعرادات وغيرها من آلات الممانعة التى لا ترد من قدر الله سبحانه وتعالى شيئا ، كما ورد فى الأثر « لن يغنى حذر عن قدر » وكما قال تعالى (إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر) وقال تعالى (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم و إذا أراد الله بقوم سوء فلا مرد له وما لهم من دونه من وال) وأحاطت التتار بدار الخلافة يرشقونها بالنبال من كل جانب حتى أصيبت جارية كانت تلعب بين يدى الخليفة وتضحكه ، وكانت من جملة حظاياه ، وكانت مولدة تسمى « عرفة » جاءها سهم من بعض الشبابيك فقتلها وهى ترقص بين يدى الخليفة ، فانزعج الخليفة من ذلك وفزع فزعاً شديدا ، وأحضر السهم الذى أصابها بين يديه فاذا عليه مكتوب إذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره أذهب من ذوى العقول عقولهم ، فأمر الخليفة عند ذلك بزيادة الاحتراز ، وكثرت الستائر على دار الخلافة - وكان قدوم هلاكوخان بجنوده كلها ، وكانوا نحو مائتى ألف مقاتل - إلى بغداد فى ثانى عشر المحرم من هذه السنة ، وهو شديد الحنق على الخليفة بسبب ما كان تقدم من الأمر الذى قدره الله وقضاه وأنفذه وأمضاه ، وهو أن هلاكو لما كان أول بروزه من همدان متوجها إلى العراق أشار الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمى على الخليفة بأن يبعث إليه بهدايا سنية ليكون ذلك مداراة له عما يريده من قصد بلادهم فخذل الخليفة عن ذلك دويداره الصغير أيبك وغيره « وقالوا إن الوزير إنما يريد بهذا مصانعة ملك التتار بما يبعثه إليه من الأموال » ، وأشاروا بأن يبعث بشئ يسير ، فأرسل شيئا من الهدايا فاحتقرها هلاكوخان « وأرسل إلى الخليفة يطلب منه دويداره المذكور ، وسليمان شاه ، فلم يبعثهما إليه ولا بالا به حتى أزف قدومه ، ووصل بغداد بجنوده الكثيرة الكافرة الفاجرة الظالمة الغاشمة » ممن لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ، فاحاطوا ببغداد من ناحيتها الغربية والشرقية ، وجيوش

(١) زيادة من بعض النسخ التركية .

بغداد فى غاية القلة ونهاية الذلة . لا يبلغون عشرة آلاف فارس ، وهم وبقية الجيش ، كلهم قد صرفوا عن إقطاعاتهم حتى استعطى كثير منهم فى الأسواق وأبواب المساجد . وأنشد فيهم الشعراء قصائد يرثون لهم ويحزنون على الاسلام وأهله ، وذلك كله عن آراء الوزير ابن العلقمى الرافضى ، وذلك أنه لما كان فى السنة الماضية كان بين أهل السنة والرافضة حرب عظيمة نهبت فيها الكرخ ومحلة الرافضة حتى نهبت دور قرابات الوزير، فاشتد حنقه على ذلك . فكان هذا مما أهاجه على أن دبر على الاسلام وأهله ما وقع من الأمر الفظيع الذى لم يؤرخ أبشع منه منذ بنيت بغداد ، وإلى هذه الأوقات . ولهذا كان أول من برز إلى التتار هو ، فخرج بأهله وأصحابه وخدمه وحشمه، فاجتمع بالسلطان هلاكوخان لعنه الله ، ثم عاد فأشار على الخليفة بالخروج إليه والمثول بين يديه لتقع المصالحة على أن يكون نصف خراج العراق لهم ونصفه للخليفة . فاحتاج الخليفة إلى أن خرج فى سبعمائة راكب من القضاة والفقهاء والصوفية ورؤس الأمراء والدولة والأعيان . فلما اقتربوا من منزل السلطان هولاكوخان حجبوا عن الخليفة إلا سبعة عشر نفساً ، فخلص الخليفة بهؤلاء المذكورين ، وأنزل الباقون عن مراكبهم ونهبت وقتلوا عن آخرهم ، وأحضر الخليفة بين يدى هلاكو فسأله عن أشياء كثيرة فيقال إنه اضطرب كلام الخليفة من هول ما رأى من الاهانة والجبروت . ثم عاد إلى بغداد وفى صحبته خوجه نصير الدين الطوسى . والوزير ابن العلقمى وغيرهما . والخليفة تحت الحوطة والمصادرة ، فأحضر من دار الخلافة شيئا كثيرا من الذهب والحلى والمصاغ والجواهر والأشياء النفيسة . وقد أشار أولئك الملأ من الرافضة وغيرهم من المنافقين على هولاكو أن لا يصالح الخليفة ، وقال الوزير متى وقع الصلح على المناصفة لا يستمر هذا إلا عاماً أو عامين ثم يعود الأمر إلى ما كان عليه قبل ذلك ، وحسنوا له قتل الخليفة . فلما عاد الخليفة إلى السلطان هولاكو أمر بقتله ، ويقال إن الذى أشار بقتله الوزير ابن العلقمى ، والمولى نصير الدين الطوسى . وكان النصير عند هولاكو قد استصحبه فى خدمته لما فتح قلاع الألموت . وانتزعها من أيدى الاسماعيلية . وكان النصير وزيراً لشمس الشموس ولأبيه من قبله علاء الدين بن جلال الدين . وكانوا ينسبون إلى نزار بن المستنصر العبيدى . وانتخب هولاكو النصير ليكون فى خدمته كالوزير المشير . فلما قدم هولاكو وتهيب من قتل الخليفة هون عليه الوزير ذلك فقتلوه رفساً . وهو فى جوالق لئلا يقع على الأرض شىء من دمه ، خافوا أن يؤخذ بثأره فيما قيل لهم . وقيل بل خنق ، ويقال بل أغرق فالله أعلم ، فباءوا بإثمه وإثم من كان معه من سادات العلماء والقضاة والأكابر والرؤساء والأمراء وأولى الحل والعقد ببلاده ـ وستأتى ترجمة الخليفة فى الوفيات ـ ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان ودخل كثير من الناس فى الآبار وأماكن الحشوش ، وقنى الوسخ ، وكمنوا كذلك أياماً لا يظهرون ،

وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الخانات و يغلقون عليهم الأبواب فتفتحها التتار إما بالكسر و إما بالنار، ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالى الأمكنة فيقتلونهم بالأسطحة، حتى تجرى الميازيب من الدماء فى الأزقة، فانا لله و إنا إليه راجعون. وكذلك فى المساجد والجوامع والربط، ولم ينج منهم أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ومن التجأ إليهم و إلى دار الوزير ابن العلقمى الرافضى وطائفة من التجار أخذوا لهم أماناً، بذلوا عليه أموالا جزيلة حتى سلموا وسلمت أموالهم. وعادت بغداد بعد ما كانت آنس المدن كلها كأنها خراب ليس فيها إلا القليل من الناس، وهم فى خوف وجوع وذلة وقلة، وكان الوزير ابن العلقمى قبل هذه الحادثة يجتهد فى صرف الجيوش و إسقاط اسمهم من الديوان، فكانت العساكر فى آخر أيام المستنصر قريباً من مائة ألف مقاتل، منهم من الأمراء من هو كالملوك الأكابر الأكاسر، فلم يزل يجتهد فى تقليلهم إلى أن لم يبق سوى عشرة آلاف، ثم كاتب التتار وأطمعهم فى أخذ البلاد، وسهل عليهم ذلك، وحكى لهم حقيقة الحال، وكشف لهم ضعف الرجال، وذلك كله طمعا منه أن يزيل السنة بالكلية، وأن يظهر البدعة الرافضة وأن يقيم خليفة من الفاطميين، وأن يبيد العلماء والمفتيين، والله غالب على أمره، وقد رد كيده فى نحره، وأذله بعد العزة القعساء، وجعله حوشكاشا للتتار بعد ما كان وزيراً للخلفاء، واكتسب إثم من قتل ببغداد من الرجال والنساء والأطفال، فالحكم لله العلى الكبير رب الأرض والسماء.

وقد جرى على بنى إسرائيل ببيت المقدس قريب مما جرى على أهل بغداد كما قص الله تعالى علينا ذلك فى كتابه العزيز، حيث يقول (وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا. فاذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا) الآيات. وقد قتل من بنى إسرائيل خلق من الصلحاء وأسر جماعة من أولاد الأنبياء، وخرب بيت المقدس بعد ما كان معمورا بالعباد والزهاد والأحبار والأنبياء، فصار خاويا على عروشه واهى البناء.

وقد اختلف الناس فى كمية من قتل ببغداد من المسلمين فى هذه الوقعة. فقيل ثمانمائة ألف، وقيل ألف ألف وثمانمائة ألف، وقيل بلغت القتلى ألفى ألف نفس، فانا لله و إنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم. وكان دخولهم إلى بغداد فى أواخر المحرم، وما زال السيف يقتل أهلها أربعين يوما، وكان قتل الخليفة المستعصم بالله أمير المؤمنين يوم الأربعاء رابع عشر صفر وعفى قبره، وكان عمره يومئذ ستا وأربعين سنة وأربعة أشهر، ومدة خلافته خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وأيام، وقتل معه ولده الأكبر أبو العباس أحمد، وله خمس وعشرون سنة، ثم قتل ولده الأوسط أبو الفضل عبد الرحمن وله ثلاث وعشرون سنة، وأسر ولده الأصغر مبارك وأسرت

أخواته الثلاث فاطمة وخديجة ومريم ، وأسر من دار الخلافة من الأبكار ما يقارب ألف بكر فيما قيل والله أعلم ، فانا لله و إنا إليه راجعون .

وقتل أستاذ دار الخلافة الشيخ محيي الدين يوسف بن الشيخ أبي الفرج ابن الجوزى ، وكان عدو الوزير، وقتل أولاده الثلاثة : عبدالله ، وعبد الرحمن ، وعبد الكريم ، وأكابر الدولة واحداً بعد واحده ، منهم الدويدار الصغير مجاهد الدين أيبك ، وشهاب الدين سليمان شاه ، وجماعة من أمراء السنة وأكابر البلد . وكان الرجل يستدعى به من دار الخلافة من بنى العباس فيخرج بأولاده ونسائه فيذهب به إلى مقبرة الخلال ، تجاه المنظرة فيذبح كما تذبح الشاة ، ويؤسر من يختارون من بناته وجواريه . وقتل شيخ الشيوخ مؤدب الخليفة صدر الدين على بن النيار ، وقتل الخطباء والأئمة ، وحملة القرآن ، وتعطلت المساجد والجماعات والجمعات مدة شهور ببغداد ، وأراد الوزير ابن العلقمى قبحه الله ولعنه أن يعطل المساجد والمدارس والربط ببغداد و يستمر بالمشاهد ومحال الرفض ، وأن يبنى للرافضة مدرسة هائلة ينشرون علمهم وعلمهم بها وعليها ، فلم يقدره الله تعالى على ذلك ، بل أزال نعمته عنه وقصف عمره بعد شهور يسيرة من هذه الحادثة ، وأتبعه بولده فاجتمعا والله أعلم بالدرك الأسفل من النار .

ولما انقضى الأمر المقدر وانقضت الأربعون يوماً بقيت بغداد خاوية على عروشها ليس بها أحد إلا الشاذ من الناس ، والقتلى فى الطرقات كأنها التلول ، وقد سقط عليهم المطر فتغيرت صورهم وأنتنت من جيفهم البلد ، وتغير الهواء فحصل بسببه الوباء الشديد حتى تعدى وسرى فى الهواء إلى بلاد الشام ، فمات خلق كثير من تغير الجو وفساد الريح ، فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء والطعن والطاعون ، فانا لله و إنا إليه راجعون .

ولما نودى ببغداد بالأمان خرج من تحت الأرض من كان بالمطامير والقنى والمقابر كأنهم الموتى إذا نبشوا من قبورهم ، وقد أنكر بعضهم بعضا فلا يعرف الوالد ولده ولا الأخ أخاه ، وأخذهم الوباء الشديد فتفانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى ، واجتمعوا تحت الثرى بأمر الذى يعلم السر وأخفى ، الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى . وكان رحيل السلطان المسلط هولاكوخان عن بغداد فى جمادى الأولى من هذه السنة إلى مقر ملكه ، وفوض أمر بغداد إلى الأمير على بهادر ، فوض إليه الشحنكية بها و إلى الوزير ابن العلقمى فلم يمهله الله ولا أهمله ، بل أخذه أخذ عزيز مقتدر ، فى مستهل جمادى الآخرة عن ثلاث وستين سنة ، وكان عنده فضيلة فى الانشاء ولديه فضيلة فى الأدب ، ولكنه كان شيعيا جلدا رافضياً خبيثا ، فمات جهدا وغما وحزنا وندما ، إلى حيث ألقت رحلها أم قشعم ، فولى بعده الوزارة ولده عز الدين بن الفضل محمد ، فألحقه الله بأبيه فى بقية هذا العام ، ولله الحمد والمنة .

وذكر أبو شامة وشيخنا أبو عبد الله الذهبى وقطب الدين اليونينى أنه أصاب الناس فى هذه السنة بالشام وباء شديد ، وذكروا أن سبب ذلك من فساد الهواء والجو ، فسد من كثرة القتلى ببلاد العراق وانتشر حتى تعدى إلى بلاد الشام فالله أعلم .

وفى هذه السنة اقتتل المصريون مع صاحب الكرك الملك المغيث عمر بن العادل الكبير ، وكان فى حبسه جماعة من أمراء البحرية ، منهم ركن الدين بيبرس البندقدارى ، فكسرهم المصريون ونهبوا ما كان معهم من الأثقال والأموال ، وأسروا جماعة من رءوس الأمراء فقتلوا صبرا ، وعادوا إلى الكرك فى أسوإ حال وأشنعه ، وجعلوا يفسدون فى الأرض و يعيثون فى البلاد ، فأرسل الله الناصر صاحب دمشق فبعث جيشا ليكفهم عن ذلك ، فكسرهم البحرية واستنصروا فبرز إليهم الناصر بنفسه فلم يلتفتوا إليه وقطعوا أطناب خيمته التى هو فيها باشارة ركن الدين بيبرس المذكور ، وجرت حروب وخطوب يطول بسطها وبالله المستعان .

وممن توفى فى هذه السنة من الأعيان .

﴿ خليفة الوقت المستعصم بالله ﴾

أمير المؤمنين آخر خلفاء بنى العباس بالعراق رحمه الله ، وهو أبو أحمد عبد الله بن المستنصر بالله أبى جعفر منصور بن الظاهر بأمر الله أبى نصر محمد بن الناصر لدين الله أبى العباس أحمد بن المستضئ بأمر الله أبى محمد الحسن بن المستنجد بالله أبى المظفر يوسف بن المقتفى لأمر الله أبى عبد الله محمد بن المستظهر بالله أبى العباس أحمد بن المقتدى بالله أبى القاسم عبد الله بن الذخيرة أبى العباس محمد بن القائم بأمر الله عبد الله بن القادر بالله أبى العباس أحمد بن الأمير إسحاق بن المقتدر بالله أبى الفضل جعفر بن المعتضد بالله أبى العباس أحمد بن الأمير الموفق أبى أحمد طلحة بن المتوكل على الله أبى الفضل جعفر بن المعتصم بالله أبى إسحاق محمد بن الرشيد أبى محمد هارون بن المهدى أبى عبد الله محمد ابن المنصور أبى جعفر عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم الهاشمى العباسى ، مولده سنة تسع وستمائة ، و بويع له بالخلافة فى العشرين من جمادى الأولى سنة أربعين ، وكان مقتله فى يوم الأربعاء الرابع عشر من صفر سنة ست وخمسين وستمائة ، فيكون عمره يوم قتل سبعا وأربعين سنة رحمه الله تعالى . وقد كان حسن الصورة جيد السريرة ، صحيح العقيدة مقتديا بأبيه المستنصر فى المعدلة وكثرة الصدقات وإكرام العلماء والعباد ، وقد استجاز له الحافظ ابن النجار من جماعة من مشايخ خراسان منهم المؤيد الطوسى ، وأبو روح عبد العزيز بن محمد الهروى وأبو بكر القاسم بن عبد الله بن الصفار وغيرهم ، وحدث عنه جماعة منهم مؤدبه شيخ الشيوخ صدر الدين أبو الحسن على بن محمد بن النيار ، وأجاز هو للامام محيى الدين ابن الجوزى ، وللشيخ نجم الدين البادرائى ، وحدثا عنه بهذه الاجازة . وقد كان رحمه الله سنيا على طريقة السلف واعتقاد

الجماعة كما كان أبوه وجده ، ولكن كان فيه لين وعدم تيقظ ومحبة للمال وجمعه ، ومن جملة ذلك أنه استحل الوديعة التى استودعه إياها الناصر داود بن المعظم وكانت قيمتها نحوا من مائة ألف دينار فاستقبح هذا من مثل الخليفة ، وهو مستقبح ممن هو دونه بكثير ، بل من أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ، كما قال الله تعالى (ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً).

قتلته التتار مظلوماً مضطهدا فى يوم الأربعاء رابع عشر صفر من هذه السنة ، وله من العمر ستة وأربعون سنة وأربعة أشهر . وكانت مدة خلافته خمسة عشر سنة وثمانية أشهر وأياما ، فرحمه الله وأكرم مثواه ، وبل بالرأفة ثراه . وقد قتل بعده ولداه وأسر الثالث مع بنات ثلاث من صلبه ، وشغر منصب الخلافة بعده ، ولم يبق فى بنى العباس من سد مسده ، فكان آخر الخلفاء من بنى العباس الحاكمين بالعدل بين الناس ، ومن يرتجى منهم النوال و يخشى الباس ، وختموا بعبد الله المستعصم كما فتحوا بعبد الله السفاح ، بويع له بالخلافة وظهر ملكه وأمره فى سنة ثنتين وثلاثين ومائة ، بعد انقضاء دولة بنى أمية كما تقدم بيانه ، وآخرهم عبد الله المستعصم وقد زال ملكه وانقضت خلافته فى هذا العام ، فجملة أيامهم خمسمائة سنة وأربع وعشرون سنة ، وزال ملكهم عن العراق والحكم بالكلية مدة سنة وشهور فى أيام البساسيرى بعد الخمسين وأربعمائة ، ثم عادت كما كانت . وقد بسطنا ذلك فى موضعه فى أيام القائم بأمر الله ولله الحمد .

ولم تكن أيدى بنى العباس حاكمة على جميع البلاد كما كانت بنو أمية قاهرة لجميع البلاد والأقطار والأمصار ، فانه خرج عن بنى العباس بلاد المغرب ، ملكها فى أوائل الأمر بعض بنى أمية ممن بقى منهم من ذرية عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ، ثم تغلب عليه الملوك بعدد هور متطاولة كما ذكرنا ، وقارن بنى العباس دولة المدعين أنهم من الفاطميين ببلاد مصر و بعض بلاد المغرب ، وما هنالك ، و بلاد الشام فى بعض الأحيان والحرمين فى أزمان طويلة [وكذلك أخذت من أيديهم بلاد خراسان وما وراء النهر ، وتداولتها الملوك دولا بعد دول ، حتى لم يبق مع الخليفة منهم إلا بغداد و بعض بلاد العراق ، وذلك لضعف خلافتهم واشتغالهم بالشهوات وجمع الأموال فى أكثر الأوقات ، كما ذكر ذلك مبسوطا فى الحوادث والوفيات] (١)

واستمرت دولة الفاطميين قريباً من ثلاثمائة سنة حتى كان آخرهم العاضد الذى مات بعد الستين وخمسمائة فى الدولة الصلاحية الناصرية القدسية ، وكانت عدة ملوك الفاطميين أربعة عشر ملكا متخلفا ، ومدة ملكهم تحريرا من سنة سبع وتسعين ومائتين إلى أن توفى العاضد سنة بضع وستين وخمسمائة ، والعجب أن خلافة النبوة التالية لزمان رسول الله ﷺ كانت ثلاثين سنة كما نطق بها

(١) زيادة من نسخة أخرى بالآستانة .

الحديث الصحيح ، فكان فيها أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم على ثم ابنه الحسن بن على ستة شهور حتى كملت الثلاثون كما قررنا ذلك فى دلائل النبوة ، ثم كانت ملكا فكان أول ملوك الاسلام من بنى أبى سفيان معاوية بن أبى سفيان صخر بن حرب بن أمية ، ثم ابنه يزيد ، ثم ابن ابنه معاوية ابن يزيد بن معاوية ، وانقرض هذا البطن المفتتح بمعاوية المختتم بمعاوية ، ثم ملك مروان بن الحكم ابن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى ، ثم ابنه عبد الملك ، ثم الوليد بن عبد الملك ، ثم أخوه سليمان ثم ابن عمه عمر بن عبد العزيز ، ثم يزيد بن عبد الملك ، ثم هشام بن عبد الملك ، ثم الوليد بن يزيد ثم يزيد بن الوليد ، ثم أخوه إبراهيم الناقص وهو ابن الوليد أيضاً ، ثم مروان بن محمد بن مروان الملقب بالحمار ، وكان آخرهم ، فكان أولهم اسمه مروان وآخرهم اسمه مروان ، ثم انقرضوا من أولهم إلى خاتمهم . وكان أول خلفاء بنى العباس عبد الله السفاح ، وآخرهم عبد الله المستعصم . وكذلك أول خلفاء الفاطميين فالأول اسمه عبدالله العاضد ، وآخرهم عبد الله العاضد ، وهذا اتفاق غريب جدا قل من يتنبه له ، والله سبحانه أعلم . وهذه أرجوزة لبعض الفضلاء ذكر فيها جميع الخلفاء :

الحمد لله العظيم عرشه * القاهر الفرد القوى بطشه
مقلب الأيام والدهور * وجامع الأنام للنشور
ثم الصلاة بدوام الأبد * على النبى المصطفى محمد
وآله وصحبه الكرام * السادة الأئمة الأعلام
وبعد فان هذه أرجوزة * نظمتها لطيفة وجيزة
نظمت فيها الراشدين الخلفا * من قام بعد النبى المصطفى
ومن تلاهم وهلم جرا * جعلتها تبصرة وذكرى
ليعلم العاقل ذو التصوير * كيف جرت حوادث الأمور
وكل ذى مقدرة وملك * معرضون للفنا والهلك
وفى اختلاف الليل والنهار * تبصرة لكل ذى اعتبار
والملك الجبار فى بلاده * يورثه من شاء من عباده
وكل مخلوق فللفناء * وكل ملك فالى انتهاء
ولا يدوم غير ملك البارى * سبحانه من ملك قهار
منفرد بالعز والبقاء * وما سواه فالى انقضاء
أول من بويع بالخلافة * بعد النبى ابن أبى قحافة

أعنى الامام الهادى الصديقا * ثم ارتضى من بعده الفاروقا
ففتح البلاد والأمصارا * واستأصلت سيوفه الكفارا
وقام بالعدل قياماً يرضى * بذاك جبار السما والأرض
ورضى الناس بذى النورين * ثم على والد السبطين
ثم أتت كتائب مع الحسن * كادوا بأن يجددوا بها الفتن
فأصلح الله على يديه * كما عزا نبينا إليه
وجمع الناس على معاوية * ونقل القصة كل راويه
فمهد الملك كما يريد * وقام فيه بعده يزيد
ثم ابنه وكان براً راشدا * أعنى أبا ليلى وكان زاهدا
فترك الامرة لا عن غلبه * ولم يكن إليها منه طلبه
وابن الزبير بالحجاز يدأب * فى طلب الملك وفيه ينصب
وبالشام بايعوا مروانا * بحكم من يقول كن فكانا
ولم يدم فى الملك غير عام * وعافصته أسهم الحمام
واستوثق الملك لعبد الملك * ونار نجم سعده فى الفلك
وكل من نازعه فى الملك * خر صريعاً بسيوف الهلك
وقتل المصعب بالعراق * وسير الحجاج ذا الشقاق
إلى الحجاز بسيوف النقم * وابن الزبير لائذ بالحرم
فجار بعد قتله بصلبه * ولم يخف فى أمره من ربه
وعند ما صفت له الأمور * تقلبت بجسمه الدهور
ثم أتى من بعده الوليد * ثم سليمان الفتى الرشيد
ثم استفاض فى الورى عدل عمر * تابع أمر ربه كما أمر
وكان يدعى بأشجّ القوم * وذى الصلاة والتقى والصوم
فجاء بالعدل والاحسان * وكف أهل الظلم والطغيان
مقتدياً بسنة الرسول * والراشدين من ذوى العقول
فجرع الاسلام كأس فقده * ولم يروا مثلا له من بعده
ثم يزيد بعده هشام * ثم الوليد فت منه الهام
ثم يزيد وهو يدعى الناقصا * فجاءه حمامه معافصا

ولم تطل مدة إبراهيما * وكان كل أمره سقيما
وأسند الملك إلى مروانا * فكان من أموره ما كانا
وانقرض الملك على يديه * وحادث الدهر سطا عليه
وقتله قد كان بالصعيد * ولم تفده كثرة العديد
وكان فيه حتف آل الحكم * واستنزعت عنهم ضروب النعم
ثم أتى ملك بنى العباس * لازال فينا ثابت الأساس
وجاءت البيعة من أرض العجم * وقلدت بيعتهم كل الأمم
وكل من نازعهم من أمم * خر صريعاً لليدين والفم
وقد ذكرت من تولى منهم * حين تولى القائم المستعصم
أولهم ينعت بالسفاح * وبعده المنصور ذو الجناح
ثم أتى من بعده المهدى * يتلوه موسى الهادى الصفى
وجاء هارون الرشيد بعده * ثم الأمين حين ذاق فقده
وقام بعد قتله المأمون * وبعده المعتصم المكين
واستخلف الواثق بعد المعتصم * ثم أخوه جعفر موفى الذمم
وأخلص النية فى المتوكل * لله ذى العرش القديم الأول
فأدحض البدعة فى زمانه * وقامت السنة فى أوانه
ولم يبق فيها بدعة مضلة * وألبس المعتزلى ثوب ذله
فرحمة الله عليه أبدا * ماغار نجم فى السماء أو بدا
وبعده استولى وقام المعتمد * ومهد الملك وساس المقتصد
وعندما استشهد قام المنتصر * والمستعين بعده كما ذكر
وجاء بعد موته المعتز * والمهتدى الملتزم الأعز
والمكتفى فى صحف العلا أسطر * وبعده ساس الأمور المقتدر
واستوثق الملك بعز القاهر * وبعده الراضى أخو المفاخر
والمتقى من بعد ذا المستكفى * ثم المطيع مابه من خلف
والطائع الطائع ثم القادر * والقائم الزاهد وهو الشاكر
والمقتدى من بعده المستظهر * ثم أتى المسترشد الموقر
وبعده الراشد ثم المقتفى * وحين مات استنجدوا بيوسف

المستضئ العادل فى أفعاله * الصادق الصدوق فى أقواله
والناصر الشهم الشديد الباس * ودام طول مكثه فى الناس
ثم تلاه الظاهر الكريم * وعدله كل به عليم
ولم تطل أيامه فى المملكه * غير شهور واعترته الهلكه
وعهده كان إلى المستنصر * العادل البر الكريم المنتصر
دام يسوس الناس سبع عشرة * وأشهراً بعزمات برّه
ثم توفى عام أربعينا * وفى جمادى صادف المنونا
وبايع الخلائق المستعصما * صلى عليه ربنا وسلما
فأرسل الرسل إلى الآفاق * يقضون بالبيعة والوفاق
وشرفوا بذكره المنابرا * ونشروا فى جوده المفاخرا
وسار فى الآفاق حسن سيرته * وعدله الزائد فى رعيته

قال الشيخ عماد الدين ابن كثير رحمه الله تعالى : ثم قلت أنا بعد ذلك أبياتا :

ثم ابتلاه الله بالتتار * أتباع جنكيزخان الجبار
صحبته ابن ابنه هولاكو * فلم يكن من أمره فكاك
فمزقوا جنوده وشمله * وقتلوه نفسه وأهله
ودمروا بغداد والبلادا * وقتلوا الأحفاد والأجدادا
وانتهبوا المال مع الحريم * ولم يخافوا سطوة العظيم
وغرهم إنظاره وحلمه * وما اقتضاه عدله وحكمه
وشغرت من بعده الخلافة * ولم يؤرخ مثلها من آفة
ثم أقام الملك أعنى الظاهرا * خليفة أعنى به المستنصرا
ثم ولى من بعد ذاك الحاكم * مسيم بيبرس الامام العالم
ثم ابنه الخليفة المستكفى * وبعض هذا للبيب يكفى
ثم ولى من بعده جماعة * ما عندهم علم ولا بضاعة
ثم تولى وقتنا المعتضد * ولا يكاد الدهر مثله يجد
فى حسن خلق واعتقاد وحلى * وكيف لا وهو من السيم الأولى
سادوا البلاد والعباد فضلا * وملأوا الأقطار حكما وعدلا
أولاد عم المصطفى محمد * وأفضل الخلق بلا تردد

صلى عليه الله ذو الجلال * ما دامت الأيام والليالى

﴿ فصل ﴾

والفاطميون قليلوا العده * لكنهم مدّلهم فى المده
فملكوا بضعاً وستين سنة * من بعده مائتين وكان كالسنة
والعدة أربع عشرة المهدى * والقائم المنصور المعدى
أعنى به المعز بانى القاهرة * ثم العزيز الحاكم الكوافره
والظاهر المستنصر المستعلى * فالآمر الحافظ عنه سوء الفعل
والظافر الفائز ثم العاضد * آخرهم وما لهذا جاحد
أهلك بعد البضع والستينا * من قبلها خمسمائة سنينا
وأصلهم يهود ليسوا شرفا * بذاك أفتى السادة الأئمة
* أنصار دين الله من ذى الأمة *

﴿ فصل ﴾

وهكذا خلفاء بنى أمية * عدتهم كعدة الرافضية
ولكن المدة كانت ناقصة * عن مائة من السنين خالصة
وكلهم قد كان ناصبياً * إلا الامام عمر التقيا
معاوية ثم ابنه يزيد * وابن ابنه معاوية السديد
مروان ثم ابن له عبد الملك * منابذ لابن الزبير حتى هلك
ثم استقل بعده بالملك * فى سائر الأرض بغير شك
ثم الوليد النجل بانى الجامع * وليس مثله بشكله من جامع
ثم سليمان الجواد وعمر * ثم يزيد وهشام وغدر
أعنى الوليد بن يزيد الفاسقا * ثم يزيد بن الوليد فائقا
يلقب الناقص وهو كامل * ثم إبراهيم وهو عاقل
ثم مروان الحمار الجعدى * آخرهم فاظفر بذا من عندى
والحمد لله على التمام * كذاك نحمده على الانعام
ثم الصلاة مع تمام العدد * على النبى المصطفى محمد
وآله وصحبه الأخيار * فى سائر الأوقات والأعصار
وهذه الأبيات نظم الكاتب * ثمانيـة تتمـة المناقب

وممن قتل مع الخليفة واقف الجوزية بدمشق أستاذ دار الخلافة محيي الدين يوسف بن الشيخ جمال الدين أبي الفرج ابن الجوزى، عبد الرحمن بن على بن محمد بن على بن محمد بن على بن عبيد الله بن حماد بن أحمد بن جعفر بن عبد الله بن القاسم بن النضر بن محمد بن أبي بكر الصديق القرشي التيمي البكرى البغدادى الحنبلي المعروف بابن الجوزى. ولد في ذى القعدة سنة ثمانين وخمسمائة، ونشأ شابا حسنا، وحين توفى أبوه وعظ في موضعه فأحسن وأجاد وأفاد، ثم لم يزل متقدما في مناصب الدنيا، فولى حسبة بغداد مع الوعظ الفائق والأشعار الحسنة. ثم ولى تدريس الحنابلة بالمستنصرية سنة اثنتين وثلاثين وستمائة، وكانت له تداريس أخر، ولى أستاذ دار الخلافة، وكان رسولا للملوك من بنى أيوب وغيرهم من جهة الخلفاء. وانتصب ابنه عبد الرحمن مكانه للحسبة والوعظ. ثم كانت الحسبة تتنقل في بنيه الثلاثة عبد الرحمن، وعبد الله. وعبد الكريم. وقد قتلوا معه في هذه السنة رحمهم الله. ولمحيي الدين هذا مصنف في مذهب أحمد، وقد ذكر له ابن الساعى أشعاراً حسنة يهنئ بها الخليفة في المواسم والأعياد، تدل على فضيلة وفصاحة، وقد وقف الجوزية بدمشق وهى من أحسن المدارس، تقبل الله منه.

﴿ الصرصرى المادح رحمه الله ﴾

يحيى بن يوسف بن يحيى بن منصور بن المعمر عبد السلام الشيخ الامام العلامة البارع الفاضل في أنواع من العلوم، جمال الدين أبو زكريا الصرصرى، الفاضل المادح الحنبلي الضرير البغدادى. معظم شعره في مدح رسول الله ﷺ، وديوانه في ذلك مشهور معروف غير منكر، ويقال إنه كان يحفظ صحاح الجوهرى بتمامه في اللغة. وصحب الشيخ على بن إدريس تلميذ الشيخ عبدالقادر، وكان ذكيا يتوقد نوراً، وكان ينظم على البديهة سريعاً أشياء حسنة فصيحة بليغة. وقد نظم الكافي الذى ألفه موفق الدين بن قدامة. ومختصر الخرقى. وأما مدائحه في رسول الله ﷺ فيقال إنها تبلغ عشرين مجلدا، وما اشتهر عنه أنه مدح أحداً من المخلوقين من بنى آدم إلا الأنبياء، ولما دخل التتار إلى بغداد دعى إلى دارها كرمون بن هلاكو فأبى أن يجيب إليه. وأعد في داره حجارة فحين دخل عليه التتار رماهم بتلك الأحجار فهشم منهم جماعة، فلما خلصوا إليه قتل بعكازه أحدهم، ثم قتلوه شهيدا رحمه الله تعالى. وله من العمر ثمان وستون سنة. وقد أورد له قطب الدين اليونيني من ديوانه قطعة صالحة في ترجمته في الذيل، استوعب حروف المعجم، وذكر غير ذلك قصائد طوالا كثيرة حسنة.

﴿ البهاء زهير صاحب الديوان ﴾

وهو زهير بن محمد بن على بن يحيى بن الحسين بن جعفر المهلبي العتكى المصرى، ولد بمكة ونشأ بقوص، وأقام بالقاهرة، الشاعر المطبق الجواد في حسن الخط له ديوان مشهور. وقدم على السلطان

الصالح أيوب ، وكان غزير المروءة حسن التوسط فى إيصال الخير إلى الناس ، ودفع الشر عنهم ، وقد أثنى عليه ابن خلكان وقال أجازلى رواية ديوانه ، وقد بسط ترجمته القطب اليونينى .

﴿ الحافظ زكى الدين المنذرى ﴾

عبد العظيم بن عبد القوى بن عبد الله بن سلامة بن سعد بن سعيد ، الامام العلامة محمد أبو زكى الدين المنذرى الشافعى المصرى ، أصله من الشام وولد بمصر ، وكان شيخ الحديث بها مدة طويلة ، إليه الوفادة والرحلة من سنين متطاولة ، وقيل إنه ولد بالشام سنة إحدى وثمانين وخمسمائة ، وسمع الكثير ورحل وطلب وعنى بهذا الشأن ، حتى فاق أهل زمانه فيه ، وصنف وخرج ، واختصر صحيح مسلم ، وسنن أبى داود ، وهو أحسن اختصاراً من الأول ، وله اليد الطولى فى اللغة والفقه والتاريخ ، وكان ثقة حجة متحريا زاهدا ، توفى يوم السبت رابع ذى القعدة من هذه السنة بدار الحديث الكاملية بمصر . ودفن بالقرافة رحمه الله تعالى .

﴿ النور أبو بكر بن محمد بن محمد بن عبد العزيز ﴾

ابن عبد الرحيم بن رستم الأشعرى الشاعر المشهور الخليع ، كان القاضى صدر الدين بن سناء الدولة قد أجلسه مع الشهود تحت الساعات ، ثم استدعاه الناصر صاحب البلد فجعله من جلسائه وندمائه ، وخلع عليه خلع الاجناد ، فانسلخ من هذا الفن إلى غيره ، وجمع كتابا سماه « الزرجون فى الخلاعة والمجون » وذكر فيه أشياء كثيرة من النظم والنثر والخلاعة ، ومن شعره الذى لا يحمد :

لذة العمر خمسة فاقتنيها * من خليع غدا أديبا فقيها
فى نديم وقينة وحبيب * ومدام وسب من لام فيها

﴿ الوزير ابن العلقمى الرافضى قبحه الله ﴾

محمد بن أحمد بن محمد بن على بن أبى طالب ، الوزير مؤيد الدين أبو طالب ابن العلقمى ، وزير المستعصم البغدادى ، وخدمه فى زمان المستنصر أستاذ دار الخلافة مدة طويلة ، ثم صار وزير المستعصم وزير سوء على نفسه وعلى الخليفة وعلى المسلمين ، مع أنه من الفضلاء فى الانشاء والأدب ، وكان رافضياً خبيثا ردىء الطوية على الاسلام وأهله ، وقد حصل له من التعظيم والوجاهة فى أيام المستعصم مالم يحصل لغيره من الوزراء ، ثم مالأ على الاسلام وأهله الكفار هولاكوخان ، حتى فعل ما فعل بالاسلام وأهله مما تقدم ذكره ، ثم حصل له بعد ذلك من الاهانة والذل على أيدى التتار الذين مالأهم وزال عنه ستر الله ، وذاق الخزى فى الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ، وقد رأته امرأة وهو فى الذل والهوان وهو راكب فى أيام التتار برذونا وهو مرسم عليه ، وسائق يسوق به ويضرب فرسه ، فوقفت إلى جانبه وقالت له : يا ابن العلقمى هكذا كان بنو العباس يعاملونك ؟ فوقعت كلمتها

فى قلبه وانقطع فى داره إلى أن مات كمدا وغبينة وضيقا ، وقلة وذلة ، فى مستهل جمادى الآخرة من هذه السنة ، وله من العمر ثلاث وستون سنة ، ودفن فى قبور الروافض ، وقد سمع بأذنيه ، ورأى بعينيه من الاهانة من التتار والمسلمين مالا يحد ولا يوصف . وتولى بعده ولده الخبيث الوزارة ، ثم أخذه الله أخذ القرى وهى ظالمة سريعاً ، وقد هجاه بعض الشعراء فقال فيه :

يافرقة الاسلام نوحوا واندبوا ◾ أسفا على ما حل بالمستعصم

دست الوزارة كان قبل زمانه ◾ لابن الفرات فصار لابن العلقمى

﴿ محمد بن عبد الصمد بن عبد الله بن حيدرة ﴾

فتح الدين أبو عبد الله بن العدل محتسب دمشق ، كان مشكوراً حسن الطريقة ، وجده العدل نجيب الدين أبو محمد عبد الله بن حيدرة ، وهو واقف المدرسة التى بالزبدانى فى سنة تسعين وخمسمائة تقبل الله منه وجزاه خيرا .

﴿ القرطبي صاحب المفهم فى شرح مسلم ﴾

أحمد بن عمر بن إبراهيم بن عمر أبو العباس الأنصارى القرطبى المالكى الفقيه المحدث المدرس بالاسكندرية ، ولد بقرطبة سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ، وسمع الكثير هناك ، واختصر الصحيحين ، وشرح صحيح مسلم المسمى بالمفهم ، وفيه أشياء حسنة مفيدة محررة رحمه الله .

﴿ الكمال إسحاق بن أحمد بن عثمان ﴾

أحد مشايخ الشافعية ، أخذ عنه الشيخ محيي الدين النووى وغيره ، وكان مدرسا بالرواحية ، توفى فى ذى القعدة من هذه السنة .

﴿ العماد داود بن عمر بن يحيى بن عمر بن كامل ﴾

أبو المعالى وأبو سليمان الزبيدى المقدسى ثم الدمشقى خطيب بيت الآبار ، وقد خطب بالأموى ست سنين بعد ابن عبد السلام ، ودرس بالغزالية ، ثم عاد إلى بيت الآبار فمات بها .

﴿ على بن محمد بن الحسين ﴾ صدر الدين أبو الحسن بن النيار شيخ الشيوخ ببغداد ، وكان أولا مؤدبا للامام المستعصم ، فلما صارت الخلافة إليه برهة من الدهور رفعه وعظمه وصارت له وجاهة عنده ، وانضمت إليه أزمة الأمور ، ثم إنه ذبح بدار الخلافة كما تذبح الشاة على أيدى التتار .

﴿ الشيخ على العابد الخباز ﴾

كان له أصحاب وأتباع ببغداد ، وله زاوية يزار فيها ، قتلته التتار وألقى على مزبلة بباب زاويته ثلاثة أيام حتى أكلت الكلاب من لحمه ، ويقال إنه أخبر بذلك عن نفسه فى حال حياته .

﴿ محمد بن إسماعيل بن أحمد بن أبى الفرج أبو عبد الله المقدسى ﴾

خطيب براد ، سمع الكثير ، وعاش تسعين سنة ، ولد فى سنة ثلاث وخمسين فسمع الناس

عليه الكثير بدمشق ، ثم عاد فمات ببلده برادا في هذه السنة ، رحمه الله .

﴿ البدر لؤلؤ صاحب الموصل ﴾

الملقب بالملك الرحيم ، توفي في شعبان عن مائة سنة [1] وقد ملك الموصل نحوا من خمسين سنة ، وكان ذا عقل ودهاء ومكر ، لم يزل يعمل على أولاد أستاذه حتى أبادهم ، وأزال الدولة الاتابكية عن الموصل ، ولما انفصل هولاكوخان عن بغداد - بعد الوقعة الفظيعة العظيمة - سار إلى خدمته طاعة له ، ومعه الهدايا والتحف ، فأكرمه واحترمه ، ورجع من عنده فمكث بالموصل أياماً يسيرة ، ثم مات ودفن بمدرسته البدرية ، وتأسف الناس عليه لحسن سيرته وجودة معدلته ، وقد جمع له الشيخ عز الدين كتابه المسمى بالكامل في التاريخ فأجازه عليه وأحسن إليه ، وكان يعطي لبعض الشعراء ألف دينار . وقام في الملك بعده ولده الصالح إسماعيل . وقد كان بدر الدين لؤلؤ هذا أرمنيا اشتراه رجل خياط ، ثم صار إلى الملك نور الدين أرسلان شاه بن عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي ابن آقسنقر الاتابكي صاحب الموصل ، وكان مليح الصورة ، فحظي عنده وتقدم في دولته إلى أن صارت الكلمة دائرة عليه ، والوفود من سائر جهات ملكهم إليه . ثم إنه قتل أولاد أستاذه غيلة واحدا بعد واحد إلى أن لم يبق معه أحد منهم ، فاستقل هو بالملك ، وصفت له الأمور ، وكان يبعث في كل سنة إلى مشهد على قنديلا ذهبا زنته ألف دينار ، وقد بلغ من العمر قريبا من تسعين سنة ، وكان شابا حسن الشباب من نضارة وجهه ، وحسن شكله ، وكانت العامة تلقبه قضيب الذهب ، وكان ذا همة عالية وداهية شديد المكر بعيد الغور ، وبعثه إلى مشهد على بذلك القنديل الذهب في كل سنة دليل على قلة عقله وتشيعه والله أعلم .

﴿ الملك الناصر داود بن المعظم ﴾

ترجمه الشيخ قطب الدين اليونيني في تذييله على المرآة في هذه السنة ، وبسط ترجمته جدا وما جرى له من أول أمره إلى آخره . وقد ذكرنا ترجمته في الحوادث ، وأنه أودع الخليفة المستعصم في سنة سبع وأربعين وديعة قيمتها مائة ألف دينار فجحدها الخليفة ، فتكرر وفوده إليه ، وتوسله بالناس في ردها إليه ، فلم يفد من ذلك شيئا ، وتقدم أنه قال لذلك الشاعر الذي مدح الخليفة بقوله

لو كنت في يوم السقيفة حاضرا * كنت المقدم والامام الاورعا

فقال له الناصر داود : أخطأت فقد كان جد أمير المؤمنين العباس حاضرا يوم السقيفة ولم يكن المقدم ، وهو أفضل من أمير المؤمنين ، وإنما كان المقدم أبو بكر الصديق ، فقال الخليفة صدق وخلع عليه ، ونفى ذلك الشاعر - وهو الوجيه الفزاري - إلى مصر ، وكانت وفاة الناصر داود بقرية البويضا مرسما عليه وشهد جنازته صاحب دمشق .

---

(١) في المصرية : عن ثمانين سنة .

﴿ ثم دخلت سنة سبع وخمسين وستمائة ﴾

استهلت هذه السنة وليس للمسلمين خليفة ، وسلطان دمشق وحلب الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز محمد بن أبى الظاهر غازى بن الناصر صلاح الدين ، وهو واقع بينه و بين المصريين وقد ملكوا نور الدين على بن المعز أيبك التركمانى ولقبوه بالمنصور ، وقد أرسل الملك الغاشم هولا كوخان إلى الملك الناصر صاحب دمشق يستدعيه إليه ، فأرسل إليه ولده العزيز وهو صغير ومعه هدايا كثيرة وتحف ، فلم يحتفل به هولا كوخان بل غضب على أبيه إذ لم يقبل إليه ، وأخذ ابنه وقال أنا أسير إلى بلاده بنفسى ، فانزعج الناصر لذلك ، و بعث بحريمه وأهله إلى الكرك ليحصنهم بها وخاف أهل دمشق خوفا شديدا ، ولا سيما لما بلغهم أن التتار قد قطعوا الفرات ، سافر كثير منهم إلى مصر فى زمن الشتاء ، فمات ناس كثير منهم ونهبوا ، فانا لله و إنا إليه راجعون . وأقبل هولا كوخان فقصد الشام بجنوده وعساكره ، وقد امتنعت عليه ميافارقين مدة سنة ونصف ، فأرسل إليها ولده أشموط فافتتحها قسرا وأنزل ملكها الكامل بن الشهاب غازى بن العادل فأرسله إلى أبيه وهو محاصر حلب فقتله بين يديه ، واستناب عليها بعض مماليك الأشرف ، وطيف برأس الكامل فى البلاد ، ودخلوا برأسه إلى دمشق ، فنصب على باب الفراديس البرانى ، ثم دفن بمسجد الرأس داخل باب الفراديس الجوانى ، فنظم أبو شامة فى ذلك قصيدة يذكر فيها فضله وجهاده ، وشبهه بالحسين فى قتله مظلوما ، ودفن رأسه عند رأسه .

وفيها عمل الخواجه نصير [الدين الطوسى] الرصد بمدينة مراغة ، ونقل إليه شيئا كثيرا من كتب الأوقاف التى كانت ببغداد ، وعمل دار حكمة ورتب فيها فلاسفة ، ورتب لكل واحد فى اليوم والليلة ثلاثة دراهم ، ودارطب فيها للطبيب فى اليوم درهمان ، ومدرسة لكل فقيه فى اليوم درهم ، ودار حديث لكل محدث نصف درهم فى اليوم . وفيها قدم القاضى الوزير كمال الدين عمر بن أبى جرادة المعروف بابن العديم إلى الديار المصرية رسولا من صاحب دمشق الناصر بن العزيز يستنجد المصريين على قتال التتار ، وأنهم قد اقترب قدومهم إلى الشام ، وقد استولوا على بلاد الجزيرة وغيرها ، وقد جاز أشموط بن هولا كوخان الفرات وقرب من حلب ، فعند ذلك عقدوا مجلسا بين يدى المنصور بن المعز التركمانى ، وحضر قاضى مصر بدر الدين السنجارى ، والشيخ عز الدين بن عبد السلام ، وتفاوضوا الكلام فيما يتعلق بأخذ شىء من أموال العامة لمساعدة الجند ، وكانت العمدة على ما يقوله ابن عبد السلام ، وكان حاصل كلامه أنه قال إذا لم يبق فى بيت المال شىء ثم أنفقتم أموال الحوائض المذهبة وغيرها من الفضة والزينة ، وتساويتم أنتم والعامة فى الملابس سوى آلات الحرب بحيث لم يبق للجندى سوى فرسه التى يركبها ، ساغ للحاكم حينئذ أخذ شىء من أموال

الناس فى دفع الاعـداء عنهم ، لأنه إذا دهم العدو البلاد ، وجب عـلى الناس كافة دفعهم بأموالهم وأنفسهم .

﴿ ولاية الملك المظفر قطز ﴾

وفيها قبض الأمير سيف الدين قطز على ابن أستاذه نور الدين على الملقب بالمنصور ، وذلك فى غيبة أكثر الأمراء من مماليك أبيه وغـيرهم فى الصيد ، فلما مسكه سيره مع أمه وابنيه وأخوته إلى بلاد الاشكرى ، وتسلطن هو وسمى نفسه بالملك المظفر ، وكان هذا من رحمة الله بالمسلمين ، فان الله جعل عـلى يديه كسر التتار كما سـيأتى بيانه إن شاء الله تعالى . وبان عذره الذى اعتذر به إلى الفقهاء والقضاة و إلى ابن العديم ، فانه قال لا بد للناس من سلطان قاهر يقاتل عن المسلمين عدوهم ، وهذا صبى صغير لا يعرف تدبير المملكة .

وفيها برز الملك الناصر صاحب دمشق إلى وطاه ، برز فى جحافل كثيرة من الجيش والمتطوعة والأعراب وغيرهم ، ولما علم ضعفهم عن مقاومة المغول ارفض ذلك الجمع ، ولم يسر لا هو ولا هم ، فانا لله و إنا إليه راجعون .

وفيها توفى من الأعيان .

﴿ واقف الصدرية صدر الدين أسعد بن المنجاه بن بركات بن مؤمل ﴾

التنوخى المغربى ثم الدمشقى الحنبلى أحد المعدلين ، ذوى الأموال ، والمروءات والصدقات الدارة البارة ، وقف مدرسة للحنابلة ، وقـبره بها إلى جانب تربة القاضى المصرى فى رأس درب الريحان من ناحية الجامع الأموى ، وقد ولى نظر الجامع مـدة ، واستجد أشياء كثيرة منها سوق النحاسين قبلى الجامع ، ونقل الصاغة إلى مكانها الآن ، وقـد كانت قبل ذلك فى الصاغـة العتيقة ، وجـدد الدكاكين التى بين أعمدة الزيارة ، وثمر الجامع أموالا جزيلة ، وكانت له صدقات كثيرة ، وذكر عنه أنه كان يعرف صنعة الكيميا وأنه صح معه عمل الفضة ، وعندى أن هذا لا يصح ولا يصح عنه والله أعلم .

﴿ الشيخ يوسف الاقمينى ﴾

كان يعرف بالأقمينى لأنه كان يسكن قمين حـمام نور الدين الشهيـد ، وكان يلبس ثيابا طوالا تحف عـلى الأرض ، و يبول فى ثيابه ، ورأسه مكشوفة ، و يزعمون أن له أحوالا وكشوفا كثيرة ، وكان كثير من العوام وغيرهم يعتقدون صلاحه وولايته ، وذلك لأنهم لا يعلمون شرائط الولاية ولا الصلاح ، ولا يعلمون أن الكشوف قد تصدر من البر والفاجر ، والمؤمن والكافر ، كالرهبان وغيرهم ، وكالدجال وابن صياد وغيرهم ، فان الجن تسترق السمع وتلقيه على أذن الانسى ، ولا سيما من يكون مجنونا أو غـير نقى الثياب من النجاسة ، فلا بد من اختبار صاحب الحال بالكتاب والسنة ، فمن وافق حاله كتاب الله وسـنة رسوله فهو رجل صالح سواء كاشف أولم يكاشف ، ومن لم يوافق فليس

برجل صالح سواء كاشف أم لا . قال الشافعى : إذا رأيتم الرجل يمشى على الماء و يطير فى الهواء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة . ولما مات هذا الرجل دفن بتربة بسفح قاسيون وهى مشهورة به شرقى[1] الرواحية ، وهى مزخرفة قداعتنى بها بعض العوام ممن كان يعتقده ، فزخرفها وعمل على قبره حجارة منقوشة بالكتابة ، وهـذا كله من البدع ، وكانت وفاته فى سادس شعبان من هذه السنة ، وكان الشيخ إبراهيم بن سيعد جيعانة لايتجاسر فيما يزعم أن يدخل البلد والقمينى حى ، فيوممات الاقمينى دخلها ، وكانت العوام معه فدخلوا دمشق وهم يصيحون و يصرخون أذن لنا فى دخول البلد ، وهم أتباع كل ناعق لم يستضيئوا بنور العلم ، فقيل لجيعانة : ما منعك من دخولها قبل اليوم ؟ فقال : كنت كلما جئت إلى باب من أبواب البلد أجدهذا السبع رابضاً فيه فلا أستطيع الدخول ، وقد كان سكن الشاغور ، وهذا كذب واحتيال ومكر وشعبذة ، وقد دفن جيعانة عنده فى تربته بالسفح والله أعلم بأحوال العباد .

﴿ الشمس على بن الشبى المحدث ﴾

ناب فى الحسبة عن الصدر البكرى ، وقرأ الكثير بنفسه ، وسمع وأسمع ، وكتب بخطه كثيرا .

﴿ أبو عبد الله الفاسى شارح الشاطبية ﴾

اشتهر بالكنية ، وقيل إن اسمه القاسم ، مات بحلب ، وكان عالما فاضلا فى العربيـة والقراءات وغير ذلك ، وقد أجاد فى شرحه للشاطبية وأفاد ، واستحسنه الشيخ شهاب الدين أبو شامة شارحها أيضاً .

﴿ النجم أخو البدر مفضل ﴾

وكان شيخ الفاضلية بالكلاسة ، وكان له إجازة من السلفى خطيب العقيبة بدر الدين يحيى بن الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، ودفن بباب الصغير على جده ، وكانت جنازته حافلة رحمه الله .

﴿ سعد الدين محمد بن الشيخ محيى الدين بن عربى ﴾

ذكره أبو شامة وأثنى عليه فى فضيلته وأدبه وشعره ، هذا إن لم يكن من أتباع أبيه ، وقد ذكر أبو شامة وفاة الناصر داود فى هذه السنة .

﴿ سيف الدين بن صبرة ﴾

متولى شرطـة دمشق ، ذكر أبو شامة أنه حين مات جاءت حية فنهشت أفخاذه ، وقيل : إنها التفت فى أكفانه ، وأعيى الناس دفعها . قال وقيل : إنه كان نصيريا رافضيا خبيثا مدمن خمر، نسأل الله الستر والعافية

﴿ النجيب بن شعيشعة الدمشقى ﴾

أحد الشهود بها ، له سماع حديث و وقف داره بدرب البانياسى دار حـديث ، وهى التى كان يسكنها شيخنا الحافظ المزى قبل انتقاله إلى دار الحديث الأشرفية ، قال أبو شامة وكان ابن شعيشعة

(١) فى النسخة المصرية : تربة أبى عمرو المقدسى .

وهو النجيب أبو الفتح نصر الله بن أبى طالب الشيبانى ، مشهوراً بالكذب ورقة الدين وغير ذلك . وهو أحد الشهود المقدوح فيهم ، ولم يكن بأهل أن يؤخذ عنه ، قال وقد أجلسه أحمد بن يحيى الملقب بالصدر ابن سنى الدولة فى حال ولايته القضاء بدمشق ، فأنشد فيه بعض الشعراء :

جلس الشعيشعة الشقى ليشهدا * تبالكم ، ماذا عدا فيما بدا ؟

هل زلزل الزلزال ؟ أم قد خرج الد * جال أم عدم الرجال ذوو الهدى ؟

عجبا لمحلول العقيدة جاهل * بالشرع قد أذنوا له أن يقعدا

قال أبو شامة : فى سنة سبع وخمسين وستمائة مات شخص زنديق يتعاطى الفلسفة والنظر فى علم الأوائل . وكان يسكن مدارس المسلمين ، وقد أفسد عقائد جماعة من الشبان المشتغلين فيما بلغنى . وكان أبوه يزعم أنه من تلامذة ابن خطيب الرى الرازى صاحب المصنفات. حية ولد حية .

﴿ ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وستمائة ﴾

استهلت هذه السنة بيوم الخميس وليس للناس خليفة ، وملك العراقين وخراسان وغيرها من بلاد المشرق للسلطان هولاكوخان ملك التتار ، وسلطان ديار مصر الملك المظفر سيف الدين قطز ، مملوك المعز أيبك التركمانى . وسلطان دمشق وحلب الملك الناصر بن العزيز بن الظاهر ، و بلاد الكرك والشوبك للملك المغيث بن العادل بن الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب . وهو حرب مع الناصر صاحب دمشق على المصريين . ومعهما الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى . وقد عزموا على قتال المصريين وأخذ مصر منهم . وبينما الناس على هذه الحال وقد تواترت الأخبار بقصد التتار بلاد الشام إذ دخل جيش المغول صحبة ملكهم هولاكوخان وجازوا الفرات على جسور عملوها ، ووصلوا إلى حلب فى ثانى صفر من هذه السنة . فحاصروها سبعة أيام ثم افتتحوها بالأمان ، ثم غدروا بأهلها وقتلوا منهم خلقا لا يعلمهم إلا الله عز وجل . ونهبوا الأموال . وسبوا النساء والأطفال ، وجرى عليهم قريب مما جرى على أهل بغداد . فجاسوا خلال الديار وجعلوا أعزة أهلها أذلة . فانا لله وإنا إليه راجعون . وامتنعت عليهم القلعة شهرا ثم استلموها بالأمان ، وخرب أسوار البلد وأسوار القلعة وبقيت حلب كأنها حمار أجرب . وكان نائبها الملك المعظم توران شاه بن صلاح الدين وكان عاقلا حازماً ، لكنه لم يوافقه الجيش على القتال ، وكان أمر الله قدراً مقدورا . وقد كان أرسل هولاكو يقول لأهل حلب : نحن إنما جئنا لقتال الملك الناصر بدمشق ، فاجعلوا لنا عندكم شحنة . فان كانت النصرة لنا فالبلاد كلها فى حكمنا ، وإن كانت علينا فان شئتم قبلتم الشحنة وإن شئتم أطلقتموه . فأجابوه مالك عندنا إلا السيف ، فتعجب من ضعفهم وجوابهم ، فزحف حينئذ إليهم وأحاط بالبلد ، وكان ما كان بقدر الله سبحانه . ولما فتحت حلب أرسل صاحب حماه بمفاتيحها إلى هولاكو ، فاستناب عليها

رجلا من العجم يدعى أنه من ذرية خالد بن الوليد يقال له خسر وشاه ، فخرب أسوارها كمدينة حلب

﴿ صفة أخذهم دمشق وزوال ملكهم عنها سريعاً ﴾

أرسل هولاكو وهو نازل على حلب جيشا مع أمير من كبار دولته يقال له كتبغانوين ، فوردوا دمشق فى آخر صفر فأخذوها سريعاً من غير ممانعة ولا مدافع ، بل تلقاهم كبارها بالرحب والسعة ، وقد كتب هولاكو أمانا لأهل البلد، فقرىء بالميدان الأخضر ونودى به فى البلد، فأمن الناس على وجل من الغدر ، كما فعل بأهل حلب ، هذا والقلعة ممتنعة مستورة ، وفى أعاليها المجانيق منصوبة والحال شديدة ، فاحضرت التتار منجنيقا يحمل على عجل والخيول تجرها ، وهم راكبون على الخيل وأسلحتهم على أبقار كثيرة ، فنصب المنجانيق على القلعة من غربيها ، وخربوا حيطانا كثيرة وأخذوا حجارتها ورموا بها القلعة رميا متواترا كالمطر المتدارك ، فهدموا كثيرا من أعاليها وشرافاتها وتداعت للسقوط فأجابهم متوليها فى آخر ذلك النهار للمصالحة ، ففتحوها وخربوا كل بدنة فيها ، وأعالى بروجها، وذلك فى نصف جمادى الأولى من هذه السنة ، وقتلوا المتولى بها بدرالدين بن قراجا ، ونقيبها جمال الدين ابن الصيرفى الحلبى ، وسلموا البلد والقلعة إلى أمير منهم يقال له ابل سيان ، وكان لعنه الله معظما لدين النصارى ، فاجتمع به أساقفتهم وقسوسهم ، فعظمهم جدا ، وزار كنائسهم ، فصارت لهم دولة وصولة بسببه ، وذهب طائفة من النصارى إلى هولاكو وأخذوا معهم هدايا وتحفا ، وقدموا من عنده ومعهم أمان فرمان من جهته ، ودخلوا من باب توما ومعهم صليب منصوب يحملونه على رؤس الناس ، وهم ينادون بشعارهم ويقولون : ظهر الدين الصحيح دين المسيح .ويذمون دين الاسلام وأهله ، ومعهم أوانى فيها خمر لا يمرون على باب مسجد إلا رشوا عنده خمرا ، وقماقم ملآنة خمرا يرشون منها على وجوه الناس وثيابهم ، ويأمرون كل من يجتازون به فى الأزقة والأسواق أن يقوم لصليبهم، ودخلوا من درب الحجر فوقفوا عند رباط الشيخ أبى البيان ، ورشوا عنده خمراً ، وكذلك على باب مسجد درب الحجر الصغير والكبير ، واجتازوا فى السوق حتى وصلوا درب الريحان أو قريب منه ، فتكاثر عليهم المسلمون فردوهم إلى سوق كنيسة مريم ، فوقف خطيبهم إلى دكة دكان فى عطفة السوق فمدح دين النصارى وذم دين الاسلام وأهله ، فانا لله وإنا إليه راجعون . ثم دخلوا بعد ذلك إلى كنيسة مريم وكانت عامرة ولكن كان هذا سبب خرابها ولله الحمد . وحكى الشيخ قطب الدين فى ذيله على المرآة أنهم ضربوا بالناقوس فى كنيسة مريم فالله أعلم .

قال وذكر أنهم دخلوا إلى الجامع بخمر وكان فى نيتهم إن طالت مدة التتار أن يخربوا كثيرا من المساجد وغيرها ، ولما وقع هذا فى البلد اجتمع قضاة المسلمين والشهود والفقهاء فدخلوا القلعة يشكون هذا الحال إلى متسلمها ابل سيان فأهينوا وطردوا ، وقدم كلام رؤساء النصارى عليهم فانا لله

و إنا إليه راجعون . وهذا كان فى أول هذه السنة وسلطان الشام الناصر بن العزيز وهو مقيم فى وطأة برزه ، ومعه جيوش كثيرة من الأمراء وأبناء الملوك ليناجزوا التتار إن قدموا عليهم ، وكان فى جملة من معه الأمير بيبرس البندقدارى فى جماعة من البحرية ، ولكن الكلمة بين الجيوش مختلفة غير مؤتلفة ، لما يريده الله عز وجل . وقد عزمت طائفة من الأمراء على خلع الناصر وسجنه ومبايعة أخيه شقيقه الملك الظاهر علي ، فلما عرف الناصر ذلك هرب إلى القلعة وتفرقت العساكر شذر مذر وساق الأمير ركن الدين بيبرس فى أصحابه إلى ناحية غزة ، فاستدعاه الملك المظفر قطز إليه واستقدمه عليه ، وأقطعه قليوب ، وأنزله بدار الوزارة وعظم شأنه لديه ، و إنما كان حتفه على يديه .

﴿ وقعت عين جالوت ﴾

اتفق وقوع هذا كله فى العشر الأخير من رمضان من هذه السنة ، فما مضت سوى ثلاثة أيام حتى جاءت البشارة بنصرة المسلمين على التتار بعين جالوت ، وذلك أن الملك المظفر قطز صاحب مصر لما بلغه أن التتار قد فعلوا بالشام ما ذكرنا ، وقد نهبوا البلاد كلها حتى وصلوا إلى غزة ، وقد عزموا على الدخول إلى مصر ، وقد عزم الملك الناصر صاحب دمشق على الرحيل إلى مصر ، وليته فعل ، وكان فى صحبته الملك المنصور صاحب حماه وخلق من الامراء وأبناء الملوك ، وقد وصل إلى قطية وأكرم الملك المظفر قطز صاحب حماه و وعده ببلده ووفاه له ، ولم يدخل الملك الناصر مصر بل كر راجعاً إلى ناحية تيه بنى إسرائيل ، ودخل عامة من كان معه إلى مصر ، ولو دخل كان أيسر عليه مما صار إليه ، ولكنه خاف منهم لأجل العداوة فعدل إلى ناحية الكرك فتحصن بها وليته استمر فيها ، ولكنه قلق فركب نحو البرية — وليته ذهب فيها — واستجار ببعض أمراء الأعراب ، فقصدته التتار وأتلفوا ماهنالك من الأموال وخربوا الديار وقتلوا الكبار والصغار وهجموا على الأعراب التى بتلك النواحى فقتلوا منهم خلقا وسبوا من نسائهم ونسائهم ، وقد اقتص منهم العرب بعد ذلك ، فأغاروا على خيل جشارهم فى نصف شعبان فساقوها بأسرها ، فساقت وراءهم التتار فلم يدركوا لهم الغبار ولا استردوا منهم فرساً ولا حماراً ، وما زال التتار وراء الناصر حتى أخذوه عند بركة زيزى وأرسلوه مع ولده العزيز وهو صغير وأخيه إلى ملكهم هولاكوخان وهو نازل على حلب ، فما زالوا فى أسره حتى قتلهم فى السنة الآتية كما سنذكره . والمقصود أن المظفر قطز لما بلغه ما كان من أمر التتار بالشام المحروسة وأنهم عازمون على الدخول إلى ديار مصر بعد تمهيد ملكهم بالشام ، بادرهم قبل أن يبادروه و برز إليهم وأقدم عليهم قبل أن يقدموا عليه ، فخرج فى عساكره وقد اجتمعت الكلمة عليه ، حتى انتهى إلى الشام واستيقظ له عسكر المغول وعليهم كتبغانوين ، وكان إذ ذاك فى البقاع فاستشار الأشرف صاحب حمص والمجير ابن الزكى ، فأشاروا عليه بأنه لا قبل له بالمظفر حتى يستمد هولاكو

فأبى إلا أن يناجزه سريعاً . فساروا إليه وسار المظفر إليهم . فكان اجتماعهم على عين جالوت يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان ، فاقتتلوا قتالا عظيما، فكانت النصرة ولله الحمد للاسلام وأهله، فهزمهم المسلمون هزيمة هائلة وقتل أمير المغول كتبغانوين وجماعة من بيته ، وقد قيل إن الذى قتل كتبغانوين الأمير جمال الدين آقوش الشمسى ، واتبعهم الجيش الاسلامى يقتلونهم فى كل موضع . وقد قاتل الملك المنصور صاحب حماه مع الملك المظفر قتالا شديدا ، وكذلك الأمير فارس الدين أقطاى المستعرب . وكان أتابك العسكر ، وقد أسر من جماعة كتبغانوين الملك السعيد بن العزيز بن العادل فأمر المظفر بضرب عنقه ، واستأمن الأشرف صاحب حمص ، وكان مع التتار ، وقد جعله هولاكوخان نائبا على الشام كله . فأمنه الملك المظفر ورد إليه حمص . وكذلك رد حماه إلى المنصور وزاده المعرة وغيرها ، وأطلق سلمية للامير شرف الدين عيسى بن مهنا بن مانع أمير العرب . واتبع الامير بيبرس البندقدارى وجماعة من الشجعان التتار يقتلونهم فى كل مكان، إلى أن وصلوا خلفهم إلى حلب ، وهرب من بدمشق منهم يوم الأحد السابع والعشرين من رمضان . فتبعهم المسلمون من دمشق يقتلون فيهم ويستفكون الأسارى من أيديهم ، وجاءت بذلك البشارة ولله الحمد على جبره إياهم بلطفه فجاوبتها دق البشائر من القلعة وفرح المؤمنون بنصر الله فرحاً شديدا ،وأيد الله الاسلام وأهله تأييداً وكبت الله النصارى واليهود والمنافقين وظهر دين الله وهم كارهون . فتبادر عند ذلك المسلمون إلى كنيسة النصارى التى خرج منها الصليب فانتهبوا ما فيها وأحرقوها وألقوا النار فيما حولها فاحترق دور كثيرة إلى النصارى ، وملأ الله بيوتهم وقبورهم نارا ، وأحرق بعض كنيسة اليعاقبة ، وهمت طائفة بنهب اليهود ، فقيل لهم إنه لم يكن منهم من الطغيان كما كان من عبدة الصلبان ، وقتلت العامة وسط الجامع شيخا رافضيا كان مصانعا للتتار على أموال الناس يقال له الفخر محمد بن يوسف بن محمد الكنجى . كان خبيث الطوية مشرقياً ممالئا لهم على أموال المسلمين قبحه الله ، وقتلوا جماعة مثله من المنافقين فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين . وقد كان هولاكو أرسل تقليدا بولاية القضاء على جميع المدائن: الشام، والجزيرة، والموصل، وماردين، والأكراد وغير ذلك ، للقاضى كمال الدين عمر بن بدار التفليسى . وقد كان نائب الحكم بدمشق عن القاضى صدر الدين أحمد بن يحيى بن هبة الله ابن سنى الدولة من مدة خمس عشرة سنة ، فحين وصل التقليد فى سادس عشرين ربيع الأول قرىء بالميدان الأخضر فاستقل بالحكم فى دمشق وقد كان فاضلا ، فسار القاضيان المعزولان صدر الدين بن سنى الدولة ومحيى الدين بن الزكى إلى خدمة هولاكوخان إلى حلب ، فخدع ابن الزكى لابن سنى الدولة وبذل أموالا جزيلة . وتولى القضاء بدمشق ورجعا ، فمات ابن سنى الدولة ببعلبك . وقدم ابن الزكى على القضاء ومعه تقليده وخلعة مذهبة فلبسها وجلس فى خدمة ابل سنان تحت قبة النسر عند الباب

الكبير ،و بينهما الخاتون زوجة ابن سنان حاسرة عن وجهها ، وقرىء التقليد هناك والحالة كذلك ، وحين ذكر اسم هولاكو نثر الذهب والفضة فوق رؤس الناس، فانا لله و إنا إليه راجعون ، قبح الله ذلك القاضى والأمير والزوجة والسلطان . وذكر أبوشامة أن ابن الزكى استحوذ على مدارس كثيرة فى مدته هذه القصيرة ، فانه عزل قبل رأس الحول ، فأخذ فى هذه المدة العذراوية والسلطانية والفلكية والركنية والقيمرية والعزيزية مع المدرستين اللتين كانتا بيده التقوية والعزيزية ، وأخذ لولده عيسى تدريس الامينية ومشيخة الشيوخ ، وأخذ أم الصالح لبعض أصحابه وهو العماد المصرى ، وأخذ الشامية البرانية لصاحب له ، واستناب أخاه لأمه شهاب الدين إسماعيل بن أسعد بن حبيش فى القضاء وولاه الرواحية والشامية البرانية . قال أبوشامة :مع أن شرط واقفها أن لايجمع بينها و بين غيرها . ولما رجعت دمشق وغيرها إلى المسلمين ، سعى فى القضاء و بذل أموالا ليستمرفيه وفيما بيديه من المدراس ، فلم يستمر بل عزل بالقاضى نجم الدين أبى بكر بن صدر الدين بن سنى الدولة ، فقرىء توقيعه بالقضاء يوم الجمعة بعد الصلاة فى الحادى والعشرين من ذى القعدة عند الشباك الكمالى من مشهد عثمان من جامع دمشق . ولما كسر الملك المظفر قطز عساكر التتار بعين جالوت ساق و راءهم ودخل دمشق فى أبهة عظيمة وفرح به الناس فرحاً شديدا ودعوا له دعاء كثيرا ، وأقر صاحب حمص الملك الأشرف عليها ،وكذلك المنصور صاحب حماه ، واسترد حلب من يد هولاكو ، وعاد الحق إلى نصابه ومهد القواعد ، وكان قد أرسل بين يديه الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى ليطرد التتار عن حلب و يتسلمها و وعده بنيابتها ، فلما طردهم عنها وأخرجهم منها وتسلمها المسلمون استناب عليها غيره وهو علاء الدين ابن صاحب الموصل ، وكان ذلك سبب الوحشة التى وقعت بينهما واقتضت قتل الملك المظفر قطز سريعاً ، ولله الأمر من قبل ومن بعد . فلما فرغ المظفر من الشام عزم على الرجوع إلى مصر واستناب على دمشق الأمير علم الدين سنجر الحلبى الكبير والأمير مجير الدين ابن الحسين بن آقشتمر ، وعزل القاضى ابن الزكى عن قضاء دمشق ، وولى ابن سنى الدولة ثم رجع إلى الديار المصرية والعساكر الاسلامية فى خدمته ، وعيون الأعيان تنظر إليه شزراً من شدة هيبته

﴿ ذكر سلطنة الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ﴾

وهو الأسد الضارى ، وذلك أن السلطان الملك المظفر قطز لما عاد قاصدا مصر ، وصل إلى ما بين الغزالى والصالحية ، عدا عليه الأمراء فقتلوه هنالك ، وقد كان رجلا صالحا كثير الصلاة فى الجماعة ، ولا يتعاطى المسكر ولاشيئا مما يتعاطاه الملوك ، وكانت مدة ملكه من حين عزل ابن أستاذه المنصور على بن المعز التركمانى إلى هذه المدة ، وهى أواخر ذى القعدة نحواً من سنة، رحمه الله وجزاه عن الاسلام وأهله خيرا . وكان الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى قد اتفق مع جماعة من الأمراء

على قتله ، فلما وصل إلى هذه المنزلة ضرب دهليزه وساق خلف أرنب ، وساق معه أولئك الأمراء فشفع عنده ركن الدين بيبرس فى شىء فشفعه ، فأخذ يده ليقبلها فأمسكها وحمل عليه أولئك الأمراء بالسيوف فضربوه بها ، وألقوه عن فرسه ورشقوه بالنشاب حتى قتلوه رحمه الله ، ثم كروا راجعين إلى المخيم وبأيديهم السيوف مصلتة ، فأخبروا من هناك بالخبر . فقال بعضهم من قتله ؟ فقالوا : ركن الدين بيبرس ، فقالوا أنت قتلته ؟ فقال نعم ، فقالوا أنت الملك إذا ، وقيل لما قتل حار الأمراء بينهم فيمن يولون الملك ، وصار كل واحد منهم يخشى غائلة ذلك ، وأن يصيبه ما أصاب غيره سريعاً . فاتفقت كلمتهم على أن بايعوا بيبرس البندقدارى ، ولم يكن هو من أكابر المقدمين ، ولكن أرادوا أن يجربوا فيه . ولقبوه الملك الظاهر ، فجلس على سرير المملكة وحكمه ، ودقت البشائر وضربت الطبول والبوقات وصفرت الشغابة ، وزعقت الشاوشية بين يديه . وكان يوما مشهودا وتوكل على الله واستعان به ، ثم دخل مصر والعساكر فى خدمته . فدخل قلعة الجبل وجلس على كرسيها ، فحكم وعدل وقطع ووصل وولى وعزل ، وكان شهما شجاعا أقامه الله للناس لشدة احتياجهم إليه فى هذا الوقت الشديد والأمر العسير ، وكان أولا لقب نفسه بالملك القاهر ، فقال له الوزير : إن هذا اللقب لا يفلح من يلقب به . تلقب به القاهر بن المعتمد فلم تطل أيامه حتى خلع وسملت عيناه . ولقب به القاهر صاحب الموصل فسم فمات ، فعدل عنه حينئذ إلى الملك الظاهر . ثم شرع فى مسك من يرى فى نفسه رئاسة من أكابر الأمراء حتى مهد الملك . وقد كان هولاكوخان لما بلغه ماجرى على جيشه من المسلمين بعين جالوت أرسل جماعة من جيشه الذين معه كثيرين ليستعيدوا الشام من أيدى المسلمين ، فحيل بينهم وبين مايشتهون فرجعوا إليه خائبين خاسرين . وذلك أنه نهض إليهم الهزبر الكاسر والسيف الباتر الملك الظاهر . فقدم دمشق وأرسل العساكر فى كل وجه لحفظ الثغور والمعاقل بالأسلحة ، فلم يقدر التتار على الدنو إليه . ووجدوا الدولة قد تغيرت ، والسواعد قد شمرت . وعناية الله بالشام وأهله قد حصلت . ورحمته بهم قد نزلت . فعند ذلك نكصت شياطينهم على أعقابهم . وكروا راجعين القهقرى ، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات . وقد كان الملك المظفر قطز رحمه الله استناب على دمشق الأمير علم الدين سنجر الحلبى أحد الأتراك . فلما بلغه مقتل المظفر دخل القلعة ودعا لنفسه وتسمى بالملك المجاهد ، فلما جاءت البيعة للملك الظاهر خطب له يوم الجمعة السادس من ذى الحجة فدعا الخطيب أولا للمجاهد ثم للظاهر ثانياً وضربت السكة باسمهما معا ، ثم ارتفع المجاهد هذا من البين كما سيأتى .

وقد اتفق فى هذا العام أمور عجيبة . وهى أن أول هذه السنة كانت الشام للسلطان الناصر ابن العزيز ، ثم فى النصف من صفر صارت لهولاكو ملك التتار ، ثم فى آخر رمضان صارت للمظفر قطز

ثم فى أواخر العقدة صارت للظاهر بيبرس . وقد شركه فى دمشق الملك المجاهد سنجر ، وكذلك كان القضاء فى أولها بالشام لابن سنى الدولة صدر الدين . ثم صار للكمال عمر التفليسى من جهة هولاكو ثم لابن الزكى ثم لنجم الدين ابن سنى الدولة . وكذلك كان خطيب جامع دمشق عماد الدين بن الحرستانى من سنين متطاولة . فعزل فى شوال منها بالعماد الاسعردى ، وكان صينا قارئا مجيدا . ثم أعيد العماد الحرستانى فى أول ذى القعدة منها . فسبحان من بيده الأمور يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. وفيها توفى من الأعيان .

﴿ قاضى القضاة صدر الدين أبو العباس ابن سنى الدولة ﴾

أحمد بن يحيى بن هبة الله بن الحسين بن يحيى بن محمد بن على يحيى بن صدقة بن الخياط ، قاضى القضاة صدر الدين أبو العباس ابن سنى الدولة التغلبى الدمشقى الشافعى ، وسنى الدولة الحسين بن يحيى المذكور كان قاضيا لبعض ملوك دمشق فى حدود الخمسمائة . وله أوقاف على ذريته . وابن الخياط الشاعر صاحب الديوان وهو أبو عبد الله أحمد بن محمد بن على بن يحيى بن صدقة التغلبى هو عم سنى الدولة . ولد سنى الدولة سنة تسع وخمسين وخمسمائة ، وسمع الخشوعى وابن طبرزد . والكندى وغيرهم . وحدث ودرس فى عدة مدارس وأفتى . وكان عارفا بالمذاهب مشكور السيرة . ولكن أبو شامة ينال منه ويذمه فالله أعلم .

وقد ولى الحكم بدمشق استقلالا سنة ثلاث وأربعين واستمر إلى مدة السنة وسافر حين عزل بالكمال التفليسى هو والقاضى محيى الدين ابن الزكى . وقد سافر هو وابن الزكى إلى هولاكو لما أخذ حلب فولى ابن الزكى القضاء . واختار ابن سنى الدولة بعلبك فقدمها وهو متمرض فمات بها ودفن عند الشيخ عبد الله اليونينى ، وقد كان الملك الناصر يثنى عليه كما كان الملك الأشرف يثنى على والده شمس الدين . ولما استقر الملك الظاهر بيبرس ولى القضاء ولده نجم الدين ابن سنى الدولة وهو الذى حدث فى زمن المشمش بطالة الدروس لأنه كان له بستان بأرض السهم ، فكان يشق عليه مفارقة المشمش ، والنزول إلى المدارس ، فبطل الناس هذه الايام واتبعوه فى ذلك ، والنفوس إنما تؤثر الراحة والبطالة ، ولا سيما أصحاب البساتين فى أيام الفواكه وكثرة الشهوات فى تلك الأيام ولا سيما القضاة .

وفيها توفى ﴿ الملك السعيد صاحب ماردين ﴾

نجم الدين بن ايل غازى بن المنصور أرتق بن أرسلان بن ايل غازى بن السنى بن تمرتاش ابن ايل غازى بن ارتق وكان شجاعا ملك يوما ، وقد وقع فى قلعته توران شاه بن الملك صلاح الدين كان نائبا للملك الظاهر بن العزيز بن الظاهر بن الناصر صاحب دمشق على حلب . وقد حصن

حلب من أيدى المغول مدة شهر ، ثم تسلمها بعد محاصرة شديدة صلحا . كانت وفاته فى هذه السنة ودفن بدهليز داره . وفيها قتل :

(الملك السعيد حسن بن عبد العزيز)

ابن العادل أبى بكر بن أيوب ، كان صاحب الصبيبة وبانياس بعد أبيه ، ثم أخذتا منه وحبس بقلعة المنيرة ، فلما جاءت التتار كان معهم وردوا عليه بلاده ، فلما كانت وقعة عين جالوت أتى به أسيرا إلى بين يدى المظفر قطز فضرب عنقه ، لأنه كان قد لبس سرقوج التتار ونامحهم على المسلمين .

(عبد الرحمن بن عبدالرحيم بن الحسن بن عبدالرحمن بن طاهر)

ابن محمد بن الحسين بن على بن أبى طالب ، شرف الدين بن العجمى الحلبى الشافعى ، من بيت العلم والرئاسة بحلب ، درس بالظاهرية ووقف مدرسة بها ودفن بها ، توفى حين دخلت التتار حلب فى صفر ، فعذبوه وصبوا عليه ماء باردا فى الشتاء فتشنج حتى مات رحمه الله تعالى .

(الملك المظفر قطز بن عبد الله)

سيف الدين التركى ، أخص مماليك المعز التركمانى ، أحد مماليك الصالح أيوب بن الكامل . لما قتل أستاذه المعز قام فى تولية ولده نور الدين المنصور على ، فلما سمع بأمر التتار خاف أن تختلف الكلمة لصغر ابن أستاذه فعزله ودعا إلى نفسه ، فبويع فى ذى القعدة سنة سبع وخمسين وستمائة كما تقدم ، ثم سار إلى التتار فجعل الله على يديه نصرة الاسلام كما ذكرنا ، وقد كان شجاعا بطلا كثير الخير ناصحاً للاسلام وأهله ، وكان الناس يحبونه ويدعون له كثيرا . ذكر عنه أنه لما كان يوم المعركة بعين جالوت قتل جواده ولم يجد أحداً فى الساعة الراهنة من الوشاقية الذين معهم الجنائب ، فترجل وبقى واقفا على الأرض ثابتا ، والقتال عمال فى المعركة ، وهو فى موضع السلطان من القلب ، فلما رآه بعض الأمراء ترجل عن فرسه وحلف على السلطان ليركبنها فامتنع وقال لذلك الأمير : ما كنت لأحرم المسلمين نفعك . ولم يزل كذلك حتى جاءته الوشاقية بالخيل فركب ، فلامه بعض الأمراء وقال : ياخوند لم لا ركبت فرس فلان ؟ فلو أن بعض الأعداء رآك لقتلك وهلك الاسلام بسببك ، فقال : أما أنا فكنت أروح إلى الجنة ، وأما الاسلام فله رب لا يضيعه ، قد قتل فلان وفلان وفلان حتى عد خلقا من الملوك ، فأقام للاسلام من يحفظه غيرهم ، ولم يضيع الاسلام . رحمه الله وكان حين سار من مصر فى خدمته خلق من كبار الأمراء البحرية وغيرهم ، ومعه المنصور صاحب حماه وجماعة من أبناء الملوك . فأرسل إلى صاحب حماه يقول له لا تتعنى فى مد سماط فى هذه الأيام ، وليكن مع الجندى لحمة يأكلها ، والعجل العجل ، وكان اجتماعه مع عدوه كما ذكرنا فى العشر الأخير من رمضان يوم الجمعة ، وهذه بشارة عظيمة ، فان وقعة بدر كانت يوم الجمعة فى رمضان ، وكان

فيها نصر الاسلام . ولما قدم دمشق فى شوال أقام بها العدل و رتب الأمور ، وأرسل بيبرس خلف التتار ليخرجهم و يطردهم عن حلب ، ووعده بنيابتها فلم يف له لما رآه من المصلحة ، فوقعت الوحشة بينهما بسبب ذلك ، فلما عاد إلى مصر تمالأ عليه الأمراء مع بيبرس فقتلوه بين القرابى والصالحية ودفن بالقصر ، وكان قبره يزار ، فلما تمكن الظاهر من الملك بعث إلى قبره فغيبه عن الناس ، وكان لا يعرف بعد ذلك ، قتل يوم السبت سادس عشر من ذى القعدة رحمه الله .

وحكى الشيخ قطب الدين اليونينى فى الذيل عـلى المرآة عن الشيخ علاء الدين بن غانم عن المولى تاج الدين أحمد بن الأثير كاتب السر فى أيام الناصر صاحب دمشق ، قال : لما كنا مع الناصر بوطاه برزه جاءت البريدية بخبر أن قطز قد تولى الملك بمصر ، فقرأت ذلك على السلطان ، فقال : اذهب إلى فلان وفلان فأخبرهم بهذا ، قال. فلما خرجت عنه لقينى بعض الأجناد فقال لى جاءكم الخبر من مصر بأن قطز قد تملك ؟ فقلت: ما عندى من هذا علم ومايدريك أنت بهذا ؟ فقال بلى والله سيلى المملكة و يكسر التتار ، فقلت من أين تعلم هذا ؟ فقال : كنت أخدمه وهو صغير وكان عليه قمل كثير فكنت أفليه وأهينه وأذمه ، فقال لى يوما : ويلك إيش تريد أعطيك إذا ملكت الديار المصرية ؟ فقلت له أنت مجنون ؟ فقال لقد رأيت رسول الله ﷺ فى المنام وقال لى أنت تملك الديار المصرية وتكسر التتار ، وقول رسول الله ﷺ حق لاشك فيه ، فقلت له حينئذ ـ وكان صادقا ـ أريد منك إمرة خمسين فارساً ، فقال نعم أبشر . قال ابن الأثير : فلما قال لى هذا قلت له هذه كتب المصريين بأنه قد تولى السلطنة ، فقال والله ليكسرن التتار ، وكان كذلك ، ولما رجع الناصر إلى ناحية الديار المصرية وأراد دخولها و رجع عنها ودخلها أكثر الجيوش الشامية كان هذا الأمير الحاكى فى جملة من دخلها ، فأعطاه المظفر إمرة خمسين فارساً ، ووفى له بالوعد ، وهو الأمير جمال الدين التركمانى . قال ابن الأثير : فلقينى بمصر بعد أن تأمر فذكرنى بما كان أخبرنى عن المظفر ، فذكرته ثم كانت وقعة التتار عـلى إثر ذلك فكسرهم وطردهم عن البلاد ، وقد روى عنـه أنه لما رأى عصائب التتار قال للأمراء والجيوش الذين معه : لا تقاتلوهم حتى تزول الشمس وتفئ الظلال وتهب الرياح ، و يدعوا لنا الخطباء والناس فى صلاتهم ، رحمه الله تعالى .

وفيها هلك كتبغانوين نائب هولاكو عـلى بلاد الشام لعنه الله ، ومعنى نوين يعنى أمير عشرة آلاف ، وكان هذا الخبيث قد فتح لأستاذه هولاكو من أقصى بلاد العجم إلى الشام ، وقد أدرك جنكيزخان جد هولاكو ، وكان كتبغا هـذا يعتمد فى حروبه للمسلمين أشياء لم يسبقه أحد إليها ، كان إذا فتح بلداً ساق مقاتلة هذا البلد إلى البلد الآخر الذى يليه ، و يطلب من أهل ذلك البلد أن يؤوا هؤلاء إليهم، فان فعلوا حصل مقصوده فى تضييق الأطعمة والأشربة عليهم، فتقصر مدة الحصار

عليه لما ضاق على أهل البلد من أقواتهم ، وإن امتنعوا من إيوائهم عندهم قاتلهم بأولئك المقاتلة الذين هم أهل البلد الذى فتحه قبل ذلك ، فان حصل الفتح وإلا كان قد أضعف أولئك بهؤلاء حتى يفنى تلك المقاتلة ، فان حصل الفتح وإلا قاتلهم بجنده وأصحابه مع راحة أصحابه وتعب أهل البلد وضعفهم حتى يفتحهم سريعاً . وكان يبعث إلى الحصن يقول: إن ماءكم قد قل فنخشى أن نأخذكم عنوة فنقتلكم عن آخركم ونسبى نساءكم وأولادكم فما بقاؤكم بعد ذهاب مائكم ، فافتحوا صلحاً قبل أن نأخذكم قسراً فيقولون له : إن الماء عندنا كثير فلا نحتاج إلى ماء. فيقول لا أصدق حتى أبعث من عندى من يشرف عليه فان كان كثيرا انصرفت عنكم ، فيقولون : ابعث من يشرف عليه ، فيرسل رجالا من جيشه معهم رماح مجوفة محشوة سما ، فاذا دخلوا الحصن الذى قد أعياه ساطوا ذلك الماء بتلك الرماح على أنهم يفتشونه و يعرفون قدره ، فينفتح ذلك السم و يستقر فى ذلك الماء فيكون سبب هلاكهم وهم لا يشعرون لعنه الله لعنة تدخل معه قبره . وكان شيخا كبيرا قد أسن وكان يميل إلى دين النصارى ولكن لا يمكنه الخروج من حكم جنكيزخان فى الياساق .

قال الشيخ قطب الدين اليونينى: وقد رأيته ببعلبك حين حاصر قلعتها ، وكان شيخا حسنا له لحية طويلة مسترسلة قد ضفرها مثل الدبوقة ، وتارة يعلقها من خلفه باذنه ، وكان مهيباً شديد السطوة ، قال وقد دخل الجامع فصعد المنارة ليتأمل القلعة منها ، ثم خرج من الباب الغربى فدخل دكانا خرابا فقضى حاجته والناس ينظرون إليه وهو مكشوف العورة ، فلما فرغ من حاجته مسحه بعض أصحابه بقطن ملبد مسحة واحدة . قال ولما بلغه خروج المظفر بالعساكر من مصر تلوم فى أمره وحار ماذا يفعل ، ثم حملته نفسه الأبية على لقائه ، وظن أنه منصور على جارى عادته ، فحمل يومئذ على الميسرة فكسرها ثم أيد الله المسلمين وثبتهم فى المعركة فحملوا حملة صادقة على التتار فهزموهم هزيمة لا تجبر أبدا ، وقتل أميرهم كتبغانوين فى المعركة وأسر ابنه ، وكان شابا حسنا ، فأحضر بين يدى المظفر قطز فقال له أهرب أبوك ؟ قال إنه لا يهرب ، فطلبوه فوجدوه بين القتلى ، فلما رآه ابنه صرخ و بكى ، فلما تحققه المظفر سجد لله تعالى ثم قال : أنام طيبا . كان هذا سعادة التتار و بقتله ذهب سعدهم ، وهكذا كان كما قال ولم يفلحوا بعده أبدا ، وكان قتله يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان ، وكان الذى قتله الأمير آقوش الشمسى رحمه الله .

﴿ الشيخ محمد الفقيه اليونينى ﴾

الحنبلى البعلبكى الحافظ ، هو محمد بن أحمد بن عبد الله بن عيسى بن أبى الرجال أحمد بن على ابن محمد بن محمد بن الحسين بن إسحاق بن جعفر الصادق ، كذا نقل هذه النسبة الشيخ قطب الدين اليونينى من خط أخيه الأكبر أبى الحسين على وأخبره أن والده قال له نحن من سلالة

جعفر الصادق ، قال و إنما قال له هذا عند الموت ليتخرج من قبول الصدقات .

أبو عبد الله بن أبى الحسين اليونينى الحنبلى تقى الدين الفقيه الحنبلى الحافظ المفيد البارع العابد الناسك، ولد سنة ثنتين وسبعين وخمسمائة ، وسمع الخشوعى وحنبلا والكندى والحافظ عبدالغنى وكان يثنى عليه ، وتفقه على الموفق ، ولزم الشيخ عبد الله اليونينى فانتفع به ، وكان الشيخ عبد الله يثنى عليه و يقدمه و يقتدى به فى الفتاوى، وقد لبس الخرقة من شيخ شيخه عبدالله البطائحى ، و برع فى علم الحديث وحفظ الجمع بين الصحيحين بالفاء والواو ، وحفظ قطعة صالحة من مسند أحمد ، وكان يعرف العربية أخذها عن التاج الكندى ، وكتب مليحا حسنا ، وكان الناس ينتفعون بفنونه الكثيرة ، و يأخذون عنه الطرق الحسنة ، وقد حصلت له وجاهة عظيمة عند الملوك ، توضأ مرة عند الملك الأشرف بالقلعة حال سماع البخارى على الزبيدى ، فلما فرغ من الوضوء نفض السلطان تخفيفته و بسطها على الأرض ليطأ عليها ، وحلف السلطان له إنها طاهرة ولا بد أن يطأ برجليه عليها ففعل ذلك . وقدم الكامل على أخيه الأشرف دمشق فأنزله القلعة وتحول الأشرف لدار السعادة وجعل يذكر للكامل محاسن الشيخ الفقيه ، فقال الكامل : أحب أن أراه ، فأرسل إليه إلى بعلبك بطاقة واستحضره فوصل إلى دار السعادة ، فنزل الكامل إليه وتحادثا وتذاكرا شيئا من العلم ، فجرت مسألة القتل بالمثقل ، وجرى ذكر حديث الجارية التى قتلها اليهودى فرض رأسها بين حجرين فأمر رسول الله ﷺ بقتله، فقال الكامل : إنه لم يعترف . فقال الشيخ الفقيه فى صحيح مسلم «فاعترف» ، فقال الكامل أنا اختصرت صحيح مسلم ولم أجد هذا فيه ، فأرسل الكامل فأحضر خمس مجلدات اختصاره لمسلم ، فأخذ الكامل مجلدا والأشرف آخر وعماد الدين بن موسك آخر وأخذ الشيخ الفقيه مجلدا فأول ما فتحه وجد الحديث كما قال الشيخ الفقيه ، فتعجب الكامل من استحضاره وسرعة كشفه ، وأراد أن يأخذه معه إلى الديار المصرية فأرسله الأشرف سريعا إلى بعلبك ، وقال للكامل : إنه لا يؤثر ببعلبك شيئا ، فأرسل له الكامل ذهباً كثيرا ، قال ولده قطب الدين : كان والدى يقبل بر الملوك و يقول أنا لى فى بيت المال أكثر من هذا ، ولا يقبل من الأمراء ولا من الوزراء شيئا إلا أن يكون هدية مأكول ونحوه ، و يرسل إليهم من ذلك فيقبلونه على سبيل التبرك والاستشفاء .

وذكر أنه كثر ماله وأثرى ، وصار له سعة من المال كثيرة ، وذكر له أن الأشرف كتب له كتابا بقرية يونين وأعطاه لمحيي الدين بن الجوزى ليأخذ عليه خط الخليفة ، فلما شعر والدى بذلك أخذ الكتاب ومزقه وقال : أنا فى غنية عن ذلك ، قال وكان والدى لا يقبل شيئا من الصدقة ويزعم أنه من ذرية على بن أبى طالب من جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على بن الحسين بن

على بن أبى طالب ، قال وقد كان قبل ذلك فقيرا لا شئ له ، وكان للشيخ عبد الله زوجة ولها ابنة جميلة ، وكان الشيخ يقول لها : زوجيها من الشيخ محمد ، فتقول إنه فقير وأنا أحب أن تكون ابنتى سعيدة ، فيقول الشيخ عبد الله كأنى أنظر إليهما إياه و إياها فى دار فيها بركة وله رزق كثير والملوك يترددون إلى زيارته ، فزوجتها منه فكان الأمر كذلك ، وكانت أولى زوجاته رحمه الله تعالى .

وكانت الملوك كلهم يحترمونه و يعظمونه و يجيئون إلى مدينته ، بنو العادل وغيرهم ، وكذلك كان مشايخ الفقهاء كابن الصلاح ، وابن عبد السلام ، وابن الحاجب ، والحصرى ، وشمس الدين بن سنى الدولة ، وابن الجوزى ، وغيرهم يعظمونه و يرجعون إلى قوله لعلمه وعمله وديانته وأمانته . وقد ذكرت له أحوال ومكاشفات وكرامات كثيرة رحمه الله ، وزعم بعضهم أنه قطب منذ ثنتى عشرة سنة فالله أعلم . وذكر الشيخ الفقيه قال عزمت مرة على الرحلة إلى حران ، وكان قد بلغنى أن رجلا بها يعلم علم الفرائض جيداً ، فلما كانت الليلة التى أريد أن أسافر فى صبيحتها جاءتنى رسالة الشيخ عبد الله اليونينى يعزم على إلى القدس الشريف ، وكأنى كرهت ذلك وفتحت المصحف فطلع قوله (اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون) فخرجت معه إلى القدس فوجدت ذلك الرجل الحرانى بالقدس الشريف ، فأخذت عنه علم الفرائض حتى خيل لى أنى صرت أبرع فيه منه . وقال الشيخ أبو شامة كان الشيخ الفقيه رجلا ضخما ، وحصل له قبول من الأمراء وغيرهم ، وكان يلبس قبعاً صوفه إلى خارج كما كان شيخه الشيخ عبد الله اليونينى ، قال وقد صنف شيئا فى المعراج فرددت عليه فى كتاب سميته الواضح الجلى فى الرد على الحنبلى ، وذكر ولده قطب الدين أنه مات فى التاسع عشر من رمضان من هذه السنة عن ثمان وثمانين سنة رحمه الله تعالى .

﴿ محمد بن خليل بن عبد الوهاب بن بدر ﴾

أبو عبد الله البيطار الأكال ، أصله من جبل بنى هلال ، و ولد بقصر حجاج ، وكان مقيما بالشاغور وكان فيه صلاح ودين و إيثار للفقراء والمحاويج والمحابيس ، وكانت له حال غريبة لا يأكل لأحد شيئا إلا بأجرة ، وكان أهل البلد يترامون عليه ليأكل لهم الأشياء المفتخرة الطيبة فيمتنع إلا بأجرة جيدة ، وكلما امتنع من ذلك حلى عند الناس وأحبوه ومالوا إليه و يأتونه بأشياء كثيرة من الحلاوات والشواء وغير ذلك فيرد عليهم عوض ذلك أجرة جيدة مع ذلك ، وهذا غريب جدا ، رحمه الله تعالى ورضى عنه بمنه وكرمه آمين .

﴿ ثم دخلت سنة تسع وخمسين وستمائة ﴾

استهلت بيوم الاثنين لأيام خلون من كانون الأول ، وليس للمسلمين خليفة وصاحب مكة أبو نمى بن أبى سعيد بن على بن قتادة الحسنى ، وعمه إدريس بن على شريكه ، وصاحب المدينة

الأمير عز الدين جماز بن شيحه الحسينى ، وصاحب مصر والشام السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ، وشريكه فى دمشق و بعلبك والصبيبة و بانياس الأمير علم الدين سنجر الملقب بالملك المجاهد ، وشريكه فى حلب الأمير حسام الدين لاشين الجوكندارى العزيزى ، والكرك والشوبك للملك المغيث فتح الدين عمر بن العادل بن سيف الدين أبى بكر الكامل محمد بن العادل الكبير سيف الدين أبى بكر بن أيوب . وحصن جهيون وبازريا فى يد الأمير مظفر الدين عثمان بن ناصر الدين منكورس ، وصاحب حماه الملك المنصور بن تقى الدين محمود ، وصاحب حمص الأشرف بن المنصور إبراهيم بن أسد الدين الناصر ، وصاحب الموصل الملك الصالح بن البدر لؤلؤ ، وأخوه الملك المجاهد صاحب جزيرة ابن عمر ، وصاحب ماردين الملك السعيد نجم الدين ايل غازى بن أرتق ، وصاحب بلاد الروم ركن الدين قلج أرسلان بن كيخسرو السلجوقى ، وشريكه فى الملك أخوه كيكاوس والبلاد بينهما نصفين ، وسائر بلاد المشرق بأيدى التتار أصحاب هولاكو ، و بلاد اليمن تملكها غير واحد من الملوك ، وكذلك بلاد الجوكندى المغرب فى كل قطر منها ملك .

وفى هذه السنة أغارت التتار على حلب فلقيهم صاحبها حسام الدين العزيزى ، والمنصور صاحب حماه ، والأشرف صاحب حمص ، وكانت الوقعة شمالى حمص قريباً من قبر خالد بن الوليد ، والتتار فى ستة آلاف والمسلمون فى ألف وأربعمائة فهزمهم الله عز وجل ، وقتل المسلمون أكثرهم فرجع التتار إلى حلب فحصروها أربعة أشهر وضيقوا عليها الأقوات ، وقتلوا من الغرباء خلقا صبرا، فانا لله و إنا إليه راجعون ، والجيوش الذين كسروهم على حمص مقيمون لم يرجعوا إلى حلب بل ساقوا إلى مصر ، فتلقاهم الملك الظاهر فى أبهة السلطنة وأحسن إليهم ، و بقيت حلب محاصرة لاناصر لها فى هذه المدة ولكن سلم الله سبحانه وتعالى .

وفى يوم الاثنين سابع صفر ركب الظاهر فى أبهة الملك ومشى الأمراء والاجناد بين يديه ، وكان ذلك أول ركوبه واستمر بعد ذلك يتابع الركوب واللعب بالكرة .

وفى سابع عشر صفر خرج الأمراء بدمشق على ملكها علم الدين سنجر فقاتلوه فهزموه ، فدخل القلعة فحاصروه فيها فهرب منها إلى قلعة بعلبك ، وتسلم قلعة دمشق الأمير علم الدين أيدكين البندقدارى ، وكان مملوكا لجمال الدين يعمور ثم للصالح أيوب بن الكامل و إليه ينسب الملك الظاهر، فأرسله الظاهر ليتسلم دمشق من الحلبى علم الدين سنجر ، فأخذها وسكن قلعتها نيابة عن الظاهر ، ثم حاصروا الحلبى ببعلبك حتى أخذوه فأرسلوه إلى الظاهر على بغل إلى مصر ، فدخل عليه ليلا فعاتبه ثم أطلق له أشياء وأكرمه .

وفى يوم الاثنين ثامن ربيع الأول استوزر الظاهر بهاء الدين على بن محمد المعروف بابن الحنا

وفى ربيع الآخر قبض الظاهر على جماعة من الأمراء بلغه عنهم أنهم يريدون الوثوب عليه وفيه أرسل إلى الشوبك فتسلمها من أيدى نواب المغيث صاحب الكرك ، وفيها جهز الظاهر جيشاً إلى حلب ليطردوا التتار عنها ، فلما وصل الجيش إلى غزة كتب الفرنج إلى التتار ينذرونهم ، فرحلوا عنها مسرعين واستولى على حلب جماعة من أهلها ، فصادروا ونهبوا و بلغوا أغراضهم ، وقدم إليهم الجيش الظاهرى فأزالوا ذلك كله ، وصادروا أهلها بألف ألف وستمائة ألف ، ثم قدم الأمير شمس الدين آقوش التركى من جهة الظاهر فاستلم البلد فقطع و وصل وحكم وعدل .

و فى يوم الثلاثاء عاشر جمادى الأولى باشر القضاء بمصر تاج الدين عبد الوهاب بن القاضى الأعز أبى القاسم خلف بن رشيد الدين بن أبى الثناء محمود بن بدر العلائى ، وذلك بعد شروط ذكرها للظاهر شديدة ، فدخل تحتها الملك الظاهر وعزل عن القضاء بدر الدين أبو المحاسن يوسف بن على السنجارى و رسم عليه أياماً ، ثم أفرج عنه .

﴿ ذكر البيعة بالخلافة للمستنصر بالله أبى القاسم أحمد بن أمير المؤمنين الظاهر ﴾

وكان معتقلا ببغداد فأطلق ، وكان مع جماعة الأعراب بأرض بالعراق ، ثم قصد الظاهر حين بلغه ملكه ، فقدم مصر صحبة جماعة من أمراء الأعراب عشرة ، منهم الأمير ناصر الدين مهنا فى ثامن رجب ، فخرج السلطان ومعه الوزير والشهود والمؤذنون فتلقوه وكان يوماً مشهودا ، وخرج أهل التوراة بتوراتهم ، والنصارى بأنجيلهم ، ودخل من باب النصر فى أبهة عظيمة ، فلما كان يوم الاثنين ثالث عشر رجب جلس السلطان والخليفة بالايوان بقلعة الجبل ، والوزير والقاضى والأمراء على طبقاتهم ، وأثبت نسب الخليفة المذكور على الحاكم تاج الدين بن الاعز ، وهذا الخليفة هو أخو المستنصر بانى المستنصرية ، وعم المستعصم ، بويع بالخلافة بمصر بايعه الملك الظاهر والقاضى والوزير والأمراء ، و ركب فى دست الخلافة بديار مصر والأمراء بين يديه والناس حوله ، وشق القاهرة فى ثالث عشر رجب ، وهذا الخليفة هو الثامن والثلاثون من خلفاء بنى العباس بينه و بين العباس أربعة وعشرون أباً ، وكان أول من بايعه القاضى تاج الدين لما ثبت نسبه ، ثم السلطان ثم الشيخ عز الدين ابن عبد السلام ثم الأمراء والدولة ، وخطب له على المنابر وضرب اسمه على السكة وكان منصب الخلافة قد شغر منذ ثلاث سنين ونصفا ، لأن المستعصم قتل فى أول سنة ست وخمسين وستمائة ، وبويع هذا فى يوم الاثنين فى ثالث عشر رجب من هذه السنة ـ أعنى سنة تسع وخمسين وستمائة ـ وكان أسمر وسيما شديد القوى عالى الهمة له شجاعة و إقدام ، وقد لقبوه بالمستنصر كما كان أخاه بانى المدرسة ، وهذا أمر لم يسبق إليه أن خليفتين أخوين يلقب كل منهما بالآخر ، و ولى الخلافة أخوين كهذين السفاح وأخوه المنصور ، وكذا محمد بن على بن عبدالله بن العباس ، والهادى

والرشيد ، والمسترشـد والمقتفى ولدا المستظهر ، وأما ثلاثة فالأمين والمأمون والمعتصم أولاد الرشيد ، والمنتصر والمعتز والمطيع أولاد المقتدر ، وأما أربعة فأولاد عبد الملك بن مروان الوليد وسليمان و يزيد وهشام . وكانت مدة خلافته إلى أن فقد كما سيأتى خمسة أشهر وعشرين يوماً ، أقصر مدة من جميع خلفاء بنى العباس ، وأما بنو أميـة فكانت مدة خلافة معاوية بن يزيد بن معاوية أربعين يوما ، و إبراهيم بن يزيد الناقص سـبعين يوماً ، وأخوه يزيد بن الوليـد خمسة أشهر . وكانت مدة خلافة الحسن بن على بعد أبيه سـبعة أشهر وأحد عشر يوما . وكانت مدة مروان بن الحكم تسعة أشهر وعشرة أيام ، وكان فى خلفاء بنى العباس من لم يستكمل سنة منهم المنتصر بن المتوكل ستة أشهر ، والمهتدى بن الواثق أحد عشر شهرا وأياما ، وقد أنزل الخليفة هذا بقلعة الجبل فى برج هو وحشمه ، فلما كان يوم سابع رجب ركب فى السواد وجاء إلى الجامع بالقلعـة فصعد المنبر وخطب خطبة ذكر فيها شرف بنى العباس ، ثم اسـتفتح فقرأ صـدراً من سورة الأنعام ثم صـلى على النبى ﷺ ثم ترضى عن الصحابة ودعا للسلطان الظاهر ، ثم نزل فصـلى بالناس فاسـتحسنوا ذلك منه ، وكان وقتا حسنا و يوما مشهودا .

﴿ تولية الخليفة المستنصر بالله للملك الظاهر السلطنة ﴾

لما كان يوم الاثنين الرابع من شعبان ، ركب الخليفة والسلطان والوزير والقضاة والأمراء وأهل الحل والعقد إلى خيمة عظيمة قد ضربت ظاهر القاهرة فجلسوا فيها ، فألبس الخليفة السلطان بيده خلعة سوداء ، وطوقا فى عنقه ، وقيدا فى رجليه وهما من ذهب ، وصعد فخر الدين إبراهيم بن لقمان وهو رئيس الكتاب منبرا فقرأ عـلى الناس تقليد السلطان ، وهو من إنشائه وبخط نفسـه ، ثم ركب السلطان بهذه الأبهة والقيـد فى رجليه ، والطوق فى عنقه ، والوزير بين يديه ، وعلى رأسه التقليد والأمراء والدولة فى خدمته مشاة سوى الوزير ، فشق القاهرة وقـد زينت له ، وكان يوما مشهودا ، وقد ذكر الشيخ قطب الدين هذا التقليد بتمامه ، وهو مطول والله أعلم .

﴿ ذكر ذهاب الخليفة إلى بغداد ﴾

ثم إن الخليفة طلب من السلطان أن يجهزه إلى بغداد ، فرتب السلطان له جنداً هائلة وأقام له من كل ما ينبغى للخلفاء والملوك . ثم سار السلطان صحبته قاصـدين دمشق ، وكان سـبب خروج السلطان من مصر إلى الشام ، أن التركى كما تقدم كان قد استحوذ على حلب ، فأرسـل إليه الأمير علم الدين سنجر الحلبى الذى كان قد تغلب عـلى دمشق فطرده عن حلب وتسلمها ، وأقام بها نائباً عن السلطان ، ثم لم يزل التركى حتى اسـتعادها منه وأخرجه منها هاربا ، فاستناب الظاهر على مصر عز الدين أيدمر الحلبى وجعل تدبير المملكة إلى الوزير بهاء الدين بن الحنا ، وأخذ ولده فخر الدين

معه وزيراً وجعل تدبير العساكر والجيوش إلى الأمير بدر الدين بيليك الخازندار، ثم ساروا فدخلوا دمشق يوم الاثنين سابع ذى القعدة، وكان يوما مشهودا، وصليا الجمعة بجامع دمشق، وكان دخول الخليفة من باب البريد، ودخل السلطان من باب الزيارة. وكان يوما مشهوداً أيضاً. ثم جهز السلطان الخليفة إلى بغداد ومعه أولاد صاحب الموصل، وأنفق عليه وعليهم وعلى من استقل معه من الجيش الذين يردون عنه مالم يقدر الله من الذهب العين ألف ألف دينار، وأطلق له وزاده فجزاه الله خيرا. وقدم إليه صاحب حمص الملك الأشرف فخلع عليه وأطلق له وزاده تل باشر. وقدم صاحب حماه المنصور فخلع عليه وأطلق له وكتب له تقليدا ببلاده، ثم جهز جيشاً صحبة الأمير علاء الدين البندقدارى إلى حلب لمحاربة التركى المتغلب عليها المفسد فيها. وهذا كل ما بلغنا من وقائع هذه السنة ملخصاً

﴿ ثم دخلت سنة ستين وستمائة ﴾

فى أوائل هذه السنة فى ثالث المحرم قتل الخليفة المستنصر بالله الذى بويع له فى رجب فى السنة الماضية بمصر، وكان قتله بأرض العراق بعد ماهزم من كان معه من الجنود فانا لله وإنا إليه راجعون، واستقل الملك الظاهر بجميع الشام ومصر وصفت له الأمور، ولم يبق له منازع سوى التركى فانه ذهب إلى المنيرة فاستحوذ عليها وعصى عليه هنالك. وفى اليوم الثالث من المحرم من هذه السنة خلع السلطان الملك الظاهر ببلاد مصر على جميع الأمراء والحاشية وعلى الوزير وعلى القاضى تاج الدين ابن بنت الأعز وعزل عنها برهان الدين السنجارى، وفى أواخر المحرم أعرس الأمير بدر الدين بيليك الخازندار على بنت الأمير لؤلؤ صاحب الموصل. واحتفل الظاهر بهذا العرس احتفالا بالغا

قال ابن خلكان: وفى هذه السنة اصطاد بعض أمراء الظاهر بحدود حماة حمار وحش فطبخوه فلم ينضج ولا أثر فيه كثرة الوقود، ثم افتقدوا جلده فاذا هو مرسوم على أذنه بهرام جور، قال: وقد أحضروه إلى فقرأته كذلك. وهو يقتضى أن لهذا الحمار قريباً من ثمانمائة سنة، فان بهرام جور كان قبل المبعث بمدة متطاولة، وحمر الوحش تعيش دهراً طويلا، قلت: يحتمل أن يكون هذا بهرام شاه الملك الأمجد، إذ يبعد بقاء مثل هذا بلا اصطياد هذه المدة الطويلة، ويكون الكاتب قد أخطأ فأراد كتابة بهرام شاه فكتب بهرام جور فحصل اللبس من هذا والله أعلم.

﴿ ذكر بيعة الحاكم بأمر الله العباسى ﴾

فى السابع والعشرين من ربيع الآخر دخل الخليفة أبو العباس الحاكم بأمر الله أحمد بن الأمير أبى على القبّى بن الأمير على بن الأمير أبى بكر بن الامام المسترشد بالله بن المستظهر بالله أبى العباس أحمد من بلاد الشرق وصحبته جماعة من رؤوس تلك البلاد، وقد شهد الوقعة صحبة المستنصر، وهرب هو فى جماعة من المعركة فسلم، فلما كان يوم دخوله تلقاه السلطان الظاهر وأظهر

السرور له والاحتفال به ، وأنزله فى البرج الكبير من قلعة الجبل ، وأجريت عليه الأرزاق الدارة والاحسان . وفى ربيع الآخر عزل الملك الظاهر الأمير جمال الدين آقوش النجيبى عن استداريته واستبدل به غيره و بعد ذلك أرسله نائباً على الشام كما سيأتى .

وفى يوم الثلاثاء تاسع رجب حضر السلطان الظاهر إلى دار العدل فى محاكمة فى بئر إلى بيت القاضى تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز فقام الناس إلا القاضى فانه أشار عليه أن لا يقوم . وتداعيا وكان الحق مع السلطان وله بينة عادلة ، فانتزعت البئر من يد الغريم وكان الغريم أحد الأمراء .

وفى شوال استناب الظاهر على حلب الأمير علاء الدين أيدكين الشهابى وحينئذ انحاز عسكر سيس على القلعة من أرض حلب فركب إليهم الشهابى فكسرهم وأسر منهم جماعة فبعثهم إلى مصر فقتلوا . وفيها استناب السلطان على دمشق الأمير جمال الدين آقوش النجيبى ، وكان من أكابر الأمراء وعزل عنها علاء الدين طيبرس الوزيرى وحمل إلى القاهرة .

وفى ذى القعدة خرج مرسوم السلطان إلى القاضى تاج الدين ابن بنت الأعز أن يستنيب من كل مذهب من المذاهب الثلاثة نائباً فاستناب من الحنفية صدر الدين سليمان الحنفى ، ومن الحنابلة شمس الدين محمد بن الشيخ العماد ، ومن المالكية شرف الدين عمر السبكى المالكى .

وفى ذى الحجة قدمت وفود كثيرة من التتار على الملك الظاهر مستأمنين فأكرمهم وأحسن إليهم وأقطعهم إقطاعات حسنة ، وكذلك فعل بأولاد صاحب الموصل ورتب لهم رواتب كافية .

وفيها أرسل هولاكو طائفة من جنده نحو عشرة آلاف فحاصروا الموصل ونصبوا عليها أربعة وعشرين منجنيقا ، وضاقت بها الأقوات .

وفيها أرسل الملك الصالح إسماعيل بن لؤلؤ إلى الترك يستنجده فقدم عليه فهزمت التتار ثم ثبتوا والتقوا معه ، وإنما كان معه سبعمائة مقاتل فهزموه وجرحوه وعاد إلى البيرة وفارقه أكثر أصحابه فدخلوا الديار المصرية ، ثم دخل هو إلى الملك الظاهر فأنعم عليه وأحسن إليه وأقطعه سبعين فارساً ، وأما التتار فانهم عادوا إلى الموصل ولم يزالوا حتى استنزلوا صاحبها الملك الصالح إليهم ونادوا فى البلد بالأمان حتى اطمأن الناس ثم مالوا عليهم فقتلوهم تسعة أيام وقتلوا الملك الصالح إسماعيل وولده علاء الدين وخربوا أسوار البلد وتركوها بلاقع ثم كروا راجعين قبحهم الله .

وفيها وقع الخلف بين هولاكو و بين السلطان بركه خان ابن عمه ، وأرسل إليه بركه يطلب منه نصيباً مما فتحه من البلاد وأخذه من الأموال والأسرار ، على ما جرت به عادة ملوكهم ، فقتل رسله فاشتد غضب بركه ، وكاتب الظاهر ليتفقا على هولاكو .

وفيها وقع غلاء شديد بالشام فبيع القمح الغرارة بأربعمائة والشعير بمائتين وخمسين ، واللحم

الرطل بستة أو سبعة . وحصل فى النصف من شعبان خوف شديد من التتار فتجهز كثير من الناس إلى مصر ، و بيعت الغلات حتى حواصل القلعة والأمراء ، ورسم أولياء الأمور على من له قدرة أن يسافر من دمشق إلى بلاد مصر ، ووقعت رجفة عظيمة فى الشام وفى بلاد الروم ، ويقال إنه حصل لبلاد التتر خوف شديد أيضاً ، فسبحان الفعال لما يريد وبيده الأمر . وكان الآمر لأهل دمشق بالتحول منها إلى مصر نائبها الأمير علاء الدين طيبرس الوزيرى ، فأرسل السلطان إليه فى ذى القعدة فأمسكه وعزله واستناب عليها بهاء الدين النجيبي ، واستوزر بدمشق عزالدين بن وداعة .

وفيها نزل ابن خلكان عن تدريس الركنية لأبى شامة وحضر عنده حين درس وأخذ فى أول مختصر المزنى .

وفيها توفى من الأعيان ﴿ الخليفة المستنصر بن الظاهر بأمر الله العباسى ﴾

الذى بايعه الظاهر بمصر كما ذكرنا ، وكان قتله فى ثالث المحرم من هذه السنة ، وكان شهما شجاعا بطلا فاتكا ، وقد أنفق الظاهر عليه حتى أقام له جيشاً بألف ألف دينار وأزيد ، وسار فى خدمته ومعه خلق من أكابر الأمراء وأولاد صاحب الموصل ، وكان الملك الصالح إسماعيل من الوفد الذين قدموا على الظاهر فأرسله صحبة الخليفة ، فلما كانت الوقعة فقد المستنصر ورجع الصالح إلى بلاده فجاءته التتار فحاصروه كما ذكرنا ، وقتلوه وخربوا بلاده وقتلوا أهلها ، فانا لله و إنا إليه راجعون .

﴿ العز الضرير النحوى اللغوى ﴾

واسمه الحسن بن محمد بن أحمد بن نجا من أهل نصيبين ونشأ بأربل فاشتغل بعلوم كثيرة من علوم الأوائل ، وكان يشتغل عليه أهل الذمة وغيرهم ، ونسب إلى الانحلال وقلة الدين ، وترك الصلوات ، وكان ذكيا ، وليس بذكى ، عالم اللسان جاهل القلب ، ذكى القول خبيث الفعل ، وله شعر أورد منه الشيخ قطب الدين قطعة فى ترجمته ، وهو شبيه بأبى العلاء المعرى قبحهما الله .

﴿ ابن عبد السلام ﴾

عبد العزيز بن عبد السلام بن القاسم بن الحسن بن محمد المهذب ، الشيخ عز الدين بن عبد السلام أبو محمد السلمى الدمشقى الشافعى شيخ المذهب ومفيد أهله ، وله مصنفات حسان ، منها التفسير ، واختصار النهاية ، والقواعد الكبرى والصغرى ، وكتاب الصلاة والفتاوى الموصلية وغير ذلك . ولد سنة سبع أو ثمان وسبعين وخمسمائة ، وسمع كثيرا واشتغل على فخر الدين بن عساكر وغيره وبرع فى المذهب ، وجمع علوما كثيرة ، وأفاد الطلبة ودرس بعدة مدارس بدمشق ، وولى خطابتها ثم سافر إلى مصر ودرس بها وخطب وحكم ، وانتهت إليه رئاسة الشافعية ، وقصد بالفتاوى من الآفاق ، وكان لطيفاً ظريفا يستشهد بالاشعار ، وكان سبب خروجه من الشام إنكاره على الصالح

إسماعيل تسليمه صفد والشقيف إلى الفرنج ، ووافقه الشيخ أبو عمرو بن الحاجب المالكى، فأخرجهما من بلده فسار أبو عمرو إلى الناصر داود صاحب الكرك فأكرمه ، وسار ابن عبد السلام إلى الملك الصالح أيوب بن الكامل صاحب مصر فأكرمه وولاه قضاء مصر وخطابة الجامع العتيق ، ثم انتزعهما منه وأقره على تدريس الصالحية ، فلما حضره الموت أوصى بها للقاضى تاج الدين ابن بنت الاعز ، وتوفى فى عاشر جمادى الاولى وقد نيف على الثمانين ، ودفن من الغد بسفح المقطم ، وحضر جنازته السلطان الظاهر وخلق كثير رحمه الله تعالى .

﴿ كمال الدين بن العديم الحنفى ﴾

عمر بن أحمد بن هبة الله بن محمد بن هبة الله بن أحمد بن يحيى بن زهير بن هارون بن موسى بن عيسى بن عبد الله بن محمد بن أبى جرادة عامر بن ربيعة بن خويلد بن عوف بن عامر بن عقيل الحلبي الحنفى أبو القاسم بن العديم ، الأمير الوزير الرئيس الكبير ، ولد سنة ست وثمانين وخمسمائة ، سمع الحديث وحدث وتفقه وأفتى ودرس وصنف ، وكان إماما فى فنون كثيرة ، وقد ترسل إلى الخلفاء والملوك مراراً عديدة ، وكان يكتب حسناً طريقة مشهورة ، وصنف لحلب تاريخاً مفيداً قريباً فى أربعين مجلداً ، وكان جيد المعرفة بالحديث ، حسن الظن بالفقراء والصالحين كثير الاحسان إليهم ، وقد أقام بدمشق فى الدولة الناصرية المتأخرة ، توفى بمصر ودفن بسفح المقطم بعد ابن عبد السلام بعشرة أيام ، وقد أورد له قطب الدين أشعارا حسنة .

﴿ يوسف بن يوسف بن سلامة ﴾

ابن إبراهيم بن الحسن بن إبراهيم بن موسى بن جعفر بن سليمان بن محمد القاقانى الزينبى بن إبراهيم ابن محمد بن على بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ، محيي الدين أبو المعز ، ويقال أبو المحاسن الهاشمى العباسى الموصلى المعروف بابن زبلاق الشاعر ، قتلته التتار لما أخذوا الموصل فى هذه السنة عن سبع وخمسين سنة، ومن شعره قوله :

بعثت لنا من سحر مقلتك الوسنا ٭ سهادا يزود الكرى أن يألف الجفنا
وأبصر جسمى حسن خصرك ناحلا ٭ فحاكاه لكن زاد فى دقة المعنى
وأبرزت وجها أخجل الصبح طالعاً ٭ وملت بقد علم الهيف الغصن اللدنا
حكيت أخاك البدر ليلة تمه ٭ سنا وسناء إذ تشابهتما سنا

وقال أيضا وقد دعى إلى موضع ، فبعث يعتذر بهذين البيتين :

أنا فى منزلى وقد وهب الـ ٭ ـله ندماً وقينة وعقارا
فابسطوا العذر فى التأخر عنكم ٭ شغل الخلى أهل بأن يمارا

قال أبو شامة وفيها فى ثانى عشر جمادى الآخرة توفى .

﴿ البدر المراغى الخلافى ﴾

المعروف بالطويل ، وكان قليل الدين تاركا للصلاة مغتبطا بما كان فيه من معرفة الجدل والخلاف على اصطلاح المتأخرين ، راضيا بما لا يفيد .

وفيها توفى ﴿ محمد بن داود بن ياقوت الصارمى ﴾

المحدث . كتب كثيرا الطبقات وغيرها ، وكان دينا خيراً يعير كتبه و يداوم على الاشتغال بسماع الحديث رحمه الله تعالى .

﴿ ثم دخلت سنة إحدى وستين وستمائة ﴾

استهلت وسلطان البلاد الشامية والمصرية الظاهر بيبرس ، وعلى الشام نائبه آقوش النجيبى ، وقاضى دمشق ابن خلكان والوزير بها عز الدين بن وداعة ، وليس للناس خليفة ، و إنما تضرب السكة باسم المستنصر الذى قتل .

﴿ ذكر خلافه الحاكم بأمر الله أبى العباس ﴾

أحمد بن الامير أبى على القبى ابن الامير على بن الامير أبى بكر بن الامام المسترشد بالله أمير المؤمنين أبى منصور الفضل بن الامام المستظهر بالله أحمد العباسى الهاشمى . لما كان ثانى المحرم وهو يوم الخميس ، جلس السلطان الظاهر والأمراء فى الايوان الكبير بقلعة الجبل ، وجاء الخليفة الحاكم بأمر الله راكبا حتى نزل عند الايوان ، وقد بسط له إلى جانب السلطان وذلك بعد ثبوت نسبه ، ثم قرئ نسبه على الناس ثم أقبل عليه الظاهر بيبرس فبايعه و بايعه الناس بعده ، وكان يوما مشهودا . فلما كان يوم الجمعة ثانيه خطب الخليفة بالناس فقال فى خطبته « الحمد لله الذى أقام لآل العباس ركنا ظهيرا ، وجعل لهم من لدنه سلطانا نصيرا ، أحمده على السراء والضراء ، وأستعينه على شكر ما أسبغ من النعماء ، وأستنصره على دفع الاعداء ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده و رسوله ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه نجوم الاهتداء وأئمة الاقتداء ، لاسيما الأربعة ، وعلى العباس كاشف غمه أبى السادة الخلفاء وعلى بقية الصحابة أجمعين والتابعين لهم باحسان إلى يوم الدين ، أيها الناس اعلموا أن الامامة فرض من فروض الاسلام ، والجهاد محتوم على جميع الأنام ، ولا يقوم علم الجهاد إلا باجتماع كلمة العباد ، ولا سبيت الحرم إلا بانتهاك المحارم ، ولا سفكت الدماء إلا بارتكاب الجرائم ، فلو شاهدتم أعداء الاسلام لما دخلوا دار السلام ، واستباحوا الدماء والاموال وقتلوا الرجال والأطفال ، وسبوا الصبيان والبنات ، وأيتموهم من الآباء والأمهات ، وهتكوا حرم الخلافة والحريم ، وعلت الصيحات من هول ذلك اليوم الطويل ، فكم من شيخ خضبت شيبته

بدمائه ، وكم من طفل بكى فلم يرحم لبكائه ، فشمروا عباد الله عن ساق الاجتهاد فى إحياء فرض الجهاد واتقوا الله ما استطعتم (واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) فلم يبق معذرة فى القعود عن أعداء الدين ، والمحاماة عن المسلمين ، وهذا السلطان الملك الظاهر السيد الأجل العالم العادل المجاهد المؤيد ركن الدنيا والدين ، قد قام بنصر الأمامة عند قلة الأنصار ، وشرد جيوش الكفر بعد أن جاسوا خلال الديار ، وأصبحت البيعة بهمته منتظمة العقود ، والدولة العباسية به متكاثرة الجنود ، فبادروا عباد الله إلى شكر هذه النعمة ، وأخلصوا نياتكم تنصروا ، وقاتلوا أولياء الشيطان تظفروا ، ولا يروعكم ما جرى فالحرب سجال والعاقبة للمتقين ، والدهر يومان والأجر للمؤمنين ، جمع الله على الهدى أمركم ، وأعز بالايمان نصركم ، وأستغفر الله لى ولسائر المسلمين ، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم ». ثم خطب الثانية ونزل فصلى ،

وكتب بيعته إلى الآفاق ليخطب له وضربت السكة باسمه . قال أبو شامة : فخطب له بجامع دمشق وسائر الجوامع يوم الجمعة سادس عشر المحرم من هذه السنة . وهذا الخليفة هو التاسع والثلاثون من خلفاء بنى العباس ، ولم يل الخلافة من بنى العباس من ليس والده وجده خليفة بعد السفاح والمنصور سوى هذا ، فأما من ليس والده خليفة فكثير منهم المستعين أحمد بن محمد ابن المعتصم ، والمعتضد بن طلحة بن المتوكل ، والقادر بن إسحاق بن المقتدر ، والمقتدى بن الذخيرة ابن القائم بأمر الله .

﴿ ذكر أخذ الظاهر الكرك وإعدام صاحبها ﴾

ركب الظاهر من مصر فى العساكر المنصورة قاصدا ناحية بلاد الكرك ، واستدعى صاحبها الملك المغيث عمر بن العادل أبى بكر بن الكامل ، فلما قدم عليه بعد جهد أرسله إلى مصر معتقلا فكان آخر العهد به ، وذلك أنه كاتب هولاكو وحثه على القدوم إلى الشام مرة أخرى ، وجاءته كتب التتار بالثبات ونيابة البلاد ، وأنهم قادمون عليه عشرون ألفا لفتح الديار المصرية ، وأخرج السلطان فتاوى الفقهاء بقتله وعرض ذلك على ابن خلكان ، وكان قد استدعاه من دمشق ، وعلى جماعة من الأمراء ، ثم سار فتسلم الكرك يوم الجمعة ثالث عشر جمادى الأولى ودخلها يومئذ فى أبهة الملك ، ثم عاد إلى مصر مؤيدا منصورا .

وفيها قدمت رسل بركه خان إلى الظاهر يقول له : قد علمت محبتى للاسلام ، وعلمت ما فعل هولاكو بالمسلمين ، فاركب أنت من ناحية حتى آتيه أنا من ناحية حتى نصطلمه أو نخرجه من البلاد وأعطيك جميع ما كان بيده من البلاد ، فاستصوب الظاهر هذا الرأى وشكره وخلع على رسله وأكرمهم.

وفيها زلزلت الموصل زلزلة عظيمة وتهدمت أكثر دورها ، وفى رمضان جهز الظاهر صناعا وأخشابا وآلات كثيرة لعمارة مسجد رسول الله ﷺ بعد حريقه فطيف بتلك الاخشاب والآلات

بمصر فرحة وتعظيما لشأنها ، ثم ساروا بها إلى المدينة النبوية . وفى شوال سار الظاهر إلى الاسكندرية فنظر فى أحوالها وأمورها ، وعزل قاضيها وخطيبها ناصر الدين أحمد بن المنير وولى غيره .

وفيها التقى بركه خان وهولاكو ومع كل واحد جيوش كثيرة فاقتتلوا فهزم الله هولاكو هزيمة فظيعة وقتل أكثر أصحابه وغرق أكثر من بقى وهرب هو فى شرذمة يسيرة ولله الحمد . ولما نظر بركه خان كثرة القتلى قال يعز على أن يقتل المغول بعضهم بعضاً ولكن كيف الحيلة فيمن غير سنة جنكيزخان ثم أغار بركه خان على بلاد القسطنطينية فصانعه صاحبها وأرسل الظاهر هدايا عظيمة إلى بركه خان ، وقد أقام التركى بحلب خليفة آخر لقبه بالحاكم ، فلما اجتاز به المستنصر سار معه إلى العراق واتفقا على المصالحة و إنفاذ الحاكم المستنصر لكونه أكبر منه ولله الحمد ، ولكن خرج عليهما طائفة من التتار ففرقوا شملهما وقتلوا خلقا ممن كان معهما ، وعدم المستنصر وهرب الحاكم مع الأعراب. وقد كان المستنصر هذا فتح بلدانا كثيرة فى مسيره من الشام إلى العراق . ولما قاتله بهادر على شحنة بغداد كسره المستنصر وقتل أكثر أصحابه ، ولكن خرج كمين من التتار نجدة فهرب العربان والأكراد الذين كانوا مع المستنصر وثبت هو فى طائفة ممن كان معه من الترك فقتل أكثرهم وفقد هو من بينهم ، ونجا الحاكم فى طائفة ، وكانت الوقعة فى أول المحرم من سنة ستين وستمائة ، وهذا هو الذى أشبه الحسين بن على فى توغله فى أرض العراق مع كثرة جنودها . وكان الأولى له أن يستقر فى بلاد الشام حتى تتمهد له الأمور و يصفو الحال . ولكن قدر الله وما شاء فعل . وجهز السلطان جيشاً آخر من دمشق إلى بلاد الفرنج فأغاروا وقتلوا وسبوا ورجعوا سالمين . وطلبت الفرنج منه المصالحة فصالحهم مدة لاشتغاله بحلب وأعمالها ، وكان قد عزل فى شوال قاضى مصر تاج الدين ابن بنت الأعز وولى عليها برهان الدين الخضر بن الحسين السنجارى ، وعزل قاضى دمشق نجم الدين أبا بكر بن صدر الدين أحمد ابن شمس الدين بن هبة الله بن سنى الدولة ، وولى عليها شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبى بكر بن خلكان ، وقد ناب فى الحكم بالقاهرة مدة طويلة عن بدر الدين السنجارى ، وأضاف إليه مع القضاء نظر الأوقاف ، والجامع والمارستان ، وتدريس سبع مدارس . العادلية والناصرية والغدراوية والفلكية والركنية والاقبالية والبهنسية . وقرىء تقليده يوم عرفة يوم الجمعة بعد الصلاة بالشباك الكمالى من جامع دمشق . وسافر القاضى المعزول مرسما عليه . وقد تكلم فيه الشيخ أبو شامة وذكر أنه خان فى وديعة ذهب جعلها فلوسا فالله أعلم . وكانت مدة ولايته سنة وأشهرا . وفى يوم العيد يوم السبت سافر السلطان إلى مصر . وقد كان رسول الاسماعيلية قدم على السلطان بدمشق يتهددونه و يتوعدونه ، و يطلبون منه إقطاعات كثيرة ، فلم يزل السلطان يوقع بينهم حتى استأصل شأفتهم واستولى على بلادهم .

وفى السادس والعشرين من ربيع الأول عمل عزاء السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن العزيز محمد بن الظاهر غازى بن الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادى فاتح بيت المقدس وكان عمل هذا العزاء بقلعة الجبل بمصر ، بأمر السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس ، وذلك لما بلغهم أن هولاكو ملك التتار قتله . وقد كان فى قبضته منذ مدة ، فلما بلغ هولاكو أن أصحابه قد كسروا بعين جالوت طلبه إلى بين يديه وقال له : أنت أرسلت إلى الجيوش بمصر حتى جاؤا فاقتتلوا مع المغول فكسروهم ثم أمر بقتله . ويقال إنه اعتذر إليه وذكر له أن المصريين كانوا أعداءه وبينه وبينهم شنآن ، فأقاله ولكنه انحطت رتبته عنده ، وقد كان مكرما فى خدمته ، وقد وعده أنه إذا ملك مصر استنابه فى الشام فلما كانت وقعة حمص فى هذه السنة وقتل فيها أصحاب هولاكو مع مقدمهم بيدرة غضب وقال له أصحابك فى العزيزية أمراء أبيك ، والناصرية من أصحابك قتلوا أصحابنا ، ثم أمر بقتله . وذكروا فى كيفية قتله أنه رماه بالنشاب وهو واقف بين يديه يسأله العفو فلم يعف عنه حتى قتله وقتل أخاه شقيقه الظاهر عليا ، وأطلق ولديهما العزيز محمد بن الناصر وزبالة بن الظاهر ، وكانا صغيرين من أحسن أشكال بنى آدم . فأما العزيز فانه مات هناك فى أسر التتار ، وأما زبالة فانه سار إلى مصر وكان أحسن من بها ، وكانت أمه أم ولد يقال لها وجه القمر ، فتزوجها بعض الأمراء بعد أستاذها ، ويقال إن هولاكو لما أراد قتل الناصر أمر بأربع من الشجر متباعدات بعضها عن بعض . فجمعت روسها بحبال ثم ربط الناصر فى الأربعة بأربعته ثم أطلقت الحبال فرجعت كل واحدة إلى مركزها بعضو من أعضائه رحمه الله . وقد قيل إن ذلك كان فى الخامس والعشرين من شوال فى سنة ثمان وخمسين . وكان مولده فى سنة سبع وعشرين بحلب . ولما توفى أبوه سنة أربع وثلاثين بويع بالسلطنة بحلب وعمره سبع سنين . وقام بتدبير مملكته جماعة من مماليك أبيه . وكان الأمر كله عن رأى جدته أم خاتون بنت العادل أبى بكر بن أيوب . فلما توفيت فى سنة أربعين وستمائة استقل الناصر بالملك . وكان جيد السيرة فى الرعية محببا إليهم ، كثير النفقات . ولا سيما لما ملك دمشق مع حلب وأعمالها وبعلبك وحران وطائفة كبيرة من بلاد الجزيرة ، فيقال إن سماطه كان كل يوم يشتمل أربعمائة رأس غنم سوى الدجاج والأوز وأنواع الطير ، مطبوخا بأنواع الأطعمة والقلويات غير المشوى والمقلى . وكان مجموع ما يغرم على السماط فى كل يوم عشرين ألفا وعامته يخرج من يديه كما هو كأنه لم يؤكل منه شئ ، فيباع على باب القلعة بأرخص الأثمان حتى إن كثيرا من أرباب البيوت كانوا لا يطبخون فى بيوتهم شيئا من الطرف والأطعمة بل يشترون برخص مالا يقدرون على مثله إلا بكلفة ونفقة كثيرة ، فيشترى أحدهم بنصف درهم أو بدرهم مالا يقدر عليه إلا بخسارة كثيرة . ولعله لا يقدر على مثله . وكانت الأرزاق كثيرة دارة فى زمانه وأيامه ، وقد كان خليعا ظريفا حسن

الشكل أديباً يقول الشعر المتوسط القوى بالنسبة إليه ، وقد أورد له الشيخ قطب الدين فى الذيل قطعة صالحة من شعره وهى رائقة لائقة . قتل ببلاد المشرق ودفن هناك ، وقد كان أعدله تربة برباطه الذى بناه بسفح قاسيون فلم يقدر دفنه بها ، والناصرية البرانية بالسفح من أغرب الأبنية وأحسنها بنيانا من الموكد المحكم قبلى جامع الافرم ، وقد بنى بعدها بمدة طويلة ، وكذلك الناصرية الجوانية التى بناها داخل باب الفراديس هى من أحسن المدارس ، وبنى الخان الكبير تجاه الزنجارى وحولت إليه دار الطعم ، وقد كانت قبل ذلك غربى القلعة فى اصطبل السلطان اليوم رحمه الله .

وفيها توفى من الأعيان ﴿ أحمد بن محمد بن عبد الله ﴾

ابن محمد بن يحيى بن سيد الناس أبو بكر اليعمرى الأندلسى الحافظ ولد سنة سبع وتسعين وخمسمائة وسمع الكثير ، وحصل كتباً عظيمة ، وصنف أشياء حسنة ، وختم به الحفاظ فى تلك البلاد ، توفى بمدينة تونس فى سابع عشرين رجب من هذه السنة .

وممن توفى فيها أيضا ﴿ عبد الرزاق بن عبد الله ﴾

ابن أبى بكر بن خلف عز الدين أبو محمد الرسعنى المحدث المفسر ، سمع الكثير ، وحدث وكان من الفضلاء والأدباء ، له مكانة عند البدر لؤلؤ صاحب الموصل ، وكان له منزلة أيضا عند صاحب سنجار ، وبها توفى فى ليلة الجمعة الثانى عشر من ربيع الآخر وقد جاوز السبعين ، ومن شعره :

نعب الغراب فدلنا بنعيبه ٭ أن الحبيب دنا أوان مغيبه
ياسائلى عن طيب عيشى بعدهم ٭ جدلى بعيش ثم سل عن طيبه

﴿ محمد بن أحمد بن عنتر السلمى الدمشقى ﴾

محتسبها ، ومن عدولها وأعيانها ، وله بها أملاك وأوقاف ، توفى بالقاهرة ودفن بالمقطم .

﴿ علم الدين أبو القاسم بن أحمد ﴾

ابن الموفق بن جعفر المرسى البورقى اللغوى النحوى المقرى ، شرح الشاطبية شرحا مختصراً ، وشرح المفصل فى عدة مجلدات ، وشرح الجزولية وقد اجتمع بمصنفها وسأله عن بعض مسائلها ، وكان ذا فنون عديدة حسن الشكل مليح الوجه له هيئة حسنة وبزة وجمال ، وقد سمع الكندى وغيره .

﴿ الشيخ أبو بكر الدينورى ﴾

وهو بانى الزاوية بالصالحية ، وكان له فيها جماعة مريدون يذكرون الله بأصوات حسنة طيبة رحمه الله

﴿ مولد الشيخ تقى الدين ابن تيمية شيخ الاسلام ﴾

قال الشيخ شمس الدين الذهبى : وفى هذه السنة ولد شيخنا تقى الدين أبو العباس أحمد بن الشيخ شهاب الدين عبد الحليم بن أبى القاسم بن تيمية الحرانى بحران يوم الاثنين عاشر ربيع الأول من سنة إحدى وستين وستمائة .

﴿ الأمير الكبير مجير الدين ﴾

أبو الهيجاء عيسى بن حثير الازكشى الكردى الأموى ، كان من أعيان الأمراء وشجعانهم ، وله يوم عين جالوت اليد البيضاء فى كسر التتار ، ولما دخل الملك المظفر إلى دمشق بعد الوقعة جعله مع الأمير علم الدين سنجر الحلبى نائبا على دمشق مستشارا ومشتركا فى الرأى والمراسيم والتدبير ، وكان يجلس معه فى دار العدل وله الاقطاع الكامل والرزق الواسع ، إلى أن توفى فى هذه السنة . قال أبو شامة : ووالده الأمير حسام الدين توفى فى جيش الملك الأشرف ببلاد الشرق هو والأمير عماد الدين أحمد بن المشطوب . قلت وولده الأمير عز الدين تولى هذه المدينة أعنى دمشق مدة ، وكان مشكور السيرة وإليه ينسب درب ابن سنون بالصاغة العتيقة ، فيقال درب ابن أبى الهيجاء لأنه كان يسكنه وكان يعمل الولاية فيه فعرف به ، وبعد موته بقليل كان فيه نزولنا حين قدمنا من حوران وأنا صغير فختمت فيه القرآن ، ولله الحمد .

﴿ ثم دخلت سنة ثنتين وستين وستمائة ﴾

استهلت والخليفة الحاكم بأمر الله العباسى ، والسلطان الظاهر بيبرس ، ونائب دمشق الأمير جمال الدين آقوش النجيبى وقاضيه ابن خلكان .

وفيها فى أولها كملت المدرسة الظاهرية التى بين القصرين ، ورتب لتدريس الشافعية بها القاضى تقى الدين محمد بن الحسين بن رزين ، ولتدريس الحنفية مجد الدين عبد الرحمن بن كمال الدين عمر ابن العديم ، ولمشيخة الحديث بها الشيخ شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الحافظ الدمياطى .

وفيها عمر الظاهر بالقدس خانا ووقف عليه أوقافا للنازلين به من إصلاح نعالهم وأكلهم وغير ذلك ، وبنى به طاحونا وفرنا .

وفيها قدمت رسل بركه خان إلى الملك الظاهر ومعهم الأشرف ابن الشهاب غازى بن العادل ، ومعهم من الكتب والمشافهات ما فيه سرور للاسلام وأهله مما حل بهولاكو وأهله .

وفى جمادى الآخرة منها درس الشيخ شهاب الدين أبو شامة عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسى بدار الحديث الأشرفية ، بعد وفاة عماد الدين بن الحرستانى ، وحضر عنده القاضى ابن خلكان وجماعة من القضاة والأعيان ، وذكر خطبة كتابه المبعث ، وأورد الحديث بسنده ومتنه وذكر فوائد كثيرة مستحسنة ، ويقال إنه لم يراجع شيئا حتى ولا درسه ومثله لا يستكثر ذلك عليه والله أعلم .

وفيها قدم نصير الدين الطوسى إلى بغداد من جهة هولاكو ، فنظر فى الأوقاف وأحوال البلد ، وأخذ كتبا كثيرة من سائر المدارس وحولها إلى رصده الذى بناه بمراغة ، ثم انحدر إلى واسط والبصرة.

وفيها كانت وفاة ﴿ الملك الأشرف ﴾

موسى بن الملك المنصور إبراهيم بن الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه الكبير ، كانوا ملوك حمص كابرا عن كابر إلى هذا الحين . وقد كان من الكرماء الموصوفين . وكبراء الدماشقة المترفين ، معتنيا بالمأكل والمشرب والملابس والمراكب وقضاء الشهوات والمآرب وكثرة التنعم بالمغانى والحبائب ، ثم ذهب ذلك كأن لم يكن أو كأضغاث أحلام ، أو كظل زائل ، و بقيت تبعاته وعقوباته وحسابه وعاره . ولما توفى وجدت له حواصل من الجواهر النفيسة والأموال الكثيرة ، وصار ملكه إلى الدولة الظاهرية . وتوفى معه فى هذه السنة الأمير حسام الدين الجوكندار نائب حلب .

وفيها كانت كسرة التتار على حمص وقتل مقدمهم بيدرة بقضاء الله وقدره الحسن الجميل .

وفيها توفى الرشيد العطار المحدث بمصر . والذى حضر مسخرة الملك الاشرف موسى بن العادل والتاجر المشهور الحاج نصر بن دس وكان ملازما للصلوات بالجامع . وكان من ذوى اليسار والخير .

﴿ الخطيب عماد الدين بن الحرستانى ﴾

عبد الكريم بن جمال الدين عبد الصمد بن محمد بن الحرستانى ، كان خطيبا بدمشق وناب فى الحكم عن أبيه فى الدولة الاشرفية . بعد ابن الصلاح إلى أن توفى فى دار الخطابة فى تاسع عشرين جمادى الاولى . وصلى عليه بالجامع ودفن عند أبيه بقاسيون . وكانت جنازته حافلة ، وقد جاوز الثمانين بخمس سنين ، وتولى بعده الخطابة والغزالية ولده مجد الدين ، وباشر مشيخة دار الحديث الشيخ شهاب الدين أبو شامة .

﴿ محيى الدين محمد بن أحمد بن محمد ﴾

ابن إبراهيم بن الحسين بن سراقة الحافظ المحدث الانصارى الشاطبى أبو بكر المغربى . عالم فاضل دين أقام بحلب مدة ، ثم اجتاز بدمشق قاصداً مصر . وقد تولى دار الحديث الكاملية بعد زكى الدين عبد العظيم المنذرى . وقد كان له سماع جيد ببغداد وغيرها من البلاد ، وقد جاوز السبعين .

﴿ الشيخ الصالح محمد بن منصور بن يحيى الشيخ أبى القاسم القبارى الاسكندرانى ﴾

كان مقيما بغيط له يقتات منه ويعمل فيه ويبدره . ويتورع جدا ويطعم الناس من ثماره . توفى فى سادس شعبان بالاسكندرية وله خمس وسبعون سنة . وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويردع الولاة عن الظلم فيسمعون منه ويطيعونه لزهده ، وإذا جاء الناس إلى زيارته إنما يكلمهم من طاقة المنزل وهم راضون منه بذلك . ومن غريب ما حكى عنه أنه باع دابة له من رجل . فلما كان بعد أيام جاء الرجل الذى اشتراها فقال : يا سيدى إن الدابة التى اشتريتها منك لا تأكل عندى شيئا .

فنظر إليه الشيخ فقال له : ماذا تعانى من الاسباب ؟ فقال رقاص عند الوالى ، فقال له إن دابتنا لا تأكل الحرام ، ودخل منزله فأعطاه دراهم ومعها دراهم كثيرة قد اختلطت بها فلا تميز ، فاشترى الناس من الرقاص كل درهم بثلاثة لأجل البركة ، وأخذدابته ، ولما توفى ترك من الأساس مايساوى خمسين درهما فبيع بمبلغ عشرين ألفا . قال أبوشامة : وفى الرابع والعشرين من ربيع الآخر توفى

﴿محيى الدين عبد الله بن صفى الدين﴾

إبراهيم بن مرزوق بداره بدمشق المجاورة للمدرسة النورية رحمه الله تعالى . قلت داره هذه هى التى جعلت مدرسة للشافعية وقفها الأمير جمال الدين آقوش النجيبى التى يقال لها النجيبية تقبل الله منه . وبها إقامتنا جعلها الله داراً تعقبها دار القرار فى الفوز العظيم . وقد كان أبو جمال الدين النجيبى وهو صفى الدين وزير الملك الأشرف ، وملك من الذهب ستمائة ألف دينار خارجاً عن الأملاك والأثاث والبضائع ، وكانت وفاة أبيه بمصر سنة تسع وخمسين ، ودفن بتربته عند المقطم . قال أبو شامة :وجاء الخبر من مصر بوفاة الفخر عثمان المصرى المعروف بعين غين .

وفى ثامن عشر ذى الحجة توفى الشمس الوبّار الموصلى ، وكان قد حصل شيئا من علم الأدب ، وخطب بجامع المزة مدة . فأنشدنى لنفسه فى الشيب وخضابه قوله :

وكنت وإياها مذ اختط عارضى ٭ كروحين فى جسم وما نقضت عهدا

فلما أتانى الشيب يقطع بيننا ٭ توهمته سيفا فألبسته غمدا

وفيها استحضر الملك هولاكوخان الزين الحافظى وهوسليمان بن عامر العقربانى المعروف بالزين الحافظى ، وقال له قد ثبت عندى خيانتك ، وقد كان هذا المفتر لما قدم التتار مع هولاكو دمشق وغيرها مالأ على المسلمين وآذاهم ودل على عوراتهم ، حتى سلطهم اللهعليه بأنواع العقوبات والمثلات (وكذلك نولى بعض الظالمين بعضاً) ومن أعان ظالما سلط عليه ، فان الله ينتقم من الظالم بالظالم ثم ينتقم من الظالمين جميعاً ، نسأل الله العافية من انتقامه وغضبه وعقابه وشر عباده .

﴿ ثم دخلت سنة ثلاث وستين وستمائة ﴾

فيها جهز السلطان الظاهر عسكرا جما كثيفا إلى ناحية الفرات لطرد التتار النازلين بالبيرة ، فلما سمعوا بالعساكر قد أقبلت ولوا مدبرين ، فطابت تلك الناحية وأمنت تلك المعاملة ، وقد كانت قبل ذلك لا تسكن من كثرة الفساد والخوف ، فعمرت وأمنت .

وفيها خرج الملك الظاهر فى عساكره فقصد بلاد الساحل لقتال الفرنج ففتح قيسارية فى ثلاث ساعات من يوم الخميس ثامن جمادى الأولى يوم نزوله عليها ، وتسلم قلعتها فى يوم الخميس الآخر خامس عشره فهدمها وانتقل إلى غيرها ، ثم جاء الخبر بأنه فتح مدينة أرسوف وقتل من بها من

الفرنج وجاءت البريدية بذلك . فدقت البشائر فى بلاد المسلمين وفرحوا بذلك فرحا شديدا . وفيها ورد خبر من بلاد المغرب بأنهم انتصروا على الفرنج وقتلوا منهم خمسة وأربعين ألفا ، وأسروا عشرة آلاف ، واسترجعوا منهم ثنتين وأربعين بلدة منها برنس واشبيلية وقرطبة ومرسية ، وكانت النصرة فى يوم الخميس رابع عشر رمضان سنة ثنتين وستين .

وفى رمضان من هذه السنة شرع فى تبليط باب البريد من باب الجامع إلى القناة التى عند الدرج وعمل فى الصف القبلى منها بركة وشاذروان . وكان فى مكانها قناة من القنوات ينتفع الناس بها عند انقطاع نهر ماناس فغيرت وعمل الشاذروان ، ثم غيرت وعمل مكانها دكاكين .

وفيها استدعى الظاهر نائبه على دمشق الأمير آقوش ، فسار إليه سامعاً مطيعاً ، وناب عنه الأمير علم الدين الحصنى حتى عاد مكرما معززاً .

وفيها ولى الظاهر قضاة من بقية المذاهب فى مصر مستقلين بالحكم يولون من جهتهم فى البلدان أيضا كما يولى الشافعى ، فتولى قضاء الشافعية التاج عبد الوهاب ابن بنت الأعز ، والحنفية شمس الدين سليمان ، والمالكية شمس الدين السبكى ، والحنابلة شمس الدين محمد المقدسى ، وكان ذلك يوم الاثنين الثانى والعشرين من ذى الحجة بدار العدل ، وكان سبب ذلك كثرة توقف القاضى ابن بنت الأعز فى أمور تخالف مذهب الشافعى ، وتوافق غيره من المذاهب ، فأشار الأمير جمال الدين أيدغدى العزيزى على السلطان بأن يولى من كل مذهب قاضياً مستقلا يحكم بمقتضى مذهبه ، فأجابه إلى ذلك ، وكان يحب رأيه ومشورته ، وبعث بأخشاب ورصاص وآلات كثيرة لعمارة مسجد رسول الله ﷺ وأرسل منبرا فنصب هنالك .

وفيها وقع حريق عظيم ببلاد مصر واتهم النصارى فعاقبهم الملك الظاهر عقوبة عظيمة .

وفيها جاءت الأخبار بأن سلطان التتار هولاكو هلك إلى لعنة الله وغضبه فى سابع ربيع الآخر بمرض الصرع بمدينة مراغة ، ودفن بقلعة تلا وبنيت عليه قبة واجتمعت التتار على ولده أبغا ، فقصده الملك بركة خان فكسره وفرق جموعه ، ففرح الملك الظاهر بذلك ، وعزم على جمع العساكر ليأخذ بلاد العراق فلم يتمكن من ذلك لتفرق العساكر فى الاقطاعات .

وفيها فى ثانى عشر شوال سلطن الملك الظاهر ولده الملك السعيد محمد بركة خان ، وأخذ له البيعة من الأمراء وأركبه ومشى الأمراء بين يديه ، وحمل والده الظاهر الغاشية بنفسه والأمير بدر الدين بيسرى حامل الخبز ، والقاضى تاج الدين والوزير بهاء الدين ابن حنا راكبان وبين يديه ، وأعيان الأمراء ركبان وبقيتهم مشاة حتى شقوا القاهرة وهم كذلك .

وفى ذى القعدة ختن الظاهر ولده الملك السعيد المذكور ، وختن معه جماعة من أولاد الأمراء وكان يوماً مشهوداً .

وفيها توفى ﴿ خالد بن يوسف بن سعد النابلسى ﴾

الشيخ زين الدين ابن الحافظ شيخ دار الحديث النورية بدمشق ، كان عالما بصناعة الحديث حافظاً لأسماء الرجال ، وقد اشتغل عليه فى ذلك الشيخ محيى الدين النواوى وغيره ، وتولى بعده مشيخة دار الحديث النورية الشيخ تاج الدين الفزارى ، كان الشيخ زين الدين حسن الأخلاق فكه النفس كثير المزاح على طريقة المحدثين ، رحل إلى بغداد واشتغل بها ، وسمع الحديث وكان فيه خير وصلاح وعبادة ، وكانت جنازته حافلة ودفن بمقابر باب الصغير رحمه الله .

﴿ الشيخ أبو القاسم الحوارى ﴾

هو أبو القاسم يوسف ابن أبى القاسم بن عبد السلام الأموى الشيخ المشهور صاحب الزاوية بحوارى ، توفى ببلده ، وكان خيرا صالحا له أتباع وأصحاب يحبونه ، وله مريدون كثير من قرايا حوران فى الحل والثبنية وهم حنابلة لا يرون الضرب بالدف بل بالكف ، وهم أمثل من غيرهم .

﴿ القاضى بدر الدين الكردى السنجارى ﴾

الذى باشر القضاء بمصر مرارا توفى بالقاهرة . قال أبو شامة : وسيرته معروفة فى أخذ الرشا من قضاة الاطراف والمتحاكمين إليه ، إلا أنه كان جوادا كريماً صودر هو وأهله .

﴿ ثم دخلت سنة أربع وستين وستمائة ﴾

استهلت والخليفة الحاكم العباسى والسلطان الملك الظاهر وقضاة مصر أربعة . وفيها جعل بدمشق أربعة قضاة من كل مذهب قاض كما فعل بمصر عام أول ، ونائب الشام آقوش النجيبى ، وكان قاضى قضاة الشافعية ابن خلكان ، والحنفية شمس الدين عبد الله بن محمد بن عطا ، والحنابلة شمس الدين عبد الرحمن ابن الشيخ أبى عمر ، والمالكية عبد السلام بن الزواوى ، وقد امتنع من الولاية فألزم بها حتى قبل ثم عزل نفسه ، ثم ألزم بها فقبل بشرط أن لا يباشر أوقافا ولا يأخذ جامكية على أحكامه ، وقال : نحن فى كفاية فأعفى من ذلك أيضا رحمهم الله . وقد كان هذا الصنيع الذى لم يسبق إلى مثله قدفعل فى العام الأول بمصر كما تقدم ، واستقرت الأحوال على هذا المنوال .

وفيها كمل عمارة الحوض الذى شرقى قناة باب البريد وعمل له شاذروان وقبة وأنابيب يجرى منها الماء إلى جانب الدرج الشمالية .

وفيها نازل الظاهر صفد واستدعى بالمنجانيق من دمشق وأحاط بها ولم يزل حتى افتتحها ، ونزل أهلها على حكمه ، فتسلم البلد فى يوم الجمعة ثامن عشر شوال ، وقتل المقاتلة وسبى الذرية ، وقد افتتحها الملك صلاح الدين يوسف بن أيوب فى شوال أيضاً فى أربع وثمانين وخمسمائة ، ثم استعادها الفرنج فانتزعها الظاهر منهم قهراً فى هذه السنة ولله الحمد ، وكان السلطان الظاهر فى نفسه منهم شىء

كثير ، فلما توجه إلى فتحها طلبوا الأمان ، فأجلس على سرير مملكته الأمير سيف الدين كرمون التترى ، وجاءت رسلهم فخلعوه وانصرفوا ولا يشعرون أن الذى أعطاهم العهود بالأمان إنما هو الأمير الذى أجلسه على السرير والحرب خدعة . فلما خرجت الاسبتارية والداوية من القلعة وقد فعلوا بالمسلمين الأفاعيل القبيحة ، فأمكن الله منهم فأمر السلطان بضرب رقابهم عن آخرهم ، وجاءت البريدية إلى البلاد بذلك ، فدقت البشائر وزينت البلاد ، ثم بث السرايا يمينا وشمالا فى بلاد الفرنج فاستولى المسلمون على حصون كثيرة تقارب عشرين حصنا ، وأسروا قريباً من ألف أسير ما بين امرأة وصبى ، وغنموا شيئا كثيرا .

وفيها قدم ولد الخليفة المستعصم بن المستنصر من الأسر واسمه على ، فأكرم وأنزل بالدار الأسدية تجاه العزيزية ، وقد كان أسيرا فى أيدى التتار ، فلما كسرهم بركه خان تخلص من أيديهم وسار إلى دمشق ، ولما فتح السلطان صفداً أخبره بعض من كان فيها من أسرى المسلمين أن سبب أسرهم أن أهل قرية قارا كانوا يأخذونهم فيحملونهم إلى الفرنج فيبيعونهم منهم ، فعند ذلك ركب السلطان قاصدا قارا فأوقع بهم بأساً شديدا وقتل منهم خلقا كثيراً ، وأسر من أبنائهم ونسائهم أخذا بثأر المسلمين جزاه الله خيراً ، ثم أرسل السلطان جيشاً هائلا إلى بلاد سيس ، فجاسوا خلال الديار وفتحوا سيس عنوة وأسروا ابن ملكها وقتلوا أخاه ونهبوها ، وقتلوا أهلها وأخذوا بثأر الاسلام وأهله منهم ، وذلك أنهم كانوا أضر شىء على المسلمين زمن التتار ، لما أخذوا مدينة حلب وغيرها أسروا من نساء المسلمين وأطفالهم خلقا كثيرا ، ثم كانوا بعد ذلك يغيرون على بلاد المسلمين فى زمن هولاكو فكبته الله وأهانه على يدى أنصار الاسلام ، هو وأميره كتبغا ، وكان أخذ سيس يوم الثلاثاء العشرين من ذى القعدة من هذه السنة ، وجاءت الأخبار بذلك إلى البلاد وضربت البشائر ، وفى الخامس والعشرين من ذى الحجة دخل السلطان وبين يديه ابن صاحب سيس وجماعة من ملوك الأرمن أسارى أذلاء صغرة ، والعساكر صحبته وكان يوما مشهودا . ثم سار إلى مصر مؤيداً منصوراً ، وطلب صاحب سيس أن يفادى ولده ، فقال السلطان لا نفاديه إلا بأسير لنا عند التتار يقال له سنقر الأشقر ، فذهب صاحب سيس إلى ملك التتر فتذلل له وتمسكن وخضع له ، حتى أطلقه له ، فلما وصل سنقر الأشقر إلى السلطان أطلق ابن صاحب سيس .

وفيها عمر الظاهر الجسر المشهور بين قرارا ودامية ، تولى عمارته الأمير جمال الدين محمد بن بهادر وبدر الدين محمد بن رحال والى نابلس والأغوار ، ولما تم بناؤه اضطرب بعض أركانه فقلق السلطان من ذلك وأمر بتأكيده فلم يستطيعوا من قوة جرى الماء حينئذ ، فاتفق باذن الله أن انسالت على النهر أكمة من تلك الناحية ، فسكن الماء بمقدار أن أصلحوا ما يريدون ، ثم عاد الماء كما كان

وذلك بتيسير الله وعونه وعنايته العظيمة .

وفيها توفى من الأعيان ﴿ أيد غدى بن عبد الله ﴾

الأمير جمال الدين العزيزى ، كان من أكابر الأمراء وأحظاهم عند الملك الظاهر ، لا يكاد الظاهر يخرج عن رأيه ، وهو الذى أشار عليه بولاية القضاة من كل مذهب قاض على سبيل الاستقلال وكان متواضعاً لا يلبس محرما ، كريماً وقوراً رئيساً معظماً فى الدولة ، أصابته جراحة فى حصار صفد فلم يزل مريضا منها حتى مات ليلة عرفة ، ودفن بالرباط الناصرى بسفح قاسيون من صلاحية دمشق رحمه الله .

﴿ هولاكوخان بن تولى خان بن جنكيزخان ﴾

ملك التتار بن ملك التتار ، وهو والد ملوكهم ، والعامة يقولون هولاوون مثل قلاوون ، وقد كان هولاكو ملكا جباراً فاجرا كفارا لعنه الله ، قتل من المسلمين شرقا وغربا مالا يعلم عددهم إلا الذى خلقهم وسيجازيه على ذلك شر الجزاء ، كان لا يتقيد بدين من الأديان ، وإنما كانت زوجته ظفر خاتون قد تنصرت وكانت تفضل النصارى على سائر الخلق ، وكان هو يترامى على محبة المعقولات ، ولا يتصور منها شيئا ، وكان أهلها من أفراخ الفلاسفة لهم عنده وجاهة ومكانة ، وإنما كانت همته فى تدبير مملكته وتملك البلاد شيئا فشيئا ، حتى أباده الله فى هذه السنة ، وقيل فى سنة ثلاث وستين ، ودفن فى مدينة تلا ، لارحمه الله ، وقام فى الملك من بعده ولده أبغا خان وكان أبغا أحد إخوة عشرة ذكور . والله سبحانه أعلم وهو حسبنا ونعم الوكيل .

﴿ ثم دخلت سنة خمس وستين وستمائة ﴾

فى يوم الأحد ثانى المحرم توجه الملك الظاهر من دمشق إلى الديار المصرية وصحبته العساكر المنصورة ، وقد استولت الدولة الاسلامية على بلاد سيس بكمالها ، وعلى كثير من معاقل الفرنج فى هذه السنة ، وقد أرسل العساكر بين يديه إلى غزة ، وعدل هو إلى ناحية الكرك لينظر فى أحوالها ، فلما كان عند بركة زيزى تصيد هنالك فسقط عن فرسه فانكسرت فخذه ، فأقام هناك أياما يتداوى حتى أمكنه أن يركب فى المحفة ، وسار إلى مصر فبرأت رجله فى أثناء الطريق فأمكنه الركوب وحده على الفرس . ودخل القاهرة فى أبهة عظيمة ، وتجمل هائل ، وقد زينت البلد ، واحتفل الناس له احتفالا عظيما ، وفرحوا بقدومه وعافيته فرحا كثيراً ، ثم فى رجب منها رجع من القاهرة إلى صفد ، وحفر خندقا حول قلعتها وعمل فيه بنفسه وأمرائه وجيشه وأغار على ناحية عكا ، فقتل وأسر وغنم وسلم وضربت لذلك البشائر بدمشق . وفى ثانى عشر ربيع الأول صلى الظاهر بالجامع الأزهر الجمعة ، ولم يكن تقام به الجمعة من زمن العبيديين إلى هذا الحين ، مع أنه أول مسجد بنى بالقاهرة ، بناه جوهر القائد وأقام فيه الجمعة ، فلما بنى الحاكم جامعه حول الجمعة منه إليه ، وترك الأزهر لاجمعة فيه

فصار فى حكم بقية المساجـد وشعث حاله وتغيرت أحواله ، فأمر السلطان بعمارته و بياضـه و إقامة الجمعة وأمر بعمارة جامع الحسينية وكمل فى سنة سبع وستين كما سيأتى إن شاء الله تعالى .

وفيها أمر الظاهر أن لا يبيت أحد من المجاورين بجامع دمشق فيه وأمر باخراج الخزائن منه ، والمقاصير التى كانت فيه ، فكانت قريباً من ثلاثمائة ، ووجدوا فيها قوارير البول والفرش والسجاجيد الكثيرة ، فاستراح الناس والجامع من ذلك واتسع على المصلين .

وفيها أمر السلطان بعمارة أسوار صفد وقلعتها ، وأن يكتب عليها (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) (أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون).

وفيها التقى أبغا ومنكو تمر الذى قام مقام بركه خان فكسره أبغا وغنم منه شيئا كثيرا .

وحكى ابن خلكان فيما نقل من خط الشيخ قطب الدين اليونينى قال : بلغنا أن رجـلا يدعى أبا سلامة [1] من ناحية بصرى ، كان فيه مجون واستهتار ، فذكر عنده السواك وما فيه من الفضيلة ، فقال: والله لا أستاك إلا فى المخرج - يعنى دبره - فأخذ سواكا فوضعه فى مخرجه ثم أخرجه ، فمكث بعده تسعة أشهر [وهو يشكو من ألم البطن والمخرج] [2] فوضع ولدا على صـفة الجرذان له أربعة قوائم ، ورأسه كرأس السمكة ، [وله أربعة أنياب بارزة ، وذنب طويل مثل شبر وأربع أصابع] [2] وله دبر كدبر الأرنب . ولما وضعه صاح ذلك الحيوان ثلاث صيحات ، فقامت ابنة ذلك الرجل فرضخت رأسه فمات ، وعاش ذلك الرجل بعد وضعه له يومين ومات فى الثالث ، وكان يقول هذا الحيوان قتلنى وقطع أمعائى ، وقد شاهد ذلك جماعة من أهل تلك الناحيـة وخطباء ذلك المكان ، ومنهم من رأى ذلك الحيوان حيا ، ومنهم من رآه بعد موته . وممن توفى فيها من الأعيان .

﴿ السلطان بركه خان بن تولى بن جنكيزخان ﴾

وهو ابن عم هولاكو ، وقـد أسلم بركه خان هذا ، وكان يحب العلماء والصالحـين ومن أكبر حسناته كسره لهولاكو وتفريق جنوده ، وكان يناصح الملك الظاهر و يعظمه و يكرم رسله إليه ، و يطلق لهم شيئا كثيراً ، وقد قام فى الملك بعده بعض أهل بيته وهو منكو تمر بن طغان بن باو بن تولى بن جنكيزخان ، وكان على طريقته ومنواله ولله الحمد .

﴿ قاضى القضاة بالديار المصرية ﴾

تاج الدين عبد الوهاب بن خلف بن بدر بن بنت الاعز الشافعى ، كان دينا عفيفا نزهاً لاتأخذه فى الله لومـة لائم ، ولا يقبل شفاعة أحد ، وجمع له قضاء الديار المصرية بكمالها ، والخطابة ، والحسبة

(١) فى شذارات الذهب : قرية يقال لها دير أبى سلامة . كان بها رجل من العربان فيه استهتار الخ

(٢) الزيادة من شذرات الذهب .

ومشيخة الشيوخ ، ونظر الأجياش ، وتدريس الشافعي والصالحية وإمامة الجامع ، وكان بيده خمسة عشر وظيفة ، وباشر الوزارة في بعض الأوقات ، وكان السلطان يعظمه ، والوزير ابن حنا يخاف منه كثيرا ، وكان يحب أن ينكبه عند السلطان ويضعه فلا يستطيع ذلك ، وكان يشتهي أن يأتي داره ولو عائدا ، فمرض في بعض الأحيان فجاء القاضي عائدا ، فقام إلى تلقيه لوسط الدار ، فقال له القاضي : إنما جئنا لعيادتك فاذا أنت سوى صحيح ، سلام عليكم ، فرجع ولم يجلس عنده . وكان مولده في سنة أربع وستمائة ، وتولى بعده القضاء تقي الدين ابن رزين

﴿ واقف القيمرية الأمير الكبير ناصر الدين ﴾

أبو المعالي الحسين بن العزيز بن أبي الفوارس القيمري الكردي ، كان من أعظم الأمراء مكانة عند الملوك ، وهو الذي سلم الشام إلى الملك الناصر صاحب حلب ، حين قتل توران شاه بن الصالح أيوب بمصر ، وهو واقف المدرسة القيمرية عند مأذنة فيروز ، وعمل على بابها الساعات التي لم يسبق إلى مثلها ، ولا عمل على شكلها ، يقال إنه غرم عليها أربعين ألف درهم .

﴿ الشيخ شهاب الدين أبو شامة ﴾

عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان بن أبي بكر بن عباس أبو محمد وأبو القاسم المقدسي الشيخ الامام العالم الحافظ المحدث الفقيه المؤرخ المعروف بأبي شامة شيخ دار الحديث الاشرفية ، ومدرس الركنية ، وصاحب المصنفات العديدة المفيدة ، له اختصار تاريخ دمشق في مجلدات كثيرة ، وله شرح الشاطبية ، وله الرد إلى الأمر الأول ، وله في المبعث وفي الأسراء ، وكتاب الروضتين في الدولتين النورية والصلاحية ، وله الذيل على ذلك ، وله غير ذلك من الفوائد الحسان والغرائب التي هي كالعقيان. ولد ليلة الجمعة الثالث والعشرين من ربيع الآخر سنة تسع وتسعين وخمسمائة، وذكر لنفسه ترجمة في هذه السنة في الذيل ، وذكر مرباه ومنشأه ، وطلبه العلم ، وسماعه الحديث ، وتفقهه على الفخر بن عساكر وابن عبد السلام ، والسيف الآمدي ، والشيخ موفق الدين بن قدامة ، وما رئي له من المنامات الحسنة . وكان ذا فنون كثيرة ، أخبرني علم الدين البرزالي الحافظ عن الشيخ تاج الدين الفزاري ، أنه كان يقول : بلغ الشيخ شهاب الدين أبو شامة رتبة الاجتهاد ، وقد كان ينظم أشعارا في أوقات ، فمنها ما هو مستحلى ، ومنها مالا يستحلى ، فالله يغفر لنا وله . وبالجملة فلم يكن في وقته مثله في نفسه وديانته، وعفته وأمانته ، وكانت وفاته بسبب محنة ألبوا عليه ، وأرسلوا إليه من اغتاله وهو بمنزل له بطواحين الأشنان ، وقد كان اتهم برأي ، الظاهر براءته منه ، وقد قال جماعة من أهل الحديث وغيرهم: إنه كان مظلوما ، ولم يزل يكتب في التاريخ حتى وصل إلى رجب من هذه السنة ، فذكر أنه أصيب بمحنة في منزل له بطواحين الأشنان ، وكان الذين قتلوه جاءوه قبل فضربوه ليموت فلم يمت، فقيل له: ألا تشتكي عليهم ، فلم يفعل وأنشأ يقول :

قلت لمن قال ألا تشتكى * ما قد جرى فهو عظيم جليل
يقيض الله تعالى لنا * من يأخذ الحق ويشفى الغليل
إذا توكلنا عليه كفى * فحسبنا الله ونعم الوكيل

وكأنهم عادوا إليه مرة ثانية وهو فى المنزل المذكور فقتلوه بالكلية فى ليلة الثلاثاء تاسع عشر رمضان رحمه الله . ودفن من يومه بمقابر دار الفراديس . وباشر بعده مشيخة دار الحديث الأشرفية الشيخ محيي الدين النووى . وفى هذه السنة كان مولد الحافظ علم الدين القاسم بن محمد البرزالى ، وقد ذيل على تاريخ أبى شامة لان مولده فى سنة وفاته ، فحذا حذوه وسلك نحوه ، ورتب ترتيبه وهذب تهذيبه . وهذا أيضاً ممن ينشد فى ترجمته .

مازلت تكتب فى التاريخ مجتهدا * حتى رأيتك فى التاريخ مكتوبا

ويناسب أن ينشد هنا :

إذا سيد منا خلا قام سيد * قؤول لما قال الكرام فعول

﴿ ثم دخلت سنة ست وستين وستمائة ﴾

استهلت هذه السنة والحاكم العباسى خليفة ، وسلطان البلاد الملك الظاهر ، وفى أول جمادى الآخرة خرج السلطان من الديار المصرية بالعساكر المنصورة ، فنزل على مدينة يافا بغتة فأخذها عنوة ، وسلم إليه أهلها قلعتها صلحاً ، فأجلاهم منها إلى عكا وخرب القلعة والمدينة وسار منها فى رجب قاصداً حصن الشقيف ، وفى بعض الطريق أخذ من بعض بريدية الفرنج كتابا من أهل عكا إلى أهل الشقيف يعلمونهم قدوم السلطان عليهم ، ويأمرونهم بتحصين البلد ، والمبادرة إلى إصلاح أماكن يخشى على البلد منها . ففهم السلطان كيف يأخذ البلد وعرف من أين تؤكل الكتف . واستدعى من فوره رجلا من الفرنج فأمره أن يكتب بدله كتابا على ألسنتهم إلى أهل الشقيف ، يحذر الملك من الوزير ، والوزير من الملك ، ويرمى الخلف بين الدولة . فوصل إليهم فأوقع الله الخلف بينهم بحوله وقوته . وجاء السلطان فحاصرهم ورماهم بالمنجنيق فسلموه الحصن فى التاسع والعشرين من رجب وأجلاهم إلى صور ، وبعث بالأثقال إلى دمشق ، ثم ركب جريدة فيمن نشط من الجيش فشن الغارة على طرابلس وأعمالها ، فنهب وقتل وأرعب وكر راجعاً مؤيدا منصوراً . فنزل على حصن الأكراد لمحبته فى المرج ، فحمل إليه أهله من الفرنج الاقامات فأبى أن يقبلها وقال أنتم قتلتم جنديا من جيشى وأريد ديته مائة ألف دينار ، ثم سار فنزل على حمص . ثم منها إلى حماة . ثم إلى فامية ثم سار منزلة أخرى . ثم سار ليلا وتقدم العسكر فلبسوا العدة وساق حتى أحاط بمدينة أنطاكية .

﴿ فتح أنطاكية على يدى السلطان الملك الظاهر رحمه الله ﴾

وهى مدينة عظيمة كثيرة الخير ، يقال إن دور سورها اثنا عشر ميلا ، وعدد بروجها مائة وستة

وثلاثون برجا ، وعدد شرافاتها أربعة وعشرون ألف شرافة ، كان نزوله عليها فى مستهل شهر رمضان ، فخرج إليه أهلها يطلبون منه الأمان، وشرطوا شروطا له عليهم فأبى أن يجيبهم وردهم خائبين وصمم على حصارها، ففتحها يوم السبت رابع عشر رمضان بحول الله وقوته وتأييده ونصره ، وغنم منها شيئا كثيرا ، وأطلق للامراء أموالا جزيلة ، ووجد من أسارى المسلمين من الحلبيين فيها خلقا كثيرا ، كل هذا فى مقدار أربعة أيام . وقد كان الأغريس صاحبها وصاحب طرابلس ، من أشد الناس أذية للمسلمين ، حين ملك التتار حلب وفر الناس منها ، فانتقم الله سبحانه منه بمن أقامه للاسلام ناصرا وللصليب دامغا كاسرا ، ولله الحمد والمنة ، وجاءت البشارة بذلك مع البريدية ، فجاوبتها البشائر من القلعة المنصورة ، وأرسل أهل بغراس حين سمعوا بقصد السلطان إليهم يطلبون منه أن يبعث إليهم من يتسلمها ، فأرسل إليهم أستاذ داره الامير آقسنقر الفارقانى فى ثالث عشر رمضان فتسلمها ، وتسلموا حصونا كبيرة وقلاعا كثيرة ، وعاد السلطان مؤيدا منصورا ، فدخل دمشق فى السابع والعشرين من رمضان من هذه السنة فى أبهة عظيمة وهيبة هائلة ، وقد زينت له البلد ودقت له البشائر فرحا بنصرة الاسلام على الكفرة الطغام ، لكنه كان قد عزم على أخذ أراضى كثيرة من القرى والبساتين التى بأيدى ملاكها بزعم أنه قد كانت التتار استحوذوا عليها ثم استنقذها منهم ، وقد أفتاه بعض الفقهاء من الحنفية تفريعاً على أن الكفار إذا أخذوا شيئا من أموال المسلمين ملكوها ، فاذا استرجعت لم ترد إلى أصحابها ، وهذه المسألة مشهورة وللناس فيها قولان (أصحهما) قول الجمهور أنه يجب ردها إلى أصحابها لحديث العضباء ناقة رسول الله ﷺ ، حين استرجعها رسول الله ﷺ ، وقد كان أخذها المشركون ، استدلوا بهذا وأمثاله على أبى حنيفة ، وقال بعض العلماء إذا أخذ الكفار أموال المسلمين وأسلموا وهى فى أيديهم استقرت على أملاكهم ، واستدل على ذلك بقوله عليه الصلاة والسلام « وهل ترك لنا عقيل من رباع » وقد كان استحوذ على أملاك المسلمين الذين هاجروا وأسلم عقيل وهى فى يده ، فلم تنتزع من يده ، وأما إذا انتزعت من أيديهم قبل ، فانها ترد إلى أربابها لحديث العضباء ، والمقصود أن الظاهر عقد مجلساً اجتمع فيه القضاة والفقهاء من سائر المذاهب وتكلموا فى ذلك وصمم السلطان على ذلك اعتمادا على ما بيده من الفتاوى ، وخاف الناس من غائلة ذلك فتوسط الصاحب فخر الدين بن الوزير بهاء الدين بن احنا ، وكان قد درس بالشافعى بعد ابن بنت الأعز ، فقال ياخوند أهل البلد يصالحونك عن ذلك كله بألف ألف درهم ، تقسط كل سنة مائتى ألف درهم ، فأبى إلا أن تكون معجلة بعد أيام ، وخرج متوجها إلى الديار المصرية ، وقد أجاب إلى تقسيطها ، وجاءت البشارة بذلك ، ورسم أن يعجلوا من ذلك أربعمائة ألف درهم ، وأن تعاد إليه الغلات التى كانوا قد احتاطوا عليها فى زمن القسم والثمار ، وكانت هذه الفعلة مما شعثت خواطر الناس على السلطان

ولما استقر أمر أبغا على التتار أمر باستمرار وزيره نصير الدين الطوسى ، واستناب على بلاد الروم

البرواناه وارتفع قدره عنده جدا واستقل بتدبير تلك البلاد وعظم شأنه فيها .

وفيها كتب صاحب اليمن إلى الظاهر بالخضوع والانتماء إلى جانبه وأن يخطب له ببلاد اليمن ، وأرسل إليه هدايا وتحفاً كثيرة ، فأرسل إليه السلطان هدايا وخلعا وسنجقا وتقليدا .

وفيها رافع ضياء الدين بن الفقاعى لصاحب بهاء الدين بن الحنا عندالظاهر واستظهر عليه ابن الحنا ، فسلمه الظاهر إليه ، فلم يزل يضرب به بالمقارع ويستخلص أمواله إلى أن مات ، فيقال إنه ضربه قبل أن يموت سبعة عشر ألف مقرعة وسبعمائة فالله أعلم .

وفيها عمل البرواناه [1] على قتل الملك علاء الدين صاحب قونية وأقام ولده غياث الدين مكانه وهو ابن عشر سنين وتمكن البرواناه فى البلاد والعباد وأطاعه جيش الروم .

وفيها قتل الصاحب علاء الدين صاحب الديوان ببغداد ابن الخشكرى النعمانى الشاعر ، وذلك أنه اشتهر عنه أشياء عظيمة ، منها أنه يعتقد فضل شعره على القرآن المجيد ، واتفق أن الصاحب انحدر إلى واسط فلما كان بالنعمانية حضر ابن الخشكرى عنده وأنشده قصيدة قد قالها فيه ، فبينما هو ينشدها بين يديه إذ أذن المؤذن فاستنصته الصاحب ، فقال ابن الخشكرى : يامولانا اسمع شيئا جديدا ، وأعرض عن شيء له سنين ، فثبت عند الصاحب ما كان يقال عنده عنه ، ثم باسطه وأظهر أنه لا ينكر عليه شيئا مما قال حتى استعلم ما عنده ، فاذا هو زنديق ، فلما ركب قال لانسان معه استفرده فى أثناء الطريق واقتله ، فسايره ذلك الرجل حتى إذا انقطع عن الناس قال لجماعة معه : أنزلوه عن فرسه كالمداعب له ، فأنزلوه وهو يشتمهم ويلعنهم ، ثم قال انزعوا عنه ثيابه فسلبوها وهو يخاصمهم ، ويقول إنكم أجلاف ، وإن هذا لعب بارد ، ثم قال : اضربوا عنقه ، فتقدم إليه أحدهم فضربه بسيفه فأبان رأسه ،

وفيها توفى ﴿ الشيخ عفيف الدين يوسف بن البقال ﴾

شيخ رباط المرزبانية ، كان صالحا ورعا زاهدا حكى عن نفسه قال : كنت بمصر فبلغنى ما وقع من القتل الذريع ببغداد فى فتنة التتار ، فأنكرت فى قلبى وقلت : يارب كيف هذا وفيهم الاطفال ومن لا ذنب له ؟ فرأيت فى المنام رجلا وفى يده كتاب فأخذته فقرأته فاذا فيه هذه الأبيات فيها الانكار على .

دع الاعتراض فما الامر لك ⁂ ولا الحكم فى حركات الفلك
ولا تسأل الله عن فعله ⁂ فمن خاض لجة بحر هلك
إليه تصير أمور العباد ⁂ دع الاعتراض فما أجهلك

(١) كلمة فارسية معناها فى الاصل الحاجب . ثم أطلق فى دول الروم السلاجقة بآسيا الصغرى على الوزير الاكبر .

ومن توفى فيها من الأعيان ﴿ الحافظ أبو إبراهيم إسحاق بن عبد الله ﴾

ابن عمر المعروف بابن قاضى اليمن ، عن ثمان وستين سنة ، ودفن بالشرف الأعلى ، وكان قد تفرد بروايات جيدة وانتفع الناس به . وفيها ولد الشيخ شرف الدين عبد الله بن تيمية أخو الشيخ تقى الدين ابن تيمية ، والخطيب القزوينى .

﴿ ثم دخلت سنة سبع وستين وستمائة ﴾

فى صفر منها جدد السلطان الظاهر البيعة لولده من بعده الملك السعيد محمد بركة خان ، وأحضر الامراء كلهم والقضاة والاعيان وأركبه ومشى بين يديه ، وكتب له ابن لقمان تقليدا هائلا بالملك من بعد أبيه ، وأن يحكم عنه أيضا فى حال حياته ، ثم ركب السلطان فى عساكره فى جمادى الآخرة قاصدا الشام ، فلما دخل دمشق جاءته رسل من أبغا ملك التتار معهم مكاتبات ومشافهات ، فمن جملة المشافهات : أنت مملوك بعت بسيواس فكيف يصلح لك أن تخالف ملوك الارض ؟ واعلم أنك لو صعدت إلى السماء أو هبطت إلى الأرض ما تخلصت منى فاعمل لنفسك على مصالحة السلطان إبغا. فلم يلتفت إلى ذلك ولاعده شيئا بل أجاب عنه أتم جواب ، وقال لرسله : أعلموه أنى من ورائه بالمطالبة ولا أزال حتى أنتزع منه جميع البلاد التى استحوذ عليها من بلاد الخليفة ، وسائر أقطار الأرض .

وفى جمادى الآخرة رسم السلطان الملك الظاهر باراقة الخمور وتبطيل المفسدات والخواطئ بالبلاد كلها ، فنهبت الخواطئ وسلبن جميع ما كان معهن حتى يتزوجن ، وكتب إلى جميع البلاد بذلك ، وأسقط المكوس التى كانت مرتبة على ذلك ، وعوض من كان محالا على ذلك بغيرها ولله الحمد والمنة . ثم عاد السلطان بعساكره إلى مصر ، فلما كان فى أثناء الطريق عند خربة اللصوص تعرضت له امرأة فذكرت له أن ولدها دخل مدينة صور ، وأن صاحبها الفرنجى غدر به وقتله وأخذ ماله ، فركب السلطان وشنّ الغارة على صور فأخذ منها شيئا كثيرا ، وقتل خلقا ، فأرسل إليه ملكها ما سبب هذا ؟ فذكر له غدره ومكره بالتجار ثم قال السلطان لمقدم الجيوش : أوهم الناس أنى مريض وأنى بالمحفة وأحضر الاطباء واستوصف لى منهم ما يصلح لمريض به كذا وكذا ، وإذا وصفوا لك فأحضر الأشربة إلى المحفة وأنتم سائرون . ثم ركب السلطان على البريد وساق مسرعا فكشف أحوال ولده وكيف الامر بالديار المصرية بعده ، ثم عاد مسرعا إلى الجيش فجلس فى المحفة وأظهروا عافيته وتباشروا بذلك . وهذه جرأة عظيمة ، وإقدام هائل .

وفيها حج السلطان الملك الظاهر وفى صحبته الامير بدر الدين الخزندار ، وقاضى القضاة صدر الدين سليمان الحنفى ، وفخر الدين بن لقمان ، وتاج الدين بن الأثير ونحو من ثلاثمائة مملوك ، وأجناد من الحلقة المنصورة ، فسار على طريق الكرك ونظر فى أحوالها ثم منها إلى المدينة النبوية ، فأحسن إلى أهلها ونظر فى أحوالها ، ثم منها إلى مكة فتصدق على المجاورين ثم وقف بعرفة وطاف طواف

الافاضة وفتحت له الكعبة فغسلها بماء الورد وطيبها بيده ؛ ثم وقف بباب الكعبة فتناول أيدى الناس ليدخلوا الكعبة وهو بينهم ؛ ثم رجع فرمى الجمرات ثم تعجل النفر فعاد على المدينة النبوية فزار القبر الشريف مرة ثانية على ساكنه أفضل الصلاة وأتم التسليم ؛ وعلى آله وأهل بيته الطيبين الطاهرين وصحابته الكرام أجمعين إلى يوم الدين . ثم سار إلى الكرك فدخلها فى التاسع والعشرين من ذى الحجة ، وأرسل البشير إلى دمشق بقدومه سالما ، فخرج الامير جمال الدين آقوش النجيبى نائبها ليتلقى البشير فى ثانى المحرم ، فاذا هو السلطان نفسه يسير فى الميدان الأخضر ، وقد سبق الجميع ؛ فتعجب الناس من سرعة سيره وصبره وجلده ، ثم ساق من فوره حتى دخل حلب فى سادس المحرم ليتفقد أحوالها ، ثم عاد إلى حماة ثم رجع إلى دمشق ثم سار إلى مصر فدخلها يوم الثلاثاء ثالث صفر من السنة المقبلة رحمه الله .

وفى أواخر ذى الحجة هبت ريح شديدة أغرقت مائتى مركب فى النيل ، وهلك فيها خلق كثير ، ووقع هناك مطر شديد جدا ، وأصاب الشام من ذلك صاعقة أهلكت الثمار ، فانا لله وإنا إليه راجعون . وفيها أوقع الله تعالى الخلف بين التتار من أصحاب إبغا وأصحاب ابن منكوتمرا بن عمه وتفرقوا واشتغلوا بعضهم ببعض ، ولله الحمد . وفيها خرج أهل حران منها وقدموا الشام ، وكان فيهم شيخنا العلامة أبو العباس أحمد بن تيمية صحبة أبيه وعمره ست سنين ، وأخوه زين الدين عبد الرحمن وشرف الدين عبد الله ، وهما أصغر منه .

وممن توفى فيها من الأعيان ﴿ الأمير عز الدين أيدمر بن عبد الله ﴾

الحلبى الصالحى ، كان من أكابر الأمراء وأحظاهم عند الملوك ، ثم عند الملك الظاهر ، كان يستنيبه إذا غاب ، فلما كانت هذه السنة أخذه معه وكانت وفاته بقلعة دمشق ؛ ودفن بتربته بالقرب من اليغمورية ؛ وخلف أموالا جزيلة ، وأوصى إلى السلطان فى أولاده ، وحضر السلطان عزاءه بجامع دمشق .

﴿ شرف الدين أبو الطاهر ﴾

محمد بن الحافظ أبى الخطاب عمر بن دحية المصرى ، ولد سنة عشر وستمائة وسمع أباه وجماعة ؛ وتولى مشيخة دار الحديث الكاملية مدة ؛ وحدث وكان فاضلا .

﴿ القاضى تاج الدين أبو عبد الله ﴾

محمد بن وثاب بن رافع البجيلى الحنفى ، درس وأفتى عن ابن عطاء بدمشق ؛ ومات بعد خروجه من الحمام على مساطب الحمام فجأة ودفن بقاسيون .

﴿ الطبيب الماهر شرف الدين أبو الحسن ﴾

على بن يوسف بن حيدرة الرحبى شيخ الأطباء بدمشق ، ومدرس الدخوارية عن وصية واقفها بذلك وله التقدمة فى هذه الصناعة على أقرانه من أهل زمانه ؛ ومن شعره قوله :

يساق بنو الدنيا إلى الحتف عنوة * ولا يشعر الباقى بحالة من يمضى
كأنهم الأنعام فى جهل بعضها * بما ثم من سفك الدماء على بعض

[﴿ الشيخ نصير الدين ﴾

المبارك بن يحيى بن أبى الحسن أبى البركات بن الصباغ الشافعى ، العلامة فى الفقه والحديث ، درس وأفتى وصنف وانتفع به ، وعمر ثمانين سنة ، وكانت وفاته فى حادى عشرة جمادى الأولى من هذه السنة ، رحمه الله تعالى .

﴿ الشيخ أبو الحسن ﴾

على بن عبد الله بن إبراهيم الكوفى المقرى النحوى الملقب بسيبويه ، وكان فاضلا بارعا فى صناعة النحو ، توفى بمارستان القاهرة فى هذه السنة عن سبع وستين سنة رحمه الله . ومن شعره :

عذبت قلبي بهجر منك متصل * يا من هواه ضمير غير منفصل
فما زادنى غير تأكيد صدك لى * فما عدولك من عطف إلى بدل][1]

وفيها ولد شيخنا العلامة كمال الدين محمد بن على الأنصارى بن الزملكانى شيخ الشافعية .

﴿ ثم دخلت سنة ثمان وستين وستمائة ﴾

فى ثانى المحرم منها دخل السلطان من الحجاز على الهجن فلم يرع الناس إلا وهو فى الميدان الاخضر يسير ، ففرح الناس بذلك ، وأراح الناس من تلقيه بالهدايا والتحف ، وهذه كانت عادته ، وقد عجب الناس من سرعة مسيره وعلو همته ، ثم سار إلى حلب ، ثم سار إلى مصر فدخلها فى سادس الشهر مع الركب المصرى ، وكانت زوجته أم الملك السعيد فى الحجاز هذه السنة ، ثم خرج فى ثالث عشر صفر هو وولده والأمراء إلى الاسكندرية فتصيد هنالك ، وأطلق للأمراء الأموال الكثيرة والخلع ، ورجع مؤيداً منصوراً .

وفى المحرم منها قتل صاحب مراكش أبو العلاء إدريس بن عبد الله بن محمد بن يوسف الملقب بالواثق ، قتله بنو مُزين فى حرب كانت بينه وبينهم بالقرب من مراكش . وفى ثالث عشر ربيع الآخر منها وصل السلطان إلى دمشق فى طائفة من جيشه ، وقد لقوا فى الطريق مشقة كثيرة من البرد والوحل ، فخيم على الزنبقية وبلغه أن ابن أخت زيتون خرج من عكا يقصد جيش المسلمين ، فركب إليه سريعا فوجده قريبا من عكا فدخلها خوفا منه . وفى رجب تسلم نواب السلطان مصياف من الاسماعيلية ، وهرب منها أميرهم الصارم مبارك بن الرضى ، فتحيل عليه صاحب حماه حتى أسره وأرسله إلى السلطان فحبسه فى بعض الابرجة فى القاهرة . وفيها أرسل السلطان الدرابزينات إلى الحجرة

(١) زيادة من المصرية .

النبوية ، وأمر أن تقام حول القبر صيانة له ، وعمل لها أبواباً تفتح وتغلق من الديار المصرية ، فركب ذلك عليها . وفيها استفاضت الاخبار بقصد الفرنج بلاد الشام ، فجهز السلطان العساكر لقتالهم ، وهو مع ذلك مهتم بالاسكندرية خوفا عليها ، وقد حصنها وعمل جسورة إليها إن دهمها العدو ، وأمر بقتل الكلاب منها . وفيها انقرضت دولة بنى عبد المؤمن من بلاد المغرب ، وكان آخرهم إدريس بن عبد الله بن يوسف صاحب مراكش ، قتله بنو مرّين فى هذه السنة .

وممن توفى فيها من الأعيان .

﴿ الصاحب زين الدين يعقوب بن عبد الرفيع ﴾

ابن زيد بن مالك المصرى المعروف بابن الزبيرى كان فاضلا رئيساً ، وزر للملك المظفر قطز ثم للظاهر بيبرس فى أول دولته ، ثم عزله وولى بهاء الدين ابن الحنا ، فلزم منزله حتى أدركته منيته فى الرابع عشر من ربيع الآخر من هذه السنة ، وله نظم جيد .

﴿ الشيخ موفق الدين ﴾

أحمد بن القاسم بن خليفة الخزرجى الطبيب ، المعروف بابن أبى أُصَيْبِعة ، له تاريخ الأطباء فى عشر مجلدات لطاف ، وهو وقف بمشهد ابن عروة بالأموى ، توفى بصرخد وقد جاوز التسعين .

﴿ الشيخ زين الدين أحمد بن عبد الدائم ﴾

ابن نعمة بن أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أحمد بن بكير ، أبو العباس المقدسى النابلسى ، تفرد بالرواية عن جماعة من المشايخ ، ولد سنة خمس وسبعين وخمسمائة ، وقد سمع ورحل إلى بلدان شتى ، وكان فاضلا يكتب سريعاً ، حكى الشيخ علم الدين أنه كتب مختصر الخرقى فى ليلة واحدة ، وخطه حسن قوى ، وقد كتب تاريخ ابن عساكر مرتين ، واختصره لنفسه أيضاً ، وأضر فى آخر عمره أربع سنين ، وله شعر أورد منه قطب الدين فى تذييله ، توفى بسفح قاسيون وبه دفن فى بكرة الثلاثاء عاشر رجب ، وقد جاوز التسعين رحمه الله .

﴿ القاضى محيى الدين ابن الزكى ﴾

أبو الفضل يحيى بن قاضى القضاة بهاء الدين أبى المعالى محمد بن على بن محمد بن يحيى بن على بن عبد العزيز بن على بن عبد العزيز بن على بن الحسين بن محمد بن عبد الرحمن بن القاسم بن الوليد ابن عبد الرحمن بن أبان بن عثمان بن عفان القرشى الأموى بن الزكى ، تولى قضاء دمشق غير مرة ، وكذلك آباؤه من قبله ، كل قد وليها ، وقد سمع الحديث من حنبل وابن طبرزد والكندى وابن الحرستانى وجماعة ، وحدث ودرس فى مدارس كثيرة ، وقد ولى قضاء الشام فى الهلاوونية[1] فلم يحمد على ما ذكره أبو شامة ، توفى بمصر فى الرابع عشر من رجب ، ودفن بالمقطم وقد جاوز السبعين . وله

---

(١) فى شذرات الذهب : ولاه هولاكو قضاء الشام .

شعر جيـد قوى ، وحكى الشيخ قطب الدين فى ذلك بعـد ما نسـبه كما ذكرنا عن والده القاضى بهاء الدين أنه كان يذهب إلى تفضيل على على عثمان موافقة لشيخه محى الدين ابن عربى ، ولمنام رآه بجامع دمشق معرضاً عنـه بسبب ما كان من بنى أميـة إليـه فى أيام صفين ، فأصبح فنظم فى ذلك قصيدة يذكر فيها ميله إلى على ، وإن كان هو أموى :

أدين بما دان الوصى ولا أرى ■ سواه وإن كانت أمية محتدى

ولو شهدت صفين خيلى لاعذرت ■ وشاء بنى حرب هنالك مشهدى

لكنت أسن البيض عنهم تراضياً ■ وأمنعهم نيل الخلافة باليد

ومن شعره :

قالوا ما فى جلق نزهة * تسليك عمن أنت به مغرا

يا عاذلى دونك فى لحظه * سهماً وقد عارضه سطرا

﴿ الصاحب فخر الدين ﴾

محمد بن الصاحب بهاء الدين على بن محمد بن سليم بن الحنا المصرى ، كان وزير الصحبة ، وقد كان فاضلا ، بنى رباطا بالقرافة الكبرى ، ودرس بمدرسة والده بمصر ، وبالشافعى بعد ابن بنت الأعز توفى بشعبان ودفن بسفح المقطم ، وفوض السلطان وزارة الصحبة لولده تاج الدين .

﴿ الشيخ أبو نصر بن أبى الحسن ﴾

ابن الخراز الصوفى البغدادى الشاعر ، له ديوان حسن ، وكان جميل المعاشرة حسن المذاكرة ، دخل عليه بعض أصحابه فلم يقم له فأنشده قوله :

نهض القلب حين أقبلت ■ إجلالا لما فيه من صحيح الوداد

ونهوض القلوب بالود أولى ■ من نهوض الأجساد للاجساد

﴿ ثم دخلت سنة تسع وستين وستمائة ﴾

فى مستهل صفر منها ركب السلطان من الديار المصرية فى طائفة من العسكر إلى عسقلان فهدم ما بقى من سورها مما كان أهمل فى الدولة الصلاحية ، ووجدفيا هدم كوزين فيهما ألفا دينار ففرقهما عـلى الأمراء . وجاءته البشارة وهو هنالك بأن منكوتمر كسر جيش أبغا ففرح بذلك ، ثم عاد إلى القاهرة . وفى ربيع الأول بلغ السلطان أن أهل عكا ضربوا رقاب من فى أيديهـم من أسرى المسلمين صبرا بظاهر عكا ، فأمر بمن كان فى يده من أسرى أهل عكا فضربت رقابهم فى صبيحة واحدة ، وكانوا قريباً من مائتى أسير . وفيها كمل جامع المنشية [1] وأقيمت فيه الجمعة فى الثانى والعشرين من ربيع الآخر . وفيها جرت حروب يطول ذكرها بين أهل تونس والفرنج ، ثم تصالحوا بعد ذلك

(١) كذا فى المصرية . وفى التركية المزة .

على المدنة ووضع الحرب ، بعد ما قتل من الفريقين خلق لا يحصون .

وفى يوم الخميس ثامن رجب دخل الظاهر دمشق وفى صحبته ولده الملك السعيد وابن الحنا الوزير وجمهور الجيش ثم خرجوا متفرقين وتواعدوا أن يلتقوا بالساحل ليشنوا الغارة على جبلة واللاذقية ومرقب وعرقا وما هنالك من البلاد ، فلما اجتمعوا فتحوا صافينا والمجدل ، ثم ساروا فنزلوا على حصن الأكراد يوم الثلاثاء تاسع عشر رجب ، وله ثلاثة أسوار ، فنصبوا المنجنيقات ففتحها قسرا يوم نصف شعبان ، فدخل الجيش ، وكان الذى يحاصره ولد السلطان الملك السعيد ، فأطلق السلطان أهله ومنّ عليهم وأجلاهم إلى طرابلس ، وتسلم القلعة بعد عشرة أيام من الفتح ، فأجلى أهلها أيضاً وجعل كنيسة البلد جامعاً ، وأقام فيه الجمعة ، وولى فيها نائباً وقاضياً وأمر بعمارة البلد ، وبعث صاحب طرسوس بمفاتيح بلده يطلب منه الصلح على أن يكون نصف مغل بلاده للسلطان، وأن يكون له بها نائباً فأجابه إلى ذلك ، وكذلك فعل صاحب المرقب فصالحه أيضا على المناصفة ووضع الحرب عشر سنين . وبلغ السلطان وهو مخيم على حصن الأكراد أن صاحب جزيرة قبرص قد ركب بجيشه إلى عكا لينصر أهلها خوفاً من السلطان ، فأراد السلطان أن يغتنم هذه الفرصة فبعث جيشا كثيفا فى اثنى عشرة شينى ليأخذوا جزيرة قبرص فى غيبة صاحبها عنها ، فسارت المراكب مسرعة فلما قاربت المدينة جاءتها ريح قاصف فصدم بعضها بعضا فانكسر فيها أربعة عشر مركبا باذن الله فغرق خلق وأسر الفرنج من الصناع والرجال قريبا من ألف وثمانمائة إنسان ، فانا لله وإنا إليه راجعون . ثم سار السلطان فنصب المجانيق على حصن عكا فسأله أهلها الأمان على أن يخليهم فأجابهم إلى ذلك ، ودخل البلد يوم عيد الفطر فتسلمه ، وكان الحصن شديد الضرر على المسلمين ، وهو واد بين جبلين ، ثم سار السلطان نحو طرابلس فأرسل إليه صاحبها يقول : ما مراد السلطان فى هذه الأرض ؟ فقال جئت لأرعى زروعكم وأخرب بلادكم ، ثم أعود إلى حصاركم فى العام الآتى . فأرسل يستعطفه ويطلب منه المصالحة ووضع الحرب بينهم عشر سنين فأجابه إلى ذلك ، وأرسل إليه الاسماعيلية يستعطفونه على والدهم ، وكان مسجونا بالقاهرة ، فقال : سلموا إلى العليقة وانزلوا فخذوا إقطاعات بالقاهرة ، وتسلموا أباكم . فلما نزلوا أمر بحبسهم بالقاهرة واستناب بحصن العليقة .

وفى يوم الأحد الثانى عشر من شوال جاء سيل عظيم إلى دمشق فأتلف شيئا كثيرا ، وغرق بسببه ناس كثير ، لا سيما الحجاج من الروم الذين كانوا نزولا بين النهرين ، أخذهم السيل وجمالهم وأحمالهم ، فهلكوا وغلقت أبواب البلد ، ودخل الماء إلى البلد من مراقى السور ، ومن باب الفراديس فغرق خان ابن المقدم وأتلف شيئا كثيرا ، وكان ذلك فى زمن الصيف فى أيام المشمش ، ودخل السلطان إلى دمشق يوم الأربعاء خامس عشر شوال فعزل القاضى ابن خلكان ، وكان له فى القضاء

عشر سنين . وولى القاضى عز الدين بن الصائغ ، وخلع عليه ، وكان تقليده قد كتب بظاهر طرابلس بسفارة الوزير ابن الحنا ، فسار ابن خلكان فى ذى القعدة إلى مصر . وفى ثانى عشر شوال دخل حصن الكردى شيخ السلطان الملك الظاهر وأصحابه إلى كنيسة اليهود فصلوا فيها وأزالوا ما فيها من شعائر اليهود . ومدوا فيها سماطا وعملوا سماعا . وبقوا على ذلك أياماً ، ثم أعيدت إلى اليهود ، ثم خرج السلطان إلى السواحل فافتتح بعضها وأشرف على عكا وتأملها ثم سار إلى الديار المصرية ، وكان مقدار غرمه فى هذه المدة وفى الغزوات قريبا من ثمانمائة ألف دينار ، وأخلفها الله عليه ،وكان وصوله إلى القاهرة يوم الخميس ثالث عشر ذى الحجة . وفى اليوم السابع عشر من وصوله أمسك على جماعة من الأمراء منهم الحلبى وغيره بلغه أنهم أرادوا مسكه على الشقيف .

وفى اليوم السابع عشر من ذى الحجة أمر بإراقة الخمور من سائر بلاده وتهدد من يعصرها أو يعتصرها بالقتل ، وأسقط ضمان ذلك . وكان ذلك بالقاهرة وحدها كل يوم ضمانه ألف دينار ، ثم سارت البرد بذلك إلى الآفاق . وفيها قبض السلطان على العزيز بن المغيث صاحب الكرك ، وعلى جماعة من أصحابه كانوا عزموا على سلطنته .

وممن توفى فيها من الأعيان .

﴿ الملك تقى الدين عباس بن الملك العادل ﴾

أبى بكر بن أيوب بن شادى ، وهو آخر من بقى من أولاد العادل . وقد سمع الحديث من الكندى وابن الحرستانى ، وكان محترماً عند الملوك لا يرفع عليه أحد فى المجالس والمواكب . وكان لين الأخلاق حسن العشرة . لا تمل مجالسته . توفى يوم الجمعة الثانى والعشرين من جمادى الآخرة بدرب الريحان ، ودفن بتربته بسفح قاسيون .

﴿ قاضى القضاة شرف الدين أبو حفص ﴾

عمر بن عبد الله بن صالح بن عيسى السبكى المالكى ، ولد سنة خمس وثمانين وخمسمائة . وسمع الحديث وتفقه وأفتى بالصلاحية ، وولى حسبة القاهرة ثم ولى القضاء سنة ثلاث وستين ، لما ولوا من كل مذهب قاضيا . وقد امتنع أشد الامتناع ثم أجاب بعد إكراه بشرط أن لا يأخذ على القضاء جامكية ، وكان مشهوراً بالعلم والدين ، روى عنه القاضى بدر الدين ابن جماعة وغيره . توفى لخمس بقين من ذى القعدة .

﴿ الطواشى شجاع الدين مرشد المظفرى الحموى ﴾

كان شجاعا بطلا من الأبطال الشجعان ، وكان له رأى سديد . كان أستاذه لا يخالفه ، وكذلك الملك الظاهر ، توفى بحماه ودفن بتربته بالقرب من مدرسته بحماه .

﴿ ابن سبعين : عبد الحق بن إبراهيم بن محمد ﴾

ابن نصر بن محمد بن نصر بن محمد بن قطب الدين أبو محمد المقدسى الرقوطى ، نسبة إلى رقوطة بلدة قريبة من مرسية ، ولد سنة أربع عشرة وستمائة ، واشتغل بعلم الأوائل والفلسفة ، فتولد له من ذلك نوع من الالحاد ، وصنف فيه ، وكان يعرف السيميا ، وكان يلبس بذلك على الأغبياء من الأمراء والأغنياء ، ويزعم أنه حال من أحوال القوم ، وله من المصنفات كتاب البدو ، وكتاب الهو ، وقد أقام بمكة واستحوذ على عقل صاحبها ابن سمى ، وجاور فى بعض الأوقات بغار حراء يرتجى فيما ينقل عنه أن يأتيه فيه وحى كما أتى النبى ﷺ ، بناء على ما يعتقده من العقيدة الفاسدة من أن النبوة مكتسبة ، وأنها فيض يفيض على العقل إذا صفا ، فما حصل له إلا الخزى فى الدنيا والآخرة ، إن كان مات على ذلك ، وقد كان إذا رأى الطائفين حول البيت يقول عنهم: كأنهم الحمير حول المدار ، وأنهم لو طافوا به كان أفضل من طوافهم بالبيت ، فالله يحكم فيه وفى أمثاله .وقد نقلت عنه عظائم من الأقوال والأفعال ، توفى فى الثامن والعشرين من شوال بمكة .

﴿ ثم دخلت سنة سبعين وستمائة من الهجرة ﴾

استهلت وخليفة الوقت الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد العباسى ، وسلطان الاسلام الملك الظاهر . وفى يوم الأحد الرابع عشر من المحرم ركب السلطان إلى البحر لالتقاء الشوانى التى عملت عوضا عما غرق بجزيرة قبرص ، وهى أربعون شينيا ، فركب فى شينى منها ومعه الأمير بدر الدين ، فمالت بهم فسقط الخزندار فى البحر فغاص فى الماء فألقى إنسان نفسه وراءه فأخذ بشعره وأنقذه من الغرق ، فخلع السلطان على ذلك الرجل وأحسن إليه . وفى أواخر المحرم ركب السلطان فى نفر يسير من الخاصكية ، والأمراء من الديار المصرية حتى قدم الكرك ، واستصحب نائبها معه إلى دمشق ، فدخلها فى ثانى عشر صفر ، ومعه الأمير عز الدين أيدمر نائب الكرك ، فولاه نيابة دمشق وعزل عنها جمال الدين آقوش النجيبى فى رابع عشر صفر ، ثم خرج إلى حماة وعاد بعد عشرة أيام . وفى ربيع الأول وصلت الجفال من حلب وحماة وحمص إلى دمشق بسبب الخوف من التتار ، وجفل خلق كثير من أهل دمشق . وفى ربيع الآخر وصلت العساكر المصرية إلى حضرة السلطان إلى دمشق فسار بهم منها فى سابع الشهر ، فاجتاز بحماة واستصحب ملكها المنصور ، ثم سار إلى حلب فخيم بالميدان الأخضر بها ، وكان سبب ذلك أن عساكر الروم جمعوا نحوا من عشرة آلاف فارس و بعثوا طائفة منهم فأغاروا على عين تاب ، ووصلوا إلى نسطون ووقعوا على طائفة من التركمان بين حارم وإنطاكية فاستأصلوهم فلما سمع التتار بوصول السلطان ومعه العساكر المنصورة ارتدوا على أعقابهم راجعين ، وكان بلغه أن الفرنج أغاروا على بلاد قاقون [1] ونهبوا طائفة من التركمان ، فقبض على الامراء الذين هناك حيث لم يهتموا بحفظ البلاد وعادوا إلى الديار المصرية .

(١) حصن بفلسطين ، قرب الرملة .

وفى ثالث شعبان أمسك السلطان قاضى الحنابلة بمصر شمس الدين أحمد بن العماد المقدسى ، وأخذ ما عنده من الودائع فأخذ زكاتها ورد بعضها إلى أربابها ، واعتقله إلى شعبان من سنة ثنتين وسبعين ، وكان الذى وشى به رجل من أهل حران يقال له شبيب ، ثم تبين للسلطان نزاهة القاضى وبراءته فأعاده إلى منصبه فى سنة ثنتين وسبعين ، وجاء السلطان فى شعبان إلى أراضى عكا فأغار عليها فسأله صاحبها المهادنة فأجابه إلى ذلك فهادنه عشرة سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشرة ساعات ، وعاد إلى دمشق فقرئ بدارالسعادة كتاب الصلح ، واستمر الحال على ذلك ثم عادالسلطان إلى بلاد الاسماعيلية فأخذ عامتها . قال قطب الدين : وفى جمادى الآخرة ولدت زرافة بقلعة الجبل، وأرضعت من بقرة . قال وهذا شىء لم يعهد مثله .

وفيها توفى { الشيخ كمال الدين }

سلار بن حسن بن عمر بن سعيد الأربلى الشافعى ، أحد مشايخ المذهب ، وقد اشتغل عليه الشيخ محيى الدين النووى ،وقد اختصر البحر للرويانى فى مجلدات عديدة هى عندى بخط يده وكانت الفتيا تدور عليه بدمشق ، توفى فى عشر السبعين ، ودفن بباب الصغير ، وكان مفيدا بالبادرائية من أيام الواقف ، لم يطلب زيادة على ذلك إلى أن توفى فى هذه السنة .

{ وجيه الدين محمد بن على بن أبى طالب }

ابن سويد التكريتى التاجر الكبير بين التجار بن سويد ذو الأموال الكثيرة ، وكان معظماً عند الدولة ، ولا سيما عند الملك الظاهر ، كان يجله ويكرمه لأنه كان قد أسدى إليه جميلا فى حال إمرته قبل أن يلى السلطنة ، ودفن برباطه وتربته بالقرب من الرباط الناصرى بقاسيون ، وكانت كتب الخليفة ترد إليه فى كل وقت ، وكانت مكاتباته مقبولة عند جميع الملوك ، حتى ملوك الفرنج فى السواحل . وفى أيام التتار فى أيام هولاكو ، وكان كثير الصدقات والبر .

{ نجم الدين يحيى بن محمد بن عبد الواحد بن اللبودى }

واقف اللبودية التى عند حمام الفلك المبرز على الأطباء ، ولديه فضيلة بمعرفة الطب ، وقد ولى نظر الدواوين بدمشق ، ودفن بتربته عند اللبودية .

{ الشيخ على البكاء }

صاحب الزاوية بالقرب من بلد الخليل عليه السلام ، كان مشهوراً بالصلاح والعبادة والاطعام لمن اجتاز به من المارة والزوار ، وكان الملك المنصور قلاوون يثنى عليه ويقول : اجتمعت به وهو أمير وأنه كاشفه فى أشياء وقعت جميعها ، ومن جملتها أنه سيملك . نقل ذلك قطب الدين اليونينى ، وذكر أن سبب بكائه الكثير أنه صحب رجلا كانت له أحوال وكرامات ، وأنه خرج معه من بغداد

فانتهوا فى ساعة واحدة إلى بلدة بينها و بين بغدادمسيرة سنة ، وأن ذلك الرجل قال له إنى سأموت فى الوقت الفلانى ، فأشهدنى فى ذلك الوقت فى البلد الفلانى . قال : فلما كان ذلك الوقت حضرت عنده وهو فى السياق ، وقد استدار إلى جهة الشرق فحولته إلى القبلة فاستدار إلى الشرق فحولته أيضاً ففتح عينيه وقال : لا تتعب فانى لا أموت إلا على هذه الجهة ، وجعل يتكلم بكلام الرهبان حتى مات فحملناه فجئنا به إلى دير هناك فوجدناهم فى حزن عظيم ، فقلنا لهم : ما شأنكم ؟ فقالوا كان عندنا شيخ كبير ابن مائة سنة ، فلما كان اليوم مات على الاسلام ، فقلنا لهم: خذوا هذا بدله وسلمونا صاحبنا ، قال فوليناه فغسلناه وكفناه وصلينا عليه ودفناه مع المسلمين ، وولواهم ذلك الرجل فدفنوه فى مقبرة النصارى ، نسأل الله حسن الخاتمة . مات الشيخ على فى رجب من هذه السنة .

﴿ ثم دخلت سنة إحدى وسبعين وستمائة ﴾

فى خامس المحرم وصل الظاهر دمشق من بلاد السواحل التى فتحها وقد مهدها ، وركب فى أواخر المحرم إلى القاهرة فأقام بها سنة ثم عاد فدخل دمشق فى رابع صفر ، وفى المحرم منها وصل صاحب النوبة إلى عيذاب فنهب تجارها وقتل خلقا من أهلها ، منهم الوالى والقاضى ، فسار إليه الأمير علاء الدين أيد غدى الخزندار فقتل خلقا من بلاده ونهب وحرق وهدم ودوخ البلاد ، وأخذ بالثأر ولله الحمد والمنة .

وفى ربيع الأول توفى الأمير سيف الدين محمد بن مظفر الدين عثمان بن ناصر الدين منكورس صاحب صهيون ، ودفن فى تربة والده فى عشر السبعين ، وكان له فى ملك صهيون وبرزيه إحدى عشرة سنة ، وتسلمها بعده ولده سابق الدين، وأرسل إلى الملك الظاهر يستأذنه فى الحضور فأذن له ، فلما حضر أقطعه خبزا وبعث إلى البلدين نوابا من جهته .

وفى خامس جمادى الآخرة وصل السلطان بعسكره إلى الفرات لانه بلغه أن طائفة من التتار هنالك فخاض إليهم الفرات بنفسه وجنده ، وقتل من أولئك مقتلة كبيرة وخلقا كثيرا ، وكان أول من اقتحم الفرات يومئذ الأمير سيف الدين قلاوون وبدر الدين بيسرى وتبعهما السلطان ، ثم فعل بالتتار ما فعل ، ثم ساق إلى ناحية البيرة وقد كانت محاصرة بطائفة من التتار أخرى ، فلما سمعوا بقدومه هربوا وتركوا أموالهم وأثقالهم ، ودخل السلطان إلى البيرة فى أبهة عظيمة وفرق فى أهلها أموالا كثيرة ، ثم عاد إلى دمشق فى ثالث جمادى الآخرة ومعه الأسرى . وخرج منها فى سابعه إلى الديار المصرية ، وخرج ولده الملك السعيد لتلقيه ودخلا إلى القاهرة ، وكان يوماً مشهوداً . ومما قاله القاضى شهاب الدين محمود الكاتب ، وأولاده يقال لهم بنو الشهاب محمود ، فى خوض السلطان الفرات بالجيش :

سر حيث شئت لك المهيمن جار ، واحكم فطوع مرادك الأقدار

لم يبق للدين الذى أظهرته * ياركنه عند الأعادى ثار
لما تراقصت الرؤس تحركت * من مطربات قسيك الأوتار
خضت الفرات بعسكر أفضى به * موج الفرات كما أتى الآثار
حملتك أمواج الفرات ومن رأى * بحراً سواك تقله الأنهار
وتقطعت فرقا ولم يك طودها * إذ ذاك إلا جيشك الجرار

وقال بعض من شاهد ذلك :

ولما تراءينا الفرات بخيلنا * سكرناه منا بالقنا والصوارم
وجلنا فاوقف التيار عن جريانه * إلى حين عدنا بالغنى والغنائم

وقال آخر ولا بأس به :

الملك الظاهر سلطاننا * نفديه بالأموال والأهل
اقتحم الماء ليطفى به * حرارة القلب من المغل

وفى يوم الثلاثاء ثالث رجب خلع على جميع الأمراء من حاشيته ومقدمى الحلقة وأرباب الدولة وأعطى كل إنسان ما يليق به من الخيل والذهب والحوايص ، وكان مبلغ ما أنفق بذلك نحو ثلثمائة ألف دينار . وفى شعبان أرسل السلطان إلى منكوتمر هدايا عظيمة ، وفى يوم الاثنين ثانى عشر شوال استدعى السلطان شيخه الشيخ خضر الكردى إلى بين يديه إلى القلعة وحوقق على أشياء كثيرة ارتكبها ، فأمر السلطان عند ذلك باعتقاله وحبسه ، ثم أمر باغتياله وكان آخر العهد به . وفى ذى القعدة سلمت الاسماعيلية ما كان بقى بأيديهم من الحصون وهى الكهف والقدموس والمنطقة ، وعوضوا عن ذلك باقطاعات ، ولم يبق بالشام شىء لهم من القلاع ، واستناب السلطان فيها . وفيها أمر السلطان بعمارة جسورة فى السواحل ، وغرم عليها مالا كثيراً ، وحصل للناس بذلك رفق كبير .

وممن توفى فيها من الأعيان ﴿ الشيخ تاج الدين أبو المظفر محمد بن أحمد ﴾

ابن حمزة بن على بن هبة الله بن الحوى ، التغلبى الدمشقى ، كان من أعيان أهل دمشق ، و ولى نظر الأيتام والحسبة ، ثم وكالة بيت المال ، وسمع الكثير وخرج له ابن بليان مشيخة قرأها عليه الشيخ شرف الدين الفزارى بالجامع ، فسمعها جماعة من الأعيان والفضلاء رحمه الله .

﴿ الخطيب فخر الدين أبو محمد ﴾

عبد القاهر بن عبد الغنى بن محمد بن أبى القاسم بن محمد بن تيمية الحرانى الخطيب بها ، و بيته معروف بالعلم والخطابة والرياسة ، ودفن بمقبرة الصوفية وقد قارب الستين رحمه الله . وقد سمع الحديث من جده فخر الدين صاحب ديوان الخطب المشهورة ، توفى بخانقاه القصر ظاهر دمشق .

﴿ الشيخ خضر بن أبى بكر المهرانى العدوى ﴾

شيخ الملك الظاهر بيبرس ، كان حظيا عنده مكرما لديه ، له عنده المكانة الرفيعة ، كان السلطان ينزل بنفسه إلى زاويته التى بناها له فى الحسينيـة ، فى كل أسبوع مرة أو مرتين ، و بنى له عندها جامعاً يخطب فيه للجمعة ، وكان يعطيـه مالا كثيرا ، و يطلق له ما أراد ، ووقف على زاويته شيئا كثيرا جدا ، وكان معظما عند الخاص والعـام بسبب حب السلطان وتعظيمه له ، وكان يمازحه إذا جلس عنده ، وكان فيه خير ودين وصلاح ، وقد كاشف السلطان بأشياء كثيرة ، وقد دخل مرة كنيسة القمامة بالمقدس فذبح قسيسها بيده ، ووهب مافيها لأصحابه ، وكذلك فعل بالكنيسة التى بالاسكندرية وهى من أعظم كنائسهم ، نهبها وحولها مسجداً ومدرسة أنفق عليها أموالا كثيرة من بيت المال ، وسماها المدرسة الخضراء ، وكذلك فعل بكنيسة اليهود بدمشق ، دخلها ونهب ما فيها من الآلات والأمتعة ، ومد فيها سماطا ، واتخذها مسجـدا مدة ثم سعوا إليه فى ردها إليهم و إبقائها عليهم ، ثم اتفق فى هـذه السنة أنه وقعت منه أشياء أنكرت عليه وحوقق عليها عنـد السلطان الملك الظاهر فظهر له منه ما أوجب سجنه ، ثم أمر باعدامه وهلاكه (١) وكانت وفاته فى هذه السنة ، ودفن بزاويته سامحه الله ، وقـد كان السلطان يحبه محبة عظيمة حتى إنه سمى بعض أولاده خضرا موافقـة لاسمه ، و إليه تنسب القبة التى على الجبل غربى الربوة التى يقال لها قبة الشيخ خضر .

﴿ مصنف التعجيز ﴾

العلامة تاج الدين عبد الرحيم بن محمد بن يونس بن محمد بن سعد بن مالك أبو القاسم الموصلى ، من بيت الفقه والرياسة والتدريس ، ولد سنة ثمان وتسعين وخمسمائة ، وسمع واشتغل وحصل وصنف واختصر الوجيز من كتابه التعجيز ، واختصر المحصول ، وله طريقة فى الخلاف أخذها عن ركن الدين الطاوسى ، وكان جده عماد الدين بن يونس شيخ المذهب فى وقته كما تقدم .

﴿ ثم دخلت سنة اثنتين وسبعين وستمائة ﴾

فى صفر منها قدم الظاهر إلى دمشق وقد بلغـه أن أبغا وصل إلى بغداد فتصيد بتلك الناحية ، فأرسل إلى العساكر المصرية أن يتأهبوا للحضور ، واسـتمد السلطان لذلك . وفى جمادى الآخرة أحضر ملك الكرخ لبين يديه بدمشق ، وكان قد جاء متنكرا لزيارة بيت المقدس فظهر عليه فحمل إلى بين يديه فسجنه بالقلعة . وفيها كمل بناء جامع دير الطين ظاهر القاهرة ، وصلى فيه الجمعة . وفيها سار السلطان إلى القاهرة فدخلها فى سابع رجب . وفى أواخر رمضان دخل الملك السعيد ابن الظاهر إلى دمشق فى طائفة من الجيش ، فأقام بها شهرا ثم عاد . وفى يوم عيد الفطر ختن السلطان ولده خضراً

(١) فى شذرات الذهب : أنه حبسه فى القلعة وأجرى عليه المآكل المفتخرة حتى مات فى محرم سنة ٦٧٦ وكذلك فى النجوم الزاهرة . وفيها أن حبسه كان فى شوال سنة ٦٧١

الذى سماه باسم شيخه ، وختن معه جماعـة من أولاد الأمراء ، وكان وقتـا هائلا . وفيها فوض ملك التتار إلى علاء الدين صاحب الديوان ببغداد النظر فى تسـتر وأعمالها ، فسار إليها ليتصفح أحوالها فوجد بها شابا من أولاد التجار يقال له «لى» قد قرأ القرآن وشيئا من الفقه والاشارات لابن سينا ، ونظر فى النجوم ، ثم ادعى أنه عيسى ابن مريم ، وصـدقه على ذلك جماعة من جهلة تلك الناحية ، وقد أسقط لهم من الفرائض صلاة العصر وعشاء الآخرة ، فاستحضره وسأله عن ذلك فرآه ذكيا ، إنما يفعل ذلك عن قصد ، فأمر به فقتل بين يديه جزاه الله خيراً ، وأمر العوام فنهبوا أمتعته وأمتعة العوام ممن كان اتبعه . وممن توفى فيها من الأعيان .

﴿ مؤيد الدين أبو المعالى الصدر الرئيس ﴾

أسعد بن غالب المظفرى ابن الوزير مؤيد الدين أسعد بن حمزة بن أسعد بن على بن محمد التميمى ابن القلانسى ، جاوز التسعين وكان رئيساً كبيرا واسع النعمة ، لا يغفل أن يباشر شيئا من الوظائف وقد ألزموه بعـد ابن سويد بمباشرة مصالح السلطان فباشرها بلا جامكيـة ، وكانت وفاته ببستانه ودفن بسفح قاسيون يوم الثلاثاء ثالث عشر المحرم . والد الصدر عز الدين حمزة رئيس البلدين دمشق والقاهرة ، وجدهم مؤيد الدين أسعد بن حمزة الكبير كان وزيراً للملك الأفضل على بن الناصر فاتح القدس ، كان رئيساً فاضلا له كتاب الوصية فى الأخلاق المرضية وغير ذلك ، وكانت له يد جيدة فى النظم ، فمن ذلك قوله :

يا رب جدلى إذا ما ضمنى جدثى * برحمة منك تنجينى من النار
أحسن جوارى إذا أمسيت جارك فى * لحدى فانك قد أوصيت بالجار

وأما والد حمزة بن أسعد بن على بن محمد التميمى فهو العميد ، وكان يكتب جيدا وصنف تاريخا فيما بعد سنة أربعين وأربعمائة إلى سنة وفاته فى خمس وخمسمائة .

﴿ الأمير الكبير فارس الدين أقطاى ﴾

المستعربى أتابك الديار المصرية ، كان أولا مملوكا لابن يمن ، ثم صار مملوكا للصالح أيوب فأمره ، ثم عظم شأنه فى دولة المظفر وصار أتابك العساكر ، فلما قتل امتدت أطماع الأمراء إلى المملكة فبايع أقطاى الملك الظاهر فتبعه الجيش على ذلك ، وكان الظاهر يعرفها له ولا ينساها ، ثم قبل وفاته بقليل انهضم عند الظاهر ، ومات فى هذه السنة بالقاهرة .

﴿ الشيخ عبد الله بن غانم ﴾

ابن على بن إبراهيم بن عساكر بن الحسـين المقدسى ، له زاوية بنابلس ، وله أشعار رائقة وكلام قوى فى علم التصوف ، وقد طول اليونينى ترجمته وأورد من أشعاره شيئا كثيرا .

﴿ قاضى القضاة كمال الدين ﴾

أبو الفتح عمر بن بندار بن عمر بن على التفليسى الشافعى ، ولد بتفليس سنة إحدى وستمائة ، وكان فاضلا أصولياً مناظرا ، ولى نيابة الحكم مدة ثم استقل بالقضاء فى دولة هلاوون ـ هولاكو ـ وكان عفيفانزهاً لم يرد منصبا ولا تدريسا مع كثرة عياله وقلة ماله ، ولما انقضت أيامهم تغضب عليه بعض الناس ثم ألزم بالمسير إلى القاهرة ، فأقام بها يفيد الناس إلى أن توفى فى ربيع الأول من هذه السنة ، ودفن بالقرافة الصغرى .

﴿ إسماعيل بن إبراهيم بن شاكر بن عبد الله ﴾

التنوخى ، وتنوخ من قضاعة ، كان صدرا كبيرا ، وكتب الانشاء للناصر داود بن المعظم ، وتولى نظر المارستان النورى وغيره ، وكان مشكور السيرة ، وقد أثنى عليه غير واحد ، وقد جاوز الثمانين ، ومن شعره قوله :

خاب رجاء امرئ له أمل ٭ بغير رب السماء قد وصله
أيبتغى غيره أخو ثقة ٭ وهو ببطن الأحشاء قد كفله

وله أيضا : خرس اللسان وكل عن ٭ أوصافكم ماذا يقول وأنتم ما أنتم
الأمر أعظم من مقالة قائل ٭ قد تاه عقل أن يعبر عنكم
العجز والتقصير وصفى دائما ٭ والبر والاحسان يعرف منكم

﴿ ابن مالك صاحب الألفية ﴾

الشيخ جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك أبو عبد الله الطائى الحيانى النحوى ، صاحب التصانيف المشهورة المفيدة ، منها الكافية الشافية وشرحها ، والتسهيل وشرحه ، والألفية التى شرحها ولده بدر الدين شرحا مفيداً . ولد بجيان سنة ستمائة وأقام بحلب مدة ، ثم بدمشق. وكان كثير الاجتماع بابن خلكان وأثنى عليه غير واحد ، وروى عنه القاضى بدر الدين بن جماعة ، وأجاز لشيخنا علم الدين البرزالى . توفى ابن مالك بدمشق ليلة الأربعاء ثانى عشر رمضان ، ودفن بتربة القاضى عز الدين بن الصائغ بقاسيون .

﴿ النصير الطوسى ﴾

محمد بن عبد الله الطوسى ، كان يقال له المولى نصير الدين ، ويقال الخواجا نصير الدين ، اشتغل فى شبيبته وحصل علم الأوائل جيدا ، وصنف فى ذلك فى علم الكلام ، وشرح الاشارات لابن سينا ، ووزر لأصحاب قلاع الألموت من الاسماعيلية ، ثم وزر لهولاكو ، وكان معه فى واقعة بغداد ، ومن الناس من يزعم أنه أشار على هولاكوخان بقتل الخليفة فالله أعلم ، وعندى أن هذا لا يصدر

من عاقل ولا فاضل . وقد ذكره بعض البغاددة فأثنى عليه ، وقال : كان عاقلا فاضلا كريم الأخلاق ودفن فى مشهد موسى بن جعفر فى سرداب كان قد أعـد للخليفة الناصر لدين الله ، وهو الذى كان قد بنى الرصد بمراغة ، ورتب فيه الحكماء من الفلاسفة والمتكلمين والفقهاء والمحدثين والأطباء وغيرهم من أنواع الفضلاء ، و بنى له فيه قبة عظيمة ، وجعل فيه كتبا كثيرة جدا ، توفى فى بغداد فى ثانى عشر ذى الحجة من هذه السنة ، وله خمس وسبعون سنة ، وله شعر جيد قوى وأصل اشتغاله على المعين سالم بن بدار بن على المصرى المعتزلى المتشيع ، فنزع فيه عروق كثيرة منه ، حتى أفسد اعتقاده .

﴿ الشيخ سالم البرقى ﴾

صاحب الرباط بالقرافة الصغرى ، كان صالحا متعبداً يقصد للزيارة والتبرك بدعائه ، وله اليوم أصحاب معروفون على طريقه .

﴿ ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وستمائة ﴾

فيها اطلع السلطان على ثلاثة عشر أميراً منهـم قجقار الحموى ، وقد كانوا كاتبوا التتر يدعونهم إلى بلاد المسلمين ، وأنهم معهم على السلطان ، فأخذوا فأقروا بذلك ، وجاءت كتبهم مع البريدية وكان آخر العهد بهم . وفيها أقبل السلطان بالعساكر فدخل بلاد سيس يوم الاثنين الحادى والعشرين من رمضان ، فقتلوا خلقا لا يعلمهـم إلا الله وغنموا شيـئا كثيرا من الأبقار والأغنـام والأثقال والدواب والأنعام ، فبيع ذلك بأرخص ثمن ، ثم عاد فدخل دمشق مؤيداً منصورا فى شهر ذى الحجة فأقام بها حتى دخلت السـنة . وفيها ثار على أهل الموصل رمـل حتى عم الأفق وخرجوا من دورهم يبتهلون إلى الله حتى كشف ذلك عنهم ، والله تعالى أعلم .

وممن توفى فيها من الأعيان

﴿ ابن عطاء الحنفى ﴾

قاضى القضاة شمس الدين أبو محمد عبد الله بن الشيخ شرف الدين محمد بن عطاء بن حسن بن عطاء بن جبير بن جابر بن وهيب الأذرعى الحنفى ، ولد سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، سمع الحديث وتفقه على مذهب أبى حنيفة ، وناب فى الحكم عن الشافعى مدة ، ثم استقل بقضاء الحنفية أول ما ولى القضاة من المذاهب الأربعة ، ولما وقعت الحوطة على أملاك الناس أراد السلطان منه أن يحكم بها بمقتضى مذهبه ، فغضب من ذلك فقال : هذه أملاك بيد أصحابها ، وما يحل لمسلم أن يتعرض لها ثم نهض من المجلس فذهب ، فغضب السلطان من ذلك غضباً شديدا ، ثم سكن غضبه فكان يثنى عليه بعد ذلك و يمدحه ، و يقول : لا تثبتوا كتباً إلا عنه . كان ابن عطاء من العلماء الأخيار كثير التواضع قليل الرغبة فى الدنيا ، روى عنه ابن جماعة وأجاز للبرزالى . توفى يوم الجمعة تاسع جمادى الأولى ، ودفن بالقرب من المعظمية بسفح قاسيون رحمه الله تعالى .

﴿ بيمند بن بيمند بن بيمند ﴾

ابرنس طرابلس الفرنجى ، كان جده نائبا لبنت صيحل الذى تملك طرابلس من ابن عمار فى حدود الخمسمائة ، وكانت يتيمة تسكن بعض جزائر البحر ، فتغلب هـذا على البلد لبعدها عنه ، ثم استقل بها ولده ثم حفيده هذا ، وكان شكلا مليحا . قال قطب الدين اليونينى : رأيته فى بعلبك فى سنة ثمان وخمسين وستمائة حين جاء مسلما على كتبغانوين ، ورام أن يطلب منـه بعلبك ، فشق ذلك عـلى المسلمين . ولما توفى دفن فى كنيسة طرابلس ، ولما فتحها المسلمون فى سـنة ثمان وثمانين وستمائة نبش الناس قبره وأخرجوه منه وألقوا عظامه على المزابل للكلاب .

﴿ ثم دخلت سنة أربع وسبعين وستمائة ﴾

لما كان يوم الخميس ثامن جمادى الأولى نزل التتار على البيرة فى ثلاثين ألف مقاتل ، خمسة عشر ألفا من المغول ، وخمسة عشر ألفا من الروم ، والمقدم على الجميع البرواناه بأمر أبغا ملك التتار ومعهم جيش الموصل وجيش ماردين والأكراد ، ونصبوا عليهـا ثلاثة وعشرين منجنيقا ، فخرج أهل البيرة فى الليـل فكبسوا عسكر التتار وأحرقوا المنجنيقات ونهبوا شـيئا كثيرا ، ورجعوا إلى بيوتهم سالمين ، فأقام عليها الجيش مـدة إلى تاسع عشر الشهر المـذكور ، ثم رجعوا عنها بغيظهم لم ينالوا خـيرا وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قويا عزيزا . ولمـا بلغ السلطان نزول التتار على البيرة أنفق فى الجيش ستمائة ألف دينار ، ثم ركب سريعاً وفى صحبته ولده السعيد ، فلما كان فى أثناء الطريق بلغه رحيـل التتار عنها فعاد إلى دمشـق ، ثم ركب فى رجب إلى القاهرة فدخلها فى ثامن عشر فوجـد بها خمسة وعشرين رسولا من جهـة ملوك الأرض ينتظرونه فتلقوه وحـدثوه وقبلوا الأرض بين يديه ودخل القلعـة فى أبهة عظيمـة . ولما عاد البرواناه إلى بلاد الروم حلف الأمراء الكبار منهـم شرف الدين مسعود وضـياء الدين محمود ابنا الخطيرى ، وأمـين الدين ميكائيل ، وحسام الدين ميجار ، وولده بهاء الدين ، على أن يكونوا من جهة السلطان الملك الظاهر وينابذوا أبغا ، فحلفوا له على ذلك ، وكتب إلى الظاهر بذلك ، وأن يرسل إليه جيشاً ويحمل له ما كان يحمله الى التتار ، ويكون غياث الدين كنجرى على ما هو عليه ، يجلس على تخت مملكة الروم .

وفى هذه السنة استسقى أهل بغداد ثلاثة أيام فلم يسقوا . وفيها فى رمضان منها وجد رجل وامرأة فى نهار رمضان على فاحشة الزنا ، فأمر علاء الدين صاحب الديوان برجمهما فرجما ، ولم يرجم ببغـداد قبلهما قط أحـد منذ بنيت . وهذا غريب جداً . وفيها اسـتسقى أهل دمشق أيضا مرتين . فى أواخر رجب وأوائل شـعبان ـ وكان ذلك فى آخر كانون الثانى ـ فلم يسقوا أيضا . وفيها أرسـل السلطان جيشا إلى دنقلة فكسر جيش السودان وقتلوا منهم خلقا وأسروا شيئا كثيرا من السودان

بحيث بيع الرقيق الرأس منها بثلاثة دراهم ، ورهب ملكهم داوداه إلى صاحب النوبة فأرسله إلى الملك الظاهر محتاطا عليه ، وقرر الملك الظاهر على أهل دنقلة جزية تحمل إليه فى كل سنة . كل ذلك كان فى شعبان من هذه السنة .

وفيها عقد عقد الملك السعيد بن الظاهر على بنت الأمير سيف الدين قلاوون الألفى ، فى الايوان بحضرة السلطان والدولة على صداق خمسة آلاف دينار ، تعجل منها ألفا دينار ، وكان الذى كتبه وقرأه محيي الدين بن عبد الظاهر ، فأعطى مائة دينار ، وخلع عليه . ثم ركب السلطان مسرعا فوصل إلى حصن الكرك فجمع القيمرية الذين به فاذا هم ستمائة نفر ، فأمر بشنقهم فشفع فيهم عنده فأطلقهم وأجلاهم منه إلى مصر ، وكان قد بلغه عنهم أنهم يريدون قتل من فيه ويقيموا ملكا عليهم ، وسلم الحصن إلى الطواشى شمس الدين رضوان السهيلى ، ثم عاد فى بقية الشهر إلى دمشق فدخلها يوم الجمعة ثامن عشر الشهر . وفيها كانت زلزلة بأخلاط واتصلت ببلاد بكر .

ومن توفى فيها من الأعيان ﴿ الشيخ الامام العلامة ﴾

الأديب تاج الدين أبو الثناء محمود بن عابد بن الحسين بن محمد بن على التميمى الصرخدى الحنفى ، كان مشهورا بالفقه والأدب ، والعفة والصلاح ، ونزاهة النفس ومكارم الأخلاق . ولد سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ، وسمع الحديث وروى ، ودفن بمقابر الصوفية فى ربيع الآخر منها ، وله ست وتسعون سنة رحمه الله .

﴿ الشيخ الامام عماد الدين عبدالعزيز بن محمد ﴾

ابن عبد القادر بن عبد الله بن خليل بن مقلد الأنصارى الدمشقى ، المعروف بابن الصائغ ، كان مدرساً بالعذراوية وشاهداً بالخزانة بالقلعة يعرف الحساب جيداً ، وله سماع ورواية ، ودفن بقاسيون

﴿ ابن الساعى المؤرخ ﴾

تاج الدين بن المحتسب المعروف بابن الساعى البغدادى ، ولد سنة ثلاث وتسعين وسمع الحديث واعتنى بالتاريخ ، وجمع وصنف ، ولم يكن بالحافظ ولا الضابط المتقن . وقد أوصى إليه ابن النجار حين توفى ، وله تاريخ كبير عندى أكثره ، ومصنفات أخر مفيدة ، وآخر ما صنف كتاب فى الزهاد ، كتب فى حاشيته زكى الدين عبد الله بن حبيب الكاتب :

ما زال تاج الدين طول المدى * من عمره يعتق فى السير
فى طلب العلم وتدوينه * وفعله نفع بلا ضير
علا علىّ بتصانيفه * وهذه خاتمة الخير

﴿ ثم دخلت سنة خمس وسبعين وستمائة ﴾

فى ثالث عشر المحرم منها دخل السلطان إلى دمشق وسبق العساكر إلى بلاد حلب ، فلما توافت إليه أرسل بين يديه الأمير بدر الدين الاتابكى بألف فارس إلى البلستين ، فصادف بها جماعة من عسكر الروم فركبوا إليه وحملوا إليه الاقامات ، وطلب جماعة منهم أن يدخلوا بلاد الاسلام فأذن لهم ، فدخل طائفة منهم بيجار وابن الخطير ، فرسم لهم أن يدخلوا القاهرة فتلقاهم الملك السعيد ، ثم عاد السلطان من حلب إلى القاهرة فدخلها فى ثانى عشر ربيع الآخر .

وفى خامس جمادى الأولى عمل السلطان عرس ولده الملك السعيد على بنت قلاوون ، واحتفل السلطان به احتفالا عظيما ، وركب الجيش فى الميدان خمسة أيام يلعبون ويتطاردون ، ويحمل بعضهم على بعض ، ثم خلع على الأمراء وأرباب المناصب ، وكان مبلغ ما خلع ألف وثلثمائة خلعة بمصر ، وجاءت مراسيمه إلى الشام بالخلع على أهلها ، ومد السلطان سماطا عظيما حضره الخاص والعام ، والشارد والوارد ، وحبس فيه رسل التتار ورسل الفرنج وعليهم كلهم الخلع الهائلة ، وكان وقتا مشهوداً ، وحمل صاحب حماه هدايا عظيمة وركب إلى مصر للتهنئة . وفى حادى عشر شوال طيف بالمحمل وبكسوة الكعبة المشرفة بالقاهرة ، وكان يوما مشهودا .

﴿ وقعة البلستين وفتح قيسارية ﴾

ركب السلطان من مصر فى العساكر فدخل دمشق فى سابع عشر شوال ، فأقام بها ثلاثة أيام ، ثم سار حتى دخل حلب فى مستهل ذى القعدة ، فأقام بها يوما ورسم لنائب حلب أن يقيم بعسكر حلب على الفرات لحفظ المناخر ، وسار السلطان فقطع الدربند فى نصف يوم ، ووقع سنقر الأشقر فى أثناء الطريق بثلاثة آلاف من المغول فهزمهم يوم الخميس تاسع ذى القعدة وصعد العسكر على الجبال فأشرفوا على وطأة البلستين فرأوا التتار قد رتبوا عسكرهم وكانوا أحد عشر ألف مقاتل ، وعزلوا عنهم عسكر الروم خوفا من مخامرتهم ، فلما ترائى الجمعان حملت ميسرة التتار فصدمت سناجق السلطان ، ودخلت طائفة منهم بينهم فشقوها ، وساقت إلى الميمنة ، فلما رأى السلطان ذلك أردف المسلمين بنفسه ومن معه ، ثم لاحت منه التفاتة فرأى الميسرة قد كادت أن تتحطم فأمر جماعة من الأمراء بإردافها ، ثم حمل العسكر جميعه حملة واحدة على التتار فترجلوا إلى الأرض عن آخرهم ، وقاتلوا المسلمين قتالا شديداً ، وصبر المسلمون صبرا عظيما ، فأنزل الله نصره على المسلمين ، فأحاطت بالتتار العساكر من كل جانب ، وقتلوا منهم خلقا كثيرا ، وقتل من المسلمين أيضا جماعة ، وكان فى جملة من قتل من سادات المسلمين الأمير الكبير ضياء الدين ابن الخطير ، وسيف الدين قيماز ، وسيف الدين بنجو الجاشنكير ، وعز الدين أيبك الشقفى ، وأسر جماعة من أمراء المغول ، ومن أمراء

ومن أمراء الروم . وهرب الرواناه فنجا بنفسه ، ودخل قيسارية فى بكرة الأحد ثانى عشر ذى القعدة ، وأعلم أمراء الروم ملكهم بكسرة التتار على البلستين ، وأشار عليهم بالهزيمة فانهزموا منها وأخلوها ، فدخلها الملك الظاهر وصلى بها الجمعة سابع ذى القعدة . وخطب له بها ، ثم كر راجعا مؤيدا منصوراً . وسارت البشائر إلى البلدان ففرح المؤمنون يومئذ بنصر الله . ولما بلغ خبرهذه الوقعة أبغا جاء حتى وقف بنفسه وجيشه ، وشاهد مكان المعركة ومن فيها من قتلى المغول . فغاظه ذلك وأعظمه وحنق على الرواناه إذ لم يعلمه بجلية الحال ، وكان يظن أمر الملك الظاهر دون هذا كله ، واشتد غضبه على أهل قيسارية وأهل تلك الناحية . فقتل منهم قريبا من مائتى ألف ، وقيل قتل منهم خمسمائة ألف من قيسارية وأرزن الروم . وكان فى جملة من قتل القاضى جلال الدين حبيب . فانا لله و إنا إليه راجعون .

وممن توفى فيها من الأعيان .

﴿ الشيخ أبو الفضل ابن الشيخ عبيد بن عبد الخالق الدمشقى ﴾

ودفن بالقرب من الشيخ أرسلان . قال الشيخ علم الدين : وكان يذكر أن مولده كان سنة أربع وستين وخمسمائة

﴿ الطواشى يمن الحبشى ﴾

شيخ الخدم بالحرم الشريف ، كان دينا عاقلا عدلا صادق اللهجة . مات فى عشر السبعين رحمه الله

[﴿ الشيخ المحدث شمس الدين أبو العباس ﴾

أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبى بكر الموصلى ، ثم الدمشقى الصوفى . سمع الكثير وكتب الكتب الكبار بخط رفيع جيد واضح . جاوز السبعين] (١) ودفن بباب الفراديس .

﴿ الشاعر شهاب الدين أبو المكارم ﴾

محمد بن يوسف بن مسعود بن بركة بن سالم بن عبد الله الشيبانى التلعفرى ، صاحب ديوان الشعر ، جاوز الثمانين ، مات بحماة . وكان الشعراء مقرين له معترفين بفضله وتقدمه فى هذا الفن . ومن شعره قوله :

لسانى طرى منك يا غاية المنى * ومن ولهى أنى خطيب وشاعر

فهذا لمعنى حسن وجهك ناظم * وهذا لدمعى فى تجنيك ناشر

﴿ القاضى شمس الدين ﴾

على بن محمود بن على بن عاصم الشهزورى الدمشقى ، مدرس القيمرية بشرط واقفها له ولذريته [من بعده التدريس من تأهل منهم . فدرس بها إلى أن توفى فى هذه السنة . ودرس بعده ولده

(١) زيادة من نسخة أخرى بتركيا ومن النسخة المصرية أيضا .

صلاح الدين ، ثم ابن ابنه بعد ابن جماعة ، وطالت مدة حفيده . وقد ولى شمس الدين على نيابة ابن خلكان فى الولاية الأولى ، وكان فقيها جيدا نقالا للمذهب ، رحمه الله] (١) وقد سافر مع ابن العديم لبغداد فسمع بها ودفن بمقابر الصوفية بالقرب من ابن الصلاح .

﴿ الشيخ الصالح العالم الزاهد ﴾

أبو إسحاق إبراهيم بن سعد الله بن جماعة بن على بن جماعة بن حازم بن سنجر الكنانى الحموى له معرفة بالفقه والحديث ، ولد سنة ست وتسعين بحماة ، وتوفى بالقدس الشريف ودفن بماملاّ ، وسمع من الفخر ابن عساكر ، وروى عنه ولده قاضى القضاة بدر الدين ابن جماعة .

﴿ الشيخ الصالح جندل بن محمد المنينى ﴾

كانت له عبادة وزهادة وأعمال صالحة ، وكان الناس يترددون إلى زيارته بمنين ، وكان يتكلم بكلام كثير لا يفهمه أحد من الحاضرين ، بألفاظ غريبة ، وحكى عنه الشيخ تاج الدين أنه سمعه يقول : ما تقرب أحد إلى الله بمثل الذل له والتضرع إليه ، وسمعه يقول : الموله منفى من طريق الله يعتقد أنه واصل ولو علم أنه منفى رجع عما هو فيه ، لأن طريق القوم من أهل السلوك لا يثبت عليها إلا ذوو العقول الثابتة . وكان يقول : السماع وظيفة أهل البطالة . قال الشيخ تاج الدين : وكان الشيخ جندل من أهل الطريق وعلماء التحقيق . قال : وأخبرنى فى سنة إحدى وستين وستمائة أنه قد بلغ من العمر خمساً وتسعين سنة . قلت : على هذا فيكون قد جاوز المائة ، لأنه توفى فى رمضان من هذه السنة ، ودفن فى زاويته المشهورة بقرية منين ، وتردد الناس لقبره يصلون عليه من دمشق وأعمالها أياما كثيرة رحمه الله .

﴿ محمد بن عبد الرحمن بن محمد ﴾

الحافظ بدر الدين أبو عبد الله بن النويرة السلمى الحنفى ، اشتغل على الصدر سليمان وابن عطاء وفى النحو على ابن مالك ، وحصل وبرع ونظم ونثر ، ودرس فى الشبلية والقصاعين ، وطلب لنيابة القضاء فامتنع ، وكتب الكتابة المنسوبة . رآه بعض أصحابه فى المنام بعد وفاته فقال : ما فعل الله بك ؟ فأنشأ يقول :

ما كان لى من شافع عنده ... غير اعتقادى أنه واحد

وكانت وفاته فى جمادى الآخرة ودفن بظاهر دمشق رحمه الله .

﴿ محمد بن عبد الوهاب بن منصور ﴾

شمس الدين أبو عبد الله الحرانى الحنبلى تلميذ الشيخ مجد الدين ابن تيمية ، وهو أول من

(١) زيادة من نسخة تركية

حكم بالديار المصرية من الحنابلة نيابة عن القاضى تاج الدين ابن بنت الأعز ، ثم ولى شمس الدين ابن الشيخ العماد القضاء مستقلا فاستناب به ، ثم ترك ذلك ورجع إلى الشام يشتغل و يفتى إلى أن توفى وقد نيف على الستين رحمه الله .

﴿ ثم دخلت سنة ست وسبعين وستمائة ﴾

فيها كانت وفاة الملك الظاهر ركن الدين بيبرس ، صاحب البلاد المصرية والشامية والحلبية وغير ذلك ، وأقام ولده ناصر الدين أباالمعالى محمد بركة خان الملقب السعيد من بعده ، ووفاةالشيخ محيى الدين النووى إمام الشافعية فيها فى اليوم السابع من المحرم منها ، ودخل السلطان الملك الظاهر من بلاد الروم وقد كسر التتار على البلستين ، ورجع مؤيدا منصورا فدخل دمشق وكان يوم دخوله يوما مشهودا ، فنزل بالقصر الأبلق الذى بناه غربى دمشق بين الميدانين الأخضرين ، وتواترت الأخبار إليه بأن أبغا جاء إلى المعركة ونظر إليها وتأسف على من قتل من المغول وأمر بقتل الرواناه وذكروا أنه قد عزم على قصد الشام ، فأمر السلطان بجمع الأمراء وضرب مشورة فاتفق مع الأمراء على ملاقاته حيث كان ، وتقدم بضرب الدهليز على القصر ، ثم جاء الخبر بأن أبغا قد رجع إلى بلاده فأمر برد الدهليز وأقام بالقصر الأبلق يجتمع عنده الأعيان والأمراء والدولة فى أسر حال ، وأنعم بال . وأما أبغا فانه أمر بقتل الرواناه ـ وكان نائبه على بلاد الروم ـ وكان اسمه معين الدين سليمان ابن على بن محمد بن حسن ، وإنما قتله لأنه اتهمه بممالأته للملك الظاهر ، وزعم أنه هو الذى حسّن له دخول بلاد الروم ، وكان الرواناه شجاعا حازما كريماً جوادا ، وله ميل إلى الملك الظاهر ، وكان قد جاوز الخمسين لما قتل .

ثم لما كان يوم السبت خامس عشر المحرم توفى الملك القاهر بهاء الدين عبد الملك بن السلطان المعظم عيسى بن العادل أبى بكر بن أيوب ، عن أربع وستين سنة ، وكان رجلا جيدا سليم الصدر كريم الأخلاق ، لين الكلمة كثير التواضع ، يعانى ملابس العرب ومراكبهم ، وكان معظما فى الدولة شجاعا مقداماً ، وقد روى عن ابن الليثى وأجاز للبرزالى . قال البرزالى ويقال إنه سم ، وذكر غيره أن السلطان الملك الظاهر سمه فى كأس خمر ناوله إياه فشربه وقام السلطان إلى المرتفق ثم عاد وأخذ الساقى الكأس من يد القاهر فملأه وناوله السلطان الظاهر والساقى لا يشعر بشىء مما جرى ، وأنسى الله السلطان ذلك الكأس ، أوظن أنه غيره ، لأمر يريده الله و يقضيه ، وكان قد بقى فى الكأس بقية كثيرة من ذلك السم ، فشرب الظاهر مافى الكأس ولم يشعر حتىشربه فاشتكى بطنه من ساعته ، ووجد الوهج والحر والكرب الشديد من فوره ، وأما القاهر فانه حمل إلى منزله وهو مغلوب فمات من ليلته . وتمرض الظاهر من ذلك أياماً حتى كانت وفاته يوم الخميس بعد الظهر

فى السابع والعشرين من المحرم بالقصر الأبلق ، وكان ذلك يوماً عظيما عـلى الأمراء ، وحضر نائب السلطنة عز الدين أيدمر وكبار الأمراء والدولة ، فصلوا عليـه سرا وجعلوه فى تابوت ورفعوه إلى القلعة من السور وجعلوه فى بيت من بيوت البحرية إلى أن نقـل إلى تربته التى بناها ولده له بعـد موته ، وهى دار العقيقى تجاه العادلية الكبيرة ، ليلة الجمعة خامس رجب من هذه السنة ، وكتم موته فلم يعلم جمهور الناس به حتى إذا كان العشر الأخير من ربيع الأول ، وجاءت البيعة لولده السعيد من مصر فحزن الناس عليه حزنا شديدا ، وترحموا عليه ترحما كثيراً ، وجددت البيعة أيضا بدمشق وجاء تقليد النيابة بالشام مجدداً إلى عز الدين أيدمر نائبها .

وقد كان الملك الظاهر شهما شجاعاً عالى الهمة بعيد الغور مقداماً جسوراً معتنيا بأمر السلطنة ، يشفق على الاسلام ، متحليا بالملك ، له قصـد صالح فى نصرة الاسلام وأهله ، وإقامة شعار الملك ، واستمرت أيامه من يوم الأحد سابع عشر ذى القعـدة سنة ثمان وخمسين إلى هذا الحين ، ففتح فى هذه المدة فتوحات كثيرة قيسارية وأرسـوف ويافا والشقيف وإنطاكية وبعراض وطبرية والقصير وحصن الأكراد وحصن عـكا والقرين وصافينا وغير ذلك من الحصون المنيعـة التى كانت بأيدى الفرنج ، ولم يدع مع الاسماعيلية شيئا من الحصون ، وناصف الفرنج عـلى المرقب ، وبانياس وبلاد أنطرسوس ، وسائر ما بقى بأيديهم من البلاد والحصون ، وولى فى نصيبه مما ناصفهم عليـه النواب والعمال وفتح قيسارية من بلاد الروم ، وأوقع بالروم والمغول عـلى البلستين بأساً لم يسمع بمثـله من دهور متطاولة ، واستعاد من صاحب سيس بلادا كثيرة ، وجاس خلال ديارهم وحصونهم ، واسترد من أيدى المتغلبين من المسلمين بعلبك وبصرى وصرخد وحمص وعجلون والصلت وتدمر والرحبة وتل باشر وغيرها ، والكرك والشوبك ، وفتح بلاد النوبة بكمالها من بلاد السودان ، وانتزع بلادا من التتار كثيرة ، منها شـيرزور والبيرة ، واتسعت مملكته من الفرات إلى أقصى بلاد النوبة ، وعمر شيئا كثيراً من الحصون والمعاقل والجسور على الأنهار الكبار ، وبنى دار الذهب بقلعة الجبل ، وبنى قبة على اثنى عشر عموداً ملونة مذهبة ، وصور فيها صور خاصكيته وأشكالهـم ، وحفر أنهاراً كثيرة وخلجانات ببلاد مصر ، منها نهر السرداس ، وبنى جوامع كثيرة ومساجد عديدة ، وجدد بناء مسجد رسول الله ﷺ حين احترق ، ووضع الدرابزينات حول الحجرة الشريفـة ، وعمـل فيـه منبراً وسقفه بالذهب ، وجـدد المارستان بالمدينة ، وجدد قبر الخليل عليه السـلام ، وزاد فى زاويتـه وما يصرف إلى المقيمين ، وبنى على المكان المنسوب إلى قبر موسى عليه السلام قبة قبلى أريحا ، وجدد بالقدس أشـياء حسنة من ذلك قبة السلسلة ، ورمم سقف الصخرة وغيرها ، وبنى بالقدس خانا هائلا بما ملاً ، ونقل إليه باب قصر الخلفاء الفاطميين من مصر ، وعمل فيه طاحونا وفرنا

و بستانا ، وجعل للواردين إليه أشياء تصرف إليهم فى نفقة و إصلاح أمتعتهم رحمه الله . و بنى على قبر أبى عبيدة بالقرب من عمتنا مشهدا ، و وقف عليه أشياء للواردين إليه ، وعمر جسر دامية ، وجدد قبر جعفر الطيار بناحية الكرك ، و وقف على الزائرين له شيئا كثيرا ، وجدد قلعة صفت وجامعها ، وجدد جامع الرملة وغيرها فى كثير من البلاد التى كانت الفرنج قد أخذتها وخربت جوامعها ومساجدها ، و بنى بحلب داراً هائلة ، و بدمشق القصر الأبلق والمدرسة الظاهرية وغيرها ، وضرب الدراهم والدنانير الجيدة الخالصة على النصح والمعاملة الجيدة الجارية بين الناس ، فرحمه الله .

و له من الآثار الحسنة والأماكن مالم يبن فى زمن الخلفاء وملوك بنى أيوب ، مع اشتغاله فى الجهاد فى سبيل الله واستخدم من الجيوش شيئا كثيراً ، و رد إليه نحوا من ثلاثة آلاف من المغول فأقطعهم وأمّر كثيرا منهم ، وكان مقتصدا فى ملبسه ومطعمه وكذلك جيشه ، وهو الذى أنشأ الدولة العباسية بعد دثورها ، و بقى الناس بلا خليفة نحوا من ثلاث سنين ، وهو الذى أقام من كل مذهب قاضياً مستقلا قاضى قضاة . وكان رحمه الله متيقظا شهما شجاعا لايفتر عن الأعداء ليلا ولانهاراً ، بل هو مناجز لأعداء الاسلام وأهله ، ولم شعثه واجتماع شمله . و بالجملة أقامه الله فى هذا الوقت المتأخر عونا ونصراً للاسلام وأهله ، وشجا فى حلوق المارقين من الفرنج والتتار ، والمشركين . وأبطل الخمور ونفى الفساق من البلاد ، وكان لا يرى شيئا من الفساد والمفاسد إلا سعى فى إزالته بجهده وطاقته . وقد ذكرنا فى سيرته ما أرشد إلى حسن طويته وسريرته ، وقد جمع له كاتبه ابن عبدالظاهر سيرة مطولة ، وكذلك ابن شداد أيضا . وقد ترك من الأولاد عشرة ثلاثة ذكور وسبعة إناث ومات وعمره ما بين الخمسين إلى الستين ، وله أوقاف وصلات وصدقات ، تقبل الله منه الحسنات ، وتجاوز له عن السيئات والله سبحانه أعلم .

وقام فى الملك بعده ولده السعيد بمبايعة أبيه له فى حال حياته ، وكان عمر السعيد يومئذ دون العشرين سنة ، وهو من أحسن الأشكال وأتم الرجال ، وفى صفر وصلت الهدايا من الفنس مع رسله إلى الديار المصرية فوجدوا السلطان قد مات ، وقد أقيم الملك السعيد ولده مكانه والدولة لم تتغير ، والمعرفة بعده ما تنكرت ، ولكن البلاد قد فقدت أسدها بل أسدّها وأشدها ، بل الذى بلغ أشدها ، و إذا انفتحت ثغرة من سور الاسلام سدها ، وكلما انحلت عقدة من عرى العزائم شدها ، وكلما رامت فرقة مارقة من طوائف الطغام أن تلج إلى حومة الاسلام صدها و ردها ، فسامحه الله ، و بل بالرحمة ثراه ، وجعل الجنة متقلبه ومثواه .

وكانت العساكر الشامية قد سارت إلى الديار المصرية ومعهم محفة يظهرون أن السلطان بها مريض ، حتى وصلوا إلى القاهرة فجددوا البيعة للسعيد بعد ما أظهروا موت الملك السديد الذى هو

إن شاء الله شهيد . وفى يوم الجمعة السابع والعشرين من صفر خطب فى جميع الجوامع بالديار المصرية للملك السعيد ، وصلى على والده الملك الظاهر واستهلت عيناه بالدموع . وفى منتصف ربيع الأول ركب الملك السعيد بالعصائب عـلى عادته وبين يديه الجيش بكماله المصرى والشامى ، حتى وصل إلى الجبل الأحمر وفرح الناس به فرحاً شديداً ، وعمره يومئـذ تسع عشرة سنة ، وعليه أبهة الملك ورياسة السلطنة . وفى يوم الاثنين رابع جمادى الأولى فتحت مدرسة الأمير شمس الدين آقسنقر الفارقانى بالقاهرة ، بحارة الوزيرية عـلى مذهب أبى حنيفة . وعمل فيها مشيخة حـديث وقارئ . وبعده بيوم عقد عقد ابن الخليفة المستمسك بالله ابن الحاكم بأمر الله ، على ابنة الخليفة المستنصر ابن الظاهر ، وحضر والده والسلطان ووجوه الناس . وفى يوم السبت تاسع جمادى الأولى شرع فى بناء الدار التى تعرف بدار العقيقى ، تجاه العادليـة ، لتجعل مـدرسة وتربة للملك الظاهر ، ولم تكن قبل ذلك إلا داراً للعقيقى ، وهى المجاورة لحمام العقيقى ، وأسس أساس التربة فى خامس جمادى الآخرة وأسست المدرسة أيضاً .

وفى رمضان طلعت سحابة عظيمة بمدينة صفت لمع منها برق شديد ، وسطع منها لسان نار، وسمع منها صوت شديد هائل ، ووقع منها على منارة صفت صاعقة شقتها من أعلاها إلى أسفلها شقا يدخل الكف فيه

وممن توفى فيها من الأعيـان البرواناه فى العشر الأول من المحرم . والملك الظـاهر فى العشر الأخير منه ، وقد تقدم شيء من ترجمتهما .

﴿ والأمير الكبير بدر الدين بيليك بن عبد الله ﴾

الخزندار نائب الديار المصرية للملك الظاهر ، كان جوادا ممـدحاً له إلمام ومعرفة بأيام الناس والتواريخ ، وقـد وقف درساً بالجامع الأزهر على الشافعية ، ويقال إنه سم فمات ، فلما مات انتقض بعده حبل الملك السعيد ، واضطربت أموره .

﴿ وقاضى القضاة شمس الدين الحنبلى ﴾

محمد ابن الشيخ العماد أبى إسحاق إبراهيم بن عبد الواحد بن على بن سرور المقدسى ، أول من ولى قضاء قضاة الحنابلة بالديار المصرية ، سمع الحديث خصوصا على ابن طبرزد وغيره ، ورحل إلى بغداد واشتغل بالفقه ، وتفنن فى علوم كثيرة ، وولى مشيخة سعيد السعداء ، وكان شيخا مهيبا حسن الشيبـة كثير التواضع والبر والصدقة ، وقد اشترط فى قبول الولاية أن لا يكون له عليها جامكيـة ليقوم فى الناس بالحق فى حكمـه ، وقد عزله الظاهر عن القضاء سنة سبعين واعتقـله بسبب الودائع التى كانت عنده ، ثم أطلقه بعد سنتين فلزم منزله واستقر بتـدريس الصالحية إلى أن توفى فى أواخر المحرم ، ودفن عند عم الحافظ عبد الغنى بسفح جبل المقطم ، وقد أجاز للبرزالى .

قال الحافظ البرزالى : وفى يوم السبت ثانى عشر ربيع الأول ورد الخبر بموت ستة أمراء من الديار المصرية : سنقر البغدادى ، وبسطا البلدى التترى ، وبدر الدين الوزيرى ، وسنقر الرومى ، وآق سنقر الفارقانى رحمهم الله .

[﴿ الشيخ خضر الكردى شيخ الملك الظاهر ﴾

خضر بن أبى بكر بن موسى الكردى النهروانى العدوى ، ويقال إن أصله من قرية المحمدية من جزيرة ابن عمر ، كان ينسب إليه أحوال ومكاشفات ، ولكنه لما خالط الناس افتتن ببعض بنات الأمراء ، وكان يقول عن الملك الظاهر وهو أمير إنه سيلى الملك . فلهذا كان الملك الظاهر يعتقده ويبالغ فى إكرامه بعد أن ولى المملكة ، ويعظمه تعظيما زائدا . وينزل عنده إلى زاويته فى الأسبوع مرة أو مرتين . ويستصحبه معه فى كثير من أسفاره ، ويلزمه ويحترمه ويستشيره فيشير عليه برأيه ومكاشفات صحيحة مطابقة . إما رحمانية أو شيطانية ، أو حال أو سعادة ، لكنه افتتن لما خالط الناس ببعض بنات الأمراء ، وكن لا يحتجبن منه ، فوقع فى الفتنة . وهذا فى الغالب واقع فى مخالطة الناس فلا يسلم المخالط لهم من الفتنة . ولا سيما مخالطة النساء مع ترك الأصحاب ، فلا يسلم العبد ألبتة منهن . فلما وقع ما وقع فيه حوقق عند السلطان وتيسرى وقلاوون والفارس إقطاى الأتابك ، فاعترف ، فهم بقتله فقال له : إنما بينى وبينك أيام قلائل ، فأمر بسجنه فسجن سنين عديدة من سنة إحدى وسبعين إلى سنة ست وسبعين ، وقد هدم بالقدس كنيسة وذبح قسيسها وعملها زاوية وقد قدمنا ترجمته قبل ذلك فيما تقدم ، ثم لم يزل مسجونا حتى مات فى يوم الخميس سادس المحرم من هذه السنة ، فأخرج من القلعة وسلم إلى قرابته فدفن فى تربة أنشأها فى زاويته . مات وهو فى عشر الستين . وقد كان يكاشف السلطان فى أشياء . وإليه تنسب قبة الشيخ خضر التى على الجبل غربى الربوة ، وله زاوية بالقدس الشريف] (١)

﴿ الشيخ محى الدين النووى ﴾

يحيى بن شرف بن حسن بن حسين بن جمعة بن حزام الحازمى العالم . محى الدين أبو زكريا النووى ثم الدمشقى الشافعى العلامة شيخ المذهب ، وكبير الفقهاء فى زمانه ، ولد بنوى سنة إحدى وثلاثين وستمائة ، ونوى قرية من قرى حوران . وقد قدم دمشق سنة تسع وأربعين ، وقد حفظ القرآن فشرع فى قراءة التنبيه . فيقال إنه قرأه فى أربعة أشهر ونصف ، وقرأ ربع العبادات من المذهب فى بقية السنة ، ثم لزم المشايخ تصحيحا وشرحا ، فكان يقرأ فى كل يوم اثنا عشر درسا على المشايخ ، ثم اعتنى بالتصنيف فجمع شيئا كثيرا ، منها ما أكمله ومنها مالم يكمله ، فمما كمل شرح مسلم والروضة والمنهاج

(١) سقط من النسخة المصرية وقد تقدمت هذه الترجمة فى حوادث سنة ٦٧٢ .

والرياض والأذكار والتبيان ، وتحرير التنبيه وتصحيحه ، وتهذيب الأسماء واللغات ، وطبقات الفقهاء وغير ذلك . ومما لم يتممه ولوكمل لم يكن له نظير فى بابه : شرح المهذب الذى سماه المجموع ، وصل فيه إلى كتاب الربا ، فأبدع فيه وأجاد وأفاد ، وأحسن الانتقاد ، وحرر الفقه فيه فى المذهب وغيره ، وحرر الحديث على ما ينبغى ، والغريب واللغة وأشياء مهمة لا توجد إلا فيه ، وقد جعله نخبة على ما عن له ولا أعرف فى كتب الفقه أحسن منه ، على أنه محتاج إلى أشياء كثيرة تزاد فيه وتضاف إليه ، وقد كان من الزهادة والعبادة والورع والتحرى والانجماح عن الناس على جانب كبير ، لا يقدر عليه أحد من الفقهاء غيره ، وكان يصوم الدهر ولايجمع بين إدامين ، وكان غالب قوته مما يحمله إليه أبوه من نوى ، وقد باشر تدريس الاقبالية نيابة عن ابن خلكان ، وكذلك ناب فى الفلكية والركنية ، وولى مشيخة دار الحديث الأشرفية ، وكان لايضيع شيئا من أوقاته ، وحج فى مدة إقامته بدمشق ، وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر للملوك وغيرهم . توفى فى ليلة أربع وعشرين من رجب من هذه السنة بنوى ، ودفن هناك رحمه الله وعفا عنا وعنه .

﴿ على بن على بن أسفنديار ﴾

نجم الدين الواعظ بجامع دمشق أيام السبوت فى الأشهر الثلاثة ، وكان شيخ الخانقاه المجاهدية وبها توفى فى هذه السنة ، وكان فاضلا بارعا ، وكان جده يكتب الانشاء للخليفة الناصر ، وأصلهم من بوشنج . ومن شعر نجم الدين هذا قوله :

إذا زار بالجثمان غيرى فاننى ٭ أزور مع الساعات ربعك بالقلب
وما كل ناء عن ديار بنازح ٭ ولا كل دان فى الحقيقة ذو قرب

﴿ ثم دخلت سنة سبع وسبعين وستمائة ﴾

كان أولها يوم الأربعاء وكان الخليفة الحاكم بأمر الله العباسى ، وسلطان البلاد شاما ومصرا وحلبا الملك السعيد . وفى أوائل المحرم اشتهر بدمشق ولاية ابن خلكان قضاء دمشق عودا على بدء فى أواخر ذى الحجة ، بعد عزل سبع سنين ، فامتنع القاضى عز الدين بن الصائغ من الحكم فى سادس المحرم وخرج الناس لتلقى ابن خلكان ، فمنهم من وصل إلى الرملة وكان دخوله فى يوم الخميس الثالث والعشرين من المحرم ، فخرج نائب السلطنة عز الدين أيدمر بجميع الأمراء والمواكب لتلقيه ، وفرح الناس بذلك ، ومدحه الشعراء ، وأنشد الفقيه شمس الدين محمد بن جعفر :

لما تولى قضاء الشام حاكمه ٭ قاضى القضاة أبو العباس ذو الكرم
من بعد سبع شداد قال خادمه ٭ ذا العام فيه يغاث الناس بالنعم

وقال سعد الله بن مروان الفارقى :

أذقت الشام سبع سنين جدبا * غداة هجرته هجرا جميلا
فلما زرته من أرض مصر * مددت عليه من كفيك نيلا

وقال آخر :

رأيت أهل الشام طرا * ما فيهم قط غير راض
نالهم الخير بعد شر * فالوقت بسط بلا انقباض
وعوضوا فرحة بحزن * قد أنصف الدهر فى التقاضى
وسرهم بعد طول غم * بدور قاضى وعزل قاضى
وكلهم شاكر وشاك * بحال مستقبل وماض

قال اليونينى : وفى يوم الأربعاء ثالث عشر صفر ذكر الدرس بالظاهرية وحضر نائب السلطنة أيدمر الظاهرى وكان درسا حافلا حضره القضاة ، وكان مدرس الشافعية الشيخ رشيد الدين محمود ابن الفارق ، ومدرس الحنفية الشيخ صدر الدين سليمان الحنفى ، ولم يكن بناء المدرسة كمل . وفى جمادى الاولى باشر قضاء الحنفية صدر الدين سليمان المذكور عوضا عن مجد الدين ابن العديم ، بحكم وفاته ، ثم توفى صدر الدين سليمان المذكور فى رمضان وتولى بعده القضاء حسام الدين أبو الفضائل الحسن بن أنوشروان الرازى الحنفى ، الذى كان قاضياً بملطية قبل ذلك . وفى العشر الأول من ذى القعدة فتحت المدرسة النجيبية وحضر تدريسها ابن خلكان بنفسه ، ثم نزل عنها لولده كمال الدين موسى ، وفتحت الخانقاه النجيبية ، وقد كانتا وأوقافهما تحت الحيطة إلى الآن .

وفى يوم الثلاثاء خامس ذى الحجة دخل السلطان السعيد إلى دمشق وقد زينت له وعملت له قباب ظاهرة وخرج أهل البلد لتلقيه وفرحوا به فرحاً عظيما لمحبتهم والده ، وصلى عيد النحر بالميدان ، وعمل العيد بالقلعة المنصورة ، واستوزر بدمشق الصاحب فتح الدين عبدالله بن القيسرانى ، وبالديار المصرية بعد موت بهاء الدين بن الحنا الصاحب برهان الدين بن الخضر بن الحسن السنجارى ، وفى العشر الأخير من ذى الحجة جهز السلطان العساكر إلى بلاد سيس صحبة الأمير سيف الدين قلاوون الصالحى ، وأقام السلطان بدمشق فى طائفة يسيرة من الأمراء والخاصكية والخواص ، وجعل يكثر التردد إلى الزنبقية وفى يوم الثلاثاء السادس والعشرين من ذى الحجة جلس السلطان بدار العدل داخل باب النصر ، وأسقط ما كان حدده والده على بساتين أهل دمشق ، فتضاعفت له منهم الأدعية وأحبوه لذلك حبا شديداً ، فانه كان قد أجحف بكثير من أصحاب الأملاك ، وود كثير منهم لو تخلص من ملكه جملة بسبب ما عليه . وفيها طلب من أهل دمشق خمسين ألف دينار ضربت أجرة على أملاكهم مدة شهرين ، وجبيت منهم على القهر والعسف .

ومن توفى فيها من الأعيان .

﴿ آقوش بن عبد الله الأمير الكبير جمال الدين النجيبى ﴾

أبو سعيد الصالحى . أعتقه الملك نجم الدين أيوب الكامل . وجعله من أكابر الأمراء ، وولاه أستاذ داريته ، وكان يثق إليه ويعتمد عليه . وكان مولده فى سنة تسع أوعشر وستمائة ، وولاه الملك الظاهر أيضاً أستاذ داريته ، ثم استنابه بالشام تسع سنين ، فاتخذ فيها المدرسة النجيبية ووقف عليها أوقافاً دارة واسعة . لكن لم يقرر المستحقين قدراً يناسب ماوقفه عليهم ، ثم عزله السلطان واستدعاه لمصر فأقام بها مدة بطالا ، ثم مرض بالفالج أربع سنين . وقد عاده فى بعضها الملك الظاهر ولم يزل به حتى كانت وفاته ليلة الجمعة خامس شهر ربيع الآخر بالقاهرة بداره بدرب الملوخية . ودفن يوم الجمعة قبل الصلاة بتربته التى أنشأها بالقرافة الصغرى ، وقد كان بنى لنفسه تربة بالنجيبية ، وفتح لها شبابكين إلى الطريق ، فلم يقدر دفنه بها . وكان كثير الصدقة محبا للعلماء محسنا إليهم ، حسن الاعتقاد . شافعى المذهب ، متغاليا فى السنة ومحبة الصحابة وبغض الروافض . ومن جملة أوقافه الحسان البستان والاراضى التى أوقفها على الجسورة التى قبلى جامع كريم الدين اليوم . وعلى ذلك أوقاف كثيرة ، وجعل النظر فى أوقافه لابن خلكان .

﴿ أيدكين بن عبد الله ﴾

الامير الكبير علاء الدين الشهابى . واقف الخانقاه الشهابية . داخل باب الفرج . كان من كبار الأمراء بدمشق . وقد ولاه الظاهر بحلب مدة ، وكان من خيار الأمراء وشجعانهم ، وله حسن ظن بالفقراء والاحسان إليهم . ودفن بتربة الشيخ عمار الرومى بسفح قاسيون ، فى خامس عشر ربيع الأول . وهو فى عشر الخمسين ، وخانقاه داخل باب الفرج . وكان لها شباك إلى الطريق . والشهابى نسبة إلى الطواشى شهاب الدين رشيد الكبير الصالحى .

﴿ قاضى القضاة صدر الدين سليمان بن أبى العز ﴾

ابن وهيب أبو الربيع الحنفى شيخ الحنفية فى زمانه . وعالمهم شرقا وغربا . أقام بدمشق مدة يفتى ويدرس ، ثم انتقل إلى الديار المصرية يدرس بالصالحية ، ثم عاد إلى دمشق فدرس بالظاهرية ، وولى القضاء بعد مجد الدين بن العديم ثلاثة أشهر ، ثم كانت وفاته ليلة الجمعة سادس شعبان . ودفن فى الغد بعد الصلاة بداره بسفح قاسيون . وله ثلاث وثمانون سنة . ومن لطيف شعره فى مملوك تزوج جارية للملك المعظم .

ياصاحبى قفالى وانظرا عجبا ■ أتى به الدهر فينا من عجائبه

البدر أصبح فوق الشمس منزلة * وما العلو عليها من مراتبه

أضحى يماثلها حسنا وشاركها ❊ كفوا وسار إليها فى مواكبه

فأشكل الفرق لولا وشى نمنمة ❊ بصدغه واخضرار فوق شاربه

﴿ طه بن إبراهيم بن أبى بكر كمال الدين الهمدانى ﴾

الأربلى الشافعى ، كان أديبا فاضلا شاعراً ، له قدرة فى تصنيف روبيت ، وقد أقام بالقاهرة حتى توفى فى جمادى الأولى من هذه السنة ، وقد اجتمع مرة بالملك الصالح أيوب ، فجعل يتكلم فى علم النجوم فأنشده على البديهة هذين البيتين :

دع النجوم لطرقى يعيش بها ❊ وبالعزيمة فانهض أيها الملك

إن النبى وأصحاب النبى نهوا ❊ عن النجوم وقد أبصرت ماملكوا

وكتب إلى صاحب له اسمه شمس الدين يستزيره بعد رمد أصابه فبرأ منه :

يقول لى الكحال عينك قد هدت ❊ فلا تشغلن قلبا وطب بها نفسا

ولى مدة يا شمس لم أركم بها ❊ وآية برء العين أن تبصر الشمسا

﴿ عبد الرحمن بن عبد الله ﴾

ابن محمد بن الحسن بن عبد الله بن الحسن بن عفان جمال الدين ابن الشيخ نجم الدين البادرائى البغدادى ثم الدمشقى ، درس بمدرسة أبيه من بعده حتى حين وفاته يوم الأربعاء سادس رجب ، ودفن بسفح قاسيون ، وكان رئيسا حسن الأخلاق جاوز خمسين سنة .

﴿ قاضى القضاة مجد الدين عبد الرحمن بن جمال الدين ﴾

عمر بن أحمد بن العديم ، الحلبى ، ثم الدمشقى الحنفى ، ولى قضاء الحنفية بعد ابن عطاء بدمشق ، وكان رئيسا ابن رئيس ، له إحسان وكرم أخلاق ، وقد ولى الخطابة بجامع القاهرة الكبير ، وهو أول حنفى وليه ، توفى بجوسقه بدمشق فى ربيع الآخر من هذه السنة ، ودفن بالتربة التى أنشأها عند زاوية الحريرى على الشرف القبلى غربى الزيتون

﴿ الوزير ابن الحنا ﴾

على بن محمد بن سليم بن عبد الله الصاحب بهاء الدين أبو الحسن بن الحنا الوزير المصرى ، وزير الملك الظاهر وولده السعيد إلى أن توفى فى سلخ ذى القعدة ، وهو جد جد ، وكان ذا رأى وعزم وتدبير ذا تمكن فى الدولة الظاهرية ، لا تمضى الأمور إلا عن رأيه وأمره ، وله مكارم على الامراء وغيرهم ، وقد امتدحه الشعراء ، وكان ابنه تاج الدين وزير الصحبة ، وقد صودر فى الدولة السعيدية .

﴿ الشيخ محمد ابن الظهير اللغوى ﴾

محمد بن أحمد بن عمر بن أحمد بن أبى شاكر مجد الدين أبو عبد الله الاربلى الحنفى المعروف بابن

الظهير ، ولد باربل سنة ثنتين وستمائة ، ثم أقام بدمشق ودرس بالقايمازية وأقام بها حتى توفى بها ليلة الجمعة ثانى عشر ربيع الآخر ، ودفن بمقابر الصوفية ، وكان بارعا فى النحو واللغة ، وكانت له يد طولى فى النظم وله ديوان مشهور ، وشعر رائق ، فمن شعره قوله :

كل حى إلى الممات مآبه * ومدى عمره سريع ذهابه
يخرب الدار وهى دار بقاء * ثم يبنى ما عما قريب خرابه
عجبا وهو فى التراب غريق * كيف يلهيه طيبه وعلابه ؟
كل يوم يزيد نقصاً وإن عمـ * ـر حلت أوصاله أوصابه
والورى فى مراحل الدهر ركب * دائم السير لا يرجى إيابه
فتزود إن التقى خير زاد * ونصيب اللبيب منه لبابه
وأخو العقل من يقضى بصدق * شيبته فى صلاحه وشبابه
وأخو الجهل يستلذ هوى النفـ * ـس فيغدو شهدا لديه مصابه

وهى طويلة جداً قريبة من مائة وخمسين بيتاً ، وقد أورد الشيخ قطب الدين شيئاً كثيراً من شعره الحسن الفائق الرائق .

﴿ ابن إسرائيل الحريرى ﴾

محمد بن سوار بن إسرائيل بن الخضر بن إسرائيل بن الحسن بن على بن محمد بن الحسين نجم الدين أبو المعالى الشيبانى الدمشقى ، ولد فى يوم الاثنين ثانى عشر ربيع الأول سنة ثلاث وستمائة ، وصحب الشيخ على بن أبى الحسن بن منصور اليسرى الحريرى ، فى سنة ثمان عشرة ، وكان قد لبس الخرقة قبله من الشيخ شهاب الدين السهروردى ، وزعم أنه أجلسه فى ثلاث خلوات ، وكان ابن إسرائيل يزعم أن أهله قدموا الشام مع خالد بن الوليد فاستوطنوا دمشق ، وكان أديباً فاضلا فى صناعة الشعر ، بارعاً فى النظم ، ولكن فى كلامه ونظمه مايشير به إلى نوع الحلول والاتحاد على طريقة ابن عربى وابن الفارض وشيخه الحريرى ، والله أعلم بحاله وحقيقة أمره . توفى بدمشق ليلة الأحد الرابع عشر من ربيع الآخر هذه السنة ، عن أربع وسبعين سنة ، ودفن بتربة الشيخ رسلان معه داخل القبة ، وكان الشيخ رسلان شيخ الشيخ على المغربل الذى تخرج على يديه الشيخ على الحريرى شيخ ابن إسرائيل ، فمن شعره قوله :

لقد عادنى من لاعج الشوق عائد * فهل عهد ذات الخال بالسفح عائد ؟
وهل نارها بالأجرع الفرد تعتلى * لمنفرد شاب الدجى وهو شاهد ؟
نديمى من سعدى أديرا حديثها * فذكرى هواها والمدامة واحد
منعمة الأطراف رقت محاسنا * حلى لى فى حبها ما أكابد

فالبدر ما لاثت عليه خمارها ▪ والشمس ما جالت عليه القلائد

وله : أيها المعتاض بالنوم السهر ▪ ذاهـلا يسبح فى بحر الفكر
سلم الأمر إلى مالكه ▪ واصطبر فالصبر عقباه الظفر
لا تكونن آيسا من فرج ▪ إنما الأيام تأتى بالعبر
كدر يحـدث فى وقت الصفا * وصفى يحـدث فى وقت الكدر
وإذا ما ساء دهر مرة * سر أهليـه ومهما ساء سر
فارض عن ربك فى أقداره ▪ إنما أنت أسـير القـدر

وله قصيدة فى مدح النبى ﷺ طويلة حسنة سمعها الشيخ كمال الدين ابن الزملكانى وأصحابه على الشيخ أحمد الاعفف عنه ، وأورد له الشيخ قطب الدين اليونينى أشعاراً كثيرة . فمنها قصيدته الدالية المطولة التى أولها :

وافى لى من أهواه جهراً لموعدى ▪ وأرغم عذالى عليـه وحسدى
وزار عـلى شط المزار مطولا * على مغرم بالوصـل لم يتعود
فيا حسن ما أهدى لعينى جماله ▪ ويا بردما أهدى إلى قلبى الصدى
ويا صدق أحلامى ببشرى وصاله * ويانيل آمالى ويا نجح مقصدى
تجلى وجودى إذ تجلى لباطنى ▪ بجد سـعيد أو بسعد مجدد
لقد حق لى عشق الوجود وأهله ▪ وقد علقت كفاى جمعا بموجدى

ثم تغزل فأطال إلى أن قال :

فلما تجلى لى عـلى كل شاهد * وسامرنى بالرمز فى كل مشهد
تجنبت تقييد الجمال ترفعا ▪ وطالعت أسرار الجمال المبـدد
وصار سماعى مطلقا منه بدؤه ▪ وحاشى لمثلى من سماع مقيـد
ففى كل مشهود لقلبى شاهد * وفى كل مسموع له لحن معبـد

ثم قال : وصل فى مشاهد الجمال

أراه بأوصاف الجمال جميعها * بغـير اعتقاد للحلول المبعـد
ففى كل هيفاء المعاطف غادة * وفى كل مصقول السوالف أغيد
وفى كل بدر لاح فى ليل شعره * على كل غصن مائس العطف أملد
وعند اعتناق كل قدٍ مهفهف ▪ ورشفى رضابا كالرحيق المبرد
وفى الدر والياقوت والطيب والحلا ▪ على كل ساجى الطرف لدن المقلد

وفى حلل الأثواب راقت لناظرى * بزبرجها من مذهب ومورد
وفى الراح والريحان والسمع والغنا * وفى سجع ترجيع الحمام المغرد
وفى الدوح والأنهار والزهر والندى * وفى كل بستان وقصر مشيد
وفى الروضة الفيحاء تحت سمائها * يضاحك نور الشمس نوارها الندى
وفى صفو رقراق الغدير إذا حكى * وقد جعدته الريح صفحة مبرد
وفى اللهو والأفراح والغفلة التى * تمكن أهل الفرق من كل مقصد
وعند انتشار الشرب فى كل مجلس * بهيج بأنواع الثمار المنضد
وعند اجتماع الناس فى كل جمعة * وعيد وإظهار الرياش المجدد
وفى لمعان المشرفيات بالوغى * وفى ميل أعطاف القنا المتأود

المظاهر العلوية

وفى الاعوجيات العتاق إذا انبرت * تسابق وفد الريح فى كل مطرد
وفى الشمس تحكى وهى فى برج نورها * لدى الافق الشرقى مرآة عسجد
وفى البدر بدر الأفق ليلة تمه * جلته سماء مثل صرح ممرد
وفى أنجم زانت دجاها كأنها * نثار لآل فى بساط زبرجد
وفى الغيث روى الأرض بعد همودها * قبال نداه متهم بعد منجد
وفى البرق يبدو موهنا فى سحابه * كباسم ثغر أو حسام مجرد
وفى حسن تنميق الخطاب وسرعة الج * واب وفى الخط الأنيق المجود

ثم قال : المظاهر المعنوية

وفى رقة الاشعار راقت لسامع * بدائعها من مقصر ومقصد
وفى عود عيد الوصل من بعد جفوة * وفى أمن أحشاء الطريد المشرد
وفى رحمة المعشوق شكوى محبه * وفى رقة الألفاظ عند التودد
وفى أريحيات الكريم إلى الندى * وفى عاطفات العفو من كل سيد
وحالة بسط العارفين وأنسهم * وتحريكهم عند السماع المقيد
وفى لطف آيات الكتاب التى بها * تنسم روح الوعد بعد التوعد

ثم قال : المظاهر الجلالية

كذلك أوصاف الجلال مظاهر * أشاهده فيها بغير تردد
فنى سطوة القاضى الجليل وسمته * وفى سطوة الملك الشديد الممرد

وفى حدة الغضبان حالة طيشه * وفى نخوة القرم المهيب المسود
وفى صولة الصهباء جاز مديرها * وفى بؤس أخلاق النديم المعربد
وفى الحر والبرد اللذين تقسما الـ * ـزمان وفى إيلام كل محسد
وفى سر تسليط النفوس بشرها * على وتحسين التعدى لمعتدى
وفى عسر العادات يشمر بالقضا * وتكحيل عين الشمس منه بأثمد
وعند اصطدام الخيل فى كل موقف * يعثر فيه بالوشيج المنضد
وفى شدة الليث الصؤول وبأسه * وشدة عيش بالسقام منكد
وفى جفوة المحبوب بعد وصاله * وفى غدره من بعد وعد مؤكد
وفى روعة البين المسئ وموقف الـ * ـوداع لحران الجوانح مكمد
وفى فرقة الألاف بعد اجتماعهم * وفى كل تشتيت وشمل مبدد
وفى كل دار أقفرت بعد أنسها * وفى طلل بال ودارس معمد
وفى هول أمواج البحار ووحشة الـ * ـقفار وسيل بالمزاييب مزبد
وعند قيامى بالفرائض كلها * وحالة تسليم لسر التعبد
وعند خشوعى فى الصلاة لعزة الـ * ـمناجى وفى الاطراق عند التهجد
وحالة إهلال الحجيج بحجهم * وأعمالهم للعيش فى كل فدفد
وفى عسر تخليص الحلال وفترة الـ * ـملال لقلب الناسك المتعبد

المظاهر الكمالية

وفى ذكريات العذاب وظلمة الـ * ـحجاب وقبض الناسك المتزهد
ويبدو بأوصاف الكمال فلا أرى * برؤيته شيئا قبيحا ولا ردى
فكل مسيء لى إلى كمحسن * وكل مضل لى إلى كمرشد
فلا فرق عندى بين أنس ووحشة * ونور وإظلام ومدن ومبعد
وسيان إفطارى وصومى وفترتى * وجهدى ونومى وادعاء تهجدى
أرى تارة فى حانة الخمر خالعا * عذارى وطوراً فى حنية مسجد
تجلى لسرى بالحقيقة مشرب * فوقتى ممزوج بكشف مسرمد
تعمرت الاوطان بى وتحققت * مظاهرها عندى بعينى ومشهدى
وقلبى على الاشياء أجمع قلب * وشربى مقسوم على كل مورد
فهيكل أوثان ودير لراهب * وبيت لنيران وقبلة معبدى

ومسرح غزلان وحانة قهوة ＊ وروضة أزهار ومطلع أسعد
وأسرار عرفان ومفتاح حكمة ＊ وأنفاس وجدان وفيض تبلد
وجيش لضرغام وخدر لكاعب ＊ وظلمة جيران ونور لمهتدى
تقابلت الاضداد عندى جميعها ＊ لمحنة مجهود ومنحة مجتدى
وأحكمت تقرير المراتب صورة ＊ ومعنى ومن عين التفرد موردى
فما موطن إلا ولى فيه موقف ＊ على قدم قامت بحق التفرد
فلا غرو إن فت الانام جميعهم ＊ وقد علقت بحبل من حبال محمد
عليه صلاة الله تشفع دائما ＊ بروح تحيات السلام المردد

﴿ ابن العود الرافضى ﴾

أبو القاسم الحسين بن العود نجيب الدين الأسدى الحلى، شيخ الشيعة وإمامهم وعالمهم فى أنفسهم، كانت له فضيلة ومشاركة فى علوم كثيرة، وكان حسن المحاضرة والمعاشرة، لطيف النادرة، وكان كثير التعبد بالليل، وله شعر جيد. ولد سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، وتوفى فى رمضان من هذه السنة عن ست وتسعين سنة، والله أعلم بأحوال عباده وسرائرهم ونياتهم.

﴿ ثم دخلت سنة ثمان وسبعين وستمائة ﴾

كان أولها يوم الأحد والخليفة والسلطان هما المذكوران فى التى قبلها، وقد اتفق فى هذه السنة أمور عجيبة، وذلك أنه وقع الخلف بين الممالك كلها، اختلفت التتار فيما بينهم واقتتلوا فقتل منهم خلق كثير، واختلفت الفرنج فى السواحل وصال بعضهم على بعض وقتل بعضهم بعضا، وكذلك الفرنج الذين فى داخل البحور وجزائرها، فاختلفو واقتتلوا، وقتلت قبائل الأعراب بعضها فى بعض قتالا شديداً، وكذلك وقع الخلف بين العشير من الحوارنة وقامت الحرب بينهم على ساق، وكذلك وقع الخلف بين الأمراء الظاهرية بسبب أن السلطان الملك السعيد بن الظاهر لما بعث الجيش إلى سيس أقام بعده بدمشق وأخذ فى اللهو واللعب والانبساط مع الخاصكية، وتمكنوا من الأمور، وبعد عنه الامراء الكبار، فغضبت طائفة منهم ونابذوه وفارقوه وأقاموا بطريق العساكر الذين توجهوا إلى سيس وغيرهم، فرجعت العساكر إليهم فلما اجتمعوا شعثوا قلوبهم على الملك السعيد، ووحشوا خواطر الجيش عليه، وقالوا الملك لا ينبغى له أن يلعب ويلهو، وإنما همة الملوك فى العدل ومصالح المسلمين والذب عن حوزتهم، كما كان أبوه. وصدقوا فيما قالوا، فان لعب الملوك والأمراء وغيرهم دليل على زوال النعم وخراب الملك، وفساد الرعية. ثم راسله الجيش فى إبعاد الخاصكية عنه ودنو ذوى الاحلام والنهى إليه كما كان أبوه، فلم يفعل، وذلك أنه كان لا يمكنه ذلك لقوة شوكة الخاصكية

وكثرتهم ، فركب الجيش وساروا قاصدين مرج الصفر ، ولم يمكنهم العبور على دمشق بل أخذوا من شرقها ، فلما اجتمعوا كلهم بمرج الصفر أرسل السلطان أمه إليهم فتلقوها وقبلوا الأرض بين يديها ، فأخذت تتألفهم وتصلح الأمور ، فأجابوها واشترطوا شروطاً على ولدها السلطان ، فلما رجعت إليه لم يلتزم بها ولم تمكنه الخاصكية من ذلك ، فسارت العساكر إلى الديار المصرية ، فساق السلطان خلفهم ليتلافى الأمور قبل تفاقمها وانفراطها ، فلم يلحقهم وسبقوه إلى القاهرة ، وقد كان أرسل أولاده وأهله وثقله إلى الكرك فحصنهم فيها ، وركب فى طائفة من الجيش الذين بقوا معه والخاصكية إلى الديار المصرية ، فلما اقترب منها صدوه عنها وقاتلوه فقتل من الفريقين نفر يسير ، فأخذه بعض الأمراء فشق به الصفوف وأدخله قلعة الجبل ليسكن الأمر ، فما زادهم ذلك إلا نفوراً ، فحاصروا حينئذ القلعة وقطعوا عنها الماء ، وجرت خطوب طويلة وأحوال صعبة . ثم اتفق الحال بعد ذلك مع الأمير سيف الدين قلاوون الألفى الصالحى ـ وهو المشار إليه حينئذ ـ أن يترك الملك السعيد الملك ويتعوض بالكرك والشوبك ، ويكون فى صحبته أخوه نجم الدين خضر ، وتكون المملكة إلى أخيه الصغير بدر الدين سلامش ، ويكون الأمير سيف الدين قلاوون أتابكه .

﴿ ذكر خلع الملك السعيد وتولية أخيه الملك العادل سلامش ﴾

لما اتفق الحال على ما ذكرنا نزل السلطان الملك السعيد من القلعة إلى دار العدل فى سابع عشر الشهر ، وهو ربيع الآخر ، وحضر القضاة والدولة من أولى الحل والعقد ، فخلع السعيد نفسه من السلطنة وأشهدهم على نفسه بذلك ، وبايعوا أخاه بدر الدين سلامش ولقب بالملك العادل ، وعمره يومئذ سبع سنين ، وجعلوا أتابكه الأمير سيف الدين قلاوون الألفى الصالحى ، وخطب له الخطباء ورسمت السكة باسمهما ، وجعل لأخيه الكرك ولأخيه خضر الشوبك ، وكتبت بذلك مكاتيب ، ووضع القضاة والمفتيون خطوطهم بذلك ، وجاءت البريدية إلى الشام بالتحليف لهم على ما حلف عليه المصريون . ومسك الامير أيدمر نائب الشام الظاهرى واعتقل بالقلعة عند نائبها ، وكان نائبها إذ ذاك علم الدين سنجر الدوادارى ، وأحيط على أموال نائب الشام وحواصله ، وجاء على نيابة الشام الأمير شمس الدين سنقر الأشقر فى أبهة عظيمة ، وتحكم مكين ، فنزل بدار السعادة وعظمه الناس وعاملوه معاملة الملوك ، وعزل السلطان قضاة مصر الثلاثة الشافعى والحنفى والمالكى ، وولوا القضاء صدر الدين عمر بن القاضى تاج الدين بن بنت الاعز عوضا عن الشافعى ، وهو تقى الدين بن رزين وكأنهم إنما عزلوه لانه توقف فى خلع الملك السعيد والله أعلم .

﴿ ذكر بيعة الملك المنصور قلاوون الصالحى ﴾

لما كان يوم الثلاثاء الحادى والعشرين من رجب اجتمع الأمراء بقلعة الجبل من مصر وخلعوا

الملك العادل سلامش ابن الظاهر ، وأخرجوه من البين ، وإنما كانوا قد بايعوه صورة ليسكن الشر عند خلع الملك السعيد ، ثم اتفقوا على بيعة الملك المنصور قلاوون الصالحى ، ولقبوه الملك المنصور ، وجاءت البيعة إلى دمشق فوافق الأمراء وحلفوا ، وذكر أن الأمير شمس الدين سنقر الأشقر لم يحلف مع الناس ولم يرض بما وقع ، وكأنه داخله حسد من المنصور ، لأنه كان يرى أنه أعظم منه عند الظاهر . وخطب للمنصور على المنابر فى الديار المصرية والشامية ، وضربت السكة باسمه ، وجرت الأمور بمقتضى رأيه فعزل وولى ونفذت مراسيمه فى سائر البلاد بذلك ، فعزل عن الوزارة برهان الدين السنجارى وولى مكانه فخر الدين ابن لقمان كاتب السر ، وصاحب ديوان الانشاء بالديار المصرية .

وفى يوم الخميس الحادى عشر من ذى القعدة من هذه السنة توفى الملك السعيد ابن الملك الظاهر بالكرك وسيأتى ذكر ترجمته إن شاء الله تعالى . وفيها حمل الأمير أيدمر الذى كان نائب الشام فى محفة لمرض لحقه إلى الديار المصرية ، فدخلها فى أواخر ذى القعدة ، واعتقل بقلعة مصر .

﴿ ذكر سلطنة سنقر الأشقر بدمشق ﴾

لما كان يوم الجمعة الرابع والعشرين من ذى القعدة ركب الأمير شمس الدين سنقر الأشقر من دار السعادة بعد صلاة العصر وبين يديه جماعة من الامراء والجند مشاة ، وقصد باب القلعة الذى يلى المدينة ، فهجم منه ودخل القلعة واستدعى الأمراء فبايعوه على السلطنة ، ولقب بالملك الكامل ، وأقام بالقلعة ونادت المنادية بدمشق بذلك ، فلما أصبح يوم السبت استدعى بالقضاة والعلماء والاعيان ورؤساء البلد إلى مسجد أبى الدرداء بالقلعة ، وحلفهم وحلف له بقية الامراء والعسكر ، وأرسل العساكر إلى غزة لحفظ الأطراف وأخذ الغلات ، وأرسل الملك المنصور إلى الشوبك فتسلمها نوابه ولم يمانعهم نجم الدين خضر . وفيها جددت أربع أضلاع فى قبة النسر من الناحية الغربية . وفيها عزل فتح الدين بن القيسرانى من الوزارة بدمشق ووليها تقى الدين بن توبة التكريتى .

وممن توفى فيها من الأعيان .

﴿ عز الدين بن غانم الواعظ ﴾

عبد السلام بن أحمد بن غانم بن على بن إبراهيم بن عساكر بن حسين عز الدين أحمد الأنصارى المقدسى ، الواعظ المطبق المفلق الشاعر الفصيح ، الذى نسج على منوال ابن الجوزى وأمثاله ، وقد أورد له قطب الدين أشياء حسنة كثيرة مليحة ، وكان له قبول عند الناس ، تكلم مرة تجاه الكعبة المعظمة ، وكان فى الحضرة الشيخ تاج الدين بن الفزارى والشيخ تقى الدين بن دقيق العيد ، وابن العجيل من اليمن وغيرهم من العلماء والعباد ، فأجاد وأفاد وخطب فأبلغ وأحسن . نقل هذا المجلس الشيخ تاج الدين بن الفزارى ، وأنه كان فى سنة خمس وسبعين .

﴿ الملك السعيد بن الملك الظاهر ﴾

بركة خان ناصر الدين محمد بن بركة خان أبو المعالى ابن السلطان الملك الظاهر . ركن الدين بيبرس البندقدارى ، بايع له أبوه الأمراء فى حياته ، فلما توفى أبوه بويع له بالملك وله تسع عشرة سنة ، ومشيت له الأمور فى أول الأمر على السعادة ، ثم إنه غلبت عليه الخاصكية فجعل يلعب معهم فى الميدان الأخضر فيما قيل أول هوى ، فربما جاءت النوبة عليه فينزل لهم ، فأنكرت الامراء الكبار ذلك وأنفوا أن يكون ملكهم يلعب مع الغلمان ، ويجعل نفسه كأحدهم ، فراسلوه فى ذلك ليرجع عما هو عليه فلم يقبل ، فخلعوه كما ذكرنا ، وولوا السلطان الملك المنصور قلاوون فى أواخر رجب كما تقدم . ثم كانت وفاته فى هذه السنة بالكرك فى يوم الجمعة الحادى عشر من ذى القعدة ، يقال إنه سم فالله أعلم ، وقد دفن أولا عند قبر جعفر وأصحابه الذين قتلوا بموته ، ثم نقل إلى دمشق فدفن فى تربة أبيه سنة ثمانين وستمائة ، وتملك الكرك بعده أخوه نجم الدين خضر وتلقب بالملك المسعود ، فانتزعها المنصور من يده كما سيأتى إن شاء الله تعالى .

﴿ ثم دخلت سنة تسع وسبعين وستمائة ﴾

كان أولها يوم الخميس ثالث إيار ، والخليفة الحاكم بأمر الله وملك مصر الملك المنصور قلاوون الصالحى ، وبعض بلاد الشام أيضا ، وأما دمشق وأعمالها فقد ملكها سنقر الأشقر ، وصاحب الكرك الملك المسعود بن الظاهر ، وصاحب حماة الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر تقى الدين محمود ، والعراق وبلاد الجزيرة وخراسان والموصل وإربل وأذربيجان وبلاد بكر وخلاط وما والاها وغير ذلك من البلاد بأيدى التتار ، وكذلك بلاد الروم فى أيديهم أيضا ، ولكن فيها غياث الدين بن ركن الدين ، ولا حكم له سوى الاسم ، وصاحب اليمن الملك المظفر شمس الدين يوسف بن عمر ، وصاحب الحرم الشريف نجم الدين بن أبى نمى الحسنى ، وصاحب المدينة عز الدين جماز بن شيحه الحسينى .

ففى مستهل السنة المذكورة ركب السلطان الملك الكامل سنقر الأشقر من القلعة إلى الميدان وبين يديه الامراء ومقدموا الحلقة القماشية ، وعليهم الخلع والقضاة والاعيان ركاب معه ، فسير فى الميدان ساعة ثم رجع إلى القلعة ، وجاء إلى خدمته الامير شرف الدين عيسى بن مهنا ملك العرب ، فقبل الأرض بين يديه ، وجلس إلى جانبه وهو على السماط ، وقام له الكامل ، وكذلك جاء إلى خدمته ملك الاعراب بالحجاز ، وأمر الكامل سنقر أن تضاف البلاد الحلبية إلى ولاية القاضى شمس الدين بن خلكان ، وولاه تدريس الأمينية وانتزعها من ابن سنى الدولة .

ولما بلغ الملك المنصور بالديار المصرية ما كان من أمر سنقر الأشقر بالشام أرسل إليه جيشا كثيفا فهزموا عسكر سنقر الأشقر الذى كان قد أرسله إلى غزة ، وساقوهم بين أيديهم حتى وصل جيش

المصريين إلى قريب دمشق . فأمر الملك الكامل أن يضرب دهليزه بالجسورة . وذلك فى يوم الار بعاء ثانى عشر صفر ، ونهض بنفسه ومن معه فنزل هنالك واستخدم خلقا كثيراً وأنفق أموالا جزيلة ، وانضاف إليه عرب الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا ، وشهاب الدين أحمد بن حجى ، وجاءته نجدة حلب ونجدة حماة ورجال كثيرة من رجال بعلبك . فلما كان يوم الأحد السادس عشر من صفر أقبل الجيش المصرى صحبة الأمير علم الدين سنجر الحلبى . فلما تراءا الجمعان وتقابل الفريقان تقاتلوا إلى الرابعة فى النهار ، فقتل نفر كثير وثبت الملك الكامل سنقر الأشقر ثباتاً جيداً ، ولكن خامر عليه الجيش فمنهم من صار إلى المصرى ومنهم من انهزم فى كل وجه ، وتفرق عنه أصحابه فلم يسعه إلا الانهزام على طريق المرج فى طائفة يسيرة ، فى صحبة عيسى بن مهنا . فسار بهم إلى برية الرحبة فأنزلهم فى بيوت من شعر . وأقام بهم و بدوابهم مدة مقامهم عنده ، ثم بعث الأمراء الذين انهزموا عنه فأخذوا لهم أمانا من الأمير سنجر ، وقد نزل فى ظاهر دمشق وهى مغلوقة ، فراسل نائب القلعة ولم يزل به حتى فتح باب الفرج من آخر النهار ، وفتحت القلعة من داخل البلد فتسلمها المنصور وأفرج عن الامير ركن الدين بيبرس العجمى المعروف بالجالق . والامير لاجين حسام الدين المنصورى وغيرهم من الامراء الذين كان قد اعتقلهم الامير سنقر الأشقر ، وأرسل سنجر البريدية إلى الملك المنصور يعلمونه بصورة الحال ، وأرسل سنجر بثلاثة آلاف فى طلب سنقر الأشقر .

وفى هذا اليوم جاء ابن خلكان ليسلم على الامير سنجر الحلبى فاعتقله فى علو الخانقاه النجيبية ، وعزله فى يوم الخميس العشرين من صفر ، ورسم للقاضى نجم الدين بن سنى الدولة بالقضاء فباشره ، ثم جاءت البريدية معهم كتاب من الملك المنصور قلاوون بالعتب على طوائف الناس ، والعفو عنه كلهم ، فتضاعفت له الادعية ، وجاء تقليد النيابة بالشام للأمير حسام الدين لاجين السلحدارى المنصورى ، فدخل معه علم الدين سنجر الحلبى فرتبه فى دار السعادة، وأمر سنجر القاضى ابن خلكان أن يتحول من المدرسة العادلية الكبيرة ليسكنها نجم الدين بن سنى الدولة ، وألح عليه فى ذلك . فاستدعى جمالا لينقل أهله وثقله عليها إلى الصالحية فجاء البريد بكتاب من السلطان فيه تقرير ابن خلكان على القضاء والعفو عنه وشكره والثناء عليه ، وذكر خدمته المتقدمة ، ومعه خلعة سنية له فلبسها وصلى بها الجمعة وسلم على الأمراء فأكرموه وعظموه، وفرح الناس به وبما وقع من الصفح عنه .

وأما سنقر الأشقر فانه لما خرجت العساكر فى طلبه فارق الامير عيسى بن مهنا وسار إلى السواحل فاستحوذ منها على حصون كثيرة . منها صهيون . وقد كان بها أولاده وحواصله . وحصن بلاطس وبرزية وعكا وجبلة واللاذقية ، والشغر بكاس وشيزر واستناب فيها الأمير عز الدين ازدمر الحاج . فأرسل السلطان المنصور لحصار شيزر طائفة من الجيش ، فبينما هم كذلك إذ أقبلت

التتار لما سمعوا بتفريق كلمة المسلمين ، فانجفل الناس من بين أيديهم من سائر البلاد إلى الشام ، ومن الشام إلى مصر ، فوصلت التتار إلى حلب فقتلوا خلقا كثيراً ، ونهبوا جيشاً كبيراً ، وظنوا أن جيش سنقر الأشقر يكون معهم على المنصور ، فوجدوا الأمر بخلاف ذلك ، وذلك أن المنصور كتب إلى سنقر الأشقر. إن التتار قد أقبلوا إلى المسلمين، والمصلحة أن نتفق عليهم لئلا يهلك المسلمون بيننا وبينهم ، وإذا ملكوا البلاد لم يدعوا منا أحدا . فكتب إليه سنقر بالسمع والطاعة وبرز من حصنه فخيم بجيشه ليكون على أهبة متى طلب أجاب ، ونزلت نوابه من حصونهم وبقوا مستعدين لقتال التتار ، وخرج الملك المنصور من مصر فى أواخر جمادى الآخرة ومعه العساكر . وفى يوم الجمعة الثالث من جمادى الآخرة قرئ على منبر جامع دمشق كتاب من السلطان أنه قد عهد إلى ولده على ، ولقب بالملك الصالح ، فلما فرغ من قراءة الكتاب جاءت البريدية فأخبروا برجوع التتار من حلب إلى بلادهم ، وذلك لما بلغهم من اتفاق كلمة المسلمين ، ففرح المسلمون بذلك ولله الحمد . وعاد المنصور إلى مصر وكان قد وصل إلى غزة ،أراد بذلك تخفيف الوطأة عن الشام فوصل إلى مصر فى نصف شعبان .

وفى جمادى الآخرة أعيد برهان الدين السنجارى إلى وزارة مصر ورجع فخر الدين بن لقمان إلى كتابة الانشاء . وفى أواخر رمضان أعيد إلى القضاء ابن رزين وعزل ابن بنت الأعز . وأعيد القاضى نفيس الدين بن شكر المالكى ، ومعين الدين الحنفى . وتولى قضاء الحنابلة عز الدين المقدسى . وفى ذى الحجة جاء تقليد ابن خلكان باضافة المعاملة الحلبية إليه يستنيب فيها من شاء من نوابه . وفى مستهل ذى الحجة خرج الملك المنصور من بلاد مصر بالعساكر قاصداً الشام ، واستناب على مصر ولده الملك الصالح على بن المنصور إلى حين رجوعه ، قال الشيخ قطب الدين : وفى يوم عرفة وقع بمصر برد كبار أتلف شيئا كثيراً من المغلات ، ووقعت صاعقة بالاسكندرية وأخرى فى يومها تحت الجبل الأحمر على صخرة فأحرقتها ، فأخذ ذلك الحديد فسبك فخرج منه أواق بالرطل المصرى . وجاء السلطان فنزل بعساكره تجاه عكا . فخافت الفرنج منه خوفا شديدا وراسلوه فى طلب تجديد الهدنة ، وجاء الأمير عيسى بن مهنا من بلاد العراق إلى خدمة المنصور ، وهو بهذه المنزلة فتلقاه السلطان بجيشه وأكرمه واحترمه وعامله بالصفح والعفو والاحسان

وممن توفى فيها من الأعيان .

﴿ الأمير الكبير جمال الدين آقوش الشمسى ﴾

أحد أمراء الاسلام ، وهو الذى باشر قتل كتبغانوين أحد مقدمى التتار ، وهو المطاع فيهم يوم عين جالوت . وهو الذى مسك عز الدين أيدمر الظاهرى فى حلب من السنة الماضية . وكانت وفاته بها .

﴿ الشيخ الصالح داود بن حاتم ﴾

ابن عمر الحبال ، كان حنبلي المذهب له كرامات وأحوال صالحة ومكاشفات صادقة ، وأصل آبائه من حران ، وكانت إقامته ببعلبك ، وتوفي فيها رحمه الله عن ست وتسعين سنة ، وقد أثنى عليه الشيخ قطب الدين ابن الشيخ الفقيه اليونيني

﴿ الأمير الكبير ﴾

نور الدين علي بن عمر أبو الحسن الطوري ، كان من أكابر الأمراء ، وقد نيف على تسعين سنة وكانت وفاته بسبب أنه وقع يوم مصاف سنقر الأشقر تحت سنابك الخيل فمكث بعد ذلك متمرضاً إلى أن مات بعد شهرين ودفن بسفح قاسيون .

﴿ الجزار الشاعر ﴾

يحيى بن عبد العظيم بن يحيى بن محمد بن علي جمال الدين أبو الحسين المصري ، الشاعر الماجن ، المعروف بالجزار . مدح الملوك والوزراء والأمراء ، وكان ماجنا ظريفا حلو المناظرة ، ولد في حدود ستمائة بعدها بسنة أو سنتين ، وتوفي يوم الثلاثاء ثاني عشر شوال من هذه السنة . ومن شعره :

أدركوني فبي من البرد هم ‏ * ‏ ليس ينسى وفي حشاي التهاب
ألبستني الأطماع وهما فها ‏ * ‏ جسمي عار ولي فرى وثياب
كلما ازرق لون جسمي من الـ ‏ * ‏ برد تخيلت أنه سنجاب

وقال وقد تزوج أبوه بعجوزة

تزوج الشيخ أبي شيخة ‏ * ‏ ليس لها عقل ولا ذهن
كأنها في فرشها رمة ‏ * ‏ وشعرها من حولها قطن
وقال لي كم سنها ‏ * ‏ قلت ليس في فمها سن
لو أسفرت غرتها في الدجى ‏ * ‏ ما جسرت تبصرها الجن

﴿ ثم دخلت سنة ثمانين وستمائة من الهجرة ﴾

استهلت والخليفة الحاكم وسلطان البلاد الملك المنصور قلاوون . وفي عاشر المحرم انعقدت الهدنة بين أهل عكا والمرقب والسلطان ، وكان نازلا على الروحاء وقد قبض على جماعة من الأمراء ممن كان معه ، وهرب آخرون إلى قلعة صهيون إلى خدمة سنقر الأشقر ، ودخل المنصور إلى دمشق في التاسع عشر من المحرم فنزل القلعة وقد زينت له البلد ، وفي التاسع والعشرين من المحرم أعاد القضاء إلى عز الدين بن الصائغ وعزل ابن خلكان . وفي أول صفر باشر قضاء الحنابلة نجم الدين ابن الشيخ شمس بن أبي عمر ، وقد كان المنصب شاغراً منذ عزل والده نفسه عن القضاء ، وتولي

قضاء حلب فى هذا الشهر تاج الدين يحيى بن محمد بن إسماعيل الكردى ، وجلس الملك المنصور فى دار العدل فى هذا الشهر فحكم وأنصف المظلوم من الظالم ، وقدم عليه صاحب حماة فتلقاه المنصور بنفسه فى موكبه ، ونزل بداره بباب الفراديس . وفى ربيع الأول وقع الصلح بين الملك المنصور قلاوون وبين سنقر الأشقر الملك الكامل على أن يسلم للسلطان شيزر ويعوضه عنها بانطاكية وكفر طاب وشغر بكاس وغير ذلك ، وعلى أن يقيم على ما بيده ستمائة فارس ، وتحالفا على ذلك ، ودقت البشائر لذلك ، وكذلك تصالح صاحب الكرك والملك المنصور خضر بن الظاهر على تقرير ما بيده ونودى بذلك فى البلاد . وفى العشر الأول من هذا الشهر ضمن الخمر والزنا بدمشق ، وجعل عليه ديوان ومشد ، فقام فى إبطال ذلك جماعة من العلماء والصلحاء والعباد ، فأبطل بعد عشرين يوماً ، وأريقت الخمور وأقيمت الحدود ولله الحمد والمنة .

وفى تاسع عشر ربيع الأول وصلت الخاتون بركة خان زوجة الملك الظاهر ومعها ولدها السعيد قد نقلته من قرية المساجد بالقرب من الكرك لتدفنه عند أبيه بالتربة الظاهرية ، فرفع بحبال من السور ودفن عند والده الظاهر ، ونزلت أمه بدار صاحب حمص ، وهيئت لها الاقامات ، وعمل عزاء ولدها يوم الحادى والعشرين من ربيع الآخر بالتربة المذكورة ، وحضر السلطان المنصور وأرباب الدولة والقراء والوعاظ .

وفى أواخر ربيع الآخر عزل التقى بن توبة التكريتى من الوزارة بدمشق وباشرها بعده تاج الدين السهنورى ، وكتب السلطان المنصور إلى مصر وغيرها من البلاد يستدعى الجيوش لأجل اقتراب مجىء التتار ، فدخل أحمد بن حجى ومعه بشر كثير من الأعراب ، وجاء صاحب الكرك الملك المسعود نجدة للسلطان يوم السبت الثانى عشر من جمادى الآخرة ، وقدم الناس عليه ووفدوا إليه من كل مكان ، وجاءته التركمان والأعراب وغيرهم ، وكثرت الأراجيف بدمشق ، وكثرت العساكر بها وجفل الناس من بلاد حلب وتلك النواحى ، وتركوا الغلات والاموال خوفا من أن يدهمهم العدو من التتار ، ووصلت التتر صحبة منكوتمر بن هولاكو إلى عنتاب ، وسارت العساكر المنصورة إلى نواحى حلب يتبع بعضها بعضا ، ونازلت التتار بالرحبة فى أواخر جمادى الآخر جماعة من الاعراب ، وكان فيهم ملك التتار إبغا مختفيا ينظر ماذا يفعل أصحابه ، وكيف يقاتلون أعداءه ، ثم خرج المنصور من دمشق وكان خروجه منها فى أواخر جمادى وقنت الخطباء والائمة بالجوامع والمساجد فى الصلوات وغيرها وجاء مرسوم من السلطان باستسلام أهل الذمة من الدواوين والكتبة . ومن لايسلم يصلب ، فأسلموا كرها ، وكانوا يقولون آمنا وحكم الحاكم بأسلامنا بعد أن عرض من امتنع منهم على الصلب بسوق الخيل ، وجعلت الحبال فى أعناقهم ، فأجابوا والحالة هذه ، ولما انتهى الملك المنصور إلى حمص كتب

إلى الملك الكامل سنقر الاشقر يطلبه إليه نجدة فجاء إلى خدمته فأكرمه السلطان واحترمه ورتب له الاقامات ، وتكاملت الجيوش كلها فى صحبة الملك المنصور عازمين على لقاء العدو لامحالة مخلصين فى ذلك ، واجتمع الناس بعد خروج الملك فى جامع دمشق ووضعوا المصحف العثمانى بين أيديهم ، وجعلوا يبتهلون إلى الله تعالى فى نصرة الاسلام وأهله على الاعداء ، وخرجوا كذلك والمصحف على رؤسهم إلى المصلى يدعون ويبتهلون ويبكون ، وأقبلت التتار قليلا قليلا فلما وصلوا حماة أحرقوا بستان الملك وقصره وما هنالك من المساكن ، والسلطان المنصور مخيم بحمص فى عساكر من الأتراك والتركمان وغيرهم جحفل كثير جداً ، وأقبلت التتار فى مائة ألف مقاتل أو يزيدون ، فانا لله وإنا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

﴿ وقعة حمص ﴾

لما كان يوم الخميس رابع عشر رجب التقى الجمعان وتواجه الخصمان عند طلوع الشمس وعسكر التتر فى مائة ألف فارس ، وعسكر المسلمين على النصف من ذلك أو يزيد قليلا ، والجميع فيما بين مشهد خالد بن الوليد إلى الرستن ، فاقتتلو قتالا عظيما لم ير مثله من أعصار متطاولة ، فاستظهر التتار أول النهار ، وكسروا الميسرة واضطربت الميمنة أيضاً وبالله المستعان . وكسر جناح القلب الأيسر وثبت السلطان ثباتا عظيما جداً فى جماعة قليلة ، وقد انهزم كثير من عسكر المسلمين ، والتتار فى آثارهم حتى وصلوا وراءهم إلى بحيرة حمص ووصلوا حمص وهى مغلقة الأبواب ، فقتلوا خلقا من العامة وغيرهم ، وأشرف المسلمون على خطة عظيمة من الهلاك ، ثم إن أعيان الأمراء من الشجعان والفرسان تآمروا فيما بينهم مثل سنقر الأشقر وبيسرى وطيبرس الوزيرى وبدر الدين أمير سلاح وايتمش السعدى وحسام الدين لاجين وحسام الدين طرنطاى والدويدارى وأمثالهم ، لما رأوا ثبات السلطان ردوا إلى السلطان ، حملوا حملات متعددة صادقة ، ولم يزالو يتابعون الحملة بعد الحملة حتى كسر الله بحوله وقوته التتر ، وجرح منكوتمر ، وجاءهم الأمير عيسى بن مهنا من ناحية العرض فصدم التتر فاضربت الجيوش لصدمته ، وتمت الهزيمة ولله الحمد ، وقتلوا من التتار مقتلة عظيمة جداً ، ورجعت من التتار الذين اتبعوا المنهزمين من المسلمين فوجدوا أصحابهم قد كسروا ، والعساكر فى آثارهم يقتلون ويأسرون ، والسلطان ثابت فى مكانه تحت السناجق ، والكوسات تضرب خلفه وما معه إلا ألف فارس ، فطمعوا فيه فقاتلوه فثبت لهم ثباتا عظيما فانهزموا من بين يديه فلحقهم فقتل أكثرهم ، وكان ذلك تمام النصر ، وكان انهزام التتار قبل الغروب ، وافترقوا فرقتين أخذت فرقة منهم إلى ناحية سلمية والبرية ، والأخرى إلى ناحية حلب والفرات ، فأرسل السلطان فى آثارهم من يتبعهم وجاءت البطاقة بالبشارة بما وقع من النصر إلى دمشق يوم الجمعة خامس عشر رجب ، فدقت البشائر وزينت

البلد ، وأوقدت الشموع وفرح الناس . فلما أصبح الناس يوم السبت أقبلت طائفة من المنهزمين منهم بيليك الناصرى والحالق وغيرهم ، فأخبروا الناس بما شاهدوه من الهزيمة فى أول الأمر، ولم يكونوا شاهدوا بعد ذلك ، فبقى الناس فى قلق عظيم ، وخوف شديد ، وتهيأ ناس كثير للهرب ، فبينما الناس فى ذلك إذ أقبلت البريدية فأخبروا الناس بصورة ما وقع فى أول الأمر وآخره ، فتراجع الناس وفرحوا فرحا شديداً ولله الحمد والمنة .

ثم دخل السلطان إلى دمشق الثانى والعشرين من رجب ، وبين يديه الأسارى بأيديهم الرماح عليها شقف رؤس القتلى ، وكان يوما مشهوداً ، ومع السلطان طائفة من أصحاب سنقر الأشقر منهم علم الدين الدويدارى ، فنزل السلطان بالقلعة مؤيداً منصوراً ، وقد كثرت له المحبة والأدعية وكان سنقر الأشقر ودع السلطان من حمص و رجع إلى صهيون ، وأما التتر فانهم انهزموا فى أسوأ حال وأتعسه يتخطفون من كل جانب ، ويقتلون من كل فج ، حتى وصلوا إلى الفرات فغرق أكثرهم ، ونزل إليهم أهل البيرة فقتلوا منهم خلقا كثيراً وأسروا آخرين ، والجيوش فى آثارهم يطردونهم عن البلاد حتى أراح الله منهم الناس .

وقد استشهد فى هذه الوقعة جماعة من سادات الأمراء منهم الأمير الكبير الحاج عز الدين أزدمر جمدار، وهو الذى جرح ملك التتار يومئذ منكوتمر ، فانه خاطر بنفسه وأوهم أنه مقفز إليه وقلب رمحه حتى وصل إليه فطعنه فجرحه فقتلوه رحمه الله ، ودفن بالقرب من مشهد خالد .

وخرج السلطان من دمشق قاصدا الديار المصرية يوم الاحد ثانى شعبان والناس يدعون له ، وخرج معه علم الدين الدويدارى ، ثم عاد من غزة وقد ولاه المشد فى الشام والنظر فى المصالح ، ودخل السلطان إلى مصر فى ثانى عشر شعبان . وفى سلخ شعبان ولى قضاء مصر والقاهرة للقاضى وجيه الدين البهنسى الشافعى ، وفى يوم الأحد سابع رمضان فتحت المدرسة الجوهرية بدمشق فى حياة منشئها و واقفها الشيخ نجم الدين محمد بن عباس بن أبى المكارم التميمى الجوهرى ، ودرس بها قاضى الحنفية حسام الدين الرازى . وفى بكرة يوم السبت التاسع والعشرين من شعبان وقعت مأذنة مدرسة أبى عمر بقاسيون على المسجد العتيق فمات شخص واحد ، وسلم الله تعالى بقية الجماعة . وفى عاشر رمضان وقع بدمشق ثلج عظيم وبرد كثير مع هواء شديد ، بحيث إنه ارتفع عن الارض نحواً من ذراع ، وفسدت الخضراوات ، وتعطل على الناس معايش كثيرة . وفى شوال وصل صاحب سنجار إلى دمشق مقفزا من التتار داخلا فى طاعة السلطان بأهله وماله ، فتلقاه نائب البلد وأكرمه وسيره إلى مصر معززاً مكرماً .

وفى شوال عقد مجلس بسبب أهل الذمة من الكتاب الذين كانوا قد أسلموا كرها وقد كتب

لهم جماعة من المفتيين بأنهم كانوا مكرهين فلهم الرجوع إلى دينهم ، وأثبت الاكراه بين يدى القاضى جمال الدين ابن أبى يعقوب المالكى . فعاد أكثرهم إلى دينهم وضربت عليهم الجزية كما كانوا ، سود الله وجوههم يوم تبيض وجوه وتسود وجوه. وقيل : إنهم غرموا مالا جزيلا جملة مستكثرة على ذلك ، قبحهم الله .

وفى ذى القعدة قبض السلطان على أيتمش السعدى وسجنه بقلعة الجبل ، وقبض نائبه بدمشق على سيف الدين بلبان الهارونى وسجنه بقلعتها . وفى بكرة الخميس التاسع والعشرين من ذى القعدة ، وهو العاشر من أذار ، استسقى الناس بالمصلى بدمشق فسقوا بعد عشرة أيام . وفى هذه السنة أخرج الملك المنصور جميع آل الملك الظاهر من النساء والولدان والخدام من الديار المصرية إلى الكرك ليكونوا فى كنف الملك المسعود خضر بن الظاهر

وممن توفى فيها من الأعيان . ﴿ أبغا ملك التتار بن هولاكوخان ﴾

ابن تولى بن جنكيزخان . كان عالى الهمة بعيد الغور له رأى وتدبير ، و بلغ من العمر خمسين سنة ، ومدة ملكه ثمانى عشرة سنة، ولم يكن بعد والده فى التدبير والحزم مثله . ولم تكن وقعة حمص هذه برأيه ولا عن مشورته ، ولكن أخوه منكوتمر أحب ذلك فلم يخالفه . ورأيت فى بعض تاريخ البغاددة أن قدوم منكوتمر إلى الشام إنما كان عن مكاتبة سنقر الاشقر إليه فالله أعلم . وقد جاء إبغا هذا بنفسه فنزل قريبا من الفرات ليرى ماذا يكون من الأمر ، فلما جرى عليهم ما جرى ساءه ذلك ومات غما وحزناً . توفى بين العيدين من هذه السنة ، وقام بالملك بعده ولده السلطان أحمد . وفيها توفى .

﴿ قاضى القضاة ﴾

نجم الدين أبو بكر بن قاضى القضاة صدر الدين أحمد بن قاضى القضاة شمس الدين يحيى بن هبة الله ابن الحسن بن يحيى بن محمد بن على الشافعى ابن سنى الدولة . ولد سنة ست عشرة وستمائة ، وسمع الحديث و برع فى المذهب ، وناب عن أبيه فشكرت سيرته . واستقل بالقضاء فى الدولة المظفرية قطز أيضا ، وكان الشيخ شهاب الدين ينال منه ومن أبيه ، وقال البرزالى : كان شديداً فى الاحكام متحريا ً، وقد ألزم بالمقام بمصر فدرس بجامع مصر، ثم عاد إلى دمشق فدرس بالأمينية والركنية، وباشر قضاء حلب ، وعاد إلى دمشق ، وولاه سنجر قضاء دمشق . ثم عزل بابن خلكان كما تقدم ، ثم كانت وفاته يوم الثلاثاء من المحرم ، ودفن من الغد يوم تاسوعاء بتربة جده بقاسيون . وفى عاشر المحرم توفى

﴿ قاضى القضاة صدر الدين عمر ﴾

ابن القاضى تاج الدين عبد الوهاب بن خلف بن أبى القاسم الغلابى ابن بنت الأعز المصرى ، كان فاضلا بارعاً عارفاً بالمذهب . متحريا فى الأحكام كأبيه . ودفن بالقرافة .

﴿ الشيخ إبراهيم بن سعيد الشاغورى ﴾

الموله المعروف بالجيعانة ، كان مشهوراً بدمشق ، ويذكر له أحوال ومكاشفات على ألسنة العوام ومن لا يعقل ، ولم يكن ممن يحافظ على الصلوات ولا يصوم مع الناس ، ومع هذا كان كثير من العوام وغيرهم يعتقدونه . توفى يوم الأحد سابع جمادى الأولى ودفن بتربة المولهين بسفح قاسيون عند الشيخ يوسف القيميني ، وقد توفى الشيخ يوسف قبله بمدة . وكان الشيخ يوسف يسكن إقمين حمام نور الدين الشهيد بالبزوريين ، وكان يجلس على النجاسات والقذر ، وكان يلبس ثياباً بداوية تجحف على النجاسات فى الأزقة . وكان له قبول من الناس ومحبة وطاعة . وكان العوام يغالون فى محبته واعتقاده . وكان لا يصلى ولا يتقى نجاسة ، ومن جاءه زائراً جلس عند باب الأقمين على النجاسة . وكان العوام يذكرون له مكاشفات وكرامات ، وكل ذلك خرافات من خرافات العوام وأهل الهذيان كما يعتقدون ذلك فى غيره من المجانين والمولهين . ولما مات الشيخ يوسف القميني خرج خلق فى جنازته من العوام وغيرهم ، وكانت جنازته حافلة بهم ، وحمل على أعناق الرجال إلى سفح قاسيون ، وبين يديه غوغاء وغوش كثير وتهليل وأمور لا تجوز من فعل العوام ، حتى جاؤا به إلى تربة المولهين بقاسيون فدفنوه بها ، وقد اعتنى بعض العوام بقبره فعمل عليه حجارة منقوشة وعمل على قبره سقفاً مقرنصاً بالدهان وأنواعه ، وعمل عليه مقصورة وأبوابا ، وغالى فيه مغالاة زائدة ، ومكث هو وجماعة مجاورون عنده مدة فى قراءة وتهليل ، ويطبخ لهم الطبيخ فيأكلون ويشربون هناك . والمقصود أن الشيخ إبراهيم الجيعانة لما مات الشيخ يوسف الأقميني جاء من الشاغور إلى باب الصغير فى جماعة من أتباعه ، وهم فى صراخ وضجة وغوش كثير ، وهم يقولون : أذن لنا فى دخول البلد أذن لنا فى دخول البلد ، يكررون ذلك . فقيل له فى ذلك فقال : لى عشرون سنة ما دخلت داخل سور دمشق ، لأنى كنت كلما أتيت باباً من أبوابها أجد هذا السبع رابضاً بالباب فلا أستطيع الدخول خوفا منه ، فلما مات أذن لنا فى الدخول ، وهذا كله ترويج على الطغام والعوام من الهمج الرعاع ، الذين هم أتباع كل ناعق . وقيل إن الشيخ يوسف كان يرسل إلى الجيعانة مما يأتيه من الفتوح والله سبحانه أعلم بأحوال العباد ، وإليه المنقلب والمآب ، وعليه الحساب .

وقد ذكرنا أنه استشهد فى وقعة حمص جماعة من الأمراء منهم الأمير عز الدين أزدمر السلحدارى عن نحو من ستين سنة ، وكان من خيار الامراء وله همة عالية ينبغى أن ينال بها مكانا عاليا فى الجنة

﴿ قاضى القضاة ﴾

تقى الدين أبو عبد الله محمد بن الحسين بن رزين بن موسى العامرى الحموى الشافعى ، ولد سنة ثلاث وستمائة ، وقد سمع الحديث وانتفع بالشيخ تقى الدين بن الصلاح ، وأم بدار الحديث مدة ،

ودرس بالشامية ، وولى وكالة بيت المال بدمشق ، ثم سار إلى مصر فدرس بها بعدة مدارس ، وولى الحكم بها ، وكان مشكوراً ، توفى ليلة الأحد ثالث رجب منها ، ودفن بالمقطم .

وفى يوم السبت الرابع والعشرين من ذى القعدة توفى .

(الملك الأشرف)

مظفر الدين موسى بن الملك الزاهر محيى الدين داود المجاهد بن أسد الدين شيركوه بن الناصر ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه بن شاذى ابن صاحب حمص ، ودفن بتربتهم بقاسيون .

وفى ذى القعدة توفى (الشيخ جمال الدين الاسكندرى)

الحاسب بدمشق ، وكان له مكتب تحت منارة كيروز ، وقد انتفع به خلق كثير ، وكان شيخ الحساب فى وقته رحمه الله (الشيخ علم الدين أبو الحسن)

محمد بن الامام أبى على الحسين بن عيسى بن عبد الله بن رشيق الربعى المالكى المصرى ، ودفن بالقرافة ، وكانت له جنازة حافلة ، وقد كان فقيها مفتيا ، سمع الحديث وبلغ خمسا وثمانين سنة .

وفى يوم الاثنين الخامس والعشرين من ذى الحجة توفى .

(الصدر الكبير أبو الغنائم المسلم)

محمد بن المسلم مكى بن خلف بن غيلان ، القيسى الدمشقى ، مولده سنة أربع وتسعين ، وكان من الرؤساء الكبار ، وأهل البيوتات ، وقد ولى نظر الدواوين بدمشق وغير ذلك ، ثم ترك ذلك كله وأقبل على العبادة وكتابة الحديث ، وكان يكتب سريعا يكتب فى اليوم الواحد ثلاث كراريس وقد أسمع مسند الامام أحمد ثلاث مرات ، وحدث بصحيح مسلم وجامع الترمذى وغير ذلك ، وسمع منه البرزالى والمزى وابن تيمية ، ودفن من يومه بسفح قاسيون عن ست وثمانين سنة ، رحمهم الله جميعا (الشيخ صفى الدين)

أبو القاسم بن محمد بن عثمان بن محمد التميمى الحنفى ، شيخ الحنفية ببصرى ، ومدرس الأمينية بها مدة سنين كثيرة ، كان بارعاً فاضلا عالما عابداً منقطعاً عن الناس ، وهو والد قاضى القضاة صدر الدين على ، وقد عمر دهراً طويلا ، فانه ولد فى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وتوفى ليلة نصف شعبان من هذه السنة عن تسع وتسعين سنة رحمه الله .

(ثم دخلت سنة إحدى وثمانين وستمائة)

استهلت والخليفة الحاكم بأمر الله والسلطان الملك المنصور قلاوون . وفيها أرسل ملك التتار أحمد إلى الملك المنصور يطلب منه المصالحة وحقن الدماء فيما بينهم ، وجاء فى الرسلية الشيخ قطب الدين الشيرازى أحد تلامذة النصير الطوسى ، فأجاب المنصور إلى ذلك وكتب المكاتبات إلى ملك

التتر بذلك . وفى مستهل صفر قبض السلطان على الأمير الكبير بدر الدين بيسرى السعدى ، وعلى الأمير علاء الدين السعدى الشمسى أيضاً .

وفيها درس القاضى بدر الدين بن جماعة بالقيمرية ، والشيخ شمس الدين ابن الصفى الحريرى بالسرحانية ، وعلاء الدين بن الزملكانى بالأمينية . وفى يوم الاثنين الحادى عشر من رمضان وقع حريق باللبادين عظيم ، وحضر نائب السلطنة إذ ذاك الامير حسام الدين لاجين السلحدار وجماعة كثيرة من الامراء ، وكانت ليلة هائلة جداً وقى الله شرها ، واستدرك بعد ذلك أمرها القاضى نجم الدين بن النحاس ناظر الجامع ، فأصلح الأمر وسد وأعاد البناء أحسن مما كان ولله الحمد والمنة .

وممن توفى فيها من الأعيان ﴿ الشيخ الصالح بقية السلف ﴾

برهان الدين أبو إسحاق ابن الشيخ صفى الدين أبى الفدا إسماعيل بن إبراهيم بن يحيى بن علوى ابن الرضى الحنفى إمام المعزية بالكشك . وأسمع من جماعة منهم الكندى ابن الحرستانى ولكن لم يظهر سماعه منهما إلا بعد وفاته ، وقد أجاز له أبو نصر الصيدلانى وعفيفة الفارقانية وابن الميدانى ، وكان رجلا صالحاً محباً لاسماع الحديث ، كثير البر بالطلبة له ، وقد قرأ عليه الحافظ جمال الدين المزى معجم الطبرانى الكبير ، وسمعه منه بقراءة الحافظ البرزالى وجماعة كثيرون . وكان مولده فى سنة تسع وتسعين [وخمسمائة] وتوفى يوم الأحد سابع صفر ، وهو اليوم الذى قدم فيه الحجاج إلى دمشق من الحجاز ، وكان هو معهم فمات بعد استقراره بدمشق .

﴿ القاضى أمين الدين الاشترى ﴾

أبو العباس أحمد بن شمس الدين أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبد الجبار بن طلحة الحلبى المعروف بالأشترى الشافعى ، المحدث ، سمع الكثير وحصل ووقف أجزاء بدار الحديث الأشرفية وكان الشيخ محى الدين النووى يثنى عليه ويرسل إليه الصبيان ليقرأوا عليه فى بيته لأمانته عنده ، وصيانته وديانته .

﴿ الشيخ برهان الدين أبو الثناء ﴾

محمود بن عبد الله بن عبد الرحمن المراغى الشافعى ، مدرس الفلكية ، كان فاضلا بارعاً ، عرض عليه القضاء فلم يقبل ، توفى يوم الجمعة الثالث والعشرين من ربيع الآخر عن ست وسبعين سنة ، وسمع الحديث وأسمعه ، ودرس بعده بالفلكية القاضى بهاء الدين بن الزكى .

﴿ القاضى الامام العلامة شيخ القراء زين الدين ﴾

أبو محمد بن عبد السلام بن على بن عمر الزواوى المالكى ، قاضى قضاة المالكية بدمشق ، وهو أول من باشر القضاء بها ، وعزل نفسه عنها تورعاً وزهادة ، واستمر بلا ولاية ثمان سنين ، ثم كانت وفاته ليلة الثلاثاء ثامن رجب منها عن ثلاث وثمانين سنة ، وقد سمع الحديث واشتغل على السنجارى

وابن الحاجب .

﴿ الشيخ صلاح الدين ﴾

محمد بن القاضى شمس الدين علـى بن محمود بن علـى الشهر زورى ، مدرس القيمرية وابن مدرسها ، توفى فى أواخر رجب ، وتوفى أخوه شرف الدين بعده بشهر ، ودرس بالقيمرية بعد الصلاح المذكور القاضى بدر الدين ابن جماعة .

﴿ ابن خلكان قاضى القضاة ﴾

شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبى بكر بن خلـكان الأربلى الشافعى أحد الأئمة الفضلاء ، والسادة العلماء ، والصدور الرؤساء ، وهو أول من جدد فى أيامه قضاء القضاة من سائر المذاهب ، فاشتغلوا بالاحكام بعد ما كانوا نوابا له ، وقد كان المنصب بينه وبين ابن الصائغ دولا يعزل هذا تارة ويولى هذا ، ويعزل هذا ويولى هذا ، وقـد درس ابن خلـكان فى عـدة مدارس لم تجتمع لغيره ، ولم يبق معـه فى آخر وقت سوى الامينية ، وبيـد ابنه كمال الدين موسى النجيبية . توفى ابن خلـكان بالمدرسة النجيبية المذكورة بايوانها يوم السبت آخر النهار ، فى السادس والعشرين من رجب ، ودفن من الغد بسفح قاسيون عن ثلاث وسبعين سنة . وقد كان ينظم نظما حسنا رائقا ، وقد كانت محاضرته فى غاية الحسن ، وله التاريخ المفيد الذى رسم بوفيات الاعيان من أبدع المصنفات ، والله سبحانه أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين وستمائة ﴾

فيها قدم الملك المنصور إلى دمشق فى يوم الجمعة سابع رجب فى أبهة عظيمة ، وكان يوماً مشهوداً وفيها ولى الخطابة بدمشق الشيخ عبد الـكافى بن عبد الملك بن عبد الـكافى عوضاً عن محيى الدين ابن الحرستانى الذى توفى فيها كما سيأتى ، وخطب يوم الجمعة الحادى والعشرين من رجب من هذه السنة وفى هذا اليوم قبـل الصلاة احتيط على القاضى عز الدين بن الصائغ بالقلعة وأثبت ابن الحصرى نائب الحنفى محضرا يتضمن أن عنـده وديعة بمقدار ثمانية آلاف دينار ، من جهة ابن الاسكاف ، وكان الذى أثار ذلك شخص قدم من حلب يقال له تاج الدين بن السنجارى ، وولى القضاء بعده بهاء الدين يوسف بن محيى الدين ابن الزكى ، وحكم يوم الاحد ثالث وعشرين رجب ومنع الناس من زيارة ابن الصائغ ، وسـعى بمحضر آخر أن عنده وديعة بقيمة خمسـة وعشرين ألف دينـار للصالح إسماعيل بن أسد الدين ، وقام فى ذلك ابن الشاكرى والجمـال بن الحموى وآخرون ، وتـكلموا فى قضية ثالثة ، ثم عقد له مجلس ناله فيه شدة شديدة ، وتعصبوا عليه ثم أعيـد إلى اعتقاله ، وقام فى صفه نائب السلطنة حسام الدين لاجين ، وجماعـة من الامراء ، فـكلموا فيـه السلطان فأطلقه وخرج إلى منزله ، وجاء الناس إلى تهنئته يوم الاثنين الثالث والعشرين من شـعبان ، وانتقل من

العادلية إلى داره بدرب النقاشة ، وكان عامة جلوسه فى المسجد تجاه داره .

وفى رجب باشر حسبة دمشق جمال الدين بن صصرى . وفى شعبان درس الخطيب جمال الدين ابن عبد الكافى بالغزالية عوضاً عن الخطيب ابن الحرستانى ، وأخذ منه الدولعية لكمال الدين بن النجار ، الذى كان وكيل بيت المال، ثم أخذ شمس الدين الاربلى تدريس الغزالية من ابن عبد الكافى المذكور . وفى آخر شعبان باشر نيابة الحكم عن ابن الزكى شرف الدين أحمد بن نعمة المقدسى أحد أئمة الفضلاء ، وسادات العلماء المصنفين . ولما توفى أخوه شمس الدين محمد فى شوال ولى مكانه تدريس الشامية البرانية ، وأخذت منه العادلية الصغيرة ، فدرس فيها القاضى نجم الدين أحمد بن صصرى التغلبي فى ذى القعدة ، وأخذت من شرف الدين أيضاً الرواحية فدرس فيها نجم الدين البيانى نائب الحكم رحمهم الله أجمعين .

وممن توفى فيها من الأعيان .

﴿ الصدر الكبير عماد الدين أبو الفضل ﴾

محمد بن القاضى شمس الدين أبى نصر محمد بن هبة الله بن الشيرازى ، صاحب الطريقة المنسوبة فى الكتابة ، سمع الحديث وكان من رؤساء دمشق وأعيانها توفى فى صفر منها .

﴿ شيخ الجبل الشيخ العلامة شيخ الاسلام ﴾

شمس الدين أبو محمد عبد الرحمن بن الشيخ أبى عمر محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة الحنبلى ، أول من ولى قضاء الحنابلة بدمشق ، ثم تركه وتولاه ابنه نجم الدين ، وتدريس الاشرفية بالجبل ، وقد سمع الحديث الكثير ، وكان من علماء الناس وأكثرهم ديانة وأمانة فى عصره ، مع هدى وسمت صالح حسن ، وخشوع ووقار . توفى ليلة الثلاثاء سلخ ربيع الآخر من هذه السنة عن خمس وثمانين سنة ، ودفن بمقبرة والده رحمهم الله

﴿ ابن أبى جفوان ﴾

العلامة شمس الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن عباس بن أبى جفوان الانصارى الدمشقى المحدث الفقيه الشافعى البارع فى النحو واللغة ، سمعت شيخنا تقى الدين ابن تيمية وشيخنا الحافظ أبا الحجاج المزى يقول كل منهما للآخر : هذا الرجل قرأ مسند الامام أحمد وهما يسمعان فلم يضبط عليه لحنة متفقا عليها ، وناهيك بهذين ثناء على هذا وهاهما

﴿ الخطيب محيى الدين ﴾

يحيى بن الخطيب قاضى القضاة عماد الدين عبد الكريم بن قاضى القضاة جمال الدين بن الحرستانى الشافعى خطيب دمشق ومدرس الغزالية ، كان فاضلا بارعا أفتى ودرس وولى الخطابة والغزالية بعد

أبيه ، وحضر جنازته نائب السلطنة وخلق كثير . توفى فى جمادى الآخرة عن ثمان وستين سنة ، ودفن بقاسيون . وفى خامس رجب توفى .

﴿ الامير الكبير ملك عرب آل مرى ﴾

أحمد بن حجى بمدينة بصرى ، وصلى عليه بدمشق صلاة الغائب .

﴿ الشيخ الامام العالم شهاب الدين ﴾

عبد الحليم بن الشيخ الامام العلامة مجد الدين عبد الله بن عبد الله بن أبى القاسم ابن تيمية الحرانى ، والد شيخنا العلامة العلم تقى الدين ابن تيمية . مفتى الفرق، الفارق بين الفرق ، كان له فضيلة حسنة . ولديه فضائل كثيرة . وكان له كرسى بجامع دمشق يتكلم عليه عن ظاهر قلبه ، وولى مشيخة دار الحديث السكرية بالقصاعين . وبها كان سكنه . ثم درس ولده الشيخ تقى الدين بها بعده فى السنة الآتية كما سيأتى ، ودفن بمقابر الصوفية رحمه الله .

﴿ ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين وستمائة ﴾

فى يوم الاثنين ثانى المحرم منها درس الشيخ الامام العالم العلامة تقى الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحرانى بدار الحديث السكرية التى بالقصاعين ، وحضر عنده قاضى القضاة بهاء الدين ابن الزكى الشافعى . والشيخ تاج الدين الفزارى شيخ الشافعية . والشيخ زين الدين ابن المرحل ، وزين الدين بن المنجا الحنبلى ، وكان درسا هائلا . وقد كتبه الشيخ تاج الدين الفزارى بخطه لكثرة فوائده ، وكثرة ما استحسنه الحاضرون . وقد أطنب الحاضرون فى شكره على حداثة سنه وصغره ، فانه كان عمره إذ ذاك عشرين سنة وسنتين ، ثم جلس الشيخ تقى الدين المذكور أيضا يوم الجمعة عاشر صفر بالجامع الأموى بعد صلاة الجمعة على منبر قدهئ له لتفسير القرآن العزيز ، فابتدأ من أوله فى تفسيره ، وكان يجتمع عنده الخلق الكثير والجم الغفير من كثرة ما كان يورد من العلوم المتنوعة المحررة مع الديانة والزهادة والعبادة سارت بذكره الركبان فى سائر الأقاليم والبلدان . واستمر على ذلك مدة سنين متطاولة

وفيها قدم السلطان إلى دمشق من مصر يوم السبت ثانى عشر جمادى الآخرة . فجاء صاحب حماة الملك المنصور إلى خدمته فتلقاه السلطان فى موكبه وأكرمه . فلما كان ليلة الأربعاء الرابع والعشرين من شعبان وقع مطر عظيم بدمشق ، ورعد وبرق . وجاء سيل عظيم جداً حتى كسر أقفال باب الفراديس . وارتفع الماء ارتفاعا كثيراً . بحيث أغرق خلقاً كثيراً . وأخذ جمال الجيش المصرى وأثقالهم ، فخرج السلطان إلى الديار المصرية بعد ثلاثة أيام ، وتولى مشد الدواوين الأمير شمس الدين سنقر عوضا عن الدويدارى علم الدين سنجر . وفيها اختلف التتار فيما بينهم على ملكهم

السلطان أحمد فعزلوه عنهم وقتلوه ، وملكوا عليهم السلطان أرغون بن أبغا ، ونادوا بذلك فى جيشهم ، وتأطدت أحوالهم ، ومشت أمورهم على ذلك ، وبادت دولة السلطان أحمد . وقامت دولة أرغون بن أبغا .

وممن توفى فيها من الاعيان ﴿ الشيخ طالب الرفاعى بقصر حجاج ﴾

وله زواية مشهورة به ، وكان يزور بعض المريدين فمات . وفيها مات

﴿ القاضى الامام عز الدين أبو المفاخر ﴾

محمد بن شرف الدين عبد القادر بن عفيف الدين عبد الخالق بن خليل الانصارى الدمشقى ولى القضاء بدمشق مرتين ، عزل بابن خلكان ، ثم عزل ابن خلكان به ثانية ، ثم عزل وسجن وولى بعده بهاء الدين ابن الزكى ، وبقى معزولا إلى أن توفى ببستانه فى تاسع ربيع الأول ، وصلى عليه بسوق الخيل ، ودفن بسفح قاسيون ، وكان مولده سنة ثمان وعشرين وستمائة ، وكان مشكور السيرة ، له عقل وتدبير واعتقاد كثير فى الصالحين ، وقد سمع الحديث له ابن بلبان مشيخة قرأها ابن جفوان عليه ، ودرس بعده بالعزروية الشيخ زين الدين عمر بن مكى بن المرحل ، وكيل بيت المال ، ودرس ابنه محيى الدين أحمد بالعمادية وزاوية الكلاسة من جامع دمشق ، ثم توفى ابنه أحمد هذا بعده فى يوم الأربعاء ثامن رجب ، فدرس بالعمادية والدماغية الشيخ زين الدين بن الفارقى شيخ دار الحديث نيابة عن أولاد القاضى عز الدين بن الصائغ بدر الدين وعلاء الدين . وفيها توفى

﴿ الملك السعيد فتح الدين ﴾

عبد الملك بن الملك الصالح أبى الحسن إسماعيل ابن الملك العادل ، وهو والد الملك الكامل ناصر الدين محمد ، فى ليلة الاثنين ثالث رمضان ، ودفن من الغد بتربة أم الصالح ، وكان من خيار الأمراء محترما كبيراً رئيسا ، روى الموطأ عن يحيى بن بكير عن مكرم بن أبى الصقر ، وسمع ابن الليثى وغيره .

﴿ القاضى نجم الدين عمر بن نصر بن منصور ﴾

البيانى الشافعى ، توفى فى شوال منها ، وكان فاضلا ، ولى قضاء زرع ثم قضاء حلب ، ثم ناب فى دمشق ودرس بالرواحية وباشرها بعده شمس الدين عبد الرحمن بن نوح المقدسى ، يوم عاشر شوال . وفى هذا اليوم توفى بحماة ملكها :

﴿ الملك المنصور ناصر الدين ﴾

محمد بن محمود بن عمر بن ملكشاه ، بن أيوب ، ولد سنة ثلاثين وستمائة ، وتملك حماة سنة ثنتين وأربعين ، وله عشر سنين ، فمكث فى الملك أزيد من أربعين سنة ، وكان له بر وصدقات ، وقد

أعتق فى بعض موته خلقا من الأرقاء ، وقام فى الملك بعده ولده الملك المظفر بتقليد الملك المنصور له بذلك .

﴿ القاضى جمال الدين أبو يعقوب ﴾

يوسف بن عبدالله بن عمر الرازى ، قاضى قضاة المالكية ، ومدرسهم بعد القاضى زين الزواوى الذى عزل نفسه ، وقد كان ينوب عنه فاستقل بعده بالحكم ، توفى فى الخامس من ذى القعدة وهو فى طريق الحجاز ، وكان عالما فاضلا قليل التكليف والتكلف ، وقد شغر المنصب بعده ثلاث سنين ودرس بعده للمالكية الشيخ جمال الدين الشريشى ، و بعده أبو إسحاق اللورى ، و بعده بدر الدين أبو بكر البريسى ، ثم لما وصل القاضى جمال الدين بن سليمان حاكما درس بالمدارس والله سبحانه أعلم

﴿ ثم دخلت سنة أربع وثمانين وستمائة ﴾

فى أواخر المحرم قدم الملك المنصور إلى دمشق ومعه الجيوش وجاء إلى خدمته صاحب حماة الملك المظفر بن المنصور فتلقاه بجميع الجيوش ، وخلع عليه خلعة الملوك ، ثم سافر السلطان بالعساكر المصرية والشامية فنزل المرقب ففتحه الله عليهم فى يوم الجمعة ثامن عشر صفر ، وجاءت البشارة بذلك إلى دمشق فدقت البشائر وزينت البلد وفرح المسلمون بذلك ، لأن هذا الحصن كان مضرة على المسلمين ، ولم يتفق فتحه لأحد من ملوك الاسلام لا للملك صلاح الدين ، ولا للملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى ، وفتح حوله بلنياس ومرقب وهى بلدة صغيرة إلى جانب البحر عند حصن منيع جداً لا يصل إليه سهم ولا حجر منجنيق ، فأرسل إلى صاحب طرابلس فهدمه تقرباً إلى السلطان الملك المنصور ، واستنقذ المنصور خلقاً كثيراً من أسارى المسلمين ، الذين كانوا عند الفرنج ، ولله الحمد. ثم عاد المنصور إلى دمشق ، ثم سافر بالعساكر المصرية إلى القاهرة .

وفى أواخر جمادى الآخرة ولد للمنصور ولده الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وفيها عزل محيي الدين ابن النحاس عن نظر الجامع ووليه عز الدين بن محيي الدين بن الزكى ، وباشر ابن النحاس الوزارة عوضاً عن التقى توبة التكريتى ، وطلب التقى توبة إلى الديار المصرية وأحيط على أمواله وأملاكه ، وعزل سيف الدين طوغان عن ولاية المدينة ، وباشرها عز الدين بن أبى الهيجاء .

وممن توفى فيها من الأعيان :

﴿ الشيخ عز الدين محمد بن على ﴾

ابن إبراهيم بن شداد ، توفى فى صفر ، وكان فاضلا مشهوراً ، له كتاب سيرة الملك الظاهر ، وكان معتنيا بالتاريخ .

﴿ البندقدارى ﴾

أستاذ الملك الظاهر بيبرس ، وهو الأمير الكبير علاء الدين أيدكين البندقدارى الصالحى ، كان من خيار الأمراء سامحه الله . توفى فى ربيع الآخر منها ، وقد كان الصالح نجم الدين صادر البندقدارى هذا ،

وأخذ منه مملوكه بيبرس فأضافه إليه لشهامته ونهضته ، فتقدم عنده على أستاذه وغيره .

﴿ الشيخ الصالح العابد الزاهد ﴾

شرف الدين أبو عبد الله محمد بن الحسن بن إسماعيل الأخميمى ، كانت له جنازة هائلة ، ودفن بقاسيون رحمه الله .

﴿ ابن عامر المقرى ﴾

الذى ينسب إليه الميعاد الكبير ، الشيخ الصالح المقرى شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عامر بن أبى بكر الغسولى الحنبلى ، سمع الحديث من الشيخ موفق الدين بن قدامة وغيره ، وكان يعمل الميعاد ليلة الأحد ، فاذا فرغوا من ذلك دعا بهم ثم وعظهم . توفى يوم الاربعاء حادى عشر جمادى الآخرة ودفن بالقرب من تربة الشيخ عبد الله الأرمنى .

﴿ القاضى عماد الدين ﴾

داود بن يحيى بن كامل القرشى النصروى الحنفى ، مدرس العزية بالكشك ، وناب فى الحكم عن مجد الدين بن العديم ، وسمع الحديث وتوفى ليلة النصف من شعبان ، وهو والد الشيخ نجم الدين القجقازى ، شيخ الحنفية ، وخطيب جامع تنكر .

﴿ الشيخ حسن الرومى ﴾

شيخ سعيد السعداء بالقاهرة . وقد وليها بعده شمس الدين الاتابكى . الرشيد سعيد بن على بن سعيد . الشيخ رشيد الدين الحنفى مدرس الشبلية ، وله تصانيف مفيدة كثيرة ، ونظم حسن . فمن ذلك قوله :

قل لمن يحذر أن تدركه * نكبات الدهر لا يغنى الحذر
أذهب الحزن اعتقادى * أن كل شىء بقضاء وقدر

ومن شعره قوله :

الهى لك الحمد الذى أنت أهله * على نعم منها الهداية للحمد
صحيحاً خلقت الجسم منى مسلماً * ولطفك بى مازال مذ كنت فى المهد
وكنت يتيما قد أحاط بى الردى * فآويت واستنقذت من كل ما يردى
وهبت لى العقل الذى بضيائه * إلى كل خير يهتدى طالب الرشد
ووفقت للاسلام قلبى ومنطقى * فيا نعمة قد حل موقعها عندى
ولو رمت جهدى أن أجازى فضيلة * فضلت بها لم يجز أطرافها جهدى
ألست الذى أرجو حنانك عندما * يخلفنى الاهلون وحدى فى لحدى
فجدلى بلطف منك يهدى سريرتى * وقلبى ويدنينى إليك بلا بعد

توفى يوم السبت ثالث رمضان ، وصلى عليه العصر بالجامع المظفرى ، ودفن بالسفح .

﴿ أبو القاسم على بن بلبان بن عبد الله ﴾

الناصرى المحدث المفيد الماهر ، توفى يوم الخميس مستهل رمضان .

﴿ الأمير مجير الدين ﴾

محمد بن يعقوب بن عـلى المعروف بابن تميم الحموى الشاعر ، صاحب الديوان فى الشعر ، فمن شعره قوله : عاينت ورد الروض يلطم خده ■ ويقول قولا فى البنفسج يحنق [1]

لا تقربوه وإن تضوع نشره ■ ما بينكم فهو العـدو الأزرق

﴿ الشيخ العارف شرف الدين ﴾

أبو عبد الله محمد بن الشيخ عثمان بن على الرومى ، ودفن بتربتهم بسفح قاسيون ، ومن عندهم خرج الشيخ جمال الدين محمد الساوجى وحلق ودخل فى ذى الجو القية وصار شيخهم ومقدمهم .

﴿ ثم دخلت سنة خمس وثمانين وستمائة ﴾

استهلت والخليفة الحاكم أبو العباس أحمـد ، والسلطان الملك المنصور قلاوون ، ونائبه بالشام الأمير حسام الدين لاجين السلحدارى المنصورى، والأمير بدرالدين الصوابى محاصر مدينة الكرك فى أواخر السنة الماضية ، وقدم عليه من مصر عسكر صحبة الأمير حسام الدين طرقطاى ، فاجتمعوا عـلى حصار الكرك حتى أنزلوا منهـا صاحبها الملك المسعود خضر بن الملك الظاهر ، فى مستهل صفر ، وجاءت البشارة بذلك إلى دمشق ، فـدقت البشائر ثلاثة أيام ، وعاد طرقطاى بالملك خضر وأهل بيته إلى الديار المصرية ، كما فعـل الملك الظاهر أبوه بالملك المغيث عمر بن العادل ، كما تقـدم ذلك . واستناب فى الكرك نائبا عن أمر المنصور ، ورتب أمورها وأجلوا منها خلقا من الكركيين ، واستخدموابقلعة دمشق. ولما اقترب دخول آل الظاهر إلى القاهرة تلقاهم المنصورفأكرم لقياهم وأحسن إلى الأخوين نجم الدين خضر ، وبدر الدين سلامش ، وجعلهما يركبان مع ابنيه عـلى والأشرف خليل ، وجعل عليهما عيونا يرصـدون مايفعلان ، وأنزلا الدور بالقلعة وأجرى عليهم من الرواتب والنفقات ما يكفيهم وزيادة كثيرة ، وكتب الأمير بدر الدين بكتوت العـلائى وهو مجرد بحمص إلى نائب دمشق لاجين ، أنه قد انعقدت زوبعة فى يوم الخميس سابع صفر بأرض حمص ثم ارتفعت فى السماء كهيئة العمود والحية العظيمة ، وجعلت تختطف الحجارة الكبار ، ثم تصعد بها فى الجو كأنها سهام النشاب وحملت شيئا كثيرا من الجمال بأحمالها ، والأثاث والخيام والدواب ، ففقد الناس من ذلك شيئا كثيراً ، فانالله وإنا إليه راجعون . وفى هذا اليوم وقع مطر عظيم فى دمشق وجاء سيل كثير ولا سيما فى الصالحية .

وفيها أعيد علم الدين الدويدارى إلى مشد الدواوين بدمشق ، والصاحب تقى الدين بن توبة

---

(١) فى النجوم الزاهرة والشذرات : ويقول وهو على البنفسج محنق .

إلى الوزارة بدمشق . وفيها تولى قضاء المالكية بمصر زين الدين بن أبى مخلوف البريدى عوضا عن القاضى تقى الدين برساس الذى توفى بها . وفيها درس بالغزالية بدر الدين بن جماعة انتزعها من يد شمس الدين إمام الكلاسة ، الذى كان ينوب عن شمس الدين الايكى ، والايكى شيخ سعيد السعدا ، باشرها شهراً ثم جاء مرسوم باعادتها إلى الايكى ، وأنه قد استناب عنه جمال الدين الباجر يقى ، فباشرها الباجر يقى فى ثالث رجب .

ومن توفى فيها من الاعيان ﴿ أحمد بن شيبان ﴾

ابن تغلب الشيبانى أحد مشايخ الحديث المسندين المعمرين بدمشق ، توفى بصفر عن ثمان وثمانين سنة ، ودفن بقاسيون .

﴿ الشيخ الامام العالم البارع ﴾

الشيخ جمال الدين أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن بحمان البكرى الشريشى المالكى ، ولد بشريش سنة إحدى وستمائة ، ورحل إلى العراق فسمع بها الحديث من المشايخ والقطيعى وابن زوربة وابن الليثى وغيرهم ، واشتغل وحصل وساد أهل زمانه ، ثم عاد إلى مصر فدرس بالفاضلية ، ثم أقام بالقدس شيخ الحرم ، ثم جاء إلى دمشق فولى مشيخة الحديث بتربة أم الصالح ، ومشيخة الرباط الناصرى بالسفح ، ومشيخة المالكية ، وعرض عليه القضاء فلم يقبل . توفى يوم الاثنين الرابع والعشرين من رجب بالرباط الناصرى بقاسيون ، ودفن بسفح قاسيون تجاه الناصرية وكانت جنازته حافلة جداً .

﴿ قاضى القضاة ﴾

يوسف ابن قاضى القضاة محيى الدين أبى الفضل يحيى بن محمد بن على بن محمد بن يحيى بن على ابن عبد العزيز بن على بن الحسين بن محمد بن عبد الرحمن بن أبان بن عثمان بن عفان ، القرشى الدمشقى المعروف بابن الزكى الشافعى ، كان فاضلا مبرزاً ، وهو آخر من ولى القضاء من بنى الزكى إلى يومنا هذا ، ولد فى سنة أربعين وسمع الحديث ، توفى ليلة الاثنين حادى عشر ذى الحجة ، ودفن بقاسيون ، وتولى بعده ابن الخوى شهاب الدين .

﴿ الشيخ مجد الدين ﴾

يوسف بن محمد بن محمد بن عبد الله المصرى ثم الدمشقى الشافعى الكاتب المعروف بابن المهتار ، كان فاضلا فى الحديث والأدب ، يكتب كتابة حسنة جدا ، وتولى مشيخة دار الحديث النورية ، وقد سمع الكثير وانتفع الناس به وبكتابته ، توفى عاشر ذى الحجة ودفن بباب الفراديس .

﴿ الشاعر الأديب ﴾

شهاب الدين أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم بن محمد المعروف بابن الخيمى ، كانت له مشاركة فى علوم كثيرة ، ويد طولى فى النظم الرائق ، الفائق جاوز الثمانين وقد تنازع هو ونجم الدين بن

إسرائيل فى قصيدة بائية[١] فتحاكما إلى ابن الفارض فأمرهما بنظم أبيات على وزنها فنظم كل منهما فأحسن ، ولكن لابن الخيمى يد طولى عليه ، وكذلك فعل ابن خلكان ، وامتدحه على وزنها بأبيات حسان ، وقد أطال ترجمته الجزرى فى كتابه ، وفيها كانت وفاة .

﴿ الحاج شرف الدين[٢] ﴾

ابن مِرِى ، والد الشيخ محيى الدين النووى رحمه الله .

﴿ يعقوب بن عبد الحق ﴾

أبو يوسف المدينى سلطان بلاد المغرب ، خرج على الواثق بالله أبى دبوس فسلبه الملك بظاهر مراكش ، واستحوذ على بلاد الأندلس والجزيرة الخضراء ، فى سنة ثمان وستين وستمائة ، واستمرت أيامه إلى محرم هذه السنة ، وزالت على يديه دولة الموحدين بها .

﴿ البيضاوى صاحب التصانيف ﴾

هو القاضى الامام العلامة ناصر الدين عبد الله بن عمر الشيرازى ، قاضيها وعالمها وعالم أذربيجان وتلك النواحى ، مات بتبريز سنة خمس وثمانين وستمائة . ومن مصنفاته المنهاج فى أصول الفقه ، وهو مشهور ، وقد شرحه غير واحد ، وله شرح التنبيه فى أربع مجلدات ، وله الغاية القصوى فى دراية الفتوى ، وشرح المنتخب والكافية فى المنطق ، وله الطوالع وشرح المحصول أيضا ، وله غير ذلك من التصانيف المفيدة ، وقد أوصى إلى القطب الشيرازى أن يدفن بجانبه بتبريز والله سبحانه أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة ست وثمانين وستمائة ﴾

فى أول المحرم ركبت العساكر صحبة نائب الشام حسام الدين لاجين إلى محاصرة صهيون وحصن برزية ، فما نعمهم الأمير سيف الدين سنقر الأشقر ، فلم يزالوا به حتى استنزلوه وسلمهم البلاد ، وسار إلى خدمة السلطان الملك المنصور ، فتلقاه بالاكرام والاحترام ، وأعطاه تقدمة ألف فارس ، ولم يزل معظما فى الدولة المنصورية إلى آخرها ، وانقضت تلك الأحوال . وفى النصف من المحرم حكم القاضى جلال الدين الحنفى نيابة عن أبيه حسام الدين الرازى ، وفى الثالث عشر من ربيع الأول قدم القاضى شهاب الدين محمد بن القاضى شمس الدين بن الخليل الخوى من القاهرة على قضاء قضاة دمشق ، وقرئ تقليده يوم الجمعة مستهل ربيع الآخر ، واستمر بنيابة شرف الدين المقدسى وفى يوم الاحد ثلث شوال درس بالرواحية الشيخ صفى الدين الهندى ، وحضر عنده القضاة والشيخ تاج الدين الفزارى ، وعلم الدين الدويدارى ، وتولى قضاء قضاة القاهرة تقى الدين عبد الرحمن ابن بنت الاعز ، عوضا عن برهان الدين الخضر السنجارى ، وقدكان وليها شهراً بعد ابن الخوى

---

(١) مطلعها : يامطلبا ليس لى فى غيره أرب * إليك آل التقصى وانتهى الطلب

(٢) كانت وفاته فى سنة ٦٨٢ .

فاجتمع حينئذ إلى ابن بنت الأعز بين القضاء كله بالديار المصرية ، وذلك فى أوائل صفر منها .

وفيها استدعى سيف الدين السامرى من دمشق إلى الديار المصرية ليشترى منه ربع جزر ماء الذى اشتراه من بنت الملك الأشرف موسى ، فذكر لهم أنه وقفه ، وكان المتكلم فى ذلك علم الدين الشجاعى ، وكان ظالما ، وكان قد استنابه الملك المنصور بديار مصر ، وجعل يتقرب إليه بتحصيل الأموال ، ففتق لهم ناصر الدين محمد بن عبد الرحمن المقدسى أن السامرى اشترى هذا من بنت الأشرف ، وهى غير رشيدة ، وأثبت سفهها على زين الدين بن مخلوف الجائر الجاهل ، وأبطل البيع من أصله ، واسترجع على السامرى بمغل مدة عشرين سنة مائتى ألف درهم ، وأخذوا منه حصة من الزنبقية قيمتها سبعين ألفا وعشرة آلاف مكملة ، وتركوه فقيراً على برد الديار ، ثم أثبتوا رشدها واشتروا منها تلك الحصص بما أرادوه ، ثم أرادوا أن يستدعوا بالدماشقة واحداً بعد واحد ، ويصادرونهم ، وذلك أنه بلغهم أن من ظلم بالشام لايفلح وأن من ظلم بمصر أفلح وطالت مدته ، وكانوا يطلبونهم إلى مصر أرض الفراعنة والظلم ، فيفعلون معهم ما أرادوا .

ومن توفى فيها من الأعيان

﴿ الشيخ الامام العلامة ﴾

قطب الدين أبو بكر محمد بن الشيخ الامام أبى العباس أحمد بن على بن محمد بن الحسن بن عبد الله بن أحمد الميمونى القيسى النورى المصرى ، ثم المالكى الشافعى المعروف بالقسطلانى ، شيخ دار الحديث الكاملية بالقاهرة ، ولد سنة أربع عشرة وستمائة ، ورحل إلى بغداد فسمع الكثير وحصل علوماً ، وكان يفتى على مذهب الشافعى ، وأقام بمكة مدة طويلة ثم صار إلى مصر فولى مشيخة دار الحديث ، وكان حسن الأخلاق محبباً إلى الناس ، توفى فى آخر المحرم ودفن بالقرافة الكبرى ، وله شعر حسن أورد منه ابن الجزرى قطعة صالحة .

﴿ عماد الدين ﴾

محمد بن العباس الدنيسرى الطبيب الماهر ، والحاذق الشاعر ، خدم الاكابر والوزراء وعمر ثمانين سنة وتوفى فى صفر من هذه السنة بدمشق .

﴿ قاضى القضاة ﴾

برهان الدين الخضر بن الحسين بن على السنجارى ، تولى الحكم بديار مصر غير مرة ، وولى الوزارة أيضاً ، وكان رئيساً وقوراً مهيبا ، وقد باشر القضاء بعده تقى الدين بن بنت الأعز .

﴿ شرف الدين سليمان بن عثمان ﴾

الشاعر المشهور ، له ديوان . مات فى صفر منها .

﴿ الشيخ الصالح عز الدين ﴾

عبد العزيز بن عبد المنعم بن الصيقل الحرانى ، ولد سنة أربع وتسعين وخمسمائة ، وسمع

الكثير . ثم استوطن مصر حتى توفى بها فى رابع عشر رجب ، وقد جاوز التسعين . وقد سمع منه الحافظ علم الدين البرزالى لما رحل إلى مصر فى سنة أربع وثمانين . وحكى عنه أنه شهد جنازة فى بغداد فتبعهم نباش . فلما كان الليل جاء إلى ذلك القبر ففتح عن الميت ، وكان الميت شابا قد أصابته سكتة ، فلما فتح القبر نهض ذلك الشاب الميت جالساً فسقط النباش ميتا فى القبر . وخرج الشاب من قبره ، ودفن فيه النباش . وحكى له قال : كنت مرة بقليوب وبين يدى صبرة قمح . فجاء زنبور فأخذوا حدة ثم ذهب بها ، ثم جاء فأخذ أخرى ثم ذهب بها ، ثم جاء فأخذ أخرى أربع مرات ، قال فاتبعته فاذا هو يضع الحبة فى فم عصفور أعمى بين تلك الاشجار التى هناك . قال: وحكى لى الشيخ عبد الكافى أنه شهد مرة جنازة فاذا عبد أسود معنا ، فلما صلى الناس عليها لم يصل ، فلما حضرنا الدفن نظر إلى وقال : أنا عمله ، ثم ألقى نفسه فى قبر ذلك الميت ، قال فنظرت فلم أر شيئا .

﴿ الحافظ أبو اليمن ﴾

أمين الدين عبد الصمد بن عبد الوهاب بن الحسن بن محمد بن الحسن بن عساكر الدمشقى ترك الرياسة والأملاك ، وجاور بمكة ثلاثين سنة ، مقبلا على العبادة والزهادة . وقد حصل له قبول من الناس شاميهم ومصريهم وغيرهم ، توفى بالمدينة النبوية فى ثانى رجب منها .

﴿ ثم دخلت سنة سبع وثمانين وستمائة ﴾

فيها قدم الشجاعى من مصر إلى الشام بنية المصادرة لأرباب الأموال من أهل الشام وفى أواخر ربيع الآخر قدم الشيخ ناصر الدين عبد الرحمن المقدسى من القاهرة . على وكالة بيت المال ونظر الأوقاف ، ونظر الخاص ، ومعه تقاليد وخلع فتردد الناس إلى بابه وتكلم فى الامور وآذى الناس . وكانت ولايته بسفارة الامير علم الدين الشجاعى المتكلم فى الديار المصرية ، توسل إليه بالشيخ شمس الدين الأيكى وبابن الوحيد الكاتب ، وكانا عنده لهما صورة ، وقد طلب جماعة من أعيان الدماشقة فى أول هذه السنة إلى الديار المصرية فطولبوا بأموال كثيرة . فدافع بعضهم بعضا . وهذا مما يخفف عقوبته من ظلمهم ، وإلا فلو صبروا لعوجل الظالم بالعقوبة . ولزال عنهم ما يكرهون سريعا . ولما قدم ابن المقدسى إلى دمشق كان يحكم بتربة أم الصالح ، والناس يترددون إليه ويخافون شره ، وقد استجد باشورة بباب الفراديس ومساطب باب الساعات للشهود ، وجدد باب الجابية الشمالى ورفعه ، وكان متواطئا ، وأصلح الجسر الذى تحته ، وكذلك أصلح جسر باب الفراديس تحت السويقة التى جددها عليه من الجانبين . وهذا من أحسن ما عمله ابن المقدسى ، وقد كان مع ذلك كثير الأذية للناس ظلوما غشوما ، ويفتح على الناس أبوابا من الظلم لا حاجة إليها .

وفى عاشر جمادى الأولى قدم من الديار المصرية أيضا قاضى القضاة حسام الدين الحنفى .

والصاحب تقى الدين توبة التكريتى ، وقاضى القضاة جمال الدين محمد بن سليمان الزواوى المالكى على قضاء المالكية بعد شغوره عن حاكم بدمشق ثلاث سنين ونصف ، فأقام شعار المنصب ودرس ونشر المذهب وكان له سؤدد ورياسة .

وفى ليلة الجمعة رابع شعبان توفى الملك الصالح علاء الدين بن الملك المنصور قلاوون بالسنطارية فوجد عليه أبوه وجداً شديداً ، وقد كان عهد إليه بالأمر من بعده وخطب له على المنابر من مدة سنين ، فدفنه فى تربته وجعل ولاية العهد من بعده إلى ابنه الأشرف خليل ، من بعد أبيه، وخطب له على المنابر من بعد ذكر أبيه يوم الجمعة ، ودقت البشائر وزين البلد سبعة أيام ، ولبس الجيش الخلع وركبوا ، وأظهر الناس سروراً لشهامته ، مع مافى قلوبهم على أبيه لأجل ظلم الشجاعى . وفى رمضان باشر حسبة دمشق شمس الدين بن السلعوسى عوضا عن شرف الدين ابن الشيرزى وفيه توجه الشيخ بدر الدين بن جماعة إلى خطابة القدس بعد موت خطيبه قطب الدين ، فباشر بعده تدريس القيمرية علاء الدين أحمد بن القاضى تاج الدين بن بنت الأعز . وفى شهر رمضان كبس نصرانى وعنده مسلمة وهما يشربان الخمر فى نهار رمضان ، فأمر نائب السلطنة حسام الدين لاجين بتحريق النصرانى فبذل فى نفسه أموالا جزيلة فلم يقبل منه ، وأحرق بسوق الخيل ، وعمل الشهاب محمود فى ذلك أبياتا فى قصيدة مليحة، وأما المرأة فجلدت الحد .

وممن توفى فيها من الأعيان ﴿ الخطيب الامام قطب الدين ﴾

أبو الزكا عبد المنعم بن يحيى بن إبراهيم بن على بن جعفر بن عبد الله بن محمد بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ، القرشى ، الزهرى ، خطيب بيت المقدس أربعين سنة ، وكان من الصلحاء الكبار محبوبا عند الناس ، حسن الهيئة مهيبا عزيز النفس ، يفتى الناس ويذكر التفسير من حفظه فى المحراب بعد صلاة الصبح ، وقد سمع الكثير وكان من الاخيار ، ولد سنة ثلاث وستمائة ، وتوفى ليلة الثلاثاء سابع رمضان عن أربع وثمانين سنة .

﴿ الشيخ الصالح العابد ﴾

إبراهيم بن معضاد بن شداد بن ماجد الجعبرى ، تقى الدين أبو إسحاق ، أصله من قلعة جعبر ، ثم أقام بالقاهرة ، وكان يعظ الناس وكان الناس ينتفعون بكلامه كثيرا . توفى بالقاهرة يوم السبت الرابع والعشرين من المحرم ، ودفن فى تربته بالحسينية ، وله نظم حسن ، وكان من الصلحاء المشهورين رحمه الله .

﴿ الشيخ الصالح ﴾

يس بن عبد الله المقرى الحجام ، شيخ الشيوخ محيى الدين النواوى ، وقد حج عشرين حجة ، وكانت له أحوال وكرامات .

﴿ الخوندة غازية خاتون ﴾

بنت الملك المنصور قلاوون ، زوجة الملك السعيد .

﴿ الحكيم الرئيس ﴾

علاء الدين بن أبي الحزم بن نفيس ، شرح القانون لابن سينا وصنف الموجز وغيره من الفوائد وكان يكتب من حفظه ،وكان اشتغاله على ابن الدخوارى ، وتوفى بمصر فى ذى القعدة .

﴿ الشيخ بدر الدين ﴾

عبد الله بن الشيخ جمال الدين بن مالك النحوى ، شارح الألفية التى عملها أبوه ، وهو من أحسن الشروح وأ كثرها فوائد ، وكان لطيفا ظريفاً فاضلا ، توفى فى يوم الأحد الثامن من المحرم ، ودفن من الغد بباب الصغير . والله أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة ثمان وثمانين وستمائة ﴾

فيها كان فتح مدينة طرابلس : وذلك أن السلطان قلاوون قدم بالجيوش المنصورة المصرية صحبته إلى دمشق ، فدخلها فى الثالث عشر من صفر، ثم سار بهم و بجيش دمشق وصحبته خلق كثير من المتطوعة ، منهم القاضى نجم الدين الحنبلى ، قاضى الحنابلة ، وخلق من المقادسة وغيرهم ، فنازل طرابلس يوم الجمعة مستهل ربيع الأول، وحاصرها بالمجانيق حصارا شديداً، وضيقوا على أهلها تضيقا عظيما ، ونصب عليها تسعة عشر منجنيقا ،فلما كان يوم الثلاثاء رابع جمادى الآخرة فتحت طرابلس فى الساعة الرابعة من النهار عنوة ، وشمل القتل والأسر جميع من فيها ، وغرق كثير من أهل الميناء وسبيت النساء والأطفال ، وأخذت الذخائر والحواصل ، وقد كان لها فى أيدى الفرنج من سنة ثلاث وخمسمائة إلى هذا التاريخ ، وقد كانت قبل ذلك فى أيدى المسلمين من زمان معاوية ، فقد فتحها سفيان بن نجيب لمعاوية ، فأسكنها معاوية اليهود ،ثم كان عبد الملك بن مروان جدد عمارتها وحصنها وأسكنها المسلمين ، وصارت آمنة عامرة مطمئنة ، وبها ثمار الشام ومصر ، فان بها الجوز والموز والثلج والقصب ، والمياه جارية فيها تصعد إلى أما كن عالية ، وقد كانت قبل ذلك ثلاث مدن متقاربة ، ثم صارت بلداً واحداً ، ثم حولت من موضعها كما سيأتى الآن . ولما وصلت البشارة إلى دمشق دقت البشائر و زينت البلاد وفرح الناس فرحاً شديداً ولله الحمد والمنة .

ثم أمر السلطان الملك المنصور قلاوون أن تهدم البلد بما فيها من العمائر والدور والأسوار الحصينة التى كانت عليها ، وأن يبنى على ميل منها بلدة غيرها أمكن منها وأحسن ، ففعل ذلك ، فهى هذه البلدة التى يقال لها طرابلس ، ثم عاد إلى دمشق مؤيداً منصوراً مسروراً محبوراً ، فدخلها يوم النصف من جمادى الآخرة ، ولسكنه فوض الامور والكلام فى الاموال فيها إلى إلى علم الدين

الشجاعى ، فصادر جماعة وجمع أموالا كثيرة ، وحصل بسبب ذلك أذى الخلق ، وبئس هذا الصنيع فان ذلك تعجيل لدمار الظالم وهلاكه ، فلم يغن عن المنصور ماجمع له الشجاعى من الأموال شيئا ، فانه لم يعش بعد ذلك إلا اليسير حتى أخذه الله أخذ القرى وهى ظالمة ، كما سيأتى . ثم سافر السلطان فى ثانى شعبان بجيشه إلى الديار المصرية ، فدخلها فى أواخر شعبان . وفيها فتحت قلاع كثيرة بناحية حلب : كركر ، وتلك النواحى ، وكسرت طائفة من التتر هناك ، وقتل ملكهم خربندا نائب التتر على ملطية .

وفيها تولى الحسبة بدمشق جمال الدين يوسف بن النقى توبة التكريتى ثم أخذها بعد شهور تاج الدين الشيرازى . وفيها وضع منبر عند محراب الصحابة بسبب عمارة كانت فى المقصورة ، فصلى برهان الدين الاسكندرى نائب الخطيب بالناس هناك مدة شهر ، الجماعات والجمعات ، ابتدؤا ذلك من يوم الجمعة الثانى والعشرين من ذى الحجة .

وممن توفى فيها من الأعيان ﴿ الشيخة فاطمة بنت الشيخ إبراهيم الزعيبى ﴾

زوجة النجم بن إسرائيل ، كانت من بيت الفقر، لها سلطنة و إقدام وترجمة وكلام فى طريقة الحريرية وغيرهم ، وحضر جنازتها خلق كثير ، ودفنت عند الشيخ رسلان .

﴿ العالم ابن الصاحب ﴾

الشيخ الماجن ، هو الشيخ الفاضل علم الدين أحمد بن يوسف بن عبد الله بن شكر ، كان من بيت علم و رياسة ، وقد درس فى بعض المدارس ، وكانت له وجاهة و رياسة ، ثم ترك ذلك كله وأقبل على الحرفشة وصحبة الحرافيش والتشبه بهم فى اللباس والطريقة ، وأكل الحشيش واستعمله ، كان من الفهم فى الخلاعة والمجون والزوائد الرائقة الفائقة التى لايلحق فى كثير منها ، وقد كان له أولاد فضلاء ينهونه عن ذلك فلم يلتفت إليهم ، ولم يزل ذلك دأبه حتى توفى ليلة الجمعة الحادى والعشرين من ربيع الأول . ولما ولى القضاة الأربعة كان ابن خالته تاج الدين بن بنت الأعز مستقلا فى القضاء قبل ذلك ، فقال له ابن الصاحب المذكور : ما مت حتى رأيتك صاحب ربع ، فقال له: تسكت و إلا خليتهم يسقونك السم ، فقال له: فى قلة دينك تفعل ، وفى قلة عقولهم يسمعوا منك ، وقال يمدح الحشيشة الخسيسة :

فى خمار الحشيش معنى مرامى ، يا أهيل العقول والافهام
حرموها عن غير عقل ونقل ، وحرام تحريم غير الحرام

وله أيضاً : يانفس ميلى إلى التصابى ، فاللهو منه الفتى يعيش
ولا تملى من سكر يوم ، إن أعوز الخمر فالحشيش

وله أيضاً: جمعت بين الحشيش والخمر ▪ فرحت لا أهتدى من السكر
يا من يرينى لباب مدرستى ▪ يربح والله غاية الأجر

وقال يهجو الصاحب بهاء الدين بن الحنا .

اقعد بها وتهنا ▪ لابد أن تتعنى ▪ تكتب على بن محمد * من اين لك ياابن حنا

فاستدعاه فضربه ثم أمر به إلى المارستان فمكث فيه سنة ثم أطلق .

﴿ شمس الدين الاصبهانى ﴾

شارح المحصول : محمد بن محمود بن محمد بن عباد السلمانى العلامة ، قدم دمشق بعد الخمسين وستمائة ، وناظر الفقهاء واشتهرت فضائله ، وسمع الحديث وشرح المحصول للرازى ، وصنف القواعد فى أربعة فنون ، أصول الفقه ، وأصول الدين ، والمنطق ، والخلاف . وله معرفة جيدة فى المنطق والنحو والأدب ، وقد رحل إلى مصر فدرس بمشهد الحسين والشافعى وغيرهما ، ورحل إليه الطلبة ، توفى فى العشرين من رجب فى القاهرة عن ثنتين وسبعين سنة .

﴿ الشمس محمد بن العفيف ﴾

سليمان بن على بن عبد الله بن على التلمسانى ، الشاعر المطبق ، كانت وفاته فى حياة أبيه فتألم له ووجد عليه وجدا شديدا ، ورثاه بأشعار كثيرة ، توفى يوم الأربعاء الرابع عشر من رجب ، وصلى عليه بالجامع ، ودفن بالصوفية . فمن رائق شعره قوله :

وإن ثناياه نجوم لبدره ▪ وهن لعقد الحسن فيه فرائد
وكم يتجافى خصره وهو ناحل ▪ وكم يتحلى ثغره وهو بارد

وله يذم الحشيشة :

ما للحشيشة فضل عند آكلها ▪ لكنه غير مصروف إلى رشده
صفراء فى وجهه خضراء فى فمه ▪ حمراء فى عينه سوداء فى كبده

ومن شعره أيضاً: بدا وجهه من فوق ذابل خده * وقد لاح من سود الذوائب فى جنح
فقلت عجيب كيف لم يذهب الدجا * وقد طلعت شمس النهار على رمح

وله من جملة أبيات .

ماأنت عندى والقضيب ▪ اللدن فى حد سوى ▪ هداك حركه الهوا ▪ وانت حركت الهوى

﴿ الملك المنصور شهاب الدين ﴾

محمود بن الملك الصالح إسماعيل بن العادل ، توفى يوم الثلاثاء ثامن عشر شعبان ، وصلى عليه بالجامع ، ودفن من يومه بتربة جده ، وكان ناظرها ، وقد سمع الحديث الكثير ، وكان يحب أهله ،

وكان فيه لطف وتواضع .

﴿ الشيخ فخر الدين أبو محمد ﴾

عبد الرحمن بن يوسف البعلبكى الحنبلى ، شيخ دار الحديث النورية ومشهد ابن عروة ، وشيخ الصدرية ، كان يفتى ويفيد الناس مع ديانة وصلاح و زهادة وعبادة ، ولد سنة إحدى عشرة وستمائة ، وتوفى فى رجب منها .

﴿ ثم دخلت سنة تسع وثمانين وستمائة ﴾

فيها كانت وفاة الملك المنصور قلاوون ، وكان الخليفة الحاكم العباسى ، ونائب مصر حسام الدين طرقطاى ، ونائب الشام حسام الدين لاجين ، وقضاة الشام شهاب الدين بن الخوى الشافعى ، وحسام الدين الحنفى ، ونجم الدين بن شيخ الجبل ، وجمال الدين الزواوى المالكى ، وجاء البريد يطلب شمس الدين سنقر الأشقر إلى الديار المصرية ، فأكرمه السلطان وقواه وشد يده وأمره باستخلاص الأموال ، و زاده مشد الجيوش ، والكلام على الحصون إلى البيرة وكختا وغير ذلك ، فقويت نفسه و زاد تجبره ولكن كان يرجع إلى مروءة وستر و ينفع من ينتمى إليه ، وذلك مودة فى الدنيا فى أيام قلائل ، وفى جمادى الآخرة جاء البريد بالكشف على ناصر الدين المقدسى وكيل بيت المال ، وناظر الخاص ، فظهرت عليه مخازى من أكل الأوقاف وغيرها ، فرسم عليه بالعذراوية وطولب بتلك الأموال وضيق عليه ، وعمل فيه سيف الدين أبو العباس السامرى قصيدة يتشفى فيها لما كان أسدى إليه من الظلم والايذاء ، مع أنه راح إليه وتغمم له وتمازحا هنالك ، ثم جاء البريد بطلبه إلى الديار المصرية فخاف النواب من ذهابه ، فأصبح يوم الجمعة وهو مشنوق بالمدرسة العذراوية ، فطلبت القضاة والشهود فشاهدوه كذلك ، ثم جهز وصلى عليه بعد الجمعة ودفن بمقابر الصوفية عند أبيه ، وكان مدرساً بالرواحية وتربة أم الصالح ، مع الوكالتين والنظر .

وجاء البريد بعمل مجانيق لحصار عكا فركب الأعسر إلى أراضى بعلبك لما هنالك من الاخشاب العظيمة التى لا يوجد مثلها بدمشق ، وهى تصلح لذلك ، فكثرت الجنايات والجبايات والسخر ، وكلفوا الناس تكليفاً كثيراً ، وأخذوا أخشاب الناس ، وحملت إلى دمشق بكلفة عظيمة وشدة كثيرة ، فانا لله و إنا إليه راجعون .

﴿ وفاة الملك المنصور قلاوون ﴾

بينما الناس فى هذا الهم والمصادرات وأمثال ذلك إذ وردت بريدية فأخبروا بوفاة الملك المنصور يوم السبت سادس ذى القعدة من هذه السنة ، بالمخيم ظاهر القاهرة ، ثم حمل إلى قلعة الجبل ليلا وجلس بعده ولده الملك الأشرف خليل بولاية العهد له ، وحلف له جميع الأمراء ، وخطب له على المنابر ، وركب فى أبهة الملك ، والعساكر كلهم فى خدمته مشاة من قلعة الجبل إلى الميدان الأسود الذى هو سوق الخيل ، وعلى الامراء والمقدمين الخلع ، وعلى القضاة والأعيان ، ولما جاءت الأخبار

بذلك حاف له الامراء بالشام ، وقبض على حسام الدين طرقطاى نائب أبيه وأخذمنه أموالا جزيلة أنفق منها على العساكر.

وفيها ولى خطابةدمشق زين الدينعمر بن مكى بن المرحل عوضاًعن جمالالدين بنعبدالكافى وكان ذلك بمساعدة الأعسر ،وتولى نظر الجامع الرئيس وجيه الدين بن المنجى الحنبلى ، عوضاً عن ناصر الدين بن المقدسى ، وثمر وقفه وعمره و زاد مائة وخمسين ألفا . وفيها احترقت دار صاحب حماة ، وذلك أنه وقع فيها نار فى غيبته فلم يتجاسر أحد يدخلها ، فعملت النار فيها يومين فاحترقت واحترق كل مافيها .

و فى شوال درس بتربة أم الصالح بعد ابن المقدسى القاضى إمام الدين القونوى ، وفيها باشر الشرف حسين بن أحمد بن الشيخ أبى عمر قضاء الحنابلة عوضا عن ابن عمه نجم الدين بن شيخ الجبل ، عن مرسوم الملك المنصور قبل وفاته . وحج بالناس فى هذه السنة من الشام الأمير بدر الدين بكتوت الدوباسى ، وحج قاضى القضاة شهاب الدين بن الخوى ، وشمس الدين بن السلعوس ومقدم الركب الأمير عتبة ، فتوهم منه أبو نمى ، وكان بينهما عداوة ،فأغلق أبواب مكة ومنع الناس من دخولها فاحرق الباب وقتل جماعة ونهب بعض الاماكن ، وجرت خطوب فظيعة ، ثم أرسلوا القاضى ابن الخوى ليصالح بين الفريقين ، ولما استقر عند أبى نمى رحل الركوب و بقى هو فى الحرم وحده وأرسل معه أبو نمى من ألحقه بهم سالما معظماً .وجاء الخبر بموت المنصور إلى الناس وهم بعرفات وهذا شىء عجيب . وجاء كتاب يستحث الوزير ابن السلعوس فى المسير إلى الديار المصرية ، و بين الأسطر بخط الملك الأشرف :يا شقير يا وجه الخير احضر لتستلم الوزارة . فساق إلى القاهرة فوصلها يوم الثلاثاء عاشر المحرم ، فتسلم الوزارة كما قال السلطان .

وممن توفى فيها من الأعيان . ﴿ السلطان الملك المنصور قلاوون ﴾

ابن عبد الله التركى الصالحى الألفى ، اشتراه الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب ، بألفى دينار ، وكان من أكابر الأمراء عنده و بعده ، ولما تزوج الملك السعيد بن الظاهر بابنته غازية خاتون ، عظم شأنه جداً عند الظاهر ، وما زال يترفع فى الدولة حتى صار أتابك سلامش بن الظاهر ، ثم رفعه من البين واستقل بالملك فى سنة أربع وثمانين ، وفتح طرابلس سنة ثمان وثمانين ،وعزم على فتح عكا و برز إليها فعاجلته المنية فى السادس والعشرين من ذى القعدة ، ودفن بتربته بمدرسته الهائلة التى أنشأها بين القصرين ، التى ليس بديار مصر ولا بالشام مثلها . وفيها دار حديث ومارستان . وعليها أوقاف دارة كثيرة عظيمة،مات عن قريب من ستين سنة ،وكانت مدة ملكه اثنتىعشرة سنة ، وكان حسن الصورة مهيبا ، عليه أبهة السلطنة

ومهابة الملك ، تام القامة حسن اللحية عالى الهمة شجاعا وقورا سامحه الله .

﴿ الأمير حسام الدين طرقطاى ﴾

نائب السلطنة المنصورية بمصر ، أخذه الأشرف فسجنه فى قلعة الجبل ، ثم قتله و بقى ثمانية أيام لايدرى به ، ثم لف فى حصير وألقى على مزبلة ، وحزن عليه بعض الناس ، فكفن كآحاد الفقراء بعد النعيم الكثير ، والدنيا المتسعة ، والكلمة النافذة ، وقد أخذ السلطان من حواصله ستمائة ألف دينار وسبعين قنطاراً بالمصرى فضة ، ومن الجواهر شيئا كثيرا ، سوى الخيل والبغال والجمال والأمتعة والبسط الجياد ، والأسلحة المثمنة ، وغير ذلك من الحواصل والأملاك بمصر والشام ، وترك ولدين أحدهما أعمى ، وقد دخل هذا الاعمى على الأشرف فوضع المنديل على وجهه وقال شىء لله وذكر له أن لهم أياما لايجدون شيئا يأكلونه ، فرق له وأطلق لهم الاملاك يأكلون من ريعها ، فسبحان الله المتصرف فى خلقه بما يشاء ، يعز من يشاء و يذل من يشاء .

﴿ الشيخ الامام العلامة ﴾

رشيد الدين عمر بن إسماعيل بن مسعود الفارقى الشافعى ، مدرس الظاهرية ، توفى بها وقد جاوز التسعين ، وجد مخنوقا فى المحرم ، ودفن بالصوفية ، وقد سمع الحديث وكان منفردا فى فنون من العلوم كثيرة ، منها علم النحو والأدب وحل المترجم والكتابة والانشاء وعلم الفلك والنجوم وضرب الرمل والحساب وغير ذلك ، وله نظم حسن .

﴿ الخطيب جمال الدين أبو محمد ﴾

عبد الكافى بن عبد الملك بن عبد الكافى الربعى ، توفى بدار الخطابة وحضر الناس الصلاة عليه يوم السبت سلخ جمادى الأولى ، وحمل إلى السفح فدفن إلى جانب الشيخ يوسف الفقاعى .

﴿ فخر الدين أبو الظاهر إسماعيل ﴾

ابن عز القضاة أبى الحسن على بن محمد بن عبد الواحد بن أبى اليمن ، الشيخ الزاهد المتقلل من متاع الدنيا ، توفى فى العشرين من رمضان ، وصلى عليه فى الجامع ، ودفن بتربة بنى الزكى بقاسيون محبة فى محيى الدين بن عربى ، فانه كان يكتب من كلامه كل يوم ورقتين ، ومن الحديث ورقتين وكان مع هذا يحسن الظن به ، وكان يصلى مع الأئمة كلهم بالجامع ، وقد أخبر عنه بعض العلماء أنه رأى بخطه .

وفى كل شىء له آية ، تدل على أنه عينه

وقد صحح على « عينه » وإنما الصحيح المروى عمن أنشد هذا الشعر

، تدل على أنه واحد ،

وله شعر فمنه : والنهر مذ جن فى الغصون هوى * فراح فى قلبه يمثلها

فغار منـه النسيم عاشقهـا * فجـاء عن وصله يميلهـا

وله أيضا : لمـا تحقق بالامكان فوقـكم * وقـد بدا حكمه فى عالم الصور

فـميز الجمع عنه وهو متخـد * فلاح فرقكم فى عالم الصور

وله : لى سادة لا أرى سواهم * هم عين معناى وعين جوفى

لقـد أ حاطوا بـكل جزء * منى وعزوا عن درك طرفى

هم نظروا فى عموم فقرى * وطول ذلى وفرط ضـعفى

فعامـلونى ببحت جـود * وصرف بر ومحض لطف

فـلا تلم إن جررت ذيـلى * فخراً بهـم أو ثنيت عطفى

وله : مواهب ذى الجلال لدى تترى * فقد أخرستنى ونطقن شكرا

فنعمى إثر نعمى إثر نعمى * و بشرى بعد بشرى بعد بشرى

لهـا بدء وليس لها انتهـاء * يعم مزيدها دنيـا وأخرى

﴿ الحاج طيبرس بن عبد الله ﴾

علاء الدين الوزير ، صهر الملك الظاهر ، كان من أكابر الأمراء ذوى الحل والعقد ، وكان دينا كثير الصدقات ، له خان بدمشق أوقفه ، وله فى فكاك الاسرى وغير ذلك ، وأوصى عنـد موته بثلثمائة ألف تصرف عـلى الجند بالشام ومصر ، فحصل لـكل جندى خمسون درهما ، وكانت وفاته فى ذى الحجة ، ودفن بتربته بسفح المقطم .

﴿ قاضى القضاة ﴾

نجم الدين أبو العباس بن الشيخ شمس الدين بن أبى عمر المقدسى ، توفى ثانى عشر رجب بسوا ، وكان فاضـلا بارعاً خطيباً مدرسا بأكثر المدارس ، وهو شيخ الحنابلة وابن شيخهم ، وتولى بعده القضاء الشيخ شرف الدين حسين بن عبد الله بن أبى عمر ، والله أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة تسعين وستمائة من الهجرة ﴾

فيها فتحت عكا و بقية السواحل التى كانت بأيدى الفرنج من مدد متطاولة ، ولم يبق لهم فيها حجر واحد ولله الحمد والمنة

استهلت هذه السنة والخليفة الحاكم بأمر الله أبو العباس العباسى ، وسلطان البلاد الملك الأشرف خليل بن المنصور قـلاوون ، ونائبـه بمصر وأعمالها بدر الدين بيـدرا ، ووزيره ابن السلعوس الصاحب شمس الدين ، ونائبه بالشام حسام الدين لاجين السلحدارى المنصورى ، وقضاة الشام

هم المذكورون فى التى قبلها ، وصاحب اليمن الملك المظفر شمس الدين يوسف بن المنصور نور الدين عمر بن على بن رسول ، وصاحب مكة نجم الدين أبو نمى محمد بن إدريس بن على بن قتادة الحسينى ، وصاحب المدينة عز الدين جماز بن شيحة الحسينى ، وصاحب الروم غياث الدين كنجسر ، وهو ابن ركن الدين قلج أرسلان السلجوقى ، وصاحب حماة تقى الدين محمود بن الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر تقى الدين محمد ، وسلطان بلاد العراق وخراسان وتلك النواحى أرغون بن أبغا بن هولاكو بن تولى بن جنكزخان .

وكان أول هذه السنة يوم الخميس وفيه تصدق عن الملك المنصور بأموال كثيرة جداً من الذهب والفضة ، وأنزل السلطان إلى تربته فى ليلة الجمعة فدفن بها تحت القبة ، ونزل فى قبره بدر الدين بيدرا ، وعلم الدين الشجاعى ، وفرقت صدقات كثيرة حينئذ ، ولما قدم الصاحب شمس الدين بن السلعوس من الحجاز خلع عليه للوزارة ، وكتب تقليده بها القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر كاتب الانشا بيده ، وركب الوزير فى أبهة الوزارة إلى داره ، وحكم . ولما كان يوم الجمعة قبض على شمس الدين سنقر الأشقر وسيف الدين بن جرمك الناصرى ، وأفرج عن الأمير زين الدين كتبغا وكان قد قبض عليه مع طرقطاى ، ورد عليه أقطاعه ، وأعيد التقى توبة إلى وزارة دمشق مرة أخرى . وفيها أثبت ابن الخوى محضراً يتضمن أن يكون تدريس الناصرية للقاضى الشافعى وانتزعها من زين الدين الفارقى .

﴿ ذكر فتح عكا و بقية السواحل ﴾

وفيها جاء البريد إلى دمشق فى مستهل ربيع الأول لتجهيز آلات الحصار لعكا ، ونودى فى دمشق الغزاة فى سبيل الله إلى عكا ، وقد كان أهل عكا فى هذا الحين عدوا على من عندهم من تجار المسلمين فقتلوهم وأخذوا أموالهم ، فأبرزت المناجيق إلى ناحية الجسورة ، وخرجت العامة والمتطوعة يجرون فى العجل حتى الفقهاء والمدرسين والصلحاء ، وتولى ساقها الأمير علم الدين الدويدارى ، وخرجت العساكر بين يدى نائب الشام ، وخرج هو فى آخرهم ، ولحقه صاحب حماة الملك المظفر وخرج الناس من كل صوب ، واتصل بهم عسكر طرابلس ، وركب الأشرف من الديار المصرية بعساكره قاصداً عكا ، فتوافت الجيوش هنالك ، فنازلها يوم الخميس رابع ربيع الآخر ونصبت عليها المناجيق من كل ناحية يمكن نصبها عليها ، واجتهدوا غاية الاجتهاد فى محاربتها والتضييق على أهلها ، واجتمع الناس بالجوامع لقراءة صحيح البخارى ، فقرأه الشيخ شرف الدين الفزارى ، فحضر القضاة والفضلاء والأعيان . وفى أثناء محاصرة عكا وقع تخبيط من نائب الشام حسام الدين لاجين ، فتوهم أن السلطان يريد مسكه ، وكان قد أخبره بذلك الأمير الذى يقال له أبو خرص ، فركب هاربا فرده علم الدين الدويدارى بالمسا به وجاء به إلى السلطان فطيب قلبه وخلع عليه ثم

أمسكه بعد ثلاثة أيام و بعثه إلى قلعة صفد واحتاط على حواصله، ورسم على أستاذ داره بدر الدين بكداش ، وجرى مالا يليق وقوعه هنالك ، إذ الوقت وقت عسر وضيق وحصار . وصمم السلطان على الحصار فرتب الكوسات ثلثمائة حمل ، ثم زحف يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأولى ودقت الكوسات جملة واحدة عند طلوع الشمس ، وطلع المسلمون على الأسوار مع طلوع الشمس، ونصبت السناجق الاسلامية فوق أسوار البلد ، فولت الفرنج عند ذلك الأدبار، وركبوا هاربين فى مراكب التجار ، وقتل منهم عدد لا يعلمه إلا الله تعالى ، وغنموا من الأمتعة والرقيق والبضائع شيئاً كثيراً جداً ، وأمر السلطان بهدمها وتخريبها ، بحيث لاينتفع بها بعد ذلك ، فيسر الله فتحها نهار جمعة ، كما أخذتها الفرنج من المسلمين فى يوم الجمعة ، وسلمت صور وصيدا قيادتهما إلى الأشرف ، فاستوثق الساحل للمسلمين ، وتنظف من الكافرين ، وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين .

وجاءت البطاقة إلى دمشق بذلك ففرح المسلمون ، ودقت البشائر فى سائر الحصون ، وزينت البلاد ليتنزه فيها الناظرون والمتفرجون ، وأرسل السلطان إلى صور أميراً فهدم أسوارها وعفا آثارها . وقد كان لها فى أيدى الفرنج من سنة ثمان عشرة وخمسمائة . وأما عكا فقد كان الملك الناصر يوسف بن أيوب أخذها من أيدى الفرنج ، ثم إن الفرنج جاؤا فأحاطوا بها بجيوش كثيرة ، ثم جاء صلاح الدين ليمانعهم عنها مدة سبعة وثلاثين شهراً ، ثم آخر ذلك استملكوها وقتلوا من كان فيها من المسلمين ، كما تقدم ذلك .

ثم إن السلطان الملك الاشرف خليل بن المنصور قلاوون سار من عكا قاصداً دمشق فى أبهة الملك وحرمة وافرة ، وفى صحبته وزيره ابن السلعوس والجيوش المنصورة ، وفى هذا اليوم استناب بالشام الأمير علم الدين سنجر الشجاعى ، وسكن بدار السعادة ، وزيد فى إقطاعه حرستا ولم تقطع لغيره ، وإنما كانت لمصالح حواصل القلعة ، وجعل له فى كل يوم ثلثمائة على دار الطعام ، وفوض إليه أن يطلق من الخزانة ما يريد من غير مشاورة ولا مراجعة ، وأرسله السلطان إلى صيدا لأنه كان قد بقى بها برج عصى ، ففتحه ودقت البشائر بسببه ، ثم عاد سريعاً إلى السلطان فودعه ، وسار السلطان نحو الديار المصرية فى أواخر رجب ، و بعثه إلى بيروت ليفتحها فسار إليها ففتحها فى أقرب وقت ، وسلمت عثلية وانطرطوس وجبيل . ولم يبق بالسواحل ولله الحمد معقل للفرنج إلا بأيدى المسلمين ، وأراح الله منهم البلاد والعباد ، ودخل السلطان إلى القاهرة فى تاسع شعبان فى أبهة عظيمة جداً ، وكان يوماً مشهوداً . وأفرج عن بدر الدين بيسرى بعد سجن سبع سنين . ورجع علم الدين سنجر الشجاعى نائب دمشق إلى دمشق فى سابع عشرين الشهر المذكور ، وقد نظف السواحل من الفرنج بالكلية ، ولم يبق لهم بها حجر . وفى رابع رمضان أفرج عن حسام الدين لاجين من قلعة صفد ومعه جماعة

أمراء ، ورد عليهم إقطاعاتهم ، وأحسن إليهم وأكرمهم .

وفى أوائل رمضان طلب القاضى بدر الدين ابن جماعة من القدس الشريف وهو حاكم به ، وخطيب فيه ، على البريد إلى الديار المصرية فدخلها فى رابع عشره ، وأفطر ليلتئذ عند الوزير ابن السلعوس وأكرمه جداً واحترمه ، وكانت ليلة الجمعة ، فصرح الوزير بعزل تقى الدين ابن بنت الاعز وتولية ابن جماعة بالديار المصرية قضاء القضاة ، وجاء القضاة إلى تهنئته وأصبح الشهود بخدمته ، ومع القضاء خطابة الجامع الأزهر ، وتدريس الصالحية ، وركب فى الخلعة والطرحة ورسم لبقية القضاة أن يستمروا بلبس الطرحات ، وذهب فخطب بالجامع الأزهر ، وانتقل إلى الصالحية ودرس بها فى الجمعة الأخرى وكان درساً حافلا ، ولما كان يوم الجمعة رسم السلطان للحاكم بأمر الله أن يخطب هو بنفسه الناس يومئذ وأن يذكر فى خطبته أنه قد ولى السلطنة للأشرف خليل بن المنصور ، فلبس خلعة سوداء وخطب الناس بالخطبة التى كان خطب بها فى الدولة الظاهرية ، وكانت من إنشاء الشيخ شرف الدين المقدسى فى سنة ستين وستمائة ، فيكون بين الخطبتين أزيد من ثلاثين سنة ، وذلك بجامع قلعة الجبل ، ثم استمر ابن جماعة يخطب بالقلعة عند السلطان ، وكان يستنيب فى الجامع الأزهر .

وأما ابن بنت الأعز فناله من الوزير إخراق ومصادرة وإهانة بالغة ، ولم يترك له من مناصبه شيئا ، وكان بيده سبعة عشر منصبا ، منها القضاء والخطابة ونظر الأحباس ومشيخة الشيوخ ، ونظر الخزانة وتداريس كبار ، وصادره بنحو من أربعين ألف ، غير مراكبه وأشياء كثيرة ، ولم يظهر منه استكانة له ولا خضوع ، ثم عاد فرضى عنه وولاه تدريس الشافعى ، وعملت ختمة عند قبر المنصور فى ليلة الاثنين رابع ذى القعدة وحضرها القضاة والامراء ، ونزل السلطان ومعه الخليفة إليهم وقت السحر ، وخطب الخليفة بعد الختمة خطبة بليغة ، حرض الناس على غزو بلاد العراق واستنقاذها من أيدى التتر ، وقد كان الخليفة قبل ذلك محتجبا فرآه الناس جهرة ، وركب فى الاسواق بعد ذلك . وعمل أهل دمشق ختمة عظيمة بالميدان الأخضر إلى جانب القصر الأبلق ، فقرئت ختمات كثيرة ثم خطب الناس بعدها الشيخ عز الدين الفاروثى ، ثم ابن البزورى ، ثم تكلم من له عادة بالكلام وجاءت البريدية بالتهيؤ لغزو العراق ، ونودى فى الناس بذلك ، وعملت سلاسل عظام بسبب الجسورة على دجلة بغداد ، وحصلت الأجور على المقصود وإن لم يقع المقصود ، وحصل لبعض الناس أذى بسبب ذلك .

وفيها نادى نائب الشام الشجاعى أن لا تلبس امرأة عمامة كبيرة ، وخرب الأبنية التى على نهر بانياس والجداول كلها والمسالح والسقايات التى على الأنهار كلها ، وأخرب جسر الزلابية وما عليه من الدكاكين ، ونادى أن لا يمشى أحد بعد العشاء الآخر ، ثم أطلق لهم هذه فقط ، وأخرب الحمام

الذى كان بناه الملك السعيد ظاهر باب النصر ، ولم يكن بدمشق أحسن منه ، ووسع الميدان الأخضر من ناحية الشمال مقدار سدسه ، ولم يترك بينه و بين النهر الا مقدارا يسيراً ، وعمل هو بنفسه والأمراء بحيطانه .

وفيها حبس جمال الدين آقوش الأفرم المنصورى وأميراً آخر معه فى القلعة .

وفيها حمل الأمير علم الدين الدويدارى إلى الديار المصرية مقيداً . وقد نظم الشيخ شهاب الدين محمود قصيدة فى فتح عكا .

الحمد لله زالت دولة الصلب * وعز بالترك دين المصطفى العربى

هذا الذى كانت الآمال لو طلبت * رؤياه فى النوم لاستحيت من الطلب

ما بعد عكا وقد هدت قواعدها * فى البحر للترك عند البر من أرب

لم يبق من بعدها للكفر إذ خربت * فى البحر والبر ما ينجى سوى الهرب

أم الحروب فكم قد أنشأت فتناً * شاب الوليد بها هولا ولم تشب

يا يوم عكا لقد أنسيت ما سبقت * به الفتوح وما قد خط فى الكتب

لم يبلغ النطق حد الشكر فيك فما * عسى يقوم به ذو الشعر والأدب

أغضبت عبّاد عيسى إذ أبدتهم * لله أى رضى فى ذلك الغضب

وأشرف الهادى المصطفى البشير على * ما أسلف الأشرف السلطان من قرب

فقر عينا لهذا الفتح وابتهجت * ببشره الكعبة الغراء فى الحجب

وسار فى الأرض سيراً قد سمعت به * فالبر فى طرب ، والبحر فى حرَب

وهى طويلة جداً ، وله ولغيره فى فتح عكا أشعار كثيرة . ولما رجع البريد أخبر بأن السلطان لما عاد إلى مصر خلع على وزيره ابن السلعوس جميع ملابسه التى كانت عليه ، ومركوبه الذى كان تحته ، فركبه ورسم له بثمانية وسبعين ألفا من خزانة دمشق ، ليشترى له بها قرية قرحتا من بيت المال .

وفى هذه السنة انتهت عمارة قلعة حلب بعد الخراب الذى أصابها من هولاكو وأصحابه عام ثمان وخمسين . وفيها فى شوال شرع فى عمارة قلعة دمشق وبناء الدور السلطانية والطارمة والقبة الزرقاء ، حسب ما رسم به السلطان الأشرف خليل بن قلاوون لنائبه علم الدين سنجر الشجاعى. وفيها فى رمضان أعيد إلى نيابة القلعة الأمير أرجواش وأعطى إقطاعات سنية .وفيها أرسل الشيخ الرجيحى من ذرية الشيخ يونس مضيقا عليه محصوراً إلى القاهرة ، وفيها درس عز الدين القارونى بالمدرسة النجيبية عوضا عن كال الدين ابن خلكان ، وفى ذلك اليوم درس نجم الدين مكى بالرواحية

عوضا عن ناصر الدين ابن المقدسى ، وفيه درس كمال الدين الطبيب بالمدرسة الدخوارية الطبية ، وفى هذا الشهر درس الشيخ جلال الدين الخبازى بالخاتونية البرانية ، وجمال الدين بن الناصر بقى بالفتحية ، وبرهان الدين الاسكندرى بالقوصية التى بالجامع ، والشيخ نجم الدين الدمشقى بالشريفية عند حارة الغرباء . وفيها أعيدت الناصرية إلى الفارقى وفيه درس بالأمينية القاضى نجم الدين ابن صصرى بعد ابن الزملكانى ، وأخذت منه العادلية الصغيرة لكمال الدين ابن الزملكانى .

وممن توفى فيها من الأعيان : ﴿ أرغون بن أبغا ملك التتار ﴾

كان شهما شجاعا سفاكا للدماء ، قتل عمه السلطان أحمد بن هولاكو ، فعظم فى أعين المغول فلما كان فى هذه السنة مات من شراب شربه فيه سم ، فاتهمت المغول اليهود به - وكان وزيره سعد الدولة ابن الصفى يهوديا - فقتلوا من اليهود خلقا كثيرا ، ونهبوا منهم أموالا عظيمة جدا فى جميع مدائن العراق ، ثم اختلفوا فيمن يقيمونه بعده ، فمالت طائفة إلى كيختو فأجلسوه على سرير المملكة ، فبقى مدة ، قيل سنة وقيل أقل من ذلك ، ثم قتلوه وملكوا بعده بيدرا . وجاء الخبر بوفاة أرغون إلى الملك الأشرف وهو محاصر عكا ففرح بذلك كثيرا ، وكانت مدة ملك أرغون ثمان سنين ، وقد وصفه بعض مؤرخى العراق بالعدل والسياسة الجيدة .

﴿ المسند المعمر الرحالة ﴾

فخر الدين بن النجار وهو أبو الحسن على بن أحمد بن عبد الواحد المقدسى الحنبلى المعروف بابن النجار ، ولد فى سلخ أو مستهل سنة ست وسبعين وخمسمائة ، وسمع الكثير ورحل مع أهله ، وكان رجلا صالحا عابداً زاهداً ورعا ناسكا ، تفرد بروايات كثيرة لطول عمره ، وخرجت له مشيخات وسمع منه الخلق الكثير والجم الغفير ، وكان منصوبا لذلك حتى كبر وأسن وضعف عن الحركة ، وله شعر حسن ، منه قوله :

تكررت السنون على حتى * بليت وصرت من سقط المتاع
وقل النفع عندى غير أنى * أعلل بالرواية والسماع
فان يك خالصاً فله جزاء * وإن يك مالقاً فالى ضياع

وله أيضاً : إليك اعتذارى من صلاتى قاعداً * وعجزى عن سعى إلى الجمعات
وتركى صلاة الفرض فى كل مسجد * تجمع فيه الناس للصلوات
فيارب لا تمقت صلاتى ونجنى * من النار واصفح لى عن الهفوات

توفى ضحى نهار الأربعاء ثانى ربيع الآخر من هذه السنة ، عن خمس وتسعين سنة ، وحضر جنازته خلق كثير ، ودفن عند والده الشيخ شمس الدين أحمد بن عبد الواحد بسفح قاسيون .

﴿ الشيخ تاج الدين الفزارى ﴾

عبد الرحمن بن سباع بن ضياء الدين أبو محمد الفزارى ، الامام العلامة العالم ، شيخ الشافعية فى زمانه ، حاز قصب السبق دون أقرانه ، وهو والد شيخنا العلامة برهان الدين . كان مولد الشيخ تاج الدين فى سنة ثلاثين وستمائة ، وتوفى ضحى الاثنين خامس جمادى الآخرة ، بالمدرسة البادرائية وصلى عليه بعد الظهر بالاموى ، تقدم للصلاة عليه قاضى القضاة شهاب الدين بن الخويى ، ثم صلى عليه عند جامع جراح الشيخ زين الدين الفارقى ، ودفن عند والده بباب الصغير ، وكان يوما شديد الزحام . وقد كان ممن اجتمع فيه فنون كثيرة من العلوم النافعة ، والأخلاق اللطيفة ، وفصاحة المنطق ، وحسن التصنيف ، وعلو الهمة ، وفقه النفس ، وكتابه الأقليد الذى جمع على أبواب التنبيه وصل فيه إلى باب الغصب ، دليل على فقه نفسه وعلوقدره ، وقوة همته ونفوذ نظره ، واتصافه بالاجتهاد الصحيح فى غالب ما سطره ، وقد انتفع به الناس ، وهو شيخ أكابر مشايخنا هو ومحى الدين النووى ، وله اختصار الموضوعات لابن الجوزى ، وهو عندى بخطه ، وقد سمع الحديث الكثير وحضر عند ابن الزبيدى صحيح البخارى ، وسمع من ابن الليثى وابن الصلاح واشتغل عليه ، وعلى ابن عبد السلام وانتفع بهما ، وخرج له الحافظ علم الدين البرزالى أحد تلاميذه مشيخة فى عشرة أجزاء عن مائة شيخ فسمعها عليه الأعيان : وله شعر جيد فمنه :

لله أيام جمع الشمل ما برحت * بها الحوادث حتى أصبحت سمرا
ومبتدا الحزن من تاريخ مسألتى * عنكم ، فلم ألق لاعينا ولا أثرا
ياراحلين قدرتم فالنجاة لكم * ونحن للعجز لا نستعجز القدرا

وقد ولى الدرس بعده بالبادرائية والحلقة والفتيا بالجامع ولده شيخنا برهان الدين ، فمشى على طريقة والده وهديه وسمته رحمه الله . وفى ثالث شعبان توفى

﴿ الطبيب الماهر عز الدين إبراهيم بن محمد بن طرخان ﴾

السويدى الأنصارى ، ودفن بالسفح عن تسعين سنة ، وروى شيئا من الحديث ، وفاق أهل زمانه فى صناعة الطب ، وصنف كتبا فى ذلك ، وكان يرمى بقلة الدين وترك الصلوات والانحلال فى العقيدة ، وإنكار أمور كثيرة مما يتعلق باليوم الآخر ، والله يحكم فيه وفى أمثاله بأمره العدل الذى لا يجور ولا يظلم . وفى شعره ما يدل على قلة عقله ودينه وعدم إيمانه ، واعتراضه على تحريم الخمر ، وأنه قد طال رمضان عليه فى تركها وغير ذلك .

﴿ الشيخ الامام العلامة ﴾

علاء الدين أبو الحسن على بن الامام العلامة كمال الدين عبد الواحد بن عبد الكريم بن

خلف الانصارى الزملكانى ، وقد درس بعد أبيه المذكور بالأمينية ، وكانت وفاة والده هذا ليلة الثلاثاء التاسع والعشرين من ربيع الآخر بالأمينية ، ودفن بمقابر الصوفية عند والده الأمير الكبير بدر الدين على بن عبد الله الناصرى ، ناظر الرباط بالصالحية ، عن وصية أستاذه ، وهو الذى ولى الشيخ شرف الفزارى مشيخة الرباط بعد ابن الشريشى جمال الدين ، وقد دفن بالتربة الكبيرة داخل الرباط المذكور .

﴿ الشيخ الامام أبو حفص عمر بن يحيى بن عمر الكرخى ﴾

صهر الشيخ تقى الدين بن الصلاح ، وأحد تلاميذه ، ولد سنة تسع وتسعين وخمسمائة ، ومات يوم الاربعاء ثانى ربيع الآخر من هذه السنة ، ودفن إلى جانب ابن الصلاح .

﴿ الملك العادل بدر الدين سلامش بن الظاهر ﴾

الذى كان قد بويع بالملك بعد أخيه الملك السعيد ، وجعل الملك المنصور قلاوون أتابكه ، ثم استقل قلاوون بالملك ، وأرسلهم إلى الكرك ثم أعادهم إلى القاهرة ثم سفرهم الاشرف خليل فى أول دولته إلى بلاد الاشكرى من ناحية اصطنبول ، فمات سلامش هناك وبقى أخوه نجم الدين خضر وأهلوهم بتلك الناحية ، وقد كان سلامش من أحسن الناس شكلا وأبهاهم منظراً ، وقد افتتن به خلق كثير ، واللوطية الذين يحبون المردان ، وشبب به الشعراء وكان عاقلا رئيساً مهيباً وقوراً

﴿ العفيف التلمسانى ﴾

أبو الربيع سليمان بن على بن عبد الله بن على بن يس العابدى الكومى ثم التلمسانى الشاعر المتقن المتفنن فى علوم منها النحو والأدب والفقه والأصول ، وله فى ذلك مصنفات ، وله شرح مواقف النفر وشرح أسماء الله الحسنى ، وله ديوان مشهور ، ولولده محمد ديوان آخر ، وقد نسب هذا الرجل إلى عظائم فى الأقوال والاعتقاد فى الحلول والاتحاد والزندقة والكفر المحض ، وشهرته تغنى عن الاطناب فى ترجمته ، توفى يوم الاربعاء خامس رجب ودفن بالصوفية ، ويذكر عنه أنه عمل أربعين خلوة كل خلوة أربعين يوماً متتابعة فالله أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة إحدى وتسعين وستمائة ﴾

فيها فتحت قلعة الروم وسلطان البلاد من دنقلة إلى مصر إلى أقصى بلاد الشام بكماله وسواحله بلاد حلب وغير ذلك الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن الملك المنصور قلاوون ، ووزيره شمس الدين بن السلعوس ، وقضاته بالشام ومصرهم المذكورون فى التى قبلها ، ونائب مصر بدر الدين بندار ونائب الشام علم الدين سنجر الشجاعى ، وسلطان التتر بيدار بن أرغون بن أبغا ، والعمارة فى الطارمة وفى دور السلطانية بالقلعة . وفى عشرين المحرم وقع حريق عظيم بقلعة الجبل ببعض

الخزائن أتلف شيئا كثيراً من الذخائر والنفائس والـكتب . وفى التاسع والعشرين من ربيع الاول خطب الخليفة الحاكم وحث فى خطبته على الجهاد والنفير ، وصلى بهم الجمعة وجهر بالبسملة . وفى ليلة السبت ثالث عشر صـفر جىء بهذا الجرز الأحمر الذى بباب البرادة من عكا ، فوضع فى مكانه . وفى ربيع الأول كمل بناء الطارمة وما عنـدها من الدور والقبـة الزرقاء ، وجاءت فى غاية الحسن والـكمال والارتفاع . وفى يوم الاثنين ثانى جمادى الأولى ذكر الدرس بالظاهرية الشيخ صفى الدين محمد بن عبد الرحيم الأرموى ، عوضاً عن علاء الدين بن بنت الاعز . وفى هذا اليوم درس بالدولعية كمال الدين بن الزكى . وفى يوم الاثنين سابع جمـادى الآخرة درس بالنجيبية الشيخ ضياء الدين عبد العزيز الطوسى ، بمقتضى نزول الفارقى له عنها . والله أعلم بالصواب .

﴿ فتح قلعة الروم ﴾

وفى ربيع الاول منها توجه السلطان الاشرف بالعساكر نحو الشام فقدم دمشق ومعه وزيره ابن السلعوس فاستعرض الجيوش وأنفق فيهم أموالا جزيلة ، ثم سار بهم نحو بلاد حلب ، ثم سار إلى قلعة الروم فافتتحها بالسيف قهراً فى يوم السبت حـادى عشر رجب ، وجاءت البشارة بذلك إلى دمشق ، وزينت البلد سبعة أيام وبارك الله لجيش المسلمين فى سعيهم ، وكان يوم السبت إلباعلى أهل يوم الأحد ، وكان الفتح بعد حصار عظيم جدا ، مدة ثلاثين يوما ، وكانت المنجنيقات تزيد عـلى ثلاثين منجنيقا ، واستشهد من الأمراء شرف الدين بن الخطير ، وقد قتل من أهل البلد خلق كثير وغنم المسلمون منها شيئا كثيراً ، ثم عاد السلطان إلى دمشق وترك الشجاعى بقلعة الروم يعمرون ما وهى من قلعتها بسـبب رمى المنجنيقات عليها وقت الحصار ، وكان دخوله إلى دمشق بكرة يوم الثلاثاء تاسع عشر شعبان ، فاحتفل الناس لدخوله ودعوا له وأحبوه ، وكان يوما مشهوداً بسط له كما يبسط له إذا قدم من الديار المصرية ، وإنما كان ذلك باشارة ابن السلعوس ، فهو أول من بسط له ، وقد كسر أبوه التتر على حمص ولم يبسط له ، وكذلك الملك الظاهر كسر التتر والروم على البلستين ، وفى غير موطن ولم يبسط له ، وهذه بدعة شنعاء قد أحدثها هذا الوزير للملوك ، وفيها إسراف وضياع مال وأشر وبطر ورياء وتـكايف للناس ، وأخذ أموال ووضعها فى غير مواضعها ، والله سبحانه سـائله عنها ، وقد ذهب وتركها يتوارثها الملوك والناس عنه ، وقد حصـل للناس بسبب ذلك ظـلم عظيم ، فليتق العبـد ربه ولا يحدث فى الاسـلام بسبب هواه ومراد نفسه ما يكون سبب مقت الله له وإعراضه عنه ، فان الدنيا لاتدوم لأحد ، ولا يدوم أحد فيها والله سبحانه أعلم .

وكان ملك قلعة الروم مع السلطان أسيرا ، وكذلك رؤس أصحابه ، فدخل بهم دمشق وهم يحملون رؤس أصحابهم على رؤس الرماح ، وجهز السلطان طائفة من الجيش نحو جبل كسروان والجرد بسبب

مما لأنهم للفرنج قديما عـلى المسلمين ، وكان مقـدم العساكر بندار وفى صحبته سنقر الأشقر ، واقر سنقر المنصورى الذى كان نائب حلب فعزله عنها السلطان و ولى مكانه سيف الدين بلبان البطاحى المنصورى ، وجماعة آخرون من الأمراء الكبار ، فلما أحاطوا بالجبل ولم يبق إلا دمار أهليه حملوا فى الليل إلى بندار حملا كثيراً ففتر فى قضيتهم ، ثم انصرف بالجيوش عنهم وعادوا إلى السلطان ، فتلقاهم السلطان وترجل السلطان إلى الأمير بندار وهو نائبه على مصر، ثم ابن السلعوس نبه السلطان على فعل بندار فلامه وعنفه ، فمرض من ذلك مرضا شديدا أشفى به على الموت حتى قيل إنه مات ، ثم عوفى فعمل ختمة عظيمة بجامع دمشق حضرها القضاة والأعيـان ، وأشغل الجـامع نظير ليلة النصف من شعبان ، وكان ذلك ليلة العشر الأول من رمضان ، وأطلق السلطان أهل المحبوس وترك بقية الضمان عن أرباب الجهات السلطانية ، وتصدق عنه بشئ كثير ، ونزل هو عن ضمانات كثيرة كان قد حاف فيها على أربابها ، وقد امتدح الشهاب محمود الملك الأشرف خليل على فتحه قلعة الروم بقصيدة هائلة فاضلة أولها :

لك الراية الصفراء يقدمهـا النصر * فمـن كيقباذان رآهـا وكيخسرو
إذا خفقت فى الأفق هدت بنورها * هوى الشرك واستعلى الهدى وانجلى الثغر
وإن نشرت مثل الاصائيل فى الوغى * جلى النقع من لألاء طلعتها البدر
وإن يممت زرق العدى سار تحتها * كتائب خضر دوحها البيض والسمر
كان مثـار النقع ليل وخفقهـا * بروق وأنت البدر والفلك الحـتر
وفتـح أتى فى إثر فتح كأنمـا * سماء بدت تترى كواكبهـا الزهر
فكم قطعت طوعا وكرهـا معاقـلا * مضى الدهر عنهـا وهى عانسة بكر
بذلت لهـا عزما فلولا مهـابة * كساها الحيا جاءتك تسعى ولا مهر
قصـدت حمى من قلعة الروم لم يتح * لغيرك إذ غرتهم المغل فاغـتروا
ووالوهم سراً ليخفـوا أذاهم * وفى آخر الأمر استوى السر والجهر
صرفت إليهم همة لو صرفتهـا * إلى البحر لاستولى على مده الجزر
وما قلعة الروم التى حزت فتحها * وإن عظمت إلا إلى غيرها جسر
طليعـة ما يأتى من الفتح بعدهـا * كما لاح قبل الشمس فى الأفق الفجر
فصبحتهـا بالجيش كالروض بهجـة * صوارمه أنهـاره والقنـا الزهر
وأبعدت بل كالبحر والبيض موجه * وجرد المزاكى السفن والخوذ الذر
وأغربت بل كالليل عوج سيوفه * أهلته والنبل أنجمه الزهر

ولحظات لابل كالنهار شموسه * محياك والآصال راياتك الصفر
ليوث من الاتراك آجامها القنا * لها كل يوم فى ذرى ظفر ظفر
فلا الريح يجرى بينهم لاشتباكها * عليهم ولا ينهل من فوقهم قطر
عيون إذا الحرب العوان تعرضت * لخطابها بالنفس لم يغلها مهر
ترى الموت معقوداً بهدب نبالهم * إذا ما رماها القوس والنظر الشزر
ففى كل سرح غصن بان مهفهف * وفى كل قوس مده ساعد بدر
إذا صدموا شم الجبال تزلزلت * وأصبح سهلا تحت خيلهم الوعر
ولو وردت ماء الفرات خيولهم * لقيل هنا قد كان فيما مضى نهر
أداروا بها سوراً فأضحت كخاتم * لدى خنصر أو تحت منطقه خصر
وأرخوا إليها من أكف بحارهم * سحاب ردى لم يخل من قطره قطر
كأن المجانيق التى قمن حولها * رواعد سخط وبلها النار والصخر
أقامت صلاة الحرب ليلا صخورها * فأكثرها شفع وأكبرها وتر
ودارت بها تلك النقوب فأسرفت * وليس عليها فى الذى فعلت حجر
فأضحت بها كالصب يخفى غرامه * حذار أعاديه وفى قلبه جمر
وشبت بها النيران حتى تمزقت * وباحت بما أخفته وانهتك الستر
فلاذوا بذيل العفو منك فلم تجب * رجاءهم لو لم يشب قصدهم مكر
وما كره المغل اشتغالك عنهم * بها عند ما فروا ولكنهم سروا
فأحرزتها بالسيف قهراً وهكذا * فتوحك فيما قد مضى كله قسر
وأضحت بحمد الله ثغراً ممنعاً * تبيد الليالى والعدى وهو مفتر
فيا أشرف الاملاك فزت بغزوة * تحصل منها الفتح والذكر والأجر
ليهنيك عند المصطفى أن دينه * توالى له فى يمن دولتك النصر
وبشراك أرضيت المسيح وأحمداً * وإن غضب اليعفور من ذاك والكفر
فسر حيث ما تختار فالأرض كلها * [تطيعك] والأمصار أجمعها مصر
ودم وابق للدنيا ليحيى بك المدى * ويزهى على ماضى العصور بك العصر

حذفت منها أشياء كثيرة .

وفيها تولى خطابة دمشق الشيخ عز الدين أحمد الفاروثى الواسطى بعد وفاة زين الدين بن المرحل وخطب واستسقى بالناس فلم يسقوا ، ثم خطب مرة ثانية بعد ذلك بأيام عند مسجد القدم ، فلم يسقوا

ثم ابتهل النـاس من غير دعاية واستسقاية فسقوا ، ثم عزل الفاروثى بعد أيام بالخطيب موفق الدين أبى المعالى محمد بن محمد بن محمد بن عبد المنعم بن حسن المهرانى الحموى ، كان خطيب حماة ثم نقل إلى دمشق فى هذه السنة ، فقام وخطب وتألم الفاروثى لذلك ودخل على السلطان واعتقد أن الوزير عزله من غير علمه،فاذا هو قد شعر لذلك واعتذر بأنه إنما عزله لضعفه،فذكر له أنه يصلى ليلة النصف مائة ركعة بمائة قل هو الله أحد ، فلم يقبلوا واستمروا بالحموى . وهذه دناءة وقلة عقل وعدم إخلاص من الفاروثى ، وأصاب السلطان فى عزله .

وفى هذا اليوم قبض السلطان على الأمير سنقر الأشقر وغيره فهرب هو والامير حسام الدين لاجين السلحدارى ، فنادت عليه المنادية بدمشق: من أحضره فله ألف دينار ، ومن أخفاه شنق ، وركب السلطان ومماليكه فى طلبه ، وصلى الخطيب بالناس فى الميدان الأخضر ، وعلى الناس كآبة بسبب تفرق الكلمة ، واضطراب الجيش ، واختبط الناس ، فلما كان سادس شوال أمسكت العرب سنقر الأشقر فردوه على السلطان فأرسله مقيدا إلى مصر . وفى هذا اليوم ولى السلطان نيابة دمشق لعز الدين أيبك الحمـوى ، عوضا عن الشجاعى ، وقـدم الشجاعى من الروم ثانى يوم عزله فتلقاه الفاروثى فقال : قد عزلنا من الخطابة ، فقال ونحن من النيابة، فقال الفاروثى (عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون) فلما بلغ ابن السلعوس تغضب عليـه وكان قد عين له القيمرية فترك ذلك ، وسافر السلطان عاشر شوال إلى مصر فدخلها فى أبهة الملك ، وفى يوم دخوله أقطع قرا سنقر مائة فارس بمصر عوضا عن نيابة حلب ، وفى هذه السنة اشترى الأمير سيف الدين طغاى الأشـقرى قيسارية القطن المعروفة بانشاء الملك المعظم بن العـادل من بيت المـال ، بمرسوم من السلطان ، وكان حظيا عنده ، ونقل سوق الحرير بين تلك المـدة إليها ، وكان السلطان قد أفرج عن علم الدين الدويدارى بعد رجوعه من قلعة الروم واستحضره إلى دمشق وخلع عليه واستصحبه معه إلى القاهرة ، وأقطعه مائة فارس ، وولاه مشد الدواوين مكرها .

وفى ذى القعدة استحضر السلطان سنقر الأشقر وطقصوا فعاقبهما فاعترفا بأنهما أرادا قتـله ، فسألهما عن لاجين فقالا : لم يكن معنا ولا علم له بهذا ، فخنقهما وأطلقه بعد ما جعل الوتر فى حلقه ، وكان قد بقى له مدة لابد أن يبلغها ، وقد ملك بعد ذلك كما سنذكره إن شاء الله تعالى .

وفى ذى الحجة عقد الشيخ برهان الدين بن الشيخ تاج الدين عقده على بنت قاضى القضاة شهاب الدين الخوبى بالبادرائية ، وكان حافلا. وفيها دخل الامير سنقر الاعسر على بنت الوزير شمس الدين بن السلعوس على صداق ألف دينار ، وعجل لها خمسمائة ، وفيها قفز جماعـة من التتر نحواً من ثلثمائة إلى الديار المصرية فأكرموا .

ومن توفى فيها من الاعيان . ﴿ الخطيب زين الدين أبو حفص ﴾

عمر بن مكى بن عبد الصمد الشافعى المعروف بابن المرحل ، وهو والد الشيخ صدر الدين بن الوكيل ، سمع الحديث و برع فى الفقه و فى علوم شتى ، منها علم الهيئة وله فيه مصنف ، تولى خطابة دمشق ودرس وأفتى ، توفى ليلة السبت الثالث والعشرين من ربيع الأول ، وصلى عليه من الغد بباب الخطابة .

﴿ الشيخ عز الدين الفاروثى ﴾

ولى الخطابة قليلا ثم عزل ثم مات ودفن بباب الصغير عفا الله عنا وعنه .

﴿ الصاحب فتح الدين أبو عبد الله ﴾

محمد بن محيي الدين بن عبد الله بن عبد الظاهر ، كاتب الأسرار فى الدولة المنصورية بعد ابن لقمان وكان ماهراً فى هذه الصناعة ، وحظى عند المنصور وكذا عند ابنه الأشرف ، وقد طلب منه ابن السلعوس أن يقرأ عليه كل ما يكتبه ، فقال : هذا لا يمكن فان أسرار الملوك لا يطلع عليها غيرهم ، وابصروا لكم غيرى يكون معكم بهذه المثابة ، فلما بلغ ذلك الأشرف أعجبه منه وازدادت عنده منزلته ، توفى يوم السبت نصف رمضان ، وأخرجت فى تركته قصيدة قد رثاها بها تاج الدين بن الأثير وكان قد شوش فاعتقد أنه يموت فعوفى فبقيت بعده ، وتولى ابن الأثير بعده ورثاه تاج الدين كما رثاه وتوفى ابن الأثير بعده بشهر وأربعة أيام .

﴿ يونس بن على بن رضوان بن برقش ﴾

الأمير عماد الدين ، كان أحد الأمراء بطبلخانة فى الدولة الناصرية ، ثم خمل و بطل الجندية بالكلية فى الدولة المظفرية وهلم جرا إلى هذه السنة ، وكان الظاهر يكرمه ، توفى فى شوال ودفن عند والده بتربة الخزعبين رحمهم الله .

﴿ جلال الدين الخبازى ﴾

عمر بن محمد بن عمر أبو محمد الخجندى أحد مشايخ الحنفية الكبار ، أصله من بلاد ما وراء النهر من بلد يقال لها خجندة ، واشتغل ودرس بخوارزم ، وأعاد ببغداد ، ثم قدم دمشق فدرس بالعزية والخاتونية البرانية ، وكان فاضلا بارعا منصفاً مصنفاً فى فنون كثيرة ، توفى لخمس بقين من ذى الحجة منها ، وله ثنتان وستون سنة ، ودفن بالصوفية .

﴿ الملك المظفر ﴾

قرا أرسلان الافريقى ، صاحب ماردين ، توفى وله ثمانون سنة وقام بعده ولده شمس الدين داود ولقب بالملك السعيد والله سبحانه أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة ثنتين وتسعين وستمائة ﴾

فى تاريخ ظهير الدين الكازرونى ظهرت نار بأرض المدينة النبوية فى هذه السنة نظير ما كان فى سنة أربع وخمسين على صفتها ، إلا أن هذه النار كان يعلو لهيبها كثيراً ، وكانت تحرق الصخر ولا تحرق السعف ، واستمرت ثلاثة أيام .

استهلت هذه السنة والخليفة الحاكم العباسى وسلطان البلاد الملك الأشرف بن المنصور ونائبه بمصر بدر الدين بيدرا [(١)] ، وبالشام عز الدين أيبك الحوى ، وقضاة مصر والشام هم الذين كانوا فى التى قبلها ، والوزير شمس الدين بن السلعوس . وفى جمادى الآخرة قدم الأشرف دمشق فنزل فى القصر الأبلق والميدان الأخضر ، وجهز الجيوش وتهيأ لغزو بلاد سيس ، وقدم فى غضون ذلك رسل صاحب بلاد سيس يطلبون الصلح ، فشفع الأمراء فيهم فسلموا بهسنا وتل حمدون . ومرعش ، وهى أكبر بلادهم وأحسنها وأحصنها ، وهى فى فم الدربند ، ثم ركب السلطان فى ثانى رجب نحو سلمية بأكثر الجيش صورة أنه يريد أن يصيب الأمير حسام الدين لاجين ، فأضافه الأمير مهنا بن عيسى ، فلما انقضت الضيافة أمسك له حسام الدين لاجين ، وكان عنده ، فجاء به فسجنه فى قلعة دمشق وأمسك مهنا بن عيسى وولى مكانه محمد بن على بن حذيفة، ثم أرسل السلطان جمهور الجيش بين يديه إلى الديار المصرية صحبة نائبه بيدرا ، ووزيره ابن السلعوس ، وتأخر هو فى خاصكيته ثم لحقهم .

وفى المحرم منها حكم القاضى حسام الدين الرازى الحنفى بالتشريك بين العلويين والجعفريين فى الدباغة التى كانوا يتنازعونها من مدة مائتى سنة ، وكان ذلك يوم الثلاثاء سادس عشرين المحرم ، بدار العدل ، ولم يوافقه ابن الخويى ولا غيره ، وحكم للاعناكيين بصحة نسبهم إلى جعفر الطيار . وفيها رسم الأشرف بتخريب قلعة الشوبك فهدمت ، وكانت من أحصن القلاع وأمنعها وأنفعها ، وإنما خربها عن رأى عتبة العقبى ، ولم ينصح للسلطان فيها ولا للمسلمين ، لأنها كانت شجىً فى حلوق الأعراب الذين هناك . وفيها أرسل السلطان الأمير علم الدين الدويدارى إلى صاحب القسطنطينية وإلى أولاد بركة ومع الرسول تحفاً كثيرة جداً ، فلم يتفق خروجه حتى قتل السلطان فعاد إلى دمشق .

وفى عاشر جمادى الأولى درس القاضى إمام الدين القزوينى بالظاهرية البرانية . وحضر عنده القضاة والأعيان . وفى الثانى والعشرين من ذى الحجة يوم الاثنين طهر الملك الأشرف أخاه الملك الناصر محمد وابن أخيه الملك المعظم مظفر الدين موسى بن الصالح على بن المنصور ، وعمل مهم عظيم ولعب الاشرف بالقبق وتمت لهم فرحة هائلة ، كانت كالوداع لسلطنته من الدنيا . وفى أول

(١) فى شذرات الذهب : بندار .

المحرم درس الشيخ شمس الدين بن غانم بالعصرونية ، وفى مستهل صفر درس الشيخ كمال الدين ابن الزملكانى بالرواحية عوضاً عن نجم الدين بن مكى بحكم انتقاله إلى حلب و إعراضه عن المدرسة المذكورة ، ودخل الركب الشامى فى آخر صفر ، وكان ممن حج فى هذه السنة الشيخ تقى الدين بن تيمية رحمه الله ، وكان أميرهم الباسطى ونالهم فى معان ريح شديدة جداً مات بسببها جماعة ،وحملت الريح جمالا عن أماكنها ، وطارت العمائم عن الرؤس ، واشتغل كل أحد بنفسه . وفى صفر منها وقع بدمشق برد عظيم أفسد شيئا كثيراً من المغلات بحيث بيع القمح كل عشر ، أواق بدرهم ، ومات شىء كثير من الدواب ، وفيه زلزلت ناحية الكرك وسقط من تلفيتا أماكن كثيرة .

ومن توفى فيها من الأعيان

﴿ الشيخ الأرموى ﴾

الشيخ الصالح القدوة العارف أبو إسحاق إبراهيم بن الشيخ الصالح أبى محمد عبد الله بن يوسف ابن يونس بن إبراهيم بن سلمان الأرموى ، المقيم بزاويته بسفح قاسيون ، كان فيه عبادة وانقطاع وله أوراد وأذكار ، وكان محببا إلى الناس ، توفى بالمحرم ودفن عند والده بالسفح .

﴿ ابن الأعمى صاحب المقامة ﴾

الشيخ ظهير الدين محمد بن المبارك بن سالم بن أبى الغنائم الدمشقى المعروف بابن الأعمى ، ولد سنة عشرة وستمائة ، وسمع الحديث وكان فاضلا بارعا ،له قصائد يمتدح بها رسول الله ﷺ ، سماها الشفعية ، عدد كل قصيدة اثنان وعشرون بيتا . قال البرزالى : سمعته وله المقامة البحرية المشهورة ، توفى فى المحرم ودفن بالصوفية .

﴿ الملك الزاهر مجير الدين ﴾

أبو سليمان داود بن الملك المجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص ابن ناصر الدين محمد بن الملك المعظم ، توفى ببستانه عن ثمانين سنة ، وصلى عليه بالجامع المظفرى ، ودفن بتربته بالسفح ، وكان ديناً كثير الصلاة فى الجامع،وله إجازة من المؤيد الطوسى وزينب الشعرية وأبى روح وغيرهم. توفى فى جمادى الآخرة .

﴿ الشيخ تقى الدين الواسطى ﴾

أبو إسحاق إبراهيم بن على بن أحمد بن فضل الواسطى ثم الدمشقى الحنبلى ، شيخ الحديث بالظاهرية بدمشق ، توفى يوم الجمعة آخر النهار رابع عشرين جمادى الآخرة عن تسعين سنة، وكان رجلا صالحا عابدا ، تفرد بعلو الرواية ، ولم يخلف بعده مثله ، وقد تفقه ببغداد ثم رحل إلى الشام ودرس بالصالحية مدة عشرين سنة ، وبمدرسة أبى عمر ، وولى فى آخر عمره مشيخة الحديث بالظاهرية بعد سفر الفاروثى ، وكان داعية إلى مذهب السلف والصدر الأول ، وكان يعود المرضى و يشهد الجنائز و يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وكان من خيار عباد الله تعالى رحمه الله . وقد درس بعده بالصالحية الشيخ شمس الدين محمد بن عبد القوى المرداوى ، و بدار الحديث الظاهرية

شرف الدين عمر بن خواجا إمام الجامع المعروف بالناصح .

﴿ ابن صاحب حماة الملك الأفضل ﴾

نور الدين علي بن الملك المظفر تقي الدين محمود بن الملك المنصور محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، توفي بدمشق وصلى عليه بجامعها ، وخرج به من باب الفراديس محمولا إلى مدينة أبيه وتربتهم بها ، وهو والد الأميرين الكبيرين بدر الدين حسن وعماد الدين إسماعيل الذي تملك حماة بعد مدة .

﴿ ابن عبد الظاهر ﴾

محيي الدين بن عبد الله بن رشيد الدين عبد الظاهر بن نشوان بن عبد الظاهر بن علي بن نجدة السعدي ، كاتب الانشاء بالديار المصرية ، وآخر من برز في هذا الفن على أهل زمانه ، وسبق سائر أقرانه ، وهو والد الصاحب فتح الدين النديم ، وقد تقدم ذكر وفاته قبل والده ، وقد كانت له مصنفات منها سيرة الملك الظاهر ، وكان ذا مروءة ، وله النظم الفائق والنثر الرائق . توفي يوم الثلاثاء رابع رجب وقد جاوز السبعين ، ودفن بتربته التي أنشأها بالقرافة .

﴿ الأمير علم الدين سنجر الحلبي ﴾

الذي كان نائب قطز على دمشق فلما جاءته بيعة الظاهر دعا لنفسه فبويع وتسمى بالملك المجاهد ثم حوصر وهرب إلى بعلبك فحوصر فأجاب إلى خدمة الظاهر فسجنه مدة وأطلقه وسجنه المنصور مدة وأطلقه الأشرف ، واحترمه وأكرمه ، بلغ الثمانين سنة ، وتوفي في هذه السنة .

﴿ ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين وستمائة ﴾

في أولها كان مقتل الأشرف ، وذلك أنه خرج إلى الصيد في ثالث المحرم ، فلما كان بأرض بروجه بالقرب من الاسكندرية ثاني عشر المحرم ، حمل عليه جماعة من الأمراء الذين اتفقوا على قتله حين انفرد عن جمهور الجيش ، فأول من ضربه نائبه بيدرا ، وتمم عليه لاجين المنصوري ، ثم اختفى إلى رمضان ، ثم ظهر يوم العيد ، وكان ممن اشترك في قتل الأشرف بدر الدين بيسري وشمس الدين قراسنقر المنصوري ، فلما قتل الاشرف اتفق الامراء على تمليك بيدرا ، وسموه الملك القاهر أو الاوحد ، فلم يتم له ذلك ، فقتل في اليوم الثاني بأمر كتبغا ، ثم اتفق زين الدين كتبغا ، وعلم الدين سنجر الشجاعي على أن يملكوا أخاه محمد الملك الناصر بن قلاوون ، وكان عمره إذ ذاك تسع سنين وشهوراً ، فأجلسوه على سرير المملكة يوم الرابع عشر من المحرم ، وكان الوزير ابن السلعوس بالاسكندرية ، وكان قد خرج في صحبة السلطان وتقدم هو إلى الاسكندرية فلم يشعر إلا وقد أحاط به البلاء ، وجاءه العذاب من كل ناحية ، وذلك أنه كان يعامل الأمراء الكبار معاملة

الصغار ، فأخذوه وتولى عقوبته من بينهم الشجاعى فضرب ضربا عظيما، وقرر على الاموال ولم يزالوا يعاقبونه حتى كانت وفاته فى عاشر صفر بعد أن احتيط على حواصله كلها . وأحضر جسد الأشرف فدفن بتربته . وتألم النـاس لفقده وأعظموا قتله ، وقـد كان شهما شجاعا عالى الهمة حسن المنظر ، كان قد عزم عـلى غزو العراق واسترجاع تلك البلاد من أيدى التتار ، واستعد لذلك ونادى به فى بلاده ، وقد فتح فى مدة ملـكه ـ وكانت ثلاث سنين ـ عكا وسائر السواحل ، ولم يترك للفرنج فيها معلما ولا حجراً ، وفتح قلعة الروم وبهسنا وغيرها .

فلما جاءت بيعة الناصر إلى دمشق خطب له بها على المنابر ، واستقر الحال عـلى ذلك ، وجعل الامير كتبغا أتابكه ، والشجاعى مشاوراً كبيراً ، ثم قتل بعد أيام بقلعة الجبل . وحمل رأسـه إلى كتبغا فأمر أن يطاف به فى البلد ، ففرح النـاس بذلك وأعطوا الذين حملوا رأسـه مالا ، ولم يبق لـكتبغا منازع ، ومع هذا كان يشاور الامراء تطييبا لقلوبهم .

وفى صفر بعد موت ابن السلعوس عزل بدر الدين بن جماعة عن القضاء وأعيد تقى الدين بن بنت الاعز واستمر ابن جماعة مدرسا بمصر فى كفاية ورياسة . وتولى الوزارة بمصر الصاحب تاج الدين ابن الحنا ، وفى ظهر يوم الاربعاء الحادى والعشرين من صفر رتب إمام بمحراب الصحابة ، وهو كمال الدين عبـد الرحمن بن القاضى محيى الدين بن الزكى ، وصلى بعدئذ بعد الخطيب ، ورتب بالمـكتب الذى ببـاب الناطفانيين إمام أيضا ، وهو ضياء الدين بن برهـان الدين الاسكندرى . و باشر نظر الجامع الشريف زين الدين حسين بن محمد بن عدنان، وعاد سوق الحريريين إلى سوقه، وأخلوا قيسارية القطن الذى كان نواب طغجى ألزموهم بسكناها ، وولى خطابة دمشق الشيخ العلامة شرف الدين أحمد بن جمال الدين أحمد بن نعمة بن أحمد المقدسى . بعد عزل موفق الدين الحموى دعوه إلى حماة فخطب المقدسى يوم الجمعة نصف رجب ، وقرئ تقليده وكانت ولايته باشارة تاج الدين ابن الحنا الوزير بمصر . وكان فصيحا بليغا عالما بارعا .

وفى أواخر رجب حلف الأمراء للامير زين الدين كتبغا مع الملك الناصر محمـد بن قلاوون وسارت البيعة بذلك فى سائر المدن والمعامل .

﴿ واقعة عساف النصرانى ﴾

كان هذا الرجل من أهل السويداء قد شهد عليـه جماعة أنه سب النبى ﷺ ، وقد استجار عساف هذا بابن أحمد بن حجى أمير آل على ، فاجتمع الشيخ تقى الدين بن تيمية ، والشيخ زين الدين الفارقى شيخ دار الحـديث ، فدخلا عـلى الامير عز الدين أيبـك الحموى نائب السلطنة فـكلماه فى أمره فأجابهما إلى ذلك . وأرسل ليحضره فخرجا من عنده ومعهما خلق كثير من الناس .

فرأى الناس عسافا حين قدم ومعه رجل من العرب فسبوه وشتموه ، فقال ذلك الرجل البدوى : هو خير منكم - يعنى النصرانى - فرجمهما الناس بالحجارة ، وأصابت عسافا ووقعت خبطة قوية فأرسل النائب فطلب الشيخين ابن تيمية والفارقى فضربهما بين يديه ، ورسم عليهما فى المذراوية وقدم النصرانى فأسلم وعقد مجلس بسببه ، وأثبت بينه وبين الشهود عداوة ، فحقن دمه ، ثم استدعى بالشيخين فأرضاهما وأطلقهما ، ولحق النصرانى بعد ذلك ببلاد الحجاز ، فاتفق قتله قريباً من مدينة رسول الله ﷺ ، قتله ابن أخيه هنالك ، وصنف الشيخ تقى الدين ابن تيمية فى هذه الواقعة كتابه الصارم المسلول على ساب الرسول .

وفى شعبان منها ركب الملك الناصر فى أبهة الملك وشق القاهرة ، وكان يوما مشهوداً ، وكان هذا أول ركوبه ، ودقت البشائر بالشام وجاء المرسوم من جهته ، فقرئ على المنبر بالجامع فيه الأمر بنشر العدل وطى الظلم ، وإبطال ضمان الاوقاف والأملاك إلا برضى أصحابها . وفى اليوم الثانى والعشرين من شعبان درس بالمسرورية القاضى جمال الدين القزوينى ، أخو إمام الدين ، وحضر أخوه وقاضى القضاة شهاب الدين الخوبى ، والشيخ تقى الدين بن تيمية ، وكان درسا حافلا . قال البرزالى : وفى شعبان اشتهر أن فى الغيطة بجسرين تنينا عظيما ابتلع رأسا من المعز كبيراً صحيحاً . وفى أواخر رمضان ظهر الأمير حسام الدين لاجين ، وكان مختفيا منذ قتل الاشرف فاعتذر له عند السلطان فقبله وخلع عليه وأكرمه ، ولم يكن قتله باختياره .

وفى شوال منها اشتهر أن مهنا بن عيسى خرج عن طاعة السلطان الناصر ، وانحاز إلى التتر . وفى يوم الاربعاء ثامن ذى القعدة درس بالغزالية الخطيب شرف الدين المقدسى عوضا عن قاضى القضاة شهاب الدين ابن الخوبى ، توفى وترك الشامية البرانية ، وقدم على قضاء الشام القاضى بدر الدين أحمد بن جماعة يوم الخميس الرابع عشر من ذى الحجة ، ونزل العادلية وخرج نائب السلطنة والجيش بكماله لتلقيه ، وامتدحه الشعراء ، واستناب تاج الدين الجعبرى نائب الخطابة وباشر تدريس الشامية البرانية ، عوضا عن شرف الدين المقدسى ، الشيخ زين الدين الفارقى ، وانتزعت من يده الناصرية فدرس بها ابن جماعة ، وفى العادلية فى العشرين من ذى الحجة ، وفى هذا الشهر أخرجوا الكلاب من دمشق الى الفلاة بأمر واليها جمال الدين اقباى ، وشدد على الناس والبوابين بذلك . وممن توفى فيها من الاعيان

الملك الاشرف خليل بن قلاوون المنصور . وبيدرا والشجاعى ، وشمس الدين بن السلعوس ،

﴿ الشيخ الامام العلامة ﴾

تاج الدين موسى بن محمد بن مسعود المراغى ، المعروف بأبى الجواب الشافعى ، درس بالاقبالية

وغيرها وكان من فضلاء الشافعية ، له يد فى الفقه والاصول والنحو وفهم جيد ، توفى فجأة يوم السبت ، ودفن بمقابر باب الصغير ، وقد جاوز السبعين .

﴿ الخاتون مؤنس بنت السلطان العادل أبى بكر بن أيوب ﴾

وتعرف بدار القطبية ، و بدار إقبال ، ولدت سنة ثلاث وستمائة ، وروت الاجازة عن عفيفة الفارقانية ، وعن عين الشمس بنت أحمد بن أبى الفرج الثقفية ، توفيت فى ربيع الآخر بالقاهرة ، ودفنت بباب زويلة .

﴿ الصاحب الوزير فخر الدين ﴾

أبو إسحاق إبراهيم بن لقمان بن أحمد بن محمد البنانى المصرى رأس الموقعين ، وأستاذ الوزراء المشهورين ، ولد سنة ثنتى عشرة وستمائة ، وروى الحديث ، توفى فى آخر جمادى الآخرة فى القاهرة

﴿ الملك الحافظ غياث الدين بن محمد ﴾

الملك السعيد معين الدين بن الملك الأمجد بهرام شاه بن المعز عز الدين فروخ شاه بن شاهنشاه ابن أيوب ، وكان فاضلا بارعاً ، سمع الحديث وروى البخارى ، وكان يحب العلماء والفقراء ، توفى يوم الجمعة سادس شعبان ، ودفن عند جده لأمه ابن المقدم بظاهر باب الفراديس .

﴿ قاضى القضاة شهاب الدين بن الخويى ﴾

أبو عبد الله محمد بن قاضى القضاة شمس الدين أبى العباس أحمد بن خليل بن سعادة بن جعفر ابن عيسى بن محمد الشافعى ، أصلهم من خوى ، اشتغل وحصل علوما كثيرة ، وصنف كتبا كثيرة منها كتاب فيه عشرون فناً ، وله نظم علوم الحديث وكفاية المتحفظ وغير ذلك ، وقد سمع الحديث الكثير ، وكان محبا له ولأهله ، وقد درس وهو صغير بالدماغية ، ثم ولى قضاء القدس ، ثم بهسنا ، ثم ولى قضاء حلب ، ثم عاد إلى المحلة ، ثم ولى قضاء القاهرة ، ثم قدم على قضاء الشام مع تدريس العادلية والغزالية وغيرهما ، وكان من حسنات الزمان وأكابر العلماء الأعلام ، عفيفاً نزهاً بارعا محبا للحديث وعلمه وعلمائه ، وقد خرج له شيخنا الحافظ المزى أربعين حديثا متباينة الاسناد ، وخرج له تقى الدين ابن عتبة الأسودى الاسعردى مشيخة على حروف المعجم ، اشتملت على مائتين وستة وثلاثين شيخا . قال البرزالى : وله نحو ثلثمائة شيخ لم يذكروا فى هذا المعجم ، توفى يوم الخميس الخامس والعشرين من رمضان ، عن سبع وستين سنة ، وصلى عليه ودفن من يومه بتربة والده بسفح قاسيون رحمه الله تعالى .

﴿ الأمير علاء الدين الأعمى ﴾

ناظر القدس وبانى كثيراً من معالمه اليوم ، وهو الأمير الكبير علاء الدين أيدكين بن عبد الله الصالحى النجمى ، كان من أكابر الامراء ، فلما أضر أقام بالقدس الشريف وولى نظره فعمره وثمره وكان مهيبا لا تخالف مراسيمه ، وهو الذى بنى المطهرة قريبا من مسجد النبى ﷺ ، فانتفع الناس

بها بالوضوء وغيره ، ووجد بها الناس تيسيرا . وابتنى بالقدس ربطا كثيرة ، وآثاراً حسنة . وكان يباشر الامور بنفسه ، وله حرمة وافرة ، توفى فى شوال منها .

﴿ الوزير شمس الدين محمد بن عثمان ﴾

ابن أبى الرجال التنوخى ، المعروف بابن السلعوس ، وزير الملك الأشرف ، مات تحت الضرب الذى جاوز ألف مقرعة ، فى عاشر صفر من هذه السنة ، ودفن بالقرافة . وقيل إنه نقل إلى الشام بعد ذلك . وكان ابتداء أمره تاجراً . ثم ولى الحسبة بدمشق بسفارة تقى الدين بن توبة ، ثم كان يعامل الملك الأشرف قبل السلطنة فظهر منه على عدل وصدق ، فلما ملك بعد أبيه المنصور استدعاه من الحج فولاه الوزارة . وكان يتعاظم على أكابر الامراء ويسميهم بأسمائهم . ولا يقوم لهم ، فلما قتل أستاذه الأشرف تسلموه بالضرب والاهانة وأخذ الأموال ، حتى أعدموه حياته . وصبروه وأسكنوه الثرى . بعد أن كان عند نفسه قد بلغ الثريا . ولكن حقا على الله أنه مارفع شيئا إلا وضعه .

﴿ ثم دخلت سنة أربع وتسعين وستمائة ﴾

استهلت والخليفة الحاكم بأمر الله وسلطان البلاد الملك الناصر محمد بن قلاوون وعمره إذ ذاك اثنتا عشرة سنة وأشهراً ، ومدبر الممالك وأتابك العساكر الأمير زين الدين كتبغا ، ونائب الشام الأمير عز الدين أيبك الحموى ، والوزير بدمشق تقى الدين توبة التكريتى . وشاد الدواوين شمس الدين الأعسر ، وقاضى الشافعية ابن جماعة ، والحنفية حسام الدين الرازى ، والمالكية جمال الدين الزواوى . والحنابلة شرف الدين حسن ، والمحتسب شهاب الدين الحنفى ، ونقيب الأشراف زين الدين بن عدنان . ووكيل بيت المال وناظر الجامع تاج الدين الشيرازى ، وخطيب البلد شرف الدين المقدسى .

فلما كان يوم عاشوراء نهض جماعة من مماليك الأشرف وخرقوا حرمة السلطان وأرادوا الخروج عليه ، وجاؤا إلى سوق السلاح فأخذوا ما فيه ، ثم احتيط عليهم . فمنهم من صلب ومنهم من شنق ، وقطع أيدى آخرين منهم وألسنتهم . وجرت خبطة عظيمة جداً ، وكانوا قريبا من ثلثمائة أو يزيدون .

﴿ ذكر سلطنة الملك العادل كتبغا ﴾

وأصبح الأمير كتبغا فى الحادى عشر من المحرم فجلس على سرير المملكة . وخلع الملك الناصر محمد بن المنصور ، وألزمه بيت أهله ، وأن لا يخرج منه . وبايعه الأمراء على ذلك . وهنئوه ومد سماطا حافلا ، وسارت البريدية بذلك إلى الأقاليم . فبويع له وخطب له مستقلا وضربت السكة باسمه ، وتم الأمر وزينت البلاد ، ودقت البشائر ، ولقب بالملك العادل ، وكان عمره إذ ذاك نحواً من خمسين سنة ، فانه من سبى وقعة حمص الأولى التى كانت فى أيام الملك الظاهر بعد وقعة عين

جالوت ، وكان من النوبرانية ، وهم طائفة من التتر ، واستناب فى مصر الأمير حسام الدين لاجين السلحدارى المنصورى ، وكان بين يديه مدبر المماليك . وقد ذكر الجزرى فى تاريخه عن بعض الأمراء أنه شهد هولاكوخان قد سأل منجمه أن يستخرج له من هؤلاء المقدمين فى عسكره الذى يملك الديار المصرية ، فضرب وحسب وقال له : أجد رجلا يملكها اسمه كتبغا فظنه كتبغانوين ، وهو صهر هولاكو ، فقدمه على العساكر فلم يكن هو ، فقتل فى عين جالوت كما ذكرنا ، وأن الذى ملك مصر هذا الرجل وهو من خيار الأمراء وأجودهم سيرة ومعدلة ، وقصدا فى نصرة الاسلام .

وفى يوم الأربعاء مستهل ربيع الأول ركب كتبغا فى أبهة الملك ، وشق القاهرة ودعا له الناس وعزل الصاحب تاج الدين بن الحنا عن الوزارة وولى فخر الدين بن الخليلى ، واستسقى الناس بدمشق عند مسجد القدم ، وخطب بهم تاج الدين صالح الجعبرى نيابة عن مستخلفه شرف الدين المقدسى ، وكان مريضا فعزل نفسه عن القضاء ، وخطب الناس بعد ذلك ، وذلك يوم الأربعاء خامس جمادى الأولى ، فلم يسقوا ثم استسقوا مرة أخرى يوم السبت سابع جمادى الآخرة بالمكان المذكور ، وخطب بهم شرف الدين المقدسى ، وكان الجمع أكثر من أول ، فلم يسقوا . وفى رجب حكم جمال الدين ابن الشريشى نيابة عن القاضى بدر الدين بن جماعة ، وفيه درس بالمعظمية القاضى شمس الدين بن العز ، انتزعها من علاء الدين بن الدقاق . وفيه ولى القدس والخليل الملك الأوحد ابن الملك الناصر داود بن المعظم . وفى رمضان رسم للحنابلة أن يصلوا قبل الامام الكبير وذلك أنهم كانوا يصلون بعده فلما أحدث لمحراب الصحابة إمام كانوا يصلون جميعا فى وقت واحد ، فحصل تشويش بسبب ذلك ، فاستقرت القاعدة على أن يصلوا قبل الامام الكبير ، فى وقت صلاة مشهد على بالصحن عند محرابهم فى الرواق الثالث الغربى .

قلت : وقد تغيرت هذه القاعدة بعد العشرين وسبعمائة كما سيأتى .

وفى أواخر رمضان قدم القاضى نجم الدين بن صصرى من الديار المصرية على قضاء العساكر بالشام ، وفى ظهر يوم الخميس خامس شوال صلى القاضى بدر الدين بن جماعة بمحراب الجامع إماما وخطيبا عوضا عن الخطيب المدرس شرف الدين المقدسى ، ثم خطب من الغد وشكرت خطبته وقراءته ، وذلك مضاف إلى مابيده من القضاء وغيره .

وفى أوائل شوال قدمت من الديار المصرية تواقيع شتى منها تدريس الغزالية لابن صصرى عوضا عن الخطيب المقدسى ، وتوقيع بتدريس الأمينية لامام الدين القزوينى عوضا عن نجم الدين ابن صصرى ، ورسم لأخيه جلال الدين بتدريس الظاهرية البرانية عوضا عنه . وفى شوال كملت عمارة الحمام الذى أنشأه عز الدين الحموى بمسجد القصب ، وهو من أحسن الحمامات ، وباشر مشيخة

دار الحديث النورية الشيخ علاء الدين بن العطار عوضا عن شرف الدين المقدسى . وحج فيهـا الملك المجاهد أنس بن الملك العادل كتبغا ، وتصدقوا بصدقات كثيرة فى الحرمين وغيرهما ونودى بدمشق فى يوم عرفة أن لا يركب أحد من أهل الذمة خيلا ولا بغالا ، ومن رأى من المسلمين أحداً من أهل الذمة قد خالف ذلك فـله سلبه . وفى أواخر هذه السنة والتى تليها حصل بديارمصر غلاء شديد هلك بسببه خلق كثير ، هلك فى شهر ذى الحجة نحو من عشرين ألفا . وفيها ملك التتار قازان ابن أرغون بن أبغا بن تولى بن جنكزخان فأسلم وأظهر الاسلام عـلى يد الامير توزون رحمه الله ، ودخلت التتار أو أكثرهم فى الاسلام ونثر الذهب والفضة واللؤلؤ على رؤس الناس يوم إسلامه ، وتسمى بمحمود ، وشهد الجمعة والخطبة ، وخرب كنائس كثيرة ، وضرب عليهم الجزية ورد مظالم كثيرة ببغداد وغيرها من البلاد ، وظهرت السبح والهيا كل مع التتار والحمد لله وحده .

وفيها توفى من الأعيان ﴿ الشيخ أبو الرجال المنينى ﴾

الشيخ الصالح الزاهد العابد أبو الرجال بن مرعى من بحتر المنين ، كانت له أحوال ومكاشفات وكان أهل دمشق والبلاد يزورونه فى قرية منين ، وربما قدم هو بنفسه إلى دمشق فيكرم ويضاف وكانت له زاوية ببلده ، وكان بريئا من هذه السماعات الشيطانية ، وكان تلميذ الشيخ جندل ، وكان شيخه الشيخ جندل من كبار الصالحين سالكا طريق السلف أيضاً ، وقد بلغ الشيخ أبو الرجال ثمانين سنة ، وتوفى بمنين فى منزله فى عاشر المحرم ، وخرج الناس من دمشق إلى جنازته فمنهم من أدركها ومن الناس من لم يدرك فصلى على القبر ودفن بزاويته رحمه الله .

وفيها فى أواخر ربيع الاول جاء الخبر بأن عساف بن أحمد بن حجى الذى كان قد أجار ذلك النصرانى الذى سب الرسول قتل ففرح الناس بذلك .

﴿ الشيخ الصالح العابد الزاهد الورع ﴾

بقية السلف جـمال الدين أبو القاسم عبـد الصمد بن الحرستانى بن قاضى القضاة ، وخطيب الخطباء ، عماد الدين عبد الـكريم بن جـمال الدين عبد الصمد ، سمع الحديث وناب عن أبيـه فى الامامة وتدريس الغزالية ، ثم ترك المناصب والدنيا ، وأقبل على العبادة ، وللناس فيه اعتقاد حسن صالح ، يقبلون يده ويسألونه الدعاء ، وقد جاوز الثمانين ، ودفن بالسفح عنـد أهله فى أواخر ربيع الآخر . ﴿ الشيخ محب الدين الطبرى المـكى ﴾

الشافعى ، سمع الـكثير وصنف فى فنون كثيرة ، من ذلك كتاب الاحكام فى مجلدات كثيرة مفيدة ، وله كتاب عـلى ترتيب جامع المسانيد أسمعه لصاحب اليمن ، وكان مولده يوم الخميس السابع والعشرين من جمادى الآخرة منها ، ودفن بمكة ، وله شعر جيد فمنه قصيدته فى المنازل التى بين

مكة والمدينة تزيد على ثلاثمائة بيت ، كتبها عنه الحافظ شرف الدين الدمياطى فى معجمه .

﴿ الملك المظفر صاحب اليمن ﴾

يوسف بن المنصور نور الدين عمر بن على بن رسول ، أقام فى مملكة اليمن بعد أبيه سبعاً وأربعين سنة ، وعمر ثمانين سنة ، وكان أبوه قد ولى أزيد من مدة عشرين سنة بعد الملك أقسيس ابن الكامل محمد ، وكان عمر بن رسول مقدم عساكر أقسيس ، فلما مات اقسيس وثب على الملك فتم له الأمر وتسمى بالملك المنصور ، واستمر أزيد من عشرين سنة ، ثم ابنه المظفر سبعا وأربعين سنة ، ثم قام من بعده فى الملك ولده الملك الأشرف ممهد الدين فلم يمكث سنة حتى مات ، ثم قام أخوه المؤيد عز الدين داود بن المظفر فاستمر فى الملك مدة ، وكانت وفاة الملك المظفر المذكور فى رجب من هذه السنة ، وقد جاوز الثمانين، وكان يحب الحديث وسماعه ،وقد جمع لنفسه أربعين حديثا .

﴿ شرف الدين المقدسى ﴾

الشيخ الامام الخطيب المدرس المفتى ، شرف الدين أبو العباس أحمد بن الشيخ كمال الدين أحمد بن نعمة بن أحمد بن جعفر بن حسين بن حماد المقدسى الشافعى ، ولد سنة ثنتين وعشرين وستمائة ، وسمع الكثير وكتب حسنا وصنف فأجاد وأفاد ، وولى القضاء نيابة بدمشق والتدريس والخطابة بدمشق ، وكان مدرس الغزالية ودار الحديث النورية مع الخطابة ، ودرس فى وقت بالشامية البرانية وأذن فى الافتاء لجماعة من الفضلاء منهم الشيخ الامام العلامة شيخ الاسلام أبو العباس بن تيمية، وكان يفتخر بذلك ويفرح به ويقول : أنا أذنت لابن تيمية بالافتاء ، وكان يتقن فنونا كثيرة من العلوم ، وله شعر حسن ، وصنف كتابا فى أصول الفقه جمع فيه شيئا كثيراً ، وهو عندى بخطه الحسن ، توفى يوم الاحد سابع عشر رمضان وقد جاوز السبعين ،ودفن بمقابر باب كيسان عندوالده رحمه الله ورحم أباه . وقد خطب بعده يوم العيد الشيخ شرف الدين الفزارى خطيب جامع جراح ثم جاء المرسوم لابن جماعة بالخطابة . ومن شعر الخطيب شرف الدين بن المقدسى :

أحجج إلى الزهر لتسعى به ، وارم جمار الهم مستنفرا
من لم يطف بالزهر فى وقته * من قبل أن يحلق قد قصرا

﴿ واقف الجوهرية الصدر نجم الدين ﴾

أبو بكر محمد بن عياش بن أبى المكارم التميمى الجوهرى ، واقف الجوهرية على الحنفية بدمشق توفى ليلة الثلاثاء تاسع عشر شوال ، ودفن بمدرسته وقد جاوز الثمانين ، وكانت له خدم على الملوك، فمن دونهم .

﴿ الشيخ الامام العالم المفتى ﴾

الخطيب الطبيب،مجد الدين أبو محمد عبد الوهاب بن أحمد بن أبى الفتح بن سحنون التنوخى

الحنفى ، خطيب النيرب ومدرس الدماغية للحنفية ، وكان طبيباً ماهراً حاذقا ، توفى بالنيرب وصلى عليه بجامع الصالحية ، وكان فاضلا وله شعر حسن ، وروى شيئاً من الحديث ، توفى ليلة السبت خامس ذى القعدة عن خمس وسبعين سنة .

﴿ الفاروثى الشيخ الامام العابد الزاهد ﴾

الخطيب عز الدين أبو العباس أحمد بن الشيخ محيى الدين إبراهيم بن عمر بن الفرج بن سابور ابن على بن غنيمة الفاروثى الواسطى ، ولد سنة أربع عشرة وستمائة ، وسمع الحديث ورحل فيه ، وكانت له فيه يد جيدة ، وفى التفسير والفقه والوعظ والبلاغة ، وكان دينا ورعا زاهداً ، قدم إلى دمشق فى دولة الظاهر فأعطى تدريس الجاروضية وإمام مسجد ابن هشام ، ورتب له فيه شيء على المصالح ، وكان فيه إيثار وله أحوال صالحة ، ومكاشفات كثيرة ، تقدم يوما فى محراب ابن هشام ليصلى بالناس فقال - قبل أن يكبر للاحرام والتفت عن يمينه - فقال : اخرج فاغتسل ، فلم يخرج أحد ، ثم كرر ذلك ثانية وثالثة ، فلم يخرج أحد ، فقال : ياعثمان أخرج فاغتسل ، فخرج رجل من الصف فاغتسل ثم عاد وجاء إلى الشيخ يعتذر إليه ، وكان الرجل صالحا فى نفسه ، ذكر أنه أصابه فيض من غير أن يرى شخصا ، فاعتقد أنه لا يلزمه غسل ، فلما قال الشيخ ما قال اعتقد أنه يخاطب غيره ، فلما عينه باسمه علم أنه المراد . ثم قدم الفاروثى مرة أخرى فى أواخر أيام المنصور قلاوون فخطب بجامع دمشق مدة شهور ، ثم عزل بموفق الدين الحموى ، وتقدم ذكر ذلك ، وكان قد درس بالنجيبية وبدار الحديث الظاهرية ، فترك ذلك كله وسافر إلى وطنه ، فمات بكرة يوم الاربعاء مستهل ذى الحجة ، وكان يوم موته يوما مشهوداً بواسط ، وصلى عليه بدمشق وغيرها رحمه الله ، وكان قد لبس خرقة التصوف من السهروردى ، وقرأ القراءات العشرة وخلف ألفى مجلد ومائتى مجلدا ، وحدث بالكثير ، وسمع منه البرزالى كثيراً صحيح البخارى وجامع الترمذى وسنن ابن ماجه ، ومسند الشافعى ، ومسند عبد ابن حميد ، ومعجم الطبرانى الصغير ، ومسند الدارمى وفضائل القرآن لأبى عبيد ، وثمانين جزء وغير ذلك .

﴿ الجمال المحقق ﴾

أحمد بن عبد الله بن الحسين الدمشقى ، اشتغل بالفقه على مذهب الشافعى ، وبرع فيه وأفتى وأعاد ، وكان فاضلا فى الطب ، وقد ولى مشيخة الدخوارية لتقدمه فى صناعة الطب على غيره ، وعاد المرضى بالمارستان النورى على قاعدة الأطباء ، وكان مدرسا للشافعية بالفرخشانية ، ومعيدا بعدة مدارس ، وكان جيد الذهن مشاركا فى فنون كثيرة سامحه الله .

﴿ الست خاتون بنت الملك الأشرف ﴾

موسى بن العادل زوجة ابن عمها المنصور بن الصالح إسماعيل بن العادل ، وهى التى أثبتت سفهها

زمن المنصور قلاوون حتى اشترى منها حزرما وأخذت الزنبقية من زين الدين السامرى .

﴿ الصدر جمال الدين ﴾

يوسف بن على بن مهاجر التكريتى أخو الصاحب تقى الدين توبة ،ولى حسبة دمشق فى وقت ودفن بتربة أخيه بالسفح ، وكانت جنازته حافلة ، وكان له عقل وافر وثروة ومروءة ، وخلف ثلاث بنين : شمس الدين محمد ، وعلاء الدين على ، و بدر الدين حسن .

﴿ ثم دخلت سنة خمس وتسعين وستمائة ﴾

استهلت وخليفة الوقت الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد العباسى ، وسلطان البلاد الملك العادل زين الدين كتبغا ، ونائبه بمصر الأمير حسام الدين لاجين السلحدارى المنصورى ، ووزيره فخر الدين بن الخليلى ، وقضاة مصر والشام هم المذكورون فى التى قبلها ، ونائب الشام عز الدين الحموى ، ووزيره تقى الدين توبة ، وشاد الدواوين الأعسر ، وخطيب البلد وقاضيها ابن جماعة . وفى المحرم ولى نظر الايتام برهان الدين بن هلال عوضا عن شرف الدين بن الشيرجى .

وفى مستهل هذه السنة كان الغلاء والفناء بديار مصر شديداً جداً ، وقد تفانى الناس إلا القليل ، وكانوا يحفرون الحفيرة فيدفنون فيها الفئام من الناس ، والأسعار فى غاية الغلاء ،والأقوات فى غاية القلة والغلاء ، والموت عمال ، فمات بها فى شهر صفر مائة ألف ونحو من ثلاثين ألفا ، ووقع غلاء بالشام فبلغت الغرارة إلى مائتين ، وقدمت طائفة من التتر العويرانية لما بلغهم سلطنة كتبغا إلى الشام لانه منهم ، فتلقاهم الجيش بالرحب والسعة ، ثم سافروا إلى الديار المصرية مع الأمير قراسنقر المنصورى ، وجاء الخبر باشتداد الغلاء والفناء بمصر حتى قيل إنه بيع الفروج بالاسكندرية بستة وثلاثين درهما ، وبالقاهرة بتسعة عشر ، والبيض كل ثلاثة بدرهم ، وأفنيت الحمر والخيل والبغال والكلاب من أكل الناس لها ، ولم يبق شىء من هذه الحيوانات يلوح إلا أكلوه .

وفى يوم السبت الثانى عشر من جمادى الأولى ولى قضاء القضاة بمصر الشيخ العلامة تقى الدين بن دقيق العيد عوضا عن تقى الدين بن بنت الأعز ، ثم وقع الرخص بالديار المصرية وزال الضر والجوع فى جمادى الآخرة ولله الحمد .

وفى يوم الأربعاء ثانى شهر رجب درس القاضى إمام الدين بالقيمرية عوضاً عن صدر الدين ابن رزين الذى توفى . قال البرزالى : وفيها وقعت صاعقة على قبة زمزم فقتلت الشيخ على بن محمد بن عبد السلام مؤذن المسجد الحرام ، كان يؤذن على سطح القبة المذكورة ، وكان قد روى شيئا من الحديث . وفيها قدمت امرأة الملك الظاهر أم سلامش من بلاد الاشكرى إلى دمشق فى أواخر رمضان فبعث إليها نائب البلد بالهدايا والتحف ورتبت لها الرواتب والاقامات ،وكان قد نفاهم خليل

ابن المنصور لما ولى السلطنة .

قال الجزرى : وفى رجب درس كال الدين بن القلانسى عوضا عن جلال الدين القزوينى . وفى يوم الأربعاء سابع عشر شعبان درس الشيخ الامام العلامة شيخ الاسلام تقى الدين بن تيمية الحرانى بالمدرسة الحنبلية عوضاً عن الشيخ زين الدين بن المنجى توفى إلى رحمة الله ، ونزل ابن تيمية عن حلقة العماد بن المنجا لشمس الدين بن الفخر البعلبكى . وفى آخرشوال ناب القاضى جمال الدين الزرعى الذى كان حاكما بزرع ، وهو سليمان بن عمر بن سالم الأزرعى عن ابن جماعة بدمشق ، فشكرت سيرته . وفيها خرج السلطان كتبغا من مصر قاصدا الشام فى أواخر شوال ، ولما جاء البريد بذلك ضربت البشائر بالقلعة ، ونزلوا بالقلعة السلطان ونائبه لاجين ووزيره ابن الخليلى . وفى يوم الأحد سادس عشر ذى القعدة ولى قضاء الحنابلة الشيخ تقى الدين سليمان بن حمزة المقدسى عوضا عن شرف الدين مات رحمه الله ، وخلع عليه وعلى بقية الحكام وأرباب الولايات الكبار وأكابر الامراء ، وولى نجم الدين بن أبى الطيب وكالة بيت المال عوضا عن ابن الشيرازى وخلع عليه مع الجماعة ، ورسم على الأعسر وجماعة من أصحابه وخلق من الكتبة والولاة وصودروا بمال كثير ، واحتيط على أموالهم وحواصلهم ، وعلى بنت ابن السلعوس وابن عدنان وخلق ، وجرت خبطة عظيمة ، وقدم ابنا الشيخ على الحريرى حسن وشيث من بسر لزيارة السلطان فحصل لهما منه رفد وإسعاف وعادا إلى بلادهما ، وضيفت القلندرية السلطان بسفح جبل المزة ، فأعطاه نحوا من عشرة آلاف ، وقدم صاحب حماة إلى خدمة السلطان ولعب معه الكرة بالميدان ، واشتكت الاشراف من نقيبهم زين الدين بن عدنان ، فرفع الصاحب يده عنهم وجعل أمرهم إلى القاضى الشافعى ، فلما كان يوم الجمعة الثانى والعشرين من ذى القعدة صلى السلطان الملك العادل كتبغا بمقصورة الخطابة ، وعن يمينه صاحب حماة ، وتحته بدر الدين أمير سلاح ، وعن يساره أولاد الحريرى حسن وأخواه ، وتحتهم نائب المملكة حسام الدين لاجين ، وإلى جانبه نائب الشام عز الدين الحموى ، وتحته بدر الدين بيسرى ، وتحته قرا سنقر وإلى جانبه الحاج بهادر ، وخلفهم أمراء كبار ، وخلع على الخطيب بدر الدين بن جماعة خلعة سنية . ولما قضيت الصلاة سلم على السلطان وزار السلطان المصحف العثمانى . ثم أصبح يوم السبت فلعب الكرة بالميدان .

وفى يوم الاثنين ثانى ذى الحجة عزل الأمير عز الدين الحموى عن نيابة الشام وعاتبه السلطان عتابا كثيرا على أشياء صدرت منه ، ثم عفا عنه وأمره بالمسير معه إلى مصر ، واستناب بالشام الامير سيف الدين غرلو العادلى ، وخلع على المولى وعلى المعزول ، وحضر السلطان دار العدل وحضر عنده الوزير والقضاة والأمراء ، وكان عادلا كما سمى ، ثم سافر السلطان فى ثانى عشر ذى الحجة نحو بلاد

حلب فاجتاز على حرستا، ثم أقام بالبرية أياما ثم، عاد فنزل حمص، وجاء إليه نواب البلاد وجلس الأمير غرلو نائب دمشق بدار العدل فحكم وعدل، وكان محمود السيرة سديد الحكم رحمه الله تعالى.

وممن توفى فيها من الأعيان ﴿الشيخ زين الدين بن منجى﴾

الامام العالم العلامة مفتى المسلمين، الصدر الكامل، زين الدين أبو البركات بن المنجى بن الصدر عز الدين أبى عمر عثمان بن أسعد بن المنجى بن بركات بن المتوكل التنوخى، شيخ الحنابلة وعالمهم، ولد سنة إحدى وثلاثين وستمائة، وسمع الحديث وتفقه، فبرع فى فنون من العلم كثيرة من الاصول والفروع والعربية والتفسير وغير ذلك، وانتهت إليه رياسة المذهب، وصنف فى الاصول، وشرح المقنع، وله تعاليق فى التفسير، وكان قد جمع له بين حسن السمت والديانة والعلم والوجاهة وصحة الذهن والعقيدة والمناظرة وكثرة الصدقة، ولم يزل يواظب على الجامع للاشتغال متبرعا حتى توفى فى يوم الخميس رابع شعبان، وتوفيت معه زوجته أم محمد ست البها بنت صدر الدين الخجندى، وصلى عليهما بعد الجمعة بجامع دمشق، وحملا جميعا إلى سفح قاسيون شمالى الجامع المظفرى تحت الروضة فدفنا فى تربة واحدة رحمهما الله تعالى. وهو والد قاضى القضاة علاء الدين، وكان شيخ المسمارية ثم وليها بعده ولداه شرف الدين وعلاء الدين، وكان شيخ الحنبلية فدرس بها بعده الشيخ تقى الدين بن تيمية كما ذكرنا ذلك فى الحوادث.

﴿المسعودى صاحب الحمام بالمزة﴾

أحد كبار الأمراء، هو الأمير الكبير بدر الدين لؤلؤ بن عبد الله المسعودى، أحد الأمراء المشهورين بخدمة الملوك، توفى ببستانه بالمزة يوم السبت سابع عشرين شعبان، ودفن صبيح يوم الأحد بتربته بالمزة، وحضر نائب السلطنة جنازته، وعمل عزاؤه تحت النسر بجامع دمشق.

﴿الشيخ الخالدى﴾

هو الشيخ الصالح إسرائيل بن على بن حسين الخالدى، له زاوية خارج باب السلامة، كان يقصد فيها للزيارة، وكان مشتملا على عبادة وزهادة، وكان لا يقوم لأحد، ولو كان من كان، وعنده سكون وخشوع ومعرفة بالطريق، وكان لا يخرج من منزله إلا إلى الجمعة، حتى كانت وفاته بنصف رمضان ودفن بقاسيون رحمه الله تعالى.

﴿الشرف حسين المقدسى (١)﴾

هو قاضى القضاة شرف الدين أبو الفضل الحسين ابن الامام الخطيب شرف الدين أبى بكر عبد الله ابن الشيخ أبى عمر المقدسى، سمع الحديث وتفقه وبرع فى الفروع واللغة، وفيه أدب وحسن محاضرة، مليح الشكل، تولى القضاء بعد نجم الدين بن الشيخ شمس الدين فى أواخر سنة سبع

(١) فى شذرات الذهب: حسن المقدسى.

وثمانين ، ودرس بدار الحديث الأشرفية بالسفح ، توفى ليلة الخميس الثانى والعشرين من شوال ، وقد قارب الستين ، ودفن من الغد بمقبرة جده بالسفح ، وحضر نائب السلطنة والقضاة والأعيان جنازته ، وعمل من الغد عزاؤه بالجامع المظفرى ، وباشر القضاء بعده تقى الدين سليمان بن حمزة ، وكذا مشيخة دار الحديث الأشرفية بالسفح ، وقد وليها شرف الدين الغابر الحنبلى النابلسى مدة شهور ، ثم صرف عنها واستقرت بيد التقى سليمان المقدسى .

﴿ الشيخ الامام العالم الناسك ﴾

أبو محمد بن أبى حمزة المغربى المالكى ، توفى بالديار المصرية فى ذى القعدة ، وكان قوالا بالحق ، أماراً بالمعروف ونهاءا عن المنكر .

﴿ الصاحب محيى الدين بن النحاس ﴾

أبو عبد الله محمد بن بدر الدين يعقوب بن إبراهيم بن عبد الله بن طارق بن سالم بن النحاس الأسدى الحلبى الحنفى ، ولد سنة أربع عشرة وستمائة بحلب ، واشتغل وبرع وسمع الحديث وأقام بدمشق مدة ، ودرس بها بمدارس كبار ، منها الظاهرية والزنجانية ، وولى القضاء بحلب والوزارة بدمشق ، ونظر الخزانة ونظر الدواوين والأوقاف ، ولم يزل مكرما معظما معروفا بالفضيلة والانصاف فى المناظرة ، محبا للحديث وأهله على طريقة السلف ، وكان يحب الشيخ عبد القادر وطائفته ، توفى ببستانه بالمزة عشية الاثنين سلخ ذى الحجة ، وقد جاوز الثمانين ، ودفن يوم الثلاثاء مستهل سنة ست وتسعين بمقبرة له بالمزة ، وحضر جنازته نائب السلطنة والقضاة .

﴿ قاضى القضاة ﴾

تقى الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن قاضى القضاة تاج الدين أبى محمد عبد الوهاب بن القاضى الاعز أبى القاسم خلف بن بدر العلائى الشافعى ، توفى فى جمادى الأولى ودفن بالقرافة بتربتهم .

﴿ ثم دخلت سنة ست وتسعين وستمائة ﴾

استهلت والخليفة والسلطان ونائب مصر ونائب الشام والقضاة هم المذكورون فى التى قبلها والسلطان الملك العادل كتبغا فى نواحى حمص يتصيد ، ومعه نائب مصر لاجين وأكابر الامراء ، ونائب الشام بدمشق وهو الامير سيف الدين غرلو العادلى . فلما كان يوم الاربعاء ثانى المحرم دخل السلطان كتبغا إلى دمشق وصلى الجمعة بالمقصورة وزار قبر هود وصلى عنده ، وأخذ من الناس قصصهم بيده ، وجلس بدار العدل فى يوم السبت ووقع على القصص هو ووزيره فخر الدين الخليلى . وفى هذا الشهر حضر شهاب الدين بن محيى الدين بن النحاس فى مدرستى أبيه الزنجانية والظاهرية وحضر الناس عنده ، ثم حضر السلطان دار العدل يوم الثلاثاء وجاء يوم الجمعة فصلى الجمعة بالمقصورة

ثم صعد فى هذا اليوم إلى مغارة الدم لزيارتها ، ودعا هنالك وتصدق بجملة من المال ، وحضر الوزير الخليلى ليلة الأحد ثالث عشر المحرم إلى الجامع بعد العشاء فجلس عند شباك الكاملية وقرأ القراؤن بين يديه ، ورسم بأن يكمل داخل الجامع بالفرش ففعلوا ذلك ، واستمر ذلك نحواً من شهرين ثم عاد إلى ما كان عليه .

وفى صبيحة هذا اليوم درس القاضى شمس الدين بن الحريرى بالقيمازية عوضاً عن ابن النحاس باتفاق بينهم . وحضر عنده جماعة ، ثم صلى السلطان الجمعة الأخرى بالمقصورة ومعه وزيره ابن الخليلى وهو ضعيف من مرض أصابه . وفى سابع عشر المحرم أمر للملك الكامل بن الملك السعيد ابن الصالح إسماعيل بن العادل بطبلخانة ولبس الشربوش ، ودخل القلعة ودقت له الكوسات على بابه . ثم خرج السلطان العادل كتبغا بالعساكر من دمشق بكرة الثلاثاء ثانى عشرين المحرم ، وخرج بعده الوزير فاجتاز بدار الحديث ، وزار الأثر النبوى ، وخرج إليه الشيخ زين الدين الفارقى وشافهه بتدريس الناصرية . وترك زين الدين تدريس الشامية البرانية فوليها القاضى كمال الدين بن الشريشى . وذكر أن الوزير أعطى الشيخ شيئا من حطام الدنيا فقبله ، وكذلك أعطى خادم الأثر وهو المعين خطاب . وخرج الاعيان والقضاة مع الوزير لتوديعه . ووقع فى هذا اليوم مطر جيد استشفى الناس به وغسل آثار العساكر من الأوساخ وغيرها ، وعاد التقى توبة من توديع الوزير وقد فوض إليه نظر الخزانة وعزل عنها شهاب الدين بن النحاس ، ودرس الشيخ ناصر الدين بالناصرية الجوانية عوضا عن القاضى بدر الدين بن جماعة فى يوم الاربعاء آخر يوم من المحرم .

وفى هذا اليوم تحدث الناس فيما بينهم بوقوع تخبيط بين العساكر ، وخلف وتشويش . فغلق باب القلعة الذى يلى المدينة ، ودخل الصاحب شهاب الدين إليها من ناحية الخوخة ، وتهيأ النائب والأمراء وركب طائفة من الجيش على باب النصر وقوفا ، فلما كان وقت العصر وصل السلطان الملك العادل كتبغا إلى القلعة فى خمسة أنفس أو ستة من مماليكه ، فدخل القلعة فجاء إليه الأمراء وأحضر ابن جماعة وحسام الدين الحنفى . وجددوا الحلف للأمراء ثانية فحلفوا ، وخلع عليهم ، وأمر بالاحتياط على نواب الأمير حسام الدين لاجين وحواصله . وأقام العادل بالقلعة هذه الأيام ، وكان الخلف الذى وقع بينهم بوادى فحمة يوم الاثنين التاسع والعشرين من المحرم . وذلك أن الامير حسام الدين لاجين كان قد واطأ جماعة من الأمراء فى الباطن على العادل ، وتوثق منهم . وأشار على العادل حين خرجوا من دمشق أن يستصحب معه الخزانة ، وذلك لئلا يبقى بدمشق شئ من المال يتقوى به العادل إن فاتهم ورجع إلى دمشق ، ويكون قوة له هو فى الطريق على ما عزم عليه من الغدر ، فلما كانوا بالمكان المذكور قتل لاجين الامير سيف الدين بيحاص و بكتوت الازرق العادليين ، وأخذ

الخزانة من بين يديه والعسكر ، وقصدوا الديار المصرية ، فلما سمع العادل بذلك خرج فى الدهليز وساق جريدة إلى دمشق فدخلها كما ذكرنا ، وتراجع إليه بعض مماليكه كزين الدين غلبك وغيره ، ولزم شهاب الدين الحنفى القلعة لتدبير المملكة ، ودرس ابن الشريشى بالشامية البرانية بكرة يوم الخميس مستهل صفر ، وتقلبت أمور كثيرة فى هذه الايام ، ولزم السلطان القلعة لا يخرج منها ، وأطلق كثيراً من المكوس ، وكتب بذلك تواقيع وقرئت على الناس ، وغلا السعر جداً فبلغت الغرارة مائتين ، واشتد الحال وتفاقم الأمر ، فانا لله و إنا إليه راجعون .

﴿ ذكر سلطنة الملك المنصور لاجين السلحدارى ﴾

وذلك أنه لما استاق الخزانة وذهب بالجيوش إلى الديار المصرية دخلها فى أبهة عظيمة ، وقد اتفق معه جمهور الأمراء الكبار وبايعوه وملكوه عليهم ، وجلس على سرير الملك يوم الجمعة عاشر صفر ، ودقت بمصر البشائر ، و زينت البلد ، وخطب له على المنابر ، وبالقدس والخليل ، ولقب بالملك المنصور ، وكذلك دقت له البشائر بالكرك ونابلس وصفد ، وذهبت إليه طائفة من أمراء دمشق ، وقدمت التجريدة من جهة الرحبة صحبة الأمير سيف الدين كجكن فلم يدخلوا البلد بل نزلوا بميدان الحصن ، وأظهروا مخالفة العادل وطاعة المنصور لاجين صاحب مصر ، وركب إليه الامراء طائفة بعد طائفة ، وفوجا بعد فوج ، فضعف أمر العادل جداً ، فلما رأى انحلال أمره قال للامراء : هو خشداشى وأنا وهو شىء واحد ، وأنا سامع له مطيع ، وأنا أجلس فى أى مكان من القلعة أراد ، حتى تكاتبوه وتنظروا مايقول . وجاءت البريدية بالمكاتبات بالأمر بالاحتياط على القلعة وعلى العادل و بقى الناس فى هرج وأقوال ذات ألوان مختلفة ، وأبواب القلعة مغلقة ، وأبواب البلد سوى باب النصر إلا الخوخة ، والعامة حول القلعة قدازدحموا حتى سقطت طائفة منهم بالخندق فمات بعضهم ، وأمسى الناس عشية السبت وقد أعلن باسم الملك المنصور لاجين ، ودقت البشائر بذلك بعد العصر ودعا له المؤذنون فى سحر ليلة الأحد بجامع دمشق ، وتلوا قوله تعالى (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء) الآية .

وأصبح الناس يوم الأحد فاجتمع القضاة والأمراء وفيهم غرلو العادلى بدار السعادة فحلفوا للمنصور لاجين ، ونودى بذلك فى البلد ، وأن يفتح الناس دكاكينهم ، واختفى الصاحب شهاب الدين وأخوه زين الدين المحتسب ، فعمل الوالى ابن النشابى حسبة البلد ، ثم ظهر زين الدين فباشرها على عادته . وكذلك ظهر أخوه شهاب الدين ، وسافر نائب البلد غرلو والأمير جاغان إلى الديار المصرية يعلمان السلطان بوقوع التحليف على ما رسم به ، وجاء كتاب السلطان أنه جلس على السرير يوم الجمعة عاشر صفر ، وشق القاهرة فى سادس عشره فى أبهة المملكة ، وعليه الخلعة الخليفية

والأمراء بين يديه ، وأنه قد استناب بمصر الأمير سيف الدين سنقر المنصورى ، وخطب المنصور لاجين بدمشق أول يوم ربيع الأول . وحضر المقصورة القضاة وشمس الدين الاعسر وكجكن . واستدمر و جماعة من أمراء دمشق ، وتوجه القاضى إمام الدين القزوينى وحسام الدين الحنفى وجمال الدين المالكى إلى الديار المصرية مطلوبين . وقدم الأمير حسام الدين أستاذ دار السلطان، وسيف الدين جاغان من جهة السلطان فحلفوا الأمراء ثانية ودخلوا على العادل القلعة ومعهم القاضى بدر الدين ابن جماعة وكجكن فحلفوه أيمانا مؤكدة بعدما طال بينهم الكلام بالتركى ، وذكروا بالتركى فى مبايعته أنه راض من البلدان أى بلد كان ، فوقع التعيين بعد اليمين على قلعة صرخد . وجاءت المراسيم بالوزارة لتقى الدين توبة ، وعزل شهاب الدين الحنفى . وبالحسبة لأمين الدين يوسف الأرمنى الرومى صاحب شمس الدين الايكى . عوضا عن زين الدين الحنفى . ودخل الأمير سيف الدين قبجق المنصورى على نيابة الشام إلى دمشق بكرة السبت السادس عشر من ربيع الأول ، ونزل دار السعادة عوضاً عن سيف الدين غرلو العادلى . وقد خرج الجيش بكماله لتلقيه ، وحضر يوم الجمعة إلى المقصورة فصلى بها وقرأ بعد الجمعة كتاب سلطانى حسامى بإبطال الضمانات من الأوقاف والأملاك بغير رضى أصحابها . قرأه القاضى محيى الدين بن فضل الله صاحب ديوان الانشاء ، ونودى فى البلد من له مظلمة فليأت يوم الثلاثاء إلى دار العدل . وخلع على الامراء والمقدمين وأرباب المناصب من القضاة والكتبة ، وخلع على ابن جماعة خلعتين واحدة للقضاء والأخرى للخطابة .

ولما كان فى شهر جمادى الآخرة وصل البريد فأخبر بولاية إمام الدين القزوينى القضاء بالشام عوضاً عن بدر الدين بن جماعة ، وإبقاء ابن جماعة على الخطابة ، وتدريس القيمرية التى كانت بيد إمام الدين ، وجاء كتاب السلطان بذلك وفيه احترام وإكرام له ، فدرس بالقيمرية يوم الخميس ثانى رجب . ودخل إمام الدين إلى دمشق عقيب صلاة الظهر يوم الأربعاء الثامن من رجب فجلس بالعادلية وحكم بين الناس وامتدحه الشعراء بقصائد . منها قصيدة لبعضهم يقول فى أولها :

تبدلت الأيام من بعد عسرها يسرا . فأضحت ثغور الشام تفتر بالبشرى

وكان حال دخوله عليه خلعة السلطان ومعه القاضى جمال الدين الزواوى ، قاضى قضاة المالكية وعليه خلعة أيضاً ، وقد شكر سيرة إمام الدين فى السفر . وذكر من حسن أخلاقه ورياضته ما هو حسن جميل ، ودرس بالعادلية بكرة الاربعاء منتصف رجب ، وأشهد عليه بعد الدرس بولاية أخيه جلال الدين نيابة الحكم ، وجلس فى الديوان الصغير وعليه الخلعة ، وجاء الناس يهنئونه وقرئ تقليده يوم الجمعة بالشباك الكمالى بعد الصلاة بحضرة نائب السلطنة وبقية القضاة ، قرأه شرف الدين الفزارى . وفى شعبان وصل الخبر بأن شمس الدين الاعسر تولى بالديار المصرية شد الدواوين

والوزارة ، وباشر المنصبين جميعاً ، وباشر نظر الدواوين بدمشق فخر الدين بن السيرجي عوضا عن زين الدين بن صصرى ، ثم عزل بعد قليل بشهر أوأقل بأمين الدين بن هلال ، وأعيدت الشامية البرانية إلى الشيخ زين الدين الفارقى مع الناصرية بسبب غيبة كمال الدين بن الشريشى بالقاهرة .

وفى الرابع عشر من ذى القعدة أمسك الأمير شمس الدين قراسنقر المنصورى نائب الديار المصرية لاجين هو وجماعة من الامراء معه ، واحتيط على حواصلهم وأموالهم بمصر والشام ، وولى السلطان نيابة مصر للأمير سيف الدين منكوتمر الحسامى ، وهؤلاء الامراء الذين مسكهم هم الذين كانوا قد أعانوه وبايعوه على العادل كتبغا ، وقدم الشيخ كمال الدين الشريشى ومعه توقيع بتدريس الناصرية عوضا عن الشامية البرانية ، وأمسك الأمير شمس الدين سنقر الأعسر وزير مصر وشاد الدواوين يوم السبت الثالث والعشرين من ذى الحجة ، واحتيط على أمواله وحواصله بمصر والشام . ونودى بمصر فى ذى الحجة أن لا يركب أحد من أهل الذمة فرسا ولا بغلا ، ومن وجد منهم راكبا ذلك أخذ منه . وفيها ملك اليمن السلطان الملك المؤيد هزبر الدين داود بن الملك المظفر المتقدم ذكره فى التى قبلها . ومن توفى فيها من الاعيان

﴿ قاضى قضاة الحنابلة بمصر ﴾

عز الدين عمر بن عبد الله بن عمر بن عوض المقدسى الحنبلى ، سمع الحديث وبرع فى المذهب وحكم بمصر ، وكان مشكورا فى سيرته وحكمه ، توفى فى صفر ودفن بالمقطم ، وتولى بعده شرف الدين عبد الغنى بن يحيى بن محمد بن عبد الله بن نصر الحرانى بديار مصر .

﴿ الشيخ الامام الحافظ القدوة ﴾

عفيف الدين أبو محمد عبد السلام بن محمد بن مزروع بن أحمد بن عزاز المصرى الحنبلى ، توفى بالمدينة النبوية فى أواخر صفر ، ولد سنة خمس وعشرين وستمائة ، وسمع الحديث الكثير ، وجاور بالمدينة النبوية خمسين سنة ، وحج فيها أربعين حجة متوالية ، وصلى عليه بدمشق صلاة الغائب رحمه الله .

﴿ الشيخ شيث بن الشيخ على الحريرى ﴾

توفى بقرية بسر من حوران يوم الجمعة ثالث عشر ربيع الآخر وتوجه أخوه حسن والفقراء من دمشق إلى هناك لتعزية أخيهم حسن الأكبر فيه .

﴿ الشيخ الصالح المقرى ﴾

جمال الدين عبد الواحد بن كثير بن ضرغام المصرى ، ثم الدمشقى ، نقيب السبع الكبير والغزالية ، كان قد قرأ على السخاوى وسمع الحديث ، توفى فى أواخر رجب وصلى عليه

بالجامع الاموى ودفن بالقرب من قبة الشيخ رسلان .

﴿ واقف السامرية ﴾

الصدر الكبير سيف الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن على بن جعفر البغدادى السامرى واقف السامرية التى إلى جانب الكروسية بدمشق ، وكانت داره التى يسكن بها ، ودفن بها ووقفها دار حديث وخانقاه ، وكان قد انتقل إلى دمشق وأقام بها بهذه الدار مدة ، وكانت قديماً تعرف بدار ابن قوام ، بناها من حجارة منحوتة كلها ، وكان السامرى كثير الأموال حسن الأخلاق معظما عند الدولة ، جميل المعاشرة ، له أشعار رائقة ومبتكرات فائقة ، توفى يوم الاثنين ثامن عشر شعبان ، وقد كان ببغداد له حظوة عند الوزير ابن العلقمى ، وامتدح المعتصم وخلع عليه خلعة سوداء سنية ، ثم قدم دمشق فى أيام الناصر صاحب حلب فحظى عنده أيضا فسعى فيه أهل الدولة فصنف فيهم أرجوزة فتح عليهم بسببها بابا فصادرهم الملك بعشرين ألف دينار ، فعظموه جداً وتوسلوا به إلى أغراضهم ، وله قصيدة فى مدح النبى ﷺ ، وقد كتب عنه الحافظ الدمياطى شيئاً من شعره .

﴿ واقف النفيسية التى بالرصيف ﴾

الرئيس نفيس الدين أبو الفداء إسماعيل بن محمد بن عبد الواحد بن إسماعيل بن سلام بن على ابن صدقة الحرانى ، كان أحد شهود القيمة بدمشق ، وولى نظر الأيتام فى وقت ، وكان ذا ثروة من المال ، ولد سنة ثمان وعشرين وستمائة ، وسمع الحديث ووقف داره دار حديث ، توفى يوم السبت بعد الظهر الرابع من ذى القعدة ، ودفن بسفح قاسيون بكرة يوم الأحد بعد ماصلى عليه بالاموى .

﴿ الشيخ أبو الحسن المعروف بالساروب الدمشقى ﴾

يلقب بنجم الدين ، ترجمه الحريرى فأطنب ، وذكر له كرامات وأشياء فى علم الحروف وغيرها والله أعلم بحاله .

وفيها قتل قازان الامير نوروز الذى كان إسلامه على يديه ، كان نوروز هذا هو الذى استسلمه ودعاه للاسلام فأسلم وأسلم معه أكثر التتر ، فان التتر شوشوا خاطر قازان عليه واستمالوه منه وعنه فلم يزل به حتى قتله وقتل جميع من ينسب إليه ، وكان نوروز هذا من خيار أمراء التتر عند قازان وكان ذا عبادة وصدق فى إسلامه وأذكاره وتطوعاته ، وقصده الجيد رحمه الله وعفا عنه ، ولقد أسلم على يديه منهم خلق كثير لا يعلمهم إلا الله ، واتخذوا السبح والهياكل وحضروا الجمع والجماعات وقرأوا القرآن والله أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة سبع وتسعين وستمائة ﴾

استهلت والخليفة الحاكم والسلطان لاجين ونائب مصر منكوتمر ونائب دمشق قبجق . وفى عاشر صفر تولى جلال الدين بن حسام الدين القضاء مكان أبيه بدمشق ، وطلب أبوه إلى مصر فأقام

عنـد السلطان وولاه قضاء قضاة مصر للحنفية عوضاً عن شمس الدين السروجي ، واستقر ولده بدمشق قاضي قضاة الحنفية ، ودرس بمدرستي أبيـه الخاتونية والمقدمية ، وترك مدرسـة القصاعين والشبلية وجاء الخبر على يدى البريد بعافية السلطان من الوقعة التى كان وقعها فدقت البشائر وزينت البلد ، فانه سقط عن فرسه وهو يلعب بالـكرة ، فـكان كما قال الشاعر :

حويت بطشاً وإحسانا ومعرفة ■ وليس يحمل هذا كله الفرس

وجاء على يديه تقليد وخلعة لنائب السلطنة ، فقرأ التقليد وباس العتبة . وفى ربيع الأول درس بالجوزية عز الدين ابن قاضى القضاة تقى الدين سليمان وحضر عنـده إمام الدين الشافعى وأخوه جلال الدين وجماعة من الفضلاء ، وبعد التدريس جلس وحكم عن أبيه باذنه فى ذلك .

وفى ربيع الاول غضب قاضى القضاة تقى الدين بن دقيق العيد وترك الحـكم بمصر أياما ، ثم استرضى وعاد وشرطوا عليه أن لايستنيب ولده المحب ، وفى يوم الجمعة عاشر ربيع الآخر أقيمت الجمعة بالمدرسة المعظمية وخطب فيها مدرسـها القاضى شمس الدين بن المعز الحنفى ، واشتهر فى هذا الحين القبض على بدر الدين بيسرى واحتيط على أمواله بديار مصر ، وأرسل السلطان بجريدة صحبة علم الدين الدويدارى إلى تل حمدون ففتحه بحمد الله ومنه ، وجاء الخبر بذلك إلى دمشق فى الثانى عشر من رمضان ، وخربت به الخليلية وأذن بها الظهر ، وكان أخذها يوم الاربعاء سابع رمضان ، ثم فتحت مرعش بعدها فدقت البشائر ، ثم انتقل الجيش الى قلعة حموص فأصيب جماعة من الجيش منهم الامير علم الدين سنجر طقصبا أصابه زيار فى نخذه ، وأصاب الامير علم الدين الدويدارى حجر فى رجله .

ولما كان يوم الجمعة سابع عشر شوال عمل الشيخ تقى الدين بن تيمية ميعادا فى الجهاد وحرض فيه وبالغ فى أجور المجاهدين ، وكان ميعاداً حافلا جليلا .

وفى هذا الشهر عاد الملك المسعود بن خضر بن الظاهر من بلاد الاشكرى إلى ديار مصر بعد أن مكث هناك من زمن الأشرف بن المنصور ، وتلقاه السلطان بالموكب وأكرمـه وعظمه . وحج الامير خضر بن الظاهر فى هذه السنة مع المصريين وكان فيهم الخليفة الحاكم بأمر الله العباسى . وفى شهر شوال جلس المدرسون بالمدرسة التى أنشأها نائب السلطنة بمصر وهى المنكوتمرية داخل باب القنطرة . وفيها دقت البشائر لاجل أخذ قلعتى حميص ونجم من بلاد سيس .

وفيها وصلت الجريدة من بلاد مصر قاصـدين بلاد سيس مـدداً لأصحابهم ، وهى نحو ثلاثة آلاف مقـاتل ، وفى منتصف ذى الحجة أمسك الامـير عز الدين أيبك الحموى الذى كان نائب الشام هو وجماعة من أهله وأصحابه من الامراء . وفيها قلت المياه بدمشق جـداً حتى بقى ثورا فى

بعض الأماكن لا يصل إلى ركبة الانسان ، وأما بردى فانه لم يبق فيه مسكة ماء ولا يصل إلى جسر جسرين ، وغلا سعر الثلج بالبلد . وأما نيل مصر فانه كان فى غاية الزيادة والكثرة

وممن توفى فيها من الأعيان . ﴿ الشيخ حسن بن الشيخ على الحريرى ﴾

فى ربيع الأول بقرية بسر ، وكان من كبار الطائفة ، وللناس إليه ميل لحسن أخلاقه وجودة معاشرته ، ولد سنة إحدى وعشرين وستمائة .

﴿ الصدر الكبير شهاب الدين ﴾

أبو العباس أحمد بن عثمان بن أبى الرجا بن أبى الزهر التنوخى المعروف بابن السلموس ، أخو الوزير ، قرأ الحديث وسمع الكثير ، وكان من خيار عباد الله ، كثير الصدقة والبر ، توفى بداره فى جمادى الأولى ، وصلى عليه بالجامع ودفن بباب الصغير ، وعمل عزاؤه بمسجد ابن هشام ، وقد ولى فى وقت نظر الجامع وشكرت سيرته ، وحصل له وجاهة عظيمة عريضة أيام وزارة أخيه ، ثم عاد إلى ما كان عليه قبل ذلك حتى توفى ، وشهد جنازته خلق كثير من الناس .

﴿ الشيخ شمس الدين الايكى ﴾

محمد بن أبى بكر بن محمد الفارسى ، المعروف بالايكى ، أحد الفضلاء الحلالين للمشكلات ، الميسرين المعضلات ، لاسيما فى علم الأصلين والمنطق ، وعلم الاوائل ، باشر فى وقت مشيخة الشيوخ بمصر ، وأقام مدرس الغزالية قبل ذلك ، توفى بقرية المزة يوم جمعة ، ودفن يوم السبت ومشى الناس فى جنازته ، منهم قاضى القضاة إمام الدين القزوينى ، وذلك فى الرابع من رمضان ودفن بمقابر الصوفية إلى جانب الشيخ شملة وعمل عزاؤه بخانقاه السميساطية ، وحضر جنازته خلق كثير ، وكان معظما فى نفوس كثير من العلماء وغيرهم

﴿ الصدر ابن عقبة ﴾

إبراهيم بن أحمد بن عقبة بن هبة الله بن عطاء البصراوى ، درس وأعاد ، وولى فى وقت قضاء حلب ، ثم سافر قبل وفاته إلى مصر فجاء بتوقيع فيه قضاء قضاة حلب ، فلما اجتاز بدمشق توفى بها فى رمضان من هذه السنة ، وله سبع وثمانون سنة . يشيب المرء ويشب معه خصلتان الحرص وطول الامل

﴿ الشهاب العابر ﴾

أحمد بن عبد الرحمن بن عبد المنعم بن نعمة المقدسى الحنبلى شهاب الدين عابر الرؤيا ، سمع الكثير وروى الحديث . وكان عجبا فى تفسير المنامات ، وله فيه اليد الطولى ، وله تصنيف فيه ليس كالذى يؤثر عنه من الغرائب والعجائب ، ولد سنة ثمان وعشرين وستمائة ، توفى فى ذى القعدة ودفن بباب الصغير وكانت جنازته حافلة رحمه الله .

تم الجزء الثالث عشر من البداية والنهاية . ويليه الجزء الرابع عشر . وأوله سنة ثمان وتسعين وستمائة

فهرست الجزء الثالث عشر من البداية والنهاية

﴿ تم الفهرس ﴾

البداية والنهاية

في التاريخ

للامام الحافظ المفسر المؤرخ عماد الدين أبي الفداء اسماعيل
ابن عمر بن كثير القرشي الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤ هـ

الجزء الرابع عشر

مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ثم دخلت سنة ثمان وتسعين وستمائة ﴾

استهلت والخليفة الحاكم العباسى وسلطان البلاد المنصور لاجين ونائبه بمصر مملوكه سيف الدين منكو تمر ، وقاضى الشافعية الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد ، والحنفى حسام الدين الرازى ، والمالكى والحنبلى كما تقدم . ونائب الشام سيف الدين قبجق المنصورى ، وقضاة الشام هم المذكورون فى التى قبلها ، والوزير تقى الدين توبة ، والخطيب بدر الدين بن جماعة .

ولما كان فى أثناء المحرم رجعت طائفـة من الجيش من بلاد سيس بسبب المرض الذى أصاب بعضهم ، فجاء كتاب السلطان بالعتب الأكيد والوعيد الشديد لهم ، وأن الجيش يخرج جميعه صحبة نائب السلطنة قبجق إلى هناك ونصب مشانق لمن تأخر بعذر أو غيره ، فخرج نائب السلطنة الامير سيف الدين قبجق وصحبته الجيوش وخرج أهل البلد للفرجة على الأطلاب على ماجرت به العادة ، فبرز نائب السلطنة فى أبهة عظيمة فدعت له العامة وكانوا يحبونه ، واستمر الجيش سائرين قاصدين بلاد سيس ، فلما وصلوا إلى حمص بلغ الأمير سيف الدين قبجق وجماعة من الامراء أن السلطان قد تغلت خاطره بسبب سعى منكوتمر فيهم ، وعلموا أن السلطان لا يخالفه لمحبته له ، فاتفق جماعة منهم على الدخول إلى بلاد التتر والنجاة بأنفسهم ، فساقوا من حمص فيمن أطاعهم ، وهم قبجق وبزلى و بكتمر السلحدار والايلى ، واستمروا ذاهبين. فرجع كثير من الجيش إلى دمشق ، وتخبطت الامور وتأسفت العوام على قبجق لحسن سيرته ، وذلك فى ربيع الآخر من هذه السنة فانا لله و إنا اليه راجعون .

﴿ ذكر مقتل المنصور لاجين وعود الملك إلى الناصر محمد بن قلاوون ﴾

لما كان يوم السبت التاسع عشر ربيع الآخر وصل جماعة من البريدية وأخبروا بقتل السلطان الملك المنصور لاجين ونائبه سيف الدين منكوتمر، وأن ذلك كان ليلة الجمعة حادي عشره، على يد الأمير سيف الدين كرجى الاشرفى ومن وافقه من الامراء، وذلك بحضور القاضى حسام الدين الحنفى وهو جالس فى خدمته يتحدثان، وقيل كانا يلعبان بالشطرنج، فلم يشعرا إلا وقد دخلوا عليهم فبادروا إلى السلطان بسرعة جهرة ليلة الجمعة فقتلوه وقتل نائبه صبراً صبيحة يوم الجمعة وألقى على مزبلة، واتفق الامراء على إعادة ابن أستاذهم الملك الناصر محمد بن قلاوون، فأرسلوا وراءه، وكان بالكرك ونادوا له بالقاهرة، وخطب له على المنابر قبل قدومه، وجاءت الكتب إلى نائب الشام قبجق فوجدوه قد فرّ خوفا من غائلة لاجين، فسارت إليه البريدية فلم يدركوه إلا وقد لحق بالمغول عند رأس العين، من أعمال ماردين، وتفارط الحال ولا قوة إلا بالله.

وكان الذى شمر العزم وراءهم وساق ليردهم الأمير سيف الدين بلبان، وقام بأعباء البلد نائب القلعة علم الدين أرجواش، والأمير سيف الدين جاغان، واحتاطوا على ما كان له اختصاص بتلك الدولة، وكان منهم جمال الدين يوسف الرومى محتسب البلد، وناظر المارستان، ثم أطلق بعد مدة وأعيد إلى وظائفه، واحتيط أيضا على سيف الدين جاغان وحسام الدين لاجين والى البر، وأدخلا القلعة، وقتل بمصر الأمير سيف الدين طغجى، وكان قد ناب عن الناصر أربعة أيام، وكرجى الذى تولى قتل لاجين فقتلا وألقيا على المزابل، وجعل الناس من العامة وغيرهم يتأملون صورة طغجى، وكان جميل الصورة، ثم بعد الدلال والمال والملك وارتهم هناك قبور، فدفن السلطان لاجين وعند رجليه نائبه منكوتمر، ودفن الباقون فى مضاجعهم هنالك.

وجاءت البشائر بدخول الملك الناصر إلى مصر يوم السبت رابع جمادى الاولى، وكان يوما مشهوداً، ودقت البشائر ودخل القضاة وأكابر الدولة إلى القلعة، وبويع بحضرة علم الدين أرجواش، وخطب له على المنابر بدمشق وغيرها بحضرة أكابر العلماء والقضاة والأمراء، وجاء الخبر بأنه قد ركب وشق القاهرة وعليه خلعة الخليفة، والجيش معه مشاة، فضربت البشائر أيضاً. وجاءت مراسيمه فقرئت على السدة وفيها الرفق بالرعايا والأمر بالاحسان إليهم، فدعوا له، وقدم الأمير جمال الدين آقوش الافرم نائباً على دمشق، فدخلها يوم الأربعاء قبل العصر ثانى عشرين جمادى الأولى، فنزل بدار السعادة على العادة، وفرح الناس بقدومه، وأشعلوا له الشموع، وكذلك يوم الجمعة أشعلوا له لما جاء إلى صلاة الجمعة بالمقصورة. وبعد أيام أفرج عن جاغان ولاجين والى البر، وعادا إلى ما كانا عليه، واستقر الأمير حسام الدين الاستادار أتابكا للعساكر المصرية، والأمير

سيف الدين سلار نائباً بمصر، وأخرج الأعسر فى رمضان من الحبس وولى الوزارة بمصر، وأخرج قراسنقر المنصورى من الحبس وأعطى نيابة الصبيبة، ثم لما مات صاحب حماة الملك المظفر نقل قراسنقر إليها.

وكان قد وقع فى أواخر دولة لاجين بعد خروج قبجق من البلد محنة للشيخ تقى الدين بن تيمية قام عليه جماعة من الفقهاء وأرادوا إحضاره إلى مجلس القاضى جلال الدين الحنفى، فلم يحضر فنودى فى البلد فى العقيدة التى كان قد سأله عنها أهل حماة المسماة بالحموية، فانتصر له الأمير سيف الدين جاغان، وأرسل يطلب الذين قاموا عنده فاختفى كثير منهم، وضرب جماعة ممن نادى على العقيدة فسكت الباقون. فلما كان يوم الجمعة عمل الشيخ تقى الدين الميعاد بالجامع على عادته، وفسر فى قوله تعالى (وإنك لعلى خلق عظيم) ثم اجتمع بالقاضى إمام الدين يوم السبت واجتمع عنده جماعة من الفضلاء وبحثوا فى الحموية وناقشوه فى أماكن فيها، فأجاب عنها بما أسكتهم بعد كلام كثير، ثم ذهب الشيخ تقى الدين وقد تمهدت الأمور، وسكنت الأحوال، وكان القاضى إمام الدين معتقده حسناً ومقصده صالحاً.

وفيها وقف علم الدين سنجر الدويدار رواقه داخل باب الفرج مدرسة ودار حديث، وولى مشيخته الشيخ علاء الدين بن العطار وحضر عنده القضاة والأعيان، وعمل لهم ضيافة، وأفرج عن قرا سنقر. وفى يوم السبت حادى عشر شوال فتح مشهد عثمان الذى جدده ناصر الدين بن عبد السلام ناظر الجامع، وأضاف إليه مقصورة الخدم من شماليه، وجعل له إماما راتباً، وحاكى به مشهد على بن الحسين زين العابدين. وفى العشر الأولى من ذى الحجة عاد القاضى حسام الدين الرازى إلى قضاء الشام، وعزل عن قضاء مصر، وعزل ولده عن قضاء الشام. وفيها فى ذى القعدة كثرت الأراجيف بقصد التتر بلاد الشام والله المستعان.

وممن توفى فيها من الأعيان. ﴿الشيخ نظام الدين﴾

أحمد بن الشيخ جمال الدين محمود بن أحمد بن عبد السلام الحصرى (١) الحنفى، مدرس النورية ثامن المحرم، ودفن فى تاسعه يوم الجمعة فى مقابر الصوفية، كان فاضلا، ناب فى الحكم فى وقت ودرس بالنورية بعد أبيه، ثم درس بعده الشيخ شمس الدين بن الصدر سليمان بن النقيب.

﴿المفسر الشيخ العالم الزاهد﴾

جمال الدين عبد الله بن محمد بن سليمان بن حسن بن الحسين البلخى، ثم المقدسى الحنفى، ولد فى النصف من شعبان سنة إحدى عشرة وستمائة بالقدس، واشتغل بالقاهرة وأقام مدة بالجامع الازهر ودرس فى بعض المدارس هناك، ثم انتقل إلى القدس فاستوطنه إلى أن مات فى المحرم منها، وكان

(١) فى الشذرات: ابن الحصير.

شيخا فاضلا فى التفسير ، وله فيه مصنف حافل كبير جمع فيه خمسين مصنفا من التفسير ، وكان الناس يقصدون زيارته بالقدس الشريف ويتبركون به .

﴿ الشيخ أبو يعقوب المغربى المقيم بالقدس ﴾

كان الناس يجتمعون به وهو منقطع بالمسجد الأقصى ، وكان الشيخ تقى الدين بن تيمية يقول فيه : هو على طريقة ابن عربى وابن سبعين ، توفى فى المحرم من هذه السنة .

﴿ التقى توبة الوزير ﴾

تقى الدين توبة بن على بن مهاجر بن شجاع بن توبة الربعى التكريتى ، ولد سنة عشرين وستمائة يوم عرفة بعرفة ، وتنقل بالخدم إلى أن صار وزيراً بدمشق مرات عديدة ، حتى توفى ليلة الخميس ثانى جمادى الآخرة ، وصلى عليه غدوة بالجامع وسوق الخيل ، ودفن بتربته تجاه دار الحديث الأشرفية بالسفح ، وحضر جنازته القضاة والأعيان ، وباشر بعده نظر الدواوين فخر الدين بن الشيرجى ، وأخذ أمين الدين بن الهلال نظر الخزانة .

﴿ الأمير الكبير ﴾

شمس الدين بيسرى ، كان من أكابر الامراء المتقدمين فى خدمة الملوك ، من زمن قلاوون وهلم جرا ، توفى فى السجن بقلعة مصر ، وعمل له عزاء بالجامع الأموى ، وحضره نائب السلطنة الافرم والقضاة والأعيان .

﴿ السلطان الملك المظفر ﴾

تقى الدين محمود بن ناصر الدين محمد بن تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب صاحب حماة ، وابن ملوكها كابرا عن كابر ، توفى يوم الخميس الحادى والعشرين من ذى القعدة ، ودفن ليلة الجمعة .

﴿ الملك الأوحد ﴾

نجم الدين يوسف بن الملك داود بن المعظم ناظر القدس ، توفى به ليلة الثلاثاء رابع ذى القعدة ودفن برباطه عند باب حطة عن سبعين سنة ، وحضر جنازته خلق كثير ، وكان من خيار أبناء الملوك ديناً وفضيلة وإحسانا إلى الضعفاء .

﴿ القاضى شهاب الدين يوسف ﴾

ابن الصالح محب الدين بن النحاس أحد رؤساء الحنفية ، ومدرس الزنجانية والظاهرية ، توفى ببستانه بالمزة ثالث عشر ذى الحجة ، ودرس بعده بالزنجانية القاضى جلال الدين بن حسام الدين .

﴿ الصاحب نصر الدين أبو الغنائم ﴾

سالم بن محمد بن سالم بن هبة الله بن محفوظ بن صصرى التغلبى ، كان أحسن حالا من أخيه القاضى نجم الدين ، وقد سمع الحديث وأسمعه ، كان صدراً معظما ، ولى نظر الدواوين ونظر الخزانة ،

ثم ترك المناصب وحج وجاور بمكة ، ثم قدم دمشق فأقام بها دون السنة ومات ، توفى يوم الجمعة ثامن وعشرين ذى الحجة ، وصلى عليه بعد الجمعة بالجامع ، ودفن بتربتهم بسفح قاسيون ، وعمل عزاؤه بالصاحبية .

﴿ ياقوت بن عبد الله ﴾

أبو الدر المستعصمى الكاتب ، لقبه جمال الدين ، وأصله رومى ، كان فاضلا مليح الخط مشهورا بذلك ، كتب ختما حسانا ، وكتب الناس عليه ببغداد ، وتوفى بها فى هذه السنة ، وله شعر رائق ، فمنه ما أورده البرزالى فى تاريخه عنه :

تجدد الشمس شوقى كلما طلعت * إلى محياك ياسمعى ويابصرى
وأسهر الليل فى أنس بلاونس * إذ طيب ذكراك فى ظلماته يسرى
وكل يوم مضى لا أراك به * فلست محتسبا ماضيه من عمرى
ليلى نهار إذا مادرت فى خلدى * لأن ذكرك نور القلب والبصر

﴿ ثم دخلت سنة تسع وتسعين وستمائة ﴾

وفيها كانت وقعة قازان ، وذلك أن هذه السنة استهلت والخليفة والسلطان هما المذكوران فى التى قبلها ، ونائب مصر سلار ، ونائب الشام آقوش الأفرم ، وسائر الحكام هم المذكورون فى التى قبلها ، وقد تواترت الأخبار بقصد التتار بلاد الشام ، وقد خاف الناس من ذلك خوفا شديداً ، وجفل الناس من بلاد حلب وحماة ، وبلغ كرى الخيل من حماة إلى دمشق نحو المائتى درهم ، فلما كان يوم الثلاثاء ثانى المحرم ضربت البشائر بسبب خروج السلطان من مصر قاصداً الشام ، فلما كان يوم الجمعة ثامن ربيع الأول دخل السلطان إلى دمشق فى مطر شديد ووحل كثير ، ومع هذا خرج الناس لتلقيه ، وكان قد أقام بغزة قريبا من شهرين ، وذلك لما بلغه قدوم التتار إلى الشام ، فتهيأ لذلك وجاء فدخل دمشق فنزل بالطارمة ، وزينت له البلد ، وكثرت له الأدعية وكان وقتا شديدا ، وحالا صعبا ، وامتلأ البلد من الجافلين النازحين عن بلادهم ، وجلس الأعسر وزير الدولة وطالب العمال واقترضوا أموال الأيتام وأموال الأسرى لأجل تقوية الجيش ، وخرج السلطان بالجيش من دمشق يوم الأحد سابع عشر ربيع الأول ولم يتخلف أحد من الجيوش ، وخرج معهم خلق كثير من المتطوعة ، وأخذ الناس فى الدعاء والقنوت فى الصلوات بالجامع وغيره ، وتضرعوا واستغاثوا وابتهلوا إلى الله بالادعية .

﴿ وقعة قازان ﴾

لما وصل السلطان إلى وادى الخزندار عند وادى سلمية ، فالتقى التتر هناك يوم الأربعاء السابع والعشرين من ربيع الأول فالتقوا معهم فكسروا المسلمين وولى السلطان هاربا فانا لله وإنا إليه راجعون ، وقتل جماعة من الأمراء وغيرهم ومن العوام خلق كثير ، وفقد فى المعركة قاضى قضاة

الحنفية ، وقد صبروا وأبلوا بلاء حسنا ، ولكن كان أمر الله قدرا مقدوراً . فولى المسلمون لايلوى أحد على أحد . ثم كانت العاقبة بعد ذلك للمتقين . غير أنه رجعت العساكر على أعقابها للديار المصرية واجتاز كثير منهم على دمشق . وأهل دمشق فى خوف شديد على أنفسهم وأهليهم وأموالهم . ثم إنهم استكانوا واستسلموا للقضاء والقدر ، وماذا يجدى الحذر إذا نزل القدر ، ورجع السلطان فى طائفة من الجيش على ناحية بعلبك والبقاع ، وأبواب دمشق مغلقة . والقلعة محصنة والغلاء شديد والحال ضيق وفرج الله قريب ، وقد هرب جماعة من أعيان البلد وغيرهم إلى مصر ، كالقاضى إمام الدين الشافعى ، وقاضى المالكية الزواوى ، وتاج الدين الشيرازى . وعلم الدين الصوابى والى البر ، وجمال الدين بن النحاس والى المدينة ، والمحتسب وغيرهم من التجار والعوام ، و بقى البلد شاغراً ليس فيهم حاكم سوى نائب القلعة .

وفى ليلة الأحد ثانى ربيع الأول كسر المحبوسون بحبس باب الصغير الحبس وخرجوا منه على حمية ، وتفرقوا فى البلد ، وكانوا قريبا من مائتى رجل ، فنهبوا ما قدروا عليه ، وجاؤا إلى باب الجابية فكسروا أقفال الباب البرانى وخرجوا منه إلى بر البلد ، فتفرقوا حيث شاؤا لا يقدر أحد على ردهم . وعاثت الحرافشة فى ظاهر البلد فكسروا أبواب البساتين وقلعوا من الأبواب والشبابيك شيئاً كثيراً ، وباعوا ذلك بأرخص الأثمان . هذا وسلطان التتار قد قصد دمشق بعد الوقعة ، فاجتمع أعيان البلد والشيخ تقى الدين بن تيمية فى مشهد على واتفقوا على المسير إلى قازان لتلقيه . وأخذ الأمان منه لاهل دمشق ، فتوجهوا يوم الاثنين ثالث ربيع الآخر فاجتمعوا به عند النبك ، وكلمه الشيخ تقى الدين كلاما قوياً شديداً فيه مصلحة عظيمة عاد نفعها على المسلمين ولله الحمد . ودخل المسلمون ليلتئذ من جهة قازان فنزلوا بالبدرانية وغلقت أبواب البلد سوى باب توما ، وخطب الخطيب بالجامع يوم الجمعة ، ولم يذكر سلطاناً فى خطبته . و بعد الصلاة قدم الامير إسماعيل ومعه جماعة من الرسل فنزلوا ببستان الظاهر عند الطرن . وحضر الفرمان بالامان وطيف به فى البلد ، وقرئ يوم السبت ثامن الشهر بمقصورة الخطابة . ونثر شىء من الذهب والفضة . وفى ثانى يوم من المناداة بالامان طلبت الخيول والسلاح والاموال المخبأة عند الناس من جهة الدولة ، وجلس ديوان الاستخلاص إذ ذاك بالمدرسة القيمرية ، وفى يوم الاثنين عاشر الشهر قدم سيف الدين قبجق المنصورى فنزل فى الميدان واقترب جيش التتر وكثر العيث فى ظاهر البلد ، وقتل جماعة وغلت الاسعار بالبلد جداً ، وأرسل قبجق إلى نائب القلعة ليسلمها إلى التتر فامتنع أرجواش من ذلك أشد الامتناع . فجمع له قبجق أعيان البلد فكلموه أيضاً فلم يجبهم إلى ذلك . وصمم على ترك تسليمها إليهم وبها عين تطرف . فان الشيخ تقى الدين بن تيمية أرسل إلى نائب القلعة يقول له ذلك : لو لم يبق فيها

إلاحجر واحد فلا تسلمهم ذلك إن استطعت ، وكان فى ذلك مصلحة عظيمة لأهل الشام فان الله حفظ لهم هذا الحصن والمعقل الذى جعله الله حرزا لاهل الشام التى لاتزال دار إيمان وسنة ، حتى ينزل بها عيسى ابن مريم . وفى يوم دخول قبجق إلى دمشق دخل السلطان ونائبه سلار إلى مصر كما جاءت البطاقة بذلك إلى القلعة ، ودقت البشائر بها فقوى جأش الناس بعض قوة ، ولكن الامر كما يقال :

كيف السبيل إلى سعاد ودونها ، قلل الجبال ودونهن حتوف

الرجل حافية ومالى مركب ، والكف صفر والطريق مخوف

وفى يوم الجمعة رابع عشر ربيع الآخر خطب لقازان على منبر دمشق بحضور المغول بالمقصورة ودعى له على السدة بعد الصلاة وقرئ عليها مرسوم بنيابة قبجق على الشام ، وذهب إليه الأعيان فهنؤه بذلك ، فأظهر الكرامة وأنه فى تعب عظيم مع التتر ، ونزل شيخ المشايخ محمود بن على الشيبانى بالمدرسة العادلية الكبيرة . وفى يوم السبت النصف من ربيع الآخر شرعت التتار وصاحب سيس فى نهب الصالحية ومسجد الاسدية ومسجد خاتون ودار الحديث الاشرفية بها واحترق جامع التوبة بالعقيبية ، وكان هذا من جهة الكرج والارمن من النصارى الذين هم مع التتار قبحهم الله . وسبوا من أهلها خلقا كثيراً وجماً غفيراً ، وجاء أكثر الناس إلى رباط الحنابلة فاحتاطت به التتار فحماه منهم شيخ الشيوخ المذكور ، وأعطى فى الساكن مال له صورة ثم أقحموا عليه فسبوا منه خلقا كثيرا من بنات المشايخ وأولادهم فانا لله و إنا إليه راجعون .

ولما نكب دير الحنابلة فى ثانى جمادى الاولى قتلوا خلقا من الرجال وأسروا من النساء كثيراً ، ونال قاضى القضاة تقى الدين أذى كثير ، ويقال إنهم قتلوا من أهل الصالحية قريباً من أربعمائة ، وأسروا نحوا من أربعة آلاف أسير ، ونهبت كتب كثيرة من الرباط الناصرى والضيائية ، وخزانة ابن البزورى ، وكانت تباع وهى مكتوب عليها الوقفية ، وفعلوا بالمزة مثل ما فعلوا بالصالحية ، وكذلك بداريا و بغيرها ، وتحصن الناس منهم فى الجامع بداريا ففتحوه قسراً وقتلوا منهم خلقا وسبوا نساءهم وأولادهم ، فانا لله و إنا اليه راجعون .

وخرج الشيخ ابن تيمية فى جماعة من أصحابه يوم الخميس العشرين من ربيع الآخر إلى ملك التتر وعاد بعد يومين ولم يتفق اجتماعه به ، حجبه عنه الوزير سعد الدين والرشيد مشير الدولة المسلمانى ابن يهودى ، والتزما له بقضاء الشغل ، وذكرا له أن التتر لم يحصل لكثير منهم شيء إلى الآن ، ولابد لهم من شئ ، واشتهر بالبلد أن التتر يريدون دخول دمشق فانزعج الناس لذلك وخافوا خوفا شديداً ، وأرادوا الخروج منها والهرب على وجوههم ، وأين الفرار ولات حين مناص ، وقد أخذ من البلد فوق العشرة آلاف فرس ، ثم فرضت أموال كثيرة على البلد موزعة على أهل الاسواق

كل سوق بحسبه من المال . فلا قوة إلا بالله . وشرع التتر فى عمل مجانيق بالجامع ليرموا بها القلعة من صحن الجامع . وغلقت أبوابه ونزل التتار فى مشاهده يحرسون أخشاب المجانيق ، وينهبون ماحوله من الأسواق . وأحرق أرجوان ماحول القلعة من الابنية . كدار الحديث الأشرفية وغير ذلك ، إلى حد العادلية الكبيرة ، وأحرق دار السعادة لئلا يتمكنوا من محاصرة القلعة من أعاليها ، ولزم الناس منازلهم لئلا يسخروا فى طم الخندق ، وكانت الطرقات لا يرى بها أحد إلا القليل . والجامع لايصلى فيه أحد إلا اليسير ، ويوم الجمعة لا يتكامل فيه الصف الأول وما بعده إلا بجهد جهيد . ومن خرج من منزله فى ضرورة يخرج بثياب زيهم ثم يعود سريعا ، ويظن أنه لا يعود إلى أهله . وأهل البلد قد أذاقهم الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون . فانا لله وإنا إليه راجعون .

والمصادرات والتراسيم والعقوبات عمالة فى أكابر أهل البلد ليلا ونهاراً ، حتى أخذ منهم شيء كثير من الأموال والأوقاف ، كالجامع وغيره . ثم جاء مرسوم بصيانة الجامع وتوفير أوقافه وصرف ما كان يؤخذ بخزائن السلاح وإلى الحجاز ، وقرىء ذلك المرسوم بعد صلاة الجمعة بالجامع فى تاسع عشر جمادى الأولى . وفى ذلك اليوم توجه السلطان قازان وترك نوابه بالشام فى ستين ألف مقاتل نحو بلاد العراق . وجاء كتابه إنا قد تركنا نوابنا بالشام فى ستين ألف مقاتل . وفى عزمنا العود اليها فى زمن الخريف ، والدخول إلى الديار المصرية وفتحها ، وقد أعجزتهم القلعة أن يصلوا إلى حجر منها ، وخرج سيف الدين قبجق لتوديع قطلو شاه نائب قازان وسار وراءه وضربت البشائر بالقلعة فرحا لرحيلهم ، ولم تفتح القلعة . وأرسل أرجواش ثانى يوم من خروج قبجق القلعية إلى الجامع فكسروا أخشاب المنجنيقات المنصوبة به ، وعادوا إلى القلعة سريعا سالمين . واستصحبوا معهم جماعة ممن كانوا يلوذون بالتتر قهراً إلى القلعة ، منهم الشريف القمى . وهو شمس الدين محمد ابن محمد بن أحمد بن أبى القاسم المرتضى العلوى ، وجاءت الرسل من قبجق إلى دمشق فنادوا بها طيبوا أنفوسكم وافتحوا دكاكينكم وتهيئوا غداً لتلقى سلطان الشام سيف الدين قبجق ، فخرج الناس إلى أماكنهم فأشرفوا عليها فرأوا ما بها من الفساد والدمار ، وانفك رؤساء البلد من التراسيم بعد ما ذاقوا شيئا كثيراً .

قال الشيخ علم الدين البرزالى : ذكر لى الشيخ وجيه الدين بن المنجا أنه حمل إلى خزانة قازان ثلاثة آلاف ألف وستمائة ألف درهم ، سوى ما تمحق من التراسيم والبراطيل وما أخذ غيره من الأمراء والوزراء ، وأن شيخ المشايخ حصل له نحو من ستمائة ألف درهم ، والاصيل بن النصير الطوسى مائة ألف . والصفى السخاوى ثمانون ألفا ، وعاد سيف الدين قبجق إلى دمشق يوم الخميس بعد الظهر خامس عشرين جمادى الاولى ومعه الاليكى وجماعة ، وبين يديه السيوف مسللة وعلى

رأسه عصابة فنزل بالقصر ونودى بالبلد نائبكم قبجق قد جاء فافتحوا دكاكينكم واعملوا معاشكم ولا يغرر أحد بنفسه هذا الزمان والاسعار فى غاية الغلاء والقلة ، قد بلغت الغرارة إلى أربعمائة ، واللحم الرطل بنحو العشرة ، والخبز كل رطل بدرهمين ونصف ، والعشرة الدقيق بنحو الأربعين ، والجبن الأوقية بدرهم ، والبيض كل خمسة بدرهم ، ثم فرج عنهم فى أواخر الشهر ، ولما كان فى أواخر الشهر نادى قبجق بالبلد أن يخرج الناس إلى قراهم وأمر جماعة وانضاف إليه خلق من الأجناد ، وكثرت الأراجيف على بابه ، وعظم شأنه ودقت البشائر بالقلعة وعلى باب قبجق يوم الجمعة رابع جمادى الآخرة ، وركب قبجق بالعصائب فى البلد والشاويشية بين يديه ، وجهز نحواً من ألف فارس نحو خربة اللصوص ، ومشى مشى الملوك فى الولايات وتأمير الأمراء والمراسيم العالية النافذة ، وصار كما قال الشاعر :

يالك من قنبرة بمعمرى ، خلالك الجو فبيضى واصفرى ، ونقرى ما شئت أن تنقرى

ثم إنه ضمن الخمارات ومواضع الزنا من الحانات وغيرها ، وجعلت دار ابن جرادة خارج من باب توما خمارة وحانة أيضاً ، وصار له على ذلك فى كل يوم ألف درهم ، وهى التى دمرته ومحقت آثاره وأخذ أموالا أخر من أوقاف المدارس وغيرها ، ورجع بولاى من جهة الأغوار وقد عاث فى الارض فسادا ، ونهب البلاد وخرب ومعه طائفة من التتر كثيرة ، وقد خربوا قرى كثيرة ، وقتلوا من أهلها وسبوا خلقا من أطفالها ، وجبى لبولاى من دمشق أيضا جباية أخرى ، وخرج طائفة من القلعة فقتلوا طائفة من التتر ونهبوهم ، وقتل جماعة من المسلمين فى غبون ذلك ، وأخذوا طائفة ممن كان يلوذ بالتتر ورسم قبجق لخطيب البلد وجماعة من الأعيان أن يدخلوا القلعة فيتكلموا مع نائبها فى المصالحة فدخلوا عليه يوم الاثنين ثانى عشر جمادى الآخرة ، فكلموه وبالغوا معه فلم يجب إلى ذلك وقد أجاد وأحسن وأرجل فى ذلك بيض الله وجهه .

وفى ثامن رجب طلب قبجق القضاة والأعيان لحلفهم على المناصحة للدولة المحمودية - يعنى قازان - لحلفوا له ، وفى هذا اليوم خرج الشيخ تقى الدين بن تيمية إلى مخيم بولاى فاجتمع به فى فكاك من كان معه من أسارى المسلمين ، فاستنقذ كثيراً منهم من أيديهم، وأقام عنده ثلاثة أيام ثم عاد، ثم راح إليه جماعة من أعيان دمشق ثم عادوا من عنده فشلحوا عند باب شرقى وأخذ ثيابهم وعمائمهم ورجعوا فى شرحالة ، ثم بعث فى طلبهم فاختفى أكثرهم وتغيبوا عنه ، ونودى بالجامع بعد الصلاة ثالث رجب من جهة نائب القلعة بأن العساكر المصرية قادمة إلى الشام ، وفى عشية يوم السبت رحل بولاى وأصحابه من التتر وانشمروا عن دمشق وقد أراح الله منهم وساروا من على عقبة دمر فعاثوا فى تلك النواحى فساداً ، ولم يأت سابع الشهر وفى حواشى البلد منهم أحد ، وقد أزاح الله عز وجل

شرهم عن العباد والبلاد . ونادى قبجق فى الناس قد أمنت الطرقات ولم يبق بالشام من التتر أحد ، وصلى قبجق يوم الجمعة عاشر رجب بالمقصورة ، ومعه جماعة عليهم لأمة الحرب من السيوف والقسى والتراكيش فيها النشاب ، وأمنت البلاد ، وخرج الناس للفرجة فى غيض السفرجل على عادتهم فعاثت عليهم طائفة من التتر ، فلما رأوهم رجعوا إلى البلد هاربين مسرعين ، ونهب بعض الناس بعضاً ومنهم من ألقى نفسه فى النهر ، و إنما كانت هذه الطائفة مجتازين ليس لهم قرار ، وتقلق قبجق من البلد ثم إنه خرج منها فى جماعة من رؤسائها وأعيانها منهم عز الدين ابن القلانسى ليتلقوا الجيش المصرى وذلك أن جيش مصر خرج إلى الشام فى تاسع رجب وجاءت البريدية بذلك . و بقى البلد ليس به أحد ، ونادى أرجواش فى البلد احفظوا الاسوار وأخرجوا ما كان عندكم من الاسلحة ولا تهملوا الاسوار والابواب ، ولا يبيتن أحد إلا على السور . ومن بات فى داره شنق ، فاجتمع الناس على الاسوار لحفظ البلاد ، وكان الشيخ تقى الدين بن تيمية يدور كل ليلة على الاسوار يحرض الناس على الصبر والقتال و يتلو عليهم آيات الجهاد والرباط .

وفى يوم الجمعة سابع عشر رجب أعيدت الخطبة بدمشق لصاحب مصر ففرح الناس بذلك ، وكان يخطب لقازان بدمشق وغيرها من بلاد الشام مائة يوم سواء . وفى بكرة يوم الجمعة المذكور دار الشيخ تقى الدين بن تيمية رحمه الله وأصحابه على الخمارات والحانات فكسروا آنية الخمور وشققوا الظروف وأراقوا الخمور ، وعزروا جماعة من أهل الحانات المتخذة لهذه الفواحش ، ففرح الناس بذلك . ونودى يوم السبت ثامن عشر رجب بأن تزين البلد لقدوم العساكر المصرية ، وفتح باب الفرج مضافا إلى باب النصر يوم الأحد تاسع عشر رجب ، ففرح الناس بذلك وانفرجوا لأنهم لم يكونوا يدخلون إلا من باب النصر ، وقدم الجيش الشامى صحبة نائب دمشق جمال الدين آقوش الأفرم يوم السبت عاشر شعبان ، وثانى يوم دخل بقية العساكر وفيهم الأميران شمس الدين قراسنقر المنصورى وسيف الدين قطلبك فى تجمل . وفى هذا اليوم فتح باب العريش . وفيه درس القاضى جلال الدين القزوينى بالأمينية عوضاً عن أخيه قاضى القضاة إمام الدين توفى بمصر ، وفى يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء تكامل دخول العساكر صحبة نائب مصر سيف الدين سلار ، وفى خدمته الملك العادل كتبغا ، وسيف الدين الطراخى فى تجمل باهر . ونزلوا فى المرج . وكان السلطان قد خرج عازما على المجىء فوصل إلى الصالحية ثم عاد إلى مصر .

وفى يوم الخميس النصف من شعبان أعيد القاضى بدر الدين بن جماعة إلى قضاء القضاة بدمشق مع الخطابة بعد إمام الدين . ولبس معه فى هذا اليوم أمين الدين العجمى خلعة الحسبة . وفى يوم سابع عشره لبس خلعة نظر الدواوين تاج الدين الشيرازى عوضاً عن فخر الدين بن الشيرجى ،

ولبس أقبجاشد الدواوين فى باب الوزير شمس الدين سنقر الأعسر ، وباشر الأمير عز الدين أيبك الدويدار النجيبي ولاية البر ، بعدماجعل من أمراء الطبلخانة . ودرس الشيخ كمال الدين بن الزملكانى بأم الصالح عوضاً عن جلال الدين القزوينى يوم الأحـد الحادى والعشرين من شعبان ، وفى هـذا اليوم ولى قضاء الحنفية شمس الدين بن الصفى الحريرى عوضاً عن حسام الدين الرومى . فقد يوم المعركة فى ثانى رمضان ، ورفعت الستائر عن القلعـة فى ثالث رمضان . وفى مستهل رمضان جلس الأمير سيف الدين سلار بدار العدل فى الميدان الأخضر وعنده القضاة والأمراء يوم السبت ، وفى السبت الآخر خلع على عز الدين القلانسى خلعة سنية وجعل ولده عماد الدين شاهداً فى الخزانة . وفى هذا اليوم رجع سلار بالعساكر إلى مصر وانصرفت العساكر الشامية إلى مواضعها وبلدانهـا . وفى يوم الاثنين عاشر رمضان درس على بن الصفى بن أبى القاسم البصراوى الحنفى بالمدينة المقدمية .

وفى شوال فيها عرفت جماعة ممن كان يلوذ بالتتر ويؤذى المسلمين ، وشنق منهم طائفة وسمر آخرون وكحل بعضهم وقطعت ألسن وجرت أمور كثيرة . وفى منتصف شوال درس بالدولعية قاضى القضاة جمال الدين الزرعى نائب الحكم عوضاً عن جمال الدين بن الباجريقى ، وفى يوم الجمعة العشرين منه ركب نائب السلطنة جمال الدين آقوش الأفرم فى جيش دمشق إلى جبال الجرد وكسروان ، وخرج الشيخ تقى الدين بن تيمية ومعه خلق كثير من المتطوعة والحوارنة لقتال أهـل تلك الناحية . بسبب فساد نيتهم وعقائدهم وكفرهم وضلالهم . وما كانوا عاملوا به العساكر لما كسرهم التتر وهربوا حين اجتازوا ببلادهم . وثبوا عليهم ونهبوهم وأخذوا أسلحتهم وخيولهم ، وقتلوا كثيرا منهم ، فلما وصلوا إلى بلادهم جاء رؤساؤهم إلى الشيخ تقى الدين بن تيمية فاستتابهم وبين للكثير منهم الصواب وحصل بذلك خير كثير . وانتصار كبير على أولئك المفسدين . والتزموا برد ماكانوا أخـذوه من أموال الجيش ، وقرر عليهم أموالا كثيرة يحملونها إلى بيت المال . وأقطعت أراضيهم وضياعهم . ولم يكونوا قبـل ذلك يدخلون فى طاعة الجند ولا يلتزمون أحـكام الملة ، ولا يدينون دين الحق ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله . وعاد نائب السلطنة يوم الأحـد ثالث عشر ذى القعدة وتلقاه النـاس بالشموع إلى طريق بعلبك وسط النهار . وفى يوم الأربعاء سادس عشره نودى فى البلد أن يعلق الناس الأسلحة بالدكاكين . وأن يتعلم الناس الرمى فعملت الاماجات فى أماكن كثيرة من البلد . وعلقت الأسلحة بالأسواق ، ورسم قاضى القضاة بعمل الاماجات فى المدارس ، وأن يتعلم الفقهاء الرمى ويستعدوا لقتال العدو إن حضر ، وبالله المستعان .

وفى الحادى والعشرين من ذى القعدة استعرض نائب السلطنة أهل الأسواق بين يديه وجعل على كل سوق مقدماً وحوله أهل سوقه ، وفى الخميس رابع عشرينه عرضت الأشراف مع نقيبهم نظام

الملك الحسيني بالعدد والتجمل الحسن،وكان يوماً مشهوداً . ومماكان من الحوادث فى هذه السنة أن جدد إمام راتب عند رأس قبر زكريا ، وهو الفقيه شرف الدين أبو بكر الحموى ، وحضر عنده يوم عاشوراء القاضى إمام الدين الشافعى ، وحسام الدين الحنفى وجماعة، ولم تطل مدته إلا شهوراً ثم عاد الحموى إلى بلده وبطلت هذه الوظيفة إلى الآن ولله الحمد .

ومن توفى فيها من الأعيان ﴿ القاضى حسام الدين أبو الفضائل ﴾

الحسن بن القاضى تاج الدين أبى المفاخر أحمد بن الحسن أنو شروان الرازى الحنفى ، ولى قضاء ملطية مدة عشرين سنة ، ثم قدم دمشق فوليها مدة ، ثم انتقل إلى مصر فوليها مدة ، وولده جلال الدين بالشام ثم صار إلى الشام فعاد إلى الحكم بها ، ثم لما خرج الجيش إلى لقاء قازان بوادى الخزندار عند وادى سلمية خرج معهم ففقد من الصف ولم يدر ماخبره ، وقد قارب السبعين ، وكان فاضلا بارعاً رئيسا ، له نظم حسن ، ومولده باقسيس من بلاد الروم فى المحرم سنة إحدى وثلاثين وستمائة فقد يوم الأربعاء الرابع والعشرين من ربيع الأول منها ، وقد قتل يومئذ عدة من مشاهير الأمراء ثم ولى بعده القضاء شمس الدين الحريرى .

﴿ القاضى الامام العالى ﴾

إمام الدين أبو المعالى عمر بن القاضى سعد الدين أبى القاسم عبد الرحمن بن الشيخ إمام الدين أبى حفص عمر بن أحمد بن محمد القزوينى الشافعى ، قدم دمشق هو وأخوه جلال الدين فقررا فى مدارس ، ثم انتزع إمام الدين قضاء القضاة بدمشق من بدر الدين بن جماعة كما تقدم فى سنة سبع وسبعين ، وناب عنه أخوه ، وكان جميل الأخلاق كثير الاحسان رئيسا ، قليل الأذى ، ولما أزف قدوم التتار سافر إلى مصر ، فلما وصل إليها لم يقم بها سوى أسبوع وتوفى ودفن بالقرب من قبة الشافعى عن ست وأربعين سنة ، وصار المنصب إلى بدر الدين بن جماعة ، مضافا إلى مابيده من الخطابة وغيرها ، ودرس أخوه بعده بالأمينية .

﴿ المسند المعمر الرحلة ﴾

شرف الدين أحمد بن هبة الله بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسن بن عساكر الدمشقى ، ولد سنة أربع عشرة وستمائة ، وسمع الحديث وروى ، توفى خامس عشر جمادى الأولى عن خمس وثمانين سنة . ﴿ الخطيب الامام العالم ﴾

موفق الدين أبو المعالى محمد بن محمد بن الفضل النهروانى القضاعى الحموى ، خطيب حماة ، ثم خطب بدمشق عوضا عن الفاروثى ، ودرس بالغزالية ثم عزل بابن جماعة ، وعاد إلى بلده ، ثم قدم دمشق عام قازان فمات بها .

﴿ الصدر شمس الدين ﴾

محمد بن سليمان بن حمايل بن على المقدسى المعروف بابن غانم ، وكان من أعيان الناس وأكثرهم مروءة ، ودرس بالعصرونية ، توفى وقد جاوز الثمانين ، كان من الكتاب المشهورين المشكورين ، وهو والد الصدر علاء الدين بن غانم .

﴿ الشيخ جمال الدين أبو محمد ﴾

عبد الرحيم بن عمر بن عثمان الباجريقى الشافعى ، أقام مدة بالموصل يشتغل ويفتى ، ثم قدم دمشق عام قازان فمات بها ، وكان قد أقام بها مدة كذلك ، ودرس بالقليجية والدولعية ، وناب فى الخطابة ودرس بالغزالية نيابة عن الشمس الأيكى ، وكان قليل الكلام مجموعا عن الناس ، وهو والد الشمس محمد المنسوب إلى الزندقة والانحلال ، وله أتباع ينسبون إلى ما ينسب إليه ، ويعكفون على ما كان يعكف عليه ، وقد حدث جمال الدين المذكور بجامع الأصول عن بعض أصحاب مصنفات ابن الأثير ، وله نظم ونثر حسن ، والله سبحانه أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة سبعمائة من الهجرة النبوية ﴾

استهلت والخليفة والسلطان ونواب البلاد والحكام بها هم المذكورون فى التى قبلها ، غير الشافعى والحنفى ، ولما كان ثالث المحرم جلس المستخرج لاستخلاص أجرة أربعة أشهر عن جميع أملاك الناس وأوقافهم بدمشق ، فهرب أكثر الناس من البلد ، وجرت خبطة قوية وشق ذلك على الناس جداً .

وفى مستهل صفر وردت الأخبار بقصد التتر بلاد الشام ، وأنهم عازمون على دخول مصر ، فانزعج الناس لذلك وازداد واضعفا على ضعفهم ، وطاشت عقولهم وألبابهم ، وشرع الناس فى الهرب إلى بلاد مصر والكرك والشوبك والحصون المنيعة ، فبلغت الحمارة إلى مصر خمسمائة و بيع الجمل بألف والحمار بخمسمائة ، و بيعت الأمتعة والثياب والمغلات بأرخص الأثمان ، وجلس الشيخ تقى الدين ابن تيمية فى ثانى صفر بمجلسه فى الجامع وحرض الناس على القتال ، وساق لهم الآيات والاحاديث الواردة فى ذلك ، ونهى عن الاسراع فى الفرار ، ورغب فى إنفاق الاموال فى الذب عن المسلمين و بلادهم وأموالهم ، وأن ما ينفق فى أجرة الهرب إذا أنفق فى سبيل الله كان خيراً ، وأوجب جهاد التتر حتما فى هذه الكرة ، وتابع المجالس فى ذلك ، ونودى فى البلاد لا يسافر أحد إلا بمرسوم وورقة فتوقف الناس عن السير وسكن جأشهم ، وتحدث الناس بخروج السلطان من القاهرة بالعساكر ودقت البشائر لخروجه ، لكن كان قد خرج جماعة من بيوتات دمشق كبيت ابن صصرى و بيت ابن فضل الله وابن منجا وابن سويد وابن الزملكانى وابن جماعة .

وفى أول ربيع الآخر قوى الارجاف بأمر التتر ، وجاء الخبر بأنهم قد وصلوا إلى البيرة ونودى

فى البلد أن تخرج العامة مع العسكر ، وجاء مرسوم النائب من المرج بذلك . فاستعرضوا فى أثناء الشهر فعرض نحو خمسة آلاف من العامة بالعـدة والاسلحة على قدر طاقتهم ، وقنت الخطيب ابن جماعة فى الصلوات كلها ، واتبعه أئمة المساجد . وأشاع المرجفون بأن التتر قد وصلوا إلى حلب وأن نائب حلب تقهقر إلى حماة . ونودى فى البلد بتطييب قلوب الناس و إقبالهم على معايشهم . وأن السلطان والعساكر واصلة . وأبطل ديوان المستخرج وأقيموا ، ولكن كانوا قد استخرجوا أكثر مما أمروا به و بقيت بواقى على الناس الذين قد اختفوا فعفى عما بقى ، ولم يرد ما سلف ، لاجرم أن عواقب هذه الافعال خسر ونكر ، وأن أصحابها لا يفلحون ، ثم جاءت الاخبار بأن سلطان مصر رجع عائدا إلى مصر بعد أن خرج منها قاصداً الشام . فكثر الخوف واشتد الحال . وكثرت الامطار جـداً ، وصار بالطرقات من الاوحال والسيول ما يحول بين المرء و بين ما يريده من الانتشار فى الأرض والذهاب فيها ، فانا لله و إنا إليه راجعون.

وخرج كثير من الناس خفافاً وثقالا يتحملون بأهليهـم وأولادهم . والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون . وجعلوا يحملون الصغار فى الوحل الشديد والمشقة على الدواب والرقاب . وقد ضعفت الدواب من قلة العلف مع كثرة الأمطار والزلق والبرد الشديد والجوع وقلة الشىء فلا حول ولا قوة إلا بالله.

واستهل جمادى الاولى والناس على خطة صعبة من الخوف . وتأخر السلطان واقترب العدو ، وخرج الشيخ تقى الدين بن تيمية رحمه الله تعالى فى مستهل هذا الشهر وكان يوم السبت إلى نائب الشام فى المرج فثبتهم وقوى جأشهم وطيب قلوبهم ووعدهم النصر والظفر على الأعداء . وتلا قوله تعالى (ومن عاقب بمثـل ما عوقب به ثم بغى عليـه لينصرنه الله إن الله لعفو غفور) وبات عند العسكر ليلة الاحـد ثم عاد إلى دمشق وقد سأله النائب والامراء أن يركب عـلى البريد إلى مصر يستحث السلطان على المجئ فساق وراء السلطان . وكان السلطان قد وصل إلى الساحل فلم يدركه إلا وقـد دخل القاهرة وتفارط الحال ، ولكنه استحثهم على تجهـيز العساكر إلى الشام إن كان لهم به حاجـة ، وقال لهم فيما قال : إن كنتم أعرضتم عن الشام وحمايته أقمنا له سلطاناً يحوطه و يحميه و يستغله فى زمن الأمن . ولم يزل بهم حتى جردت العساكر إلى الشام ، ثم قال لهم : لو قدر أنكم لستم حكام الشام ولا ملوكه واستنصركم أهله وجب عليكم النصر ، فكيف وأنتم حكامه وسلاطينه وهم رعايكم وأنتم مسؤلون عنهم . وقوى جأشهم وضمن لهم النصر هذه الكرة ، فخرجوا إلى الشام ، فلما تواصلت العساكر إلى الشام فرح الناس فرحا شديداً بعـد أن كانوا قد يئسوا من أنفسهم وأهليهم وأموالهم ، ثم قويت الأراجيف بوصول التتر ، وتحقق عود السلطان إلى مصر ، ونادى ابن النحاس متولى البلد فى الناس من قدر على السفر فلا يقعد بدمشق ، فتصايح النساء والولدان . ورهق الناس

ذلة عظيمة وخمدة ، وزلزلوا زلزالا شديدا . وغلقت الاسواق وتيقنوا أن لا ناصر لهم إلا الله عز وجل . وأن نائب الشام لما كان فيه قوة مع السلطان عام أول لم يقو على التقاء جيش التتر فكيف به الآن وقد عزم على الهرب ؟ ويقولون : ما بقى أهل دمشق إلا طعمة العدو ، ودخل كثير من الناس إلى البرارى والقفار والمغر بأهاليهم من الكبار والصغار ، ونودى فى الناس من كانت نيته الجهاد فليلحق بالجيش فقد اقترب وصول التتر ،ولم يبق بدمشق من أكابرها إلا القليل ، وسافر ابن جماعة والحريرى وابن صصرى وابن منجا ، وقد سبقهم بيوتهم إلى مصر ، وجاءت الاخبار بوصول التتر إلى سرقين وخرج الشيخ زين الدين الفارقى والشيخ إبراهيم الرقى وابن قوام وشرف الدين بن تيمية وابن خبارة إلى نائب السلطنة الافرم فقووا عزمه على ملاقاة العدو ، واجتمعوا بمهنا أمير العرب فحرضوه على قتال العدو فأجابهم بالسمع والطاعة ، وقويت نياتهم على ذلك . وخرج طلب سلار من دمشق إلى ناحية المرج ، واستعدوا للحرب والقتال بنيات صادقة .

ورجع الشيخ تقى الدين بن تيمية من الديار المصرية فى السابع والعشرين من جمادى الأولى على البريد ، وأقام بقلعة مصر ثمانية أيام يحثهم على الجهاد والخروج إلى العدو . وقد اجتمع بالسلطان والوزير وأعيان الدولة فأجابوه إلى الخروج ، وقد غلت الاسعار بدمشق جداً . حتى بيع خاروفان بخمسمائة درهم . واشتد الحال ، ثم جاءت الاخبار بأن ملك التتارقد خاض الفرات راجعا عامه ذلك لضعف جيشه وقلة عددهم . فطابت النفوس لذلك وسكن الناس ، وعادوا إلى منازلهم منشرحين آمنين مستبشرين . ولما جاءت الأخبار بعدم وصول التتار إلى الشام فى جمادى الآخرة تراجعت أنفس الناس إليهم وعاد نائب السلطنة إلى دمشق . وكان مخيما فى المرج من مدة أربعة أشهر متتابعة ، وهو من أعظم الرباط . وتراجع الناس إلى أوطانهم : وكان الشيخ زين الدين الفارقى قد درس بالناصرية لغيبة مدرسها كمال الدين بن الشريشى بالكرك هاربا ، ثم عاد إليها فى رمضان ، وفى أواخر الشهر درس ابن الزكى بالدولعية عوضا عن جمال الدين الزرعى لغيبته . وفى يوم الاثنين قرئت شروط الذمة على أهل الذمة وألزموا بها واتفقت الكلمة على عزلهم عن الجهات . وأخذوا بالصغار ، ونودى بذلك فى البلد وألزم النصارى بالعمائم الزرق ، واليهود بالصفر ، والسامرة بالحمر، فحصل بذلك خير كثير وتميزوا عن المسلمين . وفى عاشر رمضان جاء المرسوم بالمشاركة بين أرجواش والأمير سيف الدين أقبجا فى نيابة القلعة ، وأن يركب كل واحد منهما يوما ، ويكون الآخر بالقلعة يوما ، فامتنع أرجواش من ذلك .

وفى شوال درس بالاقبالية الشيخ شهاب الدين بن المجد عوضا عن علاء الدين القونوى بحكم إقامته بالقاهرة ، وفى يوم الجمعة الثالث عشر من ذى القعدة عزل شمس الدين بن الحريرى عن قضاء الحنفية بالقاضى جلال الدين بن حسام الدين على قاعدته وقاعدة أبيه . وذلك باتفاق من

الوزير شمس الدين سنقر الأعسر ونائب السلطان الأفرم . وفيها وصلت رسل ملك التتار إلى دمشق ، فأنزلوا بالقلعة ثم ساروا إلى مصر .

ومن توفي فيها من الأعيان : ﴿ الشيخ حسن الكردى ﴾

المقيم بالشاغور فى بستان له يأكل من غلته و يطعم من ورد عليه ، وكان يزار ، فلما احتضر اغتسل وأخذ من شعره واستقبل القبلة و ركع ركعات ، ثم توفى رحمه الله يوم الاثنين الرابع من جمادى الاولى ، وقد جاوز المائة سنة .

﴿ الطواشي صفى الدين جوهر التفليسى ﴾

المحدث ، اعتنى بسماع الحديث وتحصيل الأجزاء . وكان حسن الخلق صالحا لين الجانب رجلا حاميا زكيا ، و وقف أجزاءه التى ملكها على المحدثين

﴿ الأمير عز الدين ﴾

محمد بن أبى الهيجاء بن محمد الهيدبانى الأربلى متولى دمشق ، كان لديه فضائل كثيرة فى التواريخ والشعر و ربما جمع شيئا فى ذلك . وكان يسكن بدرب سمور فعرف به ، فيقال درب ابن أبى الهيجاء ، وهو أول منزل نزلناه حين قدمنا دمشق فى سنة ست وسبعمائة . ختم الله لى بخير فى عافية آمين . توفى ابن أبى الهيجاء فى طريق مصر وله ثمانون سنة ، وكان مشكور السيرة حسن المحاضرة .

﴿ الأمير جمال الدين آقوش الشريفى ﴾

والى الولاة بالبلاد القبلية ، توفى فى شوال وكانت له هيبة وسطوة وحرمة .

﴿ ثم دخلت سنة إحدى وسبعمائة ﴾

استهلت والحكام هم المذكورون فى التى قبلها ، والأمير سيف الدين سلار بالشام ، ونائب دمشق الأفرم ، وفى أولها عزل الامير قطلبك عن نيابة البلاد الساحلية وتولاها الأمير سيف الدين استدمر ، وعزل عن وزارة مصر شمس الدين الأعسر ، وتولى سيف الدين أقجبا المنصورى نيابة غزة ، وجعل عوضه بالقلعة الامير سيف الدين بهادر السيجرى . وهو من الرحبة . وفى صفر رجعت رسل ملك التتر من مصر إلى دمشق فتلقاهم نائب السلطنة والجيش والعامة ، وفى نصف صفر ولى تدريس النورية الشيخ صدر الدين على البصراوى الحنفى عوضاً عن الشيخ ولى الدين السمرقندى وإنما كان وليها ستة أيام ودرس بها أربعة دروس بعد بنى الصدر سليمان . توفى وكان من كبار الصالحين . يصلى كل يوم مائة ركعة ، وفى يوم الأربعاء تاسع عشر ربيع الأول جلس قاضى القضاة وخطيب الخطباء بدر الدين بن جماعة بالخانقاه الشمساطية شيخ الشيوخ بها عن طلب الصوفية له بذلك ، ورغبتهم فيه ، وذلك بعد وفاة الشيخ يوسف بن حمويه الحموى ، وفرحت الصوفية به

وجلسوا حوله ، ولم تجتمع هذه المناصب لغيره قبله ، ولا بلغنا أنها اجتمعت إلى أحد بعده إلى زماننا هذا : القضاء والخطابة ومشيخة الشيوخ . وفى يوم الاثنين الرابع والعشرين من ربيع الأول قتل الفتح أحمد بن الثقفى بالديار المصرية ، حكم فيه القاضى زين الدين بن مخلوف المالكى بما ثبت عنده من تنقيصه للشريعة واستهزائه بالآيات المحكمات ، ومعارضة المشتبهات بعضها ببعض : يذكر عنه أنه كان يحل المحرمات من اللواط والخمر وغير ذلك ، لمن كان يجتمع فيه من الفسقة من الترك وغيرهم من الجهلة ، هذا وقد كان له فضيلة وله اشتغال وهيئة جميلة فى الظاهر ، وبزته ولبسته جيدة : ولما أوقف عند شباك دار الحديث الكاملية بين القصرين استغاث بالقاضى تقى الدين بن دقيق العيد فقال : ما تعرف منى ؟ فقال: أعرف منك الفضيلة، ولكن حكمك إلى القاضى زين الدين ، فأمر القاضى للوالى أن يضرب عنقه، فضرب عنقه وطيف برأسه فى البلد، ونودى عليه هذا جزاء من طعن فى الله ورسوله.

قال البرزالى فى تاريخه : وفى وسط شهر ربيع الأول ورد كتاب من بلاد حماة من جهة قاضيها يخبر فيه أنه وقع فى هذه الأيام ببارين من عمل حماة برد كبار على صور حيوانات مختلفة شتى : سباع وحيات وعقارب وطيور ومعز ونساء : ورجال فى أوساطهم حوائص ، وأن ذلك ثبت بمحضر عند قاضى الناحية : ثم نقل ثبوته إلى قاضى حماة . وفى يوم الثلاثاء عاشر ربيع الآخر شنق الشيخ على الحورانى بواب الظاهرية على بابها ، وذلك أنه اعترف بقتل الشيخ زين الدين السمرقندى . وفى النصف منه حضر القاضى بدر الدين بن جماعة تدريس الناصرية الجوانية عوضاً عن كمال الدين ابن الشريشى ، وذلك أنه ثبت محضر أنها لقاضى الشافعية بدمشق، فانتزعها من يد ابن الشريشى. وفى يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من جمادى الاولى قدم الصدر علاء الدين بن شرف الدين بن القلانسى على أهله من التتر بعد أسر سنتين وأياماً وقد حبس مدة ثم لطف الله به وتلطف حتى تخلص منهم ورجع إلى أهله ، ففرحوا به .

وفى سادس جمادى الآخرة قدم البريد من القاهرة وأخبر بوفاة أمير المؤمنين الخليفة الحاكم بأمر الله العباسى ، وأن ولده ولى الخلافة من بعده ، وهو أبو الربيع سليمان : ولقب بالمستكفى بالله : وأنه حضر جنازته الناس كلهم مشاة ، ودفن بالقرب من الست نفيسة : وله أربعون سنة فى الخلافة ، وقدم مع البريد تقليد بالقضاء لشمس الدين الحريرى الحنفى : ونظر الدواوين لشرف الدين بن مزهر : واستمرت الخاتونية الجوانية بيد القاضى جلال الدين بن حسام الدين باذن نائب السلطنة . وفى يوم الجمعة تاسع جمادى الآخرة خطب للخليفة المستكفى بالله وترحم على والده بجامع دمشق ، وأعيدت الناصرية إلى ابن الشريشى وعزل عنها ابن جماعة ودرس بها يوم الاربعاء الرابع عشر من جمادى الآخرة . وفى شوال قدم إلى الشام جراد عظيم أكل الزرع والثمار وجرد الاشجار حتى

صارت مثل العصى ، ولم يعهد مثل هـذا ، وفى هذا الشهر عقد مجلس لليهود الخيـابرة وألزموا بأداء الجـزية أسوة أمثالهم من اليهود ، فأحضروا كتـاباً معهم يزعمون أنه من رسـول الله ﷺ بوضع الجزية عنهم ، فلما وقف عليـه الفقهاء تبينوا أنه مكذوب مفتعل لمـا فيه من الألفـاظ الركيكة ، والتواريخ المحبطة ، واللحن الفاحش ، وحاققهم عليه شيخ الاسـلام ابن تيمية ، و بين لهم خطأهم وكذبهم ، وأنه مزور مكذوب ، فأنابوا إلى أداء الجزية ، وخافوا من أن تستعاد منهم الشئون الماضية.

قلت :وقد وقفت أنا على هذا الـكتاب فرأيت فيه شهادة سعد بن معاذ عام خيبر ، وقد توفى سعد قبل ذلك بنحو من سنتين ، وفيه :وكتب على بن طالب .وهذا لحن لا يصدر عن أمير المؤمنين على ، لأن علم النحو إنما أسند إليه من طريق أبى الاسود الدؤلى عنه ، وقد جمعت فيه جزءا مفرداً، وذكرت ما جرى فيه أيام القاضى الماوردى ، وكتاب أصحابنا فى ذلك العصر ، وقد ذكره فى الحاوى وصاحب الشامل فى كتابه وغير واحد ، و بينوا خطأه ولله الحمد والمنة .

و فى هذا الشهر ثار جماعة من الحسدة عـلى الشيخ تقى الدين بن تيمية وشكوا منـه أنه يقيم الحدود ويعزر و يحلق رؤس الصبيان ، وتـكلم هو أيضا فيمن يشكو منـه ذلك ، و بين خطأهم ، ثم سكنت الأمور . وفى ذى القعدة ضربت البشائر بقلعة دمشق أياماً بسبب فتح أماكن من بـلاد سيس عنوة ، ففتحها المسلمون ولله الحمد . وفيه قـدم عز الدين بن ميسر على نظر الدواوين عوضا عن ابن مزهر . وفى يوم الثلاثاء رابع ذى الحجة حضر عبـد السيد بن المهذب ديان اليهود إلى دار العدل ومعه أولاده فأسلموا كلهم، فأكرمهم نائب السلطنة وأمر أن يركب بخلعة وخلفه الدبادب تضرب والبوقات إلى داره ، وعمـل ليلتئذ ختمة عظيمة حضرها القضاة والعلماء ، وأسلم عـلى يديه جماعة كبيرة من اليهود ، وخرجوا يوم العيد كلهم يكبرون مع المسلمين ، وأكرمهم النـاس إكراما زائداً . وقدمت رسل ملك التتار فى سابع عشر ذى الحجة فنزلوا بالقلعة وسافروا إلى القاهرة بعد ثلاثة أيام و بعد مسيرهم بيومين مات أرجواس ، و بعـد موته بيومين قدم الجيش من بلاد سيس وقـد فتحوا جانبـا منها ، فخرج نائب السلطنة والجيش لتلقيهم ، وخرج الناس للفرجة عـلى العادة ، وفرحوا بقدومهم ونصرهم .

ومن توفى فيها من الاعيان ﴿ أمير المؤمنين الخليفة الحاكم بأمر الله ﴾

أبو العباس أحمد بن المسترشد بالله الهاشمى العباسى البغدادى المصرى ، بويع بالخلافة بالدولة الظاهرية فى أول سنة إحدى وستين وستمائة ، فاستـكمل أربعين سنة فى الخلافة ، وتوفى ليلة الجمعة ثامن عشر جمادى الأولى ، وصلى عليه وقت صلاة العصر بسوق الخيل ، وحضر جنازته الأعيـان والدولة كلهم مشاة . وكان قد عهد بالخلافة إلى ولده المذكور أبى الربيع سليمان .

﴿ خلافة المستكفى بالله ﴾

«أمير المؤمنين ابن الحاكم بأمر الله العباسى»

لما عهد إليه كتب تقليده بذلك وقرىء بحضرة السلطان والدولة يوم الأحد العشرين من ذى الحجة من هذه السنة ، وخطب له على المنابر بالبلاد المصرية والشامية ، وسارت بذلك البريدية إلى جميع البلاد الاسلامية

وتوفى فيها . ﴿ الأمير عز الدين ﴾

أيبك بن عبد الله النجيبى الدويدار والى دمشق ، وأحد أمراء الطبلخانة بها ، وكان مشكور السيرة ، ولم تطل مدته ، ودفن بقاسيون ، توفى يوم الثلاثاء سادس عشر ربيع الأول .

﴿ الشيخ الامام العالم شرف الدين أبو الحسن ﴾

على بن الشيخ الامام العالم العلامة الحافظ الفقيه تقى الدين أبى عبد الله محمد بن الشيخ أبى الحسن أحمد بن عبد الله بن عيسى بن أحمد بن محمد اليونينى البعلبكى وكان أكبر من أخيه الشيخ قطب الدين بن الشيخ الفقيه ، ولد شرف الدين سنة إحدى وعشرين وستمائة فأسمعه أبوه الكثير ، واشتغل وتفقه ، وكان عابداً عاملا كثير الخشوع ، دخل عليه إنسان وهو بخزانة الكتب فجعل يضربه بعصا فى رأسه ثم بسكين فبقى متمرضا أياماً ، ثم توفى إلى رحمة الله يوم الخميس حادى عشر رمضان ببعلبك ، ودفن بباب بطحا ، وتأسف الناس عليه لعلمه وعمله وحفظه الأحاديث وتودده إلى الناس وتواضعه وحسن سمته ومروءته تغمده الله برحمته .

﴿ الصدر ضياء الدين ﴾

أحمد بن الحسين بن شيخ السلامية ، والد القاضى قطب الدين موسى الذى تولى فيما بعد نظر الجيش بالشام وبمصر أيضا ، توفى يوم الثلاثاء عشرين ذى القعدة ودفن بقاسيون ، وعمل عزاؤه بالرواحية

﴿ الامير الكبير المرابط المجاهد ﴾

علم الدين أرجواش بن عبد الله المنصورى ، نائب القلعة بالشام ، كان ذا هيبة وهمة وشهامة وقصد صالح ، قدر الله على يديه حفظ معقل المسلمين لما ملكت التتار الشام أيام قازان ، وعصت عليهم القلعة ومنعها الله منهم على يدى هذا الرجل ، فانه التزم أن لا يسلمها إليهم مادام بها عين تطرف واقتدت بها بقية القلاع الشامية ، وكانت وفاته بالقلعة ليلة السبت الثانى والعشرين من ذى الحجة وأخرج منها ضحوة يوم السبت فصلى عليه وحضر نائب السلطنة فمن دونه جنازته ، ثم حمل إلى سفح قاسيون ودفن بتربته رحمه الله .

﴿ الأبرقوهى المسند المعمر المصرى ﴾

هو الشيخ الجليل المسند الرحلة ، بقية السلف شهاب الدين أبوالمعالى أحمد بن إسحاق بن محمد ابن المؤيد بن على بن إسماعيل بن أبى طالب ، الأبرقوهى الهمدانى ثم المصرى ، ولد بأبرقوه من بلاد شيراز فى رجب أو شعبان سنة خمس عشرة وستمائة ، وسمع الكثير من الحديث على المشايخ الكثيرين ، وخرجت له مشيخات ، وكان شيخاحسنا لطيفا مطيقا ، توفى بمكة بعد خروج الحجيج بأربعة أيام رحمه الله . وفيها توفى :

﴿ صاحب مكة ﴾

الشريف أبو نمى محمد بن الأمير أبى سعد حسن بن على بن قتادة الحسنى صاحب مكة منذ أربعين سنة ، وكان حليما وقورا ذا رأى وسياسة وعقل ومروءة. وفيها ولد كاتبه إسماعيل بن عمر بن كثير القرشى المصرى الشافعى عفا الله عنه، والله سبحانه أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة اثنتين وسبعمائة من الهجرة ﴾

استهلت والحكام هم المذكورون فى التى قبلها ، وفى يوم الأربعاء ثانى صفر فتحت جزيرة أرواد بالقرب من أنطرسوس ، وكانت من أضر الأماكن على أهل السواحل ، فجاءتها المراكب من الديار المصرية فى البحر وأردفها جيوش طرابلس ، ففتحت ولله الحمد نصف النهار ، وقتلوا من أهلها قريبا من ألفين ، وأسروا قريباً من خمسمائة ، وكان فتحها من تمام فتح السواحل ، وأراح الله المسلمين من شر أهلها . وفى يوم الخميس السابع عشر من شهر صفر وصل البريد إلى دمشق فأخبر بوفاة قاضى القضاة ابن دقيق العيد ، ومعه كتاب من السلطان إلى قاضى القضاة ابن جماعة ، فيه تعظيم له واحترام وإكرام يستدعيه إلى قربه ليباشر وظيفة القضاء بمصر على عادته فتهيأ لذلك ، ولما خرج خرج معه نائب السلطنة الأفرم وأهل الحل والعقد ، وأعيان الناس ليودعوه ، وستأتى ترجمة ابن دقيق العيد فى الوفيات ، ولما وصل ابن جماعة إلى مصر أكرمه السلطان إكراما زائدا ، وخلع عليه خلعة صوف وبغلة تساوى ثلاثة آلاف درهم ، وباشر الحكم بمصر يوم السبت رابع ربيع الأول ، ووصلت رسل التتار فى أواخر ربيع الأول قاصدين بلاد مصر ، وباشر شرف الدين الفزارى مشيخة دار الحديث الظاهرية يوم الخميس ثامن ربيع الآخر عوضا عن شرف الدين الناسخ ، وهو أبو حفص عمر بن محمد بن عمر بن حسن بن خواجا إمام الفارسى ، توفى بها عن سبعين سنة ، وكان فيه بر ومعروف وأخلاق حسنة ، رحمه الله .

وذكر الشيخ شرف الدين المذكور درسا مفيداً وحضر عنده جماعة من الأعيان ، وفى يوم الجمعة حادى عشر جمادى الأولى خلع على قاضى القضاة نجم الدين بن صصرى بقضاء الشام عوضاً عن

ابن جماعة ، وعلى الفارقى بالخطابة ، وعلى الأمير ركن الدين بيبرس العلاوى بشد الدواوين وهنأهم الناس ، وحضر نائب السلطنة والأعيان المقصورة لسماع الخطبة ، وقرئ تقليد ابن صصرى بعد الصلاة ثم جلس فى الشباك الكمالى وقرئ تقليده مرة ثانية ، وفى جمادى الاولى وقع بيد نائب السلطنة كتاب مزور فيه أن الشيخ تقى الدين بن تيمية والقاضى شمس الدين بن الحريرى وجماعة من الأمراء والخواص الذين بباب السلطنة يناصحون التتر ويكاتبوهم ، ويريدون تولية قبجق على الشام وأن الشيخ كمال الدين بن الزملكانى يعلمهم بأحوال الأمير جمال الدين الأفرم ، وكذلك كمال الدين بن العطار ، فلما وقف عليه نائب السلطنة عرف أن هذا مفتعل ، ففحص عن واضعه فاذا هو فقير كان مجاوراً بالبيت الذى كان مجاور محراب الصحابة ، يقال له اليعفورى ، وآخر معه يقال له أحمد الغنارى ، وكانا معروفين بالشر والفضول ، ووجد معهما مسودة هذا الكتاب ، فتحقق نائب السلطنة ذلك فعزرا تعزيرا عنيفا ، ثم وسطا بعد ذلك وقطعت يد الكاتب الذى كتب لهما هذا الكتاب ، وهو التاج المناديلى . وفى أواخر جمادى الأولى انتقل الأمير سيف الدين بلبان الجوكندار المنصورى إلى نيابة القلعة عوضا عن أرجواش .

﴿ عجيبة من عجائب البحر ﴾

قال الشيخ علم الدين البرزالى فى تاريخه : قرأت فى بعض الكتب الواردة من القاهرة أنه لما كان بتاريخ يوم الخميس رابع جمادى الآخرة ظهرت دابة من البحر عجيبة الخلقة من بحر النيل إلى أرض المنوفية ، بين بلاد منية مسعود واصطبارى والراهب ، وهذه صفتها : لونها لون الجاموس بلا شعر ، وآذانها كآذان الجمل ، وعيناها وفرجها مثل الناقة ، يغطى فرجها ذنب طوله شبر ونصف كذنب السمكة ، ورقبتها مثل غلظ التنين المحشو تبناً ، وفمها وشفتاها مثل الكربال ، ولها أربعة أنياب اثنان من فوق واثنان من أسفل ، طول كل واحد دون الشبر فى عرض أصبعين ، وفى فمها ثمان وأربعون ضرساً وسن مثل بيادق الشطرنج ، وطول يديها من باطنها إلى الأرض شبران ونصف ومن ركبتها إلى حافرها مثل بطن الثعبان ، أصفر مجعد ، ودور حافرها مثل السكرجة بأربعة أظافير مثل أظافير الجمل ، وعرض ظهرها مقدار ذراعين ونصف ، وطولها من فمها إلى ذنبها خمسة عشر قدما وفى بطنها ثلاثة كروش ، ولحمها أحمر وزفر مثل السمك ، وطعمه كلحم الجمل ، وغلظه أربعة أصابع ما تعمل فيه السيوف ، وحمل جلدها على خمسة جمال فى مقدار ساعة من ثقله على جمل بعد جمل وأحضروه إلى بين يدى السلطان بالقلعة وحشوه تبناً وأقاموه بين يديه والله أعلم .

وفى شهر رجب قويت الأخبار بعزم التتار على دخول بلاد الشام ، فانزعج الناس لذلك واشتد خوفهم جدا ، وقنت الخطيب فى الصلوات وقرىء البخارى ، وشرع الناس فى الجفل إلى الديار المصرية

والكرك والحصون المنيعة ، وتأخر مجىء العساكر المصرية عن إبانها فاشتد لذلك الخوف . وفى شهر رجب باشر نجم الدين بن أبى الطيب نظر الخزانة عوضاً عن أمين الدين سليمان ، وفى يوم السبت ثالث شعبان باشر مشيخة الشيوخ بعد ابن جماعة القاضى ناصر الدين عبد السلام ، وكان جمال الدين الزرعى يسد الوظيفة إلى هذا التاريخ . وفى يوم السبت عاشر شعبان ضربت البشائر بالقلعة وعلى أبواب الأمراء بخروج السلطان بالعساكر من مصر لمناجزة التتار المخذولين ، وفى هذا اليوم بعينه كانت وقعة غرض وذلك أنه التقى جماعة من أمراء الاسلام فيهم استدمر و بهادرأخى وكجكن وغرلو العادلى ، وكل منهم سيف من سيوف الدين فى ألف وخمسمائة فارس ، وكان التتار فى سبعة آلاف فاقتتلوا وصبر المسلمون صبرا جيداً ، فنصرهم الله وخذل التتر ، فقتلوا منهم خلقا وأسروا آخرين ، وولوا عند ذلك مدبرين ، وغنم المسلمون منهم غنائم ، وعادوا سالمين لم يفقد منهم إلا القليل ممن أكرمه الله بالشهادة ، ووقعت البطاقة بذلك ، ثم قدمت الأسارى يوم الخميس نصف شعبان ، وكان يوم خميس النصارى

﴿ أوائل وقعة شقحب ﴾

وفى ثامن عشر قدمت طائفة كبيرة من جيش المصريين فيهم الامير ركن الدين بيبرس الجاشنكير ، والامير حسام الدين لاجين المعروف بالاستادار المنصورى ، والامير سيف الدين كراى المنصورى ، ثم قدمت بعدهم طائفة أخرى فيهم بدر الدين أمير سلاح وأيبك الخزندار فقويت القلوب واطمأن كثير من الناس ، ولكن الناس فى جفل عظيم من بلاد حلب وحماة وحمص وتلك النواحى وتقهقر الجيش الحلبى والحموى إلى حمص ، ثم خافوا أن يدهمهم التتر فجاؤا فنزلوا المرج يوم الاحد خامس شعبان ، ووصل التتار إلى حمص و بعلبك وعاثوا فى تلك الاراضى فسادا ، وقلق الناس قلقا عظيما ، وخافوا خوفا شديداً ، واختبط البلد لتأخر قدوم السلطان ببقية الجيش ، وقال الناس لاطاقة لجيش الشام مع هؤلاء المصريين بلقاء التتار لكثرتهم ، وإنما سبيلهم أن يتأخروا عنهم مرحلة مرحلة . وتحدث الناس بالاراجيف فاجتمع الامراء يوم الاحد المذكور بالميدان وتحالفوا على لقاء العدو ، وشجعوا أنفسهم ، ونودى بالبلد أن لا يرحل أحد منه ، فسكن الناس وجلس القضاة بالجامع وحلفوا جماعة من الفقهاء والعامة على القتال ، وتوجه الشيخ تقى الدين بن تيمية إلى العسكر الواصل من حماة فاجتمع بهم فى القطيعة فأعلمهم بما تحالف عليه الامراء والناس من لقاء العدو ، فأجابوا إلى ذلك وحلفوا معهم ، وكان الشيخ تقى الدين بن تيمية يحلف للامراء والناس إنكم فى هذه الكرة منصورون ، فيقول له الامراء : قل إن شاء الله ، فيقول إن شاء الله تحقيقا لا تعليقا . وكان يتأول فى ذلك أشياء من كتاب الله منها قوله تعالى . (ومن بغى عليه لينصرنه الله)

وقد تكلم الناس فى كيفية قتال هؤلاء التتر من أى قبيل هو ، فانهم يظهرون الاسلام وليسوا

بغاة على الامام، فانهم لم يكونوا فى طاعته فى وقت ثم خالفوه. فقال الشيخ تقى الدين : هؤلاء من جنس الخوارج الذين خرجوا على على ومعاوية ، ورأوا أنهم أحق بالامر منهما ، وهؤلاء يزعمون أنهم أحق باقامة الحق من المسلمين ، ويعيبون على المسلمين ما هم متلبسون به من المعاصى والظلم ، وهم متلبسون بما هو أعظم منه بأضعاف مضاعفة ، فتفطن العلماء والناس لذلك ، وكان يقول للناس : إذا رأيتمونى من ذلك الجانب وعلى رأسى مصحف فاقتلونى ، فتشجع الناس فى قتال التتار وقويت قلوبهم ونياتهم ولله الحمد.

ولما كان يوم الرابع والعشرين من شعبان خرجت العساكر الشامية فخيمت على الجسورة من ناحية الكسوة ، ومعهم القضاة ، فصار الناس فيهم فريقين فريق يقولون إنما ساروا ليختاروا موضعاً للقتال فان المرج فيه مياه كثيرة فلا يستطيعون معها القتال ، وقال فريق : إنما ساروا لتلك الجهة ليهربوا وليلحقوا بالسلطان . فلما كانت ليلة الخميس ساروا إلى ناحية الكسوة فقويت ظنون الناس فى هربهم ، وقد وصلت التتار إلى قارة ، وقيل إنهم وصلوا إلى القطيعة ، فانزعج الناس لذلك شديداً ولم يبق حول القرى والحواضر أحد ، وامتلأت القلعة والبلد وازدحمت المنازل والطرقات ، واضطرب الناس وخرج الشيخ تقى الدين بن تيمية صبيحة يوم الخميس من الشهر المذكور من باب النصر بمشقة كبيرة ، وصحبته جماعة ليشهد القتال بنفسه ومن معه ، فظنوا أنه إنما خرج هاربا فحصل اللوم من بعض الناس وقالوا أنت منعتنا من الجفل وها أنت هارب من البلد ، فلم يرد عليهم وبقى البلد ليس فيه حاكم ، وجاس اللصوص والحرافيش فيه وفى بساتين الناس يخربون وينتهبون ما قدروا عليه ، ويقطعون المشمش قبل أوانه والباقلاء والقمح وسائر الخضراوات ، وحيل بين الناس وبين خبر الجيش ، وانقطعت الطرق إلى الكسوة وظهرت الوحشة على البلد والحواضر ، وليس للناس شغل غير الصعود إلى المآذن ينظرون يمينا وشمالا ، وإلى ناحية الكسوة فتارة يقولون : رأينا غبرة فيخافون أن تكون من التتر ، ويتعجبون من الجيش مع كثرتهم وجودة عدتهم وعددهم ، أين ذهبوا؟ فلا يدرون ما فعل الله بهم ، فانقطعت الآمال وألح الناس فى الدعاء والابتهال وفى الصلوات وفى كل حال ، وذلك يوم الخميس التاسع والعشرين من شعبان ، وكان الناس فى خوف ورعب لا يعبر عنه ، لكن كان الفرج من ذلك قريبا ، ولكن أكثرهم لا يفلحون ، كما جاء فى حديث أبى رزين « عجب ربك من قنوط عباده وقرب غيره ينظر إليكم أزلين قنطين فيظل يضحك يعلم أن فرجكم قريب [1] » .

فلما كان آخر هذا اليوم وصل الأمير فخر الدين إياس المرقبى أحد أمراء دمشق ، فبشر الناس بخير ، هو أن السلطان قد وصل وقت اجتمعت العساكر المصرية والشامية، وقد أرسلنى أكشف هل طرق

(١) فى سنن ابن ماجه فى كتاب السنة « ضحك ربنا الخ » والأزل : شدة القنوط .

البلد أحد من التتر ، فوجد الأمر كما يحب لم يطرقها أحد منهم . وذلك أن التتار عرجوا من دمشق إلى ناحية العساكر المصرية . ولم يشتغلوا بالبلد . وقد قالوا إن غلبنا فان البلد لنا ، وإن غلبنا فلا حاجة لنا به . ونودى بالبلد فى تطييب الخواطر ، وأن السلطان قد وصل . فاطمأن الناس وسكنت قلوبهم ، وأثبت الشهر ليلة الجمعة القاضى تقى الدين الحنبلى . فان السماء كانت مغيمة فعلقت القناديل وصليت التراويح واستبشر الناس بشهر رمضان وبركته ، وأصبح الناس يوم الجمعة فى هم شديد وخوف أكيد ، لأنهم لا يعلمون ما خبر الناس . فبينما هم كذلك إذ جاء الأمير سيف الدين غرلو العادلى فاجتمع بنائب القلعة ثم عاد سريعا إلى العسكر ، ولم يدر أحد ما أخبر به ، ووقع الناس فى الاراجيف والخوض

﴿ صفة وقعة شقحب ﴾

أصبح الناس يوم السبت على ما كانوا عليه من الخوف وضيق الأمر ، فرأوا من المآذن سواداً وغبرة من ناحية العسكر والعدو ، فغلب على الظنون أن الوقعة فى هذا اليوم . فابتهلوا إلى الله عز وجل بالدعاء فى المساجد والبلد ، وطلع النساء والصغار على الأسطحة وكشفوا رءوسهم وضج البلد ضجة عظيمة . ووقع فى ذلك الوقت مطر عظيم غزير ، ثم سكن الناس . فلما كان بعد الظهر قرئت بطاقة بالجامع تتضمن أن فى الساعة الثانية من نهار السبت هذا اجتمعت الجيوش الشامية والمصرية مع السلطان فى مرج الصفر ، وفيها طلب الدعاء من الناس والأمر بحفظ القلعة . والتحرز على الأسوار فدعا الناس فى المآذن والبلد . وانقضى النهار وكان يوما مزعجا هائلا ، وأصبح الناس يوم الأحد يتحدثون بكسر التتر . وخرج الناس إلى ناحية الكسوة فرجعوا ومعهم شئ من المكاسب ، ومعهم رؤس من رؤس التتر ، وصارت كسرة التتار تقوى وتتزايد قليلا قليلا حتى اتضحت جملة ، ولكن الناس لما عندهم من شدة الخوف وكثرة التتر لا يصدقون . فلما كان بعد الظهر قرئ كتاب السلطان إلى متولى القلعة يخبر فيه باجتماع الجيش ظهر يوم السبت بشقحب وبالكسوة . ثم جاءت بطاقة بعد العصر من نائب السلطان جمال الدين آقوش الأفرم إلى نائب القلعة مضمونها أن الوقعة كانت من العصر يوم السبت إلى الساعة الثانية من يوم الأحد . وأن السيف كان يعمل فى رقاب التتر ليلا ونهاراً وأنهم هربوا وفروا واعتصموا بالجبال والتلال . وأنه لم يسلم منهم إلا القليل ، فأمسى الناس وقد استقرت خواطرهم وتباشروا لهذا الفتح العظيم والنصر المبارك ، ودقت البشائر بالقلعة من أول النهار المذكور ، ونودى بعد الظهر باخراج الجفال من القلعة لأجل نزول السلطان بها ، وشرعوا فى الخروج.

وفى يوم الاثنين رابع الشهر رجع الناس من الكسوة إلى دمشق فبشروا الناس بالنصر . وفيه دخل الشيخ تقى الدين بن تيمية البلد ومعه أصحابه من الجهاد ، ففرح الناس به ودعوا له وهنؤه بما يسر الله على يديه من الخير ، وذلك أنه ندبه العسكر الشامى أن يسير إلى السلطان يستحثه على

السير إلى دمشق فسار إليه نحثه على المجىء إلى دمشق بعد أن كاد يرجع إلى مصر ، فجاء هو وإياه جميعا فسأله السلطان أن يقف معه فى معركة القتال ، فقال له الشيخ : السنة أن يقف الرجل تحت راية قومه ، ونحن من جيش الشام لا نقف إلا معهم ، وحرض السلطان على القتال وبشره بالنصر وجعل يحلف بالله الذى لا إله إلا هو إنكم منصورون عليهم فى هذه المرة ، فيقول له الأمراء : قل إن شاء الله ، فيقول إن شاء الله تحقيقا لا تعليقا . وأفتى الناس بالفطر مدة قتالهم وأفطر هو أيضاً ، وكان يدور على الأجناد والأمراء فيأكل من شىء معه فى يده ليعلمهم أن إفطارهم ليتقووا على القتال أفضل فيأكل الناس ، وكان يتأول فى الشاميين قوله ﷺ « إنكم ملاقوا العدو غدا ، والفطر أقوى لكم » فعزم عليهم فى الفطر عام الفتح كما فى حديث أبى سعيد الخدرى . وكان الخليفة أبو الربيع سليمان فى صحبة السلطان ، ولما اصطفت العساكر والتحم القتال ثبت السلطان ثباتاً عظيما ، وأمر بجواده فقيد حتى لا يهرب ، وبايع الله تعالى فى ذلك الموقف ، وجرت خطوب عظيمة ، وقتل جماعة من سادات الامراء يومئذ ، منهم الأمير حسام الدين لاجين الرومى أستاذ دار السلطان ، وثمانية من الأمراء المقدمين معه ، وصلاح الدين بن الملك السعيد الكامل بن السعيد بن الصالح إسماعيل ، وخلق من كبار الأمراء ، ثم نزل النصر على المسلمين قريب العصر يومئذ ، واستظهر المسلمون عليهم ولله الحمد والمنة.

فلما جاء الليل لجأ التتر إلى اقتحام التلول والجبال والآكام ، فأحاط بهم المسلمون يحرسونهم من الهرب ، ويرمونهم عن قوس واحدة إلى وقت الفجر ، فقتلوا منهم مالا يعلم عدده إلا الله عز وجل ، وجعلوا يجيئون بهم فى الحبال فتضرب أعناقهم ، ثم اقتحم منهم جماعة الهزيمة فنجا منهم قليل ، ثم كانوا يتساقطون فى الأودية والمهالك ، ثم بعد ذلك غرق منهم جماعة فى الفرات بسبب الظلام ، وكشف الله بذلك عن المسلمين غمة عظيمة شديدة ، ولله الحمد والمنة .

ودخل السلطان إلى دمشق يوم الثلاثاء خامس رمضان وبين يديه الخليفة ، وزينت البلد ، وفرح كل واحد من أهل الجمعة والسبت والأحد[1] ، فنزل السلطان فى القصر الأبلق والميدان ، ثم تحول إلى القلعة يوم الخميس وصلى بها الجمعة وخلع على نواب البلاد وأمرهم بالرجوع إلى بلادهم ، واستقرت الخواطر ، وذهب اليأس وطابت قلوب الناس ، وعزل السلطان ابن النحاس عن ولاية المدينة وجعل مكانه الامير علاء الدين أيدغدى أمير علم ، وعزل صارم الدين إبراهيم والى الخاص عن ولاية البر وجعل مكانه الامير حسام الدين لاجين الصغير ، ثم عاد السلطان إلى الديار المصرية يوم الثلاثاء ثالث شوال بعد أن صام رمضان وعيد بدمشق .

وطلب الصوفية من نائب دمشق الأفرم أن يولى عليهم مشيخة الشيوخ للشيخ صفى الدين

(١) يعنى من المسلمين واليهود والنصارى .

الهندى ، فأذن له فى المباشرة يوم الجمعة سادس شوال عوضاً عن ناصر الدين بن عبد السلام ، ودخل السلطان القاهرة يوم الثلاثاء ثالث عشرين شوال ، وكان يوماً مشهوداً ، وزينت القاهرة .

وفيها جاءت زلزلة عظيمة يوم الخميس بكرة الثالث والعشرين من ذى الحجة من هذه السنة ، وكان جمهورها بالديار المصرية ، تلاطمت بسببها البحار فكسرت المراكب وتهدمت الدور ومات خلق كثير لا يعلمهم إلا الله ، وشققت الحيطان ولم ير مثلها فى هذه الأعصار ، وكان منها بالشام طائفة لكن كان ذلك أخف من سائر البلاد غيرها .

وفى ذى الحجة باشر الشيخ أبو الوليد بن الحاج الأشبيلى المالكى إمام محراب المالكية بجامع دمشق بعد وفاة الشيخ شمس الدين محمد الصنهاجى .

وممن توفى فيها من الأعيان ﴿ ابن دقيق العيد ﴾

الشيخ الامام العالم العلامة الحافظ قاضى القضاة تقى الدين ابن دقيق العيد القشيرى المصرى ، ولد يوم السبت الخامس والعشرين من شعبان سنة خمس وعشرين وستمائة بساحل مدينة ينبع من أرض الحجاز ، سمع الكثير و رحل فى طلب الحديث وخرج وصنف فيه إسناداً ومتنا مصنفات عديدة ، فريدة مفيدة ، وانتهت إليه رياسة العلم فى زمانه ، وفاق أقرانه و رحل إليه الطلبة ودرس فى أماكن كثيرة ، ثم ولى قضاء الديار المصرية فى سنة خمس وتسعين وستمائة ، ومشيخة دار الحديث الكاملية ، وقد اجتمع به الشيخ تقى الدين بن تيمية ، فقال له تقى الدين بن دقيق العيد لما رأى تلك العلوم منه : ما أظن بقى يخلق مثلك ، وكان وقوراً قليل الكلام غزير الفوائد كثير العلوم فى ديانة ونزاهة ، وله شعر رائق ، توفى يوم الجمعة حادى عشر شهر صفر ، وصلى عليه يوم الجمعة المذكور بسوق الخيل وحضر جنازته نائب السلطنة والأمراء ، ودفن بالقرافة الصغرى رحمه الله .

﴿ الشيخ برهان الدين الاسكندرى ﴾

إبراهيم بن فلاح بن محمد بن حاتم ، سمع الحديث وكان دينا فاضلا ، ولد سنة ست وثلاثين وستمائة ، وتوفى يوم الثلاثاء رابع وعشرين شوال عن خمس وستين سنة . وبعد شهور بسواء كانت وفاة

﴿ الصدر جمال الدين بن العطار ﴾

كاتب الدرج منذ أربعين سنة . أبو العباس أحمد بن أبى الفتح .

محمود بن أبى الوحش أسد بن سلامة بن فتيان الشيبانى ، كان من خيار الناس وأحسنهم تقية ، ودفن بتربة لهم تحت الكهف بسفح قاسيون ، وتأسف الناس عليه لاحسانه إليهم رحمه الله .

﴿ الملك العادل زين الدين كتبغا ﴾

توفى بحماة نائبا عليها بعد صرخد يوم الجمعة يوم عيد الاضحى ونقل إلى تربته بسفح قاسيون

غربى الرباط الناصرى ، يقال لها العادلية ، وهى تربة مليحة ذات شبابيك وبوابة ومأذنة ، وله عليها أوقاف دارة على وظائف من قراءة وأذان وإمامة وغير ذلك ، وكان من كبار الامراء المنصورية ، وقد ملك البلاد بعد مقتل الاشرف خليل بن المنصور ، ثم انتزع الملك منه لاجين وجلس فى قلعة دمشق . ثم تحول إلى صرخد وكان بها إلى أن قتل لاجين وأخذ الملك الناصر بن قلاوون . فاستنابه بحماة حتى كانت وفاته كما ذكرنا ، وكان من خيار الملوك وأعدلهم وأكثرهم براً ، وكان من خيار الامراء والنواب رحمه الله .

﴿ ثم دخلت سنة ثلاث وسبعمائة ﴾

استهلت والحكام هم المذكورون فى التى قبلها . وفى صفر تولى الشيخ كمال الدين بن الشريشى نظارة الجامع الأموى وخلع عليه وباشره مباشرة مشكورة ، وساوى بين الناس وعزل نفسه فى رجب منهـا . وفى شهر صفر تولى الشيخ شمس الدين الذهبى خطابة كفر بطنا وأقام بها . ولما توفى الشيخ زين الدين الفـارقى فى هذه السنة كان نائب السلطنة فى نواحى البلقاء يكشف بعض الامور ، فلما قدم تـكلموا معـه فى وظائف الفارقى فعين الخطابة لشرف الدين الفزارى ، وعين الشاميـة البرانية ودار الحديث للشيخ كمال الدين بن الشريشى . وذلك باشارة الشيخ تقى الدين بن تيمية . وأخذ منـه الناصرية للشيخ كمال الدين بن الزملـكانى ورسم بكتابة التواقيع بذلك ، وباشر الشيخ شرف الدين الامامة والخطابة ، وفرح الناس به لحسن قراءته وطيب صوته وجودة سيرته . فلما كان بكرة يوم الاثنين ثانى عشرين ربيع الأول وصل البريد من مصر صحبـة الشيـخ صـدر الدين بن الوكيل ، وقد سبقه مرسوم السلطان له بجميع جهات الفارقى مضافا إلى مابيده من التدريس . فاجتمع بنائب السلطنة بالقصر ، وخرج من عنده إلى الجـامع ففتح له باب دار الخطابة فنزلها وجاءه الناس يهنؤ نه . وحضر عنـده القراء والمؤذنون ، وصـلى بالناس العصر وباشر الامامة يومين فأظهر الناس التألم من صلاته وخطابته ، وسعوا فيـه إلى نائب السلطنة فمنعه من الخطابة وأقره عـلى التداريس ودار الحديث ، وجاء توقيع سلطانى للشيخ شرف الدين الفزارى بالخطابة ، فخطب يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأولى . وخلع عليه بطرحة ، وفرح الناس به . وأخذ الشيخ كمال الدين بن الزملـكانى تدريس الشامية البرانيـة من يد ابن الوكيل . وباشرها فى مستهل جمادى الأولى واستقرت دار الحديث بيد ابن الوكيل مع مدرستيه الأوليتين ، وأظنهما العذراوية والشامية الجوانية .

ووصل البريد فى ثانى عشر جمـادى الأولى باعادة السنجرى إلى نيابة القلعة وتولية نائبهـا الأمير سيف الدين الجوكندرانى نيابة حمص عوضاً عن عز الدين الحموى . توفى . وفى يوم السبت ثانى عشر رمضان قدمت ثلاثة آلاف فارس من مصر وأضيف إليها ألفان من دمشق وساروا وأخذوا

معهم نائب حمص الجو كندرانى ووصلوا إلى حماة فصحبهم نائبها الأمير سيف الدين قبجق ، وجاء إليهم استدمر نائب طرابلس ، وانضاف إليهم قراسنقر نائب حلب وانفصلوا كلهم عنها وافترقوا فرقتين فرقة سارت صحبة فيجق إلى ناحية ملطية ، وقلعة الروم ، والفرقة الأخرى صحبة قراسنقر حتى دخلوا الدربندات وحاصر واتل حمدون فتسلموه عنوة فى ثالث ذى القعدة بعد حصار طويل ، فدقت البشائر بدمشق لذلك ، ووقع مع صاحب سيس على أن يكون للمسلمين من نهر جيهان إلى حلب و بلاد ماوراء النهر إلى ناحيتهم لهم ، وأن يعجلوا حمل سنتين ، ووقعت الهدنة على ذلك ، وذلك بعد أن قتل خلق من أمراء الارمن ورؤسائهم ، وعادت العساكر إلى دمشق مؤيدين منصورين ، ثم توجهت العساكر المصرية صحبة مقدمهم أمير سلاح إلى مصر .

وفى أواخر السنة كان موت قازان وتولية أخيه خربندا . وهوملك التتار قازان واسمه محمود بن أرغون بن أبغا ، وذلك فى رابع عشر شوال أو حادى عشره أو ثالث عشره ، بالقرب من همدان ونقل إلى تربته بتبريز بمكان يسمى الشام ، ويقال إنه مات مسموماً ، وقام فى الملك بعده أخوه خربندا محمد بن أرغون ، ولقبوه الملك غياث الدين ، وخطب له على منابر العراق وخراسان وتلك البلاد .

وحج فى هذه السنة الأمير سيف الدين سلار نائب مصر وفى صحبته أربعون أميراً ، وجميع أولاد الأمراء ،وحج معهم وزير مصر الأمير عز الدين البغدادى ، وتولى مكانه بالبركة ناصر الدين محمد الشيخى ، وخرج سلار فى أبهة عظيمة جداً ، وأمير ركب المصريين الحاج إياق الحسامى ، وترك الشيخ صفى الدين مشيخة الشيوخ فوليها القاضى عبد الكريم بن قاضى القضاة محيى الدين ابن الزكى، وحضر الخانقاه يوم الجمعة الحادى عشر من ذى القعدةوحضر عنده ابن صصرى وعز الدين القلانسى ، والصاحب ابن ميسر ، والمحتسب وجماعة .

وفى ذى القعدة وصل من التتر مقدم كبير قد هرب منهم إلى بلاد الاسلاموهو الأمير بدرالدين جنكى بن البابا ، وفى صحبته نحو من عشرة ، فحضروا الجمعة فى الجامع ، وتوجهوا إلى مصر ، فأكرم وأعطى إمرة ألف ، وكان مقامه ببلاد آمد ، وكان يناصح السلطان ويكاتبه ويطلعه على عورات التتر ، فلهذا عظم شأنه فى الدولة الناصرية .

وممن توفى فيها من الأعيان ملك التتر قازان .

﴿ والشيخ القدوة العابد الزاهد الورع ﴾

أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن محمد بن معالى بن محمد بن عبد الكريم الرقى الحنبلى ، كان أصله من بلاد الشرق ، ومولده بالرقة فى سنة سبع وأربعين وستمائة ، واشتغل وحصل وسمع شيئاًمن

الحديث ، وقـدم دمشق فسكن بالمـأذنة الشرقية فى أسفلها بأهله إلى جانب الطهارة بالجامع ، وكان معظماً عند الخاص والعام، فصيح العبارة كثير العبادة ، خشن العيش حسن المجالسة لطيف الكلام كثير التلاوة ، قوى التوجه من أفراد العالم، عارفا بالتفسير والحديث والفقه والأصلين ، وله مصنفات وخطب، وله شعر حسن ، توفى بمنزله ليلة الجمعة خامس عشر المحرم وصلى عليه عقيب الجمعة ونقل إلى تربة الشيخ أبى عمر بالسفح ، وكانت جنازته حافلة رحمه الله وأكرم مثواه .

وفى هذا الشهر توفى الأمير زين الدين قراجا أستاذ دار الأفرم ودفن بتربته بميدان الحصا عند النهر .

﴿ والشيخ شمس الدين محمد بن إبراهيم بن عبد السلام ﴾

عرف بابن الحبلى ، كان من خيار الناس يتردد إلى عكا أياما حين ما كانت فى أيدى الفرنج ، فى فكاك أسارى المسلمين ، جزاه الله خيراً وعتقه من النار وأدخله الجنة برحمته .

﴿ الخطيب ضياء الدين ﴾

أبو محمد عبد الرحمن بن الخطيب جمال الدين أبى الفرج عبد الوهاب بن عـلى بن أحمد بن عقيل السلمى خطيب بعلبك نحواً من ستين سنة ، هو ووالده ، ولد سنة أربع عشرة وستمائة وسمع الكثير وتفرد عن القزوينى ، وكان رجلا جيداً حسن القراءة من كبار العدول ، توفى ليلة الاثنين ثالث صفر ، ودفن بباب سطحا

﴿ الشيخ زين الدين الفارقى ﴾

عبد الله بن مروان بن عبدالله بن فهر[1] بن الحسن ، أبو محمد الفارقى شيخ الشافعية ، ولد سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ، وسمع الحديث الكثير ، واشتغل ودرس بعدة مدارس ، وأفتى مدة طويلة ، وكانت له همة وشهامة وصرامة ، وكان يباشر الأوقاف جيداً ، وهو الذى عمر دار الحديث بعد خرابها بيد قازان ، وقد باشرها سبعا وعشرين سنة من بعد النواوى إلى حين وفاته ، وكانت معه الشامية البرانية وخطابة الجامع الأموى تسعة أشهر ، باشر به الخطابة قبل وفاته، وقد انتقل إلى دار الخطابة وتوفى بها يوم الجمعة بعد العصر ، وصلى عليه ضحوة السبت ، صلى عليه ابن صصرى عند باب الخطابة وبسوق الخيل قاضى الحنفية شمس الدين بن الحريرى ، وعند جامع الصالحية قاضى الحنابلة تقى الدين سليمان ، ودفن بتربة أهـله شمالى تربة الشيخ أبى عمر رحمه الله ، وباشر بعده الخطابة شرف الدين الفزارى ومشيخة دار الحديث ابن الوكيل ، والشامية البرانية ابن الزملكانى وقد تقدم ذلك .

﴿ الأمير الكبير عز الدين أيبك الحموى ﴾

ناب بدمشق مدة ثم عزل عنها إلى صرخد ، ثم نقل قبـل موته بشهر إلى نيابة حمص ، وتوفى بها يوم العشرين من ربيع الآخر ، ونقـل إلى تربته بالسفح غربى زاوية ابن قوام ، وإليه ينسب الحمام بمسجد القصب الذى يقال له حمام الحموى ، عمره فى أيام نيابته .

(١) فى الشذرات فيروز . وذكر أنها عند الدرر الكامنة .

﴿ الوزير فتح الدين ﴾

أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد بن خالد بن محمد بن نصر بن صقر القرشي المخزومي ابن القيسراني، كان شيخا جليلا أديبا شاعراً مجوداً من بيت رياسة ووزارة، ولي وزارة دمشق مدة ثم أقام بمصر موقرا مدة، وكان له اعتناء بعلوم الحديث وسماعه. وله مصنف في أسماء الصحابة الذين خرج لهم في الصحيحين، وأورد شيئاً من أحاديثهم في مجلدين كبيرين موقوفين بالمدرسة الناصرية بدمشق، وكان له مذاكرة جيدة محررة باللفظ والمعنى، وقد خرج عنه الحافظ الدمياطي. وهو آخر من توفي من شيوخه، توفي بالقاهرة في يوم الجمعة الحادي والعشرين من ربيع الآخر، وأصلهم من قيسارية الشام. وكان جده موفق الدين أبو البقاء خالد وزيراً لنور الدين الشهيد. وكان من الكتاب المجيدين المتقنين، له كتابة جيدة محررة جداً، توفي في أيام صلاح الدين سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، وأبوه محمد بن نصر بن صقر ولد بعكة قبل أخذ الفرنج لها سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، فلما أخذت بعد السبعين وأربعمائة انتقل أهلهم إلى حلب وكانوا بها. وكان شاعراً مطبقاً له ديوان مشهور. وكان له معرفة جيدة بالنجوم وعلم الهيئة وغير ذلك.

﴿ ترجمة والد ابن كثير مؤلف هذا التاريخ ﴾

وفيها توفي الوالد وهو الخطيب شهاب الدين أبو حفص عمر بن كثير بن ضوبن كثير بن ضو بن درع القرشي من بني حصلة، وهم ينتسبون إلى الشرف وبأيديهم نسب، وقف على بعضها شيخنا المزي فأعجبه ذلك وابتهج به. فصار يكتب في نسبي بسبب ذلك: القرشي، من قرية يقال لها الشركوين غربي بصرى. بينها وبين أذرعات، ولد بها في حدود سنة أربعين وستمائة، واشتغل بالعلم عند أخواله بني عقبة ببصرى، فقرأ البداية في مذهب أبي حنيفة، وحفظ جمل الزجاجي، وعني بالنحو والعربية واللغة، وحفظ أشعار العرب حتى كان يقول الشعر الجيد الفائق الرائق في المدح والمراثي وقليل من الهجاء، وقرر بمدارس بصرى بمبرك الناقة شمالي البلد حيث يزار، وهو المبرك المشهور عند الناس والله أعلم بصحة ذلك: ثم انتقل إلى خطابة القرية شرقي بصرى وتمذهب للشافعي، وأخذ عن النواوي والشيخ تقي الدين الفزاري، وكان يكرمه ويحترمه فيما أخبرني شيخنا العلامة ابن الزملكاني. فأقام بها نحواً من ثنتي عشرة سنة. ثم تحول إلى خطابة مجيدل القرية التي منها الوالدة. فأقاما بها مدة طويلة في خير وكفاية وتلاوة كثيرة، وكان يخطب جيداً، وله مقول عند الناس، ولكلامه وقع لديانته وفصاحته وحلاوته، وكان يؤثر الاقامة في البلاد لما يرى فيها من الرفق ووجود الحلال له ولعياله، وقد ولد له عدة أولاد من الوالدة ومن أخرى قبلها. أكبرهم إسماعيل ثم يونس وإدريس، ثم من الوالدة عبد الوهاب وعبد العزيز ومحمد وأخوات عدة، ثم أنا أصغرهم، وسميت

باسم الأخ إسماعيل لأنه كان قد قدم دمشق فاشتغل بها بعد أن حفظ القرآن على والده وقرأ مقدمة في النحو ، وحفظ التنبيه وشرحه على العلامة تاج الدين الفزارى وحصل المنتخب فى أصول الفقه ، قاله لى شيخنا ابن الزملكانى ، ثم إنه سقط من سطح الشامية البرانية فمكث أياما ومات ، فوجد الوالد عليه وجداً كثيراً ورثاه بأبيات كثيرة ، فلما ولدت له أنا بعد ذلك سمانى باسمه ، فأكبر أولاده إسماعيل وآخرهم وأصغرهم إسماعيل ، فرحم الله من سلف وختم بخير لمن بقى ، توفى والدى فى شهر جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعمائة ، فى قرية مجيدل القرية ، ودفن بمقبرتها الشمالية عند الزيتون وكنت إذ ذاك صغيراً ابن ثلاث سنين أو نحوها لاأدركه إلا كالحلم ، ثم تحولنا من بعده فى سنة سبع وسبعمائة إلى دمشق صحبة كمال الدين عبد الوهاب ، وقد كان لنا شقيقاً ، و بنا رفيقاً شفوقاً ، وقد تأخرت وفاته إلى سنة خمسين ، فاشتغلت على يديه فى العلم فيسر الله تعالى منه مايسر ، وسهل منه ماتعسر والله أعلم.

وقد قال شيخنا الحافظ علم الدين البرزالى فى معجمه فيما أخبرنى عنه شمس الدين محمد بن سعد المقدسى مخرجه له ، ومن خط المحدث شمس الدين بن سعد هذا نقلت ، وكذلك وقفت على خط الحافظ البرزالى مثله فى السفينة الثانية من السفن الكبار : قال عمر بن كثير القرشى خطيب القرية وهى قرية من أعمال بصرى رجل فاضل له نظم جيد و يحفظ كثيراً من اللغز وله همة وقوة . كتبت عنه من شعره بحضور شيخنا تاج الدين الفزارى . و توفى فى جمادى الاولى سنة ثلاث وسبعمائة بمجيدل القرية من عمل بصرى ، أنشدنا الخطيب شهاب الدين أبو حفص عمر بن كثير القرشى خطيب القرية بها لنفسه فى منتصف شعبان من سنة سبع وثمانين وستمائة :

نأى النوم عن جفنى فبت مسهدا * أخا كلف حلف الصبابة موجدا
سمير الثريا والنجوم مدلها * فمن ولهى خلت الكواكب ركدا
طريحا على فرش الصبابة والاسى * فما ضركم لو كنتم لى عودا
تقلبنى أيدى الغرام بلوعة * أرى النار من تلقائها لى أبردا
ومزق صبرى بعد جيران حاجز * سعير غرام بات فى القلب موقدا
فأمطرته دمعى لعل زفيره * يقل فزادته الدموع توقدا
فبت بليل نابغى ولا أرى * على النأى من بعد الاحبة صعداً
فيالك من ليل تباعد فجره * على إلى أن خلته قد تخلدا
غراما ووجدا لايحد أقله * بأهيف معسول المراشف أغيدا
له طلعة كالبدر زان جمالها * بطرة شعر حالك اللون أسودا

يهز من القد الرشيق مثقفا * ويشهر من جفنيه سيفا مهندا
وفى ورد خديه وآس عذاره * وضوء ثناياه فنيت تجلدا
غدا كل حسن دونه متقاصرا * وأضحى له رب الجمال موحدا
اذا مارنا واهتز عند لقائه * سباك ، فلم تملك لسانا ولا يدا
وتسجد إجلالا له وكرامة * وتقسم قد أمسيت فى الحسن أوحدا
ورب أخى كفر تأمل حسنه * فأسلم من إجلاله وتشهدا
وأنكر عيسى والصليب ومريما * وأصبح يهوى بعد بغض محمدا
أيا كعبة الحسن التى طاف حولها * فؤادى، أما للصد عندك من فدا؟
قنعت بطيف من خيالك طارق * وقد كنت لا أرضى بوصلك سرمدا
فقد شفنى شوق تجاوز حده * وحسبك من شوق تجاوز واعتدا
سألتك إلا مامررت بحينا * بفضلك يارب الملاحة والندا
لعل جفونى أن تفيض دموعها * ويسكن قلب مذ هجرت فما هدا
غلطت بهجرانى ولو كنت صابياً * لما صدك الواشون عنى ولا العدا

وعدتها ثلاثة وعشرون بيتا والله يغفر له ما صنع من الشعر](١)

﴿ ثم دخلت سنة أربع وسبعمائة ﴾

استهلت والخليفة والسلطان والحكام والمباشرون هم المذكورن فى التى قبلها ، وفى يوم الأحد ثالث ربيع الأول حضرت الدروس والوظائف التى أنشأها الأمير بيبرس الجاشنكير المنصورى بجامع الحاكم بعد أن جدده من خرابه بالزلزلة التى طرأت على ديار مصر فى آخر سنة ثنتين وسبعمائة ، وجعل القضاة الاربعة هم المدرسين للمذاهب ، وشيخ الحديث سعد الدين الحارثى ، وشيخ النحو أثير الدين أبو حيان ، وشيخ القراءات السبع الشيخ نور الدين الشطنوفى ، وشيخ إفادة العلوم الشيخ علاء الدين القونوى . وفى جمادى الآخرة باشر الامير ركن الدين بيبرس الحجوبية مع الامير سيف الدين بكتمر ، وصارا حاجبين كبيرين فى دمشق . وفى رجب أحضر إلى الشيخ تقى الدين بن تيمية شيخ كان يلبس دلقاً كبيراً متسعا جداً يسمى المجاهد إبراهيم القطان ، فأمر الشيخ بتقطيع ذلك الدلق فتناهبه الناس من كل جانب وقطعوه حتى لم يدعوا فيه شيئاً وأمر بحلق رأسه ، وكان ذا شعر ، وقلم أظفاره وكانوا طوالا جداً ، وحف شاربه المسبل على فمه المخالف للسنة ، واستتابه من كلام الفحش وأكل ما يغير العقل من الحشيشة ومالا يجوز من المحرمات وغيرها . وبعده استحضر الشيخ محمد الخباز البلاسى فاستتابه أيضاً عن أكل

(١) زيادة من نسخة أخرى بالاستانة

المحرمات ومخالطة أهل الذمة . وكتب عليه مكتوبا أن لايتكلم فى تعبير المنامات ولا فى غيرها بما لا علم له به . وفى هذا الشهر بعينه راح الشيخ تقى الدين بن تيمية إلى مسجد التاريخ وأمر أصحابه ومعهم حجارون بقطع صخرة كانت هناك بنهر قلوط تزار وينذر لها ، فقطعها وأراح المسلمين منها ومن الشرك بها ، فازاح عن المسلمين شبهة كان شرها عظيما ، [و بهذا وأمثاله حسدوه وأبرزوا له العداوة ، وكذلك بكلامه بابن عربى وأتباعه ، فحسد على ذلك وعودى ، ومع هذا لم تأخذه فى الله لومة لائم . ولا بالى ، ولم يصلوا إليه بمكروه ، وأكثر ما نالوا منه الحبس مع أنه لم ينقطع فى بحث لا بمصر ولا بالشام . ولم يتوجه لهم عليه ما يشين وإنما أخذوه وحبسوه بالجاه كما سيأتى ، وإلى الله إياب الخلق وعليه حسابهم] (١) . وفى رجب جلس قاضى القضاة نجم الدين بن صصرى بالمدرسة العادلية الكبيرة وعملت التخوت بعد ماجددت عمارة المدرسة ، ولم يكن أحد يحكم بها بعد وقعة قازان بسبب خرابها . وجاء المرسوم للشيخ برهان الدين الفزارى بوكالة بيت المال فلم يقبل . وللشيخ كمال الدين بن الزملكانى بنظر الخزانة فقبل وخلع عليه بطرحة ، وحضر بها يوم الجمعة ، وهاتان الوظيفتان كانتا مع نجم الدين بن أبى الطيب توفى إلى رحمة الله . وفى شعبان سعى جماعة فى تبطيل الوقيد ليلة النصف وأخذوا خطوط العلماء فى ذلك . وتكلموا مع نائب السلطنة فلم يتفق ذلك ، بل أشعلوا وصليت صلاة ليلة النصف أيضا . وفى خامس رمضان وصل الشيخ كمال الدين بن الشريشى من مصر بوكالة بيت المال ، ولبس الخلعة سابع رمضان ، وحضر عند ابن صصرى بالشباك الكمالى . وفى سابع شوال عزل وزير مصر ناصر الدين بن الشيخى وقطع إقطاعه ورسم عليه وعوقب إلى أن مات فى ذى القعدة . وتولى الوزارة سعد الدين محمد بن محمد بن عطاء وخلع عليه . وفى يوم الخميس الثانى والعشرين من ذى القعدة حكم قاضى القضاة جمال الدين الزواوى بقتل الشمس محمد بن جمال الدين بن عبد الرحمن الباجريقى . وإراقة دمه وإن تاب وإن أسلم ، بعد إثبات محضر عليه يتضمن كفر الباجريقى المذكور ، وكان ممن شهد فيه عليه الشيخ مجد الدين التونسى النحوى الشافعى . فهرب الباجريقى إلى بلاد الشرق فمكث بها مدة سنين ثم جاء بعد موت الحاكم المذكور كما سيأتى .

وفى ذى القعدة كان نائب السلطنة فى الصيد فقصدهم فى الليل طائفة من الأعراب فقاتلهم الأمراء فقتلوا من العرب نحو النصف . وتوغل فى العرب أمير يقال له سيف الدين بها در تمر احتقارا بالعرب ، فضربه واحد منهم برمح فقتله ، فكرت الأمراء عليهم فقتلوا منهم خلقا أيضا ، وأخذوا واحداً منهم زعموا أنه هو الذى قتله فصلب تحت القلعة ، ودفن الأمير المذكور بقبر الست . وفى ذى القعدة تكلم الشيخ شمس الدين بن النقيب وجماعة من العلماء فى الفتاوى الصادرة من الشيخ

(١) سقط من المصرية

علاء الدين بن العطار شيخ دار الحديث النورية والقوصية ، وأنها مخالفة لمذهب الشافعى ، وفيها تخبيط كثير ، فتوهم من ذلك وراح إلى الحنفى فحقن دمه وأبقـاه على وظائفه ، ثم بلغ ذلك نائب السلطنة فأنكر على المنكرين عليه ، ورسم عليهم ثم اصطلحوا ، ورسم نائب السلطنة أن لا تثار الفتن بين الفقهاء . وفى مستهل ذى الحجة ركب الشيخ تقى الدين بن تيمية ومعه جماعة من أصحابه إلى جبـل الجرد والكسروانيين ومعه نقيب الأشراف زين الدين بن عدنان فاستتابوا خلقا منهم وألزموهم بشرائع الاسلام ورجع مؤيدا منصوراً .

وممن توفى فيها من الاعيان .

﴿ الشيخ تاج الدين بن شمس الدين بن الرفاعى ﴾

شيخ الأحمدية بأم عبيدة من مدة مديدة ، وعنه تكتب إجازات الفقراء ، ودفن هناك عند سلفه بالبطائح

﴿ الصدر نجم الدين بن عمر ﴾

ابن أبى القاسم بن عبد المنعم بن محمد بن الحسن بن أبى الكتائب بن محمد بن أبى الطيب ، وكيل بيت المال وناظر الخزانة ، وقد ولى فى وقت نظر المارستان النورى وغير ذلك ، وكان مشكور السيرة رجلا جيدا ، وقد سمع الحديث وروى أيضا ، توفى ليلة الثلاثاء الخامس عشر من جمادى الآخرة ، ودفن بتربتهم بباب الصغير .

﴿ ثم دخلت سنة خمس وسبعمائة ﴾

استهلت والخليفة المستكفى والسلطان الملك الناصر، والمباشرون هم المذكورن فيما مضى ، وجاء الخبر أن جماعة من التتر كمنوا لجيش حلب وقتلوا منهـم خلقا من الأعيان وغيرهم ، وكثر النوح ببلاد حلب بسبب ذلك . وفى مستهل المحرم حكم جلال الدين القزوينى أخو قاضى القضاة إمام الدين نيابة عن ابن صصرى ، وفى ثانيـه خرج نائب السلطنة بمن بقى من الجيوش الشامية ، وقـد كان تقدم بين يديه طائفة من الجيش مع ابن تيمية فى ثانى المحرم، فساروا إلى بلاد الجرد والرفض والتيامنة فخرج نائب السلطنة الأفرم بنفسه بعـد خروج الشيخ لغزوهم ، فنصرهم الله عليهـم وأبادوا خلقاً كثيراً منهم ومن فرقتهـم الضالة ، ووطئوا أراضى كثيرة من صنع بلادهم ، وعاد نائب السـلطنة إلى دمشق فى صحبته الشيخ ابن تيمية والجيش ، وقد حصل بسبب شهود الشيخ هذه الغزوة خير كثير، وأبان الشيخ علماً وشجاعة فى هذه الغزوة ، وقد امتلأت قلوب أعدائه حسداً له وغماً . وفى مستهـل جمادى الأولى قدم القاضى أمين الدين أبو بكر ابن القاضى وجيه الدين عبد العظيم بن الرقاقى المصرى من القاهرة على نظر الدواوين بدمشق ، عوضاً عن عز الدين بن مبشر .

﴿ ذكر ما جرى للشيخ تقى الدين بن تيمية ﴾

« مع الأحمدية وكيف عقدت له المجالس الثلاثة »

وفى يوم السبت تاسع جمادى الأولى حضر جماعة كثيرة من الفقراء الأحمدية إلى نائب السلطنة بالقصر الأبلق وحضر الشيخ تقى الدين بن تيمية فسألوا من نائب السلطنة بحضرة الأمراء أن يكف الشيخ تقى الدين إمارته عنهم ، وأن يسلم لهم حالهم ، فقال لهم الشيخ : هذا ما يمكن . ولا بد لكل أحد أن يدخل تحت الكتاب والسنة ، قولا وفعلا ، ومن خرج عنهما وجب الانكار عليه. فأرادوا أن يفعلوا شيئاً من أحوالهم الشيطانية التى يتعاطونها فى سماعاتهم ، فقال الشيخ تلك أحوال شيطانية باطلة ، وأكثر أحوالهم من باب الحيل والبهتان ، ومن أراد منهم أن يدخل النار فليدخل أولا إلى الحمام وليغسل جسده غسلا جيداً ويدلكه بالخل والأشنان ثم يدخل بعد ذلك إلى النار إن كان صادقا ، ولو فرض أن أحداً من أهل البدع دخل النار بعد أن يغتسل فان ذلك لا يدل على صلاحه ولا على كرامته ، بل حاله من أحوال الدجاجلة المخالفة للشريعة إذا كان صاحبها على السنة ، فما الظن بخلاف ذلك ، فابتدر شيخ المنيبع الشيخ صالح وقال : نحن أحوالنا إنما تنفق عند التتر ليست تنفق عند الشرع ، فضبط الحاضرون عليه تلك الكلمة ، وكثر الانكار عليهم من كل أحد ، ثم اتفق الحال على أنهم يخلعون الأطواق الحديد من رقابهم ، وأن من خرج عن الكتاب والسنة ضربت عنقه . وصنف الشيخ جزءاً فى طريقة الأحمدية ، وبين فيه أحوالهم ومسالكهم وتخيلاتهم ، وما فى طريقتهم من مقبول ومردود بالكتاب ، وأظهر الله السنة على يديه وأخمد بدعتهم ولله الحمد والمنة .

وفى العشر الأوسط من هذا الشهر خلع على جلال الدين بن معبد وعز الدين خطاب ، وسيف الدين بكتمر مملوك بكتاش الحسامى بالامرة ولبس التشاريف ، وركبوا بها وسلموا لهم جبل الجرد والكسروان والبقاع . وفى يوم الخميس ثالث رجب خرج الناس للاستسقاء إلى سطح المزة ونصبوا هناك منبراً وخرج نائب السلطنة وجميع الناس من القضاة والعلماء والفقراء ، وكان مشهداً هائلا وخطبة عظيمة بليغة ، فاستسقوا فلم يسقوا يومهم ذلك .

﴿ أول المجالس الثلاثة لشيخ الاسلام ابن تيمية ﴾

وفى يوم الأثنين ثامن رجب حضر القضاة والعلماء وفيهم الشيخ تقى الدين بن تيمية عند نائب السلطنة بالقصر وقرئت عقيدة الشيخ تقى الدين الواسطية ، وحصل بحث فى أماكن منها ، وأخرت مواضع إلى المجلس الثانى ، فاجتمعوا يوم الجمعة بعد الصلاة ثانى عشر الشهر المذكور وحضر الشيخ صفى الدين الهندى ، وتكلم مع الشيخ تقى الدين كلاماً كثيراً ، ولكن ساقيته لاطمت بحراً ، ثم اصطلحوا على أن يكون الشيخ كمال الدين بن الزملكانى هو الذى يحاققه من غير مسامحة ، فتناظرا فى

ذلك . وشكر الناس من فضائل الشيخ كمال الدين بن الزملكانى وجودة ذهنه وحسن بحثه حيث قاوم ابن تيمية فى البحث . وتكلم معه . ثم انفصل الحال على قبول العقيدة . وعاد الشيخ إلى منزله معظما مكرما . و بلغنى أن العامة حملوا له الشمع من باب النصر إلى القصاعين على جارى عادتهم فى أمثال هذه الأشياء ، وكان الحامل على هذه الاجتماعات كتاب ورد من السلطان فى ذلك ، كان الباعث على إرساله قاضى المالكية ابن مخلوف ، والشيخ نصر المنبجى شيخ الجاشنكير وغيرهما من أعدائه ، وذلك أن الشيخ تقى الدين بن تيمية كان يتكلم فى المنبجى و ينسبه إلى اعتقاد ابن عربى وكان للشيخ تقى الدين من الفقهاء جماعة يحسدونه لتقدمه عند الدولة ، وانفراده بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وطاعة الناس له ومحبتهم له وكثرة أتباعه وقيامه فى الحق ، وعلمه وعمله . ثم وقع بدمشق خبط كثير وتشويش بسبب غيبة نائب السلطنة . وطلب القاضى جماعة من أصحاب الشيخ وعزر بعضهم ثم اتفق أن الشيخ جمال الدين المزى الحافظ قرأ فصلا بالرد على الجهمية من كتاب أفعال العباد للبخارى تحت قبة النسر بعد قراءة ميعاد البخارى بسبب الاستسقاء ، فغضب بعض الفقهاء الحاضرين وشكاه إلى القاضى الشافعى ابن صصرى ، وكان عدو الشيخ فسجن المزى ، فبلغ الشيخ تقى الدين فتألم لذلك وذهب إلى السجن فأخرجه منه بنفسه ، وراح إلى القصر فوجد القاضى هنالك . فتقاولا بسبب الشيخ جمال الدين المزى ، فحلف ابن صصرى لابد أن يعيده إلى السجن وإلا عزل نفسه فأمر النائب باعادته تطييبا لقلب القاضى فحبسه عنده فى القوصية أياما ثم أطلقه . ولما قدم نائب السلطنة ذكر له الشيخ تقى الدين ماجرى فى حقه وحق أصحابه فى غيبته ، فتألم النائب لذلك ونادى فى البلد أن لايتكلم أحد فى العقائد . ومن عاد إلى تلك حل ماله ودمه ورتبت داره وحانوته ، فسكنت الامور . وقد رأيت فصلا من كلام الشيخ تقى الدين فى كيفية ما وقع فى هذه المجالس الثلاثة من المناظرات .

ثم عقد المجلس الثالث فى يوم سابع شعبان بالقصر واجتمع الجماعة على الرضى بالعقيدة المذكورة وفى هذا اليوم عزل ابن صصرى نفسه عن الحكم بسبب كلام سمعه من بعض الحاضرين فى المجلس المذكور ، وهو من الشيخ كمال الدين بن الزملكانى . ثم جاء كتاب السلطان فى السادس والعشرين من شعبان فيه إعادة ابن صصرى إلى القضاء ، وذلك باشارة المنبجى ، وفى الكتاب إنا كنا سمعنا بعقد مجلس للشيخ تقى الدين بن تيمية ، وقد بلغنا ما عقد له من المجالس ، وأنه على مذهب السلف و إنما أردنا بذلك براءة ساحته مما نسب إليه . ثم جاء كتاب آخر فى خامس رمضان يوم الاثنين وفيه الكشف عن ما كان وقع للشيخ تقى الدين بن تيمية فى أيام جاغان ، والقاضى إمام الدين القزوينى وأن يحمل هو والقاضى ابن صصرى إلى مصر ، فتوجها على البريد نحو مصر ، وخرج مع الشيخ خلق من أصحابه و بكوا وخافوا عليه من أعدائه ، وأشار عليه نائب السلطنة ابن الأفرم بترك الذهاب

إلى مصر، وقال له أنا أكاتب السلطان فى ذلك وأصلح القضايا، فامتنع الشيخ من ذلك، وذكر له أن فى توجهه لمصر مصلحة كبيرة، ومصالح كثيرة. فلما توجه لمصر ازدحم النـاس لوداعه ورؤيته حتى انتشروا من باب داره إلى قرب الجسورة. فيما بين دمشق والكسوة. وهم فيما بين باك وحزين ومتفرج ومتنزه ومزاحم متغال فيه. فلما كان يوم السبت دخل الشيخ تقى الدين غزة فعمل فى جامعها مجلسا عظيما، ثم دخلا معاً إلى القاهرة والقلوب معه و به متعلقة، فدخلا مصر يوم الاثنين الثانى والعشرين من رمضان. وقيل إنهما دخلاها يوم الخميس، فلما كان يوم الجمعة بعد الصلاة عقد للشيخ مجلس بالقلعة اجتمع فيه القضاة وأكابر الدولة وأراد أن يتكلم على عادته فلم يتمكن من البحث والكلام. وانتدب له الشمس ابن عدنان خصما احتسـاباً، وادعى عليه عند ابن مخلوف المالـكى أنه يقول إن الله فوق العرش حقيقة، وأن الله يتكلم بحرف وصوت، فسأله القاضى جوابه فأخذ الشيخ فى حمد الله والثناء عليه. فقيل له أجب ما جئنا بك لتخطب. فقال: ومن الحاكم فى؟ فقيل له القاضى المالـكى. فقال له الشيخ كيف تحكم فى وأنت خصمى. فغضب غضباً شـديداً وانزعج وأقيم مرسما عليـه وحبس فى برج أياما ثم نقل منه ليلة العيد إلى الحبس المعروف بالجب، هو وأخوه شرف الدين عبد الله و زين الدين عبد الرحمن.

وأما ابن صصرى فانه جدد له توقيع بالقضاء باشارة المنبجى شيخ الجاشنكير حاكم مصر، وعاد إلى دمشق يوم الجمعة سادس ذى القعدة والقلوب له ماقتة، والنفوس منه نافرة، وقرىء تقليده بالجامع و بعده قرىء كتاب فيه الحط على الشيخ تقى الدين ومخالفته فى العقيدة، وأن ينادى بذلك فى البلاد الشامية، وألزم أهل مذهبه بمخالفته، وكذلك وقع بمصر. قام عليه جاشنكير وشيخه نصر المنبجى، وساعدهم جماعة كثيرة من الفقهاء والفقراء، وجرت فتن كثيرة منتشرة، نعوذ بالله من الفتن، وحصل للحنابلة بالديار المصرية إهانة عظيمة كثيرة. وذلك أن قاضيهم كان قليل العلم مزجى البضاعة، وهو شرف الدين الحرانى، فلذلك نال أصحابهم ما نالهم. وصارت حالهم حالهم، وفى شهر رمضان جاء كتاب من مقدم الخدام بالحرم النبوى يستأذن السلطان فى بيع طائفة من قناديل الحرم النبوى لينفق ذلك ببناء مأذنة عند باب السلام الذى عند المطهرة. فرسم له بذلك، وكان فى جملة القناديل قنديلان من ذهب زنتهما ألف دينار، فباع ذلك وشرع فى بنائها وولى سراج الدين عمر قضاءها مع الخطابة فشق ذلك على الروافض.

وفى يوم الخميس ثانى عشر ذى القعدة وصل البريد من مصر بتوليـة القضاء لشمس الدين محمد بن إبراهيم بن داود الأذرعى الحنفى قضاء الحنفية عوضا [عن شمس الدين ابن الحسينى معزولا و بتولية الشيخ برهان الدين ابن الشيخ تاج الدين الفزارى خطـابة دمشق عوضا] (١) عن عمه

(١) سقط من المصرية .

الشيخ شرف الدين توفى إلى رحمة الله ، وخلع عليهما بذلك وباشرا فى يوم الجمعة ثالث عشر الشهر وخطب الشيخ برهان الدين خطبة حسنة حضرها الناس والأعيان ، ثم بعد خمسة أيام عزل نفسه عن الخطابة وآثر بقاءه على تدريس البادرائية حين بلغه أنها طلبت لتؤخذ منه ، فبقى منصب الخطابة شاغراً ونائب الخطيب يصلى بالناس ويخطب ، ودخل عيد الاضحى وليس للناس خطيب ، وقد كاتب نائب السلطنة فى ذلك فجاء المرسوم بالزامه بذلك ، وفيه : لعلمنا بأهليته وكفايته واستمراره على مابيده من تدريس البادرائية ، فباشرها القيسى جمال الدين ابن الرحبى ، سعى فى البادرائية فأخذها وباشرها فى صفر من السنة الآتية بتوقيع سلطانى ، فعزل الفزارى نفسه عن الخطابة ولزم بيته ، فراسله نائب السلطنة بذلك ، فصمم على العزل وأنه لايعود إليها أبدا ، وذكر أنه عجز عنها ، فلما تحقق نائب السلطنة ذلك أعاد إليه مدرسته وكتب له بها توقيعا بالعشر الأول من ذى الحجة وخلع على شمس الدين بن الخطيرى بنظر الخزانة عوضا عن ابن الزملكانى . وحج بالناس الأمير شرف الدين حسن بن حيدر .

وممن توفى فيها من الأعيان .

﴿ الشيخ عيسى بن الشيخ سيف الدين الرحبى ﴾

ابن سابق بن الشيخ يونس القيسى ودفن بزاويتهم التى بالشرق الشمالى بدمشق غربى الوراقة والعزية يوم الثلاثاء سابع المحرم .

﴿ الملك الاوحد ﴾

ابن الملك تقى الدين شادى بن الملك الزاهر مجير الدين داود بن الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه بن شادى ، توفى بجبل الجرد فى آخر نهار الأربعاء ثانى صفر ، وله من العمر سبع وخمسون سنة فنقل إلى تربتهم بالسفح ، وكان من خيار الملوك والدولة ، معظما عند الملوك والأمراء ، وكان يحفظ القرآن وله معرفة بعلوم ، ولديه فضائل .

﴿ الصدر علاء الدين ﴾

على بن معالى الانصارى الحرانى الحاسب ، يعرف بابن الزريز ، وكان فاضلا بارعا فى صناعة الحساب انتفع به جماعة ، توفى فى آخر هذه السنة فجأة ودفن بقاسيون ، وقد أخذت الحساب عن الحاضرى عن علاء الدين الطيورى عنه .

﴿ الخطيب شرف الدين أبو العباس ﴾

أحمد بن إبراهيم بن سباع بن ضياء الفزارى ، الشيخ الامام العلامة أخو العلامة شيخ الشافعية تاج الدين عبد الرحمن ، ولد سنة ثلاثين وسمع الحديث الكثير ، وانتفع على المشايخ فى ذلك العصر كابن الصلاح وابن السخاوى وغيرهما ، وتفقه وأفتى وناظر وبرع وساد أقرانه ، وكان أستاذا فى

العربية واللغةوالقراءات و إيراد الأحاديث النبوية ، والتردد إلى المشايخ للقراءة عليهم،وكان فصيح العبارة حلو المحاضرة ، لاتمل مجالسته ، وقد درس بالطيبية،وبالرباط الناصرى مدة ، ثم تحول عنه إلى خطابة جامع جراح ، ثم انتقل إلى خطابة جامع دمشق بعد الفارقى فى سنة ثلاث ولم يزل به حتى توفى يوم الأربعاء عشية التاسع من شوال ،عن خمس وسبعين سنة،وصلى عليه صبيحة يوم الخميس على باب الخطابة ، ودفن عند أبيه وأخيه بباب الصغير رحمهم الله ، وولى الخطابة ابن أخيه

﴿ شيخنا العلامة برهان الدين الحافظ الكبير الدمياطى ﴾

وهو الشيخ الامام العالم الحافظ شيخ المحدثين شرف الدين أبو محمد عبدالمؤمن بن خلف بن أبى الحسن بن شرف بن الخضر بن موسى الدمياطى ، حامل لواء هذا الفن - أعنى صناعة الحديث وعلم اللغة - فى زمانه مع كبر السن والقدر ، وعلو الاسناد وكثرة الرواية ، وجودة الدراية ، وحسن التآليف و انتشار التصانيف ، وتردد الطلبة إليه من سائر الآفاق ، ومولده فى آخر سنة ثلاث عشرة وستمائة ، وقد كان أول سماعه فى سنة ثنتين وثلاثين بالاسكندرية ، سمع الكثير على المشايخ و رحل وطاف وحصل وجمع فأوعى ،ولكن مامنع ولابخل ،بل بذل وصنف ونشر العلم،وولى المناصب بالديار المصرية ، وانتفع الناس به كثيراً ، وجمع معجماً لمشايخه الذين لقيهم بالشام والحجاز والجزيرة والعراق وديار مصر يزيدون على ألف وثلثمائة شيخ ، وهو مجلدان ،وله الأربعون المتباينة الاسناد وغيرها وله كتاب فى الصلاة الوسطى مفيد جداً ، ومصنف فى صيام ستة أيام من شوال أفاد فيه وأجاد ، وجمع مالم يسبق إليه ، وله كتاب الذكر والتسبيح عقيب الصلوات ، وكتاب التسلى فى الاغتباط بثواب من يقدم من الافراط، وغير ذلك من الفوائد الحسان ، ولم يزل فى إسماع الحديث إلى أن أدركته وفاته وهو صائم فى مجلس الاملاء غشى عليه فحمل إلى منزله فمات من ساعته يوم الاحد عاشر ذى القعدة بالقاهرة ، ودفن من الغد بمقابر باب النصر وكانت جنازته حافلة جداً رحمه الله تعالى

﴿ ثم دخلت سنة ست وسبعمائة ﴾

استهلت والحكام هم المذكورون فى التى قبلها والشيخ تقى الدين بن تيمية مسجون بالجب من قلعة الجبل ، وفى يوم الأربعاء جاء البريد بتولية الخطابة للشيخ شمس الدين إمام الكلاسة وذلك فى ربيع الأول ، وهنئ بذلك فأظهر التكره لذلك والضعف عنه ، ولم يحصل له مباشرة لغيبة نائب السلطنة فى الصيد ، فلما حضر أذن له فباشر يوم الجمعة العشرين من الشهر ، فأول صلاة صلاها الصبح يوم الجمعة، ثم خلع عليه وخطب بها يومئذ ، وفى يوم الأربعاء ثامن عشر ربيع الأول باشر نيابة الحكم عن القاضى نجم الدين أحمد بن عبد المحسن بن حسن المعروف بالدمشقى عوضا عن تاج الدين بن صالح بن تامر بن خان الجعبرى ، وكان معمرا قديم الهجرة كثير الفضائل ، دينا

ورعاً، جيد المباشرة ،وكان قد ولى الحكم فى سنة سبع وخمسين وستمائة . فلما ولى ابن صصرى كره نيابته . وفى يوم الأحد العشرين من ربيع الآخر قدم البريد من القاهرة ومعه تجديد توقيع القاضى شمس الدين الأزرعى الحنفى،فظن الناس أنه بولاية القضاء لابن الحريرى فذهبوا ليهنئوه مع البريد إلى الظاهرية . واجتمع الناس لقراءة التقليد على العادة فشرع الشيخ علم الدين البرزالى فى قراءته فلما وصل إلى الاسم تبين له أنه ليس له وأنه للأزرعى ،فبطل القارئ وقام الناس مع البريدى إلى الأزرعى ، وحصلت كسرة وخمدة على الحريرى والحاضرين . ووصل مع البريدى أيضاً كتاب فيه طلب الشيخ كمال الدين بن الزملكانى إلى القاهرة . فتوهم من ذلك وخاف أصحابه عليه بسبب انتسابه إلى الشيخ تقى الدين بن تيمية ، فتلطف به نائب السلطنة . ودارى عنـه حتى أعفى من الحضور إلى مصر ، ولله الحمد.

وفى يوم الخميس تاسع جمادى الأولى دخل الشيخ ابن براق إلى دمشق وبصحبته مائة فقير كلهم محلقى ذقونهم موفرى شواربهم عكس ما وردت به السنة، وعلى رؤسهم قرون لبابيد . ومعهم أجراس وكعاب وجوا كين خشب ، فنزلوا بالمنيبع وحضروا الجمعـة برواق الحنابلة ، ثم توجهوا نحو القدس فزاروا ،ثم استأذنوا فى الدخـول إلى الديار المصرية فلم يؤذن لهـم ، فعادوا إلى دمشق فصاموا بها رمضان ثم انشمروا راجعين إلى بلاد الشرق ، إذ لم يجـدوا بدمشق قبولا . وقـد كان شيخهم براق روميا من بعض قرى دوقات من أبناء الأربعين ، وقد كانت له منزلة عنـد قازان ومكانة . وذلك أنه سلط عليه نمرا فزجره فهرب منه وتركه . فحظى عنده وأعطاه فى يوم واحد ثلاثين ألفا ففرقها كلها فأحبه ، ومن طريقة أصحابه أنهم لا يقطعون لهم صلاة ، ومن ترك صلاة ضربوه أربعين جلدة ، وكان يزعم أن طريقه الذى سلـكه إنما سلـكه ليخرب على نفسه ، ويرى أنه زى المسخرة ، وأن هذا هو الذى يليق بالدنيا ، والمقصود إنـما هو الباطن والقلب وعمارة ذلك ، ونحن إنما نحكم بالظاهر . والله أعلم بالسرائر .

وفى يوم الأربعاء سادس جمادى الآخرة حضر مدرس النجيبية بهاء الدين يوسف بن كمال الدين أحمد بن عبد العزيز العجمى الحلبى ، عوضا عن الشيخ ضياء الدين الطوسى توفى . وحضر عنـده ابن صصرى وجماعة من الفضلاء ، وفى هذه السنة صليت صـلاة الرغائب فى النصف بجامع دمشق بعد أن كانت قد أبطلها ابن تيمية منذ أربع سنين . ولـما كانت ليلة النصف حضر الحاجب ركن الدين بيبرس العلائى ومنع الناس من الوصول إلى الجامع ليلتئذ ، وغلقت أبوابه فبات كثير من الناس فى الطرقات وحصل للناس أذى كثير ، وإنما أراد صيانة الجامع من اللغو والرفث والتخليط . وفى سابع عشر رمضان حكم القاضى تقى الدين الحنبلى بحقن دم محمد الباجريقى ، وأثبت عنده محضرا

بعداوة ما بينه وبين الشهود الستة الذين شهدوا عليه عند المالكى ، حين حكم باراقة دمه ، وممن شهد بهذه العداوة ناصر الدين بن عبد السلام وزين الدين بن الشريف عدنان ، وقطب الدين بن شيخ السلامية وغيرهم . وفيها باشر كمال الدين بن الزملكانى نظر ديوان ملك الأمراء عوضا عن شهاب الدين الحنفى ، وذلك فى آخر رمضان ، وخلع عليه بطيلسان وخلعة ، وحضر بها دار العدل . وفى ليلة عيد الفطر أحضر الأمير سيف الدين سلار نائب مصر القضاة الثلاثة وجماعة من الفقهاء فالقضاة الشافعى والمالكى والحنفى ، والفقهاء الباجى والجزرى والنمراوى ، وتكلموا فى إخراج الشيخ تقى الدين بن تيمية من الحبس ، فاشترط بعض الحاضرين عليه شروطا بذلك ، منها أنه يلتزم بالرجوع عن بعض العقيدة وأرسلوا إليه ليحضر ليتكلموا معه فى ذلك ، فامتنع من الحضور وصمم ، وتكررت الرسل إليه ست مرات ، فصمم على عدم الحضور ، ولم يلتفت إليهم ولم يعدهم شيئا ، فطال عليهم المجلس فتفرقوا وانصرفوا غير مأجورين .

وفى يوم الأربعاء ثانى شوال أذن نائب السلطنة الأفرم للقاضى جلال الدين القزوينى أن يصلى بالناس ويخطب بجامع دمشق عوضا عن الشيخ شمس الدين إمام الكلاسة توفى ، فصلى الظهر يومئذ وخطب الجمعة واستمر بالامامة والخطابة حتى وصل توقيعه بذلك من القاهرة ، وفى مستهل ذى القعدة حضر نائب السلطنة والقضاة والأمراء والأعيان وشكرت خطبته . وفى مستهل ذى القعدة كمل بناء الجامع الذى ابتناه وعمره الأمير جمال الدين نائب السلطنة الأفرم عند الرباط الناصرى بالصالحية ، ورتب فيه خطيبا يخطب يوم الجمعة وهو القاضى شمس الدين محمد بن العز الحنفى ، وحضر نائب السلطنة والقضاة وشكرت خطبة الخطيب به ، ومد الصاحب شهاب الدين الحنفى سماطا بعد الصلاة بالجامع المذكور وهو الذى كان الساعى فى عمارته ، والمستحث عليها ، فجاء فى غاية الاتقان والحسن ، تقبل الله منهم .

وفى ثالث ذى القعدة استناب ابن صصرى القاضى صدر الدين سليمان بن هلال بن شبل الجعبرى خطيب داريا فى الحكم عوضا عن جلال الدين القزوينى ، بسبب اشتغاله بالخطابة عن الحكم ، وفى يوم الجمعة التاسع والعشرين من ذى القعدة قدم قاضى القضاة صدر الدين أبو الحسن على بن الشيخ صفى الدين الحنفى البصراوى إلى دمشق من القاهرة متوليا قضاء الحنفية عوضا عن الأزرعى ، مع مابيده من تدريس النورية والمقدمية وخرج الناس لتلقيه وهنؤه ، وحكم بالنورية وقرىء تقليده بالمقصورة الكندية فى الزاوية الشرقية ، من جامع بنى أمية . وفى ذى الحجة ولى الأمير عز الدين بن صبرة على البلاد القبلية والى الولاة ، عوضا عن الأمير جمال الدين آقوش الرستمى ، بحكم ولايته شد الدواوين بدمشق ، وجاء كتاب من السلطان بولاية وكالته للرئيس

عز الدين بن حمزة القلانسي عوضا عن ابن عمه شرف الدين ، فكره ذلك.

وفي اليوم الثامن والعشرين من ذى الحجة أخبر نائب السلطنة بوصول كتاب من الشيخ تقي الدين من الحبس الذي يقال له الجب فأرسل في طلبه فجيء به فقرىء على الناس فجعل يشكر الشيخ ويثنى عليه وعلى علمه وديانته وشجاعته وزهده ، وقال ما رأيت مثله ، وإذا هو كتاب مشتمل على ما هو عليه في السجن من التوجه إلى الله ، وأنه لم يقبل من أحد شيئا لا من النفقات السلطانية ولا من الكسوة ولا من الادرارات ولا غيرها ، ولا تدنس بشيء من ذلك .

وفي هذا الشهر يوم الخميس السابع والعشرين منه طلب أخوا الشيخ تقي الدين شرف الدين وزين الدين من الحبس إلى مجلس نائب السلطان سلار ، وحضر ابن مخلوف المالكي وطال بينهم كلام كثير فظهر شرف الدين بالحجة على القاضي المالكي بالنقل والدليل والمعرفة ، وخطأه في مواضع ادعى فيها دعاوى باطلة ، وكان الكلام في مسألة العرش ومسألة الكلام ، وفي مسألة النزول .

وفي يوم الجمعة ثاني عشرين ذى الحجة وصل على البريد من مصر نصر الدين محمد بن الشيخ فخر الدين بن أخي قاضي القضاة البصراوي ، وزوج ابنته على الحسبة بدمشق عوضا عن جمال الدين يوسف العجمي وخلع عليه بطيلسان ولبس الخلعة ودار بها في البلد في مستهل سنة سبع وسبعمائة ، وفي هذه السنة عمر في حرم مكة بنحو مائة ألف. وحج بالناس من الشام الأمير ركن الدين بيبرس المجنون .

ومن توفي فيها من الأعيان ﴿ القاضي تاج الدين ﴾

صالح بن أحمد بن حامد بن علي الجعدي الشافعي نائب الحكم بدمشق ومفيد الناصرية ، كان ثقة دينا عدلا مرضيا زاهدا ، حكم من سنة سبع وخمسين وستمائة ، له فضائل وعلوم ، وكان حسن الشكل والهيئة ، توفي في ربيع الاول عن ست وسبعين سنة ، ودفن بالسفح وناب في الحكم بعده نجم الدين الدمشقي .

﴿ الشيخ ضياء الدين الطوسي ﴾

أبو محمد عبد العزيز بن محمد بن علي الشافعي مدرس النجيبية شارح الحاوي ، ومختصر ابن الحاجب كان شيخا فاضلا بارعا ، وأعاد في الناصرية أيضا ، توفي يوم الأربعاء بعد مرجعه من الحمام تاسع عشر من جمادى الاولى ، وصلى عليه يوم الخميس ظاهر باب النصر ، وحضر نائب السلطنة وجماعة من الأمراء والأعيان ، ودفن بالصوفية ، ودرس بعده بالمدرسة بهاء الدين بن العجمي .

﴿ الشيخ جمال الدين إبراهيم بن محمد بن سعد الطيبي ﴾

المعروف بابن السوابلي ، والسوابل الطاسات . كان معظما ببلاد الشرق جدا ، كان تاجراً كبيراً توفي في هذا الشهر المذكور .

﴿ الشيخ الجليل سيف الدين الرجيحى ﴾

ابن سابق بن هلال بن يونس شيخ اليونسية بمقامهم، صلى عليه سادس رجب بالجامع ثم أعيد إلى داره التى سكنها داخل باب توما، وتعرف بدار أمين الدولة فدفن بها، وحضر جنازته خلق كثير من الأعيان والقضاة والأمراء. وكانت له حرمة كبيرة عند الدولة وعند طائفته. وكان ضخم الهامة جداً محلوق الشعر، وخلف أموالا وأولاداً.

﴿ الامير فارس الدين الروادى ﴾

توفى فى العشر الأخير من رمضان، وكان قد رأى النبى ﷺ قبل وفاته بأيام وهو يقول له: أنت مغفور لك، أو نحو هذا، وهو من أمراء حسام الدين لاجين.

﴿ الشيخ القدوة العابد خطيب دمشق ﴾

شمس الدين محمد بن الشيخ أحمد بن عثمان الخلاطى إمام الكلاسة، كان شيخا حسنا بهى المنظر كثير العبادة، عليه سكون ووقار، باشر إمامة الكلاسة قريبا من أربعين سنة ثم طلب إلى أن يكون خطيبا بدمشق بالجامع من غير سؤال منه ولا طلب، فباشرها ستة أشهر ونصف أحسن مباشرة. وكان حسن الصوت طيب النغمة عارفا بصناعة الموسيقا، مع ديانة وعبادة، وقد سمع الحديث توفى فجأة بدار الخطابة يوم الأربعاء ثامن شوال عن ثنتين وستين سنة، وصلى عليه بالجامع وقد امتلأ بالناس، ثم صلى عليه بسوق الخيل وحضر نائب السلطنة والامراء والعامة، وقد غلقت الأسواق ثم حمل إلى سفح قاسيون رحمه الله.

﴿ ثم دخلت سنة سبع وسبعمائة ﴾

استهلت والحكام هم المذكورون فى التى قبلها، والشيخ تقى الدين بن تيمية معتقل فى قلعة الجبل بمصر. وفى أوائل المحرم أظهر السلطان الملك الناصر الغضب على الامير ابن سلار والجاشنكير وامتنع من العلامة وأغلق القلعة وتحصن فيها. ولزم الأميران بيوتهما، واجتمع عليهما جماعة من الأمراء وحوصرت القلعة وجرت خبطة عظيمة. وغلقت الأسواق، ثم راسلوا السلطان فتأطدت الأمور وسكنت الشرور على دخن، وتنافر قلوب. وقوى الأميران أكثر مما كانا قبل ذلك وركب السلطان ووقع الصلح على دخن. وفى المحرم وقعت الحرب بين التتر وبين أهل كيلان، وذلك أن ملك التتر طلب منهم أن يجعلوا فى بلادهم طريقاً إلى عسكره فامتنعوا من ذلك، فأرسل ملك التتر خر بندا جيشاً كثيفا ستين ألفا من المقاتلة، أربعين ألفا مع قطلوشاه وعشرين ألفاً مع جوبان. فأمهلهم أهل كيلان حتى توسطوا بلادهم. ثم أرسلوا عليهم خليجا من البحر ورموهم بالنفط فغرق كثير منهم واحترق آخرون، وقتلوا بأيديهم طائفة كثيرة. فلم يفلت منهم إلا القليل. وكان فيمن

قتل أمير التتر الكبير قطلوشاه ، فاشتد غضب خربندا على أهل كيلان ، ولكنه فرح بقتل قطلوشاه فانه كان يريد قتل خربندا فكفى أمره عنهم ، ثم قتل بعده بولاى . ثم إن ملك التتر أرسل الشيخ براق الذى قدم الشام فيما تقدم إلى أهل كيلان يبلغهم عنه رسالة فقتلوه وأراحوا الناس منه ، و بلادهم من أحصن البلاد وأطيبها لا تستطاع ، وهم أهل سنة وأكثرهم حنابلة لا يستطيع مبتدع أن يسكن بين أظهرهم .

وفى يوم الجمعة رابع عشر صفر اجتمع قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة بالشيخ تقى الدين ابن تيمية فى دار الأوحدى من قلعة الجبل ، وطال بينهما الكلام ثم تفرقا قبل الصلاة ، والشيخ تقى الدين مصمم على عدم الخروج من السجن ، فلما كان يوم الجمعة الثالث والعشرين من ربيع الأول جاء الأمير حسام الدين مهنا بن عيسى ملك العرب إلى السجن بنفسه وأقسم على الشيخ تقى الدين ليخرجن إليه، فلما خرج أقسم عليه ليأتين معه إلى دار سلار ، فاجتمع به بعض الفقهاء بدار سلار وجرت بينهم بحوث كثيرة ، ثم فرقت بينهم الصلاة ، ثم اجتمعوا إلى المغرب وبات الشيخ تقى الدين عند سلار ، ثم اجتمعوا يوم الأحد بمرسوم السلطان جميع النهار ، ولم يحضر أحد من القضاة بل اجتمع من الفقهاء خلق كثير ، أكثر من كل يوم ، منهم الفقيه نجم الدين بن رفع وعلاء الدين التاجى ، وفخر الدين بن بنت أبى سعد ، وعز الدين النمراوى ، وشمس الدين بن عدنان وجماعة من الفقهاء وطلبوا القضاة فاعتذروا بأعذار ، بعضهم بالمرض ، و بعضهم بغيره ، لمعرفتهم بما ابن تيمية منطوى عليه من العلوم والادلة ، وأن أحداً من الحاضرين لا يطيقه ، فقبل عذرهم نائب السلطنة ولم يكلفهم الحضور بعد أن رسم السلطان بحضورهم أو بفصل المجلس على خير ، وبات الشيخ عند نائب السلطنة وجاء الأمير حسام الدين مهنا يريد أن يستصحب الشيخ تقى الدين معه إلى دمشق ، فأشار سلار باقامة الشيخ بمصر عنده ليرى الناس فضله وعلمه ، وينتفع الناس به و يشتغلوا عليه . وكتب الشيخ كتابا إلى الشام يتضمن ماوقع له من الأمور . قال البرزالى : وفى شوال منها شكى الصوفية بالقاهرة على الشيخ تقى الدين وكلموه فى ابن عربى وغيره إلى الدولة ، فردوا الأمر فى ذلك إلى القاضى الشافعى ، فعقد له مجلس وادعى عليه ابن عطاء بأشياء فلم يثبت عليه منها شىء ، لكنه قال لا يستغاث إلا بالله ، لا يستغاث بالنبى استغاثة بمعنى العبارة ، ولكن يتوسل به و يتشفع به إلى الله[1] فبعض الحاضرين قال ليس عليه فى هذا شىء ، ورأى القاضى بدر الدين بن جماعة أن هذا فيه قلة أدب ، فحضرت رسالة إلى القاضى أن يعمل معه ما تقتضيه الشريعة ، فقال القاضى قد قلت له ما يقال لمثله ، ثم إن الدولة خيروه بين أشياء إما أن يسير إلى دمشق أو الاسكندرية بشروط أو الحبس ، فاختار الحبس فدخل عليه جماعة فى السفر إلى دمشق ملتزما ما شرط ، فأجاب أصحابه إلى ما اختاروا جبرا لخواطرهم ، فركب خيل

(١) المعروف فى كتب ابن تيمية و ترجمته لابن عبد الهادى : أنه لا يجيز هذا . فليحرر .

البريد ليلة الثامن عشر من شوال ثم أرسلوا خلفه من الغد بريداً آخر ، فردوه وحضر عند قاضى القضاة ابن جماعة وعنده جماعة من الفقهاء ، فقال له بعضهم : إن الدولة ماترضى إلا بالحبس ، فقال القاضى وفيه مصلحة له ، واستناب شمس الدين التونسى المالكى وأذن له أن يحكم عليه بالحبس فامتنع وقال : ماثبت عليه شئ ، فأذن لنور الدين الزواوى المالكى فتحير ، فلما رأى الشيخ توقفهم فى حبسه قال أنا أمضى إلى الحبس وأتبع ماتقتضيه المصلحة ، فقال نور الدين الزواوى : يكون فى موضع يصلح لمثله فقيل له الدولة ماترضى إلا بمسمى الحبس ، فأرسل إلى حبس القضاة فى المكان الذى كان فيه تقى الدين ابن بنت الأعز حين سجن ، وأذن له أن يكون عنده من يخدمه ، وكان ذلك كله باشارة نصر المنبجى لوجاهته فى الدولة ، فانه كان قد استحوذ على عقل الجاشنكير الذى تسلطن فيما بعد ، وغيره من الدولة ، والسلطان مقهور معه ، واستمر الشيخ فى الحبس يستفتى ويقصده الناس ويزورونه ، وتأتيه الفتاوى المشكلة التى لا يستطيعها الفقهاء من الأمراء وأعيان الناس ، فيكتب عليها بما يحير العقول من الكتاب والسنة . ثم عقد للشيخ مجلس بالصالحية بعد ذلك كله ، ونزل الشيخ بالقاهرة بدار ابن شقير ، وأكب الناس على الاجتماع به ليلا ونهاراً . وفى سادس رجب باشر الشيخ كمال الدين بن الزملكانى نظر ديوان المارستان عوضاً عن يوسف العجمى توفى ، وكان محتسباً بدمشق مدة فأخذها منه نجم الدين بن البصراوى قبل هذا بستة أشهر ، وكان العجمى موصوفاً بالامانة . وفى ليلة النصف من شعبان أبطلت صلاة ليلة النصف لكونها بدعة وصين الجامع من الغوغاء والرعاع ، وحصل بذلك خير كثير ولله الحمد والمنة .

وفى رمضان قدم الصدر نجم الدين البصراوى ومعه توقيع بنظر الخزانة عوضا عن شمس الدين الخطيرى مضافا إلى ما بيده من الحسبة ، ووقع فى أواخر رمضان مطر قوى شديد ، وكان الناس لهم مدة لم يمطروا ، فاستبشروا بذلك ، ورخصت الأسعار ، ولم يمكن الناس الخروج إلى المصلى من كثرة المطر ، فصلوا بالجامع ، وحضر نائب السلطنة فصلى بالمقصورة ، وخرج المحمل ، وأمير الحج عامئذ سيف الدين بلبان البدرى التترى . وفيها حج القاضى شرف الدين البارزى من حماة . وفى ذى الحجة وقع حريق عظيم بالقرب من الظاهرية مبدؤه من الفرن تجاهها الذى يقال له فرن العوتية ، ثم لطف الله وكف شرها وشررها .

قلت : وفى هذه السنة كان قدومنا من بصرى إلى دمشق بعد وفاة الوالد ، وكان أول ما سكنا بدرب سعور الذى يقال له درب ابن أبى الهيجاء بالصاغة العتيقة عند الطوريين ، ونسأل الله حسن العاقبة والخاتمة آمين .

ومن توفى فيها من الأعيان ﴿ الأمير ركن الدين بيبرس ﴾

العجمى الصالحى ، المعروف بالجالق ، كان رأس الجدارية فى أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب وأمره الملك الظاهر . كان من أكابر الدولة كثير الاموال ، توفى بالرملة لأنه كان فى قسم إقطاعه فى نصف جمادى الأولى ، ونقل إلى القدس فدفن به .

﴿ الشيخ صالح الأحمدى الرفاعى ﴾

شيخ المينبع ، كان التتر يكرمونه لما قدموا دمشق ، ولما جاء قطلو شاه نائب التتر نزل عنده ، وهو الذى قال للشيخ تقى الدين بن تيمية بالقصر: نحن ماينفق حالنا إلا عند التتر، وأما عند الشرع فلا .

﴿ ثم دخلت سنة ثمان وسبعمائة ﴾

استهلت والحكام هم المذكورن فى التى قبلها ، والشيخ تقى الدين قد أخرج من الحبس ، والناس قد عكفوا عليه زيارة وتعلما و إستفتاء وغير ذلك . وفى مستهل ربيع الأول أفرج عن الأمير نجم الدين خضر بن الملك الظاهر ، فأخرج من البرج وسكن دار الأفرم بالقاهرة ، ثم كانت وفاته فى خامس رجب من هذه السنة . وفى أواخر جمادى الأولى تولى نظر ديوان ملك الأمراء زين الدين الشريف ابن عدنان عوضا عن ابن الزملكانى ، ثم أضيف إليه نظر الجامع أيضا عوضا عن ابن الخطيرى ، وتولى نجم الدين بن الدمشقى نظر الأيتام عوضا عن نجم الدين بن هلال . وفى رمضان عزل الصاحب أمين الدين الرقاقى عن نظر الدواوين بدمشق وسافر إلى مصر . وفيها عزل كمال الدين ابن الشريشى نفسه عن وكالة بيت المال وصمم على الاستمرار على العزل وعرض عليه العود فلم يقبل ، وحملت إليه الخلعة لما خلع على المباشرين فلم يلبسها ، واستمر معزولا إلى يوم عاشوراء من السنة الآتية ، فجدد تقليده وخلع عليه فى الدولة الجديدة .

وفيها خرج الملك الناصر محمد بن قلاوون من الديار المصرية قاصداً الحج ، وذلك فى السادس والعشرين من رمضان ، وخرج معه جماعة من الامراء لتوديعه فردهم ، ولما اجتاز بالكرك عدل إليها فنصب له الجسر ، فلما توسطه كسر به فسلم من كان أمامه وقفز به الفرس فسلم ، وسقط من كان وراءه وكانوا خمسين فمات منهم أربعة وتهشم أكثرهم فى الوادى الذى تحت الجسر ، وبقى نائب الكرك الأمير جمال الدين آقوش خجلا يتوهم أن يكون هذا يظنه السلطان عن قصد ، وكان قد عمل للسلطان ضيافة غرم عليها أربعة عشر ألفا فلم يقع الموقع لاشتغال السلطان بهم وماجرى له ولأصحابه ثم خلع على النائب وأذن له فى الانصراف إلى مصر فسافر ، واشتغل السلطان بتدبير المملكة فى الكرك وحدها ، وكان يحضر دار العدل ويباشر الأمور بنفسه ، وقدمت عليه زوجته من مصر ، فذكرت له ما كانوا فيه من ضيق الحال وقلة النفقات .

﴿ ذكر سلطنة الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير بشيخ[1] المنبجي عدو ابن تيمية ﴾

لما استقر الملك الناصر بالكرك وعزم على الاقامة بها كتب كتابا إلى الديار المصرية يتضمن عزل نفسه عن المملكة ، فأثبت ذلك على القضاة بمصر ، ثم نفذ على قضاة الشام وبويع الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير فى السلطنة فى الثالث والعشرين من شوال يوم السبت بعد العصر ، بدار الأمير سيف الدين سلار ، اجتمع بها أعيان الدولة من الأمراء وغيرهم وبايعوه وخاطبوه بالملك المظفر ، وركب إلى القلعة ومشوا بين يديه ، وجلس على سرير المملكة بالقلعة ، ودقت البشائر وسارت البريدية بذلك إلى سائر البلدان . وفى مستهل ذى القعدة وصل الامير عز الدين البغدادى إلى دمشق فاجتمع بنائب السلطنة والقضاة والأمراء والأعيان بالقصر الابلق فقرأ عليهم كتاب الناصر إلى أهل مصر ، وأنه قد نزل عن الملك وأعرض عنه ، فأثبته القضاة وامتنع الحنبلى من إثباته وقال : ليس أحد يترك الملك مختاراً ، ولولا أنه مضطهد ما تركه ، فعزل وأقيم غيره ، واستحلفهم للسلطان الملك المظفر ، وكتبت العلامة على القلعة ، وألقابه على محال المملكة ، ودقت البشائر وزينت البلد ، ولما قرئ كتاب الملك الناصر على الامراء بالقصر ، وفيه : إنى قد صحبت الناس عشر سنين ثم اخترت المقام بالكرك ، تباكى جماعة من الامراء وبايعوا كالمكرهين ، وتولى مكان الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير الاميرسيف الدين بن على ، ومكان ترعكى سيف الدين بنخاص ، ومكان بنخاص الامير جمال الدين آقوش الذى كان نائب الكرك ، وخطب للمظفر يوم الجمعة على المنابر بدمشق وغيرها ، وحضر نائب السلطنة الافرم والقضاة ، وجاءت الخلع وتقليد نائب السلطنة فى تاسع عشر ذى القعدة ، وقرأ تقليد النائب كاتب السر القاضى محيي الدين بن فضل الله بالقصر بحضرة الأمراء ، وعليهم الخلع كلهم . وركب المظفر بالخلعة السوداء الخليفية ، والعمامة المدورة والدولة بين يديه عليهم الخلع يوم السبت سابع ذى القعدة ، والصاحب ضياء الدين النساى حامل تقليد السلطان من جهة الخليفة فى كيس أطلس أسود ، وأوله : إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ، ويقال إنه خلع فى القاهرة قريب ألف خلعة ومائتى خلعة ، وكان يوما مشهوداً ، وفرح بنفسه أياما يسيرة ، وكذا شيخه المنبجى ، ثم أزال الله عنهما نعمته سريعا .

وفيها خطب ابن جماعة بالقلعة وباشر الشيخ علاء الدين القونوى تدريس الشريفية .

وممن توفى فيها من الأعيان ﴿ الشيخ الصالح عثمان الحلبونى ﴾

أصله من صعيد مصر ، فأقام مدة بقرية حلبون وغيرها من تلك الناحية ، ومكث مدة لا يأكل الخبز ، واجتمع عليه جماعة من المريدين وتوفى بقرية برارة فى أواخر المحرم ، ودفن بها وحضر جنازته نائب الشام والقضاة وجماعة من الأعيان .

(١) كذا فى الاصل . ولعلها « بسعى » أو نحوها .

﴿ الشيخ الصالح ﴾

أبو الحسن على بن محمد بن كثير الحرانى الحنبلى إمام مسجد عطية ، و يعرف بابن المقرى روى الحديث وكان فقيها بمدارس الحنابلة. ولد بحران سنة أربع وثلاثين وستمائة ، وتوفى بدمشق فى العشر الأخير من رمضان ، ودفن بسفح قاسيون ، وتوفى قبله الشيخ زين الدين الحرانى بغزة ، وعمل عزاؤه بدمشق رحمهما الله .

﴿ السيد الشريف زين الدين ﴾

أبو على الحسن بن محمد بن عدنان الحسينى نقيب الاشراف ، كان فاضلا بارعا فصيحاً متكلماً ، يعرف طريقة الاعتزال و يباحث الامامية ، و يناظر على ذلك بحضرة القضاة وغيرهم ، وقد باشر قبل وفاته بقليل نظر الجامع ونظر ديوان الأفرم ، توفى يوم الخامس من ذى القعدة عن خمس وخمسين سنة ، ودفن بتربتهم بباب الصغير .

﴿ الشيخ الجليل ظهير الدين ﴾

أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى الفضل بن منعة البغدادى ، شيخ الحرم الشريف بمكة بعد عمه عفيف الدين منصور بن منعة ، وقد سمع الحديث وأقام ببغداد مدة طويلة ، ثم سار إلى مكة ، بعد وفاة عمه ، فتولى مشيخة الحرم إلى أن توفى .

﴿ ثم دخلت سنة تسع وسبعمائة ﴾

استهلت وخليفة الوقت المستكفى أمير المؤمنين ابن الحاكم بأمر الله العباسى ، وسلطان البلاد الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير ، ونائبه بمصر الأمير سيف الدين سلار ، و بالشام آقوش الأفرم ، وقضاة مصر والشام هم المذكورون فى التى قبلها . وفى ليلة سلخ صفر توجه الشيخ تقى الدين ابن تيمية من القاهرة إلى الاسكندرية صحبة أمير مقدم ، فأدخله دار السلطان وأنزله فى برج منها فسيح متسع الأكناف ، فكان الناس يدخلون عليه و يشتغلون فى سائر العلوم ، ثم كان بعد ذلك يحضر الجمعات و يعمل المواعيد على عادته فى الجامع ، وكان دخوله إلى الاسكندرية يوم الأحد ، و بعد عشرة أيام وصل خبره إلى دمشق فحصل عليه تألم وخافوا عليه غائلة الجاشنكير وشيخه المنبجى ، فتضاعف له الدعاء ، وذلك أنهم لم يمكنوا أحداً من أصحابه أن يخرج معه إلى الاسكندرية ، فضاقت له الصدور ، وذلك أنه تمكن منه عدوه نصر المنبجى . وكان سبب عداوته له أن الشيخ تقى الدين كان ينال من الجاشنكير ومن شيخه نصر المنبجى ، و يقول : زالت أيامه وانتهت رياسته ، وقرب انقضاء أجله ، و يتكلم فيهما وفى ابن عربى وأتباعه ، فأرادوا أن يسيروه إلى الاسكندرية كهيئة المنفى لعل أحداً من أهلها يتجاسر عليه فيقتله غيلة ، فما زاد ذلك الناس إلا محبة فيه وقربا منه وانتفاعا به واشتغالا عليه ، وحنوا وكرامة له . وجاء كتاب من أخيه يقول فيه: إن الأخ الكريم قد نزل بالثغر المحروس على نية الرباط ، فان أعداء الله قصدوا بذلك أمورا يكيدونه بها و يكيدون الاسلام وأهله ،

وكانت تلك كرامة فى حقنا ، وظنوا أن ذلك يؤدى إلى هلاك الشيخ فانقلبت عليهم مقاصدهم الخبيثة وانعكست من كل الوجوه ، وأصبحوا وأمسوا ومازالوا عند الله وعند الناس العارفين سود الوجوه يتقطعون حسرات وندما على مافعلوا ، وانقلب أهل الثغر أجمعين إلى الأخ مقبلين عليه مكرمين له وفى كل وقت ينشر من كتاب الله وسنة رسوله ماتقر به أعين المؤمنين ،وذلك شجى فى حلوق الأعداء واتفق أنه وجد بالاسكندرية إبليس قد باض فيها وفرخ وأضل بها فرق السبعينية والعربية فمزق الله بقدومه عليهم شملهم ، وشتت جموعهم شذر مذر ، وهتك أستارهم وفضحهم ، واستتاب جماعة كثيرة منهم ، وتوب رئيسا من رؤسائهم واستقر عند عامة المؤمنين وخواصهم من أمير وقاض وفقيه ، ومفتى وشيخ وجماعة المجتهدين ، إلا من شذ من الأغمار الجهال ، مع الذلة والصغار - محبة الشيخ وتعظيمه وقبول كلامه والرجوع إلى أمره ونهيه . فعلت كلمة الله بها على أعداء الله و رسوله ، ولعنوا سراً وجهراً و باطناً وظاهراً ، فى مجامع الناس بأسمائهم الخاصة بهم ، وصار ذلك عند نصر المنبجى المقيم المقعد ، ونزل به من الخوف والذل مالا يعبر عنه . وذكر كلاماً كثيراً .

والمقصود أن الشيخ تقى الدين أقام بثغر الاسكندرية ثمانية أشهر مقيما ببرج متسع مليح نظيف له شباكان أحدهما إلى جهة البحر والآخر إلى جهة المدينة ،وكان يدخل عليه من شاء ، و يتردد إليه الأكابر والأعيان والفقهاء ، يقرؤن عليه و يستفيدون منه ، وهو فى أطيب عيش وأشرح صدر .

وفى آخر ربيع الأول عزل الشيخ كمال الدين بن الزملكانى عن نظر المارستان بسبب انتمائه إلى ابن تيمية باشارة المنبجى ، وباشره شمس الدين عبد القادر بن الخطيرى . وفى يوم الثلاثاء ثالث ربيع الآخر ولى قضاء الحنابلة بمصر الشيخ الامام الحافظ سعد الدين أبو محمود مسعود بن أحمد ابن مسعود بن زين الدين الحارثى ، شيخ الحديث بمصر ، بعد وفاة القاضى شرف الدين أبى محمد عبدالغنى بن يحيى بن محمد بن عبد الله بن نصر بن أبى بكر الحرانى . وفى جمادى الأولى برزت المراسيم السلطانية المظفرية إلى البلاد السواحلية بابطال الخمور وتخريب الحانات ونفى أهلها ، ففعل ذلك وفرح المسلمون بذلك فرحاشديداً .وفى مستهل جمادى الآخرة وصل بريد بتولية قضاء الحنابلة بدمشق للشيخ شهاب الدين أحمد بن شريف الدين حسن بن الحافظ جمال الدين أبى موسى عبد الله بن الحافظ عبد الغنى المقدسى ، عوضا عن التقى سليمان بن حمزة بسبب تكلمه فى نزول الملك الناصر عن الملك ، وأنه إنما نزل عنه مضطهدا بذلك ، ليس بمختار ، وقد صدق فيما قال. وفى عشرين جمادى الآخرة وصل البريد بولاية شد الدواوين للأمير سيف الدين بكتمر الحاجب ، عوضا عن الرستمى فلم يقبل، و بنظر الخزانة للأمير عز الدين أحمد بن زين الدين محمد بن أحمد بن محمود المعروف بابن القلانسى ، فباشرها وعزل عنها البصراوى محتسب البلد . وفى هذا الشهر باشر قاضى القضاة ابن جماعة مشيخة سعيد السعداء

بالقاهرة بطلب الصوفية له ؛ ورضوا منه بالحضور عندهم فى الجمعة مرة واحدة ، وعزل عنها الشيخ كريم الدين الايكى ،لأنه عزل منها الشهود ،فثاروا عليه وكتبوا فى حقه محاضر بأشياء قادحة فى الدين ؛ فرسم بصرفه عنهم ، وعومل بنظير ما كان يعامل به الناس ؛ ومن جملة ذلك قيامه على شيخ الاسلام ابن تيمية وافتراؤه عليه الكذب ، مع جهله وقلة ورعه ؛ فعجل الله له هذا الخزى على يدى أصحابه وأصدقائه جزاء وفاقا .

وفى شهر رجب كثر الخوف بدمشق وانتقل الناس من ظاهرها إلى داخلها ، وسبب ذلك أن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ركب من الكرك قاصداً دمشق يطلب عوده إلى الملك ؛ وقد مالأه جماعة من الأمراء وكاتبوه فى الباطن وناصحوه ،وقفز إليه جماعة من أمراء المصريين ، وتحدث الناس بسفر نائب دمشق الأفرم إلى القاهرة ، وأن يكون مع الجم الغفير ، فاضطرب الناس ولم تفتح أبواب البلد إلى ارتفاع النهار ، وتخبطت الأمور ، فاجتمع القضاة وكثير من الأمراء بالقصر وجددوا البيعة للملك المظفر ؛ وفى آخر نهار السبت غلقت أبواب البلد بعد العصر وازدحم الناس بباب النصر وحصل لهم تعب عظيم ؛ وازدحم البلد بأهل القرى وكثر الناس بالبلد ، وجاء البريد بوصول الملك الناصر إلى الخمان ، فانزعج نائب الشام لذلك وأظهر أنه يريد قتاله ومنعه من دخول البلد ، وقفز إليه الاميران ركن الدين بيبرس المجنون ،وبيبرس العلمى ، وركب إليه الاميرسيف الدين بكتمر حاجب الحجاب يشير عليه بالرجوع ، ويخبره بأنه لاطاقة له بقتال المصريين ؛ ولحقه الأمير سيف الدين بهادرا يشير عليه بمثل ذلك ، ثم عاد إلى دمشق يوم الثلاثاء خامس رجب وأخبر أن السلطان الملك الناصر قد عاد إلى الكرك ، فسكن الناس ورجع نائب السلطنة إلى القصر ، وتراجع بعض الناس إلى مساكنهم ، واستقروا بها .

﴿ صفة عود الملك الناصر ﴾

« محمد بن الملك المنصور قلاوون إلى الملك وزوال دولة المظفر الجاشنكير بيبرس
وخذلانه وخذلان شيخه نصر المنبجى الاتحادى الحلولى »

لما كان ثالث عشر شعبان جاء الخبر بقدوم الملك الناصر إلى دمشق ، فساق إليه الأميران سيف الدين قطلو بك والحاج بهادر إلى الكرك ، وحضاه على المجىء إليها ؛واضطرب نائب دمشق وركب فى جماعة من أتباعه على الهجن فى سادس عشر شعبان ومعه ابن صبيح صاحب شقيف أربون ، وهيئت بدمشق أبهة السلطنة والاقامات اللائقة به ، والعصائب والكوسات ؛ وركب من الكرك فى أبهة عظيمة ، وأرسل الأمان إلى الأفرم ، ودعا له المؤذنون فى المأذنة ليلة الاثنين سابع عشر شعبان ، وصبيح بالدعاء له والسرور بذكره ، ونودى فى الناس بالأمان ؛ وأن يفتحوا دكاكينهم

ويأمنوا فى أوطانهم . وشرع الناس فى الزينة ودقت البشائر ونام الناس فى الاسطحة ليلة الثلاثاء ليتفرجوا على السلطان حين يدخل البلد ، وخرج القضاة ، والامراء والأعيان لتلقيه .

قال كاتبه ابن كثير : وكنت فيمن شاهد دخوله يوم الثلاثاء وسط النهار فى أبهة عظيمة و بسط له من عند المصلى وعليه أبهة الملك وبسطت الشقاق الحرير تحت أقدام فرسه ، كلما جاوز شقة طويت من ورائه ، والجد على رأسه والأمراء السلحدارية عن يمينه وشماله . وبين يديه ، والناس يدعون له ويضجون بذلك ضجيجا عاليا . وكان يوماً مشهوداً . قال الشيخ علم الدين البرزالى : وكان على السلطان يومئذ عمامة بيضاء ، وكلوتة حمراء ، وكان الذى حمل الغاشية على رأس السلطان الحاج بهادر وعليه خلعة معظمة مذهبة بفرو فاخم . ولما وصل إلى القلعة نصب له الجسر ونزل إليه نائبها الأمير سيف الدين السنجرى . فقبل الأرض بين يديه ، فأشار إليه إنى الآن لا أنزل ههنا ، وسار بفرسه إلى جهة القصر الأبلق والامراء بين يديه . فخطب له يوم الجمعة .

وفى بكرة يوم السبت الثانى والعشرين من الشهر وصل الأمير جمال الدين آقوش الأفرم نائب دمشق مطيعاً للسلطان ، فقبل الأرض بين يديه . فترجل له السلطان وأكرمه وأذن له فى مباشرة النيابة على عادته ، وفرح الناس بطاعة الأفرم له ، ووصل إليه أيضا الامير سيف الدين قبجق نائب حماة ، والامير سيف الدين استدمر نائب طرابلس يوم الاثنين الرابع والعشرين من شعبان . وخرج الناس لتلقيهما ، وتلقاهما السلطان كما تلقى الأفرم . وفى هذا اليوم رسم السلطان بتقليد قضاء الحنابلة وعوده إلى تقى الدين سليمان ، وهنأه الناس وجاء إلى السلطان إلى القصر فسلم عليه ومضى إلى الجوزية فحكم بها ثلاثة أشهر ، وأقيمت الجمعة الثانية بالميدان وحضر السلطان والقضاة إلى جانبه ، وأكابر الامراء والدولة ، وكثير من العامة . وفى هذا اليوم وصل إلى السلطان الامير قراسنقر المنصورى نائب حلب وخرج دهليز السلطان يوم الخميس رابع رمضان ومعه القضاة والقراء وقت العصر ، وأقيمت الجمعة خامس رمضان بالميدان أيضاً ، ثم خرج السلطان من دمشق يوم الثلاثاء تاسع رمضان . وفى صحبته ابن صصرى وصدر الدين الحنفى قاضى العساكر ، والخطيب جلال الدين . والشيخ كمال الدين بن الزملكانى ، والموقعون وديوان الجيش وجيش الشام بكماله قد اجتمعوا عليه من سائر مدنه وأقاليمه بنوا به وأمرائه . فلما انتهى السلطان إلى غزة دخلها فى أبهة عظيمة . وتلقاه الأمير سيف الدين بهادر هو وجماعة من أمراء المصريين ، فأخبروه أن الملك المظفر قد خلع نفسه من المملكة ، ثم تواتر قدوم الامراء من مصر إلى السلطان وأخبروه بذلك ، فطابت قلوب الشاميين واستبشروا بذلك ودقت البشائر وتأخر مجىء البريد بصورة الناصرى .

واتفق فى يوم هذا العيد أنه خرج نائب الخطيب الشيخ تقى الدين الجزرى المعروف بالمقضاى فى السناجق إلى المصلى على العادة ، واستناب فى البلد الشيخ مجد الدين التونسى ، فلما وصلوا إلى المصلى وجدوا خطيب المصلى قد شرع فى الصلاة فنصبت السناجق فى صحن المصلى وصلى بينهما تقى الدين المقضاى ثم خطب ، وكذلك فعل ابن حسان داخل المصلى ، فعقد فيه صلاتان وخطبتان يومئذ ، ولم يتفق مثل هذا فيما نعلم .

وكان دخول السلطان الملك الناصر إلى قلعة الجبل آخر يوم عيد الفطر من هذه السنة ، ورسم اسلار أن يسافر إلى الشوبك ، واستناب بمصر الأمير سيف الدين بكتمر الجوكندار الذى كان نائب صفد ، وبالشام الأمير قراسنقر المنصورى ، وذلك فى العشرين من شوال ، واستوزر الصاحب فخر الدين الخليلى بعدها بيومين ، وباشر القاضى فخر الدين كاتب المماليك نظر الجيوش بمصر بعد بهاء الدين عبد الله بن أحمد بن على بن المظفر الحلى ، توفى ليلة الجمعة عاشر شوال ، وكان من صدور المصريين وأعيان الكبار ، وقد روى شيئا من الحديث ، وصرف الأمير جمال الدين آقوش الأفرم إلى نيابة صرخد وقدم إلى دمشق الأمير زين الدين كتبغا رأس نوبة الجمدارية شد الدواوين ، وأستاذ دار الاستادارية عوضا عن سيف الدين أقجبا ، وتغيرت الدولة وانقلبت قلبة عظيمة .

قال الشيخ علم الدين البرزالى : ولما دخل السلطان إلى مصر يوم عيد الفطر لم يكن له دأب إلا طلب الشيخ تقى الدين بن تيمية من الاسكندرية معززا مكرما مبجلا ، فوجه إليه فى ثانى يوم من شوال بعد وصوله بيوم أو يومين ، فقدم الشيخ تقى الدين على السلطان فى يوم ثامن الشهر وخرج مع الشيخ خلق من الاسكندرية يودعونه ، واجتمع بالسلطان يوم الجمعة فأكرمه وتلقاه ومشى إليه فى مجلس حفل ، فيه قضاة المصريين والشاميين ، وأصلح بينه وبينهم ، ونزل الشيخ إلى القاهرة وسكن بالقرب من مشهد الحسين ، والناس يترددون إليه ، والامراء والجند وكثير من الفقهاء والقضاة منهم من يعتذر إليه ويتنصل مما وقع منه ، فقال أنا حاللت كل من أذانى .

قلت : وقد أخبرنى القاضى جمال الدين بن القلانسى بتفاصيل هذا المجلس وما وقع فيه من تعظيمه وإكرامه مما حصل له من الشكر والمدح من السلطان والحاضرين من الأمراء ، وكذلك أخبرنى بذلك قاضى القضاة منصور الدين الحنفى ، ولكن أخبار ابن القلانسى أكثر تفصيلا ، وذلك أنه كان إذ ذاك قاضى العساكر ، وكلاهما كان حاضرا هذا المجلس ، ذكر لى أن السلطان لما قدم عليه الشيخ تقى الدين بن تيمية نهض قائما للشيخ أول مارآه ، ومشى له إلى طرف الايوان واعتنقا هناك هنيهة ، ثم أخذ معه ساعة إلى طبقة فيها شباك إلى بستان فجلسا ساعة يتحدثان ، ثم جاء ويد الشيخ فى يد السلطان ، فجلس السلطان وعن يمينه ابن جماعة قاضى مصر ، وعن يساره ابن

الخليلى الوزير ، وتحته ابن صصرى ، ثم صدر الدين على الحنفى ، وجلس الشيخ تقى الدين بين يدى السلطان على طرف طراحته . وتكلم الوزير فى إعادة أهل الذمة إلى لبس العمائم البيض بالعلائم ، وأنهم قد التزموا للديوان بسبع مائة ألف فى كل سنة ، زيادة على الحالية ، فسكت الناس وكان فيهم قضاة مصر والشام وكبار العلماء من أهل مصر والشام من جملتهم ابن الزملكانى . قال ابن القلانسى : وأنا فى مجلس السلطان إلى جنب ابن الزملكانى ، فلم يتكلم أحد من العلماء ولا من القضاة . فقال لهم السلطان : ما تقولون ؟ يستفتيهم فى ذلك ، فلم يتكلم أحد ، فجثى الشيخ تقى الدين على ركبتيه وتكلم مع السلطان فى ذلك بكلام غليظ ورد على الوزير ما قاله ردا عنيفا ، وجعل يرفع صوته والسلطان يتلافاه ويسكته بترفق وتؤدة وتوقير . وبالغ الشيخ فى الكلام وقال مالا يستطيع أحد أن يقوم بمثله ، ولا بقريب منه ، وبالغ فى التشنيع على من يوافق فى ذلك . وقال للسلطان : حاشاك أن يكون أول مجلس جلسته فى أبهة الملك تنصر فيه أهل الذمة لأجل حطام الدنيا الفانية . فاذكر نعمة الله عليك إذ رد ملكك إليك ، وكبت عدوك ونصرك على أعدائك فذكر أن الجاشنكير هو الذى جدد عليهم ذلك ، فقال : والذى فعله الجاشنكير كان من مراسيمك لأنه إنما كان نائبا لك . فأعجب السلطان ذلك واستمر بهم على ذلك ، وجرت فصول يطول ذكرها. وقد كان السلطان أعلم بالشيخ من جميع الحاضرين ، ودينه وزينته وقيامه بالحق وشجاعته ، وسمعت الشيخ تقى الدين يذكر ما كان بينه وبين السلطان من الكلام لما انفردا فى ذلك الشباك الذى جلسا فيه ، وأن السلطان استفتى الشيخ فى قتل بعض القضاة بسبب ما كانوا تكلموا فيه ، وأخرج له فتاوى بعضهم بعزله من الملك ومبايعة الجاشنكير ، وأنهم قاموا عليك وآذوك أنت أيضا ، وأخذ يحثه بذلك على أن يفتيه فى قتل بعضهم ، وإنما كان حنقه عليهم بسبب ما كانوا سعوا فيه من عزله ومبايعة الجاشنكير ، ففهم الشيخ مراد السلطان فأخذ فى تعظيم القضاة والعلماء ، وينكر أن ينال أحدا منهم بسوء . وقال له : إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم ، فقال له إنهم قد آذوك وأرادوا قتلك مرارا ، فقال الشيخ من آذانى فهو فى حل ، ومن آذى الله ورسوله فالله ينتقم منه ، وأنا لا أنتصر لنفسى ، ومازال به حتى حلم عنهم السلطان وصفح .

قال وكان قاضى المالكية ابن مخلوف يقول : ما رأينا مثل ابن تيمية حرضنا عليه فلم نقدر عليه وقدر علينا فصفح عنا وحاجج عنا ، ثم إن الشيخ بعد اجتماعه بالسلطان نزل إلى القاهرة وعاد إلى بث العلم ونشره ، وأقبلت الخلق عليه ورحلوا إليه يشتغلون عليه ويستفتونه ويجيبهم بالكتابة والقول ، وجاء الفقهاء يعتذرون مما وقع منهم فى حقه فقال : قد جعلت الكل فى حل . وبعث الشيخ كتابا إلى أهله يذكر ماهو فيه من نعم الله وخيره الكثير ، ويطلب منهم جملة من كتب

العلم التى له و يستعينوا عـلى ذلك بجمال الدين المزى ، فانه يدرى كيف يستخرج له ما يريده من الكتب التى أشار إليها ، وقال فى هذا الكتاب : والحق كل ماله فى علو وازدياد وانتصار ، والباطل فى انخفاض وسـفول واضحلال ، وقـد أذل الله رقاب الخصوم ، وطلب أكابرهم من السلم ما يطول وصفه ، وقد اشترطنا عليهم من الشروط ما فيه عز الاسلام والسنة ، وما فيه قمع الباطل والبدعة ، وقد دخلوا تحت ذلك كله وامتنعنا من قبول ذلك منهـم ، حتى يظهر إلى الفعل ، فلم نثق لهم بقول ولا عهد ، ولم نجبهم إلى مطلوبهم حتى يصير المشروط معمولا ، والمـذكور مفعولا ، ويظهر من عز الاسـلام والسنة للخاصة والعامـة ما يكون من الحسنات التى تمحو سيئاتهـم ، وذكر كلاما طويلا يتضمن ماجرى له مع السلطان فى قمع اليهود والنصارى وذلهم ، وتركهم على ماهم عليـه من الذلة والصغار والله سبحانه أعلم .

وفى شوال أمسك السلطان جماعة من الأمراء قريبا من عشرين أميرا ، وفى سادس عشر شوال وقع بين أهل حوران من قيس ويمن فقتل منهم مقتلة عظيمة جدا ، قتل من الفريقين نحو من ألف نفس بالقرب من السوداء ، وهم يسمونها السويداء ، ووقعة السويداء ، وكانت الكسرة على يمن فهربوا من قيس حتى دخل كثير منهم إلى دمشق فى أسوأ حال وأضعفه ، وهربت قيس خوفا من الدولة ، وبقيت القرى خالية والزروع سائبة . فانا لله وإنا اليه راجعون .

وفى يوم الأربعاء سادس القعدة قدم الأمير سيف الدين قبجق المنصورى نائبا عـلى حلب فنزل القصر ومعـه جماعة من أمراء المصريين ، ثم سافر إلى حلب بمن معه من الأمراء والأجناد واجتاز الأمير سـيف الدين بهادر بدمشق ذاهبا إلى طرابلس نائبـا والفتوحات السواحلية عوضا عن الامير سيف الدين استدمر، ووصل جماعة ممن كان قدسافر مع السلطان إلى مصر فى ذى القعدة منهم قاضى قضاة الحنفية صدر الدين ، ومحيى الدين بن فضل الله وغـيرهما ، فقمت وجلست يوماً إلى القاضى صدر الدين الحنفى بعـد مجيئه من مصر فقـال لى أتحب ابن تيمية ؟ قلت : نعم ، فقال لى وهو يضحك : والله لقد أحببت شيئا مليحا، وذكر لى قريبا مما ذكر ابن القلانسى، لكن سياق ابن القلانسى أتم .

﴿ ذكر مقتل الجاشنكيرى ﴾

كان قد فر الخبيث فى جماعة من أصحابه ، فلما خرج الأمير سيف الدين قراسنقر المنصورى من مصر متوجها إلى نيابة الشام عوضا عن الافرم ، فلما كان بغزة فى سابع ذى القعدة ضرب حلقة لأجل الصيد ، فوقع فى وسطها الجاشنكير فى ثلاثمائة من أصحابه فأحيط بهم وتفرق عنـه أصحابه فأمسكوه ورجع معه قراسنقر وسيف الدين بهادر على الهجن، فلما كان بالخطارة تلقاهم استدمر فتسلمه منهم

ورجعا إلى عسكرهم ، ودخل به استدمر على السلطان فعاتبه ولامه . وكان آخر العهد به،قتل ودفن بالقرافة ولم ينفعه شيخه المنبجى ولا أمواله ، بل قتل شر قتلة ودخل قراسنقر دمشق يوم الاثنين الخامس والعشرين من ذى القعدة فنزل بالقصر ، وكان فى صحبته ابن صصرى وابن الزملكانى وابن القلانسى وعلاء الدين بن غانم وخلق من الامراء المصريين والشاميين، وكان الخطيب جلال الدين القزوينى قد وصل قبلهم يوم الخميس الثانى والعشرين من الشهر ، وخطب يوم الجمعة على عادته ، فلما كان يوم الجمعة الأخرى وهو التاسع والعشرون من الشهر خطب بجامع دمشق القاضى بدر الدين محمد بن عثمان بن يوسف بن حداد الحنبلى عن إذن نائب السلطنة . وقرئ تقليده على المنبر بعد الصلاة بحضرة القضاة والاكابر والأعيان،وخلع عليه عقيب ذلك خلعة سنية،واستمر يباشر الامامة والخطابة اثنين وأربعين يوما ،ثم أعيد الخطيب جلال الدين بمرسوم سلطانى وباشر يوم الخميس ثانى عشر المحرم من السنة الآتية .

وفى ذى الحجة درس كمال الدين بن الشيرازى بالمدرسة الشامية البرانية ، انتزعها من يد الشيخ كمال الدين بن الزملكانى ، وذلك أن استدمر ساعده على ذلك . وفيها أظهر ملك التتر خربندا الرفض فى بلاده ، وأمر الخطباء أولا أن لا يذكروا فى خطبتهم إلا على بن أبى طالب رضى الله عنه وأهل بيته ، ولما وصل خطيب بلاد الازج إلى هذا الموضع من خطبته بكى بكاءاً شديداً وبكى الناس معه ونزل ولم يتمكن من إتمام الخطبة . فأقيم من أتمها عنه وصلى بالناس وظهر على الناس بتلك البلاد من أهل السنة أهل البدعة فانالله وإنا إليه راجعون. ولم يحج فيها أحد من أهل الشام بسبب تخبيط الدولة وكثرة الاختلاف «وممن توفى فيها من الاعيان»

﴿ الخطيب ناصر الدين أبو الهدى ﴾

أحمد بن الخطيب بدر الدين يحيى بن الشيخ عز الدين بن عبد السلام خطيب العقيبة بداره بها وقد باشر نظر الجامع الاموى وغير ذلك ، توفى يوم الاربعاء النصف من المحرم ، وصلى عليه بجامع العقيبة ، ودفن عند والده بباب الصغير ، وقد روى الحديث وباشر الخطابة بعد والده بدر الدين وحضر عنده نائب السلطنة والقضاة والأعيان .

﴿ قاضى الحنابلة بمصر ﴾

شرف الدين أبو محمد عبد الغنى بن يحيى بن محمد بن عبد الله بن نصر بن أبى بكر الحرانى ولد بحران سنة خمس وأربعين وستمائة ، وسمع الحديث وقدم مصر فباشر نظر الخزانة وتدريس الصالحية ثم أضيف إليه القضاء ، وكان مشكور السيرة كثير المكارم توفى ليلة الجمعة رابع عشر ربيع الاول ودفن بالقرافة ، وولى بعده سعد الدين الحارثى كما تقدم .

﴿ الشيخ نجم الدين ﴾

أيوب بن سليمان بن مظفر المصري المعروف بمؤذن النجيبي ، كان رئيس المؤذنين بجامع دمشق ونقيب الخطباء ، وكان حسن الشكل رفيع الصوت ، واستمر بذلك نحوا من خمسين سنة إلى أن توفي في مستهل جمادى الأولى . وفي هذا الشهر توفي .

﴿ الأمير شمس الدين سنقر الأعسر المنصوري ﴾

تولى الوزارة بمصر مع شد الدواوين معاً ، وباشر شد الدواوين بالشام مرات ، وله دار و بستان بدمشق مشهوران به ، وكان فيه نهضة وله همة عالية وأموال كثيرة ، توفي بمصر .

﴿ الأمير جمال الدين آقوش بن عبد الله الرسيمي ﴾

شاد الدواوين بدمشق ، وكان قبل ذلك والي الولاة بالجهة القبلية بعد الشريفي ، وكانت له سطوة توفي يوم الأحد تاسع عشر جمادى الأولى ودفن ضحوة بالقبة التي بناها تجاه قبة الشيخ رسلان ، وكان فيه كفاية وخبرة . وباشر بعده شد الدواوين أقبجا . وفي شعبان أو في رجب توفي .

﴿ التاج ابن سعيد الدولة ﴾

وكان مسلمانيا وكان سفير الدولة ، وكانت له مكانة عند الجاشنكير بسبب صحبته لنصر المنبجي شيخ الجاشنكير ، وقد عرضت عليه الوزارة فلم يقبل ، ولما توفي تولى وظيفته ابن أخته كريم الدين الكبير.

﴿ الشيخ شهاب الدين ﴾

أحمد بن محمد بن أبي المكارم بن نصر الاصبهاني رئيس المؤذنين بالجامع الأموي ، ولد سنة اثنتين وستمائة ، وسمع الحديث و باشر وظيفة الأذان من سنة خمس وأربعين إلى أن توفي ليلة الثلاثاء خامس ذي القعدة ، وكان رجلا جيداً والله سبحانه أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة عشر وسبعمائة ﴾

استهلت وخليفة الوقت المستكفي بالله أبو الربيع سليمان العباسي ، وسلطان البلاد الملك الناصر محمد بن المنصور قلاوون ، والشيخ تقي الدين بن تيمية مقيم بمصر معظما مكرما ، ونائب مصر الأمير سيف الدين بكتمر أمير خزندار ، وقضاته هم المذكورون في التي قبلها ، سوى الحنبلي فانه سعد الدين الحارثي ، والوزير بمصر فخر الدين الخليلي ، وناظر الجيوش فخر الدين كاتب المماليك ، ونائب الشام قرا سنقر المنصوري ، وقضاة دمشق هم هم ، ونائب حلب قبجق ، ونائب طرابلس الحاج بهادر والأفرم بصرخد .

وفي محرم منها باشر الشيخ أمين الدين سالم بن أبي الدرين وكيل بيت المال إمام مسجد هشام تدريس الشامية الجوانية ، والشيخ صدر الدين سليمان بن موسى الكردي تدريس العذراوية ، كلاهما

انتزعها من ابن الوكيل بسبب إقامته بمصر، وكان قد وفد إلى المظفر فألزمه رواتب لانتمائه إلى المنبجى، ثم عاد بتوقيع سلطانى إلى مدرستيه، فأقام بهما شهراً أو سبعة وعشرين يوما، ثم استعاداهما منه ورجعتا إلى المدرسين الأولين: الأمين سالم، والصدر الكردى. ورجع الخطيب جلال الدين إلى الخطابة فى سابع عشر المحرم، وعزل عنها البدر بن الحداد. وباشر الصاحب شمس الدين نظر الجامع والأسرى والأوقاف قاطبة يوم الاثنين، ثم خلع عليه وأضيف إليه شرف الدين بن صصرى فى نظر الجامع. وكان ناظره مستقلا به قبلهما. وفى يوم عاشوراء قدم استدمر إلى دمشق متولياً نيابة حماة، وسافر إليها بعد سبعة أيام.

وفى المحرم باشر بدر الدين بن الحداد نظر المارستان عوضاً عن شمس الدين بن الخطيرى ووقعت منازعة بين صدر الدين بن المرحل وبين الصدر سليمان الكردى بسبب العذراوية، وكتبوا إلى الوكيل محضراً يتضمن من القبائح والفضائح والكفريات على ابن الوكيل، فبادر ابن الوكيل إلى القاضى تقى الدين سليمان الحنبلى، فحكم باسلامه وحقن دمه، وحكم باسقاط التعزير عنه والحكم بعدالته واستحقاقه إلى المناصب. وكانت هذه هفوة من الحنبلى. ولكن خرجت عنه المدرستان العذراوية لسليمان الكردى، والشامية الجوانية للأمين سالم، ولم يبق معه سوى دار الحديث الاشرفية. وفى ليلة الاثنين السابع من صفر وصل النجم محمد بن عثمان البصراوى من مصر متوليا الوزارة بالشام، ومعه توقيع بالحسبة لاخيه فخر الدين سليمان، فباشرا المنصبين بالجامع، ونزلا بدرب سفون الذى يقال له درب ابن أبى الهيجاء، ثم انتقل الوزير إلى دار الاعسر عند باب البريد. واستمر نظر الخزانة لعز الدين أحمد بن القلانسى أخى الشيخ جلال الدين.

وفى مستهل ربيع الأول باشر القاضى جمال الدين الزرعى قضاء القضاة بمصر عوضا عن ابن جماعة، وكان قد أخذ منه قبل ذلك فى ذى الحجة مشيخة الشيوخ. وأعيدت إلى الكريم الايكى، وأخذت منه الخطابة أيضا. وجاء البريد إلى الشام بطلب القاضى شمس الدين بن الحريرى لقضاء الديار المصرية، فسار فى العشرين من ربيع الأول وخرج معه جماعة لتوديعه. فلما قدم على السلطان أكرمه وعظمه وولاه قضاء الحنفية وتدريس الناصرية والصالحية. وجامع الحاكم، وعزل عن ذلك القاضى شمس الدين السروجى فمكث أياما ثم مات.

وفى نصف هذا الشهر مسك من دمشق سبعة أمراء ومن القاهرة أربعة عشر أميراً. وفى ربيع الآخر اهتم السلطان بطلب الامير سيف الدين سلار فحضر هو بنفسه إليه فعاتبه ثم استخلص منه أمواله وحواصله فى مدة شهر. ثم قتل بعد ذلك فوجد معه من الاموال والحيوان والاملاك والاسلحة والمماليك والبغال والحمير أيضا والرباع شيئا كثيرا، وأما الجواهر والذهب والفضة فشئ لا يحد

ولا يوصف فى كثرته ، وحاصل الأمر أنه قد استأثر لنفسه طائفة كبيرة من بيت المال وأموال المسلمين تجرى إليه ، ويقال إنه كان مع ذلك كثير العطاء كريما محببا إلى الدولة والرعية والله أعلم .

وقد باشر نيابة السلطنة بمصر من سنة ثمان وتسعين إلى أن قتل يوم الأربعاء رابع عشرين هذا الشهر ، ودفن بتربته ليلة الخميس بالقرافة ، سامحه الله . وفى ربيع الآخر درس القاضى شمس الدين بن المعز الحنفى بالظاهرية عوضاً عن شمس الدين الحريرى ، وحضر عنده خاله الصدر على قاضى قضاة الحنفية وبقية القضاة والأعيان . وفى هذا الشهر كان الأمير سيف الدين استدمر قد قدم دمشق لبعض أشغاله ، وكان له حنو على الشيخ صدر الدين بن الوكيل ، فاستنجز له مرسوماً بنظر دار الحديث وتدريس العذراوية ، فلم يباشر ذلك حتى سافر استدمر ، فاتفق أنه وقعت له بعد يومين كائنة بدار ابن درباس بالصالحية ، وذكر أنه وجد عنده شئ من المنكرات ، واجتمع عليه جماعة من أهل الصالحية مع الحنابلة وغيرهم ، وبلغ ذلك نائب السلطنة فكاتب فيه ، فورد الجواب بعزله عن المناصب الدينية ، فخرجت عنه دار الحديث الاشرفية وبقى بدمشق وليس بيده وظيفة لذلك ، فلما كان فى آخر رمضان سافر إلى حلب فقرر له نائبها استدمر شيئاً على الجامع ، ثم ولاه تدريساً هناك وأحسن إليه ، وكان الأمير استدمر قد انتقل إلى نيابة حلب فى جمادى الآخرة عوضاً عن سيف الدين قبجق توفى ، وباشر مملكة حماة بعده الأمير عماد الدين إسماعيل بن الأفضل على بن محمود بن تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، وانتقل جمال الدين آقوش الأفرم من صرخد إلى نيابة طرابلس عوضا عن الحاج بهادر . وفى يوم الخميس سادس عشر شعبان باشر الشيخ كمال الدين ابن الزملكانى مشيخة دار الحديث الأشرفية عوضا عن ابن الوكيل ، وأخذ فى التفسير والحديث والفقه ، فذكر من ذلك دروسا حسنة ، ثم لم يستمر بها سوى خمسة عشر يوما حتى انتزعها منه كمال الدين ابن الشريشى فباشرها يوم الاحد ثالث شهر رمضان . وفى شعبان رسم قراسنقر نائب الشام بتوسعة المقصورة ، فأخرت سدة المؤذنين إلى الركنين المؤخرين تحت قبة النسر ، ومنعت الجنائز من دخول الجامع أياماً ثم أذن فى دخولهم .

وفى خامس رمضان قدم فخر الدين إياس الذى كان نائبا فى قلعة الروم إلى دمشق شاد الدواوين عوضا عن زين الدين كتبغا المنصورى . وفى شوال باشر الشيخ علاء الدين على بن إسماعيل القونوى مشيخة الشيوخ بالديار المصرية عوضا عن الشيخ كريم الدين عبد الكريم بن الحسين الايكى توفى ، وكان له تحرير وهمة ، وخلع على القونوى خلعة سنية ، وحضر سعيد السعداء بها . وفى يوم الخميس ثالث ذى القعدة خلع على الصاحب عز الدين القلانسى خلعة الوزراء بالشام عوضا عن النجم البصراوى بحكم إقطاعه إمرة عشرة وإعراضه عن الوزارة . وفى يوم الاربعاء سادس عشر ذى القعدة

عاد الشيخ كمال الدين بن الزملكانى إلى تدريس الشامية البرانية . وفى هذا اليوم لبس تقى الدين ابن الصاحب شمس الدين بن السلعوس خلعة النظر على الجامع الأموى . ومسك الأمير سيف الدين استدمر نائب حلب فى ثانى ذى الحجة ودخل إلى مصر ، وكذلك مسك نائب البيرة سيف الدين ضرغام بعده بليال .

وممن توفى فيها من الأعيان .

﴿ قاضى القضاة شمس الدين أبو العباس ﴾

أحمد بن إبراهيم بن عبد الغنى السروجى الحنفى ، شارح الهداية ، كان بارعا فى علوم شتى ، وولى الحكم بمصر مدة وعزل قبل موته بأيام ، توفى يوم الخميس ثانى عشر ربيع الآخر ودفن بقرب الشافعى وله اعتراضات على الشيخ تقى الدين بن تيمية فى علم الكلام ، أضحك فيها على نفسه ، وقد رد عليه الشيخ تقى الدين فى مجلدات ، وأبطل حجته . وفيها توفى سلار مقتولا كما تقدم .

﴿ الصاحب أمين الدين ﴾

أبو بكر بن الوجيه عبد العظيم بن يوسف المعروف بابن الرقاقى . والحاج بهادر نائب طرابلس مات بها ﴿ والأمير سيف الدين قبجق ﴾ نائب حلب مات بها ودفن بتربته بحماه ، ثانى جمادى الآخرة وكان شهما شجاعا . وقد ولى نيابة دمشق فى أيام لاجين . ثم قفز إلى التتر خوفا من لاجين ، ثم جاء مع التتر . وكان على يديه فرج المسلمين كما ذكرنا عام قازان ، ثم تنقلت به الأحوال إلى أن مات بحلب . ثم وليها بعده استدمر ومات أيضا فى آخر السنة .

وفيها توفى . ﴿ الشيخ كريم الدين بن الحسين الأيكى ﴾

شيخ الشيوخ بمصر ، كان له صلة بالأمراء ، وقد عزل مرة عن المشيخة بابن جماعة ، توفى ليلة السبت سابع شوال بخانقاه سعيد السعداء ، وتولاها بعده الشيخ علاء الدين القونوى كما تقدم .

﴿ الفقيه عز الدين عبد الجليل ﴾

النمراوى الشافعى ، كان فاضلا بارعا ، وقد صحب سلار نائب مصر وارتفع فى الدنيا بسببه .

﴿ ابن الرفعة ﴾

هو الامام العلامة نجم الدين أحمد بن محمد شارح التنبيه . وله غير ذلك . وكان فقيها فاضلا وإماما فى علوم كثيرة رحمهم الله .

﴿ ثم دخلت سنة إحدى عشرة وسبعمائة ﴾

استهلت والحكام هم المذكورون فى التى قبلها غير الوزير بمصر فانه عزل وتولى سيف الدين بكتمر وزيرا . والنجم البصراوى عزل أيضا بعز الدين القلانسى . وقد انتقل الأفرم إلى نيابة

طرابلس باشارة ابن تيمية على السلطان بذلك ؛ ونائب حماة الملك المؤيد عماد الدين على قاعدة أسلافه ، وقد مات نائب حلب استدمر وهى شاغرة عن نائب فيها ، وأرغون الدوادار الناصرى قد وصل إلى دمشق لتسفير قراسنقر منها إلى حلب وإحضار سيف الدين كراى إلى نيابة دمشق ؛ وغالب العساكر بحلب والأعراب محدقة بأطراف البلاد ؛ فخرج قراسنقر المنصورى من دمشق فى ثالث المحرم فى جميع حواصله وحاشيته وأتباعه ، وخرج الجيش لتوديعه ؛ وسار معه أرغون لتقريره بحلب وجاء المرسوم إلى نائب القلعة الأمير سيف الدين بهادر السنجرى أن يتكلم فى أمور دمشق إلى أن يأتيه نائب ، فحضر عنده الوزير والموقعون وباشر النيابة ؛ وقويت شوكته وقويت شوكة الوزير إلى أن ولى ولايات عديدة منها لابن أخيه عماد الدين نظر الأسرار ، واستمر فى يده ، وقدم نائب السلطنة سيف الدين كراى المنصورى إلى دمشق نائبا عليها . وفى يوم الخميس الحادى عشرين من المحرم خرج الناس لتلقيه وأوقدوا الشموع ، وأعيدت مقصورة الخطابة إلى مكانها رابع عشرين المحرم ، وانفرج الناس ولبس النجم البصراوى خلعة الامرة يوم الخميس ثالث عشر صفر على قاعدة الوزراء بالطرحة ، وركب مع المقدمين الكبار وهو أمير عشرة باقطاع يضاهى إقطاع كبار الطبلخانات .

وفى يوم الاربعاء سابع عشر ربيع الأول جلس القضاة الاربعة بالجامع لانفاذ أمر الشهود بسبب تزوير وقع من بعضهم ، فاطلع عليه نائب السلطنة فغضب وأمر بذلك ، فلم يكن منه كبير شىء ، ولم يتغير حال . وفى هذا اليوم ولى الشريف نقيب الأشراف أمين الدين جعفر بن محمد بن محيى الدين عدنان نظر الدواوين عوضا عن شهاب الدين الواسطى ، وأعيد تقى الدين بن الزكى إلى مشيخة الشيوخ . وفيه ولى ابن جماعة تدريس الناصرية بالقاهرة ، وضياء الدين النسائى تدريس الشافعى ، والميعاد العام بجامع طولون ، ونظر الاحباس أيضا . وولى الوزارة بمصر أمين الملك أبو سعيد عوضا عن سيف الدين بكتمر الحاجب فى ربيع الآخر . وفى هذا الشهر احتيط على الوزير عز الدين ابن القلانسى بدمشق ؛ ورسم عليه مدة شهرين ؛ وكان نائب السلطنة كثير الحنق عليه ، ثم أفرج عنه وأعيد بدر الدين بن جماعة إلى الحكم بديار مصر فى حادى عشر ربيع الآخر ، مع تدريس دار الحديث الكاملية ، وجامع طولون والصالحية والناصرية ؛ وجعل له إقبال كثير من السلطان ؛ واستقر جمال الدين الزرعى على قضاء العسكر وتدريس جامع الحاكم ، ورسم له أن يجلس مع القضاة بين الحنفى والحنبلى بدار العدل عند السلطان .

وفى مستهل جمادى الأولى أشهد القاضى نجم الدين الدمشقى نائب ابن صصرى على نفسه بالحكم ببطلان البيع فى الملك الذى اشتراه ابن القلانسى من تركة المنصورى فى الرمثا والثوجة والفصالية لكونه بدون ثمن المثل ، ونفذه بقية الحكام ، وأحضر ابن القلانسى إلى دار السعادة وادعى عليه بريع

ذلك ، ورسم عليه بها ، ثم حكم قاضي القضاة تقي الدين الحنبلي بصحة هذا البيع و بنقض ما حكم به الدمشقي ، ثم نفذ بقية الحكام ما حكم به الحنبلي. و في هذا الشهر قرر على أهل دمشق ألف وخمسمائة فارس لكل فارس خمسمائة درهم ، وضربت على الاملاك والأوقاف ، فتألم الناس من ذلك تألماً عظيما وسعى إلى الخطيب جلال الدين فسعى إلى القضاة واجتمع الناس بكرة يوم الاثنين ثالث عشر الشهر واحتفلوا بالاجتماع وأخرجوا معهم المصحف العثماني والأثر النبوي والسناجق الخليفية ، ووقفوا في الموكب فلما رآهم كراي تغيظ عليهم وشتم القاضي والخطيب ، وضرب مجد الدين التونسي و رسم عليهم ثم أطلقهم بضمان وكفالة ، فتألم الناس من ذلك كثيرا ، فلم يمهله الله إلا عشرة أيام فجاءه الأمر فجأة فعزل وحبس ، ففرح الناس بذلك فرحا شديدا ، و يقال إن الشيخ تقي الدين بلغه ذلك الخبر عن أهل الشام فأخبر السلطان بذلك فبعث من فوره فمسكه شر مسكة ، وصفة مسكه أن تقدم الامير سيف الدين أرغون الدوادار فنزل في القصر ، فلما كان يوم الخميس الثالث والعشرين من جمادى الاولى خلع على الامير سيف الدين كراي خلعة سنية ، فلبسها وقبل العتبة ، وحضر الموكب ومد السماط ، فقيد بحضرة الامراء وحمل على البريد إلى الكرك صحبة غرلو العادلي ، و بيبرس المجنون . وخرج عز الدين القلانسي من الترسيم من دار السعادة ، فصلى في الجامع الظهر ثم عاد إلى داره وقد أوقدت له الشموع ودعا له الناس ، ثم رجع إلى دار الحديث الأشرفية فجلس فيها نحوا من عشرين يوما ، حتى قدم الأمير جمال الدين نائب الكرك .

و في هذا الشهر مسك نائب صفت الأمير سيف الدين بكتمر أمير خزندار ، وعوض عنه بالكرك بيبرس الدوادار المنصوري ، ومسك نائب غزة ، وعوض عنه بالجاولي ، فاجتمع في حبس الكرك استدمر نائب حلب ، و بكتمر نائب مصر ، وكراي نائب دمشق ، وقطلوبك نائب صفت ، وقلطتمز نائب غزة و بنحاص . وقدم جمال الدين آقوش المنصوري الذي كان نائب الكرك على نيابة دمشق إليها في يوم الاربعاء رابع عشر ربيع الآخر ، وتلقاه الناس وأشعلت له الشموع ، و في صحبته الخطيري لتقريره في النيابة ، وقد باشر نيابة الكرك من سنة تسعين وستمائة إلى سنة تسع وسبعمائة وله بها آثار حسنة ، وخرج عز الدين بن القلانسي لتلقي النائب . وقرئ يوم الجمعة كتاب السلطان على السدة بحضرة النائب والقضاة والاعيان ، وفيه الامر بالاحسان إلى الرعية و إطلاق البواقي التي كانت قد فرضت عليهم أيام كراي ، فكثرت الأدعية للسلطان وفرح الناس. و في يوم الاثنين التاسع عشر خلع على الأمير سيف الدين بهادراص بنيابة صفت فقبل العتبة وسار إليها يوم الثلاثاء ، وفيه لبس الصدر بدر الدين بن أبي الفوارس خلعة نظر الدواوين بدمشق ، مشاركا للشريف ابن عدنان و بعد ذلك بيومين قدم تقليد عز الدين بن القلانسي وكالة السلطان على ما كان عليه ، وأنه أعفي

عن الوزارة لكراهته لذلك .

وفى رجب باشر ابن السلعوس نظر الأوقاف عوضا عن شمس الدين عدنان . وفى شعبان ركب نائب السلطنة بنفسه إلى أبواب السجون فأطلق المحبوسين بنفسه، فتضاعفت له الأدعية فى الاسواق وغيرها . وفى هذا اليوم قدم الصاحب عز الدين بن القلانسى من مصر فاجتمع بالنائب وخلع عليه ومعه كتاب يتضمن احترامه وإكرامه واستمراره على وكالة السلطان ، ونظر الخاص والانكار لما ثبت عليه بدمشق ، وأن السلطان لم يعلم بذلك ولا وكل فيه ، وكان المساعد له على ذلك كريم الدين ناظر الخاص السلطانى ، والامير سيف الدين أرغون الدوادار . وفى شعبان منع ابن صصرى الشهود والعقاد من جهته ، وامتنع غيرهم أيضاً وردهم المالكى . وفى رمضان جاء البريد بتولية زين الدين كتبغا المنصورى حجوبية الحجاب ، والأمير بدر الدين ملتوبات القرمانى شد الدواوين عوضا عن طوغان ، وخلع عليهما معا ، وفيها ركب بهادر السنجرى نائب قلعة دمشق على البريد إلى مصر وتولاها سيف الدين بلبان البدرى ، ثم عاد السنجرى فى آخر النهار على نيابة البيرة ، فسار إليها وجاء الخبر بأنه قد احتيط على جماعة من قصاد المسلمين ببغداد ، فقتل منهم ابن العقاب وابن البدر ، وخلص عبيدة وجاء سالما . وخرج المحمل فى شوال وأمير الحاج الامير علاء الدين طيبغا أخوبها دراص .

وفى آخر ذى القعدة جاء الخبر بأن الأمير قرا سنقر رجع من طريق الحجاز بعد أن وصل إلى بركة زيزاء ، وأنه لحق بمهنا بن عيسى فاستجار به خائفا على نفسه ومعه جماعة من خواصه ، ثم سار من هناك إلى التتر بعد ذلك كله ، وصحبه الأفرم والزردكاش . وفى العشرين من ذى القعدة وصل الأمير سيف الدين أرغون فى خمسة آلاف إلى دمشق وتوجهوا إلى ناحية حمص ، وتلك النواحى . وفى سابع ذى الحجة وصل الشيخ كمال الدين بن الشريشى من مصر مستمرا على وكالته ومعه توقيع بقضاء العسكر الشامى ، وخلع عليه فى يوم عرفة . وفى هذا اليوم وصلت ثلاثة آلاف عليهم سيف الدين ملى من الديار المصرية فتوجهوا وراء أصحابهم إلى البلاد الشمالية . وفى آخر الشهر وصل شهاب الدين الكاشغرى من القاهرة ومعه توقيع بمشيخة الشيوخ ، فنزل فى الخانقاه وباشرها بحضرة القضاة والأعيان ، وانفصل ابن الزكى عنها . وفيه باشر الصدر علاء الدين بن تاج الدين بن الأثير كتابة السر بمصر ، وعزل عنها شرف الدين بن فضل الله ، إلى كتابة السر بدمشق عوضا عن أخيه محيى الدين ، واستمر محيى الدين على كتابة الدست بمعلوم أيضا والله أعلم .

وممن توفى فيها من الأعيان ﴿ الشيخ الرئيس بدر الدين ﴾

محمد بن رئيس الأطباء أبى إسحاق إبراهيم بن محمد بن طرخان الأنصارى ، من سلالة سعد ابن معاذ السويدى ، من سويداء حوران ، سمع الحديث وبرع فى الطب ، توفى فى ربيع الأول

ببستانه بقرب الشبلية ، ودفن فى تربة له فى قبة فيها عن ستين سنة .

﴿ الشيخ شعبان بن أبى بكر بن عمر الاربلى ﴾

شيخ الحلبية بجامع بنى أميـة ، كان صالحا مباركا فيه خـير كثير ، كان كثير العبادة و إيجاد الراحة للفقراء ،وكانت جنازته حافلة جداً ، صلى عليه بالجامع بعد ظهر يوم السبت تاسع عشرين رجب ودفن بالصوفية وله سبع وثمانون سنة ، وروى شيئا من الحديث وخرجت له مشيخة حضرها الأكابر رحمه الله .

﴿ الشيخ ناصر الدين يحيى بن إبراهيم ﴾

ابن محمد بن عبد العزيز العثمانى ، خادم المصحف العثمانى نحواً من ثلاثين سنة ، وصلى عليه بعد الجمعة سابع رمضان ودفن بالصوفية ، وكان لنائب السلطنة الأفرم فيـه اعتقاد و وصله منه افتقاد ، و بلغ خمسا وستين سنة .

﴿ الشيخ الصالح الجليل القدوة ﴾

أبو عبد الله محمد بن الشيخ القدوة إبراهيم بن الشيخ عبد الله الأموى ، توفى فى العشرين من رمضان بسفح قاسيون ،وحضر الأمراء والقضاة والصدور جنازته وصلى عليه بالجامع المظفرى ، ثم دفن عند والده وغلق يومئذ سوق الصالحية له ،وكانت له وجاهة عند الناس وشفاعة مقبولة ، وكان عنده فضيلة وفيه تودد ، وجمع أجزاء فى أخبار جيدة ، وسمع الحديث وقارب السبعين رحمه الله .

﴿ ابن الوحيد الكاتب ﴾

هو الصدر شرف الدين أبو عبد الله محمد بن شريف بن يوسف الزرعى المعروف بابن الوحيد ، كان موقعا بالقاهرة وله معرفة بالانشاء و بلغ الغاية فى الكتابة فى زمانه ، وانتفع الناس به،وكان فاضلا مقداما شجاعا ، توفى بالمارستان المنصورى بمصر سادس عشر شوال .

﴿ الأمير ناصر الدين ﴾

محمد بن عماد الدين حسن بن النسائى أحد أمراء الطبلخانات ، وهو حاكم البندق ، ولى ذلك بعد سيف الدين بلبان ، توفى فى العشرين الأخر من رمضان .

﴿ التميمى الدارى ﴾

توفى يوم عيد الفطر ودفن بالقرافة الصغرى ، وقد ولى الوزارة بمصر ، وكان خبيرا كافيا، مات معزولا ، وقد سمع الحديث وسمع عليه بعض الطلبة .

و فى ذى القعدة جاء الخبر إلى دمشق بوفاة الأمـير الكبير استدمر وبنخاص فى السجن بقلعة الكرك .

﴿ القاضى الامام العلامة الحافظ ﴾

سعد الدين مسعود الحارثى الحنبلى الحاكم بمصر ، سمع الحـديث ، وجمع وخرج وصنف ، وكانت

له يد طولى فى هذه الصناعة والأسانيد والمتون ، وشرح قطعة من سنن أبى داود فأجاد وأفاد ، وحسن الاسناد ، رحمه الله تعالى ، والله أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة اثنتى عشرة وسبعمائة ﴾

استهلت والحكام هم المذكورون فى التى قبلها . وفى خامس المحرم توجه الأمير عز الدين ازدمر الزردكاش وأميران معه إلى الأفرم ، وساروا بأجمعهم حتى لحقوا بقراسنقر وهو عند مهنا ، وكاتبوا السلطان وكانوا كالمستجيرين من الرمضاء بالنار ، وجاء البريد فى صفر بالاحتياط على حواصل الافرم وقراسنقر والزردكاش وجميع ما يتعلق بهم ، وقطع خبز مهنا وجعل مكانه فى الامرة أخاه محمداً ، وعادت العساكر صحبة أرغون من البلاد الشمالية ، وقد حصل عند الناس من قراسنقر وأصحابه هم وغم وحزن . وقدم سودى من مصر على نيابة حلب فاجتاز بدمشق فخرج الناس والجيش لتلقيه ، وحضر السماط وقرئ المنشور بطلب جمال الدين نائب دمشق إلى مصر ، فركب من ساعته على البريد إلى مصر وتكلم فى نيابته لغيبة لاجين . وطلب فى هذا اليوم قطب الدين موسى شيخ السلامية ناظر الجيش إلى مصر ، فركب فى آخر النهار إليها فتولى بها نظر الجيش عوضا عن فخر الدين الكاتب كاتب المماليك بحكم عزله ومصادرته وأخذ أمواله الكثيرة منه . فى عاشر ربيع الأول . وفى الحادى عشر منه باشر الحكم للحنابلة بمصر القاضى تقى الدين أحمد بن المعز عمر بن عبدالله بن عمر بن عوض المقدسى ، وهو ابن بنت الشيخ شمس الدين بن العماد أول قضاة الحنابلة ، وقدم الأمير سيف الدين تمر على نيابة طرابلس عوضا عن الأفرم بحكم هربه إلى التتر . وفى ربيع الآخر مسك بيبرس العلائى نائب حمص وبيبرس المجنون وطوغان وجماعة آخرون من الأمراء ستة فى نهار واحد وسيروا إلى الكرك معتقلين بها . وفيه مسك نائب مصر الأمير ركن الدين بيبرس الدوادار المنصورى . وولى بعده أرغون الدوادار ، ومسك نائب الشام جمال الدين نائب الكرك وشمس الدين سنقر الكمالى حاجب الحجاب بمصر ، وخمسة أمراء آخرون وحبسوا كلهم بقلعة الكرك ، فى برج هناك . وفيه وقع حريق داخل باب السلامية احترق فيه دور كثيرة منها دار ابن أبى الفوارس ، ودار الشريف القبانى .

﴿ نيابة تنكز على الشام ﴾

فى يوم الخميس العشرين من ربيع الآخر دخل الأمير سيف الدين تنكز بن عبد الله المالكى الناصرى نائبا على دمشق بعد مسك نائب الكرك ومعه جماعة من مماليك السلطان منهم الحاج ارقطاى على حيز بيبرس العلائى ، وخرج الناس لتلقيه وفرحوا به كثيراً ، ونزل بدار السعادة ووقع عند قدومه مصر فرح عظيم . وكان ذلك اليوم يوم الرابع والعشرين من آب ، وحضر يوم الجمعة الخطبة بالمقصورة وأشعلت له الشموع فى طريقه ، وجاء توقيع لابن صصرى باعادة

قضاء العسكر إليه ، وأن ينظر الأوقاف فلا يشاركه أحد فى الاستنابة فى البلاد الشامية على عادة من تقدمه من قضاة الشافعية ، وجاء مرسوم لشمس الدين أبى طالب بن حميد بنظر الجيش عوضاً عن ابن شيخ السلامية بحكم إقامته بمصر . ثم بعد أيام وصل الصدر معين الدين هبة الله بن خشيش ناظر الجيش وجعل ابن حميد بوظيفة ابن البدر . وسافر ابن البدر على نظر جيش طرابلس ، وتولى أرغون نيابة مصر وعاد فخر الدين كاتب المماليك إلى وظيفته مع استمرار قطب الدين بن شيخ السلامية مباشراً معه .

وفى هذا الشهر قام الشيخ محمد بن قوام ومعه جماعة من الصالحين على ابن زهرة المغربى الذى كان يتكلم بالكلاسة وكتبوا عليه محضراً يتضمن استهانته بالمصحف . وأنه يتكلم فى أهل العلم ، فأحضر إلى دار العدل فاستسلم وحقن دمه وعزر تعزيراً بليغاً عنيفاً وطيف به فى البلد باطنه وظاهره ، وهو مكشوف الرأس و وجهه مقلوب وظهره مضروب . ينادى عليه هذا جزاء من يتكلم فى العلم بغير معرفة ، ثم حبس وأطلق فهرب إلى القاهرة . ثم عاد على البريد فى شعبان و رجع إلى ما كان عليه . وفيها قدم بهادراص من نيابة صفد إلى دمشق وهنأه الناس ، وفيها قدم كتاب من السلطان إلى دمشق أن لا يولى أحد بمال ولا برشوة فان ذلك يفضى إلى ولاية من لا يستحق الولاية . و إلى ولاية غير الأهل . فقرأه ابن الزملكانى على السدة و بلغه عنه ابن حبيب المؤذن . وكان سبب ذلك الشيخ تقى الدين بن تيمية رحمه الله .

وفى رجب وشعبان حصل للناس خوف بدمشق بسبب أن التتر قد تحركوا للمجىء إلى الشام ، فانزعج الناس من ذلك وخافوا ، وتحول كثير منهم إلى البلد ، وازدحموا فى الأبواب . وذلك فى شهر رمضان وكثرت الأراجيف بأنهم قد وصلوا إلى الرحبة ، وكذلك جرى واشتهر بأن ذلك باشارة قراسنقر وذويه فالله أعلم . وفى رمضان جاء كتاب السلطان أن من قتل لا يجنى أحد عليه . بل يتبع القاتل حتى يقتص منه بحكم الشرع الشريف ، فقرأه ابن الزملكانى على السدة بحضرة نائب السلطنة ابن تنكز وسببه ابن تيمية . هو أمر بذلك و بالكتاب الأول قبله . وفى أول رمضان وصل التتر إلى الرحبة فحاصروها عشرين يوماً وقاتلهم نائبها الأمير بدر الدين موسى الأزدكشى خمسة أيام قتالا عظيما ، ومنعهم منها فأشار رشيد الدولة بأن ينزلوا إلى خدمة السلطان خر بندا و يهدوا له هدية و يطلبون منه العفو ، فنزل القاضى نجم الدين إسحاق وأهدوا له خمسة رؤس خيل . وعشرة أباليج سكر ، فقبل ذلك و رجع إلى بلاده ، وكانت بلاد حلب وحماة وحمص قد أجلوا منها وخرب أكثرها ثم رجعوا إليها لما تحققوا رجوع التتر عن الرحبة ، وطابت الاخبار وسكنت النفوس ودقت البشائر وتركت الأئمة القنوت . وخطب الخطيب يوم العيد وذكر الناس بهذه النعمة . وكان سبب رجوع التتر قلة العلف

وغلاء الأسعار وموت كثير منهم ، وأشار على سلطانهم بالرجوع الرشيد وجوبان .

وفى ثامن شوال دقت البشائر بدمشق بسبب خروج السلطان من مصر لأجل ملاقاة التتر ، وخرج الركب فى نصف شوال وأميرهم حسام الدين لاجين الصغير ، الذى كان والى البر ، وقدمت العساكر المصرية أرسالا . وكان قدوم السلطان ودخوله دمشق ثالث عشرين شوال ، واحتفل الناس لدخوله ونزل القلعة و زينت البلد وضربت البشائر ، ثم انتقل بعد ليلتئذ إلى القصر وصلى الجمعة بالجامع بالمقصورة وخلع على الخطيب ، وجلس فى دار العدل يوم الاثنين ، وقدم وزيره أمين الملك يوم الثلاثاء عشرين الشهر ، وقدم صحبة السلطان الشيخ الامام العالم العلامة تقى الدين أبو العباس أحمد بن تيمية إلى دمشق يوم الأربعاء مستهل ذى القعدة وكانت غيبته عنها سبع سنين ، ومعه أخواه وجماعة من أصحابه . وخرج خلق كثير لتلقيه وسروا بقدومه وعافيته ورؤيته . واستبشروا به حتى خرج خلق من النساء أيضاً لرؤيته . وقد كان السلطان صحبه معه من مصر فخرج معه بنية الغزاة ، فلما تحقق عدم الغزاة وأن التتر رجعوا إلى بلادهم فارق الجيش من غزة وزار القدس وأقام به أياما . ثم سافر على عجلون وبلاد السواد وزرع ، ووصل دمشق فى أول يوم من ذى القعدة . فدخلها فوجد السلطان قد توجه إلى الحجاز الشريف فى أربعين أميراً من خواصه يوم الخميس ثانى ذى القعدة ، ثم إن الشيخ بعد وصوله إلى دمشق واستقراره بها لم يزل ملازماً لاشتغال الناس فى سائر العلوم ونشر العلم وتصنيف الكتب وإفتاء الناس بالكلام والكتابة المطولة والاجتهاد فى الاحكام الشرعية ففى بعض الأحكام يفتى بما أدى إليه اجتهاده من موافقة أئمة المذاهب الاربعة ، وفى بعضها يفتى بخلافهم وبخلاف المشهور فى مذاهبهم . وله اختيارات كثيرة مجلدات عديدة أفتى فيها بما أدى إليه اجتهاده . واستدل على ذلك من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والسلف .

فلما سار السلطان إلى الحج فرق العساكر والجيوش بالشام وترك أرغون بدمشق . وفى يوم الجمعة لبس الشيخ كمال الدين الزملكانى خلعة وكالة بيت المال عوضاً عن ابن الشريشى . وحضر بها الشباك وتكلم وزير السلطان فى البلد . وطلب أموالا كثيرة وصادر وضرب بالمقارع وأهان جماعة من الرؤساء منهم ابن فضل الله محيى الدين . وفيه عين شهاب الدين بن جهبل لتدريس الصلاحية بالمقدس عوضا عن نجم الدين داود الكردى توفى ، وقد كان مدرسا بها من نحو ثلاثين سنة ، فسافر ابن جهبل إلى القدس بعد عيد الأضحى .

وفيها مات ملك القفجاق المسمى طقطاى خان ، وكان له فى الملك ثلاث وعشرون سنة ، وكان عمره ثمانا وثلاثين سنة . وكان شهما شجاعا على دين التتر فى عبادة الاصنام والكواكب . يعظم المجسمة والحكماء والاطباء ويكرم المسلمين أكثر من جميع الطوائف . كان جيشه هائلا لايجسر

أحد على قتاله لكثرة جيشه وقوتهم وعددهم وعـددهم ، ويقال إنه جرد مرة تجريدة من كل عشرة من جيشه واحداً فبلغت التجريدة مائتى ألف وخمسين ألفاً ، توفى فى رمضان منهـا وقام فى الملك من بعده ابن أخيه أزبك خان ، وكان مسلما فأظهر دين الاسلام ببلاده ، وقتل خلقاً من أمراء الكفرة وعلت الشرائع المحمدية على سائر الشرائع هناك ولله الحمد والمنة على الاسلام والسنة .

وممن توفى فيها من الأعيان ﴿ الملك المنصور صاحب ماردين ﴾

وهو نجم الدين أبو الفتح غازى بن الملك المظفر قرارسلان بن الملك السعيد نجم الدين غازى بن الملك المنصور ناصر الدين ارتق بن غازى بن المنى بن تمرتاش بن غازى بن أرتق الأرتقى أصحـاب ماردين من عدة سنين ، كان شيخا حسنا مهيبا كامل الخلقة بدينا سمينا إذا ركب يكون خلفـه محفة خوفا من أن يمسه لغوب فيركب فيها ، توفى فى تاسع ربيع الآخر ودفن بمدرسته تحت القلعة ، وقد بلغ من العمر فوق السبعين ، ومكث فى الملك قريبا من عشرين سنة ، وقام من بعـده فى الملك ولده العادل فمكث سبعة عشر يوما ، ثم ملك أخوه المنصور . وفيها مات

﴿ الامير سيف الدين قطلوبك الشيخى ﴾

كان من أمراء دمشق الكبار . ﴿ الشيخ الصالح ﴾

نور الدين أبو الحسن على بن محمد بن هارون بن محمد بن هارون بن عـلى بن حميـد الثعلبي الدمشقى ، قارئ الحديث بالقاهرة ومسندها ، روى عن ابن الزبيدى وابن الليثى وجعفر الهمدانى وابن الشيرازى وخلق ، وقد خرج له الامام العلامة تقى الدين السبكى مشيخة ، وكان رجلا صالحا توفى بكرة الثلاثاء تاسع عشر ربيع الآخر ، وكانت جنازته حافلة .

﴿ الامير الكبير الملك المظفر ﴾

شهاب الدين غازى بن الملك الناصر داود بن المعظم ، سمع الحـديث وكان رجلا متواضعا توفى بمصر ثانى عشر رجب ، ودفن بالقاهرة . ﴿ قاضى القضاة ﴾

شمس الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن داود بن خازم الازرعى الحنفى ، كان فاضلا درس وأفتى وولى قضاء الحنفية بدمشق سنة ثم عزل واستمر على تدريس الشبلية مدة ثم سـافر إلى مصر فأقام بسعيد السعداء خمسة أيام وتوفى يوم الاربعاء ثانى عشرين رجب فالله أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة ثلاث عشرة وسبعمائة ﴾

استهلت والحـكام هم هم ، والسلطان فى الحجاز لم يقدم بعد ، وقد قدم الأمير سـيف الدين تجليس يوم السبت مستهل المحرم من الحجاز وأخبر بسلامة السلطان وأنه فارقه من المدينة النبوية ، وأنه قد قارب البلاد ، فدقت البشائر فرحا بسلامته ، ثم جاء البريد فأخبر بدخوله إلى الـكرك ثانى

المحرم يوم الأحد . فلما كان يوم الثلاثاء حادى عشر المحرم دخل دمشق وقد خرج الناس لتلقيه على العادة ، وقد رأيته مرجعه من هذه الحجة على شفته و رقة قد ألصقها عليها . فنزل بالقصر وصلى الجمعة رابع عشر المحرم بمقصورة الخطابة . وكذلك الجمعة التى تليها ، ولعب فى الميدان بالكرة يوم السبت النصف من المحرم ، وولى نظر الدواوين للصاحب شمس الدين غبريال يوم الاحد حادى عشر المحرم وشد الدواوين لفخر الدين إياس الاعسرى عوضا عن القرمانى . وسافر القرمانى إلى نيابة الرحبة وخلع عليهما وعلى وزيره . وخلع على ابن صصرى وعلى الفخر كاتب المماليك ، وكان مع السلطان فى الحج ، وولى شرف الدين بن صصرى حجابة الديوان وباشر فخر الدين ابن شيخ السلامية نظر الجامع . وباشر بهاء الدين بن عليم نظر الاوقاف ، والمنكورسى شد الاوقاف .وتوجه السلطان راجعا إلى الديار المصرية بكرة الخميس السابع والعشرين من المحرم ، وتقدمت الجيوش بين يديه ومعه . وفى أواخر صفر اجتاز على البريد فى الرسلية إلى مهنا الشيخ صدر الدين الوكيل وموسى بن مهنا والامير علاء الدين الطنبغا فاجتمعوا به فى تدمر ثم عاد الطنبغا وابن الوكيل إلى القاهرة .

وفى جمادى الآخرة مسك أمين الملك وجماعة من الكبار معه وصودروا بأموال كثيرة . وأقيم عوضه بدر الدين بن التركمانى الذى كان والى الخزانة . وفى رجب كملت أربعة مناجيق واحد لقلعة دمشق وثلاثة تحمل إلى الكرك ، ورمى باثنين على باب الميدان وحضر نائب السلطنة تنكز والعامة وفى شعبان تكامل حفر النهر الذى عمله سودى نائب حلب بها ، وكان طوله من نهر الساجور إلى نهر قويق أربعين ألف ذراع فى عرض ذراعين وعمق ذراعين ، وغرم عليه ثلثمائة ألف درهم . وعمل بالعدل ولم يظلم فيه أحداً . وفى يوم السبت ثامن شوال خرج الركب من دمشق وأميره سيف الدين بلباى التترى ،وحج صاحب حماة فى هذه السنة وخلق من الروم والغرباء . وفى يوم السبت السادس والعشرين من ذى الحجة وصل القاضى قطب الدين موسى ابن شيخ السلامية من مصر على نظر الجيوش الشامية كما كان قبل ذلك ، وراح معين الدين بن الحشيش إلى مصر فى رمضان صحبة الصاحب شمس الدين بن غبريال و بعد وصول ناظر الجيوش بيومين وصلت البشائر بمقتضى إزالة الاقطاعات لما رآه السلطان بعد نظره فى ذلك أربعة أشهر .

وممن توفى فيها من الاعيان .

﴿ الشيخ الامام المحدث ﴾

فخر الدين أبو عمرو عفان بن محمد بن عثمان بن أبى بكر بن محمد بن داود التوزى بمكة يوم الاحد حادى ربيع الآخر ، وقد سمع الكثير ، وأجازه خلق يزيدون على ألف شيخ ، وقرأ الكتب الكبار وغيرها . وقرأ صحيح البخارى أكثر من ثلاثين مرة رحمه الله .

﴿ عز الدين محمد بن العدل ﴾

شهاب الدين أحمد بن عمر بن إلياس الرهاوى ، كان يباشر استيفاء الأوقاف وغير ذلك ، وكان من أخصاء أمين الملك ، فلما مسك بمصر أرسل إلى هذا وهو معتقل بالعذراوية ليحضر على البريد فرض فمات بالمدرسة العذراوية ليلة الخميس التاسع عشر من جمادى الآخرة ، وله من العمر خمس وثلاثون سنة ، وكان قد سمع من ابن طبرزد الكندى ، ودفن من الغد بباب الصغير ، وترك من بعده ولدين ذكرين جمال الدين محمد ، وعز الدين .

﴿ الشيخ الكبير المقرى ﴾

شمس الدين المقصاى ، هو أبو بكر بن عمر بن السبع الجزرى المعروف بالمقصاى نائب الخطيب وكان يقرئ الناس بالقراءات السبع وغيرها من الشواذ ، وله إلمام بالنحو ، وفيه ورع واجتهاد ، توفى ليلة السبت حادى عشرين جمادى الآخرة ودفن من الغد بسفح قاسيون تجاه الرباط الناصرى ، وقد جاوز الثمانين رحمه الله .

﴿ ثم دخلت سنة أربع عشرة وسبعمائة ﴾

استهلت والحكام هم هم فى التى قبلها إلا الوزير أمين الملك فكانه بدرالدين التركمانى . وفى رابع المحرم عاد الصاحب شمس الدين غبريال من مصر على نظر الدواوين وتلقاه أصحابه . وفى عاشر المحرم يوم الجمعة قرىء كتاب السلطان على السدة بحضرة نائب السلطنة والقضاة والأمراء يتضمن باطلاق البواقى من سنة ثمان وتسعين وستمائة إلى آخر سنة ثلاث عشرة وسبعمائة ، فتضاعفت الادعية للسلطان وكان القارىء جمال الدين بن القلانسى ومبلغه صدر الدين بن صبح المؤذن ، ثم قرىء فى الجمعة الاخرى مرسوم آخر فيه الافراج عن المسجونين وأن لا يؤخذ من كل واحد إلا نصف درهم ، ومرسوم آخر فيه إطلاق السخر فى الغصب وغيره عن الفلاحين ، قرأه ابن الزملكانى وبلغه عنه أمين الدين محمد بن مؤذن النجيبى . وفى المحرم استحضر السلطان إلى بين يديه الفقيه نور الدين على البكرى وهم بقتله شفع فيه الأمراء فنفاه ومنعه من الكلام فى الفتوى والعلم ، وكان قد هرب لما طلب من جهة الشيخ تقى الدين بن تيمية فهرب واختفى ، وشفع فيه أيضا ، ثم لما ظفر به السلطان الآن وأراد قتله شفع فيه الأمراء فنفاه ومنعه من الكلام والفتوى ، وذلك لاجترائه وتسرعه على التكفير والقتل والجهل الحامل له على هذا وغيره . وفى يوم الجمعة مستهل صفر قرأ ابن الزملكانى كتابا سلطانيا على السدة بحضرة نائب السلطان القاضى وفيه الأمر بإبطال ضمان القواسير وضمان النبيذ وغير ذلك ، فدعا الناس للسلطان . وفى أواخر ربيع الأول اجتمع القضاة بالجامع للنظر فى أمر الشهود ونهوهم عن الجلوس فى المساجد ، وأن لا يكون أحد منهم فى مركزين ، وأن لا يتولوا

ثبات الكتب ولا يأخذوا أجرا على أداء الشهادة وأن لا يغتابوا أحدا وأن يتناصفوا فى المعيشة ثم جلسوا مرة ثانية لذلك وتواعدوا ثالثة فلم يتفق اجتماعهم ، ولم يقطع أحد من مركز .

وفى يوم الار بعاء الخامس والعشرين منه عقد مجلس فى دار ابن صصرى لبدر الدين بن بضيان وأنكر عليه شئ من القراءات فالتزم بترك الاقراء بالكلية ثم استأذن بعد أيام فى الاقراء فأذن له فجلس بين الظهر والعصر بالجامع وصارت له حلقة على العادة . وفى منتصف رجب توفى نائب حلب الامير سيف الدين سودى ودفن بتربته وولى مكانه علاء الدين الطنبغا الصالحى الحاجب بمصر ، قبل هذه النيابة . وفى تاسع شعبان خلع على الشريف شرف الدين عدنان بنقابة الاشراف بعد والده أمين الدين جعفر توفى فى الشهر الماضى .

وفى خامس شوال دفن الملك شمس الدين دوباج بن ملكشاه بن رستم صاحب كيلان بتربته المشهورة بسفح قاسيون ، وكان قد قصد الحج فى هذا العام ، فلما كان بغباغب أدركته منيته يوم السبت سادس عشرين رمضان فحمل إلى دمشق وصلى عليه ودفن فى هذه التربة ، اشتريت له وتممت وجاءت حسنة وهى مشهورة عند المكارية شرقى الجامع المظفرى ، وكان له فى مملكة كيلان خمسة وعشرون سنة ، وعمر أربعا وخمسين سنة ، وأوصى أن يحج عنه جماعة ففعل ذلك وخرج الركب فى ثالث شوال وأميره سيف الدين سنقر الابراهيمى وقاضيه محيى الدين قاضى الزبدانى . وفى يوم الخميس سابع ذى القعدة قدم القاضى بدر الدين بن الحداد من القاهرة متوليا حسبة دمشق فخلع عليه عوضا عن فخر الدين سليمان البصراوى ، عزل فسافر سريعا إلى البرية ليشترى خيلا للسلطان يقدمها رشوة على المنصب المذكور ، فاتفق موته فى البرية فى سابع عشر الشهر المذكور ، وحمل إلى بصرى فدفن بها عند أجداده فى ثامن ذى القعدة ، وكان شابا حسنا كريم الاخلاق حسن الشكل . وفى أواخره مسك نائب صفد بلبان طوباى المنصورى وسجن وتولى مكانه سيف الدين بلباى البدرى . وفى سادس ذى الحجة تولى ولاية البر الامير علاء الدين على بن محمود بن معبد البعلبكى عوضا عن شرف الدين عيسى بن البركامى ، وفى يوم عيد الاضحى وصل الامير علاء الدين بن صبيح من مصر وقد أفرج عنه فسلم عليه الامراء . وفى هذا الشهر أعيد أمين الملك إلى نظر النظار بمصر وخلع على الصاحب بهاء الدين النسائى بنظر الخزانة عوضا عن سعد الدين حسن بن الافقاصى . وفيه وردت البريدية بأمر السلطان للجيوش الشامية بالمسير إلى حلب وأن يكون مقدم العساكر كلها تنكز نائب الشام ، وقدم من مصر ستة آلاف مقاتل عليهم الامير سيف الدين بكتمر الابو بكرى ، وفيهم تجليس و بدر الدين الوزيرى ، وكتشلى وابن طيبرس وشاطى وابن سلار وغيرهم ، فتقدموا إلى البلاد الحلبية بين يدى نائب الشام تنكز

ومن توفى فيها من الأعيان ﴿ سودى نائب حلب فى رجب ﴾

ودفن بتربته ، وهو الذى كان السبب فى إجراء نهر إليها ، غرم عليه ثلثمائة ألف درهم ، وكان مشكور السيرة حميد الطريقة رحمه الله . وفى شعبان توفى

﴿ الصاحب شرف الدين ﴾

يعقوب بن مزهر وكان باراً بأهله وقرابته رحمه الله .

﴿ والشيخ رشيد أبو الفدا إسماعيل ﴾

أبو محمد القرشى الحنفى المعروف بابن المعلم ، كان من أعلام الفقهاء والمفتيين ، ولديه علوم شتى وفوائدوفرائد ، وعنده زهد وانقطاع عن الناس ، وقد درس بالبلخية مدة ثم تركها لولده وسار إلى مصر فأقام بها ، وعرض عليه قضاء دمشق فلم يقبل ، وقدجاوز السبعين من العمر ، توفى سحر يوم الأربعاء خامس رجب ودفن بالقرافة رحمه الله تعالى . وفى شوال توفى . .

﴿ الشيخ سليمان التركمانى ﴾

الموله الذى كان يجلس على مصطبته بالعلبيين ، وكان قبل ذلك مقيما بطهارة باب البريد ، وكان لا يتحاشى من النجاسات ولا يتقيها ، ولا يصلى الصلوات ولا يأتيها ، وكان بعض الناس من الهمج لهفيه عقيدة قاعدة الهمج الرعاع الذين هم أتباع كل ناعق من المولهين والمجانين ، ويزعمون أنه يكاشف وأنه رجل صالح ، ودفن بباب الصغير فى يوم كثير الثلج .

وفى يوم عرفة توفيت .

﴿ الشيخة الصالحة العابدة الناسكة ﴾

أم زينب فاطمة بنت عباس بن أبى الفتح بن محمد البغدادية بظاهر القاهرة ، وشهدها خلق كثير ، وكانت من العالمات الفاضلات ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتقوم على الأحمدية فى مواخاتهم النساء والمردان،وتنكر أحوالهم وأصول أهل البدع وغيرهم،وتفعل من ذلك مالا تقدر عليه الرجال ، وقد كانت تحضر مجلس الشيخ تقى الدين بن تيمية فاستفادت منه ذلك وغيره ، وقد سمعت الشيخ تقى الدين يثنى عليها ويصفها بالفضيلة والعلم ، ويذكر عنها أنها كانت تستحضر كثيراً من المغنى أو أكثره ، وأنه كان يستعد لها من كثرة مسائلها وحسن سؤالاتها وسرعة فهمها ، وهى التى ختّمت نساء كثيرا القرآن ، منهن أم زوجتى عائشة بنت صديق ، زوجة الشيخ جمال الدين المزى ، وهى التى أقرأت ابنتها زوجتى أمة الرحيم زينب رحمهن الله وأكرمهن برحمته وجنته آمين.

﴿ ثم دخلت سنة خمس عشرة وسبعمائة ﴾

استهلت والحكام فى البلاد هم المذكورون فى التى قبلها .

﴿ فتح ملطية ﴾

فى يوم الاثنين مستهل المحرم خرج سيف الدين تنكز فى الجيوش قاصداً ملطية وخرجت الاطلاب على راياتها وأبرزوا ما عندهم من العدد وآلات الحرب ، وكان يوما مشهوداً ، وخرج مع الجيش ابن صصرى لأنه قاضى العساكر وقاضى قضاة الشامية ، فساروا حتى دخلوا حلب فى الحادى عشر من الشهر ، ومنها وصلوا فى السادس عشر إلى بلاد الروم إلى ملطية، فشرعوا فى محاصرتها فى الحادى والعشرين من المحرم ، وقد حصنت ومنعت وغلقت أبوابها ، فلما رأوا كثرة الجيش نزل متوليها وقاضيها وطلبوا الأمان فأمنوا المسلمين ودخلوها ،فقتلوا من الارمن خلقا ومن النصارى وأسروا ذرية كثيرة ، وتعدى ذلك إلى بعض المسلمين وغنموا شيئا كثيراً ، وأخذت أموال كثير من المسلمين ورجعوا عنها بعد ثلاثة أيام يوم الأربعاء رابع عشرين المحرم إلى عين تاب إلى مرج دابق ، وزينت دمشق ودقت البشائر . وفى أول صفر رحل نائب ملطية متوجهاً إلى السلطان. وفى نصف الشهر وصل قاضيها الشريف شمس الدين ومعه خلق من المسلمين من أهلها ، وفى بكرة نهار الجمعة سادس عشر ربيع الأول دخل تنكز دمشق وفى خدمته الجيوش الشامية والمصرية ، وخرج الناس للفرجة عليهم على العادة ، وأقام المصريون قليلا ثم ترحلوا إلى القاهرة . وقد كانت ملطية إقطاعاً للجوبان أطلقها له ملك التتر فاستناب بها رجلا كرديا فتعدى وأساء وظلم ، وكاتب أهلها السلطان الناصر وأحبوا أن يكونوا من رعيته ، فلما ساروا إليها وأخذوها وفعلوا مافعلوا فيها جاءها بعد ذلك الجوبان فعمرها ورد إليها خلقاً من الأرمن وغيرهم.

وفى التاسع عشر من هذا الشهر وصل إلينا الخبر بمسك بكتمر الحاجب وأيدغدى شقير وغيرهما وكان ذلك يوم الخميس مستهل هذا الشهر ، وذلك أنهم اتفقوا على السلطان فبلغه الخبر فمسكهم واحتيط على أموالهم وحواصلهم ، وظهر لبكتمر أموال كثيرة وأمتعة وأخشاب وحواصل كثيرة وقدم مجليس من القاهرة فاجتاز بدمشق إلى ناحية طرابلس ثم قدم سريعاً ومعه الامير سيف الدين تمير نائب طرابلس تحت الحوطة ، ومسك بدمشق الأمير سيف الدين بهادر آص المنصورى فحمل الاول إلى القاهرة ، وجعل مكانه فى نيابة طرابلس كستاى ، وحمل الثانى وحزن الناس عليه ودعوا له . وفى يوم الخميس الحادى والعشرين من ربيع الآخر قدم عز الدين بن مبشر دمشق محتسبا وناظر الأوقاف وانصرف ابن الحداد عن الحسبة، وبهاء الدين عن نظر الأوقاف . وفى ليلة الاثنين ثالث عشر جمادى الأولى وقع حريق قبالة مسجد الشنباشى داخل باب الصغير ، احترق فيه دكاكين ودور وأموال وأمتعة . وفى يوم الأربعاء سادس عشر جمادى الآخرة درس قاضى ملطية الشريف شمس الدين بالمدرسة الخاتونية البرانية عوضاً عن قاضى القضاة الحنفى البصروى ، وحضر عنده الأعيان ، وهو

رجل له فضيلة وخلق حسن ، كان قاضياً بملطية وخطيبا بها نحواً من عشرين سنة .

وفى يوم الخميس رابع جمادى الآخرة أعيد ابن الحداد إلى الحسبة واستمر ابن مبشر ناظر الأوقاف . وفى يوم الأربعاء تاسع جمادى الآخرة درس ابن صصرى بالاتابكية عوضا عن الشيخ صفى الدين الهندى . وفى يوم الاربعاء الآخر حضر ابن الزملكانى درس الظاهرية الجوانية عوضا عن الهندى أيضا بحكم وفاته كما ستأتى ترجمته . وفى أواخر رجب أخرج الأمير آقوش نائب الكرك من سجن القاهرة وأعيد إلى الامرة . وفى شعبان توجه خمسة آلاف من بلاد حلب فأغاروا على بلاد آمد ، وفتحوا بلدانا كثيرة ، وقتلوا وسبوا وعادوا سالمين ، وخمسوا ماسبوا فبلغ سهم الخمس أربعة آلاف رأس وكسور . وفى أواخر رمضان وصل قرا سنقر المنصورى إلى بغداد ومعه زوجته الخاتون بنت أبغا ملك التتر ، وجاء فى خدمته خربندا واستأذنه فى الغارة على أطراف بلاد المسلمين فلم يأذن له ، ووثب عليه رجل فداوى من جهة صاحب مصر فلم يقدر عليه وقتل الفداوى . وفى يوم الأربعاء سادس عشر رمضان درس بالعادلية الصغيرة الفقيه الامام فخر الدين محمد بن على المصرى المعروف بابن كاتب قطلو بك ، بمقتضى نزول مدرسها كمال الدين بن الزملكانى له عنها ، وحضر عنده القضاة والأعيان والخطيب وابن الزملكانى أيضا . وفى هذا الشهر كملت عمارة القيسارية المعروفة بالدهشة عند الوراقين والبادين وسكنها التجار ، فتميزت بذلك أوقاف الجامع ، وذلك بمباشرة الصاحب شمس الدين . وفى ثامن شوال قتل أحمد الروسى شهد عليه بالعظائم من ترك الواجبات واستحلال المحرمات واستهانته وتنقيصه بالكتاب والسنة ، فحكم المالكى باراقة دمه وإن أسلم ، فاعتقل ثم قتل . وفى هذا اليوم كان خروج الركب الشامى وأميره سيف الدين طقتمر وقاضيه قاضى ملطية . وحج فيه قاضى حماة وحلب وماردين ومحيي الدين كاتب ملك الامراء تنكز وصهره فخر الدين المصرى .

وممن توفى فيها من الأعيان :

﴿ شرف الدين أبو عبد الله ﴾

محمد بن العدل عماد الدين محمد بن أبى الفضل محمد بن أبى الفتح نصر الله بن المظفر بن أسعد ابن حمزة بن أسد بن على بن محمد التميمى الدمشقى ابن القلانسى ، ولد سنة ست وأربعين وستمائة وباشر نظر الخاص . وقد شهد قبل ذلك فى القيمة ثم تركها ، وقد ترك أولاداً وأموالا جمة ، توفى ليلة السبت ثانى عشر صفر ودفن بقاسيون .

﴿ الشيخ صفى الدين الهندى ﴾

أبو عبد الله محمد بن عبد الرحيم بن محمد الارموى الشافعى المتكلم ، ولد بالهند سنة أربع وأربعين وستمائة ، واشتغل على جده لامه ، وكان فاضلا ، وخرج من دهلى فى رجب سنة سبع وستين فحج

وجاور بمكة أشهراً ثم دخل اليمن فأعطاه ملكها المظفر أربعمائة دينار ، ثم دخل مصر فأقام بها أربع سنين ، ثم سافر إلى الروم على طريق إنطاكية فأقام إحدى عشرة سنة بقونية وبسيواس خمسا وبقيسارية سنة ، واجتمع بالقاضى سراج الدين فأكرمه ، ثم قدم إلى دمشق فى سنة خمس وثمانين فأقام بها واستوطنها ودرس بالرواحية والدولعية والظاهرية والاتابكية وصنف فى الاصول والكلام . وتصدى للاشتغال والافتاء ، ووقف كتبه بدار الحديث الأشرفية ، وكان فيه بر وصلة ، توفى ليلة الثلاثاء تاسع عشر بن صفر ودفن بمقابر الصوفية . ولم يكن معه وقت موته سوى الظاهرية وبها مات ، فدرس بعده فيها ابن الزملكانى ، وأخذ ابن صصرى الاتابكية.

﴿ القاضى المسند المعمر الرحلة ﴾

تقى الدين سليمان بن حمزة بن أحمد بن عمر بن الشيخ أبى عمر المقدسى الحنبلى الحاكم بدمشق ولد فى نصف رجب سنة ثمان وعشرين وستمائة ، وسمع الحديث الكثير وقرأ بنفسه وتفقه وبرع ، وولى الحكم وحدث ، وكان من خيار الناس وأحسنهم خلقا وأكثرهم مروءة ، توفى فجأة بعد مرجعه من البلد وحكمه بالجوزية ، فلما صار إلى منزله بالدير تغيرت حاله ومات عقيب صلاة المغرب ليلة الاثنين حادى عشرين ذى القعدة ، ودفن من الغد بتربة جده ، وحضر جنازته خلق كثير وجم غفير رحمه الله .

﴿ الشيخ على بن الشيخ على الحريرى ﴾

كان مقدما فى طائفته . مات أبوه وعمره سنتان . توفى فى قرية نسر فى جمادى الأولى .

﴿ الحكيم الفاضل البارع ﴾

بهاء الدين عبد السيد بن المهذب إسحاق بن يحيى الطبيب الكحال المتشرف بالاسلام . ثم قرأ القرآن جميعه لأنه أسلم على بصيرة ، وأسلم على يديه خلق كثير من قومه وغيرهم ، وكان مباركا على نفسه وعليهم ، وكان قبل ذلك ديان اليهود، فهداه الله تعالى ، وتوفى يوم الاحد سادس جمادى الآخرة ودفن من يومه بسفح قاسيون ، أسلم على يدى شيخ الاسلام ابن تيمية لما بين له بطلان دينهم وماهم عليه وما بدلوه من كتابهم وحرفوه من الكلم عن مواضعه رحمه الله .

﴿ ثم دخلت سنة ست عشرة وسبعمائة ﴾

استهلت وحكام البلاد هم المذكورون فى التى قبلها غير الحنبلى بدمشق فانه توفى فى السنة الماضية . وفى المحرم تكملت تفرقة المثالات السلطانية بمصر بمقتضى إزالة الاجناد . وعرض الجيش على السلطان ، وأبطل السلطان المكس بسائر البلاد القبلية والشامية . وفيه وقعت فتنة بين الحنابلة والشافعية بسبب العقائد ، وترافعوا إلى دمشق فحضروا بدار السعادة عند نائب السلطنة تنكز

فأصلح بينهم ، وانفصل الحال على خير من غير محاققة ولا تشويش على أحد من الفريقين ، وذلك يوم الثلاثاء سادس عشر المحرم . وفى يوم الأحد سادس عشر صفر قرئ تقليد قاضى القضاة شمس الدين أبو عبد الله محمد بن مسلم بن مالك بن مزروع الحنبلى ، بقضاء الحنابلة والنظر بأوقافهم عوضا عن تقى الدين سليمان بحكم وفاته رحمه الله ، وتاريخ التقليد من سادس ذى الحجة ، وقرئ بالجامع الأموى بحضور القضاة والصاحب والاعيان ، ثم مشوا معه وعليه الخلعة إلى دار السعادة فسلم على النائب وراح إلى الصالحية ، ثم نزل من الغد إلى الجوزية فحكم بها على عادة من تقدمه ، واستناب بعد أيام الشيخ شرف الدين بن الحافظ . وفى يوم الاثنين سابع صفر وصل الشيخ كمال الدين بن الشريشى من مصر على البريد ومعه توقيع بعود الوكالة إليه ، فخلع عليه وسلم على النائب والخلعة عليه . وفى هذا الشهر مسك الوزير عز الدين بن القلانسى واعتقل بالعذراوية وصودر بخمسين ألفا ثم أطلق له ما كان أخذ منه وانفصل من ديوان نظر الخاص . وفى ربيع الآخر وصل من مصر فضل ابن عيسى وأجرى له ولابن أخيه موسى بن مهنا إقطاعات صيدا ، وذلك بسبب دخول مهنا إلى بلاد التتر واجتماعهم بملكهم خربندا .

وفى يوم الاثنين سادس عشر جمادى الأولى باشر ابن صصرى مشيخة الشيوخ بالسميساطية بسؤال الصوفية وطلبهم له من نائب السلطنة ، فحضرها وحضر عنده الأعيان فى هذا اليوم عوضا عن الشريف شهاب الدين أبى القاسم محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحيم بن عبد الكريم ابن محمد بن على بن الحسن بن الحسين بن يحى بن موسى بن جعفر الصادق، وهو الكاشغرى ، توفى عن ثلاث وستين سنة ودفن بالصوفية . وفى جمادى الآخرة باشر بهاء الدين إبراهيم بن جمال الدين يحى الحنفى المعروف بابن علية وهو ناظر ديوان النائب بالشام نظر الدواوين عوضا عن شمس الدين محمد ابن عبد القادر الخطيرى الحاسب الكاتب توفى ، وقد كان مباشراً عدة من الجهات الكبار ، مثل نظر الخزانة ونظر الجامع ونظر المارستان وغير ذلك ، واستمر نظر المارستان من يومئذ بأيدى ديوان نائب السلطنة من كان ، وصارت عادة مستمرة . وفى رجب نقل صاحب حمص الأمير شهاب الدين قرطاى إلى نيابة طرابلس عوضا عن الأمير سيف الدين التركستانى بحكم وفاته ، وولى الأمير سيف الدين إرقطاى نيابة حمص ، وتولى نيابة الكرك سيف الدين طقطاى الناصرى عوضا عن سيف الدين تيبغا .

وفى يوم الاربعاء عاشر رجب درس بالنجيبية القاضى شمس الدين الدمشقى عوضا عن بهاء الدين يوسف بن جمال الدين أحمد بن الظاهرى العجمى الحلبى ، سبط الصاحب كمال الدين بن العديم ، توفى ودفن عند خاله ووالده بتربة العديم . وفى أواخر شعبان وصل القاضى شمس الدين

ابن عز الدين يحيى الحرانى أخو قاضى قضاة الحنابلة بمصر شرف الدين عبد الغنى ، إلى دمشق متوليا نظر الأوقاف بها عوضا عن الصاحب عز الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن مبشر ، توفى فى مستهل رجب بدمشق ، وقد باشر نظر الدواوين بها و بمصر ،والحسبة وبالاسكندرية وغير ذلك ،ولم يكن بقى معه فى آخر وقت سوى نظر الأوقاف بدمشق ، وقد قارب الثمانين ودفن بقاسيون .

وفى آخر شوال خرج الركب الشامى وأميرهم سيف الدين أرغون السلحدار الناصرى الساكن عند دار الطراز بدمشق ، وحج من مصر سيف الدين الدوادار وقاضى القضاة ابن جماعة ، وقد زار القدس الشريف فى هذه السنة بعد وفاة ولده الخطيب جمال الدين عبد الله ، وكان قد رأس وعظم شأنه . وفى ذى القعدة سار الأمير سيف الدين تنكز إلى زيارة القدس فغاب عشرين يوما ، وفيه وصل الأمير سيف الدين بكتمر الحاجب إلى دمشق من مصر وقد كان معتقلا فى السجن فأطلق وأكرم وولى نيابة صفد فسار إليها بعد ماقضى أشغاله بدمشق ، ونقل القاضى حسام الدين القزوينى من قضاء صفد إلى قضاء طرابلس ، وأعيدت ولاية قضاء صفد إلى قاضى دمشق فولى فيها ابن صصرى شرف الدين الهاوندى ، وكان متوليا طرابلس قبل ذلك ، ووصل مع بكتمر الحاجب الطواشى ظهير الدين مختار المعروف بالزرعى ، متوليا الخزانة بالقلعة عوضا عن الطواشى ظهير الدين مختار البلستين توفى .

وفى هذا الشهر أعنى ذا القعدة وصلت الأخبار بموت ملك التتر خر بندا محمد بن أرغون بن أبغا ابن هولاكوقان ملك العراق وخراسان وعراق العجم والروم وأذربيجان والبلاد الأرمينية وديار بكر . توفى فى السابع والعشرين من رمضان ودفن بتربته بالمدينة التى أنشأها ، التى يقال لها السلطانية وقد جاوز الثلاثين من العمر ، وكان موصوفا بالكرم ومحبا للهو واللعب والعمائر ،وأظهر الرفض ، أقام سنة على السنة ثم تحول إلى الرفض أقام شعائره فى بلاده وحظى عنده الشيخ جمال الدين بن مطهر الحلى ، تلميذ نصير الدين الطوسى ، وأقطعه عدة بلاد ، ولم يزل على هذا المذهب الفاسد إلى أن مات فى هذه السنة ، وقد جرت فى أيامه فتن كبار ومصائب عظام ، فأراح الله منه العباد والبلاد ، وقام فى الملك بعده ولده أبو سعيد وله إحدى عشرة سنة ، ومدبر الجيوش والممالك له الأمير جوبان ، واستمر فى الوزارة على شاه التبريزى ، وأخذ أهل دولته بالمصادرة وقتل الأعيان ممن اتهمهم بقتل أبيه مسموما ، ولعب كثير من الناس به فى أول دولته ثم عدل إلى العدل و إقامة السنة ، فأمر باقامة الخطبة بالترضى عن الشيخين أولا ثم عثمان ثم على رضى الله عنهم ، ففرح الناس بذلك وسكنت بذلك الفتن والشرور والقتال الذى كان بين أهل تلك البلاد وبهراة وأصبهان و بغداد و إربل وساوه وغير ذلك ، وكان صاحب مكة الأمير خميصة بن أبى نمى الحسنى ، قد قصد ملك التتر خر بندا

لينصره عـلى أهل مكة فساعده الروافض هناك وجهزوا معه جيشا كثيفا من خراسان ، فلما مات خربندا بطل ذلك بالكلية ، وعاد حميصة خائبا خاسئا . وفى صحبته أمير من كبار الروافض من التتر يقـال له الدلقندى ، وقـد جمع لحميصة أموالا كثيرة ليقيم بها الرفض فى بـلاد الحجاز ، فوقع بهما الأمير محمد بن عيسى أخو مهنا ، وقد كان فى بلاد التتر أيضا ومعه جماعة من العرب ، فقهرهما ومن كان معهما ، ونهب ما كان معهما من الأموال وحضرت الرجال ، وبلغت أخبـار ذلك إلى الدولة الاسلامية فرضى عنه الملك الناصر وأهل دولته ، وغسل ذلك ذنبه عنده ، فاستدعى به السلطان إلى حضرته فحضر سامعا مطيعا ، فأكرمه نائب الشام ، فلما وصل إلى السلطان أكرمه أيضا ، ثم إنه استفتى الشيخ تقى الدين بن تيمية ، وكذلك أرسـل إليه السلطان يسأله عن الأموال التى أخـذت من الدلقندى ، فأفتاهم أنها تصرف فى المصالح التى يعود نفعها على المسلمين ، لأنها كانت معدة لعناد الحق ونصرة أهل البدعة على السنة . وممن توفى فيها من الأعيان :

عز الدين المبشر . والشهاب الكاشنغرى شيخ الشيوخ ، والبهاء العجمى مدرس النجيبية . وفيها قتـل خطيب المزة قتله رجل جبلى ضربه بفأس اللحام فى رأسه فى السوق فبقى أياما ومات ، وأخذ القاتل فشنق فى السوق الذى قتل فيـه ، وذلك يوم الأحد ثالث عشر ربيع الآخر ، ودفن هناك وقد جاوز الستين .

﴿ الشرف صالح بن محمد بن عربشاه ﴾

ابن أبى بكر الهمدانى ، مات فى جمادى الآخرة ودفن بمقابر النيرب ، وكان مشهوراً بطيب القراءة وحسن السيرة ، وقد سمع الحديث وروى جزءاً .

﴿ ابن عرفة صاحب التذكرة الكندية ﴾

الشيخ الامام المقرئ المحدث النحوى الأديب علاء الدين على بن المظفر بن إبراهيم بن عمر ابن زيد بن هبة الله الكندى الاسكندرانى ، ثم الدمشقى ، سمع الحديث على أزيد من مائتى شيخ وقـرأ القراءات السبع ، وحصل علوماً جيدة ، ونظم الشعر الحسن الرائق الفائق ، وجمع كتـابا فى نحو من خمسين مجلدا ، فيه علوم جمة أكثرها أدبيات سماها التذكرة الكندية ، وقفها بالسميساطية وكتب حسنا وحسب جيدا ، وخدم فى عدة خدم ، وولى مشيخة دار الحديث النفيسية فى مدة عشر سنين وقرأ صحيح البخارى مرات عديدة ، وأسمع الحديث ، وكان يلوذ بشيخ الاسلام ابن تيمية ، وتوفى ببستان عند قبة المسجد ليلة الاربعاء سابع عشر رجب ، ودفن بالمزة عن ست وسبعين سنة .

﴿ الطواشى ظهير الدين مختار ﴾

البكنسى الخزندار بالقلعة وأحد أمراء الطبلخانات بدمشق ، كان زكيا خبيرا فاضـلا ، يحفظ القرآن ويؤديه بصوت طيب ، ووقف مكتبا للايتام على باب قلعة دمشق ، ورتب لهم الكسوة

والجامكية ، وكان يمتحنهم بنفسه و يفرح بهم ، وعمل تربة خارج باب الجابية ووقف عليها القريتين و بنى عندها مسجداً حسنا و وقفه بإمام وهى من أوائل ما عمل من الترب بذلك الخط ، ودفن بها فى يوم الخميس عاشر شعبان رحمه الله . وكان حسن الشكل والاخلاق ، عليه سكينة ووقار وهيبة وله وجاهة فى الدولة سامحه الله . وولى بعده الخزانة سميه ظهير الدين مختار الزرعى .

﴿ الأمير بدر الدين ﴾

محمد بن الوزيرى ، كان من الأمراء المقدمين ، ولديه فضيلة ومعرفة وخبرة، وقد ناب عن السلطان بدار العدل مرة بمصر ، وكان حاجب الميسرة . وتكلم فى الأوقاف وفيما يتعلق بالقضاة والمدرسين ، ثم نقل إلى دمشق فمات بها فى سادس عشر شعبان، ودفن بميدان الحصى فوق خان النجيبى، وخلف تركة عظيمة .

﴿ الشيخة الصالحة ﴾

ست الوزراء بنت عمر بن أسعد بن المنجا ، راوية صحيح البخارى وغيره، جاوزت التسعين سنة . وكانت من الصالحات ، توفيت ليلة الخميس ثامن عشر شعبان ودفنت بتربتهم فوق جامع المظفرى بقاسيون

﴿ القاضى محب الدين ﴾

أبو الحسن ابن قاضى القضاة تقى الدين بن دقيق العيد، استنابه أبوه فى أيامه و زوجه بابنة الحاكم بأمر الله ، ودرس بالكهارية و رأس بعد أبيه ، و كانت وفاته يوم الاثنين تاسع عشر رمضان، وقد قارب الستين ، ودفن عند أبيه بالقرافة .

﴿ الشيخة الصالحة ﴾

ست المنعم بنت عبد الرحمن بن على بن عبدوس الحرانية، والدة الشيخ تقى الدين بن تيمية عمرت فوق السبعين سنة ، ولم ترزق بنتا قط، توفيت يوم الأربعاء العشرين من شوال ودفنت بالصوفية وحضر جنازتها خلق كثير وجم غفير رحمها الله .

﴿ الشيخ نجم الدين موسى بن على بن محمد ﴾

الجيلى ثم الدمشقى . الكاتب الفاضل المعروف بابن البصيص ، شيخ صناعة الكتابة فى زمانه لاسيما فى المزوج والمثلث . وقد أقام يكتب الناس خمسين سنة ، وأنا ممن كتب عليه أثابه الله . وكان شيخا حسنا بهى المنظر يشعر جيداً ، توفى يوم الثلاثاء عاشر ذى القعدة ودفن بمقابر الباب الصغير وله خمس وستون سنة .

﴿ الشيخ تقى الدين الموصلى ﴾

أبو بكر بن أبى الكرم شيخ القراءة عند محراب الصحابة ، وشيخ ميعاد ابن عامر مدة طويلة وقد انتفع الناس به نحوا من خمسين سنة فى التلقين والقراءآت ، وختم خلقا كثيراً . وكان يقصد لذلك ويجمع تصديقات يقولها الصبيان ليالى ختمهم ، وقد سمع الحديث وكان خيراً دينا ، توفى

ليلة الثلاثاء سابع عشر ذى القعدة ، ودفن بباب الصغير رحمه الله .

﴿ الشيخ الصالح الزاهد المقرى ﴾

أبو عبد الله محمد بن الخطيب سلامة بن سالم بن الحسن بن ينبوب الماليني ، أحد الصلحاء المشهورين بجامع دمشق . سمع الحديث وأقرأ الناس نحواً من خمسين سنة ، وكان يفصح الأولاد فى الحروف الصعبة . وكان مبتلى فى فمه يحمل طاسة تحت فمه من كثرة ما يسيل منه من الريال وغيره وقد جاوز الثمانين بأربع سنين . توفى بالمدرسة الصارمية يوم الأحد ثانى عشر ذى القعدة . ودفن بباب الصغير بالقرب من القندلاوى ، وحضر جنازته خلق كثير جدا نحواً من عشرة آلاف رحمه الله تعالى .

﴿ الشيخ الصدر بن الوكيل ﴾

هو العلامة أبو عبد الله محمد بن الشيخ الامام مفتى المسلمين زين الدين عمر بن مكى بن عبد الصمد المعروف بابن المرحل وبابن الوكيل شيخ الشافعية فى زمانه . وأشهرهم فى وقته بالفضيلة وكثرة الاشتغال والمطالعة والتحصيل والاقتنان بالعلوم العديدة . وقد أجاد معرفة المذهب والأصلين ، ولم يكن بالنحو بذاك القوى ، وكان يقع منه اللحن الكثير . مع أنه قرأ منه المفصل للزمخشرى ، وكانت له محفوظات كثيرة ، ولد فى شوال سنة خمس وستين وستمائة ، وسمع الحديث على المشايخ ، من ذلك مسند أحمد على ابن علان ، والكتب الستة ، وقرئ عليه قطعة كبيرة من صحيح مسلم بدار الحديث عن الأمير الأربلى والعامرى والمزى . وكان يتكلم على الحديث بكلام مجموع من علوم كثيرة ، من الطب والفلسفة وعلم الكلام ، وليس ذلك بعلم . وعلوم الأوائل ، وكان يكثر من ذلك . وكان يقول الشعر جيداً ، وله ديوان مجموع مشتمل على أشياء لطيفة ، وكان له أصحاب يحسدونه ويحبونه ، وآخرون يحسدونه ويبغضونه ، وكانوا يتكلمون فيه بأشياء ويرمونه بالعظائم ، وقد كان مسرفا على نفسه قد ألقى جلباب الحياء فيما يتعاطاه من القاذورات والفواحش ، وكان ينصب العداوة للشيخ ابن تيمية ويناظره فى كثير من المحافل والمجالس . وكان يعترف للشيخ تقى الدين بالعلوم الباهرة ويثنى عليه . ولكنه كان يجاحف عن مذهبه وناحيته وهواه ، وينافح عن طائفته . وقد كان شيخ الاسلام ابن تيمية يثنى عليه وعلى علومه وفضائله ويشهد له بالاسلام إذا قيل له عن أفعاله وأعماله القبيحة ، وكان يقول : كان مخلطا على نفسه متبعا مراد الشيطان منه ، يميل إلى الشهوة والمحاضرة ، ولم يكن كما يقول فيه بعض أصحابه ممن يحسده ويتكلم فيه هذا أو ماهو فى معناه . وقد درس بعدة مدارس بمصر والشام . ودرس بدمشق بالشاميتين والعذراوية ودار الحديث الأشرفية وولى فى وقت الخطابة أياماً يسيرة كما تقدم ، ثم قام الخلق عليه وأخرجوها من يده ، ولم يرق منبرها ، ثم خالط نائب السلطنة الأفرم فجرت له أمور لا يمكن ذكرها ولا يحسبن من القبائح

ثم آل به الحال على أن عزم على الانتقال من دمشق إلى حلب لاستحوازه على قلب نائبها ، فأقام بها ودرس ، ثم تردد فى الرسلية بين السلطان ومهنا صحبة أرغون والطنبغا ، ثم استقر به المنزل بمصر ودرس فيها بمشهد الحسين إلى أن توفى بها بكرة نهار الأربعاء رابع عشرين ذى الحجة بداره قريباً من جامع الحاكم ، ودفن من يومه قريباً من الشيخ محمد بن أبى جمرة بتربة القاضى ناظر الجيش بالقرافة ، ولما بلغت وفاته دمشق صلى عليه بجامعها صلاة الغائب بعد الجمعة ثالث المحرم من السنة الآتية ، ورثاه جماعة منهم ابن غانم علاء الدين ، والقحقازى والصفدى ، لانهم كانوا من عشرائه .

وفى يوم عرفة توفى ﴿ الشيخ عماد الدين إسماعيل الفوعى ﴾

وكيل قجليس ، وهو الذى بنى له الباشورة على باب الصغير بالبرانية الغربية ، وكانت فيه نهضة وكفاية ، وكان من بيت الرفض ، اتفق أنه استحضره نائب السلطنة فضربه بين يديه ، وقام النائب إليه بنفسه فجعل يضربه بالمهاميز فى وجهه فرفع من بين يديه وهوتالف فمات فى يوم عرفة ، ودفن من يومه بسفح قاسيون وله دار ظاهرباب الفراديس .

﴿ ثم دخلت سنة سبع عشرة وسبعمائة ﴾

استهلت والحكام هم المذكورون فى التى قبلها . وفى صفر شرع فى عمارة الجامع الذى أنشأه ملك الامراء تنكز نائب الشام ظاهر باب النصر تجاه حكر السماق ، على نهر بانياس بدمشق ، وتردد القضاة والعلماء فى تحرير قبلته ، فاستقر الحال فى أمرها على ما قاله الشيخ تقى الدين بن تيمية فى يوم الأحد الخامس والعشرين منه ، وشرعوا فى بنائه بأمر السلطان ، ومساعدته لنائبه فى ذلك . وفى صفر هذا جاء سيل عظيم بمدينة بعلبك أهلك خلقاً كثيراً من الناس ، وخرب دوراً وعمائر كثيرة ، وذلك فى يوم الثلاثاء سابع وعشرين صفر .

وملخص ذلك أنه قبل ذلك جاءهم رعد وبرق عظيم معهما برد ومطر ، فسالت الأودية ، ثم جاءهم بعده سيل هائل خسف من سور البلد من جهة الشمال شرق مقدار أربعين ذراعاً ، مع أن سمك الحائط خمسة أذرع ، وحمل برجاً صحيحا ومعه من جانبيه مدينتين ، فحمله كما هو حتى مر فحفر فى الأرض نحو خمسمائة ذراع سعة ثلاثين ذراعا ، وحمل السيل ذلك إلى غربى البلد ، لايمر على شىء إلا أتلفه ، ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فأتلف مايزيد على ثلثها ، ودخل الجامع فارتفع فيه على قامة ونصف ، ثم قوى على حائطه الغربى فأخربه وأتلف جميع مافيه الحواصل والكتب والمصاحف وأتلف شيئا كثيراً من رباغ الجامع ، وهلك تحت الهدم خلق كثير من الرجال والنساء والأطفال ، فانا لله وإنا إليه راجعون . وغرق فى الجامع الشيخ على بن محمد بن الشيخ على الحريرى هو وجماعة معه من الفقراء ، ويقال كان من جملة من هلك فى هذه الكائنة من أهل بعلبك مائة وأربعة وأربعون

نفسا سوى الغرباء ، وجملة الدور التى خربها والحوانيت التى أتلفهـا نحو من سـتمائة دار وحانوت ، وجملة البساتين التى جرف أشجارها عشرون بستانا . ومن الطواحين ثمانية سوى الجامع والأمينية وأما الأماكن التى دخلها وأتلف مافيها ولم تخرب فكثير جداً .

وفى هذه السنة زاد النيل زيادة عظيمة لم يسمع بمثلها من مـدد ، وغرق بلادا كثيرة . وهلك فيها ناس كثير أيضاً . وغرق منية السيرج فهلك للناس فيها شىء كثير . فانا لله و إنا إليه راجعون .

وفى مستهل ربيع الآخر منها أغار جيش حلب على مدينة آمد فنهبوا وسبوا وعادوا سالمين . وفى يوم السبت تاسع وعشرين منه قدم قاضى المالـكية إلى الشام من مصر وهو الامام العـلامة فخر الدين أبو العباس أحمد بن سلامة بن أحمد بن أحمد بن سلامة الاسكندرى المالـكى ، على قضاء دمشق عوضا عن قاضى القضاة جمال الدين الزواوى لضعفه واشتداد مرضه ، فالتقاه القضـاة والأعيـان . وقرىء تقليده بالجامع ثانى يوم وصوله ، وهو مؤرخ بثانى عشر الشهر ، وقدم نائبه الفقيه نور الدين السخاوى درس بالجامع فى جمادى الأولى . وحضر عنده الاعيان ، وشكرت فضائله وعلومه ونزاهته وصرامته وديانته ، و بعد ذلك بتسعة أيام توفى الزواوى المعزول ، وقد باشر القضاء بدمشق ثلاثين سنة . وفيها أفرج عن الامير سيف الدين بهادرآص من سـجن الـكرك وحمل إلى القاهرة وأكرمه السلطان ، وكان سجنه بها مطاوعة لاشارة نائب الشام بسبب ما كان وقع بينهما بملطية . وخرج المحمل فى يوم الخميس تاسع شوال . وأمير الحج سيف الدين كجكنى المنصورى . وممن حج قاضى القضاة نجم الدين ابن صصرى وابن أخيه شرف الدين وكمال الدين بن الشيرازى والقاضى جلال الدين الحنفى والشيخ شرف الدين بن تيمية وخلق . وفى سادس هذا الشهر درس بالجاروضية القاضى جلال الدين محمد بن الشيخ كمال الدين الشريشى بعد وفاة الشيخ شرف الدين بن أبى سلام . وحضر عنده الاعيان . وفى التاسع عشر منه درس ابن الزملـكانى بالعذراوية عوضا عن ابن سلام، وفيه درس الشيخ شرف الدين بن تيمية بالحنبلية عن إذن أخيه له بذلك بعد وفاة أخيهما لأمهـا بدر الدين قاسم بن محمـد ابن خالد . ثم سافر الشيخ شرف الدين إلى الحج ، وحضر الشيخ تقى الدين الدرس بنفسه ، وحضر عنـده خلق كثير من الأعيان وغيرهم حتى عاد أخوه ، و بعد عوده أيضاً ، وجاءت الأخبـار بأنه قد أبطلت الخمور والفواحش كلها من بلاد السواحل وطرابلس وغيرها ، ووضعت مكوس كثيرة عن الناس هنالك ، و بنيت بقرى النصيرية فى كل قرية مسجد ولله الحمد والمنة .

وفى بكرة نهار الثلاثاء الثامن والعشرين من شوال وصل الشيخ الامام العلامة شيخ الـكتاب شهاب الدين محمود بن سليمان الحلبى على البريد من مصر إلى دمشق متولياً كتابة السر بها ، عوضا عن شرف الدين عبد الوهاب بن فضل الله توفى إلى رحمـة الله . وفى ذى القعـدة يوم الأحد درس

بالصمصامية التي جددت المالكية وقد وقف عليها الصاحب شمس الدين غبريال درسا ، ودرس بها فقهاء ، وعين تدريسها لنائب الحكم الفقيه نور الدين على بن عبد النصير المالكى ، وحضر عنده القضاة والأعيان ، وممن حضر عنده الشيخ تقى الدين بن تيمية ، وكان يعرفه من اسكندرية ، وفيه درس بالدخوارية الشيخ جمال الدين محمد بن الشيخ شهاب الدين أحمد الكحال ، ورتب فى رياسة الطب عوضا عن أمين الدين سليمان الطبيب ، بمرسوم نائب السلطنة تنكز ، واختاره لذلك . واتفق أنه فى هذا الشهر تجمع جماعة من التجار بماردين وانضاف إليهم خلق من الجفال من الغلا قاصدين بلاد الشام ، حتى إذا كانوا بمرحلتين من رأس العين لحقهم ستون فارسا من التتار فمالوا عليهم بالنشاب وقتلوهم عن آخرهم ، ولم يبق منهم سوى صبيانهم نحو سبعين صبيا ، فقالوا من يقتل هؤلاء ؟ فقال واحد منهم : أنا بشرط أن تنفلونى بمال من الغنيمة ، فقتلهم كلهم عن آخرهم ، وكان جملة من قتل من التجار ستمائة ، ومن الجفلان ثلثمائة من المسلمين ، فانا لله و إنا إليه راجعون . وردموا بهم خمس صهاريج هناك حتى امتلأت بهم رحمهم الله ، ولم يسلم من الجميع سوى رجل واحد تركمانى، هرب وجاء إلى رأس العين فأخبر الناس بما رأى وشاهد من هذا الأمر الفظيع المؤلم الوجيع، فاجتهد متسلم ديار بكر سوباى فى طلب أولئك التتر حتى أهلكهم عن آخرهم ، ولم يبق منهم سوى رجلين ، لا جمع الله بهم شملا ولا بهم مرحبا ولا أهلا ، آمين يارب العالمين .

﴿ صفة خروج المهدى الضال بأرض جبلة ﴾

وفى هذه السنة خرجت النصيرية عن الطاعة وكان من بينهم رجل سموه محمد بن الحسن المهدى القائم بأمر الله ، وتارة يدعى على بن أبى طالب فاطر السموات والارض ، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا . وتارة يدعى أنه محمد بن عبد الله صاحب البلاد ، وخرج يكفر المسلمين ، وأن النصيرية على الحق ، واحتوى هذا الرجل على عقول كثير من كبار النصيرية الضلال ، وعين لكل إنسان منهم تقدمة ألف ، و بلادا كثيرة ونيابات ، وحملوا على مدينة جبلة فدخلوها وقتلوا خلقا من أهلها، وخرجوا منها يقولون لا إله إلا على ، ولا حجاب إلا محمد ، ولا باب إلا سلمان . وسبوا الشيخين ، وصاح أهل البلد وا إسلاماه ، واسلطاناه ، وأميراه ، فلم يكن لهم يومئذ ناصر ولا منجد ، وجعلوا يبكون و يتضرعون إلى الله عز وجل ، فجمع هذا الضال تلك الأموال فقسمها على أصحابه وأتباعه قبحهم الله أجمعين . وقال لهم لم يبق للمسلمين ذكر ولا دولة ، ولو لم يبق معى سوى عشرة نفر لملكنا البلاد كلها . ونادى فى تلك البلاد إن المقاسمة بالعشر لا غير ليرغب فيه ، وأمر أصحابه بخراب المساجد واتخاذها خمارات ، وكانوا يقولون لمن أسروه من المسلمين : قل لا إله إلا على ، واسجد لالهك المهدى، الذى يحيى و يميت حتى يحقن دمك ، و يكتب لك فرمان ، وتجهزوا وعملوا أمراً عظيما جداً ، فجردت إليهم العساكر

فهزموهم وقتلوا منهم خلقا كثيرا ، وجما غفيراً ، وقتل المهدى أضلهم وهو يكون يوم القيامة مقدمهم إلى عذاب السعير ، كما قال تعالى (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم و يتبع كل شيطان مريد، كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله و يهديه إلى عذاب السعير . ذلك بما قدمت يداك) الآية

وفيها حج الأمير حسام الدين مهنا و ولده سليمان فى ستة آلاف ، وأخوه محمد بن عيسى فى أربعة آلاف ، ولم يجتمع مهنا بأحد من المصريين ولا الشاميين ، وقد كان فى المصريين قجليس وغيره والله أعلم . ومن توفى فيها من الاعيان .

﴿ الشيخ الصالح ﴾

أبو الحسن على بن محمد بن عبد الله المنتزه ، كان فاضلا ، وكتب حسنا ، نسخ التنبيه والعمدة وغير ذلك ، وكان الناس ينتفعون به و يقابلون عليه ذلك و يصححون عليه ، و يجلسون إليه عند صندوق كان له فى الجامع ، توفى ليلة الاثنين سادس محرم ودفن بالصوفية ، وقد صححت عليه فى العمدة وغيره .

﴿ الشيخ شهاب الدين الرومى ﴾

أحمد بن محمد بن إبراهيم بن المراغى ، درس بالمعينية ، وأم بمحراب الحنفية بمقصورتهم الغربية إذ كان محرابهم هناك ، وتولى مشيخة الخاتونية ، وكان يؤم بنائب السلطان الأفرم ، وكان يقرأ حسنا بصوت مليح ، وكانت له مكانة عنده ، وربما راح إليه الافرم ماشيا حتى يدخل عليه زاويته التى أنشأها بالشرق الشمالى على الميدان الكبير ، ولما توفى بالمحرم ودفن بالصوفية قام ولداه عماد الدين وشرف الدين بوظائفه .

﴿ الشيخ الصالح العدل ﴾

فخر الدين عثمان بن أبى الوفا بن نعمة الله الأعزازى ، كان ذا ثروة من المال كثير المروءة والتلاوة أدى الامانة فى ستين ألف دينار وجواهر لا يعلم بها إلا الله عز وجل ، بعد ما مات صاحبها مجردا فى الغزاة وهو عز الدين الجراحى نائب غزة ، أودعه إياها فأداها إلى أهلها أثابه الله ، ولهذا لما مات يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من ربيع الآخر حضر جنازته خلق لا يعلمهم إلا الله تعالى ، حتى قيل إنهم لم يجتمعوا فى مثلها قبل ذلك ، ودفن بباب الصغير رحمه الله .

﴿ قاضى القضاة ﴾

جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سليمان بن يوسف الزواوى قاضى المالكية بدمشق ، من سنة سبع وثمانين وستمائة ، قدم مصر من المغرب واشتغل بها وأخذ عن مشايخها منهم الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، ثم قدم دمشق قاضياً فى سنة سبع وثمانين وستمائة، وكان مولده تقريبا فى سنة تسع وعشرين وستمائة . وأقام شعار مذهب مالك وعمر الصمصامية فى أيامه وجدد عمارة النورية ، وحدث

بصحيح مسلم وموطأ مالك عن يحى بن يحى عن مالك ، وكتاب الشفا للقاضى عياض ، وعزل قبل وفاته بعشرين يوما عن القضاء ، وهـذا من خيره حيث لم يمت قاضيا ، توفى بالمدرسة الصمصامية يوم الخميس التاسع من جمادى الآخرة ، وصلى عليه بعد الجمعة ودفن بمقابر باب الصغير تجاه مسجد التاريخ ، وحضر الناس جنازته وأثنوا عليه خيرا ، وقدجاوز الثمانين كمالك رحمه الله . ولم يبلغ إلى سبعة عشر من عمره على مقتضى مذهبه أيضا .

﴿ القاضى الصدر الرئيس ﴾

رئيس الكتاب شرف الدين أبومحمد عبد الوهاب بن جمال الدين فضل الله بن الحلى القرشى العدوى العمرى ، ولد سنة تسع وعشرين وستمائة وسمع الحديث وخدم وارتفعت منزلته حتى كتب الانشاء بمصر ، ثم نقل إلى كتابة السر بدمشق إلى أن توفى فى ثامن رمضان ، ودفن بقاسيون ، وقد قارب التسعين ، وهو ممتع بحواسه وقواه ، وكانت له عقيدة حسنة فى العلماء ، ولا سيما فى ابن تيمية وفى الصلحاء رحمه الله . وقد رثاه الشهاب محمود كاتب السر بعده بدمشق ، وعـلاء الدين بن غانم وجمال الدين بن نباتة .

﴿ الفقيه الامام العالم المناظر ﴾

شرف الدين أبو عبدالله الحسين بن الامام كمال الدين على بن إسحاق بن سلام الدمشقى الشافعى ولد سنة ثلاث وسبعين وستمائة ، واشتغل وبرع وحصل ودرس بالجاروضية والعذراوية ، وأعاد بالظاهرية وأفتى بدار العـدل ، وكان واسع الصدر كثير الهمـة كريم النفس مشكوراً فى فهمه وخطه وحفظه وفصاحته ومناظرته ، توفى فى رابع عشرين رمضان وترك أولاداً وديناً كثيراً ، فوفته عنه زوجته بنت زويزان تقبل الله منها وأحسن إليها .

﴿ الصاحب أنيس الملوك ﴾

بدر الدين عبد الرحمن بن إبراهيم الأربلى ، ولد سنة ثمان وثلاثين وستمائة ، واشتغل بالأدب فحصل على جانب جيد منه وارتزق عنـد الملوك به . فمن رقيق شعره ما أورده الشيخ علم الدين فى ترجمته قوله :

ومدامة خمر تشبه خد من ■ أهوى ودمعى يسقى بهاقمرا

أعز على من سمعى ومن بصرى (١)

وقوله فى مغنية

وعزيز هيفـاء ناعمة الصبـا ■ طوع العناق مريضة الأجفان

غنت وماس قوامها فكأنها الـ ■ ورقاء تسجع فوق غصن البان

(١) بياض بالنسخ التركية والمصرية .

﴿ الصدر الرئيس شرف الدين محمد بن جمال الدين إبراهيم ﴾

ابن شرف الدين عبد الرحمن بن أمين الدين سالم بن الحافظ بهاء الدين الحسن بن هبة الله بن محفوظ بن صصرى . ذهب إلى الحجاز الشريف ، فلما كانوا ببردى اعتراه مرض ولم يزل به حتى مات ، توفى بمكة وهو محرم ملب ، فشهد الناس جنازته وغبطوه بهذه الموتة . وكانت وفاته يوم الجمعة آخر النهار سابع ذى الحجة ودفن ضحى يوم السبت بمقبرة بباب الحجون رحمه الله تعالى وأكرم مثواه.

﴿ ثم دخلت سنة ثمان عشرة وسبعمائة ﴾

الخليفة والسلطان هاهما . وكذلك النواب والقضاة سوى المالكى بدمشق فانه العلامة فخر الدين ابن سلامة بعد القاضى جمال الدين الزواوى رحمه الله . ووصلت الأخبار فى المحرم من بلاد الجزيرة وبلاد الشرق سنجار والموصل وماردين وتلك النواحى بغلاء عظيم وفناء شديد ، وقلة الأمطار . وخوف التتار ، وعدم الأقوات وغلاء الأسعار ، وقلة النفقات . وزوال النعم . وحلول النقم . بحيث إنهم أكلوا ماوجدوه من الجمادات والحيوانات والميتات . وباعوا حتى أولادهم وأهاليهم ، فبيع الولد بخمسين درهما وأقل من ذلك ،حتى إن كثيرا كانوا لا يشترون من أولاد المسلمين . وكانت المرأة تصرح بأنها نصرانية ليشترى منها ولدها لتنتفع بثمنه ويحصل له من يطعمه فيعيش . وتأمن عليه من الهلاك ، فانا لله وإنا إليه راجعون . ووقعت أحوال صعبة يطول ذكرها . وتنبو الأسماع عن وصفها ، وقد ترحلت منهم فرقة قريب الأربعمائة إلى ناحية مراغة فسقط عليهم ثلج أهلكهم عن آخرهم ، وصحبت طائفة منهم فرقة من التتار . فلما انتهوا إلى عقبة صعدها التتار ثم منعوهم أن يصعدوها لئلا يتكلفوا بهم فماتوا عن آخرهم ، فلاحول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم .

وفى بكرة الاثنين السابع من صفر قدم القاضى كريم الدين عبد الكريم بن العلم هبة الله وكيل الخاص السلطانى بالبلاد جميعها ، قدم إلى دمشق فنزل بدار السعادة وأقام بها أربعة أيام وأمر ببناء جامع القبيبات ، الذى يقال له جامع كريم الدين ، وراح لزيارة بيت المقدس ، وتصدق بصدقات كثيرة وافرة ، وشرع ببناء جامع بعد سفره . وفى ثانى صفر جاءت ريح شديدة ببلاد طرابلس على ذوق تركمان فأهلكت لهم كثيراً من الأمتعة ، وقتلت أميراً منهم يقال له طرالى وزوجته وابنتيه وابنى ابنيه وجاريته وأحد عشر نفساً ، وقتلت جمالا كثيرة وغيرها ، وكسرت الأمتعة والأثاث وكانت ترفع البعير فى الهواء مقدار عشرة أرماح ثم تلقيه مقطعاً . ثم سقط بعد ذلك مطر شديد وبرد عظيم بحيث أتلف زروعاً كثيرة فى قرى عديدة نحو من أربعة وعشرين قرية . حتى انها لا ترد بدارها . وفى صفر أخرج الأمير سيف الدين طغاى الحاصلى إلى نيابة صفت فأقيم بها شهرين ثم مسك ، والصاحب أمين الدين إلى نظر الأوقاف بطرابلس على معلوم وافر . قال الشيخ علم الدين

وفى يوم الخميس منتصف ربيع الأول اجتمع قاضى القضاة شمس الدين بن مسلم بالشيخ الامام العلامة تقى الدين بن تيمية وأشار عليه فى ترك الافتاء فى مسألة الحلف بالطلاق ، فقبل الشيخ نصيحته وأجاب إلى ما أشار به ، رعاية لخاطره وخواطر الجماعة المفتيين . ثم ورد البريد فى مستهل جمادى الأولى بكتاب من السلطان فيه منع الشيخ تقى الدين من الافتاء فى مسألة الحلف بالطلاق وانعقد بذلك مجلس ، وانفصل الحال على ما رسم به السلطان ، ونودى به فى البلد ، وكان قبل قدوم المرسوم قد اجتمع بالقاضى ابن مسلم الحنبلى جماعة من المفتيين الكبار . وقالوا له أن ينصح الشيخ فى ترك الافتاء فى مسألة الطلاق ، فعلم الشيخ نصيحته ، وأنه إنما قصد بذلك ترك ثوران فتنة وشر . وفى عاشره جاء البريد إلى صفت بمسك سيف الدين طغاى . وتولية بدر الدين القرمانى نيابة حمص .

وفى هذا الشهر كان مقتل رشيد الدولة فضل الله بن أبى الخير بن عالى الهمدانى ، كان أصله يهوديا عطاراً . فتقدم بالطب وشملته السعادة حتى كان عند خر بندا الجزء الذى لا يتجزأ . وعلت رتبته وكلمته ، وتولى مناصب الوزراء ،وحصل له من الأموال والأملاك والسعادة مالا يحد ولا يوصف وكان قد أظهر الاسلام ، وكانت لديه فضائل جمة . وقد فسر القرآن وصنف كتبا كثيرة ، وكان له أولاد وثروة عظيمة، وبلغ الثمانين من العمر . وكانت له يد جيدة يوم الرحبة . فانه صانع عن المسلمين وأتقن القضية فى رجوع ملك التتار عن البلاد الشامية ، سنة ثنتى عشرة كما تقدم . وكان يناصح الاسلام ، ولكن قد نال منه خلق كثير من الناس واتهموه على الدين وتكلموا فى تفسيره هذا . ولا شك أنه كان مخبطا مخلطا ، وليس لديه علم نافع ، ولا عمل صالح . ولما تولى أبو سعيد المملكة عزله وبقى مدة خاملا ثم استدعاه جوبان وقال له أنت سقيت السلطان خر بندا سما ؟ فقال له : أنا كنت فى غاية الحقارة والذلة،فصرت فى أيامه وأيام أبيه فى غاية العظمة والعزة،فكيف أعمد إلى سقيه والحالة هذه ؟ فأحضرت الأطباء فذكروا صورة مرض خر بندا وصفته ، وأن الرشيد أشار باسهاله لما عنده فى باطنه من الحواصل ، فانطلق باطنه نحواً من سبعين مجلسا ، فمات بذلك على وجه أنه أخطأ فى الطب . فقال : فأنت إذاً قتلته . فقتله وولده إبراهيم واحتيط على حواصله وأمواله ، فبلغت شيئا كثيراً ، وقطعت أعضاؤه وحمل كل جزء منها إلى بلدة ، ونودى على رأسه بتبريز هذا رأس اليهودى الذى بدل كلام الله لعنه الله ، ثم أحرقت جثته ، وكان القائم عليه على شاه .

وفى هذا الشهر – أعنى جمادى الأولى – تولى قضاء المالكية بمصر تقى الدين الاخنائى عوضاً عن زين الدين بن مخلوف توفى عن أربع وثمانين سنة . وله فى الحكم ثلاث وثلاثون سنة . وفى يوم الخميس عاشر رجب لبس صلاح الدين يوسف بن الملك الأوحد خلعة الامرة بمرسوم السلطان .

وفى آخر رجب جاء سيل عظيم بظاهر حمص خرب شيئا كثيراً ، وجاء إلى البلد ليدخلها فمنعه الخندق . وفى شعبان تكامل بناء الجامع الذى عمره تنكز ظاهر باب النصر ، وأقيمت الجمعة فيه عاشر شعبان ، وخطب فيه الشيخ نجم الدين على بن داود بن يحيى الحنفى المعروف بالقفجازى ، من مشاهير الفضلاء ذوى الفنون المتعددة ، وحضر نائب السلطنة والقضاة والأعيان والقراء والمنشدون وكان يوماً مشهودا . وفى يوم الجمعة التى يليها خطب بجامع القبيبات الذى أنشأه كريم الدين وكيل السلطان ، وحضر فيه القضاة والأعيان ، وخطب فيه الشيخ شمس الدين محمد بن عبد الواحد بن يوسف بن الرزين الحرانى الأسدى الحنبلى ، وهو من الصالحين الكبار ، ذوى الزهادة والعبادة والنسك والتوجه وطيب الصوت وحسن السمت . وفى حادى عشر رمضان خرج الشيخ شمس الدين ابن النقيب إلى حمص حاكما بها مطلوبا مولى مرغوبا فيه ، وخرج الناس لتوديعه .

وفى هذا الشهر حصل سيل عظيم بسلمية ومثله بالشوبك ، وخرج المحمل فى شوال وأمير الركب الأمير علاء الدين بن معبد والى البر ، وقاضيه زين الدين ابن قاضى الخليل الحاكم بحلب . وممن حج فى هذه السنة من الأعيان : الشيخ برهان الدين الفزارى وكمال الدين ابن الشريشى وولده وبدر الدين ابن العطار . وفى الحادى والعشرين من ذى الحجة انتقل الأمير فخر الدين إياس الأعسرى من شد الدواوين بدمشق إلى طرابلس أميراً . وفى يوم الجمعة السابع عشر ذى الحجة أقيمت الجمعة فى الجامع الذى أنشأه الصاحب شمس الدين غبريال ناظر الدواوين بدمشق خارج باب شرقى ، إلى جانب ضرار بن الأزور بالقرب من محلة القماطلة ، وخطب فيه الشيخ شمس الدين محمد بن التدمرى المعروف بالنيربانى ، وهو من كبار الصالحين ذوى العبادة والزهادة ، وهو من أصحاب شيخ الاسلام ابن تيمية ، وحضره الصاحب المذكور وجماعة من القضاة والأعيان .

وفى يوم الاثنين والعشرين من ذى الحجة باشر الشيخ شمس الدين محمد بن عثمان الذهبى المحدث الحافظ بتربة أم الصالح عوضا عن كمال الدين بن الشريشى توفى بطريق الحجاز فى شوال ، وقد كان له فى مشيختها ثلاث وثلاثون سنة ، وحضر عند الذهبى جماعة من القضاة . وفى يوم الثلاثاء صبيحة هذا الدرس أحضر الفقيه زين الدين بن عبيدان الحنبلى من بعلبك وحوقق على منام رآه زعم أنه رآه بين النائم واليقظان ، وفيه تخابط وتخبيط وكلام كثير لا يصدر عن مستقيم المزاج ، كان كتبه بخطه وبعثه إلى بعض أصحابه ، فاستتابه القاضى الشافعى وحقن دمه وعزره ، ونودى عليه فى البلد ومنع من الفتوى وعقود الأنكحة ، ثم أطلق . وفى يوم الاربعاء بكرة باشر بدر الدين محمد بن بضحان مشيخة الاقراء بتربة أم الصالح عوضا عن الشيخ مجد الدين التونسى توفى ، وحضر عنده الأعيان والفضلاء ، وقد حضرته يومئذ ، وقبل ذلك باشر مشيخة الاقراء بالأشرفية عوضا عنه أيضا الشيخ

محمد بن خروف الموصلي . وفي يوم الخميس ثالث عشرين ذي الحجة باشر الشيخ الامام العلامة الحافظ الحجة شيخنا ومفيدنا أبو الحجاج يوسف بن الزكي عبد الرحمن بن يوسف المزي مشيخة دار الحديث الأشرفية عوضا عن كمال الدين بن الشريشي ، ولم يحضر عنده كبير أحد ، لما في نفوس بعض الناس من ولايته لذلك ، مع أنه لم يتولها أحد قبله أحق بها منه ، ولا أحفظ منه ، وما عليه منهم ؟ إذ لم يحضروا عنده فانه لا يوحشه إلا حضورهم عنده ، و بعدهم عنه أنس والله أعلم .

ومن توفي فيها من الأعيان ﴿ الشيخ الصالح العابد الناسك ﴾

الورع الزاهد القدوة بقية السلف وقدوة الخلف أبو عبد الله محمد بن الشيخ الصالح عمر بن السيد القدوة الناسك الكبير العارف أبي بكر بن قوام بن علي بن قوام البالسي ، ولد سنة خمسين وستمائة ببالس ، وسمع من أصحاب ابن طبرزد ، وكان شيخا جليلا بشوش الوجه حسن السمت ، مقصدا لكل أحد كثير ، الوقار عليه سيما العبادة والخير ، وكان يوم قازان في جملة من كان مع الشيخ تقي الدين ابن تيمية لما تكلم مع قازان ، فحكى عن كلام شيخ الاسلام تقي الدين لقازان وشجاعته وجرأته عليه ، وأنه قال لترجمانه قل للقان : أنت تزعم أنك مسلم ومعك مؤذنون وقاضي و إمام وشيخ على ما بلغنا فغزوتنا و بلغت بلادنا على ماذا ؟ وأبوك وجدك هلاكو كانا كافرين وما غزوا بلاد الاسلام ، بل عاهدوا قومنا ، وأنت عاهدت فغدرت وقلت فما وفيت . قال وجرت له مع قازان وقطلوشاه و بولاي أمور ونوب ، قام ابن تيمية فيها كلها لله ، وقال الحق ولم يخش إلا الله عز وجل . قال وقرب إلى الجماعة طعاما فأكلوا منه إلا ابن تيمية فقيل له ألا تأكل ؟ فقال : كيف آكل من طعامكم وكله مما نهبتم من أغنام الناس وطبختموه بما قطعتم من أشجار الناس ، قال ثم إن قازان طلب منه الدعاء فقال في دعائه « اللهم إن كان هذا عبدك محمود إنما يقاتل لتكون كلمتك هي العليا وليكون الدين كله لك فانصره وأيده وملكه البلاد والعباد ، و إن كان إنما قام رياء وسمعة وطلبا للدنيا ولتكون كلمته هي العليا وليذل الاسلام وأهله فاخذله و زلزله ودمره واقطع دابره » قال وقازان يؤمن على دعائه ، و يرفع يديه . قال فجعلنا نجمع ثيابنا خوفا من أن تتلوث بدمه إذا أمر بقتله ، قال فلما خرجنا من عنده قال له قاضي القضاة نجم الدين ابن صصرى وغيره : كدت أن تهلكنا وتهلك نفسك ، والله لا نصحبك من هنا ، فقال : وأنا والله لا أصحبكم . قال فانطلقنا عصبة وتأخر هو في خاصة نفسه ومعه جماعة من أصحابه ، فتسامعت به الخواقين والأمراء من أصحاب قازان فأتوه يتبركون بدعائه ، وهو سائر إلى دمشق ، وينظرون إليه ، قال والله ما وصل إلى دمشق إلا في نحو ثلثمائة فارس في ركابه ، وكنت أنا من جملة من كان معه ، وأما أولئك الذين أبوا أن يصحبوه فخرج عليهم جماعة من التتر فشلحوهم عن آخرهم ، هذا الكلام أو نحوه ، وقد سمعت هذه الحكاية من جماعة غيره ، وقد تقدم ذلك . توفي الشيخ محمد بن قوام ليلة الاثنين

الثانى والعشرين من صفر بالزاوية المعروفة بهم غربى الصالحية والناصرية والعادلية . وصلى عليه بها ودفن بها وحضر جنازته ودفنه خلق كثير وجم غفير ، وكان فى جملة الجمع الشيخ تقى الدين بن تيمية ، لأنه كان يحبه كثيرا ، ولم يكن للشيخ محمد مرتب على الدولة ولا غيرهم ، ولا لزاويته مرتب ولا وقف . وقد عرض عليه ذلك غير مرة فلم يقبل . وكان بزار ، وكان لديه علم وفضائل جمة ، وكان فهمه صحيحا ، وكانت له معرفة تامة . وكان حسن العقيدة وطويته صحيحة محبا للحديث وآثار السلف . كثير التلاوة والجمعية على الله عز وجل ، وقد صنف جزءا فيه أخبار جيدة . رحمه الله وبل ثراه بوابل الرحمة آمين .

﴿ الشيخ الصالح الأديب البارع الشاعر المجيد ﴾

تقى الدين أبو محمد عبد الله بن الشيخ أحمد بن تمام بن حسان البلى ثم الصالحى الحنبلى . أخو الشيخ محمد بن تمام ، ولد سنة خمس وثلاثين وستمائة وسمع الحديث ، وصحب الفضلاء . وكان حسن الشكل والخلق ، طيب النفس مليح المجاورة والمجالسة . كثير المفاكهة ، أقام مدة بالحجاز واجتمع بابن سبعين وبالتقى الحورانى ، وأخذ النحو عن ابن مالك وابنه بدر الدين وصحبه مدة ، وقد صحبه الشهاب محمود مدة خمسين سنة . وكان يثنى عليه بالزهد والفراغ من الدنيا ، توفى ليلة السبت الثالث من ربيع الآخر ودفن بالسفح ، وقد أورد الشيخ علم الدين البرزالى فى ترجمته قطعة من شعره : فمن ذلك قوله :

أسكان المعاهد من فؤادى * لكم فى خافق منه سكون
أكرر فيكم أبداً حديثى * فيحلو والحديث له شجون
وأنظمه عقيقا من دموعى * فتنثره المحاجر والجفون
وأبتكر المعانى فى هواكم * وفيكم كل قافية تهون
واسئل عنكم البكاء سراً * وسر هواكم سر مصون
وأغتبق النسيم لان فيه * شمائل من معاطفكم تبين
فكم لى فى محبتكم غرام * وكم لى فى الغرام بكم فنون ؟

﴿ قاضى القضاة زين الدين ﴾

على بن مخلوف بن ناهض بن مسلم بن منعم بن خلف النويرى المالكى الحاكم بالديار المصرية . سنة أربع وثلاثين وستمائة . وسمع الحديث واشتغل وحصل ، وولى الحكم بعد ابن شاش سنة خمس وثمانين . وطالت أيامه إلى هذا العام . وكان غزير المروءة والاحتمال والاحسان إلى الفقهاء والشهود ، ومن يقصده ، توفى ليلة الأربعاء حادى عشر جمادى الآخرة ودفن بسفح المقطم بمصر ، وتولى الحكم بعده بمصر تقى الدين الاخنائى المالكى .

﴿ الشيخ إبراهيم بن أبى العلاء ﴾

المقرى الصيت المشهور المعروف بابن شملان ، وكان رجلا جيدا فى شهود المسمارية ، ويقصد للختمات لصيت صوته ، توفى يوم الجمعة وهو كهل ثالث عشر جمادى الآخرة ، ودفن بسفح قاسيون

﴿ الشيخ الامام العالم الزاهد ﴾

أبو الوليد محمد بن أبى القاسم أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبى جعفر أحمد بن خلف بن إبراهيم ابن أبى عيسى بن الحاج النجيبى القرطبى ثم الاشبيلى ، ولد باشبيلية سنة ثمان وثلاثين وستمائة ، وقد كان أهله بيت العلم والخطابة والقضاء بمدينة قرطبة ، فلما أخذها الفرنج انتقلوا إلى إشبيلية وتمحقت أموالهم وكتبهم ، وصادر ابن الأحمر جده القاضى بعشرين ألف دينار ، ومات أبوه وجده فى سنة إحدى وأربعين وستمائة ، ونشأ يتيما ثم حج وأقبل إلى الشام فاستقام بدمشق من سنة أربع وثمانين ، وسمع من ابن البخارى وغيره ، وكتب بيده نحوا من مائة مجلد ، إعانة لولديه أبى عمرو وأبى عبد الله على الاشتغال ، ثم كانت وفاته بالمدرسة الصلاحية يوم الجمعة وقت الأذان ثامن عشر رجب ، وصلى عليه بعد العصر ودفن عند القندلاوى ، بباب الصغير بدمشق ، وحضر جنازته خلق كثير .

﴿ الشيخ كمال الدين ابن الشريشى ﴾

أحمد ابن الامام العلامة جمال الدين بن أبى بكر بن محمد بن أحمد بن محمد بن سحمان البكرى الوايلى الشريشى ، كان أبوه مالكيا كما تقدم ، واشتغل هو فى مذهب الشافعى فبرع وحصل علوماً كثيرة ، وكان خبيراً بالكتابة مع ذلك ، وسمع الحديث وكتب الطباق بنفسه ، وأفتى ودرس وناظر وباشر بعدة مدارس ومناصب كبار ، أول ما باشر مشيخة دار الحديث بتربة أم الصالح بعد والده من سنة خمس وثمانين وستمائة إلى أن توفى ، وناب فى الحكم عن ابن جماعة . ثم ترك ذلك وولى وكالة بيت المال وقضاء العسكر ونظر الجامع مرات ، ودرس بالشامية البرانية ودرس بالناصرية عشرين سنة ، ثم انتزعها من يده ابن جماعة وزين الدين الفارقى ، فاستعادها منهما وباشر مشيخة الرباط الناصرى بقاسيون مدة ، ومشيخة دار الحديث الأشرفية ثمان سنين ، وكان مشكور السيرة فيما يولى من الجهات كلها ، وقد عزم فى هذه السنة على الحج فخرج بأهله فأدركته منيته بالحسا فى سلخ شوال من هذه السنة ، ودفن هناك رحمه الله ، وتولى بعده الوكالة جمال الدين بن القلانسى ، ودرس بالناصرية كمال الدين بن الشيرازى ، وبدار الحديث الأشرفية الحافظ جمال الدين المزى ، وبأم الصالح الشيخ شمس الدين الذهبى ، وبالرباط الناصرى ولده جمال الدين .

﴿ الشهاب المقرى ﴾

أحمد بن أبى بكر بن أحمد البغدادى نقيب الأشراف المتعممين ، كان عنده فضائل جمة نثراً

ونظماً مما يناسب الوقائع وما يحضر فيه من التهانى والتعازى ، ويعرف الموسيقى والشعبذة ، وضرب الرمل ، ويحضر المجالس المشتملة على اللهو والمسكر واللعب والبسط ، ثم انقطع عن ذلك كله لكبر سنه وهو مما يقال فيه وفى أمثاله :

ذهبت عن توبته سائلا ■ وجدتها توبة إفلاس

وكان مولده بدمشق سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ، وتوفى ليلة السبت خامس ذى القعدة ودفن بمقابر باب الصغير فى قبر أعده لنفسه عن خمس وثمانين سنة ، سامحه الله .

﴿ قاضى القضاة فخر الدين ﴾

أبو العباس أحمد بن تاج الدين أبى الخير سلامة بن زين الدين أبى العباس أحمد بن سلام الاسكندرى المالكى ، ولد سنة إحدى وسبعين وستمائة ، وبرع فى علوم كثيرة ، وولى نيابة الحكم فى الاسكندرية فحمدت سيرته وديانته وصرامته ، ثم قدم على قضاء الشام المالكية فى السنة الماضية فباشرها أحسن مباشرة سنة ونصفا، إلى أن توفى بالصمصامية بكرة الأربعاء مستهل ذى الحجة ، ودفن إلى جانب القندلاوى بباب الصغير ، وحضر جنازته خلق كثير ، وشكره الناس وأثنوا عليه ، رحمه الله تعالى .

﴿ ثم دخلت سنة تسع عشرة وسبعمائة ﴾

استهلت والحكام هم المذكورون فى التى قبلها ، وفى ليلة مستهل محرم هبت ريح شديدة بدمشق سقط بسببها شئ من الجدران ، واقتلعت أشجاراً كثيرة . وفى يوم الثلاثاء سادس عشرين المحرم خلع على جمال الدين بن القلانسى بوكالة بيت المال عوضا عن ابن الشريشى ، وفى يوم الأربعاء الخامس من صفر درس بالناصرية الجوانية ابن صصرى عوضاً عن ابن الشريشى أيضا ، وحضر عنده الناس على العادة . وفى عاشره باشر شد الدواوين جمال الدين أقوش الرحبى عوضا عن فخر الدين إياس ، وكان أقوش متولى دمشق من سنة سبع وسبعمائة ، وولى مكانه الأمير علم الدين طرقش الساكن بالعقيبة ، وفى هذا اليوم نودى بالبلد بصوم الناس لأجل الخروج إلى الاستسقاء ، وشرع فى قراءة البخارى وتهيأ الناس ودعوا عقيب الصلوات وبعد الخطب ، وابتهلوا إلى الله فى الاستسقاء ، فلما كان يوم السبت منتصف صفر ، وكان سابع نيسان ، خرج أهل البلد برمتهم إلى عند مسجد القدم ، وخرج نائب السلطنة والامراء مشاة يبكون ويتضرعون ، واجتمع الناس هنالك وكان مشهدا عظيما ، وخطب بالناس القاضى صدر الدين سليمان الجعفرى وأمن الناس على دعائه ، فلما أصبح الناس من اليوم الثانى جاءهم الغيث باذن الله ورحمته ورأفته لا بحولهم ولا بقوتهم ، ففرح الناس فرحاً شديدا وعم البلاد كلها ولله الحمد والمنة ، وحده لا شريك له . وفى أواخر الشهر شرعوا باصلاح رخام الجامع وترميمه وحلى أبوابه وتحسين ما فيه . وفى رابع عشر ربيع الآخر درس بالناصرية

الجوانية ابن الشيرازى بتوقيع سـلطانى ، وأخذها من ابن صصرى و باشرها إلى أن مات . وفى يوم الخميس سادس عشر جمادى الأولى باشر ابن شـيخ السلامية فخر الدين أخو ناظر الجيش الحسـبة بدمشق عوضا عن ابن الحداد ، و باشر ابن الحداد نظر الجامع بدلا عن ابن شيخ السلامية ، وخلع على كل منهما .

وفى بكرة الثلاثاء خامس جمادى الآخرة قدم من مصر إلى دمشق قاضى القضاة شرف الدين أبو عبد الله محمد ابن قاضى القضاة معين الدين أبى بكر بن الشيخ زكى الدين ظافر الهمدانى المالكى ، على قضاء المالكية بالشام ، عوضا عن ابن سلامة توفى ، وكان بينهما ستة أشهر ، ولـكن تقليد هـذا مؤرخ بآخر ربيع الأول ، ولبس الخلعة وقرئ تقليده بالجامع . وفى هذا الشهر درس بالخاتونية البرانية القاضى بدر الدين بن نويرة الحنفى ، وعمره خمس وعشرون سنة ، عوضا عن القاضى شمس الدين محمد قاضى ملطية توفى . وفى يوم السبت خامس رمضان وصل إلى دمشق سيل عظيم أتلف شـيئا كثيراً ، وارتفع حتى دخل من باب الفرج ، ووصل إلى العقيبة ، وانزعج الناس له ، وانتقلوا من أماكنهم ، ولم تطل مدته لأن أصله كان مطراً وقع بأرض وابل السوق والحسينية . وفى هذا اليوم باشر طرقشى شد الدواوين بعد موت جمال الدين الرحبى ، و باشر ولاية المدينة صلرم الدين الجوكندار ، وخلع عليهما .

ولما كان يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من رمضان اجتمع القضاة وأعيان الفقهاء عند نائب السلطنة بدار السعادة وقرىء عليهم كتاب من السلطان يتضمن منع الشيخ تقى الدين بن تيمية من الفتيا بمسألة الطلاق ، وانفصل المجلس على تأكيد المنع من ذلك . وفى يوم الجمعة تاسع شوال خطب القاضى صدر الدين الدارانى عوضا عن بدر الدين ابن ناصر الدين بن عبد السلام ، بجامع جراح ، وكان فيه خطيبا قبله فتولاه بدر الدين حسن العقربانى واستمر ولده فى خطابة داريا التى كانت بيد أبيه من بعده. وفى يوم السبت عاشره خرج الركب وأميرهم عز الدين أيبك المنصورى أمير علم ، وحج فيها صدر الدين قاضى القضاة الحنفى ، و برهان الدين بن عبد الحق ، وشرف الدين بن تيمية ، ونجم الدين الدمشقى وهو قاضى الركب ، ورضى الدين المنطيقى ، وشمس الدين بن الزريز خطيب جامع القبيبات ، وعبد الله بن رشيق المالـكى وغيرهم . وفيها حج سـلطان الاسلام الملك الناصر محمد بن قلاوون ومعه جمع كثير من الامراء ، ووكيله كريم الدين وفخر الدين كاتب المماليك ، وكاتب السر ابن الأثير ، وقاضى القضاة ابن جماعـة ، وصاحب حماة الملك عماد الدين ، والصاحب شمس الدين غبريال ، فى خـدمة السلطان وكان فى خدمته خلق كثير من الأعيان .

وفيها كانت وقعة عظيمة بين التتار بسبب أن ملـكهم أبا سعيد كان قد ضاق ذرعا بجوبان وعجز عن مسكه ، فانتدب له جماعة من الأمراء عن أمره ، منهم أبو يحيى خال أبيه ، ودقماق وقرشى وغيرهم

من أكابر الدولة . وأرادوا كبس جوبان فهرب وجاء إلى السلطان فأنهى إليه ما كان منهم ، وفى صحبته الوزير على شاه . ولم يزل بالسلطان حتى رضى عن جوبان وأمده بجيش كثيف، وركب السلطان معه أيضا والتقوا مع أولئك فكسروهم وأسروهم ، وتحكم فيهم جوبان فقتل منهم إلى آخر هذه السنة نحواً من أربعين أميراً .

وممن توفى فيها من الأعيان : ﴿ الشيخ المقرى شهاب الدين ﴾

أبو عبد الله الحسن بن سليمان بن خزارة بن بدر الكفرى الحنفى ، ولد تقريبا فى سنة سبع وثلاثين وستمائة ، وسمع الحديث وقرأ بنفسه كتاب الترمذى . وقرأ القراءات وتفرد بها مدة يشتغل الناس عليه . وجمع عليه السبع أكثر من عشرين طالبا . وكان يعرف النحو والأدب وفنوناكثيرة وكانت مجالسته حسنة ، وله فوائد كثيرة ، درس بالطرخانية أكثر من أربعين سنة ، وناب فى الحكم عن الأذرعى مدة ولايته ، وكان خيرا مباركا أضر فى آخر عمره ، وانقطع فى بيته ،مواظبا على التلاوة والذكر و إقراء القرآن إلى أن توفى ثالث عشر جمادى الأولى . وصلى عليه بعد الظهر يومئذ بجامع دمشق . ودفن بقاسيون رحمه الله .

وفى هذا الشهر جاء الخبر بموت :

﴿ الشيخ الامام تاج الدين ﴾

عبد الرحمن بن محمد بن أبى حامد التبريزى الشافعى المعروف بالأفضلى . بعد رجوعه من الحج ببغداد فى العشر الأول من صفر ، وكان صالحا فقيها مباركا ، وكان ينكر على رشيد الدولة و يحط عليه ، ولما قتل قال كان قتله أنفع من قتل مائة ألف نصرانى ، وكان رشيد الدولة يريد أن يترضاه فلم يقبل ، وكان لايقبل من أحد شيئا ، ولما توفى دفن بتربة الشونيزى ، وكان قد قارب الستين رحمه الله .

﴿ محيي الدين محمد بن مفضل بن فضل الله المصرى ﴾

كاتب ملك الأمراء ، ومستوفى الأوقاف . كان مشكور السيرة محببا للعلماء والصلحاء . فيه كرم وخدمة كثيرة للناس ، توفى فى رابع عشرين من جمادى الأولى ودفن بتربةابن هلال بسفح قاسيون وله ست وأربعون سنة ، وباشر بعده فى وظيفته أمين الدين بن النحاس .

﴿ الامير الكبير غرلو بن عبد الله العادلى ﴾

كان من أكابر الدولة ومن الامراء المقدمين الألوف ، وقد ناب بدمشق عن أستاذه الملك العادل كتبغا نحواً من ثلاثة أشهر فى سنة خمس وسبعين وستمائة . وأول سنة ست وتسعين ، واستمر أميراً كبيرا إلى أن توفى فى سابع جمادى الأولى يوم الخميس ودفن بتربته بشمالى جامع المظفرى بقاسيون . وكان شهما شجاعا ناصحاً للاسلام وأهله . مات فى عشر الستين .

﴿ الامير جمال الدين أقوش ﴾

الرحبي المنصوري ، والى دمشق مدة طويلة ، كان أصله من قرى إربل ، وكان نصرانيا فسبى و بيع من نائب الرحبة ، ثم انتقل إلى الملك المنصور فأعتقه وأمره ، وتولى الولاية بدمشق نحواً من إحدى عشرة سنة ثم انتقل إلى شد الدواوين مدة أربعة أشهر ، وكان محبوبا إلى العامة مدة ولايته .

﴿ الخطيب صلاح الدين ﴾

يوسف بن محمد بن عبد اللطيف بن المعتزل الحموى ، له تصانيف وفوائد ، وكان خطيب جامع السوق الأسفل بحماة ، وسمع من ابن طبرزد ، توفى فى جمادى الآخرة .

﴿ العلامة فخر الدين أبو عمرو ﴾

عثمان بن على بن يحيى بن هبة الله بن إبراهيم بن المسلم بن على الأنصارى الشافعى المعروف بابن بنت أبى سعد المصرى ، سمع الحديث وكان من بقايا العلماء ، وناب فى الحكم بالقاهرة ، وولى مكانه فى ميعاد جامع طولون الشيخ علاء الدين القونوى شيخ الشيوخ ، وفى ميعاد الجامع الأزهر شمس الدين بن علان ، كانت وفاته ليلة الأحد الرابع والعشرين من جمادى الآخرة ، ودفن بمصر وله من العمر سبعون سنة .

﴿ الشيخ الصالح العابد ﴾

أبو الفتح نصر بن سليمان بن عمر الكبجى ، له زاوية بالحسينية يزار فيها ولا يخرج منها إلا إلى الجمعة ، سمع الحديث ، توفى يوم الثلاثاء بعد العصر السادس والعشرين من جمادى الآخرة ودفن من الغد بزاويته المذكورة رحمه الله .

﴿ الشيخ الصالح المعمر الرحلة ﴾

عيسى بن عبد الرحمن بن معالى بن أحمد بن إسماعيل بن عطاف بن مبارك بن على بن أبى الجيش المقدسى الصالح المطعم ، راوى صحيح البخارى وغيره ، وقد سمع الكثير من مشايخ عدة وترجمه الشيخ علم الدين البرزالى فى تاريخه توفى ليلة السبت رابع عشر ذى الحجة ، وصلى عليه بعد الظهر فى اليوم المذكور بالجامع المظفرى ، ودفن بالساحة بالقرب من تربة المولهين ، وله أربع وسبعون سنة رحمه الله تعالى .

﴿ ثم دخلت سنة عشرين وسبعمائة ﴾

استهلت وحكام البلادهم المذكورون فى التى قبلها ، وكان السلطان فى هذه السنة فى الحج ، وعاد إلى القاهرة يوم السبت ثانى عشر المحرم ، ودقت البشائر ، ورجع الصاحب شمس الدين على طريق الشام وصحبته الأمير ناصر الدين الخازندار ، وعاد صاحب حماة مع السلطان إلى القاهرة ، وأنعم عليه السلطان ولقب بالملك المؤيد ، ورسم أن يخطب له على منابرها وأعمالها ، وأن يخطب بالمقام العالى

المولوى السلطانى الملكى المؤيدى ، على ما كان عليه عمه المنصور .

وفيها عمر ابن المرجانى شهاب الدين مسجد الخيف وأنفق عليه نحواً من عشرين ألفاً . وفى المحرم استقال أمين الدين من نظر طرابلس وأقام بالقدس . وفى آخر صفر باشر نيابة الحكم المالكى القاضى شمس الدين محمد بن أحمد القفصى ، وكان قد قدم مع قاضى القضاة شرف الدين من مصر . وفى يوم الاثنين الخامس والعشرين من ربيع الأول ضربت عنق شخص يقال له عبد الله الرومى وكان غلامالبعض التجار ، وكان قدلزم الجامع ،ثم ادعى النبوة واستتيب فلم يرجع فضربت عنقه وكان أشقر أزرق العينين جاهلا ، وكان قد خالطه شيطان حسن له ذلك ، واضطرب عقله فى نفس الأمر وهو فى نفسه شيطان إنسى . وفى يوم الاثنين ثانى ربيع الآخر عقد عقد السلطان على المرأة التى قدمت من بلاد القبجاق ، وهى من بنات الملوك ، وخلع على القاضى بدر الدين ابن جماعة وكاتب السر وكريم الدين وجماعة الأمراء ، ووصلت العساكر فى هذا الشهر إلى بلاد سيس وغرق فى بحر جاهان من عساكر طرابلس نحو من ألف فارس ، وجاءت مراسيم السلطان فى هذا اليوم إلى الشام فى الاحتياط على أخبار آل مهنا وإخراجهم من بلاد الاسلام ، وذلك لغضب السلطان عليهم لعدم قدوم والدهم مهنا على السلطان . وفى يوم الأربعاء رابع عشرين جمادى الأولى درس بالركنية الشيخ محيى الدين الاسمر الحنفى وأخذت منه الجوهرية لشمس الدين البرقى الاعرج ، وتدريس جامع القلعة لعماد الدين بن محيى الدين الطرسوسى ، الذى ولى قضاء الحنفية بعد هذا ، وأخذ من البرقى إمامة مسجد نور الدين له بحارة اليهود ، ولعماد الدين بن الكيال ، وامامة الربوة الشيخ محمد الصبيبى . وفى جمادى الآخرة اجتمعت الجيوش الاسلامية بأرض حلب نحواً من عشرين ألفا ، عليهم كلهم نائب حلب الطنبغا وفيهم نائب طرابلس شهاب الدين قرطية ، فدخلوا بلاد الأرمن من اسكندرونة ففتحوا الثغر ثم تل حمدان ثم خاضوا جاهان فغرق منهم جماعة ثم سلم الله من وصلوا إلى سيس فحاصروها وضيقوا على أهلها وأحرقوا دار الملك التى فى البلد ، وقطعوا أشجار البساتين وساقوا الابقار والجواميس والاغنام وكذلك فعلوا بطرسوس ، وخربوا الضياع والأماكن وأحرقوا الزروع ثم رجعوا فخاضوا النهر المذكور فلم يغرق منهم أحد ، وأخرجوا بعد رجوعهم مهنا وأولاده من بلادهم وساقوا خلفه إلى غانة وحديثة ثم بلغ الجيوش موت صاحب سيس وقيام ولده من بعده، فشنوا الغارات على بلاده وتابعوها وغنموا وأسروا إلا فى المرة الرابعة فانه قتل منهم جماعة .

وفى هذه السنة كانت وقعة عظيمة ببلاد المغرب بين المسلمين والفرنج فنصر الله المسلمين على أعدائهم فقتلوا منهم خمسين ألفا وأسروا خمسة آلاف ، وكان فى جملة القتلى خمسة وعشرين ملكا

من ملوك الافرنج ، وغنموا شيئا كثيراً من الأموال ، يقال كان من جملة ماغنموا سبعون قنطاراً من الذهب والفضة ، و إنما كان جيش الاسلام يومئذ ألفين وخمسمائة فارس غـير الرماة ، ولم يقتل منهم سوى إحدى عشر قتيلا ، وهـذا من غريب ما وقع وعجيب ما سمع . وفى يوم الخميس ثانى عشرين رجب عقد مجلس بدار السـعادة للشيخ تقى الدين بن تيمية بحضرة نائب السلطنة ، وحضر فيـه القضاة والمفتيون من المذاهب ، وحضر الشيخ وعاتبوه على العود إلى الافتاء بمسألة الطلاق ثم حبس فى القلعة فبقى فيها خمسة أشهر وثمانيـة عشر يوماً ، ثم ورد مرسوم من السلطان باخراجه يوم الاثنين يوم عاشوراء من سـنة إحدى وعشرين كما سيأتى إن شاء الله تعالى . و بعد ذلك بأربعة أيام أضيف شد الأوقاف إلى الأمـير عـلاء الدين بن معبد إلى ما بيـده من ولاية البر وعزل بدر الدين المنكورسى عن الشام .

وفى آخر شـعبان مسك الأمير علاء الدين الجاولى نائب غزة وحمـل إلى الاسكندرية لأنه اتهم أنه يريد الدخول إلى دار اليمن ، واحتيط على حواصله وأمواله ، وكان له بر و إحسان وأوقاف ، وقد بنى بغزة جامعا حسنا مليحا . وفى هذا الشهر أراق ملك التتر أبو سعيد الخمور وأبطل الحانات ، وأظهر العدل والاحسان إلى الرعايا ، وذلك أنه أصابهم برد عظيم وجاءهم سيل هائل فلجؤا إلى الله عز وجل ، وابتهلوا إليه فسلموا فتابوا وأنابوا وعملوا الخير عقيب ذلك . وفى العشر الأول من شوال جرى الماء بالنهر الكريمى الذى اشتراه كريم الدين بخمسة وأربعين ألفا وأجراه فى جدول إلى جامعه بالقبيبات فعاش به الناس ، وحصـل به أنس إلى أهل تلك الناحيـة ، ونصبت عليـه الأشجار والبساتين ، وعمل حوض كبير تجاه الجامع من الغرب يشرب منه الناس والدواب ، وهو حوض كبير وعمل مطهرة ، وحصل بذلك نفع كثير ، ورفق زائد أثابه الله . وخرج الركب فى حادى عشر شوال وأميره الملك صلاح الدين بن الأوحد ، وفيـه زين الدين كتبغا الحاجب ، وكمال الدين الزملكانى والقاضى شمس الدين بن المعز ، وقاضى حماة شرف الدين البارزى ، وقطب الدين ابن شيخ السلامية و بدر الدين بن العطار ، وعـلاء الدين بن غانم ، ونور الدين السخاوى ، وهو قاضى الركب . ومن المصريين قاضى الحنفية ابن الحريرى ، وقاضى الحنابلة ومجد الدين حرمى والشرف عيسى المالكى ، وهو قاضى الركب . وفيه كملت عمارة الحمام الذى عمره الجيبغا غربى دار الطعم ودخله الناس .

وفى أواخر ذى الحجة وصل إلى دمشق من عند ملك التتر الخواجه مجد الدين إسماعيل بن محمد ابن ياقوت السـلامى ، وفى صحبته هدايا وتحف لصاحب مصر من ملك التتر ، وأشـهر أنه إنما جاء ليصلح بين المسلمين والتتر ، فتلقاه الجنـد والدولة ، ونزل بدار السـعادة يوما واحـداً ، ثم سار إلى مصر . وفيها وقف الناس بعرفات موقفا عظيما لم يعهد مثله ، أتوه من جميع أقطار الأرض ، وكان مع

العراقيين محامل كثيرة منهـا محمل قوم ما عليـه من الذهب واللآلئ بألف ألف دينار مصرية ، وهذا أمر عجيب .

ومن توفى فيها من الأعيان ﴿ الشيخ إبراهيم الدهستانى ﴾

وكان قد أسن وعمر ، وكان يذكر أن عمره حين أخذت التتر بغداد أربعين سنة ، وكان يحضر الجمعة هو وأصحابه تحت قبـة النسر ، إلى أن توفى ليلة الجمعـة السابع والعشرين من ربيع الآخر بزاويته التى عنـد سوق الخيل بدمشق ، ودفن بها وله من العمر مائة وأربع سنين ، كما قال ، فالله أعلم .

﴿ الشيخ محمد بن محمود بن على ﴾

الشحام المقرىء شيخ ميعاد ابن عامر ، كان شيخاً حسناً بهياً مواظباً على تلاوة القرآن إلى أن توفى فى ليلة توفى الدهستانى المذكور أو قبله بليلة رحمهما الله .

﴿ الشيخ شمس الدين ابن الصائغ اللغوى ﴾

هو أبو عبد الله محمد بن حسين بن سباع بن أبى بكر الجذامى المصرى الأصل ، ثم انتقل إلى دمشق ، ولد تقريباً سـنة خمس وأربعين وستمائة بمصر ، وسمع الحديث وكان أديباً فاضلا بارعا بالنظم والنثر ، وعلم العروض والبديع والنحو واللغـة ، وقد اختصر صحاح الجوهرى ، وشرح مقصورة ابن دريد ، وله قصيدة تائيـة تشتمل عـلى ألفى بيت فأكثر ، ذكر فيها العـلوم والصنائع ، وكان حسن الأخلاق لطيف المحاورة والمحاضرة ، وكان يسكن بين درب الحبالين والفراش عنـد بستان القط توفى بداره يوم الاثنين ثالث شعبان ودفن بباب الصغير .

﴿ ثم دخلت سنة إحدى وعشرين وسبعمائة ﴾

استهلت وحكام البلاد هم المذكورون فى التى قبلها . وفى أول يوم منها فتح حمام الزيت الذى فى رأس درب الحجر ، جدد عمارته رجل ساوى بعد ما كان قد درس ودثر من زمان الخوارزمية من نحو ثمانين سـنة ، وهو حمام جيد متسع . وفى سادس المحرم وصلت هدية من ملك التتار أبى سعيد إلى السلطان صناديق وتحف ودقيق . وفى يوم عاشوراء خرج الشيخ تقى الدين بن تيمية من القلعة بمرسوم السلطان وتوجه إلى داره ، وكانت مدة إقامته خمسة أشهر وثمانيـة عشر يوماً رحمه الله . وفى رابع ربيع الآخر وصـل إلى دمشق القاضى كريم الدين وكيل السلطان فنزل بدار السعادة وقدم قاضى القضاة تقى الدين بن عوض الحاكم الحنبلى بمصر وهو ناظر الخزانة أيضا ، فنزل بالعادلية الكبيرة التى للشافعية ، فأقام بها أياما ، ثم توجه إلى مصر : جاء فى بعض أشغال السلطان وزار القدس .

وفى هـذا الشهر كان السلطان قد حفر بركة قريبا من الميـدان وكان فى جوارها كنيسة فأمر الوالى بهدمها ، فلما هدمت تسلط الحرافيش وغيرهم على الكنائس بمصر يهدمون ما قدروا عليـه ،

فانزعج السلطان لذلك وسأل القضاة ماذا يجب على من تعاطى ذلك منهم ؟ فقالوا يعزر ، فأخرج جماعة من السجون ممن وجب عليه قتل فقطع وصلب وحرم وحزم وعاقب ، موهما أنه إنما عاقب من تعاطى تخريب ذلك ، فسكن الناس وأمنت النصارى وظهروا بعد ما كانوا قد اختفوا أياما . وفيه ثارت الحرامية ببغداد ونهبوا سوق الثلاثاء وقت الظهر ، فثار الناس وراءهم وقتلوا منهم قريبا من مائة وأسروا آخرين .

قال الشيخ علم الدين البرزالى ومن خطه نقلت : وفى يوم الأربعاء السادس من جمادى الأولى خرج القضاة والأعيان والمفتيون إلى القابون ووقفوا على قبلة الجامع الذى أمر ببنائه القاضى كريم الدين وكيل السلطان بالمكان المذكور ، وحرروا قبلته واتفقوا على أن تكون مثل قبلة جامع دمشق . وفيه وقعت مراجعة من الأمير جوبان أحد المقدمين الكبار بدمشق ، وبين نائب السلطنة تنكز ، فمسك جوبان ورفع إلى القلعة ليلتان ، ثم حول إلى القاهرة فعوتب فى ذلك ، ثم أعطى خبزاً يليق به . وذكر علم الدين أن فى هذا اليوم وقع حريق عظيم فى القاهرة فى الدور الحسنة والأماكن المليحة المرتفعة ، وبعض المساجد ، وحصل للناس مشقة عظيمة من ذلك ، وقنتوا فى الصلوات ثم كشفوا عن القضية فاذا هو من قبل النصارى بسبب ما كان أحرق من كنائسهم وهدم ، فقتل السلطان بعضهم وألزم النصارى أن يلبسوا الزرقاء على رؤسهم وثيابهم كلها ، وأن يحملوا الاجراس فى الحمامات ، وأن لا يستخدموا فى شىء من الجهات ، فسكن الأمر وبطل الحريق .

وفى جمادى الآخرة خرب ملك التتار أبو سعيد البازار وزوج الخواطىء وأراق الخمور وعاقب فى ذلك أشد العقوبة ، وفرح المسلمون بذلك ودعوا له رحمه الله وسامحه . وفى الثالث عشر من جمادى الآخرة أقيمت الجمعة بجامع القصب وخطب به الشيخ على المناخلى . وفى يوم الخميس تاسع عشر جمادى الآخرة فتح الحمام الذى أنشأه تنكز تجاه جامعه ، وأكرى فى كل يوم بأربعين درهما لحسنه وكثرة ضوئه ورخامه . وفى يوم السبت تاسع عشر رجب خربت كنيسة القرائيين التى تجاه حارة اليهود بعد إثبات كونها محدثة وجاءت المراسيم السلطانية بذلك . وفى أواخر رجب نفذت الهدايا من السلطان إلى أبى سعيد ملك التتار ، صحبة الخواجا مجد الدين السلامى ، وفيها خمسون جملا وخيول وحمار عتابى . وفى منتصف رمضان أقيمت الجمعة بالجامع الكريمى بالقابون وشهدها يومئذ القضاة والصاحب وجماعة من الأعيان . قال الشيخ علم الدين : وقدم دمشق الشيخ قوام الدين أمير كاتب ابن الأمير العميد عمر الاكفانى القازانى ، مدرس مشهد الامام أبى حنيفة ببغداد ، فى أول رمضان ، وقد حج فى هذه السنة وتوجه إلى مصر وأقام بها أشهراً ثم مر بدمشق متوجها إلى بغداد فنزل بالخاتونية الحنفية ، وهو ذو فنون وبحث وأدب وفقه . وخرج الركب الشامى يوم الاثنين عاشر

شوال وأميره شمس الدين حمزة التركمانى ، وقاضيه نجم الدين الدمشقى . وفيها حج تنكز نائب الشام وفى صحبته جماعة من أهله ، وقدم من مصر الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب لينوب عنه إلى أن يرجع ، فنزل بالنجيبية البرانية .

وممن حج فيها الخطيب جلال الدين القزوينى وعز الدين حمزة بن القلانسى ، وابن العز شمس الدين الحنفى ، وجلال الدين بن حسام الدين الحنفى ، وبهاء الدين بن علية ، وعلم الدين البرزالى ودرس ابن جماعة بزاوية الشافعى يوم الأربعاء ثامن عشر شوال عوضا عن شهاب الدين أحمد بن محمد الأنصارى لسوء تصرفه ، وخلع على ابن جماعة ، وحضر عنده من الأعيان والعامة ما نشأ به جمعية الجمعة وأشعلت له شموع كثيرة وفرح الناس بزوال المعزول .

قال البرزالى ومن خطه نقلت : وفى يوم الأحد سادس عشر شوال ذكر الدرس الامام العلامة تقى الدين السبكى المحدث بالمدرسة الهكارية عوضا عن ابن الانصارى أيضا ، وحضر عنده جماعة منهم القونوى ، وروى فى الدرس حديث المتبايعين بالخيار ، عن قاضى القضاة ابن جماعة وفى شوال عزل علاء الدين بن معبد عن ولاية البر وشد الاوقاف ، وتولى ولاية الولاة بالبلاد القبلية بحوران عوضا عن بكتمر لسفره إلى الحجاز ، وباشر أخوه بدر الدين شد الاوقاف ، والامير علم الدين الطرقشى ولاية البر مع شد الدواوين ، وتوجه ابن الانصارى إلى حلب متوليا وكالة بيت المال عوضا عن ناصر الدين أخى شرف الدين يعقوب ناظر حلب ، بحكم ولاية التاج المذكور نظر الكرك .

وفى يوم عيد الفطر ركب الامير تمرتاش بن جوبان نائب أبى سعيد على بلاد الروم فى قيسارية فى جيش كثيف من التتار والتركمان والقرمان ، ودخل بلاد سيس فقتل وسبى وحرق وخرب ، وكان قد أرسل لنائب حلب الطنبغا ليجهز له جيوشا ليكونون عونا له على ذلك ، فلم يمكنه ذلك بغير مرسوم السلطان .

ومن توفى فيها من الأعيان ﴿ الشيخ الصالح المقرى ﴾

بقية السلف عفيف الدين أبو محمد عبد الله بن عبد الحق بن عبد الله بن عبد الواحد بن على القرشى المخزومى الدلاصى شيخ الحرم بمكة ، أقام فيه أزيد من ستين سنة ، يقرئ الناس القرآن احتسابا ، وكانت وفاته ليلة الجمعة الرابع عشر من محرم بمكة ، وله أزيد من تسعين سنة رحمه الله .

﴿ الشيخ الفاضل شمس الدين أبو عبد الله ﴾

محمد بن أبى بكر بن أبى القاسم الهمدانى ، أبوه الصالحى المعروف بالسكاكينى ، ولد سنة خمس وثلاثين وستمائة بالصالحية ، وقرأ بالروايات ، واشتغل فى مقدمة فى النحو ، ونظم قويا وسمع الحديث ، وخرج له الفخر ابن البعلبكى جزءا عن شيوخه ، ثم دخل فى التشيع فقرأ على أبى صالح الحلى شيخ

الشيعة ، وصحب عدنان وقرأ عليه أولاده ، وطلبه أمير المدينة النبوية الأمير منصور بن حماد فأقام عنده نحواً من سبع سنين ، ثم عاد إلى دمشق وقد ضعف وثقـل سمعه ، وله سؤال فى الخبر أجابه به الشيخ تقى الدين ابن تيمية ، وكل فيه عنه غيره ، وظهر له بعد موته كتاب فيه انتصار لليهود وأهل الأديان الفاسدة فغسله تقى الدين السبكى لما قدم دمشق قاضيا ، وكان بخطه ، ولما مات لم يشهد جنازته القاضى شمس الدين ابن مسلم . توفى يوم الجمعة سادس عشر صفر ، ودفن بسفح قاسيون ، وقتل ابنه قماز على قذفه أمهات المؤمنين عائشة وغيرها رضى الله عنهن وقبح قاذفهن .

وفى يوم الجمعة مستهل رمضان صلى بدمشق على غائبين وهم الشيخ نجم الدين عبد الله بن محمد الأصبهانى ، توفى بمكة ، وعلى جماعة توفوا بالمدينـة النبوية منهم عبد الله بن أبى القاسم بن فرحون مدرس المالكية بها ، والشيخ يحيى الكردى ، والشيخ حسن المغربى السقا .

﴿ الشيخ الامام العالم علاء الدين ﴾

على بن سعيد بن سالم الأنصارى ، إمام مشهد على من جامع دمشق ، كان بشوش الوجه متواضعا حسن الصوت بالقراءة ملازماً لاقراء الكتاب العزيز بالجامع ، وكان يؤم نائب السلطنة ولده العلامة بهاء الدين محمد بن على مدرس الأمينيـة ، ومحتسب دمشق . توفى ليلة الاثنين رابع رمضان ودفن بسفح قاسيون .

﴿ الامير حاجب الحجاب ﴾

زين الدين كتبغا المنصورى ، حاجب دمشق ، كان من خيار الأمراء وأكثرهم براً للفقراء ، يحب الختم والمواعيد والمواليد ، وسماع الحـديث ، ويلزم أهله ويحسن إليهم ، وكان ملازماً لشيخنا أبى العباس ابن تيمية كثيرا ، وكان يحج ويتصدق ، توفى يوم الجمعة آخر النهار ثامن عشر شوال ، ودفن من الغد بتربته قبلى القبيبات ، وشهده خلق كثير وأثنوا عليه رحمه الله .

والشيخ بهاء الدين ابن المقدسى والشيخ سـعد الدين أبى زكريا يحيى المقدسى ، والد الشيخ شمس الدين محمد بن سعد المحدث المشهور . وسـيف الدين الناسخ المنادى على الكتب . والشيخ أحمـد الحرام المقرىء على الجنائز ، وكان يكرر على التنبيه ، ويسأل عن أشـياء منها ما هو حسن ومنها ما ليس بحسن .

﴿ ثم دخلت سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة ﴾

استهلت وأرباب الولايات هم المذكورون فى التى قبلها ، سوى والى البر بدمشق فانه علم الدين طرقشى ، وقد صرف ابن معبد إلى ولاية حوران لشهامته وصرامته وديانته وأمانته . وفى المحرم حصلت زلزلة عظيمة بدمشق ، وقى الله شرها ، وقدم تنكز من الحجاز ليلة الثلاثاء حادى عشر المحرم ، وكانت مدة غيبته ثلاثة أشهر ، وقدم ليلا لئلا يتكلف أحـد لقدومه ، وسافر نائب الغيبة عنه قبله بيومين

لئلا يكلفه بهدية ولا غيرها . وقدم مغلطاى عبد الواحد الجحدار أحد الأمراء بمصر بخلعة سنية من السلطان لتنكز فلبسها وقبل العتبة على العادة ، وفى يوم الأربعاء سادس صفر درس الشيخ نجم الدين القفجازى بالظاهرية للحنيفة ، وهو خطيب جامع تنكز ، وحضر عنده القضاة والأعيان ، ودرس فى قوله تعالى (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) وذلك بعد وفاة القاضى شمس الدين بن العز الحنفى . توفى مرجعه من الحجاز ، وتولى بعده نيابة القضاء عماد الدين الطرسوسى . وهو زوج ابنته . وكان ينوب عنه فى حال غيبته ، فاستمر بعده . ثم ولى الحكم بعده ، مستنيبه فيها . وفيه قدم الخوارزمى حاجبا عوضاً عن كتبغا ، وفى ربيع الأول قدم إلى دمشق الشيخ قوام الدين مسعود بن الشيخ برهان الدين محمد بن الشيخ شرف الدين محمد الكرمانى الحنفى . فنزل بالقصاعين وتردد إليه الطلبة ودخل إلى نائب السلطنة واجتمع به وهو شاب مولده سنة إحدى وسبعين وقد اجتمعت به ، وكان عنده مشاركة فى الفروع والأصول ودعواه أوسع من محصوله . وكانت لأبيه وجده مصنفات . ثم صار بعد مدة إلى مصر ومات بها كما سيأتى .

وفى ربيع الأول تكامل فتح إياس ومعاملتها وانتزاعها من أيدى الأرمن . وأخذ البرج الأطلس وبينه وبينها فى البحر رمية ونصف ، فأخذه المسلمون باذن الله وخربوه ، وكانت أبوابه مطلية بالحديد والرصاص ، وعرض سوره ثلاثة عشر ذراعا بالنجار ، وغنم المسلمون غنائم كثيرة جداً ، وحاصروا كواره فقوى عليهم الحر والذباب . فرسم السلطان بعودهم ، فحرقوا ما كان معهم من المجانيق وأخذوا حديدها وأقبلوا سالمين غانمين ، وكان معهم خلق كثير من المتطوعين . وفى يوم الخميس الثالث والعشرين من جمادى الأولى كمل بسط داخل الجامع فاتسع على الناس . ولكن حصل حرج بحمل الأمتعة على خلاف العادة . فان الناس كانوا يمرون وسط الرواق ويخرجون من باب البرادة . ومن شاء استمر يمشى إلى الباب الآخر بنعليه ، ولم يكن ممنوعا سوى المقصورة لا يمكن أحد الدخول إليها بالمداسات ، بخلاف باقى الرواقات . فأمر نائب السلطنة بتكميل بسطه باشارة ناظره ابن مراحل . وفى جمادى الآخرة رجعت العساكر من بلاد سيس ومقدمهم أقوش نائب الكرك . وفى آخر رجب باشر القاضى محى الدين بن إسماعيل بن جهبل نيابة الحكم عن ابن صصرى عوضا عن الدارانى الجعفرى ، واستغنى الدارانى بخطبة جامع العقيبة عنها . وفى ثالث رجب ركب نائب السلطنة إلى خدمة السلطان فأكرمه وخلع عليه ، وعاد فى أول شعبان ففرح به الناس . وفى رجب كملت عمارة الحمام الذى بناه الأمير علاء الدين بن صبيح جوار داره شمالى الشامية البرانية . وفى يوم الاثنين تاسع شعبان عقد الأمير سيف الدين أبو بكر بن أرغون نائب السلطنة عقده على ابنة الناصر . وختن فى هذا اليوم جماعة من أولاد الأمراء بين يديه ، ومد سماطا عظيما ، ونثرت

الفضة على رؤس المطهرين ، وكان يوما مشهوداً ، ورسم السلطان فى هذا اليوم وضع المكس عن المأكولات بمكة ، وعوض صاحبها عن ذلك باقطاع فى بلد الصعيد .

وفى أواخر رمضان كملت عمارة الحمام الذى بناه بهاء الدين بن عليم بزقاق الماجية من قاسيون بالقرب من سكنه ، وانتفع به أهل تلك الناحية ومن جاورهم . وخرج الركب الشامى يوم الخميس ثامن شوال وأميره سيف الدين بلبطى نائب الرحبة ، وكان سكنه داخل باب الجابية بدرب ابن صبرة ، وقاضيه شمس الدين بن النقيب قاضى حمص .

ومن توفى فيها من الاعيان ﴿ القاضى شمس الدين بن العز الحنفى ﴾

أبو عبد الله محمد بن الشيخ شرف الدين أبى البركات محمد بن الشيخ عز الدين أبى العز صالح بن أبى العز بن وهيب بن عطاء بن جبير بن كابن بن وهيب الأذرعى الحنفى ، أحد مشايخ الحنفية وأئمتهم وفضلائهم فى فنون من العلوم متعددة ، حكم نيابة نحواً من عشرين سنة ، وكان سديد الأحكام محمود السيرة جيد الطريقة كريم الأخلاق ، كثير البر والصلة والاحسان إلى أصحابه وغيرهم ، وخطب فى جامع الأفرم مدة ، وهو أول من خطب به ، ودرس بالمعظمية واليغمورية والقليجية والظاهرية ، وكان ناظر أوقافها ، وأذن للناس بالافتاء ، وكان كبيرا معظما مهيبا ، توفى بعد مرجعه من الحج بأيام قلائل ، يوم الخميس سلخ المحرم ، وصلى عليه يومئذ بعد الظهر بجامع الأفرم ودفن عند المعظمية عند أقاربه ، وكانت جنازته حافلة ، وشهد له الناس بالخير وغبطوه لهذه الموتة رحمه الله . ودرس بعده فى الظاهرية نجم الدين القفجازى ، وفى المعظمية والقليجية والخطابة بالأفرم ابنه علاء الدين ، وباشر بعده نيابة الحكم القاضى عماد الدين الطرسوسى ، مدرس القلعة .

﴿ الشيخ الامام العالم ﴾

بقية السلف رضى الدين أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن أبى بكر بن محمد بن إبراهيم الطبرى المكى الشافعى ، إمام المقام أكثر من خمسين سنة ، سمع الحديث من شيوخ بلده والواردين إليها ولم يكن له رحلة ، وكان يفتى الناس من مدة طويلة ، ويذكر أنه اختصر شرح السنة للبغوى ، توفى يوم السبت بعد الظهر ثامن ربيع الأول بمكة ، ودفن من الغد ، وكان من أئمة المشايخ .

﴿ شيخنا العلامة الزاهد الورع ﴾

بقية السلف ركن الدين أبو يحيى زكريا بن يوسف بن سليمان بن حماد البجلى الشافعى ، نائب الخطابة ، ومدرس الطيبية والأسدية ، وله حلقة للاشتغال بالجامع ، يحضر بها عنده الطلبة ، كان يشتغل فى الفرائض وغيرها ، مواظبا على ذلك ، توفى يوم الخميس الثالث والعشرين من جمادى الأولى عن سبعين سنة ، ودفن قريبا من شيخه تاج الدين الفزارى رحمهما الله .

﴿ نصير الدين ﴾

أبو محمد عبد الله بن وجيه الدين أبى عبد الله على بن محمد بن على بن أبى طالب بن سويد بن معالى ابن محمد بن أبى بكر الربعى التغلبي التكريتى أحد صدور دمشق ، قدم أبوه قبله إليها وعظم فى أيام الظاهر وقبله ، وكان مولده فى حدود خمسين وستمائة ، ولهم الأموال الكثيرة والنعمة الباذخة ، توفى يوم الخميس عشرين رجب ، ودفن بتربتهم بسفح قاسيون رحمه الله . وفى يوم الأحد حادى عشر شوال توفى.

﴿ شمس الدين محمد بن المغربى ﴾

التاجر السفار ، بانى خان الصنمين الذى على جادة الطريق للسبيل رحمه الله وتقبل منه ، وهو فى أحسن الأماكن وأنفعها .

﴿ الشيخ الجليل الزاهد ﴾

نجم الدين أبو عبد الله الحسين بن محمد بن إسماعيل القرشى المعروف بابن عنقود المصرى ، كانت له وجاهة و إقدام على الدولة ، توفى بكرة الجمعة ثالث عشرين شوال ، ودفن بزاويته ، وقام بعده فيها ابن أخيه

﴿ شمس الدين محمد بن الحسن ﴾

ابن الشيخ الفقيه محيى الدين أبو الهدى أحمد بن الشيخ شهاب الدين أبى شامة ، ولد سنة ثلاث وخمسين وستمائة فأسمعه أبوه على المشايخ وقرأ القرآن واشتغل بالفقه وكان ينسخ و يكثر التلاوة ويحضر المدارس والسبع الكبير ، توفى فى سابع عشرين شوال ، ودفن عند والده بمقابر باب الفراديس

﴿ الشيخ الصالح العابد ﴾

جلال الدين أبو إسحاق إبراهيم بن زين الدين محمد بن أحمد بن محمود بن محمد العقيلى المعروف بابن القلانسى ، ولد سنة أربع وخمسين وستمائة ، وسمع على ابن عبد الدائم جزء ابن عرفة ، ورواه غير مرة ، وسمع على غيره أيضاً ، واشتغل بصناعة الكتابة والانشاء ثم انقطع وترك ذلك كله وأقبل على العبادة والزهادة ، وبنى له الأمراء بمصر زواية وترددوا إليه ، وكان فيه بشاشة وفصاحة ، وكان ثقيل السمع ، ثم انتقل إلى القدس وقدم دمشق مرة فاجتمع به الناس وأكرموه ، وحدث بها ثم عاد إلى القدس وتوفى بها ليلة الأحد ثالث ذى القعدة ، ودفن بمقابر ماملى رحمه الله ، وهو خال المحتسب عز الدين بن القلانسى ، وهذا خال الصاحب تقى الدين بن مراحل .

﴿ الشيخ الامام قطب الدين ﴾

محمد بن عبد الصمد بن عبد القادر السنباطى المصرى ، اختصر الروضة وصنف كتاب التعجيز ودرس بالفاضلية وناب فى الحكم بمصر ، وكان من أعيان الفقهاء ، توفى يوم الجمعة رابع عشر ذى الحجة عن سبعين سنة ، وحضر بعده تدريس الفاضلية ضياء الدين المنادى ، نائب الحكم بالقاهرة

وحضر عنده ابن جماعة ، والاعيان والله أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة ﴾

استهلت بيوم الأحد فى كانون الأصم، والحكام هم المذكورون فى التى قبلها، غير أن والى البر بدمشق هو الأمير علاء الدين على بن الحسن المروانى ، باشرها فى صفر من السنة الماضية . وفى صفر من هذه السنة باشر ولاية المدينة الأمير شهاب الدين بن برق عوضاً عن صارم الدين الجوكندارى وفى صفر عوفى القاضى كريم الدين وكيل السلطان من مرض كان قد أصابه ، فزينت القاهرة وأشعلت الشموع وجمع الفقراء بالمارستان المنصورى ليأخذوا من صدقته ، فمات بعضهم من الزحام فى سلخ ربيع الأول ، ودرس الامام العلامة المحدث تقى الدين السبكى الشافعى بالمنصورية بالقاهرة عوضا عن القاضى جمال الدين الزرعى ، بمقتضى انتقاله إلى دمشق ، وحضر عنده علاء الدين شيخ الشيوخ القونوى الشافعى عوضا عن النجم ابن صصرى ، فى يوم الجمعة رابع جمادى الأولى ، فنزل العادلية وقد قدم على القضاة ومشيخة الشيوخ وقضاء العساكر وتدريس العادلية والغزالية والاتابكية .

وفى يوم الأحد مسك القاضى كريم الدين بن عبد الكريم بن هبة الله بن الشديد وكيل السلطان وكان قد بلغ من المنزلة والمكانة عند السلطان مالم يصل إليه غيره من الوزراء الكبار ، واحتيط على أمواله وحواصله ، ورسم عليه عند نائب السلطنة ، ثم رسم له أن يكون بتربته التى بالقرافة ، ثم نفى إلى الشوبك وأنعم عليه بشىء من المال ، ثم أذن له بالاقامة بالقدس الشريف برباطه . ومسك ابن أخيه كريم الدين الصغير ناظر الدواوين ، وأخذت أمواله وحبس فى البرج ، وفرح العامة بذلك ودعوا للسلطان بسبب مسكهما ، ثم أخرج إلى صفت . وطلب من القدس أمين الملك عبد الله فولى الوزارة بمصر ، وخلع عليه عوداً على بدء ، وفرح العامة بذلك وأشعلوا له الشموع ، وطلب الصاحب بدر الدين غبريال من دمشق فركب ومعه أموال كثيرة ، ثم خول أموال كريم الدين الكبير ، وعاد إلى دمشق مكرما ، وقدم القاضى معين الدين بن الحشيشى على نظر الجيوش الشامية عوضا عن القطب بن شيخ السلامية عزل عنها ، ورسم عليه فى العذراوية نحواً من عشرين يوما ثم أذن له فى الانصراف إلى منزله مصروفا عنها .

وفى جمادى الأولى عزل طرقشى عن شد الدواوين وتولاها الأمير بكتمر . وفى ثانى جمادى الآخرة باشر ابن جهبل نيابة الحكم عن الزرعى ، وكان قد باشر قبلها بأيام نظر الايتام عوضا عن ابن هلال . وفى شعبان أعيد الطرقشى إلى الشد وسافر بكتمر إلى نيابة الاسكندرية ، وكان بها إلى أن توفى . وفى رمضان قدم جماعة من حجاج الشرق وفيهم بنت الملك أبغابن هولاكو ، وأخت أرغون وعمة قازان وخربندا ، فأكرمت وأنزلت بالقصر الأبلق ، وأجريت عليها الاقامات والنفقات

إلى أوان الحج ، وخرج الركب يوم الاثنين ثامن شوال وأميره قطلجا الابو بكرى ، الذى بالقصاعين وقاضى الركب شمس الدين قاضى القضاة ابن مسلم الحنبلى ، وحج معهم جمال الدين المزى ، وعماد الدين ابن الشيرجى ، وأمين الدين الوانى ، وفخر الدين البعلبكى ، وجماعة ، وفوض الكلام فى ذلك إلى شرف الدين بن سعد الدين بن نجيح . كذا أخبرنى شهاب الدين الظاهرى . ومن المصريين قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة وولده عز الدين وفخر الدين كاتب المماليك ، وشمس الدين الحارثى ، وشهاب الدين الأذرعى ، وعلاء الدين الفارسى .

وفى شوال باشر تقى الدين السبكى مشيخة دار الحديث الظاهرية بالقاهرة بعد زكى الدين المنادى ويقال له عبد العظيم بن الحافظ شرف الدين الدمياطى ، ثم انتزعت من السبكى لفتح الدين بن سيد الناس اليعمرى ، باشرها فى ذى القعدة . وفى يوم الخميس مستهل ذى الحجة خلع على قطب الدين بن شيخ السلامية وأعيد إلى نظر الجيش مصاحبا لمعين الدين بن الحشيشى ، ثم بعد مدة مديدة استقل قطب الدين بالنظر وحده وعزل ابن حشيش .

ومن توفى فيها من الاعيان ﴿ الامام المؤرخ كمال الدين الفوطى ﴾

أبو الفضل عبد الرزاق أحمد بن محمد بن أحمد بن الفوطى عمر بن أبى المعالى الشيبانى البغدادى ، المعروف بابن الفوطى ، وهو جده لأمه ، ولد سنة اثنتين وأربعين وستمائة ببغداد ، وأسر فى واقعة التتار ثم تخلص من الأسر ، فكان مشارفا على الكتب بالمستنصرية ، وقد صنف تاريخا فى خمس وخمسين مجلداً ، وآخر فى نحو عشرين ، وله مصنفات كثيرة ، وشعر حسن ، وقد سمع الحسن من محيى الدين بن الجوزى ، توفى ثالث المحرم ودفن بالشونيزية .

﴿ قاضى القضاة نجم الدين بن صصرى ﴾

أبو العباس أحمد بن العدل عماد الدين بن محمد بن العدل أمين الدين سالم بن الحافظ المحدث بهاء الدين أبى المواهب بن هبة الله بن محفوظ بن الحسن بن الحسن بن محمد بن الحسن بن أحمد بن محمد بن صصرى التغلبى الربعى الشافعى قاضى القضاة بالشام ، ولد فى ذى القعدة سنة خمس وخمسين وستمائة ، وسمع الحديث واشتغل وحصل وكتب عن القاضى شمس الدين بن خلكان وفيات الأعيان ، وسمعها عليه ، وتفقه بالشيخ تاج الدين الفزارى ، وعلى أخيه شرف الدين فى النحو ، وكان له يد فى الانشاء وحسن العبارة ، ودرس بالعادلية الصغيرة سنة ثنتين وثمانين ، وبالأمينية سنة تسعين ، وبالغزالية سنة أربع وتسعين ، وتولى قضاء العساكر فى دولة العادل كتبغا ، ثم تولى قضاء الشام سنة ثنتين وسبعمائة ، بعد ابن جماعة حين طلب لقضاء مصر ، بعد ابن دقيق العيد . ثم أضيف إليه مشيخة الشيوخ مع تدريس العادلية والغزالية والاتابكية ، وكلها مناصب دنيوية

انسلخ منها وانسلخت منه ، ومضى عنها وتركها لغيره ، وأكبر أمنيته بعد وفاته أنه لم يكن تولاها وهى متاع قليل من حبيب مفارق ، وقد كان رئيسا محتشما وقوراً كريما جميل الاخلاق ، معظما عند السلطان والدولة ، توفى فجأة ببستانه بالسهم ليلة الخميس سادس عشر ربيع الأول وصلى عليه بالجامع المظفرى ، وحضر جنازته نائب السلطنة والقضاة والأمراء والاعيان ، وكانت جنازته حافلة ودفن بتربتهم عند الركنية .

﴿ علاء الدين على بن محمد ﴾

ابن عثمان بن أحمد بن أبى المنى بن محمد بن نحلة الدمشقى الشافعى ، ولد سنة ثمان وخمسين وستمائة وقرأ المحرر ، ولازم الشيخ زين الدين الفارقى ودرس بالدولعية والركنية ، وناظر بيت المال ، وابتنى داراً حسنة إلى جانب الركنية ، ومات وتركها فى ربيع الأول ، ودرس بعده بالدولعية القاضى جمال الدين ابن جملة ، وبالركنية القاضى ركن الدين الخراسانى .

وفى ربيع الاول قتل .

﴿ الشيخ ضياء الدين ﴾

عبد الله الزربندى النحوى ، كان قد اضطرب عقله فسافر من دمشق إلى القاهرة فأشار شيخ الشيوخ القونوى فأودع بالمارستان فلم يوافق ثم دخل إلى القلعة وبيده سيف مسلول فقتل نصرانيا ، فحمل إلى السلطان وظنوه جاسوسا فأمر بشنقه فشنق ، وكنت ممن اشتغل عليه فى النحو .

﴿ الشيخ الصالح المقرى الفاضل ﴾

شهاب الدين أحمد بن الطبيب ابن عبيد الله الحلى العزيزى الفوارسى المعروف بابن الحلبية ، سمع من خطيب مرداو ابن عبدالدائم ، واشتغل وحصل وأقرأ الناس ، وكانت وفاته فى ربيع الاول عن ثمان وسبعين سنة ، ودفن بالسفح .

﴿ شهاب الدين أحمد بن محمد ﴾

ابن قطنية الذرعى التاجر المشهور بكثرة الاموال والبضائع والمتاجر ، قيل بلغت زكاة ماله فى سنة قازان خمسة وعشرين ألف دينار ، وتوفى فى ربيع الآخر من هذه السنة ، ودفن بتربته التى بباب بستانه المسمى بالمرفع عند ثورا ، فى طريق القابون ، وهى تربة هائلة ، وكانت له أملاك .

﴿ القاضى الامام جمال الدين ﴾

أبو بكر بن عباس بن عبد الله الخابورى ، قاضى بعلبك ، وأكبر أصحاب الشيخ تاج الدين الفزارى ، قدم من بعلبك ليلتقى بالقاضى الذرعى فمات بالمدرسة البادرائية ليلة السبت سابع جمادى الاولى ودفن بقاسيون ، وله من العمر سبعون سنة أضغاث حلم .

﴿ الشيخ المعمر المسن جمال الدين ﴾

عمر بن الياس بن الرشيد البعلبكى التاجر ، ولد سنة ثنتين وستمائة وتوفى فى ثانى عشر

جمادى الأولى عن مائة وعشرين سنة ، ودفن بطحا رحمه الله .

﴿ الشيخ الامام المحدث اللغوى المفيد ﴾

صفى الدين أبو الثناء محمود بن أبى بكر بن محمد الحسنى بن يحيى بن الحسين الارموى ، الصوفى ، ولد سنة ست وأربعين وستمائة ، وسمع الكثير ورحل وطلب وكتب الكثير ، وذيل على النهاية لابن الأثير ، وكان قد قرأ التنبيه واشتغل فى اللغة فحصل منها طرفا جيداً ، ثم اضطرب عقله فى سنة سبع وسبعين وغلبت عليه السوداء ، وكان يفيق منها فى بعض الاحيان فيذاكر صحيحا ثم يعترضه المرض المذكور ، ولم يزل كذلك حتى توفى فى جمادى الآخرة من هذه السنة فى المارستان النورى ، ودفن بباب الصغير .

﴿ الخاتون المصونة ﴾

خاتون بنت الملك الصالح إسماعيل ابن العادل بن أبى بكر بن أيوب بن شادى بدارها . وتعرف بدار كافور ، كانت رئيسة محترمة ، ولم تتزوج قط ، وليس فى طبقتها من بنى أيوب غيرها فى هذا الحين ، توفيت يوم الخميس الحادى والعشرين من شعبان ، ودفنت بتربة أم الصالح رحمهما الله .

﴿ شيخنا الجليل المسند المعمر الرحلة ﴾

بهاء الدين أبو القاسم ابن الشيخ بدر الدين أبى غالب المظفر بن نجم الدين بن أبى الثناء محمود ابن الامام تاج الأمناء أبى الفضل أحمد بن محمد بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين بن عساكر الدمشقى الطبيب المعمر ، ولد سنة تسع وعشرين وستمائة ، سمع حضوراً وسماعا على الكثير من المشايخ ، وقد خرج له الحافظ علم الدين البرزالى مشيخة سمعناها عليه فى سنة وفاته ، وكذلك خرج له الحافظ صلاح الدين العلائى عوالى من حديثه ، وكتب له المحدث المفيد ناصر الدين بن طغربك مشيخة فى سبع مجلدات تشتمل على خمسمائة وسبعين شيخا ، سماعا وإجازة ، وقرئت عليه فسمعها الحفاظ وغيرهم . قال البرزالى : وقد قرأت عليه ثلاثا وعشرين مجلداً بحذف المكررات . ومن الأجزاء خمسمائة وخمسين جزء بالمكررات . قال : وكان قد اشتغل بالطب ، وكان يعالج الناس بغير أجرة ، وكان يحفظ كثيراً من الأحاديث والحكايات والأشعار ، وله نظم ، وخدم من عدة جهات الكتابة ، ثم ترك ذلك ولزم بيته وإسماع الحديث ، وتفرد فى آخر عمره فى أشياء كثيرة ، وكان سهلا فى التسميع ، ووقف آخر عمره داره دار حديث ، وخص الحافظ البرزالى والمزى بشىء من بره ، وكانت وفاته يوم الاثنين وقت الظهر خامس وعشرين شعبان ، ودفن بقاسيون رحمه الله .

﴿ الوزير ثم الأمير نجم الدين ﴾

محمد بن الشيخ فخر الدين عثمان بن أبى القاسم البصراوى الحنفى ، درس ببصرى بعد عمه القاضى صدر الدين الحنفى ، ثم ولى الحسبة بدمشق ونظر الخزانة ، ثم ولى الوزارة ، ثم سأل الاقالة

منها فعوض بامرية عشرة عنها باقطاع هائل ، وعومـل فى ذلك معاملة الوزراء فى حرمته ولبسته ، حتى كانت وفاته ببصرى يوم الخميس ثامن عشرين شعبان ، ودفن هناك ، وكان كريماً ممدحا وهابا نهابا كثير الصدقة والاحسان إلى الناس ، ترك أموالا وأولاداً ثم تفانوا كلهم بعده وتفرقت أمواله ، ونكحت نساؤه وسكنت منازله .

﴿ الأمير صارم الدين بن قراسنقر الجوكندار ﴾

مشد الخاص ، ثم ولى بدمشق ولاية ثم عزل عنها قبل موته بستة أشهر ، توفى تاسع رمضان ودفن بتربته المشرفة المبيضة شرقى مسجد التاريخ كان قد أعدها لنفسه .

﴿ الشيخ أحمد الأعقف الحريرى ﴾

شهاب الدين أحمد بن حامد بن سعيد التنوخى الحريرى ، ولد سنة أربع وأربعين وستمائة ، واشتغل فى صباه على الشيخ تاج الدين الفزارى فى التنبيه ، ثم صحب الحريرية وخدمهم ولزم مصاحبة الشيخ نجم الدين بن إسرائيل ، وسمع الحديث ، وحج غير مرة ، وكان مليح الشكل كثير التودد إلى الناس ، حسن الأخلاق ، توفى يوم الأحد ثالث عشرين رمضان بزاويته بالمزة ، ودفن بمقبرة المزة ، وكانت جنازته حافلة .

وفى يوم الجمعة ثامن عشرين رمضان صلى بدمشق على غائب وهو الشيخ هارون المقدسى توفى ببعلبك فى العشر الأخير من رمضان ، وكان صالحا مشهوراً عند الفقراء . وفى يوم الخميس ثالث ذى القعدة توفى .

﴿ الشيخ المقرى أبو عبد الله ﴾

محمد بن إبراهيم بن يوسف بن عصر الأنصارى القصرى ثم السبتى بالقدس ، ودفن بماملى ، وكانت له جنازة حافلة حضرها كريم الدين والناس مشاة ، ولد سنة ثلاث وخمسين وستمائة ، وكان شيخاً مهيباً أحمر اللحية من الحناء ، اجتمعت به وبحثت معه فى هذه السنة حين زرت القدس الشريف ، وهى أول زيارة زرته ، وكان مالكى المذهب ، قد قرأ الموطأ فى ثمانية أشهر ، وأخذ النحو عن أبى الربيع شارح الجمل للزجاجى من طريق شريح .

﴿ شيخنا الأصيل المعمر الرحلة ﴾

شمس الدين أبو نصر بن محمد بن عماد الدين أبى الفضل محمد بن شمس الدين أبى نصر محمد بن هبة الله بن محمد بن يحيى بن بندار بن مميل الشيرازى ، مولده فى شوال سنة تسع وعشرين وستمائة ، وسمع الكثير وأسمع وأفاد فى علية شيخنا المزى تغمده الله برحمته ، قرأ عليه عدة أجزاء بنفسه أثابه الله ، وكان شيخاً حسناً خيراً مباركا متواضعا ، يذهب الربعات والمصاحف ، له فى ذلك يد طولى ، ولم يتدنس بشىء من الولايات ، ولا تدنس بشىء من وظائف المدارس ولا الشهادات ، إلى أن توفى

فى يوم عرفة ببستانه من المزة ، وصلى عليه بجامعها ودفن بتربتها رحمه الله .

﴿ الشيخ الصالح العابد الناسك ﴾

أبو بكر بن أيوب بن سعد الذرعى الحنبلى ، قيم الجوزية ، كان رجلا صالحا متعبدا قليل التكلف ، وكان فاضلا ، وقد سمع شيئا من دلائل النبوة عن الرشيدى العامرى ، توفى فجأة ليلة الأحد تاسع عشر ذى الحجة بالمدرسة الجوزية ، وصلى عليه بعد الظهر بالجامع ، ودفن بباب الصغير وكانت جنازته حافلة ، وأثنى عليه الناس خيراً رحمه الله ، وهو والد العلامة شمس الدين محمد بن قيم الجوزية صاحب المصنفات الكثيرة النافعة الكافية .

﴿ الأمير علاء الدين بن شرف الدين ﴾

محمود بن إسماعيل بن معبد البعلبكى أحد أمراء الطبلخانات ، كان والده تاجرا ببعلبك فنشأ ولده هذا واتصل بالدولة ، وعلت منزلته ، حتى أعطى طبلخانة و باشر ولاية البريد بدمشق مع شد الأوقاف ثم صرف إلى ولاية الولاة بحوران ، فاعترضه مرض ، وكان سبط البدن عبله ، فسأل أن يقال فأجيب فأقام ببستانه بالمزة إلى أن توفى فى خامس عشرين ذى الحجة ، وصلى عليه هناك ، ودفن بمقبرة المزة ، وكان من خيار الأمراء وأحسنهم ، مع ديانة وخير سامحه الله . وفى هذا اليوم توفى .

﴿ الفقيه العابد الناسك ﴾

شرف الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن سعد الله بن عبد الأحد بن سعد الله بن عبد القاهر ابن عبد الواحد بن عمر الحرانى ، المعروف بابن النجيح ، توفى فى وادى بنى سالم ، فحمل إلى المدينة فغسل وصلى عليه فى الروضة ودفن بالبقيع شرقى قبر عقيل ، فغبطه الناس فى هذه الموتة وهذا القبر ، رحمه الله ، وكان ممن غبطه الشيخ شمس الدين بن مسلم قاضى الحنابلة ، فمات بعده ودفن عنده وذلك بعده بثلاث سنين رحمهما الله . وجاء يوم حضر جنازة الشيخ شرف الدين محمد المذكور شرف الدين بن أبى العز الحنفى قبل ذلك بجمعة ، مرجعه من الحج بعد انفصاله عن مكة بمرحلتين فغبط الميت المذكور بتلك الموتة فرزق مثلها بالمدينة ، وقد كان شرف الدين بن نجيح هذا قد صحب شيخنا العلام تقى الدين بن تيمية ، وكان معه فى مواطن كبار صعبة لا يستطيع الاقدام عليها إلا الأبطال الخلص الخواص ، وسجن معه ، وكان من أكبر خدامه وخواص أصحابه ، ينال فيه الأذى وأوذى بسببه مرات ، وكلما له فى ازدياد محبة فيه وصبراً على أذى أعدائه ، وقد كان هذا الرجل فى نفسه وعند الناس جيدا مشكور السيرة جيد العقل والفهم ، عظيم الديانة والزهد ، ولهذا كانت عاقبته هذه الموتة عقيب الحج ، وصلى عليه بروضة مسجد رسول الله ﷺ ، ودفن بالبقيع بقيع الفرقد بالمدينة النبوية ، ختم له بصالح عمله ، وقد كان كثير من السلف يتمنى أن يموت عقيب

عمل صالح يعمله ، وكانت له جنازة حافلة رحمه الله تعالى ، والله سبحانه أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة أربع وعشرين وسبعمائة ﴾

استهلت والحكام هم المذكورون فى التى قبلها : الخليفة المستكفى بالله أبو الربيع سليمان بن الحاكم بأمر الله العباسى ، وسلطان البلاد الملك الناصر ، ونائبه بمصر سيف الدين أرغون ووزيره أمين الملك ، وقضاته بمصر هم المذكورون فى التى قبلها ، ونائبه بالشام تنكز ، وقضاة الشام الشافعى جمال الدين الذرعى ، والحنفى الصدر على البصراوى ، والمالكى شرف الدين الهمدانى ، والحنبلى شمس الدين بن مسلم ، وخطيب الجامع الأموى جلال الدين القزوينى ، ووكيل بيت المال جمال الدين ابن القلانسى ، ومحتسب البلد فخر الدين بن شيخ السلامية ، وناظر الدواوين شمس الدين غبريال ومشد الدواوين علم الدين طرقشى ، وناظر الجيش قطب الدين بن شيخ السلامية ، ومعين الدين ابن الخشيش ، وكاتب السر شهاب الدين محمود ، ونقيب الأشراف شرف الدين بن عدنان ، وناظر الجامع بدر الدين بن الحداد ، وناظر الخزانة عز الدين بن القلانسى ، ووالى البر علاء الدين ابن المروانى ، ووالى دمشق شهاب الدين برق .

وفى خامس عشر ربيع الأول باشر عز الدين بن القلانسى الحسبة عوضا عن ابن شيخ السلامية مع نظر الخزانة ، وفى هذا الشهر حمل كريم الدين وكيل السلطان من القدس إلى الديار المصرية فاعتقل ثم أخذت منه أموال وذخائر كثيرة ، ثم نفى إلى الصعيد وأجرى عليه نفقات سلطانية له ولمن معه من عياله ، وطلب كريم الدين الصغير وصودر بأموال جمة . وفى يوم الجمعة الحادى عشر من ربيع الآخر قرئ كتاب السلطان بالمقصورة من الجامع الأموى بحضرة نائب السلطنة والقضاة ، يتضمن إطلاق مكس الغلة بالشام المحروس جميعه ، فكثرت الأدعية للسطان ، وقدم البريد إلى نائب الشام يوم الجمعة خامس عشرين ربيع الآخر بعزل قاضى الشافعية الذرعى ، فبلغه ذلك فامتنع بنفسه من الحكم ، وأقام بالعادلية بعد العزل خمسة عشر يوما ثم انتقل منها إلى الاتابكية ، واستمرت بيده مشيخة الشيوخ وتدريس الاتابكية ، واستدعى نائب السلطان شيخنا الامام الزاهد برهان الدين الفزارى ، فعرض عليه القضاء فامتنع ، فألح عليه بكل ممكن فأبى وخرج من عنده فأرسل فى أثره الأعيان إلى مدرسته فدخلوا عليه بكل حيلة فامتنع من قبول الولاية ، وصمم أشد التصميم ، جزاه الله خيرا عن مروءته ، فلما كان يوم الجمعة جاء البريد فأخبر بتوليته قضاء الشام ، وفى هذا اليوم خلع على تقى الدين سليمان بن مراجل بنظر الجامع عوضا عن بدر الدين ابن الحداد توفى ، وأخذ من ابن مراجل نظر المارستان الصغير لبدر الدين بن العطار ، وخسف القمر ليلة الخميس للنصف من جمادى الآخرة بعد العشاء ، فصلى الخطيب صلاة الكسوف بأربع

سور : ق ، واقتربت ، والواقعة ، والقيامة ، ثم صلى العشاء ثم خطب بعدها ثم أصبح فصلى بالناس الصبح ثم ركب على البريد إلى مصر فرزق بن السلطان فتولاه وولاه بعد أيام القضاء ثم كر راجعا إلى الشام فدخل دمشق فى خامس رجب على القضاء مع الخطابة وتدريس العادلية والغزالية ، فباشر ذلك كله ، وأخذت منه الأمينية فدرس فيها جمال الدين بن القلانسى ، مع وكالة بيت المال ، وأضيف إليه قضاء العساكر وخوطب بقاضى القضاة جلال الدين القزوينى .

وفيها قدم ملك التكرور إلى القاهرة بسبب الحج فى خامس عشرين رجب ، فنزل بالقرافة ومعه من المغاربة والخدم نحو من عشرين ألفا ، ومعهم ذهب كثير بحيث إنه نزل سعر الذهب درهمين فى كل مثقال ، ويقال له الملك الأشرف موسى بن أبى بكر ، وهو شاب جميل الصورة ، له مملكة متسعة مسيرة ثلاث سنين ، ويذكر أن تحت يده أربعة وعشرين ملكا ، كل ملك تحت يده خلق وعساكر ، ولما دخل قلعة الجبل ليسلم على السلطان أمر بتقبيل الأرض فامتنع من ذلك ، فأكرمه السلطان ، ولم يمكن من الجلوس أيضاً حتى خرج من بين يدى السلطان وأحضر له حصان أشهب بزنارى أطلس أصفر ، وهيئت له هجن وآلات كثيرة تليق بمثله ، وأرسل هو إلى السلطان أيضا بهدايا كثيرة من جملتها أربعون ألف دينار ، وإلى النائب بنحو عشرة آلاف دينار ، وتحف كثيرة.

وفى شعبان ورمضان زاد النيل بمصر زيادة عظيمة ، لم ير مثلها من نحو مائة سنة أو أزيد منها ومكث على الأراضى نحو ثلاثة أشهر ونصف ، وغرق أقصابا كثيرة ، ولكن كان نفعه أعظم من ضره . وفى يوم الخميس ثامن عشر شعبان استناب القاضى جلال الدين القزوينى نائبين فى الحكم ، وهما يوسف بن إبراهيم بن جملة المحجى الصالحى ، وقد ولى القضاء فيما بعد ذلك كما سيأتى ، ومحمد بن على بن إبراهيم المصرى ، وحكما يومئذ ، ومن الغد جاء البريد ومعه تقليد قضاء حلب للشيخ كمال الدين بن الزملكانى ، فاستدعاه نائب السلطنة وفاوضه فى ذلك فامتنع ، فراجعه النائب ثم راجع السلطان فجاء البريد فى ثانى عشر رمضان بامضاء الولاية فشرع للتأهب لبلاد حلب ، وتمادى فى ذلك حتى كان خروجه إليها فى بكرة يوم الخميس رابع عشر شوال، ودخل حلب يوم الثلاثاء سادس عشرين شوال فأكرم إكراماً زائداً ، ودرس بها وألقى علوما أكبر من تلك البلاد ، وحصل لهم الشرف بفنونه وفوائده ، وحصل لأهل الشام الأسف على دروسه الأنيقة الفائقة ، وما أحسن ما قال الشاعر وهو شمس الدين محمد الخناط فى قصيدة له مطولة أولها قوله :

أسفت لفقدك جلق الفيحاء ■ وتباشرت بقدومك الشهباء

وفى ثانى عشر رمضان عزل أمين الملك عن وزارة مصر وأضيفت الوزارة إلى الامير علاء الدين مغلطاى الجمالى ، أستاذ دار السلطان . وفى أواخر رمضان طلب الصاحب شمس الدين غبريال إلى

القاهرة فولى بها نظر الدواوين عوضاً عن كريم الدين الصغير ، وقدم كريم الدين المذكور إلى دمشق فى شوال ، فنزل بدار العدل من القصاعين . وولى سيف الدين قديدار ولاية مصر ، وهوشهم سفاك للدماء ، فأراق الخمور وأحرق الحشيشة وأمسك الشطار ، واستقامت به أحوال القاهرة ومصر ، وكان هذا الرجل ملازما لابن تيمية مدة مقامه بمصر .

وفى رمضان قدم إلى مصر الشيخ نجم الدين عبد الرحيم بن الشحام الموصلى من بلاد السلطان أزبك ، وعنده فنون من علم الطب وغيره ، ومعه كتاب بالوصية به فأعطى تدريس الظاهرية البرانية نزل له عنها جمال الدين بن القلانسى ، فباشرها فى مستهل ذى الحجة ، ثم درس بالجاروضية . ثم خرج الركب فى تاسع شوال وأمير، كوكنجبار المحمدى ، وقاضيه شهاب الدين الظاهرى . وممن خرج إلى الحج برهان الدين الفزارى ، وشهاب الدين قرطاى الناصرى نائب طرابلس ، وصاروحا وشهرى وغيرهم . وفى نصف شوال زاد السلطان فى عدة الفقهاء بمدرسته الناصرية ، كان فيها من كل مذهب ثلاثون ثلاثون ، فزادهم إلى أربعة وخمسين من كل مذهب ، وزادهم فى الجوامك أيضاً . وفى الثالث والعشرين منه وجد كريم الدين الكبير وكيل السلطان قد شنق نفسه داخل خزانة له قد أغلقها عليه من داخل : ربط حلقه فى حبل وكان تحت رجليه قفص فدفع القفص برجليه فمات فى مدينة أسوان ، وستأتى ترجمته .

وفى سابع عشر ذى القعدة زينت دمشق بسبب عافية السلطان من مرض كان قد أشفى منه على الموت ، وفى ذى القعدة درس جمال الدين بن القلانسى بالظاهرية الجوانية عوضا عن ابن الزملكانى ، سافر على قضاء حلب ، وحضر عنده القاضى القزوينى ، وجاء كتاب صادق من بغداد إلى المولى شمس بن حسان يذكر فيه أن الأمير جوبان أعطى الأمير محمد حسيناه قدحاً فيه خمر ليشربه ، فامتنع من ذلك أشد الامتناع ، فألح عليه وأقسم فأبى أشد الاباء ، فقال له إن لم تشربها وإلا كلفتك أن تحمل ثلاثين تومانا ، فقال نعم أحمل ولا أشربها ، فكتب عليه حجة بذلك ، وخرج من عنده إلى أمير آخر يقال له بكتى ، فاستقرض منه ذلك المال ثلاثين تومانا فأبى أن يقرضه إلا بربح عشرة توامين ، فاتفقا على ذلك ، فبعث بكتى إلى جوبان يقول له : المال الذى طلبته من حسيناه عندى فان رسمت حملته إلى الخزانة الشريفة ، وإن رسمت تفرقه على الجيش . فأرسل جوبان إلى محمد حسيناه فأحضره عنده فقال له : تزن أربعين تومانا ولا تشرب قدحا من خمر ؟ قال نعم ، فأعجبه ذلك منه ومزق الحجة المكتوبة عليه ، وحظى عنده وحكمه فى أموره كلها ، وولاه ولايات كتابه ، وحصل لجوبان إقلاع ورجوع عن كثير مما كان يتعاطاه ، رحم الله حسيناه .

وفى هذه السنة كانت فتنة بأصبهان قتل بسببها ألوف من أهلها ، واستمرت الحرب بينهم

شهوراً . وفيها كان غـلاء مفرط بدمشق ، بلغت الغرارة مائتين وعشرين ، وقلت الاقوات . ولولا أن الله أقام للناس من يحمل لهـم الغلة من مصر لاشـتد الغـلاء وزاد أضعاف ذلك ، فكان مات أكثر الناس ، واستمر ذلك مدة شهور من هـذه السنة ، وإلى أثناء سـنة خمس وعشرين ، حتى قدمت الغلات ورخصت الأسعار ولله الحمد والمنة .

وممن توفى فيها من الأعيان : توفى فى مستهل المحرم

﴿ بدر الدين بن ممدود بن أحمد الحنفى ﴾

قاضى قلعة الروم بالحجاز الشريف ، وقد كان عبداً صالحا ، حج مرات عديدة ، وربـما أحرم من قلعة الروم أوحرم بيت المقدس ، وصلى عليه بدمشق صلاة الغائب ، وعلى شرف الدين بن العز وعلى شرف الدين بن نجيح توفوا فى أقل من نصف شهر كلهم بطريق الحجاز بعد فراغهم من الحج وذلك أنهم غبطوا ابن نجيح صاحب الشيخ تقى الدين ابن تيمية بتلك الموتة كما تقـدم ، فرزقوها فماتوا عقيب عملهم الصالح بعد الحج .

﴿ الحجة الكبيرة خوندا بنت مكية ﴾

زوجة الملك الناصر ، وقـد كانت زوجة أخيه الملك الأشرف ثم هجرها الناصر وأخرجها من القلعة ، وكانت جنازتها حافلة ، ودفنت بتربتها التى أنشأتها .

﴿ الشيـخ محمد بن جعفر بن فرعوش ﴾

ويقال له اللباد ويعرف بالمؤله ، كان يقرئ الناس بالجامع نحواً من أربعين سنة ، وقد قرأت عليه شيئا من القراءات ، وكان يعـلم الصغار عقد الراء والحروف المتقنة كالراء ونحوها ، وكان متقللا من الدنيا لا يقتنى شيئا ، وليس له بيت ولا خزانة ، إنما كان يأكل فى السوق وينام فى الجامع ، توفى فى مستهل صفر وقد جاوز السبعين ، ودفن فى باب الفراديس رحمه الله . وفى هذا اليوم توفى بمصر .

﴿ الشيـخ أيوب السعودى ﴾

وقـد قارب المائة ، أدرك الشيخ أبا السعود وكانت جنازته مشهودة . ودفن بتربة شيخه بالقرافة وكتب عنـه قاضى القضاة تقى الدين السبكى فى حياته ، وذكر الشيخ أبو بكر الرحبي أنه لم ير مثـل جنازته بالقاهرة منذ سكنها رحمه الله .

﴿ الشيخ الامام الزاهد نور الدين ﴾

أبو الحسن على بن يعقوب بن جبريل البكرى المصرى الشافعى ، له تصانيف ، وقرأ مسند الشافعى على وزيرة بنت المنجا ، ثم إنه أقام بمصر ، وقد كان فى جملة من ينكر على شيخ الاسلام ابن تيمية ، فأراد بعض الدولة قتله فهرب واختفى عنده كما تقدم لما كان ابن تيمية مقيما بمصر ، وما مثاله إلا مثال ساقية

ضعيفة كدرة لاطمت بحراً عظيما صافيا ، أو رملة أرادت زوال جبل ، وقد أضحك العقلاء عليه ، وقد أراد السلطان قتله فشفع فيه بعض الامراء ، ثم أنكر مرة شيئا على الدولة فنفى من القاهرة إلى بلدة يقال لها ديروط ، فكان بها حتى توفى يوم الاثنين سابع ربيع الآخر ، ودفن بالقرافة ، وكانت جنازته مشهورة غير مشهودة ، وكان شيخه ينكر عليه إنكاره على ابن تيمية ، ويقول له أنت لاتحسن أن تتكلم .

﴿ الشمس محمد الباجربقى ﴾

الذى تنسب إليه الفرقة الضالة الباجربقية ، والمشهور عنهم إنكار الصانع جل جلاله ، وتقدست أسماؤه ، وقد كان والده جمال الدين بن عبد الرحيم بن عمر الموصلى رجلا صالحا من علماء الشافعية ودرس فى أماكن بدمشق ، ونشأ ولده هذا بين الفقهاء واشتغل بعض شئ ثم أقبل على السلوك ولازم جماعة يعتقدونه ويزورونه ويرزقونه ممن هو على طريقه ، وآخرون لا يفهمونه ، ثم حكم القاضى المالكى بإراقة دمه فهرب إلى الشرق ، ثم إنه أثبت عداوة بينه وبين الشهود فحكم الحنبلى بحقن دمه فأقام بالقابون مدة سنين حتى كانت وفاته ليلة الاربعاء سادس عشر ربيع الآخر ، ودفن بالقرب من مغارة الدم بسفح قاسيون فى قبة فى أعلى ذيل الجبل تحت المغارة ، وله من العمر ستون سنة .

﴿ شيخنا القاضى المعمر الفقيه ﴾

محى الدين أبو زكريا يحيى بن الفاضل جمال الدين إسحاق بن خليل بن فارس الشيبانى الشافعى اشتغل على النواوى ولازم ابن المقدسى ، وولى الحكم بزرع وغيرها ، ثم قام بدمشق يشتغل فى الجامع ، ودرس فى الصارمية وأعاد فى مدارس عدة إلى أن توفى فى سلخ ربيع الآخر ودفن بقاسيون وقد قارب الثمانين رحمه الله ، وسمع كثيراً وخرج له الذهبى شيئا وسمعنا عليه الدارقطنى وغيره .

﴿ الفقيه الكبير الصدر الامام العالم الخطيب بالجامع ﴾

بدر الدين أبو عبد الله محمد بن عثمان بن يوسف بن محمد بن الحداد الآمدى الحنبلى ، سمع الحديث واشتغل وحفظ المحرر فى مذهب أحمد وبرع على ابن حمدان وشرحه عليه فى مدة سنين وقد كان ابن حمدان يثنى عليه كثيرا وعلى ذهنه وذكائه ، ثم اشتغل بالكتابة ولزم خدمة الأمير قرا سنقر بحلب ، فولاه نظر الأوقاف وخطابة حلب بجامعها الأعظم ، ثم لما صار إلى دمشق ولاه خطابة الأموى فاستمر خطيبا فيها اثنين وأربعين يوما ، ثم أعيد إليها جلال الدين القزوينى ، ثم ولى نظر المارستان والحسبة ونظر الجامع الاموى ، وعين لقضاء الحنابلة فى وقت ، ثم توفى ليلة الاربعاء سابع جمادى الآخرة ، ودفن بباب الصغير رحمه الله .

﴿ الكاتب المفيد قطب الدين ﴾

أحمد بن مفضل بن فضل الله المصرى ، أخو محى الدين كاتب تنكز ، والد الصاحب علم الدين

كان خبيراً بالكتابة وقد ولى استيفاء الأوقاف بعد أخيه ، وكان أسن من أخيه ، وهو الذى علمه صناعة الكتابة وغيرها ، توفى ليلة الاثنين ثانى رجب وعمل عزاؤه بالشميساطية ، وكان مباشر أوقافها .

﴿ الأمير الكبير ملك العرب ﴾

محمد بن عيسى بن مهنا أخو مهنا ، توفى بسلمية يوم السبت سابع رجب ، وقد جاوز الستين كان مليح الشكل حسن السيرة عاملا عارفا رحمه الله .

وفى هذا الشهر وصل الخبر إلى دمشق بموت .

﴿ الوزير الكبير على شاه بن أبى بكر التبريزى ﴾

وزير أبى سعيد بعد قتل سعد الدين الساوى ، وكان شيخاً جليلا فيه دين وخير ، وحمل إلى تبريز فدفن بها فى الشهر الماضى رحمه الله .

﴿ الأمير سيف الدين بكتمر ﴾

والى الولاة صاحب الأوقاف فى بلدان شتى : من ذلك مدرسة بالصلب ، وله درس بمدرسة أبى عمر وغير ذلك ، توفى بالاسكندرية ، وهو نائبها خامس رمضان رحمه الله .

﴿ شرف الدين أبو عبد الله ﴾

محمد ابن الشيخ الامام العلامة زين الدين بن المنجا بن عثمان بن أسعد بن المنجا التنوخى الحنبلى ، أخو قاضى القضاة علاء الدين ، سمع الحديث ودرس وأفتى ، وصحب الشيخ تقى الدين بن تيمية ، وكان فيه دين ومودة وكرم وقضاء حقوق كثيرة ، توفى ليلة الاثنين رابع شوال ، وكان مولده فى سنة خمس وسبعين وستمائة ، ودفن بتربتهم بالصالحية .

﴿ الشيخ حسين الكردى الموله ﴾

كان يخالط النجاسات والقاذورات ، ويمشى حافيا ، وربما تكلم بشىء من الهذيانات التى تشبه علم المغيبات ، وللناس فيه اعتقاد كما هو المعروف من أهل العمى والضلالات ، مات فى شوال .

﴿ كريم الدين الذى كان وكيل السلطان ﴾

عبد الكريم بن العلم هبة الله المسلمانى ، حصل له من الأموال والتقدم والمكانة الخطيرة عند السلطان مالم يحصل لغيره فى دولة الأتراك ، وقد وقف الجامعين بدمشق أحدهما جامع القبيبات والحوض الكبير الذى تجاه باب الجامع ، واشترى له نهر ماء بخمسين ألفا ، فانتفع به الناس انتفاعا كثيراً ، ووجدوا رفقا . والثانى الجامع الذى بالقابون . وله صدقات كثيرة تقبل الله منه وعفا عنه ، وقد مسك فى آخر عمره ثم صودر ونفى إلى الشوبك ، ثم إلى القدس ، ثم الصعيد فخنق نفسه كما قيل بعمامته بمدينة أسوان ، وذلك فى الثالث والعشرين من شوال ، وقد كان حسن الشكل تام القامة ،

ووجد له بعد موته ذخائر كثيرة سامحه الله .

﴿ الشيخ الامام العالم علاء الدين ﴾

على بن إبراهيم بن داود بن سليمان بن العطار ، شيخ دار الحديث النورية ، ومدرس القوصية بالجامع ، ولد يوم عيد الفطر سنة أربع وخمسين وستمائة ، وسمع الحديث واشتغل على الشيخ محى الدين النواوى ولازمه حتى كان يقال له مختصر النواوى ، وله مصنفات وفوائد ومجاميع وتخاريج ، وباشر مشيخة النورية من سنة أربع وتسعين إلى هذه السنة ، مدة ثلاثين سنة ، توفى يوم الاثنين منها مستهل ذى الحجة فولى بعده النورية علم الدين البرزالى ، وتولى القوصية شهاب الدين بن حرز الله وصلى عليه بالجامع ودفن بقاسيون رحمه الله ، والله سبحانه أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة خمس وعشرين وسبعمائة ﴾

استهلت وحكام البلاد هم المذكورون فى التى قبلها ، وأولها يوم الأربعاء . وفى خامس صفر منها قدم إلى دمشق الشيخ شمس الدين محمود الأصبهانى بعد مرجعه من الحج وزيارة القدس الشريف وهو رجل فاضل له مصنفات منها شرح مختصر ابن الحاجب ، وشرح الجويد وغير ذلك ، ثم إنه شرح الحاجبية أيضاً وجمع له تفسيرا بعد صيرورته إلى مصر ، ولما قدم إلى دمشق أكرم واشتغل عليه الطلبة ، وكان حظياً عند القاضى جلال الدين القزوينى ، ثم إنه ترك الكل وصار يتردد إلى الشيخ تقى الدين بن تيمية وسمع عليه من مصنفاته ورده على أهل الكلام ، ولازمه مدة فلما مات الشيخ تقى الدين تحول إلى مصر وجمع التفسير .

وفى ربيع الأول جرد السلطان تجريدة نحو خمسة آلاف إلى اليمن لخروج عمه عليه ، وصحبتهم خلق كثير من الحجاج ، منهم الشيخ فخر الدين النويرى . وفيها منع شهاب الدين بن مرى البعلبكى من الكلام على الناس بمصر ، على طريقة الشيخ تقى الدين بن تيمية ، وعزره القاضى المالكى بسبب الاستغاثة ، وحضر المذكور بين يدى السلطان وأثنى عليه جماعة من الأمراء ، ثم سفر إلى الشام بأهله فنزل ببلادالخليل ، ثم انتزح إلى بلاد الشرق وأقام بسنجار وماردين ومعاملتهما يتكلم ويعظ الناس إلى أن مات رحمه الله كما سنذكره .

وفى ربيع الآخر عاد نائب الشام من مصر وقد أكرمه السلطان والأمراء . وفى جمادى الأولى وقع بمصر مطر لم يسمع بمثله بحيث زاد النيل بسببه أربع أصابع ، وتغير أياماً . وفيه زادت دجلة ببغداد حتى غرقت ماحول بغداد وانحصر الناس بها ستة أيام لم تفتح أبوابها ، وبقيت مثل السفينة فى وسط البحر ، وغرق خلق كثير من الفلاحين وغيرهم ، وتلف للناس مالا يعلمه إلا الله ، وودع أهل البلد بعضهم بعضاً ، ولجأوا إلى الله تعالى وحملوا المصاحف على رؤسهم فى شدة الشوق فى أنفسهم

حتى القضاة والأعيان ، وكان وقتاً عجيباً ، ثم لطف الله بهم فغيض الماء وتناقص ، وتراجع الناس إلى ما كانوا عليه من أمورهم الجائرة وغير الجائرة ، وذكر بعضهم أنه غرق بالجانب الغربي نحو من ستة آلاف وستمائة بيت ، وإلى عشرة سنين لا يرجع ما غرق .

وفى أوائل جمادى الآخرة فتح السلطان خانقاه سرياقوس التى أنشأها وساق إليها خليجا و بنى عندها محلة ، وحضر السلطان بها ومعه القضاة والأعيان والأمراء وغيرهم ، وولبها مجد الدين الأقصرائى ، وعمل السلطان بها وليمة كبيرة ، وسمع على قاضى القضاة ابن جماعة عشرين حديثا بقراءة ولده عز الدين بحضرة الدولة منهم أرغون النائب ، وشيخ الشيوخ القونوى وغيرهم ، وخلع على القارىء عز الدين وأثنوا عليه ثناء زائدا ، وأجلس مكرماً ، وخلع أيضا على والده ابن جماعة وعلى المالكى وشيخ الشيوخ ، وعلى مجد الدين الأقصرائى شيخ الخانقاه المذكورة وغيرهم . وفى يوم الأربعاء رابع عشر رجب درس بقبة المنصورية فى الحديث الشيخ زين الدين بن الكتانى الدمشقى ، باشارة نائب الكرك وأرغون ، وحضر عنده الناس ، وكان فقيها جيداً ، وأما الحديث فليس من فنه ولا من شغله .

وفى أواخر رجب قدم الشيخ زين الدين بن عبد الله بن المرحل من مصر على تدريس الشامية البرانية ، وكانت بيد ابن الزملكانى فانتقل إلى قضاء حلب ، فدرس بها فى خامس شعبان وحضر القاضى الشافعى وجماعة . وفى سلخ رجب قدم القاضى عز الدين بن بدر الدين بن جماعة من مصر ومعه ولده ، وفى صحبته الشيخ جمال الدين الدمياطى وجماعة من الطلبة بسبب سماع الحديث ، فقرأ بنفسه وقرأ الناس له واعتنوا بأمره ، وسمعنا معهم و بقراءته شيئا كثيرا ، نفعهم الله بما قرؤوا و بما سمعوا ، ونفع بهم . وفى يوم الاربعاء ثانى عشر شوال درس الشيخ شمس الدين بن الأصبهانى بالرواحية بعد ذهاب ابن الزملكانى إلى حلب ، وحضر عنده القضاة والأعيان ، وكان فيهم شيخ الاسلام ابن تيمية ، وجرى يومئذ بحث فى العام إذا خص ، وفى الاستثناء بعد النفى ووقع انتشار وطال الكلام فى ذلك المجلس ، وتكلم الشيخ تقى الدين كلاما أبهت الحاضرين ، وتأخر ثبوت عيد الفطر إلى قريب الظهر يوم العيد ، فلما ثبت دقت البشائر وصلى الخطيب العيد من الغد بالجامع ، ولم يخرج الناس إلى المصلى ، وتغضب الناس على المؤذنين وسجن بعضهم . وخرج الركب فى عاشره وأميره صلاح الدين ابن أيبك الطويل ، وفى الركب صلاح الدين بن أوحد ، والمنكورسى ، وقاضيه شهاب الدين الظاهر . وفى سابع عشره درس بالرباط الناصرى بقاسيون حسام الدين القزوينى الذى كان قاضى طرابلس ، قايضه بها جمال الدين بن الشريشى إلى تدريس المسرورية ، وكان قد جاء توقيعه بالعذراوية والظاهرية فوقف فى طريقه قاضى القضاة جمال الدين ونائباه ابن جملة

والفخر المصري ، وعقد له ولكمال الدين ابن الشيرازي مجلسا ، ومعه توقيع بالشامية البرانية ، فعطل الامر عليهما لأنهما لم يظهرا استحقاقهما في ذلك المجلس ، فصارت المدرستان العذراوية والشامية لابن المرحل كما ذكرنا ، وعظم القزويني بالمسرورية فقايض منها لابن الشريشي إلى الرباط الناصري ، فدرس به في هذا اليوم وحضر عنده القاضي جلال الدين ، ودرس بعده ابن الشريشي بالمسرورية وحضر عنده الناس أيضا . وفيه عادت التجريدة اليمنية وقد فقد منهم خلق كثير من الغلمان وغيرهم ، فحبس مقدمهم الكبير ركن الدين بيبرس لسوء سيرته فيهم .

وممن توفي فيها من الأعيان ﴿ الشيخ إبراهيم الصباح ﴾

وهو إبراهيم بن منير البعلبكي ، كان مشهوراً بالصلاح مقيما بالمأذنة الشرقية ، توفي ليلة الأربعاء مستهل المحرم ودفن بالباب الصغير ، وكانت جنازته حافلة ، حمله الناس على رؤس الأصابع ، وكان ملازماً لمجالس الشيخ تقي الدين بن تيمية .

﴿ إبراهيم الموله ﴾

الذي يقال له القميني لاقامته بالقمامين خارج باب شرقي ، وربما كاشف بعض العوام ، ومع هذا لم يكن من أهل الصلاة ، وقد استتابه الشيخ تقي الدين بن تيمية وضربه على ترك الصلوات ومخالطة القاذورات ، وجمع النساء والرجال حوله في الأماكن النجسة . توفي كهلا في هذا الشهر .

﴿ الشيخ عفيف الدين ﴾

محمد بن عمر بن عثمان بن عمر الصقلي ثم الدمشقي ، إمام مسجد الرأس ، آخر من حدث عن ابن الصلاح ببعض سنن البيهقي ، سمعنا عليه شيئا منها ، توفي في صفر .

﴿ الشيخ الصالح العابد الزاهد الناسك ﴾

عبد الله بن موسى بن أحمد الجزري ، الذي كان مقيما (١) أبي بكر من جامع دمشق ، كان من الصالحين الكبار مباركا خيراً ، عليه سكينة ووقار ، وكانت له مطالعة كثيرة ، وله فهم جيد وعقل جيد ، وكان من الملازمين لمجالس الشيخ تقي الدين ابن تيمية ، وكان ينقل من كلامه أشياء كثيرة ويفهمها يعجز عنها كبار الفقهاء . توفي يوم الاثنين سادس عشرين صفر ، وصلى عليه بالجامع ودفن بباب الصغير وكانت جنازته حافلة محمودة .

﴿ الشيخ الصالح الكبير المعمر ﴾

الرجل الصالح تقي الدين ابن الصائغ المقري المصري ، الشافعي ، آخر من بقي من مشايخ القراء وهو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الخالق بن علي بن سالم بن مكي ، توفي في صفر ودفن بالقرافة وكانت جنازته حافلة ، قارب التسعين ولم يبق له منها سوى سنة واحدة ، وقد قرأ عليه غير واحد ،

(١) بياض بالاصل ولعله « بمحراب » أو « بخلوة » أو نحو هذا .

هو ممن طال عمره وحسن عمله ﴿ الشيخ الامام صدر الدين ﴾

أبو زكريا يحيى بن على بن تمام بن موسى الانصارى السبكى الشافعى ، سمع الحديث وبرع فى الأصول والفقه ، ودرس بالسيفية و باشرها بعده ابن أخيه تقى الدين السبكى الذى تولى قضاء الشام فيما بعد .

﴿ الشهاب محمود ﴾ هو الصدر الكبير الشيخ الامام العالم العلامة شيخ صناعة الانشاء الذى لم يكن بعد القاضى الفاضل مثله فى صنعة الانشاء ، وله خصائص ليست للفاضل من كثرة النظم والقصائد المطولة الحسنة البليغة ، فهو شهاب الدين أبو الثنا محمود بن سلمان بن فهد الحلبى ثم الدمشقى ، ولد سنة أربع وأربعين وستمائة بحلب ، وسمع الحديث وعنى باللغة والأدب والشعر وكان كثير الفضائل بارعا فى علم الانشاء نظما ونثرا ، وله فى ذلك كتب ومصنفات حسنة فائقة ، وقد مكث فى ديوان الانشاء نحوا من خمسين سنة ، ثم ولى كتابة السر بدمشق نحواً من ثمان سنين إلى أن توفى ليلة السبت ثانى عشرين شعبان فى منزله قرب باب النطفانيين وهى دار القاضى الفاضل وصلى عليه بالجامع ودفن بتربة له أنشأها بالقرب من اليغمورية وقد جاوز الثمانين رحمه الله .

﴿ شيخنا المسند المعمر الرحلة ﴾

عفيف الدين إسحاق بن يحيى بن إسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل الآمدى ثم الدمشقى الحنفى شيخ دار الحديث الظاهرية ، ولد فى حدود الأربعين وستمائة ، وسمع الحديث على جماعة كثيرين ، منهم يوسف بن خليل ومجد الدين بن تيمية ، وكان شيخا حسنا بهى المنظر سهل الاسماع يحب الرواية ولديه فضيلة ، توفى ليلة الاثنين ثانى عشرين رمضان ، ودفن بقاسيون ، وهو والد فخر الدين ناظر الجيوش والجامع . وقبله بيوم توفى الصدر معين الدين يوسف بن زغيب الرحبى أحد كبار التجار الأمناء . وفى رمضان توفى ﴿ البدر العوام ﴾

وهو محمد بن على البابا الحلبى ، وكان فرداً فى العوم ، وطيب الأخلاق ، انتفع به جماعة من التجار فى بحر اليمن كان معهم فغرق بهم المركب ، فلجأوا إلى صخرة فى البحر ، وكانوا ثلاثة عشر ، ثم إنه غطس فاستخرج لهم أموالا من قرار البحر بعد أن أفلسوا وكادوا أن يهلكوا ، وكان فيه ديانة وصيانة ، وقد قرأ القرآن وحج عشر مرات ، وعاش ثمانا وثمانين سنة رحمه الله ، وكان يسمع الشيخ تقى الدين بن تيمية كثيراً . وفيه توفى .

﴿ الشهاب أحمد بن عثمان الامشاطى ﴾

الأديب فى الأزجال والموشحات والمواليا والدوبيت والبلاليق ، وكان أستاذ أهل هذه الصناعة مات فى عشر الستين . ﴿ القاضى الامام العالم الزاهد ﴾

صدر الدين سليمان بن هلال بن شبل بن فلاح بن خصيب الجعفرى الشافعى المعروف بخطيب

داريا ، ولد سنة ثنتين وأربعين وستمائة ، بقرية بسرا من عمل السواد ، وقدم مع والده فقرأ بالصالحية القرآن على الشيخ نصر بن عبيد ، وسمع الحديث وتفقه على الشيخ محى الدين النووى ، والشيخ تاج الدين الفزارى ، وتولى خطابة داريا وأعاد بالناصرية ، وتولى نيابة القضاء لابن صصرى مدة ، وكان متزهداً لا يتنعم بحمام ولا كتان ولا غيره ، ولم يغير ما اعتاده فى البر ، وكان متواضعاً ، وهو الذى استسقى بالناس فى سنة تسع عشرة فسقوا كما ذكرنا ، وكان يذكر له نسباً إلى جعفر الطيار ، بينه وبينه عشرة آباء ، ثم ولى خطابة العقيبة فترك نيابة الحكم وقال هذه تكفى إلى أن توفى ليلة الخميس ثامن ذى القعدة ، ودفن بباب الصغير ، وكانت جنازته مشهورة رحمه الله ، وتولى بعده الخطابة ولده شهاب الدين .

﴿ أحمد بن صبيح المؤذن ﴾

الرئيس بالعروش بجامع دمشق مع البرهان بدر الدين أبو عبد الله محمد بن صبيح بن عبد الله التفليسى مولاهم المقرى المؤذن ، كان من أحسن الناس صوتا فى زمانه ، وأطيبهم نغمة ، ولد سنة ثنتين وخمسين وستمائة تقريباً ، وسمع الحديث فى سنة سبع وخمسين ، وممن سمع عليه ابن عبد الدائم وغيره من المشايخ ، وحدث وكان رجلا حسنا ، أبوه مولى لامرأة اسمها شامة بنت كامل الدين التفليسى ، امرأة فخر الدين الكرخى ، وباشر مشارفة الجامع وقراءة المصحف ، وأذن عند نائب السلطنة مدة ، وتوفى فى ذى الحجة بالطواويس ، وصلى عليه بجامع العقيبة ، ودفن بمقابر باب الفراديس .

﴿ خطاب بانى خان خطاب ﴾

الذى بين الكسوة وغباغب . الأمير الكبير عز الدين خطاب بن محمود بن رتقش العراقى ، كان شيخا كبيراً له ثروة من المال كبيرة ، وأملاك وأموال ، وله حمام بحكر السماق ، وقد عمر الخان المشهور به بعد موته إلى ناحية الكتف المصرى ، مما يلى غباغب ، وهو برج الصفر ، وقد حصل لكثير من المسافرين به رفق ، توفى ليلة سبع عشرة ربيع الآخر ودفن بتربته بسفح قاسيون ، رحمه الله تعالى . وفى ذى القعدة منها توفى رجل آخر اسمه :

﴿ ركن الدين خطاب بن الصاحب كمال الدين ﴾

أحمد ابن أخت ابن خطاب الرومى السيواسى ، له خانقاه ببلده بسيواس ، عليها أوقاف كثيرة وبر وصدقة ، توفى وهو ذاهب إلى الحجاز الشريف بالكرك ، ودفن بالقرب من جعفر وأصحابه بمؤتة رحمه الله . وفى العشر الأخير من ذى القعدة توفى

﴿ بدر الدين أبو عبد الله ﴾

محمد بن كمال الدين أحمد بن أبى الفتح بن أبى الوحش أسد بن سلامة بن سليمان بن فتيان

الشيبانى المعروف بابن العطار ، ولد سنة سبعين [وستمائة] ، وسمع الحديث الكثير ، وكتب الخط المنسوب واشتغل بالتنبيه ونظم الشعر ، وولى كتابة الدرج ، ثم نظر الجيش ونظر الأشراف ، وكانت له حظوة فى أيام الأفرم ، ثم حصل له خمول قليل ، وكان مترفا منعما له ثروة ورياسة وتواضع وحسن سيرة ، ودفن بسفح قاسيون بتربتهم رحمه الله .

﴿ القاضى محيى الدين ﴾

أبو محمد بن الحسن بن محمد بن عمار بن فتوح الحارثى ، قاضى الزبدانى مدة طويلة ، ثم ولى قضاء الكرك وبها مات فى العشرين من ذى الحجة ، وكان مولده سنة خمس وأربعين وستمائة ، وقد سمع الحديث واشتغل ، وكان حسن الأخلاق متواضعا ، وهو والد الشيخ جمال الدين بن قاضى الزبدانى مدرس الظاهرية رحمه الله .

﴿ ثم دخلت سنة ست وعشرين وسبعمائة ﴾

استهلت والحكام هم المذكورون فى التى قبلها ، سوى كاتب سر دمشق شهاب الدين محمود فانه توفى ، وولى المنصب من بعده ولده الصدر شمس الدين . وفيها تحول التجار فى قماش النساء المخيط من الدهشة التى للجامع إلى دهشة سوق علي . وفى يوم الأربعاء ثامن المحرم باشر مشيخة الحديث الظاهرية الشيخ شهاب الدين بن جهبل بعد وفاة العفيف إسحاق وترك تدريس الصلاحية بالقدس الشريف ، واختار دمشق ، وحضر عنده القضاة والأعيان . وفى أولها فتح الحمام الذى بناه الامير سيف الدين جوبان بجوار داره بالقرب من دار الجالق ، وله بابان أحدهما إلى جهة مسجد الوزير ، وحصل به نفع . وفى يوم الاثنين ثانى صفر قدم الصاحب غبريال من مصر على البريد متوليا نظر الدواوين بدمشق على عادته ، وانفصل عنها الكريم الصغير ، وفرح الناس به . وفى يوم الثلاثاء حادى عشرين ربيع الأول بكرة ضربت عنق ناصر بن الشرف أبى الفضل بن إسماعيل بن الهيتى بسوق الخيل على كفره واستهانته واستهتاره بآيات الله ، وصحبته الزنادقة كالنجم بن خلكان ، والشمس محمد الباجريقى ، وابن المعمار البغدادى ، وكل فيهم انحلال وزندقة مشهور بها بين الناس.

قال الشيخ علم الدين البرزالى : وربما زاد هذا المذكور المضروب العنق عليهم بالكفر والتلاعب بدين الاسلام ، والاستهانة بالنبوة والقرآن . قال وحضر قتله العلماء والأكابر وأعيان الدولة . قال : وكان هذا الرجل فى أول أمره قد حفظ التنبيه ، وكان يقرأ فى الختم بصوت حسن ، وعنده نباهة وفهم ، وكان منزلا فى المدارس والترب ، ثم إنه انسلخ من ذلك جميعه ، وكان قتله عزاً للاسلام وذلا للزنادقة وأهل البدع .

قلت : وقد شهدت قتله ، وكان شيخنا أبو العباس ابن تيمية حاضراً يومئذ ، وقد أتاه وقرعه

على ما كان يصدر منه قبل قتله ، ثم ضربت عنقه وأنا شاهد ذلك .

وفى شهر ربيع الأول رسم فى إخراج الكلاب من مدينة دمشق فجعلوا فى الخندق من جهة باب الصغير من ناحية باب شرقى ، الذكور على حدة والاناث على حدة ، وألزم أصحاب الدكاكين بذلك ، وشددوا فى أمرهم أياماً . وفى ربيع الأول ولى الشيخ علاء الدين المقدسى معيد البادرانية مشيخة الصلاحية بالقدس الشريف ، وسافر إليها . وفى جمادى الآخرة عزل قرطاى عن ولاية طرابلس ووليها طينال وأقر قرطاى على خبز القرمانى بدمشق بحكم سجن القرمانى بقلعة دمشق .

قال البرزالى : وفى يوم الاثنين عند العصر سادس عشر شعبان اعتقل الشيخ الامام العالم العلامة تقى الدين بن تيمية بقلعة دمشق ، حضر إليه من جهة نائب السلطنة تنكز مشدا الاوقاف وابن الخطيرى أحد الحجاب بدمشق ، وأخبراه أن مرسوم السلطان ورد بذلك ، وأحضرا معهما مركوبا ليركبه ، وأظهر السرور والفرح بذلك ، وقال أنا كنت منتظراً لذلك ، وهذا فيه خير كثير ومصلحة كبيرة ، وركبوا جميعاً من داره إلى باب القلعة ، وأخليت له قاعة وأجرى إليها الماء ورسم له بالاقامة فيها ، وأقام معه أخوه زين الدين يخدمه باذن السلطان ، ورسم له ما يقوم بكفايته . قال البرزالى : وفى يوم الجمعة عاشر الشهر المذكور قرئ بجامع دمشق الكتاب السلطانى الوارد باعتقاله ومنعه من الفتيا ، وهذه الواقعة سببها فتيا وجدت بخطه فى السفر وإعمال المطى إلى زيارة قبور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وقبور الصالحين . قال : وفى يوم الأربعاء منتصف شعبان أمر قاضى القضاة الشافعى فى حبس جماعة من أصحاب الشيخ تقى الدين فى سجن الحكم ، وذلك بمرسوم نائب السلطنة وإذنه له فيه ، فيما تقتضيه الشريعة فى أمرهم ، وعزر جماعة منهم على دواب ونودى عليهم ثم أطلقوا ، سوى شمس الدين محمد بن قيم الجوزية فانه حبس بالقلعة ، وسكتت القضية . قال وفى أول رمضان وصلت الأخبار إلى دمشق أنه أجريت عين ماء إلى مكة شرفها الله وانتفع الناس بها انتفاعاً عظيما ، وهذه العين تعرف قديماً بعين باذان ، أجراها جوبان من بلاد بعيدة حتى دخلت إلى نفس مكة ، ووصلت إلى عند الصفا وباب إبراهيم ، واستقى الناس منها فقيرهم وغنيهم وضعيفهم وشريفهم ، كلهم فيها سواء ، وارتفق أهل مكة بذلك رفقاً كثيراً ولله الحمد والمنة . وكانوا قد شرعوا فى حفرها وتجديدها فى أوائل هذه السنة إلى العشر الأخر من جمادى الأولى ، واتفق أن فى هذه السنة كانت الآبار التى بمكة قد يبست وقل ماؤها ، وقل ماء زمزم أيضاً ، فلولا أن الله تعالى لطف بالناس باجراء هذه القناة لنزح عن مكة أهلها ، أو هلك كثير مما يقيم بها . وأما الحجيج فى أيام الموسم فحصل لهم بها رفق عظيم زائد عن الوصف ، كما شاهدنا ذلك فى سنة إحدى وثلاثين عام حججنا . وجاء كتاب السلطان إلى نائبه بمكة باخراج الزيديين من المسجد الحرام ، وأن لا يكون

لهم فيه إمام ولا مجتمع ، ففعل ذلك .

وفى يوم الثلاثاء رابع شعبان درس بالشامية الجوانية شهاب الدين أحمد بن جهبل ، وحضر عنده القاضى القزوينى الشافعى وجماعة عوضاً عن الشيخ أمين الدين سالم بن أبى الدر إمام مسجد ابن هشام توفى ، ثم بعد أيام جاء توقيع بولاية القاضى الشافعى فباشرها فى عشرين رمضان . وفى عاشر شوال خرج الركب الشامى وأميره سيف الدين جوبان ، وحج عامئذ القاضى شمس الدين بن مسلم قاضى قضاة الحنابلة ، وبدر الدين ابن قاضى القضاة جلال الدين القزوينى ، ومعه تحف وهدايا وأمور تتعلق بالأمير سيف الدين أرغون نائب مصر ، فانه حج فى هذه السنة ومعه أولاده وزوجته بنت السلطان ، وحج فخر الدين ابن شيخ السلامية ، وصدرالدين المالكى ، وفخر الدين البعلبكى وغيره .

وفى يوم الاربعاء عاشر القعدة درس بالحنبلية برهان الدين أحمد بن هلال الزرعى الحنبلى ، بدلا عن شيخ الاسلام ابن تيمية ، وحضر عنده القاضى الشافعى وجماعة من الفقهاء وشق ذلك على كثير من أصحاب الشيخ تقى الدين ، وكان ابن الخطيرى الحاجب قد دخل على الشيخ تقى الدين قبل هذا اليوم فاجتمع به وسأله عن أشياء بأمر نائب السلطنة . ثم يوم الخميس دخل القاضى جمال الدين بن جملة وناصر الدين مشد الأوقاف ، وسألاه عن مضمون قوله فى مسألة الزيارة ، فكتب ذلك فى درج وكتب تحته قاضى الشافعية بدمشق : قابلت الجواب عن هذا السؤال المكتوب على خط ابن تيمية إلى أن قال : وإنما المحز جعله زيارة قبر النبى ﷺ ، وقبور الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصية بالاجماع مقطوعا [بها] ، فانظر الآن هذا التحريف على شيخ الاسلام ، فان جوابه على هذه المسألة ليس فيه منع زيارة قبور الأنبياء والصالحين ، وإنما فيه ذكر قولين فى شد الرحل والسفر إلى مجرد زيارة القبور ، وزيارة القبور من غير شد رحل إليها مسألة ، وشد الرحل لمجرد الزيارة مسألة أخرى ، والشيخ لم يمنع الزيارة الخالية عن شد رحل ، بل يستحبها ويندب إليها ، وكتبه ومناسكه تشهد بذلك ، ولم يتعرض إلى هذه الزيارة فى هذه الوجه فى الفتيا ، ولا قال إنها معصية ، ولا حكى الاجماع على المنع منها ، ولا هو جاهل قول الرسول « زوروا القبور فانها تذكركم الآخرة » والله سبحانه لايخفى عليه شىء ، ولا يخفى عليه خافية ، (وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) .

وفى يوم الأحد رابع القعدة فتحت المدرسة الحمصية تجاه الشامية الجوانية ، ودرس بها محيي الدين الطرابلسى قاضى هكار ، وتلقب بأبى رباح ، وحضر عنده القاضى الشافعى . وفى ذى القعدة سافر القاضى جمال الدين الزرعى من الاتابكية إلى مصر ، ونزل عن تدريسها لمحيي الدين بن جهبل. وفى ثانى عشر ذى الحجة درس بالنجيبية ابن قاضى الزبدانى عوضاً عن الدمشقى نائب الحكم مات بالمدرسة المذكورة .

ومن توفى فيها من الأعيان ﴿ ابن المطهر الشيعى جمال الدين ﴾

أبو منصور حسن بن يوسف بن مطهر الحلبي العراقى الشيعى ، شيخ الروافض بتلك النواحى ، وله التصانيف الكثيرة ، يقال تزيد على مائة وعشرين مجلدا ، وعدتها خمسة وخمسون مصنفا ، فى الفقه والنحو والأصول والفلسفة والرفض وغير ذلك من كبار وصغار ، وأشهرها بين الطلبة شرح ابن الحاجب فى أصول الفقه ، وليس بذاك الفائق ، ورأيت له مجلدين فى أصول الفقه على طريقة المحصول والأحكام ، فلا بأس بها فانها مشتملة على نقل كثير وتوجيه جيد ، وله كتاب منهاج الاستقامة فى إثبات الامامة ، خبط فيه فى المعقول والمنقول ، ولم يدر كيف يتوجه ، إذ خرج عن الاستقامة . وقد انتدب فى الرد عليه الشيخ الامام العلامة شيخ الاسلام تقى الدين أبو العباس ابن تيمية فى مجلدات أتى فيها بما يبهر العقول من الأشياء المليحة الحسنة ، وهو كتاب حافل . ولد ابن المطهر الذى لم تطهر خلائقه ولم يتطهر من دنس الرفض ليلة الجمعة سابع عشرين رمضان سنة ثمان وأربعين وستمائة ، وتوفى ليلة الجمعة عشرين محرم من هذه السنة ، وكان اشتغاله ببغداد وغيرها من البلاد ، واشتغل على نصير الطوسى ، وعلى غيره ، ولما ترفض الملك خربندا حظى عنده ابن المطهر وساد جداً وأقطعه بلادا كثيرة .

﴿ الشمس الكاتب ﴾

محمد بن أسد الحرانى المعروف بالنجار ، كان يجلس ليكتب الناس عليه بالمدرسة القليجية ، توفى فى ربيع الآخر ودفن بباب الصغير .

﴿ العز حسن بن أحمد بن زفر ﴾

الأربلى ثم الدمشقى ، كان يعرف طرفا صالحا من النحو والحديث والتاريخ ، وكان مقيما بدويرة حمد صوفيا بها ، وكان حسن المجالسة أثنى عليه البرزالى فى نقله وحسن معرفته ، مات بالمارستان الصغير فى جمادى الآخر ، ودفن بباب الصغير عن ثلاث وستين سنة .

﴿ الشيخ الامام أمين الدين سالم بن أبى الدر ﴾

عبد الرحمن بن عبد الله الدمشقى الشافعى مدرس الشامية الجوانية ، أخذها من ابن الوكيل قهراً وهو إمام مسجد ابن هشام ، ومحدث الكرسى به ، كان مولده فى سنة خمس وأربعين وستمائة ، اشتغل وحصل وأثنى عليه النووى وغيره ، وأعاد وأفتى ودرس ، وكان خبيرا بالمحاكمات ، وكان فيه مروءة وعصبية لمن يقصده ، توفى فى شعبان ودفن بباب الصغير .

﴿ الشيخ حماد ﴾

وهو الشيخ الصالح العابد الزاهد حماد الحلبي القطان ، كان كثير التلاوة والصلوات ، مواظبا على الاقامة بجامع التوبة بالعقيبة بالزاوية الغربية الشمالية ، يقرىء القرآن ويكثر الصيام ويتردد الناس

إلى زيارته ، مات وقد جاوز السبعين سنة على هذا القدم ، توفى ليلة الاثنين عشرين شعبان ودفن بباب الصغير ، وكانت جنازته حافلة رحمه الله .

﴿ الشيخ قطب الدين اليونيني ﴾

وهو الشيخ الامام العالم بقية السلف ، قطب الدين أبو الفتح موسى ابن الشيخ الفقيه الحافظ الكبير شيخ الاسلام أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله بن عيسى بن أحمد بن محمد البعلبكى اليونيني الحنبلى ، ولد سنة أربعين وستمائة بدار الفضل بدمشق ، وسمع الكثير وأحضره والده المشايخ واستجازله وبحث واختصر مرآة الزمان للسبط ، وذيل عليها ذيلا حسنا مرتباً أفاد فيه وأجاد بعبارة حسنة سهلة ، بانصاف وستر ، وأتى فيه بأشياء حسنة وأشياء فائقة رائقة ، وكان كثير التلاوة حسن الهيئة متقللا فى ملبسه ومأكله ، توفى ليلة الخميس ثالث عشر شوال ودفن بباب سطحا عند أخيه الشيخ شرف الدين رحمهما الله .

﴿ قاضى القضاة ابن مسلم ﴾

شمس الدين أبو عبد الله محمد بن مسلم بن مالك بن مزروع بن جعفر الصالحى الحنبلى ، ولد سنة ستين وستمائة ، ومات أبوه ـ وكان من الصالحين ـ سنة ثمان وستين ، فنشأ يتيما فقيراً لامال له ، ثم اشتغل وحصل وسمع الكثير وانتصب للافادة والاشتغال ، فطار ذكره ، فلما مات التقى سليمان سنة خمس عشرة ولى قضاء الحنابلة ، فباشره أتم مباشرة ، وخرجت له تخاريج كثيرة ، فلما كانت هذه السنة خرج للحج فمرض فى الطريق فورد المدينة النبوية على ساكنها رسول الله أفضل الصلاة والسلام ، يوم الاثنين الثالث والعشرين من ذى القعدة فزار قبر رسول الله ﷺ وصلى فى مسجده وكان بالاشواق إلى ذلك ، وكان قد تمنى ذلك لما مات ابن نجيح ، فمات فى عشية ذلك اليوم يوم الثلاثاء وصلى عليه فى مسجد رسول الله ﷺ بالروضة ، ودفن بالبقيع إلى جانب قبر شرف الدين ابن نجيح ، الذى كان قد غبطه بموته هناك سنة حج هو وهو قبل هذه الحجة شرقى قبر عقيل رحمهم الله ، وولى بعده القضاء عز الدين بن التقى سليمان .

﴿ القاضى نجم الدين ﴾

أحمد بن عبد المحسن بن حسن بن معالى الدمشقى الشافعى ، ولد سنة تسع وأربعين واشتغل على تاج الدين الفزارى وحصل وبرع وولى الاعادة ثم الحكم بالقدس ، ثم عاد إلى دمشق فدرس بالنجيبية ، وناب فى الحكم عن ابن صصرى مدة ، توفى بالنجيبية المذكورة يوم الأحد ثامن عشرين ذى القعدة ، وصلى عليه العصر بالجامع ، ودفن بباب الصغير .

﴿ ابن قاضى شهبة ﴾

الشيخ الامام العالم شيخ الطلبة ومفيدهم كمال الدين أبو محمد عبد الوهاب بن ذؤيب الاسدى

الشهبى الشافعى ، ولد بحوران فى سنة ثلاث وخمسين وستمائة ، وقدم دمشق واشتغل على الشيخ تاج الدين الفزارى ، ولازمه وانتفع به ، وأعاد بحلقته ، وتخرج به ، وكذلك لازم أخاه الشيخ شرف الدين ، وأخذ عنه النحو واللغة ، وكان بارعا فى الفقه والنحو ، له حلقة يشتغل فيها تجاه محراب الحنابلة ، وكان يعتكف جميع شهر رمضان ، ولم يتزوج قط ، وكان حسن الهيئة والشيبة ، حسن العيش والملبس متقللا من الدنيا ، له معلوم يقوم بكفايته من إعادات وفقاهات وتصدير بالجامع ، ولم يدرس قط ولا أفتى ، مع أنه كان ممن يصلح أن يأذن فى الافتاء ، ولكنه كان يتورع عن ذلك ، وقد سمع الكثير : سمع المسند للامام أحمد وغير ذلك ، توفى بالمدرسة المجاهدية - وبها كانت إقامته - ليلة الثلاثاء حادى عشرين ذى الحجة ، وصلى عليه بعد صلاة الظهر ، ودفن بمقابر باب الصغير . وفيها كانت وفاة :

﴿ الشرف يعقوب بن فارس الجعبرى ﴾

التاجر بفرجة ابن عمود ، وكان يحفظ القرآن ويؤم بمسجد القصب ، ويصحب الشيخ تقى الدين ابن تيمية والقاضى نجم الدين الدمشقى ، وقد حصل أموالا وأملاكا وثروة ، وهو والد صاحبنا الشيخ الفقيه المفضل المحصل الزكى بدر الدين محمد ، خال الولد عمر إن شاء الله . وفيها توفى :

﴿ الحاج أبو بكر بن تيمراز الصيرفى ﴾

كانت له أموال كثيرة ودائرة ومكارم وبر وصدقات ، ولكنه انكسر فى آخر عمره ، وكاد أن ينكشف فجبره الله بالوفاة رحمه الله .

﴿ ثم دخلت سنة سبع وعشرين وسبعمائة ﴾

استهلت بيوم الجمعة والحكام الخليفة والسلطان والنواب والقضاة والمباشرون هم المذكورون فى التى قبلها سوى الحنبلى كما تقدم ، وفى العشر من المحرم دخل مصر أرغون نائب مصر فمسك فى حادى عشر وحبس ، ثم أطلق أياما وبعثه السلطان إلى نائب حلب فاجتاز بدمشق بكرة الجمعة ثانى عشرين المحرم ، فأنزله نائب السلطنة بداره المجاورة لجامعه ، فبات بها ثم سافر إلى حلب ، وقد كان قبله بيوم قد سافر من دمشق الجاى الدوادار إلى مصر ، وصحبته نائب حلب علاء الدين الطنبغا معزولا عنها إلى حجوبية الحجاب بمصر . وفى يوم الجمعة التاسع عشر ربيع الأول قرىء تقليد قاضى الحنابلة عز الدين محمد بن التقى سليمان بن حمزة المقدسى ، عوضا عن ابن مسلم بمقصورة الخطابة بحضرة القضاة والأعيان ، وحكم وقرىء قبل ذلك بالصالحية . وفى أواخر هذا الشهر وصل البريد بتولية ابن النقيب الحاكم بحمص قضاء القضاة بطرابلس ، ونقل الذى بها إلى حمص نائبا عن قاضى دمشق ، وهو ناصر بن محمود الزرعى .

وفى سادس عشر ربيع الآخر عاد تنكز من مصر إلى الشام ، وقد حصل له تكريم من السلطان. وفى ربيع الأول حصلت زلزلة بالشام وقى الله شرها . وفى يوم الخميس مستهل جمادى الاولى باشر نيابة الحنبلى القاضى برهان الدين الزرعى ، وحضر عنده جماعة من القضاة . وفى يوم الجمعة منتصف جمادى الآخرة جاء البريد بطلب القاضى القزوينى الشافعى إلى مصر ، فدخلها فى مستهل رجب ، فخلع عليه بقضاء قضاة مصر مع تدريس الناصرية والصالحية ودار الحديث الكاملية ، عوضا عن بدر الدين بن جماعة لأجل كبر سنه ، وضعف نفسه ، وضرر عينيه ، فجبروا خاطره فرتب له ألف درهم وعشرة أرادب قمح فى الشهر ، مع تدريس زاوية الشافعى ، وأرسل ولده بدر الدين إلى دمشق خطيباً بالأموى ، وعلى تدريس الشامية البرانية ، على قاعدة والده جلال الدين القزوينى فى ذلك ، فخلع عليه فى أواخر رجب ثامن عشرين وحضر عنده الأعيان .

وفى رجب كان عرس الامير سيف الدين قوصون الساقى الناصرى ، على بنت السلطان ، وكان وقتا مشهودا ، خلع على الأمراء والأكابر . وفى صبيحة هذه الليلة عقد عقد الأمير شهاب الدين أحمد بن الأمير بكتمر الساقى ، على بنت تنكز نائب الشام ، وكان السلطان وكيل أبيها تنكز والعاقد ابن الحريرى . وخلع عليه وأدخلت فى ذى الحجة من هذه السنة فى كلفة كثيرة .

وفى رجب جرت فتنة كبيرة بالاسكندرية فى سابع رجب ، وذلك أن رجلا من المسلمين قد تخاصم هو ورجل من الفرنج ، على باب البحر ، فضرب أحدهما الآخر بنعل ، فرفع الأمر إلى الوالى فأمر بغلق باب البلد بعد العصر ، فقال له الناس : إن لنا أموالا وعبيداً ظاهر البلد ، وقد أغلقت الباب قبل وقته . ففتحه فخرج الناس فى زحمة عظيمة ، فقتل منهم نحو عشرة ونهبت عمائم وثياب وغير ذلك ، وكان ذلك ليلة الجمعة ، فلما أصبح الناس ذهبوا إلى دار الوالى فأحرقوها وثلاث دور لبعض الظلمة ، وجرت أحوال صعبة ، ونهبت أموال ، وكسرت العامة باب سجن الوالى فخرج منه من فيه ، فبلغ نائب السلطنة فاعتقد النائب أنه السجن الذى فيه الأمراء ، فأمر بوضع السيف فى البلد وتخريبه ، ثم إن الخبر بلغ السلطان فأرسل الوزير طيبغا الجمالى سريعا فضرب وصادر ، وضرب القاضى ونائبه وعزلهم ، وأهان خلقا من الأكابر وصادرهم بأموال كثيرة جداً ، وعزل المتولى ثم أعيد ، ثم تولى القضاء بهاء الدين علم الدين الأخنائى الشافعى الذى تولى دمشق فيما بعد ، وعزل قضاة الاسكندرية المالكى ونائباه ، ووضعت السلاسل فى أعناقهم وأهينوا ، وضرب ابن السنى غير مرة .

وفى يوم السبت عشرين شعبان وصل إلى دمشق قاضى قضاة حلب ابن الزملكانى على البريد فأقام بدمشق أربعة أيام ثم سار إلى مصر ليتولى قضاء قضاة الشام بحضرة السلطان ، فاتفق موته

قبل وصوله إلى القاهرة (وحيل بينهم و بين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل إنهم كانوا فى شك منه مريب) . و فى يوم الجمعة سادس عشرين شعبان باشر صدر الدين المالكى مشيخة الشيوخ مضافا إلى قضاء قضاة المالكية ، وحضر الناس عنده ، وقرئ تقليده بذلك بعد انفصال الزرعى عنها إلى مصر . و فى نصف رمضان وصل قاضى الحنفية بدمشق لقضاء القضاة عماد الدين أبى الحسن على بن أحمد بن عبد الواحد الطرسوسى ، الذى كان نائبا لقاضى القضاة صدر الدين على البصروى ، فخلفه بعده بالمنصب ، وقرىء تقليده بالجامع ، وخلع عليه و باشر الحكم ، واستناب القاضى عماد الدين ابن العز ، ودرس بالنورية مع القضاء ، وشكرت سيرته .

و فى رمضان قدم جماعة من الأسارى مع تجار الفرنج فأنزلوا بالمدرسة العادلية الكبيرة واستفكوا من ديوان الاسرى بنحو من ستين ألفا ، وكثرت الأدعية لمن كان السبب فى ذلك . وفى ثامن شوال خرج الركب الشامى إلى الحجاز وأميره سيف الدين بالبان المحمدى ، وقاضيه بدر الدين محمد بن محمد قاضى حران . و فى شوال وصل تقليد قضاء الشافعية بدمشق لبدر الدين ابن قاضى القضاة ابن عز الدين بن الصائغ والخلعة معه ، فامتنع من ذلك أشد الامتناع ، وصمم ، وألح عليه الدولة فلم يقبل وكثر بكاؤه وتغير مزاجه واغتاظ ، فلما أصر على ذلك راجع تنكز السلطان فى ذلك ، فلما كان شهر ذى القعدة اشتهر تولية علاء الدين على بن إسماعيل القونوى قضاء الشام ، فسار إليها من مصر و زار القدس ودخل دمشق يوم الاثنين سابع عشرين ذى القعدة ، فاجتمع بنائب السلطنة ولبس الخلعة و ركب مع الحجاب والدولة إلى العادلية ، فقرىء تقليده بها وحكم بها على العادة ، وفرح الناس به و بحسن سمته وطيب لفظه وملاحة شمائله وتودده ، وولى بعده مشيخة الشيوخ بمصر مجد الدين الأقصرائى الصوفى شيخ سرياقوس .

و فى يوم السبت ثالث عشرين ذى القعدة لبس القاضى محيى الدين بن فضل الله الخلعة بكتابة السر عوضا عن ابن الشهاب محمود ، واستمر ولده شرف الدين فى كتابة الدست . وفى هذه السنة تولى قضاء حلب عوضا عن ابن الزملكانى القاضى فخر الدين البازرى . و فى العشر الأول من ذى الحجة كمل ترخيم الجامع الاموى أعنى حائطه الشمالى وجاء تنكز حتى نظر إليه فأعجبه ذلك ، وشكر ناظره تقى الدين بن مراجل . وفى يوم الاضحى جاء سيل عظيم إلى مدينة بلبيس فهرب أهلها منها وتعطلت الصلاة والاضاحى فيها ، ولم ير مثله من مدة سنين متطاولة ، وخرب شيئا كثيرا من حواضرها و بساتينها فانا لله و إنا إليه راجعون .

وممن توفى فيها من الأعيان ﴿ الامير أبو يحيى ﴾

زكريا بن أحمد بن محمد بن عبد الواحد أبى حفص الهنتاتى الجيانى (١) المغربى ، أمير بلاد المغرب .

---

(١) و فى شذرات الذهب « اللحيانى » .

ولد بتونس قبل سنة خمسين وستمائة ، وقرأ الفقه والعربية ، وكان ملوك تونس تعظمه وتكرمه ، لأنه من بيت الملك والامرة والوزارة . ثم بايعه أهل تونس على الملك فى سنة إحدى عشرة وسبعمائة ، وكان شجاعا مقداما ، وهو أول من أبطل ذكر ابن التومرت من الخطبة ، مع أن جده أبا حفص الهنتاتى كان من أخص أصحاب ابن التومرت . توفى فى المحرم من هذه السنة بمدينة الاسكندرية رحمه الله .

﴿ الشيخ الصالح العابد الناسك ﴾

ضياء الدين أبو الفدا إسماعيل بن رضى الدين أبى الفضل المسلم بن الحسن بن نصر الدمشقى ، المعروف بابن الحموى ، كان هو وأبوه وجده من الكتاب المشهورين المشكورين ، وكان هو كثير التلاوة والصلاة والصيام والبر والصدقة والاحسان إلى الفقراء والأغنياء . ولد سنة خمس وثلاثين وستمائة وسمع الحديث الكثير وخرج له البرزالى مشيخة سمعناها عليه ، وكان من صدور أهل دمشق ، توفى يوم الجمعة رابع عشر صفر ، وصلى عليه ضحوة يوم السبت ، ودفن بباب الصغير ، وحج وجاور وأقام بالقدس مدة . مات وله ثنتان وسبعون سنة رحمه الله ، وقد ذكر والده أنه حين ولد له فتح المصحف يتفاءل فاذا قوله (الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل و إسحاق) فسماه إسماعيل . ثم ولد له آخر فسماه إسحاق ، وهذا من الاتفاق الحسن رحمهم الله تعالى .

﴿ الشيخ على الحارفى ﴾

على بن أحمد بن هوس الهلالى ، أصل جده من قرية إبل البسوق ، وأقام والده بالقدس ، وحج هو مرة وجاور بمكة سنة ثم حج ، وكان رجلا صالحا مشهوراً ، ويعرف بالحارفى ، لأنه كان يحرف الازقة ويصلح الرصفان لله تعالى ، وكان يكثر التهليل والذكر جهرة ، وكان عليه هيبة ووقار ، ويتكلم كلاماً فيه تخويف وتحذير من النار ، وعواقب الردى ، وكان ملازماً لمجالس ابن تيمية ، وكانت وفاته يوم الثلاثاء ثالث عشرين ربيع الاول ، ودفن بتربة الشيخ موفق الدين بالسفح ، وكانت جنازته حافلة جدا رحمه الله .

﴿ الملك الكامل ناصر الدين ﴾

أبو المعالى محمد بن الملك السعيد فتح الدين عبد الملك بن السلطان الملك الصالح إسماعيل أبى الجيش ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب أحد أكابر الامراء وأبناء الملوك ، كان من محاسن البلد ذكاء وفطنة وحسن عشرة ولطافة كلام ، بحيث يسرد كثيرا من الكلام بمنزلة الأمثال من قوة ذهنه وحذاقة فهمه ، وكان رئيسا من أجواد الناس ، توفى عشية الاربعاء عشرين جمادى الاولى وصلى عليه ظهر الخميس بصحن الجامع تحت النسر ، ثم أرادوا دفنه عند جده لأمه الملك الكامل فلم يتيسر ذلك فدفن بتربة أم الصالح سامحه الله ، وكان له سماع كثير سمعنا عليه منه ، وكان يحفظ تاريخا جيداً ،

وقام ولده الأمير صلاح الدين مكانه فى إمرة الطبلخانة ، وجعل أخوه فى عشرته ولبسا الخلع السلطانية بذلك .

﴿ الشيخ الامام نجم الدين ﴾

أحمد بن محمد بن أبى الحزم القرشى المخزومى التمولى . كان من أعيان الشافعية ، وشرح الوسيط وشرح الحاجبية فى مجلدين ، ودرس وحكم بمصر . وكان محتسبا بها أيضاً ، وكان مشكور السيرة فيها ، وقد تولى بعده الحكم نجم الدين بن عقيل . والحسبة ناصر الدين بن قار السبقوق ، توفى فى رجب وقد جاوز الثمانين . ودفن بالقرافة رحمه الله .

﴿ الشيخ الصالح أبو القاسم ﴾

عبد الرحمن بن موسى بن خلف الحزامى ، أحد مشاهير الصالحين بمصر ، توفى بالروضة وحمل إلى شاطئ النيل ، وصلى عليه وحمل على الرؤس والأصابع ، ودفن عند ابن أبى جمزة ، وقد قارب الثمانين ، وكان ممن يقصد إلى الزيارة رحمه الله .

﴿ القاضى عز الدين ﴾

عبد العزيز بن أحمد بن عثمان بن عيسى بن عمر بن الخضر الهكارى الشافعى ، قاضى المحلة . كان من خيار القضاة ، وله تصنيف على حديث المجامع فى رمضان ، يقال إنه استنبط فيه ألف حكم . توفى فى رمضان ، وقد كان حصل كتبا جيدة منها التهذيب لشيخنا المزى .

﴿ الشيخ كمال الدين بن الزملكانى ﴾

شيخ الشافعية بالشام وغيرها ، انتهت إليه رياسة المذهب تدريسا و إفتاء ومناظرة . ويقال فى نسبه السماكى نسبة إلى أبى دجانة سماك بن خرشة والله أعلم . ولد ليلة الاثنين ثامن شوال سنة ست وستين وستمائة ، وسمع الكثير واشتغل على الشيخ تاج الدين الفزارى ، وفى الاصول على القاضى بهاء الدين بن الزكى ، وفى النحو على بدر الدين بن ملك وغيرهم ، وبرع وحصل وساد أقرانه من أهل مذهبه ، وحاز قصب السبق عليهم بذهنه الوقاد فى تحصيل العلم الذى أسهره ومنعه الرقاد وعبارته التى هى أشهى من كل شئ معتاد . وخطه الذى هو أنضر من أزاهير الوهاد . وقد درس بعدة مدارس بدمشق . وباشر عدة جهات كبار ، كنظر الخزانة ونظر المارستان النورى وديوان الملك السعيد ، و وكالة بيت المال . وله تعاليق مفيدة واختيارات حميدة سديدة ، ومناظرات سعيدة . ومما علقه قطعة كبيرة من شرح المنهاج للنووى . ومجلد فى الرد على الشيخ تقى الدين ابن تيمية فى مسألة الطلاق وغير ذلك ، وأما دروسه فى المحافل فلم أسمع أحداً من الناس درس أحسن منها ولا أحلى من عبارته ، وحسن تقريره ، وجودة احترازاته ، وصحة ذهنه وقوة قريحته وحسن نظمه ، وقد

درس بالشامية البرانية و العذراوية والظاهرية الجوانية والرواحية والمسرورية . فكان يعطي كل واحدة منهن حقها بحيث كان يكاد ينسخ بكل واحد من تلك الدروس ما قبله من حسنه وفصاحته . ولا يهيله تعداد الدروس وكثرة الفقهاء والفضلاء . بل كلما كان الجمع أكثر والفضلاء أكبر كان الدرس أنضر وأبهر وأحلى وأنصح وأفصح . ثم لما انتقل إلى قضاء حلب وما معه من المدارس العديدة عامله معاملة مثلها ، وأوسع بالفضيلة جميع أهلها ، وسمعوا من العلوم ما لم يسمعوا هم ولا آباؤهم . ثم طلب إلى الديار المصرية ليولى الشامية دار السنة النبوية فعاجلته المنية قبل وصوله إليها ، فمرض وهو سائر على البريد تسعة أيام ، ثم عقب المرض بحراق الحمام فقبضه هاذم اللذات ، وحال بينه و بين سائر الشهوات والارادات . والاعمال بالنيات . ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه ، وكان من نيته الخبيثة إذا رجع إلى الشام متوليا أن يؤذى شيخ الاسلام ابن تيمية فدعا عليه فلم يبلغ أمله ومراده ، فتوفى فى سحر يوم الاربعاء سادس عشر شهر رمضان بمدينة بلبيس ، وحمل إلى القاهرة ودفن بالقرافة ليلة الخميس جوار قبة الشافعى تغمدهما الله برحمته .

﴿ المؤذن المشهور بالجامع الأموى ﴾

الحاج على بن فرج بن أبى الفضل الكتانى ، كان أبوه من خيار المؤذنين ، فيه صلاح ودين وله قبول عند الناس ، وكان حسن الصوت جهوره ، وفيه تودد وخدم وكرم . وحج غير مرة وسمع من أبى عمر وغيره ، توفى ليلة الأربعاء ثالث القعدة وصلى عليه غدوة ، ودفن بباب الصغير . وفى ذى القعدة توفى ﴿ الشيخ فضل ابن الشيخ الرجيحى التونسى ﴾

وأجلس أخوه يوسف مكانه بالزاوية .

﴿ ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وسبعمائة ﴾

فى ذى القعدة منها كانت وفاة شيخ الاسلام أبى العباس أحمد بن تيمية قدس الله روحه كما ستأتى ترجمة وفاته فى الوفيات إن شاء الله تعالى .

استهلت هذه السنة وحكام البلاد هم المذكورون فى التى قبلها سوى نائب مصر وقاضى حلب . وفى يوم الأربعاء ثانى المحرم درس بحلقة صاحب حمص الشيخ الحافظ صلاح الدين العلائى ، نزل له عنها شيخنا الحافظ المزى ، وحضر عنده الفقهاء والقضاة والاعيان ، وذكر درسا حسنا مفيداً . وفى يوم الجمعة رابع المحرم حضر قاضى القضاة علاء الدين القونوى مشيخة الشيوخ بالسمساطية عوضا عن القاضى المالكى شرف الدين ، وحضر عنده الفقهاء والصوفية على العادة . وفى يوم الأحد ثامن عشر صفر درس بالمسرورية تقى الدين عبدالرحمن بن الشيخ كمال الدين بن الزملكانى عوضا عن جمال الدين بن الشريشى بحكم انتقاله إلى قضاء حمص ، وحضر الناس عنده وترحموا على والده .

وفى يوم الأحد خامس عشرين صفر وصل إلى دمشق الأمير الكبير صاحب بلاد الروم تمرتاش ابن جوبان ، قاصدا إلى مصر ، فخرج نائب السلطنة والجيش إلى تلقيه ، وهو شاب حسن الصورة تام الشكل مليح الوجه . ولما انتهى إلى السلطان بمصر أكرمه وأعطاه تقدمة ألف ، وفرق أصحابه على الأمراء وأكرموا إكراما زائدا ، وكان سبب قدومه إلى مصر أن صاحب العراق الملك أبا سعيد كان قد قتل أخاه جواجا رمشتق فى شوال من السنة الماضية ، فهم والده جوبان بمحاربة السلطان أبى سعيد فلم يتمكن من ذلك ، وكان جوبان إذ ذاك مدبر الممالك ، فخاف تمرتاش هذا عند ذلك من السلطان ففر هاربا بدمه إلى السلطان الناصر بمصر .

وفى ربيع الأول توجه نائب الشام سيف الدين تنكز إلى الديار المصرية لزيارة السلطان فأكرمه واحترمه واشترى فى هذه السفرة دار الفلوس التى بالقرب من البزوريين والجوزية ، وهى شرقيها ، وقد كان سوق البزورية اليوم يسمى سوق القمح ، فاشترى هذه الدار وعمرها دارا هائلة ليس بدمشق دار أحسن منها ، وسماها دار الذهب ، وهدم حمام سويد تلقاءها وجعله دار قرآن وحديث فى غاية الحسن أيضا ، ووقف عليها أماكن ورتب فيها المشايخ والطلبة كما سيأتى تفصيله فى موضعه ، واجتاز برجوعه من مصر بالقدس الشريف وزاره وأمر ببناء حمام به ، وبناء دار حديث أيضا به ، وخانقاه كما يأتى بيانه . وفى آخر ربيع الأول وصلت القناة إلى القدس التى أمر بعمارتها وتجديدها سيف الدين تنكز قطلبك ، فقام بعمارتها مع ولاة تلك النواحى ، وفرح المسلمون بها ودخلت حتى إلى شط المسجد الاقصى ، وعمل به بركة هائلة ، وهى مرخمة ما بين الصخرة والاقصى ، وكان ابتداء عملها من شوال من السنة الماضية . وفى هذه المدة عمر سقوف شرافات المسجد الحرام وإيوانه ، وعمرت بمكة طهارة مما يلى باب بنى شيبة .

قال البرزالى : وفى هذا الشهر كملت عمارة الحمام الذى بسوق باب توما ، وله بابان . وفى ربيع الآخر نقض الترخيم الذى بحائط جامع دمشق القبلى من جهة الغرب مما يلى باب الزيادة ، فوجدوا الحائط متجافيا نخيف من أمره ، وحضر تنكز بنفسه ومعه القضاة وأرباب الخبرة ، فاتفق رأيهم على نقضه وإصلاحه ، وذلك يوم الجمعة بعد الصلاة سابع عشرين ربيع الآخر وكتب نائب السلطنة إلى السلطان يعلمه بذلك ويستأذنه فى عمارته ، فجاء المرسوم بالاذن بذلك ، فشرع فى نقضه يوم الجمعة خامس عشرين جمادى الأولى ، وشرعوا فى عمارته يوم الاحد تاسع جمادى الآخرة ، وعمل محراب فيما بين الزيادة ومقصورة الخطابة يضاهى محراب الصحابة ، ثم جدوا ولازموا فى عمارته ، وتبرع كثير من الناس بالعمل فيه من سائر الناس ، فكان يعمل فيه كل يوم أزيد من مائة رجل ، حتى كملت عمارة الجدار وأعيدت طاقاته وسقوفه فى العشرين من رجب وذلك بهمة تقى الدين بن مراجل

وهذا من العجب فانه نقض الجدار وما يسامته من السقف ، وأعيد فى مدة لا يتخيل إلى أحد أن عمله يفرغ فيما يقارب هذه المدةجزما ، وساعدهم على سرعة الاعادة حجارة وجدوها فى أساس الصومعة الغربية التى عند الغزالية ، وقد كان فى كل زاوية من هـذا المعبد صومعة كما فى الغربية والشرقية القبلتين منه فأبيدت الشماليتين قديما ولم يبق منهما من مدة ألوف من السنين سوى أس هـذه المأذنة الغربية الشمالية ، فكانت من أكبر العون على إعادة هذا الجدار سريعا . ومن العجب أن ناظر الجامع ابن مراجل لم ينقص أحداً من أرباب المرتبات على الجامع شيئا مع هذه العمارة .

وفى ليلة السبت خامس جمادى الأولى وقع حريق عظيم بالقرايين واتصل بالرماحين ، واحترقت القيسارية والمسجد الذى هناك ، وهلك للناس شىء كثير من الفرا والجوخ والأقمشة ، فانا لله وإنا إليه راجعون .

وفى يوم الجمعة عاشره بعد الصلاة صلى على القاضى شمس الدين بن الحريرى قاضى قضاة الحنفية بمصر ، وصلى عليه صلاة الغائب بدمشق . وفى هذا اليوم قدم البريد بطلب برهان الدين بن عبد الحق الحنفى إلى مصر ليلى القضاء بها بعـد ابن الحريرى ، فخرج مسافراً إليها ، ودخـل مصر فى خامس عشرين جمادى الأولى ، واجتمع بالسلطان فولاه القضاء وأكرمه وخلع عليه وأعطاه بغلة بزنارى ، وحكم بالمدرسة الصالحية بحضرة القضاة والحجاب ، ورسم له بجميع جهات ابن الحريرى .

وفى يوم الاثنين تاسع جمادى الآخرة أخرج ما كان عنـد الشيخ تقى الدين بن تيميـة من الكتب والأوراق والدواة والقلم ، ومنع من الكتب والمطالعـة ، وحملت كتبه فى مستهل رجب إلى خزانة الكتب بالعادلية الكبيرة . قال البرزالى : وكانت نحوستين مجلداً ، وأربع عشرة ربطة كراريس ، فنظر القضاة والفقهاء فيها وتفرقوها بينهم ، وكان سبب ذلك أنه أجاب لماكان ردعليه التقى ابن الاخنائى المالكى فى مسألة الزيارة فرد عليه الشيخ تقى الدين واستجهله وأعلمه أنه قليل البضاعة فى العلم ، فطلع الاخنائى إلى السلطان وشكاه ، فرسم السلطان عند ذلك باخراج ما عنده من ذلك وكان ما كان ، كما ذكرنا . وفى أواخره رسم لعـلاء الدين بن القـلانسى فى الدست ، مكان أخيـه جمال الدين توقيراً لخاطره عن المباشرة ، وأن يكون معلومه عـلى قضاء العسـاكر والوكالة ، وخلع عليهما بذلك .

وفى يوم الثلاثاء ثالث عشرين رجب رسم للأئمة الثلاثة الحنفى والمالكى والحنبلى بالصلاة فى الحائط القبلى من الأموى ، فعين المحراب الجديدالذى بين الزيادة والمقصورة للامام الحنفى ، وعين محراب الصحابة للمالكى وعين محراب مقصورة الخضر الذى كان يصلى فيه المالكى للحنبلى ، وعوض إمام محراب الصحابة بالكلاسـة ، وكان قبل ذلك فى حال العمارة قد بلغ محراب الحنفيـة من المقصورة

المعروفة بهم ، ومحراب الحنابلة من خلفهم في الرواق الثالث الغربي وكانا بين الأعمدة ، فنقلت تلك المحاريب ، وعوضوا بالمحاريب المستقرة بالحائط القبلي واستقر الأمر كذلك .

وفي العشرين من شعبان مسك الامير تمرتاش بن جوبان الذي أتى هاربا إلى السلطان الناصر بمصر وجماعة من أصحابه ، وحبسوا بقلعة مصر ، فلما كان ثاني شوال أظهر موته ، يقال إنه قتله السلطان وأرسل رأسه إلى أبي سعيد صاحب العراق ابن خر بندا ملك التتار .

وفي يوم الاثنين ثاني شوال خرج الركب الشامي وأميره فخر الدين عثمان بن شمس الدين لؤلؤ الحلبي أحد أمراء دمشق ، وقاضيه قاضي قضاة الحنابلة عز الدين بن التقي سليمان . وممن حج الأمير حسام الدين الشمقدار ، والأمير قبجق والأمير حسام الدين بن النجيبي وتقي الدين بن السلعوس وبدر الدين بن الصائغ وابنا جهبل والفخر المصري ، والشيخ علم الدين البرزالي ، وشهاب الدين الظاهري . وقبل ذلك بيوم حكم القاضي المنفلوطي الذي كان حاكما ببعلبك بدمشق نيابة عن شيخه قاضي القضاة علاء الدين القونوي ، وكان مشكور السيرة ، تألم أهل بعلبك لفقده ، فحكم بدمشق عوضا عن القونوي بسبب عزمه على الحج ، ثم لما رجع الفخر من الحج عاد إلى الحكم واستمر المنفلوطي يحكم أيضاً ، فصاروا ثلاث نواب : ابن جملة والفخر المصري والمنفلوطي . وسافر ابن الحشيشي في ثاني عشرين شوال إلى القاهرة لينوب عن القاضي فخر الدين كاتب المماليك إلى حين رجوعه من الحجاز ، فلما وصل ولي حجابة ديوان الجيش ، واستمر هناك ، واستقل قطب الدين ابن شيخ السلامية بنظر الجيش بدمشق على عادته .

وفي شوال خلع على أمين الملك بالديار المصرية وولي نظر الدواوين فباشره شهرا ويومين وعزل عنه .

﴿ ذكر وفاة شيخ الاسلام أبي العباس تقي الدين أحمد بن تيمية قدس الله روحه ﴾

قال الشيخ علم الدين البرزالي في تاريخه : وفي ليلة الاثنين العشرين من ذي العقدة توفي الشيخ الامام العالم العلم العلامة الفقيه الحافظ الزاهد العابد المجاهد القدوة شيخ الاسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن شيخنا الامام العلامة المفتي شهاب الدين أبي المحاسن عبد الحليم ابن الشيخ الامام شيخ الاسلام أبي البركات عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم محمد بن الخضر بن محمد ابن الخضر بن علي بن عبد الله بن تيمية الحراني ثم الدمشقي ، بقلعة دمشق بالقاعة التي كان محبوسا بها ، وحضر جمع كثير إلى القلعة ، وأذن لهم في الدخول عليه ، وجلس جماعة عنده قبل الغسل وقرؤا القرآن وتبركوا برؤيته وتقبيله ، ثم انصرفوا ، ثم حضر جماعة من النساء ففعلن مثل ذلك ثم انصرفن واقتصروا على من يغسله ، فلما فرغ من غسله أخرج ثم اجتمع الخلق بالقلعة والطريق إلى الجامع

وامتلأ الجامع أيضا وصحنه والكلاسة وباب البريد وباب الساعات إلى باب اللبادين والفوارة ، وحضرت الجنازة فى الساعة الرابعة من النهار أو نحو ذلك ووضعت فى الجامع ، والجند قد احتاطوا بها يحفظونها من الناس من شدة الزحام . وصلى عليه أولا بالقلعة ، تقدم فى الصلاة عليه أولا الشيخ محمد بن تمام ، ثم صلى عليه بالجامع الأموى عقيب صلاة الظهر ، وقد تضاعف اجتماع الناس على ماتقدم ذكره ، ثم تزايد الجمع إلى أن ضاقت الرحاب والأزقة والأسواق بأهلها ومن فيها . ثم حمل بعد أن صلى عليه على الرؤس والأصابع ، وخرج النعش به من باب البريد واشتد الزحام وعلت الأصوات بالبكاء والنحيب والترحم عليه والثناء والدعاء له ، وألقى الناس على نعشه مناديلهم وعمائمهم وثيابهم . وذهبت النعال من أرجل الناس وقباقيبهم ومناديل وعمائم لا يلتفتون إليها لشغلهم بالنظر إلى الجنازة ، وصار النعش على الرؤس تارة يتقدم وتارة يتأخر ، وتارة يقف حتى تمر الناس ، وخرج الناس من الجامع من أبوابه كلها وهى شديدة الزحام ، كل باب أشد زحمة من الآخر ، ثم خرج الناس من أبواب البلد جميعها من شدة الزحام فيها . لكن كان معظم الزحام من الأبواب الأربعة : باب الفرج الذى أخرجت منه الجنازة ، وباب الفراديس ، وباب النصر ، وباب الجابية . وعظم الأمر بسوق الخيل وتضاعف الخلق وكثر الناس . ووضعت الجنازة هناك وتقدم للصلاة عليه هناك أخوه زين الدين عبد الرحمن ، فلما قضيت الصلاة حمل إلى مقبرة الصوفية فدفن إلى جانب أخيه شرف الدين عبد الله رحمهما الله . وكان دفنه قبل العصر بيسير . وذلك من كثرة من يأتى ويصلى عليه من أهل البساتين وأهل الغوطة وأهل القرى وغيرهم ، وأغلق الناس حوانيتهم ولم يتخلف عن الحضور إلا من هو عاجز عن الحضور ، مع الترحم والدعاء له ، وأنه لو قدر ما تخلف ، وحضر نساء كثيرات بحيث حزرن بخمسة عشر ألف امرأة ، غير اللاتى كن على الأسطحة وغيرهن . الجميع يترحمن ويبكين عليه فيما قيل . وأما الرجال فحزروا بستين ألفا إلى مائة ألف إلى أكثر من ذلك إلى مائتى ألف وشرب جماعة الماء الذى فضل من غسله . واقتسم جماعة بقية السدر الذى غسل به . ودفع فى الخيط الذى كان فيه الزئبق الذى كان فى عنقه بسبب القمل مائة وخمسون درهما ، وقيل إن الطاقية التى كانت على رأسه دفع فيها خمسمائة درهما . وحصل فى الجنازة ضجيج وبكاء كثير . وتضرع وختمت له ختمات كثيرة بالصالحية وبالبلد . وتردد الناس إلى قبره أياما كثيرة ليلا ونهاراً يبيتون عنده ويصبحون ، ورؤيت له منامات صالحة كثيرة . ورثاه جماعة بقصائد جمة .

وكان مولده يوم الاثنين عاشر ربيع الاول بحران سنة إحدى وستين وستمائة . وقدم مع والده وأهله إلى دمشق وهو صغير ، فسمع الحديث من ابن عبد الدائم وابن أبى اليسر وابن عبدان والشيخ شمس الدين الحنبلى . والشيخ شمس الدين بن عطاء الحنفى ، والشيخ جمال الدين بن الصيرفى ، ومجد الدين

ابن عساكر والشيخ جمال الدين البغدادي ، النجيب بن المقداد ، وابن أبي الخير ، وابن علان وابن أبي بكر اليهودي والكمال عبد الرحيم والفخر علي وابن شيبان والشرف بن القواس ، وزينب بنت مكي ، وخلائق كثير سمع منهم الحديث . وقرأ بنفسه الكثير وطلب الحديث وكتب الطباق والاثبات ولازم السماع بنفسه مدة سنين ، وقل أن سمع شيئا إلا حفظه ، ثم اشتغل بالعلوم . وكان ذكيا كثير المحفوظ فصار إماما في التفسير وما يتعلق به عارفا بالفقه ، فيقال إنه كان أعرف بفقه المذاهب من أهلها الذين كانوا في زمانه وغيره . وكان عالما باختلاف العلماء . عالما في الاصول والفروع والنحو واللغة . وغير ذلك من العلوم النقلية والعقلية ، وما قطع في مجلس ولا تكلم معه فاضل في فن من الفنون إلا ظن أن ذلك الفن فنه ، ورآه عارفا به متقنا له ، وأما الحديث فكان حامل رايته حافظا له مميزاً بين صحيحه وسقيمه ، عارفا برجاله متضلعاً من ذلك ، وله تصانيف كثيرة وتعاليق مفيدة في الأصول والفروع ، كمل منها جملة و بيضت وكتبت عنه وقرئت عليه أو بعضها ، وجملة كبيرة لم يكملها ، وجملة كملها ولم تبيض إلى الآن . وأثنى عليه وعلى علومه وفضائله جماعة من علماء عصره ، مثل القاضي الخوبي ، وابن دقيق العيد ، وابن النحاس ، والقاضي الحنفي قاضي قضاة مصر ابن الحريري وابن الزملكاني وغيرهم ، ووجدت بخط ابن الزملكاني أنه قال : اجتمعت فيه شروط الاجتهاد على وجهها ، وأن له اليد الطولى في حسن التصنيف وجودة العبارة والترتيب والتقسيم والتدين ، وكتب على تصنيف له هذه الابيات :

ماذا يقول الواصفون له وصفاته جلت عن الحصر
هو حجة لله قاهرة هو بيننا أعجوبة الدهر
هو آية في الخلق ظاهرة أنوارها أربت على الفجر

وهذا الثناء عليه ، وكان عمره يومئذ نحو الثلاثين سنة . وكان بيني و بينه مودة وصحبة من الصغر ، وسماع الحديث والطلب من نحو سنة . وله فضائل كثيرة ، وأسماء مصنفاته وسيرته وماجرى بينه و بين الفقهاء والدولة وحبسه مرات وأحواله لا يحتمل ذكر جميعها هذا الموضع ، وهذا الكتاب.

ولما مات كنت غائبا عن دمشق بطريق الحجاز ، ثم بلغنا خبر موته بعد وفاته بأكثر من خمسين يوما لما وصلنا إلى تبوك . وحصل التأسف لفقده رحمه الله تعالى . هذا لفظه في هذا الموضع من تاريخه.

ثم ذكر الشيخ علم الدين بعد إيراد هذه الترجمة جنازة أبي بكر بن أبي داود وعظمها . وجنازة الامام أحمد ببغداد وشهرتها ، وقال الامام أبو عثمان الصابوني : سمعت أبا عبد الرحمن السيوفي يقول : حضرت جنازة أبي الفتح القواس الزاهد مع الشيخ أبي الحسن الدارقطني فلما بلغ إلى ذلك الجمع العظيم أقبل علينا وقال سمعت أبا سهل بن زياد القطان يقول سمعت عبد الله بن أحمد بن حنبل يقول سمعت أبي يقول : قولوا لاهل البدع بيننا و بينكم الجنائز ، قال ولا شك أن جنازة أحمد بن

حنبل كانت هائلة عظيمة ، بسبب كثرة أهل بلده واجتماعهم لذلك، وتعظيمهم له ، وأن الدولة كانت تحبه ، والشيخ تقى الدين ابن تيمية رحمه الله توفى ببلدة دمشق ، وأهلها لا يعشرون أهل بغداد حينئذ كثرة ، ولكنهم اجتمعوا لجنازته اجتماعا لو جمعهم سلطان قاهر ، وديوان حاصر لما بلغوا هذه الكثرة التى اجتمعوها فى جنازته ، وانتهوا إليها . هذا مع أن الرجل مات بالقلعة محبوسا من جهة السلطان ، وكثير من الفقهاء والفقراء يذكرون عنه للناس أشياء كثيرة ، مما ينفر منها طباع أهل الأديان ، فضلا عن أهل الاسلام . وهذه كانت جنازته .

قال : وقد اتفق موته فى سحر ليلة الاثنين المذكور ، فذكر ذلك مؤذن القلعة على المنارة بها وتكلم به الحراس على الابرجة ، فما أصبح الناس إلا وقد تسامعوا بهذا الخطب العظيم والامر الجسيم ، فبادر الناس على الفور إلى الاجتماع حول القلعة من كل مكان أمكنهم المجىء منه ، حتى من الغوطة والمرج ، ولم يطبخ أهل الأسواق شيئا ، ولا فتحوا كثيرا من الدكاكين التى من شأنها أن تفتح أوائل النهار على العادة ، وكان نائب السطنة تنكز قد ذهب يتصيد فى بعض الأمكنة ، فحارت الدولة ماذا يصنعون ، وجاء الصاحب شمس الدين غبريال نائب القلعة فعزاه فيه ، وجلس عنده ، وفتح باب القلعة لمن يدخل من الخواص والاصحاب والاحباب ، فاجتمع عند الشيخ فى قاعته خلق من أخصاء أصحابه من الدولة وغيرهم من أهل البلد والصالحية ، فجلسوا عنده يبكون ويثنون ، على مثل ليلى يقتل المرء نفسه ، وكنت فيمن حضر هناك مع شيخنا الحافظ أبى الحجاج المزى رحمه الله ، وكشفت عن وجه الشيخ ونظرت إليه وقبلته ، وعلى رأسه عمامة بعذب مغروزة وقد علاه الشيب أكثر مما فارقناه . وأخبر الحاضرين أخوه زين الدين عبد الرحمن أنه قرأ هو والشيخ منذ دخل القلعة ثمانين ختمة وشرعا فى الحادية والثمانين ، فانتهينا فيها إلى آخر اقتربت الساعة (إن المتقين فى جنات ونهر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر) فشرع عند ذلك الشيخان الصالحان الخيران عبد الله بن المحب وعبد الله الزرعى الضرير — وكان الشيخ رحمه الله يحب قراءتهما — فابتدآ من أول سورة الرحمن حتى ختموا القرآن وأنا حاضر أسمع وأرى .

ثم شرعوا فى غسل الشيخ وخرجت إلى مسجد هناك ولم يدعوا عنده إلا من ساعد فى غسله ، منهم شيخنا الحافظ المزى وجماعة من كبار الصالحين الأخيار ، أهل العلم والايمان ، فما فرغ منه حتى امتلأت القلعة وضج الناس بالبكاء والثناء والدعاء والترحم ، ثم ساروا به إلى الجامع فسلكوا طريق العمادية على العادلية الكبيرة ، ثم عطفوا على ثلث الناطفانيين ، وذلك أن سويقة باب البريد كانت قد هدمت لتصلح ، ودخلوا بالجنازة إلى الجامع الأموى ، والخلائق فيه بين يدى الجنازة وخلفها وعن يمينها وشمالها مالا يحصى عدتهم إلا الله تعالى ، فصرخ صارخ وصاح صائح هكذا

تـكون جنائز أئمة السنة فتباكى النـاس وضجوا عند سماع هذا الصـارخ ووضع الشـيخ فى موضع الجنائز مما يلى المقصورة . وجلس الناس من كثرتهم وزحمتهم على غير صفوف . بل مرصوصين رصا لا يتمكن أحد من السجود إلا بكلفـة جو الجامع وبرى الأزقة والاسواق ، وذلك قبل أذان الظهر بقليل . وجاء الناس من كل مـكان ، ونوى خلق الصيام لأنهم لا يتفرغون فى هذا اليوم لا كل ولا لشرب ، وكثر الناس كثرة لاتحد ولا توصف ، فلما فرغ من أذان الظهر أقيمت الصلاة عقبه على السدة خلاف العادة ، فلما فرغوا من الصلاة خرج نائب الخطيب لغيبة الخطيب بمصر فصلى عليه إماما ، وهو الشيخ علاء الدين الخراط ، ثم خرج الناس من كل مكان من أبواب الجامع والبلد كما ذكرنا ، واجتمعوا بسوق الخيل . ومن الناس من تعجل بعد أن صلى فى الجامع إلى مقابر الصوفية . والنـاس فى بكاء وتهليل فى مخافتة كل واحد بنفسه ، وفى ثناء وتأسف ، والنساء فوق الاسطحة من هناك إلى المقـبرة يبكين ويدعين ويقلن هذا العالم .

وبالجملة كان يوما مشهودا لم يعهـد مثله بدمشق إلا أن يكون فى زمن بنى أمية حين كان النـاس كثيرين ، وكانت دار الخلافة . ثم دفن عند أخيه قريبا من أذان العصر على التحديد ، ولا يمكن أحد حصر من حضر الجنازة ، وتقريب ذلك أنه عبارة عمن أمـكنه الحضور من أهل البلد وحواضره ولم يتخلف من الناس إلا القليل من الصغار والمخدرات ، وما علمت أحداً من أهـل العلم إلا النفر اليسير تخلف عن الحضور فى جنازته . وهم ثلاثة أنفس : وهم ابن جملة ، والصـدر . والقفجارى ، وهؤلاء كانوا قد اشتهروا بمعاداته فاختفوا من الناس خوفا على أنفسهم ، بحيث إنهم علموا متى خرجوا قتلوا وأهلـكهم الناس ، وتردد شيخنا الامام العلامة برهان الدين الفزارى إلى قبره فى الايام الثلاثة وكذلك جماعة من علماء الشافعية ، وكان برهان الدين الفزارى يأتى راكبا على حماره وعليه الجلالة والوقار رحمه الله .

وعملت له ختمات كثيرة ورؤيت له منامات صالحة عجيبة ، ورثى بأشعار كثيرة وقصائد مطولة جدا . وقد أفردت له تراجم كثيرة ، وصنف فى ذلك جماعة من الفضلاء وغـيرهم . وسألخص من مجموع ذلك ترجمة وجيزة فى ذكر مناقبـه وفضائله وشجاعتـه وكرمه ونصحـه وزهادته وعبادته وعلومه المتنوعة الـكثيرة المجودة وصفاته الكبار والصغار ، التى احتوت على غالب العلوم ومفرداته فى الاختيارات التى نصرها بالكتاب والسنة وأفتى بها .

وبالجملة كان رحمه الله من كبـار العلماء وممن يخطىء ويصيب ولـكن خطؤه بالنسبة إلى صوابه كنقطة فى بحر لجى . وخطؤه أيضا مغفور له كما فى صحيح البخارى : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله

أجران و إذا اجتهد فأخطأ فله أجر ، فهو مأجور . وقال الامام مالك بن أنس : كل أحد يؤخذ من قوله و يترك إلا صاحب هذا القبر .

وفى سادس عشرين ذى القعدة نقل تنكز حواصله وأمواله من دار الذهب داخل باب الفراديس إلى الدار التى أنشأها ، وتعرف بدار فلوس ، فسميت دار الذهب ، وعزل خزنداره ناصر الدين محمد ابن عيسى ، وولى مكانه مملوكه أباجى . وفى ثانى عشرين القعدة جاء إلى مدينة عجلون سيل عظيم من أول النهار إلى وقت العصر ، فهدم من جامعها وأسواقها و رباعها ود و رهاشيئا كثيراً ، وغرق سبعة نفر ، وهلك للناس شىء كثير من الأموال والغلات والامتعة والمواشى ما يقارب قيمته ألف ألف درهم والله أعلم ، و إنا لله و إنا إليه راجعون .

وفى يوم الأحد ثامن عشر ذى الحجة ألزم القاضى الشافعى الشيخ علاء الدين القونوى جماعة الشهود بسائر المراكز أن يرسلوا فى عمائمهم العذبات ليتميزوا بذلك عن عوام الناس ، ففعلوا ذلك أياماً ثم تضرروا من ذلك فأرخص لهم فى تركها ، ومنهم من استمر بها . وفى يوم الثلاثاء عشرين ذى الحجة أفرج عن الشيخ الامام العالم العلامة أبى عبد الله شمس الدين ابن قيم الجوزية ، وكان معتقلا بالقلعة أيضا ، من بعد اعتقال الشيخ تقى الدين بأيام من شعبان سنة ست وعشرين إلى هذا الحين ، وجاء الخبر بأن السلطان أفرج عن الجاولى والامير فرج بن قراسنقر ، ولاجين المنصورى ، وأحضروا بعد العيد بين يديه ، وخلع عليهم . وفيه وصل الخبر بموت الأمير الكبير جوبان نائب السلطان أبى سعيد على تلك البلاد ، ووفاة قرا سنقر المنصورى أيضاً كلاهما فى ذى القعدة من هذه السنة ،

وجوبان هذا هو الذى ساق القناة الواصلة إلى المسجد الحرام ، وقد غرم عليها أموالا جزيلة كثيرة ، وله تربة بالمدينة النبوية ، ومدرسة مشهورة ، وله آثارحسنة ، وكان جيد الاسلام له همة عالية وقد دبر الممالك فى أيام أبى سعيد مدة طويلة على السداد ، ثم أراد أبو سعيد مسكه فتخلص من ذلك كما ذكرنا ، ثم إن أبا سعيد قتل ابنه خواجا رمشق فى السنة الماضية ففر ابنه الآخر تمرتاش هارباً إلى سلطان مصر ، فآواه شهراً ثم ترددت الرسل بين الملكين فى قتله فقتله صاحب مصر فيما قيل وأرسل برأسه إليه ، ثم توفى أبوه بعده بقليل ، والله أعلم بالسرائر .

وأما قراسنقر المنصورى فهو من جملة كبار أمراء مصر والشام ، وكان من جملة من قتل الاشرف خليل بن المنصور كما تقدم ، ثم ولى نيابة مصر مدة ، ثم صار إلى نيابة دمشق ثم إلى نيابة حلب ، ثم فر إلى التتر هو والافرم والزركاشى فآواهم ملك التتار خربندا وأكرمهم وأقطعهم بلاداً كثيرة ، وتزوج قراسنقر بنت هولاكو ثم كانت وفاته بمراغة بلده التى كان حاكماً بها فى هذه السنة ، وله نحو تسعين سنة والله أعلم .

وممن توفى فيها من الاعيان شيخ الاسلام العلامة تقى الدين ابن تيمية كما تقدم ذكر ذلك فى الحوادث وسنفرد له ترجمة على حدة إن شاء الله تعالى .

﴿ الشريف العالم الزاهد المحدث ﴾

عز الدين أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن عبد المحسن العلوى الحسينى العراقى الاسكندرى الشافعى ، سمع الكثير وحفظ الوجيز فى الفقه ، والايضاح فى النحو ، وكان زاهداً متقللا من الدنيا و بلغ تسعين سنة وعقله وعلمه وذهنه ثابت متيقظ ، ولد سنة ثمان وثلاثين وستمائة ، وتوفى يوم الجمعة خامس المحرم ، ودفن بالاسكندرية بين المادين رحمه الله

﴿ الشمس محمد بن عيسى التكريدى ﴾

كانت فيه شهامة وحزامة ، وكان يكون بين يدى الشيخ تقى الدين بن تيمية كالمنفذ لما يأمر به وينهى عنه ، ويرسله الأمراء وغيرهم فى الأمور المهمة ، وله معرفة وفهم بتبليغ رسالته على أتم الوجوه توفى فى الخامس من صفر بالقبيبات ودفن عند الجامع الكريمى رحمه الله تعالى .

﴿ الشيخ الصالح ﴾

أبو بكر بن شرف بن محسن بن معن بن عمان الصالحى ، ولد سنة ثلاث وخمسين وستمائة ، وسمع الكثير صحبة الشيخ تقى الدين بن تيمية والمزى ، وكان ممن يحب الشيخ تقى الدين ، وكان معهما كالخادم لهما ، وكان فقيراً ذا عيال يتناول من الزكاة والصدقات ما يقوم بأوده ، وأقام فى آخر عمره بحمص ، وكان فصيحاً مفوها ، له تعاليق وتصانيف فى الأصول وغيرها ، وكان له عبادة وفيه خير وصلاح ، وكان يتكلم على الناس بعد صلاة الجمعة إلى العصر من حفظه ،وقد اجتمعت به مرة صحبة شيخنا المزى حين قدم من حمص فكان قوى العبارة فصيحها متوسطاً بالعلم ، له ميل إلى التصوف والكلام فى الاحوال والأعمال والقلوب وغير ذلك ، وكان يكثر ذكر الشيخ تقى الدين بن تيمية . توفى بحمص فى الثانى والعشرين من صفر من هذه السنة، وقد كان الشيخ يحض الناس على الاحسان إليه ، وكان يعطيه ويرفده .

﴿ ابن الدواليبى البغدادى ﴾

الشيخ الصالح العالم العابد الرحلة المسند المعمر عفيف الدين أبو عبد الله محمد بن عبد المحسن ابن أبى الحسين بن عبد الغفار البغدادى الأزجى الحنبلى المعروف بابن الدواليبى ، شيخ دار الحديث المستنصرية ، ولد فى ربيع الاول سنة ثمان وثلاثين وستمائة ، وسمع الكثير ، وله إجازات عالية ، واشتغل بحفظ الخرقى ، وكان فاضلا فى النحو وغيره ، وله شعر حسن ، وكان رجلا صالحا جاوز التسعين وصار رحلة العراق ، وتوفى يوم الخميس رابع جمادى الأولى ودفن بمقبرة الامام أحمد مقابر الشهداء

رحمه الله ، وقد أجازنى فيمن أجاز من مشايخ بغداد ولله الحمد .

﴿ قاضى القضاة شمس الدين ابن الحريرى ﴾

أبو عبد الله محمد بن صفى الدين أبى عمر و عثمان بن أبى الحسن عبد الوهاب الأنصارى الحنفى ، ولد سنة ثلاث وخمسين ، وسمع الحديث واشتغل وقرأ الهداية ، وكان فقيهاً جيداً ، ودرس بأماكن كثيرة بدمشق ، ثم ولى القضاء بها ، ثم خطب إلى قضاء الديار المصرية فاستمر بها مدة طويلة محفوظ العرض ، لا يقبل من أحد هدية ولا تأخذه فى الحكم لومة لائم ، وكان يقول إن لم يكن ابن تيمية شيخ الاسلام فمن ؟ وقال لبعض أصحابه : أتحب الشيخ تقى الدين ؟ قال : نعم ، قال : والله لقد أحببت شيئاً مليحا . توفى رحمه الله يوم السبت رابع جمادى الآخرة ودفن بالقرافة ، وكان قد عين لمنصبه القاضى برهان الدين بن عبد الحق فنفذت وصيته بذلك ، وأرسل إليه إلى دمشق فأحضر فباشر الحكم بعده وجميع جهاته .

﴿ الشيخ الامام العالم المقرى ﴾

شهاب الدين أبو العباس أحمد بن الشيخ الامام تقى الدين محمد بن جبارة بن عبد الولى بن جبارة المقدسى المرداوى الحنبلى ، شارح الشاطبية ، ولد سنة تسع وأربعين وستمائة ، وسمع الكثير وعنى بفن القراءات فبرز فيه ، وانتفع الناس به ، وقد أقام بمصر مدة واشتغل بها على الفزارى فى أصول الفقه ، وتوفى بالقدس رابع رجب رحمه الله ، كان يعد من الصلحاء الاخيار ، سمع عن خطيب مردا وغيره

﴿ ابن العاقولى البغدادى ﴾

الشيخ الامام العلامة جمال الدين أبو محمد عبد الله بن محمد بن على بن حماد بن ثابت الواسطى العاقولى ثم البغدادى الشافعى ، مدرس المستنصرية مدة طويلة نحواً من أربعين سنة ، وباشر نظر الأوقاف وعين لقضاء القضاة فى وقت . ولد ليلة الأحد عاشر رجب سنة ثمان وثلاثين وستمائة ، وسمع الحديث وبرع واشتغل وأفتى من سنة سبع وخمسين إلى أن مات ، وذلك مدة إحدى وسبعين سنة ، وهذا شئ غريب جداً ، وكان قوى النفس له وجاهة فى الدولة ، فكم كشف كربة عن الناس بسعيه وقصده ، توفى ليلة الأربعاء رابع عشرين شوال ، وقد جاوز التسعين سنة ، ودفن بداره ، وكان قد وقفها على شيخ وعشرة صبيان يسمعون القرآن و يحفظونه ، ووقف عليها أملاكه كلها . تقبل الله منه ورحمه ، ودرس بعده بالمستنصرية قاضى القضاة قطب الدين .

﴿ الشيخ الصالح العالم العابد التاجر البار ﴾

شمس الدين محمد بن داود بن محمد بن ساب السلامى البغدادى ، أحد ذوى اليسار ، وله برّ تام بأهل العلم ، ولاسيما أصحاب الشيخ تقى الدين ، وقد وقف كتبا كثيرة ، وحج مرات ، وتوفى ليلة الاحد رابع عشرين ذى القعدة بعد وفاة الشيخ تقى الدين بأربعة أيام ، وصلى عليه بعد صلاة الجمعة ودفن

بباب الصغير رحمه الله وأكرم مثواه . وفى هذه الليلة توفيت الوالدة مريم بنت فرج بن على من قرية كان الوالد خطيبها ، وهى مجيدل القرية سنة ثلاث وسبعين وستمائة ، وصلى عليها بعد الجمعة ودفنت بالصوفية شرقى قبر الشيخ تقى الدين بن تيمية رحمهما الله تعالى .

﴿ ثم دخلت سنة تسع وعشرين وسبعمائة ﴾

استهلت والخليفة والحكام هم المباشرون فى التى قبلها ، غير أن قطب الدين ابن شيخ السلامية اشتغل بنظر الجيش . وفى المحرم طلب القاضى محيى الدين بن فضل الله كاتب سر دمشق وولده شهاب الدين ، وشرف الدين بن شمس الدين بن الشهاب محمود إلى مصر على البريد ، فباشر القاضى الصدر الكبير محيى الدين المذكور كتابة السر بها عوضاً عن علاء الدين بن الأثير لمرض اعتراه ، وأقام عنده ولده شهاب الدين ، وأقبل شرف الدين الشهاب محمود إلى دمشق على كتابة السر عوضاً عن ابن فضل الله . وفيه ذهب ناصر الدين مشد الأوقاف ناظراً على القدس والخليل ، فعمر هنالك عمارات كثيرة لملك الأمراء تنكز ، وفتح فى الأقصى شباكين عن يمين المحراب وشماله وجاء الأمير نجم الدين داود بن محمد بن أبى بكر بن محمد بن يوسف بن الزيبق من شد الدواوين بحمص إلى شدها بدمشق . وفى الحادى والعشرين من صفر كمل ترخيم الحائط القبلى من جامع دمشق وبسط الجامع جميعه ، وصلى الناس الجمعة به من الغد ، وفتح باب الزيادة ، وكان له أياماً مغلقا وذلك فى مباشرة تقى الدين بن مراجل .

وفى ربيع الآخر قدم من مصر أولاد الأمير شمس الدين قراسنقر إلى دمشق فسكنوا فى دار أبيهم داخل باب الفراديس ، فى دهليز المقدمية ، وأعيدت عليهم أملاكهم المخلفة عن أبيهم ، وكانت تحت الحوطة ، فلما مات فى تلك البلاد أفرج عنها أو أكثرها . وفى يوم الجمعة آخر شهر ربيع الآخر أنزل الأمير جوبان وولده من قلعة المدينة النبوية وهما ميتان مصبران فى توابيتهما ، فصلى عليهما بالمسجد النبوى ، ثم دفنا بالبقيع عن مرسوم السلطان ، وكان مراد جوبان أن يدفن فى مدرسته فلم يمكن من ذلك .

وفى هذا اليوم صلى بالمدينة النبوية على الشيخ تقى الدين بن تيمية رحمه الله ، وعلى القاضى نجم الدين البالسى المصرى صلاة الغائب . وفى يوم الاثنين منتصف جمادى الآخرة درس القاضى شهاب الدين أحمد بن جهبل بالمدرسة البادرانية عوضاً عن شيخنا برهان الدين الفزارى توفى إلى رحمة الله تعالى ، وأخذ مشيخة دار الحديث منه الحافظ شمس الدين الذهبى ، وحضرها فى يوم الأربعاء سابع عشره ، ونزل عن خطابة بطنا للشيخ جمال الدين المسلاتى المالكى ، فخطب بها يوم الجمعة تاسع عشره . وفى أواخر هذا الشهر قدم نائب حلب الأمير سيف الدين أرغون إلى دمشق

قاصدا باب السلطان ، فتلقاه نائب دمشق وأنزله بداره التى عنـد جامعه ، ثم سار نحو مصر فغاب نحواً من أربعين يوما ، ثم عاد راجعاً إلى نيابة حلب . وفى عاشر رجب طلب الصاحب تقى الدين ابن عمر بن الوزير شمس الدين بن السلعوس إلى مصر فولى نظر الدواوين بها حتى مات عن قريب .

وخرج الركب يوم السبت تاسع شوال وأميره سيف الدين بلطى ، وقاضيه شهاب الدين القيمرى وفى الحجاج زوجة ملك الأمراء تنكز ، وفى خدمتها الطواشى شبل الدولة وصدر الدين المالكى ، وصـلاح الدين ابن أخى الصاحب تقى الدين توبة ، وأخوه شرف الدين ، والشيخ عـلى المغربى ، والشيخ عبد الله الضرير وجماعة .

وفى بكرة الأربعاء ثالث شوال جلس القاضى ضياء الدين على بن سليم بن ربيعة للحكم بالعادلية الـكبيرة نيـابة عن قاضى القضاة القونوى ، وعوضـاً عن الفخر المصرى بحـكم نزوله عن ذلك وإعراضه عنـه تاسع عشر رمضان من هـذه السنة . وفى يوم الجمـعة سادس ذى القعدة بعد أذان الجمعة صعد إلى منبر جامع الحاكم بمصر شخص من مماليك الجاولى يقال له أرصى ، فادعى أنه المهدى وسجع سجعات يسيرة على رأى الكهان ، فأنزل فى شرخيبة ، وذلك قبل حضور الخطيب بالجامع المذكور . وفى ذى القعدة وما قبله وما بعده من أواخر هذه السنة وأوائل الأخرى وسعت الطرقات والأسواق داخل دمشق وخارجها ، مثل سوق السلاح والرصيف والسوق الكبير وباب البريد ومسجد القصب إلى الزنجبيلية ، وخارج باب الجابية إلى مسجد الدبان ، وغير ذلك من الأماكن التى كانت تضيق عن سلوك الناس ، وذلك بأمر تنكز ، وأمر باصلاح القنوات ، واستراح الناس من ترتيش الماء عليهم بالنجاسات . ثم فى العشر الأخير من ذى الحجـة رسم بقتل الـكلاب فقتل منهم شىء كثير جداً ، ثم جمعوا خارج باب الصغير مما يلى باب كيسان فى الخنـدق ، وفرق بين الذكور منهم والاناث ليموتوا سريعا ، ولا يتوالدوا ، وكانت الجيف والميتات تنقل إليهم فاستراح الناس من النجاسة من الماء والـكلاب ، وتوسعت لهم الطرقات .

وفى يوم الجمعة ثانى عشر ذى الحجة حضر مشيخة الشيوخ بالسمساطية قاضى القضاة شرف الدين المالكى بعد وفاة قاضى القضاة القونوى الشافعى ، وقرىء تقليده بالسبحة بها وحضره الأعيان وأعيد إلى ما كان عليه .

وممن توفى فيها من الأعيان

﴿ الشيخ الامام العالم الزاهد مفتى المسلمين ﴾

نجم الدين أبو عبد الله محمـد بن عقيل بن أبى الحسن بن عقيـل البالسى الشافعى ، شارح التنبيه ، ولد سنة ستين وستمائة ، وسمع الحديث واشـتغل بالفقه وغيره من فنون العلم ، فبرع فيها

ولازم ابن دقيق العيد وناب عنه فى الحكم ، ودرس بالمغربية والطيبرسية وجامع مصر ، وكان مشهورا بالفضيلة والديانة وملازمة الاشتغال . توفى ليلة الخميس رابع عشر المحرم ودفن بالقرافة ، وكانت جنازته حافلة ، رحمه الله .

﴿ الأمير سيف الدين قطلوبك التشنكير الرومى ﴾

كان من أكابر الأمراء وولى الحجوبية فى وقت ، وهو الذى عمر القناة بالقدس ، توفى يوم الاثنين سابع ربيع الأول ودفن بتربته شمال باب الفراديس ، وهى مشهورة حسنة ، وحضر جنازته بسوق الخيل النائب والأمراء . ﴿ محدث اليمن ﴾

شرف الدين أحمد بن فقيه زبيد أبى الحسين بن منصور الشماخى المذحجى ، روى عن المكيين وغيرهم ، وبلغت شيوخه خمسمائة أو أزيد ، وكان رحلة تلك البلاد ومفيدها الخير ، وكان فاضلا فى صناعة الحديث والفقه وغير ذلك ، توفى فى ربيع الأول من هذه السنة .

﴿ نجم الدين أبو الحسن ﴾

على بن محمد بن عمر بن عبد الرحمن بن عبد الواحد أبو محمد بن المسلم أحد رؤساء دمشق المشهورين ، له بيت كبير ونسب عريق ، ورياسة باذخة وكرم زائد ، باشر نظر الأيتام مدة ، وسمع الكثير وحدث ، وكانت لديه فضائل وفوائد ، وله الثروة الكثيرة ، ولد سنة تسع وأربعين وستمائة ، ومات يوم الاثنين ضحوة خامس ربيع الآخر ، وصلى عليه بعد الظهر بالأموى ، ودفن بسفح قاسيون بتربة أعدها لنفسه ، وقبران عنده ، وكتب على قبره (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا) الآية ، وسمعنا عليه الموطأ وغيره .

﴿ الامير بكتمر الحاجب ﴾

صاحب الحمام المشهور خارج باب النصر فى طريق مقابر الصوفية من ناحية الميدان ، كانت وفاته بالقاهرة فى عشرين ربيع الآخر ، ودفن بمدرسته التى أنشأها إلى جانب داره هناك .

﴿ الشيخ شرف الدين عيسى بن محمد بن قراجا بن سليمان ﴾

السهروردى الصوفى الواعظ ، له شعر ومعرفة بالألحان والأنغام ، ومن شعره قوله :

بشراك يا سعد هذا الحى قد بانا * فحلها سيبطل الابل والبانا [1]
منازل ما وردنا طيب منزلها * حتى شربنا كؤس الموت أحيانا
متناغراما وشوقا فى المسير لها * فمنذوا فى نسيم القرب أحيانا

توفى فى ربيع الآخر .

---

(١) كذا فى الاصل . وليحرر .

﴿ شيخنا العالم العلامة برهان الدين الفزارى ﴾

هو الشيخ الامام العالم العلامة شيخ المذهب وعلمه ومفيد أهله ، شيخ الاسـلام مفتى الفرق بقية السلف برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم ابن الشيخ العلامة تاج الدين أبى محمد عبد الرحمن ابن الشيخ الامام المقرى المفتى برهان الدين أبى إسحاق إبراهيم بن سباع بن ضياء الفزارى المصرى الشافعى ، ولد فى ربيع الأول سنة ستين وستمائة ، وسمع الحديث واشتغل على أبيه وأعاد فى حلقته وبرع وساد أقرانه ، وسائر أهل زمانه من أهـل مذهبه فى دراية المذهب ونقله وتحـريره ، ثم كان فى منصب أبيـه فى التدريس بالبادرائية ، وأشـغل الطلبة بالجامع الأموى فانتفع به المسلمون ، وقـد عرضت عليـه المناصب الـكبار فأباها ، فمن ذلك أنه باشر الخطابة بعـد عمه العلامة شرف الدين مدة ثم تركها وعاد إلى البادرائية ، وعرض عليه قضاء قضاة الشام بعد ابن صصرى وألح نائب الشام عليه بنفسه وأعوانه من الدولة فلم يقبل ، وصمم وامتنع أشد الامتناع ، وكان مقبلا عـلى شأنه عارفاً بزمانه مستغرقا أوقاته فى الاشتغال والعبادة ليلا ونهارا ، كثير المطالعة وإسماع الحديث ، وقد سمعنا عليه صحيح مسلم وغيره ، وكان يدرس بالمدرسة المذكورة ، وله تعليق كثير على التنبيه ، فيه من الفوائد ما ليس يوجد فى غيره ، وله تعليق على مختصر ابن الحاجب فى أصول الفقه ، وله مصنفات فى غير ذلك كبار . وبالجملة فلم أر شافعيا من مشايخنا مثله ، وكان حسن الشكل عليـه البهاء والجلالة والوقار ، حسن الأخلاق ، فيه حدة ثم يعود قريبا ، وكرمه زائد وإحسانه إلى الطلبة كثير ، وكان لا يقتنى شيئا ويصرف مرتبه وجامكية مدرسته فى مصالحه ، وقد درس بالبادرائية من سنة سبعين وستمائة إلى عامه هذا ، توفى بكرة يوم الجمعة سـابع جمادى الاولى بالمدرسة المذكورة ، وصلى عليه عقب الجمعة بالجامع وحملت جنازته عـلى الرؤس وأطراف الأنامل ، وكانت حافلة ، ودفن عنـد أبيه وعمه وذويه بباب الصغير رحمه الله تعالى .

﴿ الشيخ الامام العالم الزاهد الورع ﴾

مجد الدين إسماعيل الحرانى الحنبلى ، ولد سنة ثمان وأربعين وستمائة ، وقرأ القراءات وسمع الحديث فى دمشق حين انتقل مع أهله اليها سـنة إحدى وسبعين ، واشتغل على الشيخ شمس الدين بن أبى عمر ، ولازمه وانتفع به ، وبرع فى الفقه وصحة النقل وكثرة الصمت عما لا يعنيه ، ولم يزل مواظبا عـلى جهاته ووظائفه لا ينقطع عنها إلا من عذر شرعى ، إلى أن توفى ليلة الأحد تاسع جمادى الأولى ودفن بباب الصغير رحمه الله تعالى . وفى هذا الحين توفى .

﴿ الصاحب شرف الدين يعقوب بن عبد الله ﴾

الذى كان ناظر الدواوين بحلب ، ثم انتقل إلى نظرها بطرابلس . توفى بحماة ، وكان محبا للعلماء وأهل الخير ، وفيه كرم وإحسان ، وهو والد القاضى ناصر الدين كاتب السر بدمشق ، وقاضى العسا كر

الحلبية ومشيخة الشيوخ بالسمساطيـة ، ومدرس الأسـدية بحلب ، والناصرية والشاميـة الجوانية بدمشق .

﴿ القاضى معين الدين ﴾

هبة الله بن علم الدين مسعود بن أبى المعالى عبد الله بن أبى الفضل ابن الخشيشى الكاتب وناظر الجيش بمصر فى بعض الأحيـان ، ثم بدمشق مدة طويلة مستقلا ومشاركا لقطب الدين ابن شيخ السلامية ، وكان خبيراً بذلك يحفظه على ذهنه ، وكانت له يد جيدة فى العربية والأدب والحساب، وله نظم جيـد ، وفيه تودد وتواضع . توفى بمصر فى نصف جمادى الآخرة ودفن بتربة الفخر كاتب المماليك .

﴿ قاضى القضاة وشيخ الشيوخ ﴾

علاء الدين القونوى ، أبو الحسن على بن إسماعيل بن يوسف القونوى التبريزى الشافعى ، ولد بمدينة قونية فى سنة ثمان وستين وستمائة تقريبا واشتغل هناك ، وقدم دمشق سنة ثلاث وتسعين ، وهو معدود من الفضلاء فازداد بها اشتغالا ، وسمع الحديث وتصدر للاشتغال بجامعها ودرس بالاقبالية ثم سافر إلى مصر فدرس بها فى عدة مدارس كبار ، وولى مشيخة الشيوخ بهـا وبدمشق ، ولم يزل يشتغل بها وينفع الطلبة إلى أن قدم دمشـق قاضيا عليها فى سـنة سـبع وعشرين ، وله تصانيف فى الفقه وغيره ، وكان يحرز علوما كثيرة منها النحو والتصريف والأصلان والفقه ، وله معرفة جيدة بكشاف الزمخشرى ، وفهم الحديث ، وفيـه إنصاف كثير وأوصاف حسنة ، وتعظيم لأهل العـلم ، وخرجت له مشيخة سمعناها عليـه ، وكان يتواضع لشيخنا المزى كثيراً ، توفى ببستانه بالسهم يوم سبت بعد العصر رابع عشر ذى القعدة ، وصلى عليه من الغد ، ودفن بسفح قاسيون سامحه الله .

﴿ الامير حسام الدين لاجين المنصورى الحسامى ﴾

ويعرف بلاجين الصغير ، ولى البر بدمشق مدة ، ثم نيابة غزة ثم نيابة البيرة ، وبها مات فى ذى القعدة ، ودفن هناك ، وكان ابتنى تربة لزوجتـه ظاهر باب شرقى فلم يتفق دفنه بها (وماتدرى نفس بأى أرض تموت) .

﴿ الصاحب عز الدين أبو يعلى ﴾

حمزة بن مؤيد الدين أبى المعالى أسـعد بن عز الدين أبى غالب المظفر ابن الوزير مؤيد الدين أبى المعالى بن أسعد بن العميد أبى يعلى بن حمزة بن أسـد بن على بن محمـد التميمى الدمشقى ابن القلانسى ، أحد رؤساء دمشق الـكبار ، ولد سنة تسع وأربعين وستمائة ، وسمع الحديث من جماعة ، ورواه وسمعنا عليه ، وله رياسة باذخة وأصالة كثيرة وأملاك هائلة كافية لما يحتاج إليه من أمور الدنيا ولم يزل معه صناعة للوظائف إلى أن ألزم بوكالة بيت السلطان ثم بالوزارة فى سنة عشرة كما تقدم ثم عزل ، وقدصودر فى بعض الأحيان ، وكانت له مكارم على الخواص والـكبار ، وله إحسان إلى الفقراء والمحتاجين . ولم يزل معظما وجيها عند الدولة من النواب والملوك والامراء وغيرهم إلى أن توفى ببستانه

ليلة السبت سادس الحجة ، وصلى عليه من الغد ودفن بتربته بسفح قاسيون ، وله فى الصالحية رباط حسن بمأذنة ، وفيه دار حديث وبر وصدقة رحمه الله .

﴿ ثم دخلت سنة ثلاثين وسبعمائة ﴾

استهلت بالأربعاء والحكام بالبلادهم المذكورون بالتى قبلها سوى الشافعى فانه توفى وولى مكانه فى رابع المحرم منها علم الدين محمد بن أبى بكر بن عيسى بن بدران السبكى الاخنائى الشافعى وقدم دمشق فى الرابع والعشرين منه صحبة نائب السلطنة تنكز ، وقد زار القدس وحضر معه تدريس التنكزية التى أنشأها بها . ولما قدم دمشق نزل بالعادلية الكبيرة على العادة ، ودرس بها وبالغزالية ، واستمر بنيابة المنفلوطى ، ثم استناب زين الدين بن المرحل ، وفى صفر باشر شرف الدين محمود بن الخطيرى شد الاوقاف وانفصل عنها نجم الدين بن الزيبق إلى ولاية نابلس . وفى ربيع الآخر شرع بترخيم الجانب الشرقى من الأموى نسبة الجانب الغربى ، وشاور ابن مراجل النائب والقاضى على جمع الفصوص من سائر الجامع فى الحائط القبلى ، فرسما له بذلك . وفى يوم الجمعة أقيمت الجمعة فى إيوان الشافعية بالمدرسة الصالحية بمصر ، وكان الذى أنشأ ذلك الأمير جمال الدين نائب الكرك ، بعد أن استفتى العلماء فى ذلك . وفى ربيع الآخر تولى القضاء بحلب شمس الدين بن النقيب عوضا عن فخر الدين بن البارزى ، توفى ، وولى شمس الدين بن مجد البعلبكى قضاء طرابلس عوضا عن ابن النقيب . وفى آخر جمادى الأولى باشر نيابة الحكم عن الاخنائى محيى الدين بن جميل عوضا عن المنفلوطى توفى .

وفى هذا الشهر وقف الأمير الوزير علاء الدين مغلطاى الناصرى مدرسة على الحنفية وفيها صوفية أيضا ، ودرس بها القاضى علاء الدين بن التركمانى ، وسكنها الفقهاء . وفى جمادى الآخرة زينت البلاد المصرية والشامية ودقت البشائر بسبب عافية السلطان من وقعة انصدعت منها يده ، وخلع على الأمراء والأطباء بمصر ، وأطلقت الحبوس . وفى جمادى الآخرة قدم على السلطان رسل من الفرنج يطلبون منه بعض البلاد الساحلية فقال لهم : لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم ، ثم سيرهم إلى بلادهم خاسئين .

وفى يوم الأحد سادس رجب حضر الدرس الذى أنشأه القاضى فخر الدين كاتب المماليك على الحنفية بمحرابهم بجامع دمشق ، ودرس به الشيخ شهاب الدين ابن قاضى الحصين ، أخو قاضى القضاة برهان الدين بن عبد الحق بالديار المصرية ، وحضر عنده القضاة والأعيان ، وانصرفوا من عنده إلى عند ابن أخيه صلاح الدين بالجوهرية ، درس بها عوضا عن حموه شمس الدين ابن الزكى نزل له عنها . وفى آخر رجب خطب بالجامع الذى أنشأه الأمير سيف الدين الماشى الحاجب ظاهر القاهرة

بالشارع . وخطب بالجامع الذى أنشأه قوصون بين جامع طولون والصالحية ، يوم الجمعة حادى عشر رمضان وحضر السلطان وأعيان الأمراء الخطبة ، خطب به يومئذ قاضى القضاة جلال الدين القزوينى الشافعى . وخلع عليه خلعة سنية ، واستقل فى خطابته بدر الدين بن شكرى .

وخرج الركب الشامى يوم السبت حادى عشر شوال وأميره سيف الدين المرساوى صهر بلبان البيرى ، وقاضيه شهاب الدين ابن المجد عبد الله مدرس الاقبالية ، ثم تولى قضاء القضاة كما سيأتى ، وممن حج فى هذه السنة رضى الدين بن المنطيقى ، والشمس الأردبيلى شيخ الجاروضية وصفى الدين ابن الحريرى ، وشمس الدين ابن خطيب بيروذ ، والشيخ محمد النير بانى وغيرهم ، فلما قضوا مناسكهم رجعوا إلى مكة لطواف الوداع . فبينماهم فى سماع الخطبة إذ سمعوا جلبة الخيل من بنى حسن وعبيدهم ، قدحطموا على الناس فى المسجد الحرام ، فثار إلى قتالهم الأتراك فاقتتلوا فقتل أمير من الطبلخانات بمصر ، يقال له سيف الدين جخدار وابنه خليل ، ومملوك له ، وأمير عشيرة يقال له الباجى ، وجماعة من الرجال والنساء ونهبت أموال كثيرة ، ووقعت خبطة عظيمة فى المسجد ، وتهارب الناس إلى منازلهم بأبيار الزاهر ، وما كادوا يصلون إليها وما أكملت الجمعة إلا بعد جهد ، فانا لله وإنا إليه راجعون . واجتمعت الامراء كلهم على الرجعة إلى مكة للاخذ بالثأر منهم ، ثم كروا راجعين وتبعهم العبيد حتى وصلوا إلى مخيم الحجيج ، وكادوا ينهبون الناس عامة جهرة ، وصار أهل البيت فى آخر الزمان يصدون الناس عن المسجد الحرام ، وبنو الأتراك هم الذين ينصرون الاسلام وأهله ويكفون الأذية عنهم بأنفسهم وأموالهم . كما قال تعالى (إن أولياؤه إلا المتقون)

وممن توفى فيها من الأعيان ﴿ علاء الدين ابن الأثير ﴾

كاتب السر بمصر . على بن أحمد بن سعيد بن محمد بن الاثير الحلبى الاصل ، ثم المصرى ، كانت له حرمة ووجاهة وأموال وثروة ومكانة عند السلطان ، حتى ضربه الفالج فى آخر عمره فانعزل عن الوظيفة وباشرها ابن فضل الله فى حياته .

﴿ الوزير العالم أبو القاسم ﴾

محمد بن محمد بن سهل بن محمد بن سهل الأزدى الغرناطى الأندلسى ، من بيت الرياسة والحشمة ببلاد المغرب . قدم علينا إلى دمشق فى جمادى الأولى سنة أربع وعشرين ، وهو بعزم الحج ، فسمعت بقراءته صحيح مسلم فى تسعة مجالس على الشيخ نجم الدين بن العسقلانى . قراءة صحيحة ، ثم كانت وفاته فى القاهرة فى ثانى عشرين المحرم ، وكانت له فضائل كثيرة فى الفقه والنحو والتاريخ والأصول ، وكان عالى الهمة شريف النفس محترماً ببلاده جداً ، بحيث إنه يولى الملوك ويعزلهم ، ولم يل هو مباشرة شئ ولا أهل بيته ، وإنما كان يلقب بالوزير مجازاً .

﴿ شيخنا الصالح العابد الناسك الخاشع ﴾

شمس الدين أبو عبد الله محمد بن الشيخ الصالح العابد شرف الدين أبي الحسن بن حسين بن غيلان البعلبكي الحنبلي ، إمام مسجد السلالين بدار البطيخ العتيقة ، سمع الحديث وأسمعه ، وكان يقرئ القرآن طرفي النهار ، وعليه ختمت القرآن في سنة أحد عشر وسبعمائة ، وكان من الصالحين الكبار ، والعباد الاخيار . توفي يوم السبت سادس صفر وصلى عليه بالجامع ودفن بباب الصغير . وكانت جنازته حافلة .

وفي هذا الشهر - أعني صفر - كانت وفاة والي القاهرة القديدار وله آثار غريبة ومشهورة .

﴿ بها درآص الأمير الكبير ﴾

رأس ميمنة الشام ، سيف الدين بها درآص المنصوري أكبر أمراء دمشق . وممن طال عمره في الحشمة والثروة ، وهو ممن اجتمعت فيه الآية الكريمة (زين للناس حب الشهوات من النساء) الآية . وقد كان محببا إلى العامة . وله بر وصدقة وإحسان . توفي ليلة الثلاثاء ودفن بتربته خارج باب الجابية . وهي مشهورة أيضاً .

﴿ الحجار ابن الشحنة ﴾

الشيخ الكبير المسند المعمر الرحلة شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أبي طالب بن نعمة بن حسن ابن علي بن بيان الدير مقرني ثم الصالحي الحجار المعروف بابن الشحنة ، سمع البخاري على الزبيدي سنة ثلاثين وستمائة بقاسيون . وإنما ظهر سماعه سنة ست وسبعمائة ففرح بذلك المحدثون وأكثروا السماع عليه ، فقرئ البخاري عليه نحواً من ستين مرة وغيره ، وسمعنا عليه بدار الحديث الاشرفية في أيام الشتويات نحواً من خمسمائة جزء بالاجازات والسماع . وسماعه من الزبيدي وابن اللتي ، وله إجازة من بغداد فيها مائة وثمانية وثلاثون شيخا من العوالي المسندين ، وقد مكث مدة مقدم الحجارين نحواً من خمس وعشرين سنة ، ثم كان يخيط في آخر عمره . واستقرت عليه جامكيته لما اشتغل باسماع الحديث ، وقد سمع عليه السلطان الملك الناصر ، وخلع عليه وألبسه الخلعة بيده . وسمع عليه من أهل الديار المصرية والشامية أمم لايحصون كثرة ، وانتفع الناس بذلك . وكان شيخا حسنا بهي المنظر سليم الصدر ممتعا بحواسه وقواه ، فانه عاش مائة سنة محققا ، وزاد عليها ، لأنه سمع البخاري من الزبيدي في سنة ثلاثين وستمائة وأسمعه هو في سنة ثلاثين وسبعمائة في تاسع صفر بجامع دمشق . وسمعنا عليه يومئذ ولله الحمد ، ويقال إنه أدرك موت المعظم عيسى بن العادل لما توفي . والناس يسمعهم يقولون مات المعظم . وقد كانت وفاة المعظم في سنة أربع وعشرين وستمائة ، وتوفي الحجار يوم الاثنين خامس عشرين صفر من هذه السنة ، وصلى عليه بالمظفري يوم الثلاثاء ودفن بتربة له عند زاوية الدومي ، بجوار جامع الافرم . وكانت جنازته حافلة رحمه الله .

﴿ الشيخ نجم الدين بن عبد الرحيم بن عبد الرحمن ﴾

أبى نصر المحصل المعروف بابن الشحام ، اشتغل ببلده ثم سافر وأقام بمدينة سراى من مملكة إربل ، ثم قدم دمشق فى سنة أربع وعشرين فدرس بالظاهرية البرانية ثم بالجاروضية ، وأضيف إليه مشيخة رباط القصر ، ثم نزل عن ذلك لزوج ابنته نور الدين الأردبيلى ، توفى فى ربيع الأول وكان يعرف طرفا من الفقه والطب .

﴿ الشيخ إبراهيم الهدمة ﴾

أصله كردى من بلاد المشرق ، فقدم الشام ، وأقام بين القدس والخليل ، فى أرض كانت مواتا فأحياها وغرسها وزرع فيها أنواعا ، وكان يقصد للزيارة ، ويحكى الناس عنه كرامات صالحة ، وقد بلغ مائة سنة ، وتزوج فى آخر عمره ورزق أولادا صالحين ، توفى فى جمادى الآخرة رحمه الله .

الست صاحبة التربة بباب الخواصين الخوندة المعظمة المحجبة المحترمة :

﴿ ستيته بنت الأمير سيف الدين ﴾

كركاى المنصورى ، زوجة نائب الشام تنكز ، توفيت بدار الذهب وصلى عليها بالجامع ثالث رجب ، ودفنت بالتربة التى أمرت بانشائها بباب الخواصين ، وفيها مسجد وإلى جانبها رباط للنساء ومكتب للايتام . وفيها صدقات وبر وصلات ، وقراء عليها ، كل ذلك أمرت به ، وكانت قد حجت فى العام الماضى رحمها الله .

﴿ قاضى قضاة طرابلس ﴾

شمس الدين محمد بن عيسى بن محمود البعلبكى المعروف بابن المجد الشافعى ، اشتغل ببلده وبرع فى فنون كثيرة ، وأقام بدمشق مدة يدرس بالقوصية وبالجامع ، ويؤم بمدرسة أم الصالح ، ثم انتقل إلى قضاء طرابلس فأقام بها أربعة أشهر ، ثم توفى فى سادس رمضان وتولاها بعده ولده تقى الدين وهو أحد الفضلاء المشهورين ، ولم تطل مدته حتى عزل عنها وأخرج منها .

﴿ الشيخ الصالح ﴾

عبد الله بن أبى القاسم بن يوسف بن أبى القاسم الحورانى ، شيخ طائفتهم وإليه مرجع زاويتهم بحوران ، كان عنده تفقه بعض شىء ، وزهادة وبزار ، وله أصحاب يخدمونه ، وبلغ السبعين سنة ، وخرج لتوديع بعض أهله إلى ناحية الكرك من ناحية الحجاز فأدركه الموت هنالك ، فمات فى أول ذى القعدة .

﴿ الشيخ حسن بن على ﴾

ابن أحمد الانصارى الضرير كان بفرد عين أولا ، ثم عمى جملة، وكان يقرأ القرآن ويكثر التلاوة ثم انقطع إلى المنارة الشرقية ، وكان يحضر السماعات ويستمع ويتواجد ، ولكثير من الناس فيه اعتقاد على ذلك ، ولمجاورته فى الجامع وكثرة تلاوته وصلاته والله يسامحه ، توفى يوم السبت فى العشر

الأول من ذى الحجة بالمأذنة الشرقية ، وصلى عليه بالجامع ، ودفن بباب الصغير .

﴿ محيي الدين أبو الثناء محمود ﴾

ابن الصدر شرف الدين القلانسى ، توفى فى ذى الحجة ببستانه ، ودفن بتربتهم بسفح قاسيون وهو جد الصدر جلال الدين بن القلانسى ، وأخيه علاء ، وهم ثلاثتهم رؤساء .

﴿ الشاب الرئيس ﴾

صلاح الدين يوسف بن القاضى قطب الدين موسى ابن شيخ السلامية ، ناظر الجيش أبوه ، نشأ هذا الشاب فى نعمة وحشمة وترفه وعشرة واجتماع بالأصحاب ، توفى يوم السبت تاسع عشرين ذى الحجة فاستراح من حشمته وعشرته إن لم تكن وبالا عليه ، ودفن بتربتهم تجاه الناصرية بالسفح ، وتأسف عليه أبواه ومعارفه وأصحابه سامحه الله .

﴿ ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة ﴾

استهلت والحكام هم المذكورون فى التى قبلها ، وقد ذكرنا ما كان من عبيد مكة إلى الحجاج ، وأنه قتل من المصريين أميران ، فلما بلغ الخبر السلطان عظم عليه ذلك ، وامتنع من الا كل على السماط فيما يقال أياما ، ثم جرد ستمائة فارس وقيل ألفا ، والاول أصح ، وأرسل إلى الشام أن يجرد مقدما آخر ، فجرد الأمير سيف الدين الجى بغا العادلى . وخرج من دمشق يوم دخلها الركب فى سادس عشرين المحرم ، وأمر أن يسير إلى إيلة ليجتمع مع المصريين ، وأن يسيروا جميعا إلى الحجاز .

وفى يوم الأربعاء تاسع صفر وصل نهر الساجور إلى مدينة حلب ، وخرج نائب حلب أرغون ومعه الامراء مشاة إليه فى تهليل وتكبير وتحميد ، يتلقون هذا النهر ، ولم يكن أحد من المعالى ولا غيرهم أن يتكلم بغير ذكر الله تعالى ، وفرح الناس بوصوله إليهم فرحا شديدا ، وكانوا قد وسعوا فى تحصيله من أماكن بعيدة احتاجوا فيها إلى نقب الجبال ، وفيها صخور ضخام وعقدوا له قناطر على الأودية ، وماوصل إلا بعد جهد جهيد ، وأمر شديد ، فلله الحمد وحده لاشريك له . وحين رجع نائب حلب أرغون مرض مرضا شديداً ومات رحمه الله .

وفى سابع صفر وسع تنكز الطرقات بالشام ظاهر باب الجابية ، وخرب كل ما يضيق الطرقات . وفى ثانى ربيع الاول لبس علاء الدين القلانسى خلعة سنية لمباشرة نظر الدواوين ديوان ملك الأمراء ، وديوان نظر المارستان ، عوضا عن ابن العادل ، ورجع ابن العادل إلى حجابة الديوان الكبير . وفى يوم ثانى ربيع الاول لبس عماد الدين ابن الشيرازى خلعة نظر الأموى عوضا عن ابن مراجل عزل عنه لا إلى بدل عنه ، وباشر جمال الدين بن القويرة نظر الأسرى بدلا عن ابن الشيرازى . وفى يوم الخميس آخر ربيع الاول لبس القاضى شرف الدين بن عبد الله بن شرف الدين

حسن ابن الحافظ أبي موسى عبد الله ابن الحافظ عبد الغنى المقدسي خلعة قضاء الحنابلة عوضا عن عز الدين بن التقى سليمان ، توفى رحمه الله ، وركب من دار السعادة إلى الجامع، فقرئ تقليده تحت النسر بحضرة القضاة والأعيان ، ثم ذهب إلى الجوزية فحكم بها ، ثم إلى الصالحية وهو لابس الخلعة ، واستناب يومئذ ابن أخيه التقى عبدالله بن شهاب الدين أحمد . وفى سلخ ربيع الآخر اجتاز الأمير علاء الدين الطنبغا بدمشق وهو ذاهب إلى بلاد حلب نائبا عليها ، عوضاً عن أرغون توفى إلى رحمة الله ، وقد تلقاه النائب والجيش . وفى مستهل جمادى الأولى حضر الأمير الشريف رميثة بن أبى نمى إلى مكة ، فقرئ تقليده بامرة مكة من جهة السلطان ، صحبة التجريدة ، وخلع عليه وبايعه الأمراء المجردون من مصر والشام داخل الكعبة ، وقد كان وصول التجاريد إلى مكة فى سابع ربيع الأول ، فأقاموا بباب المعلى ، وحصل لهم خير كثير من الصلاة والطواف ، وكانت الأسعار رخيصة معهم .

وفى يوم السبت سابع ربيع الآخر خلع على القاضى عز الدين بن بدر الدين بن جماعة بوكالة السلطان ونظر جامع طولون ونظر الناصرية ، وهنأه الناس عوضاً عن التاج ابن إسحاق عبد الوهاب ، توفى ودفن بالقرافة . وفى هذا الشهر تولى عماد الدين ابن قاضى القضاة الاخنائى تدريس الصارمية وهو صغير بعد وفاة النجم هاشم بن عبد الله البعلبكى الشافعى ، وحضرها فى رجب وحضر عنده الناس خدمة لأبيه ، وفى حادى عشرين جمادى الآخرة رجعت التجريدة من الحجاز صحبة الأمير سيف الدين الحى بغا ، وكانت غيبتهم خمسة أشهر وأياما وأقاموا بمكة شهرا واحدا ويوما واحدا وحصل للعرب منهم رعب شديد ، وخوف أكيد ، وعزلوا عن مكة عطية وولوا أخاه رميثة وصلوا وطافوا واعتمروا ، ومنهم من أقام هناك ليحج . وفى ثانى رجب خلع على ابن أبى الطيب بنظر ديوان بيت المال عوضاً عن ابن الصاين توفى .

وفى أوائل شعبان حصل بدمشق هواء شديد مزعج كسر كثيرا من الأشجار والأغصان ، وألقى بعض الحيطان والجدران ، وسكن بعد ساعة باذن الله ، فلما كان يوم تاسعه سقط برد كبار مقدار بيض الحمام ، وكسر بعض جامات الحمام . وفى شهر شعبان هذا خطب بالمدرسة المعزية على شاطىء النيل أنشأها الأمير سيف الدين طغز دمر ، أمير مجلس الناصرى ، وكان الخطيب عز الدين عبد الرحيم بن الفرات الحنفى . وفى نصف رمضان قدم الشيخ تاج الدين عمر بن على بن سالم اللخمى ابن الفاكهانى المالكى ، نزل عند القاضى الشافعى ، وسمع عليه شيئا من مصنفاته ، وخرج إلى الحج عامئذ مع الشاميين ، وزار القدس قبل وصوله إلى دمشق . وفى هذا الشهر وطىء سوق الخيل وركبت فيه حصبات كثيرة ، وعمل فيه نحو من أربعمائة نفس فى أربعة أيام حتى ساووه وأصلحوه ، وقد كان

قبل ذلك يكون فيه مياه كثيرة ، وملقات . وفيه أصلح سوق الدقيق داخل باب الجابية إلى الثابتية وسقف عليه السقوف .

وخرج الركب الشامي يوم الاثنين ثامن شوال وأميره عز الدين أيبك ، أمير علم ، وقاضيه شهاب الدين الظاهري . وممن حج فيه شهاب الدين بن جهبل وأبو النسر وابن جملة والفخر المصري والصدر المالكي وشرف الدين الكفوي الحنفي ، والبهاء ابن إمام المشهد وجلال الدين الأعيالي ناظر الأيتام ، وشمس الدين الكردي ، وفخر الدين البعلبكي ، ومجد الدين ابن أبي المجد ، وشمس الدين ابن قيم الجوزية ، وشمس الدين ابن خطيب بيرة ، وشرف الدين قاسم العجلوني ، وتاج الدين ابن الفاكهاني والشيخ عمر السلاوي ، وكاتبه إسماعيل ابن كثير ، وآخرون من سائر المذاهب ، حتى كان الشيخ بدر الدين يقول : اجتمع في ركبنا هذا أربعمائة فقيه وأربع مدارس وخانقاه ، ودارحديث ، وقد كان معنا من المفتيين ثلاثة عشر نفساً ، وكان في المصريين جماعة من الفقهاء منهم قاضي المالكية تقي الدين الأخنائي ، وفخر الدين النويري ، وشمس الدين ابن الحارثي ، ومجد الدين الأقصرائي ، وشيخ الشيوخ الشيخ محمد المرشدي . وفي ركب العراق الشيخ أحمد السروجي أشد وكان من المشاهير . وفي الشاميين الشيخ علي الواسطي صحبة ابن المرجاني ، وأمير المصريين مغلطاي الجمالي الذي كان وزيراً في وقت ، وكان إذ ذاك مريضا ، وصرنا بعين تبوك وقد أصلحت في هذه السنة ، وصينت من دوس الجمال والجمالين ، وصار ماؤها في غاية الحسن والصفاء والطيب ، وكانت وقفة الجمعة ومطرنا بالطواف ، وكانت سنة مرخصة آمنة .

وفي نصف ذي الحجة رجع تنكز من ناحية قلعة جعبر ، وكان في خدمته أكثر الجيش الشامي ، وأظهر أبهة عظيمة في تلك النواحي . وفي سادس عشر ذي الحجة وصل توقيع القاضي علاء الدين بن القلانسي بجميع جهات أخيه جمال الدين بحكم وفاته مضافا إلى جهاته ، فاجتمع له من المناصب الكبار مالم يجتمع لغيره من الرؤساء في هذه الأعصار ، فمن ذلك : وكالة بيت المال ، وقضاء العسكر وكتابة الدست ، ووكالة ملك الأمراء ، ونظر البيمارستان ، ونظر الحرمين ، ونظر ديوان السعيد ، وتدريس الأمينية والظاهرية والعصرونية وغير ذلك انتهى .

وممن توفي فيها من الأعيان

﴿ قاضي القضاة ﴾

عز الدين أبو عبد الله بن محمد بن قاضي القضاة تقي الدين سليمان بن حمزة بن أحمد بن عمر بن الشيخ أبي عمر المقدسي الحنبلي ، ولد سنة خمس وستين وستمائة ، وسمع الحديث واشتغل على والده واستنابه في أيام ولايته ، فلما ولي ابن مسلم لزم بيته يحضر درس الجوزية ودار الحديث الأشرفية بالجبل ويأوي إلى بيته ، فلما توفي ابن مسلم ولي قضاء الحنابلة بعده نحواً من أربع سنين ، وكان فيه

تواضع وتودد وقضاء لحوائج الناس ، وكانت وفاته يوم الأربعاء تاسع صفر ، وكان يوما مطيرا . ومع هذا شهد الناس جنازته ، ودفن بتربتهم رحمهم الله ، وولى بعده نائبه شرف الدين ابن الحافظ ، وقد قارب الثمانين . وفى نصف صفر توفى

﴿ الامير سيف الدين قجليس ﴾

سيف النعمة . وقد كان سمع على الحجار ووزيره بالقدس الشريف .

وفى منتصف صفر توفى ﴿ الأمير الكبير سيف الدين أرغون ﴾ بن عبد الله الدويدار الناصرى ، وقد عمل [على] نيابة مصر مدة طويلة ، ثم غضب عليه السلطان فأرسله إلى نيابة حلب ، فمكث بها مدة ثم توفى بها فى سابع عشر ربيع الأول ، ودفن بتربة اشتراها بحلب ، وقدكان عنده فهم وفقه ، وفيه ديانة واتباع للشريعة . وقد سمع البخارى على الحجار وكتبه جميعه بخطه ، وأذن له بعض العلماء فى الافتاء . وكان يميل إلى الشيخ تقى الدين ابن تيمية وهو بمصر ، توفى ولم يكمل الخمسين سنة . وكان يكره اللهو رحمه الله . ولما خرج يلتقى نهر الساجور خرج فى ذل ومسكنة . وخرج معه الأمراء كذلك مشاة فى تكبير وتهليل وتحميد ، ومنع المغانى ومن اللهو واللعب فى ذلك رحمه الله .

﴿ القاضى ضياء الدين ﴾

أبو الحسن على بن سليم بن ربيع بن سليمان الأزرعى الشافعى ، تنقل فى ولاية الأقضية بمدارس كثيرة ، مدة ستين سنة . وحكم بطرابلس وعجلون وزرع وغيرها . وحكم بدمشق نيابة عن القونوى نحواً من شهر . وكان عنده فضيلة وله نظم كثير . نظم التنبيه فى نحو ست عشرة ألف بيت . وتصحيحها فى ألف وثلثمائة بيت ، وله مدائح ومواليا وأزجال وغير ذلك . ثم كانت وفاته بالرملة يوم الجمعة ثالث عشر بن ربيع الأول عن خمس وثمانين سنة رحمه الله ، وله عدة أولاد منهم عبد الرزاق أحد الفضلاء . وهو ممن جمع بين علمى الشريعة والطبيعة .

﴿ أبو دبوس عثمان بن سعيد المغربى ﴾

تملك فى وقت بلاد قابس ثم تغلب عليه جماعة فانتزعوها منه فقصد مصر فأقام بها وأقطع إقطاعا . وكان يركب مع الجند فى زى المغاربة متقلداً سيفا ، وكان حسن الهيئة يواظب على الخدمة إلى أن توفى فى جمادى الأولى .

﴿ الامام العلامة ضياء الدين أبو العباس ﴾

أحمد بن قطب الدين محمد بن عبد الصمد بن عبد القادر السنباطى الشافعى ، مدرس الحسامية ونائب الحكم بمصر . وأعاد فى أماكن كثيرة ، وتفقه على والده ، توفى فى جمادى الآخرة وتولى الحسامية بعده ناصر الدين التبريزى .

﴿ الصدر الكبير تاج الدين الكارمى ﴾

المعروف بابن الرهايلى ، كان أكبر تجار دمشق الكارمية و بمصر ، توفى فى جمادى الآخرة ، يقال إنه خلف مائة ألف دينار غير البضائع والأثاث والأملاك .

﴿ الامام العلامة فخر الدين ﴾

عثمان بن إبراهيم بن مصطفى بن سليمان بن الماردانى التركمانى الحنفى شرح فخر الدين هذا الجامع وألقاه دروساً فى مائة كراس ، توفى فى رجب وله إحدى وسبعون سنة ، كان شجاعاً عالماً فاضلا ، وقوراً فصيحا حسن المفاكهة ، وله نظم حسن . وولى بعده المنصورية ولده تاج الدين .

﴿ تقى الدين عمر ابن الوزير شمس الدين ﴾

محمد بن عثمان بن السلعوس ، كان صغيراً لما مات أبوه تحت العقوبة ، ثم نشأ فى الخدم ثم طلبه السلطان فى آخر وقت فولاه نظر الدواوين بمصر ، فباشره يوما واحدا وحضر بين يدى السلطان يوم الخميس ، ثم خرج من عنده وقد اضطرب حاله فما وصل إلى منزله إلا فى محفة ، ومات بكرة يوم السبت سادس عشرين ذى القعدة ، وصلى عليه بجامع عمرو بن العاص ، ودفن عند والده بالقرافة وكانت جنازته حافلة .

﴿ جمال الدين أبو العباس ﴾

أحمد بن شرف الدين بن جمال الدين محمد بن أبى الفتح نصر الله بن أسد بن حمزة بن أسد بن على بن محمد التميمى الدمشقى ابن القلانسى ، قاضى العساكر ووكيل بيت المال ومدرس الامينية وغيرها حفظ التنبيه ثم المحرر للرافعى ، وكان يستحضره ، واشتغل على الشيخ تاج الدين الفزارى ، وتقدم لطلب العلم والرئاسة ، وباشر جهات كباراً ، ودرس بأماكن وتفرد فى وقته بالرياسة والبيت والمناصب الدينية والدنيوية ، وكان فيه تواضع وحسن سمت وتودد وإحسان وبر بأهل العلم والفقراء والصالحين وهو ممن أذن له فى الافتاء وكتب إنشاء ذلك وأنا حاضر على البديهة فأفاد وأجاد ، وأحسن التعبير وعظم فى عينى . توفى يوم الاثنين ثامن عشرين ذى القعدة ، ودفن بتربتهم بالسفح ، وقد سمع الحديث على جماعة من المشايخ وخرج له فخر الدين البعلبكى مشيخة سمعناها عليه رحمه الله .

﴿ ثم دخلت سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة ﴾

استهلت وحكام البلاد هم هم ، وفى أولها فتحت القيسارية التى كانت مسبك الفولاذ جوا باب الصغير حولها تنكز قيسارية ببركة . وفى يوم الاربعاء ذكر الدرس بالأمينية والظاهرية علاء الدين بن القلانسى عوضاً عن أخيه جمال الدين ، وذكر ابن أخيه أمين الدين محمد بن جمال الدين الدرس فى العصرونية ، تركها له عمه ، وحضر عندهما جماعة من الأعيان . وفى تاسع المحرم جاء إلى حمص سيل عظيم غرق بسببه خلق كثير وجم غفير ، وهلك للناس أشياء كثيرة . وممن مات فيه نحو مائتى

امرأة بحمام النائب ، كن مجتمعات على عروس أو عروسين فهلكن جميعا .

وفى صفر أمر تنكز ببياض الجدران المقابلة لسوق الخيل إلى باب الفراديس ، وأمر بتجديد خان الظاهر ، فغرم عليه نحواً من سبعين ألفا . وفى هذا الشهر وصل تابوت لاجين الصغير من البيرة فدفن بتربته خارج باب شرقى . وفى تاسع ربيع الآخر حضر الدرس بالقيمازية عماد الدين الطرسوسى الحنفى عوضا عن الشيخ رضى الدين المنطيقى ، توفى ، وحضر عنده القضاة والأعيان . وفى أول ربيع الآخر خلع على الملك الأفضل على بن الملك المؤيد صاحب حماة وولاه السلطان الملك الناصر مكان أبيه بحكم وفاته ، وركب بمصر بالعصائب والسبابة والغاشية أمامه. وفى نصف هذا الشهر سافر الشيخ شمس الدين الأصفهانى شارح المختصر ومدرس الرواحية إلى الديار المصرية على خيل البريد وفارق دمشق وأهلها واستوطن القاهرة .

وفى يوم الجمعة تاسع جمادى الآخرة خطب بالجامع الذى أنشأه الامير سيف الدين آل ملك واستقر فيه خطيبا نور الدين على بن شبيب الحنبلى . وفيه أرسل السلطان جماعة من الأمراء إلى الصعيد فأحاطوا على ستمائة رجل ممن كان يقطع الطريق فأتلف بعضهم . وفى جمادى الآخرة تولى شد الدواوين بدمشق نور الدين ابن الخشاب عوضا عن الطرقشى . وفى يوم الاربعاء حادى عشر رجب خلع على قاضى القضاة علاء الدين بن الشيخ زين الدين بن المنجا بقضاء الحنابلة عوضاً عن شرف الدين بن الحافظ ، وقرئ تقليده بالجامع ، وحضر القضاة والأعيان . وفى اليوم الثانى استناب برهان الدين الزرعى . وفى رجب باشر شمس الدين موسى بن التاج إسحاق نظر الجيوش بمصر عوضاً عن فخر الدين كاتب المماليك توفى ، وباشر النشو مكانه فى نظر الخاص ، وخلع عليه بطرحة ، فلما كان فى شعبان عزل هو وأخوه العلم ناظر الدواوين وصودروا وضربوا ضرباً عظيما ، وتولى نظر الجيش المكين بن قروينة ، ونظر الدواوين أخوه شمس الدين بن قروينة .

وفى شعبان كان عرس أنوك ، ويقال كان اسمه محمد بن السلطان الملك الناصر، على بنت الاميرسيف الدين بكتمر الساقى ، وكان جهازها بألف ألف دينار ، وذبح فى هذا العرس من الاغنام والدجاج والاوز والخيل والبقر نحو من عشرين ألفا ، وحملت خلوى بنحو ثمانية عشر ألف قنطار ، وحمل له من الشمع ثلاثة آلاف قنطار ، قاله الشيخ أبو بكر ، وكان هذا العرس ليلة الجمعة حادى عشر شعبان وفى شعبان هذا حول القاضى محى الدين بن فضل الله من كتابة السر بمصر إلى كتابة السر بالشام ، ونقل شرف بن شمس الدين بن الشهاب محمود إلى كتابة السر بمصر ، وأقيمت الجمعة بالشامية البرانية فى خامس عشر شعبان ، وحضرها القضاة والامراء ، وخطب بها الشيخ زين الدين عبد النور المغربى وذلك باشارة الاميرحسام الدين اليشمقدار الحاجب بالشام ، ثم خطب عنه كمال الدين بن الزكى ، وفيه

أمر نائب السلطنة بتبييض البيوت من سوق الخيل إلى ميدان الحصاء، ففعل ذلك . وفيه زادت الفرات زيادة عظيمة لم يسمع بمثلها ، واستمرت نحوا من اثنى عشر يوماً فأتلفت بالرحبة أموالا كثيرة ، وكسرت الجسر الذى عند دير بسر ، وغلت الاسعار هناك فشرعوا فى إصلاح الجسر ، ثم انكسر مرة ثانية .

وفى يوم السبت تاسع شوال خرج الركب الشامى وأميره سيف الدين أوزان ، وقاضيه جمال الدين ابن الشريشى ، وهو قاضى حمص الآن ، وحج السلطان فى هذه السنة وصحبته قاضى القضاة القزوينى وعز الدين بن جماعة ، وموفق الدين الحنبلى ، وسبعون أميراً . وفى ليلة الخميس حادى عشرين شوال رسم على الصاحب عز الدين غبريال بالمدرسة النجيبية الجوانية ، وصودر وأخذت منه أموال كثيرة ، وأفرج عنه فى المحرم من السنة الآتية .

وممن توفى فيها من الأعيان :

﴿ الشيخ عبد الرحمن بن أبى محمد بن محمد ﴾

ابن سلطان القرامذى ، أحد المشاهير بالعبادة والزهادة وملازمة الجامع الأموى ، وكثرة التلاوة والذكر ، وله أصحاب يجلسون إليه ، وله مع هذا ثروة وأملاك ، توفى فى مستهل المحرم عن خمس أوست وثمانين سنة ، ودفن بباب الصغير ، وكان قد سمع الحديث واشتغل بالعلم ثم ترك ذلك واشتغل بالعبادة إلى أن مات .

﴿ الملك المؤيد صاحب حماة ﴾

عماد الدين إسماعيل بن الملك الأفضل نور الدين على بن الملك المظفر تقى الدين محمود بن الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، كانت له فضائل كثيرة فى علوم متعددة من الفقه والهيئة والطب وغير ذلك ، وله مصنفات عديدة، منها تاريخ حافل فى مجلدين كبيرين ، وله نظم الحاوى وغير ذلك ، وكان يحب العلماء ويشاركهم فى فنون كثيرة ، وكان من فضلاء بنى أيوب ، ولى ملك حماة من سنة إحدى وعشرين إلى هذا الحين ، وكان الملك الناصر يكرمه ويعظمه ، وولى بعده ولده الافضل على ، توفى فى سحر يوم الخميس ثامن عشرين المحرم ، ودفن ضحوة عند والديه بظاهر حماة .

﴿ القاضى الامام العالم المحدث ﴾

تاج الدين أبو القاسم عبد الغفار بن محمد بن عبد الكافى بن عوض بن سنان بن عبدالله السعدى الفقيه الشافعى ، سمع الكثير وخرج لنفسه معجما فى ثلاث مجلدات ، وقرأ بنفسه الكثير ، وكتب الخط الجيد ، وكان متقنا عارفا بهذا الفن ، يقال إنه كتب بخطه نحواً من خمسمائة مجلد ، وقد كان شافعيا مفتيا ، ومع هذا ناب فى وقت عن القاضى الحنبلى ، وولى مشيخة الحديث بالمدرسة الصاحبية ، وتوفى

بمصر فى مستهل ربيع الأول عن ثنتين وثمانين سنة ، رحمه الله .

﴿ الشيخ رضى الدين بن سليمان ﴾

المنطق الحنفى ، أصله من أب كرم ، من بلاد قونية ، وأقام بحماة ثم بدمشق ، ودرس بالقيمازية ، وكان فاضلا فى المنطق والجدل ، واشتغل عليه جماعة فى ذلك ، و بلغ من العمر ستا وثمانين سنة ، وحج سبع مرات ، توفى ليلة الجمعة سادس عشرين ربيع الأول ، وصلى عليه بعد الصلاة ودفن بالصوفية

وفى ربيع الاول توفى : ﴿ الامير علاء الدين طيبغا ﴾

ودفن بتربته بالصالحية . وكذلك الأمير سيف الدين زولاق ، ودفن بتربته أيضاً .

﴿ قاضى القضاة شرف الدين أبو محمد ﴾

عبد الله بن الحسن بن عبد الله بن الحافظ عبد الغنى المقدسى الحنبلى ، ولد سنة ست وأربعين وستمائة ، وباشر نيابة ابن مسلم مدة ، ثم ولى القضاء فى السنة الماضية ، ثم كانت وفاته فجأة فى مستهل جمادى الأولى ليلة الخميس ، ودفن من الغد بتربة الشيخ أبى عمر .

﴿ الشيخ ياقوت الحبشى ﴾

الشاذلى الاسكندرانى ، بلغ الثمانين ، وكان له أتباع ، وأصحاب منهم شمس الدين ابن اللبان الفقيه الشافعى ، وكان يعظمه ويطريه وينسب إليه مبالغات الله أعلم بصحتها وكذبها ، توفى فى جماد وكانت جنازته حافلة جداً .

﴿ النقيب ناصح الدين ﴾

محمد بن عبد الرحيم بن قاسم بن إسماعيل الدمشقى ، نقيب المتعممين ، تتلمذ أولا للشهاب المقرى ثم كان بعده فى المحافل العزاء والهناء ، وكان يعرف هذا الفن جيداً ، وكان كثير الطلب من الناس ويطلبه الناس لذلك ، ومع هذا مات وعليه ديون كثيرة ، توفى فى أواخر رجب .

﴿ القاضى فخر الدين كاتب المماليك ﴾

وهو محمد بن فضل الله ناظر الجيوش بمصر ، أصله قبطى فأسلم وحسن إسلامه ، وكانت له أوقاف كثيرة ، وبر وإحسان إلى أهل العلم ، وكان صدراً معظماً ، حصل له من السلطان حظ وافر ، وقد جاوز السبعين وإليه تنسب الفخرية بالقدس الشريف ، توفى فى نصف رجب واحتيط على أمواله وأملاكه بعد وفاته رحمه الله .

﴿ الامير سيف الدين الجاى الدويدار الملكى الناصرى ﴾

كان فقيها حنفيا فاضلا ، كتب بخطه ربعة وحصل كتباً كثيرة معتبرة ، وكان كثير الاحسان إلى أهل العلم ، توفى فى سلخ رجب رحمه الله .

﴿ الطبيب الماهر الحاذق الفاضل ﴾

أمين الدين سليمان بن داود بن سليمان ، كان رئيس الأطباء بدمشق ومدرسهم مدة ، ثم عزل بجمال الدين بن الشهاب الكحال مدة قبل موته لأمر تعصب عليه فيه نائب السلطنة ، توفى يوم السبت سادس عشرين شوال ودفن بالقبيبات .

﴿ الشيخ الامام العالم المقرى شيخ القراء ﴾

برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم بن عمر بن إبراهيم بن خليل الجعبرى ، ثم الخليلى الشافعى ، صاحب المصنفات الكثيرة فى القراءات وغيرها ، ولد سنة أربعين وستمائة بقلعة جعبر ، واشتغل ببغداد ، ثم قدم دمشق وأقام ببلد الخليل نحو أربعين سنة يقرىء الناس ، وشرح الشاطبية وسمع الحديث ، وكانت له إجازة من يوسف بن خليل الحافظ ، وصنف بالعربية والعروض والقراءات نظماً ونثراً ، وكان من المشايخ المشهورين بالفضائل والرياسة والخير والديانة والعفة والصيانة ، توفى يوم الأحد خامس شهر رمضان ، ودفن ببلد الخليل تحت الزيتونة ، وله ثنتان وتسعون سنة رحمه الله .

﴿ قاضى القضاة علم الدين ﴾

أبو عبد الله محمد بن القاضى شمس الدين أبى بكر بن عيسى بن بدران بن رحمه الأخنائى السعدى المصرى الشافعى الحاكم بدمشق وأعمالها ، كان عفيفا نزها ذكيا سار العبارة محبا للفضائل ، معظما لأهلها كثيرا لاسماع الحديث فى العادلية الكبيرة ، توفى يوم الجمعة ثالث عشر ذى القعدة ودفن بسفح قاسيون عند زوجته تجاه تربة العادل كتبغا من ناحية الجبل .

﴿ قطب الدين موسى ﴾

ابن أحمد بن الحسين بن شيخ السلامية ناظر الجيوش الشامية ، كانت له ثروة وأموال كثيرة ، وله فضائل و إفضال وكرم و إحسان إلى أهل الخير ، وكان مقصداً فى المهمات ، توفى يوم الثلاثاء ثانى الحجة وقد جاوز السبعين ، ودفن بتربته تجاه الناصرية بقاسيون ، وهو والد الشيخ الامام العلامة عز الدين حمزة مدرس الحنبلية .

﴿ ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة ﴾

استهلت يوم الأربعاء والحكام هم المذكورون فى التى قبلها ، وليس للشافعية قاض ، وقاضى الحنفية عماد الدين الطرسوسى ، وقاضى المالكية شرف الدين الهمدانى ، ، وقاضى الحنابلة علاء الدين ابن المنجا ، وكاتب السر محيي الدين بن فضل الله ، وناظر الجامع عماد الدين بن الشيرازى .

وفى ثانى المحرم قدم البشير بسلامة السلطان من الحجاز وباقتراب وصوله إلى البلاد ، فدقت البشائر وزينت البلد . وأخبر البشير بوفاة الأمير سيف الدين بكتمر الساقى وولده شهاب الدين

أحمد وهما راجعان فى الطريق ، بعد أن حجا قريبا من مصر : الوالد أولا ، ثم من بعده أبوه بثلاثة أيام بعيون القصب ، ثم نقلا إلى تربتهما بالقرافة ، ووجـد لبكتمر من الأموال والجواهر واللآلى والقماش والأمتعة والحواصل شىء كثير، لا يكاد ينحصر ولا ينضبط . وأفرج عن الصاحب شمس الدين غبريال فى المحرم، وطلب فى صفر إلى مصر فتوجه على خيل البريد ، واحتيط على أهله بعدمسيره وأخذت منهم أموال كثيرة لبيت المال .

وفى أواخر صفر قدم الصاحب أمين الملك على نظر الدواوين بدمشق عوضا عن غبريال ، وبعده بأربعة أيام قدم القاضى فخر الدين بن الحلى على نظر الجيش بعد وفاة قطب الدين ابن شيخ السلامية. وفى نصف ربيع الأول لبس ابن جملة خلعة القضاء للشافعية بدمشق بدار السعادة ، ثم جاء إلى الجامع وهى عليه ، وذهب إلى العادلية وقرئ تقليده بها بحضرة الأعيان ، ودرس بالعادلية والغزاليـة يوم الأربعاء ثانى عشر الشهر المذكور. وفى يوم الاثنين رابع عشرينه حضر ابن أخيه جمال الدين محمود إعادة القيمرية نزل له عنها ، ثم استنابه بعد ذلك فى المجلس، وخرج إلى العادلية فحكم بها ، ثم لم يستمر بعـد ذلك ، عزل عن النيابة بيومه ، واستناب بعده جمال الدين إبراهيم بن شمس الدين محمد بن يوسف الحسبانى ، وله همة وعنده نزاهة وخبرة بالأحكام .

وفى ربيع الأول ولى شهاب قرطاى نيابة طرابلس وعزل عنهـا طبـلان إلى نيابة غزة وتولى نائب غزة حمص ، وحصل للذى جاء بتقاليدهم مائة ألف درهم منهم . وفى ربيع الآخر أعيد القاضى محيى الدين بن فضل الله وولده إلى كتابة سر مصر، ورجع شرف الدين ابن الشهاب محمود إلى كتابة سر الشـام كما كان . وفى منتصف هـذا الشهر ولى نقابة الأشراف عماد الدين موسى الحسينى عوضا عن أخيه شرف الدين عدنان توفى فى الشهر الماضى ودفن بتربتهم عند مسجد الذبان . وفيه درس الفخر المصرى بالدولعية عوضا عن ابن جملة بحكم ولايته القضاء . وفى خامس عشرين رجب درس بالبادرائية القاضى علاء الدين على بن شريف ويعرف بابن الوحيد ، عوضا عن ابن جهبل توفى فى الشهر الماضى ، وحضر عنده القضاة والأعيان ، وكنت إذ ذاك بالقدس أنا والشيخ شمس الدين ابن عبد الهادى وآخرون ، وفيه رسم السـلطان الملك الناصر بالمنع من رمى البنـدق ، وأن لاتباع قسيها ولا تعمل ، وذلك لافساد رماة البندق أولاد الناس ، وأن الغالب عـلى من تعـاناه اللواط والفسق وقلة الدين ، ونودى بذلك فى البلاد المصرية والشامية .

قال البرزالى : وفى نصف شـعبان أمر السـلطان بتسليم المنجمين إلى والى القاهرة فضربوا وحبسوا لافسادهم حال النساء ، فمات منهم أربعة تحت العقوبة : ثلاثة من المسلمين ونصرانى ، وكتب إلى بذلك الشيخ أبو بكر الرحبى . وفى أول رمضان وصـل البريد بتولية الأمـير فخر الدين ابن

الشمس لؤلؤ ولاية البر بدمشق بعد وفاة شهاب الدين بن المرواني ، ووصل كتاب من مكة إلى دمشق في رمضان يذكر فيه أنها وقعت صواعق ببلاد الحجاز فقتلت جماعة متفرقين في أماكن شتى ، وأمطار كثيرة جداً ، وجاء البريد في رابع رمضان بتولية القاضي محيي الدين بن جميل قضاء طرابلس فذهب إليها ، ودرس ابن المجد عبد الله بالرواحية عوضاً عن الأصبهاني بحكم إقامته بمصر . وفي آخر رمضان أفرج عن الصاحب علاء الدين وأخيه شمس الدين موسى بن التاج إسحاق بعد سجنهما سنة ونصفاً .

وخرج الركب الشامي يوم الخميس عاشر شوال وأميره بدر الدين بن معبد وقاضيه علاء الدين ابن منصور مدرس الحنفية بالقدس بمدرسة تنكز ، وفي الحجاج صدر الدين المالكي ، وشهاب الدين الظهيري ، ومحيي الدين ابن الأعقف وآخرون وفي يوم الأحد ثالث عشره درس بالاتابكية ابن جملة عوضاً عن ابن جميل تولى قضاء طرابلس ، وفي يوم الأحد عشرينه حكم القاضي شمس الدين محمد بن كامل التدمري ، الذي كان في خطابة الخليل بدمشق نيابة عن ابن جملة ، وفرح الناس بدينه وفضيلته .

وفي ذي القعدة مسك تنكز دواداره ناصر الدين محمد ، وكان عنده بمكانة عظيمة جداً ، وضربه بين يديه ضربا مبرحا ، واستخلص منه أموالا كثيرة ، ثم حبسه بالقلعة ثم نفاه إلى القدس ، وضرب جماعة من أصحابه منهم علاء الدين بن مقلد حاجب العرب ، وقطع لسانه مرتين ، ومات وتغيرت الدولة وجاءت دولة أخرى مقدمها عنده حمزة الذي كان سميره وعشيره في هذه المدة الأخيرة ، وانزاحت النعمة عن الدوادار ناصر الدين وذويه ومن يليه .

وفي يوم الثلاثاء ثامن عشرين ذي القعدة ركب على الكعبة باب حديد أرسله السلطان مرصعا من السبط الأحمر كأنه آبنوس ، مركب عليه صفائح من فضة زنتها خمسة وثلاثون ألفا وثلثمائة وكسر ، وقلع الباب العتيق ، وهو من خشب الساج ، وعليه صفائح تسلمها بنو شيبة ، وكان زنتها ستين رطلا فباعوها كل درهم بدرهمين ، لأجل التبرك . وهذا خطأ وهو ربا ـ وكان ينبغي أن يبيعوها بالذهب لئلا يحصل ربا بذلك ـ وترك خشب الباب العتيق داخل الكعبة ، وعليه اسم صاحب اليمن في الفردتين ، واحدة عليها : اللهم يا ولي يا على اغفر ليوسف بن عمر بن علي .

وممن توفي فيها من الأعيان :

﴿ الشيخ العالم تقي الدين محمود على ﴾

ابن محمود بن مقبل الدقوقي أبو الثناء البغدادي محدث بغداد منذ خمسين سنة ، يقرأ لهم الحديث وقد ولي مشيخة الحديث بالمستنصرية ، وكان ضابطا محصلا بارعا ، وكان يعظ ويتكلم في الأعزية

والأهنية . وكان فرداً فى زمانه و بلاده رحمه الله ، توفى فى المحرم وله قريب السبعين سنة . وشهد جنازته خلق كثير ، ودفن بتربة الامام أحمد ، ولم يخلف درهما واحداً . وله قصيدتان رثا بهما الشيخ تقى الدين ابن تيمية كتب بهما إلى الشيخ الحافظ البرزالى رحمه الله تعالى .

﴿ الشيخ الامام العالم عز القضاة ﴾

فخر الدين أبو محمد عبد الواحد بن منصور بن محمد بن المنير المالكى الاسكندرى ، أحد الفضلاء المشهورين . له تفسير فى ست مجلدات . وقصائد فى رسول الله ﷺ حسنة . وله فى كان وكان ، وقد سمع الكثير و روى . توفى فى جماد الأولى عن ثنتين وثمانين سنة ، ودفن بالاسكندرية رحمه الله .

﴿ ابن جماعة قاضى القضاة ﴾

العالم شيخ الاسلام بدر الدين أبو عبد الله محمد بن الشيخ الامام الزاهد أبى إسحاق إبراهيم ابن سعد الله ابن جماعة بن حازم بن صخر الكنانى الحموى الأصل . ولد ليلة السبت رابع ربيع الآخر سنة تسع وثلاثين وستمائة بحماة، وسمع الحديث واشتغل بالعلم ، وحصل علوما متعددة ، وتقدم وساد أقرانه ، وباشر تدريس القيمرية ، ثم ولى الحكم والخطابة بالقدس الشريف ، ثم نقل منه إلى قضاء مصر فى الأيام الأشرفية ، ثم باشر تداريس كبارها فى ذلك الوقت ، ثم ولى قضاء الشام وجمع له معه الخطابة ومشيخة الشيوخ وتدريس العادلية وغيرها مدة طويلة . كل هذا مع الرياسة والديانة والصيانة والورع ، وكف الأذى ، وله التصانيف الفائقة النافعة . وجمع له خطبا كان يخطب بها فى طيب صوت فيها وفى قراءته فى المحراب وغيره . ثم نقل إلى قضاء الديار المصرية بعد وفاة الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد ، فلم يزل حاكما بها إلى أن أضر وكبر وضعفت أحواله،فاستقال فأقيل وتولى مكانه القزوينى ، وبقيت معه بعض الجهات ورتبت له الرواتب الكثيرة الدارة إلى أن توفى ليلة الاثنين بعد عشاء الآخرة حادى عشرين جمادى الأولى ، وقد أكمل أربعا وتسعين سنة وشهراً وأياما ، وصلى عليه من الغد قبل الظهر بالجامع الناصرى بمصر ، ودفن بالقرافة ، وكانت جنازته حافلة هائلة رحمه الله .

﴿ الشيخ الامام الفاضل مفتى المسلمين ﴾

شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محيي الدين يحيى بن تاج الدين بن إسماعيل بن طاهر بن نصر الله بن جهبل الحلبى الأصل ثم الدمشقى الشافعى ، كان من أعيان الفقهاء . ولد سنة سبعين وستمائة واشتغل بالعلم ولزم المشايخ ولازم الشيخ الصدر بن الوكيل . ودرس بالصلاحية بالقدس ، ثم تركها وتحول إلى دمشق فباشر مشيخة دار الحديث الظاهرية مدة ، ثم ولى مشيخة البادرائية فترك الظاهرية وأقام بتدريس البادرائية إلى أن مات،ولم يأخذ معلوما من واحدة منهما ، توفى يوم الخميس بعد العصر تاسع جمادى الآخرة وصلى عليه بعد الصلاة ودفن بالصوفية ، وكانت جنازته حافلة .

﴿ تاج الدين عبد الرحمن بن أيوب ﴾

مغسل الموتى فى سنة ستين وستمائة ، يقال إنه غسل ستين ألف ميت ، وتوفى فى رجب وقد جاوز الثمانين .

﴿ الشيخ فخر الدين أبو محمد ﴾

عبد الله بن محمد بن عبد العظيم ابن السقطى الشافعى ، كان مباشراً شهادة الخزانة ، وناب فى الحكم عند باب النصر ودفن بالقرافة

﴿ الامام الفاضل مجموع الفضائل ﴾

شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عبد الوهاب البكرى ، نسبة إلى أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، كان لطيف المعانى ناسخا مطيقا يكتب فى اليوم ثلاث كراريس ، وكتب البخارى ثمانى مرات ويقابله ويجلده ويبيع النسخة من ذلك بألف ونحوه ، وقد جمع تاريخا فى ثلاثين مجلداً ، وكان ينسخه ويبيعه أيضا بأزيد من ألف ، وذكر أن له كتابا سماه منتهى الأرب فى علم الأدب فى ثلاثين مجلدا أيضا ، وبالجملة كان نادراً فى وقته ، توفى يوم الجمعة عشرين رمضان رحمه الله .

﴿ الشيخ الصالح العابد الزاهد الناسك ﴾

الكثير الحج على بن الحسن بن أحمد الواسطى المشهور بالخير والصلاح ، وكثرة العبادة والتلاوة والحج ، يقال إنه حج أزيد من أربعين حجة ، وكانت عليه مهابة ولديه فضيلة ، توفى وهو محرم يوم الثلاثاء ثامن عشرين ذى القعدة ، وقد قارب الثمانين رحمه الله.

﴿ الأمير عز الدين إبراهيم بن عبد الرحمن ﴾

ابن أحمد ابن القواس ، كان مباشراً الشد فى بعض الجهات السلطانية ، وله دار حسنة بالعقبية الصغيرة ، فلما جاءت الوفاة أوصى أن تجعل مدرسة ، ووقف عليها أوقافا ، وجعل تدريسها للشيخ عماد الدين الكردى الشافعى ، توفى يوم الأربعاء عشرين الحجة .

﴿ ثم دخلت سنة أربع وثلاثين وسبعمائة ﴾

استهلت بيوم الأحد وحكام البلاد هم المذكورون فى التى قبلها . وفى يوم الجمعة ثانى ربيع الأول أقيمت الجمعة بالخاتونية البرانية ، وخطب بها شمس الدين النجار المؤذن المؤقت بالأموى ، وترك خطابة جامع القابون . وفى مستهل هذا الشهر سافر الأمير شمس الدين محمد التدمرى إلى القدس حاكما به ، وعزل عن نيابة الحكم بدمشق . وفى ثالثه قدم من مصر زين الدين عبد الرحيم ابن قاضى القضاة بدر الدين ابن جماعة بخطابة القدس ، فخلع عليه من دمشق ثم سافر إليها . وفى آخر ربيع الأول باشر الأمير ناصر الدين بن بكتاش الحسامى شد الأوقاف عوضا عن شرف الدين محمود بن الخطيرى ، سافر بأهله إلى مصر أميراً نيابة بها عن أخيه بدر الدين مسعود ، وعزل القاضى علاء الدين ابن القلانسى ، وسائر الدواوين والمباشرين الذين فى باب ملك الأمراء تنكز وصودروا بمائتى ألف

درهم ، واستدعى من غزة ناظرها جمال الدين يوسف صهر السنى المستوفى . فباشر نظر ديوان النائب ونظر المارستان النورى أيضا على العادة .

وفى شهر ربيع الأول أمر تنكز باصلاح باب توما فشرع فيه فرفع بابه عشرة أذرع،وجددت حجارته وحديده فى أسرع وقت ، وفى هذا الوقت حصل بدمشق سيل خرب بعض الجدران ثم تناقص ، وفى أوائل ربيع الآخر قدم من مصر جمال الدين آقوش نائب الكرك مجتازاً إلى طرابلس نائبها عوضا عن قرطاى ، توفى . وفى جمادى الأولى طلب القاضى شهاب الدين ابن المجد عبد الله إلى دار السعادة فولى وكالة بيت المال عوضا عن ابن القلانسى . ووصل تقليده من مصر بذلك . وهنأه الناس . وفيه طلب الامير نجم الدين ابن الزيبق من ولاية نابلس فولى شد الدواوين بدمشق ، وقدشغر منصبه شهوراً بعد ابن الخشاب . وفى رمضان خطب الشيخ بدر الدين أبو اليسر ابن الصائغ بالقدس عوضا عن زين الدين ابن جماعة لاعراضه عنها واختياره العود إلى بلده .

﴿ قضية القاضى ابن جملة ﴾

لما كان فى العشر الأخير من رمضان وقع بين القاضى ابن جملة و بين الشيخ الظهير شيخ ملك الأمراء ـ وكان هو السفير فى تولية ابن جملة القضاء ـ فوقع بينهما منافسة ومحاققة فى أموركانت بينه و بين الدوادار المتقدم ذكره ناصرالدين،فحلف كل واحد منهما على خلاف ماحلف به الآخر عليه ، وتفاصلا من دارالسعادة فى المسجد ، فلما رجع القاضى إلى منزله بالعادلية أرسل إليه الشيخ الظهير ليحكم فيه بما فيه المصلحة . وذلك عن مرسوم النائب ، وكأنه كان خديعة فى الباطن واظهارا لنصرة القاضى عليه فى الظاهر ، فبدر به القاضى بادى الرأى فعزره بين يديه ، ثم خرج من عنده فتسلمه أعوان ابن جملة فطافوا به البلد على حمار يوم الأربعاء سابع عشرين رمضان . وضربوه ضربا عنيفا ، ونادوا عليه : هذا جزاء من يكذب و يفتات على الشرع . فتألم الناس له لكونه فى الصيام . وفى العشر الأخير من رمضان ، و يوم سبع وعشرين ، وهو شيخ كبير صائم . فيقال : إنه ضرب يومئذ ألفين ومائة و إحدى وسبعين درة والله أعلم . فما أمسى حتى استفتى على القاضى المذكور وداروا على المشايخ بسبب ذلك عن مرسوم النائب . فلما كان يوم تاسع عشرين رمضان عقد نائب السلطنة بين يديه بدار السعادة مجلسا حافلا بالقضاة وأعيان المفتيين من سائر المذاهب ،وأحضر ابن جملة قاضى الشافعية والمجلس قد احتفل بأهله ، ولم يأذنوا لابن جملة فى الجلوس ، بل قام قائما ثم أجلس بعد ساعة جيدة فى طرف الحلقة ، إلى جانب المحفة التى فيها الشيخ الظهير ، وادعى عليه عند بقية القضاة أنه حكم فيه لنفسه . واعتدى عليه فى العقوبة . وأفاض الحاضرون فى ذلك ، وانتشر الكلام وفهموا من نفس النائب الحط على ابن جملة . والميل عنه بعد أن كان إليه ، فما انفصل المجلس حتى حكم القاضى

شرف الدين المالكى بفسقه وعزله وسجنه ، فانفض المجلس على ذلك ، و رسم على ابن جملة بالعذراوية ثم نقل إلى القلعة جزاء وفاقا والحمد لله وحده ، وكان له فى القضاء سنة ونصف إلا أياما ، وكان يباشر الأحكام جيدا ، وكذا الأوقاف المتعلقة به ، وفيه نزاهة وتمييز الأوقاف بين الفقهاء والفقراء ، وفيه صرامة وشهامة و إقدام ، لكنه أخطأ فى هذه الواقعة ، وتعدى فيها فآل أمره إلى هذا .

وخرج الركب يوم الاثنين عاشر شوال وأميره الجى بغا وقاضيه مجد الدين ابن حيان المصرى

وفى يوم الاثنين رابع عشرينه درس بالاقبالية الحنفية نجم الدين ابن قاضى القضاة عماد الدين الطرسوسى الحنفى عوضا عن شمس الدين محمد بن عثمان بن محمد الأصبهانى ابن العجمى الحبطى ، و يعرف بابن الحنبلى ، وكان فاضلا دينا متقشفا كثير الوسوسة فى الماء جدا ، وأما المدرس مكانه وهو نجم الدين بن الحنفى فانه ابن خمس عشرة سنة ، وهو فى النباهة والفهم ، وحسن الاشتغال والشكل والوقار ، بحيث غبط الحاضرون كلهم أباه على ذلك ، ولهذا آل أمره أن تولى قضاء القضاة فى حياة أبيه ، نزل له عنه وحمدت سيرته وأحكامه .

وفى هذا الشهر أثبت محضر فى حق الصاحب شمس الدين غبريال المتوفى هذه السنة أنه كان يشترى أملاكا من بيت المال و يوقفها و يتصرف فيها تصرف الملاك لنفسه ، وشهد بذلك كمال الدين الشيرازى وابن أخيه عماد الدين وعلاء الدين القلانسى وابن خاله عماد الدين القلانسى ، وعز الدين ابن المنجا ، وتقى الدين ابن مراجل ، وكمال الدين بن الغويرة ، وأثبت على القاضى برهان الدين الزرعى الحنبلى ونفذه بقية القضاة ، وامتنع المحتسب عز الدين ابن القلانسى من الشهادة فرسم عليه بالعذراوية قريبا من شهر ، ثم أفرج عنه وعزل عن الحسبة ، واستمر على نظر الخزانة .

وفى يوم الأحد ثامن عشرين ذى القعدة حملت خلعة القضاء إلى الشيخ شهاب الدين ابن المجد وكيل بيت المال يومئذ ، فلبسها و ركب إلى دار السعادة وقرىء تقليده بحضرة نائب السلطنة والقضاة ثم رجع إلى مدرسته الاقبالية فقرىء بها أيضا وحكم بين خصمين ، وكتب على أوراق السائلين ، ودرس بالعادلية والغزالية والاتابكيتين مع تدريس الاقبالية عوضا عن ابن جملة . وفى يوم الجمعة حضر الأمير حسام الدين مهنا بن عيسى وفى صحبته صاحب حماة الأفضل ، فتلقاها تنكز وأكرمهما ، وصليا الجمعة عند النائب ثم توجها إلى مصر ، فتلقاهما أعيان الأمراء وأكرم السلطان مهنا بن عيسى وأطلق له أموالا جزيلة كثيرة ، من الذهب والفضة والقماش ، وأقطعه عدة قرى ورسم له بالعود إلى أهله ، ففرح الناس بذلك ، قالوا وكان جميع ما أنعم به عليه السلطان قيمة مائة ألف دينار ، وخلع عليه وعلى أصحابه مائة وسبعين خلعة .

وفى يوم الأحد سادس الحجة حضر درس الرواحية الفخر المصرى عوضا عن قاضى القضاة

ابن المجد وحضر عنده القضاة الأربعة وأعيان الفضلاء . وفى يوم عرفة خلع على نجم الدين بن أبى الطيب بوكالة بيت المال ، عوضا عن ابن المجد ، وعلى عماد الدين ابن الشيرازى بالحسبة عوضا عن عز الدين ابن القلانسى وخرج الثلاثة من دار السعادة بالطرحات .

ومن توفى فيها من الأعيان ﴿ الشيخ الأجل التاجر الصدوق ﴾

بدر الدين لؤلؤ بن عبد الله عتيق النقيب شجاع الدين إدريس ، وكان رجلا حسنا يتجر فى الجوخ ، مات فجأة عصر يوم الخميس خامس محرم ، وخلف أولادا وثروة ، ودفن بباب الصغير ، وله بر وصدقة ومعروف ، وسمع بمسجد ابن هشام .

﴿ الصدر أمين الدين ﴾

محمد بن فخر الدين أحمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن محمد بن يوسف ابن أبى العيش الأنصارى الدمشقى بانى المسجد المشهور بالربوة ، على حافة بردى، والطهارة الحجارة إلى جانبه ، والسوق الذى هناك ، وله بجامع النيرب ميعاد . ولد سنة ثمان وخمسين وستمائة ، وسمع البخارى وحدث به ، وكان من أكابر التجار ذوى اليسار ، توفى بكرة الجمعة سادس المحرم ودفن بتربته بقاسيون رحمه الله .

﴿ الخطيب الامام العالم ﴾

عماد الدين أبو حفص عمر الخطيب ، ظهير الدين عبد الرحيم بن يحيى بن إبراهيم بن على بن جعفر ابن عبد الله بن الحسن القرشى الزهرى النابلسى ، خطيب القدس ، وقاضى نابلس مدة طويلة ، ثم جمع له بين خطابة القدس وقضائها ، وله اشتغال وفيه فضيلة، وشرح صحيح مسلم فى مجلدات ، وكان سريع الحفظ سريع الكتابة ، توفى ليلة الثلاثاء عاشر المحرم ودفن بماملا رحمه الله .

﴿ الصدر شمس الدين ﴾

محمد بن إسماعيل بن حماد التاجر بقيسارية الشرب ، كتب المنسوب وانتفع به الناس ، وولى التجار لأمانته وديانته ، وكانت له معرفة ومطالعة فى الكتب ، توفى تاسع صفر عن نحو ستين سنة . ودفن بقاسيون رحمه الله . ﴿ جمال الدين قاضى القضاة الزرعى ﴾

هو أبو الربيع سليمان ابن الخطيب مجد الدين عمر بن سالم بن عمر بن عثمان الأذرعى الشافعى ولد سنة خمس وأربعين وستمائة بأذرعات ، واشتغل بدمشق فحصل ، وناب فى الحكم بزرع مدة فعرف بالزرعى لذلك ، وإنما هو من أذرعات وأصله من بلاد المغرب ، ثم ناب بدمشق ثم انتقل إلى مصر فناب فى الحكم بها ، ثم استقل بولاية القضاء بها نحواً من سنة ، ولى قضاء الشام مدة مع مشيخة الشيوخ نحواً من سنة ، ثم عزل وبقى على مشيخة الشيوخ نحواً من سنة مع تدريس الاتابكية ، ثم تحول إلى مصر فولى بها التدريس وقضاء العسكر ، ثم توفى بها يوم الأحد سادس صفر وقد قارب

السبعين رحمه الله، وقد خرج له البرزالى مشيخة سمعناها عليه وهو بدمشق عن اثنين وعشرين شيخا.

﴿ الشيخ الامام العالم الزاهد ﴾

زين الدين أبو محمد عبد الرحمن بن محمود بن عبيدان البعلبكى الحنبلى ، أحد فضلاء الحنابلة ، ومن صنف فى الحديث والفقه والتصوف وأعمال القلوب وغـير ذلك ، كان فاضلا له أعمال كثيرة ، وقد وقعت له كائنـة فى أيام الظاهر أنه أصيب فى عقـله أو زوال فكره ، أو قد عمل عـلى الرياضة فاحترق باطنه من الجوع ، فرأى خيالات لا حقيقة لها فاعتقد أنها أمر خارجى ، و إنما هو خيال فكرى فاسد . وكانت وفاته فى نصف صفر ببعلبك، ودفن بباب سطحا ولم يكمل الستين، وصلى عليه بدمشق صلاة الغائب ، وعلى القاضى الزرعى معا .

﴿ الأمير شهاب الدين ﴾

نائب طرابلس له أوقاف وصدقات ، و بر وصلات ، توفى بطرابلس يوم الجمعة ثامن عشر صفر ودفن هناك رحمه الله .

﴿ الشيخ عبد الله بن يوسف بن أبى بكر الاسعردى الموقت ﴾

كان فاضلا فى صناعة الميقات وعلم الاصطرلاب وماجرى مجراه ، بارعا فى ذلك ،غير أنه لا ينفع به لسوء أخلاقه وشراستها ، ثم إنه ضعف بصره فسقط من قيسارية بحمى عشية السبت عاشر ربيع الأول ، ودفن بباب الصغير .

﴿ الامير سيف الدين بلبان ﴾

طرفا بن عبـد الله الناصرى ، كان من المقدمين بدمشق ، وجرت له فصول يطول ذكرها ، ثم توفى بداره عند مأذنة فيروز ليلة الأربعـاء حادى عشرين ربيع الاول ، ودفن بتربة اتخـذها إلى جانب داره ، ووقف عليها مقرئين ، و بنى عندها مسجدا بأمام و مؤذن .

﴿ شمس الدين محمد بن يحيى بن محمد ابن قاضى حران ﴾

ناظر الأوقاف بدمشق ، مات الليـلة التى مات فيها الذى قبله ، ودفن بقاسيون ، وتولى مكانه عماد الدين الشيرازى .

﴿ الشيخ الامام ذو الفنون ﴾

تاج الدين أبو حفص عمر بن عـلى بن سالم بن عبـد الله اللخمى الاسكندرانى ، المعروف بابن الفاكهانى ، ولد سنة أربع وخمسين وستمائة ، وسمع الحديث واشتغل بالفقه على مذهب مالك ، وبرع وتقدم بمعرفة النحو وغـيره ، وله مصنفات فى أشياء متفرقة ، قدم دمشق فى سنة إحـدى وثلاثين وسبعمائة فى أيام الاخنائى ، فأنزله فى دار السعادة وسمعنا عليه ومعه ، وحج من دمشق عامئذ وسمع عليه فى الطريق ، ورجع إلى بلاده ، توفى ليلة الجمعة سابع جمادى الأولى ، وصلى عليه بدمشق حين بلغهم خبر موته .

﴿ الشيخ الصالح العابد الناسك ﴾

أمين الدين أيمن بن محمد ، وكان يذكر أن اسمه محمد بن محمد إلى سبع عشر نفسا كلهم اسمه

محمد ، وقد جاور بالمدينة مدة سنين إلى أن توفى ليلة الخميس ثامن ربيع الأول ، ودفن بالبقيع وصلى عليه بدمشق صلاة الغائب .

﴿ الشيخ نجم الدين القبانى الحموى ﴾

عبد الرحمن بن الحسن بن يحيى اللخمى القبانى ، قرية من قرى أشمون الرمان ، أقام بحماة فى زاوية يزار ويلتمس دعاؤه ، وكان عابداً ورعاً زاهداً آمرا بالمعروف وناهيا عن المنكر ، حسن الطريقة إلى أن توفى بها آخر نهار الاثنين رابع عشر رجب ، عن ست وستين سنة ، وكانت جنازته حافلة هائلة جداً ، ودفن شمالى حماة ، وكان عنده فضيلة ، واشتغل على مذهب الامام أحمد بن حنبل ، وله كلام حسن يؤثر عنه رحمه الله .

﴿ الشيخ فتح الدين بن سيد الناس ﴾

الحافظ العلامة البارع ، فتح الدين بن أبى الفتح محمد بن الامام أبى عمرو محمد بن الامام الحافظ الخطيب أبى بكر محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن يحيى بن سيد الناس الربعى اليعمرى الاندلسى الاشبيلى ثم المصرى ، ولد فى العشر الأول من ذى الحجة سنة إحدى وسبعين وستمائة ، وسمع الكثير وأجازله الرواية عنهم جماعات من المشايخ ، ودخل دمشق سنة تسعين فسمع من الكندى وغيره ، واشتغل بالعلم فبرع وساد أقرانه فى علوم شتى من الحديث والفقه والنحو من العربية ، وعلم السير والتواريخ وغير ذلك من الفنون ، وقد جمع سيرة حسنة فى مجلدين ، وشرح قطعة حسنة من أول جامع الترمذى ، رأيت منها مجلداً بخطه الحسن ، وقد حرر وحبر وأفاد وأجاد ، ولم يسلم من بعض الانتقاد ، وله الشعر الرائق الفائق ، والنثر الموافق ، والبلاغة التامة ، وحسن الترصيف والتصنيف ، وجودة البديهة ، وحسن الطوية ، وله العقيدة السلفية الموضوعة على الآى والأخبار والآثار والاقتفاء بالآثار النبوية ، ويذكر عنه سوء أدب فى أشياء أخر[1] سامحه الله فيها ، وله مدائح فى رسول الله ﷺ حسان ، وكان شيخ الحديث بالظاهرية بمصر ، وخطب بجامع الخندق ، ولم يكن فى مصر فى مجموعه مثله فى حفظ الأسانيد والمتون والعلل والفقه والملح والأشعار والحكايات ، توفى فجأة يوم السبت حادى عشر شعبان ، وصلى عليه من الغد ، وكانت جنازته حافلة ، ودفن عند ابن أبى جمرة رحمه الله .

﴿ القاضى مجد الدين بن حرمى ﴾

ابن قاسم بن يوسف العامرى الفاقوسى الشافعى ، وكيل بيت المال ، ومدرس الشافعى وغيره ، كانت له همة ونهضة ، وعلت سنه وهو مع ذلك يحفظ ويشغل ويشتغل ، ويلقى الدروس من حفظه إلى أن توفى ثانى ذى الحجة ، وولى تدريس الشافعى بعده شمس الدين ابن القماح ، والقطبية بهاء الدين ابن عقيل ، والوكالة نجم الدين الاسعردى المحتسب ، وهو كان وكيل بيت الظاهر .

﴿ ثم دخلت سنة خمس وثلاثين وسبعمائة ﴾

استهلت وحكام البلاد هم المذكورون فى التى قبلها ، وناظر الجامع عز الدين ابن المنجا ، والمحتسب

(١) فى الشذرات « ويذكر عنه شئون أخر » .

عماد الدين الشيرازى وغيرهم . وفى مستهل المحرم يوم الخميس درس بأم الصالح الشيخ خطيب تبرور عوضاً عن قاضى القضاة شهاب الدين ابن المجد ، وحضر عنده القضاة والأعيان . وفى سادس المحرم رجع مهنا بن عيسى من عند السلطان فتلقاه النائب والجيش ، وعاد إلى أهله فى عز وعافية . وفيه أمر السلطان بعمارة جامع القلعة وتوسيعه ، وعمارة جامع مصر العتيق . وقدم إلى دمشق القاضى جمال الدين محمد بن عماد الدين ابن الأثير كاتب سرها عوضاً عن ابن الشهاب محمود . ووقع فى هذا الشهر والذى بعده موت كثير فى الناس بالخانوق .

وفى ربيع الأول مسك الامير نجم الدين بن الزيبق مشد الدواوين ، وصودر وبيعت خيوله وحواصله ، وتولاه بعده سيف الدين ثمر مملوك بكتمر الحاجب ، وهو مشد الزكاة . وفيه كملت عمارة حمام الأمير شمس الدين حمزه الذى تمكن عند تنكز بعد ناصر الدين الدوادار ، ثم وقعت الشناعة عليه بسبب ظلمه فى عمارة هذا الحمام فقابله النائب على ذلك وانتصف للناس منه ، وضربه بين يديه وضرب به بالبندق بيده فى وجهه ، وسائر جسده ، ثم أودعه القلعة ثم نقله إلى بحيرة طبرية فغرقه فيها ، وعزل الامير جمال الدين نائب الكرك عن نيابة طرابلس حسب سؤاله فى ذلك ، وراح إليها طيغال وقدم نائب الكرك إلى دمشق وقد رسم له بالاقامة فى سلخد ، فلما تلقاه نائب السلطنة والجيش نزل فى دار السعادة وأخذ سيفه بها ونقل إلى القلعة ، ثم نقل إلى صفت ثم إلى الاسكندرية ، ثم كان آخر العهد به .

وفى جمادى الأولى احتيط على دار الامير بكتمر الحاجب الحسامى بالقاهرة ، ونبشت وأخذ منها شىء كثير جداً ، وكان جد أولاده نائب الكرك المذكور . وفى يوم السبت تاسع جمادى الآخرة باشر حسام الدين أبو بكر ابن الأمير عز الدين أيبك التجيبى شد الأوقاف عوضا عن ابن بكتاش ، اعتقل ، وخلع على المتولى وهنأه الناس . وفى منتصف هذا الشهر علق الستر الجديد على خزانة المصحف العثمانى ، وهو من خز طوله ثمانية أذرع وعرضه أربعة أذرع ونصف ، غرم عليه أربعة آلاف وخمسمائة ، وعمل فى مدة سنة ونصف .

وخرج الركب الشامى يوم الخميس تاسع شوال وأميره علاء الدين المرسى ، وقاضيه شهاب الدين الظاهرى . وفيه رجع جيش حلب إليها وكانوا عشرة آلاف سوى من تبعهم من التركمان ، وكانوا فى بلاد أذنة وطرسوس وإياس ، وقد خربوا وقتلوا خلقا كثيرا ، ولم يعدم منهم سوى رجل واحد غرق بنهر جاهان ، ولكن كان قتل الكفار من كان عندهم من المسلمين نحواً من ألف رجل ، يوم عيد الفطر فانا لله وإنا إليه راجعون .

وفيه وقع حريق عظيم بحماة فاحترق منه أسواق كثيرة ، وأملاك وأوقاف ، وهلكت أموال لاتحصر ، وكذلك احترق أكثر مدينة إنطاكية ، فتألم المسلمون لذلك . وفى ذى الحجة خرب المسجد

الذى كان فى الطريق بين باب النصر و بين باب الجابية ، عن حكم القضاة بأمر نائب السلطنة ، و بنى غربيه مسجد حسن أحسن وأنفع من الأول .

وتوفى فيها من الأعيان ﴿ الشيخ الصالح المعمر رئيس المؤذنين بجامع دمشق ﴾

برهان الدين إبراهيم بن محمد بن أحمد بن محمد الوانى ، ولد سنة ثلاث وأربعين وستمائة ، وسمع الحديث ، وروى ، وكان حسن الصوت والشكل ، محبباً إلى العوام ، توفى يوم الخميس سادس صفر ودفن بباب الصغير ، وقام من بعده فى الرياسة ولده أمين الدين محمد الوانى المحدث المفيد ، وتوفى بعده ببضع وأربعين يوماً رحمهما الله .

﴿ الكاتب المطبق المجود المحرر ﴾

بهاء الدين محمود ابن خطيب بعلبك محيي الدين محمد بن عبد الرحيم بن عبد الوهاب السلمى ، ولد سنة ثمان وثمانين وستمائة ، واعتنى بهذه الصناعة فبرع فيها ، وتقدم على أهل زمانه قاطبة فى النسخ و بقية الأقلام ، وكان حسن الشكل طيب الأخلاق ، طيب الصوت حسن التودد ، توفى فى سلخ ربيع الأول ودفن بتربة الشيخ أبى عمر رحمه الله .

﴿ علاء الدين السنجارى ﴾

واقف دار القرآن عند باب الناطفانيين شمالى الأموى بدمشق ، على بن إسماعيل بن محمود كان أحد التجار الصدق الأخيار ، ذوى اليسار المسارعين إلى الخيرات ، توفى بالقاهرة ليلة الخميس ثالث عشر جمادى الآخرة ، ودفن عند قبر القاضى شمس الدين بن الحريرى .

﴿ العدل نجم الدين التاجر ﴾

عبد الرحيم بن أبى القاسم عبد الرحمن الرحبى بانى التربة المشهورة بالمزة ، وقد جعل لها مسجداً و وقف عليها أوقافاً دارة ، وصدقات هناك ، وكان من أخيار أبناء جنسه ، عدل مرضى عند جميع الحكام ، وترك أولاداً وأموالا جمة ، ودوراً هائلة ، و بساتين بالمزة ، وكانت وفاته يوم الأربعاء سابع عشرين جمادى الآخرة ودفن بتربته المذكورة بالمزة رحمه الله .

﴿ الشيخ الامام الحافظ قطب الدين ﴾

أبو محمد عبد الكريم بن عبد النور بن منير بن عبد الكريم بن على بن عبد الحق بن عبد الصمد بن عبد النور الحلبى الأصل ثم المصرى ، أحد مشاهير المحدثين بها ، والقائمين بحفظ الحديث وروايته وتدوينه وشرحه والكلام عليه ، ولد سنة أربع وستين وستمائة بحلب ، وقرأ القرآن بالروايات ، وسمع الحديث وقرأ الشاطبية والألفية ، وبرع فى فن الحديث ، وكان حنفى المذهب وكتب كثيرا وصنف شرحا لأكثر البخارى ، وجمع تاريخاً لمصر ولم يكملهما ، وتكلم على السيرة

التى جمعها الحافظ عبد الغنى وخرج لنفسه أربعين حـديثا متباينة الاسناد . وكان حسن الأخلاق مطرحاً للكلفة طاهر اللسان كثير المطالعة والاشتغال ، إلى أن توفى يوم الأحد سلخ رجب . ودفن من الغد مستهل شعبان عند خاله نصر المنبجى ، وخلف تسعة أولاد رحمه الله .

﴿ القاضى الامام زين الدين أبو محمد ﴾

عبد الكافى بن على بن تمام بن يوسف السبكى ، قاضى المحلة ، و والده العلامة قاضى القضاة تقى الدين السبكى الشـافعى . سمع من ابن الانماطى وابن خطيب المزة . وحدث وتوفى تاسع شـعبان . وتبعته زوجته ناصرية بنت القاضى جمال الدين إبراهيم بن الحسين السبكى ، ودفنت بالقرافة ، وقد سمعت من ابن الصابونى شيئا من سنن النسائى . وكذلك ابنتها محمدية . وقد توفيت قبلها .

﴿ تاج الدين على بن إبراهيم ﴾

ابن عبد الكريم المصرى ، و يعرف بكاتب قطلبك ، وهو والد العلامة فخر الدين شيخ الشافعية ومدرسهم فى عدةمدارس . و والده هذا لم يزل فى الخدمة والكتابة إلى أن توفى عنده بالعادلية الصغيرة ليلة الثلاثاء ثالث عشر شعبان ، وصلى عليه من الغد بالجامع ، ودفن بباب الصغير .

﴿ الشيخ الصالح عبد الكافى ﴾

و يعرف بعبيـد ابن أبى الرجال بن حسين بن سلطان بن خليفـة المنينى ، و يعرف بابن أبى الازرق . مولده فى سنة أربع وأربعين وستمائة بقريته من بلاد بعلبك ، ثم أقام بقرية منين ، وكان مشهورا بالصلاح وقرئ عليه شئ من الحديث وجاوز التسعين .

﴿ الشيخ محمد بن عبد الحق ﴾

ابن شعبان بن على الأنصارى ، المعروف بالسياح . له زاوية بسفح قاسـيون بالوادى الشمالى مشهورة به . وكان قد بلغ التسعين . وسمع الحـديث وأسمعه . وكانت له معرفة بالأمور وعنده بعض مكاشفة ، وهو رجل حسن ، توفى أواخر شوال من هذه السنة .

﴿ الأمير سلطان العرب ﴾

حسام الدين مهنا بن عيسى بن مهنا ، أمير العرب بالشام ، وهم يزعمون أنهم من سلالة جعفر بن يحيى بن خالد البرمكى . من ذرية الولد الذى جاء من العباسة أخت الرشيد فالله أعلم .

وقد كان كبير القدر محترماً عند الملوك كلهم ، بالشام ومصر والعراق . وكان دينا خيراً متحيزا للحق ، وخلف أولادا و ورثة وأموالا كثيرة ، وقد بلغ سنا عالية ، وكان يحب الشيخ تقى الدين بن تيمية حبا زائدا . هو وذريته وعربه ، وله عندهم منزلة وحرمة و إكرام . يسمعون قوله و يمتثلونه . وهو الذى نهاهم أن يغير بعضهـم على بعض . وعرفهم أن ذلك حرام ، وله فى ذلك مصنف جليل ،

وكانت وفاة مهنا هذا ببلاد سلمية فى ثامن عشر ذى القعدة ، ودفن هناك رحمه الله .

﴿ الشيخ الزاهد ﴾

فضل بن عيسى بن قنديل العجلونى الحنبلى المقيم بالمسمارية ، أصله من بلاد حبراحى ، كان متقللا من الدنيا يلبس ثيابا طوالا وعمامة هائلة ، وهى بأرخص الأثمان ، وكان يعرف تعبير الرؤيا و يقصد لذلك ، وكان لا يقبل من أحد شيئا . وقد عرضت عليه وظائف بجوامك كثيرة فلم يقبلها ، بل رضى بالرغيد الهنى من العيش الخشن إلى أن توفى فى ذى الحجة ، وله نحو تسعين سنة . ودفن بالقرب من قبر الشيخ تقى الدين بن تيمية رحمهما الله . وكانت جنازته حافلة جدا .

﴿ ثم دخلت سنة ست وثلاثين وسبعمائة ﴾

استهلت بيوم الجمعة والحكام هم المذكورون فى التى قبلها . وفى أول يوم منها ركب تنكز إلى قلعة جعبر ومعه الجيش والمناجنيق فغابوا شهراً وخمسة أيام وعادوا سالمين . وفى ثامن صفر فتحت الخانقاه التى أنشأها سيف الدين قوصون الناصرى خارج باب القرافة ، وتولى مشيختها الشيخ شمس الدين الأصبهانى المتكلم . وفى عاشر صفر خرج ابن جملة من السجن بالقلعة وجاءت الأخبار بموت ملك التتار أبى سعيد بن خربندا بن أرغون بن أبغا بن هولاكو بن تولى بن جنكزخان ، فى يوم الخميس ثانى عشر ربيع الآخر بدار السلطنة بقراباغ ، وهى منزلهم فى الشتاء ، ثم نقل إلى تربته بمدينته التى أنشأها قريبا من السلطانية مدينة أبيه . وقد كان من خيار ملوك التتار وأحسنهم طريقة وأثبتهم على السنة وأقومهم بها ، وقد عز أهل السنة بزمانه وذلت الرافضة . بخلاف دولة أبيه . ثم من بعده لم يقم للتتار قائمة . بل اختلفوا فتفرقوا شذر مذر إلى زماننا هذا . وكان القائم من بعده بالأمر ارتكاون من ذرية أبغا ، ولم يستمر له الأمر إلا قليلا .

وفى يوم الأربعاء عاشر جمادى الأولى درس بالناصرية الجوانية بدر الدين الأردبيلى عوضا عن كمال الدين ابن الشيرازى توفى ، وحضر عنده القضاة . وفيه درس بالظاهرية البرانية الشيخ الامام المقرى سيف الدين أبو بكر الحريرى عوضا عن بدر الدين الأردبيلى ، تركها لما حصلت له الناصرية الجوانية ، وبعده بيوم درس بالنجيبية كاتبه إسماعيل ابن كثير عوضاً عن الشيخ جمال الدين ابن قاضى الزبدانى تركها حين تعين له تدريس الظاهرية الجوانية ، وحضر عنده القضاة والاعيان وكان درسا حافلا أثنى عليه الحاضرون وتعجبوا من جمعه وترتيبه . وكان ذلك فى تفسير قوله تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) وانساق الكلام إلى مسألة ربا الفضل . وفى يوم الأحد رابع عشره ذكر الدرس بالظاهرية المذكورة ابن قاضى الزبدانى عوضا عن علاء الدين ابن القلانسى توفى ، وحضر عنده القضاة والأعيان ، وكان يوما مطيرا .

وفى أول جمادى الآخرة وقع غلاء شديد بديار مصر واشتد ذلك إلى شهر رمضان،وتوجه خلق كثير فى رجب إلى مكة نحواً من ألفين وخمسمائة ، منهم عز الدين ابن جماعة ، وفخر الدين النويرى وحسن السلامى ، وأبو الفتح السلامى ، وخلق . وفى رجب كملت عمارة جسر باب الفرج وعمل عليه باسورة ورسم باستمرار فتحه إلى بعد العشاء الآخرة كبقية سائر الأبواب ، وكان قبل ذلك يغلق من المغرب . وفى سلخ رجب أقيمت الجمعة بالجامع الذى أنشأه نجم الدين ابن خيلخان تجاه باب كيسان من القبلة ، وخطب فيه الشيخ الامام العلامة شمس الدين ابن قيم الجوزية . وفى ثانى شعبان باشر كتابة السر بدمشق القاضى علم الدين محمد بن قطب الدين أحمد بن مفضل ، عوضاً عن كمال الدين ابن الأثير ، عزل وراح إلى مصر . وفى يوم الأربعاء رابع رمضان ذكر الدرس بالأمينية الشيخ بهاء الدين ابن إمام المشهد عوضاً عن علاء الدين بن القلانسى . وفى العشرين منه خلع على الصدر نجم الدين بن أبى الطيب بنظر الخزانة مضافا إلى ما بيده من وكالة بيت المال ، بعد وفاة ابن القلانسى بشهور .

وخرج الركب الشامى يوم الاثنين ثامن شوال وأميره قطلودمر الخليلى . وممن حج فيه قاضى طرابلس محيى الدين بن جهبل ، والفخر المصرى ، وابن قاضى الزبدانى ، وابن العز الحنفى ، وابن غانم والسخاوى وابن قيم الجوزية ،وناصر الدين بن البربوه الحنفى ، وجاءت الأخبار بوقعة جرت بين التتار قتل فيها خلق كثير منهم ، وانتصر على باشا وسلطانه الذى كان قد أقامه ، وهو موسى كاوون على اربا كاوون وأصحابه ، فقتل هو ووزيره ابن رشيد الدولة ، وجرت خطوب كثيرة طويلة ، وضربت البشائر بدمشق .

وفى ذى القعدة خلع على ناظر الجامع الشيخ عز الدين بن المنجا بسبب إكماله البطائن فى الرواق الشمالى والغربى والشرقى ، ولم يكن قبل ذلك له بطائن . وفى يوم الأربعاء سابع الحجة ذكر الدرس بالشبلية القاضى نجم الدين ابن قاضى القضاة عماد الدين الطرسوسى الحنفى ، وهو ابن سبع عشرة سنة ، وحضر عنده القضاة والأعيان ، وشكروا من فضله ونباهته ، وفرحوا لأبيه فيه . وفيها عزل ابن النقيب عن قضاء حلب ووليها ابن خطيب جسرين ، وولى الحسبة بالقاهرة ضياء الدين يوسف بن أبى بكر بن محمد خطيب بيت الأبار ، خلع عليه السلطان . وفى ذى القعدة رسم السلطان باعتقال الخليفة المستكفى وأهله ، وأن يمنعوا من الاجتماع ، فآل أمرهم كما كان أيام الظاهر والمنصور .

وممن توفى فيها من الأعيان . ﴿ السلطان أبو سعيد ابن خربندا ﴾

وكان آخر من اجتمع شمل التتار عليه ، ثم تفرقوا من بعده .

﴿ الشيخ المعمر الرحلة ﴾

شمس الدين على بن محمد بن ممدود بن عيسى البندنيجى الصوفى ، قدم علينا من بغداد شيخا

كبيرا راويا لأشياء كثيرة ، فيها صحيح مسلم والترمذى وغير ذلك ، وعنده فوائد ، ولد سنة أربع وأربعين وستمائة ، وكان والده محدثا فأسمعه أشياء كثيرة على مشايخ عدة ، وكان موته بدمشق رابع المحرم .

﴿ قاضى قضاة بغداد ﴾

قطب الدين أبو الفضائل محمد بن عمر بن الفضل التبريزى الشافعى المعروف بالأحوس ، سمع شيئا من الحديث واشتغل بالفقه والأصول والمنطق والعربية والمعانى والبيان ، وكان بارعا فى فنون كثيرة ودرس بالمستنصرية بعد العاقولى . وفى مدارس كبار ، وكان حسن الخلق كثير الخير على الفقراء والضعفاء ، متواضعاً يكتب حسنا أيضا ، توفى فى آخر المحرم ودفن بتربة له عند داره ببغداد رحمه الله .

﴿ الأمير صارم الدين ﴾

إبراهيم بن محمد بن أبى القاسم بن أبى الزهر ، المعروف بالمغزال ، كانت له مطالعة وعنده شىء من التاريخ ، ويحاضر جيداً ، ولما توفى يوم الجمعة وقت الصلاة السادس والعشرين من المحرم دفن بتربة له عند حمام العديم .

﴿ الأمير علاء الدين مغلطاى الخازن ﴾

نائب القلعة وصاحب التربة تجاه الجامع المظفرى من الغرب ، كان رجلا جيداً ، له أوقاف وبر وصدقات ، توفى يوم الجمعة بكرة عاشر صفر ، ودفن بتربته المذكورة .

﴿ القاضى كمال الدين ﴾

أحمد بن محمد بن محمد بن عبد الله بن هبة الله بن الشيرازى الدمشقى ، ولد سنة سبعين ، وسمع الحديث وتفقه على الشيخ تاج الدين الفزارى ، والشيخ زين الدين الفارقى ، وحفظ مختصر المزنى ودرس فى وقت بالبادرائية ، وفى وقت بالشامية البرانية ، ثم ولى تدريس الناصرية الجوانية مدة سنين إلى حين وفاته ، وكان صدرا كبيرا ، ذكر لقضاء قضاة دمشق غيرمرة ، وكان حسن المباشرة والشكل ، توفى فى ثالث صفر ودفن بتربتهم بسفح قاسيون رحمه الله .

﴿ الأمير ناصر الدين ﴾

محمد بن الملك المسعود جلال الدين عبد الله بن الملك الصالح إسماعيل بن العادل ، كان شيخا مسنا قد اعتنى بصحيح البخارى يختصره ، وله فهم جيد ولديه فضيلة ، وكان يسكن المزة وبها توفى ليلة السبت خامس عشرين صفر ، وله أربع وسبعون سنة ، ودفن بتربتهم بالمزة رحمه الله .

﴿ علاء الدين ﴾

على بن شرف الدين محمد بن القلانسى قاضى العسكر ووكيل بيت المال ، وموقع الدست ، ومدرس الأمينية والظاهرية وغيرذلك من المناصب ، ثم سلبها كلها سوى التدريسين ، وبقى معزولا إلى حين أن توفى بكرة السبت خامس وعشرين صفر ، ودفن بتربتهم .

﴿ عز الدين أحمد بن الشيخ زين الدين ﴾

محمد بن أحمد بن محمود العقيلى ، و يعرف بابن القلانسى ، محتسب دمشق وناظر الخزانة ، كان محمود المباشرة ، ثم عزل عن الحسبة واستمر بالخزانة إلى أن توفى يوم الاثنين تاسع عشر جمادى الأولى ودفن بقاسيون .

﴿ الشيخ على بن أبى المجد بن شرف بن أحمد الحمصى ﴾

ثم الدمشقى مؤذن البربوة خمساً وأربعين سنة ، وله ديوان شعر وتعاليق وأشياء كثيرة مما ينكر أمرها ، وكان محلولا فى دينه ، توفى فى جمادى الأولى أيضا .

﴿ الأمير شهاب الدين بن برق ﴾

متولى دمشق ، شهد جنازته خلق كثير ، توفى ثانى شعبان ودفن بالصالحية وأثنى عليه الناس.

﴿ الأمير فخر الدين ابن الشمس لؤلؤ ﴾

متولى البر،كان مشكوراً أيضاً ، توفى رابع شعبان ، وكان شيخا كبيرا ، توفى ببستانه ببيت لهيا ودفن بتربته هناك وترك ذرية كثيرة رحمه الله .

﴿ عماد الدين إسماعيل ﴾

ابن شرف الدين محمد بن الوزير فتح الدين عبد الله بن محمد بن أحمد بن خالد بن صغير بن القيسرانى ، أحد كتاب الدست ، وكان من خيار الناس ، محببا إلى الفقراء والصالحين ، وفيه مروءة كثيرة ، وكتب بمصر ثم صار إلى حلب كاتب سرها ، ثم انتقل إلى دمشق فأقام بها إلى أن مات ليلة الأحد ثالث عشر القعدة ، وصلى عليه من الغد بجامع دمشق ، ودفن بالصوفية عن خمس وستين سنة ، وقد سمع شيئا من الحديث على الأبرقوهى وغيره .

وفى ذى القعدة توفى شهاب الدين ابن القديسة المحدث بطريق الحجاز الشريف . وفى ذى الحجة توفى الشمس محمد المؤذن المعروف بالنجار و يعرف بالبقى ، وكان يتكلم و ينشد فى المحافل ، والله سبحانه أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة سبع وثلاثين وسبعمائة ﴾

استهلت بيوم الجمعة والخليفة المستكفى بالله قد اعتقله السلطان الملك الناصر ، ومنعه من الاجتماع بالناس ، ونائب الشام تنكز بن عبد الله الناصرى، والقضاة والمباشرون هم المذكورون فى التى قبلها ، سوى كاتب السر فانه علم الدين بن القطب ، ووالى البر الأمير بدر الدين بن قطلو بك ابن شنشنكير ، ووالى المدينة حسام الدين طرقطاى الجوكندارى .

وفى أول يوم منها يوم الجمعة وصلت الأخبار بأن على باشا كسر جيشه ، وقيل إنه قتل ، ووصلت كتب الحجاج فى الثانى والعشرين من المحرم تصف مشقة كثيرة حصلت للحجاج من

موت الجمال و إلقاء الأحمال ومشى كثير من النساء والرجال ، فانا لله و إنا إليه راجعون . والحمد لله على كل حال .

وفى آخر المحرم قدم إلى دمشق القاضى حسام الدين حسن بن محمد الغورى قاضى بغداد . وكان والوزير نجم الدين محمود بن على بن شروان الكردى ، وشرف الدين عثمان بن حسن البلدى فأقاموا ثلاثة أيام ثم توجهوا إلى مصر فحصل لهم قبول تام من السلطان . فاستقضى الأول على الحنفية كما سيأتى ، واستوزر الثانى وأمر الثالث . وفى يوم عاشوراء أحضر شمس الدين محمد بن الشيخ شهاب الدين بن اللبان الفقيه الشافعى إلى مجلس الحكم الجلالى ، وحضر معه شهاب الدين بن فضل الله مجد الدين الأقصرائى شيخ الشيوخ . وشهاب الدين الأصبهانى ، فادعى عليه بأشياء منكرة من الحلول والاتحاد والغلو فى القرمطة وغير ذلك ، فأقر ببعضها فحكم عليه بحقن دمه ثم توسط فى أمره وأبقيت عليه جهاته . ومنع من الكلام على الناس . وقام فى صفه جماعة من الأمراء والأعيان . وفى صفر احترق بقصر حجاج حريق عظيم أتلف دورا ودكاكين عديدة .

وفى ربيع الأول ولد للسلطان ولد فدقت البشائر وزينت البلد أياما . وفى منتصف ربيع الآخر أمر الأمير صارم الدين إبراهيم الحاجب الساكن تجاه جامع كريم الدين طبلخاناه ، وهو من كبار أصحاب الشيخ تقى الدين رحمه الله ، وله مقاصد حسنة صالحة ، وهو فى نفسه رجل جيد . وفيه أفرج عن الخليفة المستكفى وأطلق من البرج فى حادى عشرين ربيع الآخر ولزم بيته . وفى يوم الجمعة عشرين جمادى الآخرة أقيمت الجمعة فى جامعين بمصر . أحدهما أنشأه الأمير عز الدين أيدمر بن عبد الله الخطيرى ، ومات بعد ذلك باثنى عشر يوما رحمه الله . والثانى أنشأته امرأة يقال لها الست حدق دادة السلطان الناصر عند قنطرة السباع . وفى شعبان سافر القاضى شهاب الدين أحمد بن شرف بن منصور النائب فى الحكم بدمشق إلى قضاء طرابلس ، وناب بعده الشيخ شهاب الدين أحمد بن النقيب البعلبكى . وفيه خلع على عز الدين بن جماعة بوكالة بيت المال بمصر ، وعلى ضياء الدين ابن خطيب بيت الأبار بالحسبة بالقاهرة ، مع ما بيده من نظر الأوقاف وغيره . وفيه أمر الأمير ناظر القدس بطبلخاناه ثم عاد إلى القدس .

وفى عاشر رمضان قدمت من مصر مقدمتان ألفان إلى دمشق سائرة إلى بلاد سيس . وفيهم علاء الدين ، فاجتمع به أهل العلم وهو من أفاضل الحنفية . وله مصنفات فى الحديث وغيره .

وخرج الركب الشامى يوم الاثنين عاشر شوال وأميره بهادر قبجق ، وقاضيه محيى الدين الطرابلسى مدرس الحمصية ، وفى الركب تقى الدين شيخ الشيوخ وعماد الدين ابن الشيرازى ، ونجم الدين الطرسوسى . وجمال الدين المرداوى ، وصاحبه شمس الدين ابن مفلح ، والصدر المالكى

والشرف ابن القيسرانى ، والشيخ خالد المقيم عند دار الطعم ، وجمال الدين بن الشهاب محمود .

وفى ذى القعدة وصلت الأخبار بأن الجيش تسلموا من بلاد سيس سبع قلاع ، وحصل لهم خير كثير ولله الحمد ، وفرح المسلمون بذلك . وفيه كانت وقعة هائلة بين التتار انتصر فيها الشيخ وذووه . وفيها نفى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الخليفة وأهله وذويه ، وكانوا قريبا من مائة نفس إلى بلاد قوص ، ورتب لهم هناك ما يقوم بمصالحهم ، فانا لله وإنا إليه راجعون .

ومن توفى فيها من الأعيان ﴿ الشيخ علاء الدين بن غانم ﴾

أبو الحسن على بن محمد بن سليمان بن حمائل بن على المقدسى (١) أحد الكبار المشهورين بالفضائل وحسن الترسل ، وكثرة الأدب والأشعار والمروءة التامة ، مولده سنة إحدى وخمسين وستمائة ، وسمع الحديث الكثير ، وحفظ القرآن والتنبيه ، وباشر الجهات ، وقصده الناس فى الامور المهمات وكان كثير الاحسان إلى الخاص والعام . توفى مرجعه من الحج فى منزلة تبوك يوم الخميس ثالث عشر المحرم ، ودفن هناك رحمه الله ، ثم تبعه أخوه شهاب الدين أحمد فى شهر رمضان ، وكان أصغر منه سنا بسنة ، وكان فاضلا أيضا بارعا كثير الدعابة .

﴿ الشرف محمود الحريرى ﴾

المؤذن بالجامع الأموى ، بنى حماما بالنيرب ، ومات فى آخر المحرم .

﴿ الشيخ الصالح العابد ﴾

ناصر الدين بن الشيخ إبراهيم بن معضاد بن شداد بن ماجد بن مالك الجعبرى ثم المصرى ، ولد سنة خمسين وستمائة بقلعة جعبر ، وسمع صحيح مسلم وغيره ، وكان يتكلم على الناس ويعظهم ويستحضر أشياء كثيرة من التفسير وغيره ، وكان فيه صلاح وعبادة ، توفى فى الرابع والعشرين من المحرم ، ودفن بزاويتهم عند والده خارج باب النصر .

﴿ الشيخ شهاب الدين عبد الحق الحنفى ﴾

أحمد بن على بن أحمد بن على بن يوسف بن قاضى الحنفيين ويعرف بابن عبد الحق الحنفى ، شيخ المذهب ومدرس الحنفية وغيرها ، وكان بارعا فاضلا دينا ، توفى فى ربيع الأول .

﴿ الشيخ عماد الدين ﴾

إبراهيم بن على بن عبد الرحمن بن عبد المنعم بن نعمة المقدسى النابلسى الحنبلى الامام العالم العابد شيخ الحنابلة بها وفقيههم من مدة طويلة ، توفى فى ربيع الاول .

﴿ الشيخ الامام العابد الناسك ﴾

محب الدين عبد الله بن أحمد بن المحب عبد الله بن أحمد بن أبى بكر محمد بن إبراهيم بن أحمد بن

(١) فى شذرات الذهب . « المنشى » .

عبد الرحمن بن إسماعيل بن منصور المقدسى الحنبلى ، سمع الكثير وقرأ بنفسه ، وكتب الطباق وانتفع الناس به ، وكانت له مجالس وعظ من الكتاب والسنة فى الجامع الأموى وغيره ، وله صوت طيب بالقراءة جداً ، وعليه روح وسكينة ووقار ، وكانت مواعيده مفيدة ينتفع بها الناس ، وكان شيخ الاسلام تقى الدين ابن تيمية يحبه ويحب قراءته ، توفى يوم الاثنين سابع ربيع الأول ، وكانت جنازته حافلة ، ودفن بقاسيون وشهد الناس له بخير ، رحمه الله تعالى ، وبلغ خمسا وخمسين سنة .

﴿ المحدث البارع المحصل المفيد المخرج المجيد ﴾

ناصر الدين محمد بن طغربل بن عبد الله الصيرفى أبوه ، الخوارزمى الأصل ، سمع الكثير وقرأ بنفسه ، وكان سريع القراءة ، وقرأ الكتب الكبار والصغار ، وجمع وخرج شيئا كثيراً ، وكان بارعا فى هذا الشأن ، رحل فأدركته منيته بحماة يوم السبت ثانى ربيع الأول ، ودفن من الغد بمقابر طيبة رحمه الله .

﴿ شيخنا الامام العالم العابد ﴾

شمس الدين أبو محمد عبد الله بن العفيف محمد بن الشيخ تقى الدين يوسف بن عبد المنعم بن نعمة المقدسى النابلسى الحنبلى ، إمام مسجد الحنابلة بها ، ولد سنة سبع وأربعين وستمائة ، وسمع الكثير وكان كثير العبادة حسن الصوت ، عليه البهاء والوقار وحسن الشكل والسمت ، قرأت عليه عام ثلاث وثلاثين وسبعمائة مرجعنا من القدس كثيراً من الأجزاء والفوائد ، وهو والد صاحبنا الشيخ جمال الدين يوسف أحد مفتية الحنابلة وغيرهم ، والمشهورين بالخير والصلاح ، توفى يوم الخميس ثانى عشرين ربيع الآخر ودفن هناك رحمه الله .

﴿ الشيخ محمد بن عبد الله بن المجد ﴾

إبراهيم المرشدى المقيم بمنية مرشد ، يقصده الناس للزيارة ، ويضيف الناس على حسب مراتبهم وينفق نفقات كثيرة جداً ، ولم يكن يأخذ من أحد شيئا فيما يبدو للناس ، والله أعلم بحاله ، وأصله من قرية دهروط ، وأقام بالقاهرة مدة واشتغل بها ، ويقال إنه قرأ التنبيه فى الفقه ، ثم انقطع بمنية مرشد واشتهر أمره فى الناس وحج مرات ، وكان إذا دخل القاهرة يزدحم عليه الناس ، ثم كانت وفاته يوم الخميس ثامن رمضان ودفن بزاويته ، وصلى عليه بالقاهرة ودمشق وغيرها .

﴿ الأمير أسد الدين ﴾

عبد القادر بن المغيث عبد العزيز بن الملك المعظم عيسى بن العادل ، ولد سنة ثنتين وأربعين وستمائة ، وسمع الكثير وأسمع ، وكان يأتى كل سنة من مصر إلى دمشق ويكرم أهل الحديث ، ولم يبق من بعده من بنى أيوب أعلا سنا منه ، توفى بالرملة فى سلخ رمضان رحمه الله .

﴿ الشيخ الصالح الفاضل ﴾

حسن بن إبراهيم بن حسن الحاكى الحكرى إمام مسجد هناك ، ومذكر الناس فى كل جمعة ،

ولديه فضائل ، وفى كلامه نفع كثير إلى أن توفى فى العشرين من شوال ، ولم ير الناس مثل جنازته بديار مصر رحمه الله تعالى . ﴿ ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة ﴾

استهلت بيوم الأربعاء والخليفة المستكفى منفى ببلاد قوص ، ومعه أهله وذووه ، ومن يلوذ به ، وسلطان البلاد الملك الناصر محمد بن الملك المنصور ، ولا نائب بديار مصر ولا وزير ، ونائبه بدمشق تنكز ، وقضاة البلاد ونوابها ومباشروها هم المذكورون فى التى قبلها . وفى ثالث ربيع الأول رسم السلطان بتسفير على ومحمد ابنى داود بن سليمان بن داود بن العاضد آخر خلفاء الفاطميين إلى الفيوم يقيمون به . وفى يوم الجمعة ثانى عشر ربيع الآخر عزل القاضى علم الدين بن القطب عن كتابة السر وضرب وصودر ، ونكب بسببه القاضى فخر الدين المصرى ، وعزل عن مدرسته الدولعية وأخذها ابن جملة ، والعادلية الصغيرة باشرها ابن النقيب ، ورسم عليه بالعذراوية مائة يوم ، وأخذ شىء من ماله.

وفى ليلة الأحد ثالث عشرين ربيع الأول بعد المغرب هبت ريح شديدة بمصر وأعقبها رعد وبرق وبرد بقدر الجوز ، وهذا شىء لم يشاهدوا مثله من أعصار متطاولة بتلك البلاد . وفى عاشر جمادى الأولى استهل الغيث بمكة من أول الليل ، فلما انتصف الليل جاء سيل عظيم هائل لم ير مثله من دهر طويل ، فخرب دورا كثيرة نحواً من ثلاثين أو أكثر ، وغرق جماعة وكسر أبواب المسجد ، ودخل الكعبة وارتفع فيها نحواً من ذراع أو أكثر ، وجرى أمر عظيم حكاه الشيخ عفيف الدين الطبرى . وفى سابع عشرين من جمادى الأولى عزل القاضى جلال الدين عن قضاء مصر ، واتفق وصول خبر موت قاضى الشام ابن المجد بعد أن عزل بيسير ، فولاه السلطان قضاء الشام فسار إليها راجعا عوداً على بدء ، ثم عزل السلطان برهان الدين بن عبد الحق قاضى الحنفية ، وعزل قاضى الحنابلة تقى الدين ، ورسم على ولده صدر الدين بأداء ديون الناس إليهم ، وكانت قريبا من ثلثمائة ألف ، فلما كان يوم الاثنين تاسع عشر جمادى الآخرة بعد سفر جلال الدين بخمسة أيام طلب السلطان أعيان الفقهاء إلى بين يديه فسألهم عن من يصلح للقضاء بمصر فوقع الاختيار على القاضى عز الدين ابن جماعة ، فولاه فى الساعة الراهنة ، وولى قضاء الحنفية لحسام الدين حسن بن محمد الغورى قاضى بغداد ، وخرجا من بين يديه إلى المدرسة الصالحية ، وعليهما الخلع ، ونزل عز الدين بن جماعة عن دار الحديث الكاملية لصاحبه الشيخ عماد الدين الدمياطى ، فدرس فيها وأورد حديث « إنما الأعمال بالنيات » . بسنده ، وتكلم عليه . وعزل أكثر نواب الحكم واستمر بعضهم ، واستمر بالمنادى الذى أشار بتوليته . ولما كان يوم خامس عشرين منه ولى قضاء الحنابلة الامام العالم موفق الدين أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الملك المقدسى عوضا عن المعزول ، ولم يبق من القضاة سوى الاخنائى المالكى .

وفى رمضان فتحت الصبابية التى أنشأها شمس الدين بن تقى الدين ابن الصباب التاجر دار قرآن ودار حديث ، وقد كانت خربة شنيعة قبل ذلك . وفى رمضان باشر علاء الدين على ابن القاضى محيى الدين بن فضل الله كتابة السر بمصر بعد وفاة أبيه كما سيأتى ترجمته ، وخلع عليه وعلى أخيه بدر الدين ، ورسم لهما أن يحضرا مجلس السلطان ، وذهب أخوه شهاب الدين إلى الحج .

وفى هذا الشهر سقط بالجانب الغربى من مصر بردكا لبيض وكالرمان ، فأتلف شيئا كثيراً ، ذكر ذلك البرزالى ونقله من كتاب الشهاب الدمياطى . وفى ثالث عشرين رمضان درس بالقبة المنصورية بمشيخة الحديث شهاب الدين المسجدى عوضا عن زين الدين الكنانى توفى ، فأورد حديثا من مسند الشافعى بروايته عن الجاولى بسنده ، ثم صرف عنها بالحجة بالشيخ أثيرالدين أبى حيان ، فساق حديثا عن شيخه ابن الزبير ودعا للسلطان وحضر عنده القضاة والأعيان ، وكان مجلساً حافلا . وفى ذى القعدة حضر تدريس الشامية البرانية قاضى القضاة شمس الدين ابن النقيب عوضاً عن القاضى جمال الدين ابن جملة توفى ، وحضر خلق كثير من الفقهاء والأعيان ، وكان مجلسا حافلا . وفى ثانى ذى الحجة درس بالعادلية الصغيرة تاج الدين عبد الرحيم ابن قاضى القضاة جلال الدين القزوينى عوضا عن الشيخ شمس الدين بن النقيب بحكم ولايته الشامية البرانية ، وحضر عنده القضاة والأعيان . وفى هذا الشهر درس القاضى صدر الدين بن القاضى جلال الدين بالاتابكية ، وأخوه الخطيب بدر الدين بالغزالية والعادلية نيابة عن أبيه . انتهى والله أعلم .

وممن توفى فيها من الأعيان :

﴿ الأمير الكبير بدر الدين محمد بن فخر الدين عيسى ابن التركمانى ﴾

بانى جامع المقياس بديار مصر فى أيام وزارته بها ، ثم عزل أميرا إلى الشام ، ثم رجع إلى مصر إلى أن توفى بها فى خامس ربيع الآخر ، وتوفى بالحسينية ، وكان مشكورا رحمه الله ، انتهى .

﴿ قاضى القضاة شهاب الدين ﴾

محمد بن المجد بن عبد الله بن الحسين بن على الرازى الاربلى الأصل ، ثم الدمشقى الشافعى ، قاضى الشافعية بدمشق ، ولد سنة ثنتين وستين وستمائة ، واشتغل وبرع وحصل وأفتى سنة ثلاث وتسعين ، ودرس بالاقبالية ثم الرواحية وتربة أم الصالح ، وولى وكالة بيت المال ، ثم صار قاضى قضاة الشام إلى أن توفى بمستهل جمادى الأولى بالمدرسة العادلية ، ودفن بمقابر باب الصغير رحمه الله .

﴿ الشيخ الامام العالم ﴾

زين الدين محمد بن عبد الله ابن الشيخ زين الدين عمر بن مكى بن عبد الصمد بن المرحل مدرس الشامية البرانية والعذراوية بدمشق ، وكان قبل ذلك بمشهد الحسين ، وكان فاضلا بارعا فقيها

أصوليا مناظرا ، حسن الشكل طيب الأخلاق ، دينا صينا ، وناب فى وقت بدمشق عن علم الدين الأخنائى فحمدت سيرته ، وكانت وفاته ليلة الأربعاء تاسع عشر رجب ، ودفن من الغد عند مسجد الديان فى تربة لهم هناك ، وحضر جنازته القاضى جلال الدين . وكان قد قدم من الديار المصرية له يومان فقط ، وقدم بعده القاضى برهان الدين عبد الحق بخمسة أيام ، هو وأهله وأولاده أيضا . وباشر بعده تدريس الشامية البرانية قاضى القضاة جمال الدين ابن جملة ، ثم كانت وفاته بعده بشهور ، وذلك يوم الخميس رابع عشر ذى القعدة . وهذه ترجمته فى تاريخ الشيخ علم الدين البرزالى :

﴿ الشيخ الامام العالم قاضى القضاة ﴾

جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن إبراهيم بن جملة بن مسلم بن همام بن حسين بن يوسف الصالحى الشافعى المحجى والده ، بالمدرسة السرورية وصلى عليه عقيب الظهر يوم الخميس رابع عشر ذى الحجة ، ودفن بسفح قاسيون ، ومولده فى أوائل سنة ثنتين وثمانين وستمائة ، وسمع من ابن البخارى وغيره . وحدث وكان رجلا فاضلا فى فنون ، اشتغل وحصل وأفتى وأعاد ودرس . وله فضائل جمة ومباحث وفوائد وهمة عالية وحرمة وافرة ، وفيه تودد وإحسان وقضاء للحقوق ، وولى القضاء بدمشق نيابة واستقلالا ، ودرس بمدارس كبار ، ومات وهو مدرس الشامية البرانية . وحضر جنازته خلق كثير من الأعيان رحمه الله .

﴿ الشيخ الامام العلامة شيخ الاسلام قاضى القضاة ﴾

شرف الدين أبو القاسم هبة الله ابن قاضى القضاة نجم الدين عبد الرحيم بن القاضى شمس الدين أبى الطاهر إبراهيم بن هبة الله بن مسلم بن هبة الله الجهينى الحموى ، المعروف بابن البارزى قاضى القضاة بحماة . صاحب التصانيف الكثيرة المفيدة فى الفنون العديدة ، ولد فى خامس رمضان سنة خمس وأربعين وستمائة . وسمع الكثير وحصل فنونا كثيرة . وصنف كتبا جما كثيرة ، وكان حسن الأخلاق كثير المحاضرة حسن الاعتقاد فى الصالحين ، وكان معظما عند الناس . وأذن لجماعة من البلد فى الافتاء . وعمى فى آخر عمره وهو يحكم مع ذلك مدة . ثم نزل عن المنصب لحفيده نجم الدين عبد الرحيم بن إبراهيم ، وهو فى ذلك لايقطع نظره عن المنصب . وكانت وفاته ليلة الأربعاء العشرين من ذى القعدة بعد أن صلى العشاء والوتر ، فلم تفته فريضة ولا نافلة ، وصلى عليه من الغد ودفن بعقبة نقيرين . وله من العمر ثلاث وتسعون سنة .

﴿ الشيخ الامام العالم ﴾

شهاب الدين أحمد بن البرهان شيخ الحنفية بحلب . شارح الجامع الكبير . وكان رجلا صالحا منقطعا عن الناس . وانتفع الناس به ، وكانت وفاته ليلة الجمعة الثامن والعشرين من رجب . وكانت

له معرفة بالعربية والقراءات ، ومشاركات فى علوم أخر رحمه الله ، والله أعلم .

﴿ القاضى محيى الدين بن فضل الله كاتب السر ﴾

هو أبو المعالى يحيى بن فضل الله بن المحلى بن دعجان بن خلف العدوى العمرى ، ولد فى حادى عشر شوال سنة خمس وأربعين وستمائة بالكرك ، وسمع الحديث وأسمعه ، وكان صدرا كبيرا معظما فى الدولة فى حياة أخيه شرف الدين وبعده ، وكتب السر بالشام وبالديار المصرية ، وكانت وفاته ليلة الأربعاء تاسع رمضان بديار مصر ، ودفن من الغد بالقرافة وتولى المنصب بعده ولده علاء الدين ، وهو أصغر أولاده الثلاثة المعينين لهذا المنصب .

﴿ الشيخ الامام العلامة ﴾

زين الدين ابن الكتانى ، شيخ الشافعية بديار مصر ، وهو أبو حفص عمر بن أبى الحزم بن عبد الرحمن بن يونس الدمشقى الأصل ، ولد بالقاهرة فى حدود سنة ثلاث وخمسين وستمائة ، واشتغل بدمشق ثم رحل إلى مصر واستوطنها وتولى بها بعض الأقضية بالحكر ، ثم ناب عن الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد فحمدت سيرته ، ودرس بمدارس كبار ، وولى مشيخة دار الحديث بالقبة المنصورية ، وكان بارعا فاضلا ، عنده فوائد كثيرة جدا ، غير أنه كان سىء الأخلاق منقبضا عن الناس ، لم يتزوج قط ، وكان حسن الشكل بهى المنظر ، يأكل الطيبات ويلبس اللين من الثياب ، وله فوائد وفرائد وزوائد على الروضة وغيرها ، وكان فيه استهتار لبعض العلماء فالله يسامحه ، وكانت وفاته يوم الثلاثاء المنتصف من رمضان ، ودفن بالقرافة رحمه الله انتهى .

﴿ الشيخ الامام العلامة ﴾

ركن الدين بن القويع ، أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن يوسف بن عبد الرحمن بن عبد الجليل الوسى الهاشمى الجعفرى التونسى المالكى ، المعروف بابن القويع ، كان من أعيان الفضلاء وسادة الأذكياء ، ممن جمع الفنون الكثيرة والعلوم الأخروية الدينية الشرعية الطيبة ، وكان مدرسا بالمنكوتمرية ، وله وظيفة فى المارستان المنصورى ، وبها توفى فى بكرة السابع عشر من ذى الحجة ، وترك مالا وأثاثا ورثه بيت المال .

وهذا آخر ما أرخه شيخنا الحافظ علم الدين البرزالى فى كتابه الذى ذيل به على تاريخ الشيخ شهاب الدين أبى شامة المقدسى ، وقد ذيلت على تاريخه إلى زماننا هذا ، وكان فراغى من الانتقاء من تاريخه فى يوم الأربعاء العشرين من جمادى الآخرة من سنة إحدى وخمسين وسبعمائة ، أحسن الله خاتمتها آمين . وإلى هنا انتهى ما كتبته من لدن خلق آدم إلى زماننا هذا ولله الحمد والمنة . وما أحسن ما قال الحريرى !

و إن تجد عيبا فسد الخللا ■ فجل من لا عيب فيه وعلا

كتبه إسماعيل بن كثير بن صنو القرشى الشافعى عفا الله تعالى عنه آمين . (١)

﴿ ثم دخلت سنة تسع وثلاثين وسبعمائة ﴾

استهلت وسلطان الاسلام والمسلمين بالديار المصرية وما والاها والديار الشامية وما والاها والحرمين الشريفين الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون ، ولا نائب له ولا وزير أيضا بمصر ، وقضاة مصر ، أما الشافعى فقاضى القضاة عز الدين ابن قاضى القضاة صدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة ، وأما الحنفى فقاضى القضاة حسام الدين الغورى ، حسن بن محمد ، وأما المالكى فتقى الدين الأخنائى ، وأما الحنبلى فموفق الدين بن نجا المقدسى ، ونائب الشام الأمير سيف الدين تنكز وقضاته جلال الدين القزوينى الشافعى المعزول عن الديار المصرية ، والحنفى عماد الدين الطرسوسى ، والمالكى شرف الدين الهمدانى ، والحنبلى علاء الدين بن المنجا التنوخى .

ومما حدث فى هذه السنة إكمال دار الحديث السكرية وباشر مشيخة الحديث بها الشيخ الامام الحافظ مؤرخ الاسلام محمد بن شمس الدين محمد بن أحمد الذهبى ، وقرر فيها ثلاثون محدثا لكل منهم جراية وجامكية كل شهر سبعة دراهم ونصف رطل خبز ، وقرر للشيخ ثلاثون ورطل خبز ، وقرر فيها ثلاثون نفراً يقرؤن القرآن لكل عشرة شيخ ، ولكل واحد من القراء نظير ما للمحدثين ، ورتب لها إمام وقارئ حديث ونواب ، ولقارئ الحديث عشرون درهما وثمان أواق خبز ، وجاءت فى غاية الحسن فى شكالاتها و بنائها ، وهى تجاه دار الذهب التى أنشأها الواقف الأمير تنكز ، ووقف عليها عدة أماكن : منها سوق القشاشيين بباب الفرج ، طوله عشرون ذراعا شرقا وغربا ، سماه فى كتاب الوقف ، و بندر زيدين ، ، وحمام بحمص وهو الحمام القديم ، ووقف عليها حصصا فى قرايا أخر ، ولكنه تغلب على ماعدا القشاشيين ، و بندر زيدين ، وحمام حمص .

وفيها قدم القاضى تقى الدين على بن عبد الكافى السبكى الشافعى من الديار المصرية حاكما على دمشق وأعمالها ، وفرح الناس به ، ودخل الناس يسلمون عليه لعلمه وديانته وأمانته ، ونزل بالعادلية الكبيرة على عادة من تقدمه ، ودرس بالغزالية والاتابكية ، واستناب ابن عمه القاضى بهاء الدين أبو البقاء ، ثم استناب ابن عمه أبا الفتح ، وكانت ولايته الشام بعد وفاة قاضى القضاة جلال الدين محمد بن عبد الرحيم القزوينى الشافعى ، على ما سيأتى بيانه فى الوفيات من هذه السنة .

ومن توفى فيها من الأعيان فى المحرم سنة تسع وثلاثين وسبعمائة

﴿ العلامة قاضى القضاة فخر الدين ﴾

عثمان بن الزين على بن عثمان الحلبى ، ابن خطيب جسرين الشافعى ، ولى قضاء حلب وكان

(١) كذا بسائر الأصول .

إماما صنف شرح مختصر ابن الحاجب فى الفقه ، وشرح البديع لابن الساعاتى ، وله فوائد غزيرة ومصنفات جليلة ، تولى حلب بعد عزل الشيخ ابن النقيب ، ثم طلبه السلطان فمات هو وولده الكمال وله بضع وسبعون سنة . وممن توفى فيها

﴿ قاضى القضاة جلال الدين محمد بن عبد الرحمن ﴾

القزوينى الشافعى ، قدم هو وأخوه أيام التتر من بلادهم إلى دمشق ، وهما فاضلان ، بعد التسعين وستمائة فدرس إمام الدين فى تربة أم الصالح وأعاد جلال الدين بالبادرائية عند الشيخ برهان الدين ابن الشيخ تاج الدين شيخ الشافعية ، ثم تقلبت بهم الأحوال إلى أن ولى إمام الدين قضاء الشافعية بدمشق ، انتزع له من يد القاضى بدر الدين ابن جماعة ، ثم هرب سنة قازان إلى الديار المصرية مع الناس فمات هنالك ، وأعيد ابن جماعة إلى القضاء ، وخلت خطابة البلد سنة ثلاث وسبعمائة ، فوليها جلال الدين المذكور ، ثم ولى القضاء بدمشق سنة خمس وعشرين مع الخطابة ، ثم انتقل إلى الديار المصرية سنة سبع وعشرين بعد أن عجز قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة بسبب الضرر فى عينيه فلما كان فى سنة ثمان وثلاثين تعصب عليه السلطان الملك الناصر بسبب أمور يطول شرحها ، ونفاه إلى الشام ، واتفق موت قاضى القضاة شهاب الدين بن المجد عبد الله كما تقدم ، فولاه السلطان قضاء الشام عوداً على بدء ، فاستناب ولده بدر الدين على نيابة القضاء الذى هو خطيب دمشق ، كانت وفاته فى أواخر هذه السنة ، ودفن بالصوفية ، وكانت له يد طولى فى المعانى والبيان ، ويفتى كثيرا ، وله مصنفات فى المعانى مصنف مشهور [اسمه التلخيص] اختصر فيه المفتاح للسكاكى ، وكان مجموع الفضائل ، مات وكان عمره قريباً من السبعين أو جاوزها . وممن توفى فيها رابع الحجة يوم الأحد :

﴿ الشيخ الامام العالم الحافظ ﴾

علم الدين أبو محمد القاسم بن محمد بن البرزالى مؤرخ الشام الشافعى ، ولد سنة وفاة الشيخ ابن أبى شامة سنة خمس وستين وستمائة ، وقد كتب تاريخاً ذيل به على الشيخ شهاب الدين ، من حين وفاته ومولد البرزالى إلى أن توفى فى هذه السنة ، وهو محرم ، فغسل وكفن ولم يستر رأسه ، وحمله الناس على نعشه وهم يبكون حوله ، وكان يوماً مشهودا ، وسمع الكثير أزيد من ألف شيخ ، وخرج له المحدث شمس الدين ابن سعد مشيخة لم يكملها ، وقرأ شيئا كثيراً ، وأسمع شيئا كثيرا ، وكان له خط حسن ، وخلق حسن ، وهو مشكور عند القضاة ومشايخه أهل العلم ، سمعت العلامة ابن تيمية يقول : نقل البرزالى نقر فى حجر . وكان أصحابه من كل الطوائف يحبونه ويكرمونه ، وكان له أولاد ماتوا قبله ، وكتبت ابنته فاطمة البخارى فى ثلاثة عشر مجلدا فقابله لها ، وكان يقرأ فيه على الحافظ المزى تحت القبة ، حتى صارت نسختها أصلا معتمدا يكتب منها الناس ، وكان شيخ حديث بالنورية

وفيها وقف كتبه بدار الحديث السنية ، و بدار الحديث القوصية وفى الجامع وغيره وعلى كراسى الحديث ، وكان متواضعا محببا إلى الناس ، متوددا إليهم ، توفى عن أربع وسبعين سنة رحمه الله .

﴿ المؤرخ شمس الدين ﴾

محمد بن إبراهيم الجوزى ، جمع تاريخا حافلا ، كتب فيه أشياء يستفيد منها الحافظ كالمزى والذهبي والبرزالى يكتبون عنه و يعتمدون على نقله ، وكان شيخا قد جاوز الثمانين ، وثقل سمعه وضعف خطه ، وهو والد الشيخ ناصر الدين محمد وأخوه مجد الدين .

﴿ ثم دخلت سنة أربعين وسبعمائة ﴾

استهلت هذه السنة وسلطان المسلمين الملك الناصر ، وولاته وقضاته المذكورن فى التى قبلها إلا الشافعى بالشام فتوفى القزوينى وتولى العلامة السبكى . ومما وقع من الحوادث العظيمة الهائلة أن جماعة من رؤس النصارى اجتمعوا فى كنيستهم وجمعوا من بينهم مالا جزيلا فدفعوه إلى راهبين قدما عليهما من بلاد الروم ، يحسنان صنعة النفط ، اسم أحدهما ملانى والآخر عازر ، فعملا كحطا من نفط ، وتلطفا حتى عملاه لا يظهر تأثيره إلا بعد أربع ساعات وأكثر من ذلك ، فوضعا فى شقوق دكاكين التجار فى سوق الرجال عند الدهشة فى عدة دكاكين من آخر النهار ، بحيث لا يشعر أحد بهما ، وهما فى زى المسلمين ،فلما كان فى أثناء الليل لم يشعر الناس إلا والنار قدعملت فى تلك الدكاكين حتى تعلقت فى درابزينات المأذنة الشرقية المتجهة للسوق المذكور ، وأحرقت الدرابزينات ، وجاء نائب السلطنة تنكز والأمراء أمراء الألوف،وصعدوا المنارة وهى تشعل ناراً ، واحترسوا عن الجامع فلم ينله شئ من الحريق ولله الحمد والمنة ، وأما المأذنة فانها تفجرت أحجارها واحترقت السقالات التى تدل السلالم فهدمت وأعيد بناؤها بحجارة جدد ، وهى المنارة الشرقية التى جاء فى الحديث أنه ينزل عليها عيسى ابن مريم كما سيأتى الكلام عليه فى نزول عيسى عليه السلام والبلد محاصر بالدجال .

والمقصود أن النصارى بعد ليال عمدوا إلى ناحية الجامع من المغرب إلى القيسارية بكمالها ، و بما فيها من الأقواس والعدد ، فانا لله و إنا إليه راجعون ، وتطاير شرر النار إلى ما حول القيسارية من الدور والمساكن والمدارس ، واحترق جانب من المدرسة الأمينية إلى جانب المدرسة المذكورة وما كان مقصودهم الا وصول النار إلى معبد المسلمين ، فحال الله بينهم و بين ما يرومون ، وجاء نائب السلطنة والامراء وحالوا بين الحريق والمسجد ، جزاهم الله خيراً .ولما تحقق نائب السلطنة أن هذا من فعلهم أمر بمسك رؤس النصارى فأمسك منهم نحوا من ستين رجلا ، فأخذوا بالمصادرات والضرب والعقوبات وأنواع المثلات ، ثم بعد ذلك صلب منهم أزيد من عشرة على الجمال ، وطاف بهم فى أرجاء البلاد وجعلوا يتماوتون واحدا بعد واحد ، ثم أحرقوا بالنار حتى صاروا رماداً لعنهم الله ، انتهى

والله أعلم .

﴿ سبب مسك تنكز ﴾

لما كان يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من ذى الحجة جاء الأمير طشتمر من صفد مسرعا وركب جيش دمشق ملبساً ، ودخل نائب السلطنة من قصره مسرعا إلى دار السعادة ، وجاء الجيش فوقفوا على باب النصر، وكان أراد أن يلبس ويقابل فعذلوه فى ذلك ، وقالوا : المصلحة الخروج إلى السلطان سامعا مطيعا ، فخرج بلا سلاح ، فلما برز إلى ظاهر البلد التف عليه الفخرى وغيره ، وأخذوه وذهبوا به إلى ناحية الكسوة ، فلما كان عند قبة يلبغا نزلوا وقيدوه وخصاياه من قصره ، ثم ركب البريد وهو مقيد وساروا به إلى السلطان ، فلما وصل أمر بسيره إلى الاسكندرية ، وسألوا عن ودائعه فأقر ببعض ، ثم عوقب حتى أقر بالباقى ، ثم قتلوه ودفنوه بالاسكندرية ، ثم نقلوه إلى تربته بدمشق رحمه الله ، وقد جاوز الستين ، وكان عادلا مهيباً عفيف الفرج واليد ، والناس فى أيامه فى غاية الرخص والأمن والصيانة فرحمه الله ، وبل بالرحمة ثراه .

وله أوقاف كثيرة من ذلك مرستان بصفد ، وجامع بنابلس وعجلون ، وجامع بدمشق ، ودار حديث بالقدس ودمشق ، ومدرسة وخانقاه بالقدس ، ورباط وسوق موقوف على المسجد الأقصى ، وفتح شباكا فى المسجد . انتهى والله تعالى أعلم .

ومن توفى فيها من الأعيان : ﴿ أمير المؤمنين المستكفى بالله ﴾

أبو الربيع سليمان بن الحاكم بأمر الله بن العباس أحمد بن أبى على الحسن بن أبى بكر بن على ابن أمير المؤمنين المسترشد بالله الهاشمى العباسى ، البغدادى الأصل والمولد ، مولده سنة ثلاث وثمانين وستمائة أو فى التى قبلها ، وقرأ واشتغل قليلا ، وعهد إليه أبوه بالأمر وخطب له عند وفاة والده سنة إحدى وسبعمائة ، وفوض جميع ما يتعلق به من الحل والعقد إلى السلطان الملك الناصر ، وسار إلى غزو التتر فشهد مصاف شقحب ، ودخل دمشق فى شعبان سنة اثنتين وسبعمائة وهو راكب مع السلطان ، وجميع كبراء الجيش مشاة ، ولما أعرض السلطان عن الأمر وانعزل بالكرك التمس الأمراء من المستكفى أن يسلطن من ينهض بالملك ، فقلد الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير وعقد له اللواء وألبسه خلعة السلطنة ، ثم عاد الناصر إلى مصر وعذر الخليفة فى فعله ، ثم غضب عليه وسيره إلى قوص فتوفى فى هذه السنة فى قوص فى مستهل شعبان .

﴿ ثم دخلت سنة إحدى وأربعين وسبعمائة ﴾

استهلت يوم الأربعاء وسلطان المسلمين الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون ، وقضاته بمصر هم المذكورون فى التى قبلها ، وليس فى دمشق نائب سلطنة ، وإنما الذى يسد الأمور الأمير سيف الدين طشتمر الملقب بالحمص الأخضر ، الذى جاء بالقبض على الأمير سيف الدين تنكز ،

ثم جاء المرسوم بالرجوع إلى صفد فركب من آخر النهار وتوجه إلى بلده ، وحواصل الأمير تنكز تحت الحوطة كما هي .

وفى صبيحة يوم السبت رابع المحرم من السنة المذكورة قدم من الديار المصرية خمسة أمراء الأمير سيف الدين بشتك الناصرى ومعه برصبغا الحاجب ، وطاشار الدويدار وبنعراو بطا ، فنزل بشتاك بالقصر الأبلق والميادين ، وليس معه من مماليكه إلا القليل ، وإنما جاء لتجديد البيعة إلى السلطان لما توهموا من ممالأة بعض الأمراء لنائب الشام المنفصل ، وللحوطة على حواصل الأمير سيف الدين تنكز المنفصل عن نيابة الشام وتجهيزها للديار المصرية . وفى صبيحة يوم الاثنين سادسه دخل الأمير علاء الدين الطنبغا إلى دمشق نائباً ، وتلقاه الناس وبشتك والأمراء المصريون ، ونزلوا إلى عتبته فقبلوا العتبة الشريفة ، ورجعوا معه إلى دار السعادة ، وقرئ تقليده . وفى يوم الاثنين ثالث عشره مسك من الأمراء المقدمين أميران كبيران الجى بغا العادلى ، وطنبغا الحجى ، ورفعا إلى القلعة المنصورة واحتيط على حواصلهما . وفى يوم الثلاثاء تحملوا بيت ملك الأمراء سيف الدين تنكز وأهله وأولاده إلى الديار المصرية . وفى يوم الأربعاء خامس عشره ركب نائب السلطنة الأمير علاء الدين طنبغا ومعه الأمير سيف الدين بشتك الناصرى والحاجة رقطية وسيف الدين قطلو بغا الفخرى وجماعة من الأمراء المقدمين واجتمعوا بسوق الخيل واستدعوا بمملوكى الأمير سيف الدين تنكز وهما جغاى وطغاى . فأمر بتوسيطهما فوسطا وعلقا على الخشب ونودى عليهما : هذا جزاء من تجاسر على السلطان الناصر .

وفى يوم الثلاثاء الحادى والعشرين من هذا الشهر كانت وفاة الأمير سيف الدين تنكز نائب الشام بقلعة اسكندرية ، قيل مخنوقا وقيل مسموماً وهو الأصح ، وقيل غير ذلك ، وتأسف الناس عليه كثيراً ، وطال حزنهم عليه ، وفى كل وقت يتذكرون ما كان منه من الهيبة والصيانة والغيرة على حريم المسلمين ومحارم الاسلام ، ومن إقامته على ذوى الحاجات وغيرهم ، ويشتد تأسفهم عليه رحمه الله . وقد أخبر القاضى أمين الدين ابن القلانسى رحمه الله شيخنا الحافظ العلامة عماد الدين ابن كثير رحمه الله أن الأمير سيف الدين تنكز مسك يوم الثلاثاء ودخل مصر يوم الثلاثاء ودخل الاسكندرية يوم الثلاثاء وتوفى يوم الثلاثاء وصلى عليه بالاسكندرية ودفن بمقبرتها فى الثالث والعشرين من المحرم بالقرب من قبر القبارى ، وكانت له جنازة جيدة .

وفى يوم الخميس سابع شهر صفر قدم الأمير سيف الدين طشتمر الذى مسك تنكز إلى دمشق فنزل بوطأة برزة بجيشه ومن معه ثم توجه إلى حلب المحروسة نائبا بها عوضاً عن الطنبغا المنفصل عنها وفى صبيحة يوم الخميس ثالث عشر ربيع الأول نودى فى البلد بجنازة الشيخ الصالح العابد

الناسك القدوة الشيخ محمد بن تمام توفى بالصالحية . فذهب الناس إلى جنازته إلى الجامع المظفرى . واجتمع الناس على صلاة الظهر فضاق الجامع المذكور عن أن يسعهم ، وصلى الناس فى الطرقات وأرجاء الصالحية . وكان الجمع كثيرا جدا لم يشهد الناس جنازة بعد جنازة الشيخ تقى الدين بن تيمية مثلها ، لكثرة من حضرها من الناس رجالا ونساء ، وفيهم القضاة والأعيان والأمراء وجمهور الناس يقاربون عشرين ألفا ، وانتظر الناس نائب السلطنة فاشتغل بكتاب ورد عليه من الديار المصرية ، فصلى عليه الشيخ بعد صلاة الظهر بالجامع المظفرى . ودفن عند أخيه فى تربة بين تربة الموفق و بين تربة الشيخ أبى عمر رحمهم الله و إيانا .

وفى أول شهر جمادى الأولى توفيت الشيخة العابدة الصالحة العالمة قارئة القرآن أم فاطمة عائشة بنت إبراهيم بن صديق زوجة شيخنا الحافظ جمال الدين المزى عشية يوم الثلاثاء مستهل هذا الشهر وصلى عليها بالجامع صبيحة يوم الأربعاء ودفنت بمقابر الصوفية غربى قبر الشيخ تقى الدين بن تيمية رحمهم الله . كانت عديمة النظير فى نساء زمانها لكثرة عبادتها وتلاوتها و إقرائها القرآن العظيم بفصاحة و بلاغة وأداء صحيح ، يعجز كثير من الرجال عن تجويده ، وختمت نساء كثيرا ، وقرأ عليها من النساء خلق وانتفعن بها و بصلاحها ودينها و زهدها فى الدنيا ، وتقللها منها ، مع طول العمر بلغت ثمانين سنة أنفقتها فى طاعة الله صلاة وتلاوة ، وكان الشيخ محسنا إليها مطيعا . لايكاد يخالفها لحبه لها طبعا وشرعا فرحمها الله وقدس روحها ، ونور مضجعها بالرحمة آمين .

وفى يوم الأربعاء الحادى والعشرين منه درس بمدرسة الشيخ أبى عمر بسفح قاسيون الشيخ الامام شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادى المقدسى الحنبلى ، فى التدريس البكتمرى عوضا عن القاضى برهان الدين الزرعى . وحضر عنده المقادسة وكبار الحنابلة ، ولم يتمكن أهل المدينة من الحضور لكثرة المطر والوحل يومئذ . وتكامل عمارة المنارة الشرقية فى الجامع الأموى فى العشر الأخير من رمضان ، واستحسن الناس بناءها و إتقانها ، وذكر بعضهم أنه لم يبن فى الاسلام منارة مثلها ولله الحمد . ووقع لكثير من الناس فى غالب ظنونهم أنها المنارة البيضاء الشرقية التى ذكرت فى حديث النواس بن سمعان فى نزول عيسى ابن مريم على المنارة البيضاء فى شرقى دمشق . فلعل لفظ الحديث انقلب على بعض الرواة . و إنما كان على المنارة الشرقية بدمشق . وهذه المنارة مشهورة بالشرقية لمقابلتها أختها الغربية . والله سبحانه وتعالى أعلم .

وفى يوم الثلاثاء سلخ شهر شوال عقد مجلس فى دار العدل بدار السعادة وحضرته يومئذ واجتمع القضاة والأعيان على العادة وأحضر يومئذ عثمان الدكاكى قبحه الله تعالى . وادعى عليه بعظائم من القول لم يؤثر مثلها عن الحلاج ولا عن ابن أبى الغدافر السلقمانى ، وقامت عليه البينة بدعوى الآلهية

لعنه الله ، وأشياء أخر من التنقيص بالأنبياء ومخالطته أرباب الريب من الباجريقية وغيرهم من الاتحادية عليهم لعائن الله ، ووقع منه فى المجلس من إساءة الأدب على القاضى الحنبلى وتضمن ذلك تكفيره من المالكية أيضاً . فادعى أن له دوافع وقوادح فى بعض الشهود ، فرد إلى السجن مقيداً مغلولا مقبوحاً ، أمكن الله منه بقوته وتأييده، ثم لما كان يوم الثلاثاء الحادى والعشرين من ذى القعدة أحضر عثمان الدكاكى المذكور إلى دار السعادة وأقيم إلى بين يدى الأمراء والقضاة وسئل عن القوادح فى الشهود فعجز فلم يقدر ، وعجز عن ذلك فتوجه عليه الحكم ، فسئل القاضى المالكى الحكم عليه فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ثم حكم باراقة دمه وإن تاب ، فأخذ المذكور فضربت رقبته بدمشق بسوق الخيل . ونودى عليه : هذا جزاء من يكون على مذهب الاتحادية ، وكان يوماً مشهوداً بدار السعادة ، حضر خلق من الأعيان والمشايخ . وحضر شيخنا جمال الدين المزى الحافظ ، وشيخنا الحافظ شمس الدين الذهبى ، وتكلما وحرضا فى القضية جداً ، وشهدا بزندقة المذكور بالاستفاضة ، وكذا الشيخ زين الدين أخو الشيخ تقى الدين بن تيمية ، وخرج القضاة الثلاثة المالكى والحنفى والحنبلى . وهم نفذوا حكمه فى المجلس فحضروا قتل المذكور وكنت مباشراً لجميع ذلك من أوله إلى آخره .

وفى يوم الجمعة الثامن والعشرين من ذى القعدة أفرج عن الأميرين العقيليين بالقلعة وهما طنبغا حجا والجى بغا ، وكذلك أفرج عن خزاندارية تنكز الذين تأخروا بالقلعة . وفرح الناس بذلك .

﴿ ذكر وفاة الملك الناصر محمد بن قلاوون ﴾

فى صبيحة يوم الأربعاء السابع والعشرين من ذى الحجة قدم إلى دمشق الأمير سيف الدين قطلوبغا الفخرى فخرج نائب السلطنة وعامة الأمراء لتلقيه . وكان قدومه على خيل البريد . فأخبر بوفاة السلطان الملك الناصر ، كانت وفاته يوم الأربعاء آخره . وأنه صلى عليه ليلة الجمعة بعد العشاء ودفن مع أبيه الملك المنصور على ولده أنوك . وكان قبل موته أخذ العهد لابنه سيف الدين أبى بكر ولقبه بالملك المنصور ، فلما دفن السلطان ليلة الجمعة حضره من الأمراء قليل . وكان قد ولى عليه الأمير علم الدين الجاولى ، ورجل آخر منسوب إلى الصلاح يقال له الشيخ عمر بن محمد بن إبراهيم الجعبرى ، وشخص آخر من الجبابرية ، ودفن كما ذكرنا ، ولم يحضر ولده ولى عهده دفنه ، ولم يخرج من القلعة ليلتئذ عن مشورة الأمراء لئلا يتخبط الناس ، وصلى عليه القاضى عز الدين بن جماعة إماما . والجاولى وايدغمش وأمير آخر والقاضى بهاء الدين بن حامد بن قاضى دمشق السبكى ، وجلس الملك المنصور سيف الدنيا والدين أبو المعالى أبو بكر على سرير المملكة .

وفى صبيحة يوم الخميس الحادى والعشرين من ذى الحجة سنة إحدى وأربعين وسبعمائة ، بايعه

الجيش المصرى ، وقدم الفخرى لأخذ البيعة من الشاميين ، ونزل بالقصر الأبلق وبايع الناس للملك المنصور بن الناصر بن المنصور ، ودقت البشائر بالقلعة المنصورة بدمشق صبيحة يوم الخميس الثامن والعشرين منه ، وفرح الناس بالملك الجديد ، وترحموا على الملك الناصر وتأسفوا عليه رحمه الله .

﴿ ثم دخلت سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة ﴾

استهلت بيوم الأحد وسلطان الاسلام بالديار المصرية والبلاد الشامية وما والاها الملك المنصور سيف الدين أبو بكر بن الملك السلطان الناصر ناصر الدين محمد بن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحى ، ونائب الشام الأمير علاء الدين طنبغا وقضاة الشام ومصرهم المذكورون فى التى قبلها ، وكذا المباشرون سوى الولاة شهر الله المحرم

﴿ ولاية الخليفة الحاكم بأمر الله ﴾

وفى هذا اليوم بويع بالخلافة أمير المؤمنين أبو القاسم أحمد بن المستكفى بالله أبى الربيع سليمان العباسى ولبس السواد وجلس مع الملك المنصور على سرير المملكة ، وألبسه خلعة سوداء أيضاً ، فجلسا وعليهما السواد ، وخطب الخليفة يومئذ خطبة بليغة فصيحة مشتملة على أشياء من المواعظ والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وخلع يومئذ على جماعة من الأمراء والأعيان ، وكان يوماً مشهوداً ، وكان أبو القاسم هذا قد عهد إليه أبوه بالخلافة ، ولكن لم يمكنه الناصر من ذلك ، وولى أبا إسحاق إبراهيم ابن أخى أبى الربيع ، ولقبه الواثق بالله ، وخطب له بالقاهرة جمعة واحدة فعزله المنصور وقرر أبا القاسم هذا ، وأمضى العهد ولقبه المستنصر بالله كما ذكرنا .

وفى يوم الأحد ثامن المحرم مسك الأمير سيف الدين بشتك الناصرى آخر النهار ، وكان قد كتب تقليده بنيابة الشام وخلع عليه بذلك وبرز ثقله ثم دخل على الملك المنصور ليودعه فرحب به وأجلسه وأحضر طعاماً وأكلا ، وتأسف الملك على فراقه ، وقال : تذهب وتتركنى وحدى ، ثم قام لتوديعه وذهب بشتك من بين يديه ثمانى خطوات أو نحوها ، ثم تقدم إليه ثلاثة نفر فقطع أحدهم سيفه من وسطه بسكين ، ووضع الآخر يده على فمه وكتفه الآخر ، وقيدوه وذلك كله بحضرة السلطان ، ثم غيب ولم يدر أحد إلى أين صار ، ثم قالوا لمماليكه : اذهبوا أنتم فائتوا بمركوب الأمير غداً ، فهو بائت عند السلطان . وأصبح السلطان وجلس على سرير المملكة وأمر بمسك جماعة من الأمراء وتسعة من الكبار ، واحتاطوا على حواصله وأمواله وأملاكه ، فيقال إنه وجد عنده من الذهب ألف ألف دينار ، وسبعمائة ألف دينار .

﴿ وفاة شيخنا الحافظ أبى الحجاج المزى ﴾

تمرض أياماً يسيرة مرضا لا يشغله عن شهود الجماعة ، وحضور الدروس ، وإسماع الحديث ، فلما كان يوم الجمعة حادى عشر صفر أسمع الحديث إلى قريب وقت الصلاة ، ثم دخل منزله ليتوضأ

و يذهب للصلاة فاعترضه فى باطنه مغص عظيم، ظن أنه قولنج ، وما كان إلا طاعون ، فلم يقدر على حضور الصلاة ، فلما فرغنا من الصلاة أخبرت بأنه منقطع، فذهبت إليه فدخلت عليه فاذا هو يرتعد رعدة شديدة من قوة الألم الذى هو فيه ، فسألته عن حاله فجعل يكرر الحمد لله ، ثم أخبرنى بما حصل له من المرض الشديد ، وصلى الظهر بنفسه ، ودخل إلى الطهارة وتوضأ على البركة ، وهو فى قوة الوجع ثم اتصل به هذا الحال إلى الغد من يوم السبت ، فلما كان وقت الظهر لم أكن حاضره إذ ذاك ، لكن أخبرتنا بنته زينب زوجتى أنه لما أذن الظهر تغير ذهنه قليلا ، فقالت : ياأبة أذن الظهر ، فذكر الله وقال : أريد أن أصلى فتيمم وصلى ثم اضطجع فجعل يقرأ آية الكرسي حتى جعل لا يفيض بها لسانه ثم قبضت روحه بين الصلاتين ، رحمه الله يوم السبت ثانى عشر صفر ، فلم يمكن تجهيزه تلك الليلة ، فلما كان من الغد يوم الأحد ثالث عشر صفر صبيحة ذلك اليوم ، غسل وكفن وصلى عليه بالجامع الأموى ، وحضر القضاة والأعيان وخلائق لا يحصون كثرة ، وخرج بجنازته من باب النصر ، وخرج نائب السلطنة الأمير علاء الدين طنبغا ومعه ديوان السلطان ، والصاحب وكاتب السر وغيرهم من الامراء ، فصلوا عليه خارج باب النصر ، أمهم عليه القاضى تقى الدين السبكى الشافعى ، وهو الذى صلى عليه بالجامع الأموى ، ثم ذهب به إلى مقابر الصوفية فدفن هناك إلى جانب زوجته المرأة الصالحة الحافظة لكتاب الله ، عائشة بنت إبراهيم بن صديق ، غربى قبر الشيخ تقى الدين بن تيمية رحمهم الله أجمعين .

﴿ كائنة غريبة جداً ﴾

قدم يوم الأربعاء الثلاثين من صفر أمير من الديار المصرية ومعه البيعة للملك الأشرف علاء الدين كجك بن الملك الناصر ، وذلك بعد عزل أخيه المنصور ، لما صدر عنه من الأفعال التى ذكر أنه تعاطاها من شرب المسكر وغشيان المنكرات ، وتعاطى ما لا يليق به ، ومعاشرة الخاصكية من المردان وغيرهم ، فتمالأ على خلعه كبار الأمراء لما رأوا الأمر تفاقم إلى الفساد العريض فأحضروا الخليفة الحاكم بأمر الله أبى الربيع سليمان فأثبت بين يديه ما نسب إلى الملك المنصور المذكور من الامور فحينئذ خلعه وخلعه الأمراء الكبار وغيرهم ، واستبدلوا مكانه أخاه هذا المذكور ، وسيروه إذ ذاك إلى قوص مضيقا عليه ومعه إخوة له ثلاثة ، وقيل أكثر ، وأجلسوا الملك الأشرف هذا على السرير ، وناب له الأمير سيف الدين قوصون الناصرى ، واستمرت الامور على السداد وجاءت إلى الشام فبايعه الامراء يوم الأربعاء المذكور ، وضربت البشائر عشية الخميس مستهل ربيع الاول وخطب له بدمشق يوم الجمعة بحضرة نائب السلطنة والقضاة والامراء .

وفى يوم الاربعاء سابع عشر ربيع الأول حضر بدار الحديث الاشرفية قاضى القضاة تقى الدين السبكى عوضا عن شيخنا الحافظ جمال الدين المزى ، ومشيخة دار الحديث النورية عوضا عن

ابنه رحمه الله . وفى شهر جمادى الأولى اشتهر أن نائب حلب الأمير سيف الدين طشتمر الملقب بالحمص الأخضر قائم فى نصرة ابن السلطان الأمير أحمد الذى بالكرك ، وأنه يستخدم لذلك ويجمع الجموع فالله أعلم . وفى العشر الثانى منه وصلت الجيوش صحبة الأمير سيف الدين قطلو بغا الفخرى إلى الكرك فى طلب ابن السلطان الأمير أحمد . وفى هذا الشهر كثر الكلام فى أمر الأمير أحمد بن الناصر الذى بالكرك ، بسبب محاصرة الجيش الذى صحبة الفخرى له ، واشتهر أن نائب حلب الأمير سيف الدين طشتمر الملقب بالحمص الأخضر قائم بجنب أولاد السلطان الذين أخرجوا من الديار المصرية إلى الصعيد ، وفى القيام بالمدافعة عن الأمير أحمد ، ليصرف عنه الجيش ، وترك حصاره وعزم بالذهاب إلى الكرك لنصرة أحمد ابن أستاذه ، وتهيأ له نائب الشام بدمشق ، ونادى فى الجيش لملتقاه ومدافعته عما يريد من إقامة الفتنة وشق العصا ، واهتم الجند لذلك ، وتأهبوا واستعدوا ، ولحقهم فى ذلك كلفة كثيرة ، وانزعج الناس بسبب ذلك وتخوفوا أن تكون فتنة ، وحسبوا إن وقع قتال بينهم أن تقوم العشيرات فى الجبال وحوران ، وتتعطل مصالح الزراعات وغير ذلك ، ثم قدم من حلب صاحب السلطان فى الرسلية إلى نائب دمشق الأمير علاء الدين الطنبغا ومعه مشافهة ، فاستمع لها فبعث معه صاحب الميسرة أمان الساقى ، فذهبا إلى حلب ثم رجعا فى أواخر جمادى الآخرة وتوجها إلى الديار المصرية ، واشتهر أن الأمر على ما هو عليه حتى توافق على ما ذكر من رجوع أولاد الملك الناصر إلى مصر ، ما عدا المنصور ، وأن يخلى عن محاصرة الكرك.

وفى العشر الأخير من جمادى الأولى توفى مظفر الدين موسى بن مهنا ملك العرب ودفن بتدمر وفى صبيحة يوم الثلاثاء ثانى جمادى الآخرة عند طلوع الشمس توفى الخطيب بدر الدين محمد بن القاضى جلال الدين القزوينى بدار الخطابة بعد رجوعه من الديار المصرية كما قدمنا ، فخطب جمعة واحدة وصلى بالناس إلى ليلة الجمعة الأخرى ثم مرض فخطب عنه أخوه تاج الدين عبد الرحيم على العادة ثلاثة جمع ، وهو مريض إلى أن توفى يومئذ ، وتأسف الناس عليه لحسن شكله وصباحة وجهه وحسن ملتقاه وتواضعه ، واجتمع الناس للصلاة عليه للظهر فتأخر تجهيزه إلى العصر فصلى عليه بالجامع قاضى القضاة تقى الدين السبكى ، وخرج به الناس إلى الصوفية ، وكانت جنازته حافلة جداً ، فدفن عند أبيه بالتربة التى أنشأها الخطيب بدر الدين هناك رحمه الله .

وفى يوم الجمعة خامس الشهر بعد الصلاة خرج نائب السلطنة الأمير علاء الدين الطنبغا وجميع الجيش قاصدين للبلاد الحلبية للقبض على نائب حلب الأمير سيف الدين طشتمر ، لأجل ما أظهر من القيام مع ابن السلطان الأمير أحمد الذى فى الكرك ، وخرج الناس فى يوم شديد المطر كثير الوحل ، وكان يوما مشهوداً عصيبا ، أحسن الله العاقبة . وأمر القاضى تقى الدين السبكى الخطيب

المؤذنين بزيادة أذكار على الذى كان سنه فيهم الخطيب بدر الدين من التسبيح والتحميد والتهليل الكثير ثلاثا وثلاثين ، فزادهم السبكى قبل ذلك : أستغفر الله العظيم ثلاثا . اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والاكرام ، ثم أثبت ما فى صحيح مسلم بعد صلاتى الصبح والمغرب : اللهم أجرنا من النار سبعا . أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ثلاثا ، وكانوا قبل تلك السنوات قد زادوا بعد التأذين الآية ليلة الجمعة والتسليم على رسول الله ﷺ ، يبتدئ الرئيس منفرداً ثم يعيد عليه الجماعة بطريقة حسنة ، وصار ذلك سببا لاجتماع الناس فى صحن الجامع لاستماع ذلك ، وكلما كان المبتدئ حسن الصوت كانت الجماعة أكثر اجتماعا ، ولكن طال بسبب ذلك الفصل ، وتأخرت الصلاة عن أول وقتها . انتهى .

﴿ كائنة غريبة جداً ﴾

وفى ليلة الأحد عشية السبت نزل الأمير سيف الدين قطلوبغا الفخرى بظاهر دمشق بين الجسورة وميدان الحصى بالاطلاب الذين جاءوا معه من البلاد المصرية لمحاصرة الكرك للقبض على ابن السلطان الأمير أحمد بن الناصر ، فمكثوا على الثنية محاصرين مضيقين عليه إلى أن توجه نائب الشام إلى حلب ، ومضت هذه الأيام المذكورة ، فما درى الناس إلاوقد جاء الفخرى وجموعه ، وقد بايعوا الأمير أحمد وسموه الناصر بن الناصر ، وخلعوا بيعة أخيه الملك الأشرف علاء الدين كجك واعتلوا بصغره ، وذكروا إن أتابكة الأمير سيف الدين قوصون الناصرى قدعدى على ابنى السلطان فقتلهما خنقا ببلاد الصعيد : جهز إليهما من تولى ذلك، وهما الملك المنصور أبو بكر ورمضان . فتنكر الأمير بسبب ذلك . وقالوا هذا يريد أن يجتاح هذا البيت ليتمكن هو من أخذ المملكة . فحموا لذلك وبايعوا ابن أستاذهم وجاءوا فى الذهاب خلف الجيش ليكونوا عونا للأمير سيف الدين طشتمر نائب حلب ومن معه . وقد كتبوا إلى الأمراء يستميلونهم إلى هذا . ولما نزلوا بظاهر دمشق خرج إليهم من بدمشق من الأكابر والقضاة والمباشرين . مثل والى البر ووالى المدينة وابن سمندار وغيرهم . فلما كان الصباح خرج أهالى دمشق عن بكرة أبيهم ، على عادتهم فى قدوم السلاطين ، ودخول الحجاج . بل أكثرمن ذلك من بعض الوجوه ، وخرج القضاة والصاحب والأعيان والولاة وغيرهم ، ودخل الأمير سيف الدين قطلوبغا فى دست نيابة السلطنة التى فوضها إليه الملك الناصر الجديد وعن يمينه الشافعى . وعن شماله الحنفى على العادة . والجيش كله محدق به فى الحديد ، والعقارات والبوقات والنشابة السلطانية والسناجق الخليفية والسلطانية تخفق . والناس فى الدعاء والثناء للفخرى . وهم فى غاية الاستبشار والفرح . وربما نال بعض جهلة الناس من النائب الآخر الذى ذهب إلى حلب ، ودخلت الأطلاب بعده على ترتيبهم، وكان يوما مشهوداً . فنزل شرقى دمشق

قريباً من خان لاجين ، و بعث فى هذا اليوم فرسم على القضاة والصاحب ، وأخذ من أموال الأيتام وغيرها خمسمائة ألف ، وعوضهم عن ذلك بقرية من بيت المال ، وكتب بذلك سجلات ،واستخدم جيداً ، وانضاف إليه من الأمراء الذين كانوا قد تخلفوا بدمشق جماعة منهم تمر الساقى مقدم ،وابن قراسنقر وابن الكامل وابن المعظم وابن البلدى وغيرهم ، وبايع هؤلاء كلهم مع مباشرى دمشق للملك الناصر بن الناصر ، وأقام الفخرى على خان لاجين ، وخرج المتعيشون بالصنائع إلى عندهم وضربت البشائر بالقلعة صبيحة يوم الثلاثاء سادس عشر الشهر ، ونودى بالبلد إن سلطانكم الملك الناصر أحمد بن الناصر محمد بن قلاوون ، ونائبكم سيف الدين قطلو بغا الفخرى ، وفرح كثير من الناس بذلك ، وانضاف إليه نائب صفد وبايعه نائب بعلبك ، واستخدموا له رجالا وجنداً ، و رجع إليه الأمير سيف الدين سنجر الجقدار رأس الميمنة بدمشق ، وكان قد تأخر فى السفر عن نائب دمشق علاء الدين الطنبغا ، بسبب مرض عرض له ، فلما قدم الفخرى رجع إليه و بايع الناصر ابن الناصر ، ثم كاتب نائب حماة تغردمر الذى ناب بمصر للملك المنصور ، فأجابه إلى ذلك وقدم على العسكر يوم السبت السابع والعشرين من الشهر المذكور ، فى تجمل عظيم وخزائن كثيرة ،وثقل هائل .

وفى صبيحة يوم الأحد الثامن والعشرين من الشهر المذكور كسفت الشمس قبل الظهر ، وفى صبيحة يوم الاثنين التاسع والعشرين من جمادى الآخرة ، قدم نائب غزة الأمير آق سنقر فى جيش غزة ،وهو قريب من ألفين ، فدخلوا دمشق وقت الفجر وغدوا إلى معسكر الفخرى ،فانضافوا إليهم ففرحوا بهم كثيراً ، وصار فى قريب من خمسة آلاف مقاتل أو يزيدون .

استهل شهر رجب الفرد والجماعة من أكابر التجار مطلوبون بسبب أموال طلبها منهم الفخرى، يقوى بها جيشه الذى معه ، ومبلغ ذلك الذى أراده منهم ألف ألف درهم ، ومعه مرسوم الناصر بن الناصر ببيع أملاك الأمير سيف الدين قوصون ، إتابك الملك الأشرف علاء الدين كجك ، ابن الناصر التى بالشام ، بسبب إبائه عن مبايعة أحمد بن الناصر ، فأشار على الفخرى من أشار بأن يباع للتجار من أملاك الخاص ، و يجعل مال قوصون من الخاص ، فرسم بذلك ، وأن يباع للتجار قرية دويه قومت بألف ألف وخمسمائة ألف ، ثم لطف الله وأفرج عنهم بعد ليلتين أو ثلاث ، وتعوضوا عن ذلك بحواصل قوصون ، واستمر الفخرى بمن معه ومن أضيف إليه من الأمراء والاجناد مقيمين بثنية العقاب ، واستخدم من رجال البقاع جماعة كثيرة أكثر من ألف رام ، وأميرهم يحفظ أفواه الطرق ، وأزف قدوم الأمير علاء الدين طنبغا بمن معه من عساكر دمشق ، وجمهور الحلبيين وطائفة الطرابلسيين ، وتأهب هؤلاء لهم . فلما كان الحادى من الشهر اشتهر أن الطنبغا وصل إلى القسطل و بعث طلائعه فالتقت بطلائع الفخرى ، ولم يكن بينهم قتال ولله الحمد والمنة وأرسل الفخرى إلى

القضاة ونوابهم وجماعة من الفقهاء فخرجوا ورجع الشافعى من أثناء الطريق، فلما وصلوا أمرهم بالسعى بينه وبين الطنبغا فى الصلح، وأن يوافق الفخرى فى أمره، وأن يبايع الناصر بن الناصر، فأبى فردهم إليه غير مرة، وكل ذلك يمتنع عليهم . فلما كان يوم الاثنين رابع عشره عند العصر جاء بريد إلى متولى البلد عند العصر من جهة الفخرى يأمره بغلق أبواب البلد . فغلقت الأبواب . وذلك لان العساكر توجهوا وتواقفوا للقتال، فانا لله وإنا إليه راجعون .

وذلك أن الطنبغا لما علم أن جماعة قطلو بغا على ثنية العقاب دار الذروة من ناحية المعيصرة، وجاء بالجيوش من هناك، فاستدار له الأمير سيف الدين قطلو بغا الفخرى بجماعته إلى ناحيته، ووقف له فى طريقه، وحال بينه وبين الوصول إلى البلد . وانزعج الناس انزعاجا عظيما، وغلقت القياسر والأسواق وخاف الناس بعضهم من بعض أن يكون نهب، فركب متولى البلد الأمير ناصر الدين بن بكباشى ومعه أولاده ونوابه والرجالة، فسار فى البلد وسكن الناس ودعوا له . فلما كان قريب المغرب فتح لهم باب الجابية ليدخل من هو من أهل البلد، فجرت فى الباب على ما قيل زحمة عظيمة، وتسخط الجند على الناس فى هذه الليلة، واتفق أنها ليلة الميلاد، وبات المسلمون مهمومون بسبب العسكر واختلافهم فأصبحت أبواب البلد مغلقة فى يوم الثلاثاء سوى باب الجابية، والأمر على ما هو عليه، فلما كان عشية هذا اليوم تقارب الجيشان واجتمع الطنبغا وأمراؤه . واتفق أمراء دمشق وجمهورهم الذين هم معه على أن لا يقاتلوا مسلما ولا يسلوا فى وجه الفخرى وأصحابه سيفا . وكان قضاة الشام قد ذهبوا إليه مراراً للصلح . فيأبى عليهم إلا الاستمرار على ما هو عليه . وقويت نفسه عليه انتهى . والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .

﴿ عجيبة من عجائب الدهر ﴾

فبات الناس متقابلين فى هذه الليلة وليس بين الجيشين إلا مقدار ميلين أو ثلاثة . وكانت ليلة مطيرة . فما أصبح الصبح إلا وقد ذهب من جماعة الطنبغا إلى الفخرى خلق كثير من أجناد الحلقاء ومن الأمراء والأعيان، وطلعت الشمس وارتفعت قليلا فنفذ الطنبغا القضاة وبعض الأمراء إلى الفخرى يتهدده ويتوعده ويقوى نفسه عليه . فما ساروا عنه قليلا إلا ساقت العساكر من الميمنة والميسرة ومن القلب، ومن كل جانب مقفرين إلى الفخرى . وذلك لما هم فيه من ضيق العيش وقلة ما بأيديهم من الأطعمة وعلف الدواب، وكثرة ما معهم من الكلف، فرأوا أن هذا حال يطول عليهم، ومقتوا أمرهم غاية المقت . وتطايبت قلوبهم وقلوب أولئك مع أهل البلد على كراهته لقوة نفسه فيما لا يجدى عليه ولا عليهم شيئا، فبايعوا على المخامرة عليه، فلم يبق معه سوى حاشيته فى أقل من ساعة واحدة، فلما رأى الحال على هذه الصفة كر راجعاً هاربا من حيث جاء وصحبته

الأمير سيف الدين رقطبة نائب طرابلس ، وأميران آخر ان ، والتقت العساكر والأمراء ، وجاءت البشارة إلى دمشق قبل الظهرففرح الناس فرحا شديدا جداء الرجال والنساء والولدان ، حتى من لانوبة له ، ودقت البشائر بالقلعة المنصورة ، فأرسلوا فى طلب من هرب ، وجلس الفخرى هنالك بقية اليوم يحلف الأمراء على أمره الذى جاء له ، فحلفوا له ، ودخل دمشق عشية يوم الخميس فى أبهة عظيمة ، وحرمة وافرة ، فنزل القصر الأبلق ونزل الأمير تغردمر بالميدان الكبير ، ونزل عمارى بدار السعادة وأخرجوا الموساوى الذى كان معتقلا بالقلعة ، وجعلوه مشدا على حوطات حواصل الطنبغا وكان قد تغضب الفخرى على جماعة من الأمراء منهم الأمير حسام الدين السمقدار ، أمير حاجب بسبب أنه صاحب اعلاء الدين الطنبغا ، فلما وقع ما وقع هرب فيمن هرب ، ولكن لم يأت الفخرى ، بل دخل البلد فتوسط فى الأمر : لم يذهب مع ذاك ولا جاء مع هذا ، ثم إنه استدرك ما فاته فرجع من البار إلى الفخرى ، وقبل بل رسم عليه حين جاء وهو مهموم جداً ، ثم إنه أعطى منديل الأمان ، وكان معهم كاتب السر القاضى شهاب الدين بن فضل الله ، ثم أفرج عنهم ، ومنهم الأمير سيف الدين حفطية وكان شديد الحنق عليه ، فأطلقه من يومه وأعاده إلى الحجوبية ، وأظهر مكارم أخلاق عظيمة ، ورياسة كبيرة ، وكان للقاضى علاء الدين بن المنجا قاضى قضاة الحنابلة فى هذه الكائنة سعى مشكور ، ومراجعة كبيرة للأمير علاء الدين الطنبغا ، حتى خيف عليه منه ، وخاطر بنفسه معه ، فأنجح الله مقصده وسلمه منه ، وكبت عدوه ولله الحمد والمنة .

وفى يوم السبت السادس والعشرين منه قلد قضاء العساكر المنصورة الشيخ فخر الدين بن الصائغ عوضا عن القاضى الحنفى ، الذى كان مع النائب المنفصل ، وذلك أنهم نقموا عليه إفتاءه الطنبغا بقتال الفخرى ، وفرح بولايته أصحاب الشيخ تقى الدين بن تيمية رحمه الله ، وذلك لأنه من أخص من صحبه قديما ، وأخذ عنه فوائد كثيرة وعلوما .

وفى يوم الأربعاء سلخ رجب آخر النهار قدم الأمير قمارى من عند الملك الناصر بن الناصر من الكرك وأخبره بما جرى من أمرهم وأمر الطنبغا ، ففرح بذلك وأخبر قمارى بقدوم السلطان ففرح الناس بذلك واستعدوا له بآلات المملكة وكثرت مطالبته أرباب الأموال والذمة بالجزية .

وفى مستهل رجب من هذه السنة ركب الفخرى فى دست النيابة بالموكب المنصور ، وهو أول ركوبه فيه ، وإلى جانبه قمارى وعلى قمارى خلعة هائلة ، وكثردعاء الناس للفخرى يومئذ ، وكان يوما مشهودا . وفى هذا اليوم خرج جماعة من المقدمين الألوف إلى الكرك بأخبار ابن السلطان بما جرى : منهم تغردمر وإقبغا عبد الواحد وهو الساقى ، وميكلى بغا وغيرهم . وفى يوم السبت ثالثه استدعى الفخرى القاضى الشافعى وألح عليه فى احضار الكتب فى سلة الحكم التى كانت أخذت من

عند الشيخ تقى الدين ابن تيمية رحمه الله من القلعة المنصورة فى أيام جلال الدين القزوينى ، فأحضرها القاضى بعد جهد ومدافعة ، وخاف على نفسه منه ، فقبضها منه الفخرى بالقصر وأذن له فى الانصراف من عنده ، وهو متغضب عليه ، وربما هم بعزله لممانعته إياها ، وربما قال قائل هذه فيها كلام يتعلق بمسألة الزيارة ، فقال الفخرى : كان الشيخ أعلم بالله وبرسوله منكم . واستبشر الفخرى باحضارها إليه واستدعى بأخى الشيخ زين الدين عبد الرحمن ، وبالشيخ شمس الدين عبد الرحمن بن قيم الجوزية وكان له سعى مشكور فيها ، فهنأهما باحضاره الكتب ، وبيت الكتب تلك الليلة فى خزانته للتبرك وصلى به الشيخ زين الدين أخو الشيخ صلاة المغرب بالقصر ، وأكرمه الفخرى إكراما زائدا لمحبته الشيخ رحمه الله .

وفى يوم الأحد رابعه دقت البشائر بالقلعة وفى باب الميدان لقدوم بشير بالقبض على قوصون بالديار المصرية ، واجتمع الناس لذلك واستبشر كثير منهم بذلك ، وأقبل جماعة من الأمراء إلى الكرك لطاعة الناصر بن الناصر ، واجتمعوا مع الأمراء الشاميين عند الكرك ، وطلبوا منه أن ينزل إليهم فأبى وتوهم أن هذه الأمور كلها مكيدة ليقبضوه ويسلموه إلى قوصون ، وطلب منهم أن ينظر فى أمره وردهم إلى دمشق . وفى هذه الأيام وما قبلها وما بعدها أخذ الفخرى من جماعة التجار بالأسواق وغيرها زكاة أموالهم سنة ، فتحصل من ذلك زيادة على مائة ألف وسبعة آلاف ، وصودر أهل الذمة بقريب من ذلك زيادة على الجزية التى أخذت منهم عن ثلاث سنين سلفا وتعجيلا ، ثم نودى فى البلد يوم الاثنين الحادى والعشرين من الشهر مناداة صادرة من الفخرى برفع الظلامات والطلبات وإسقاط ما تبقى من الزكاة والمصادرة ، غير أنهم احتاطوا على جماعة من المشاة المكثرين ليشتروا منهم بعض أملاك الخاص ، والبرهان بن بشارة الحنفى تحت المصادرة والعقوبة على طلب المال الذى وجده فى طميرة وجدها فيما ذكر عنه والله أعلم .

وفى يوم الجمعة الرابع والعشرين منه بعد الصلاة دخل الأمراء الستة الذين توجهوا نحو الكرك لطلب السلطان أن يقدم إلى دمشق فأبى عليهم فى هذا الشهر ، ووعدهم وقتا آخر فرجعوا ، وخرج الفخرى لتلقيهم ، فاجتمعوا قبلى جامع القبيبات الكريمى ، ودخلوا كلهم إلى دمشق فى جمع كثير من الأتراك الأمراء والجند ، وعليهم خمدة لعدم قدوم السلطان أيده الله . وفى يوم الأحد قدم البريد خلف قمارى وغيره من الأمراء يطلبهم إلى الكرك ، واشتهر أن السلطان رأى النبى ﷺ فى المنام وهو يأمره بالنزول من الكرك وقبول المملكة ، فانشرح الناس لذلك .

وتوفى الشيخ عمر بن أبى بكر بن اليشمى البسطى يوم الأربعاء التاسع والعشرين ، وكان رجلا صالحا كثير التلاوة والصلاة والصدقة ، وحضور مجالس الذكر والحديث ، له همة وصولة على الفقراء

المتشبهين بالصالحين وليسوا منهم ، سمع الحديث من الشيخ فخر الدين بن البخارى وغيره وقرأت عليه عن ابن البخارى مختصر المشيخة ، ولازم مجالس الشيخ تقى الدين بن تيمية رحمه الله ، وانتفع به ، ودفن بمقابر باب الصغير .

وفى شهر رمضان المعظم أوله يوم الجمعة ، كان قد نودى فى الجيش : آن الرحيل لملتقى السلطان فى سابع الشهر ، ثم تأخر ذلك إلى بعد العشر ، ثم جاء كتاب من السلطان بتأخر ذلك إلى بعد العيد وقدم فى عاشر الشهر علاء الدين بن تقى الدين الحنفى ، ومعه ولاية من السلطان الناصر بنظر البيمارستان النورى ، ومشيخة الربوة ومرتب على الجهات السلطانية ، وكان قد قدم قبله القاضى شهاب الدين بن البارزى بقضاء حمص من السلطان أيده الله تعالى ، ففرح الناس بذلك حيث تكلم السلطان فى المملكة وباشر وأمر وولى ووقع ولله الحمد . وفى يوم الأربعاء ثالث عشره دخل الأمير سيف الدين طشتمر الملقب بالحمص الأخضر من البلاد الحلبية إلى دمشق المحروسة ، وتلقاه الفخرى والأمراء والجيش بكماله ، ودخل فى أبهة حسنة ودعا له الناس وفرحوا بقدومه بعد شتاته فى البلاد وهربه من بين يدى الطنبغا حين قصده إلى حلب كما تقدم ذكره .

وفى يوم الخميس رابع عشره خرجت الجيوش من دمشق قاصدين إلى غزة لنظرة السلطان حين يخرج من الكرك السعيد ، فخرج يومئذ مقدمان : تغردمر واقبغا عبد الواحد فبرزا إلى الكسوة ، فلما كان يوم السبت خرج الفخرى ومعه طشتمر وجمهور الأمراء ، ولم يقم بعده بدمشق إلا من احتيج لمقامهم لمهمات المملكة ، وخرج معه القضاة الأربعة ، وقاضى العساكر والموقعين والمصاحب وكاتب الجيش وخلق كثير .

وتوفى الشيخ الصالح العابد الناسك أحمد بن .. الملقب بالقصيدة ليلة الأحد الرابع والعشرين من رمضان ، وصلى عليه بجامع شكر ، ودفن بالصوفية قريبا من قبر الشيخ جمال الدين المزى ، تغمدهما الله برحمته ، وكان فيه صلاح كثير ، ومواظبة على الصلاة فى جماعة ، وأمر بمعروف ونهى عن منكر مشكوراً عند الناس بالخير ، وكان يكثر من خدمة المرضى بالمارستان وغيره ، وفيه إيثار وقناعة وتزهد كثير ، وله أحوال مشهورة رحمه الله وإيانا .

واشتهر فى أواخر الشهر المذكور أن السلطان الملك الناصر شهاب الدين أحمد خرج من الكرك المحروس صحبة جماعة من العرب والأتراك قاصداً إلى الديار المصرية ، ثم تحرر خروجه منها فى يوم الاثنين ثامن عشر الشهر المذكور فدخل الديار المصرية بعد أيام . هذا والجيش صامدون إليه ، فلما تحقق دخوله مصر حثوا فى السير إلى الديار المصرية ، وبعث يستحثهم أيضا ، واشتهر أنه لم يجلس على سرير الملك حتى يقدم الأمراء الشاميون صحبة نائبه الأمير سيف الدين قطلوبغا الفخرى ، ولهذا لم تدق

البشائر بالقلاع الشامية ولا غيرها فيما بلغنا . وجاءت الكتب والأخبار من الديار المصرية بأن يوم الاثنين عاشر شوال كان إجلاس السلطان الملك الناصر شهاب الدين أحمد على سرير المملكة ، صعد هو والخليفة الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد بن المستكفى فوق المنبر ، وهما لابسان السواد ، والقضاة تحتهما على درج المنبر بحسب منازلهم ، نخطب الخليفة ، وخلع الأشرف كجك وولى هذا الناصر ، وكان يوما مشهودا ، وأظهر ولايته لطشتمر نيابة مصر ، والفخرى دمشق ، وأيد غمش حلب فالله أعلم ، ودقت البشائر بدمشق ليلة الجمعة الحادى والعشرين من الشهر المذكور ، واستمرت إلى يوم الاثنين مستهل ذى القعدة ، وزينت البلد يوم الأحد ثالث عشرين منه ، واحتفل الناس بالزينة.

وفى يوم الخميس المذكور دخل الأمير سيف الدين الملك أحد الرؤس المشهورة بمصر إلى دمشق فى طلب نيابة حماة حرسها الله تعالى ، فلما كان يوم الجمعة بعد الصلاة ورد البريد من الديار المصرية فأخبر أن طشتمر الحمص الأخضر مسك ، فتعجب الناس من هذه الكائنة كثيرا ، فخرج من بدمشق من أعيان الأمراء أمير الحج وغيره وخيم بوطأة برزة وخرج الى الحج أميرا فأخبره بذلك وأمروه عن مرسوم السلطان أن ينوب بدمشق حتى يأتى المرسوم بما يعتمد أمير الحج فأجاب إلى ذلك ، وركب فى الموكب يوم السبت السادس منه ، وأما الفخرى فانه لما تنسم هذا الخبر وتحققه وهو بالزعقة فرفى طائفة من مماليكه قريب من ستين أو أكثر ، فاحترق وساق سوقا حثيثا وجاءه الطلب من ورائه من الديار المصرية فى نحو من ألف فارس ، صحبة الأميرين : الطنبغا الماردانى ، ويبلغا التحناوى ، ففاتهما وسبق واعترض له نائب غزة فى جنده فلم يقدر عليه ، فسلطوا عليه العشيرات ينهبوه فلم يقدروا عليه إلا فى شيء يسير ، وقتل منهم خلقا ، وقصد نحو صاحبه فيما يزعم الأمير سيف الدين إيدغمش نائب حلب راجيا منه أن ينصره وأن يوافقه على ما قام بنفسه ، فلما وصل أكرمه وأنزله ، وبات عنده ، فلما أصبح قبض عليه وقيده ورده على البريد إلى الديار المصرية ، ومعه التراسيم من الأمراء وغيرهم .

ولما كان يوم الاثنين سلخ ذى القعدة خرج السلطان الملك الناصر شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد بن المنصور من الديار المصرية فى طائفة من الجيش قاصداً إلى الكرك المحروس ، ومعه أموال جزيلة ، وحواصل وأشياء كثيرة ، فدخلها يوم الثلاثاء من ذى الحجة وصحبته طشتمر فى محفة ممرضا ، والفخرى مقيداً ، فاعتقلا بالكرك المحروس ، وطلب السلطان آلات من أخشاب ونحوها وحدادين وصناع ونحوها لاصلاح مهمات بالكرك ، وطلب أشياء كثيرة من دمشق ، فحملت إليه . ولما كان يوم الأحد السابع والعشرين من ذى الحجة ورد الخبر بأن الأمير ركن الدين بيبرس الأحمدى النائب بصفد ركب فى مماليكه وخدمه ومن أطاعه ، وخرج منها فاراً بنفسه من القبض

عليه ، وذكر أن نائب غزة قصده ليقبض عليه بمرسوم السلطان ورد عليه من الكرك ، فهرب الأحمدى بسبب ذلك ، ولما وصل الخبر إلى دمشق وليس بها نائب انزعج الامراء لذلك، واجتمعوا بدار السعادة ، وضربوا فى ذلك مشورة ثم جردوا إلى ناحية بعلبك أميرا ليصدوه عن الذهاب إلى البرية . فلما أصبح الصباح من يوم الأثنين جاء الخبر بأنه فى نواحى الكسوة ، ولا مانع من خلاصه ، فركبوا كلهم ونادى المنادى : من تأخر من الجند عن هذا النفير شنق ، واستوثقوا فى الخروج وقصدوا ناحية الكسوة وبعثوا الرسل إليه ، فذكر اعتذاراً فى خروجه وتخلص منهم ، وذهب يومذلك، ورجعوا وقد كانوا ملبسين فى يوم حار ، وليس معهم من الازواد مايكفيهم سوى يومهم ذلك ، فلما كانت ليلة الثلاثاء ركب الأمراء فى طلبه من ناحية ثنية العقاب ، فرجعوا فى اليوم الثانى وهو فى صحبتهم ، ونزل فى القصور التى بناها تنكز رحمه الله ، فى طريق داريا ، فأقام بها ، وأجروا عليه مرتباً كاملا من الشعير والغنم وما يحتاج إليه مثله ، ومعه مماليكه وخدمه ، فلما كان يوم الثلاثاء سادس المحرم ورد كتاب من جهة السلطان فقرىء على الأمراء بدار السعادة يتضمن إكرامه واحترامه والصفح عنه لتقدم خدمه على السلطان الملك الناصر وابنه الملك المنصور . ولما كان يوم الأربعاء سابع المحرم [جاء كتاب] إلى الأمير ركن الدين بيبرس نائب الغيبة ابن الحاجب ألمَش بالقبض على الأحمدى ، فركب الجيش ملبسين يوم الخميس وأوكبوا بسوق الخيل وراسلوه ـ وقد ركب فى مماليكه بالعدد وأظهر الامتناع ـ فكان جوابه أن لا أسمع ولا أطيع إلا لمن هو ملك الديار المصرية ، فأما من هو مقيم بالكرك ويصدر عنه مايقال عنه من الأفاعيل التى قد سارت بها الركبان ، فلا . فلما بلغ الأمراء هذا توقفوا فى أمره وسكنوا ورجعوا إلى منازلهم ، ورجع هو إلى قصره .

﴿ ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة ﴾

استهلت هذه السنة المباركة وسلطان المسلمين الملك الناصر ناصر الدين محمد بن الملك المنصور قلاوون ، وهو مقيم بالكرك ، قد حاز الحواصل السلطانية من قلعة الجبل إلى قلعة الكرك ، ونائبه الديار المصرية الأمير سيف الدين آقسنقر السلارى ، الذى كان نائبا بغزة ، وقضاة الديار المصرية هم المذكورون فى السنة الماضية ، سوى القاضى الحنفى . وأما دمشق فليس لها نائب إلى حينئذ غير أن الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب كان استنابه الفخرى بدمشق نائب غيبته ،فهو الذى يسد الأمور مع الحاجب ألمش ، وتمر المهمندار ، والأمير سيف الدين الملقب بحلاوة ، والى البر ، والأمير ناصر الدين ابن ركباس متولى البلد ،هؤلاء الذين يسدون الأشغال والأمور السلطانية ، والقضاة هم الذين ذكرناهم فى السنة الخالية ، وخطيب البلد تاج الدين عبد الرحيم بن القاضى جلال الدين القزوينى ، وكاتب السر القاضى شهاب الدين بن فضل الله .

واستهلت هذه السنة والأمير ركن الدين بيبرس الأحمدى نازل بقصر تنكز بطريق داريا، وكتب السلطان واردة فى كل وقت بالاحتياط عليه والقبض ، وأن يمسك ويرسل إلى الكرك ، هذا والأمراء يتوانون فى أمره ويسوفون المراسيم ، وقتاً بعد وقت ، وحينا بعد حين ، ويحملهم على ذلك أن الأحمدى لاذنب له ، ومتى مسكه تطرف إلى غيره ، مع أن السلطان يبلغهم عنه أحوال لاترضيهم من اللعب والاجتماع مع الاراذل والأطراف ببلد الكرك ، مع قتله الفخرى وطشتمر قتلا فظيعا ، وسلبه أهلهما وسلبه لما على الحريم من الثياب والحلى ، وإخراجهم فى أسوإ حال من الكرك ، وتقريبه النصارى وحضورهم عنده . فحمل الأمراء هذه الصفات على أن بعثوا أحدهم يكشف أمره ، فلم يصل إليه ، ورجع هاربا خائفاً ، فلما رجع وأخبر الأمراء انزعجوا وتشوشوا كثيراً ، واجتمعوا بسوق الخيل مراراً وضربوا مشورة بينهم ، فاتفقوا على أن يخلعوه ، فكتبوا إلى المصريين بذلك ، وأعلموا نائب حلب أيدغمش ونواب البلاد ، وبقوا متوهمين من هذا الحال كثيراً ومترددين ، ومنهم من يصانع فى الظاهر وليس معهم فى الباطن ، وقالوا لاسمع له ولا طاعة حتى يرجع إلى الديار المصرية ، ويجلس على سرير المملكة ، وجاء كتابه إليهم يعيبهم ويعنفهم فى ذلك ، فلم يفد ، وركب الأحمدى فى الموكب وركبوا عن يمينه وشماله وراحوا إليه إلى القصر ، فسلموا عليه وخدموه ، وتفاقم الأمر وعظم الخطب ، وحملوا هموما عظيمة خوفا من أن يذهب إلى الديار المصرية فيلف عليه المصريون فيتلف الشاميين ، فحمل الناس همهم فالله هو المسئول أن يحسن العاقبة . فلما كان يوم الاحد السادس والعشرين من المحرم ورد مقدم البريدية ومعه كتب المصريين بأنه لما بلغهم خبر الشاميين كان عندهم من أمر السلطان أضعاف ماحصل عند الشاميين ، فبادروا إلى ما كانوا عزموا عليه ، ولكن ترددوا خوفا من الشاميين أن يخالفوهم فيه ويتقدموا فى صحبة السلطان لقتالهم ، فلما اطمأنوا من جهة الشاميين صمموا على عزمهم فخلعوا الناصر أحمد وملكوا عليهم أخاه الملك الصالح إسماعيل ابن الناصر محمد بن المنصور ، جعله الله مباركا على المسلمين ، وأجلسوه على السرير يوم الثلاثاء العشرين من المحرم المذكور ، وجاء كتابه مسلما على أمراء الشام ومقدميه ، وجاءت كتب الأمراء على الأمراء بالسلام والأخبار بذلك ففرح المسلمون وأمراء الشام والخاصة والعامة بذلك فرحا شديداً ، ودقت البشائر بالقلعة المنصورة يومئذ ، ورسم بتزيين البلد فزين الناس صبيحة الثلاثاء السابع والعشرين منه ، ولما كان يوم الجمعة سلخ المحرم خطب بدمشق للملك الصالح عماد الدنيا والدين إسماعيل بن الناصر بن المنصور .

وفى يوم الخميس سادس صفر درس بالصدرية صاحبنا الامام العلامة شمس الدين محمد بن أبى بكر بن أيوب الذرعى إمام الجوزية ، وحضر عنده الشيخ عز الدين بن المنجا الذى نزل له عنها ، وجماعة من الفضلاء . وفى يوم الاثنين سادس عشر صفر دخل الأمير سيف الدين تغردمر من الديار

المصرية ، إلى دمشق ذاهبا إلى نيابة حلب المحروسة ، فنزل بالقابون .

وفى يوم الثلاثاء ثامن عشر صفر توفى الشيخ الامام العالم العامل الزاهد عبد الله بن أبى الوليد المقرى المالكى ، إمام المالكية ، هو وأخوه أبو عمرو ، بالجامع الأموى بمحراب الصحابة . توفى ببستان بقية السحف ، وصلى عليه بالمصلى ودفن عند أبيه رحمهما الله بمقابر باب الصغير ، وحضر جنازته الأعيان والفقهاء والقضاة ، وكان رجلا صالحا مجمعا على ديانته وجلالته رحمه الله .

وفى يوم الخميس العشرين من صفر دخل الأمير ايدغمش نائب السلطنة بدمشق ودخل إليها من ناحية القابون قادما من حلب ، وتلقاه الجيش بكماله ، وعليه خلعة النيابة ، واحتفل الناس له وأشعلوا الشموع ، وخرج أهل الذمة من اليهود والنصارى يدعون له ومعهم الشموع ، وكان يوما مشهوداً ، وصلى يوم الجمعة بالمقصورة ، من الجامع الأموى ، ومعه الأمراء والقضاة ، وقرىء تقليده هناك على السدة وعليه خلعته ، ومعه الأمير سيف الدين ملكتمر الرحولى ، وعليه خلعة أيضا .

وفى يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من صفر دخل الأمير علم الدين الجاولى دمشق المحروسة ذاهبا إلى نيابة حماة المحروسة ، وتلقاه نائب السلطنة والأمراء إلى مسجد القدم ، وراح فنزل بالقابون ، وخرج القضاة والأعيان إليه ، وسمع عليه من مسند الشافعى فانه يرويه ، وله فيه عمل ، ورتبه ترتيبا حسنا ورأيته ، وشرحه أيضا ، وله أوقاف على الشافعية وغيرهم .

وفى يوم الجمعة الثامن والعشرين منه عقد مجلس بعد الصلاة بالشباك الكمالى من مشهد عثمان بسبب القاضى فخر الدين المصرى ، وصدر الدين عبد الكريم ابن القاضى جلال الدين القزوينى ، بسبب العادلية الصغيرة ، فاتفق الحال على أن نزل صدر الدين عن تدريسها ، ونزل فخر الدين عن مائة وخمسين على الجامع . وفى يوم الأحد سلخ الشهر المذكور حضر القاضى فخر الدين المصرى ودرس بالعادلية الصغيرة وحضر الناس عنده على العادة ، وأخذ فى قوله تعالى (هذه بضاعتنا ردت إلينا) وفى آخر شهر ربيع الأول جاء المرسوم من الديار المصرية بأن يخرج تجريدة من دمشق بصحبة الامير حسام الدين السمقدار لحصار الكرك الذى تحصن فيه ابن السلطان أحمد ، واستحوذ على ماعنده من الأموال التى أخذها من الخزائن من ديار مصر ، وبرز المنجنيق من القلعة إلى قبل جامع القبيبات ، فنصب هناك وخرج الناس للتفرج عليه ورمى به ومن نيتهم أن يستصحبوه معهم للحصار .

وفى يوم الأربعاء ثانى ربيع الآخر قدم الامير علاء الدين الطنبغا الماردانى من الديار المصرية على قاعدته وعادته . وفى يوم الخميس عاشره دخل إلى دمشق الأميران الكبيران ركن الدين بيبرس الأحمدى من طرابلس ، وعلم الدين الجاولى من حماة سحرا ، وحضرا الموكب ووقفا مكتفين لنائب السلطنة : الاحمدى عن يمينه والجاولى عن يساره ، ونزلا ظاهر البلد ، ثم بعد أيام يسيرة توجه

الاحمدى إلى الديار المصرية على عادته وقاعدته رأس مشورة ، وتوجه الجاولى إلى غزة المحروسة نائبا عليها ، وكان الامير بدر الدين مسعود بن الخطير على إمرة الطبلخانات بدمشق . وفى يوم الخميس رابع عشره خرجت التجريدة من دمشق سحراً إلى مدينة الكرك ، والأمير شهاب الدين بن صبيح والى الولاة بحوران ومشد المجانيق ، وخرج الامير سيف الدين بهادر الشمس الملقب بحلاوة والى البر بدمشق إلى ولاية الولاة بحوران . وفى يوم الجمعة ثامن عشره وقع بين النائب والقاضى الشافعى بسبب كتاب ورد من الديار المصرية فيه الوصاة بالقاضى السبكى المذكور ومعه التوقيع بالخطابة له مضافا إلى القضاء وخلعة من الديار المصرية ، فتغيظ عليه النائب لأجل أولاد الجلال ، لأنهم عندهم عائلة كثيرة وهم فقراء ، وقد نهاه عن السعى فى ذلك ، فتقدم إليه يومئذ أن لا يصلى عنده فى الشباك الكمالى ، فنهض من هناك وصلى فى الغزالية .

وفى يوم الأحد العشرين منه دخل دمشق الأمير سيف الدين اريغا زوج ابنة السلطان الملك الناصر مجتازاً ذاهبا إلى طرابلس نائبا بها ، فى تجمل وأبهة ونجائب وجنائب ، وعدة وسرك كامل . وفى يوم الخميس الرابع والعشرين منه دخل الأمير بدرالدين ابن الخطيرى معزولا عن نيابة غزة المحروسة فأصبح يوم الخميس فركب فى الموكب وسير مع نائب السلطنة ، ونزل فى داره وراح الناس للسلام عليه . وفى يوم الثلاثاء ثالث عشر صفر زينت البلد لعافية السلطان الملك الصالح لمرض أصابه ، ثم شفى منه . وفى يوم الجمعة السادس عشرينه قبل العصر ورد البريد من الديار المصرية بطلب قاضى القضاة تقى الدين السبكى إليها حاكما بها ، فذهب الناس للسلام عليه ولتوديعه ، وذلك بعد ما أرجف الناس به كثيراً ، واشتهر أنه سينعقد له مجلس للدعوى عليه بما دفعه من مال الايتام إلى الطنبغا وإلى الفخرى ، وكتبت فتوى عليه بذلك فى تغريمه ، وداروا بها على المفتيين فلم يكتب لهم أحد فيها غير القاضى جلال الدين بن حسام الدين الحنفى ، رأيت خطه عليها وحده بعد الصلاة ، وسئلت فى الافتاء عليها فامتنعت ، لما فيها من التشويش على الحكام ، وفى أول مرسوم نائب السلطان أن يتأمل المفتون هذا السؤال ويفتوا بما يقتضيه حكم الشرع الشريف ، وكانوا له فى نية عجيبة ففرج الله عنه بطلبه إلى الديار المصرية ، فسار إليها صحبة البريد ليلة الأحد ، وخرج الكبراء والأعيان لتوديعه ، وفى خدمته .

استهل جمادى الآخرة والتجريدة عمالة إلى الكرك والجيش المجردون من الحلقة قريب من ألف ويزيدون ، ولما كان يوم الثلاثاء رابعه بعد الظهر مات الأمير علاء الدين أيدغمش نائب السلطنة بالشام المحروس فى دار وحده فى دار السعادة ، فدخلوا عليه وكشفوا أمره وأحصر واوخشوا أن يكون اعتراه سكتة ، ويقال إنه شقى فالله أعلم ، فانتظروا به إلى الغد احتياطاً ، فلما أصبح الناس اجتمعوا

للصلاة عليه فصلى عليه خارج باب النصر حيث يصلى على الجنائز، وذهبوا به إلى نحو القبلة . ورام بعض أهله أن يدفن فى تربة غبريال إلى جانب جامع القبيبات ، فلم يمكن ذلك ، فدفن قبلى الجامع على حافة الطريق ، ولم يتهيأ دفنه إلا إلى بعد الظهر من يومئذ ، وعملوا عنده ختمة ليلة الجمعة رحمه الله وسامحه .

واشتهر فى أوائل هذا الشهر أن الحصار عمال على الكرك ، وأن أهل الكرك خرجت طائفة منهم فقتل منهم خلق كثير ، وقتل من الجيش واحد فى الحصار ، فنزل القاضى وجماعة ومعهم شىء من الجوهر . وتراضوا على أن يسلموا البلد . فلما أصبح أهل الحصن تحصنوا ونصبوا المجانيق واستمدوا فلما كان بعد أيام رموا منجنيق الجيش فكسروا السهم الذى له ، وعجزوا عن نقله فحرقوه برأى أمراء المقدمين ، وجرت أمور فظيعة . فالله يحسن العاقبة .

ثم وقعت فى أواخر هذا الشهر بين الجيش وأهل الكرك وقعة أخرى ، وذلك أن جماعة من رجال الكرك خرجوا إلى الجيش ورموهم بالنشاب فخرج الجيش لهم من الخيام ورجموا مشاة ملبسين بالسلاح فقتلوا من أهل الكرك جماعة من النصارى وغيرهم . وجرح من العسكر خلق ، وقتل واحد أو اثنان وأسر الأمير سيف الدين أبو بكر بن بهادر آص . وقتل أمير العرب ، وأسر آخرون فاعتقلوا بالكرك ، وجرت أمور منكرة ، ثم بعدها تعرض العسكر راجعين إلى بلادهم لم ينالوا مرادهم منها ، وذلك أنهم رقهم البرد الشديد وقلة الزاد ، وحاصروا أولئك شديداً بلا فائدة فان البلد بريد متطاولة ومجانيق ، ويشق على الجيش الاقامة هناك فى كوانين ، والمنجنيق الذى حملوه معهم كسر ، فرجعوا ليتأهبوا لذلك .

ولما كان فى يوم الأربعاء الخامس والعشرين منه قدم من الديار المصرية على البريد القاضى بدر الدين بن فضل الله كاتباً على السر عوضاً عن أخيه القاضى شهاب الدين ، ومعه كتاب بالاحتياط على حواصل أخيه شهاب الدين ، وعلى حواصل القاضى عماد الدين ابن الشيرازى المحتسب ، فاحتيط على أموالهما وأخرج من فى ديارهما من الحرم ، وضربت الأخشاب على الابواب ، ورسم على المحتسب بالمدراوية . فسأل أن يحول إلى دار الحديث الأشرفية فحول إليها . وأما القاضى شهاب الدين . فكان قد خرج ليلتقى الأمير سيف الدين تغردمر الحموى . الذى جاء تقليده بنيابة الشام بدمشق وكان بحلب ، وجاء هذا الأمر وهو فى أثناء الطريق . فرسم برجعته ليصادر هو والمحتسب ، ولم يدر الناس ما ذنبهما .

وفى يوم الأحد ثامن شهر رجب آخر النهار رجع قاضى القضاء تقى الدين السبكى إلى دمشق على القضاء . ومعه تقليد بالخطابة أيضا ، وذهب الناس اليه للسلام عليه ، ودخل نائب السلطنة

الأمير سيف الدين تغردمر الحموى بعد العصر الخامس عشرينه من حلب ، فتلقاه الأمراء إلى طريق القابون ، ودعا له الناس دعاء كثيراً ، وأحبوه لبغضهم النائب الذى كان قبله ، وهو علاء الدين أيدغمش سامحه الله تعالى ، فنزل بدار السعادة وحضر الموكب صبيحة يوم الاثنين ، واجتمع طائفة من العامة وسألوه أن لا يغير عليهم خطيبهم تاج الدين عبد الرحيم ابن جلال الدين ، فلم يلتفت إليهم ، بل عمل على تقليد القاضى تقى الدين السبكى الخطابة ولبس الخلعة ، وأكثر العوام لما سمعوا بذلك الغوغاء ، وصاروا يجتمعون حلقا حلقا بعد الصلوات ويكثرون الفرحة فى ذلك ، لما منع ابن الجلال ، ولكن بقى هذا لم يباشر السبكى فى المحراب ، واشتهر عن العوام كلام كثير ، وتوعدوا السبكى بالسفاهة عليه إن خطب ، وضاق بذلك ذرعا ، ونهوا عن ذلك فلم ينتهوا ، وقيل لهم ولكثير منهم : الواجب عليكم السمع والطاعة لأولى الأمر ، ولو أمر عليكم عبد حبشى . فلم يرعووا ، فلما كان يوم الجمعة العشرين منه اشتهر بين العامة بأن القاضى نزل عن الخطابة لابن الجلال ، ففرح العوام بذلك وحشدوا فى الجامع ، وجاء نائب السلطنة إلى المقصورة والأمراء معه ، وخطب ابن الجلال على العادة ، وفرح الناس بذلك وأكثروا من الكلام والهرج ، ولما سلم عليهم الخطيب حين صعد ردوا عليه رداً بليغاً ، وتكلفوا فى ذلك وأظهروا بغضة القاضى السبكى ، وتجاهروا بذلك ، وأسمعوه كلاماً كثيراً ، ولما قضيت الصلاة قرىء تقليد النيابة على السدة ، وخرج الناس فرحى بخطيبهم ، لكونه استمر عليهم ، واجتمعوا عليه يسلمون ويدعون له .

وفى يوم الأربعاء ثالث شعبان درس القاضى برهان الدين بن عبد الحق بالمدرسة العذراوية بمرسوم سلطانى بتوليته وعزل القنجارى ، وعقد لهما مجلس يوم الثلاثاء بدار العدل ، فرجح جانب القاضى برهان الدين لحاجته وكونه لا وظيفة له .

وفى يوم الجمعة خامسه توفى الشيخ الصالح شهاب الدين أحمد ابن الجزرى أحد المسندين المكثرين الصالحين ، مات عن خمس وتسعين سنة رحمه الله ، وصلى عليه يوم الجمعة بالجامع المظفرى ودفن بالرواحية . وفى يوم الاربعاء السابع عشر منه توفى الشيخ الامام العالم العابد الناسك الصالح الشيخ شمس الدين محمد بن الزرير خطيب الجامع الكريمى بالقبيبات ، وصلى عليه بعد الظهر يومئذ بالجامع المذكور ، ودفن قبلى الجامع المذكور ، إلى جانب الطريق من الشرق رحمه الله .

واشتهر فى أوائل رمضان أن مولوداً ولد له رأسان وأربع أيد ، وأحضر إلى بين يدى نائب السلطنة ، وذهب الناس للنظر إليه فى محلة ظاهر باب الفراديس ، يقال لها حكى الوزير ، وكنت فيمن ذهب إليه فى جماعة من الفقهاء يوم الخميس ثالث الشهر المذكور بعد العصر ، فأحضره أبوه ـ واسم أبيه سعادة ـ وهو رجل من أهل الجبل ، فنظرت إليه فاذا هما ولدان مستقلان ، فكل قد اشتبكت

أفخاذهما بعضهما ببعض ، وركب كل واحد منهما ودخل فى الآخر والتحمت فصارت جثة واحدة وهما ميتان ، فقالوا أحدهما ذكر والآخر أنثى ، وهما ميتان حال رؤيتى إليهما . وقالوا إنه تأخر موت أحدهما عن الآخر بيومين أو نحوهما ، وكتب بذلك محضر جماعة من الشهود .

وفى هذا اليوم احتيط على أربعة من الأمراء وهم أبناء الكامل صلاح الدين محمد ، أمير طبلخانات ، وغياث الدين محمد أمير عشرة ، وعلاء الدين على ، وابن أيبك الطويل طبلخانات أيضا ، وصلاح الدين خليل بن بلبان طرنا طبلخانات أيضا . وذلك بسبب أنهم اتهموا على ممالأة الملك أحمد بن الناصر الذى فى الكرك ، ومكاتبته ، والله أعلم بحالهم ، فقيدوا وحملوا إلى القلعة المنصورة من باب اليسر مقابل باب دار السعادة الثلاث الطبلخانات والغياث من بابها الكبير وفرق بينهم فى الاماكن . وخرج المحمل يوم الخميس خامس عشره ولبس الخطيب ابن الجلال خلعة استقرار الخطابة فى هذا اليوم ، وركب بهامع القضاة على عادة الخطباء .

وفى هذا الشهر نصب المنجنيق الكبير على باب الميدان الأخضر وطول أكتافه ثمانية عشر ذراعا ، وطول سهمه سبعة وعشرون ذراعا ، وخرج الناس للفرجة عليه ، ورمى به فى يوم السبت حجراً زنته ستين رطلا ، فبلغ إلى مقابلة القصر من الميدان الكبير ، وذكر معلم المجانيق أنه ليس فى حصون الاسلام مثله ، وأنه عمله الحاج محمد الصالحى ليكون بالكرك ، فقدر الله أنه خرج ليحاصر به الكرك ، فالله يحسن العاقبة . وفى أواخره أيضا مسك أربعة أمراء ، وهم أقبغا عبد الواحد الذى كان مباشراً الاستدارية للملك الناصر الكبير ، فصودر فى أيام ابنه المنصور ، وأخرج إلى الشام فناب بحمص فسار سيرة غير مرضية ، وذمه الناس وعزل عنها وأعطى تقدمة ألف بدمشق ، وجعل رأس الميمنة ، فلما كان فى هذه الأيام اتهم بممالأة السلطان أحمد بن الناصر الذى بالكرك ، فمسك وحمل إلى القلعة ومعه الأمير سيف الدين بلو ، والأمير سيف الدين سلامش ، وكلهم بطبلخانات فرفعوا إلى القلعة المنصورة ، فالله يحسن العاقبة .

وفى هذا الشهر خرج قضاء حمص عن نيابة دمشق بمرسوم سلطانى مجدد للقاضى شهاب الدين البارزى ، وذلك بعد مناقشة كثيرة وقعت بينه وبين قاضى القضاة تقى الدين السبكى ، وانتصر له بعض الدولة ، واستخرج له المرسوم المذكور . وفيه أيضا أفرد قضاء القدس الشريف أيضا باسم القاضى شمس الدين بن سالم الذى كان مباشرها مدة طويلة قبل ذلك نيابة ، ثم عزل عنها وبقى مقيما ببلده غزة ، ثم أعيد إليها مستقلا بها فى هذا الوقت . وفى هذا الشهر رجع القاضى شهاب الدين ابن فضل الله من الديار المصرية ومعه توقيع بالمرتب الذى كان له أولا كل شهر ألف درهم ، وأقام بعمارته التى أنشأها بسفح قاسيون شرقى الصالحية بقرب حمام النحاس .

وفى صبيحة مستهل ذى القعدة خرج المنجنيق قاصدا إلى الكرك على الجمال والعجل ، وصحبته الأمير صارم الدين إبراهيم المسبقى ، أميرحاجب ، كان فى الدولة السكرية ، وهو المقدم عليه يحوطه ويحفظه ويتولى تسييره بطلبه وأصحابه ، وتجهز الجيش للذهاب إلى الكرك ، وتأهبوا أتم الجهاز ، وبرزت أثقالهم إلى ظاهر البلد وضربت الخيام فالله يحسن العاقبة .

وفى يوم الاثنين رابعه توفى الطواشى شبل الدولة كافور السكرى ، ودفن صبيحة يوم الثلاثاء خامسه فى تربته التى أنشأها قديما ظاهر باب الجابية تجاه تربة الطواشى ظهير الدين الخازن بالقلعة ، كان قبيل مسجد الدبان رحمه الله ، وكان قديما للصاحب تقى الدين توبة التكريتى ، ثم اشتراه تنكز بعد مدة طويلة من ابنى أخيه صلاح الدين وشرف الدين بمبلغ جيد وعوضهما إقطاعا بزيادة على ما كان بأيديهما ، وذلك رغبة فى أمواله التى حصلها من أبواب السلطنة ، وقد تعصب عليه أستاذه تنكز رحمه الله فى وقت وصودر وجرت عليه فصول ، ثم سلم بعد ذلك ، ولما مات ترك أموالا جزيلة وأوقافا رحمه الله . وخرجت التجريدة يوم الأربعاء سادسه والمقدم عليها الأمير بدر الدين بن الخطير ومعه مقدم آخر وهو الأمير علاء الدين بن قراسنقر .

وفى يوم السبت سلخ هذا الشهر توفى الشاب الحسن شهاب الدين أحمد بن فرج المؤذن بمأذنة العروس ، وكان شهيراً بحسن الصوت ذا حظوة عظيمة عند أهل البلد ، وكان رحمه الله كافى النفس وزيادة فى حسن الصوت الرخيم المطرب ، وليس فى القراء ولا فى المؤذنين قريب منه ولا من يدانيه فى وقته ، وكان فى آخر وقته على طريقة حسنة ، وعمل صالح ، وانقطاع عن الناس ، وإقبال على شأن نفسه فرحمه الله ، وأكرم مثواه ، وصلى عليه بعد الظهر يومئذ ودفن عند أخيه بمقبرة الصوفية .

وفى يوم الخميس خامس ذى الحجة توفى الشيخ بدر الدين بن نصحان شيخ القراء السبع فى البلد الشهير بذلك ، وصلى عليه بالجامع بعد الظهر يومئذ ، ودفن بباب الفراديس رحمه الله .

وفى يوم الأحد تاسعه وهو يوم عرفة حضر الاقراء بتربة أم الصالح عوضا عن الشيخ بدر الدين ابن نصحان القاضى شهاب الدين أحمد بن النقيب البعلبكى ، وحضر عنده جماعة من الفضلاء ، وبعض القضاة ، وكان حضوره بغتة ، وكان متمرضا ، فألقى شيئامن القراءات والاعراب عند قوله تعالى (ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم) وفى أواخر هذا الشهر غلا السعر جدا وقل الخبز وازدحم الناس على الافران زحمة عظيمة ، وبيع خبز الشعير المخلوط بالزيوان والنقارة ، وبلغت الغرارة بمائة وستة وثمانين درهما ، وتقلص السعر جداً حتى بيع الخبز كل رطل بدرهم ، وفوق ذلك بيسير ، ودونه بحسب طيبه ورداءته ، فانا لله وإنا إليه راجعون . وكثر السؤال وجاع العيال ، وضعف كثير من الأسباب والأحوال ، ولكن لطف الله عظيم فان الناس مترقبون مغلا

هائلا لم يسمع بمثله من مدة سنين عديدة ، وقد اقترب أوانه ، وشرع كثير من البلاد فى حصاد الشمير و بعض القمح مع كثرة الفول وبوادر التوت ، فلولا ذلك لكان غير ذلك ، ولكن لطف الله بعباده ، وهو الحاكم المتصرف الفعال لما يريد لا إله إلا هو .

﴿ ثم دخلت سنة أربع وأربعين وسبعمائة ﴾

استهلت هذه السنة وسلطان المسلمين الملك الناصر عماد الدنيا والدين إسماعيل ابن الملك الناصر ناصر الدين محمد بن الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحى ، ونائبه بالديار المصرية الأمير سيف الدين آقسنقر السلارى ، وقضاته هم المتقدم ذكرهم فى العام الماضى ، ونائبه بدمشق الأمير سيف الدين تغردمر الحموى ، وقضاته هم المتقدم ذكرهم ، وكذلك الصاحب والخطيب وناظر الجامع والخزانة . ومشد الأوقاف و ولاية المدينة .

استهلت والجيوش المصرية والشامية محيطة بحصن الكرك محاصرون ويبالغون فى أمره ، والمنجنيق منصوب وأنواع آلات الحصار كثيرة ، وقد رسم بتجريدة من مصر والشام أيضاً تخرج إليها . وفى يوم الخميس عاشر صفر دخلت التجريدة من الكرك إلى دمشق واستمرت التجريدة الجديدة على الكرك ألفان من مصر وألفان من الشام ، والمنجنيق منقوض موضوع عند الجيش خارج الكرك ، والأمور متوقفة على وبرد [1] الحصار بعد رجوع الأحمدى إلى مصر .

وفى يوم السبت ثانى ربيع الأول توفى السيد الشريف عماد الدين الخشاب بالكوشك فى درب السيرجى جوار المدرسة العزية ، وصلى عليه ضحى بالجامع الأموى ، ودفن بمقابر باب الصغير ، وكان رجلا شهماً كثير العبادة والمحبة للسنة وأهلها ، ممن واظب الشيخ تقى الدين بن تيمية رحمه الله وانتفع به ، وكان من جملة أنصاره وأعوانه على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهو الذى بعثه إلى صيدنا يامع بعض القسيسين فلوث يده بالعذرة وضرب اللحمة التى يعظمونها هنالك ، وأهانها غاية الاهانة لقوة إيمانه وشجاعته رحمه الله و إيانا .

وفى يوم الخميس سابعه اجتمع الصاحب ومشد الدواوين ووكيل بيت المال ، ومشد الأوقاف ومباشرو الجامع ومعهم العمالين بالقول والمعاول ، يحفرون إلى جانب السارية عند باب مشهد على تحت تلك الصخرة التى كانت هناك ، وذلك عن قول رجل جاهل ، زعم أن هناك مالا مدفوناً فشاوروا نائب السلطنة فأمرهم بالحفر ، واجتمع الناس والعامة فأمرهم فأخرجوا وأغلقت أبواب الجامع كلها ليتمكنوا من الحفر ، ثم حفروا ثانياً وثالثاً فلم يجدوا شيئاً إلا التراب المحض ، واشتهر هذا الحفير فى البلد وقصده الناس للنظر إليه والتعجب من أمره ، وانفصل الحال على أن حبس هذا الزاعم لهذا المحال ، وطم الحفير كما كان .

(١) كذا فى الاصل . فليحرر .

وفى يوم الاثنين ثامن عشر ربيع الأول قدم قاضى حلب ناصر الدين بن الخشاب على البريد مجتازاً إلى دمشق فنزل بالعادلية الكبيرة ، وأخبر أنه صلى على المحدث البارع الفاضل الحافظ شمس الدين محمد بن على بن أيبك السروجى المصرى يوم الجمعة ثامن هذا الشهر بحلب رحمه الله ومولده سنة خمس عشرة وسبعمائة ، وكان قد أتقن طرفا جيداً فى علم الحديث ، وحفظ أسماء الرجال، وجمع وخرج .

وفى مستهل ربيع الآخر وقع حريق عظيم بسفح قاسيون احترق به سوق الصالحية الذى بالقرب من جامع المظفرى ، وكانت جملة الدكاكين التى احترقت قريبا من مائة وعشرين دكاناً ، ولم ير حريق من زمان أكبر منه ولا أعظم ، فانا لله وإنا إليه راجعون . وفى يوم الجمعة سادسه رسم بأن يذكر بالصلاة يوم الجمعة فى سائر مواذن البلد كما يذكر فى مواذن الجامع ، ففعل ذلك . وفى يوم الثلاثاء عاشره طلب من القاضى تقى الدين السبكى قاضى قضاة الشافعية أن يقرض ديوان السلطان شيئاً من أموال الغياب التى تحت يده ، فامتنع من ذلك امتناعا كثيراً ، فجاء شاد الدواوين و بعض حاشية نائب السلطنة ففتحوا مخزن الأيتام وأخذوا منه خمسين ألف درهم قهراً ، ودفعوها إلى بعض العرب عما كان تأخر له فى الديوان السلطانى ، ووقع أمر كثير لم يعهد مثله .

وفى يوم الأربعاء عاشر جمادى الأولى توفى صاحبنا الشيخ الامام العالم العلامة الناقد البارع فى فنون العلوم شمس الدين محمد بن الشيخ عماد الدين أحمد بن عبد الهادى المقدسى الحنبلى، تغمده الله برحمته ، وأسكنه بحبوحة جنته ، مرض قريباً من ثلاثة أشهر بقرحة وحمى سل ، ثم تفاقم أمره وأفرط به إسهال ، وتزايد ضعفه إلى أن توفى يومئذ قبل أذان العصر ، فأخبرنى والده أن آخر كلامه أن قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، اللهم اجعلنى من التوابين واجعلنى من المتطهرين . فصلى عليه يوم الخميس بالجامع المظفرى وحضر جنازته قضاة البلد وأعيان الناس من العلماء والأمراء والتجار والعامة ، وكانت جنازته حافلة مليحة ، عليها ضوء ونور ، ودفن بالروضة إلى جانب قبر السيف ابن المجد رحمهما الله تعالى ، وكان مولده فى رجب سنة خمس وسبعمائة فلم يبلغ الأربعين ، وحصل من العلوم مالا يبلغه الشيوخ الكبار ، وتفنن فى الحديث والنحو والتصريف والفقه والتفسير والأصلين والتاريخ والقراءات وله مجاميع وتعاليق مفيدة كثيرة ، وكان حافظا جيداً لأسماء الرجال ، وطرق الحديث ، عارفا بالجرح والتعديل ، بصيراً بعلل الحديث ، حسن الفهم له ، جيد المذاكرة صحيح الذهن مستقيما على طريقة السلف ، واتباع الكتاب والسنة ، مثابرا على فعل الخيرات .

وفى يوم الثلاثاء سابعه درس بمحراب الحنابلة صاحبنا الشيخ الامام العلامة شرف الدين بن

القاضى شرف الدين الحنبلى فى حلقة الثلثاء عوضا عن القاضى تقى الدين بن الحافظ رحمه الله ، وحضر عنده القضاء والفضلاء ، وكان درسا حسنا أخـذ فى قوله تعالى . (إن الله يأمر بالعدل والاحسان) وخرج إلى مسألة تفضيل بعض الأولاد . وفى يوم الخميس ثانى شهر جمادى الأولى خرجت التجريدة إلى الكرك مقدمان من الأمراء ، وهما الامير شهاب الدين بن صبح ، والامير سيف الدين قلاوون ، فى أبهة عظيمة وتجمل وجيوش وبقارات ، وإزعاج كثيرة .

وفى صبيحة يوم الاثنين الحادى والعشرين منه قتل بسوق الخيل حسن بن الشيخ السكاكينى على ما ظهر منه من الرفض الدال على الـكفر المحض ، شهد عليه عند القاضى شرف الدين المالكى بشهادات كثيرة تدل على كفره ، وأنه رافضى جلد ، فمن ذلك تـكفير الشيخين رضى الله عنهما ، وقذفه أمى المؤمنين عائشة وحفصة رضى الله عنهما ، وزعم أن جبريل غلط فأوحى إلى محمد ، وإنما كان مرسلا إلى على ، وغير ذلك من الأقوال الباطلة القبيحة قبحه الله ، وقد فعل . وكان والده الشيخ محمد السكاكينى يعرف مذهب الرافضة والشيعة جيداً ، وكانت له أسئلة على مذهب أهل الخير ، ونظم فى ذلك قصيدة أجابه فيها شيخنا الامام العلامة شيخ الاسلام بن تيمية رحمه الله ، وذكر غير واحـد من أصحاب الشيخ أن السكاكينى مامات حتى رجع عن مذهبه ، وصار إلى قول أهل السنة فالله أعلم . وأخبرت أن ولده حسنا هذا القبيح كان قد أراد قتل أبيه لما أظهر السنة .

وفى ليلة الاثنين خامس شهر رجب وصل بدن الأمير سيف الدين تنكز نائب الشام كان إلى تربته التى إلى جانب جامعه الذى أنشأه ظاهر باب النصر بدمشق ، نقل من الاسكندرية بعد ثلاث سنين ونصف أو أكثر ، بشفاعة ابنته زوجة الناصر عنـد ولده السلطان الملك الصالح ، فأذن فى ذلك وأرادوا أن يدفن بمدرسته بالقدس الشريف ، فلم يمكن ، فجىء به إلى تربته بدمشق وعملت له الختم وحضر القضاة والأعيان رحمه الله .

وفى يوم الثلاثاء حادى عشر شعبان المبارك توفى صاحبنا الأمير صلاح الدين يوسف التكريتى ابن أخى الصاحب تقى الدين بن توبة الوزير ، بمنزله بالقصاعين ، وكان شابا من أبنـاء الأربعين ، ذا ذكاء وفطنة وكلام وبصيرة جيدة ، وكان كثير المحبة إلى الشيخ تقى الدين بن تيمية رحمه الله ، ولأصحابه خصوصا ، ولـكل من يراه من أهل العلم عموما ، وكان فيـه إيثار وإحسان ومحبـة الفقراء والصالحين ، ودفن بتربتهم بسفح قاسيون رحمه الله ، وفى يوم السبت الخامس عشر منه جاءت زلزلة بدمشق لم يشـعر بها كثير من الناس لخفتها ولله الحمـد والمنة ، ثم تواترت الأخبار بأنها شـعثت فى بلاد حلب شـيئا كثيراً من العمران حتى سقط بعض الابراج بقلعـة حلب ، وكثير من دورها ومساجدها ومشاهدها وجـدرانها ، وأما فى القلاع حولها فـكثير جداً ، وذكروا أن مدينـة منبج

لم يبق منها إلا القليل ، وأن عامة الساكنين بها هلكوا تحت الردم رحمهم الله :

وفى أواخر شهر شوال خرجت التجاريد إلى الكرك وهما أميران مقدمان الأمير علاء الدين قراسنقر ، والأمير الحاج بيد مر ، واشتهر فى هذه الأيام أن أمر الكرك قد ضعف وتفاقم عليهم الأمر وضاقت الارزاق عندهم جداً ، ونزل منها جماعات من رؤسائها وخاصكية الأمير أحمد بن الناصر مخامرين عليه ، فسيروا من الصبح إلى قلاوون وصحبتهم مقدمون من الحلقة إلى الديار المصرية ، وأخبروا أن الحواصل عند أحمد قد قلت جداً فالله المسئول أن يحسن العاقبة .

وفى ليلة الأربعاء الثامن والعشرين من شهر ذى الحجة توفى القاضى الامام العلامة برهان الدين ابن عبد الحق شيخ الحنفية وقاضى القضاة بالديار المصرية مدة طويلة ، بعد ابن الحريرى ، ثم عزل وأقام بدمشق ودرس فى أيام تغردمر بالعذراوية لولده القاضى أمين الدين ، فذكر بها الدرس يوم الأحد قبل وفاة والده بثلاثة أيام ، وكان موت برهان الدين رحمه الله ببستانه من أراضى الارزة بطريق الصالحية ، ودفن من الغد بسفح قاسيون بمقبرة الشيخ أبى عمر رحمه الله ، وصلى عليه بالجامع المظفرى ، وحضر جنازته القضاة والأعيان والأكابر رحمه الله .

﴿ ثم دخلت سنة خمس وأربعين وسبعمائة ﴾

استهلت هذه السنة وسلطان الديار المصرية والديار الشامية وما يتعلق بذلك الملك الصالح بن إسماعيل بن السلطان الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون ، وقضاته بالديار المصرية والشامية هم المذكورون فى السنة المتقدمة ، ونائبه بمصر الحاج سيف الدين ووزيره المتقدم ذكره ، وناظر الخاص القاضى مكين الدين ، وناظر الجيوش القاضى علم الدين ابن القطب ، والمحتسب المتقدم ، وشاد الدواوين علم الدين الناصرى ، وشاد الأوقاف الأمير حسام الدين النجيبى ، ووكيل بيت المال القاضى علاء الدين شرنوخ ، وناظر الخزانة القاضى تقى الدين بن أبى الطيب ، وبقية المباشرين والنظار هم المتقدم ذكرهم ، وكاتب الدست القاضى بدر الدين بن فضل الله كاتب السر ، والقاضى أمين الدين ابن القلانسى والقاضى شهاب الدين بن القيسرانى ، والقاضى شرف الدين بن شمس الدين بن الشهاب محمود ، والقاضى علاء الدين شرنوخ .

شهر المحرم أوله السبت استهل والحصار واقع بقلعة الكرك ، وأما البلد فأخذوا استنيب فيه الأمير سيف الدين قبليه ، قدم إليها من الديار المصرية ، والتجاريد من الديار المصرية ومن دمشق محيطون بالقلعة ، والناصر أحمد بن الناصر ممتنع من التسليم ، ومن الاجابة إلى الانابة . ومن الدخول فى طاعة أخيه ، وقد تفاقمت الأمور وطالت الحروب ، وقتل خلق كثير بسبب ذلك ، من الجيوش ومن أهل الكرك ، وقد توجهت القضية إلى خير إن شاء الله . وقبل ذلك بأيام يسيرة هرب من قلعة

الكرك الأمير سيف الدين أبو بكر بن بهادرآص الذى كان أمر فى أوائل حصار الكرك . وجماعة من مماليك الناصر أحمد ، كان اتهمهم بقتل الشهيب أحمد ، الذى كان يعتنى به ويحبه ، واستبشر الجيوش بنزول أبى بكر من عنده وسلامته من يده ، وجهز إلى الديار المصرية معظما ، وهذاوالمجانيق الثلاثة مسلطة على القلعة من البلد تضرب عليها ليلا ونهارا ، وتدمر فى بنائها من داخل ، فان سوُرها لا يؤثر فيه شىء بالكلية ، ثم ذكر أن الحصار فتر ولكن مع الاحتياط على أن لا يدخل إلى القلعة ميرة ولا شىء مما يستعينون به على المقام فيها ، فالله المسؤل أن يحسن العاقبة . وفى يوم الأربعاء الخامس والعشرين من صفر قدم البريد مسرعا من الكرك فأخبر بفتح القلعة ، وأن بابها أحرق ، وأن جماعة الأمير أحمد بن الناصر استغاثوا بالأمان . وخرج أحمد مقيداً وسير على البريد إلى الديار المصرية ، وذلك يوم الاثنين بعدالظهر الثالث والعشرين من هذا الشهر . ولله عاقبة الأمور وفى صبيحة يوم الجمعة رابع ربيع الأول دقت البشائر بالقلعة ، وزينت البلد عن مرسوم السلطان الملك الصالح سرورا بفتح البلد . واجتماع الكلمة عليه ، واستمرت الزينة إلى يوم الاثنين سابعه . فرسم برفعها بعد الظهر فتشوش كثير من العوام . وأرجف بعض الناس بأن أحمد قد ظهر أمره وبايعه الأمراء الذين هم عنده ، وليس لذلك حقيقة ، ودخلت الأطلاب من الكرك صبيحة يوم الأحد ثالث عشر ربيع الأول بالطبلخانات والجيوش . واشتهر إعدام أحمد بن الناصر .

وفى يوم الجمعة حادى عشر ربيع الأول صلى بالجامع الأموى على الشيخ أمين الدين أبى حيان النحوى ، شيخ البلاد المصرية من مدة طويلة . وكانت وفاته بمصرعن تسعين سنة وخمسة أشهر . ثم اشتهر فى ربيع الآخر قتل السلطان أحمد وحز رأسه وقطع يديه . ودفن جثته بالكرك ، وحمل رأسه إلى أخيه الملك الصالح إسماعيل ، وحضر بين يديه فى الرابع والعشرين من هذا الشهر ، ففرح الناس بذلك . ودخل الشيخ أحمد الزرعى على السلطان الملك الصالح فطلب منه أشياء كثيرة من تبطيل المظالم ومكوسات وإطلاق طبلخانات للامير ناصر الدين بن بكتاش ، وإطلاق أمراء محبوسين بقلعة دمشق وغير ذلك . فأجابه إلى جميع ذلك . وكان جملة المراسيم التى أجيب فيها بضع وثلاثين مرسوماً . فلما كان آخر شهر ربيع الآخر قدمت المراسيم التى سألها الشيخ أحمد من الملك الصالح ، فأمضيت كلها ، أوكثير منها ، وأفرج عن صلاح الدين بن الملك الكامل . والأمير سيف الدين بلو ، فى يوم الخميس سلخ هذا الشهر ، ثم روجع فى كثير منها وتوقف حالها .

وفى هذا الشهر عملت منارة خارج باب الفرج وفتحت مدرسة كانت داراً قديمة فجعلت مدرسة للحنفية ومسجداً ، وعملت طهارة عامة ، ومصلى للناس ، وكل ذلك منسوب إلى الأمير سيف الدين تقطم الخليلى أمير حاجب كان ، وهو الذى جدد الدار المعروفة به اليوم بالقصاعين .

وفى ليلة الاثنين عاشر جمادى الآخرة توفى صاحبنا المحدث تقى الدين محمد بن صدر الدين سليمان الجعبرى زوج بنت الشيخ جمال الدين المزى ، والد شرف الدين عبد الله ، وجمال الدين إبراهيم وغيرهم ، وكان فقيها بالمدارس ، وشاهداً تحت الساعات وغيرها ، وعنده فضيلة جيدة فى قراءة الحديث وشىء من العربية ، وله نظم مستحسن ، انقطع يومين وبعض الثالث وتوفى فى الليلة المذكورة فى وسط الليل ، وكنت عنده وقت العشاء الآخرة ليلتئذ ، وحدثنى وضاحكنى ، وكان خفيف الروح رحمه الله ، ثم توفى فى بقية ليلته رحمه الله ، وكان أشهدنى عليه بالتوبة من جميع ما يسخط الله عز وجل ، وأنه عازم على ترك الشهود أيضاً رحمه الله ، صلى عليه ظهر يوم الاثنين ، ودفن بمقابر باب الصغير عند أبويه رحمهم الله .

وفى يوم الجمعة ثانى عشرين شهر رجب خطب القاضى عماد الدين بن العز الحنفى بجامع تنكز خارج باب النصر عن نزول الشيخ نجم الدين على بن داود القفجارى له عن ذلك ، وأيضا نائب السلطنة الأمير سيف الدين تغردمر وحضوره عنده فى الجامع المذكور يومئذ .

وفى يوم الجمعة تاسع عشرين رجب توفى القاضى الامام العالم جلال الدين أبو العباس أحمد ابن قاضى القضاة حسام الدين الرومى الحنفى ، وصلى عليه بعد صلاة الجمعة بمسجد دمشق ، وحضره القضاة والأعيان ودفن بالمدرسة التى أنشأها إلى جانب الزردكاش قريبا من الخاتونية الجوانية ، وكان قد ولى قضاء قضاة الحنفية فى أيام ولاية أبيه الديار المصرية ، وكان مولده سنة إحدى وخمسين وستمائة ، وقدم الشام مع أبيه فأقاموا بها ، ثم لما ولى الملك المنصور لاجين ولى أباه قضاء الديار المصرية ، وولده هذا قضاء الشام ، ثم إنه عزل بعد ذلك واستمر على ثلاث مدارس من خيار مدارس الحنفية ثم حصل له صمم فى آخر عمره ، وكان ممتعا بحواسه سواه وقواه ، وكان يذاكر فى العلم وغير ذلك .

وفى يوم الأربعاء الرابع والعشرين من شعبان توفى الشيخ نجم الدين على بن داود القفجارى خطيب جامع تنكز ، ومدرس الظاهرية ، وقد نزل عنها قبل وفاته بقليل للقاضى عماد الدين بن العز الحنفى ، وصلى عليه بالجامع المذكور بعد صلاة الظهر يومئذ ، وعندباب النصر وعند جامع جراح ودفن بمقبرة ابن الشيرجى عند والده ، وحضره القضاة والاعيان ، وكان أستاذا فى النحو وله علوم أخر ، لكن كان نهاية فى النحو والتصريف .

وفى هذا اليوم توفى الشيخ الصالح العابد الناسك الشيخ عبد الله الضرير الزرعى ، وصلى عليه بعد الظهر بالجامع الأموى وبباب النصر وعند مقابر الصوفية ، ودفن بها قريبا من الشيخ تقى الدين ابن تيمية رحمه الله ، وكان كثير التلاوة حسنها وصحيحها ، كثير العبادة ، يقرىء الناس من دهر طويل ويقوم بهم العشر الأخير من رمضان ، فى محراب الحنابلة بالجامع الأموى رحمه الله .

وفى يوم الجمعة ثانى شهر رمضان المعظم توفى الشيخ الامام العالم العامل العابد الزاهد الورع أبو عمر بن أبى الوليد المالكى إمام محراب الصحابة الذى للمالكية ، وصلى عليه بعد الصلاة ، وحضر جنازته خلق كثير وجم غفير . وتأسف الناس عليه وعلى صلاحه وفتاويه النافعة الكثيرة . ودفن إلى جانب قبر أبيه وأخيه ، إلى جانب قبر أبى الغندلاوى المالكى قريبا من مسجد التاريخ رحمه الله ، وولى مكانه فى المحراب ولده ، وهو طفل صغير ، فاستنيب له إلى حين صلاحيته . جبره الله ورحم أباه .

وفى صبيحة ليلة الثلاثاء سادس رمضان وقع ثلج عظيم لم ير مثله بدمشق من مدة طويلة ، وكان الناس محتاجين إلى مطر ، فلله الحمد والمنة ، وتكاثف الثلج على الأسطحة ، وتراكم حتى أعيى الناس أمره ونقلوه عن الأسطحة إلى الأزقة يحمل ، ثم نودى بالأمر بازالته من الطرقات فانه سدها وتعطلت معايش كثير من الناس ، فعوض الله الضعفاء بعملهم فى الثلج . ولحق الناس كافة كبيرة وغرامة كثيرة ، فانا لله وإنا إليه راجعون .

وفى يوم الجمعة الثالث والعشرين من رمضان صلى بالجامع الأموى على نائب وهو الأمير علاء الدين الجاولى ، وقد تقدم شىء من ترجمته رحمه الله .

وفى أول شوال يوم عيد الفطر وقع فيه ثلج عظيم بحيث لم يتمكن الخطيب من الوصول إلى المصلى ، ولا خرج نائب السلطنة ، بل اجتمع الأمراء والقضاة بدار السعادة ، وحضر الخطيب فصلى بهم العيد بها ، وكثير من الناس صلوا العيد فى البيوت .

وفى يوم الأحد الحادى والعشرين من ذى الحجة درس قاضى القضاة تقى الدين السبكى الشافعى بالشامية البرانية عن الشيخ شمس الدين ابن النقيب رحمه الله ، وحضر عنده القضاة والأعيان والأمراء وخلق من الفضلاء ، وأخذ فى قوله تعالى (قال رب اغفرلى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب) وما بعدها . وفى ذى الحجة استفتى فى قتل كلاب البلد فكتب جماعة من أهل البلد فى ذلك ، فرسم باخراجهم يوم الجمعة من البلد الخامس والعشرين منه ، لكن إلى الخندق ظاهر باب الصغير . وكان الأولى قتلهم بالكلية وإحراقهم لئلا تنتن الناس بريحهم على ما أفتى به الامام مالك بن أنس من جواز قتل الكلاب ببلدة معينة للمصلحة ، إذا رأى الامام ذلك ، ولا يعارض ذلك النهى عن قتل الكلاب . ولهذا كان عثمان بن عفان يأمر فى خطبته بقتل الكلاب وذبح الحمام .

﴿ ثم دخلت سنة ست وأربعين وسبعمائة ﴾

استهلت هذه السنة وسلطان المسلمين بالديار المصرية والشامية والحرمين والبلاد الحلبية وأعمال ذلك الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن الناصر بن المنصور ، وقضاته بالديار المصرية والشامية هم

المذكورون أيضا . وفى يوم الجمعة سادس عشر محرم كملت عمارة الجامع الذى بالمزة الفوقانية الذى جدده وأنشأه الأمير بهاء الدين المرجانى ، الذى بنى والده مسجد الخيف بمنى وهو جامع حسن متسع فيه روح وانشراح ، تقبل الله من بانيه ، وعقدت فيه الجمعة بجمع كثير وجم غفير من أهل المزة ، ومن حضر من أهل البلد ، وكنت أنا الخطيب ـ يعنى الشيخ عماد الدين المصنف تغمده الله برحمته ـ ولله الحمد والمنة. ووقع كلام وبحث فى اشتراط المحلل فى المسابقة ، وكان سببه أن الشيخ شمس الدين ابن قيم الجوزية صنف فيه مصنفا من قبل ذلك ، ونصر فيه ما ذهب إليه الشيخ تقى الدين بن تيمية فى ذلك ، ثم صار يفتى به جماعة من الترك ولا يعزوه إلى الشيخ تقى الدين بن تيمية ، فاعتقد من اعتقد أنه قوله وهو مخالف للائمة الأربعة ، فحصل عليه إنكار فى ذلك ، وطلبه القاضى الشافعى ، وحصل كلام فى ذلك ، وانفصل الحال على أن أظهر الشيخ شمس الدين بن قيم الجوزية الموافقة للجمهور .

﴿ وفاة الملك الصالح إسماعيل ﴾

فى يوم الاربعاء ثالث شهر ربيع الآخر من هذه السنة أظهر موت السلطان الملك الصالح عماد الدين إسماعيل ابن الناصر بن المنصور آخر النهار ، وكان قد عهد بالأمر إلى أخيه لأبويه الملك الكامل سيف الدين أبى الفتوح شعبان ، فجلس على سرير المملكة يوم الخميس رابعه ، وكان يوما مشهوداً ، ثم قدم الخبر إلى دمشق عشية الخميس ليلة الجمعة الثانى عشر منه ، وكان البريد قد انقطع عن الشام نحو عشرين يوما للشغل بمرض السلطان ، فقدم الامير سيف الدين معزا للبيعة للملك الكامل ، فركب عليه الجيش لتلقيه ، فلما كان صبيحة الجمعة أخذت البيعة من النائب والمقدمين وبقية الأمراء والجند للسلطان الملك الكامل بدار السعادة ، ودقت البشائر وزين البلد وخطب الخطباء يومئذ للملك الكامل ، جعله الله وجها مباركا على المسلمين .

وفى صبيحة يوم الاثنين الثانى والعشرين من ربيع الآخر درس القاضى جمال الدين حسين ابن قاضى القضاة تقى الدين السبكى الشافعى بالمدرسة الشامية البرانية ، نزل له أبوه عنها ، واستخرج له مرسوما سلطانيا بذلك ، فحضر عنده القضاة والأعيان وجماعة من الأمراء والفقهاء ، وجلس بين أبيه والقاضى الحنفى ، وأخذ فى الدرس فى قوله تعالى . (ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين) الآيات . وتكلم الشريف مجد الدين المتكلم فى الدرس بكلام فيه نكارة وبشاعة ، فشنع عليه الحاضرون ، فاستتيب بعد انقضاء الدرس وحكم باسلامه ، وقد طلب إلى الديار المصرية نائب دمشق الأمير سيف الدين تغردمر وهو متمرض ، انقطع عن الجمعة بسبب المرض مرات ، والبريد يذهب إلى حلب لمجئ نائبها الامير سيف الدين يلبغا لنيابة دمشق ، وذكر أن الحاج أرقطيه تعين لنيابة حلب . وفى يوم الجمعة رابع جمادى الاولى

خرجت أثقال الأمير سيف الدين تغردمر النائب وخيوله وهجنه ومواليه وحواصله وطبلخاناته وأولاده فى تجمل عظيم، وأبهة هائلة جداً، وخرجت المحافل والكحارات والمحفات لنسائه و بناته وأهله فى هيبة عجيبة، هذا كله وهو بدار السعادة، فلما كان من وقت السحر فى يوم السبت خامسه خرج الأمير سيف الدين تغردمر بنفسه إلى الكسوة فى محفة لمرضه مصحوباً بالسلامة، فلما طلعت الشمس من يومئذ قدم من حلب أستاذ دار الأمير سيف الدين يلبغا البحناوى فتسلم دار السعادة، وفرح الناس بهم، وذهب الناس للتهنئة والتودد إليهم.

ولما كان يوم السبت الثانى عشر من جمادى الأولى خرج الجيش بكماله لتلقى نائب السلطنة الأمير سيف الدين يلبغا فدخل فى تجمل عظيم، ثم جاء فنزل عند باب السر، وقبل العتبة على العادة ثم مشى إلى دار السعادة.

وفى عشية يوم الاثنين رابع عشره قطع نائب السلطنة ممن وجب قطعه فى الحبس ثلاثة عشر رجلا وأضاف إلى قطع اليد قطع الرجل من كل منهم، لما بلغه أنه تكرر من جناياتهم، وصلب ثلاثة بالمسامير ممن وجب قتله، ففرح الناس بذلك لقمعه المفسدين وأهل الشرور، والعيث والفساد.

واشتهر فى العشر الأوسط من جمادى الآخرة وفاة الأمير سيف الدين تغردمر بعد وصوله إلى الديار المصرية بأيام، وكان ذلك ليلة الخميس مستهل هذا الشهر، وذكر أنه رسم على ولده وأستاذ داره، وطلب منهم مال جزيل، فالله أعلم.

و فى يوم الاثنين ثانى عشره توفى القاضى علاء الدين بن العز الحنفى نائب الحكم ببستانه بالصالحية ودفن بها، وذلك بعد عود المدرسة الظاهرية إليه، وأخذه إياها من عمه القاضى عماد الدين إسماعيل، كما قدمنا، ولم يدرس فيها إلا يوما واحداً، وهو متمرض، ثم عاد إلى الصالحية فتمادى به مرضه إلى أن مات رحمه الله.

وخرج الركب إلى الحجاز الشريف يوم السبت حادى عشر شوال، وخرج ناس كثير من البلد، ووقع مطر عظيم جداً، ففرح الناس به من جهة أن المطر كان قليلا جدا فى شهر رمضان، وهو كانون الأصم، فلما وقع هذا استبشروا به وخافوا على الحجاج ضرره، ثم تداول المطر وتتابع ولله الحمد والمنة، لكن ترحل الحجاج فى أوحال كثيرة وزلق كثير، والله المسلم والمعين والحامى. ولما استقل الحجيج ذاهبين وقع عليهم مطر شديد بين الصمين فعوقهم أياما بها، ثم تحاملوا إلى زرع فلم يصلوها إلا بعد جهد جهيد وأمر شديد، ورجع كثير منهم وأكثرهم، وذكروا أشياء عظيمة حصلت لهم من الشدة وقوة الأمطار وكثرة الأوحال، ومنهم من كان تقدم إلى أرض بصرى، فحصل لهم رفق بذلك والله المستعان. وقيل إن نساء كثيرة من المخدرات مشين حفاة فيما بين زرع والصميين

و بعد ذلك ، وكان أمير الحاج سيف الدين ملك آص وقاضيه شهاب الدين بن الشجرة الحاكم بمدينة بعلبك يومئذ والله المستعان ، انتهى .

﴿ ثم دخلت سنة سبع وأربعين وسبعمائة ﴾

استهلت هذه السنة وسلطان البلاد بالديار المصرية والشامية والحرمين وغير ذلك الملك الكامل سيف الدين شعبان بن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون ، وليس له بمصر نائب ، وقضاة مصر هم المذكورون في التي قبلها ، ونائب دمشق الأمير سيف الدين يلبغا البحناوي ، وقضاة دمشق هم المذكورون في التي قبلها ، إلا أن قاضي القضاة عماد الدين بن إسماعيل الحنفي نزل عن القضاء لولده قاضي القضاة نجم الدين ، واستقل بالولاية وتدريس النورية ، وبقي والده على تدريس الريحانية.

وفي يوم الجمعة السادس عشر من المحرم من هذه السنة توفي الشيخ تقي الدين الشيخ الصالح محمد ابن الشيخ محمد بن قوام بزاويتهم بالسفح ، وصلى عليه الجمعة بجامع الأفرم ، ثم دفن بالزاوية وحضره القضاة والأعيان وخلق كثير ، وكان بينه وبين أخيه ستة أشهر وعشرون يوماً ،وهذا أشد من ذلك.

وفتحت في أول السنة القيسارية التي أنشأها الأمير سيف الدين يلبغا نائب السلطنة ظاهر باب الفرج وضمنت ضماناً باهراً بنحو من سبعة آلاف كل شهر ، وداخلها قيسارية تجارة في وسطها بركة ومسجد ، وظاهرها دكاكين وأعاليها بيوت للسكن .

وفي صبيحة يوم الاثنين ثاني عشر ربيع الأول عقد مجلس بمشهد عثمان للنور الخراساني ، وكان يقرأ القرآن في جامع تنكز ، ويعلم الناس أشياء من فرائض الوضوء والصلاة ، ادعى عليه فيه أنه تكلم في بعض الأئمة الأربعة ، وأنه تكلم في شيء من العقائد ويطلق عبارة زائدة على ما ورد به الحديث ، وشهد عليه ببعض أشياء متعددة ، فاقتضى الحال أن عزر في هذا اليوم ، وطيف به في البلد ، ثم رد إلى السجن معتقلا . فلما كان يوم الخميس الثاني عشرين منه شفع فيه الأمير أحمد بن مهنا ملك العرب عند نائب السلطنة فاستحضره بين يديه وأطلقه إلى أهله وعياله ، ولما كان تاريخ يوم الجمعة ثالث عشر جمادى الأولى صلى نائب السلطنة الأمير سيف الدين يلبغا البحناوي الناصري بجامع تنكز ظاهر دمشق برا باب النصر ، وصلى عنده القاضي الشافعي والمالكي وكبار الأمراء ، ولما أقيمت الصلاة صلى وقعد بعض مماليكه عن الصلاة ومعه السلاح حراسة له ، ثم لما انصرف من الصلاة اجتمع بالأمراء المذكورين وتشاوروا طويلا ، ثم نهض النائب إلى دار السعادة فلما كان آخر النهار برز بخدمه ومماليكه وحشمه ووطاقه وسلاحه وحواصله ، ونزل قبلي مسجد القدم وخرج الجند والأمراء في آخر النهار وانزعج الناس ، واتفق طلوع القمر خاسفا ، ثم خرج الجيش ملبسا تحت الثياب وعليه التراكيش بالنشاب والخيول والجنابات ، ولا يدري الناس ما الخبر ، وكان

سبب ذلك أن نائب السلطنة بلغه أن نائب صفد قد ركب إليه ليقبض عليه ، فانزعج لذلك وقال : لا أموت إلا على ظهر أفراسى ، لا على فراشى ، وخرج الجند والأمراء خوفا من أن يفوتهم بالفرار ، فنزلوا يمنة ويسرة ، فلم يذهب من تلك المنزلة بل استمر بها يعمل النيابة ويجتمع بالأمراء جماعة وفرادى ، ويستميلهم إلى ما هو فيه من الرأى ، وهو خلع الملك الكامل شعبان لأنه يكثر من مسك الأمراء بغير سبب ، ويفعل أفعالا لا تليق بمثله ، وذكروا أموراً كثيرة ، وأن يولوا أخاه أمير حاجى بن الناصر لحسن شكالته وجميل فعله ، ولم يزل يفتلهم فى الذروة والغارب حتى أجابوه إلى ذلك ، ووافقوه عليه ، وسلموا له ما يدعيه ، وتابعوا على ما أشار إليه وبايعوه ، ثم شرع فى البعث إلى نواب البلاد يستميلهم إلى ما مالأ عليه الدمشقيون وكثير من المصريين ، وشرع أيضا فى التصرف فى الأمور العامة الكلية ، وأخرج بعض من كان الملك الكامل اعتقله بالقلعة المنصورة ، ورد إليه إقطاعه بعد ما بعث الملك الكامل إلى من أقطعه [1] منشوره ، وعزل وولى وأخذ وأعطى ، وطلب التجار يوم الأربعاء ثامن عشره ليباع عليهم غلال الحواصل السلطانية فيدفعوا أثمانها فى الحال ، ثم يذهبوا فيتسلموها من البلاد البرانية ، وحضر عنده القضاة على العادة والأمراء والسادة ، وهذا كله وهو مخيم بالمكان المذكور ، لا يحصره بلد ولا يحويه سور .

وفى يوم الخميس رابع جمادى الآخرة خرجت تجريدة نحو عشرة طليعة لتلقى من يقدم من الديار المصرية من الأمراء وغيرهم ، ببقاء الأمر على ما كان عليه ، فلم يصدقهم النائب ، وربما عاقب بعضهم ، ثم رفعهم إلى القلعة ، وأهل دمشق ما بين مصدق باختلاف المصريين وما بين قائل السلطان الكامل قائم الصورة مستمر على ما كان عليه ، والتجاريد المصرية واصلة قريبا ، ولا بد من وقوع خبطة عظيمة . وتشوشت أذهان الناس وأحوالهم بسبب ذلك ، والله المسئول أن يحسن العاقبة

وحاصل القضية أن العامة ما بين تصديق وتكذيب ، ونائب السلطنة وخواصه من كبار الامراء على ثقة من أنفسهم ، وأن الأمراء على خلاف شديد فى الديار المصرية بين السلطان الكامل شعبان وبين أخيه أمير حاجى ، والجمهور مع أخيه أمير حاجى ، ثم جاءت الأخبار إلى النائب بأن التجاريد المصرية خرجت تقصد الشام ومن فيه من الجند لتوطد الأمر ، ثم إنه تراجعت رؤس الأمراء فى الليل إلى مصر واجتمعوا إلى إخوانهم ممن هو ممالئ لهم على السلطان ، فاجتمعوا ودعوا إلى سلطنة أمير حاجى وضربت الطبلخانات وصارت باقى النفوس متجاهرة على نية تأييده ، ونابذوا السلطان الكامل ، وعدوا عليه مساويه ، وقتل بعض الامراء ، وفر الكامل وأنصار ، فاحتيط عليه . وخرج أرغون العلائى زوج ابنته واستظهر أيضا أمير حاجى فأجلسوه على السرير ولقبوه بالملك المظفر ، وجاءت الأخبار إلى النائب بذلك ، فضربت البشائر عنده ، وبعث إلى نائب القلعة فامتنع من ضربها ، وكان قد

(١) كذا بالاصول التى بأيدينا .

طلب إلى الوطاق فامتنع من الحضور ، وأغلق باب القلعة ، فانزعج النـاس واختبط البلد ، وتقلص وجود الخير ، وحصنت القلعة ودعوا للـكامل بكرة وعشية على العادة ، وأرجف العامة بالجيش عـلى عادتهم فى كثرة فصولهم ، فحصل لبعضهم أذية . فلما كان يوم الاثنين ثامن الشهر قدم نائب حماة إلى دمشق مطيعا لنائب السلطنة فى تجمل وأبهة ، ثم أجريت له عادة أمثاله .

وفى هذا اليوم وقعت بطاقة بقدوم الأمير سـيف الدين بيغرا حاجب الحجاب بالديار المصرية لاجل البيعة للسلطان الملك المظفر ، فدقت البشائر بالوطاق ، وأمر بتزيين البلد ، فزين الناس وليسوا منشرحين، وأكثرهم يظن أن هذا مكر وخديعة ، وأن التجاريد المصرية واصلة قريبا . وامتنع نائب القلعة من دق البشائر وبالغ فى تحصين القلعة ، وغلق بابها ، فلا يفتح إلا الخوخة البرانية والجوانية ، وهـذا الصنيع هو الذى يشوش خواطر العامة ، يقولون :لو كان ثم شىء له صحة كان نائب القلعة يطلع على هذا قبل الوطاق . فلما كان يوم الثلاثاء بعد الزوال قدم الامير سـيف الدين بيغرا إلى الوطاق ، وقد تلقوه وعظموه ، ومعه تقليد النيابة من المظفر إلى الامير سـيف الدين يلبغا نائب السلطنة ، وكتاب إلى الامراء بالسلام . ففرحوا بذلك وبايعوه وانضمت الـكلمة ولله الحمد . وركب بيغرا إلى القلعة فترجل وسـل سيفه ودخـل إلى نائب القلعة فبايعه سريعـا ودقت البشائر فى القلعة بعـد المغرب ، حين بلغه الخبر ، وطابت أنفس الناس ثم أصبحت القلعة فى الزينة وزادت الزينة فى البلد وفرح النـاس ، فلما كان يوم الخميس حادى عشر الشهر دخل نائب السلطنة من الوطاق إلى البلد والأطلاب بين يديه فى تجمل وطبلخانات على عادة العرض ، وقـد خرج أهل البلد إلى الفرجة ، وخرج أهل الذمة بالتوارة ، وأشعلت الشموع ، وكان يوماً مشهوداً .

وقد صلى فى شهر رمضان من هذه السنة بالشامية البرانيـة صبى عمره ست سنين ، وقـد رأيته وامتحنته فاذا هو يجيد الحفظ والأداء ، وهذا من أغرب ما يكون . وفى العشر الاول من هذا الشهر فرغ من بناء الحمامين الذى بناها نائب السلطنة بالقرب من الشابقية فى خان السلطان العتيق ، وما حولها من الرباع والقرب وغير ذلك . وفى يوم الاحد حادى عشره اجتمع نائب السلطنة والقضاة الاربعة ووكيل بيت المال والدولة عند تل المستقين ، من أجل أن نائب السلطنة قد عزم على بناء هذه البقعة جامعا بقدر جامع تنكز ، فاشتوروا هنالك ، ثم انفصل الحال على أن يعمل ، والله ولى التوفيق .

وفى يوم الخميس ثالث ذى القعدة صلى على الشيـخ زين الدين عبـد الرحمن بن تيمية ، أخو الشيخ تقى الدين رحمهما الله تعالى . وفى يوم السبت ثانى عشره توفى الشيخ على القطنانى بقطنا ، وكان قد اشتهر أمره فى هذه السنين ، واتبعه جماعة من الفلاحين والشباب المنتمين إلى طريقة أحمد ابن الرفاعى ، وعظم أمره وسار ذكره ، وقصده الأكابر للزيارة مرات ، وكان يقيم السماعات على عادة

أمثاله ، وله أصحاب يظهرون إشارة باطلة ، وأحوالا مفتعلة . وهذا مما كان ينقم عليه بسببه . فانه إن لم يكن يعلم بحالهم فجاهل ، و إن كان يقرهم على ذلك فهو مثلهم ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وفى أواخر هذا الشهر -أعنى ذى الحجة من العيد وما بعده- اهتم ملك الأمراء فى بناء الجامع الذى بناه تحت القلعة وكان تل المستقين . وهدم ما كان هناك من أبنية ، وعملت العجل وأخذت أحجار كثيرة من أرجاء البلد ، وأكثر ما أخذت الاحجار من الرحبة التى للمصريين . من تحت المأذنة التى فى رأس عقبة الكتاب . وتيسر منها أحجار كثيرة . والأحجار أيضا من جبل قاسيون وحمل على الجمال وغيرها . وكان سلخ هذه السنة - أعنى سنة سبع وأربعين وسبعمائة - قد بلغت غرارة القمح إلى مائتين فما دونها ، وربما بيعت بأكثر من ذلك ، فانا لله وإنا إليه راجعون .

﴿ ثم دخلت سنة ثمان وأربعين وسبعمائة ﴾

استهلت هذه السنة وسلطان البلاد المصرية والشامية والحرمين وغير ذلك الملك المظفر أمير حاجى ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون ، ونائبه بالديار المصرية الأمير سيف الدين أرقطيه، وقضاة مصر هم الذين كانوا فى الماضية بأعيانهم . ونائبه بالشام المحروسة سيف الدين يلبغا الناصرى ، وقضاة الشام هم المذكورون فى التى قبلها بأعيانهم ، غير أن القاضى عماد الدين الحنفى نزل لولده قاضى القضاة نجم الدين ، فباشر فى حياة أبيه . وحاجب الحجاب فخر الدين إياس .

واستهلت هذه السنة ونائب السلطنة فى همة عالية فى عمارة الجامع الذى قد شرع فى بنائه غربى سوق الخيل ، بالمكان الذى كان يعرف بالتل المستقين .

وفى ثالث المحرم توفى قاضى القضاة شرف الدين محمد بن أبى بكر الهمدانى المالكى ، وصلى عليه بالجامع ، ودفن بتربته بميدان الحصا ، وتأسف الناس عليه لرياسته وديانته وأخلاقه وإحسانه إلى كثير من الناس رحمه الله .

وفى يوم الأحد الرابع والعشرين من المحرم وصل تقليد قضاء المالكية للقاضى جمال الدين المسلاتى الذى كان نائبا للقاضى شرف الدين قبله ، وخلع عليه من آخر النهار . وفى شهر ربيع الأول أخذوا لبناء الجامع المجدد بسوق الخيل ، أعمدة كثيرة من البلد ، فظاهر البلد يعلقون مافوقه من البناء ثم يأخذونه ويقيمون بدله دعامة وأخذوا من درب الصيقل وأخذوا العمود الذى كان بسوق العلبيين الذى فى تلك الدخلة على رأسه مثل الكرة فيها حديد، وقد ذكر الحافظ ابن عساكر أنه كان فيه طلسم لعسر بول الحيوان إذا داروا بالدابة ينحل أراقيها . فلما كان يوم الأحد السابع والعشرين من ربيع الأول من هذه السنة قلعوه من موضعه بعد ما كان له فى هذا الموضع نحواً من أربعة آلاف سنة والله أعلم . وقد رأيته فى هذا اليوم وهو ممدود فى سوق العلبيين على الأخشاب

ليجروه إلى الجامع المذكور من السوق الكبير ، ويخرجوا به من باب الجابية الكبير فلا إله إلا الله .
وفى أواخر شهر ربيع الآخر ارتفع بناء الجامع الذى أنشأه النائب وجفت العين التى كانت تحت جداره حين أسسوه ولله الحمد .

وفى سلخ ربيع الآخر وردت الأخبار من الديار المصرية بمسك جماعة من أعيان الأمراء كالحجازى وآقسنقر الناصرى ، ومن الف لفهما ، فتحرك الجند بالشام ووقعت خبطة، ثم استهل شهر جمادى الأولى والجند فى حركة شديدة . ونائب السلطنة يستدعى الأمراء إلى دار السعادة بسبب ماوقع بالديار المصرية ، وتعاهد هؤلاء على أن لايؤذى أحد، وأن يكونوا يداً واحدة، وفى هذا [اليوم] تحول ملك الأمراء من دار السعادة إلى القصر الأبلق واحترز لنفسه ، وكذلك حاشيته . وفى يوم الأربعاء الرابع عشر منه قدم أمير من الديار المصرية على البريد ومعه كتاب من السلطان فيه التصريح بعزل ملك الأمراء يلبغا نائب الشام . فقرىء عليه بحضرة الأمراء بالقصر الأبلق ، فتغمم لذلك وساءه، وفيه طلبه إلى الديار المصرية على البريد ليولى نيابة الديار المصرية ، والظاهر أن ذلك خديعة له ، فأظهر الامتناع ، وأنه لا يذهب إلى الديار المصرية أبدا ، وقال : إن كان السلطان قد استكثر على ولاية دمشق فيوليني أى البلاد شاء ، فأنا راض بها . ورد الجواب بذلك . ولما أصبح من الغد وهو يوم الخميس وهو خامس عشره ، ركب فخيم قريبا من الجسورة فى الموضع الذى خيم فيه عام أول، وفى الشهر أيضا كما تقدم ، فبات ليلة الجمعة وأمر الأمراء بنصب الخيام هنالك على عادتهم عام أول .

فلما كان يوم الجمعة سادس عشره بعد الصلاة ما شعر الناس إلا والأمراء قد اجتمعوا تحت القلعة وأحضروا من القلعة سنجقين سلطانيين أصفرين ، وضربوا الطبول حربياً ، فاجتمعوا كلهم تحت السنجق السلطانى ، ولم يتأخر منهم سوى النائب وذويه كابنيه وإخوته وحاشيته ، والأمير سيف الدين قلاوون أحد مقدمى الألوف وخبره أكبر أخبار الأمراء بعد النيابة ، فبعث إليه الامراء أن هلم إلى السمع والطاعة للسلطان ، فامتنع من ذلك وتكررت الرسل بينهم وبينه فلم يقبل ، فساروا إليه فى الطبلخانات والبوقات ملبسين لأمة الحرب . فلما انتهوا إليه وجدوه قد ركب خيوله ملبساً واستعد للهرب، فلما واجههم هرب هو ومن معه وفروا فرار رجل واحد ، وساق الجند وراءه فلم يكتنفوا له غبارا ، وأقبل العامة وتركمان القبيبات . فانتهبوا ما بقى فى معسكره من الشعير والأغنام والخيام . حتى جعلوا يقطعون الخيام والأطناب قطعاً قطعاً، فعدم له ولأصحابه من الأمتعة مايساوى ألف ألف درهم ، وانتدب لطلبه والمسير وراءه الحاجب الكبير الذى قدم من الديار المصرية قريبا شهاب الدين بن صبيح ، أحد مقدمى الألوف، فسار على طريق الأشرفية ثم عدل إلى ناحية القريتين .
ولما كان يوم الأحد قدم الأمير فخر الدين إياس نائب صفد فيها فتلقاه الأمراء والمقدمون ، ثم

جاء فنزل القصر وركب من آخر النهار فى الجحافل ، ولم يترك أحدا من الجند بدمشق إلا ركب معه وساق وراء يلبغا قاصدا نحو البرية ، فجعلت الأعراب يعترضونه من كل جانب ، وما زالوا يكفونه حتى سار نحو حماة ، فخرج نائبها وقد ضعف أمره جداً ، وكل هو ومن معه من كثرة السوق ومصاولة الأعداء من كل جانب ، فألقى بيده وأخذ سيفه وسيوف من معه واعتقلوا بحماة ، وبعث بالسيوف إلى الديار المصرية ، وجاء الخبر إلى دمشق صبيحة يوم الأربعاء رابع عشر هذا الشهر ، فضربت البشائر بالقلعة وعلى باب الميادين على العادة ، وأحدقت العساكر بحماة من كل جانب ينتظرون ما رسم به السلطان من شأنه ، وقام إياس بجيش دمشق على حمص ، وكذلك جيش طرابلس ، ثم دخلت العساكر راجعة إلى دمشق يوم الخميس التاسع والعشرين من الشهر ، وقدم يلبغا وهو مقيد على كديش هو وأبوه وحوله الأمراء الموكلون به ومن معه من الجنود ، فدخلوا به بعد عشاء الآخرة فاجتازوا به فم السبعة بعد ما غلقت الأسواق ، وطفئت السرج ، وغلقت الطاقات ، ثم مروا على الشيخ رسلان والباب الشرقى على باب الصغير ، ثم من عند مسجد الديان على المصلى ، واستمروا ذاهبين نحو الديار المصرية ، وتواترت البريدية من السلطان بما رسم به فى أمره وأصحابه الذين خرجوا معه من الاحتياط على حواصلهم وأموالهم وأملاكهم وغير ذلك ، وقدم البريد من الديار المصرية يوم الأربعاء ثالث جمادى الآخرة فأخبر بقتل يلبغا فيما بين قاقون وغبر ، وأخذت رؤسهما إلى السلطان وكذلك قتل بغبرة الأمراء الثلاثة الذين خرجوا من مصر وحاكم الوزير ابن سرد ابن البغدادى ، والدوادار طغيتمر و بيدمر البدرى ، أحد المقدمين ، كان قد نقم عليه السلطان ممالأة يلبغا ، فأخرجهم من مصر مسلوبين جميع أموالهم وسيرهم إلى الشام ، فلما كانوا بغزة لحقهم البريد بقتلهم حيث وجدهم وكذلك رسم بقتل يلبغا حيث التقاه من الطريق ، فلما انفصل البريد من غزة التقى يلبغا فى طريق وادى فحمة فخنقه ثم احتز رأسه وذهب به إلى السلطان ، وقدم أميران من الديار المصرية بالحوطة على حواصل يلبغا وطواشى من بيت المملكة ، فتسلم مصاغا وجواهر نفيسة جداً ، ورسم ببيع أملاكه وما كان وقفه على الجامع الذى كان قد شرع بعمارته بسوق الخيل ، وكان قد اشتهر أنه وقف عليه القيسارية التى كان أنشأها ظاهر باب الفرج ، والحمامين المتجاورين ظاهر باب الجابية غربى خان السلطان العتيق ، وخصصا فى قرايا أخرى كان قد استشهد على نفسه بذلك قبل ذلك فالله أعلم . ثم طلب بقية أصحابه من حماة فحملوا إلى الديار المصرية وعدم خبرهم ، فلا يدرى على أى صفة هلكوا .

وفى صبيحة يوم الثلاثاء الثامن عشر من جمادى الآخرة من هذه السنة دخل الأمير سيف الدين أرغون شاه دمشق المحروسة نائبا عليها ، وكان قدومه من حلب ، انفصل عنها وتوجه إليها الأمير فخر الدين إياس الحاجب ، فدخلها أرغون شاه فى أبهة وعليه خلعة وعمامة بطرفين ، وهو قريب الشكل

من تنكز رحمه الله فنزل دار السعادة وحكم بها ، وفيه صرامة وشهامة .

وفى يوم الخميس الثالث والعشرين منـه صلى على الأمير قراسنقر بالجامع الأموى وظاهر باب النصر ، وحضر القضاة والأعيان والأمراء ، ودفن بتربته بميدان الحصا بالقرب من جامع الكريمى وعملت ليلة النصف على العادة من إشعال القناديل ولم يشعل الناس لما هم فيه من الغلاء وتأخر المطر وقلة الغلة ، كل رطل إلا وقيـة بدرهم ، وهو متغير ، وسائر الأشياء غاليـة ، والزيت كل رطل بأربعة ونصف ، ومثله الشيرج والصابون والأرز والعنبريس كل رطل بثلاثة ، وسائر الأطعمات على هذا النحو ، وليس شىء قريب الحال سـوى اللحم بدرهمين وربع ، ونحو ذلك ، وغالب أهـل حوران يردون من الأماكن البعيدة ويجلبون القمح للمؤنة والبدار من دمشق ، ويبيع عندهم القمح المغربل كل مد بأربعة دراهم ، وهم فى جهد شديد ، والله هو المأمول المسئول. وإذا سافر أحد يشق عليه تحصيل الماء لنفسه ولفرسه ودابته ، لأن المياه التى فى الدرب كلها نفدت ،وأما القدس فأشد حالا وأبلغ فى ذلك.

ولما كان العشر الأخـير من شعبان من هذه السنة من الله سبحانه وتعالى وله الحمـد والمنة على عباده بإرسال الغيث المتدارك الذى أحيى العباد والبلاد ، وتراجع الناس إلى أوطانهم لوجود الماء فى الأودية والغدران ، وامتلأت بركة زرع بعد أن لم يكن فيها قطرة ، وجاءت بذلك البشائر إلى نائب السلطنة ، وذكر أن الماء عم البلاد كلها ، وأن الثلج على جبل بنى هـلال كثير ، وأما الجبال التى حول دمشق فعليها ثلوج كثيرة جداً ، واطمأنت القلوب وحصل فرج شديد ولله الحمد والمنة ، وذلك فى آخر يوم بقى من تشرين الثانى .

وفى يوم الثلاثاء الحادى والعشرين من رمضان توفى الشيخ عز الدين محمـد الحنبلى بالصالحية وهو خطيب الجامع المظفرى ،وكان من الصالحين المشهورين رحمه الله، وكان كثيراً ما يلقن الأموات بعد دفنهم ، فلقنه الله حجته وثبته بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة .

﴿ مقتل المظفر وتولية الناصر حسن بن الناصر ﴾

وفى العشر الأخير من رمضان جاء البريد من نائب غزة إلى نائب دمشق بقتل السلطان الملك المظفر حاجى بن الناصر محمد ، وقع بينه وبين الأمراء فتحيزوا عنه إلى قبة النصر فخرج إليهم فى طائفة قليلة فقتل فى الحال وسحب إلى مقبرة هناك ، ويقال قطع قطعا ، فانا لله وإنا إليه راجعون .

ولما كان يوم الجمعة آخر النهار ورد من الديار المصرية أمير للبيعة لأخيه السلطان الناصر حسن ابن السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، فدقت البشائر فى القلعـة المنصورة ، وزين البلد بكماله ولله الحمد فى الساعة الراهنة من أمكن من الناس ، وما أصبح صباح يوم السبت إلا زين البلد بكماله ولله الحمد على انتظام الكلمة ، واجتماع الألفة . وفى يوم الثلاثاء العشرين من شوال قدم الأمير فخر الدين

إياس نائب حاجب محتاطا عليه ، فاجتمع بالنائب فى دار السعادة ، ثم أدخل القلعة مضيقا عليه ، ويقال إنه قد فوض أمره إلى نائب دمشق ، فمهما فعل فيه فقد أمضى له ، فأقام بالقلعة المنصورة نحوا من جمعة ، ثم أركب على البريد ليسار به إلى الديار المصرية ، فلم يدر ما فعل به .

وفى ليلة الاثنين ثالث شهر ذى القعدة توفى الشيخ الحافظ الكبير مؤرخ الاسلام وشيخ المحدثين شمس الدين أبو عبدالله محمد بن عثمان الذهبى بتربة أم الصالح وصلى عليه يوم الاثنين صلاة الظهر فى جامع دمشق ودفن بباب الصغير ، وقد ختم به شيوخ الحديث وحفاظه رحمه الله .

وفى يوم الأحد سادس عشر ذى القعدة حضرت تربة أم الصالح رحم الله واقفها عوضاً عن الشيخ شمس الدين الذهبى ، وحضر جماعة من أعيان الفقهاء و بعض القضاة ، وكان درسا مشهودا ولله الحمد والمنة ، أوردت فيه حديث أحمد عن الشافعى عن مالك عن الزهرى عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : « إنما نسمة المؤمن طائر معلق فى شجر الجنة حتى يرجعه إلى جسده يوم يبعثه » وفى يوم الأربعاء تاسع عشره أمر نائب السلطنة بجماعة انتهبوا شيئا من الباعة فقطعوا إحدى عشر منهم ، وسمر عشر تسميرا تعزيراً وتأديبا انتهى والله أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة تسع وأربعين وسبعمائة ﴾

استهلت وسلطان البلاد المصرية والشامية الملك الناصر ناصر الدين حسن بن الملك المنصور ونائبه بالديار المصرية الأمير سيف الدين يلبغا ، ووزيره منجك ، وقضاته عز الدين بن جماعة الشافعى وتقى الدين الاخنائى المالكى ، وعلاء الدين بن التركانى الحنفى ، وموفق الدين المقدسى الحنبلى ، وكاتب سره القاضى علاء الدين بن محيي الدين بن فضل الله العمرى ، ونائب الشام المحروس بدمشق الأمير سيف الدين أرغون شاه الناصرى ، وحاجب الحجاب الأمير طيردمر الاسماعيلى ، والقضاة بدمشق قاضى القضاة تقى الدين السبكى الشافعى ، وقاضى القضاة نجم الدين الحنفى ، وقاضى القضاة جلال الدين المسلاتى المالكى ، وقاضى القضاة علاء الدين بن منجا الحنبلى ، وكاتب سره القاضى ناصر الدين الحلبى الشافعى ، وهو قاضى العساكر بحلب ، ومدرس الأسدية بها أيضا ، مع إقامته بدمشق المحروسة ، وتواترت الأخبار بوقوع البلاء فى أطراف البلاد ، فذكر عن بلاد القرم أمر هائل وموتان فيهم كثير ، ثم ذكر أنه انتقل إلى بلاد الفرنج حتى قيل إن أهل قبرص مات أكثرهم أو يقارب ذلك ، وكذلك وقع بغزة أمر عظيم ، وقد جاءت مطالعة نائب غزة إلى نائب دمشق أنه مات من يوم عاشوراء إلى مثله من شهر صفر نحو من بضعة عشر ألفا ، وقرىء البخارى فى يوم الجمعة بعد الصلاة سابع ربيع الأول فى هذه السنة ، وحضر القضاة وجماعة من الناس ، وقرأ بعة بعد ذلك المقرؤن ، ودعا الناس برفع الوباء عن البلاد ، وذلك أن الناس لما بلغهم من حلول هذا المرض

فى السواحل وغيرها من أرجاء البلاد يتوهمون و يخافون وقوعه بمدينة دمشق ، حماها الله وسلمها ، مع أنه قد مات جماعة من أهلها بهذا الداء . وفى صبيحة يوم تاسعه اجتمع الناس بمحراب الصحابة وقرأوا متوزعين سورة نوح ثلاثة آلاف مرة وثلثمائة وثلاثة وستين مرة ، عن رؤيا رجل أنه رأى رسول الله ﷺ أرشده إلى قراءة ذلك كذلك . وفى هذا الشهر أيضاً كثر الموت فى الناس بأمراض الطواعين و زاد الأموات كل يوم على المائة ، فانا لله و إنا إليه راجعون ، و إذا وقع فى أهل بيت لا يكاد يخرج منه حتى يموت أكثرهم ، ولكنه بالنظر إلى كثرة أهل البلد قليل . وقد توفى فى هذه الأيام من هذا الشهر خلق كثير وجم غفير ، ولا سيما من النساء ، فان الموت فيهن أكثر من الرجال بكثير كثير . وشرع الخطيب فى القنوت بسائر الصلوات والدعاء برفع الوباء من المغرب ليلة الجمعة سادس شهر ربيع الآخر من هـذه السنة ، وحصل للناس بذلك خضوع وخشوع وتضرع و إنابة ، وكثرت الأموات فى هذا الشهر جدا ، و زادوا على المائتين فى كل يوم ، فانا لله و إنا إليه راجعون ، وتضاعف عدد الموتى منهم . وتعطلت مصالح الناس ، وتأخرت الموتى عن إخراجهـم ، و زاد ضمان الموتى جدا فتضرر الناس ولا سيما الصعاليك ، فانه يؤخذ على الميت شىء كثير جدا . فرسم نائب السلطنة بابطال ضمان النعوش والمغسلين والحمالين . ونودى بابطال ذلك فى يوم الاثنين سادس عشر ربيع الآخر ، ووقف نعوش كثيرة فى أرجاء البـلد واتسـع الناس بذلك . ولـكن كثرت الموتى فالله المستعان .

وفى يوم الاثنين الثالث والعشرين منه نودى فى البلد أن يصوم الناس ثلاثة أيام وأن يخرجوا فى اليوم الرابع وهو يوم الجمعة إلى عند مسجد القدم يتضرعون إلى الله و يسألونه فى رفع الوباء عنهم، فصام أكثر الناس ونام الناس فى الجامع وأحيوا الليل كما يفعلون فى شهر رمضان ، فلما أصبح الناس يوم الجمعة السابع والعشرين منـه خرج الناس يوم الجمعـة من كل فج عميـق ، واليهود والنصارى والسامرة . والشيوخ والعجائز والصبيان ، والفقراء والأمراء والكبراء والقضاة من بعد صلاة الصبح فما زالوا هنالك يدعون الله تعالى حتى تعالى النهار جدا ، وكان يوما مشهودا .

وفى يوم الخميس عاشر جمادى الأولى صـلى الخطيب بعد صلاة الظهر على ستة عشر ميتا جملة واحدة ، فتهول الناس من ذلك وانذعروا ، وكان الوباء يومئذ كثيرا مما يقارب الثلثمائة بالبلد وحواضره فانا لله و إنا إليـه راجعون . وصلى بعد صلاة على خمسة عشر ميتا بجامع دمشق ، وصلى على إحدى عشر نفسا رحمهم الله .

وفى يوم الاثنين الحادى والعشرين منه رسم نائب السلطنة بقتل الكلاب من البلد ، وقد كانت كثيرة بأرجاء البلد وربما ضرت الناس وقطعت عليهم الطرقات فى أثناء الليل أما تنجيسها الأماكن

فكثير قد عم الابتلاء به وشق الاحتراز منه . وقد جمعت جزءاً فى الأحاديث الواردة فى قتلهم ، واختلاف الائمة فى نسخ ذلك ، وقد كان عمر رضى الله عنه يأمر فى خطبته بذبح الحمام وقتل الكلاب ونص مالك فى رواية ابن وهب على جواز قتل كلاب بلدة بعينها ، إذا أذن الامام فى ذلك للمصلحة .

وفى يوم الاثنين الثامن والعشرين منه توفى زين الدين عبد الرحمن بن شيخنا الحافظ المزى ، بدار الحديث النورية وهو شيخها . ودفن بمقابر الصوفية على والده . وفى منتصف شهر جمادى الآخرة قوى الموت وتزايد وبالله المستعان . ومات خلائق من الخاصة والعامة ممن نعرفهم وغيرهم رحمهم الله وأدخلهم جنته ، وبالله المستعان . وكان يصلى فى أكثر الأيام فى الجامع على أزيد من مائة ميت فانا لله و إنا إليه راجعون . و بعض الموتى لا يؤتى بهم إلى الجامع ، وأما حول البلد وأرجائها فلا يعلم عدد من يموت بها إلا الله عز وجل رحمهم الله آمين .

وفى يوم الاثنين السابع والعشرين منه توفى الصدر شمس الدين بن الصباب التاجر السفاربانى المدرسة الصبابية ، التى هى دار قرآن بالقرب من الظاهرية ، وهى قبلى العادلية الكبيرة . وكانت هذه البقعة برهة من الزمان خربة شنيعة ، فعمرها هذا الرجل وجعلها دار قرآن ودار حديث للحنابلة ، ووقف هو وغيره عليها أوقافا جيدة رحمه الله تعالى .

وفى يوم الجمعة ثامن شهر رجب صلى بعد الجمعة بالجامع الأموى على غائب : على القاضى علاء الدين بن قاضى شهبة ، ثم صلى على إحدى وأربعين نفسا جملة واحدة . فلم يتسع داخل الجامع لصفهم بل خرجوا ببعض الموتى إلى ظاهر باب السر ، وخرج الخطيب والنقيب فصلى عليهم كلهم هناك . وكان وقتا مشهودا . وعبرة عظيمة ، فانا لله و إنا إليه راجعون .

وفى هذا اليوم توفى التاجر المسمى بافريدون الذى بنى المدرسة التى بظاهر باب الجابية تجاه تربة بهادرآص ، حائطها من حجارة ملونة ، وجعلها داراً للقرآن العظيم و وقف عليها أوقافا جيدة . وكان مشهورا مشكورا رحمه الله وأكرم مثواه .

وفى يوم السبت ثالث رجب صلى على الشيخ على المغربى أحد أصحاب الشيخ تقى الدين بن تيمية بالجامع الافرمى بسفح قاسيون . ودفن بالسفح رحمه الله ، وكانت له عبادة وزهادة وتقشف وورع ولم يتول فى هذه الدنيا وظيفة بالكلية . ولم يكن له مال بل كان يأتى بشىء من الفتوح يستنفقه قليلا قليلا ، وكان يعانى التصوف ، وترك زوجة وثلاثة أولاد رحمه الله .

وفى صبيحة يوم الأربعاء سابع رجب صلى على القاضى زين الدين بن النجيح نائب القاضى الحنبلى . بالجامع المظفرى . ودفن بسفح قاسيون . وكان مشكورا فى القضاء ، لديه فضائل كثيرة . وديانة وعبادة ، وكان من أصحاب الشيخ تقى الدين بن تيمية ، وكان قد وقع بينه و بين القاضى

الشافعى مشاجرات بسبب أمور ، ثم اصطلحا فيما بعد ذلك.

وفى يوم الاثنين ثانى عشره بعد أذان الظهر حصل بدمشق وما حولها ريح شديدة أثارت غبارا شديدا اصفر الجو منه ثم اسود حتى أظلمت الدنيا ، وبقى الناس فى ذلك نحوا من ربع ساعة يستجيرون الله ويستغفرون ويبكون ، مع ماهم فيه من شدة الموت الذريع ، ورجا الناس أن هذا الحال يكون ختام ماهم فيه من الطاعون ، فلم يزدد الأمر إلا شدة ، وبالله المستعان . وبلغ المصلى عليهم فى الجامع الأموى إلى نحو المائة وخمسين ، وأكثر من ذلك ، خارجاً عمن لا يؤتى بهم إليه من أرجاء البلد وممن يموت من أهل الذمة ، وأما حواضر البلد وما حولها فأمر كثير ، يقال إنه بلغ ألفا فى كثير من الأيام ، فانا لله وإنا إليه راجعون . وصلى بعد الظهر من هذا اليوم بالجامع المظفرى على الشيخ إبراهيم بن المحب ، الذى كان يحدث فى الجامع الأموى وجامع تنكز ، وكان مجلسه كثير الجمع لصلاحه وحسن ما كان يؤديه من المواعيد النافعة ، ودفن بسفح قاسيون ، وكانت جنازته حافلة رحمه الله . وعملت المواعيد بالجامع الأموى ليلة سبع وعشرين من رجب ، يقولون ليلة المعراج ، ولم يجتمع الناس فيه على العادة لكثرة من مات منهم ، ولشغل كثير من الناس بمرضاهم وموتاهم . واتفق فى هذه الليلة أنه تأخر جماعة من الناس فى الخيم ظاهر البلد ، فجاؤا ليدخلوا من باب النصر على عادتهم فى ذلك ، فكأنه اجتمع خلق منهم بين البابين فهلك كثير منهم كنحو ما يهلك الناس فى هذا الحين على الجنائز ، فانزعج نائب السلطنة فخرج فوجدهم فأمر بجمعهم ، فلما أصبح الناس أمر بتسميرهم ثم عفا عنهم وضرب متولى البلد ضربا شديداً ، وسمر نائبه فى الليل ، وسمر البواب بباب النصر ، وأمر أن لا يمشى أحد بعد عشاء الآخرة ، ثم تسمح لهم فى ذلك .

واستهل شهر شعبان والفناء فى الناس كثير جداً ، وربما أنتنت البلد ، فانا لله وإنا إليه راجعون. وتوفى الشيخ شمس الدين بن الصلاح مدرس القيمرية الكبيرة بالمطرزيين ، يوم الخميس ثالث عشر شعبان وفى يوم الجمعة رابع عشر شعبان صلى بعد الصلاة على جماعة كثيرة ، منهم القاضى عماد الدين ابن الشيرازى ، محتسب البلد ، وكان من أكابر رؤساء دمشق ، وولى نظر الجامع مدة ، وفى بعض الأوقات نظر الأوقاف ، وجمع له فى وقت بينهما ودفن بسفح قاسيون .

وفى العشر الأخير من شهر شوال توفى الأمير قرابغا دويدار النائب ، بداره غربى حكر السماق ، وقد أنشأ له إلى جانبها تربة ومسجداً ، وهو الذى أنشأ السويقة المجددة عند داره ، وعمل لها بابين شرقياً وغربياً ، وضمنت بقيمة كثيرة بسبب جاهه ، ثم بارت وهجرت لقلة الحاجة إليها ، وحضر الأمراء والقضاة والأكابر جنازته ، ودفن بتربته هناك ، وترك أموالا جزيلة وحواصل كثيرة جداً ، أخذه مخدومه نائب السلطنة .

وفى يوم الثلاثاء سابع شهر ذى القعدة توفى خطيب الجامع ، الخطيب تاج الدين عبد الرحيم ابن القاضى جلال الدين محمد بن عبدالرحيم القزوينى ، بدار الخطابة ، مرض يومين وأصابه ماأصاب الناس من الطاعون ، وكذلك عامة أهل بيته من جواريه وأولاده ، وتبعه أخوه بعديومين صدرالدين عبدالكريم ، وصلى على الخطيب تاج الدين بعد الظهر يومئذ عند باب الخطابة ودفن بتربتهم بالصوفية عند أبيه وأخويه بدر الدين محمد ، وجمال الدين عبد الله رحمهم الله .

وفى يوم الخميس تاسعه اجتمع القضاة وكثير من الفقهاء المفتيين عند نائب السلطنة بسبب الخطابة ، فطلب إلى المجلس الشيخ جمال الدين بن محمود بن جملة فولاه إياها نائب السلطنة ، وانتزعت من يده وظائف كان يباشرها ، ففرقت على الناس ، فولى القاضى بهاء الدين أبو البقاء تدريس الظاهرية البرانية ، وتوزع الناس بقية جهاته ، ولم يبق بيده سوى الخطابة ، وصلى بالناس يومئذ الظهر ، ثم خلع عليه فى بكرة نهار الجمعة ، وصلى بالناس يومئذ وخطبهم على قاعدة الخطباء .

وفى يوم عرفة ، وكان يوم السبت ، توفى القاضى شهاب الدين بن فضل الله كاتب الأسرار الشريفة بالديار المصرية ، والبلاد الشامية ، ثم عزل عن ذلك ومات وليس يباشر شيئا من ذلك من رياسة وسعادة وأموال جزيلة ، وأملاك ومرتبات كثيرة ، وعمر داراً هائلة بسفح قاسيون بالقرب من الركنية شرقيها ليس بالسفح مثلها ، وقد انتهت إليه رياسة الانشاء ، وكان يشبه بالقاضى الفاضل فى زمانه ، وله مصنفات عديدة بعبارات سعيدة ، وكان حسن المذاكراة سريع الاستحضار جيد الحفظ فصيح اللسان جميل الأخلاق ، يحب العلماء والفقراء ، ولم يجاوز الخمسين ، توفى بدارهم داخل باب الفراديس ، وصلى عليه بالجامع الأموى ، ودفن بالسفح مع أبيه وأخيه بالقرب من اليغمورية سامحه الله وغفر له .

وفى هذا اليوم توفى الشيخ عبد الله بن رشيق المغربى ، كاتب مصنفات شيخنا العلامة ابن تيمية ، كان أبصر بخط الشيخ منه ، إذا عزب شىء منه على الشيخ استخرجه أبو عبد الله هذا ، وكان سريع الكتابة لا بأس به ، دينا عابداً كثير التلاوة حسن الصلاة ، له عيال وعليه ديون رحمه الله وغفر له آمين .

﴿ ثم دخلت سنة خمسين وسبعمائة ﴾

استهلت هذه السنة وسلطان البلاد المصرية والشامية والحرمين وغير ذلك من البلاد الملك الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون ، ونائب الديار المصرية ومدير ممالكه والاتابك سيف الدين يلبغا ، وقضاة الديار المصرية هم المذكورون فى التى قبلها ، ونائب الشام الأمير سيف الدين أرغون شاه الناصرى ، وقضاة دمشق هم المذكورون فى التى قبلها ، وكذلك أرباب الوظائف سوى الخطيب وسوى المحتسب .

و فى هذه السنة ولله الحمد تقاصر أمر الطاعون جـدا ونزل ديوان المواريث إلى العشرين وما حولها بعد أن بلغ الخمسمائة فى أثناء سنة تسع وأربعين ، ثم تقدم ولكن لم يرتفع بالكلية ، فان فى يوم الأربعاء رابع شهر المحرم توفى الفقيه شهاب الدين أحمـد بن الثقة هو وابنه وأخوه فى ساعة واحدة بهذا المرض ، وصلى عليهم جميعاً ، ودفنوا فى قبر واحد رحمهم الله تعالى .

و فى يوم الأربعاء الخامس والعشرين من المحرم توفى صاحبنا الشيخ الامام العالم العابد الزاهد الناسك الخاشع ناصر الدين محمد بن محمد بن محمد بن عبد القادر بن الصائغ الشافعى ، مدرس العمادية كان رحمـه الله لديه فضائل كثيرة على طريقة السلف الصالح ، وفيه عبادة كثيرة وتلاوة وقيام ليل وسكون حسن ، وخلق حسن ، جاوز الأربعين بنحو من ثلاث سنين ، رحمه الله وأكرم مثواه .

وفى يوم الأربعاء ثالث صفر باشر تقى الدين بن رافع المحدث مشيخة دار الحديث النورية ، وحضر عنده جماعة من الفضلاء والقضاة والأعيان ، انتهى والله تعالى أعلم .

﴿ مسك نائب السلطنة أرغون شاه ﴾

وفى ليلة الخميس الثالث والعشرين من ربيع الأول مسك نائب السلطنة بدمشق الأمـير سيف الدين أرغون شاه ، وكان قد انتقل إلى القصر الأبلق بأهله ، فما شعر بوسط الليل إلا ونائب طرابلس الأمير سيف الدين ألجى بغا المظفرى الناصرى ، ركب إليه فى طائفة من الأمراء الألوف وغيرهم ، فأحاطوا به ودخل عليه من دخل وهو مع جواريه نائم ، فخرج إليهم فقبضوا عليه وقيدوه ورسموا عليـه ، وأصبح الناس أكثرهم لا يشعر بشىء مما وقع ، فتحـدث الناس بذلك واجتمعت الأتراك إلى الأميرسيف الدين ألجى بغا المذكور ، ونزل بظاهر البلد ، واحتيط على حواصل أرغون شاه ، فبات عزيزاً وأصبح ذليلا ، وأمسى علينا نائب السلطنة فأصبح وقد أحاط به الفقر والمسكنة فسبحان من بيـده الأمر مالك الملك (يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء) وهذا كما قال الله تعالى (أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون ، أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسـنا ضحى وهم يلعبون . أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) ثم لما كان ليلة الجمعة الرابع والعشرين من ربيع الأول أصبح مذبوحاً فأثبت محضر بأنه ذبح نفسه فالله تعالى أعلم .

﴿ كائنة عجيبة غريبة جداً ﴾

ثم لما كان يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من ربيع الأول سنة خمسين وسبعمائة وقع اختلاف بين جيش دمشق وبين الأمير سيف الدين ألجى بغا ، نائب طرابلس ، الذى جاء فأمسك نائب دمشق الأمـير سيف الدين أرغون شاه الناصرى ، ليلة الخميس وقتله ليلة الجمعة كما تقدم ، وأقام بالميـدان

الأخضر يستخلص أمواله وحواصله ، ويجمعها عنده ، فأنكر عليه الأمراء الكبار ، وأمروه أن يحمل الأموال إلى قلعة السلطان فلم يقبل منهم ، فاتهموه فى أمره . وشكوا فى الكتاب على يده من الأمر بمسكه وقتله ، وركبوا ملبسين تحت القلعة وأبواب الميادين . وركب هو فى أصحابه وهم فى دون المائة . وقائل يقول هم ما بين السبعين إلى الثمانين والتسعين ، جعلوا يحملون على الجيش حمل المستقتلين ، إنما يدافعهم مدافعة المتبرئين ، وليس معهم مرسوم بقتلهم ولا قتالهم ، فلهذا ولى أكثرهم منهزمين . فخرج جماعة من الجيش حتى بعض الأمراء المقدمين ، وهو الأمير الكبير سيف الدين ألجى بغا العادلى . فقطعت يده اليمنى ، وقد قارب التسعين . وقتل آخرون من أجناد الحلقة والمستخدمين ، ثم انفصل الحال على أن أخذ ألجى بغا المظفرى من خيول أرغون شاه المرتبطة فى اسطبله ما أراد ، ثم انصرف من ناحية المزة صاغراً على عقبيه . ومعه الأموال التى جمعها من حواصل أرغون شاه ، واستمر ذاهباً ، ولم يتبعه أحد من الجيش . وصحبته الأمير فخر الدين إياس ، الذى كان حاجباً ، وناب فى حلب فى العام الماضى ، فذهبا بمن معهما إلى طرابلس . وكتب أمراء الشام إلى السلطان يعلمونه بما وقع ، فجاء البريد بأنه ليس عند السلطان علم بما وقع بالكلية ، وأن الكتاب الذى جاء على يديه مفتعل . وجاء الأمر لأربعة آلاف من الجيش الشامى أن يسيروا وراءه ليمسكوه ثم أضيف نائب صفد مقدماً على الجميع ، فخرجوا فى العشر الأول من ربيع الآخر . وفى يوم الأربعاء سادس ربيع الآخر خرجت العساكر فى طلب سيف الدين ألجى بغا العادلى فى المعركة وهو أحد أمراء الألوف المقدمين ، ولما كانت ليلة الخميس سابعه نودى بالبلد على من يقربها من الاجناد أن لا يتأخر أحد عن الخروج بالغد ، فأصبحوا فى سرعة عظيمة واستنيب فى البلد نيابة عن النائب الراتب الأمير بدر الدين الخطير ، فحكم بدار السعادة على عادة النواب . وفى ليلة السبت بين العشاءين سادس عشره دخل الجيش الذين خرجوا فى طلب ألجى بغا المظفرى ، وهو معهم أسير ذليل حقير . وكذلك الفخر إياس الحاجب مأسور معهم ، فأودعا فى القلعة مهانين من جسر باب النصر الذى تجاه دار السعادة . وذلك بحضور الأمير بدر الدين الخطير نائب الغيبة . ففرح الناس بذلك فرحاً شديدا ، ولله الحمد والمنة . فلما كان يوم الاثنين الثامن عشر منه خرجا من القلعة إلى سوق الخيل فوسطا بحضرة الجيش ، وعلقت جثتهما على الخشب ليراهما الناس ، فمكثا أياما ثم أنزلا فدفنا بمقابر المسلمين .

وفى أوائل شهر جمادى الآخرة جاء الخبر بموت نائب حلب سيف الدين قطلبشاه ففرح كثير من الناس بموته وذلك لسوء أعماله فى مدينة حماة فى زمن الطاعون . وذكر أنه كان يحتاط على التركة وإن كان فيها ولد ذكر أو غيره ، ويأخذ من أموال الناس جهرة ، حتى حصل له منها شىء كثير ، ثم

نقل إلى حلب بعد نائبها الأمير سيف الدين أرقطيه الذى كان عين لنيابة دمشق بعد موت أرغون شاه ، وخرج الناس لتلقيه فما هو إلا أن برز منزلة واحـدة من حلب فمات بتلك المنزلة ، فلما صار قطلبشاه إلى حلب لم يقم بها إلا يسيراً حتى مات ، ولم ينتفع بتلك الأموال التى جمعها لا فى دنياه ولا فى أخراه .

ولما كان يوم الخميس الحادى عشر من جمادى الآخرة دخل الأمير سيف الدين أيتمش الناصرى من الديار المصرية إلى دمشق نائبا عليها ، وبين يديه الجيش على العادة ، فقبل العتبة ولبس الحياصة والسيف ، وأعطى تقليـده ومنشوره هنالك ، ثم وقف فى الموكب عـلى عادة النواب ، ورجع إلى دار السعادة وحكم ، وفرح الناس به ، وهوحسن الشكل تام الخلقـة ، وكان الشام بلا نائب مستقل قريبا من شهرين ونصف . وفى يوم دخوله حبس أربعة أمراء من الطبلخانات ، وهم القاسمى وأولاد آل أبو بكر اعتقلهم فى القلعة لممالأتهم ألجى بغا المظفرى ، على أرغون شاه نائب الشام .

وفى يوم الاثنين خامس عشر جمادى الآخرة حكم القاضى نجم الدين بن القاضى عماد الدين الطرسوسى الحنفى ، وذلك بتوقيع سلطانى وخلعة من الديار المصرية . وفى يوم الثلاثاء سادس عشر جمادى الآخرة حصل الصلح بين قاضى القضاة تقى الدين السبكى وبين الشيخ شمس الدين ابن قيم الجوزية ، على يدى الأمير سيف الدين بن فضل ملك العرب ، فى بستان قاضى القضاة ، وكان قد نقم عليه إكثاره من الفتيا بمسألة الطلاق .

وفى يوم الجمعة السادس والعشرين منه نقلت جثـة الأمير سيف الدين أرغون شاه من مقابر الصوفية إلى تربته التى أنشأها تحت الطارمة ، وشرع فى تكميل التربة والمسجد الذى قبلها ، وذلك أنه عاجلته المنية عـلى يد ألجى بغا المظفرى قبل إتمامهما ، وحين قتلوه ذبحا ودفنوه ليـلا فى مقابر الصوفية ، قريبا من قبر الشيخ تقى الدين ابن الصلاح ، ثم حول إلى تربته فى الليلة المذكورة ، وفى يوم السبت تاسع عشر رجب أذن المؤذنون للفجر قبل الوقت بقريب من ساعة ، فصلى الناس فى الجامع الأموى على عادتهـم فى ترتيب الأئمة ، ثم رأوا الوقت باقيا فأعاد الخطيب الفجر بعـد صلاة الأئمة كلهم ، وأقيمت الصلاة ثانيا ، وهذا شىء لم يتفق مثله .

وفى يوم الخميس ثامن شهر شعبان توفى قاضى القضاة علاء الدين بن منجا الحنبلى بالمسمارية ، وصلى عليه الظهر بالجامع الأموى ، ثم بظاهر باب النصر ، ودفن بسفح قاسيون رحمه الله .

وفى يوم الاثنين رمضان بكرة النهار استدعى الشيخ جمال الدين المرداوى من الصالحية إلى دار السعادة ، وكان تقليد القضاء لمذهبه قد وصل إليه قبل ذلك بأيام ، فأحضرت الخلعة بين يدى النائب والقضاة الباقين ، وأريد على لبسها وقبول الولاية فامتنع ، فألحوا عليه فصمم وبالغ فى الامتناع

وخرج وهو مغضب فراح إلى الصالحية فبالغ الناس فى تعظيمه ، وبقى القضاة يوم ذلك فى دار السعادة ، ثم بعثوا إليه بعد الظهر فحضر من الصالحية فلم يزالوا به حتى قبل ولبس الخلعة وخرج إلى الجامع ، فقرىء تقليده بعد العصر ، واجتمع معه القضاة وهنأه الناس ، وفرحوا به لديانته وصيانته وفضيلته وأمانته . و بعد هذا اليوم بأيام حكم الفقيه شمس الدين محمد بن مفلح الحنبلى نيابة عن قاضى القضاة جمال الدين المرداوى المقدسى ، وابن مفلح زوج ابنته . و فى العشر الأخير من ذى القعدة حضر الفقيه الامام المحدث المفيد أمين الدين الايجى المالكى مشيخة دار الحديث بالمدرسة الناصرية الجوانية ، نزل له عنها الصدر أمين الدين ابن القلانسى ، وكيل بيت المال ، وحضر عنده الأكابر والأعيان . و فى أواخر هذه السنة تكامل بناء التربة التى تحت الطارمة المنسوبة إلى الأمير سيف الدين أرغون شاه ، الذى كان نائب السلطنة بدمشق ، وكذلك القبلى منها ، وصلى فيها الناس ، وكان قبل ذلك مسجدا صغيرا فعمره وكبره ، وجاء كأنه جامع تقبل الله منه انتهى .

﴿ ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وسبعمائة ﴾

استهلت وسلطان الشام ومصر الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون ، ونائبه بمصر الأمير سيف الدين يلبغا وأخوه سيف الدين منجك الوزير ، والمشارون جماعة من المقدمين بديار مصر ، وقضاة مصر وكاتب السرهم الذين كانوا فى السنة الماضية ، ونائب الشام الأمير سيف الدين ارتيمش الناصرى ، والقضاة هم القضاة سوى الحنبلى فانه الشيخ جمال الدين يوسف المرداوى ، وكاتب السر ، وشيخ الشيوخ تاج الدين ، وكاتب الدست هم المتقدمون ، وأضيف إليهم شرف الدين عبد الوهاب بن القاضى علاء الدين بن شمرنوخ ، والمحتسب القاضى عماد الدين بن العزفور ، وشاد الأوقاف الشريف ، وناظر الجامع فخر الدين بن العفيف ، وخطيب البلد جمال الدين محمود ابن جملة رحمه الله .

و فى يوم السبت عاشر المحرم نودى بالبلد من جهة نائب السلطان عن كتاب جاءه من الديار المصرية أن لا تلبس النساء الا كمام الطوال العراض ، ولا البرد الحرير ، ولا شيئا من اللباسات والثياب الثمينة ، ولا الأقمشة القصار ، و بلغنا أنهم بالديار المصرية شددوا فى ذلك جدا ، حتى قيل إنهم غرقوا بعض النساء بسبب ذلك فالله أعلم .

وجددت وأكملت فى أول هذه السنة دار قرآن قبلى تربة امرأة تنكز ، بمحلة باب الخواصين حولها ، وكانت قاعة صورة مدرسة الطواشى صفى الدين عنبر ، مولى ابن حمزة ، وهو أحد الكبار الأجواد ، تقبل الله منه . و فى يوم الأحد خامس شهر جمادى الأولى فتحت المدرسة الطيبانية التى كانت دارا للأمير سيف الدين طيبان بالقرب من الشامية الجوانية ، بينها و بين أم الصالح ، اشتريت

من ثلثه الذى وصى به ، وفتحت مدرسة وحول لها شباك إلى الطريق فى ضفتها القبلية منها ، وحضر الدرس بها فى هذا اليوم الشيخ عماد الدين بن شرف الدين بن عم الشيخ كمال الدين بن الزملكانى بوصية الواقف له بذلك ، وحضر عنده قاضى القضاة السبكى والمالكى وجماعة من الأعيان ، وأخذ فى قوله تعالى (مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها) الآية . واتفق فى ليلة الأحد السادس والعشرين من جمادى الأولى أنه لم يحضر أحد من المؤذنين على السدة فى جامع دمشق وقت إقامة الصلاة للمغرب سوى مؤذن واحد ، فانتظر من يقيم معه الصلاة فلم يجىء أحد غيره مقدار درجة أو أزيد منها ، فأقام هو الصلاة وحده ، فلما أحرم الامام بالصلاة تلاحق المؤذنون فى أثناء الصلاة حتى بلغوا دون العشرة ، وهذا أمر غريب من عدة ثلاثين مؤذن أو أكثر ، لم يحضر سوى مؤذن واحد ، وقد أخبر خلق من المشايخ أنهم لم يروا نظير هذه الكائنة .

وفى يوم الاثنين سابع عشر جمادى الآخرة اجتمع القضاة بمشهد عثمان ، وكان الفاضل الحنبلى قد حكم فى دار المعتمد الملاصقة لمدرسة الشيخ أبى عمر يلبغا ، وكانت وقفا ، لتضاف إلى دار القرآن ، ووقف عليها أوقاف للفقراء ، فمنعه الشافعى من ذلك ، من أجل أنه يؤول أمرها أن تكون دار حديث ثم فتحوا بابا آخر وقالوا : هذه الدار لم يستهدم جميعها ، وما صادف الحكم محلا ، لأن مذهب الامام أحمد أن الوقف يباع إذا استهدم بالكلية ، ولم يبق ما ينتفع به ، فحكم القاضى الحنفى باثباتها وقفا كما كانت ، ونفذه الشافعى والمالكى ، وانفصل الحال على ذلك ، وجرت أمور طويلة ، وأشياء عجيبة .

وفى يوم الأربعاء السابع والعشرين من جمادى الآخرة أصبح بواب المدرسة المستجدة التى يقال لها الطيبانية إلى جانب أم الصالح مقتولا مذبوحا ، وقد أخذت من عنده أموال من المدرسة المذكورة ولم يطلع على فاعل ذلك ، وكان البواب رجلا صالحا مشكوراً رحمه الله .

﴿ ترجمة الشيخ شمس الدين بن قيم الجوزية ﴾

وفى ليلة الخميس ثالث عشر رجب وقت أذان العشاء توفى صاحبنا الشيخ الامام العلامة شمس الدين محمد بن أبى بكر بن أيوب الزرعى ، إمام الجوزية ، وابن قيمها ، وصلى عليه بعد صلاة الظهر من الغد بالجامع الأموى ، ودفن عند والدته بمقابر الباب الصغير رحمه الله . ولد فى سنة إحدى وتسعين وستمائة وسمع الحديث واشتغل بالعلم ، وبرع فى علوم متعددة ، لا سيما علم التفسير والحديث والأصلين ، ولما عاد الشيخ تقى الدين ابن تيمية من الديار المصرية فى سنة ثنتى عشرة وسبعمائة لازمه إلى أن مات الشيخ فأخذ عنه علما جما ، مع ما سلف له من الاشتغال ، فصار فريداً فى بابه فى فنون كثيرة ، مع كثرة الطلب ليلا ونهاراً ، وكثرة الابتهال . وكان حسن القراءة والخلق ، كثير التودد لايحسد أحداً ولا يؤذيه ، ولا يستعيبه ولا يحقد على أحد ، وكنت من أصحب الناس له وأحب

الناس إليه ، ولا أعرف فى هذا العالم فى زماننا أكثر عبادة منه . وكانت له طريقة فى الصلاة يطيلها جدا و يمد ركوعها وسجودها ، و يلومه كثير من أصحابه فى بعض الأحيان ، فلا يرجع ولا ينزع عن ذلك رحمه الله ، وله من التصانيف الكبار والصغار شىء كثير ، وكتب بخطه الحسن شيئا كثيراً ، و.... من الكتب مالا يتهيأ لغيره تحصيل عشره من كتب السلف والخلف . و بالجملة كان قليل النظير فى مجموعه وأموره وأحواله . والغالب عليه الخير والأخلاق الصالحة ، سامحه الله و رحمه ، وقد كان متصديا للافتاء بمسألة الطلاق التى اختارها الشيخ تقى الدين ابن تيمية ، وجرت بسببها فصول يطول بسطها مع قاضى القضاة تقى الدين السبكى وغيره ، وقد كانت جنازته حافلة رحمه الله . شهدها القضاة والأعيان والصالحون من الخاصة والعامة ، وتزاحم الناس على حمل نعشه . وكمل له من العمر ستون سنة رحمه الله .

وفى يوم الاثنين ثانى عشر شهر شعبان ذكر الدرس بالصدرية شرف الدين عبد الله بن الشيخ الامام العلامة شمس الدين بن قيم الجوزية عوضا عن أبيه رحمه الله فأفاد وأجاد ، وسرد طرفا صالحا فى فضل العلم وأهله ، انتهى والله تعالى أعلم .

ومن العجائب والغرائب التى لم يتفق مثلها ولم يقع من نحو مائتى سنة وأكثر ، أنه بطل الوقيد بجامع دمشق فى ليلة النصف من شعبان ، فلم يزد فى وقيده قنديل واحد على عادة لياليه فى سائر السنة ولله الحمد والمنة . وفرح أهل العلم بذلك ، وأهل الديانة ، وشكروا الله تعالى على تبطيل هذه البدعة الشنعاء ، التى كان يتولد بسببها شرور كثيرة بالبلد ، والاستيجار بالجامع الأموى . وكان ذلك بمرسوم السلطان الملك الناصر حسن بن الملك الناصر محمد بن قلاوون خلد الله ملكه ، وشيد أركانه وكان الساعى لذلك بالديار المصرية الأمير حسام الدين أبو بكر بن النجيبى بيض الله وجهه . وقد كان مقيما فى هذا الحين بالديار المصرية ، وقد كنت رأيت عنده فتيا عليها خط الشيخ تقى الدين بن تيمية ، والشيخ كمال الدين بن الزملكانى . وغيرهما فى إبطال هذه البدعة ، فأنفذ الله ذلك ولله الحمد والمنة . وقد كانت هذه البدعة قد استقرت بين أظهر الناس من نحو سنة خمسين وأربعمائة و إلى زماننا هذا ، وكم سعى فيها من فقيه وقاض ومفت وعالم وعابد وأمير و زاهد ونائب سلطنة وغيرهم ولم ييسر الله ذلك إلا فى عامنا هذا . والمسؤل من الله إطالة عمر هذا السلطان ، ليعلم الجهلة الذين استقر فى أذهانهم إذا أبطل هذا الوقيد فى عام يموت سلطان الوقت ، وكان هذا لاحقيقة له ولادليل عليه إلا مجرد الوهم والخيال .

وفى مستهل شهر رمضان اتفق أمر غريب لم يتفق مثله من مدة متطاولة ، فيما يتعلق بالفقهاء والمدارس ، وهو أنه كان قد توفى ابن الناصح الحنبلى بالصالحية . وكان بيده نصف تدريس الضاحية

التى للحنابلة بالصالحية ، والنصف الآخر للشيخ شرف الدين ابن القاضى شرف الدين الحنبلى شيخ الحنابلة بدمشق ، فاستنجز مرسوماً بالنصف الآخر ، وكانت بيده ولاية متقدمة من القاضى علاء الدين ابن المنجا الحنبلى ، فعارضه فى ذلك قاضى القضاة جمال الدين المرداوى الحنبلى ، وولى فيها نائبه شمس الدين بن مفلح ، ودرس بها قاضى القضاة فى صدر هذا اليوم ، فدخل القضاة الثلاثة الباقون ومعهم الشيخ شرف الدين المذكور إلى نائب السلطنة ، وأنهوا إليه صورة الحال ، فرسم له بالتدريس ، فركب القضاة المذكورون وبعض الحجاب فى خدمته إلى المدرسة المذكورة ، واجتمع الفضلاء والأعيان ، ودرس الشيخ شرف الدين المذكور ، وبث فضائل كثيرة ، وفرح الناس .

وفى شوال كان فى جملة من توجه إلى الحج فى هذا العام نائب الديار المصرية ومدبر ممالكها الأمير سيف الدين يلبغا الناصرى ، ومعه جماعة من الأمراء ، فلما استقل الناس ذاهبين نهض جماعة من الأمراء على أخيه الأمير سيف الدين منجك ، وهو وزير المملكة ، وأستاذ دار الاستادارية ، وهو باب الحوائج فى دولتهم ، وإليه يرحل ذوو الحاجات بالذهب والهدايا ، فأمسكوه وجاءت البريدية إلى الشام فى أواخر هذا الشهر بذلك ، وبعد أيام يسيرة وصل الأمير سيف الدين شيخون ، وهو من أكابر الدولة المصرية تحت الترسيم ، فأدخل إلى قلعة دمشق ، ثم أخذ منها بعد ليلة فذهب به إلى الاسكندرية فالله أعلم . وجاء البريد بالاحتياط على ديوانه وديوان منجك بالشام وأيس من سلامتهما ، وكذلك وردت الأخبار بمسك يلبغا فى أثناء الطريق ، وأرسل سيفه إلى السلطان ، وقدم أمير من الديار المصرية لحلف الأمراء بالطاعة إلى السلطان ، وكذلك سار إلى حلب لحلف من بها من الأمراء ثم عاد إلى دمشق ثم عاد راجعاً إلى الديار المصرية ، وحصل له من الاموال شىء كثير من النواب والأمراء .

وفى يوم الخميس العشرين من ذى القعدة مسك الأميران الكبيران الشاميان المقدمان شهاب الدين أحمد بن صبيح ، وملك آص ، من دار السعادة بحضرة نائب السلطنة والأمراء ورفعا إلى القلعة المنصورة ، سير بهما ماشيين من دار السعادة إلى باب القلعة من ناحية دار الحديث ، وقيدا وسجنا بها ، وجاء الخبر بأن السلطان استوزر بالديار المصرية القاضى علم الدين زينور ، وخلع عليه خلعة سنية ، لم يسمع بمثلها من أعصار متقادمة ، وباشر وخلع على الأمراء والمقدمين ، وكذلك خلع على الأمير سيف الدين طسبغا وأعيد إلى مباشرة الدويدارية بالديار المصرية ، وجعل مقدما .

وفى أوائل شهر ذى الحجة اشتهر أن نائب صفد شهاب الدين أحمد بن مشد الشربخانات طلب إلى الديار المصرية فامتنع من إجابة الداعى ، ونقض العهد ، وحصن قلعتها ، وحصل فيها عدداً ومددا وادخر أشياء كثيرة بسبب الاقامة بها والامتناع فيها ، فجاءت البريدية إلى نائب دمشق بأن يركب هو

وجميع جيش دمشق إليه ، فتجهز الجيش لذلك وتأهبوا ، ثم خرجت الأطلاب على راياتها ، فلما برز منها بعض بدا لنائب السلطنة فردهم وكان له خبرة عظيمة ، ثم استقر الحال على تجريد أربعة مقدمين بأربعة آلاف إليه .

وفى يوم الخميس ثانى عشره وقعت كائنة غريبة بمنى وذلك أنه اختلف الأمراء المصريون والشاميون مع صاحب اليمن الملك المجاهد ، فاقتتلوا قتالا شديدا قريباً من وادى محسر ، ثم انجلت الوقعة عن أسر صاحب اليمن الملك المجاهد فحمل مقيدا إلى مصر ، كذلك جاءت بها كتب الحجاج وهم أخبروا بذلك . واشتهر فى أواخر ذى الحجة أن نائب حلب الأمير سيف الدين أرغون الكاملى قد خرج عنها بمماليكه وأصحابه فرام الجيش الحلبى رده فلم يستطيعوا ذلك ، وجرح منهم جراحات كثيرة ، وقتل جماعة فانا لله و إنا إليه راجعون ، واستمر ذاهبا وكان فى أمله فيما ذكر أن يتلقى سيف الدين يلبغا فى أثناء طريق الحجاز فيتقدم معه إلى دمشق ، و إن كان نائب دمشق قد اشتغل فى حصار صفد أن يهجم عليها بغتة فيأخذها ، فلما سار بمن معه وأخذته القطاع من كل جانب ونهبت حواصله وبقى تجريدة فى نفر يسير من مماليكه ، فاجتاز بحماة ليهرب به نائبها فأبى عليه ، فلما اجتاز بحمص وطن نفسه على المسير إلى السلطان بنفسه ، فقدم به نائب حمص وتلقاه بعض الحجاب و بعض مقدمين الألوف ودخل يوم الجمعة بعد الصلاة سابع عشرين الشهر ، وهو فى أبهة ، فنزل بدار السعادة فى بعض قاعات الدويدارية انتهى .

﴿ ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة ﴾

استهلت هذه السنة وسلطان البلاد الشامية والديار المصرية والحرمين الشريفين وما يلحق بذلك من الأقاليم والبلدان ، الملك الناصر حسن بن السلطان الملك محمد بن السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحى ، ونائبه بالديار المصرية الأمير سيف الدين يلبغا الملقب بحارس الطير ، وهو عوضا عن الأمير سيف الدين يلبغا أروش الذى راح إلى بلاد الحجاز ، ومعه جماعة من الأمراء بقصد الحج الشريف ، فعزله السلطان فى غيبته وأمسك على شيخون واعتقله ، وأخذ منجك الوزير ، وهو أستاذ دار ومقدم ألف ، واصطفى أمواله ، واعتاض عنه و ولى مكانه فى الوزارة القاضى علم الدين ابن زنبور ، واسترجع إلى وظيفة الدويدارية الأمير سيف الدين طسبغا الناصرى ، وكان أميراً بالشام مقيما منذ عزل إلى أن أعيد فى أواخر السنة كما تقدم . وأما كاتب السر بمصر وقضاتها فهم المذكورون فى التى قبلها .

واستهلت هذه السنة ونائب صفد قد حصن القلعة وأعد فيها عدتها وما ينبغى لها من الأطعمات والذخائر والعدد والرجال ، وقد نابذ المملكة وحارب ، وقد قصدته العساكر من كل جانب من الديار

المصرية ودمشق وطرابلس وغيرها . والأخبار قد ضمنت عن يلبغا ومن معه ببلاد الحجاز ما يكون من أمره ، ونائب دمشق فى احتراز وخوف من أن يأتى إلى بلاد الشام فيدهمها بمن معه . والقلوب وجلة من ذلك ، فانا لله و إنا إليه راجعون . وفيها ورد الخبر أن صاحب اليمن حج فى هذه السنة فوقع بينه و بين صاحب مكة عجلان بسبب أنه أراد أن يولى عليها أخاه بعينة ، فاشتكى عجلان ذلك إلى أمراء المصريين وكبيرهم إذ ذاك الأمير سيف الدين بزلار ومعهم طائفة كثيرة ، وقد أمسكوا أخاهم يلبغا وقيدوه . فقوى رأسه عليهم واستخف بهم . فصبروا حتى قضى الحج وفرغ الناس من المناسك ، فلما كان يوم النفر الأول يوم الخميس تواقفوا هم وهو فقتل من الفريقين خلق كثير ، والأكثر من اليمنيين ، وكانت الوقعة قريبة من وادى محسر ، و بقى الحجيج خائفين أن تكون الدائرة على الأتراك فتنهب الأعراب أموالهم و ربما قتلوهم ، ففرج الله ونصر الأتراك على أهل اليمن ولجأ الملك المجاهد إلى جبل فلم يعصمه من الأتراك . بل أسروه ذليلا حقيرا ، وأخذوه مقيدا أسيرا ، وجاءت عوام الناس إلى اليمنيين فنهبوا شيئا كثيرا . ولم يتركوا لهم جليلا ولا حقيرا . ولا قليلا ولا كثيرا . واحتاط الأمراء على حواصل الملك وأمواله وأمتعته وأثقاله . وساروا بخيله وجماله . وأدلوا على صنديد من رحله ورجاله . واستحضروا معهم طفيلا الذى كان حاصر المدينة النبوية فى العام الماضى وقيدوه أيضاً ، وجعلوا الغل فى عنقه ، واستاقوه كما يستاق الأسير فى وثاقه مصحوبا بهمه وحتفه ، وانشمروا عن تلك البلاد إلى ديارهم راجعين ، وقد فعلوا فعلة تذكر بعدهم إلى حين .

ودخل الركب الشامى إلى دمشق يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من المحرم على العادة المستمرة والقاعدة المستقرة . وفى هذا اليوم قدمت البريدية من تلقاء مدينة صفد مخبرة بأن الأمير شهاب الدين أحمد ابن مشد الشربخاناه ، الذى كان قد تمرد بها وطغى و بغى حتى استحوذ عليها وقطع سبيها وقتل الفرسان والرجالة . وملأها أطعمة وأسلحة . ومماليكه ورجاله ، فعند ما تحقق مسك يلبغا أروش خضعت تلك النفوس ، وخمدت ناره وسكن شراره وحار بشاره ، ووضح قراره . وأناب إلى التوبة والاقلاع ، ورغب إلى السلامة والخلاص . وخشع ولات حين مناص ، وأرسل سيفه إلى السلطان ، ثم توجه بنفسه على البريد إلى حضرة الملك الناصر والله المسؤل أن يحسن عليه وأن يقبل بقلبه إليه .

وفى يوم الأحد خامس صفر قدم من الديار المصرية الأمير سيف الدين أرغون الكاملى معاداً إلى نيابة حلب ، وفى صحبته الأمير سيف الدين طشبغا الدوادار بالديار المصرية ، وهو زوج ابنة نائب الشام ، فتلقاه نائب الشام وأعيان الأمراء ، ونزل طشبغا الدوادار عند زوجته بدار منجى فى محلة مسجد القصب التى كانت تعرف بدار حنين بن حندر ، وقد جددت فى السنة الماضية . وتوجها فى الليلة الثانية من قدومهما إلى حلب . وفى يوم الأربعاء رابع عشر ربيع الاول اجتمع

القضاة الثلاثة وطلبوا الحنبلي ليتكلموا معه فيما يتعلق بدار المعتمد التي بجوار مدرسة الشيخ أبي عمر، التي حكم بنقض وقفها وهدم بابها و إضافتها إلى دار القرآن المذكورة ، وجاء مرسوم السلطان بوفق ذلك ، وكان القاضي الشافعي قد أراد منعه من ذلك ، فلما جاء مرسوم السلطان اجتمعوا لذلك ، فلم يحضر القاضي الحنبلي ، قال حتى يجيء نائب السلطنة .

ولما كان يوم الخميس خامس عشر ربيع الأول حضر القاضي حسين ولد قاضي القضاة تقي الدين السبكي عن أبيه مشيخة دار الحديث الأشرفية وقرئ عليه شيء كان قد خرجه له بعض المحدثين، وشاع في البلد أنه نزل له عنها ، وتكلموا في ذلك كلاماً كثيراً ، وانتشر القول في ذلك ، وذكر بعضهم أنه نزل له عن الغزالية والعادلية ، واستخلفه في ذلك فالله أعلم .

وفي سحر ليلة الخميس خامس شهر جمادى الآخرة وقع حريق عظيم بالجوانيين في السوق الكبير واحترقت دكاكين الفواخرة والمناجليين ، وفرجة الغرابيل ، و إلى درب القلى ، ثم إلى قريب درب العميد ، وصارت تلك الناحية دكا بلقعا ، فانا لله و إنا إليه راجعون . وجاء نائب السلطنة بعد الاذان إلى هناك ورسم بطفي النار ، وجاء المتولي والقاضي الشافعي والحجاب ، وشرع الناس في طفي النار، ولو تركوها لأحرقت شيئاً كثيراً ، ولم يفقد فيما بلغنا أحد من الناس ، ولكن هلك للناس شيء كثير من المتاع والأثاث والأملاك وغير ذلك ، واحترق للجامع من الرباع في هذا الحريق ما يساوي مائة ألف درهم . انتهى والله أعلم .

﴿ كائنة غريبة جداً ﴾

وفي يوم الأحد خامس عشر جمادى الأولى استسلم القاضي الحنبلي جماعة من اليهود كان قد صدر منهم نوع استهزاء بالاسلام وأهله ، فانهم حملوا رجلا منهم صفة ميت على نعش ويهللون كتهليل المسلمين أمام الميت ويقرأون (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) فسمع بهم من بجارتهم من المسلمين ، فأخذوهم إلى ولي الامر نائب السلطنة فدفعهم إلى الحنبلي ، فاقتضى الحال استسلامهم فأسلم يومئذ منهم ثلاثة وتبع أحدهم ثلاثة أطفال ، وأسلم في اليوم الثاني ثمانية آخرون فأخذهم المسلمون وطافوا بهم في الأسواق يهللون ويكبرون ، وأعطاهم أهل الأسواق شيئاً كثيراً وراحوا بهم إلى الجامع فصلوا ثم أخذوهم إلى دار السعادة فاستطلقوا لهم شيئا ، ورجعوا وهم في ضجيج وتهليل وتقديس ، وكان يوماً مشهوداً ولله الحمد والمنة . انتهى والله أعلم

﴿ مملكة السلطان الملك الصالح ﴾

، صلاح الدين بن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون الصالحي ،

في العشر الأوسط من شهر رجب الفرد وردت البريدية من الديار المصرية بعزل السلطان الملك الناصر حسن بن الناصر بن قلاوون لاختلاف الأمراء عليه ، واجتماعهم على أخيه الملك

الصالح ، وأمه صالحة بنت ملك الامراء تنكز الذى كان نائب الشام مدة طويلة ، وهو ابن أربع عشرة سنة ، وجاءت الأمراء للحلف ، فدقت البشائر و زين البلد على العادة ، وقيل إن الملك الناصر حسن خنق و رجعت الامراء الذين كانوا باسكندرية مثل شيخون ومنجك وغيرهما ، وأرسلوا إلى يلبغا فجىء به من الكرك ، وكان مسجونا بها من مرجعه من الحج ، فلما عاد إلى الديار المصرية شفع فى صاحب اليمن الملك المجاهد الذى كان مسجونا فى الكرك فأخرج وعاد إلى الديار الحجازية . وأما الأمراء الذين كانوا من ناحية السلطان حين مسك معارضة أمير أخور وميكلى بغا الفخرى وغيرهما ، فاحتيط عليهم وأرسلوا إلى الاسكندرية ، وخطب للملك الصالح بجامع دمشق يوم الجمعة السابع عشر من شهر رجب وحضر نائب السلطنة والأمراء والقضاة للدعاء له بالمقصورة على العادة .

وفى أثناء العشر الأخير من رجب عزل نائب السلطنة سيف الدين أيتمش عن دمشق مطلوبا إلى الديار المصرية فسار إليها يوم الخميس . وفى يوم الاثنين حادى عشر شعبان قدم الأمير سيف الدين أرغون الكاملى الذى كان نائبا على الديار الحلبية من هناك ، فدخل دمشق فى هذا اليوم فى أبهة عظيمة ، وخرج الأمراء والمقدمون وأرباب الوظائف لتلقيه إلى أثناء الطريق ، منهم من وصل إلى حلب وحماة وحمص ، وجرى فى هذا اليوم عجائب لم تر من دهور ، واستبشر الناس به لصرامته وشهامته وحدته ، وما كان من لين الذى قبله و رخاوته ، فنزل دار السعادة على العادة . وفى يوم السبت وقف فى موكب هائل قيل إنه لم ير مثله من مدة طويلة ، ولما سير إلى ناحية باب الفرج اشتكى إليه ثلاث نسوة على أمير كبير يقال له الطرخاين ، فأمر بانزاله عن فرسه فأنزل وأوقف معهن فى الحكومة ، واستمر بطلان الوقيد فى الجامع الأموى فى هذا العام أيضا كالذى قبله ، حسب مرسوم السلطان الناصر حسن رحمه الله ، ففرح أهل الخير بذلك فرحا شديداً ، وهذا شىء لم يعهد مثله من نحو ثلثمائة سنة ولله الحمد والمنة ، ونودى فى البلد فى هذا اليوم والذى بعده عن النائب : من وجد جنديا سكرانا فلينزله عن فرسه وليأخذ ثيابه ، ومن أحضره من الجند إلى دار السعادة فله خبزه ، ففرح الناس بذلك واحتجر على الخمارين والعصارين ، و رخصت الأعناب وجادت الأخباز واللحم بعد أن كان بلغ كل رطل أربعة ونصفاً ، فصار بدرهمين ونصف ، وأقل ، وأصلحت المعايش من هيبة النائب ، وصار له صيت حسن ، وذكر جميل فى الناس بالعدل وجودة القصد وصحة الفهم وقوة العدل والادراك .

وفى يوم الاثنين ثامن عشر شعبان وصل الامير أحمد بن شاد الشربخاناه الذى كان قد عصى فى صفد ، وكان من أمره ما كان ، فاعتقل بالاسكندرية ثم أخرج فى هذه الدولة وأعطى نيابة حماة فدخل دمشق فى هذا اليوم سائراً إلى حماة ، فركب مع النائب مع الموكب وسير عن يمينه ونزل فى خدمته

إلى دار السعادة ، و رحل بين يديه . وفى يوم الخميس الحادى والعشرين منه دخل الامير سيف الدين يلبغا الذى كان نائبا بالديار المصرية ، ثم مسك بالحجاز وأودع الكرك ، ثم أخرج فى هذه الدولة وأعطى نيابة حلب ، فتلقاه نائب السلطنة وأنزل دار السعادة حين أضافه . ونزل وطاقه بوطأة برزة وضربت له خيمة بالميدان الأخضر .

﴿ ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة ﴾

استهلت هذه السنة وسلطان الديار المصرية والبلاد الشامية والحرمين الشريفين وما يتبع ذلك الملك الصالح صلاح الدين ، صالح بن السلطان الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون ، والخليفة الذى يدعى له المعتضد بأمر الله ، ونائب الديار المصرية الأمير سيف الدين قبلاى ، وقضاة مصرهم المذكورون فى التى قبلها ، والوزير القاضى ابن زنبور ، وأولو الأمر الذين يدبرون المملكة فلا تصدر الأمور إلا عن آرائهم لصغر السلطان المذكور جماعة من أعيانهم ثلاثة سيف الدين شيخون ، وطاز وحر عيمش ، ونائب دمشق الأمير سيف الدين أرغون الكاملى ، وقضاتها المذكورون فى التى قبلها ، ونائب البلاد الحلبية الأمير سيف الدين يلبغا أروش ، ونائب طرابلس الأمير سيف الدين بكلمش ، ونائب حماة الأمير شهاب الدين أحمد بن مشد الشربخانة ، ووصل بعض الحجاج إلى دمشق فى تاسع الشهر - وهذا نادر - وأخبروا بموت المؤذن شمس الدين بن سعيد بعد منزلة العلا فى المدابغ .

وفى ليلة الاثنين سادس عشر صفر فى هذه السنة وقع حريق عظيم عند باب جيرون شرقيه فاحترق به دكان القفاعى الكبيرة المزخرفة وما حولها ، واتسع اتساعا فظيعاً ، واتصل الحريق بالباب الأصفر من النحاس ، فبادر ديوان الجامع إليه فكشطوا ما عليه من النحاس ونقلوه من يومه إلى خزانة الحاصل ، بمقصورة الحلبية ، بمشهد على ، ثم عدوا عليه يكسرون خشبه بالفؤس الحداد ، والسواعد الشداد ، وإذا هو من خشب الصنوبر الذى فى غاية ما يكون من القوة والثبات ، وتأسف الناس عليه لكونه كان من محاسن البلد ومعالمه . وله فى الوجود ما ينيف عن أربعة آلاف سنة . انتهى والله أعلم .

﴿ ترجمة باب جيرون المشهور بدمشق ﴾

الذى كان هلاكه وذهابه وكسره فى هذه السنة ، وهو باب سر فى جامع دمشق لم ير باب أوسع ولا أعلى منه ، فيما يعرف من الابنية فى الدنيا ، وله علمان من نحاس أصفر بمسامير نحاس أصفر أيضا بارزة ، من عجائب الدنيا ، ومحاسن دمشق ومعالمها ، وقد تم بناؤها . وقد ذكرته العرب فى أشعارها والناس وهو منسوب إلى ملك يقال له جيرون بن سعد بن عاد بن عوص بن أدم بن سام بن نوح ، وهو الذى بناه ، وكان بناؤه له قبل الخليل عليه السلام ، بل قبل ثمود وهود أيضا ، على ما ذكره الحافظ ابن عساكر فى تاريخه وغيره ، وكان فوقه حصن عظيم ، وقصر منيف ، ويقال بل هو منسوب إلى اسم المارد الذى بناه لسليمان عليه السلام ، وكان اسم ذلك المارد جيرون ، والأول أظهر

وأشهر ، فعلى الأول يكون لهذا الباب من المدد المتطاولة ما يقارب خمسة آلاف سنة ، ثم كان انجعاف هذا الباب لا من تلقاء نفسه بل بالأيدى العادية عليه ، بسبب ما ناله من شوط حريق اتصل إليه حريق وقع من جانبه فى صبيحة ليلة الاثنين السادس عشر من صفر ، سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة فتبادر ديوان الجامعية ففرقوا شمله وقضموا ثمله ، وعروا جلده النحاس عن بدنه الذى هو من خشب الصنوبر ، الذى كأن الصانع قد فرغ منه يومئذ . وقد شاهدت الفؤس تعمل فيه ولا تكاد تحيل فيه إلا بمشقة ، فسبحان الذى خلق الذين بنوه أولا ، ثم قدر أهل هذا الزمان على أن هدموه بعد هذه المدد المتطاولة ، والأمم المتداولة . ولكن لكل أجل كتاب ، ولا إله إلا رب العباد .

﴿ بيان تقدم مدة هذا الباب وزيادتها على مدة أربعة آلاف سنة بل يقارب الخمسة ﴾

ذكر الحافظ ابن عساكر فى أول تاريخه باب بناء دمشق بسنده عن القاضى يحيى بن حمزة التبلهى الحاكم بها فى الزمن المتقدم ، وقد كان هذا القاضى من تلاميذ ابن عمر والأوزاعى ، قال . لما فتح عبد الله بن على دمشق بعد حصارها — يعنى وانتزعها من أيدى بنى أمية وسلبهم ملكهم — هدموا سور دمشق فوجدوا حجراً مكتوباً عليه باليونانية ، فجاء راهب فقرأه لهم ، فاذا هو مكتوب عليه : ويك أرم الجبابرة من رامك بسوء قصمه الله ، إذا وهى منك جيرون الغربى من باب البريد وتلك من خمسة أعين ينقض سورك على يديه . بعد أربعة آلاف سنة تعيشين رغداً ، فاذا وهى منك جيرون الشرقى أؤول لك ممن يعوض لك ، قال : فوجدنا الخمسة أعين عبد الله بن على بن عبدالله ابن عباس بن عبد المطلب ، عين بن عين بن عين بن عين بن عين ،فهذا يقتضى أنه كان بسورها سنينا إلى حين إخرابه على يد عبد الله بن على أربعة آلاف سنة ، وقد كان إخرابه له فى سنة ثنتين وثلاثين ومائة كما ذكرنا فى التاريخ الكبير ، فعلى هذا يكون لهذا الباب إلى يوم خرب من هذه السنة — أعنى سنة ثنتين وثلاثين ومائة — أربعة آلاف وستمائة وإحدى وعشرين سنة ، والله أعلم .

وقد ذكر ابن عساكر عن بعضهم أن نوحاً عليه السلام هو الذى أسس دمشق بعد حران وذلك بعد مضى الطوفان ، وقيل بناها دمسغس غلام ذى القرنين عن إشارته . وقيل عاد الملقب بدمشيق وهو غلام الخليل . وقيل غير ذلك من الأقوال . وأظهرها أنها من بناء اليونان ،لأن محاريب معابدها كانت موجهة إلى القطب الشمالى ، ثم كان بعدهم النصارى فصلوا فيها إلى الشرق ، ثم كان فيها بعدهم أجمعين أمة المسلمين فصلوا إلى الكعبة المشرفة . وذكر ابن عساكر وغيره أن أبوابها كانت سبعة كل منها يتخذ عنده عيد لهيكل من الهياكل السبعة ، فباب القمر باب السلامة . وكانوا يسمونه باب الفراديس الصغير ، ولعطارد باب الفراديس الكبير ، والزهرة باب توما . وللشمس الباب الشرقى . والمريخ باب الجابية ، وللمشترى باب الجابية الصغير ، ولزحل باب كيسان .

وفى أوائل شهر رجب الفرد اشتهر أن نائب حلب يلبغا أروش اتفق مع نائب طرابلس بكلمش ، ونائب حلب أمير أحمد بن مشد الشر بخانة على الخروج عن طاعة السلطان حتى يمسك شيخون وطار ، وهما عضدا الدولة بالديار المصرية ، وبعثوا إلى نائب دمشق وهو الأمير سيف الدين أرغون الكاملى فأبى عليهم ذلك ، وكاتب إلى الديار المصرية بما وقع من الأمر ، وانزعج الناس لذلك ، وخافوا من غائلة هذا الأمر والله المستعان . ولما كان يوم الاثنين ثامن الشهر جمع نائب السلطنة الأمراء عنده بالقصر الأبلق واستحلفهم بيعة أخرى لنائب السلطنة الملك الصالح ، فحلفوا واتفقوا على السمع والطاعة والاستمرار على ذلك . وفى ليلة الاربعاء سابع عشر رجب جاءت الجبلية الذين جمعوهم من البقاع لأجل حفظ ثنية العقاب من قدوم العساكر الحلبية ، ومن معهم من أهل طرابلس وحماة ، وكان هؤلاء الجبلية قريبا من أربعة آلاف ، فحصل بسببهم ضرر كثير على أهل برزة وما جاورهم من الثمار وغيرها .

وفى يوم السبت العشرين منه ركب نائب السلطنة سيف الدين أرغون ومعه الجيوش الدمشقية قاصدين ناحية الكسوة ليلا يقاتلون المسلمين ولم يبق فى البلد من الجند أحد ، وأصبح الناس وليس لهم نائب ولا عسكر ، وخلت الديار منهم ، ونائب الغيبة الأمير سيف الدين الجى بغا العادلى ، وانتقل الناس من البساتين ومن طرف العقيبة وغيرها إلى المدينة ، وأكثر الأمراء نقلت حواصلهم وأهاليهم إلى القلعة المنصورة ، فانا لله وإنا إليه راجعون . ولما اقترب دخول الأمير يلبغا بمن معه انزعج الناس وانتقل أهل القرى الذين فى طريقه ، وسرى ذلك إلى أطراف الصالحية والبساتين وحواضر البلد ، وغلقت أبواب البلد إلى مايلى القلعة ، كباب النصر وباب الفرج ، وكذا باب الفراديس ، وخلت أكثر الحال من أهاليهم ، ونقلوا حوائجهم وحواصلهم وأنعامهم إلى البلد على الدواب والحمالين ، وبلغهم أن أطراف الجيش انتهبوا ما فى القرايا فى طريقهم من الشعير والتبن وبعض الانعام للأكل ، وربما وقع فساد غير هذا من بعض الجهلة ، فخاف الناس كثيراً وتشوشت خواطرهم انتهى .

﴿ دخول يلبغا أروش إلى دمشق ﴾

ولما كان يوم الاربعاء الرابع والعشرين من رجب دخل الأمير سيف الدين يلبغا أروش نائب حلب إلى دمشق المحروسة بمن معه من العساكر الحلبية وغيرهم وفى صحبته نائب طرابلس الأمير سيف الدين بكلمش ، ونائب حماة الأمير شهاب الدين أحمد ، ونائب صفد الأمير علاء الدين طيبغا ، ملقب برناق ، وكان قد توجه قبله ، قيل بيوم ، ومعه نواب قلاع كثيرة من بلاد حلب وغيرها ، فى عدد كثير من الأتراك والتركمان ، فوقف فى سوق الخيل مكان نواب السلطان تحت القلعة ، واستعرض الجيوش الذين وفدوا معه هنالك ، فدخلوا فى تجمل كثير ، ملبسين ، وكان عدة

من كان معه من أمراء الطبلخانات قريبا من ستين أمير أو يزيدون أو ينقصون ، على ما استفاض عن غير واحد ممن شاهد ذلك ، ثم سار قريباً من الزوال للمخيم الذى ضرب له قبل مسجد القدم عند قبة يلبغا ، عند الجدول الذى هنالك ، وكان يوما مشهوداً هائلا ، لما عاين الناس من كثرة الجيوش والعدد ، وعذر كثير من الناس صاحب دمشق فى ذهابه عن معه لئلا يقابل هؤلاء . فنسأل الله أن يجمع قلوبهم على ما فيه صلاح المسلمين . وقد أرسل إلى نائب القلعة وهو الامير سيف الدين إياجى يطلب منه حواصل أرغون التى عنده ، فامتنع عليه أيضا ، وقد حصن القلعة وسترها وأرصد فيها الرجال والرماة والعدد ، وهيأنها بعض المجانيق ليبعد بها فوق الابرجة، وأمر أهل البلد أن لا يفتحوا الدكاكين و يغلقوا الأسواق ، وجعل يغلق أبواب البلد إلا بابا أو بابين منها ، واشتد حنق العسكر عليه ، وهموا بأشياء كثيرة من الشر ، ثم برعوون عن الناس والله المسلم ، غير أن إقبال العسكر وأطرافه قد عاثوا فيما جاوروه من القرايا والبساتين والكروم والزروع فيأخذون ما يأكلون وتأكل دوابهم ، وأكثر من ذلك فانا لله وإنا إليه راجعون . ونهبت قرايا كثيرة وفجروا بنساء و بنات ، وعظم الخطب ، وأما التجار ومن يذكر بكثرة مال فأكثرهم مختف لا يظهر لما يخشى من المصادرة ، نسأل الله أن يحسن عاقبتهم .

واستهل شهر شعبان وأهل البلد فى خوف شديد ، وأهل القرايا والحواضر فى نقلة أثاثهم و بقارهم ودوابهم وأبنائهم ونسائهم ، وأكثر أبواب البلد مغلقة سوى بابى الفراديس والجابية ، وفى كل يوم نسمع بأمور كثيرة من النهب للقرايا والحواضر ، حتى انتقل كثير من أهل الصالحية أو أكثرهم ، وكذلك من أهل العقيبة وسائر حواضر البلد ، فنزلوا عند معارفهم وأصحابهم ، ومنهم من نزل على قارعة الطريق بنسائهم وأولادهم ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . وقال كثير من المشايخ الذين أدركوا زمن قازان : إن هذا الوقت كان أصعب من ذلك لما ترك الناس من ورائهم من الغلات والثمار التى هى عمدة قوتهم فى سنتهم ، وأما أهل البلد ففى قلق شديد أيضاً لما يبلغهم عنهم من الفجور بالنساء ، ويجعلون يدعون عقيب الصلوات عليهم يصرحون بأسمائهم و يعنون بأسماء أمرائهم وأتباعهم ونائب القلعة الأمير سيف الدين إياجى فى كل وقت يسكن جأش الناس ويقوى عزمهم و يبشرهم بخروج العساكر المنصورة من الديار المصرية صحبة السلطان إلى بلاد غزة حيث الجيش الدمشقى ، ليجيئوا كلهم فى خدمته و بين يديه ، وتدق البشائر فيفرح الناس ثم تسكن الأخبار وتبطل الروايات فتقلق ويخرجون فى كل يوم وساعة فى تجمل عظيم ووعد وهيآت حسنة ، ثم جاء السلطان أيده الله تعالى وقد ترجل الأمراء بين يديه من حين بسط له عند مسجد الذبان إلى داخل القلعة المنصورة ، وهو لابس قباء أحمر له قيمته على فرس أصيلة مؤدبة معلمة المشى على القوس لا تحيد عنه ، وهو حسن

الصورة مقبول الطلعة ، عليه بهاء المملكة والرياسة ، والخزفوق رأسه يحمله بعض الأمراء الأكابر ، وكلما عاينه من عاينه من الناس يبتهلون بالدعاء بأصوات عالية ، والنساء بالزغرطة ، وفرح الناس فرحا شديدا ، وكان يوماً مشهودا ، وأمرا حميداً ، جعله الله مباركا على المسلمين . فنزل بالقلعة المنصورة ، وقد قدم معه الخليفة المعتضد أبو الفتح بن أبي بكر المستكفي بالله أبي الربيع سليمان بن الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد ، وكان راكباً إلى جانبه من ناحية اليسار ، ونزل بالمدرسة الدماغية في أواخر هذا اليوم سائر الأمراء مع نائب الشام ، ومقدمهم طار وشيخون في طلب يلبغا ومن معه من البغاة المفسدين .

وفي يوم الجمعة ثانيه حضر السلطان أيده الله إلى الجامع الأموي وصلى فيه الجمعة بالمشهد الذي يصلي فيه نواب السلطان أيده الله ، فكثر الدعاء والمحبة له ذاهباً وآيباً تقبل الله منه ، وكذلك فعل الجمعة الأخرى وهي تاسع الشهر . وفي يوم السبت عاشره اجتمعنا - يقول الشيخ عماد الدين بن كثير المصنف رحمه الله - بالخليفة المعتضد بالله أبي الفتح بن أبي بكر بن المستكفي بالله أبي الربيع سليمان بن الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد ، وسلمنا عليه وهو نازل بالمدرسة الدماغية ، داخل باب الفرج وقرأت عنده جزءاً فيه ما رواه أحمد بن حنبل عن محمد بن إدريس الشافعي في مسنده ، وذلك عن الشيخ عز الدين بن الضيا الحموي بسماعه من ابن البخاري ، وزينب بنت مكي عن أحمد بن الحصين عن ابن المذهب عن أبي بكر بن مالك عن عبد الله بن أحمد عن أبيه فذكرها ، والمقصود أنه شاب حسن الشكل مليح الكلام متواضع جيد الفهم حلو العبارة رحم الله سلفه .

وفي رابع عشره قدم البريد من بلاد حلب بسيوف الأمراء الممسوكين من أصحاب يلبغا .

وفي يوم الخميس خامس عشره نزل السلطان الملك الصالح من الطارمة إلى القصر الأبلق في أبهة المملكة ، ولم يحضر يوم الجمعة إلى الصلاة ، بل اقتصر على الصلاة بالقصر المذكور . وفي يوم الجمعة باكر النهار دخل الأمير سيف الدين شيخون وطار بمن معهما من العساكر من بلاد حلب ، وقد فات تدارك يلبغا وأصحابه لدخولهم بلاد زلغادر التركماني بمن بقي معهم ، وهم القليل ، وقد أسر جماعة من الأمراء الذين كانوا معه ، وهم في القيود والسلاسل صحبة الأميرين المذكورين ، فدخلا على السلطان وهو بالقصر الأبلق فسلما عليه وقبلا الأرض وهنآه بالعيد ، ونزل طار بدار أيتمش بالشرق الشمالي ، ونزل شيخون بدار إياس الحاجب بالقرب من الظاهرية البرانية ، ونزل بقية الجيش في أرجاء البلد ، وأما الأمير سيف الدين أرغون فأقام بحلب نائبا عن سؤاله إلى ما ذكر ، وخوطب في تقليده بألقاب هائلة ، ولبس خلعة سنية ، وعظم تعظيما زائدا ، ليكون هناك إلبا على يلبغا وأصحابه لشدة ما بينهما من العداوة . ثم صلى السلطان بمن معه من المصريين ومن انضاف إليهم من الشاميين صلاة عيد الفطر

بالميدان الأخضر ، وخطب بهم القاضى تاج الدين المناوى المصرى . قاضى العسكر المصرى بمرسوم السلطان وذويه ، وخلع عليه . انتهى والله سبحانه وتعالى أعلم .

﴿ قتل الأمراء السبعة من أصحاب يلبغا ﴾

وفى يوم الاثنين ثالث شوال قبل العصر ركب السلطان من القصر إلى الطارمة وعلى رأسه القبة والطير يحملهما الأمير بدر الدين بن الخطير ، فجلس فى الطارمة ووقف الجيش بين يديه تحت القلعة وأحضروا الأمراء الذين قدموا بهم من بلاد حلب ، فجعلوا يوقفون الأمير منهم ثم يشاورون عليه فمنهم من يشفع فيه ومنهم من يؤمر بتوسيطه ، فوسط سبعة : خمس طبلخانات ومقدما ألف ، منهم نائب صفد برناق وشفع فى الباقين فردوا إلى السجن ، وكانوا خمسة آخرين وفى يوم الأربعاء خامسه مسك جماعة من أمراء دمشق سبعة وتحولت دول كثيرة ، وتأمر جماعة من الأجناد وغيرهم انتهى

﴿ خروج السلطان من دمشق متوجها إلى بلاد مصر ﴾

وفى يوم الجمعة سابع شوال ركب السلطان فى جيشه من القصر الأبلق قاصداً لصلاة الجمعة بالجامع الأموى ، فلما انتهى إلى باب النصر ترجل الجيش بكماله بين يديه مشاة ، وذلك فى يوم شاتٍ كثير الوحل فصلى بالمقصورة إلى جانب المصحف العثمانى ، وليس معه فى الصف الأول أحد ، بل بقية الأمراء خلفه صفوف ، فسمع خطبة الخطيب ، ولما فرغ من الصلاة قرىء كتاب باطلاق أعشار الأوقاف ، وخرج السلطان بمن معه من باب النصر ، فركب الجيش واستقل ذاهبا نحو الكسوة بمن معه من العساكر المنصورة ، مصحوبين بالسلامة والعافية المستمرة ، وخرج السلطان وليس بدمشق نائب سلطنة ، وبها الأمير بدر الدين بن الخطير هو الذى يتكلم فى الأمور نائب غيبة ، حتى يقدم إليها نائبها ويتعين لها ، وجاءت الأخبار بوصول السلطان إلى الديار المصرية سالما ، ودخلها فى أبهة عظيمة فى أواخر ذى القعدة ، وكان يوما مشهوداً ، وخلع على الأمراء كلهم ولبس خلعة نيابة الشام الأمير علاء الدين المارداني ، ومسك الأمير علم الدين بن زنبور وتولية الوزارة الصاحب موفق الدين . وفى صبيحة يوم السبت خامس الحجة دخل الأمير علاء الدين على الجدار من الديار المصرية إلى دمشق المحروسة فى أبهة هائلة ، وموكب حافل مستوليا نيابة بها ، وبين يديه الأمراء على العادة ، فوقف عند تربة بهادر آص حتى استعرض عليه الجيش فلحقهم ، فدخل دار السعادة فنزلها على عادة النواب قبله ، جعله الله وجها مباركا على المسلمين . وفى يوم السبت ثالث عشره قدم دوادار السلطان الأمير عز الدين مغلطاى من الديار المصرية فنزل القصر الأبلق ، ومن عزمه الذهاب إلى البلاد الحلبية ليجهز الجيوش نحو يلبغا وأصحابه انتهى والله تعالى أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة أربع وخمسين وسبعمائة ﴾

استهلت هذه السنة وسلطان الاسلام بالديار المصرية والبلاد الشامية والمملكة الحلبية وما والاها والحرمين الشريفين الملك الصالح صلاح الدين صالح بن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون الصالحى ، ونائبه بالديار المصرية الأمير سيف الدين قبلاى ، والمشار إليهم فى تدبير المملكة الأمراء سيف الدين شيخون ، وسيف الدين طار ، وسيف الدين صرغتمش الناصرى ، وقضاة القضاة وكاتب السر هناك هم المذكورون فى السنة الماضية ، ونائب حلب الأمير سيف الدين أرغون الكاملى ، لأجل مقاتلة أولئك الأمراء الثلاثة يلبغا وأمير أحمد و بكلمش الذين فعلوا ما ذكرنا فى رجب من السنة الماضية ، ثم لجأوا إلى بلاد البلبيسين فى خفارة زلغادر التركمانى، ثم إنه احتال عليهم من خوفه من صاحب مصر وأسلمهم إلى قبضة نائب حلب المذكور ، ففرح المسلمون بذلك فرحا شديداً ، ولله الحمد والمنة ، ونائب طرابلس الأمير سيف الدين أيتمش الذى كان نائب دمشق كما ذكرنا ، تقلبت به الأحوال حتى استنيب فى طرابلس حين كان السلطان بدمشق كما تقدم .

واستهلت هذه السنة وقد تواترت الأخبار بأن الأمراء الثلاثة يلبغا و بكلمش وأمير أحمد قد حصلوا فى قبضة نائب حلب الأمير سيف الدين أرغون ، وهم مسجونون بالقلعة بها ، ينتظر ما يرسم به فيهم ، وقد فرح المسلمون بذلك فرحا شديدا . وفى يوم السبت سابع عشر المحرم وصل إلى دمشق الأمير عز الدين مغلطاى الدويدار عائداً من البلاد الحلبية ، وفى صحبته رأس يلبغا الباغى أمكن الله منه بموصول صاحبيه بكلمش الذى كان نائبا بطرابلس، وأمير أحمد الذى كان نائب حماة فقطعت رؤسهما بحلب بين يدى نائبها سيف الدين أرغون الكاملى ، وسيرت إلى مصر ، ولما وصل يلبغا بعدهما فعل به كفعلهما جهرة بعد العصر بسوق الخيل بين يدى نائب السلطنة والجيش برمته والعامة على الأجاجير يتفرجون ويفرحون بمصرعه ، وسر المسلمون كلهم ولله الحمد والمنة .

وفى يوم الجمعة الثامن والعشرين من شهر ربيع الأول أقيمت جمعة جديدة بمحلة الشاغور بمسجد هناك يقال له مسجد المزار ، وخطب فيه جمال الدين عبد الله بن الشيخ شمس الدين بن قيم الجوزية ، ثم وقع فى ذلك كلام وأفضى الحال أن أهل المحلة ذهبوا إلى سوق الخيل يوم موكبه ، وحملوا سناجق خليفتين من جامعهم ومصاحف واشتملوا إلى نائب السلطنة وسألوا منه أن تستمر الخطبة عندهم ، فأجابهم إلى ذلك فى الساعة الراهنة ، ثم وقع نزاع فى جواز ذلك ، ثم حكم القاضى الحنبلى لهم بالاستمرار ، وجرت خطوب طويلة بعد ذلك .

وفى يوم الأحد سابع ربيع الآخر توفى الأمير الكبير سيف الدين ألجى بغا العادلى ، ودفن بتربته التى كان أنشأها قديما ظاهر باب الجابية ، وهى مشهورة تعرف به ، وكان له فى الامرة قريبا

من ستين سنة ؛ وقد كان أصابه فى نوبة أرغون شاه وقضيته ضربة أصابت يده اليمنى ؛ واستمر مع ذلك على إمرته وتقدمته محترما معظما إلى أن توفى رحمة الله تعالى عليه .

﴿ ذكر أمر غريب جدا ﴾

لما ذهبت لتهنئة الأمير ناصر الدين ابن الأقوس بنيابة بعلبك وجدت هنالك شابا فذكر لى من حضر أن هذا هو الذى كان أنثى ثم ظهر له ذكر ؛ وقد كان أمره اشتهر ببلاد طرابلس ، وشاع بين الناس بدمشق وغير ذلك ، وتحدث الناس به ؛ فلما رأيته وعليه قبعة تركية استدعيته إلى وسألته بحضرة من حضر ، فقلت له : كيف كان أمرك ؟ فاستحيى وعلاه خجل يشبه النساء ، فقال : كنت امرأة مدة خمس عشرة سنة ، وزوجونى بثلاثة أزواج لا يقدرون على ؛ وكلهم يطلق ثم اعترضنى حال غريب فغارت ثدياى وصغرت ، وجعل النوم يعترينى ليلا ونهاراً ؛ ثم جعل يخرج من محل الفرج شىء قليل قليلا ، ويتزايد حتى برز شبه ذكر وأنثيان ، فسألته أهو كبير أم صغير ؟ فاستحيى ثم ذكر أنه صغير بقدر الأصبع ، فسألته هل احتلم ؟ فقال احتلم مرتين منذ حصل له ذلك ، وكان له قريبا من ستة أشهر إلى حين أخبرنى ؛ وذكر أنه يحسن صنعة النساء كلها من الغزل والتطريز والزركاش وغير ذلك ، فقلت له ما كان اسمك وأنت على صفة النساء ؟ فقال : نفيسة ، فقلت : واليوم ؟ فقال عبد الله ، وذكر أنه لما حصل له هذا الحال كتمه عن أهله حتى عن أبيه ؛ ثم عزموا على تزويجه على رابع فقال لأمه إن الأمر ما صفته كيت وكيت ؛ فلما اطلع أهله على ذلك أعلموا به نائب السلطنة هناك ، وكتب بذلك محضرا واشتهر أمره ، فقدم دمشق ووقف بين يدى نائب السلطنة بدمشق ، فسأله فأخبره كما أخبرنى ، فأخذه الحاجب سيف الدين كحلن ابن الأقوس عنده وألبسه ثياب الاجناد ، وهو شاب حسن ، على وجهه وسمته ومشيته وحديثه أنوثة النساء ، فسبحان الفعال لما يشاء ، فهذا أمر لم يقع مثله فى العالم إلا قليلا جدا ، وعندى أن ذكره كان غائراً فى جوزة طير فافرخا [1] ثم لما بلغ ظهر قليلا قليلا ، حتى تكامل ظهوره فتبينوا أنه كان ذكراً ؛ وذكر لى أن ذكره برز مختونا فسمى ختان القمر ، فهذا يوجد كثيراً والله أعلم .

وفى يوم الثلاثاء خامس شهر رجب قدم الامير عز الدين بقطية الدويدار من الديار الحلبية وخبر عما اتفق عليه العساكر الحلبية من ذهابهم مع نائبهم ونواب تلك الحصون وعساكر خلف بن زلغادر التركمانى ؛ الذى كان أعان يلبغا وذويه على خروجه على السلطان ؛ وقدم معه إلى دمشق وكان من أمره ما تقدم بسطه فى السنة الماضية ، وأنهم نهبوا أمواله وحواصله ، وأسروا خلقا من بنيه وذويه وحريمه ، وأن الجيش أخذ شيئا كثيراً من الأغنام والأبقار والرقيق والدواب والامتعة وغير ذلك ، وأنه لجأ إلى ابن أرطنا فاحتاط عليه واعتقله عنده ، وراسل السلطان بأمره ففرح الناس

---

(١) كذا بالأصل .

براحة الجيش الحلبي وسلامته بعدما قاسوا شديداً وتعباً كثيراً . وفى يوم الأربعاء ثالث عشره كان قدوم الأمراء الذين كانوامسجونين بالاسكندرية من لدن عودالسلطان إلى الديار المصرية ، ممن كان اتهم بممالأة يلبغا أوخدمته، كالأميرسيف الدين ملك أجى ،وعلاء الدين على السيمقدار ، وساطلمس الجلالى ومن معهم .

وفى أول شهر رمضان اتفق أن جماعة من المفتيين أفتوا بأحد قولى العلماء ، وهماوجهان لأصحابنا الشافعية وهو جواز استعادة ما استهدم من الكنائس، فتعصب عليهم قاضى القضاة تقى الدين السبكى فقرعهم فى ذلك ومنعهم من الافتاء ، وصنف فى ذلك مصنفا يتضمن المنع من ذلك سماه « الدسائس فى الكنائس » وفى خامس شهر رمضان قدم بالأمير أبو الغادر التركمانى الذى كان مؤازراً ليلبغا فى العام الماضى على تلك الأفاعيل القبيحة ، وهو مضيق عليه ، فأحضر بين يدى النائب ثم أودع القلعة المنصورة فى هذا اليوم . ﴿ ثم دخلت سنة خمس وخمسين وسبعمائة ﴾

استهلت هذه السنة وسلطان الديار المصرية والبلاد الشامية وما يتبع ذلك والحرمين الشريفين وماوالاهما من بلاد الحجاز وغيرها الملك الصالح صلاح الدين بن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون الصالحى،وهو ابن بنت تنكز نائب الشام ، وكان فى الدولة الناصرية ، ونائبه بالديار المصرية الأمير سيف الدين قبلاى الناصرى ، ووزيره القاضى موفق الدين ، وقضاة مصرهم المذكورون فى العام الماضى ، ومنهم قاضى القضاة عز الدين بن جماعة الشافعى ، وقد جاور فى هذه السنة فى الحجاز الشريف ، والقاضى تاج الدين المناوى يسد المنصب عنه ، وكاتب السر القاضى علاء الدين ابن فضل الله العدوى،ومدبروا المملكة الأمراء الثلاثة سيف الدين شيخون ،وصرغتمش الناصرى والأمير الكبير الدوادار عز الدين مغلطاى الناصرى . ودخلت هذه السنة والأمير سيف الدين شيخون فى الاحداث من مدة شهر أو قريب ونائب دمشق الأمير علاء الدين أمير على المارداني ، وقضاة دمشق هم المذكورون فى التى قبلها ، وناظر الدواوين الصاحب شمس الدين موسى بن التاج إسحاق وكاتب السر القاضى ناصر الدين بن الشرف يعقوب ، وخطيب البلد جمال الدين محمود بن جملة ، ومحتسبه الشيخ علاء الدين الانصارى ، قريب الشيخ بهاء الدين بن إمام المشهد ، وهو مدرس الأمينية مكانه أيضا .

وفى شهر ربيع الآخر قدم الأمير علاء الدين مغلطاى الذى كان مسجونا بالاسكندرية ثم أفرج عنه ، وقد كان قبل ذلك هو الدولة ، وأمر بالمسير إلى الشام ليكون عند حمزة أيتمش نائب طرابلس ، وأما منجك الذى كان وزيره بالديار المصرية وكان معتقلا بالاسكندرية مع مغلطاى ، فانه صار إلى صغد مقيما بها بطالا ، كما أن مغلطاى أمر بالمقام بطرابلس بطالا إلى حين يحكم الله عزوجل

انتهى والله أعلم .

﴿ نادرة من الغرائب ﴾

فى يوم الاثنين السادس عشر من جمادى الأولى اجتاز رجل من الروافض من أهل الحلة بجامع دمشق وهو يسب أول من ظلم آل محمد ، ويكرر ذلك لايفتر ، ولم يصل مع الناس ولا صلى على الجنازة الحاضرة ، على أن الناس فى الصلاة ، وهو يكرر ذلك ويرفع صوته به ، فلما فرغنا من الصلاة نبهت عليه الناس فأخذوه وإذا قاضى القضاة الشافعى فى تلك الجنازة حاضر مع الناس . فجئت إليه واستنطقته من الذى ظلم آل محمد ؟ فقال : أبو بكر الصديق ، ثم قال جهرة والناس يسمعون : لعن الله أبا بكر وعمر وعثمان ومعاوية ويزيد ، فأعاد ذلك مرتين ، فأمر به الحاكم إلى السجن ، ثم استحضره المالكى وجلده بالسياط ، وهو مع ذلك يصرخ بالسب واللعن والكلام الذى لايصدر إلا عن شقى ، واسم هذا اللعين على بن أبى الفضل بن محمد بن حسين بن كثير قبحه الله وأخزاه ، ثم لما كان يوم الخميس سابع عشره عقد له مجلس بدار السعادة وحضر القضاة الأربعة وطلب إلى هنالك فقدر الله أن حكم نائب المالكى بقتله ، فأخذ سريعا فضرب عنقه تحت القلعة وحرقه العامة وطافوا برأسه البلد ونادوا عليه هذا جزاء من سب أصحاب رسول الله ﷺ ، وقد ناظرت هذا الجاهل بدار القاضى المالكى وإذا عنده شىء مما يقوله الرافضة الغلاة ، وقد تلقى عن أصحاب ابن مطهر أشياء فى الكفر والزندقة ، قبحه الله وإياهم . وورد الكتاب بالزام أهل الذمة بالشروط العمرية .

وفى يوم الجمعة ثامن عشر رجب الفرد قرئ بجامع دمشق بالمقصورة بحضرة نائب السلطنة وأمراء الأعراب ، وكبار الأمراء ، وأهل الحل والعقد والعامة كتاب السلطان بالزام أهل الذمة بالشروط العمرية وزيادات أخر : منها أن لا يستخدموا فى شىء من الدواوين السلطانية والأمراء ولا فى شىء من الأشياء ، وأن لا تزيد عمامة أحدهم عن عشرة أذرع ولا يركبوا الخيل ولا البغال ولكن الحمير بالاكف عرضا ، وأن لا يدخلوا إلا بالعلامات من جرس أو بخاتم نحاس أصفر ، أو رصاص ، ولا تدخل نساؤهم مع المسلمات الحمامات ، وليكن لهن حمامات تختص بهن ، وأن يكون إزار النصرانية من كتان أزرق ، واليهودية من كتان أصفر ، وأن يكون أحد خفيها أسود والآخر أبيض ، وأن يحكم حكم مواريثهم على الأحكام الشرعية .

واحترقت باسورة باب الجابية فى ليلة الأحد العشرين من جمادى الآخرة ، وعدم المسلمون تلك الاطمات والحواصل النافعة من الباب الجوانى إلى الباب البرانى . وفى مستهل شهر رمضان عمل الشيخ الامام العالم البارع شمس الدين ـ بن النقاش المصرى الشافعى ـ ورد دمشق بالجامع الاموى تجاه محراب الصحابة ، ميعاداً للوعظ واجتمع عنده خلق من الأعيان والفضلاء والعامة ، وشكروا كلامه وطلاقة عبارته ، من غير تلعثم ولا تخليط ولا توقف ، وطال ذلك إلى قريب العصر .

وفى صبيحة يوم الأحد ثالثه صلى بجامع دمشق بالصحن تحت النسر على القاضى كمال الدين حسين ابن قاضى القضاة تقى الدين السبكى الشافعى، ونائبه ، وحضر نائب السلطنة الاميرعلاء الدين على ، وقضاة البلد والأعيان والدولة وكثير من العامة ، وكانت جنازته محسودة ، وحضر والده قاضى القضاة وهو يهادى بين رجلين ، فظهر عليه الحزن والكآبة ، فصلى عليه إماما ، وتأسف الناس عليه لسماحة أخلاقه وانجماعه على نفسه لا يتعدى شره إلى غيره ، وكان يحكم جيداً نظيف العرض فى ذلك ، وكان قد درس فى عدة مدارس ، منها الشامية البرانية والعذراوية ، وأفتى وتصدر ، وكانت لديه فضيلة جيدة بالنحو والفقه والفرائض وغير ذلك ، ودفن بسفح قاسيون فى تربة معروفة لهم رحمهم الله . ﴿ عودة الملك الناصر حسن بن الملك الناصر محمد بن قلاوون ﴾

وذلك يوم الاثنين ثانى شهر شوال اتفق جمهور الأمراء مع الامير شيخون وصرغتمش فى غيبة طاز فى الصيد على خلع الملك الصالح صالح بن الناصر ، وأمه بنت تنكز ، وإعادة أخيه الملك الناصر حسن ، وكان ذلك يومئذ وألزم الصالح بيته مضيقا عليه ، وسلم إلى أمه خوندة بنت الامير سيف الدين تنكز نائب الشام كان ، وقطلبوطار ، وأمسك أخوه سنتم وأخو السلطان الصالح لأمه عمر بن أحمد بن بكتمر الساقى ، ووقعت خبطة عظيمة بالديار المصرية ، ومع هذا فلم يقبل البريد إلى الشام وخبر البيعة إلا يوم الخميس الثالث عشر من هذا الشهر ، قدم بسببها الاميرعزالدين أيدمر الشمسى وبايع النائب بعد ما خلع عليه خلعة سنية ، والامراء بدار السعادة على العادة ، ودقت البشائر وزين البلد وخطب له الخطيب يوم الجمعة على المنبر بحضرة نائب السلطنة والقضاة والدولة وفى صبيحة يوم الخميس تاسع عشر شوال دخل دمشق الأمير سيف الدين منجك على نيابة طرابلس ونزل القصر الأبلق مع الامير عز الدين أيدمر فأقام أياما عديدة ثم سار إلى بلده بعد أيام . وفى صبيحة يوم الخميس السادس والعشرين منه دخل الامير سيف الدين طاز من الديار المصرية فى جماعة من أصحابه مجتازاً إلى نيابة حلب المحروسة ، فتلقاه نائب السلطنة إلى قريب من جامع كريم الدين بالقبيبات ، وشيعه إلى قريب من باب الفراديس فسار ونزل بوطأة برزة فبات هنالك ، ثم أصبح غاديا وقد كان نظير الامير شيخون ولكن قوى عليه فسيره إلى بلاد حلب ، وهو محبب إلى العامة لماله من السعى المشكور فى أمور كبار كما تقدم .

﴿ ثم دخلت سنة ست وخمسين وسبعمائة ﴾

استهلت هذه السنة وسلطان الاسلام والمسلمين السلطان الملك الناصر حسن بن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون الصالحى، وليس بالديار المصرية نائب ولا وزير، وقضاتها هم المذكورون فى التى قبلها، ونائب دمشق الأمير على المارداني ، والقضاة والحاجب والخطيب وكاتب السرهم

المذكورن فى التى قبلها ، ونائب حلب الأمير سيف الدين طاز ، ونائب طرابلس منجك ، ونائب حماة استدمر العمرى ، ونائب صفد الأمير شهاب الدين بن صبيح ، ونائب حمص الأمير ناصر الدين ابن الاقوس ، ونائب بعلبك الحاج كامل .

وفى يوم الاثنين تاسع صفر مسك الأمير أرغون الكاملى الذى ناب بدمشق مدة ثم بعدها بحلب ثم طلب إلى الديار المصرية حين وليها طاز ، فقبض عليه وأرسل إلى الاسكندرية معتقلا. وفى يوم السبت من شهر صفر قدم تقليد قضاء الشافعية بدمشق وأعمالها لقاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب ابن قاضى القضاة تقى الدين السبكى ، على قاعدة والده ، وذلك فى حياة أبيه ، وذهبت الناس للسلام عليه .

وفى صبيحة يوم الأحد السادس والعشرين من ربيع الآخر توجه قاضى القضاة تقى الدين السبكى بعد استقلال ولده تاج الدين عبد الوهاب فى قضاء القضاة ومشيخة دار الحديث الاشرفية مسافراً نحو الديار المصرية فى محفة ، ومعه جماعة من أهله وذويه ، منهم سبطه القاضى بدر الدين بن أبى الفتح وآخرون ، وقد كان الناس ودعوه قبل ذلك وعنده ضعف ، ومن الناس من يخاف عليه وعثاء السفر مع الكبر والضعف .

ولما كان يوم الجمعة سادس شهر جمادى الآخرة صلى بعد الظهر على قاضى القضاة تقى الدين ابن على بن عبد الكافى بن تمام السبكى المصرى الشافعى ، توفى بمصر ليلة الاثنين ثالثه ودفن من صبيحة ذلك اليوم وقد أكمل ثلاثا وتسعين سنة ، ودخل فى الرابعة أشهرا ، وولى الحكم بدمشق نحواً من سبع عشرة سنة ، ثم نزل عن ذلك لولده قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب ، ثم رحل فى محفة إلى الديار المصرية كما ذكرنا ، ولما وصل مصر أقام دون الشهر ثم توفى كما ذكرنا ، وجاءت التعزية ومرسوم باستقرار ولده فى مدرسته اليعقوبية والقيمرية ، وبتشريف تطييبا لقلبه ، وذهب الناس إلى تعزيته على العادة ، وقد سمع قاضى القضاة السبكى الحديث فى شبيبته بديار مصر ، ورحل إلى الشام وقرأ بنفسه وكتب وخرج ، وله تصانيف كثيرة منتشرة كثيرة الفائدة ، وما زال فى مدة القضاء يصنف ويكتب إلى حين وفاته ، وكان كثير التلاوة ، وذكر لى أنه كان يقوم من الليل رحمه الله

وفى شهر جمادى الأولى من هذه السنة اشتهر أخذ الفرنج المخذولين لمدينة طرابلس المغرب ، وقرأت من كتاب لقاضى قضاة المالكية أن أخذهم إياها كان ليلة الجمعة مستهل ربيع الاول من هذه السنة ، ثم بعد خمسة عشر يوما استعادها المسلمون وقتلوا منهم أضعاف ماقتلوا أولا من المسلمين ولله الحمد والمنة . وأرسل الدولة إلى الشام يطلبون من أموال أوقاف الأسارى ما يستنقذون به من بقى فى أيديهم من المسلمين. وفى يوم الاربعاء حادى عشر رجب الفرد من هذه السنة حكم القاضى المالكى

وهو قاضي القضاة جمال الدين المسلاتى بقتل نصرانى من قرية الرأس من معاملة بعلبك ، اسمه داود بن سالم ، ثبت عليه بمجلس الحكم فى بعلبك أنه اعترف بما شهد عليه أحمد بن نور الدين على بن غازى من قرية اللبوة من الكلام السيء الذى نال به من رسول الله ﷺ ، وسبه وقذفه بكلام لا يليق ذكره ، فقتل لعنه الله يومئذ بعد أذان العصر بسوق الخيل وحرقه الناس وشفى الله صدور قوم مؤمنين ولله الحمد والمنة

وفى صبيحة يوم الأحد رابع عشر شعبان درس القاضى بهاء الدين أبو البقاء السبكى بالمدرسة القيمرية نزل له عنها ابن عمه قاضى القضاة تاج الدين عبدالوهاب ابن قاضي القضاة تقى الدين السبكى وحضر عنده القضاة والأعيان ، وأخذ فى قوله تعالى (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) وصلى فى هذا اليوم بعد الظهر على الشيخ الشاب الفاضل المحصل جمال الدين عبد الله بن العلامة شمس الدين بن قيم الجوزية الحنبلى ، ودفن عند أبيه بمقابر باب الصغير ، وكانت جنازته حافلة ، وكانت لديه علوم جيدة ، وذهنه حاضر خارق ، أفتى ودرس وأعاد وناظر وحج مرات عديدة رحمه الله وبل بالرحمة ثراه .

وفى يوم الاثنين تاسع عشر شوال وقع حريق هائل فى سوق القطانين بالنهار ، وذهب إليه نائب السلطنة والحجبة والقضاة حتى اجتهد الفعول والمتبرعون فى إخماده وطفيه ، حتى سكن شره وذهب بسببه دكاكين ودور كثيرة جداً ، فانا لله وإنا إليه راجعون . وقد رأيته من الغد والنار كما هى عمالة والدخان صاعد والناس يطفونه بالماء الكثير الغمر والنار لا تخمد ، لكن هدمت الجدران وخربت المساكن وانتقل السكان انتهى والله أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة سبع وخمسين وسبعمائة ﴾

استهلت هذه السنة وسلطان البلاد بالديار المصرية والشامية والحرمين وغير ذلك الملك الناصر حسن بن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون الصالحى ، ولا نائب ولا وزير بمصر ، وإنما يرجع تدبير المملكة إلى الأمير سيف الدين شيخون ، ثم الأمير سيف الدين صرغتمش ، ثم الأمير عز الدين مغلطاى الدوايدار ، وقضاة مصرهم المذكورون فى التى قبلها سوى الشافعى فانه ابن المتوفى قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب بن تقى الدين السبكى ، ونائب حلب الأمير سيف الدين طاز ، وطرابلس الأمير سيف الدين منجك ، وبصفد الأمير شهاب الدين بن صبح ، وبحماة أيدمر العمرى ، وبحمص علاء الدين بن المعظم ، وببعلبك الأمير ناصر الدين الأقوس .

وفى العشر الأول من ربيع الأول تكامل إصلاح بلاط الجامع الأموى وغسل فصوص المقصورة والقبة ، وبسط بسطا حسنا ، وبيضت أطباق القناديل ، وأضاء حاله جداً ، وكان

المستحث على ذلك الأمير عـلاء الدين أيدغمش أحد أمراء الطبلخانات ، بمرسوم نائب السلطنة له فى ذلك .

وفى يوم الجمعة الثامن والعشرين من ربيع الآخر من هذه السنة صلى على الأمير سيف الدين براق أمير أرجو بجامع تنكز ، ودفن بمقابر الصوفية ، وكان مشكور السيرة كثير الصلاة والصدقة محباً للخير وأهـله ، من أكبر أصحاب الشيخ تقى الدين بن تيمية رحمه الله تعالى . وقـد رسم لولديه ناصر الدين محمد وسيف الدين أبى بكر كل منهما بعشرة أرماح ، ولناصر الدين بمكان أبيه فى الوظيفة باصطبل السلطان . وفى يوم الخميس رابع شهر جمادى الأولى خلع على الأميرين الأخوين ناصر الدين محمد وسيف الدين أبى بكر ولدى الأمير سيف الدين براق رحمه الله تعالى ، بأميرين عشرتين

ووقع فى هذا الشهر نزاع بين الحنابلة فى مسألة المناقلة ، وكان ابن قاضى الجبل الحنبلى يحكم بالمناقلة فى قرار دار الأمير سيف الدين طيدمر الاسماعيـلى حاجب الحجاب إلى أرض أخرى يجعلها وقفا على ما كانت قرار داره عليه ، ففعل ذلك بطريقه ونفذه القضاة الثلاثة الشافعى والحنفى والمالكى ، فغضب القاضى الحنبلى وهو قاضى القضاة جمال الدين المرداوى المقدسى من ذلك ، وعقد بسبب ذلك مجالس ، وتطاول الكلام فيه ، وادعى كثير منهم أن مذهب الامام أحمد فى المناقلة إنما هو فى حال الضرورة ، وحيث لا يمكن الانتفاع بالموقوف ، فأما المناقلة لمجرد المصلحة والمنفعة الراجحة فلا ، وامتنعوا من قبول ما قرره الشيخ تقى الدين ابن تيمية فى ذلك ، ونقله عن الامام أحمد من وجوه كثيرة من طريق ابنيه صالح وحرب وأبى داود وغيرهم ، أنها تجوز للمصلحة الراجحة ، وصنف فى ذلك مسألة مفردة وقفت عليها - يعنى الشيخ عماد الدين ابن كثـير - فرأيتها فى غاية الحسن والافادة ، بحيث لا يتخالج من اطلع عليها ممن يذوق طعم الفقه أنها مذهب الامام أحمد رحمه الله ، فقد احتج أحمد فى ذلك فى رواية ابنه صالح بما رواه عن يزيد بن عوف عن المسعودى عن القاسم بن محمد أن عمر كتب إلى ابن مسعود أن يحول المسجد الجامع بالكوفة إلى موضع سوق التمارين ، ويجعل السوق فى مكان المسجد الجامع العتيق ، ففعل ذلك ، فهذا فيـه أوضح دلالة على ما استدل به فيها من النقل بمجرد المصلحة فانه لا ضرورة إلى جعـل المسجد العتيق سوقا ، على أن الاسناد فيـه انقطاع بين القاسم وبين عمر وبين القاسم وابن مسعود ، ولكن قد جزم به صاحب المذهب ، واحتج به ، وهو ظاهر واضح فى ذلك ، فعقد المجلس فى يوم الاثنين الثامن والعشرين من الشهر .

وفى ليلة الأربعاء الرابع والعشرين من جمـادى الأولى وقع حريق عظيم ظاهر باب الفرج احترق فيه بسببه قياسير كثيرة لطاز ويلبغا ، وقيسرية الطواشى لبنت تنكز ، وأخر كثيرة ودور ودكاكين ، وذهب للناس شيء كثير من الأمتعـة والنحاس والبضائع وغير ذلك ، مما يقاوم ألف

ألف وأكثر خارجاً عن الأموال ، فانا لله وإنا إليه راجعون . وقد ذكر كثير من الناس أنه كان فى هذه القياسير شر كثير من الفسق والربا والزغل وغير ذلك .

وفى السابع والعشرين من جمادى الأولى ورد الخبر بأن الفرنج لعنهم الله استحوذوا على مدينة صغد : قدموا فى سبعة مراكب وقتلوا طائفة من أهلها ونهبوا شيئاً كثيرا وأسروا أيضاً ، وهجموا على الناس وقت الفجر يوم الجمعة ، وقد قتل منهم المسلمون خلقا كثيرا وكسروا مركبا من مراكبهم ، وجاء الفرنج فى عشية السبت قبل العصر وقدم الوالى وهو جريح مثقل ، وأمر نائب السلطنة عند ذلك بتجهيز الجيش إلى تلك الناحية فساروا تلك الليلة ولله الحمد ، وتقدمهم حاجب الحجاب وتحدر إليهم نائب صغد الأمير شهاب الدين بن صبيح ، فسبق الجيش الدمشقى ، ووجد الفرنج قد برزوا بما غنموا من الأمتعة والأسارى إلى جزيرة تلقاء صيدا فى البحر ، وقد أسر المسلمون منهم فى المعركة شيخاً وشابا من أبناء أشرافهم ، وهو الذى عاقهم عن الذهاب ، فراسلهم الجيش فى انفكاك الاسارى من أيديهم فبادرهم عن كل رأس بخمسمائة فأخذوا من ديوان الأسارى مبلغ ثلاثين ألفا ، ولم يبق معهم ولله الحمد أحد . واستمر الصبى من الفرنج مع المسلمين ، وأسلم ودفع إليهم الشيخ الجريح ، وعطش الفرنج عطشاً شديدا ، وأرادوا أن يرووا من نهر هناك فبادرهم الجيش إليه فمنعوهم أن ينالوا منه قطرة واحدة ، فرحلوا ليلة الثلاثاء منشمرين بما معهم من الغنائم ، وبعثت رؤس جماعة من الفرنج ممن قتل فى المعركة فنصبت على القلعة بدمشق ، وجاء الخبر فى هذا الوقت بأن إيناس قد أحاط بها الفرنج ، وقد أخذوا الربيض وهم محاصرون القلعة ، وفيها نائب البلد ، وذكروا أنهم قتلوا خلقا كثيراً من أهلها فانا لله وإنا إليه راجعون ، وذهب صاحب حلب فى جيش كثيف نحوهم والله المسئول أن يظفرهم بهم بحوله وقوته ، وشاع بين العامة أيضاً أن الاسكندرية محاصرة ولم يتحقق ذلك إلى الآن ، وبالله المستعان . وفى يوم السبت رابع جمادى الآخرة قدم رؤس من قتلى الفرنج على صيدا ، وهى بضع وثلاثون رأسا ، فنصبت على شرافات القلعة ففرح المسلمون بذلك ولله الحمد

وفى ليلة الأربعاء الثانى والعشرين من جمادى الآخرة وقع حريق عظيم داخل باب الصغير من مطبخ السكر الذى عند السويقة الملاصقة لمسجد الشناشين ، فاحترق المطبخ وما حوله إلى حمام أبى نصر ، واتصل بالسويقة المذكورة وماهنالك من الأماكن ، فكان قريبا أو أكثر من الحريق ظاهر باب الفرج فانا لله وإنا إليه راجعون ، وحضر نائب السلطنة ، وذلك أنه كان وقت صلاة العشاء ، ولكن كان الريح قويا ، وذلك بتقدير العزيز العليم .

وتوفى الشيخ عز الدين محمد بن إسماعيل بن عمر الحموى أحد مشايخ الرواة فى ليلة الثلاثاء الثامن والعشرين من جمادى الآخرة ، وصلى عليه من الغد بالجامع الأموى بعد الظهر ، ودفن بمقابر

باب الصغير ، وكان مولده فى ثانى ربيع الأول سنة ثمانين وستمائة ، فجمع الكثير وتفرد بالرواية عن جماعة فى آخر عمره ، وانقطع بموته سماع السنن الكبير للبيهقى ، رحمه الله .

ووقع حريق عظيم ليلة الجمعة خامس عشر رجب بمحلة الصالحية من سفح قاسيون ، فاحترق السوق القبلى من جامع الحنابلة بكماله شرقا وغربا ، وجنوبا وشمالا ؛ فانا لله وإنا إليه راجعون .

وفى يوم الجمعة خامس شهر رمضان خطب بالجامع الذى أنشأه سيف الدين يلبغا الناصرى غربى سوق الخيل وفتح فى هذا اليوم وجاء فى غاية الحسن والبهاء ، وخطب الشيخ ناصر الدين بن الربوة الحنفى ، وكان قد نازعه فيه الشيخ شمس الدين الشافعى الموصلى ، وأظهر ولاية من واقفه يلبغا المذكور ، ومراسيم شريفة سلطانية ، ولكن قد قوى عليه ابن الربوة بسبب أنه نائب عن الشيخ قوام الدين الاتقانى الحنفى ، وهو مقيم بمصر ، ومعه ولاية من السلطان متأخرة عن ولاية الموصلى ، فرسم لابن الربوة ، فلبس يومئذ الخلعة السوداء من دار السعادة وجاؤا بين يديه بالسناجق السود الخليفية ، والمؤذنون يكبرون على العادة ، وخطب يومئذ خطبة حسنة أكثرها فى فضائل القرآن ، وقرأ فى المحراب بأول سورة طه ، وحضر كثير من الأمراء والعامة والخاصة ، وبعض القضاة ، وكان يوما مشهودا ، وكنت ممن حضر قريبا منه . والعجب أنى وقفت فى شهر ذى القعدة على كتاب أرسله بعض الناس إلى صاحب له من بلاد طرابلس وفيه : والمخدوم يعرف الشيخ عماد الدين بما جرى فى بلاد السواحل من الحريق من بلاد طرابلس إلى آخر معاملة بيروت إلى جميع كسروان ، أحرق الجبال كلها ومات الوحوش كلها مثل النمور والدب والثعلب والخنزير من الحريق ، ما بقى للوحوش موضع يهربون فيه ، وبقى الحريق عليه أياما وهرب الناس إلى جانب البحر من خوف النار واحترق زيتون كثير ، فلما نزل المطر أطفأه باذن الله تعالى - يعنى الذى وقع فى تشرين وذلك فى ذى القعدة من هذه السنة - قال ومن العجب أن ورقة من شجرة وقعت فى بيت من مدخنته فأحرقت جميع ما فيه من الأثاث والثياب وغير ذلك ومن حلية حرير كثير ، وغالب هذه البلاد للدرزية والرافضة . نقلته من خط كاتبه محمد بن يلبان إلى صاحبه ، وهما عندى بقبان فيالله العجب .

وفى هذا الشهر - يعنى ذى القعدة - وقع بين الشيخ إسماعيل بن العز الحنفى وبين أصحابه من الحنفية مناقشة بسبب اعتدائه على بعض الناس فى محاكمة ، فاقتضى ذلك إحضاره إلى مجلس الحكم ثلاثة أيام كمثل المتمرد عندهم ، فلما لم يحضر فيها حكم عليه القاضى شهاب الدين الكفرى نائب الحنفى باسقاط عدالته ، ثم ظهر خبره بأنه قصد بلاد مصر ، فأرسل النائب فى أثره من يرده فمنعه ، ثم أطلقه إلى منزله ، وشنع فيه قاضى القضاة الحنفى فاستحسن ذلك ولله الحمد والمنة .

﴿ ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وسبعمائة ﴾

استهلت هذه السنة والخليفة أمير المؤمنين المعتضد بالله أبو بكر بن المستكفى بالله أبى الربيع

سليمان العباسى . وسلطان الاسلام بالديار المصرية وما يتبعها وبالبلاد الشامية وماوالاها والحرمين الشريفين وغير ذلك الملك الناصر حسن بن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون الصالحى وليس له بمصر نائب ولا وزير، وإنما ترجع الأمور إصدارا وإيراداً إلى الأميرين الكبيرين سيف الدين شيخون وصرغتمش الناصريين، وقضاة مصرهم المذكورون فى التى قبلها، ونائب الشام بدمشق الأمير علاء الدين أمير على الماردانى، وقضاة دمشق هم المذكورون فى التى قبلها انتهى .

﴿ كائنة غريبة جداً ﴾

لما كان يوم الأربعاء الرابع والعشرين من رجب من هذه السنة نهدت جماعة من مجاورى الجامع بدمشق من مشهد على وغيره، واتبعهم جماعة من الفقراء والمغاربة، وجاؤا إلى أماكن متهمة بالخمر وبيع الحشيش فكسروا أشياء كثيرة من أوانى الخمر، وأراقوا مافيها وأتلفوا شيئا كثيراً من الحشيش وغيره . ثم انتقلوا إلى حكر السماق وغيرهم فثار عليهم من البارذارية والكلابرية وغيرهم من الرعاع فتناوشوا، وضربت عليهم ضرابات بالأيدى وغيرهم، وربما سل بعض الفساق السيوف عليهم كما ذكر، وقد رسم ملك الأمراء لوالى المدينة ووالى البر أن يكونوا عضداً لهم وعوناً على الخمارين والحشاشة، فنصروهم عليهم . غير أنه كثر معهم الضجيج ونصبوا راية واجتمع عليهم خلق كثير، ولما كان فى أواخر النهار تقدم جماعة من النقباء والخزاندارية ومعهم جنازير فأخذوا جماعة من مجاورى الجامع وضربوا بالمقارع وطيف بهم فى البلد ونادوا عليهم : هذا جزاء من يتعرض لما لا يعنيه تحت علم السلطان، فتعجب الناس من ذلك وأنكروه حتى أنه أنكر اثنان من العامة على المنادية فضرب بعض الجند أحدهم بدبوس فقتله، وضرب الآخر فيقال إنه مات أيضاً فانا لله وإنا إليه راجعون .

وفى شعبان من هذه السنة حكى عن جارية من عتيقات الامير سيف الدين تمر المهمندار أنها حملت قريبا من سبعين يوما، ثم شرعت تطرح مافى بطنهافوضعت فى قرب من أربعين يوماً فى أيام متتالية ومتفرقة أربع عشرة بنتا وصبياً بعدهن قل من يعرف شكل الذكر من الأنثى .

وجاء الخبر بأن الأمير سيف الدين شيخون مدبر الممالك بالديار المصرية والشامية ظفر عليه مملوك من مماليك السلطان فضربه بالسيف ضربات فجرحه فى أماكن فى جسده، منها ما هو فى وجهه ومنها ماهو فى يده، فحمل إلى منزله صريعاً طريحا جريحا، وغضب لذلك طوائف من الامراء حتى قيل إنهم ركبوا ودعوا إلى المبارزة فلم يجىء إليهم وعظم الخطب بذلك جدا واتهموا به الأمير سيف الدين صرغتمش وغيره، وأن هذا إنما فعل عن ممالأة منهم فالله أعلم .

﴿ وفاة أرغون الكاملى بانى البيمارستان بحلب ﴾

كانت وفاته بالقدس الشريف فى يوم الخميس السادس والعشرين من شوال من هذه السنة ، ودفن بتربة أنشأها غربى المسجد بشماله ، وقد ناب بدمشق مدة بعد حلب ، ثم جرت الكائنة التى أصلها يلبغا قبحه الله فى أيامه ، ثم صار إلى نيابة حلب ثم سجن بالاسكندرية مدة ، ثم أفرج عنه فأقام بالقدس الشريف إلى أن كانت وفاته كما ذكرنا فى التاريخ المذكور عزره الشريف ابن زريك والله أعلم .

﴿ وفاة الأمير شيخون ﴾

ورد الخبر من الديار المصرية بوفاة الأمير شيخون ليلة الجمعة السادس والعشرين من ذى القعدة ودفن من الغد بتربته ، وقد ابتنى مدرسة هائلة وجعل فيها المذاهب الأربعة ودار للحديث وخانقاه للصوفية ، ووقف عليها شيئا كثيراً ، وقرر فيها معاليم وقراءة دارة ، وترك أموالا جزيلة وحواصل كثيرة ودواوين فى سائر البلاد المصرية والشامية ، وخلف بنات وزوجة ، وورث البقية أولاد السلطان المذكور بالولاء ، ومسك بعد وفاته أمراء كثيرون بمصر كانوا من حزبه ، من أشهرهم عز الدين بقطاى والدوادار وابن قوصون وأمه أخت السلطان خلف عليها شيخون بعد قوصون انتهى والله أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة تسع وخمسين وسبعمائة ﴾

استهلت هذه السنة وسلطان الاسلام بالبلاد المصرية والشامية والحرمين الشريفين ومايتبع ذلك الملك الناصر حسن بن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون بن عبد الله الصالحى ، وقد قوى جانبه وحاشيته بموت الأمير شيخون كما ذكرنا فى سادس عشرين ذى القعدة من السنة الماضية ، وصار إليه من ميراثه من زهرة الحياة شئ كثير من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، وكذلك من المماليك والأسلحة والعدة والبرك والمتاجر مايشق حصره ويتعذر إحصاؤه هاهنا ، وليس فى الديار المصرية فيما بلغنا إلى الآن نائب ولا وزير ، والقضاة هم المذكورون فى التى قبلها ، وأما دمشق فنائبها وقضاتها هم المذكورون فى التى قبلها سوى الحنفى فانه قاضى القضاة شرف الدين الكفرى ، عوضا عن نجم الدين الطوسى . توفى فى شعبان من السنة الماضية ، ونائب حلب سيف الدين طاز ، وطرابلس منجك ، وحماة استدمر العمرى ، وصفد شهاب الدين بن صبح ، وبحمص صلاح الدين خليل بن خاص برك ، وببعلبك ناصر الدين الأقوس .

وفى صبيحة يوم الاثنين رابع عشر المحرم خرجت أربعة آلاف مع أربع مقدمين إلى ناحية حلب نصرة لجيش حلب على مسك طاز إن امتنع من السلطنة كما أمر ، ولما كان يوم الحادى والعشرين من المحرم نادى المنادى من جهة نائب السلطنة أن يركب من بقى من الجند فى الحديد ويوافوه إلى سوق الخيل ، فركب معهم قاصداً ناحية ثنية العقاب ليمنع الأمير طاز من دخول البلد ، لما تحقق

مجيئه فى جيشه قاصداً إلى الديار المصرية ، فانزعج الناس لذلك وأخليت دار السعادة من الحواصل والحريم إلى القلعة ، وتحصن كثير من الأمراء بدورهم داخل البلد ، وأغلق باب النصر ، فاستوحش الناس من ذلك بعض الشىء ، ثم غلقت أبواب البلد كلها إلا بابى الفراديس والفرج ، وباب الجابية أيضا لأجل دخول الحجاج ودخل المحمل صبيحة يوم الجمعة الثالث والعشرين من المحرم ولم يشعر به كثير من الناس لشغلهم بماهم فيه من أمر طاز ، وأمر المشير بحوران ، وجاء الخبر بمسك الأمير سيف الدين طيدمر الحاجب الكبير بأرض حوران وسجنه بقلعة صرخد ، وجاء سيفه صحبة الأمير جمال الدين الحاجب ، فذهب به إلى الوطاق عند الثنية ، وقد وصل طاز بجنوده إلى باب القطيفة وتلاقى شاليشه بشاليش نائب الشام ، ولم يكن منهم قتال ولله الحمد، ثم تراسل هو والنائب فى الصلح على أن يسلم طاز نفسه ويركب فى عشرة سروج إلى السلطان وينسلخ مماهو فيه ، ويكاتب فيه النائب وتلطفوا بأمره عند السلطان وبكل مايقدرعليه ، فأجاب إلى ذلك وأرسل يطلب من يشهده على وصيته ، فأرسل إليه نائب السلطنة القاضى شهاب الدين قاضى العسكر ،فذهب إليه فأوصى لولده وأم ولده ولوالده نفسه ، وجعل الناظر على وصيته الأمير علاء الدين أمير على الماردانى نائب السلطنة ، وللأمير صرغتمش ، ورجع النائب من الثنية عشية يوم السبت بين العشاءين الرابع والعشرين منه وتضاعفت الأدعية له وفرح الناس بذلك فرحا شديداً ، ودعوا إلى الأمير طاز بسبب إجابته إلى السمع والطاعة ، وعدم مقاتلته مع كثرة من كان معه من الجيوش ، وقوة من كان يحرضه على ذلك من أخويه وذويه ، وقد اجتمعت بنائب السلطنة الأمير علاء الدين أمير على الماردانى فأخبرنى بملخص ماوقع منذ خرج إلى أن رجع ، ومضمون كلامه أن الله لطف بالمسلمين لطفا عظيما ، إذ لم يقع بينهم قتال ، فانه قال : لما وصل طاز إلى القطيفة وقد نزلنا نحن بالقرب من خان لاجين أرسلت إليه مملوكا من مماليكى أقول له : إن المرسوم الشريف قد ورد بذهابك إلى الديار المصرية فى عشرة سروج فقط ، فاذا جئت هكذا فأهلا وسهلا ، وإن لم تفعل فأنت أصل الفتنة . وركبت ليلة الجمعة طول الليل فى الجيش وهو ملبس،فرجع مملوكى ومعه مملوكه سريعا يقول : إنه يسأل أن يدخل بطلبه كما خرج يطلبه من مصر، فقلت لاسبيل إلى ذلك إلا فى عشرة سروج كما رسم السلطان ، فرجع وجاءنى الأمير الذى جاء من مصر بطلبه فقال : إنه يطلب منك أن يدخل فى مماليكه فاذا جاوز دمشق إلى الكسوة نزل جيشه هناك وركب هو فى عشرة سروج كما رسم . فقلت : لاسبيل إلى أن يدخل دمشق ويتجاوز بطلبه أصلا ، وإن كان عنده خيل ورجال وعدة فعندى أضعاف ذلك ، فقال لى الأمير : ياخوند لايكون تنسى قيمته ، فقلت لايقع إلا ماتسمع ، فرجع فما هو إلا أن ساق مقدار رمية سهم وجاء بعض الجواسيس الذين لنا عندهم فقال ياخوندها قد وصل جيش حماة وطرابلس ، ومن معهم من جيش دمشق

الذين كانوا قد خرجوا بسببه ، وقد اتفقوا هم وهو . قال فحينئذ ركبت فى الجيش وأرسلت طليعتين أمامى وقلت تراءوا للجيوش الذين جاؤا حتى يروكم فيعلموا أنا قد أحطنا بهم من كل جانب . فحينئذ جاءت البرد من جهته بطلب الامان ويجهرون بالاجابة إلى أن يركب فى عشرة سروج ، ويترك طلبه بالقطيفة ، وذلك يوم الجمعة ، فلما كان الليل ركبت أنا والجيش فى السلاح طول الليل وخشيت أن تكون مكيدة وخديعة ، فجاءتنا الجواسيس فأخبرونا أنهم قد أوقدوا نشابهم ورماحهم وكثيراً من سلاحهم ، فتحققنا عندذلك طاعته وإجابته ، لكل مارسم به ، فلما أصبح يوم السبت وصى وركب فى عشرة سروج وسار نحو الديار المصرية ولله الحمد والمنة .

وفى يوم الاثنين الرابع والعشرين من صفر دخل حاجب الحجاب الذى كان سجن فى قلعة صرخد مع البريدى الذى قدم بسببه من الديارالمصرية ، وتلقاه جماعة من الأمراءوالكبراء ، وتصدق بصدقات كثيرة فى داره ، وفرحوا به فرحا شديداً ، وهو والناس يقولون إنهذاهب إلى الديار المصرية معظما مكرما على تقدمة ألف ووظائف هناك ، فلما كان يوم الخميس السابع والعشرين منه لم يفجأ الناس إلا وقد دخل القلعة المنصورة معتقلا بها مضيقا عليه ، فتعجب الناس من هذه الترحة من تلك الفرحة فما شاء الله كان .

وفى يوم الأربعاء رابع ربيع الأول عقد مجلس بسبب الحاجب بالمشهد من الجامع . وفى يوم الخميس أحضر الحاجب من القلعة إلى دار الحديث ، واجتمع القضاة هناك بسبب دعاوى يطلبون منه حق بعضهم ، ثم لما كان يوم الاثنين تاسعه قدم من الديار المصرية مقدم البريدية بطلب الحاجب المذكور ، فأخرج من القلعة السلطانية وجاء إلى نائب السلطنة فقبل قدمه،ثم خرج إلى منزلهوركب من يومه قاصداً إلى الديار المصرية مكرما ، وخرج بين يديه خلق من العوام والحرافيش يدعون له ، وهذا أغرب ما أرخ ، فهذا الرجل نالته شدة عظيمة بسبب سجنه بصرخد ، ثم أفرج عنه ، ثم حبس فى قلعة دمشق ثم أفرج عنه ، وذلك كله فى نحو شهر .

ثم جاءت الأخبار فى يوم الأحد ثانى عشر جمادى الأولى بعزل نائب السلطنة عن دمشق فلم يركب فى الموكب يوم الاثنين ، ولا حضر فى دار العدل ، ثم تحققت الاخبار بذلك وبذهابه إلى نيابة حلب ، ومجئ نائب حلب إلى دمشق ، فتأسف كثير من الناس عليه لديانته وجوده وحسن معاملته لأهل العلم ، ولكن حاشيته لاينفذون أوامره ، فتولد بسبب ذلك فساد عريض وحموا كثيرا من البلاد ، فوقعت الحروب بين أهلها بسبب ذلك ، وهاجت المشيرات فانا لله وإنا إليه راجعون وفى صبيحة يوم السبت الخامس والعشرين خرج الأميرعلى المارداني من دمشق فى طلبه مستعجلا فى أبهة النيابة ، قاصدا إلى حلب المحروسة ، وقد ضرب وطاقه بوطأة برزة ، فخرج الناس للتفرج

على طابه . وفى هذا اليوم بعد خروج النائب بقليل دخل الأمير سيف الدين طيدمر الحاجب من الديار المصرية عائداً إلى وظيفة الحجوبيـة فى أبهة عظيمة ، وتلقاه الناس بالشموع ، ودعوا له ، ثم ركب من يومه إلى خدمة ملك الأمراء إلى وطأة برزة ، فقبل يده وخلع عليه الأمراء ، واصطلحا ، انتهى والله أعلم

﴿ دخول نائب السلطنة منجك إلى دمشق المحروسة ﴾

كان ذلك فى صبيحة يوم الخميس الرابع والعشرين من جمادى الآخرة من ناحية حلب وبين يديه الأمراء والجيش على العادة ، وأوقدت الشموع وخرج الناس ومنهم من بات على الأسطحة وكان يوما هائلا .

وفى أواخر شهر رجب برز نائب السلطنة إلى الربوة وأحضر القضاة وولاة الأمور ورسم باحضار المفتيين ـ وكنت فيمن طلب يومئذ إلى الربوة فركبت إليها ـ وكان نائب السلطنة عزم يومئذ على تخريب المنازل المبنية بالربوة وغلق الحمام من أجل هذه فيما ذكر أنها بنيت ليقضى فيها ، وهذا الحمام أوساخه صائرة إلى النهر الذى يشرب منه النـاس ، فاتفق الحال فى آخر الأمر على إبقاء المساكن ورد المرتفقات المسلطة عـلى نوره وناس ، ويترك ما هو مسلط على بردى ، فانـكف الناس عن الذهاب إلى الربوة بالـكلية ، ورسم يومئذ بتضييق أكمام النساء وأن تزال الاجراس والركب عن الحمير التى للمكارية .

وفى أوائل شهر شعبان ركب نائب السلطنة يوم الجمعة بعد العصر ليقف عـلى الحائط الرومى الذى بالرحبية ، نخاف أهل الأسواق وغلقوا دكاكينهم عن آخرهم ، واعتقدوا أن نائب السلطنة أمر بذلك ، فغضب من ذلك وتنصل منه ، ثم إنه أمر بهدم الحائط المـذكور ، وأن ينقل إلى العمارة التى استجدها خارج باب النصر فى دار الصناعـة التى إلى جانب دار العدل ، أمر ببنائها خاناً ونقلت تلك الأحجار إليها ، انتهى والله أعلم .

﴿ عزل القضاة الثلاثة بدمشق المحروسة ﴾

ولما كان يوم الثلاثاء تاسع شعبان قـدم من الديار المصرية بريدى ومعـه تذكرة ـ ورقة ـ فيها السلام على القضاة المستجدين ، وأخـبر بعزل القـاضى الشافعى والحنفى والمالـكى ، وأنه ولى قضاة الشافعية القاضى بهاء الدين أبو البقا السبكى ، وقضاء الحنفية الشيخ جمال الدين بن السراج الحنفى وذهب الناس إلى السلام عليهم والتهنئة لهم واحتفلوا بذلك ، وأخبروا أن القاضى المالـكى سيقدم من الديار المصرية، ولما كان يوم السبت السابع والعشرين من شعبان وصل البريد من الديار المصرية ومعه تقليدان وخلعتان للقاضى الشافعى والقاضى الحنفى ، فلبسا الخلعتين وجاءا من دار السعادة إلى الجامع الأموى ، وجلسـا فى محراب المقصورة ، وقرأ تقليـد قاضى القضاة بهـاء الدين أبى البقاء

الشافعى . الشيخ نور الدين بن الصارم المحدث على السدة تجاه المحراب . وقرأ تقليد قاضى القضاة جمال الدين بن السراج الحنفى الشيخ عماد الدين بن السراج المحدث أيضا على السدة . ثم حكما هنالك ، ثم جاء أيضا إلى الغزالية فدرس بها قاضى القضاة بهاء الدين أبو البقاء ، وجلس الحنفى إلى جانبه عن يمينه ، وحضرت عنده فأخذ فى صيام يوم الشك ، ثم جاءمعه إلى المدرسة النورية فدرس بها قاضى القضاة جمال الدين المذكور ، وحضر عنده قاضى القضاة بهاء الدين . وذكروا أنه أخذ فى قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط) الآية . ثم انصرف بهاء الدين إلى المدرسة العادلية الكبيرة فدرس بها قوله تعالى (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) الآية . وفى صبيحة يوم الأربعاء ثامن شهر رمضان دخل القاضى المالكى من الديار المصرية فلبس الخلعة يومئذ ودخل المقصورة من الجامع الأموى وقرىء تقليده هنالك بحضرة القضاة والأعيان ، قرأه الشيخ نور الدين بن الصارم المحدث ، وهو قاضى القضاة شرف الدين أحمد بن الشيخ شهاب الدين عبد الرحمن بن الشيخ شمس الدين محمد بن عسكر العراقى البغدادى . قدم الشام مراراً ثم استوطن الديار المصرية بعد ما حكم ببغداد نيابة عن قطب الدين الاخوى ، ودرس بالمستنصرية بعد أبيه . وحكم بدمياط أيضا ثم نقل إلى قضاء المالكية بدمشق وهو شيخ حسن كثير التودد ومسدد العبارة حسن البشر عند اللقاء ، مشكور فى مباشرته عفة ونزاهة وكرم . الله يوفقه ويسدده .

﴿ مسك الأمير صرغتمش أتابك الأمراء بالديار المصرية ﴾

ورد الخبر إلينا بمسكه يوم السبت الخامس والعشرين من رمضان هذا ، وأنه قبض عليه بحضرة السلطان يوم الاثنين العشرين منه ، ثم اختلفت الرواية عن قتله غير أنه احتيط على حواصله وأمواله ، وصودر أصحابه وأتباعه ، فكان فيمن ضرب وعصر تحت المصادرة القاضى ضياء الدين ابن خطيب بيت الابار ، واشتهر أنه مات تحت العقوبة . وقد كان مقصداً للواردين إلى الديار المصرية . لاسيما أهل بلدة دمشق ، وقد باشر عدة وظائف ، وكان فى آخر عمره قد فوض إليه نظر جميع الأوقاف ببلاد السلطان ، وتكلم فى أمر الجامع الأموى وغيره . فحصل بسبب ذلك قطع أرزاق جماعات من الكتبة وغيرهم ، ومالأ الأمير صرغتمش فى أمور كثيرة خاصة وعامة . فهلك بسببه ، وقد قارب الثمانين . انتهى .

﴿ إعادة القضاة ﴾

وقد كان صرغتمش عزل القضاة الثلاثة بدمشق . وهم الشافعى والحنفى والمالكى كما تقدم، وعزل قبلهم ابن جماعة وولى ابن عقيل ، فلما مسك صرغتمش رسم السلطان باعادة القضاة على ما كانوا عليه ، ولما ورد الخبر بذلك إلى دمشق امتنع القضاة الثلاثة من الحكم ، غير أنهم حضروا ليلة العيد لرؤية

الهلال بالجامع الأموى . وركبوا مع النائب صبيحة العيد إلى المصلى على عادة القضاة ، وهم على وجل ، وقد انتقلوا من مدارس الحكم فرجع قاضى القضاة أبو البقاء الشافعى إلى بستانه بالزعيفرية ، ورجع قاضى القضاة ابن السراج إلى داره بالتعديل ، وارتحل قاضى القضاة شرف الدين المالكى إلى الصالحية داخل الصمصامية ، وتألم كثير من الناس بسببه ، لأنه قد قدم غريبا من الديار المصرية وهو فقير ومتدين . وقد باشر الحكم جيداً ، ثم تبين بآخرة أنه لم يعزل وأنه مستمر كما سنذكره . ففرح أصحابه وأحبابه . وكثير من الناس بذلك ، فلما كان يوم الأحد رابع شوال قدم البريد وصحبته تقليد الشافعى قاضى القضاة تاج الدين ابن السبكى . وتقليد الحنفى قاضى القضاة شرف الدين الكفرى واستمر قاضى القضاة شرف الدين المالكى العراقى على قضاء المالكية ، لأن السلطان تذكر أنه كان شافهه بولاية القضاء بالشام . وسيره بين يديه إلى دمشق . فحمدت سيرته كما حسنت سريرته . إن شاء الله ، وفرح الناس له بذلك .

وفى ذى القعدة توفى المحدث شمس الدين محمد بن سعد الحنبلى يوم الاثنين ثالثه . ودفن من الغد بالسفح ، وقد قارب الستين ، وكتب كثيرا وخرج . وكانت له معرفة جيدة بأسماء الأحرار ورواتها من الشيوخ المتأخرين . وقد كتب للحافظ البرزالى قطعة كبيرة من مشايخه ، وخرج له عن كل حديثا أو أكثر ، وأثبت له ما سمعه عن كل منهم ، ولم يتم حتى توفى البرزالى رحمه الله .

وتوفى بهاء الدين ابن المرجانى بانى جامع الفوقانى ، وكان مسجدا فى الأصل فبناه جامعا ، وجعل فيه خطبة ، وكنت أول من خطب فيه سنة ثمان وأربعين وسبعمائة . وسمع شيئا من الحديث . وبلغنا مقتل الأمير سيف الدين بن فضل بن عيسى بن مهنا أحد أمراء الاعراب الأجواد الأنجاد وقد ولى إمرة آل مهنا غير مرة كما وليها أبوه من قبله : عدا عليه بعض بنى عمه فقتله من غير قصد بقتله ، كما ذكر ، لكن لما حمل عليه السيف أراد أن يدفع عن نفسه وبنفسه فضربه بالسيف برأسه ففلقه فلم يعش بعده إلا أياما قلائل ومات رحمه الله انتهى .

﴿ عزل منجك عن دمشق ﴾

ولما كان يوم الأحد ثانى ذى الحجة قدم أمير من الديار المصرية ومعه تقليد نائب دمشق . وهو الأمير سيف الدين منجك بنيابة صفد المحروسة ، فأصبح من الغد ـ وهو يوم عرفة ـ وقد انتقل من دار السعادة إلى سطح المزة قاصداً إلى صفد المحروسة فعمل العيد بسطح المزة ، ثم ترحل نحو صفد ، وطمع كثير من المفسدين والخمارين وغيرهم وفرحوا بزواله عنهم . وفى يوم العيد قرىء كتاب السلطان بدار السعادة على الأمراء وفيه التصريح باستنابة أميره على المارداني عليهم . وعوده إليهم والامر بطاعته وتعظيمه واحترامه والشكر له والثناء عليه ، وقدم الامير شهاب الدين بن صبيح من

نيابة صفد ونزل بداره بظاهر البلد بالقرب من الشامية البرانية . ووصل البريد يوم السبت الحادى والعشرين من ذى الحجة بنفى صاحب الحجاب طيدمر الاسماعيلى إلى مدينة حماة بطالا فى سرجين لاغير والله أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة ستين وسبعمائة ﴾

استهلت هذه السنة وملك الديار المصرية والشامية وما يتبع ذلك من الممالك الاسلامية الملك الناصر حسن بن السلطان الملك الناصر محمد بن السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحى ، وقضاته بمصرهم المذكورون فى السنة التى قبلها ، ونائبه بدمشق الامير علاء الدين أمير على الماردانى ، وقضاة الشام هم المذكورون فى التى قبلها غير المالكى ، فانه عزل جمال الدين المسلاتى بشرف الدين العراقى ، وحاجب الحجاب الأمير شهاب الدين بن صبح ، وخطباء البلد كانت أكثرها المذكورون . وفى صبيحة يوم الأربعاء ثالث المحرم دخل الأمير علاء الدين أمير على نائب السلطنة إلى دمشق من نيابة حلب ، ففرح الناس به وتلقوه إلى أثناء الطريق ، وحملت له العمامة الشجوع فى طرقات البلد ، ولبس الأمير شهاب الدين بن صبح خلعة الحجابة الكبيرة بدمشق عوضاً عن نيابة صفد .

ووردت كتب الحجاج يوم السبت الثالث عشر منه مؤرخة سابع عشرين ذى الحجة من العلا وذكروا أن صاحب المدينة النبوية عدا عليه فداويان عند لبسه خلعة السلطان ، وقت دخول المحمل إلى المدينة الشريفة فقتلاه ، فعدت عبيده على الحجيج الذين هم داخل المدينة فنهبوا من أموالهم وقتلوا بعضهم وخرجوا ، وكانوا قد أغلقوا أبواب المدينة دون الجيش فاحرق بعضها ، ودخل الجيش السلطانى فاستنقذوا الناس من أيدى الظالمين . ودخل المحمل السلطانى إلى دمشق يوم السبت العشرين من هذا الشهر على عادته ، وبين يدى المحمل الفداويان اللذان قتلا صاحب المدينة ، وقد ذكرت عنه أمور شنيعة بشعة من غلوه فى الرفض المفرط ، ومن قوله إنه لو تمكن لاخرج الشيخين من الحجرة ، وغير ذلك من عبارات مؤدية لعدم إيمانه إن صح عنه والله أعلم

وفى صبيحة يوم الثلاثاء سادس صفر مسك الامير شهاب الدين بن صبح حاجب الحجاب وولداه الأميران وحبسوا فى القلعة المنصورة ، ثم سافر به الامير ناصر الدين بن خاربك بعد أيام إلى الديار المصرية ، وفى رجل ابن صبح قيد ، وذكر أنه فك من رجله فى أثناء الطريق . وفى يوم الاثنين ثالث عشر صفر قدم نائب طرابلس الأمير سيف الدين عبد الغنى فأدخل القلعة ثم سافر به الأمير علاء الدين بن أبى بكر إلى الديار المصرية محتفظا به مضيقا عليه ، وجاء الخبر بأن منجك سافر من صفد على البريد مطلوبا إلى السلطان ، فلما كان بينه وبين غزة بريد واحد دخل بمن معه من خدمه التيه فارا من السلطان ، وحين وصل الخبر إلى نائب غزة اجتهد فى طلبه فأعجزه وتفارط الامر ، انتهى والله أعلم .

﴿ مسك الأمير على المارداني نائب الشام ﴾

وأصل ذلك أنه في صبيحة يوم الأربعاء الثاني والعشرين من رجب ، ركب الجيش إلى تحت القلعة ملبسين وضربت البشائر في القلعة في ناحية الطارمة ، وجاء الأمراء بالطبلخانات من كل جانب والقائم بأعباء الأمر الأمير سيف الدين بيدمر الحاجب . ونائب السلطنة داخل دار السعادة والرسل مرددة بينه وبين الجيش ، ثم خرج فحمل على سروج يسيرة محتاطا عليه إلى ناحية الديار المصرية ، واستوحش من أهل الشام عند باب النصر . فتباكى الناس رحمة له وأسفة عليه ، لديانته وقلة أذيته وأذية الرعية وإحسانه إلى العلماء والفقراء والقضاة .

ثم في صبيحة يوم الخميس الثالث والعشرين منه احتيط على الأمراء الثلاثة . وهم الأمير سيف الدين طيبغاحجي أحد مقدمي الألوف ، والأمير سيف الدين فطليخا الدوادار أحد المقدمين أيضا والأمير علاء الدين أيدغمش المارداني أحد أمراء الطبلخانات ، وكان هؤلاء ممن حضر نائب السلطنة المذكور وهم جلساؤه وسماره . والذين بسفارته أعطوا الأجناد والطبلخانات والتقادم ، فرفعوا إلى القلعة المنصورة معتقلين بهامع من بهامن الأمراء . ثم ورد الخبر بأن الأمير على رد من الطريق بعد مجاوزته غزة وأرسل إليه بتقليد نيابة صفد المحروسة . فتماثل الحال وفرح بذلك أصحابه وأحبابه . وقدم متسلم دمشق الذى خلع عليه بنيابتها بالديار المصرية في يوم الخميس سادس عشر شهر رجب بعد أن استعفى من ذلك مراراً ، وباس الأرض مراراً فلم يعفه السلطان . وهو الأمير سيف الدين استدمر اخو يلبغا اليحناوى ، الذى كان نائب الشام ، وبنته اليوم زوجة السلطان ، قدم متسلمه إلى دمشق يوم الخميس سلخ الشهر فنزل في دار السعادة ، وراح القضاة والأعيان للسلام عليه والتودد إليه . وحملت إليه الضيافات والتقادم ، انتهى والله أعلم .

﴿ كائنة وقعت بقرية حوران ﴾

« فأوقع الله بهم بأسا شديداً في هذا الشهر الشريف »

وذلك أنهم أشهر أهل قرية بحوران وهي خاص لنائب الشام وهم حلبية يمن ويقال لهم بنو لبسه وبني ناشي وهي حصينة منيعة يضوى إليها كل مفسد وقاطع ومارق ولجأ إليهم أحد شياطين رويمن العشير وهو عمر المعروف بالدنيط . فأعدوا عددا كثيرة ونهبوا ليغنموا العشير . وفي هذا الحين بدرهم والى الولاة المعروف بشنكل منكل . فجاء إليهم ليردهم ويهديهم ، وطلب منهم عمر الدنيط فأبوا عليه وراموا مقاتلته ، وهم جمع كثير وجم غفير ، فتأخر عنهم وكتب إلى نائب السلطنة ليمده بجيش عوناله عليهم وعلى أمثالهم ، فجهز له جماعة من أمراء الطبلخانات والعشراوات ومائة من جند الحلقة الرماة . فلما بغتهم في بلدهم تجمعوا لقتال العسكر ورموه بالحجارة والمقاليع ، وحجزوا بينهم وبين البلد ،

فعند ذلك رمتهم الاتراك بالنبال من كل جانب ، فقتلوا منهم فوق المائة ، ففروا على أعقابهم ، وأسر منهم والى الولاة نحواً من ستين رجلا ، وأمر بقطع رءوس القتلى وتعليقها فى أعناق هؤلاء الأسرى ، ونهبت بيوت الفلاحين كلهم ، وسلمت إلى مماليك نائب السلطنة لم يفقد منها ما يساوى ثلاثمائة درهم ، وكر راجعا إلى بصرى وشيوخ العشيرات معه ، فأخبر ابن الأمير صلاح الدين ابن خاص ترك ، وكان من جملة أمراء الطبلخانات الذين قاتلوهم بمبسوط ما يخصه وأنه كان إذا أعيا بعض تلك الأسرى من الجرحى أمر المشاعلى بذبحه وتعليق رأسه على بقية الأسرى ، وفعل هذا بهم غير مرة حتى أنه قطع رأس شاب منهم وعلق رأسه على أبيه ، شيخ كبير ، فانا لله و إنا إليه راجعون ، حتى قدم بهم بصرى فشنكل طائفة من أولئك المأسورين وشنكل آخرين ووسط الآخرين وحبس بعضهم فى القلعة ، وعلق الرءوس على أخشاب نصبها حول قلعة بصرى ، فحصل بذلك تنكيل شديد لم يقع مثله فى هذا الأوان بأهل حوران ، وهذا كله سلط عليهم بما كسبت أيديهم وما ربك بظلام للعبيد ، وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون ، فانا لله و إنا إليه راجعون . انتهى .

﴿ دخول نائب السلطنة الامير سيف الدين استدمر البحناوى ﴾

فى صبيحة يوم الاثنين حادى عشر شعبان من هذه السنة كان دخول الامير سيف الدين استدمر البحناوى نائبا على دمشق من جهة الديار المصرية ، وتلقاه الناس واحتفلوا له احتفالا زائدا وشاهدته حين ترجل لتقبيل العتبة ، و بعضده الأمير سيف الدين بيدمر الذى كان حاجب الحجاب وعين لنيابة حلب المحروسة ، فاستقبل القبلة وسجد عند القبلة ، وقد بسط له عندها مفارش وصمدة هائلة ، ثم إنه ركب فتعضده بيدمر أيضا وسار نحو الموكب فأركب ثم عاد إلى دار السعادة على عادة من تقدمه من النواب . وجاء تقليد الامير سيف الدين بيدمر من آخر النهار لنيابة حلب المحروسة . وفى آخر نهار الثلاثاء بعد العصر ورد البريد البشيرى وعلى يده مرسوم شريف بنفى القاضى بهاء الدين أبو البقاء وأولاده وأهله إلى طرابلس بلا وظيفة ، فشق ذلك عليه وعلى أهليه ومن يليه ، وتغمم له كثير من الناس ، وسافر ليلة الجمعة وقد أذن له فى الاستنابة فى جهاته ، فاستناب ولده الكبير عز الدين ، واشتهر فى شوال أن الامير سيف الدين منجك الذى كان نائب السلطنة بالشام وهرب ولم يطلع له خبر ، فلما كان فى هذا الوقت ذكر أنه مسك ببلد بحران من مقاطعة ماردين فى زى فقير ، وأنه احتفظ عليه وأرسل السلطان قراره ، وعجب كثير من الناس من ذلك ، ثم لم يظهر لذلك حقيقة وكان الذين رأوه ظنوا أنه هو ، فاذا هو فقير من جملة الفقراء يشبهه من بعض الوجوه . واشتهر فى ذى القعدة أن الأمير عز الدين فياض بن مهنا ملك العرب ، خرج عن طاعة السلطان وتوجه نحو العراق فوردت المراسيم السلطانية لمن بأرض الرحبة من العساكر الدمشقية وهم أربعة مقدمين فى

أربعة آلاف ، وكذلك جيش حلب وغيره بتطلبه وإحضاره إلى بين يدى السلطان ، فسعوا فى ذلك بكل مايقدرون عليه فعجزوا عن لحاقه والدخول وراءه إلى البرارى ، وتفارط الحال وخلص إلى أرض العراق فضاق النطاق وتعذر اللحاق .

﴿ ثم دخلت سنة إحدى وستين وسبعمائة ﴾

استهلت وسلطان المسلمين الملك الناصر حسن بن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون وقضاة مصر والشام هم المذكورون فى التى قبلها ، ونائب الشام الامير سيف الدين استدمر أخو يلبغا اليحناوى ، وكاتب السر القاضى أمين الدين بن القلانسى .

وفى مستهل المحرم جاء الخبر بموت الشيخ صلاح الدين العلائى بالقدس الشريف ليلة الاثنين ثالث المحرم ، وصلى عليه من الغد بالمسجد الاقصى بعد صلاة الظهر ، ودفن بمقبرة نائب الرحبة ، وله من العمر ست وستون سنة ، وكان مدة مقامه بالقدس مدرسا بالمدرسة الصلاحية وشيخا بدار الحديث السكرية ثلاثين سنة ، وقد صنف وألف وجمع وخرج ، وكانت له يد طولى بمعرفة العالى والنازل ، وتخريج الاجزاء والفوائد ، وله مشاركة قوية فى الفقه واللغة والعربية والادب وفى كتابته ضعف لكن مع صحة وضبط لما يشكل ، وله عدة مصنفات ، وبلغنى أنه وقفها على الخانقاه السمساطية بدمشق ، وقد ولى بعده التدريس بالصرخصية الخطيب برهان الدين ابن جماعة والنظر بها ، وكان معه تفويض منه متقدم التاريخ .

وفى يوم الخميس السادس من محرم احتيط على متولى البر ابن بهادر الشيرجى ورسم عليه بالعذراوية بسبب أنه اتهم بأخذ مطلب من نعمان البلقاء هو وكحلن الحاجب ، وقاضى حسان ، والظاهر أن هذه مرافعة من خصم عدو لهم ، وأنه لم يكن من هذا شىء والله أعلم . ثم ظهر على رجل يزور المراسيم الشريفة وأخذ بسببه مدرس الصارمية لأنه كان عنده فى المدرسة المذكورة ، وضرب بين يدى ملك الأمراء ، وكذلك على الشيخ زين الدين زيد المغربى الشافعى ، وذكر عنه أنه يطلب مرسوماً لمدرسة الاكرية ، وضرب أيضاً ورسم عليه فى حبس السد ، وكذلك حبس الأمير شهاب الدين الذى كان متولى البلد ، لأنه كان قد كتب له مرسوما شريفاً بالولاية ، فلما فهم ذلك كاتب السر أطلع عليه نائب السلطنة فانفتح عليه الباب وحبسوا كلهم بالسد ، وجاءت كتب الحجاج ليلة السبت الخامس عشر من المحرم وأخبرت بالخصب والرخص والأمن ولله الحمد والمنة . ودخل المحمل بعد المغرب ليلة السبت الحادى والعشرين منه ، ثم دخل الحجيج بعده فى الطين والرمض وقد لقوا من ذلك من بلاد حوران عناء وشدة ، ووقعت جمالات كثيرة وسبيت نساء كثيرة ، فانا لله وإنا إليه راجعون ، وحصل للناس تعب شديد . ولما كان يوم الاثنين الرابع والعشرين قطعت يد

الذى زوّر المراسيم واسمه السراج عمر القفطى المصرى ، وهو شاب كاتب مطيق على ما ذكر، وحمل فى قفص على جمل وهو مقطوع اليد ،ولم يحسم بعدو الدم ينصب منها ، وأركب معه الشيخ زين الدين زيد على جمل وهو منكوس وجهه إلى ناحية دبر الجمل ، وهو عريان مكشوف الرأس ، وكذلك البدر الحمصى على جمل آخر ، وأركب الوالى شهاب الدين على جمل آخر وعليه تخفيفة صغيرة ، وخف وقباء ،وطيف بهم فى محال البلد، ونودى عليهم :هذا جزاء من يزور على السلطان،ثم أودعوا حبس الباب الصغير وكانوا قبل هذا التعزير فى حبس السد ، ومنه أخذوا وأشهروا ،فانا لله و إنا إليه راجعون انتهى﴿مسك منجك وصفة الظهور عليه وقد كان مختفياً بدمشق فى بعض دورها قريباً من سنة﴾

لما كان يوم الخميس السابع والعشرين من المحرم جاء ناصح إلى نائب السلطنة الأمير سيف الدين استدمر فأخبره بأن منجك فى دار الشرف الأعلى ، فأرسل من فوره إلى ذلك المنزل الذى هو فيه بعض الحجبة ومن عنده من خواصه، فأحضر إلى بين يديه محتفظا عليه جداً ، بحيث إن بعضهم رزفه من ورائه واحتضنه ، فلما واجهه نائب السلطنة أكرمه وتلقاه وأجلسه معه على مقعدته،وتلطف به وسقاه وأضافه ، وقد قيل إنه كان صائما فأفطر عنده ،وأعطاه من ملابسه وقيده وأرسله إلى السلطان فى ليلته ـ ليلة الجمعة ـ مع جماعة من الجند و بعض الأمراء ، منهم حسام الدين أمير حاجب ، وقد كان أرسل نائب السلطنة ولده بسيف منجك من أوائل النهار ، وتعجب الناس من هذه القضية جداً ، وما كان يظن كثير من الناس إلا أنه قد عدم باعتبار أنه فى بعض البلاد النائية ، ولم يشعر الناس أنه فى وسط دمشق وأنه يمشى بينهم متنكراً ، وقد ذكر أنه كان يحضر الجمعات بجامع دمشق ويمشى بين الناس متنكراً فى لبسه وهيئته ، ومع هذا لن يغنى حذر من قدر ، ولكل أجل كتاب ،وأرسل ملك الأمراء بالسيف وبملابسه التى كان يتنكر بها ، و بعث هو مع جماعة من الأمراء الحجبة وغيرهم وجيش كثيف إلى الديار المصرية مقيداً محتفظا عليه ، و رجع ابن ملك الأمراء بالتحف والهدايا والخلع والانعام لوالده ، وللحاجب الحجاب ، ولبس ذلك الأمراء يوم الجمعة واحتفل الناس بالشموع وغيرها ، ثم تواترت الأخبار بدخول منجك إلى السلطان وعفوه عنه وخلعته الكاملة عليه و إطلاقه له الحسام والخيول المسومة والألبسة المفتخرة، والأموال والأمان ، وتقديم الأمراء والأكابر له من سائر صنوف التحف ، وقدوم الأمير على من صغد قاصدا إلى حماة لنيابتها ، فنزل القصر الأبلق ليلة الخميس رابع صفر وتوجه ليلة الاحد سابعه .

وفى يوم الخميس الثامن عشر من صفر قدم القاضى بهاء الدين أبو البقاء من طرابلس بمرسوم شريف أن يعود إلى دمشق على وظائفه المبقاة عليه ، وقد كان ولده ولى الدين ينوب عنه فيها ، فتلقاه كثير من الناس إلى أثناء الطريق،وبرز إليه قاضى القضاة تاج الدين إلى حرستا،و راح الناس إلى

تهنئته إلى داره ، وفرحوا برجوعه إلى وطنه . ووقع مطر عظيم فى أول هذا الشهر ، وهو أثناء شهر شباط ، وثلج عظيم ، فرويت البساتين التى كانت لها عن الماء عدة شهور ، ولا يحصل لأحد من الناس سقى إلا بكلفة عظيمة ومشقة ، ومبلغ كثير ، حتى كاد الناس يقتتلون عليه بالأيدى والدبابيس وغير ذلك من البذل الكثير ، وذلك فى شهور كانون الأول والثانى ، وأول شباط ، وذلك لقلة مياه الأنهار وضعفها ، وكذلك بلاد حوران أكثرهم يروون من أماكن بعيدة فى هذه الشهور ، ثم من الله تعالى فجرت الأودية وكثرت الامطار والثلوج ، وغزرت الانهار ولله الحمد والمنة . وتوالت الأمطار ، فكأنه حصل السيل فى هذه السنة من كانون إلى شباط فكان شباط هو كانون وكانون لم يسل فيه ميزاب واحد . ووصل فى هذا الشهر الأمير سيف الدين منجك إلى القدس الشريف ليبتنى للسلطان مدرسة وخانقاه غربى المسجد الشريف ، وأحضر الفرمان الذى كتب له بماء الذهب إلى دمشق وشاهده الناس ووقعت على نسخته وفيها تعظيم زائد ومدح وثناء له ، وشكر على متقدم خدمه لهذه الدولة ، والعفو عما مضى من زلاته ، وذكر سيرته بعبارة حسنة .

وفى أوائل شهر ربيع الآخر رسم على المعلم سنجر مملوك ابن هلال صاحب الاموال الجزيلة بمرسوم شريف قدم مع البريد وطلب منه ستمائة ألف درهم ، واحتيط على العمارة التى أنشأها عند باب النطافيين ليجعلها مدرسة ، ورسم بأن يعمر مكانها مكتب للأيتام ، وأن يوقف عليهم كتابتهم جارية عليهم ، وكذلك رسم بأن يجعل فى كل مدرسة من مدارس المملكة الكبار ، وهذا مقصد جيد . وسلم المعلم سنجر إلى شاد الدواوين يستخلص منه المبلغ المذكور سريعا ، فعاجل بحمل مائتى ألف ، وسيرت مع أمير عشرة إلى الديار المصرية .

﴿ الاحتياط على الكتبة والدواوين ﴾

وفى يوم الاربعاء خامس عشر ربيع الآخر ورد من الديار المصرية أمير معه مرسوم بالاحتياط على دواوين السلطان ، بسبب ما أكلوا من الأموال المرتبة للناس من الصدقات السلطانية وغير ذلك فرسم عليهم بدار العدل البرانية وألزموا بأموال جزيلة كثيرة ، بحيث احتاجوا إلى بيع أثاثهم وأقمشتهم وفرشهم وأمتعتهم وغيرها ، حتى ذكر أن منهم من لم يكن له شئ يعطيه فأحضر بناته الى الدكة ليبيعهن فتباكى الناس وانتحبوا رحمة ورقة لأبيهن ، ثم أطلق بعضهم وهم الضعفاء منهم والفقراء الذين لا شئ معهم ، وبقيت الغرامة على الكبراء منهم ، كالصاحب والمستوفيين ، ثم شددت عليهم المطالبة وضربوا ضربا مبرحا ، وألزموا الصاحب بمال كثير بحيث إنه احتاج إلى أن سأل من الامراء والأكابر والتجار بنفسه وباوراقه ، فأسعفوه بمبلغ كثير يقارب ما ألزم به ، بعد أن عرى ليضرب ، ولكن ترك واشتهر أنه قد عين عوضه من الديار المصرية ، انتهى .

﴿ موت فياض بن مهنا ﴾

وردالخبر بذلك يوم السبت الثامن عشر منه ، فاستبشر بذلك كثير من الناس ، وأرسل إلى السلطان مبشرين بذلك ، لأنه كان قد خرج عن الطاعة وفارق الجماعة ، فمات موتة جاهلية بأرض الشقاق والنفاق ، وقد ذكرت عن هذا أشياء صدرت عنه من ظلم الناس ، والافطار فى شهر رمضان بلا عـذر وأمره أصحابه وذويه بذلك فى هذا الشهر المـاضى ، فانا لله وانا إليه راجعون ، جاوز السبعين انتهى . والله أعلم .

﴿ كائنة غريبة عجيبة جداً وهى هذه المعلم سنجر مملوك بن هلال ﴾

فى اليوم الرابع والعشرين من ربيع الآخر أطلق المعلم الهلالى بعد أن استوفوا منه تـكميل ستمائة ألف درهم ، فبات فى منزله عنـد باب النطافيين سرورا بالخلاص ، ولمـا أصبح ذهب إلى الحمام وقد ورد البريد من جهة السلطان من الديار المصرية بالاحتياط على أمواله وحواصله ، فأقبلت الحجبة ونقباء النقبة والأعوان من كل مكان ، فقصـدوا داره فاحتاطوا بها وعليها بما فيها ، ورسم عليه وعلى ولديه ، وأخرجت نساؤه من المنزل فى حالة صعبة ، وفتشوا النساء وانتزعوا عنهن الحلى والجواهر والنفائس ، واجتمعت العامة والغوغاء ، وحضر بعض القضاة ومعه الشهود بضبط الاموال والحجج والرهون ، وأحضروا المعلم ليستعلموا منه جلية ذلك ، فوجـدوا من حاصل الفضة أول يوم ثلثمائة ألف وسبعين ألفا ، ثم صناديق أخرى لم تفتح ، وحواصل لم يصلوا اليها لضيق الوقت ثم أصبحوا يوم الاحد فى مثل ذلك ، وقد بات الحرس على الابواب والاسطحة لئلا يعدى عليها فى الليل وبات هو وأولاده بالقلعة المنصورة محتفظا عليهم، وقد رق له كثير من الناس لما أصابه من المصيبة العظيمة بعد التى قبلها سريعا .

وفى أواخر هذا الشهر توفى الأمير ناصر الدين محمد بن الدوادار السكرى ، كان ذا مكانة عنـد أستاذه ، ومنزلة عالية ، ونال من السعادة فى وظيفته أقصاها ، ثم قلب الله قلب أستاذه عليه فضربه وصادره وعزله وسجنه ، ونزل قدره عند الناس ، وآل به الحال إلى أن كان يقف على أتباعه بفرسـه ويشترى منهـم ويحا ككهم ، ويحمل حاجته معه فى سرجه ، وصار مثلة بين النـاس ، بعد أن كان فى غاية مايكون فيه الدويدارية من العز والجاه والمال والرفعة فى الدنيا ، وحق على الله تعالى أنلا يرفع شيئاً من أمر الدنيا الا وضعه .

وفى صبيحة يوم الاحد سابع عشره أفرج عن المعلم الهلالى وعن ولديه ، وكانوا معتقلين بالقلعة المنصورة ، وسلمت اليهم دورهم وحواصلهم ، ولكن أخـذ ما كان حاصلا فى داره ، وهو ثلاثمائة ألف وعشرون ألفا ، وختم على حججه ليعقد لذلك مجلس ليرجع رأس ماله منها عمـلا بقوله تعالى (وإن

تبتم فلـكم رءوس أموالـكم لا تظلمون ولا تظلمون) ونودى عليـه فى البلد إنما فعل به ذلك لأنه لا يؤدى الزكاة و يعامل بالربا ، وحاجب السلطان ومتولى البلد ، و بقية المتعممين والمشاعلية تنادى عليه فى أسواق البلد وأرجائها .

و فى اليوم الثامن والعشرين منه و رد المرسوم السلطانى الشريف باطلاق الدواوين إلى ديارهم وأهاليهم ، ففرح الناس بسبب ذلك لخلاصهم مما كانوا فيه من العقوبة والمصادرة البليغة ، ولـكن لم يستمر بهم فى مباشراتهم .

و فى أواخر الشهر تـكلم الشيخ شهاب الدين المقدسى الواعظ ، قدم من الديار المصرية تجاه محراب الصحابة ، واجتمع الناس إليه وحضر من قضاة القضاة الشافعى والمالـكى ، فتكلم على تفسير آيات من القرآن ، وأشار إلى أشياء من إشارات الصوفية بعبارات طلقة معربة حلوة صادعة للقلوب فأفاد وأجاد ، و ودع الناس بعوده إلى بلده ، ولما دعا استنهض الناس للقيام ، فقاموا فى حال الدعاء ، وقد اجتمعت به بالمجلس فرأيته حسن الهيئة والـكلام والتأدب ، فالله يصلحه و إيانا آمين .

و فى مستهل جمادى الآخرة ركب الأمير سيف الدين بيدمر نائب حلب لقصد غزو بـلاد سيس فى جيش ، لقاه الله النصر والتأييد . و فى مستهل هذا الشهر أصبح أهل القلعة وقد نزل جماعة من أمراء الأعراب من أعالى مجلسهم فى عمائم وحبال إلى الخندق وخاضوه وخرجوا من عند جسر الزلابيـة فانطلق اثنان وأمسك الثالث الذى تبقى فى السجن ، وكأنه كان يمسك لهم الحبال حتى تدلوا فيها ، فاشتد نـكير نائب السلطنة على نائب القلعة ، وضرب ابنيه النقيب وأخاه وسجنهما ، وكاتب فى هذه الـكائنة إلى السلطان ، فورد المرسوم بعزل نائب القلعة و إخراجه منها ، وطلبـه لمحاسـبة ما قبض من الاموال السلطانيـة فى مدة ست سنى مباشرته ، وعزل ابنه عن النقابة وابنه الآخر عن استدرائه السلطان ، فنزلوا من عزهم إلى عزلهم .

و فى يوم الاثنين سابع عشره جاء الأمير تاج الدين جبريل من عند الأمير سـيف الدين بيدمر نائب حلب ، وقد فتح بلدين من بـلاد سيس ، وهما طرسوس وأذنة ، وأرسـل مفاتيحهما صحبة جبريل المذكور إلى السلطان أيده الله ، ثم افتتح حصوناً أخر كثيرة فى أسرع مدة ، وأيسر كلفة ، وخطب القاضى ناصر الدين كاتب السر خطبة بليغة حسنة ، و بلغنى فى كتاب أن أبواب كنيسة أذنة حملت إلى الديار المصرية فى المراكب . قلت : وهذه هى أبواب الناصرية التى بالسفح ، أخذها سيس عام قازان ، وذلك فى سنة تسع وتسعين وستمائة ، فاستنقذت ولله الحمد فى هذه السنة .

وفى أواخر هذا الشهر بلغنا أن الشيخ قطب الدين هرماس الذى كان شيخ السلطان طرد عن جناب مخدومه ، وضرب وصودر ، وخربت داره إلى الاساس ، ونفى إلى مصياف ، فاجتاز بدمشق

ونزل بالمدرسة الجليلة ظاهر باب الفرج ، وزرته فيمن سلم عليه ، فاذا هو شيخ حسن عنده مايقال ويتلفظ معربا جيداً ، ولديه فضيلة ، وعنده تواضع وتصوف ، فالله يحسن عاقبته . ثم تحول إلى العذراوية

وفى صبيحة يوم السبت سابع شهر رجب توجه الشيخ شرف الدين أحمد بن الحسن بن قاضى الجبل الحنبلى إلى الديار المصرية مطلوبا على البريد إلى السلطان لتدريس الطائفة الحنبلية بالمدرسة التى أنشأها السلطان بالقاهرة المعزية ، وخرج لتوديعه القضاة والاعيان إلى أثناء الطريق ، كتب الله سلامته ، انتهى والله تعالى أعلم .

﴿ مسك نائب السلطنة استدمر البحناوى ﴾

وفى صبيحة يوم الأربعاء الخامس والعشرين من رجب قبض على نائب السلطنة الأمير سيف الدين استدمر ، أخى يلبغا البحناوى ، عن كتاب ورد من السلطان صحبة الدوادار الصغير ، وكان يومئذ راكبا بناحية ميدان ابن بابك ، فلما رجع إلى عند مقابر اليهود والنصارى احتاط عليه الحاجب الكبير ومن معه من الجيش وألزموه بالذهاب إلى ناحية طرابلس ، فذهب من على طريق الشيخ رسلان ، ولم يمكن من المسير ، إلى دار السعادة ، ورسم عليه من الجند من أوصله إلى طرابلس مقيما بها بطالا ، فسبحان من بيده ملكوت كل شىء ، يفعل مايشاء . وبقى البلد بلا نائب يحكم فيه الحاجب الكبير عن مرسوم السلطان ، وعين للنيابة الأمير سيف الدين بيدمر النائب بحلب .

وفى شعبان وصل تقليد الأمير سيف الدين بيدمر بنيابة دمشق ، ورسم له أن يركب فى طائفة من جيش حلب ويقصد الامير خيار بن مهنا ليحضره إلى خدمة السلطان ، وكذلك رسم لنائب حماة وحمص أن يكونا عونا للامير سيف الدين بيدمر فى ذلك ، فلما كان يوم الجمعة رابعه التقوا مع خيار عند سلمية ، فكانت بينهم مناوشات ، فأخبرنى الأمير تاج الدين الدودار - وكان مشاهد الوقعة - أن الأعراب أحاطوا بهم من كل جانب ، وذلك لكثرة العرب وكانوا نحو الثمانمائة ، وكانت الترك من حماة وحمص وحلب مائة وخمسين ، فرموا الأعراب بالنشاب فقتلوا منهم طائفة كثيرة ، ولم يقتل من الترك سوى رجل واحد ، رماه بعض الترك ظانا أنه من العرب بناشج فقتله ، ثم حجز بينهم الليل ، وخرجت الترك من الدائرة ، ونهبت أموال من الترك ومن العرب ، وجرت فتنة وجردت أمراء عدة من دمشق لتدارك الحال ، وأقام نائب السلطنة هناك ينتظر ورودهم ، وقدم الامير عمر الملقب بمصمع بن موسى بن مهنا من الديار المصرية أميراً على الاعراب وفى صحبته الامير بدر الدين ابن جماز أميران على الاعراب ، فنزل مصمع بالقصر الابلق ، ونزل الأمير رملة بالتوزية على عادته ثم توجها الى ناحية خيار بمن معهما من عرب الطاعة ممن أضيف اليهم من تجريدة دمشق ومن يكون معهم من جيش حماة وحمص لتحصيل الأمير خيار ، وإحضاره إلى الخدمة الشريفة فالله تعالى يحسن العاقبة

﴿ دخول نائب السلطنة الأمير سيف الدين بيدمر إلى دمشق ﴾

وذلك صبيحة يوم السبت التاسع عشر من شعبان ، أقبل بجيشه من ناحية حلب وقد بات بوطأة برزة ليلة السبت . وتلقاه الناس إلى حماة ودونها ، وجرت له وقعة مع العرب كما ذكرنا . فلما كان هذا اليوم دخل فى أبهة عظيمة . وتجمل حافل ، فقبل العتبة على العادة . ومشى إلى دار السعادة ، ثم أقبلت جنائبه فى لبوس هائلة باهرة . وعدد كثير وعدد ثمينة ، وفرح المسلمون به لشهامته وصرامته وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ، والله تعالى يؤيده ويسدده .

وفى يوم الجمعة ثانى شهر رمضان خطبت الحنابلة بجامع القبيبات وعزل عنه القاضى شهاب الدين قاضى العسكر الحنبلى ، بمرسوم نائب السلطان لأنه كان يعرف أنه كان مختصراً بالحنابلة منذ عين إلى هذا الحين .

وفى يوم الجمعة السادس عشر منه قتل عثمان بن محمد المعروف بابن دبادب الدقاق بالحديد على ما شهد عليه به جماعة لا يمكن تواطؤهم على الكذب ، أنه كان يكثر من شتم الرسول ﷺ . فرفع إلى الحاكم المالكى وادعى عليه فأظهر التجابن ، ثم استقر أمره على أن قتل قبحه الله وأبعده ولا رحمه .

وفى يوم الأثنين السادس والعشرين منه قتل محمد المدعو زبالة الذى يهتار لابن معبد على ماصدر منه من سب النبى ﷺ ودعواه أشياء كفرية . وذكر عنه أنه كان يكثر الصلاة والصيام . ومع هذا يصدر منه أحوال بشعة فى حق أبى بكر وعمر وعائشة أم المؤمنين ، وفى حق النبى ﷺ . فضربت عنقه أيضاً فى هذا اليوم فى سوق الخيل ولله الحمد والمنة.

وفى ثالث عشر شوال خرج المحمل السلطانى وأميره الأمير ناصر الدين بن قراسنقر وقاضى الحجيج الشيخ شمس الدين محمد بن سند المحدث . أحد المفتيين .

وفى أواخر شهر شوال أخذ رجل يقال له حسن ، كان خياطا بمحلة الشاغور ، ومن شأنه أن ينتصر لفرعون لعنه الله ، ويزعم أنه مات على الاسلام ويحتج بأنه فى سورة يونس حين أدركه الغرق قال (آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين) ولا يفهم معنى قوله (آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين) ولا معنى قوله (فأخذه الله نكال الآخرة والأولى) ولا معنى قوله (فأخذناه أخذاً وبيلا) إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الكثيرة الدالة على أن فرعون أكفر الكافرين كما هو مجمع عليه بين اليهود والنصارى والمسلمين .

وفى صبيحة يوم الجمعة سادس القعدة قدم البريد بطلب نائب السلطنة إلى الديار المصرية فى تكريم وتعظيم ، على عادة تنكز ، فتوجه النائب إلى الديار المصرية وقد استصحب معه تحفا سنية وهدايا معظمة تصلح للايوان الشريف . فى صبيحة السبت رابع عشره ، خرج ومعه القضاة والأعيان

من الحجبة والأمراء لتوديعه . وفى أوائل ذى الحجة ورد كتاب من نائب السلطنة بخطه إلى قاضى القضاة تاج الدين الشافعى يستدعيه إلى القدس الشريف ، وزيارة قبر الخليل ، ويذكر فيه ماعامله به السلطان من الأحسان والاكرام والاحترام والاطلاق والانعام من الخيل والتحف والمال والغلات فتوجه نحوه قاضى القضاة يوم الجمعة بعد الصلاة رابعه على ستة من خيل البريد ، ومعه تحف ومايناسب من الهدايا ، وعاد عشية يوم الجمعة ثامن عشره إلى بستانه .

ووقع فى هذا الشهر والذى قبله سيول كثيرة جداً فى أماكن متعددة ، من ذلك ماشاهدنا آثاره فى مدينة بعلبك ، أتلف شيئا كثيراً من الاشجار ، واخترق أماكن كثيرة متعددة عندهم ، وبقى آثار سيحه على أماكن كثيرة ، ومن ذلك سيل وقع بأرض جملوص أتلف شيئاً كثيراً جداً ، وغرق فيه قاضى تلك الناحية ، ومعه بعض الأخيار ، كانوا وقوفا على أكمة فدهمهم أمر عظيم ، ولم يستطيعوا دفعه ولا منعه ، فهلكوا . ومن ذلك سيل وقع بناحية حسة جمال فهلك به شىء كثير من الأشجار والأغنام والأعناب وغيرها . ومن ذلك سيل بأرض حلب هلك به خلق كثير من التركمان وغيرهم ، رجالا ونساء وأطفالا وغنما وإبلا . قرأته من كتاب من شاهد ذلك عيانا ، وذكر أنه سقط عليهم بردوزنت الواحدة منه فبلغت زنتها سبعمائة درهم وفيه ما هو أكبر من ذلك وأصغر ، انتهى .

﴿ الأمر بالزام القلندرية بترك حلق لحاهم وحواجبهم وشواربهم ﴾

« وذلك محرم بالاجماع حسب ماحكاه ابن حازم وإنما ذكره بعض الفقهاء بالكراهية »

ورد كتاب من السلطان أيده الله إلى دمشق فى يوم الثلاثاء خامس عشر ذى الحجة ، بالزامهم بزى المسلمين وترك زى الأعاجم والمجوس ، فلا يمكن أحد منهم من الدخول إلى بلاد السلطان حتى يترك هذا الزى المبتدع ، واللباس المستشنع ، ومن لا يلتزم بذلك يعزر شرعا ، ويقلع من قراره قلعا ، وكان اللائق أن يؤمروا بترك أكل الحشيشة الخسيسة ، وإقامة الحد عليهم بأكلها وسكرها ، كما أفتى بذلك بعض الفقهاء . والمقصود أنهم نودى عليهم بذلك فى جميع أرجاء البلد ونواحيه فى صبيحة يوم الأربعاء ولله الحمد والمنة .

وبلغنا فى هذا الشهر وفاة الشيخ الصالح الشيخ أحمد بن موسى الزرعى بمدينة جبراص يوم الثلاثاء خامس ذى الحجة ، وكان من المبتلين بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والقيام فى مصالح الناس عند السلطان والدولة ، وله وجاهة عند الخاص والعام ، رحمه الله . والأمير سيف الدين كحلن بن الاقوس ، الذى كان حاجبا بدمشق وأميراً ، ثم عزل عن ذلك كله ، ونفاه السلطان إلى طرابلس فمات هناك .

وقدم نائب السلطنة الأمير سيف الدين بيدمر عائداً من الديار المصرية ، وقد لقى من السلطان

إكراما وإحسانا زائداً فاجتاز فى طريقه بالقدس الشريف فأقام به يوم عرفة والنحر ، ثم سلك على طريق غابة أرصوف يصطاد بها فأصابه وعك منعه عن ذلك ، فأسرع السير فدخل دمشق من صبيحة يوم الاثنين الحادى والعشرين منه فى أبهة هائلة ، ورياسة طائلة ، وتزايد وخرج العامة للتفرج عليه والنظر إليه فى مجيئه هذا ، فدخل وعليه قباء معظم ومطرز ، وبين يديه ماجرت به العادة من الجوفية والشاليشية وغيرهم ، ومن نيته الاحسان إلى الرعية والنظر فى أحوال الأوقاف وإصلاحها على طريقة تنكز رحمه الله ، انتهى والله أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة اثنتين وستين وسبعمائة ﴾

استهلت هذه السنة المباركة وسلطان الاسلام بالديار المصرية والشامية والحرمين الشريفين ومايتبع ذلك ويلتحق به الملك الناصر حسن بن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون الصالحى ، ولا نائب له بالديار المصرية ، وقضاته بها هم المذكورون فى العام الماضى ، ووزيره القاضى بن الخصيب ونائب الشام بدمشق الأمير سيف الدين بيدمر الخوارزمى ، والقضاة والخطيب وبقية الأشراف وناظر الجيش والمحتسب هم المذكورون فى العام الماضى ، والوزير ابن قزوينة ، وكاتب السر القاضى أمين الدين بن القلانسى ، ووكيل بيت المال القاضى صلاح الدين الصفدى وهو أحد موقعى الدست الأربعة . وشاد الأوقاف الأمير ناصر الدين بن فضل الله ، وحاجب الحجاب اليوسفى ، وقد توجه إلى الديار المصرية ليكون بها أمير جنهار ، ومتولى البلد ناصر الدين ، ونقيب النقباء ابن الشجاعى . وفى صبيحة يوم الأثنين سادس المحرم قدم الأمير على نائب حماة منها فدخل دمشق مجتازاً إلى الديار المصرية ونزل فى القصر الأبلق ثم تحول إلى دار دويداره يلبغا الذى جدد فيها مساكن كثيرة بالقصاعين . وتردد الناس إليه للسلام عليه ، فأقام بها إلى صبيحة يوم الخميس تاسعه ، فسار إلى الديار المصرية .

وفى يوم الأحد تاسع عشر المحرم أحضر حسن بن الخياط من محلة الشاغور إلى مجلس الحكم المالكى من السجن ، وناظر فى إيمان فرعون وادعى عليه بدعاوى لانتصاره لفرعون لعنه الله ، وصدق ذلك باعترافه أولا ثم بمناظرته فى ذلك ثانيا وثالثا ، وهو شيخ كبير جاهل عامى ذا نص لايقيم دليلا ولا يحسنه ، وإنما قام فى مخيلته شبهة يحتج عليها بقوله إخبارا عن فرعون حين أدركه الغرق ، وأحيط به ورأى بأس الله ، وعاين عذابه الأليم ، فقال حين الغرق إذاً (آمنت أنه لاإله إلا الذى آمنت به بنوا إسرائيل وأنا من المسلمين) قال الله تعالى (الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية) فاعتقد هذا العامى أن هذا الايمان الذى صدر من فرعون والحالة هذه ينفعه ، وقد قال تعالى (فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنابه مشركين فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون) وقال تعالى

(إن الذين حقت عليهم كلمت ربك لا يؤمنون به ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم . قال قد أجيبت دعوتكما) الآية . ثم حضر فى يوم آخر وهو مصمم على ضلاله فضرب بالسياط ، فأظهر التوبة ثم أعيد إلى السجن فى زنجير ، ثم أحضر يوما ثالثا وهو يستهل بالتوبة فيما يظهر ، فنودى عليه فى البلد ثم أطلق .

وفى ليلة الثلاثاء الرابع عشر طلع القمر خاسفا كله ولكن كان تحت السحاب ، فلما ظهر وقت العشاء وقد أخذ فى الجلاء صلى الخطيب صلاة الكسوف قبل العشاء، وقرأ فى الأولى بسورة العنكبوت وفى الأخرى بسورة يس ، ثم صعد المنبر فخطب ثم نزل بعد العشاء . وقدمت كتب الحجاج يخبرون بالرخص والأمن ، واستمرت زيادة الماء من أول ذى الحجة وقبلها إلى هذه الأيام من آخر هذا الشهر والأمر على حاله ، وهذا شىء لم يعهد كما أخبر به عامة الشيوخ ، وسببه أنه جاء ماء من بعض الجبال انهال فى طريق النهر .

ودخل المحمل السلطانى يوم الثلاثاء الحادى والعشرين من المحرم قبل الظهر ، ومسك أمير الحاج شركتمر الماردانى الذى كان مقيما بمكة شرفها الله تعالى ، وحماها من الأوغاد، فلما عادت التجريدة مع الحجاج إلى دمشق صحبة القراسنقر من ساعة وصوله إلى دمشق ، فقيد وسير إلى الديار المصرية على البريد ، وبلغنا أن الأمير سند أمير مكة غر بجند السلطان الذين ساروا صحبة ابن قراسنقر وكبسهم وقتل من حواشيهم وأخذ خيولهم ، وأنهم ساروا جرائد بغير شىء مسلوبين إلى الديار المصرية ، فانا لله وإنا إليه راجعون .

وفى أول شوال اشتهر فيه وتواتر خبر الفناء الذى بالديار المصرية بسبب كثرة المستنقعات من فيض النيل عندهم، على خلاف المعتاد ، فبلغنا أنه يموت من أهلها كل يوم فوق الألفين ، فأما المرض فكثير جداً ، وغلت الأسعار لقلة من يتعاطى الأشغال ، وغلا السكر والامياه والفاكهة جداً ، وتبرز السلطان إلى ظاهر البلد وحصل له تشويش أيضاً ، ثم عوفى بحمد الله .

وفى ثالث ربيع الآخر قدم من الديار المصرية ابن الحجاف رسول صاحب العراق لخطبة بنت السلطان ، فأجابهم إلى ذلك بشرط أن يصدقها مملكة بغداد ، وأعطاهم مستحقا سلطانياً ، وأطلق لهم من التحف والخلع والأموال شيئا كثيراً ، ورسم الرسول بمشترى قرية من بيت المال لتوقف على الخانقاه التى يريد أن يتخذها بدمشق قريبا من الطواويس ، وقد خرج لتلقيه نائب الغيبة وهو حاجب الحجاب ، والدولة والاعيان . وقرأت فى يوم الأحد سابع شهر ربيع الآخر كتابا ورد من حلب بخط الفقيه العدل شمس الدين العراقى من أهلها ، ذكر فيه أنه كان فى حضرة نائب السلطنة فى دار العدل يوم الاثنين السابع عشر من ربيع الاول وأنه أحضر رجل قد ولد له ولد

عاش ساعة ومات ، وأحضره معه وشاهده الحاضرون ، وشاهده كاتب الكتاب . فاذا هو شكل سوى له على كل كتف رأس بوجه مستدير . والوجهان إلى ناحية واحدة فسبحان الخلاق العليم .

وبلغنا أنه فى هذا الشهر سقطت المنارة التى بنيت للمدرسة السلطانية بمصر . وكانت مستجدة على صفة غريبة ، وذلك أنها منارتان على أصل واحد فوق قبو الباب الذى للمدرسة المذكورة ، فلما سقطت أهلكت خلقا كثيراً من الصناع بالمدرسة والمارة والصبيان الذين فى مكتب المدرسة ، ولم ينج من الصبيان فيما ذكر شىء سوى ستة ، وكان جملة من هلك بسببها نحو ثلثمائة نفس ، وقيل أكثر وقيل أقل . فانا لله وإنا إليه راجعون . وخرج نائب السلطنة الأمير سيف الدين بيدمر إلى الغيضة لاصلاحها وإزالة مافيها من الأشجار المؤذية والدغل يوم الاثنين التاسع والعشرين من الشهر ، وكان ساخه ، وخرج معه جميع الجيش من الأمراء وأصحابه ، وأجناد الحلقة برمتهم لم يتأخر منهم أحد . وكلهم يعملون فيها بأنفسهم وغلمانهم ، وأحضر إليهم خلق من فلاحى المرج والغوطة وغير ذلك ، ورجع يوم السبت خامس الشهر الداخل وقد نظفوها من الغل والدغل والغش .

واتفقت كائنة غريبة لبعض السؤال ، وهو أنه اجتمع جماعة منهم قبل الفجر ليأخذوا خبزاً من صدقة تربة امرأة ملك الأمراء تنكز عند باب الخواصين ، فتضاربوا فيما بينهم فعمدوا إلى رجل منهم فخنقوه خنقا شديداً . وأخذوا منه جرابا فيه نحو من أربعة آلاف درهم . وشىء من الذهب وذهبوا على حمية ، وأفاق هو من الغشى فلم يجدهم ، واشتكى أمره إلى متولى البلد فلم يظفر بهم إلى الآن ، وقد أخبرنى الذى أخذوا منه أنهم أخذوا منه ثلاثة آلاف درهم معاملة ، وألف درهم بندقية وديناريں وزنهما ثلاثة دنانير . كذا قال لى إن كان صادقا .

وفى صبيحة يوم السبت خامس جمادى الأولى طلب قاضى القضاة شرف الدين الحنفى للشيخ على بن البنا ، وقد كان يتكلم فى الجامع الأموى على العوام . وهو جالس على الأرض شىء من الوعظيات وما أشبهها من صدره . فكأنه تعرض فى غضون كلامه لأبى حنيفة رحمه الله . فأحضر فاستتيب من ذلك . ومنعه قاضى القضاة شرف الدين الكفرى من الكلام على الناس وسجنه ، وبلغنى أنه حكم باسلامه وأطلقه من يومه ، وهذا المذكور ابن البنا عنده زهادة وتقشف، وهو مصرى يسمع الحديث ويقرؤه ، ويتكلم بشىء من الوعظيات والرقائق ، وضرب أمثال . وقد مال إليه كثير من العوام واستحلوه . وكلامه قريب إلى مفهومهم . وربما أضحك فى كلامه ، وحاضرته وهو مطبوع قريب إلى الفهم ، ولكنه أشار فيما ذكر عنه فى شطحته إلى بعض الاشياء التى لا تنبغى أن تذكر ، والله الموفق ، ثم إنه جلس للناس فى يوم الثلاثاء ثامنه فتكلم على عادته فتطلبه القاضى المذكور فيقال إن المذكور تعنت انتهى والله أعلم .

﴿ سلطنة الملك المنصور صلاح الدين محمد ﴾

ابن الملك المظفر حاجى بن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون بن عبد الله الصالحى وزوال دولة عمه الملك الناصر حسن بن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون .

لما كثر طمعه وتزايد شرهه ، وساءت سيرته إلى رعيته ، وضيق عليهم فى معايشهم وأكسابهم ، وبنى البنايات الجبارة التى لا يحتاج إلى كثير منها ، واستحوذ على كثير من أملاك بيت المال وأمواله ، واشترى منه قرايا كثيرة ومدنا أيضا ورساتيق ، وشق ذلك على الناس جدا ، ولم يتجاسر أحد من القضاة ولا الولاة ولا العلماء ولا الصلحاء على الانكار عليه ، ولا الهجوم عليه ، ولا النصيحة له بما هو المصلحة له وللمسلمين ، انتقم الله منه فسلط عليه جنده وقلب قلوب رعيته من الخاصة والعامة عليه ، لما قطع من أرزاقهم ومعالمهم وجوامكهم وأخبازهم ، وأضاف ذلك جميعه إلى خاصته ، فقلت الأمراء والاجناد والمقدمون والكتاب والموقعون ، ومس الناس الضرر وتعدى على جوامكهم وأولادهم ومن يلوذ بهم ، فعند ذلك قدر الله تعالى هلاكه على يد أحد خواصه وهو الأمير الكبير سيف الدين يلبغا الخاصكى . وذلك أنه أراد السلطان مسكه فاعتد لذلك ، وركب السلطان لمسكه فركب هو فى جيش ، وتلاقيا فى ظاهر القاهرة حيث كانوا نزولا فى الوطاقات ، فهزم السلطان بعد كل حساب ، وقد قتل من الفريقين طائفة ، ولجأ السلطان إلى قلعة الجبل ، كلا ولا وزر ، ولن ينجى حذر من قدر ، فبات الجيش بكماله محدقا بالقلعة ، فهم بالهرب فى الليل على هجن كان قد اعتدها ليهرب إلى الكرك ، فلما برز مسك واعتقل ودخل به إلى دار يلبغا الخاصكى المذكور ، وكان آخر العهد به ، وذلك فى يوم الأربعاء تاسع جمادى الأولى من هذه السنة ، وصارت الدولة والمشورة متناهية إلى الامير سيف الدين يلبغا الخاصكى ، فاتفقت الآراء واجتمعت الكلمة وانعقدت البيعة للملك المنصور صلاح الدين محمد بن المظفر حاجى ، وخطب الخطباء وضربت السكة ، وسارت البريدية للبيعة باسمه الشريف ، هذا وهو ابن ثنتى عشرة ، وقيل أربع عشرة ، ومن الناس من قال ست عشرة ، ورسم فى عود الأمور إلى ما كانت عليه فى أيام والده الناصر محمد بن قلاوون ، وأن يبطل جميع ما كان أخذه الملك الناصر حسن ، وأن تعاد المرتبات والجوامك التى كان قطعها ، وأمر باحضار طاز وطاشتمر القاسمى من سجن اسكندرية إلى بين يديه ليكونا أتابكا ، وجاء الخبر إلى دمشق صحبة الأمير سيف الدين بزلار شاد الشربخاناة أحد أمراء الطبلخانات بمصر صبيحة يوم الأربعاء سادس عشر الشهر ، فضربت البشائر بالقلعة وطبلخانات الأمراء على أبوابهم ، وزين البلد بكماله ، وأخذت البيعة له صبيحة يومه بدار السعادة وخلع عن نائب السلطنة تشريف هائل ، وفرح أكثر الأمراء والجند والعامة ولله الأمر ، وله الحكم . قال تعالى (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء

وتذل من تشاء) الآية . ووجد على حجر بالحميرية فقرئت للمأمون فاذا مكتوب .

ما اختلاف الليل والنهار ولا * دارت نجوم السماء فى الفلك
إلا لنقل النعيم من ملك * قد زال سلطانه إلى ملك
وملك ذى العرش دائم أبداً * ليس بفان ولا بمشترك

وروى عن سليمان بن عبد الملك بن مروان أنه خرج يوماً لصلاة الجمعة ، وكان سوى الخلق حسنه ، وقد لبس حلة خضراء ، وهو شاب ممتلىء شبابا ، وينظر فى أعطافه ولباسه ، فأعجبه ذلك من نفسه ، فلما بلغ إلى صرحة الدار تلقته جنية فى صورة جارية من حظاياه فأنشدته :

أنت نعم لو كنت تبقى * غير أن لا حياة للانسان
ليس فيما علمت فيك عيـ * ـب يذكر غير أنك فان

فصعد المنبر الذى فى جامع دمشق وخطب الناس ، وكان جهورى الصوت يسمع أهل الجامع وهو قائم على المنبر ، فضعف صوته قليلا قليلا حتى لم يسمعه أهل المقصورة ، فلما فرغ من الصلاة حمل إلى منزله فاستحضر تلك الجارية التى تبدت تلك الجنية على صورتها ، وقال : كيف أنشدتينى تينك البيتين ؟ فقالت : ما أنشدتك شيئا . فقال : الله أكبر نعيت والله إلى نفسى . فأوصى أن يكون الخليفة من بعده ابن عمه عمر بن عبد العزيز رحمه الله .

وقدم نائب طرابلس المعزول عليلا والأمير سيف الدين استدمر الذى كان نائب دمشق وكانا مقيمان بطرابلس جميعاً ، فى صبيحة يوم السبت السادس والعشرين منه ، فدخلا دارالسعادة فلم يحتفل بهما نائب السلطنة .

وتكامل فى هـذا الشهر تجديد الرواق غربى باب الناطفانيين إصـلاحاً بدرابزيناته وتبييضا لجدرانه ومحراب فيه ، وجعل له شبابيك فى الدرابزينات ، ووقف فيـه قراءة قرآن بعد المغرب ، وذكروا أن شخصا رأى مناماً فقصه على نائب السلطنة فأمر باصلاحه . وفيه نهض بناء المدرسة التى إلى جانب هـذا المكان من الشباك ، وقد كان أسسها أولا علـم الدين بن هلال ، فلما صودر أخذت منه وجعلت مضافة إلى السلطان ، فبنوا فوق الأسـاسات وجعلوا لها خمسة شبابيك من شرقها ، وبابا قبليا ، ومحرابا وبركة وعراقية ، وجعلوا حائطها بالحجارة البيض والسود ، وكملوا عاليها بالآجر ، وجاءت فى غاية الحسن ، وقد كان السلطان الناصرحسن قد رسم بأن تجعل مكتبا للأيتام فلم يتم أمرها حتى قتل كما ذكرنا .

واشتهر فى هذ الشهر أن بقرة كانت تجىء من ناحية باب الجابية تقصد جراء لـكلبة قد ماتت أمهم ، وهى فى ناحية كنيسة مريم فى خرابة ، فتجىء إليهم فتنسطح على شقها فترضع أولئك الجراء

منها ، تكرر هذا منها مراراً . وأخبرني المحدث المفيد التقي نور الدين أحمد بن المقصوص بمشاهدته ذلك .

وفي العشر الأوسط من جمادى الآخرة نادى مناد من جهة نائب السلطنة حرسه الله تعالى في البلد أن النساء يمشين في تستر ويلبسن أزرهن إلى أسفل من سائر ثيابهن . ولا يظهرن زينة ولا يداً ، فامتثلن ذلك ولله الحمد والمنة . وقدم أمير العرب جبار بن مهنا في أبهة هائلة ، وتلقاه نائب السلطنة إلى أثناء الطريق ، وهو قاصد إلى الأبواب الشريفة . وفي أواخر رجب قدم الأمير سيف الدين تمر المهمندار من نيابة غزة حاجب الحجاب بدمشق ، وعلى مقدمة رأس الميمنة ، وأطلق نائب السلطنة مكوسات كثيرة ، مثل مكس الحداية والخزل المرددن الحلب والطبابي ، وأبطل ما كان يؤخذ من المحتسبين زيادة على نصف درهم . وما يؤخذ من أجرة عدة الموتى كل ميت بثلاثة ونصف . وجعل العدة التي في القيسارية للحاجة مسبلة لا تتحجر على أحد في تغسيل ميت . وهذا حسن جداً ، وكذلك منع التحجر في بيع البلح المختص به . و بيع مثل بقية الناس من غير طرحان فرخص على الناس في هذه السنة جداً ، حتى قيل إنه بيع القنطار بعشرة ، وما حولها .

وفي شهر شعبان قدم الأمير جبار بن مهنا من الديار المصرية فنزل القصر الأبلق وتلقاه نائب السلطنة وأكرم كل منهما الآخر ، ثم ترحل بعد أيام قلائل ، وقدم الأمراء الذين كانوا بحبس الاسكندرية في صبيحة يوم الجمعة سابعه ، وفيهم الأمير شهاب الدين بن صبح وسيف الدين طيدمر الحاجب ، وطيبرق ومقدم ألف ، وعمرشاه . وهذا ونائب السلطنة الأمير سيف الدين بيدمر أعزه الله يبطل المكوسات شيئاً بعد شيء مما فيه مضرة بالمسلمين . وبلغني عنه أن من عزمه أن يبطل جميع ذلك إن أمكنه الله من ذلك . آمين انتهى .

﴿ تنبيه على واقعة غريبة واتفاق عجيب ﴾

نائب السلطنة الأمير سيف الدين بيدمر فيما بلغنا في نفسه عتب على أتابك الديار المصرية الأمير سيف الدين يلبغا الخاصكي مدبر الدولة بها . وقد توسم وتوهم منه أنه يسعى في صرفه عن الشام . وفي نفس نائبنا قوة وصرامة شديدة ، فتنسم منه بعض الاباء عن طاعة يلبغا ، مع استمراره على طاعة السلطان . وأنه إن اتفق عزل من قبل يلبغا أنه لا يسمع ولا يطيع ، فعمل أعمالا واتفق في غضون هذا الحال موت نائب القلعة المنصورة بدمشق وهو الأمير سيف الدين برناق الناصري فأرسل نائب السلطنة من أصحابه وحاشيته من يتسلم القلعة برمتها ، ودخل هو بنفسه إليها ، وطلب الأمير زين الدين زبالة الذي كان فقيها ثم نائبها وهو من أخبر الناس بها وبخطاتها وحواصلها ، فدار معه فيها وأراه حصونها وبروجها ومفاتحها وأغلاقها ودورها وقصورها وعددها وبركنها . وماهو معد

فيها ولها . وتعجب الناس من هذا الاتفاق فى هذا الحال . حيث لم يتفق ذلك لأحد من النواب قبله قط ، وفتح الباب الذى هو تجاه دار السعادة وجعل نائب السلطنة يدخل منه إلى القلعة ويخرج بخدمه وحشمه وأبهته يكشف أمرها وينظر فى مصالحها أيده الله .

ولما كان يوم السبت خامس عشر شعبان ركب فى الموكب على العادة واستدعى الأمير سيف الدين استدمر الذى كان نائب الشام . وهو فى منزله كالمعتقل فيه ،لا يركب ولا يراه أحد ، فأحضره إليه وركب معه . وكذلك الأمراء الذين قدموا من الديار المصرية : طبترق ، وهو أحد أمراء الألوف وطيدمر الحاجب ، كان ، وأما ابن صبيح وعمر شاه فانهما كانا قد سافرا يوم الجمعة عشية النهار ، والمقصود أنه سيرهم وجميع الأمراء بسوق الخيل . ونزل بهم كلهم إلى دار السعادة فتعاهدوا وتعاقدوا واتفقوا على أن يكونوا كلهم كتفاً واحداً ، وعصبة واحدة على مخالفة من أرادهم بسوءوأنهم يد على من سواهم ممن أراد عزل أحد منهم أو قتله ، وأن من قاتلهم قاتلوه ، وأن السلطان هو ابن أستاذهم الملك المنصور بن حاجى بن الناصر بن المنصور قلاوون ،فطاوعوا كلهم لنائب السلطنة على ما أراد من ذلك . وحلفوا له وخرجوا من عنده على هذا الحلف . وقام نائب السلطنة على عادته فى عظمة هائلة . وأبهة كثيرة ، والمسئول من الله حسن العاقبة .

وفى صبيحة يوم الأحد سادس عشر شعبان أبطل ملك الأمراء المكس الذى يؤخذ من الملح وأبطل مكس الأفراح . وأبطل أن لا تغنى امرأة لرجال ، ولا رجل لنساء ، وهذا فى غاية ما يكون من المصلحة العظيمة الشامل نفعها . وفى يوم الثلاثاء ثامن عشره شرع نائب السلطنة سيف الدين بيدمر فى نصب مجانيق على أعالى بروج القلعة . فنصبت أربع مجانيق من جهاتها الأربع،وبلغنى أنه نصب آخر فى أرضها عند البحرة ، ثم نصب آخر وآخر حتى شاهد الناس ستة مجانيق على ظهور الأبرجة . وأخرج منها القلعية وأسكنها خلقا من الأكراد والتركمان وغيرهم من الرجال الأنجاد ، ونقل إليها من الغلات والأطعمة والأمتعة وآلات الحرب شيئاً كثيراً ، واستعد للحصار إن حوصر فيها بما يحتاج إليه من جميع ما يرصد من القلاع ، بما يفوت الحصر . ولما شاهد أهل البساتين المجانيق قد نصبت فى القلعة انزعجوا وانتقل أكثرهم من البساتين إلى البلد ، ومنهم من أودع عند أهل البلد نفائس أموالهم وأمتعتهم ، والعاقبة إلى خير إن شاء الله تعالى .

وجاءتنى فتيا صورتها : ما تقول السادة العلماء فى ملك اشترى غلاماً فأحسن إليه وأعطاه وقدمه، ثم إنه وثب على سيده فقتله وأخذ ماله ومنع ورثته منه، وتصرف فى المملكة . وأرسل إلى بعض نواب البلاد ليقدم عليه ليقتله . فهل له الامتناع منه ؟ وهل إذا قاتل دون نفسه وماله حتى يقتل يكون شهيداً أم لا ؟ وهل يثاب الساعى فى خلاص حق ورثة الملك المقتول من القصاص والمال ؟ أفتونا مأجورين.

فقلت للذى جاءنى بها من جهة الأمير : إن كان مراده خـلاص ذمته فيما بينه و بين الله تعالى فهو أعلم بنيته فى الذى يقصـده ؛ ولا يسعى فى تحصيل حق معين إذا ترتب على ذلك مفسدة راجحة على ذلك ؛ فيؤخر الطلب إلى وقت إمكانه بطريقه ؛ و إن كان مراده بهذا الاستفتاء أن يتقوى بها فى جمع الدولة والأمراء عليه ؛ فلابد أن يكتب عليها كبار القضاة والمشايخ أولا ، ثم بعد ذلك بقية المفتيين بطريقه والله الموفق للصواب .

هذا وقد اجتمع على الأمير نائب السلطنة جميع أمراء الشام ، حتى قيل إن فيهم من نواب السلطنة سبعة عشر أميراً ، وكلهم يحضر معـه المواكب الهائلة ؛ و ينزلون معه إلى دار السعادة ؛ و يمد لهم الأسمطة و يأكل معهم ؛ وجاء الخـبر بأن الأمير منجك الطرجاقسى المقيم ببيت المقـدس قد أظهر الموافقة لنائب السلطنة ، فأرسل له جبريل ثم عاد فأخبر بالموافقة ، وأنه قد استحوذ على غزة ونائبه ؛ وقـد جمع وحشد واسـتخدم طوائف ، ومسك على الجادة فلا يدع أحداً يمر إلا أن يفتش ما معه ، لاحتمال إيصال كتب من هاهنا إلى هاهنا ، ومع هذا كله فالمعدلة ثابتة جداً ، والأمن حاصل هناك ، فلايخاف أحد ، وكذلك بدمشق وضواحيها ، لايهاج أحد ولايتعدى أحد على أحد ، ولاينهب أحد لأحد شيئا ولله الحمد ، غيرأن بعض أهل البساتين توهموا وركبوا إلى المدينـة وتحولوا ، وأودع بعضهم نفائس ما عنـدهم ، وأقاموا بها على وجل ، ذلك لـما رأوا المجانيق الستة منصوبة على رؤس قلال الأبراج التى للقلعة ، ثم أحضر نائب السـلطنة القضاة الأربعة والأمراء كلهم وكتبوا مكتوبا سطره بينهم كاتب السر ، أنهم راضون بالسلطان كارهون ليلبغا ، وأنهم لايريدونه ولا يوافقون على تصرفه فى المملكة ، وشهد عليهم القضاة بذلك ، وأرسلوا المكتوب مع مملوك للأمير طيبغا الطويل ، نظير يلبغا بالديار المصرية ، وأرسل منجك إلى نائب السلطنة يستحثه فى الحضور إليه فى الجيش ليناجزوا المصريين ، فعين نائب الشـام من الجيش طائفـة يبرزون بين يديه ؛ وخرجت التجريدة ليـلة السبت التاسع والعشرين من شـعبان صحبة استدمر الذى كان نائب الشام مدداً للأمير منجك فى ألفين ، ويذكر الناس أن نائب السلطنة يمن بقى من الجيش يذهبون على إثرهم ، ثم خرجت أخرى بعدها ثلاثة آلاف ، ليلة الثلاثاء الثامن من رمضان كما سيأتى .

وتوفى الشيخ الحافظ عـلاء الدين مغلطاى المصرى بها فى يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من شعبان من هذه السنة ؛ ودفن من الغد بالزيدانية ، وقد كتب الكثير وصنف وجمع ، وكانت عنده كتب كثيرة رحمه الله .

وفى مستهل رمضان أحضر جماعة من التجار إلى دار العدل ظاهر باب النصر ليباع شئ عليهم من القند والفولاذ والزجاج مما هو فى حواصل يلبغا ، فامتنعوا من ذلك خوفا من استعادته منهم على

تقدير،فضرب بعضهم ، منهم شهاب الدين ابن الصواف بين يدى الحاجب ، وشاد الدواوين،ثم أفرج عنهم فى اليوم الثانى ففرج الله بذلك .

وخرجت التجريدة ليلة الثلاثاء بعد العشاء صحبة ثلاثة مقدمين منهم عراق ثم ابن صبح ثم ابن طرغية ، ودخل نائب طرابلس الأمير سيف الدين تومان إلى دمشق صبيحة يوم الأربعاء عاشر رمضان ، فتلقاه ملك الأمراء سيف الدين بيدمر إلى الأقصر ، ودخلا معا فى أبهة عظيمة ، فنزل تومان فى القصر الأبلق ، و برز من معه من الجيوش إلى عند قبة يلبغا ، هذا والقلعة منصوب عليها المجانيق ، وقد ملئت حرساً شديدا ، ونائب السلطنة فى غاية التحفظ . ولما أصبح يوم الخميس صمم تومان تمر على ملك الأمراء فى الرحيل إلى غزة ليتوافى هو و بقية من تقدمه من الجيش الشامى ، ومنجك ومن معه هنالك ، ليقضى الله أمراً كان مفعولا ، فأجابه إلى ذلك وأمر بتقدم السبق بين يديه فى هذا اليوم ، فخرج السبق وأغلقت القلعة بابها المسلوك الذى عند دار الحديث ، فاستوحش الناس من ذلك ، والله يحسن العاقبة

﴿ خروج ملك الأمراء بيدمر من دمشق متوجهاً إلى غزة ليلحق العساكر هناك ﴾

صلى الجمعة بالمقصورة الثانى عشر من رمضان نائب السلطنة ، ونائب طرابلس ، ثم اجتمعا بالخطبة فى مقصورة الخطابة ، ثم راح لدار السعادة ثم خرج طلبه فى تجمل هائل على ما ذكر بعد العصر ، وخرج معهم فاستعرضهم ثم عاد إلى دار السعادة فبات إلى أن صلى الصبح ، ثم ركب خلف الجيش هو ونائب طرابلس ، وخرج عامة من بقى من الجيش من الأمراء و بقية الحلقة ، وسلمهم الله ،وكذلك خرج القضاة ، وكذا كاتب السر ووكيل بيت المال وغيرهم من كتاب الدست،وأصبح الناس يوم السبت وليس أحد من الجند بدمشق ، سوى نائب الغيبة الأمير سيف الدين بن حمزة التركمانى، وقريبه والى البر ، ومتولى البلد الأمير بدر الدين صدقة بن أوحد ، ومحتسب البلد ونواب القضاة والقلعة على حالها ، والمجانيق منصوبة كما هى . ولما كان صبح يوم الأحد رجع القضاة بكرة ثم رجع ملك الأمراء فى أثناء النهار هو وتومان تمر ، وهم كلهم فى لبس وأسلحة تامة ، وكل منهما خائف من الآخر أن يمسكه ، فدخل هذا دار السعادة و راح الآخر إلى القصر الأبلق ، ولما كان بعد العصر قدم منجك واستدمر كان نائب السلطنة بدمشق ، وهما مغلولان قد كسرهما من كان قدم على منجك من العساكر التى جهزها بيدمر إلى منجك قوة له على المصريين ، وكان ذلك على يدى الأمير سيف الدين تمر حاجب الحجاب ، و يعرف بالمهمندار ، قال لمنجك كلنا فى خدمة من بمصر ، ونحن لانطيعك على نصرة بيدمر ، فتقاولا ثم تقاتلا فهزم منجك وذهب تمر ومنجك ومن كان معهما كابن صبح وطيدمر . ولما أصبح الصباح من يوم الاثنين خامس عشر لم يوجد لتومان تمر وطبترق

ولا أحد من أمراء دمشق عين ولا أثر ، قد ذهبوا كلهم إلى طاعة صاحب مصر ، ولم يبق بدمشق من أمرائها سوى ابن قراسنقر من الأمراء المتقدمين ، وسوى بيدمر ومنجك واستدمر . والقلعة قد هيئت والمجانيق منصوبة على حالها ، والناس فى خوف شديد من دخول بيدمر إلى القلعة ، فيحصل بعد ذلك عند قدوم الجيش المصرى حصار وتعب ومشقة على الناس ، والله يحسن العاقبة .

ولما كان فى أثناء نهار الاثنين سادس عشره دقت البشائر فى القلعة وأظهر أن يلبغا الخاصكى قد نفاه السلطان إلى الشام، ثم ضربت وقت المغرب ثم بعد العشاء فى صبيحة يوم الثلاثاء أيضا . وفى كل ذلك يركب الأمراء الثلاثة منجك و بيدمر وأستدمر ملبسين ، و يخرجون إلى خارج البلد ، ثم يعودون ، والناس فيما يقال ما بين مصدق ومكذب ، ولكن قد شرع إلى تستير القلعة وتهيء الحصار فانا لله و إنا إليه راجعون .

ثم تبين أن هذه البشائر لا حقيقة لها ، فاهتم فى عمل ستائر القلعة وحمل الزلط والأحجار إليها ، الأغنام والحواصل . وقد وردت الأخبار بأن الركاب الشريف السلطانى وصحبته يلبغا فى جميع جيش مصر قد عدا غزة ، فعند ذلك خرج الصاحب وكاتب السر والقاضى الشافعى وناظر الجيش و نقباؤه ومتولى البلد وتوجهوا تلقاء حماة لتلقى الأمير على الذى قد جاءه تقليد دمشق . و بقى البلد شاغرا عن حاكم فيها سوى المحتسب و بعض القضاة ، والناس كغنم لا راعى لهم ، ومع هذا الأحوال صالحة والأمور ساكنة ، لا يعدو أحد على أحد فيما بلغنا ، هذا و بيدمر ومنجك واستدمر فى تحصين القلعة وتحصيل العدد والأقوات فيها ، والله غالب على أمره (أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة) الستائر تعمل فوق الأبرجة ، وصلى الأمير بيدمر صلاة الجمعة تاسع عشر الشهر فى الشباك الكمالى ، فى مشهد عثمان ، وصلى عنده منجك إلى جانبه داخل موضع القضاة . وليس هناك أحد من الحجبة ولا النقباء ، وليس فى البلد أحد من المباشرين بالكلية ، ولا من الجند إلا القليل ، وكلهم قد سافروا إلى ناحية السلطان ، والمباشرون إلى ناحية حماة لتلقى الأمير على نائب الشام المحروس ، ثم عاد إلى القلعة ولم يحضر الصلاة استدمر ، لأنه قيل كان منقطعا أو قد صلى فى القلعة .

و فى يوم السبت العشرين من الشهر وصل البريد من جهة السلطان من أبناء الرسول إلى نائب دمشق يستعلم طاعته أو مخالفته . و بعث عليه فيما اعتمده من استحوذ على القلعة ويخطب فيها ، وادخار الآلات والاطعمات فيها ، وعدم المجانيق والستائر عليها ، وكيف تصرف فى الأموال السلطانية تصرف الملاك والملوك ، فتنصل ملك الأمراء من ذلك . وذكر أنه إنما أرصد فى القلعة جنادتها وأنه لم يدخلها ، وأن أبوابها مفتوحة . وهى قلعة السلطان . و إنما له غريم بينه و بينه الشرع

والقضاة الأربعة - يعنى بذلك يلبغا - وكتب بالجواب وأرسله صحبة البريدى وهو كتتكلدى مملوك بقطبه الدويدار ، وأرسل فى صحبته الأمير صارم الدين أحد أمراء العشرات من يوم ذلك .

وفى يوم الاثنين الثانى والعشرين من رمضان تصبح أبواب البلد مغلقة إلى قريب الظهر ، وليس ثم مفتوح سوى باب النصر والفرج ، والناس فى حصر شديد وانزعاج ، فانا لله وإنا إليه راجعون . ولكن قد اقترب وصول السلطان والعساكر المنصورة . وفى صبيحة الاربعاء أصبح الحال كما كان وأزيد ، ونزل الأمير سيف الدين يلبغا الخاصكى بقبة يلبغا ، وامتد طلبه من سيف داريا إلى القبة المذكورة فى أبهة عظيمة ، وهيئة حسنة ، وتأخر الركاب الشريف بتأخره عن الصميين بعد ، ودخل بيدمر فى هذا اليوم إلى القلعة وتحصن بها . وفى يوم الخميس الخامس والعشرين منه استمرت الأبواب كلها مغلقة سوى باب النصر والفرج ، وضاق النطاق وانحصر الناس جدا ، وقطع المصريون نهر بانياس والفرع الداخل إليها وإلى دار السعادة من القنوات ، واحتاجوا لذلك أن يقطعوا القنوات ليسدوا الفرع المذكور ، فانزعج أهل البلد لذلك وملؤا مافى بيوتهم من برك المدارس ، وبيعت القربة بدرهم ، والحق بنصف ، ثم أرسلت القنوات وقت العصر من يومئذ ولله الحمد والمنة ، فانشرح الناس لذلك ، وأصبح الصباح يوم الجمعة والأبواب مغلقة ولم يفتح باب النصر والفرج إلى بعد طلوع الشمس بزمان ، فأرسل يلبغا من جهته أربعة أمراء وهم الأمير زين الدين زبالة الذى كان نائب القلعة ، والملك صلاح الدين ابن الكامل ، والشيخ على الذى كان نائب الرحبة من جهة بيدمر ، وأمير آخر ، فدخلوا البلد وكسروا أقفال أبواب البلد ، وفتحوا الأبواب ، فلما رأى بيدمر ذلك أرسل مفاتيح البلد إليهم انتهى . ﴿ وصول السلطان الملك المنصور إلى المصطبة غربى عقبة سجورا ﴾

كان ذلك فى يوم الجمعة السادس والعشرين من شهر رمضان فى جحافل عظيمة كالجبال ، فنزل عند المصطبة المنسوبة إلى عم ابنته الملك الأشرف خليل بن المنصور قلاوون ، وجاءت الأمراء ونواب البلاد لتقبيل يده والأرض بين يديه ، كنائب حلب ، ونائب حماة ، وهو الأمير علاء الدين المارداني ، وقد عين لنيابة دمشق ، وكتب بتقليده بذلك ، وأرسل إليه وهو بحماة . فلما كان يوم السبت السابع والعشرين منه خلع على الامير علاء الدين على الماردانى بنيابة دمشق ، وأعيد إليها عوداً على بدء ، ثم هذه الكرة الثالثة ، وقبل يد السلطان وركب عن يمينه ، وخرج أهل البلد لتهنئته ، هذا والقلعة محصنة بيد بيدمر ، وقد دخلها ليلة الجمعة واحتمى بها ، هو ومنجك واستدمر ومن معه من الاعوان بها ، ولسان حال القدر يقول (أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة)

ولما كان يوم الأحد طلب قضاة القضاة وأرسلوا إلى بيدمر وذويه بالقلعة ليصالحوه على شىء ميسور يشترطونه ، وكان ماستذكره انتهى والله تعالى أعلم .

﴿ سبب خروج بيدمر من القلعة وصفة ذلك ﴾

لما كان يوم الاحد الثامن والعشرين منـه أرسل قضاة القضاة ومعهـم الشيخ شرف الدين ابن قاضى الجبـل الحنبلى ، والشيخ سراج الدين الهنـدى الحنفى ، قاضى المسكر المصرى للحنفية، إلى بيدمر ومن معه ليتكلموا معهم فى الصلح لينزلوا على مايشترطون قبـل أن يشرعوا فى الحصار والمجانيق التى قد استدعى بها من صفد و بعلبك، وأحضر من رجال النقاعين نحو من ستة آلاف رام فلما اجتمع به القضاةومن معهم وأخبروه عن السلطان وأعيان الأمراء بأنهم قد كتبوا له أمانا إن أناب إلى المصالحة ، فطلب أن يكون بأهله ببيت المقـدس ، وطلب أن يعطى منجـك كذا بناحية بلاد سيس ليسترزق هنالك،وطلب استدمر أن يكون بشمقداراً للأميرسيف الدين يلبغا الخاصكى .فرجع القضاة إلى السلطان ومعهم الأمير زين الدين جبريل الحاجب كان ، فأخـبروا الســلطان والامراء بذلك ، فأجيبوا إليه ، وخلع السلطان والامراء على جبريل خلعا ، فرجع فى خـدمة القضـاة ومعهم الامير استبغا بن الأبو بكرى ، فدخلوا القلعة و باتوا هنالك كلهم ، وانتقل الامير بيدمر بأهله وأثاثه إلى داره بالمطرزين ، فلما أصبح يوم الاثنين التاسع والعشرين منه خرج الامراء الثلاثة من القلعـة ومعهم جبريل ، فدخل القضاة وسلموا القلعة بما فيها من الحواصل إلى الأمير استبغا بن الابو بكرى، انتهى . ﴿ دخول السلطان الملك المنصور محمد بن الملك المظفر أمير حاج بن الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون ﴾

« إلى دمشق فى جيشه وجنوده وأمرائه وأبهته » .

لما كان صبيحة يوم الاثنين التاسع والعشرين من رمضان من هذه السنة رجع القضاة إلى الوطاق الشريف ، وفى صحبتهم الأمراء الذين كانوا بالقلعة ، وقد أعطوا الأمان من جهة السلطان ومن معهم وذويهم ، فدخل القضاة وحجب الأمراء المذكورون ، فخلع على القضاة الأربعة وانصرفوا راجعين مجبورين ، وأما الأمراء المذكورون فانهم أركبوا على خيل ضعيفة ، وخلف كل واحـد منهم وساقى أخذ بوسطه قبل ، وفى يد كل واحد من الوساقية خنجر كبير مسلول لئلا يستنقذه منه أحد فيقتله بها، فدخل جهرة بين الناس ليروهم ذلتهم التى قد لبستهم ، وقد أحدق الناس بالطريق من كل جانب ، فقام كثير من الناس ، الله أعلم بعدتهم ، إلا أنهم قد يقاربون المائة ألف أو يزيدون عليها ، فرأى الناس منظراً فظيعاً ، فدخل بهم الوساقية إلى الميدان الأخضر الذى فيه القصر ، فأجلسوا هنالك وهم ستة نفر : الثلاثة النواب وجبريل وابن استدمر ، وسادس ، وظن كل منهم أن يفعل بهم فاقرة ، فانا لله و إنا إليه راجعون،وأرسلت الجيوش داخلة إلى دمشق أطلابا فى تجمل عظيم ، ولبس الحرب بنهر النصر وخيول وأسلحة و رماح ، ثم دخل السلطان فى آخر ذلك كله بعد العصر بزمن ، وعليـه

من أنواع الملابس قباز بخارى ، والقبة والطير يحملهما على رأسه الأمير سيف الدين تومان تمر ، الذى كان نائب طرابلس ، والأمراء مشاة بين يديه ، والبسط تحت قدمى فرسه ، والبشائر تضرب خلفه فدخل القلعة المنصورة المنصورية لا البدرية . ورأى ما قد أرصدها من المجانيق والأسلحة ، فاشتد حنقه على بيدمر وأصحابه كثيراً ، ونزل الطارمة ، وجلس على سرير المملكة ووقف الأمراء والنواب بين يديه ، ورجع الحق إلى نصابه ، وقد كان بين دخوله ودخول عمه الصالح صالح فى أول يوم من رمضان ، وهذا فى التاسع والعشرين منه ، وقد قيل إنه سلخه والله أعلم . وشرع الناس فى الزينة.

وفى صبيحة يوم الثلاثاء سلخ الشهر نقل الأمراء المغضوب عليهم الذين ضل سعيهم فيما كانوا أبرموه من ضمير سوء للمسلمين إلى القلعة فأنزلوا فى أبراجها مهانين مفرقا بينهم ، بعد ما كانوا بها آمنين حاكمين ، أصبحوا معتقلين مهانين خائفين ، فجاروا بعد ما كانوا رؤساء ، وأصبحوا بعد عزهم أذلاء ، وتقبت أصحاب هؤلاء ونودى عليهم فى البلد ، ووعد من دل على أحد منهم بمال جزيل ، وولاية إمرة بحسب ذلك ، ورسم فى هذا اليوم على الرئيس أمين الدين ابن القلانسى كاتب السر ، وطلب منه ألف ألف درهم ، وسلم إلى الأمير زين الدين زبالة نائب القلعة ، وقد أعيد إليها وأعطى تقدمة ابن قراسنقر ، وأمره أن يعاقبه إلى أن يزن هذا المبلغ ، وصلى السلطان وأمراؤه بالميدان الأخضر صلاة العيد ، ضرب له خام عظيم وصلى به خطيباً القاضى تاج الدين الساوى الشافعى ، قاضى العسكر المنصورة للشافعية ، ودخل الامراء مع السلطان للقلعة من باب المدرسة ، ومد لهم سماطا هائلا أكلوا منه ثم رجعوا إلى دورهم وقصورهم ، وحمل الطير فى هذا اليوم على رأس السلطان الامير على نائب دمشق ، وخلع عليه خلعة هائلة .

وفى هذا اليوم مسك الأمير تومان تمر الذى كان نائب طرابلس ، ثم قدم على بيدمر ، فكان معه ، ثم قفل إلى المصريين واعتذر إليهم فعذروه فيما يبدو للناس ، ودخل وهو حامل الخبز على رأس السلطان يوم الدخول ، ثم ولوه نيابة حمص ، فصغروه وحقروه ، ثم لما استمر ذاهبا إليها فكان عند القابون أرسلوا إليه فأمسكوه وردوه ، وطلب منه المائة ألف التى كان قبضها من بيدمر ، ثم ردوه إلى نيابة حمص .

وفى يوم الخميس اشتهر الخبر بأن طائفة من الجيش بمصر من طواشية وخاصكية ملكوا عليهم حسين الناصر ثم اختلفوا فيما بينهم واقتتلوا ، وأن الأمر قد انفصل ورد حسين المحل الذى كان معتقلا فيه ، وأطفأ الله شر هذه الطائفة ولله الحمد .

وفى آخر هذا اليوم لبس القاضى ناصر الدين بن يعقوب خلعة كتابة السر الشريفية ، والمدرستين ، ومشيخة الشيوخ عوضاً عن الرئيس علاء الدين بن القلانسى ، عزل وصودر ، وراح

الناس لتهنئته بالعود إلى وظيفته كما كان .

وفى صبيحة يوم الجمعة ثالث شوال مسك جماعة من الامراء الشاميين منهم الحاجبان صلاح الدين وحسام الدين والمهمندار ابن أخى الحاجب الكبير « تمر » وناصر الدين ابن الملك صلاح الدين ابن الكامل ، وابن حمزة والطرخانى واثنان أخوان وهما طيبغا زفر و بلجات « كلهم طبلخانات » وأخرجوا خير وتمر حاجب الحجاب ، وكذلك الحجو بية أيضا لقاربى أحد أمراء مصر .

وفى يوم الثلاثاء سابع شوال مسك ستة عشر أميراً من أمراء العرب بالقلعة المنصورة « منهم عمر بن موسى بن مهنا الملقب بالمصمع ، الذى كان أمير العرب فى وقت ، ومعيقل بن فضل بن مهنا وآخرون ، وذكروا أن سبب ذلك أن طائفة من آل فضل عرضوا للامير سيف الدين الأحمدى الذى استاقوه على حلب ، وأخذوا منه شيئا من بعض الامتعة « وكادت الحرب تقع بينهم . وفى ليلة الخميس بعد المغرب حمل تسعة عشر أميرا من الاتراك والعرب على البريد مقيدين فى الاغلال أيضا إلى الديار المصرية ، منهم بيدمر ومنجك واستدمر وجبريل وصلاح الدين الحاجب وحسام الدين أيضا وبلجك وغيرهم ، ومعهم نحو من مائتى فارس ملبسين بالسلاح متوكلين بحفظهم ، وساروا بهم نحو الديار المصرية ، وأمروا جماعة من البطالين منهم أولاد لاقوش ، وأطلق الرئيس أمين الدين بن القلانسى من المصادرة والترسيم بالقلعة ، بعد ما وزن بعض ما طلب منه ، وصار إلى منزله ، وهنأه الناس .

﴿ خروج السلطان من دمشق قاصداً مصر ﴾

ولما كان يوم الجمعة عاشر شهر شوال خرج طاب يلبغا الخاصكى صبيحته فى تجمل عظيم لم ير الناس فى هذه المدد مثله ، من نجائب وجنائب ومماليك وعظمة هائلة ، وكانت عامة الاطلاب قد تقدمت قبله بيوم ، وحضر السلطان إلى الجامع الأموى قبل أذان الظهر « فصلى فى مشهد عثمان هو ومن معه من أمراء المصريين « ونائب الشام ، وخرج من فوره من باب النصر ذاهبا نحو الكسوة والناس فى الطرقات والأسطحة على العادة ، وكانت الزينة قد بقى أكثرها فى الصاغة والخواصين و باب البريد إلى هذا اليوم « فاستمرت نحو العشرة أيام .

وفى يوم السبت حادى عشر شوال خلع على الشيخ علاء الدين الأنصارى باعادة الحسبة إليه وعزل عماد الدين ابن السيرجى « وخرج المحمل يوم الخميس سادس عشر شوال على العادة ، والامير مصطفى البيرى . وتوفى يوم الخميس ويوم الجمعة أربعة أمراء بدمشق ، وهم طشتمر وفر وطيبغا الفيل ، ونوروز أحد مقدمى الالوف ، وتمر المهمندار ، وقد كان مقدم ألف ، وحاجب الحجاب وعمل نيابة غزة فى وقت ، ثم تعصب عليه المصريون فعزلوه عن الامرة ، وكان مريضا فاستمر مريضا إلى أن توفى يوم الجمعة ، ودفن يوم السبت بتربته التى أنشأها بالصوفية ، لكنه لم يدفن فيها بل

على بابها كأنه مودع أو ندم على بنائها فوق قبور المسلمين رحمه الله .

وتوفى الأمير ناصر الدين بن لاقوش يوم الاثنين العشرين من شوال ودفن بالقبيبات ، وقد ناب ببعلبك وبحمص ، ثم قطع خبره هو وأخوه كحلان ونفوا عن البلد إلى بلدان شتى ، ثم رضى عنهم الأمير يلبغا وأعاد عليهم أخبازا بطبلخانات ، فما لبث ناصر الدين إلا يسيراً حتى توفى إلى رحمة الله تعالى ، وقد أثرآثاراً حسنة كثيرة منها عند عقبة الرمانة خان مليح نافع ، وله ببعلبك جامع وحمام وخان وغير ذلك ، وله من العمر ست وخمسون سنة .

وفى يوم الأحد السادس والعشرين منه درس القاضى نور الدين محمد بن قاضى القضاة بهاء الدين ابن أبى البقاء الشافعى بالمدرسة الاتابكية ، نزل له عنها والده بتوقيع سلطانى ، وحضر عنده القضاة والأعيان ، وأخذ فى قوله تعالى (الحج أشهر معلومات) وفى هذا اليوم درس القاضى نجم الدين أحمد بن عثمان النابلسى الشافعى المعروف بابن الجابى بالمدرسة العصرونية استنزل له عنها القاضى أمين الدين بن القلانسى فى مصادراته . وفى صبيحة يوم الاثنين التاسع والعشرين من شوال درس القاضى ولى الدين عبد الله بن القاضى بهاء الدين أبى البقاء بالمدرستين الرواحية ثم القيمرية ، نزل له عنهما والده المذكور بتوقيع سلطانى ، وحضر عنده فيهما القضاة والأعيان .

وفى صبيحة يوم الخميس سلخ شوال شهر الشيخ أسد بن الشيخ الكردى على جمل وطيف به فى حواضر البلد ونودى عليه : هذا جزاء من يخامر على السلطان ويفسد نواب السلطان ، ثم أنزل عن الجمل وحمل على حمار وطيف به فى البلد ونودى عليه بذلك ، ثم ألزم السجن وطلب منه مال جزيل وقد كان المذكور من أعوان بيدمر المتقدم ذكره وأنصاره ، وكان هو المتسلم للقلعة فى أيامه .

وفى صبيحة يوم الاثنين حادى عشر ذى القعدة خلع على قاضى القضاة بدر الدين بن أبى الفتح بقضاء العسكر الذى كان متوفرا عن علاء الدين بن قمرنوخ ، وهنأه الناس بذلك وركب البغلة بالزنارى مضافا إلى ما بيده من نيابة الحكم والتدريس . وفى يوم الاثنين ثامن عشره أعيد تدريس الركنية بالصالحية إلى قاضى القضاة شرف الدين الكفرى الحنفى ، استرجعها بمرسوم شريف سلطانى ، من يد القاضى عماد الدين بن العز ، وخلع على الكفرى ، وذهب الناس إليه للتهنئة بالمدرسة المذكورة .

وفى شهر ذى الحجة اشتهر وقوع فتن بين الفلاحين بناحية عجلون ، وأنهم اقتتلوا فقتل من الفريقين اليمنى والقيسى طائفة ، وأن عين حيتا التى هى شرقى عجلون دمرت وخربت ، وقطع أشجارها ودمرت بالكلية . وفى صبيحة يوم السبت الثانى والعشرين من ذى الحجة لم تفتح أبواب دمشق إلى ما بعد طلوع الشمس ، فأنكر الناس ذلك ، وكان سببه الاحتياط على أمير يقال له كسبغا ، كان يريد

الهرب إلى بلاد الشرق ، فاحتيط عليه حتى أمسكوه .

وفى ليلة الأربعاء السادس والعشرين من ذى الحجة قدم الأمير سيف الدين طاز من القدس فنزل بالقصر الأبلق ؛ وقد عمى من الكحل حين كان مسجونا بالاسكندرية ، فأطلق كما ذكرنا ، ونزل ببيت المقدس مدة ؛ ثم جاءه تقليد بأنه يكون طرخانا ينزل حيث شاء من بلاد السلطان ، غير أنه لا يدخل ديار مصر ؛ فجاء فنزل بالقصر الأبلق ، وجاء الناس إليه على طبقاتهم - نائب السلطنة فمن دونه - يسلمون عليه وهو لا يبصر شيئا ، وهو على عزم أن يشترى أو يستكرى له داراً بدمشق يسكنها . انتهى والله سبحانه وتعالى أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة ثلاث وستين وسبعمائة ﴾

استهلت هذه السنة وسلطان الديار المصرية والشامية والحرمين الشريفين وما والاهما من الممالك الاسلامية السلطان الملك المنصور صلاح الدين محمد بن الملك المظفر أمير حاج بن الملك المنصور قلاوون ؛ وهو شاب دون العشرين ، ومدبر الممالك بين يديه الأمير يلبغا ، ونائب الديار المصرية طشتمر ؛ وقضاتها هم المذكورون فى التى قبلها ، والوزير سيف الدين قزوينة ، وهو مريض مدنف ونائب الشام بدمشق الأمير علاء الدين الماردانى ، وقضاته هم المذكورون فى التى قبلها ، وكذلك الخطيب ووكيل بيت المال والمحتسب علاء الدين الأنصارى، عاد إليها فى السنة المنفصلة ؛ وحاجب الحجاب قمارى ، والذى يليه السلمانى وآخر من مصر أيضا ، وكاتب السر القاضى ناصرالدين محمد بن يعقوب الحلبى ، وناظر الجامع القاضى تقى الدين بن مراجل ، وأخبرنى قاضى القضاة تاج الدين الشافعى أنه جدد فى أول هذه السنة قاضى حنفى بمدينة صفد المحروسة مع الشافعى ؛ فصار فى كل من حماة وطرابلس وصفد قاضيان شافعى وحنفى .

وفى ثانى المحرم قدم نائب السلطنة بعد غيبة نحو من خمسة عشر يوما ، وقد أوطأ بلاد فرير بالرعب ، وأخذ من مقدميهم طائفة فأودعهم الحبس ، وكان قد اشتهر أنه قصد العشيرات المواسين ببلاد عجلون ، فسألته عن ذلك حين سلمت عليه فأخبرنى أنه لم يتعد ناحية فرير ، وأن العشيرات قد اصطلحوا واتفقوا ، وأن التجريدة عندهم هناك . قال : وقد كبس الأعراب من حرم الترك فهزمهم الترك وقتلوا منهم خلقا كثيرا ، ثم ظهر للعرب كمين فالجأ الترك إلى وادى صرح فحصروهم هنالك ؛ ثم ولت الأعراب فراراً ولم يقتل من الترك أحد ، وإنما جرح منهم أمير واحد فقط ، وقتل من الأعراب فوق الخمسين نفسا .

وقدم الحجاج يوم الأحد الثانى والعشرين من المحرم ، ودخل المحمل السلطانى ليلة الاثنين بعد العشاء ، ولم يحتفل لدخوله كما جرت به العادة ، وذلك لشدة ما نال الركب فى الرجعة من بريز إلى هنا

من البرد الشديد ، بحيث إنه قد قيل إنه مات منهم بسبب ذلك نحو المائة ، فانا لله و إنا إليه راجعون ، ولكن أخبروا برخص كثير وأمن ، و بموت نفسة أخى عجلان صاحب مكة ، وقد استبشر بموته أهل تلك البلاد لبغيه على أخيه عجلان العادل فيهم انتهى والله أعلم .

﴿ منام غريب جدا ﴾

ورأيت ـ يعنى المصنف ـ فى ليلة الاثنين الثانى والعشرين من المحرم سنة ثلاث وستين وسبعمائة الشيخ محى الدين النواوى رحمه الله فقلت له : يا سيدى الشيخ لم لا أدخلت فى شرحك المهذب شيئا من مصنفات ابن حزم ؟ فقال ما معناه : إنه لا يحبه ، فقلت له : أنت معذور فيه فانه جمع بين طرفى النقيضين فى أصوله وفروعه . أما هو فى الفروع فظاهرى جامد يابس ، وفى الأصول تول مائع قرمطة القرامطة وهرس الهرائسة . ورفعت بها صوتى حتى سمعت وأنا نائم ، ثم أشرت له إلى أرض خضراء تشبه النخيل بل هى أردأ شكلا منه ، لا ينتفع بها فى استغلال ولا رعى ، فقلت له : هذه أرض ابن حزم التى زرعها [قال:] أنظر هل ترى فيها شجرا مثمرا أو شيئا ينتفع به ، فقلت إنما تصلح للجلوس عليها فى ضوء القمر . فهذا حاصل ما رأيته ، ووقع فى خلدى أن ابن حزم كان حاضرنا عند ما أشرت للشيخ محيي الدين إلى الأرض المنسوبة لابن حزم ، وهو ساكت لا يتكلم .

وفى يوم الخميس الثالث والعشرين من صفر خلع على القاضى عماد الدين بن الشيرجى بعود الحسبة إليه بسبب ضعف علاء الدين الأنصارى عن القيام بها لشغله بالمرض المدنف ، وهنأه الناس على العادة . وفى يوم السبت السادس والعشرين من صفر توفى الشيخ علاء الدين الأنصارى المذكور بالمدرسة الأمينية . وصلى عليه الظهر بالجامع الأموى ، ودفن بمقابر باب الصغير خلف محراب جامع جراح ، فى تربة هنالك ، وقد جاوز الأربعين سنة . ودرس فى الأمينية وفى الحسبة مرتين وترك أولادا صغارا وأموالا جزيلة سامحه الله ورحمه ، وولى المدرسة بعده قاضى القضاة تاج الدين بن السبكى بمرسوم كريم شريف .

وفى العشر الأخير من صفر بلغنا وفاة قاضى قضاة المالكية الاخنائى بمصر وتولية أخيه برهان الدين ابن قاضى القضاة علم الدين الاخنائى الشافعى أبوه قاضيا مكان أخيه ، وقد كان على الحسبة بمصر مشكور السيرة فيها ، وأضيف إليه نظر الخزانة كما كان أخوه . وفى صبيحة يوم الأحد رابع شهر ربيع الأول كان ابتداء حضور قاضى القضاة تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب ابن قاضى القضاة تقى الدين بن الحسن بن عبد الكافى السبكى الشافعى تدريس الأمينية عوضا عن الشيخ علاء الدين المحتسب ، بحكم وفاته رحمه الله كما ذكرنا ، وحضر عنده خلق من العلماء والأمراء والفقهاء والعامة ، وكان درسا حافلا . أخذ فى قوله تعالى (أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله)

الآية وما بعدها ، فاستنبط أشياء حسنة ، وذكر ضربا من العلوم بعبارة طلقة جارية معسولة ، أخذ ذلك من غير تلعثم ولا تلجلج ولا تكلف فأجاد وأفاد ، وشكره الخاصة والعامة من الحاضرين وغيرهم حتى قال بعض الأكابر : إنه لم يسمع درسا مثله .

وفى يوم الاثنين الخامس والعشرين منه توفى الصدر برهان الدين بن لؤلؤ الحوضى ، فى داره بالقصاعين ولم يمرض إلا يوما واحدا ، وصلى عليه من الغد بجامع دمشق بعد صلاة الظهر ، وخرجوا به من باب النصر، فخرج نائب السلطنة الأمير على فصلى عليه إماما خارج باب النصر ، ثم ذهبوا به فدفنوه بمقابرهم بباب الصغير ، فدفن عند أبيه رحمه الله، وكان رحمه الله فيه مروءة وقيام مع الناس ، وله وجاهة عند الدولة وقبول عند نواب السلطنة وغيرهم ، ويحب العلماء وأهل الخير ، ويواظب على سماع مواعيد الحديث والخير ، وكان له مال وثروة ومعروف ، قارب الثمانين رحمه الله .

وجاء البريد من الديار المصرية فأخبر بموت الشيخ شمس الدين محمد بن النقاش المصرى بها ، وكان واعظا باهراً ، وفصيحا ماهراً ، ونحويا شاعراً ، له يد طولى فى فنون متعددة ، وقدرة على نسج الكلام ، ودخول على الدولة وتحصيل الأموال ، وهو من أبناء الأربعين رحمه الله .

وأخبر البريد بولاية قاضى القضاة شرف الدين المالكى البغدادى ، الذى كان قاضيا بالشام للمالكية ، ثم عزل بنظر الخزانة بمصر ، فانه رتب له معلوم وافر يكفيه ويفضل عنه ، ففرح بذلك من يحبه .

وفى يوم الأحد السابع عشر من ربيع الآخر توفى الرئيس أمين الدين محمد بن الصدر جمال الدين أحمد بن الرئيس شرف الدين محمد بن القلانسى ، أحد من بقى من رؤساء البلد وكبرائها ، وقد كان باشر مباشرات كبار كأبيه وعمه علاء الدين ، ولكن فاق هذا على أسلافه فانه باشر وكالة المال مدة ، وولى قضاء العساكر أيضا ، ثم ولى كتابة السر مع مشيخة الشيوخ وتدريس الناصرية والشامية الجوانية ، وكان قد درس فى العصرونية من قبل سنة ست وثلاثين ، ثم لما قدم السلطان فى السنة الماضية عزل عن مناصبه الكبار ، وصودر بمبلغ كثير يقارب مائتى ألف ، فباع كثيراً من أملاكه وما بقى بيده من وظائفه شىء ، وبقى خاملا مدة إلى يومه هذا ، فتوفى بغتة ، وكان قد تشوش قليلا لم يشعر به أحد ، وصلى عليه العصر بجامع دمشق ، وخرجوا به من باب الناطفانيين إلى تربتهم التى بسفح قاسيون رحمه الله .

وفى صبيحة يوم الاثنين ثامن عشره ، خلع على القاضى جمال الدين بن قاضى القضاة شرف الدين الكفرى الحنفى ، وجعل مع أبيه شريكا فى القضاء ولقب فى التوقيع الوارد صحبة البريد من جهة السلطان « قاضى القضاة » فلبس الخلعة بدار السعادة وجاء ومعه قاضى القضاة تاج الدين السبكى

إلى النورية فقعد فى المسجد ووضعت الربعة فقرئت وقرىء القرآن ولم يكن درساً . وجاءت الناس للتهنئة بما حصل من الولاية له مع أبيه .

وفى صبيحة يوم الثلاثاء توفى الشيخ الصالح العابد الناسك الجامع فتح الدين بن الشيخ زين الدين الفارقى ، إمام دار الحديث الأشرفية . وخازن الأثر بها ، ومؤذن فى الجامع . وقد أتت عليه تسعون سنة فى خير وصيانة وتلاوة وصلاة كثيرة وانجماع عن الناس . صلى عليه صبيحة يومئذ . وخرج به من باب النصر إلى نحو الصالحية رحمه الله .

وفى صبيحة يوم الاثنين عاشر جمادى الأولى ورد البريد وهو قرابغاد وادار نائب الشام الصغير ومعه تقليد بقضاء قضاة الحنفية للشيخ جمال الدين يوسف بن قاضى القضاة شرف الدين الكفرى ، بمقتضى نزول أبيه له عن ذلك . ولبس الخلعة بدار السعادة وأجلس تحت المالكى . ثم جاؤا إلى المقصورة من الجامع وقرىء تقليده هنالك . قرأه شمس الدين بن السبكى نائب الحسبة ، واستناب اثنين من أصحابهم وهما شمس الدين بن منصور ، وبدر الدين بن الخراش ، ثم جاء معه إلى النورية فدرس بها ولم يحضره والده بشىء من ذلك انتهى والله أعلم .

﴿ موت الخليفة المعتضد بالله ﴾

كان ذلك فى العشر الأوسط من جمادى الأولى بالقاهرة . وصلى عليه يوم الخميس ، أخبرنى بذلك قاضى القضاة تاج الدين الشافعى ، عن كتاب أخيه الشيخ بهاء الدين رحمهما الله .

﴿ خلافة المتوكل على الله ﴾

ثم بويع بعده ولده المتوكل على الله على أبو عبد الله محمد بن المعتضد أبى بكر أبى الفتح بن المستكفى بالله أبى الربيع سليمان بن الحاكم بأمر الله أبى العباس أحمد رحم الله أسلافه .

وفى جمادى الأولى توجه الرسول من الديار المصرية ومعه صناجق خليفية وسلطانية وتقاليد وخلع وتحف لصاحبى الموصل وسنجار من جهة صاحب مصر ليخطب له فيهما ، وولى قاضى القضاة تاج الدين الشافعى السبكى الحاكم بدمشق لقاضيهما من جهته تقليدين . حسب ما أخبرنى بذلك . وأرسلا مع ماأرسل به السلطان إلى البلدين ، وهذا أمر غريب لم يقع مثله فيما تقدم فيما أعلم والله أعلم .

وفى جمادى الآخرة خرج نائب السلطنة إلى مرج الفسولة ومعه حجبته ونقباء النقباء ، وكاتب السر وذووه . ومن عزمهم الاقامة مدة . فقدم من الديار المصرية أمير على البريد فأسرعوا الأوبة فدخلوا فى صبيحة الأحد الحادى والعشرين منه ، وأصبح نائب السلطنة فحضر الموكب على العادة ، وخلع على الأمير سيف الدين يلبغا الصالحى ، وجاء النص من الديار المصرية بخلعة دوادار عوضاً عن سيف الدين كحلن ، وخلع فى هذا اليوم على الصدر شمس الدين بن مرقى بتوقيع الدست . وجهات

أخر ، قدم بها من الديار المصرية ، فانتشر الخبر فى هذا اليوم باجلاس قاضى القضاة شمس الدين الكفرى الحنفى ، فوق قاضى القضاة المالكية ، لكن لم يحضر فى هذا اليوم ، وذلك بعد ما قد أمر باجلاس المالكى فوقه .

وفى ثانى رجب توفى القاضى الامام العالم شمس الدين بن مفلح المقدسى الحنبلى ، نائب مشيخة قاضى القضاة جمال الدين يوسف بن محمد المقدسى الحنبلى ، وزوج ابنته ، وله منها سبعة أولاد ذكور وإناث ، وكان بارعاً فاضلا متفنناً فى علوم كثيرة ، ولا سيما علم الفروع ، كان غاية فى نقل مذهب الامام أحمد ، وجمع مصنفات كثيرة منها كتاب المقنع نحواً من ثلاثين مجلداً كما أخبرنى بذلك عنه قاضى القضاة جمال الدين ، وعلق على محفوظة أحكام الشيخ مجد الدين بن تيمية مجلدين ، وله غير ذلك من الفوائد والتعليقات رحمه الله ، توفى عن نحو خمسين سنة ، وصلى عليه بعد الظهر من يوم الخميس ثانى الشهر بالجامع المظفرى ، ودفن بمقبرة الشيخ الموفق ، وكانت له جنازة حافلة حضرها القضاة كلهم ، وخلق من الأعيان رحمه الله وأكرم مثواه .

وفى صبيحة يوم السبت رابع رجب ضرب نائب السلطنة جماعة من أهل قبر عاتكة أساؤا الأدب على النائب ومماليكه ، بسبب جامع للخطبة جدد بناحيتهم ، فأراد بعض الفقراء أن يأخذ ذلك الجامع ويجعله زاوية للرقاصين ، فحكم القاضى الحنبلى بجعله جامعاً قد نصب فيه منبر ، وقدقدم شيخ الفقراء على يديه مرسوم شريف بتسليمه إليه، فأنفت أنفس أهل تلك الناحية من عوده زاوية بعد ما كان جامعا ، وأعظموا ذلك ، فتكلم بعضهم بكلام سيء ، فاستحضر نائب السلطنة طائفة منهم وضربهم بالمقارع بين يديه ، ونودى عليهم فى البلد ، فأراد بعض العامة إنكاراً لذلك ، وحدد ميعاد حديث يقرأ بعد المغرب تحت قبة النسر على الكرسى الذى يقرأ عليه المصحف ، رتبه أحد أولاد القاضى عماد الدين بن الشيرازى ، وحدث فيه الشيخ عماد الدين بن السراج ، واجتمع عنده خلق كثير وجم غفير ، وقرأ فى السيرة النبوية من خطى ، وذلك فى العشر الأول من هذا الشهر .

﴿ أعجوبة من العجائب ﴾

وحضر شاب عجمى من بلاد تبريز وخراسان يزعم أنه يحفظ البخارى ومسلما وجامع المسانيد والكشاف للزمخشرى وغير ذلك من محاضيرها ، فى فنون أخر ، فلما كان يوم الأربعاء سلخ شهر رجب قرأ فى الجامع الأموى بالحائط الشمالى منه ، عند باب الكلاسة من أول صحيح البخارى إلى أثناء كتاب العلم منه ، من حفظه وأنا أقابل عليه من نسخة بيدى ، فأدى جيداً ، غير أنه يصحف بعضا من الكلمات لعجم فيه ، وربما لحن أيضا فى بعض الأحيان ، واجتمع خلق كثير من العامة والخاصة وجماعة من المحدثين ، فأعجب ذلك جماعة كثيرين ، وقال آخرون منهم إن سرد بقية

الكتاب على هذا المنوال لعظيم جداً . فاجتمعنا فى اليوم الثانى وهو مستهل شعبان فى المكان المذكور . وحضر قاضى القضاة الشافعى وجماعة من الفضلاء ، واجتمع العامة محدقين فقرأ على العادة غير أنه لم يطول كأول يوم ، وسقط عليه بعض الأحاديث . وصحف ولحن فى بعض الألفاظ ، ثم جاء القاضيان الحنفى والمالكى فقرأ بحضرتهما أيضا بعض الشىء . هذا والعامة محتفون به متعجبون من أمره ، ومنهم من يتقرب بتقبيل يديه ، وفرح بكتابتى له بالسماع على الاجازة ، وقال : أنا ما خرجت من بلادى إلا إلى القصد إليك ، وأن تجيزنى ، وذكرك فى بلادنا مشهور ، ثم رجع إلى مصر ليلة الجمعة وقد كارمه القضاة والأعيان بشىء من الدراهم يقارب الألف .

﴿ عزل الأمير على عن نيابة دمشق المحروسة ﴾

فى يوم الأحد حادى عشر شعبان ورد البريد من الديار المصرية وعلى يديه مرسوم شريف بعزل الأمير على عن نيابة دمشق ، فأحضر الأمراء إلى دار السعادة وقرىء المرسوم الشريف عليهم بحضوره . وخلع عليه خلعة وردت مع البريد . ورسم له بقرية دومة وأخرى فى بلاد طرابلس على سبيل الراتب . وأن يكون فى أى البلاد شاء من دمشق أو القدس أو الحجاز ، فانتقل من يومه من دار السعادة وبباقى أصحابه ومماليكه ، واستقر نزوله فى دار الخليلى بالقصاعين التى جددها وزاد فيها دويداره يلبغا ، وهى دار هائلة . وراح الناس للتأسف عليه والحزن له انتهى .

﴿ سفر قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب ابن السبكى الشافعى ﴾
﴿ مطلوبا إلى الديار المصرية معزولا عن قضاء دمشق ﴾

ورد البريد بطلبه من آخر نهار الأحد بعد العصر الحادى عشر من شعبان سنة ثلاث وستين وسبعمائة ، فأرسل إليه حاجب الحجاب قمارى وهونائب الغيبة أن يسافر من يومه ، فاستنظرهم إلى الغد فأمهل ، وقد ورد الخبر بولاية أخيه الشيخ بهاء الدين بن السبكى بقضاء الشام عوضا عن أخيه تاج الدين . وأرسل يستنيب ابن أختهما قاضى القضاة تاج الدين فى التأهب والسير ، وجاء الناس إليه ليودعوه ويستوحشون له ، وركب من بستانه بعد العصر يوم الاثنين ثانى عشر شعبان ، متوجها على البريد إلى الديار المصرية ، وبين يديه قضاة القضاة والأعيان . حتى قاضى القضاة بهاء الدين أبو البقاء السبكى ، حتى ردهم قريبا من الجسورة ومنهم من جاوزها والله المسؤل فى حسن الخاتمة فى الدنيا والآخرة ، انتهى والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .

﴿ أعجوبة أخرى غريبة ﴾

لما كان يوم الثلاثاء العشرين من شعبان دعيت إلى بستان الشيخ العلامة كمال الدين بن الشريشى شيخ الشافعية وحضر جماعة من الأعيان منهم الشيخ العلامة شمس الدين بن الموصلى

الشافعى ، والشيخ الأمام العلامة صلاح الدين الصفدى ، وكيل بيت المال ، والشيخ الامام العلامة شمس الدين الموصلى الشافعى ، والشيخ الامام العلامة مجدالدين محمد بن يعقوب الشيرازى من ذرية الشيخ أبى إسحق الفيروزابادى ، من أئمة اللغويين ، والخطيب الامام العلامة صدر الدين بن العز الحنفى أحد البلغاء الفضلاء ، والشيخ الامام العلامة نور الدين على بن الصارم أحد القراء المحدثين البلغاء ، وأحضروا نيفا وأربعين مجلداً من كتاب المنتهى فى اللغة للتميمى البرمكى ، وقف الناصرية وحضر ولد الشيخ كمال الدين بن الشريشى ، وهو العلامة بدر الدين محمد ، واجتمعنا كلنا عليه ، وأخذ كل منا مجلداً بيده من تلك المجلدات ، ثم أخذنا نسأله عن بيوت الشعر المستشهد عليها بها ، فينشر كلا منها ويتكلم عليه بكلام مبين مفيد ، فجزم الحاضرون والسامعون أنه يحفظ جميع شواهد اللغة ولايشذعنه منها إلا القليل الشاذ ، وهذا من أعجب العجائب ، وأبلغ الاعراب .

﴿ دخول نائب السلطنة سيف الدين تشتمر ﴾

وذلك فى أوائل رمضان يوم السبت ضحى والحجبة بين يديه والجيش بكماله ، فتقدم إلى سوق الخيل فأركب فيه ثم جاء ونزل عند باب السر ، وقبل العتبة ثم مشى إلى دار السعادة والناس بين يديه ، وكان أول شىء حكم فيه أن أمر بصلب الذى كان قتل بالأمس والى الصالحية ، وهوذاهب إلى صلاة الجمعة ، ثم هرب فتبعه الناس فقتل منهم آخر وجرح آخرين ثم تكاثروا عليه فمسك ، ولما صلب طافوا به على جمل إلى الصالحية فمات هناك بعد أيام ، وقاسى أمراً شديداً من العقوبات ، وقد ظهر بعد ذلك على أنه قتل خلقاً كثيراً من الناس قبحه الله .

﴿ قدوم قاضى القضاة بهاء الدين أحمد بن قاضى القضاة تقى الدين عوضاً عن أخيه قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب ﴾

قدم يوم الثلاثاء قبل العصر فبدأ بملك الأمراء فسلم عليه ، ثم مشى إلى دار الحديث فصلى هناك ثم مشى إلى المدرسة الركنية فنزل بها عند ابن أخيه قاضى القضاة بدر الدين بن أبى الفتح ، قاضى العساكر ، وذهب الناس للسلام عليه وهو يكره من يلقبه بقاضى القضاة ، وعليه تواضع وتقشف ، ويظهر عليه تأسف على مفارقة بلده ووطنه وولده وأهله ، والله المسئول المأمول أن يحسن العاقبة .

وخرج المحمل السلطانى يوم الخميس ثامن عشر شوال ، وأمير الحاج الملك صلاح الدين بن الملك الكامل بن السعيد العادل الكبير ، وقاضيه الشيخ بهاء الدين بن سبع مدرس الأمينية ببعلبك وفى هذا الشهر وقع الحكم بما يخص المجاهدين من وقف المدرسة التقوية إليهم ، وأذن القضاة الأربعة إليهم بحضرة ملك الأمراء فى ذلك .

وفى ليلة الأحد ثالث شهر ذى القعدة توفى القاضى ناصر الدين محمد بن يعقوب كاتب السر ،

وشيخ الشيوخ ومدرس الناصرية الجوانيـة والشامية الجوانية بدمشق ، ومدرس الأسدية بحلب ، وقد باشر كتابة السر بحلب أيضاً ، وقضاء العساكر وأفتى بزمان ولاية الشيخ كمال الدين الزملكانى قضاء حلب ، أذن له هنالك فى حدود سنة سبع وعشرين وسبعمائة ، ومولده سنة سبع وسبعمائة ، وقد قرأ التنبيه ومختصر ابن الحاجب فى الأصول ، وفى العربية ، وكان عنده نباهة وممارسة للعلم ، وفيه جودة طباع وإحسان بحسب ما يقدر عليه ، وليس يتوسم منه سوء ، وفيه ديانة وعفة ، حلف لى فى وقت بالأيمان المغلظة أنه لم يمكن قط منه فاحشة اللواط ولا خطر له ذلك ، ولم يزن ولم يشرب مسكراً ولا أكل حشيشة ، فرحمه الله وأكرم مثواه ، صلى عليه بعد الظهر يومئذ وخرج بالجنازة من باب النصر فخرج نائب السلطنة من دار السعادة فحضر الصلاة عليه هنالك ، ودفن بمقبرة لهم بالصوفية وتأسفوا عليه وترحموا ، وتزاحم جماعة من الفقهاء بطلب مدارسه انتهى .

﴿ ثم دخلت سنة أربع وستين وسبعمائة ﴾

استهلت هذه السنة وسلطان الاسلام بالديار المصرية والشامية والحجازية وما يتبعهما من الاقاليم والرساتيق الملك المنصور صلاح الدين محمـد بن الملك المنصور المظفرى حاجى بن الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون الصالحى ، ومدبر الممالك بين يديه ، وأتابك العساكر سيف الدين يلبغا ، وقضاة مصر هم المذكورون فى التى قبلهـا ، غير أن ابن جماعة قاضى الشـافعيـة وموفق الدين قاضى الحنابلة فى الحجاز الشريف ، ونائب دمشق الأمـير سيف الدين قشتمر المنصورى ، وقاضى قضاة الشافعية الشيخ بهاء الدين ابن قاضى القضاة تقى الدين السـبكى ، وأخوه قاضى القضاة تاج الدين مقيم بمصر ، وقاضى قضاة الحنفيـة الشيخ جمال الدين ابن قاضى القضـاة شرف الدين الـكفرى ، آثره والده بالمنصب وأقام على تدريس الركنيـة يتعبـد ويتلو ويجمع عـلى العبادة ، وقاضى قضاة المالـكية جمال الدين المسلاتى ، وقاضى قضاة الحنابلة الشيخ جمـال الدين المرداوى محمود بن جملة ، ومحتسب البلد الشيخ عماد الدين بن الشيرجى ، وكاتب السر جمال الدين عبد الله بن الأثير ، قدم من الديار المصرية عوضاً عن ناصر الدين بن يعقوب ، وكان قدومه يوم سلخ السـنة الماضية ، وناظر الدواوين بدر الدين حسن بن النابلسى ، وناظر الخزانة القاضى تقى الدين بن مراجل . ودخل المحمل السلطانى يوم الجمعة الثانى والعشرين من المحرم بعد العصر خوفا من المطر ، وكان وقع مطر شديد قبل أيام ، فتلف منه غلات كثيرة بحوران وغيرها ، ومشاطيخ وغير ذلك ، فانا لله وإنا إليه راجعون .

وفى ليلة الأربعاء السابع والعشرين منه بعـد عشاء الآخرة قبل دقة القلعة دخـل فارس من ناحية باب الفرج إلى ناحية باب القلعة الجوانية ، ومن ناحية الباب المذكور سلسلة ، ومن ناحية باب النصر أخرى جـددتا لئلا يمر راكب على باب القلعة المنصورة ، فساق هذا الفارس المذكور عـلى

السلسلة الواحدة فقطعها ، ثم مر على الأخرى فقطعها وخرج من باب النصر ولم يعرف لأنه ملثم . وفى حادى عشر صفر وقبله بيوم قدم البريد من الديار المصرية بطلب الأمير سيف الدين زبالة أحد أمراء الألوف إلى الديار المصرية مكرما ، وقد كان عزل عن نيابة القلعة بسبب ماتقدم، وجاء البريد أيضاً ومعه التواقيع التى كانت بأيدى ناس كثير ، زيادات على الجامع ، ردت إليهم وأقروا على ما بأيديهم من ذلك ، وكان ناظر الجامع الصاحب تقى الدين بن مراجل قدسعى برفع مازيد بعد التذكرة التى كانت فى أيام صرغتمش ، فلم يف ذلك ، وتوجه الشيخ بهاء الدين بن السبكى قاضى قضاة الشام الشافعى من دمشق إلى الديار المصرية يوم الأحد سادس عشر صفر من هذه السنة ، وخرج القضاة والأعيان لتوديعه ، وقد كان أخبرنا عند توديعه بأن أخاه قاضى القضاة تاج الدين قد لبس خلعة القضاء بالديار المصرية ، وهو متوجه إلى الشام عند وصوله إلى ديار مصر ، وذكرلنا أن أخاه كاره للشام . وأنشدنى القاضى صلاح الدين الصفدى ليلة الجمعة رابع عشره لنفسه فيما عكس عن المتنبي فى يديه من قصيدته وهو قوله :

إذا اعتاد الفتى خوض المنايا ■ فأيسر مايمر به الوصول

وقال دخول دمشق يكسبنا نحولا * كأن لها دخولا فى البرايا

إذا اعتاد الغريب الخوض فيها * فأيسر ما يمر به المنايا

وهذا شعر قوى ، وعكس جلى ، لفظاً ومعنى .

وفى ليلة الجمعة الحادى والعشرين من صفر عملت خيمة حافلة بالمارستان الدقاقى جوار الجامع ، بسبب تكامل تجديده قريب السقف مبنيا باللبن ، حتى قناطره الأربع بالحجارة البلق ، وجعل فى أعاليه قمريات كبار مضيئة ، وفتق فى قبلته إيوانا حسنا زاد فى أعماقه أضعاف ما كان ، و بيضه جميعه بالجص الحسن المليح ، وجددت فيه خزائن ومصالح ، وفرش ولحف جدد ، وأشياء حسنة ، فأثابه الله وأحسن جزاءه آمين ، وحضر الخيمة جماعات من الناس من الخواص والعوام ، ولما كانت الجمعة الأخرى دخله نائب السلطنة بعد الصلاة فأعجبه ما شاهده من العمارات ، وأخبره بما كانت عليه حاله قبل هذه العمارة ، فاستجاد ذلك من صنيع الناظر .

وفى أول ربيع الآخر قدم قاضى القضاة تاج الدين السبكى من الديار المصرية على قضاء الشام عوداً على بدء يوم الثلاثاء رابع عشره فبدأ بالسلام على نائب السلطنة بدار السعادة ، ثم ذهب إلى دار الأمير على بالقصاعين فسلم عليه ، ثم جاء إلى العادلية قبل الزوال ، ثم جاءه الناس من الخاص والعام يسلمون عليه و يهنونه بالعود ، وهو يتودد و يترحب بهم . ثم لما كان صبيح يوم الخميس سادس عشره لبس الخلعة بدار السعادة ثم جاء فى أبهة هائلة لابسها إلى العادلية فقرئ تقليده بها بحضرة

القضاة والأعيان وهنأه الناس والشعراء والمداح .

وأخبر قاضى القضاة تاج الدين بموت حسين بن الملك الناصر ، ولم يكن بقى من بنيه لصلبه سواه ، ففرح بذلك كثير من الأمراء وكبار الدولة ، لما كان فيه من حدة وارتكاب أمور منكرة . وأخبر بموت القاضى فخر الدين سليمان بن القاضى عماد الدين بن الشيرجى ، وقد كان اتفق له من الأمر أنه قلدحسبة دمشق عوضا عن أبيه ، نزل له عنها باختياره لكبره وضعفه ، وخلع عليه بالديار المصرية ، ولم يبق إلا أن يركب على البريد فتمرض يوما وثانيا وتوفى إلى رحمة الله تعالى ، فتألم والده بسبب ذلك تألما عظيما ، وعزاه الناس فيه ، و وجدته صابراً محتسبا باكيا مسترجعا موجعا انتهى .

﴿ بشارة عظيمة بوضع الشطر من مكس الغنم ﴾

مع ولاية سعد الدين ماجد بن التاج إسحاق من الديار المصرية على نظر الدواوين قبله ، ففرح الناس بولاية هذا وقدومه ، و بعزل الاول وانصرافه عن البلد فرحا شديدا ، ومعه مرسوم شريف بوضع نصف مكس الغنم ، وكان عبرته أربعة دراهم ونصف ، فصار إلى درهمين و ربع درهم ، وقد نودى بذلك فى البلد يوم الاثنين العشرين من شهر ربيع الآخر ، ففرح الناس بذلك فرحا شديداً ، ولله الحمد والمنة ، وتضاعفت أدعيتهم لمن كان السبب فى ذلك، وذلك أنه يكثر الجلب برخص اللحم على الناس ، و يأخذ الديوان نظير ما كان يأخذ قبل ذلك ، وقدر الله تعالى قدوم وفود وقفول بتجائر متعددة ، وأخذ منها الديوان السلطانى فى الزكاة والوكالة ، وقدم مراكب كثيرة فأخذ منها فى العشر أضعاف ما أطلق من المكس ، ولله الحمد والمنة . ثم قرىء على الناس فى يوم الجمعة بعد صلاة الجمعة قبل العصر .

وفى يوم الاثنين العشرين منه ضرب الفقيه شمس الدين بن الصفدى بدار السعادة بسبب خانقاه الطواويس ، فانه جاء فى جماعة منهم يتظلمون من كاتب السر الذى هو شيخ الشيوخ ، وقد تكلم معهم فيما يتعلق بشرط الواقف مما فيه مشقة عليهم ، فتكلم الصفدى المذكور بكلام فيه غلظ ، فبطح ليضرب فشفع فيه ، ثم تكلم فشفع فيه ، ثم بطح الثالثة فضرب ثم أمر به إلى السجن ، ثم أخرج بعد ليلتين أو ثلاثة .

وفى صبيحة يوم الأحد السادس والعشرين منه درس قاضى القضاة الشافعى بمدارسه ، وحضر درس الناصرية الجوانية بمقتضى شرط الواقف الذى أثبته أخوه بعد موت القاضى ناصر الدين كاتب السر ، وحضر عنده جماعة من الأعيان و بعض القضاة ، وأخذ فى سورة الفتح ، قرىء عليه من تفسير والده فى قوله (إنا فتحنا لك فتحاً مبينا) .

وفى مستهل جمادى الأولى يوم الجمعة بعد صلاة الفجر مع الامام الكبير صلى على القاضى

قطب الدين محمد بن الحسن الحاكم بحمص ، جاء إلى دمشق لتلقى أخى زوجته قاضى القضاة تاج الدين السبكى الشافعى ، فتمرض من مدة ثم كانت وفاته بدمشق ، فصلى عليه بالجامع كما ذكرنا ، وخارج باب الفرج ، ثم صعدوا به إلى سفح جبل قاسيون ، وقد جاوز الثمانين بسنتين ، وقد حدث وروى شيئا يسيراً رحمه الله .

وفى يوم الأحد ثالثه قدم قاضيا الحنفية والحنابلة بحلب والخطيب بها والشيخ شهاب الدين الاذرعى ، والشيخ زين الدين البارينى وآخرون معهم ، فنزلوا بالمدرسة الاقبالية وهم وقاضى قضاتهم الشافعى ، وهو كمال الدين المصرى مطلوبون إلى الديار المصرية ، فتحرر ما ذكروه عن قاضيهم وما نقموه عليه من السيرة السيئة فيما يذكرون فى المواقف الشريفة بمصر ، وتوجهوا إلى الديار المصرية يوم السبت عاشره .

وفى يوم الخميس قدم الأمير زين الدين زبالة نائب القلعة من الديار المصرية على البريد فى تجمل عظيم هائل ، وتلقاه الناس بالشموع فى أثناء الطريق ، ونزل بدار الذهب ، وراح الناس للسلام عليه وتهنئته بالعود إلى نيابة القلعة ، على عادته ، وهذه ثالث مرة وليها لأنه مشكور السيرة فيها ، وله فيها سعى محمود فى أوقات متعددة .

وفى يوم الخميس الحادى والعشرين صلى نائب السلطنة والقاضيان الشافعى والحنفى وكاتب السر وجماعة من الأمراء والأعيان بالمقصورة وقرئ كتاب السلطان على السدة بوضع مكس الغنم إلى كل رأس بدرهمين ، فتضاعفت الأدعية لولى الأمر ، ولمن كان السبب فى ذلك .

﴿ غريبة من الغرائب وعجيبة من العجائب ﴾

وقد كثرت المياه فى هذا الشهر وزادت الانهار زيادة كثيرة جدا ، بحيث إنه فاض الماء فى سوق الخيل من نهر بردى حتى عم جميع العرصة المعروفة بموقف الموكب ، بحيث إنه أجريت فيه المراكب بالسكالك ، وركبت فيه المارة من جانب إلى جانب ، واستمر ذلك جمعا متعددة ، وامتنع نائب السلطنة والجيش من الوقوف هناك ، وربما وقف نائب السلطنة بعض الأيام تحت الطارمة تجاه باب الاسطبل السلطانى ، وهذا أمر لم يعهد مثله ولا رأيته قط فى مدة عمرى ، وقد سقطت بسبب ذلك بنايات ودور كثيرة ، وتعطلت طواحين كثيرة غمرها الماء .

وفى ليلة الثلاثاء العشرين من جمادى الأولى توفى الصدر شمس الدين عبد الرحمن ابن الشيخ عز الدين بن منجى التنوخى بعد العشاء الآخرة ، وصلى عليه بجامع دمشق بعد صلاة الظهر ، ودفن بالسفح . وفى صبيحة هذا اليوم توفى الشيخ ناصر الدين محمد بن أحمد القونوى الحنفى ، خطيب جامع يلبغا ، وصلى عليه عقيب صلاة الظهر أيضا ، ودفن بالصوفية ، وقد باشر عوضه الخطابة والامامة

قاضى القضاة كمال الدين الكفرى الحنفى . وفى عصر هذا اليوم توفى القاضى علاء الدين بن القاضى شرف الدين بن القاضى شمس الدين بن الشهاب محمود الحلبي ، أحد موقعى الدست بدمشق ، وصلى عليه يوم الأربعاء ودفن بالسفح .

وفى يوم الجمعة الثالث والعشرين منه خطب قاضى القضاة جمال الدين الكفرى الحنفى بجامع يلبغا عوضا عن الشيخ ناصر الدين بن القونوى رحمه الله تعالى ، وحضر عنده نائب السلطنة الامير سيف الدين قشتمر ، وصلى معه قاضى القضاة تاج الدين الشافعى بالشباك الغربى القبلى منه ، وحضر خلق من الامراء والأعيان ، وكان يوما مشهوداً ، وخطب ابن نباتة بأداء حسن وفصاحة بليغة ، هذا مع علم أن كل مركب صعب . وفى يوم السبت خامس عشر جمادى الآخرة توجه الشيخ شرف الدين القاضى الحنبلى إلى الديار المصرية بطلب الامير سيف الدين يلبغا فى كتاب كتبه إليه يستدعيه ويستحثه فى القدوم عليه .

وفى يوم الثلاثاء ثانى شهر رجب سقط اثنان سكارى من سطح بحارة اليهود ، أحدهما مسلم والآخر يهودى ، فمات المسلم من ساعته وانقلعت عين اليهودى وانكسرت يده لعنه الله ، وحمل إلى نائب السلطنة فلم يحر جوابا .

ورجع الشيخ شرف الدين بن قاضى الجبل بعد ما قارب غزة لما بلغه من الوباء بالديار المصرية فعاد إلى القدس الشريف ، ثم رجع إلى وطنه فأصاب السنة ، وقد وردت كتب كثيرة تخبر بشدة الوباء والطاعون بمصر ، وأنه يضبط من أهلها فى النهار نحو الألف ، وأنه مات جماعة ممن يعرفون كولدى قاضى القضاة تاج الدين المناوى ، وكاتب الحكم ابن الفرات ، وأهل بيته أجمعين ، فانا لله وإنا إليه راجعون .

وجاء الخبر فى أواخر شهر رجب بموت جماعة بمصر منهم أبو حاتم ابن الشيخ بهاء الدين السبكى المصرى بمصر ، وهو شاب لم يستكمل العشرين ، وقد درس بعدة جهات بمصر وخطب ، ففقده والده وتأسف الناس عليه وعزوا فيه عمه قاضى القضاة تاج الدين السبكى قاضى الشافعية بدمشق ، وجاء الخبر بموت قاضى القضاة شهاب الدين أحمد الرباجى المالكى ، كان بحلب وليها مرتين ثم عزل فقصد مصر واستوطنها مدة ليتمكن من السعى فى العودة فأدركته منيته فى هذه السنة من الفناء وولدان له معه أيضا . وفى يوم السبت سادس شعبان توجه نائب السلطنة فى صحبة جمهور الأمراء إلى ناحية تدمر لأجل الأعراب من أصحاب خيار بن مهنا ، ومن التف عليه منهم ، وقد دمر بعضهم بلد تدمر وحرقوا كثيراً من أشجارها ، ورعوها وانتهبوا شيئا كثيراً ، وخرجوا من الطاعة ، وذلك بسبب قطع إقطاعاتهم وتملك أملاكهم والحيلولة عليهم ، فركب نائب السلطنة بمن معه كما ذكرنا ،

لطردهم عن تلك الناحية ، وفى صحبتهم الأمير حمزة ابن الخياط ، أحـد أمراء الطبلخانات ، وقد كان حاجبا لخيار قبل ذلك ، فرجع عنه وألب عليه عند الامير الكبير يلبغا الخاصكى ، ووعده إن هو أمره وكبره أن يظفره بخيـار وأن يأتيه برأسه ، ففعل معه ذلك ، فقدم إلى دمشق ومعه مرسوم بركوب الجيش معه إلى خيار وأصحابه ، فساروا كما ذكرنا ، فوصلوا إلى تدمر ، وهربت الأعـراب من بين يدى نائب الشام يمينا وشمالا ، ولم يواجهوه هيبة له ، ولـكنهم يتحرفون عـلى حمزة بن الخياط ، ثم بلغنا أنهم بيتوا الجيش فقتلوا منه طائفة وجرحوا آخرين وأسروا آخرين ، فانا لله وإنا إليه راجعون .

﴿ سلطنة الملك الأشرف ناصرالدين ﴾

« شعبان بن حسن بن الملك الناصر محمد بن قلاوون فى يوم الثلاثاء خامس عشر شعبان »

لما كان عشية السبت تاسع عشر شـعبان من هذه السنة ـ أعنى سنة أربع وستين وسبعمائة ـ قدم أمير من الديار المصرية فنزل بالقصر الأبلق ، وأخـبر بزوال مملكة الملك المنصور بن المظفر حاجى بن الملك الناصر محمد بن قلاوون ، ومسك واعتقل . وبويع للملك الأشرف شعبان بن حسين الناصر بن المنصور قلاوون ، وله من العمر قريب العشرين ، فدقت البشائر بالقلعة المنصورة ، وأصبح الناس يوم الأحد فى الزينة . وأخبرنى قاضى القضاة تاج الدين والصاحب سعد الدين ماجد ناظر الدواوين ، أنه لما كان يوم الثلاثاء الخامس عشر من شعبان عزل الملك المنصور وأودع منزله وأجلس الملك الأشرف ناصر الدين شعبان على سرير الملك ، وبويع لذلك ، وقد وقع رعد فى هذا اليوم ومطر كثير ، وجرت المزاريب ، فصار غـدرانا فى الطرقات ، وذلك فى خامس حزيران ، فتعجب الناس من ذلك ، هذا وقد وقع وباء فى مصر فى أول شعبان ، فتزايد وجمهوره فى اليهود ، وقد وصلوا إلى الخمسين فى كل يوم وبالله المستعان .

وفى يوم الاثنين سابعه اشتهر الخبر عن الجيش بأن الاعـراب اعترضوا التجريدة القاصدين إلى الرحبـة و واقفوهم وقتلوا منهم ونهبوا وجرحوا ، وقد سار البريد خلف النائب والأمراء ليقدموا إلى البلد لأجل البيعة للسلطان الجديد ، جعله الله مباركا على المسلمين ، ثم قدم جماعـة من الأمراء المنهزمين من الأعراب فى أسوإ حال وذلة ، ثم جاء البريد من الديار المصرية بردهم إلى العسكر الذى مع نائب السلطنة على تدمر ، متوعدين بأنواع العقوبات ، وقطع الاقطاعات . وفى شهر رمضان تفاقم الحال بسبب الطاعون فانا لله وإنا إليه راجعون ، وجمهوره فى اليهود لعله قد فقـد منهم من مستهل شعبان إلى مستهل رمضان نحو الألف نسمة خبيثة ، كما أخبرنى بذلك القاضى صلاح الدين الصفدى وكيل بيت المال ، ثم كثر ذلك فيهم فى شهر رمضان جداً ، وعدة العدة من المسلمين والذمة بالثمانين.

وفى يوم السبت حادى عشره صلينا بعد الظهر على الشيخ المعمر الصدر بدر الدين محمد ابن

الرقاق المعروف بابن الجوجى ، وعلى الشيخ صلاح الدين محمد بن شاكر الليثى ، تفرد فى صناعته وجمع تاريخاً مفيدا نحواً من عشر مجلدات ، وكان يحفظ ويذاكر ويفيد رحمه الله وسامحه ، انتهى .

﴿ وفاة الخطيب جمال الدين محمود بن جملة ﴾

، الحجى الشافعى ومباشرة قاضى القضاة تاج الدين الشافعى بعده ،

كانت وفاته يوم الاثنين بعد الظهر قريباً من العصر ، فصلى بالناس بالمحراب صلاة العصر قاضى القضاة تاج الدين السبكى الشافعى عوضا عنه ، وصلى بالناس الصبح أيضا ، وقرأ بآخر المائدة من قوله (يوم يجمع الله الرسل) ثم لما طلعت الشمس وزال وقت الكراهة صلى على الخطيب جمال الدين عند باب الخطابة ، وكان الجمع فى الجامع كثيرا ، وخرج بجنازته من باب البريد ، وخرج معه طائفة من العوام وغيرهم ، وقد حضر جنازته بالصالحية على ما ذكر جم غفير وخلق كثير ، ونال قاضى القضاة الشافعى من بعض الجهلة إساءة أدب ، فأخذ منهم جماعة وأدبوا ، وحضر هو بنفسه صلاة الظهر يومئذ ، وكذا باشر الظهر والعصر فى بقية الأيام ، يأتى للجامع فى محفل من الفقهاء والأعيان وغيرهم ، ذهابا وإيابا ، وخطب عنه يوم الجمعة الشيخ جمال الدين بن قاضى القضاة ، و[منع] تاج الدين من المباشرة ، حتى يأتى التشريف .

وفى يوم الاثنين بعد العصر صلى على الشيخ شهاب الدين أحمد بن عبدالله البعلبكى ، المعروف بابن النقيب،ودفن بالصوفية وقد قارب السبعين وجاوزها ، وكان بارعا فى القراءات والنحو والتصريف والعربية ، وله يد فى الفقه وغير ذلك ، وولى مكانه مشيخة الاقراء بأم الصالح شمس الدين محمد بن اللبان ، وبالتربة الأشرفية الشيخ أمين الدين عبد الوهاب بن السلار ، وقدم نائب السلطنة من ناحية الرحبة وتدمر وفى صحبته الجيش الذين كانوا معه بسبب محاربته إلى [أولاد] مهنا وذويهم من الأعراب فى يوم الأربعاء سادس شوال .

وفى ليلة الأحد عاشره توفى الشيخ صلاح الدين خليل بن أيبك ، وكيل بيت المال ، وموقع الدست ، وصلى عليه صبيحة الأحد بالجامع ، ودفن بالصوفية ، وقد كتب الكثير من التاريخ واللغة والأدب ، وله الأشعار الفائقة ، والفنون المتنوعة ، وجمع وصنف وألف ، وكتب ما يقارب مئين من المجلدات.

وفى يوم السبت عاشره جمع القضاة والأعيان بدار السعادة وكتبوا خطوطهم بالرضى بخطابة قاضى القضاة تاج الدين السبكى بالجامع الأموى ، وكاتب نائب السلطنة فى ذلك .

وفى يوم الأحد حادى عشره استقر عزل نائب السلطنة سيف الدين قشتمر عن نيابة دمشق وأمر بالمسير إلى نيابة صفد فأنزل أهله بدار طيبغا حجى من الشرق الأعلى ، وبرز هو إلى سطح

المزة ذاهبا إلى ناحية صفد . وخرج المحمل صحبة الحجيج وهم جم غفير وخلق كثير يوم الخميس رابع عشر شوال .

وفى يوم الخميس الحادى والعشرين من شوال توفى القاضى أمين الدين أبو حيان ابن أخى قاضى القضاة تاج الدين المسلاتى المالكى وزوج ابنته ونائبه فى الحكم مطلقا وفى القضاء والتدريس فى غيبته ، فعاجلته المنية .

ومن غريب ما وقع فى أواخر هذا الشهر أنه اشتهر بين النساء وكثير من العوام أن رجلا رأى مناما فيه أنه رأى النبي ﷺ عند شجرة توتة عند مسجد ضرار خارج باب شرقى، فتبادر النساء إلى تخليق تلك التوتة ، وأخذوا أوراقها للاستشفاء من الوباء، ولكن لم يظهر صدق ذلك المنام ، ولا يصح عمن يرويه.

وفى يوم الجمعة سابع شهر ذى القعدة خطب بجامع دمشق قاضى القضاة تاج الدين السبكى خطبة بليغة فصيحة أداها أداء حسنا، وقد كان يحس من طائفة من العوام أن يشوشوا فلم يتكلم أحد منهم بل ضجوا عند الموعظة وغيرها ، وأعجبهم الخطيب وخطبته وأداؤه وتبليغه ومهابته ، واستمر يخطب هو بنفسه .

وفى يوم الثلاثاء ثامن عشره توفى الصاحب تقى الدين سليمان بن مراجل ناظر الجامع الأموى وغيره ، وقد باشر نظر الجامع فى أيام تنكز ، وعمر الجانب الغربى من الحائط القبلى ، وكمل رخامه كله ، وفتق محرابا للحنفية فى الحائط القبلى ، ومحرابا للحنابلة فيه أيضا فى غربيه ، وأثر أشياء كثيرة فيه ، وكانت له همة وينسب إلى أمانة وصرامة ومباشرة مشكورة مشهورة ، ودفن بتربة أنشأها تجاه داره بالقبيبات رحمه الله ، وقد جاوز الثمانين .

وفى يوم الأربعاء تاسع عشره توفى الشيخ بهاء الدين عبد الوهاب الأخميمى المصرى ، إمام مسجد درب الحجر ، وصلى عليه بعد العصر بالجامع الأموى ، ودفن بقصر ابن الحلاج عند الطيوريين بزاوية لبعض الفقراء الخزنة هناك ، وقد كان له يد فى أصول الفقه ، وصنف فى الكلام كتابا مشتملا على أشياء مقبولة وغير مقبولة ، انتهى .

﴿ دخول نائب السلطنة منكلى بغا ﴾

فى يوم الخميس السابع والعشرين من ذى القعدة دخل نائب السلطنة منكلى بغا من حلب إلى دمشق نائباً عليها فى تجمل هائل ، ولكنه مستمرض فى بدنه بسبب ما كان ناله من التعب فى مصابرة الأعراب ، فنزل دار السعادة على العادة . وفى يوم الاثنين مستهل ذى الحجة خلع على قاضى القضاه تاج الدين السبكى الشافعى للخطابة بجامع دمشق، واستمر على ما كان عليه يخطب بنفسه كل جمعة وفى يوم الثلاثاء ثانيه قدم القاضى فتح الدين بن الشهيد ولبس الخلعة وراح الناس لتهنئته

وفى يوم الخميس حضر القاضى فتح الدين بن الشهيد كاتب السر مشيخة السميساطية ، وحضر عنده القضاة والاعيان بعد الظهر . وخلع عليه لذلك أيضاً ، وحضر فيها من الغد على العادة ، وخلع فى هذا اليوم على وكيل بيت المال الشيخ جمال الدين بن الرهاوى وعلى الشيخ شهاب الدين الزهرى بفتيا دار العدل . انتهى . ﴿ ثم دخلت سنة خمس وستين وسبعمائة ﴾

استهلت هذه السنة وسلطان الديار المصرية والشامية والحرمين وما يتبع ذلك الملك الأشرف ناصر الدين شعبان بن سيدى حسين بن السلطان الملك الناصر محمد بن المنصور قلاوون الصالحى ، وهو فى عمر عشر سنين ، ومدبر الممالك بين يديه الأمير الكبير نظام الملك سيف الدين يلبغا الخاصكى . وقضاة مصرهم المذكورون فى السنة التى قبلها ، ووزيرها فخر الدين بن قزوينة . ونائب دمشق الأمير سيف الدين منكلى بغا الشمسى ، وهو مشكور السيرة . وقضاتها هم المذكورون فى السنة التى قبلها ، وناظر الدواوين بها الصاحب سعد الدين ماجد . وناظر الجيش علم الدين داود ، وكاتب السر القاضى فتح الدين بن الشهيد . ووكيل بيت المال القاضى جمال الدين بن الرهاوى .

استهلت هذه السنة وداء الفناء موجود فى الناس ، إلا أنه خف وقل ولله الحمد . وفى يوم السبت توجه قاضى القضاة - وكان بهاء الدين أبو البقاء السبكى - إلى الديار المصرية مطلوبا من جهة الأمير يلبغا وفى الكتاب إجابته له إلى مسائل ، وتوجه بعده قاضى القضاة تاج الدين الحاكم بدمشق وخطيبها يوم الاثنين الرابع عشر من المحرم ، على خيل البريد ، وتوجه بعدهما الشيخ شرف الدين ابن قاضى الجبل الحنبلى . مطلوبا إلى الديار المصرية ، وكذلك توجه الشيخ زين الدين المنفلوطى مطلوبا .

وتوفى فى العشر الأوسط من المحرم صاحبنا الشيخ شمس الدين بن العطار الشافعى . كان لديه فضيلة واشتغال ، وله فهم ، وعلق بخطه فوائد جيدة . وكان إماما بالسجن من مشهد على بن الحسين بجامع دمشق ، ومصدرا بالجامع ، وفقيها بالمدارس ، وله مدرسة الحديث الوادعية . وجاوز الخمسين بسنوات . ولم يتزوج قط . وقدم الركب الشامى إلى دمشق فى اليوم الرابع والعشرين من المحرم ، وهم شاكرون مثنون فى كل خير بهذه السنة أمنا ورخصا ولله الحمد .

وفى يوم الأحد حادى عشر صفر درس بالمدرسة الفتحية صاحبنا الشيخ عماد الدين إسماعيل بن خليفة الشافعى ، وحضر عنده جماعة من الأعيان والفضلاء ، وأخذ فى قوله تعالى (إن عدة الشهور عند الله اثنى عشر شهراً) .

وفى يوم الخميس خامس عشره نودى فى البلد على أهل الذمة بالزامهم بالصغار وتصغير العمائم ، وأن لا يستخدموا فى شىء من الأعمال ، وأن لا يركبوا الخيل ولا البغال . ويركبون الحمير بالأكف بالعرض ، وأن يكون فى رقابهم ورقاب نسائهم فى الحمامات أجراس . وأن يكون أحد النعلين أسود

مخالفاً للون الأخرى ، ففرح بذلك المسلمون ودعوا للآمر بذلك .

وفى يوم الأحد ثالث ربيع الأول قدم قاضى القضاة تاج الدين من الديار المصرية مستمراً على القضاء والخطابة ، فتلقاه الناس وهنأوه بالعود والسلامة . وفى يوم الخميس سابعه لبس القاضى الصاحب المهذبى الخلعة لنظر الدواوين بدمشق ، وهنأه الناس ، وباشر بصرامة واستعمل فى غالب الجهات من أبناء السبيل .

وفى يوم الاثنين حادى عشره ركب قاضى القضاة بدر الدين بن أبى الفتح على خيل البريد إلى الديار المصرية لتوليه قضاء قضاة الشافعية بدمشق ، عن رضا من خاله قاضى القضاة تاج الدين ، ونزوله عن ذلك .

وفى يوم الخميس خامس ربيع الأول احترقت الباسورة التى ظاهر باب الفرج على الجسر ، ونال حجارة الباب شىء من حريقها فانسدت ، وقد حضر طفيها نائب السلطنة والحاجب الكبير ، ونائب القلعة والولاة وغيرهم . وفى صبيحة هذا اليوم زاد النهر زيادة عظيمة بسبب كثرة الأمطار وذلك فى أوائل كانون الثانى ، وركب الماء سوق الخيل بكماله ، ووصل إلى ظاهر باب الفراديس ، وتلك النواحى ، وكسر جسر الخشب الذى عند جامع يلبغا ، وجاء فصدم به جسر الزلابية فكسره أيضاً .

وفى يوم الخميس ثانى عشره صرف حاجب الحجاب قارى عن المباشرة بدار السعادة ، وأخذت القضاة من يده وانصرف إلى داره فى أقل من الناس ، واستبشر بذلك كثير من الناس ، لكثرة ما كان يفتات على الأحكام الشرعية .

وفى أواخره اشتهر موت القاضى تاج الدين المناوى بديار مصر وولاية قاضى القضاة بهاء الدين ابن أبى البقاء السبكى مكانه بقضاء العساكر بها ، ووكالة السلطان أيضاً ، ورتب له مع ذلك كفايته. وتولى فى هذه الأيام الشيخ سراج الدين البلقينى إفتاء دار العدل مع الشيخ بهاء الدين أحمد بن قاضى القضاة السبكى بالشام ، وقد ولى هو أيضاً القضاء بالشام كما تقدم ، ثم عاد إلى مصر موفراً مكرما وعاد أخوه تاج الدين إلى الشام ، وكذلك ولوا مع البلقينى إفتاء دار العدل الحنفى [شيخا] يقال له الشيخ شمس الدين بن الصائغ ، وهو مفتى حنفى أيضا .

وفى يوم الاثنين سابع ربيع الأول توفى الشيخ نور الدين محمد بن الشيخ أبى بكر قوام بزاويتهم بسفح جبل قاسيون ، وغدا الناس إلى جنازته ، وقد كان من العلماء الفضلاء الفقهاء بمذهب الشافعى ، درس بالناصرية البرانية مدة سنين بعد أبيه ، وبالرباط الدويدارى داخل باب الفرج ، وكان يحضر المدارس ، ونزل عندنا بالمدرسة النجيبية ، وكان يحب السنة ويفهمها جيداً رحمه الله .

وفى مستهل جمادى الأولى ولى قاضى القضاة تاج الدين الشافعى مشيخة دار الحديث بالمدرسة التى فتحت بدرب القلبي ، وكانت داراً لواقفها جمال الدين عبد الله بن محمد بن عيسى التدمرى ، الذى كان أستاذاً للأمير طاز ، وجعل فيها درس للحنابلة ، وجعل المدرس لهم الشيخ برهان الدين إبراهيم ابن قيم الجوزية ، وحضر الدرس وحضر عنده بعض الحنابلة بالدرس ، ثم جرت أمور يطول بسطها . واستحضر نائب السلطنة شهود الحنابلة بالدرس واستفرد كلا منهم وسأله كيف شهد فى أصل الـكتاب ـ المحضر ـ الذى أثبتوا عليهم ، فاضطربوا فى الشهادات فضبط ذلك عليهم ، وفيه مخالفة كبيرة لما شهدوا به فى أصل المحضر ، وشنع عليهم كثير من الناس ، ثم ظهرت ديون كثيرة لبيت طاز على جمال الدين التدمرى الواقف ، وطلب من القاضى المالـكى أن يحـكم بإبطال ما حكم به الحنبلى ، فتوقف فى ذلك . وفى يوم الاثنين الحادى والعشرين منه ، قرىء كتاب السلطان بصرف الوكلاء من أبواب القضاة الأربعة فصرفوا .

وفى شهر جمادى الآخرة توفى الشيخ شمس الدين شيخ الحنابلة بالصالحية ويعرف بالبيرى يوم الخميس ثامنه ، صلى عليه بالجامع المظفرى بعد العصر ودفن بالسفح وقد قارب الثمانين .

وفى الرابع عشر منه عقد بدار السعادة مجلس حافل اجتمع فيه القضاة الأربعة وجماعة من المفتيين ، وطلبت لحضرت معهم بسبب المدرسة التدمرية وقرابة الواقف ودعواهم أنه وقف عليهم الثلث ، فوقف الحنبلى فى أمرهم ودافعهم عن ذلك أشد الدفاع .

وفى العشر الأول من رجب وجد جراد كثير منتشر ، ثم تزايد وتراكم وتضاعف وتفاقم الأمر بسببه ، وسد الأرض كثرة وعاث يمينا وشمالا ، وأفسد شيئا كثيراً من الكروم والمقاثى والزروعات النفيسة ، وأتلف للناس شيئاً كثيراً ، فانا لله وإنا إليه راجعون .

وفى يوم الاثنين ثالث شعبان توجه القضاة ووكيل بيت المال إلى باب كيسان فوقفوا عليه وعلى هيئته ومن نية نائب السلطنة فتحه ليتفرج الناس به . وعدم للناس غلات كثيرة وأشياء من أنواع الزروع بسبب كثرة الجراد ، فانا لله وإنا إليه راجعون .

﴿ فتح باب كيسان بعد غلقه نحواً من مائتى سنة ﴾

وفى يوم الاربعاء السادس والعشرين من شعبان اجتمع نائب السلطنة والقضاة عند باب كيسان ، وشرع الصناع فى فتحه عن مرسوم السلطان الوارد من الديار المصرية ، وأمر نائب السلطنة وإذن القضاة فى ذلك ، واستهل رمضان وهم فى العمل فيه .

وفى العشر الأخير من شعبان توفى الشريف شمس الدين محمد بن على بن الحسن بن حمزة الحسينى المحدث المحصل ، المؤلف لاشياء مهمة ، وفى الحديث قرأ وسمع وجمع وكتب أسماء رجال

بمسند الامام أحمد ، واختصر كتابا فى أسماء الرجال مفيدا ، وولى مشيخة الحديث التى وقفها فى داره بهاء الدين القاسم بن عساكر ، داخل باب توما ، وختمت البخاريات فى آخر شهر رمضان .

ووقع بين الشيخ عماد الدين بن السراج قارىء البخارى عند محراب الصحابة ، وبين الشيخ بدر الدين بن الشيخ جمال الدين الشريشى ، وتهاترا على رؤس الاشهاد بسبب لفظة « يبتز » بمعنى يدخر ، وفى نسخة يتير ، فحكى ابن السراج عن الحافظ المزى أن الصواب « يبتز » من قول العرب عز بز ، وصدق فى ذلك ، فكأن منازعه خطأ ابن المزى ، فانتصر الآخر للحافظ المزى ، فقاد منه بالقول ثم قام والده الشيخ جمال الدين المشار إليه فكشف رأسه على طريقة الصوفية ، فكأن ابن السراج لم يلتفت إليه ، وتدافعوا إلى القاضى الشافعى فانتصر للحافظ المزى ، وجرت أمور ، ثم اصطلحوا غير مرة وعزم أولئك على كتب محضر على ابن السراج ، ثم انطفأت تلك الشرور .

وكثر الموت فى أثناء شهر رمضان وقاربت العدة مائة ، وربما جاوزت المائة ، وربما كانت أقل منها وهو الغالب ، ومات جماعة من الأصحاب والمعارف ، فانا لله وإنا إليه راجعون . وكثر الجراد فى البساتين وعظم الخطب بسببه ، وأتلف شيئا كثيراً من الغلات والثمار والخضراوات ، وغلت الأسعار وقلت الثمار ، وارتفعت قيم الأشياء فبيع الدبس بما فوق المائتين القنطار ، والرز بأزيد من ذلك . وتكامل فتح باب كيسان وسموه الباب القبلى ، ووضع الجسر منه إلى الطريق السالكة ، وعرضه أزيد من عشرة أذرع بالنجارى لأجل عمل الباسورة جنبتيه ، ودخلت المارة عليه من المشاة والركبان ، وجاء فى غاية الحسن ، وسلك الناس فى حارات اليهود ، وانكشف دخلهم وأمن الناس من دخنهم وغشهم ومكرهم وخبثهم ، وانفرج الناس بهذا الباب المبارك .

واستهل شوال والجراد قد أتلف شيئا كثيرا من البلاد ، ورعى الخضروات والأشجار ، وأوسع أهل الشام فى الفساد ، وغلت الأسعار ، واستمر الفناء وكثر الضجيج والبكاء ، وفقدنا كثيراً من الأصحاب والأصدقاء ، فلان مات . وقد تناقص الفناء فى هذه المدة وقل الوقع وتناقص للخمسين . وفى شهر ذى القعدة تقاصر الفناء ولله الحمد ، ونزل العدد إلى العشرين فما حولها ، وفى رابعه دخل بالفيل والزرافة إلى مدينة دمشق من القاهرة ، فأنزل فى الميدان الأخضر قريبا من القصر الأبلق ، وذهب الناس للنظر إليهما على العادة .

وفى يوم الجمعة تاسعه صلى على الشيخ جمال الدين عبد الصمد بن خليل البغدادى ، المعروف بابن الخضرى ، محدث بغداد وواعظها ، كان من أهل السنة والجماعة رحمه الله انتهى .

﴿ تجديد خطبة ثانية داخل سور دمشق ولم يتفق ذلك فيما أعلم منذ فتوح الشام إلى الآن ﴾

اتفق ذلك فى يوم الجمعة الثالث ، ثم تبين أنه الرابع والعشرين من ذى القعدة من هذه السنة

بالجامع الذى جدد بناءه نائب الشام سيف الدين منكلى بغا ، بدرب البلاغة قبلى مسجد درب الحجر ، داخل باب كيسان المجدد فتحه فى هذا الحين كما تقدم ، وهو معروف عند العامة بمسجد الشاذورى ، وإنما هو فى تاريخ ابن عساكر مسجد الشهرزورى ، وكان المسجد المذكور قد تقادم عهده مدة دهر ، وهجر فلا يدخله أحد من الناس إلا قليل ، فوسعه من قبليه وسقفه جديدا ، وجعل له صرحة شمالية مبلطة ، ورواقات على هيئة الجوامع ، والداخل بأوابه على العادة ، وداخل ذلك رواق كبير له جناحان شرقى وغربى ، بأعمدة وقناطر ، وقد كان قديماً كنيسة فأخذت منهم قبل الخمسمائة ، وعملت مسجداً ، فلم يزل كذلك إلى هذا الحين ، فلما كمل كما ذكرنا وسيق إليه الماء من القنوات ، ووضع فيه منبر مستعمل كذلك ، فيومئذ ركب نائب السلطنة ودخل البلد من باب كيسان وانعطف على حارة اليهود حتى انتهى إلى الجامع المذكور ، وقد استكف الناس عنده من قضاة وأعيان وخاصة وعامة ، وقد عين لخطابته الشيخ صدر الدين بن منصور الحنفى ، مدرس الناجية وإمام الحنفية بالجامع الأموى ، فلما أذن الأذان الأول تعذر عليه الخروج من بيت الخطابة ، قيل لمرض عرض له ، وقيل لغير ذلك من حصر أو نحوه ، فخطب الناس يومئذ قاضى القضاة جمال الدين الحنفى الكفرى ، خدمة لنائب السلطنة .

واستهل شهر ذى الحجة وقد رفع الله الوباء عن دمشق وله الحمد والمنة . وأهل البلد يموتون على العادة ولا يمرض أحد بتلك العلة ، ولكن المرض المعتاد ، انتهى .

﴿ ثم دخلت سنة ست وستين وسبعمائة ﴾

استهلت هذه السنة والسلطان الملك الأشرف ناصر الدين شعبان ، والدولة بمصر والشام هم هم ، ودخل المحمل السلطانى صبيحة يوم الاثنين الرابع والعشرين منه ، وذكروا أنهم نالهم فى الرجعة شدة شديدة من الغلاء وموت الجمال وهرب الجمالين ، وقدم مع الركب ممن خرج من الديار المصرية قاضى القضاة بدر الدين بن أبى الفتح ، وقد سبقه التقليد بقضاء القضاة مع خاله تاج الدين يحكم فيما يحكم فيه مستقلا معه ومنفردا بعده .

وفى شهر الله المحرم رسم نائب السلطنة بتخريب قريتين من وادى التيم وهم مشعرا وتلبثاثا ، وسبب ذلك أنهما عاصيان وأهلهما مفسدان فى الأرض، والبلدان والأرض حصينان لا يصل إليهما إلا بكلفة كثيرة لا يرتقى إليهما إلا فارس فارس ، فخربتا وعمر بدلهما فى أسفل الوادى ، بحيث يصل إليهما حكم الحاكم والطلب بسهولة ، فأخبرنى الملك صلاح الدين ابن الكامل أن بلدة تلبثاثا عمل فيها ألف فارس ، ونقل نقضها إلى أسفل الوادى خمسمائة حمار عدة أيام .

وفى يوم الجمعة سادس صفر بعد الصلاة صلى على قاضى القضاة جمال الدين يوسف بن قاضى

القضاة شرف الدين أحمد بن أقضى القضاة بن الحسين المزى الحنفى ، وكانت وفاته ليلة الجمعة المذكورة بعد مرض قريب من شهر ، وقد جاوز الأربعين بثلاث من السنين ، ولى قضاء قضاة الحنفية ، وخطب بجامع يلبغا ، وأحضر مشيخة النفيسية ، ودرس بأماكن من مدارس الحنفية ، وهو أول من خطب بالجامع المستجد داخل باب كيسان بحضرة نائب السلطنة .

وفى صفر كانت وفاة الشيخ جمال الدين عمر بن القاضى عبد الحى بن إدريس الحنبلى محتسب بغداد ، وقاضى الحنابلة بها ، فتعصبت عليه الروافض حتى ضرب بين يدى الوزارة ضربا مبرحا ، كان سبب موته سريعا رحمه الله ، وكان من القائمين بالحق الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ، من أكبر المنكرين على الروافض وغيرهم من أهل البدع رحمه الله ، وبل بالرحمة ثراه .

وفى يوم الأربعاء تاسع صفر حضر مشيخة النفيسية الشيخ شمس الدين بن سند ، وحضر عنده قاضى القضاة تاج الدين وجماعة من الأعيان ، وأورد حديث عبادة بن الصامت « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » أسنده عن قاضى القضاة المشار إليه .

وجاء البريد من الديار المصرية بطلب قاضى القضاة تاج الدين إلى هناك ، فسير أهله قبله على الجمال ، وخرجوا يوم الجمعة حادى عشر ربيع الأول جماعة من أهل بيتهم لزيارة أهاليهم هناك ، فأقام هو بعدهم إلى أن قدم نائب السلطنة من الرحبة وركب على البريد . وفى يوم الاثنين خامس عشر جمادى الآخرة رجع قاضى القضاة تاج الدين السبكى من الديار المصرية على البريد وتلقاه الناس إلى أثناء الطريق ، واحتفلوا للسلام عليه وتهنئته بالسلامة انتهى . والله أعلم .

﴿ قتل الرافضى الخبيث ﴾

وفى يوم الخميس سابع عشره أول النهار وجد رجل بالجامع الأموى اسمه محمود بن إبراهيم الشيرازى ، وهو يسب الشيخين ويصرح بلعنتهما ، فرفع إلى القاضى المالكى قاضى القضاة جمال الدين المسلاتى فاستتابه عن ذلك وأحضر الضراب فأول ضربة قال لا إله إلا الله على ولى الله ، ولما ضرب الثانية لعن أبا بكر وعمر ، فالتهمه العامة فأوسعوه ضربا مبرحا بحيث كاد يهلك ، فجعل القاضى يستكفهم عنه فلم يستطع ذلك ، فجعل الرافضى يسب ويلعن الصحابة ، وقال : كانوا على الضلال ، فعند ذلك حمل إلى نائب السلطنة وشهد عليه قوله بأنهم كانوا على الضلالة ، فعند ذلك حكم عليه القاضى بإراقة دمه ، فأخذ إلى ظاهر البلد فضربت عنقه وأحرقته العامة قبحه الله ، وكان ممن يقرأ بمدرسة أبى عمر ، ثم ظهر عليه الرفض فسجنه الحنبلى أربعين يوما ، فلم ينفع ذلك ، وما زال يصرح فى كل موطن يأمر فيه بالسب حتى كان يومه هذا أظهر مذهبه فى الجامع ، وكان سبب قتله قبحه الله كما قبح من كان قبله ، وقتل بقتله فى سنة خمس وخمسين .

﴿ استنابة ولى الدين ابن أبى البقاء السبكى ﴾

وفى آخر هذا اليوم - أعنى يوم الخميس ثامن عشره - حكم أقضى القضاة ولى الدين بن قاضى القضاة بهاء الدين بن أبى البقاء بالمدرسة العادلية الكبيرة نيابة عن قاضى القضاة تاج الدين مع استنابة أقضى القضاة شمس الدين الغزى ، وأقضى القضاة بدر الدين بن وهيبة ، وأما قاضى القضاة بدر الدين بن أبى الفتح فهو نائب أيضاً ، ولكنه بتوقيع شريف أنه يحكم مستقلا مع قاضى القضاة تاج الدين .

وفى يوم الاثنين الثانى والعشرين منه استحضر نائب السلطنة الأمير ناصر الدين بن العاوى متولى البلد ونقم عليه أشياء ، وأمر بضربه فضرب بين يديه على أكتافه ضربا ليس بمبرح ، ثم عزله واستدعى بالأمير علم الدين سليمان أحد الأمراء العشراوات ابن الأمير صفى الدين بن أبى القاسم البصراوى ، أحد أمراء الطبلخانات ، كان قد ولى شد الدواوين ونظر القدس والخليل وغير ذلك من الولايات الكبار ، وهو ابن الشيخ فخر الدين عثمان بن الشيخ صفى الدين أبى القاسم التميمى الحنفى . وبأيديهم تدريس الأمينية التى ببصرى والحكيمية أزيد من مائة سنة ، فولاه البلد على تكره منه ، فألزمه بها وخلع عليه ، وقد كان وليها قبل ذلك فأحسن السيرة وشكر سعيه لديانته وأمانته وعفته ، وفرح الناس ولله الحمد .

﴿ ولاية قاضى القضاة بهاء الدين أبى البقاء السبكى الشافعى ﴾

« لقضاء القضاة بالديار المصرية بعد عزل عز الدين بن جماعة نفسه »

ورد الخبر مع البريد من الديار المصرية بأن قاضى القضاة عز الدين عبد العزيز ابن قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة عزل نفسه عن القضاء يوم الاثنين السادس عشر من هذا الشهر ، وصمم على ذلك ، فبعث الأمير الكبير يلبغا إليه الأمراء يسترضونه فلم يقبل ، فركب إليه بنفسه ومعه القضاة والأعيان فتلطفوا به فلم يقبل وصمم على الانعزال ، فقال له الأمير الكبير : فعين لنا من يصلح بعدك . قال ولا أقول لكم شيئا غير أنه لا يتولى رجل واحد ، ثم ولوا من شئتم ، فأخبرنى قاضى القضاة تاج الدين السبكى أنه قال لا تولوا ابن عقيل ، فعين الأمير الكبير قاضى القضاة بهاء الدين أبا البقاء فقيل إنه أظهر الامتناع ، ثم قبل ولبس الخلعة وباشر يوم الاثنين الثالث والعشرين من جمادى الآخرة ، قاضى القضاة الشيخ بهاء الدين بن قاضى القضاة تقى الدين السبكى قضاء العساكر الذى كان بيد أبى البقاء .

وفى يوم الاثنين سابع رجب توفى الشيخ على المراوحى خادم الشيخ أسد المراوحى البغدادى ، وكان فيه مروءة كثيرة ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويدخل على النواب ويرسل إلى الولاة

فتقبل رسالته . وله قبول عند الناس . وفيه بر وصدقة و إحسان إلى المحاويج . و بيده مال جيد يتجرله فيه تعالى مدة طويلة ثم كانت وفاته فى هذا اليوم فصلى عليه الظهر بالجامع ، ثم حمل إلى سفح قاسيون رحمه الله.

وفى صبيحة يوم الثلاثاء السابع والعشرين من شعبان قدم الأمير سيف الدين بيدمر الذى كان نائب الشام فنزل بداره عند مأذنة فيروز ، وذهب الناس للسلام عليه بعد ماسلم على نائب السلطنة بدار السعادة . وقد رسم له بطبلخاناتين وتقدمة ألف و ولاية الولاة من غزة إلى أقصى بلاد الشام ، وأكرمه ملك الامراء إكراما زائداً ، وفرحت العامة بذلك فرحا شديداً بعوده إلى الولاية . وختمت البخاريات بالجامع الأموى وغيره فى عدة أماكن من ذلك سنة مواعيد تقرأ على الشيخ عماد الدين ابن كثير فى اليوم ، أولها بمسجد ابن هشام بكرة قبل طلوع الشمس . ثم تحت النسر ، ثم بالمدرسة النورية . و بعد الظهر بجامع تنكز ، ثم بالمدرسة العزية ، ثم بالكوشك لأم الزوجة الست أسماء بنت الوزير ابن السلعوس . إلى أذان العصر، ثم من بعد العصر بدار ملك الأمراء أمير على بمحلة القضاعين إلى قريب الغروب ، و يقرأ صحيح مسلم بمحراب الحنابلة داخل باب الزيارة بعد قبة النسر وقبل النورية ، والله المسئول وهو المعين الميسر المسهل . وقد قرئ فى هذه الهيئة فى عدة أماكن أخر من دور الأمراء وغيرهم ، ولم يعهد مثل هذا فى السنين الماضية ، فلله الحمد والمنة .

وفى يوم الثلاثاء عاشر شوال توفى الشيخ نور الدين على بن أبى الهيجاء الكركى الشوبكى . ثم الدمشقى الشافعى ، كان معنا فى المقرى والكتاب ، وختمت أنا وهو فى سنة إحدى عشرة ، ونشأ فى صيانة وعفاف ، وقرأ على الشيخ بدر الدين بن سيحان للسبع ، ولم يكمل عليه ختمة ، واشتغل فى المنهاج للنواوى فقرأ كثيراً منه أو أكثره ، وكان ينقل منه و يستحضر ، وكان خفيف الروح يحبه الناس لذلك و يرغبون فى عشرته لذلك رحمه الله ، وكان يستحضر المتشابه فى القرآن استحضاراً حسناً متقنا كثير التلاوة له . حسن الصلاة يقوم الليل ، وقرأ على صحيح البخارى بمشهد ابن هشام عدة سنين . ومهر فيه ، وكان صوته جهوريا فصيح العبارة . ثم ولى مشيخة الحلبية بالجامع وقرأ فى عدة كراسى بالحائط الشمالى ، وكان مقبولا عند الخاصة والعامة ، وكان يداوم على قيام العشر الأخير فى محراب الصحابة مع عدة قراء يبيتون فيه و يحيون الليل . ولما كان فى هذه السنة أحيا ليلة العيد وحده بالمحراب المذكور ثم مرض خمسة أيام ، ثم مات بعد الظهر يوم الثلاثاء عاشر شوال بدرب العميد ، وصلى عليه العصر بالجامع الأموى . ودفن بمقابر الباب الصغير عند والده فى تربة لهم ، وكانت جنازته حافلة وتأسف الناس عليه ، رحمه الله و بل بالرحمة ثراه ، وقد قارب خمسا وستين سنة ، وترك بنتا سباعية اسمها عائشة ، وقد أقرأها شيئا من القرآن إلى تبارك . وحفظها الاربعين النواوية جبرها ربها ورحم أباها آمين .

وخرج المحمل الشامى والحجيج يوم الخميس ثانى عشره ، وأميرهم الأمير علاء الدين على بن علم الدين الهلالى ، أحد أمراء الطبلخانات .

وتوفى الشيخ عبد الله الملطى يوم السبت رابع عشره ، وكان مشهوراً بالمجاورة بالكلاسة فى الجامع الأموى ، له أشياء كثيرة من الطراريح والآلات الفقرية ، ويلبس على طريقة الحريرية وشكله مزعج ، ومن الناس من كان يعتقد فيه الصلاح ، وكنت ممن يكرهه طبعاً وشرعا أيضاً .

وفى يوم الخميس الخامس والعشرين من ذى القعدة قدم البريد من ناحية المشرق ومعهم قماقم ماء من عين هناك من خاصيته أنه يتبعه طير يسمى السمرمر أصفر الريش قريب من شكل الخطاف من شأنه إذا قدم الجراد إلى البلد الذى هو فيه أنه يفنيه ويأكله أكلا سريعا ، فلا يلبث الجراد إلا قليلا حتى يرحل أو يؤكل على ما ذكر ، ولم أشاهد ذلك .

وفى المنتصف من ذى الحجة كمل بناء القيسارية التى كانت معملا بالقرب من دار الحجارة ، قبلى سوق الدهشة الذى للرجال ، وفتحت وأكريت دهشة لقماش النساء ، وذلك كله بمرسوم ملك الأمراء ناظر الجامع المعمور رحمه الله ، وأخبرنى الصدر عز الدين الصير فى المشارف بالجامع أنه غرم عليها من مال الجامع قريب ثلاثين ألف درهم انتهى .

﴿ طرح مكس القطن المغزول البلدى والمجلوب ﴾

وفى أواخر هذا الشهر جاء المرسوم الشريف بطرح مكس القطن المغزول البلدى والمجلب أيضاً، ونودى بذلك فى البلد ، فكثرت الدعوات لمن أمر بذلك ، وفرح المسلمون بذلك فرحا شديدا ولله الحمد والمنة .

﴿ ثم دخلت سنة سبع وستين وسبعمائة ﴾

استهلت وسلطان البلاد المصرية والشامية والحرمين الشريفين ومايتبع ذلك من الأقاليم الملك الأشرف بن الحسين بن الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وعمره عشر سنين فما فوقها ، وأتابك العساكر ومدبر ممالكه الأمير سيف الدين يلبغا الخاصكى ، وقاضى قضاة الشافعية بمصر بهاء الدين أبو البقاء السبكى ، وبقية القضاة هم المذكورون فى السنة الماضية ، ونائب دمشق الأمير سيف الدين منكلى بغا ، وقضاة دمشق هم المذكورون فى التى قبلها سوى الحنفى فانه الشيخ جمال الدين بن السراج شيخ الحنفية ، والخطابة بيد قاضى القضاة تاج الدين الشافعى ، وكاتب السر وشيخ الشيوخ القاضى فتح الدين بن الشهيد ، ووكيل بيت المال الشيخ جمال الدين بن الرهاوى . ودخل المحمل السلطانى يوم الجمعة بعد العصر قريب الغروب ، ولم يشعر بذلك أكثر أهل البلد ، وذلك لغيبة النائب فى السرحة مما يلى ناحية الفرات ، ليكون كالرد للتجريدة التى تعينت لتخريب الكبيسات التى هى إقطاع خيار بن مهنا من زمن السلطان أويس ملك العراق انتهى .

﴿ استيلاء الفرنج لعنهم الله على مدينة الاسكندرية ﴾

وفى العشر الأخير من شهر الله المحرم احتيط على الفرنج بمدينة دمشق وأودعوا فى الحبوس فى القلعة المنصورة ، واشتهر أن سبب ذلك أن مدينة الاسكندرية محاصرة بعدة شواين ، وذكر أن صاحب قبرص معهم ، وأن الجيش المصرى صمدوا إلى حراسة مدينة الاسكندرية حرسها الله تعالى وصانها وحماها ، وسيأتى تفصيل أمرها فى الشهر الآتى ، فانه وضح لنا فيه ، ومكث القوم بعد الاسكندرية بأيام فيما بلغنا ، بعد ذلك حاصرها أمير من التتار يقال له ماميه ، واستعان بطائفة من الفرنج ففتحوها قسراً ، وقتلوا من أهلها خلقا وغنموا شيئا كثيراً واستقرت عليها يدماميه ملكا عليها.

وفى يوم الجمعة سلخ هذا الشهر توفى الشيخ برهان الدين إبراهيم بن الشيخ شمس الدين بن قيم الجوزية ببستانه بالمزة ، ونقل إلى عند والده بمقابر باب الصغير ، فصلى عليه بعد صلاة العصر بجامع جراح ، وحضر جنازته القضاة والأعيان وخلق من التجار والعامة ، وكانت جنازته حافلة ، وقد بلغ من العمر ثمانياً وأربعين سنة ، وكان بارعا فاضلا فى النحو والفقه وفنون أخر على طريقة والده رحمهما الله تعالى ، وكان مدرساً بالصدرية والتدمرية ، وله تصدير بالجامع ، وخطابة بجامع ابن صلحان ، وترك مالا جزيلا يقارب المائة ألف درهم . انتهى .

ثم دخل شهر صفر وأوله الجمعة، أخبرنى بعض علماء السير أنه اجتمع فى هذا اليوم - يوم الجمعة مستهل هذا الشهر - الكواكب السبعة سوى المريخ فى برج العقرب ، ولم يتفق مثل هذا من سنين متطاولة ،فأما المريخ فانه كان قد سبق إلى برج القوس فيه. وردت الأخبار بما وقع من الأمر الفظيع بمدينة الاسكندرية من الفرنج لعنهم الله ، وذلك أنهم وصلوا إليها فى يوم الأربعاء الثانى والعشرين من شهر الله المحرم ، فلم يجدوا بها نائبا ولا جيشا ، ولا حافظا للبحر ولا ناصراً ، فدخلوها يوم الجمعة بكرة النهار بعد ما حرقوا أبوابا كبيرة منها ، وعاثوا فى أهلها فساداً ، يقتلون الرجال ويأخذون الأموال ويأسرون النساء والأطفال ،فالحكم لله العلى الكبير المتعال . وأقاموا بها يوم الجمعة والسبت والأحد والاثنين والثلاثاء ، فلما كان صبيحة يوم الأربعاء قدم الشاليش المصرى، فأقلعت الفرنج لعنهم الله عنها،وقد أسروا خلقا كثيراً يقاربون الأربعة آلاف ، وأخذوا من الأموال ذهبا وحريراً وبهاراً وغير ذلك مالا يحد ولا يوصف ، وقدم السلطان والأمير الكبير يلبغا ظهر يومئذ ، وقد تفارط الحال وتحولت الغنائم كلها إلى الشوانى بالبحر ، فسمع للأسارى من العويل والبكاء والشكوى والجأر إلى الله والاستغاثة به وبالمسلمين ، ماقطع الأكباد ، وذرفت له العيون وأصم الأسماع ، فانا لله وإنا إليه راجعون ولما بلغت الأخبار إلى أهل دمشق شق عليهم ذلك جداً ، وذكر ذلك الخطيب يوم الجمعة على المنبر فتباكى [الناس] كثيراً ، فانا لله وإنا إليه راجعون، وجاء المرسوم الشريف من الديار المصرية إلى

نائب السلطنة بمسك النصارى من الشام جملة واحدة ، وأن يأخذ منهم ربع أموالهم لعمارة ما خرب من الاسكندرية ، ولعمارة مراكب تغزو الفرنج . فأهانوا النصارى وطلبوا من بيوتهم بعنف وخافوا أن يقتلوا . ولم يفهموا مايراد بهم، فهربوا كل مهرب ، ولم تكن هذه الحركة شرعية ، ولا يجوز اعتمادها شرعا،وقد طلبت يوم السبت السادس عشر من صفر إلى الميدان الأخضر للاجتماع بنائب السلطنة ، وكان اجتماعنا بعد العصر يومئذ بعد الفراغ من لعب الكرة ، فرأيت منه أنسا كثيراً ، ورأيته كامل الرأى والفهم ، حسن العبارة كريم المجالسة . فذكرت له أن هذا لا يجوز اعتماده فى النصارى، فقال إن بعض فقهاء مصر أفتى للأمير الكبير بذلك ، فقلت له : هذا مما لا يسوغ شرعا ، ولا يجوز لأحد أن يفتى بهذا ، ومتى كانوا باقين على الذمة يؤدون إلينا الجزية ملتزمين بالذلة والصغار ، وأحكام الملة قائمة ، لا يجوز أن يؤخذ منهم الدرهم الواحد ـ الفرد ـ فوق مايبذلونه من الجزية . ومثل هذا لا يخفى على الأمير . فقال : كيف أصنع وقد ورد المرسوم بذلك ولا يمكننى أن أخالفه ؟ وذكرت له أشياء كثيرة مما ينبغى اعتماده فى حق أهل قبرص من الارهاب ووعيد العقاب ، وأنه يجوز ذلك وإن لم يفعل مايتوعدهم به ، كما قال سليمان بن داود عليهما السلام : « ائتونى بالسكين أشقه نصفين » كما هو الحديث مبسوط فى الصحيحين . فجعل يعجبه هذا جدا ، وذكر أن هذا كان فى قلبه وأنى كاشفته بهذا ،وأنه كتب به مطالعة إلى الديار المصرية ،وسيأتى جوابها بعد عشرة أيام، فتجىء حتى تقف على الجواب . وظهر منه إحسان وقبول وإكرام زائد رحمه الله . ثم اجتمعت به فى دار السعادة فى أوائل شهر ربيع الأول فبشرنى أنه قد رسم بعمل الشوانى والمراكب لغزو الفرنج ولله الحمد والمنة . ثم فى صبيحة يوم الاحد طلب النصارى الذين اجتمعوا فى كنيستهم إلى بين يديه وهم قريب من أربعمائة فحلفهم كم أموالهم وألزمهم بأداء الربع من أموالهم ، فانا لله وإنا إليه راجعون . وقد أمروا إلى الولاة باحضارهن فى معاملتهم . ووالى البر قد خرج إلى القرايا بسبب ذلك . وجردت أمراء إلى النواحى لاستخلاص الأموال من النصارى فى القدس وغير ذلك .

وفى أول شهر ربيع الأول كان سفر قاضى القضاة تقى الدين السبكى الشافعى إلى القاهرة . وفى يوم الأربعاء خامس ربيع الأول اجتمعت بنائب السلطنة بدار السعادة وسألته عن جواب المطالعة ،فذكر لى أنه جاء المرسوم الشريف السلطانى بعمل الشوانى والمراكب لغزو قبرص ، وقتال الفرنج ولله الحمد والمنة . وأمر نائب السلطنة بتجهيز القطاعين والنشارين من دمشق إلى الغابة التى بالقرب من بيروت ، وأن يشرع فى عمل الشوانى فى آخر يوم من هذا الشهر ،وهو يوم الجمعة .وفتحت دار القرآن التى وقفها الشريف التعادانى إلى جانب حمام الكاس ، شمالى المدرسة البادرائية، وعمل فيها وظيفة حديث وحضر واقفها يومية قاضى القضاة تاج الدين السبكى انتهى والله أعلم .

﴿ صفة عقد مجلس بسبب قاضى القضاة تاج الدين السبكى الشافعى ﴾

ولما كان يوم الاثنين الرابع والعشرين من ربيع الأول عقد مجلس حافل بدار السعادة بسبب مارمى به قاضى القضاة تاج الدين الشافعى ابن قاضى القضاة تقى الدين السبكى ، وكنت ممن طلب إليه ،فحضرته فيمن حضر ، وقد اجتمع فيه القضاة الثلاثة ، وخلق من المذاهب الأربعة ، وآخرون من غيرهم ، بحضرة نائب الشام سيف الدين منكلى بغا ، وكان قد سافر هو إلى الديار المصرية إلى الابواب الشريفة ، واستنجز كتابا إلى نائب السلطنة لجمع هذا المجلس ليسأل عنه الناس ، وكان قد كتب فيه محضران متعاكسان أحدهما له والآخر عليه ، وفى الذى عليه خط القاضيين المالكى والحنبلى ، وجماعة آخرين ، وفيه عظائم وأشياء منكرة جدا ينبو السمع عن استماعه . وفى الآخر خطوط جماعات من المذاهب بالثناء عليه ، وفيه خطى بأنى مارأيت فيه إلا خيراً . ولما اجتمعوا أمر نائب السلطنة بأن يمتاز هؤلاء عن هؤلاء فى المجالس ، فصارت كل طائفة وحدها ، وتحاذوا فيما بينهم ، وتأصل عنه نائبه القاضى شمس الدين الغزى ، والنائب الآخر بدر الدين بن وهبة وغيرهما، وصرح قاضى القضاة جمال الدين الحنبلى بأنه قد ثبت عنده ما كتب به خطه فيه ، وأجابه بعض الحاضرين منهم بدائم النفوذ ، فبادر القاضى الغزى فقال للحنبلى : أنت قد ثبتت عداوتك لقاضى القضاة تاج الدين ، فكثر القول وارتفعت الأصوات وكثر الجدال والمقال ، وتكلم قاضى القضاة جمال الدين المالكى أيضاً بنحو ماقال الحنبلى ، فأجيب بمثل ذلك أيضا ، وطال المجلس فانفصلوا على مثل ذلك ، ولما بلغت الباب أمر نائب السلطنة برجوعى إليه ، فاذا بقية الناس من الطرفين والقضاة الثلاثة جلوس ، فأشار نائب السلطنة بالصلح بينهم و بين قاضى القضاة تاج الدين – يعنى وأن يرجع القاضيان عما قالا – فأشار الشيخ شرف الدين بن قاضى الجبل وأشرت أنا أيضا بذلك فلان المالكى وامتنع الحنبلى ، فقمنا والأمر باق على ماتقدم ، ثم اجتمعنا يوم الجمعة بعد العصر عند نائب السلطنة عن طلبه فتراضوا كيف يكون جواب الكتابات مع مطالعة نائب السلطنة ، ففعل ذلك وسار البريد بذلك إلى الديار المصرية ، ثم اجتمعنا أيضا يوم الجمعة بعد الصلاة التاسع عشر من ربيع الآخر بدار السعادة ، وحضر القضاة الثلاثة وجماعة آخرون ، واجتهد نائب السلطنة على الصلح بين القضاة وقاضى الشافعية وهو يعصر ، فحصل خلف وكلام طويل ، ثم كان الأمر أن سكنت أنفس جماعة منهم إلى ذلك على ماسنذكره فى الشهر الآتى .

وفى مستهل ربيع الآخر كانت وفاة المعلم داود الذى كان مباشراً لنظارة الجيش ، وأضيف إليه نظر الدواوين إلى آخر وقت ،فاجتمع له هاتان الوظيفتان ولم يجتمعا لأحد قبله كما فى علمى ، وكان من أخبر الناس بنظر الجيش وأعلمهم بأسماء رجاله ، ومواضع الاقطاعات ، وقد كان والده نائبا لنظار

الجيوش ، وكان يهوديا قرائيا ،فأسلم ولده هذا قبل وفاة نفسه بسنوات عشر أو نحوها ، وقد كان ظاهره جيدا والله أعلم بسره وسريرته ، وقد تمرض قبل وفاته بشهر أو نحوه ، حتى كانت وفاته فى هذا اليوم فصلى عليه بالجامع الأموى تجاه النسر بعد العصر ، ثم حمل إلى تربة له أعدها فى بستانه بحوش ، وله من العمر قريب الخمسين .

وفى أوائل هذا الشهر ورد المرسوم الشريف السلطانى بالرد على نساء النصارى ما كان أخذ منهن مع الجباية التى كان تقدم أخذها منهن ، وإن كان الجميع ظلما ، ولكن الأخذ من النساء أفحش وأبلغ فى الظلم ، والله أعلم . وفى يوم الاثنين الخامس عشر منه أمر نائب السلطنة أعزه الله بكبس بساتين أهل الذمة فوجد فيها من الخمر المعتصر من الخوابى والحباب فأريقت عن آخرها ولله الحمد والمنة ، بحيث جرت فى الازقة والطرقات ، وفاض نهر تورا من ذلك ، وأمر بمصادرة أهل الذمة الذين وجد عندهم ذلك بمال جزيل ، وهم تحت الجباية ، وبعد أيام نودى فى البلد بأن نساء أهل الذمة لاتدخل الحمامات مع المسلمات ، بل تدخل حمامات تختص بهن ، ومن دخل من أهل الذمة الرجال مع الرجال المسلمين يكون فى رقاب الكفار علامات يعرفون بها من أجراس وخواتيم ونحو ذلك ، وأمر نساء أهل الذمة بأن تلبس المرأة خفيها مخالفين فى اللون بأن يكون أحدهما أبيض والآخر أصفر أو نحو ذلك .

ولما كان يوم الجمعة التاسع عشر من الشهر - أعنى ربيع الآخر - طلب القضاة الثلاثة وجماعة من المفتيين ، من ناحية الشافعى نائباه ، وهما القاضى شمس الدين الغزى والقاضى بدر الدين بن وهبة ، والشيخ جمال الدين بن قاضى الزبدانى ، والمصنف الشيخ عماد الدين بن كثير والشيخ بدر الدين حسن الزرعى ، والشيخ تقى الدين الفارقى . ومن الجانب الآخر قاضيا القضاة جمال الدين المالكى والحنبلى ، والشيخ شرف الدين بن قاضى الجبل الحنبلى ، والشيخ جمال الدين ابن الشريشى ، والشيخ عز الدين بن حمزة بن شيخ السلامية الحنبلى ، وعماد الدين الحنائى ، فاجتمعت مع نائب السلطنة بالقاعة التى فى صدر إيوان دار السعادة ، وجلس نائب السلطنة فى صدر المكان ، وجلسنا حوله ، فكان أول ما قال : كنا نحن الترك وغيرنا إذا اختلفنا واختصمنا نجىء بالعلماء فيصلحون بيننا ، ، فصرنا نحن إذا اختلفت العلماء واختصموا فمن يصلح بينهم ، وشرع فى تأنيب من شنع على الشافعى بما تقدم ذكره من تلك الأقوال والأفاعيل التى كتبت فى تلك الأوراق وغيرها ، وأن هذا يشفى الأعداء بنا ، وأشار بالصلح بين القضاة بعضهم من بعض فصمم بعضهم وامتنع ، وجرت مناقشات من بعض الحاضرين فيما بينهم ، ثم حصل بحث فى مسائل ثم قال نائب السلطنة أخيراً : أما سمعتم قول الله تعالى (عفا الله عما سلف) فلانت القلوب عند

ذلك وأمر كاتب السر أن يكتب مضمون ذلك فى مطالعة إلى الديار المصرية ، ثم خرجنا على ذلك انتهى والله أعلم

﴿ عودة قاضى القضاة تاج الدين السبكى إلى دمشق المحروسة ﴾

فى يوم الأربعاء التاسع والعشرين من جمادى الأولى قدم من ناحية الكسوة وقد تلقاه جماعة من الأعيان إلى الصمين وما فوقها ، فلما وصل إلى الكسوة كثر الناس جدا وقاربها قاضى قضاة الحنفية الشيخ جمال الدين بن السراج ، فلما أشرف من عقبة شحورا تلقاه خلائق لا يحصون كثرة وأشعلت الشموع حتى مع النساء ، والناس فى سرور عظيم ، فلما كان قريبا من الجسورة تلقته الخلائق الخليفيين مع الجوامع والمؤذنون يكبرون ، والناس فى سرور عظيم ، ولما قارب باب النصر وقع مطر عظيم والناس معه لا تسعهم الطرقات ، يدعون له ويفرحون بقدومه ، فدخل دار السعادة وسلم على نائب السلطنة ، ثم دخل الجامع بعد العصر ومعه شموع كثيرة ، والرؤساء أكثر من العامة . ولما كان يوم الجمعة ثانى شهر جمادى الآخرة ركب قاضى القضاة السبكى إلى دار السعادة وقد استدعى نائب السلطنة بالقاضيين المالكى والحنبلى ، فأصلح بينهم ، وخرج من عنده ثلاثتهم يتماشون إلى الجامع ، فدخلوا دار الخطابة فاجتمعوا هناك ، وضيفهما الشافعى ، ثم حضرا خطبته الحافلة البليغة الفصيحة ، ثم خرجوا ثلاثتهم من جوا إلى دار المالكى ، فاجتمعوا هنالك وضيفهم المالكى هنالك ما تيسر . والله الموفق للصواب .

وفى أوائل هذا الشهر وردت المراسيم الشريفة السلطانية من الديار المصرية بأن يجعل للأمير من إقطاعه النصف خاصا له ، وفى النصف الآخر يكون لأجناده ، فحصل بهذا رفق عظيم بالجند ، وعدل كثير ولله الحمد ، وأن يتجهز الأجناد ويحرصوا على السبق والرمى بالنشاب ، وأن يكونوا مستعدين متى استنفروا نفروا ، فاستعدوا لذلك وتأهبوا لقتال الفرنج ، كما قال الله تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) الآية . وثبت فى الحديث أن رسول الله ﷺ قال على المنبر « ألا إن القوة الرمى » . وفى الحديث الآخر « ارموا واركبوا وأن ترموا أحب إلى » .

وفى يوم الاثنين بعد الظهر عقد مجلس بدار السعادة للكشف على قاضى القضاة جمال الدين المرداوى الحنبلى بمقتضى مرسوم شريف ورد من الديار المصرية بذلك ، وذلك بسبب ما يعتمده كثير من شهود مجلسه من بيع أوقاف لم يستوف فيها شرائط المذهب ، وإثبات إعسارات أيضا كذلك وغير ذلك انتهى .

﴿ الوقعة بين الأمراء بالديار المصرية ﴾

وفى العشر الأخير من جمادى الآخرة ورد الخبر بأن الأمير الكبير يلبغا الخاصكى خرج عليه

جماعة من الأمراء مع الأمير سيف الدين طيبغا الطويل ، فبرز إليهم إلى قبة القصر فالتقوا معه هنالك ، فقتل جماعة وجرح آخرين ، وانفصل الحال على مسك طيبغا الطويل وهو جريح ، ومسك أرغون السعردى الدويدار ، وخلق من أمراء الألوف والطبلخانات ، وجرت خبطة عظيمة استمر فيها الأمير الكبير يلبغا على عزه وتأييده ونصره ولله الحمد والمنة . وفى ثانى رجب يوم السبت توجه الأمير سيف الدين بيدمر الذى كان نائب دمشق إلى الديار المصرية بطلب الأمير يلبغا ليؤكد أمره فى دخول البحر لقتال الفرنج وفتح قبرص إن شاء الله ، انتهى والله تعالى أعلم .

﴿ مما يتعلق بأمر بغداد ﴾

أخبرنى الشيخ عبد الرحمن البغدادى أحد رؤساء بغداد وأصحاب التجارات ، والشيخ شهاب الدين العطار ـ السمسار فى الشرب بغدادى أيضا ـ أن بغداد بعد أن استعادها أويس ملك العراق وخراسان من يد الطواشى مرجان ، واستحضره فأكرمه وأطلق له ، فاتفقا أن أصل الفتنة من الامير أحمد أخو الوزير ، فأحضره السلطان إلى بين يديه وضربه بسكين فى كرشه فشقه ، وأمر بعض الأمراء فقتله ، فانتصر أهل السنة لذلك نصرة عظيمة ، وأخذ خشبته أهل باب الأزج فأحرقوه وسكنت الأمور وتشفوا بقتل الشيخ جمال الدين الأنبارى الذى قتله الوزير الرافضى فأهلكه الله بعده سريعا انتهى .

﴿ وفاة قاضى القضاة عز الدين عبد العزيز بن حاتم الشافعى ﴾

وفى العشر الأول من شهر شعبان قدم كتاب من الديار المصرية بوفاة قاضى القضاة بدر الدين محمد ابن جماعة بمكة شرفها الله ، فى العاشر من جمادى الآخرة ودفن فى الحادى عشر فى باب المعلى وذكروا أنه توفى وهو يقرأ القرآن ، وأخبرنى صاحب الشيخ محيى الدين الرحبى حفظه الله تعالى أنه كان يقول كثيراً : أشتهى أن أموت وأنا معزول ، وأن تكون وفاتى بأحد الحرمين ، فأعطاه الله ماتمناه : عزل نفسه فى السنة الماضية ، وهاجر إلى مكة ، ثم قدم المدينة لزيارة رسول الله ﷺ ، ثم عاد إلى مكة ، وكانت وفاته بها فى الوقت المذكور ، فرحمه الله وبل بالرحمة ثراه . وقد كان مولده فى سنة أربع وتسعين ، فتوفى عن ثلاث وسبعين سنة ، وقد نال العز عزا فى الدنيا ورفعة هائلة ، ومناصب وتداريس كبار ، ثم عزل نفسه وتفرغ للعبادة والمجاورة بالحرمين الشريفين ، فيقال له ماقلته فى بعض المراثى. فكأنك قد أعلمت بالموت حتى * تزودت له من خيار الزاد .

وحضر عندى فى يوم الثلاثاء تاسع شوال البترك بشارة الملقب بميخائيل ، وأخبرنى أن المطارنة بالشام بايعوه على أن جعلوه بتركا بدمشق عوضا عن البترك بانطاكية ، فذكرت له أن هذا أمر مبتدع فى دينهم ، فانه لاتكون البتاركة إلا أربعة بالاسكندرية وبالقدس وبانطاكية وبرومية ، فنقل بترك

رومية إلى اسطنبول وهى القسطنطينية ، وقد أنكر عليهم كثير منهم إذ ذاك ، فهذا الذى ابتدعوه فى هذا الوقت أعظم من ذلك . لكن اعتذر بأنه فى الحقيقة هو عن إنطاكية ، وإنما أذن له فى المقام بالشام الشريف لأجل أنه أمره نائب السلطنة أن يكتب عنه وعن أهل ملتهم إلى صاحب قبرص ، يذكر له ما حل بهم من الخزى والنكال والجناية بسبب عدوان صاحب قبرص على مدينة الاسكندرية ، وأحضر لى الكتب إليه وإلى ملك اسطنبول وقرأها على من لفظه لعنه الله ولعن المكتوب إليهم أيضا . وقد تكلمت معه فى دينهم ونصوص ما يعتقده كل من الطوائف الثلاثة ، وهم الملكية واليعقوبية ومنهم الافرنج والقبط ، والنسطورية ، فاذا هو يفهم بعض الشيء ، ولكن حاصله أنه حمار من أكفر الكفار لعنه الله .

وفى هذا الشهر بلغنا استعادة السلطان أويس ابن الشيخ حسن ملك العراق وخراسان لبغداد من يد الطواشى مرجان الذى كان نائبه عليهما ، وامتنع من طاعة أويس ، فجاء إليه فى جحافل كثيرة فهرب مرجان ودخل أويس إلى بغداد دخولا هائلا ، وكان يوما مشهودا .

وفى يوم السبت السابع والعشرين من شعبان قدم الأمير سيف الدين بيدمر من الديار المصرية على البريد أمير مائة مقدم ألف ، وعلى نيابة يلبغا فى جميع دواوينه بدمشق وغيرها ، وعلى إمارة البحر وعمل المراكب ، فلما قدم أمر بجمع جميع النشارين والنجارين والحدادين وتجهيزهم لبيروت لقطع الأخشاب ، فسيروا يوم الأربعاء ثانى رمضان وهو عازم على اللحاق بهم إلى هنالك وبالله المستعان . ثم أتبعوا بآخرين من نجارين وحدادين وعتالين وغير ذلك ، وجعلوا كل من وجدوه من ركاب الحمير ينزلونه ويركبوا إلى ناحية البقاع ، وسخروا لهم من الصناع وغيرهم ، وجرت خبطة عظيمة وتباكى عوائلهم وأطفالهم ، ولم يسلفوا شيئا من أجورهم ، وكان من اللائق أن يسلفوه حتى يتركوه إلى أولادهم .

وخطب برهان الدين المقدسى الحنفى بجامع يلبغا عن تقى الدين ابن قاضى القضاة شرف الدين الكفرى ، بمرسوم شريف ومرسوم نائب صفد استدمر أخى يلبغا ، وشق ذلك عليه وعلى جده وجماعتهم ، وذلك يوم الجمعة الرابع من رمضان ، هذا وحضر عنده خلق كثير .

وفى يوم الخميس الرابع والعشرين منه قرئ تقليد قاضى القضاة شرف الدين بن قاضى الجبل لقضاء الحنابلة ، عوضا عن قاضى القضاة جمال الدين المرداوى ، عزل هو والمالكى معه أيضا ، بسبب أمور تقدم نسبتها لهما وقرئ التقليد بمحراب الحنابلة ، وحضر عنده الشافعى والحنفى ، وكان المالكى معتكفا بالقاعة من المنارة الغربية ، فلم يخرج إليهم لأنه معزول أيضا برأى قاضى حماة ، وقد وقعت شرور وتخبيط بالصالحية وغيرها .

وفى صبيحة يوم الأربعاء الثلاثين من شهر رمضان خلع على قاضى القضاة سرى الدين إسماعيل المالكى ، قدم من حماة على قضاء المالكية ، عوضاً عن قاضى القضاة جمال الدين المسلاتى ، عزل عن المنصب ، وقرىء تقليده بمقصورة المالكية من الجامع ، وحضر عنده القضاة والاعيان .

وفى صبيحة يوم الأربعاء سابع شوال قدم الأمير خيار بن مهنا إلى دمشق سامعاً مطيعاً ، بعد أن جرت بينه وبين الجيوش حروب متطاولة ، كل ذلك ليطأ البساط ، فأبى خوفا من المسك والحبس أو القتل ، فبعد ذلك كله قدم هذا اليوم قاصداً الديار المصرية ليصطلح مع الأمير الكبير يلبغا ، فتلقاه الحجبة والمهمندارية والخلق ، وخرج الناس للفرجة ، فنزل القصر الأبلق ، وقدم معه نائب حماة عمر شاه فنزل معه ، وخرج معه ثانى يوم إلى الديار المصرية. وأقرأنى القاضى ولى الدين عبدالله وكيل بيت المال كتاب والده قاضى القضاة بهاء الدين ابن أبى البقاء قاضى قضاة الشافعية بالديار المصرية ، أن الأمير الكبير جدد درساً بجامع ابن طولون فيه سبعة مدرسين للحنفية ، وجعل لكل فقيه منهم فى الشهر أربعين درهماً ، وأردب قمح ، وذكر فيه أن جماعة من غير الحنفية انتقلوا إلى مذهب أبى حنيفة لينزلوا فى هذا الدرس .

﴿ درس التفسير بالجامع الأموى ﴾

وفى صبيحة يوم الأربعاء الثامن والعشرين من شوال سنة سبع وستين وسبعمائة حضر الشيخ العلامة الشيخ عماد الدين بن كثير درس التفسير الذى أنشأه ملك الأمراء نائب السلطنة الأمير سيف الدين منكلى بغا رحمه الله تعالى من أوقاف الجامع الذى جددها فى حال نظره عليه أثابه الله ، وجعل من الطلبة من سائر المذاهب خمسة عشر طالباً لكل طالب فى الشهر عشرة دراهم ، وللمعيد عشرون ولكاتب الغيبة عشرون ، وللمدرس ثمانون ، وتصدق حين دعوته لحضور الدرس ، فحضر واجتمع القضاة والأعيان ، وأخذ فى أول تفسير الفاتحة ، وكان يوماً مشهوداً ولله الحمد والمنة ، وبه التوفيق والعفة انتهى . (١) قضاة الحنابلة الشيخ شرف الدين أحمد بن الحسن بن قاضى الجبل المقدسى ، وناظر الدواوين سعد الدين بن التاج إسحق ، وكاتب السر فتح الدين بن الشهيد ، وهو شيخ الشيوخ أيضاً ، وناظر الجيوش الشامية برهان الدين بن الحلى ، ووكيل بيت المال القاضى ولى الدين بن قاضى القضاة بهاء الدين أبى البقاء . انتهى .

﴿ سفر نائب السلطنة إلى الديار المصرية ﴾

لما كانت ليلة الحادى والعشرين قدم طشتمر دويدار يلبغا على البريد ، فنزل بدار السعادة ، ثم

(١) كذا بنسخ الاستانة وفى المصرية بياض نصف صفحة من الأصل .وهذا يدل على أن هذا الكلام من تأليف تلميذ ابن كثير وسقط كلام فيه أول السنة .

ركب هو ونائب السلطنة بعد العشاء الأخيرة فى المشاعل ، والحجبة بين أيديهما والخلائق يدعون لنائبهم ، واستمروا كذلك ذاهبين إلى الديار المصرية ، فأكرمه يلبغا وأنعم عليـه وسأله أن يكون ببـلاد حلب ، فأجابه إلى ذلك وعاد فنزل بدار سنجر الاسماعيلى ، وارتحل منها إلى حلب ، وقد اجتمعت به هنالك وتأسف الناس عليـه ، وناب فى الغيبة الأمير سيف الدين زبالة ، إلى أن قدم النائب المعز السيفى قشتمر عبـد الغنى على ما سيأتى . وتوفى القاضى شمس الدين بن منصور الحنفى الذى كان نائب الحـكم رحمه الله يوم السبت السادس والعشرين من المحرم ، ودفن بالباب الصغير ، وقد قارب الثمانين .

وفى هذا اليوم أو الذى بعـده توفى القاضى شهاب الدين أحمـد ابن الوزوازة ناظر الأوقاف بالصالحية . وفى صبيحة يوم الجمعة ثالث صفر نودى فى البلد أن لا يتخلف أحد من أجناد الحلقة عن السفر إلى بيروت ، فاجتمع النـاس لذلك فبادر الناس والجيش ملبسين إلى سـطح المزة ، وخرج ملك الأمراء أمير عـلى كان نائب الشام من داره داخـل باب الجابية فى جماعته ملبسين فى هيئة حسنة وتجمل هائل ، وولده الأمير ناصر الدين محمد وطلبه معه ، وقد جاء نائب الغيبة والحجبة إلى بين يديه إلى وطاقـه وشاوروه فى الأمر ، فقال : ليس لى هاهنـا أمر ، ولـكن إذا حضر الحرب والقتال فلى هناك أمر ، وخرج خلق من الناس متبرعين ، وخطب قاضى القضاة تاج الدين الشافعى بالناس يوم الجمعة على العادة ، وحرض الناس على الجهاد ، وقد ألبس جماعة من غلمانه اللأمة والخوذ وهو على عزم المسير مع الناس إلى بيروت ولله الحمد والمنة . ولما كان من آخر النهار رجع الناس إلى منازلهم وقد ورد الخبر بأن المراكب التى رؤيت فى البحر إنمـا هى مراكب تجار لا مراكب قتال ، فطابت قلوب الناس ، ولكن ظهر منهم استعداد عظيم ولله الحمد .

وفى ليلة الأحد خامس صفر قدم بالأمير سيف الدين شرشى الذى كان إلى آخر وقت نائب حلب محتاطا عليه بعد العشاء الآخرة إلى دار السـعادة بدمشق ، فسـير معزولا عن حلب إلى طرابلس بطالا ، وبعث فى سرجين صحبة الأمير علاء الدين بن صبيح .

وبلغنا وفاة الشيخ جمال الدين بن نباتة حامـل لواء شعراء زمانه بديار مصر بمرسـتان الملك المنصور قلاوون ، وذلك يوم الثلاثاء سابع صفر من هذه السنة رحمه الله تعالى . وفى ليلة ثامنه هرب أهل حبس السد من سجنهم وخرج أكثرهم فأرسل الولاة صبيحة يومئذ فى أثرهم فمسك كثير ممن هرب فضربوهم أشد الضرب ، وردوهم إلى شر المنقلب .

وفى يوم الأربعاء خامس عشره نودى بالبلدان أن لا يعامل الفرنج البنادقة والجنوية والكيتلان واجتمعت فى آخر هذا اليوم بالأمير زين الدين زبلة نائب الغيبـة النازل بدار الذهب فأخبرنى أن

البريدى أخبره أن صاحب قبرص رأى فى النجوم أن قبرص مأخوذة ، فجهز مركبين من الأسرى الذين عنده من المسلمين إلى يلبغا ، ونادى فى بلاده أن من كتم مسلما صغيراً أو كبيراً قتل ، وكان من عزمه أن لا يبقى أحداً من الأسارى إلا أرسله .

وفى آخر نهار الأربعاء خامس عشره قدم من الديار المصرية قاضى القضاة جمال الدين المسلاتى المالكى الذى كان قاضى المالكية فعزل فى أواخر رمضان من العام الماضى، فحج ثم قصد الديار المصرية فدخلها لعله يستغيث فلم يصادفه قبول ، فادعى عليه بعض الحجاب وحصل له ما يسوءه ، ثم خرج إلى الشام فجاء فنزل فى التربة الكاملية شمالى الجامع ، ثم انتقل إلى منزل ابنته متمرضا ، والطلابات والدعاوى والمصالحات عنه كثيرة جداً . فأحسن الله عاقبته .

وفى يوم الأحد بعد العصر دخل الأمير سيف الدين طيبغا الطويل من القدس الشريف إلى دمشق فنزل بالقصر الأبلق . ورحل بعد يومين أو ثلاثة إلى نيابة حماة حرسها الله بتقليد من الديار المصرية ، وجاءت الاخبار بتولية الأمير سيف الدين منكلى بغا نيابة حلب عوضاً عن نيابة دمشق وأنه حصل له من التشريف والتكريم والقشاريف بديار مصر شئ كثير ومال جزيل وخيول وأقمشة وتحف يشق حصرها ، وأنه قد استقر بدمشق الأمير سيف الدين اقشتمر عبد الغنى ، الذى كان حاجب الحجاب بمصر ، وعوض عنه فى الحجوبية الامير علاء الدين طيبغا أستاذ دار يلبغا وخلع على الثلاثة فى يوم واحد .

وفى يوم الأحد حادى عشر ربيع الأول اشتهر فى البلد قضية الفرنج أيضا بمدينة الاسكندرية وقدم بريدى من الديار المصرية بذلك ، واحتيط على من كان بدمشق من الفرنج وسجنوا بالقلعة وأخذت حواصلهم . وأخبرنى قاضى القضاة تاج الدين الشافعى يومئذ أن أصل ذلك أن سبعة مراكب من التجار من البنادقة من الفرنج قدموا إلى الاسكندرية فباعوا بها واشتروا . وبلغ الخبر إلى الأمير الكبير يلبغا أن مركبا من هذه السبعة إلى صاحب قبرص ، فأرسل إلى الفرنج يقول لهم : أن يسلموا هذه المركب فامتنعوا من ذلك وبادروا إلى مراكبهم . فأرسل فى آثارهم ستة شوانى مشحونة بالمقاتلة ، فالتقوا هم والفرنج فى البحر فقتل من الفريقين خلق ولكن من الفرنج أكثر وهربوا فارين بما معهم من البضائع (١) فجاء الأمير على الذى كان نائب دمشق أيضاً فى جيش مبارك ومعه ولده ومماليكه فى تجمل هائل، فرجع الأمير على واستمر نائب السلطة حتى وقف على بيروت ونظر فى أمرها ، وعاد سريعاً . وقد بلغنى أن الفرنج جاؤا طرابلس غزاة وأخذوا مركبا للمسلمين من المينا وحرقوه، والناس ينظرون ولا يستطيعون دفعهم ولا منعهم ، وأن الفرنج كروا راجعين ، وقد أسروا

(١) كذا بالأصول التركية و بالمصرية بياض حول ثلاث صفحات بالاصل .

ثلاثة من المسلمين ، فانا لله و إنا إليه راجعون . انتهى والله أعلم .

﴿ مقتل يلبغا الأمير الكبير ﴾

جاء الخبر بقتله إلينا بدمشق فى ليلة الاثنين السابع عشر من ربيع الآخر مع أسيرين جاءا على البريد من الديار المصرية ، فأخبرا بمقتله فى يوم الاربعاء ثانى عشر هذا الشهر : تمالأ عليه مماليكه حتى قتلوه يومئذ ، وتغيرت الدولة ومسك من أمراء الألوف والطبلخانات جماعة كثيرة ، واختبطت الأمور جداً ، وجرت أحوال صعبة ، وقام بأعباء القضية الأمير سيف الدين طيتمر النظامى وقوى جانب السلطان ورشد ، وفرح أكثر الأمراء بمصر بما وقع ، وقدم نائب السلطنة إلى دمشق من بيروت فأمر بدق البشائر ، وزينت البلد ففعل ذلك ، وأطلقت الفرنج الذين كانوا بالقلعة المنصورة فلم يهن ذلك على الناس .

وهذا آخر ماوجد من التاريخ والحمد لله وحده ، وصلواته على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم

الحمد لله الذى خلق السموات والأرض ، وسخر الشمس والقمر ، وجعل الليل والنهار آيتين من آياته وليعلم بهما العباد عدد السنين والحساب ، وأصلى وأسلم على سيدنا محمد النبى المصطفى ، والحبيب المجتبى الذى كان ميلاده آية من آيات ربه ، تنكست به الأصنام ، واندك له إيوان كسرى ، وغار به ماء ساوة ، وكانت رسالته نوراً للعالمين ، و إظهاراً للدين الحق ، وسحقا للاديان الباطلة التى نسخت بدينه ، كما كانت هجرته مبدأ تاريخ المسلمين ، و إبطالا للعمل بالتواريخ السالفة فى الامم الماضية .

(أما بعد) فيقول العبد الفقير ، الذليل الحقير ، خادم العلم وعلماء الملة الحنيفة المرضية المصحح بالمطبعة الآتى ذكرها : لقد تم بحمد الله تعالى طبع الجزء الرابع عشر من كتاب « البداية والنهاية » للعلامة ابن كثير ، و به تم القسم الاول من كتابه وهو المسمى بالبداية ، إذ أن المصنف رحمه الله جعل كتابه قسمين الاول فى الكلام على الخلائق والكائنات من بدء الخلق إلى الهجرة النبوية ، و رتب مابعد ذلك على السنين الهجرية إلى قبيل وفاته ، وسمى هذا القسم « البداية » والقسم الثانى فى الكلام على الفتن والملاحم فى آخر الزمان وسماه «النهاية» وسيكون أول الجزء الخامس عشر. وذلك بالمطبعة السعيدة العامرة « مطبعة السعادة » لصاحبها ومديرها الحاج محمد إسماعيل ، أقر الله عينه بنجله العزيز إسماعيل وبقية أولاده وأبقاه لهم وحفظهم عليه ، ومتعه و إياهم بالصحة والرفاهية ، وأعانه على عمل الخيرات وطبع مثل هذا الكتاب من المهمات التى يحتاجها كل مسلم ومتعلم وعالم . كان الفراغ من طبع هذا الجزء فى يوم الخميس سابع عشر ذى القعدة من سنة ١٣٥٨ هجرية ، وكان يوم خروج المحمل المصرى إلى البلاد الحجازية على ساكنها المصطفى أتم الصلاة وأزكى التحية . اهـ المصحح

عبد الحفيظ سعد عطية

فهرست

﴿ الجزء الرابع عشر من البداية والنهاية ﴾

﴿ تم الفهرس والحمد لله ﴾

